

تصدر في ندوة العلماء. لكهنو (الهند)

أنشأها فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني في عام ١٩٥٥م

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

عدد ممتاز

الأركان الأربعة

المجلد السابع والعشرون

العددان الأول والثاني

رمضان و شوال ١٤٠٢هـ

يوليو و أغسطس ١٩٨٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا خص رمضان بالصوم ؟

« جعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر ، مرتبطاً به ، فتلازم قران السعدين و التقاء السعادتين في حكمة التشريع ، و ذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق ، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقرن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم . و كان أحق شهور الله به — بما خصه الله من يمن و سعادة و بركة و رحمة ، و بما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفية روحية — بأن يصام نهاره ، و يقام ليله »

أبو الحسن علي الحسني الندوي

في « الأركان الأربعة »



البعث الإسلامي ندوة العلماء ص.ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

ALBAAS-EL-ISLAMI Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (India)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية

العدد الممتاز عن
الإسلام و المستشرقين ، لماذا ؟؟

موضوع الاستشراق و المستشرقين ليس غريباً لدى الأوساط العلمية و الدينية في أي بلد مسلم ، فقد استرعى انتباه علماء الاسلام منذ أن وجد في الشرق الاسلامي ، لما رأوا أن دراسات المستشرقين للاسلام لاتخلو عن نوع من التدسيس و التحريف بجنب ما يقومون به من تحقيق علمي أو اكتشاف تاريخي ، ذلك أن العمل الاستشراقي لم يقم فيما بعد على النوايا الخالصة العلمية فحسب ، ولكن أصبح مزيجاً من الحق والباطل ، و إن كان الباطل من القلة و الضآلة بحيث لايعبأ به بإزاء الحق الكثير ، و الصدق الناصع الذي يضمه إلا أن أقل شيء من الباطل أو الكذب يكفي لهدم أكبر حقيقة والقضاء على أعظم صنيع علمي و تاريخي .

كثير من المسلمين ممن يشتغلون بالدراسات و التحقيق في مجال الثقافة الاسلامية أو التاريخ الاسلامي يرون أن المستشرقين قد أسدوا الى المسلمين بالعجب فيما يتعلق بالمواضيع الحساسة من السيرة و تفسير الكتاب و التاريخ الاسلامي ، و أثروا المكتبة الاسلامية بدراساتهم الأكاديمية و بجهودهم الضخمة ، و لكنهم يغفلون في نفس الوقت أن المستشرقين لم يفعلوا ذلك بدافع تحقيق أو باعث علمي فحسب ، ولكنهم بحثوا على طول الخط عن مواطن ضعف أو مواقع نقص تمكن تشويه التاريخ الاسلامي إثرها و وصمه بوصمة النقص و عدم الثقة ، أنهم تظاهروا بالاخلاص و التجرد عن الهوى و الانحياز ، لكون ذلك هو اللون السائد ما يبيح إجلالهم ولا يمحو هـ

إلا بهذا اللون الجذاب ، بيـــد أن الواقع يكذب ذلك ، و أنهم « خلطوا عملا صالحاً و آخر سيئاً » اللهم إلا من تناوله العطف الالهى خلال عمله الاستشراق و اهتدى إلى نور الاسلام ، فلم يدس و لم يحرف ، و ورد شرعة الدين الحنيف بتوفيق من ربه ، و لكنهم قليلون .. ...

و قد وفق مجمع الهند الاسلامی الكبير « دار المصنفين » فی مدينة أعظم كره (الهند) إلى عقد ندوة علمية حول الاسلام و المستشرقين باشراف رئيسها العلامة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، فی شهر فبراير المنصرم . و كانت أول ندوة علمية تعقد حول هذا الموضوع ، فكانت بادرة علمية طيبة رحبت بها جميع الأوساط العلمية والثقافية فى العالم الاسلامی ، وشاركها علماء المسلمين البارزين من دول كثيرة ببحوثهم و كتاباتهم و بأفكارهم و آرائهم ، و حضرها المندوبون ، منهم الذين مثلوا مراكز علمية و ثقافية و دينية و مؤسسات إسلامية لها أهميتها العالمية . فكان ملتقى فكرياً وعلمياً تميز بالهدوء و بالموضوعية ، و أسفر عن نتيجة هادفة حول الموضوع ، و قد جاء ذكرها بتفصيل فيما نشرناه فی الأعداد السابقة من المجلة ضمن قرارات الندوة و توصياتها .

خطورة الموضوع كانت تتطلب من زمن بعيد أن يعطى الموضوع حقه من التفكير مع إبراز ما فيه من جوانب حسنة جديرة بالشكر والاهتمام تشكر ويهتم بها ، و هی كثيرة كما أشرنا إلى ذلك ، و لكنها تتضمن فی خباياها ما يضفی عليها لونا من الإنكار وعدم الاكتراث و الرغبة عنها ، تارة بالكناية و أخرى بالصراحة ، الأسلوب الذى لا يتفق مع أسلوب التحقيق و البحث و الاكتشاف ، وقد ركز مجمع « دار المصنفين » على البحث فيما يتصل بالمستشرقين و أفكارهم وبحوثهم العلمية منذ أول نشأته ، ولديه فی ذلك مجموعة من الأبحاث و الدراسات ، قام بها كبار علمائه وكتابه وباحثيه ، إلا أن الموضوع كان بحاجة أكيدة إلى أكثر من ذلك .

و اشتدت هذه الحاجة فی العصر الراهن نظراً إلى كثرة الباحثين و الكتاب حول الاسلام وتاريخه فی جامعات العالم و مراكز العلم والثقافة فی الشرق والغرب

على السواء ، ولا يخفى على الخبير أن جل اعتماد هؤلاء القوم على بحوث و كتابات وتحقيقات المستشرقين المنبثين فى الجامعات العالمية كلها ، والمندسين فى الجامعات العلمية فى الدول الاسلامية بأسماء مستعارة و عناوين و لافتات متعددة خلابة ليتسنى لهم من ورائها العمل على إضعاف الاسلام بالتغيير فى التاريخ الاسلامى وإدخال تزويرات فى السيرة النبوية .

فكانت هذه الندوة العلمية الهادفة حول الاسلام و المستشرقين تحقيقاً للحاجة الأكيدة ، فقد لفتت الأنظار إلى أهمية الموضوع و التركيز عليه من جميع النواحى و أثارت يقظة علمية فى دوائر البحث و التحقيق و أوساط العلماء الباحثين ، و أخطرت أن الموضوع يضم فى زواياه أكثر من معول هدام ، رغم الاعتراف بجهود المستشرقين فى إثارة الدفائن و إلباس مخطوطات منطوية على أذيال الغفلة و الهجران لباس التحقيق و الطبع .

أشار إلى هذه النقطة الحساسة للموضوع سماحة مولانا أبى الحسن على الحسنى الندوى فى كلمته التى ألقاها فى هذه الندوة الموقرة ، و التى يتصدر بها هذا العدد الممتاز ، بالرغم من اعترافه ببعض جهود المستشرقين العلمية الموضوعية ، يقول :

« و رغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنعنى شئ فى هذا المجلس العلمى الموقر ، من أن أصرح بأن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف فى الشريعة الاسلامية ، و الحضارة والتاريخ الاسلامى ، و إبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فكان شأنهم فى ذلك شأن من لا يرى فى مدينة ذات بهجة و نضارة ، و نظام و نظافة ، إلا مزابل و مراحيض و مستنقعات ، كما هو دأب مفتش الأوساخ و المياه المصرفة (Drain Inspector) فى البلديات و أمانات العواصم ، فيرفع بذلك تقريراً إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارى - بطبيعة الحال - إلا الحديث عن العفونات و الأوساخ .

فنرى كثيراً من المستشرقين يركزون كل جهودهم و مساعيهم على تعريف مواضيع الضعف فى تاريخ الاسلام و مجتمعه و مدنيته حتى فى ديانته و شريعته ،

و تمثيلها فى صورة مروعة مضخمة ، إنهم ينظرون إليهـا عن طريق « المجهر » (Microscope) و يعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا ، و النقطة بحراً ، و قد ظهرت حذاقتهم و ذكاؤهم فى كثير من الكتابات فى تشويه صورة الاسلام ، و يثيرون بذلك فى قلوب قادة العـالم الاسلامى اليوم و زعمائه - ممن تثقفوا فى مراكز الغرب الثقافية الكبرى ، أو درسوا الاسلام بلغات الغرب - شبهات حول الاسلام والمصادر الاسلامية ، ويحدثون فى نفوسهم يأساً عن مستقبل الاسلام ، و مقتا على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، حتى يتركز نشاطهم و حماسهم فى رفع هتاف « تطوير الدين » و « إصلاح القانون الاسلامى » .

« ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون فى أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات - من كل رطب و يابس - ليس لها أى علاقـة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة و التاريخ ، أو الأدب و الشعر ، أو الرواية و القصص ، أو المجون و الفكاهة ، و إن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ، و يقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، و يبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا فى نفوسهم و أذهانهم .

إنهم فى أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً و يجودون لتمكينه فى النفوس ، بذكر عشرة محاسن ليست لها أهمية كبيرة ، وذلك كى يقف القارىء خاشعاً مؤدباً أمام سعة قلوبهم و سماحتهم و يسيغ ذلك العيب الواحد الذى يكفى لطمس جميع المحاسن ، إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية و تاريخهما و عواملها الطبيعية بلباقة و بلاغة ، تصوران أن هذه الدعوة و الشخصية لم تكونا إلا نتاج هذه البيئـة أو العوامل ورد فعلها الطبيعى ، وكأن البركان كان متهيئاً الانفجار ، فتناولته هذه الشخصية بشرارة فانفجر ، فينكر القارىء أى اتصال بمصدر غير مادى ، ولا يعترف لهذه الشخصية أو الدعوة بعظمة أو تأييد إلهى أو إرادة غيبية .

وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون فى كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » و يحترسون فى ذلك . فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم ، حتى يستوحش القارىء

و لا يثير ذلك فيه الحذر ، و لا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، و يشحنون كتبهم بالكذب و الافتراء ، و يصعب على رجل متوسط فى عقليتـه أن يخرج منها ، أو ينتهى فى قراءتها دون الخضوع لها »

وكذلك ماألقى فى الندوة من كلمات مرتجلة أكدت خطورة الموضوع وماله من علاقة ماسة قريبة بمجموعات الشباب الدارسين فى الجامعات ، و الباحثين فى المؤسسات العلمية و المشتغلين بالتحقيق و الكتابة فى المراكز العلمية و الدينيـة و الثقافية ، ولعل التأخير فى هذا العمل الكبير ينذر بأخطار جسيمة تستفحل مع مرور اللحظات فتتمخض بالزيغ و الفساد العقلى ، و قد يجر إلى أكثر من ذلك فيهوى بنا إلى مهوى الضلال و التشكيك فى العقائد الثابتة ، و كم من شباب ذهبوا ضحية الالحاد لمجرد أنهم وقعوا فى شبك الأفكار الزائفة و الدراسات الاستشراقية التى لم يتمكنوا فيها من التمييز بين الغث و السمين ، و معرفـة السموم التى دست فى الجهود العلمية باسم الدراسة و التحقيق .

لا ننكر أن عدداً من المستشرقين تكشفت بصائرهم خلال أعمالهم الدراسية و تغلب نور الايمان على ظلام التحريف و التضليل فاهتدوا بتوفيق من الله تعالى إلى هدى الاسلام . و صدرت منهم دراسات تمثل واقع الاسلام الصحيح فى جميع مناحى الحياة ، و نفت عن التاريخ الاسلامى و السيرة النبوية جميع تلك الأكاذيب و الأباطيل التى حرص عليها المستشرقون و أتباعهم ، و ألصقوها بمصادر العـلم و التشريع و السيرة والأخلاق ، و لكن الجهود الاستشراقية قلما خلت عن النيل من شخصية الاسلام الخالدة و تاريخه الناصع ، فان اللون السائد عليها – على أقل تقدير – هو تقليل أهميته و قيمته و صرف النفوس عنه بوجه عام .

بناء على هذا المنظور الموضوعى نحو الاسلام والمستشرقين عقدنا العزيمة على إصدار عدد ممتاز عن الموضوع يضم أهم البحوث التى وضعت للاشتراك فى هذه الندوة العلميـة بأقلام مؤمنة جرئية لأصحابها العلماء الذين عرفوا باختصاصهم بهذا

الموضوع ، و لذلك فان ما جاء فى هذه البحوث و المقالات من معلومات قيمة ، ودراسات مسندة فى أسلوب أكاديمى تحليلى ، وبيان واضح صريح . جدير بالاعتناء الزائد حتى يلمس القارىء الكريم بدراسة العدد فوائد ذات قيمة تبرهن على أن العدد الممتاز بمحتواه العلمى و الموضوعى حاجة أكيدة للاوساط العلمية و الثقافية التى لاتكاد تستغنى عنها فى أى مرحلة من رحلتها الدائبة القائمة .

لا نقول : إننا بهذا العدد الممتاز قدمنا وثيقة علمية و تاريخية تستوعب جميع مناحى الموضوع ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا العدد العلمى والثقافى وإن كان متواضعاً بشكله الظاهر ، بورقه ، و طباعته و خلوه من الألوان و الصور ، ليس جهداً ضائعاً - باذن الله - و لا عملا ذاهباً أدراج الرياح ، و لعل الله سبحانه يضفى عليه لونا من الاخلاص و النفع و القبول ، و يجعل فيه ضالة من الحكمة و الهداية و الاطلاع على المزيد الجديد .

و سيلمس القارىء الكريم أن بحوث العدد كلها تقوم على أساس هذه الرؤية الواضحة نحو الاسلام والمستشرقين بوجه عام ، فالبحث الأول المركز لسماحة العلامة الندوى يحتوى على نظرة فاحصة دقيقة فى كتابات المستشرقين و بحوثهم ، و كذلك الأبحاث الأخرى التى وضعت بأقلام تحقيقية موضوعية لها قيمتها وأهميتها الكبيرتان فى المجال العلمى و التاريخى ، و كلها بمثابة وثيقة تاريخية وعلمية ذات طابع إسلامى خاص ، تدور حول المستشرقين و القرآن الكريم ، والمستشرقين والسيرة النبوية ، والمستشرقين والتاريخ الاسلامى ، والمستشرقين و السنة النبوية ، والمستشرقين واللغة العربية ، و المستشرقين و التراث و الاسلامى .

ونرجو الله تعالى أن ينفع بهذا العدد الممتاز جميع الجهات المعنية بالموضوع ، و يوفق الجميع لتفهم كيد الأعداء و أباطيلهم و دحضها بحجة الايمان و العمل .

و الله يقول الحق و هو يهدى السبيل ؟

سعيد الأعظمى

الإسلام والمستشرقون

الاسلام و المستشرقون

سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى

تعاليم الاسلام فى الحكم بالعدل
و إقامـــة الوزن بالقسط :

الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله ﷺ .

أما بعد :

فان من أصعب العمليات و أشقها على المشتغلين بالتأليف و البحث و التحقيق الذين يعرفون قيمة العلم ومدى عناء المؤلف و الباحث فى تأليفه وبحثه ، و إجهاده للنفس ، و استنفاده لطاقته وجهوده فى إخراج الكتاب فى أتم شكل ، و الوصول إلى نتائج علمية ثابتة ، هو الحكم على طبقة أو جماعة علمية حكماً قاسياً جائراً ، وغمط الحق معهم ، و الطمس على محاسنهم إطلاقاً ، و قياسهم بمقياس واحد .

و من المعلوم أن طبقة العلماء و الباحثين الحقيقيين قديماً و حديثاً ، امتازوا من بين طبقات المشتغلين بصناعة واحدة ، والمشاركين فى فن واحد ، برحابة الصدر وسعة النظر وسلامة القلب ، والاعتراف بالفضل ، و الاستفادة من جهود الأولين بل المعاصرين ، بل من كان دونهم فى السن و الطبقة ، و طول الممارسة لصناعة التأليف و البحث ، و إن أكثر ما تتنافى هذه القسوة و نكران الجميل ، و جحد

الحق و الفضل ، تتنافى مع تعاليم القرآن و آداب الاسلام ، فالقرآن يقول :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس تحكموا بالعدل ط إن الله نعما يعظكم به ط إن الله كان سميعاً بصيراً (١) »

و يقول :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى (٢) »

و يقول :

« و أقيموا الوزن بالقسط و لا تخسروا الميزان (٣) »

و إذا كان لا بد من نقد و تقييم لعمل علمى أو تحقيق لباحث و الاختلا عنه ، أو نقضه و تزييفه ، أو تبيين الخطأ فيه ، فليكن ذلك فى أسلوب علمى ، و نزيه ، وبنسبة عادلة معقولة ، فالضرورات ـ كما يقول فقهاء الاسلام ـ تقدر بقدر

اعتراف ببعض جهود المستشرقين العلمية الموضوعية :

لذلك اعترف بكل وضوح وصراحة أن عدداً من المستشرقين كرسوا حيا و طاقاتهم على دراسة العلوم الاسلامية ، و تبنوا موضوع الشرقيات و الاسلاميا بدون تأثير عوامل سياسية واقتصادية أو دينية ، بل لمجرد ذوقهم و شغفهم بالعلم و بذلوا فيه جهوداً ضخمة ، و يكون من المكابرة و التقصير أن لا ينطلق اللس بمدحها و الثناء عليها ، و بفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم و المعارف ا لم ترضوء الشمس منذ قرون ، إلى النشر والاذاعة ، و أصبحت مصونة من الور

---

(١) سورة النساء ٥٨ . (٢) سورة المائدة ٨ .

(٣) سورة الرحمن ٩ .

الجاهلين ، و ساعة الأرضة ، و كم من مصادر علمية و وثائق تاريخية ، لها مكانتها و قيمتها ، صدرت لأول مرة بفضل جهودهم و همتهم و قرت بها عيون العلماء فى الشرق .

يجدر بالذكر منهم – على سبيل المثال و من غير استيعاب – البروفيسور ت – و – آرنلد T. W. Arnold صاحب الكتاب القيم The Preaching of– Islam (الدعوة إلى الاسلام) واستانلى لين بول Stanley Lane – Poole صاحب كتاب Saladin (صلاح الدين الأيوبى) و Moors in Spain (العرب فى الأندلس) و الدكتور اسبرنجر Dr. Aloys Sprenger صاحب المقدمة الانجليزية النفيسة لكتاب « الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى » طبع المجمع الآسيوى الملكى بكلكته ، و ادوارد لين (Edward William Lane) صاحب المعجم الكبير المنسوب إليه المعروف بـ (Arabic – English Lexicon) لشرح المواد العربية باللغة الانجليزية ، شرحاً موسعاً يعتمد عليه ويستفيد منه كثير من علماء اللغة العربية و النحو ، طبعت ثلاثة من أجزائه التسعة بعد وفاته ، و ا ى ونسنك – A. J.) (Wensinck – صاحب المعجم المفهرس العام التفصيلى الذى وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة وكتب السيرة و المغازى المشهورة (١) ، و رتب كتابه على المعانى و المسائل العلمية و الأعلام التاريخية و رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم ، و قد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ فؤاد عبد الباقى و سماه « مفتاح كنوز السنة » و قدم له العلامة السيد رشيد رضا و العلامة أحمد محمد شاكر .

(١) ليرجع إلى أسمائهم و أسماء الكتب و طريق المؤلف فى التأليف فى مقدمات الكتاب .

وأشرف الأستاذ ونسنك كذالك على ترتيب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى (١) الذى رتبه و نظمه لفيف من المستشرقين ، و نشره الدكتور فى سنة ١٩٣٦م ، و الاستفادة منه سهلة ميسورة جداً ، و قد جاء هذا الكتاب فى سبعة مجلدات كبار .

و ج . ب . استرنج (G. B. Strenge) صاحب كتاب ـ Lands of The Eastern Caliphate) ـ جغرافية الخلافة الشرقية .

وكلها مؤلفات وبحوث (٢) تدل على عناء المؤلفين ودراساتهم المضنية الخاصة للموضوع ، المتجردة ـ فى أغلب الأحوال ـ عن العصبية الدينية ومجانبة الحق .

تصيد مواضع الضعف و العورات
فى كتابات كثير من المستشرقين :

و رغم هذا الاعتراف بفضلهم و علمهم لا يمنعنى شئ فى هذا المجلس العلمى الموقر ، من أن أصرح بأن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف فى الشريعة الاسلامية ، و الحضارة و التاريخ الاسلامى ، و إبرازها لأي غاية سياسية أو دينية ، فكان شأنهم فى ذلك شأن من لا يرى فى مدينة ذات بهاء و نضارة ، و نظام ونظافة ، إلا مزابل و مراحيض و مستنقعات ، كما هو دأب

(١) وهى التى وردت فى الكتب الستة ، ومسند الدارمى وموطأ مالك و مسند أحمد بن حنبل .

(٢) اقتصر صاحب البحث على مؤلفات المستشرقين بالانجليزية التى خلت ـ بصفة عامة ـ من طعن فى الاسلام وصاحب رسالته ـ عليه الصلاة و السلام ـ و تحريف للحقائق ، و لم يتعرض للكتب المؤلفة فى غيرها من اللغات الأوربية ـ كالفرنسية والالمانية والهولندية ـ لعدم معرفته بها معرفة شخصية .

مفتش الأوساخ و المياه المصرفة (Drain Inspector) فى البلديات و أمانات العواصم ، فيرفع بذلك تقريراً إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارىء - بطبيعة الحال - إلا الحديث عن العفونات و الأوساخ .

فنرى كثيراً من المستشرقين يركزون كل جهودهم و مساعيهم على تعريف مواضع الضعف فى تاريخ الاسلام و مجتمعه و مدنيته ، حتى فى ديانته و شريعته ، و تمثيلها فى صورة مروعة مضحمة ، إنهم ينظرون إليها عن طريق « المجهر » (Microscope) ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا ، والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم و ذكاؤهم فى كثير من الكتابات فى تشويه صورة الاسلام ، ويثيرون بذلك فى قلوب قادة العالم الاسلامى اليوم وزعمائه - ممن تثقفوا فى مراكز الغرب الثقافية الكبرى ، أو درسوا الاسلام بلغات الغرب - شبهات حول الاسلام و المصادر الاسلامية ، و يحدثون فى نفوسهم يأساً عن مستقبل الاسلام ، ومقتا على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، حتى يتركز نشاطهم و حماسهم فى رفع هتاف « تطوير الدين » و « إصلاح القانون الاسلامى »

« الاستراتيجية » الاستشراقية الدقيقة :

و من دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية و يقررون فى أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات - من كل رطب و يابس - ليس لها أى علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة و التاريخ ، أو الأدب و الشعر ، أو الرواية و القصص ، أو المجون و الفكاهة ، و إن كانت هذه المواد تافهة لاقيمة لها ، و يقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، و يبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا فى نفوسهم و أذهانهم .

إنهم فى أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً و يجودون لتمكينه فى النفوس ،

بذكر عشرة محاسن ليست لها أهمية كبيرة، و ذلك كى يقف القارىء خاشعاً مؤدباً أمام سعة قلوبهم و سماحتهم ، و يسيغ ذلك العيب الواحد الذى يكفى لطمس جميع المحاسن ، إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية و تاريخها و عواملهما الطبيعية بلباقة و بلاغة ، تصوران أن هذه الدعوة و الشخصية لم تكونا إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعى ، و كأن البركان كان متهيأ للانفجار ، فتناولته هذه الشخصية بشرارة فانفجر، فينكر القارىء أى اتصال بمصدر غير مادى، ولا يعترف لهذه الشخصية أو الدعوة بعظمة أو تائيد إلهى أو إرادة غيبية (١) .

و كثير من هؤلاء المستشرقين يدسون فى كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » و يحترسون فى ذلك ، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم ، حتى لا يستوحش القارى و لا يثير ذلك فيه الحذر ، و لا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، و يشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط فى عقليته أن يخرج منها أو ينتهى فى قراءتها دون الخضوع لها .

اعتماد الأوساط العلمية والجامعات
الشرقيـــة على كتب المستشرقين :

و مما يدل على ضعف العالم الاسلامى و العربى و فقر وسائلهما العلمية ، أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين فى المواضيع الاسلامية الخالصة منذ زمن بعيد ، و هى مؤلفات تحتل مكانة « الكتاب المقدس » (Gospel) فى موضوعها ، فان كتاب ر . ا . نكلسن (R. A. Nicholson) فى موضوع تاريخ

---

(١) و هـذا كان شأنهم فى تصوير العصر الجاهلى ، - الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية .

آداب العرب (A Literary History of Arabs) و كتـــاب الدكتور حتى (Dr P. K. Hitti) عن تاريخ العرب و الاسلام (History of Arabs) و كتاب كارل بروكلمـــــان (Carl Brocklemann) فى تاريخ الآداب العربية (Cescht Irder Arabichen Literature) باللغة الألمانية و ترجمتها إلى الانجليزية باسم (The History of Arab Literature) و كتـاب جولد تسيهر (Goluziher) فى العقيدة و الشريعة فى الاسلام ـ Introduction to Islamic) (Theology and Law ـ و كتابه « دراسات إسلامية » ـ Muhammedanische) (Studien Halle ـ وكتاب شاخت (Schacht) فى مصادر الفقه الاسلامى باسم (The Origins of Mohammadans Jurisprudence) و كتاب و ـ س ـ اسمث (W C Smith) فى الاسلام المعاصر واتجاهاته وحركاته ، (Islam In Modern History) وكتاب (A. R. Gibb) (Whither Islam) (وجهة الاسلام) وكتب مونتجمرى وات (Montgomery Watt) فى السيرة النبوية (Mohammad In Mecca) محمد فى مكة (Mohammad In Madina) محمد فى المدينة ، و ـ Mohammad, Prophet) (and Statesman ـ (محمد كنبي وقائد سياسى) .

كل ذلك يخيل إليهم أنه مما ينفرد فى موضوعه ، ويعد مصدراً علمياً له أهميته و قيمته لجامعات الشرق فى قسمها العربى و الاسلامى ، و عليه أكبر اعتماد المؤلفين فى قسم الدراسات الاسلامية (Islamic Studies Department) فى الجامعات.

إن « دائرة المعارف الاسلامية » (Encyclopaedia of Islam) التى ألفها المستشرقون (ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل) و صدرت منها طبعات متعددة تعد أكبر مصدر للعلومات و الحقائق الاسلامية ، و أثمن ذخيرة لها ، و تعتبرها بعض البلاد الاسلامية اليوم أساساً للعلومات الاسلامية ، و تقوم بترجمتها

إلى لغاتها بنصها و فصها ، وكان المتوقع المأمول منها أن تضع موسوعات إسلامية أصيلة بقلم الباحثين المسلمين أصحاب الاختصاص فى الموضوعات الاسلامية (١) .

لا بد من الاكتفاء الذاتى
فى البحث و التأليف :

و لسد تأثير المستشرقين السلبى و إصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الاسلام و رجال البحث و التفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ، و يقدموا للعالم الاسلامى المعلومات الاسلامية المؤكدة ، و وجهة نظر الاسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التى يمتازبها المستشرقون بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم و مؤلفاتهم ممتازة من حيث أصالة التحقيق وسعة الدراسة و عمق النظر و تأكد المصادر و صحتها ، و استدلالها القوى . بالنسبة لكتابات المستشرقين و مؤلفاتهم ، و أن تكون حاملة لجميع نواحى الاتقان و الصحة ، بعيدة عن الأخطاء و النقائص العلمية .

محاسبة كتابات المستشرقين العلمية :

و مما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية و محاسبتها فى ضوء الحقيقة و الواقع حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم ، وأخطائهم فى فهم النصوص وبيان المعنى ، و يبدو للناس ضعف مصادرهم التى يعتمدون عليها ، و أخطاء النتائج التى يستنبطونها منها ، و يطلعوا على ما يضمر كثير منهم فى نفوسهم من عداء الاسلام و ما يكنونه من أغراض سياسية و دينية

(١) مما يجب الاعتراف به أن عمل جامعة بنجاب فى لاهور (باكستان) فى إخراج هذه الموسوعة يتسم بكثير من الأصالة والتنقيح والحذف والزيادة ، حتى أصبح الكتاب مستقلا له قيمته العلمية .

فى خفايا دعوتهم و تربيتهم ، و كل ذلك مؤامرة على الاسلام و الأمة الاسلامية يجب إحباطها (١) .

لا بد من عمل إيجابى بناء :

أما بدون الجمع بين هذا العمل الايجابى الذى يقتضى تأليف كتب تحليلية ، و أبحاث عميقة حول المواضيع الاسلامية مع الاحالة إلى المصادر بضبط و إتقان ، و الفهارس المفصلة المفيدة المتنوعة (و ذلك كله مما يعتبر من خصائص المستشرقين) و الافادة من مواد لم تستخدم بعد ، و كتب و مظان لا يتبادر إليها الذهن ، و ليست فى صميم الموضوع و لا من التاريخ « الرسمى » الذى يدور حول البلاط والأسر الحاكمة والحروب و الحوادث الجسيمة ، وكل ذلك مع تحر للدقة والوجازة والبعد عن التنميق و الاستطراد ، وبين العمل العلمى وهى المحاسبة العلمية فى أسلوب علمى نزيه وكلام وقور رزين ولفظ موزون ، بعيد عن التهكم والتنكيت ، و التجنى والافتراض . فان كل ذلك يفقد النقد قيمته العلمية ، و وقعه النفسى ، وبدون الجمع بين هذا وذاك لاتتحرر الطبقة المثقفة فى العالم الاسلامى من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة و سيطرتهم العلمية . تلك الطبقة التى تعد من أذكى الطبقات فى العالم

(١) اطلع صاحب المقال خلال زيارته للاهور (فى باكستان) فى يولية ١٩٧٨م على مشروع البروفسور ظفر على القريشى ، فى جمع ما كتبه المستشرقون عن السيرة النبوية و صاحبها عليه الصلاة و السلام ، و نقدها العلمى ومحاسبتها والرد عليها ، وقد أعد الأستاذ ظفر على بحثاً قيما فى هذا الموضوع فى اللغة الانجليزية يمتد على آلاف الصفحات ، و قد أعجب المؤلف بمجهوده الفردى التطوعى و مكتبته الشخصية ، و عجب من أنه لم يحظ إلى الآن بتقدير و تشجيع لاثنين من حكومة إسلامية أو مؤسسة كبيرة .

الاسلامى وأكثرها طموحاً، والتى تدرس فى جامعات أوربا ، و أميركا الكب
أو فى جامعات بلادها ، و تحب دراسة الاسلام بلغات الغرب التى تتقنها .

و الفراغ فى ناحية من نواحى الحياة البشرية و حاجاتها لا يبقى طويلا مخالف لسنة الله فى خلقه و الفطرة البشرية ، فيسد ذو الحاجة حاجته بشئ إذا لم يجد شيئاً سليماً ، و ما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة - التى ترزح تحت أفكار الغرب و علمائه - من سيطرتهم ، لا تزال الأقطار الاسلامية تواجه ع الاضطرابات العقلية ، و الردة الفكرية ، و يتبنى حملة التجديد و التغريب أف وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية ، حاولوا تطبيق كل ما ينافى روح الا على المجتمع ، و تنفيذه فى الحكم ، و يشكلون بذلك مجتمعاً لا يشبه المجتمع الاس القديم إلا فى الجنسية و القومية ، و لكنه مجتمع أجنبي يتجه نحو الغرب و ا فى الحقيقة و الواقع ، و يصح عند ذاك أن يخاطب قادة العالم الاسلامى و عا بالبيت الفارسى الذى معناه : مهلا أيها الأعرابى ! فان الطريق الذى اخترته يذ بك إلى تركستان ، و أنت تريد الكعبة !.

استعراض إجمالى للعمل الاسلامى فى مجال البحث و التحقيق فى العالم الاسلامى فى العصر الحاضر :

فهل تحقق هذا الأمل؟ و هل قام الباحثون الاسلاميون و الكتاب المسل باللغات الأوربية ذات النفوذ العالمى، بدورهم و واجبهم فى هذا الاتجاه؟ إنه ي إلى استعراض أمين محايد ولو إجمالياً، حتى نعرف الأشواط التى قطعناها ، و بر به ذمة الله وذمة الاسلام ، وهنا نظرة إجمالية على بعض المنجزات فى هذا المجال

لا يخفى على القارىء الخبير أن العالم الاسلامى - و لا سيما بلاده الأر تركيا و مصر و إيران والهند - اضطر أن يواجه منذ منتصف القرن التاسع ع

المسيحى ، الحضارة و الثقافة ، و الأفكار والفلسفات ، و المثل الغربية ، إن هذه الاوضاع و تلك الحقائق المشار إليها كانت كفيلة بوفرة الانتاج ، و كثرة وضع الكتب عالية المستوى بأرق اللغات الأوربية وأوسعها نطاقاً فى كل الدول والمجتمعات الاسلامية المواجهة على الأقل . فى شرح العقائد و الأصول ، والقوانين و الحضارة و الثقافة الاسلامية ، و فى تاريخ العهود الاسلامية الذهبية ، و عهود قيادة المسلمين السياسية ونظام الحكم الاسلامى . و الاقتصاد الاسلامى ، وفلسفة الاسلام الأخلاقية . و كانت كفيلة بأن تتخذ لهذه الأقطار اللغة الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الهواندية (١) على الأقل وسيلة للبحث والتحقيق ، و نقد الحضارة الغربية ، وإبانة مواضع الضعف فيها ، و عرض محاسن الاسلام ، و أن يستخدم أبناؤها المسلمون الملكات الخطابية و الكتابية فى هذه اللغات على المستوى الكبير ، و تتكون فيها مكتبة واسعة فى مدة قصيرة تمد الشباب المسلم بالثقة بالذات والاباء ، و الشعور باكتفاء الاسلام الذاتى فى جميع مجالات الحياة ، و ترغم المفكرين الغربيين و الطبقة المثقفة فى أوربا و فى أميركا ، و المستشرقين عامة على الدراسة الجادة للاسلام على الأقل - إن لم تستطع أن تبعثهم على الدخول فى حظيرة الاسلام - و تحدث سيلا جارفاً من الأبحاث الاسلامية ، والانتاج الأدبى واللغوى ، تصطدم أمواجه القوية بجدران الجامعات الشهيرة فى العالم فى أوربا و أميركا و كندا .

وكان من المتوقع أن يجعل هؤلاء البارعون فى اللغات الأوربية من أبناء الاسلام جامعاتهم غنية بالمواد والأبحاث فيما يتصل بالتاريخ الاسلامى و القوانين الاسلامية ، و اللغات الشرقية و آدابها ، و نقدها و تاريخها ، و أنهم لا يدعون الدارسين فى

(١) هذه هى اللغات الأربع التى كثرت فيها المؤلفات و البحوث فى الموضوعات الاسلامية .

هذه المواضيع الحساسة ، عالة على أى نكولسون (Nicholson) و على أى براوز (Browne) و على أى حتى (Hitti) فى دارسة التاريخ الأدبى و السياسى و الحضارى لبلاد العرب و إيران ، و لا على أى جولدتسيهر (Goldziher) و على أى شاخت (Schacht) فيما يتصل بدراسة الشريعة الاسلامية وتاريخ تدوين الحديث والفقه ، ولا على أى مارغوليوث (Morgolioth) فى دراسة لغة القرآن الكريم وعلومها ، وآدابها و شعرها ، و لا على أى بروكلمان (١) (Brockelmann) فيما يتعلق بالاطلاع على الحركة التأليفية و الكتابية فى العهد الاسلامى ، و التراث الاسلامى العلمى ، و إنتاجات المسلمين العلمية ، و مجهوداتهم القلمية . . .

إن كل ذلك لايقف سداً منيعا فحسب ، أمام الردة الفكرية التى تكاد تكتسح الشباب الاسلامى المثقف الذكى ، والتى كانت تنتشر فى البلاد التى كانت مستعمرات غربية ، انتشار النار فى الهشيم ، بل يفتح الباب على مصراعيه فى أوربا لمد الدعوة الاسلامية ، و للتعرف بالاسلام ، و القرآن ، و السيرة النبوية ، و بالتالى يجذب من أراد الله به خيراً من سكان هذه الرقعة من أرض الله إلى عين الاسلام الصافية وحصنه المنيع .

قلة الانتاج العلمى التحقيقى فى الدول المواجهة ، فى اللغات الغربية :

كل الدلائل كانت تشير إلى أنه سيبتدىء فى العالم الاسلامى عهد جديد للبحث والتحقيق ، والتصنيف فى المواضيع الاسلامية ، وأن اللغات الانجليزية و الفرنسوية و الألمانية بصفة خاصة ، ستعود زاخرة بالمؤلفات ذات المستوى العالى التى سيؤخذ الأوربيون و الأميركان أنفسهم بعذوبة لغتها ، و جمال أسلوبها و قوة استدلالها ،

---

(١) مع الاعتراف بمجهوده الكبير و قيمته العلمية و الاستفادة منه ،

و لباقة عرضها للمواد، و قدرة مؤلفيها التأليفية و الكتابية ،

و لكن من الحقائق المؤلمة أن أبدى فى هذه المناسبة التاريخية التى تجمع بين خيرة رجالات العلوم الاسلامية ، و بين النوابغ فى اللغات الشرقية و نقادها ، استغرابى العلمى و التاريخى من عدم تحقق هذا الرجاء ، ذلك الذى يبعث المؤرخ الأمين الواسع الأفق ، الواسع الاطلاع ، على العجب العجاب .

ميزة الهند من بين الأقطار المواجهة :

و كانت الهند فى طليعة دول المواجهة الاسلامية و الغربية ، حيث تمكنت بريطانيا ـ أقوى ممثل الحضارة الغربية ، والعلوم والثقافة الغربية ، وأشد تحمسالها ـ من بسط سيطرتها السياسية الكاملة على الهند منذ وقت مبكر على حين كانت بلاد أخرى تتأثر بالحضارة و الثقافة الغربية عن طريق غير مباشر عن وكالاتها الأدبية والثقافية ، إضافة إلى ذلك أسس السيد أحمد خان المرحوم ـ الشخصية القوية المؤثرة ـ فعلا بعد عام ١٨٥٧م مؤسسة ثقافية فى «على جراه» (Aligarh) باسم « مدرسة العلوم » كان الاشراف عليها ـ عقليا و ثقافياً و خلقياً ـ بأيدى الأفاضل الانجليز المحنكين ، أمثال المستربيك ، (Mr. Beck) والمستر موريسون (Mr. Morison) و المستر آرجبولد (Mr. Archibold) و تحولت فى ١٩٢١م إلى جامعة ، و قد جذبت إليها الشباب الذكى فى شبه القارة الهندية ـ من خليج بنغال إلى مضيق خيبر — جذب المغناطيس القطع الحديدية .

رغم ذلك كله كان الشعب الاسلامى الهندى أرهف شعوراً دينياً (١)

(١) و مما يدل على ذلك أنه لما ألف حاكم الولاية الشمالية فى الهند — و هى كبرى الولايات و أرقاها — السيرولیم ميور (Sir William Muir) كتابه الشهير بالانجليزية (Life of Mohamet) (حياة محمد) و كان فيه★

و أرق وعياً إسلامياً ، و أشد غيرة على الاسلام من البلاد الاسلامية الأخرى ، لأسباب لاتعنينا بهذه المناسبة ، يدل على ذلك مساهمتهم القوية بعد حركة الخلافة و حرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الاسلامية العريقة وبشعائرهم الدينية ، فكان إنتاجها فى هذا المجال أكثر من الانتاج — فى اللغات الأجنبية — فى أقطار إسلامية أخرى ، و إن كان أقل من الواجب المطلوب ،

فى مجال نقد النصرانية على الأسس العلمية :

و كان من نتائج هذه الغيرة الدينية التى يمتاز بها الشعب المسلم الهندى و مبادرته إلى قبول تحديات التبشير — وبالأصح التنصير — التى وجهت إلى شبه القارة الهندية ، بعد قيام الحكم الانجليزى المسيحى ، المنتصر الثائر الموتور ، أن وضعت أفضل الكتب و أقواها فى الرد على المسيحية ونقد العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والانجيل) فى الهند ، فقد واجه الشعب المسلم الهندى الدعوة المسيحية وجها لوجه ، و خاض هذه المعركة قبل أن يواجه هذه الدعوة و يخوض هذه المعركة شعب آخر فى قطر إسلامى أو عربى .

★ تحامل على السيرة النبوية ومسخ لبعض الحقائق ، لم يتمالك السيد أحمد خان الذى كان من أكبر الدعاة إلى التعليم الحديث الغربى ، و الاقتباس من الحضارة الغربية ، و كانت بينه وبين الحكم الانجليزى ورجاله صداقة و ثقة متبادلة ، فنهض للرد عليه ، و سافر سنة ١٢٨٦هـ ، سنة ١٨٦٩م إلى لندن لجمع المواد ، و باع لذلك بعض أثاثه و متاعه ، و ألف كتابه المشهور « خطبات أحمدية » الذى هو من أحسن كتبه ، ولعلها كانت الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه فى العالم الاسلامى ، و إن كانت خطوة بدائية تتصف بكل ما تتسم به المحاولات الأولى فى البحث العلمى .

وقد قيض الله لقيادة هذه الحركة الهجومية - لا الدفاعية - خيرة رجال هيأوا نفوسهم لهذا العمل الخطير الدقيق الذى تشاغل المسلمون عنه (العلماء و المؤلفون) قروناً لعدم توفر الدواعى و مايضطر إلى ذلك، فى مقدمتهم و على رأسهم العلامة المجاهد الشيخ رحمة الله الكيرانوى (١٢٣٣ - ١٣٠٨هـ) و قد تهيأت عنده جميع المؤهلات العلمية والخدامة، والوهبية، لانجاز هذا العمل. إلا معرفة اللغةالانجليزية، و الاطلاع على المصادر الأجنبية بطريق مباشر. هنالك ساق الله إليه مسلماً غيوراً هو الدكتور محمد وزيرخان الأكبرآبادى الذى سافر إلى لندن سنة ١٨٣٢م يدرس الطب الجديد. وقد نال فيه شهادة عالية، و أتقن اللغة الانجليزية، و درس اللغة اليونانية، وعنى بدراسة المسيحية من مصادرها الأصيلة واقتناء كتبها، و استصحب هذه المكتبة الثمينة إلى الهند استفاد بها الشيخ كل الاستفادة، وهنالك قرر مناظرة القس فندر (Dr. C. G. Pfander) الذى تحدى علماء المسلمين فى العالم الاسلامى، و ألف كتابه « ميزان الحق » و ظن أن لاقبل للسلمين به (١)، و قامت هذه المناظرة التاريخية فى ١١/ من رجب سنة ١٢٧٠هـ (١٠/ من ابريل ١٨٥٤)، فى أكبر آباد آكره إحدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية، و أحد مجالات النشاط التبشيرى فى الهند، وفى حى من أحيائها المعروف بحارة « عبد المسيح (٢) » و حضرها ولاة المديرية، و موظفو الشكنة الانجليزية من الانجليز، وعدد كبير من أعيان البلد و وجهائه، أسفرت هذه المناظرة عن اعتراف « القس فندر »

---

(١) صدرت للكتاب الطبعة الثامنة باللغة الفارسية سنة ١٨٤٩م من آكره، و الطبعة الثالثة باللغة الأردية سنة ١٨٥٠م، و الترجمة الانجليزية سنة ١٩١٠م.

(٢) لعلها باسم متنصر تسمى بهذا الاسم النصرانى.

بوقوع التحريف فی ثمانية مواضع من الانجيل ، و تزايد عدد الحاضرين فی الم
و ازداد عدد الحكام الانجليز و المسيحيين و الهنادك و السيخ ، و ظهر ضعف
« فندر » فی المناظرة وتعنته ، ولم يرجع القس إلى المناظرة فی اليوم الثالث وأصبح
شعاراً له أنه إذا علم بوجود الشيخ فی مكان غادره .

و قد ألف الشيخ رحمة الله كتابه « إظهار الحق (١) » على اقتراح الخليفة
العثمانی السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم خير الدين باشا ، وكان الشيخ قد هاجر
إلى مكة المكرمة عقب ثورة ١٨٥٧م وزار القسطنطينية سنة ١٨٦٤م على طلب من
خليفة المسلمين ، فألفه فی الآستانه سنة ١٢٨٠هـ ، و قد آثر فی هذا الكتاب خط
الهجوم كما فعل شيخ الاسلام ابن تيمية فی كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين
المسيح » ، واعتمد فی الكتاب على التناقضات الواضحة و البديهات الجلية من الأخ
التی لا تقبل التأويل ، و استخرج منها نتائج كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان
و وضع عقيدة التثليث فی النصرانية على محك العقل ، ونقدها نقداً علمياً ، وأضاف
إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم و إثبات أنه كلام الله ، و السيرة النبوية
و ذكر المعجزات و البشارات التی وردت فی شأن النبی ﷺ ، نقل الكتاب
إلى عدة لغات أوربية ، و قد كتبت كبرى صحف إنجلترا (London Times
تعليقا على هذا الكتاب ، « لو دام الناس يقرؤن هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية
فی العالم (٢) »

---

(١) وللشيخ رحمة الله ثلاثة كتب أخرى فی نقد النصرانية ، وإثبات الاسلام وهی « إزالة الأوهام » و « إزالة الشكوك » و « أصح الأحاديث فی إبطال التثليث »

(١) ملخصا من تقديم صاحب المقال لكتاب « إظهار الحق » طبعة قطر ، سنة ١٩٨١م .

و ألف علماء مسلمون آخرون فى الهند كتبا ذات قيمة علمية و نقدية كبيرة فى الرد على المسيحية ، و نقد « الكتاب المقدس » ، منهم العلامة السيد آل حسن الموهانى (١٢٨٧هـ) صاحب كتابى « الاستفسار » و « الاستبشار » و الشيخ عنايت رسول الجريا كوتى (١٣٢٠هـ) صاحب كتاب « البشرى » (و كان قد درس اللغة العبرانية و أتقنها) .

وساهم فى هذا العمل الشيخ عبد الحق الحقانى صاحب التفسير المشهور باسمه ، و الشيخ محمد على المونجيرى مؤسس ندوة العلماء ، و القاضى محمد سليمان المنصور فورى ، و السيد نواب على اللكنوى صاحب كتاب « تاريخ الصحف السماوية » و مولانا ثناء الله الأمر تسرى .

و هكذا تكونت أكبر مكتبة و أكثرها قيمة علمية فى الرد على النصرانية فى الهند ، لأسباب دعت إلى ذلك و لشدة غيرة المسلمين على دينهم ، و صمودهم أمام هجمات الديانات الأخرى الدعوية و العلمية .

حصاد قرن كامل :

لو اعتبرنا بداية العهد فيما يتصل باقبال الشعب المسلم الهندى على اللغة الانجليزية ، و العناية بتعلمها و تحصيلها ، عام ١٨٧٥م ، حيث أسست « مدرسة العلوم » فى « على جراه » و نسقط من الحساب عام ١٨٥٧م، حينما ذاق المسلمون هزيمة شاملة على يد الاستعمار الانجليزى ، و كانوا مذعورين بفعل الغزو و الفتح الانجليزى المتتابع ،ونعتبر النهاية سنة ١٩٨١م ، وقد أنجبت خلال هذه المدة كلية (M. A. O.-College) والجامعة الاسلامية فيما بعد رجالا كانوا يتميزون بغيرتهم الاسلامية و حميتهم الدينية ، و اقتدارهم على اللغة الانجليزية كأبنائها ، وجدنا كتبا مؤلفة باللغة الانجليزية هى قليلة العدد بالنسبة إلى مدة أكثر من قرن ، و لكنها كبيرة القيمة

و كثيرة العدد بالنسبة إلى أقطار إسلامية أخرى .

بعض مؤلفات الكتاب الهنود
المسلمين الانجليزية الممتازة :

و نجد فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، و أوائل القرن العش
مؤلفين باللغة الانجليزية يضعون فى التاريخ الاسلامى و الحضارة الاسلامية ،
يؤخذ برشاقة لغتها أبناء اللغة الانجليزية أنفسهم ، و يستقطبون اهتمام الغرب
مقالاتهم و قيمة موادها و جمال عرضها ، على رأسهم و فى مقدمتهم السيد
الذى ألف كتابه (The Spirit of Islam) (روح الاسلام) الذى لا يـ
أن تتفق مع جميع الأفكار و الآراء التى أودعها فيه ، و لكنه أثار الاعجـ
و التقدير فى الأوساط العلمية و الأدبية فى إنجلترا ، و أرغم عددا وجيها
المثقفين الانجليز الأفاضل على الاعتراف بصدق الاسلام و حقيقته ، و قد
عنه المستشرق آسبورن :(Osborn) .

« إن هذا الكتاب يستحق الاعجاب حقا ، و قد كتب بأسلوب يدل
ملك كاتبه لناصية اللغة الانجليزية ، أسلوب قل من يستطيع أن يجاريه من الا
المثقفين ، أسلوب خلا من العيوب التى وقع فيها مثقفو الهنود .. . .. و
أن يهنأ مسلمو الهند بأن يكون منهم من بلغ هذه الدرجة ، و من المستحيل
من فاتحة أعماله هذا الكتاب ألا يكون له فى مستقبله أثر فعال عميق فى قو
أما موضوع الكتاب فاننا نخالفه فى كثير من مسائله ، و سنعرض وجهة
و وجهة خلافنا فيما بعد » (١) .

و قد ظل كتابه (A Short History of The Saracens) (تاريخ الـ

(١) « زعماء الاصلاح فى العصر الحديث » للدكتور أحمد أمين ص ١٤٠ .

المختصر) موضع القبول و العناية إلى مدة طويلة بفضل سلاسة لغته ، و رشاقة كتابته ، و مايتسم به من الاعتدال و الاتزان .

و المؤلف الثانى المسلم الذى تجاوزت شهرته الهند ، هو « صلاح الدين خدا بخش » الذى نقل عدداً من الكتب فى الموضوعات الاسلامية من الألمانية إلى الانجليزية ، أما كتبه التى وضعها بالانجليزية فمن أشهرها المجلد الثانى من كتاب (١) (Contribution to the History of Islamic Civilization) (مساهمة فى تاريخ الحضارة الاسلامية) و كتابه (٢) Essays, India - Islamic (مقالات فى الهند و الاسلام) .

و لكن المؤسف أن كثيراً من آرائه نال معارضة من المثقفين الذين كانت لديهم معرفة صحيحة بالإسلام و بتاريخه .

و كانت سمة كتابات الكتاب المسلمين بالإنجليزية فى هذه الردحة من الزمن (أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين) البارزة ، الإعجاب الزائد بالغرب ، و بالفلسفة الغربية ، و العلوم الطبيعية ، التى كانت لا تزال إلى هذا العهد تقطع مراحل الطفولة ، والتأويل البارد المتطرف للحقائق الغيبية والمعجزات النبوية ، و أنباء ماوراء العقل ، و المحاولات المتكلفة للتوفيق بينها و بين المعلومات العصرية ، و المبادىء الطبيعية ، و التوفيق بين روح الحضارة الاسلامية و الحضارة الغربية ، أضف إلى ذلك كله أن أكثر هذه الكتب قد وضعت بالأساليب الدفاعية الإعتذارية (Apologetic)

---

(١) طبع جامعة كلكتة ، ١٩٣٠م والمجلد الأول ترجمة كتاب « وان كريمر » (Von Kremer) من الألمانية .

(٢) تاليف ١٩١٢م .

و بعد هؤلاء المؤلفين إن كان هناك من المؤلفين باللغة الانجليزية من يجدر
بالذكر بفضل علو كعبهم و قيامهم بعمل تأليفى وكتابى قيم، استرعى انتباه العا
و استفاد منه رجال العلم فى أوربا ، و أحالوا عليه فى مؤلفاتهم و كتاباتهم
العلامة محمد إقبال صاحب كتاب « الصياغة الجديدة للفكر الدينى فى الاسلام »(١
(Reconstruction of Religious Thought in Islam) الذى هو مجـ
محاضراته التى ألقاها بمدينة « مدراس » بالهند ، مما يبعث على التفكير الجديد ، و يز
بالمواد القيمة - رغم بعض الآراء الشاذة التى يتضمنها ، والتطرف الفلسفى فى تفـ
بعض العقائد و الحقائق الدينية (٢) ، و قد أعاره رجالات الفكر فى أوربا أه
بالغة ، و اقتبسوا منه فى كتاباتهم ، كما لقى ما قام به العلامة عبد الله يوسف
من ترجمة القرآن الكريم باللغة الانجليزية ، إعجاباً كبيراً و قبولا نادراً - بفض
نقاء لغتها و حلاوة موسيقاها ، وقوة عرضها وجمال أسلوبها - فى أوربا و أمير
و ظهرت لهذه الترجمة طبعات كثيرة فى باكستان ، و المملكة العربية السعودية
و البلاد الإسلامية وغير الاسلامية الأخرى أيضاً .

وكذلك عرفت الترجمة الانجليزية للقرآن الكريم التى قام بها (M. M. Pickthall
بفضل عذوبة لغتها وأسلوبها وخصائصها التى تتميز بها ، و قد قوبلت بحفاوة وتحـ
و إقبال ، على أنها لا تخلو من الأغلاط .

و سيكون من الاجحاف و غمط الحقوق - و نحن فى سبيل الحديث ...

(١) و قد نقله إلى العربية باسم « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » الأستاذ عباس محمود ، وطبع فى مصر ، كما ترجم الكتاب إلى اللغة الأردية .

(٢) و قد اعترض على ذلك العلامة السيد سليمان الندوى ، و نبه عليه صاحب هذا المقال فى مقدمة كتابه « روائع إقبال »

التراجم الانجليزية للقرآن الكريم - أن لا أتعرض لقيمة ترجمة معانى القرآن الكريم بالانجليزية للأستاذ الكبير المرحوم عبد الماجد الدريابادى - الكاتب الأردى الكبير - وقيمة هذه الترجمة فى الواقع هى تلك التعليقات الغنية التى هى نتيجة دراسة موسعة عميقة للديانات و للمصادر اليهودية و المسيحية، و قد استخدم الأستاذ هذه الدراسة لتقرير حقية ما يتضمنه القرآن من حقائق و علوم، و لاثبات إعجازه و تأكيده، الأمر الذى يتميز به الأستاذ المغفور له من بين جميع المترجمين المعاصرين، و من المؤسف أن هذه الترجمة لم تقدر حق قدرها، و ما أولتها الأوساط العلمية من العناية ما تستحقه، (١).

عمل الجماعة الأحمدية فى مضمار التـــــأليف و الدعوة :

و قد كان للجماعة الأحمدية التى كان يقودها و يرأسها الأستاذ المعروف بمولانا محمد على اللاهورى (٢) نشاط ملحوظ فى تـأليف كتب فى الانجليزية

(١) و قد قام بنشر هذه الترجمة شركة تاج Taj Company و أصدرت طبعتها الأولى، و يقوم المجمع الاسلامى العلمى فى ندوة العلماء مسروراً و مشكوراً باصدار الطبعة الثانية المنقحة لهذه الترجمة.

(٢) و هو رئيس الفرع اللاهورى المنشق عن الجماعة القاديانية (التى تؤمن بنبوة المرزا غلام أحمد فى صراحة و وضوح) و يؤمن هذا الفرع بأن المرزا غلام أحمد كان مجدداً للقرن الرابع عشر، والمصلح الأكبر، ويعتقد أنه المسيح الموعود، وعلى ذلك تلتقى الطائفتان، و يعتبرهم جميعاً المسلمون أقلية غير مسلمة، و على ذلك صدر القرار الرسمى من باكستان. راجع للتفصيل كتابنا « القاديانى و القاديانية » فصل الفرع اللاهورى »

للتعريف بالاسلام ، و السيرة النبوية ، تحل من الطبقة المثقفة الجامعية فى الهند وغيرها ، محل القبول و الرضا فى لغة إنجليزية لا بأس بها وفى الأسلوب العصرى كان فى طليعة هؤلاء المؤلفين الأستاذ محمد على اللاهورى المذكور رئيس الفرع فأصدر ترجمة معانى القرآن الكريم بالانجليزية .

و قد أقبل على قراءتها عدد كبير من المثقفين الجدد فى الهند و خارج الهند و هى تحمل تفسيراً و تعليقات بقلمه ، و شغف بها كثير ممن لم يتعمق فى الفهم الدينى ، و لم يجد من الكتب الاسلامية الموضوعة فى ذلك العهد فى اللغة الانجليز ما يسد حاجته و يرضى نهامته للقراءة ، إلا أن تفسيره و تعليقاته على هذه الترجمة يغلب عليها اتجاه تفسير المعجزات و الأمور الغيبية بالأمور الطبعية و الحوادث العادية ، إلى حد التطرف والاغراق ، ولو أبى ذلك اللغة العربية واللفظ الصريح و يغلب عليه الخضوع الزائد للمقررات الطبعية التى كانت لا تزال فى دور التحول و التطور (١) و له كتاب فى السيرة النبوية باسم (Muhammad the Prophet قرىء فى شبه القارة الهندية و خارج الهند فى نطاق واسع ، و أعجب به الشباب المثقف وأساتذة الجامعات ، الذين لم يكونوا يجدون كتاباً آخر فى السيرة ، يكشف

(١) اقرأ أمثلته و نماذجه العجيبة فى كتابنا « القاديانى و القاديانية » فى الفصل الثالث « الفرع اللاهورى عقيدته و تفسيره »

و من الحقائق العلمية و التاريخية التى يجب أن تسجل أن الزعيم السيد أحمد خان رائد التعليم الغربى فى الهند ، ومؤسس الجامعة الاسلامية فى على جراه ، هو الذى شق هذا الطريق وسبق إليه فى تفسيره للقرآن ، و كل من جاء بعده اقتطف منه ، و سار على منهجه ، و فاق عليه فى كثير من الأحيان كما هى العادة فى مثل هذه الاتجاهات .

لهم عن عظمة النبوة المحمدية والرسالة الاسلامية ، وتصور لهم البيئة و الملابسات التى جاءت فيها ، و عن دورها فى الاصلاح ، و يوجز لهم الحوادث التى مرت فى الحياة الكريمة ، و ذلك كله يدل على ضرورة وجود الكتاب الاسلامى الذى يشبع به الناشئون و المثقفون رغبتهم فى معرفة الاسلام و صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فاذا لم يجدوا الشئ الكامل المثالى أشبعوا رغبتهم من الشئ الموجود الميسور .

و يلى الأستاذ محمد على اللاهورى زميله و قرينه الداعيه الاسلامى المعروف فى إنكلترا والخطيب المصقع بالانجليزية خواجه كمال الدين صاحب كتابى (Prophet the Ideal) (النبى المثالى) و (Sources of Christianity)(منابع المسيحية) و قد كان على نفس شاكلة صديقه و أميره الأستاذ محمد على فى الاعتقاد فى المرزا غلام أحمد و إجلاله له ، و هو صاحب مركز (Woking Mission) فى لندن .

المؤلفون المعاصرون :

و إذا صرفنا النظر عن هذه الطبقة ، فالذى طبق صيت عمله العلمى الشرق و الغرب ، إنما هو صديقنا الفاضل الدكتور حميد الله الحيدر آبادى الهندى النزيل حالياً « بباريس » وهو صاحب الترجمة الفرنسية لمعانى القرآن الكريم التى نالت قبولا و اعتماداً فى الأوساط العلمية الفرنسية ، و أخص بالذكر من مؤلفاته بهذه المناسبة كتابين الأول (Introduction to Islam) (التعريف بالاسلام) و الثانى « محمد رسول الله » (Mohammad Rasoolullah) الكتابان اللذان عن طريقهما استطاع آلاف المسلمين الناطقين باللغة الانجليزية وحدها أن يعرفوا و يفهموا الاسلام و نبيه صلى الله عليه و آله و سلم ، لكن الذى يدل على جلالة شأنه وطول باعه وسهره على البحث والتحقيق ، والجهود المضنية وإعمال التفكير الطويل ، هو كتابه « صحيفة همام بن منبه » Sahifa Hammam Bin Munabbih الذى أكد

فيه بحجج لامعة أن عملية جمع الحديث و تدوينه قد بدأت فى عهد النبوة ذاته ، و دامت مستمرة حتى عهد أصحاب الصحاح و السنن ، و لا تتخللها فترة أو فجوة زمانية ، وقد قام الأستاذ من خلال وضع كتابه هذا بخدمة قيمة لا للحديث فحسب بل للاسلام ، تستوجب الاعتراف و التقدير و الشكر من أبناء الاسلام .

ولا يسعنا أن نغض البصر عن خدمات الاستاذ الدكتور مصطفى الأعظمى ، فى هذا الصدد ، الذى أيد رأى الدكتور حميد الله بوثائق تاريخية ، و قام بتصميد عمل الدكتور من خلال الكتــاب الذى وضعه باسم (Studies inEarly Hadith-Literature) وعضد الدعوى بتفصيل أكثر ، و دليل أقوى ، ويعد كتاب الاستاذ ايم ـ اسے شوستری (Outlines of Islamic Culture) و تأليف الدكتور برهان أحمد فاروقى (The Mujaddid's Conception of Tauhid) إضافة قيمة إلى المكتبة الاسلامية .

ولا بأس بأن ندرج فى قائمة المؤلفين باللغة الانجليزية على المواضيع الاسلامية ـ مع الاعتراف و التقدير ـ الحافظ غلام سرور ، و الدكتور السيد عبد اللطيف الحيدر آبادى ، اللذين قاما بترجمة القرآن باللغة الانجليزية بالاضافة إلى أعمالهما الأخرى ، وسير أمين جنك ، والدكتور مير ولى الدين ، و الدكتور عبد المعيد خان ، و الاستاذ ظهير الدين الفاروقى (١) و السيد مظفر الدين الندوى (٢)

---

(١) له كتاب جيد عن الامبراطور أورنك زيب عالمكير الملك المسلم الذى احتدم النقاش حوله واتخذ غرضا للهجوم والاتهامات فى الأوساط الهندكية الطائفية و مولفات المورخين الهندوس و الانجليز ، و اسم كتاب الاستاذ الفاروقى (Aurangzeb & His Age) « أورنك زيب ، و عصره »

(٢) هو صاحب كتاب (Muslim Thougt & Its Source) «الفكر الاسلامى ومصدره»

و الحاج مولانا فضل الکریم ، و السید أطهر حسین ، والسید محی الدین ، لکن ذلك کله لا یغطی المساحة الزمانیة ، التی تمتد علی قرن کامل ، و تبتدیء من ۱۸۷۵م و تنتهی إلی ۱۹۸۱م .

بعض مؤلفات الکتاب « المهتدین » القویة :

و مما یبعث علی العجب ، و یدل علی قوة الاسلام و إعجازه ، و قدرته علی الغزو العلمی ، أن رجلا حدیث العهد بالاسلام وضع کتابین باللغة الانجلیزیة ، هما من أحسن الکتب التی تبعث الایمان ، و تشحذ الروح ، و تغذی القلب ، و تفیض بروح الثقة و الاعتزاز ، أعنی محمد أسد الذی کان یتسمی فیما قبل أن یتشرف بالاسلام (Leopold Weis) و هو ألمانی ینحدر من سلالة یهودیة ، و قد أثار کتابه الأول « الاسلام علی مفترق الطرق » (Islam At The Cross Roads) الیقظة الفکریة ، و روح الثقة و الیقین عبر العالم الاسلامی ، لا عبر آسیا فحسب ، فلا نعلم کاتباً ولا کتاباً منذ عهد بعید یدافع عن السنة النبویة ، والحضارة الاسلامیة ، هذا الدفاع القوی الذی یقوم به هذا الکتاب ، کما أنه لا نجد کاتباً أوربیا تحدث عن نقط الافتراق و الاختلاف فیما بین الحضارة الغربیة و الحضارة الاسلامیة فی هذا الوضوح و التفصیل و الدقة ، وتناول الحضارة الغربیة بهذا النقد اللاذع المر المدعم بالدلائل و الوثائق ، و قد وضع الأستاذ محمد أسد هذا الکتاب خلال إقامته بالهند . و قد نقله الأستاذ عمر فروخ إلی اللغة العربیة باسم « الاسلام علی مفترق الطرق » و ظهرت له طبعات .

أما کتابه الثانی فهو (Road to Mecca) الذی استقبل فی أوربا وأمیرکا بحفاوة و إقبال ، و قریء بشوق و رغبة ، تحدث فیه المؤلف عن فضل الحضارة الاسلامیة ، و شمولیة الاسلام و عظمته بلباقة و قدرة ، و حاول محاولة موفقة

— من خلال تصویر جزیرة العرب والمجتمع الاسلامی ، ومجتمعات الدول الاسلامیة تصویراً دقیقا — أن یثبت فضل المجتمع الاسلامی و الحضارة الاسلامیة فی أذهان الأمیرکان والأوربیین فی طی الحدیث عن التجارب التی مربها فی رحلته الصحراویة و أثناء القیام « بمهنته الصحافیة » التی من أجلها تجشم هذا السفر الطویل الخطر ، و ذلك كله فی ثوب قشیب من لغته الأدبیة الرفیعة ، و نقل هذا الكتاب إلی اللغة العربیة باسم « الطریق إلی مكة » وترجمه فی اللغة الأردیة فقید الدعوة الاسلامیة المرحوم الأستاذ محمد الحسنی علی سماح من المؤلف و نشره المجمع الاسلامی العلمی بلكهنو (١) ، و ظهرت ترجمته إلی اللغة الهندیة أیضاً .

ولا یمكن التغاضی بمناسبة الحدیث عن المؤلفات الانجلیزیة ، علی المواضیع الاسلامیة التی دبجها قلم السیدة مریم جمیلة الحدیثة العهد بالاسلام ، و هی امرأة أمریكیة فاضلة ، مثقفة ثقافة واسعة ، كانت تعرف قبل أن یكرمها الله سبحانه بالاسلام بـ (Margaret Marcus) إن كتاباتها تتأسس علی دراسة عمیقة لتاریخ الحضارة الغربیة وانطلاق وتحرر كامل عنها بل وثورة شاملة علیها ، و كتاباهما (Islam versus the West) « الاسلام إزاء الغرب » و (Islam & Modernism) « الاسلام والتجدد » من أهم الكتب التی تمتاز بأصالة الفكر و الدراسة ، و عمق النظر ، وتنم عن الفهم الاسلامی و الاستقلال الفكری فی نقد الحضارة الغربیة ، وتقییم حركات التجدد و التغریب .

المجمع الاسلامی العلمی و إنتاجه :

ومن أحدث المجامع العلمیة سناً وأكثرها إنتاجاً (وخاصة فی اللغة الانجلیزیة) « المجمع الاسلامی العلمی (٢) » فی ندوة العلماء بلكهنو ، الذی قام فی ١٩٥٩م ،

---

(١) بعنوان « طوفان سے ساحل تک » مع مقدمة لصاحب هذا المقال .

(٢) و یعرف بالانجلیزیة باسم (The Academy of Islamic Research & Publication) .

و كان المقصود من هذه المؤسسة إعادة الثقة فى الشباب المسلم المثقف بجـــدارة الاسلام ، ليس للبقاء و الاستمرار بل لقيادة الركب البشرى ، وحل المعضلات العصرية ، والايمان الجديد القوى بصاحب هذه الرسالة - ﷺ - وبأنه هو « خاتم الرسل ، و إمام الكل ، ومنير السبل » وسيرته و تعاليمه ، و الدراسات المقارنة ، والبحوث العلمية التى تجمع بين التعبير الصحيح عن الاسلام ، ، إقناع العقل الجديد ، و قد بدأ كنواة صغيرة بامكانيـات محدودة ، لا تتصور لمثل هذا المشروع العلمى الأكاديمى الواسع ، و قـد قام فى ظرف أقل من ربع قرن بنشر ١٥٥ كتابا فى لغات مختلفة ، منها خمسون (٥٠) فى الانجليزية ، و أكثر من ستين (٦٠) فى الأردية ، و سبعة و ثلاثون (٣٧) فى العربية وستة (٦) فى اللغة الهندية .

و من أجدر مطبوعاته بالذكر ترجمة كتاب « السيرة النبوية » لصاحب هذا البحث ، باسم - (Mohammad Rasulullah) و كتاب « الأركان الأربعـة فى ضوء الـكتاب و السنة و الدراسة المقارنة » باسم (Four Pillars of Islam) و ترجمة كتاب « الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربيـــة فى الأقطـار الاسلامية » باسم (Western civilization Islam and Muslims) و ترجمـــة كتاب « الصراع بين الايمـان و المادية » باسم (Faith versus Materialism) و كتاب « بين الدين والمدنية » باسم (Religion & Civilization) و كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » باسم (Islam & the World) و سلسلة كتب « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » باسم (Saviours of Islamic Spirit) (١- ٢- ٣-) و ترجمة كتاب « القاديانى والقاديانية » باسم - (Qadianism a critical study -) و « نظرة على حياةالمسلم » باسم - (The Musalman) .

هذه الكتب كلها بقلم صاحب هذا المقال أما لغيره فقد نشر المجمع ترجمة

كتاب « خطبات مدراس » « الرسالة المحمدية) للعلامة السيد سليمان الندوى باسم ـ (Muhammad The Ideal Prophet) و كتاب فى الخلفاء الراشدين للسيد أطهر حسين ، باسم (The Glorious Caliphate) وسلسلة كتب « معنى الحديث و رسالته » للعالم الشهير الشيخ محمد منظور النعمانى منشئ مجـــلة « الفرقان (Meening and Message of the Traditions) و كتاب « ماهو الاسلام ؟ (What Islam is ?) و كتاب « الدين و الشريعة » باسم ـ Islam, Faith and Practice (وكتاب « بمـــاذا يحدث القرآن ؟ » له أيضاً باسم ـ The Quran (And You) ـ و رسالة القرآن (The Messag of Quran) للسيد أطهر حسين .

هذا ما عدا كتب فى التاريخ و الأدب كترجمة كتاب « روائع إقبال » باسم (Glory of Iqbal) و كتاب « الهند فى العهد الاسلامى » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى باسم (India During Muslim Rule) و « هندوستانى مسلمان » باسم (Muslims in India) و كتـــاب فى سيرة الامام السيد أحمد الشهيد و حركته الاصلاحية و الجهادية الكبيرة باسم (Saiyid Ahmad Shahid) للسيد محى الدين ، عدا مجاميع محاضرات ألقيت فى أوربا و أميركا ، كحديث مع الغرب باسم (Speaking Plainly to the West) و أحاديث صريحة فى أميركا باسم (From The Depth of Heart in America)

و قد اقتصرنا على الكتب التى نشرت فى اللغة الانجليزية و قد كان للدكتور محمد آصف القدوائى ، والسيد محى الدين الفضل الكبير فى نقل أكثر هذه الكتب إلى اللغة الانجليزية الأدبية العصرية (١) ، و قد كان للدكتور محمد آصف القد

(١) يستثنى من ذلك كتاب (Qadianism) فانه من ترجمة الدكتور ظفر اسحق الانصارى .

الأوفر فى هذا العمل العلمى الأدبى (١) ، و قد نالت هذه الكتب و الترجمات رضاً وإعجاباً فى الأوساط العلمية و الدعوية وفى القارات الثلاث أوربا ، وأميركا ، و أفريقيا ، و لا يزال لها طلب وعليها إقبال فى هذه القارات يصعب على المجمع الاسلامى العلمى ـــ بامكانياته المحدودة ـــ تحقيقه ومسايرته .

الانتاج العلمى التحقيقى الكبير فى اللغة الأردية :

هذا كل ما تحدثت عنه من الانتاج العلمى أو العمل الأكاديمى فى مقاصد إسلامية و موضوعات علمية ، الذى تم فى القرن العشرين الميلادى ، و كان كله أو جله برز إلى الوجود فى شبه القارة الهندية قبل التقسيم ، إلا النزر القليل الذى تم بعده ، إنما يختص باللغة الانجليزية .

أما إذا تخطينا حدود اللغة الانجليزية ، فأخذنا اللغة الأردية بعين الاعتبار ، اللغة التى كانت و لا تزال اللغة العلمية الراقية الثانية بعد اللغة الانجليزية ، ولغة التأليف و التفاهم بين المسلمين بصفة عامة ، ولغة التعارف فى الولايات الهندية ، و التى يدرسها و يفهمها عدد لا يستهان به من المثقفين الهنادك ، فمما يجب الاعتراف به وتسجيله للتاريخ والأجيال الصاعدة ، أن الانتاج العلمى المؤسس على الدراسة العميقة ، و الجدية و الأصالة ، و غزارة المادة و القيمة العلمية ، كان أضخم و أعظم فيها من كل لغة من لغات العالم الاسلامى ، وكان للعلماء المتخرجين فى « المدرسة (بأوسع معانيها) الدينية الشرقية العربية » الدور القيادى فى هذا النشاط العلمى و الفكرى و اليقظة الاسلامية و الجهاد المعنوى الذى كان فى بعض الأحيان أفضل الجهاد فى هذا الصراع الفكرى و القلق النفسى الذى كان يعانيه الشباب المسلم الجامعى ، بل

(١) قال لى بعض أدباء الانجليزية أن ترجمة كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » بالانجليزية مثال رائع للترجمة ، قل ما يوجد له نظير .

فى زمن الردة الفكرية و الحضارية — و الردة العقائدية فى بعض الأحيان — الت
كانت تغزو شبابنا المتخرج من الجامعات الأوربية ، بل الجامعات الهندية كذلك
نقول ذلك فى ضوء الدراسة المقارنة المحايدة الدقيقة ، وفى ضوء الواقع والشهادات .

العلامة شبلى النعمانى و العلامة السيد سليمان
الندوى و مجمع « دار المصنفين » :

و يسعدنى و يحلولى أن أقول ذلك و أعلنه فى مكان كان له ولمؤسسه العظ
و زملائه الفضلاء و تلاميذه النجباء فضل الانتباه لأهميته و خطره وضرورته
و الدعوة إليه والبدء به ، أعنى « دار المصنفين » التى نلتقى على صعيدها ، ونعق
هذه الندوة العلمية العالمية فيها ، و كان أول مجمع علمى تحقيق شعبى أنشئ فى ال
الاسلامى (فى حد معلوماتنا) لمواجهة خطر الغزو الفكرى و كتابات المستشرق
المغرضة ، ولاقناع الشباب المثقف بفضل تعاليم الاسلام ، و التعرف بالشخ
النبوية الجليلة وبسيرتها و الجيل الذى تربى فى أحضانها ، وبقيمة الثروة الاسلا
العلميــــــة .

ولما أصدر الاستاذ جرجى زيدان كتابه المشهور « تاريخ التمدن الاسلامى
من مصر فى أوائل القرن العشرين كان له دوى فى الأوساط العلمية ، و قد كان
كتاب جرجى زيدان ـ رغم غزارة المــادة و وفرة المعلومات ـ تجن على الخا
الأمويين و العباسيين وتحريف لبعض الحقائق التاريخية ، و إعادة لأسطورة إحر
مكتبة الاسكندرية الخرافية ، ثارت فى العلامة النعمانى الحمية الاسلامية و لم ؟
ثناء المؤلف عليه و إشادته بذكره (١) و لا بعد المكان ، عن تناوله بالنقد الع
المدعم بالدلائل و الوثائق ، وألف كتاب « الانتقاد على التمدن الاسلامى » بالعر

---

(١) الجزء الثانى من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى مقدمة الطبعة الأولى ص ٢٦٠ .

سنة ١٩١٢م و تلقته الأوساط الاسلامية العلمية فى الهند و مصر بالشكر و الرضا و القبول (١) .

و قد خلفت مدرسة شبلى التأليفية آثاراً لامعـة من البحث و التحقيق ، و الدراسة المضنية ، و الاتزان الفكرى ، وسـداد الرأى ، و إصابة التفكير ، والتعمق والامعان ، بجانب سعة الاطلاع ووفرة المعلومات - فيما يتصل بالمباحث و الدراسات الاسلامية الأولى — و للتخرجين فيها الدور الطليعى فى ذلك ، لأنهم حازوا قصب السبق فيه ، فقد اختاروا من الأساليب اللغوية و المناهج الأدبية و البيانية ما يتفق مع المباحث العلمية الجادة كل الاتفاق و يوجد فيها من الحلاوة الأدبية و الكتابية ، والرشاقة الانشائية - بكميتها الصحيحة ونسبتها المعتدلة - ما كان لا بد منه لاستقطاب الشباب و الجيل المعاصر الذى نشأ و تربى فى المحيط الأدبى ، و البيئة المولعة بانتقاء اللغة و تنقيح مناهج الكلام إلى أمثال تلك المباحث العلميـة و التاريخية الجافة ، و قد كان لكتاباتهم فضل كبير فى إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الاسلام بالعقائد و المقررات الدينية ، و بالحضارة و الثقافة الاسلامية ، وبتاريخهم الزاهر ، و بلغتهم وآدابهم ، و فى إحياء الاعتداد بالنفس و الثقة بالذات ، و إزالة « مركب النقص » الذى أحدثته الهزيمة فى الصراع مع الاستعمار الانجليزى فى ١٨٥٧م ،وأصلته الثقافة الغربية والغزو الفكرى الأوربى .

ثم إن كتاباتهم تتميز بالأصالة (Originality) و النزاهـة و التجرد - إلى حد كبير - من « التطرف » وسوء الفهم ، ذلك الذى ينشأ طبيعيا من الدراسة غير المباشرة ، و من المعلومات الحاصلة بالوساطة وبطريق غير مباشرة ، و الذى

---

(١) صدر الكتاب من مطبعة آسى بريس لكهنؤ طبع الحجر فى ٨٢ صفحة من القطع الكبير .

وقع ــ ولا یزال یقع ــ فریسته المستشرقون ورجالات العلم و البحث فی أور
و تلامیذهم فی الشرق و الغرب .. و ذلك بفضل تعمق هؤلاء العلمـــاء و المؤ
فی اللغتین العربیة و الفارسیة ، وتحصلیهم للعلوم الاسلامیة ، و تخرجهم فیها بطر
منظم ، واطلاعهم المباشر علی المصادر و المراجع الاسلامیة الأصیلة ، و اقتدا
علی الاستفادة منهـا ، و الرجوع إلیها متی شاؤا .

و کان من أکبر مآثر العلامة شبلی النعمانی صاحب فکرة « دار المصنفین
و مشروعها (۱) ، البدء بتألیف سیرة النبی علی صاحبها الصلاة و السلام فی إ
أوسع وفکرة أشمل وأکمل ، مما جری علیها مؤلفو السیرة فی الزمن القدیم والحدی
و قد وسعها ومدها تلمیذه وخلیفته النابغة العلامـــة الدکتور السید سلیمان الندو
فأکملها فی سبعة أجزاء ، الجزء الأول من هـــذه السلسلة بکامله بقلم العلامة
النعمانی ، والجزء الثانی فیه زیادات من تلمیذه العلامة السید سلیمان الندوی ، والأ
الباقیة کلها بقلمه السیال وبیانه السلسال ، وتفصیله أن المجـلد الثالث یتعلق بالد
و المعجزات ، و الرابع خاص بمنصب النبوة ، ویبحث عن حقیقة منصب ا
و خصائصها و عن واقع العالم المتمدن و الجزیرة العربیة عند البعثة ، ویبحث
العقائد الاسلامیة فی تفصیل ، و الخـــامس خاص بالعبادات البدنیة و المـ
و القلبیة ، والجزء السادس یشتمل علی التعلیمات الخلقیة وفلسفة الأخلاق فی الاسـ
و هو من البحوث التی تعتبر من مزایا هذا الکتاب ، أما السابع الأخیر فیـ

(۱) کانت « دار المصنفین » (المجمع العلمی التحقیق) أمنیة العلامـــة شـ
النعمانی العزیزة ، وقد خطط ووقف لها أرضا من ملکه ، و لکن لم یـ
الأجل ، فقام بانشائها و إبرازها إلی حیز الوجود تلمیذه وخلیفته العلا
السید سلیمان الندوی فی نوفمبر ۱۹۱۴م .

عن المعاملات و السياسة ، و هكذا أصبح الكتاب، موسوعة فى السيرة وتعاليمها و آثارها .

ومنها كتاب العلامة النعمانى فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المعروف « بالفاروق » الذى يعد من الآثار الأدبية الخالدة ، و مثالا للانشاء البليغ القوى ، الذى غرس فى قلوب كثير من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية ، حب الاسلام وبذور الايمان ، و أصبح حافزاً لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية ، الفكرية و الحضارية ، وعرض نموذجاً عصريا راقيا ـ كان المثال المحتـذى ـ فى تأليف سير الرجال والعظماء، وذلك فى كتبه « الغزالى » و « جلال الدين الرومى » و « المامون » و « الامام أبو حنيفة النعمان » وصاغ تلاميذه التاريخ الاسلامى الذى كاد يكون مهجوراً أو مطموراً فى بطون الدفاتر ، صياغة جديدة تتفق مع الأسلوب العصرى و المنهج الفكرى الجـــديد ، و ذلك فى ضمن كتب « أسوة الصحابة » و « سير المهاجرين » « وسير الأنصار » و « سير التابعين » وغيرها .

وإذا كانت قيمة بحث علمى وكتاب جليل تتمثل فى مواده وغنائه بالمعلومات المستندة إلى الدلائل العلمية القوية ، المبنية على التحليل و الاستعراض ، المنتقاة من الوثائق والشواهد ، والحجج اللامعة ، فانه يمكن القول بكل تأكيد ، أن « شعر العجم » للعلامة شبلى النعمانى فى تاريخ الشعر الفارسى و تحليله و نقده ، وتراجم شعراء إيران ، وكتابيه « الجزية فى الاسلام » و « حقوق الذميين » اللذين يبحثان فى حقيقة الجزية الاسلامية و حقوق الذميين و واجباتهم فى الاسلام ، و كتابيه القيمين « مكتبة الاسكندرية » و « نظرة على أورنك زيب عالمكير » اللذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة و العامة ، و يكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية

الناصعة (١) ، إن هذه الكتب من أعلى نماذج كتابة التاريخ و النقـد العلمى ، و الدراسة التحليلية .

ثم يأتى بعد ذلك دور العلامة السيد سليمان الندوى أنبغ تلاميذ العلامة شبلى النعمانى و من كبـار أبناء ندوة العلماء ونوابغها ، فيضع كتاب « أرض القرآن وهو أول كتاب فى لغة شرقية إسلامية على جغرافية أرض النبوات وعهد القرآن بحث فيه عن تاريخ العرب و غزواتهم قبل الاسلام وموجات الهجرة من الجزير العربية و إليهـا ، و عن ألسنتهم وأديانهم و تجارتهم وطرق حضارتهم ، ألفه سن ١٩١٥م و قد استفاد فيه من المصادر الأجنبية فى توسع ، و كتاب « عرب وهن كے تعلقات » (الصلات بين العرب والهند) و « عربوں كى جهاز رانى » (الملا- عند العرب) و « خيام » الكتب التى هى وليدة بحث دقيق ، و دراسة موسع وغوص فى أغوار المكتبة الاسلامية الغنية الزاخرة ، وشغف منقطع النظير بالم و البحث ، و الاطلاع و الاستفـادة ، و التوسع و التعمق فى المعلومات و ذلك فهى تمثل النمط العلمى و الأدب العالى الذى يحق للغة الأردية، وللجيل لجدي أن يفتخرا به .

إن « عمر خيام » كان مفخرة إيران ، و من نوابغ شعرائها ، وكبار العلوم الرياضية فيها ، لكنها ـ إيران ـ لا تستطيع أن تقدم كتابا يضارع هـ

(١) كان التاريخ قد أصبح فى أواخر القرن التاسع عشر و فى أوائل القر العشرين بعد الاحتلال الأوربى فى الأقطار الاسلامية ، مـدخلا واسع للشبهات حول الاسلام و حضارته و نظام حكمه و معاملته لمن كان تحت حكمهم ، و كان لا بد من العناية بعرض التاريخ الصحيح ودحض الشبهات ونفى الافتراءات .

الكتاب ـ فی قليل أو كثير ـ فی إزاحة اللثام عن جوانب عظمة هـذا النابغة ، ومآثره العلمية ، و فی الدراسة المضنية التاريخية الموضوعية .

أما كتابه « خطبات مدراس » الذی نقل إلی اللغة العربيـة باسم « الرسالة المحمدية » (١) فهو من أقوى ما كتب فی السيرة النبوية والرسالة المحمدية ، وأكثره تركيزاً وأغزر مادة ، وأشده تأثيراً ، و كذلك كتابه « سيرة عائشة » من أحسن ما كتب فی هذا الموضوع ، و فی سيرة الصديقـة بنت الصديق أم المؤمنين رضی الله عنهـا .

و قـد فاق العلامة السيد سليمان الندوی أستاذه أحيانا فی سعة الدراسة ، و الاطلاع علی المصادر الحديثية و الفقهية ، و التزام ما عليه الجمهور من أهل السنة فی المسلك فی المسائل الخلافية و الكلامية ، و لكل درجات ، و قد التفت حول العلامة السيد سليمان الندوی — روح هذه المؤسسة العظيمة وقطبها — مجموعة من الكتاب الاسلاميين ، و المؤرخين الباحثين ، أكثرهم من متخرجی دار العلوم ندوة العلماء التی كانت و لا تزال تمد هذه المؤسسة بأبنائها النجباء ، نكتفی هنا فی هـذه العجالة بذكر الكاتب القدير البحاثة الشيخ عبد السلام الندوی (٢) صاحب كتاب « أسوة صحابه » الذی تلقی بالقبول فی الأوساط الدينية العلمية و « شعر الهنـد » و « حكماء الاسلام » وغيره من الكتب ، والعالم الجليل الشيخ عبد الباری الندوی أستاذ الفلسفة فی الجامعة العثمانية بحيـدرآباد ، صاحب البحث القيم فی المعجزات

---

(١) نقله صديقنا الفاضل الأستاذ محمد ناظم الندوی إلی العربية ، وصدرت له عدة طبعات فی العواصم العربية .

(٢) يعتبره كثير من النقاد أشبه تلاميـذ العلامة شبلی بأستاذه فی الأسلوب و البيان و اللغة .

النبوية من زاوية الفلسفة الحديثة والعلوم العقلية ، المدرج فى الجزء الثالث من سيرة النبى ﷺ ، و كتابى « بين الدين والعقل (١) » و « بين الدين و العلم (٢) » ، و الأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوى ، و الكاتب الأديب الناقد و المؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوى ، و الأستـــاذ الباحث السيد رياست على الندوى ، والأستاذ السيد نجيب أشرف الندوى ، والشيخ سعيد الأنصارى ، والشيخ عبد السلام القدوائى الندوى ، و الأستاذ مجيب الله الندوى ، و الأستاذ ضياء الدين الاصلاحى ، وأخيراً لا آخراً المؤرخ الأديب و الكاتب الكبير ،السيد صباح الدين عبد الرحمن مدير دار المصنفين حالياً ، و رئيس تحرير مجلة « المعارف » التى كانت ولا تزال تعتبر أرقى المجلات العلمية التى يصدرها مجمع علمى فى شبه القارة الهندية ، و للبحوث والمقالات التى تنشر فى هذه المجلة قيمة كبيرة فى الأوساط العلمية .

ندوة المصنفين فى دلهى :

و قـــد قام بعد دار المصنفين (التى قامت سنة ١٩١٤) مجمع علمى آخر باسم « ندوة المصنفين » فى دلهى ، منشؤها ومديرها سماحة الشيخ المفتى عتيق الرحمن العثمانى ، و قد نشأت عام ١٩٣٨م ، كان من أصحاب فكرتها و الذين يرجع إليهم الفضل فى نشوءها الزعيم المسلم المجاهد المرحوم الشيخ حفظ الرحمن سكرتير جمعية العلماء سابقاً ، و هى تصدر مجلة علمية شهرية هى مجلة « برهان » يرأس تحريرها فضيلة الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادى ، و لها مطبوعات قيمـــة حازت القبول

(١) اسمه فى الأردية « مذهب وعقليات » و قد نقله إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الندوى بعنوان « بين الدين و العقل » .

(٢) اسمه فى الاردية « مـــذهب وسائنس » نشره المجمع الاسلامى العلمى ، فى ندوة العلماء .

و التقدير فى الأوساط الاسلامية العلمية ، و قد تجاوزت منشوراتها مائة كتاب فى علوم القرآن و الحديث و السنة ، و الأخلاق و التربية ، ونظام الاسلام السياسى و الاقتصادى ، و تاريخ البلاد ، و تاريخ الفقــه ، و تاريخ التصوف الاسلامى وأئمته و رجالاته فى الهند (١) ، و فى التراجم و السير ، يعتبر عدد منها فريداً فى موضوعه ، و ذا قيمة علمية و تحقيقية كبيرة .

كتـاب و باحثون آخرون :

و قــد لمعت أسماء بعض المؤلفين الباحثين خارج هاتين المؤسستين العلميتين الكبيرتين ، وصدرت لهم كتب ذات قيمة كبيرة فى موضوعها ، من أشهرها مولانا أبو الكلام آزاد الزعيم المسلم المشهور و وزير التربية الأسبق فى الجمهورية الهندية ، صاحب ترجمة معانى القرآن إلى اللغــة الأردية المعروفة « بترجمان القرآن » مع تعليقات ذات قيمة علمية وأدبية و بعض بحوث مبتكرة ، والكتاب رغم أنه لم يكمل قد أثر فى الطبقة المثقفة تأثيراً قوياً ، وقربه إلى دراسة القرآن والاعتراف باعجازه ، و ذلك لمستوى الكتاب الأدبى الرفيع ، و الأسلوب البليغ القوى ، والعلامة السيد منــاظر أحسن الكيلانى صاحب كتاب « النبي الخاتم » و « تدوين الحـــديث » و « نظامنا التربوى القديم » و « نظام الاقتصاد الاسلامى » و « حياة الامام أبى حنيفة السياسية » وغيرها ، والأستاذ عبد الماجد الدريا آبادى ، صاحب محاضرات وبحوث فى القرآن وكتاب « التصوف الاسلامى » والعلامة عبد الرؤف الدانا فورى

---

(١) من أهمها كتاب « ترجمان السنة » فى أربعة اجزاء ، للعالم الكبير الشيخ بدر عالم الميرتى نزيل المدينة المنورة ودفينها ، « وقصص القرآن » للشيخ حفظ الرحمن ، و « الرق فى الاسلام » و « صديق أكبر » للأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادى ، و « تاريخ مشايخ چشت » للأستاذ خليق أحمد نظامى .

صاحب كتاب « أصح السير » و « الاسلام والقضايا المدنية » و الأستاذ الكبير السيد أبو الأعلى المودودى مؤسس الجماعة الاسلامى فى الهند صاحب كتاب « الجهاد فى الاسلام » الذى أصدرت طبعته الأولى « دار المصنفين » سنة ١٩٣٠م و كتاب « الحجاب فى الاسلام » ومسألة الربا ، و مجموع مقالات فى نقد الحضارة الغربية و قيمها و مثلها المعروف « بتنقيحات » ، و مجموع مقالات أخرى فى موضوعات إسلامية المعروف « بتفهيمات » وتفسير « تفهيم القرآن » تتميز كتاباته العلمية بايثار طريقة الهجوم على طريقة الدفاع و الاعتذار ، و كان رغم اختلافنا عن بعض وجهات النظر وبعض الملاحظات ، الاختلاف الذى يتسع مجاله مع كل عالم وباحث و فى كل عصر ومصر ، (١) لا بد من الاشارة إلى أنه كان لبحوثه العلمية الأولى التى تكلم فيها عن مستوى عال وفى أسلوب قوى ، ولمقالاته ورسائله فى مشكلات العصر ، وحلولها الاسلامية ، دوى فى الأوساط الاسلامية التى كانت تعانى قلقا فكريا ، و كانت فى دور انتقال ، و كان لها فضل فى إعادة الثقة فى الطبقة المثقفة بجدارة الاسلام ، وفضله ، و الحاجة إليه ، و الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادى صاحب كتب « الرق فى الاسلام » و « الصديق الأكبر » وغيرهما من المؤلفات ، والبروفيسور خليق أحمد النظامى رئيس قسم التاريخ فى جامعة على كره ، والدكتور نذير أحمد رئيس القسم الفارسى فى تلك الجامعة ، والأستاذ ضياء الحسن الفاروقى ، و الدكتور نجاة الله الصديقى ، و هناك كتاب ناهضون لهم مستقبل زاهر فى عالم التأليف و البحث ، لا يتسع هذا المجال لذكرهم ، فليس هذا المقال المستعجل الذى يسطر على تشتت بال و انشغال فكر ، دليلا شاملا لأسماء الكتاب و الباحثين ، إنما هو تعريف موجز للنشاط العلمى و الحركة التأليفية فى الهند .

---

(١) ليراجع كتاب المؤلف « التفسير السياسى للاسلام » طبع الهند و مصر .

الدراسات الاسلامية فی باكستان :

وهذه نبذة من ذكر الكتاب الاسلاميين المرموقين فی البلد الشقيق الجار باكستان فی تفصيل واستقصاء (١) ، فقد شمل الحديث عن شبه القارة الهندية هذا الجزء ، وإن لم يتسع المجال والوقت للتوسع ، فلا يسع التغاضی عن ذكر العلامة المرحوم محمد شفيع المشرف علی دائرة المعارف الاسلامية الأردية ، الصادرة من جامعة بنجاب ، و الدكتور اشتياق حسين قريشی وزير المعارف الأسبق ، و الدكتور محمد رفيع الدين صاحب الكتاب القيم « القرآن والعلم الحديث (٢) » و الدكتور السيد عبد الله المشرف علی دائرة المعارف الاسلامية ، و الأستاذ بزمی انصاری ، والأستاذ محمد أسلم ، و الشيخ عبد القدوس الهاشمی الندوی صاحب مؤلفات وبحوث كثيرة ، و فضيلة الشيخ محمد تقی العثمانی صاحب المقدمة المنيرة المستفيضة علی ترجمة كتاب « إظهار الحق » للعلامة الشيخ رحمه الله الكيرانوی . والأستاذ عبد الحميد الصديقی ، و الأستاذ مظهر الدين الصديقی و الأستاذ خورشيد أحمد .

و قد نشأت بعد قيام باكستان مؤسستان للبحث الاسلامی العلمی ، والدراسات الاسلامية ، أولاهما مؤسسة الثقافة الاسلامية فی لاهور ، و الثانية مجمع البحوث الاسلامية فی إسلام آباد ، (Islamic Researeh Institute Islamabad) التابع للجامعة الاسلامية فی إسلام آباد ، يرأسه الآن الدكتور عبد الواحد هالی پوتا ، و تصدر هذه المؤسسة مجلة فی اللغة العربية باسم « الدراسات الاسلامية » و مجلة

(١) و قد منعت الحواجز المصطنعة غير الطبعية عن الاطلاع الواسع و التتبع الدقيق للحركة العلمية و المؤسسات الفكرية و الكتب و المجلات الصادرة فی هذا القطر الاسلامی الكبير .

(٢) له كتابان مهمان بالانكليزية أحدهما (Manifesto of Islam) وآخر (Ideology ef Future) .

فى أردو باسم « فكر ونظر » .

تفوق خريجى المدرسة القديمة فى البحث و الانتاج العلمى :

حقيقية تاريخية أن علماء الهنـــد الذين درسوا العلم على الطريقة القديمة لم يتخلفوا عن ركب العلم والبحث والتحقيق فترة قصيرة من الزمن — بالعكس عديد من الدول الاسلامية — و لم تنقطع صلتهم بلغات بلادهم و آدابها ، كما فى كثير من الدول الاسلامية و الدول العربية ، فظلوا يؤدون دوراً قيادياً المجالات العلمية و الأدبية ، بجانب القيام بالدور الطليعى فى مجال السياسة و تحرير البلاد ، و خلفوا مآثر فى الأدب و النقـــد و الشعر ، تنطق بذوقهم ا الفائق ، وبتذوقهم للغة و آدابها ، و اقتدارهم على النقد الأدبى ، ومهما أسماها من هب ودب بمحاولات بدائية ، و لكنها فى الواقع كمعالم فى الطريق « فمقد شعر وشاعرى » و « يادكار غالب » لمؤلفهما الشيخ ألطاف حسين الملقب فى « حالى » و « موازنة أنيس ودبير (١) » للعلامة شبلى النعمانى ، و كذلك « كل رعنا » لزميله العلامة السيد عبد الحى (رحمه) الله الحسنى — أمين ندوة العام الأسبق — فى تاريخ أردو وتراجم شعرائها ، و « ياد أيام » فى تاريخ « كجرات » العلمى و الثقافى ، و البنائى و الاجتماعى ، و الأخلاقى ، وتقدم ميدان التعليم و التربية و الصناعات ، فى عهدها الاسلامى الذهبى ، و فى ترا علمائها ومشايخها وسلاطينها ، وهو نموذج مثالى رائع للكتابة فى مثل هذا المو يجب أن يتبعه الكتاب و المؤرخون فى كتاباتهم العلمية والتاريخية ، وأودع ا فى كتابه « كل رعنا » مباحث ونظريات طريفة ، و وضع من خلالها الاصبـ أخطاء تاريخية ، وآراء شاذة متطرفة ، تضمنها كتاب « آب حياة » للكاتب

---

(١) مقارنة بين شاعرين أردويين معاصرين متنافسين « أنيس » و « دبير

محمد حسين آزاد الذى كان له سحر فى الأوساط الأدبية ، شغل الناس عن التمحيص و التحليل والنقد الجرى ، و « شعر الهند » للأستاذ عبد السلام الندوى ، و كلها حلقات ذهبية فى هذه السلسلة العلمية ، ومهما تقدم العلم و النقد خطوات ، ومهما تكشفت الجهود فى هذا الموضوع ، فاننا لن ننسى ما كان لهؤلاء المؤلفين و الباحثين من الفضل فى خدمة اللغة و الأدب ، و سوف نظل مدينين لجهودهم المخلصة فى هـــذا المجال .

أفراد يقومون بدور المجامع العلمية :

و قد قام بعض الأفراد فى الهند وحدهم بما تقوم به المجامع العلمية . بمكتباتها الغنية ، و وسائلها الوفيرة ، و جهازهـا التحريرى و الادارى الكبير ، من بحث و تحقيق ، وكتابة وتأليف ، وذلك كله فى عزلة علمية مادية ، وزهادة فى المعونات الحكومية ، وبعد عن الدعاية و الشهرة ، وخمول وانزواء ، و إن دل ذلك على شئ فانمـا يدل على أن البيئة العلمية و التربوية القديمة التى نشأ و عاش فيها هؤلاء المؤلفون كانت أقدر على بعث روح المثابرة و الصبر و الجلد ، و التضحية وتحمل العناء و المشاق ، من البيئة العلمية الحديثة و الجامعات العصرية .

نخص بالذكر من هؤلاء العلماء و المؤلفين العلامة محمود حسن خان التونكى (م١٣٦٦هـ) صاحب كتاب « معجم المصنفين » (فى العربية) فى نحو ستين ٦٠ مجلداً ، يحتوى على عشرين ألفاً من الصفحات وعلى تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، و قد ظهرت من الكتاب أربعة أجزاء على نفقة الحكومة الآصفية فى حيدر آباد سنة ١٣٥٤هـ من بيروت ، الجزء الأول فى أمور عامة مفيدة كأبواب وفصول فى تقييم العلم و فى أوائل ما ظهر من العلوم ، وفصول فى ملل و أمم مختلفة بحسب عنايتها بالعلوم ، وباب خاص بالتدوين فى الاسلام ، وأبواب فى المؤلفين والمؤلفات

على اختلاف طبقاتهم و أنواعها ، وفصول فى مختلف العلوم و الفنون ، ومن أكبر مزايا الكتاب شموله واحتواؤه ، يقول المؤلف فى مقدمة الكتاب بعد ذكر « كشف الظنون » للجلبي و ما استدرك عليه .

« فبذلك جاء كتابنا هذا شرحا للكشف واستدراكا عليه فى باب المصنفات ، و لم آل جهدى فى الاستقصاء ، فبالغت فى إحراز تراجم العلماء الذين صنفوا فى العلوم التى تداولت فى عهد الاسلام ، من العلوم الاسلامية و غيرها من معقولات الفلاسفة ، من العلماء الذين نشأوا فى بلاد العرب والعجم ، و العراق ، و مصر ، و الأندلس ، و الروم ، و خراسان ، و ما وراء النهر ، والسند ، و الهند و ما وراء ذلك ، ولا أقول إنى أوعبت العلماء كلهم فى الكتاب ، و إنه لا يغادر صغيراً ولا كبيراً من أهل التأليف إلا أحصاه بل ذلك خارج عن طوق البشر (١) »

و يدل على استيعاب الكتاب أن عـدد من جاء من اسمه إبراهيم يبلغ إلى ٣٤٨ إسما ، و مع الأسف بقى هذا الكنز الثمين دفيناً فى إحدى المكتبات الخطية فى حيدر آباد ، لأن الأعمال فى الشرق الاسلامى — مع الأسف — ليست بقيمتها العلمية ، وعنـاء المؤلفين فيها ، وحاجة المشتغلين بالعلم إليها ، بل بالدعاية و وسائل النشر ، وتبنى المؤسسات و الحكومات لهـا .

و العلامة السيد عبد الحى الحسنى (م ١٣٤١ ﻫ) صاحب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر » (٢) فى ثمانية مجلدات تحتوى على أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة ٤٥٠٠ ترجمة من أعيان الهند و رجالاتها ، من القرن الاسلامى الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو الكتاب الذى عليه الاعتماد فى الشرق

---

(١) المجلد الأول ص ٢٩ .

(٢) صدرت للكتاب طبعتان من دائرة المعارف العثمانية فى حيدرآباد (الهند)

و الغرب فيما يتصل بتراجم رجال الهند و أخبارهم ، و الكتاب يغطى المساحة الزمنية الممتدة من القرن الاسلامى الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى والمساحة المكانية الممتدة من مضيق خيبر إلى خليج بنغال ، وتلك ميزة لا يشاركه فيها كتاب فى الطبقات و التراجم ألف فى قطر من الأقطار الاسلامية والعربية (١) ، هذا عدا ما التزمه المؤلف من التحرى للدقة و الأمانة العلمية ، و حسن الاختيار و التلخيص ، و تحديد اختصاص صاحب الترجمة و طبقته ، و كتاب « الثقافة الاسلامية فى الهند (٢) » الذى هو كدليل شامل كامل لمؤلفات علماء الهند فى الفنون الاسلامية و الأدبية و الحكمية ، و تاريخ الحركة العلمية و تطورها و نموها ، و المناهج الدراسية و ما طرأ عليها من تقلبات فى مختلف العهود مع بيان أسبابها وخلفياتها ، ولا نعرف بلداً إسلاميا أرخ المنهج الدراسى فيه والمقررات الدراسية ، هذا التاريخ المتصل مع بيان عوامله وأسبابه ، وكتاب «الهند فى العهد الاسلامى (٣)» الذى هو حلقة ذهبية من سلسلة كتب الخطط والآثار لمختلف البلاد والأمصار ، وفصل واحد منه يتضمن ما انتشر فى مكتبة ، و صفحة واحدة تقوم بكتاب كبير .

---

(١) لجميع هذه الكتب المؤلفة فى الطبقات و التراجم خارج الهند تختص بقرون مخصوصة أوولايات مخصوصة ، أو طبقات معينة كالمحدثين و الفقهاء ، أو النحاة أو الأطباء و غيرهم ، بخلاف هذا الكتاب فانه يشمل جميع الطبقات من أهل النباهة و الشأن .

(٢) قام بنشره المجمع العلمى بد مشق سنة ١٣٧٧ ﻫ / ١٩٥٨م) و قد نفدت هذه الطبعة ، و ستصدر الطبعة الثانية مع ذيول للكتاب و تتمة من مجمع اللغة العربية (المجمع العلمى قديماً) فى دمشق قريباً إن شاء الله .

(٣) قام بنشره دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد .

و يدخل فى هذا الطراز من المؤلفين العلامة حميد الدين الفراهى المعروف بالمعلم عبد الحميد الفراهى (م ١٣٤٩ ﻫ) الذى هو صاحب منهج خاص فى التفسير يعنى بنسق الآيات و ربطها بصفة خاصة ، له نظام الفرقان ، و هو صاحب كتاب « الامعان فى أقسام القران » و « الرأى الصحيح فى من هو الذبيح » وهو خير ما ألف فى هذا الموضوع .

و كذلك العلامة عبد العزيز الميمنى (م١٣٩٨ ﻫ) الراجكوتى صاحب « أبو العلاء و ما إليه (١) » و هو أحسن كتاب فى الموضوع تحقيقاً و دقة و عمقاً ، و كتاب « سمط اللآلى (٢) » ، و كان المرحوم ، أحد أعضاء مجمع اللغة العربية بد مشق ، و جماعة تصحيح لسان العرب لابن منظور .

و من علماء الهند البارزين الذى قاموا بدور العمل المجمعى الموسوعى فرديا فى علم الحديث ، العلامة عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفورى ، الأعظم كرهى (م١٣٥٣ ﻫ) صاحب « تحفة الأحوذى فى شرح جامع الترمذى » فى ثلاثة مجلدات كبار ، و جزء مفرد بالمقدمة ، يدل على علو كعبه فى معرفة أسماء الرجال و فن الجرح و التعديل ، و طبقات المحدثين و تخريج الأحاديث .

و الشيخ العلامة المحدث محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوى السهارنفورى

---

(١) نشرته دار المصنفين فى أعظم كره فى سلسلة مطبوعاتها و طبع بالمطبعة السلفية القاهرة سنة ١٣٤٤ﻫ ، و فى الكتاب تقريظ و آراء بقلم العلامة أحمد تيمور ، والشيخ أحمد الاسكندرى ، و الشيخ عبد الوهاب النجار ، و العلامة أحمد محمد شاكر .

(٢) نشرته لجنة التأليف و الترجمة و النشر فى مصر سنة ١٩٣٦م فى ثلاثة مجلدات كبار .

(المهاجر إلى المـدينة المنورة) و يكفى دلالة على سعة نظره و مـدى عنائه فى البحث والتحقيق كتابه « أوجز المسالك إلى مؤطا مالك » فى ستة أجزاء كبار، و مقدمته على هذا الكتاب ، وعلى كتاب « لامع الدرارى على جامع البخارى » موسوعتان صغيرتان فيما يتصل بهـذين الكتابين الجليلين و مؤلفيهما العظيمين ، و بحوث مفيدة فى أصول الحديث و أسماء الرجال ، و معلومات قيمة عن الأئمة الاربعة و مذاهبهم ، و فيما يختص بالهند و اخبار كبار الأساتذة و المحدثين فيها و كذلك كتابه « حجـة الوداع و عمرات النبى ﷺ » يمتاز باستيعاب شامل و استقصاء كامل فى هذا الموضوع .

و منهم المحدث الكبير الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى ، و قد تجلى اختصاصه فى علم الحديث وأسماء الرجال، و تبصره فى علوم الحديث ودقة نظره فى اخراجه لمصنف الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعانى (م ٢١١ هـ) (١) ، و قـد أفرد جزءاً خاصاً بمقدمة هـذا الكتاب ، و قد عنى قبل هذا بتحقيق مسند الحميدى و سنن سعيد بن منصور ، (٢) .

وكتاب « حياة الصحابة » فى ثلاثة مجلدات كبار للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى

(١) قام بنشرة و طبعه فى بيروت المجلس العلمى الذى له مكاتب فى سملك دابهيل الهند ، و كراتشى ، و جوهانس برغ ، و قد أنشأه الشيخ محمد ميان السملكى الهندى ، المقيم فى جوهانس برغ (م١٣٨٢هـ)

(٢) و قد حقق « كتاب الزهـد و الرقائق للامام عبد الله بن مبارك المروزى ، و « كشف الاستار عن زوائد البزار » على الكتب الستة تأليف الحافظ نور الدين على بن إبى بكر الهيثمى ، و المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر العسقلانى .

(أمير جماعة التبليغ) (م ١٣٨٤ ﻫ) يكاد يكون موسوعـة فى حياة الصحابة و سيرتهم الايمانية و الدعوية و الخلقية و السلوكية . و من أجمع ما كتب فى الموضوع و أكثره احتواءا و تنوعا (١) .

دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد :

و من المؤسسات العلمية الكبيرة التى كان لها فضل كبير فى إحياء الكتب الدينية و العلمية ، و بعثها من مدافنها فى المكتبات العتيقة ، و نشرها بتصحيح و تحقيق فى العالم الاسلامى ، دائرة المعارف العثمانيـة فى حيدرآباد التى تأسست عام ١٣٠٦ﻫ (١٨٨٨ م) بتوجيه العلامة السيد حسين البلكرامى ، و مولانا عبد القيوم ، و مولانا أنوار الله خان أستاذ سمو « النظام » ، و قد نشرت أكثر من مائة و خمسين كتاباً قيماً من كتب الحديث و أسماء الرجال و التاريخ و العلوم الرياضية و الحكمية ، حرمها العالم الاسلامى و الأوساط العلمية من عهد بعيد ، وتسامع بها العلماء و المدرسون ، فكانت خدمة جليلة للعلم و الدين و برهانا على ما كان ـ ولا يزال ـ للمسلمين الهنود من إتصال روحى وفكرى بالثقافة الاسلامية وحب عميق لها ، و قد اعترف بجهود هذه المؤسسة العظيمة و جلالة عملها و قيمة ما تنشره من التراث العلمى كبار العلماء و رجال الثقافة فى الشرق و أوربا (٢)

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من مطبعـة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، و الطبعات التالية من دمشق و غيرها .

(٢) من أهم مطبوعاتها مسند أبى داؤد الطيالسى ، و السنن الكبرى للبيهقى ، والمستدرك للامام الحاكم ومعرفة علم الحديث للحاكم فى الحديث وعلومه ، والاستيعاب فى معرفة الاصحاب لابن عبد البر ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ،

العمل التأليفى و التحقيق فى اللغة العربية فى العالم العربى :

أما فى اللغة العربية التى هى اللغة العلمية العالمية للعالم الاسلامى، وأولى اللغات بأن تتم فيها الدراسات الاسلامية ، و البحوث العلمية ، على مستوى أعلى و إطار أوسع ، فقد ظهرت فيها فى العالم العربى مؤلفات وبحوث إن لم تكن جديرة بسعة هذه اللغة ، و سعة العالم العربى و أهميته كماً و عدداً ، فانها لاشك تعتبر نماذج للبحث العلمى ، و غزارة المادة وحسن التحليل ، تأتى فى طليعة هذه الكتب سلسلة « فجر الاسلام » وضحى الاسلام » للدكتور أحمد أمين بك ، على ما فيها من مآخذ و ملاحظات ، و فى بعض آراء المؤلف شذوذ ومجال للنقاش (١) ، وقد سجلت تعليقاتى عليها أثناء دراستى لها ، و أخبرت بذلك المؤلف الفاضل فى أولى لقاءاتى له فى القاهرة فى يناير ١٩٥١ م ، فأحب الاطلاع عليها و الاحتفاظ بنسختى ، و لكن مما لاشك فيه أن هذه الكتب نموذج لجمع المواد المبعثرة فى المصادر القديمة و تحليلها العلمى و الاستنتاج منها ، و عرض التاريخ الاسلامى فى الأسلوب العصرى الذى لا تتفوق عليه كتابات كبار المستشرقين ، هذا مع مجاراة الطبع و الرواء ، و عدم التكلف وحسن الانشاء و جمال العرض .

ويلحق بذلك كتابات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وتعليقاته ، خصوصاً كتابه الجليل « الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية » (٢) (١ ـ ١٠) وحواشيه

★ و تهذيب التهذيب لابن حجر فى علم الرجال ، و التاريخ الكبير للامام البخارى و المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجوزى ، فى التاريخ ، و كتاب البيرونى فى تحقيق ما للهند ، و الاكمال لابن ماكولا ، و الازمنة والامكنة لأبى على المرزوقى فى علوم مختلفة .

(١) ليرجع إلى كتاب « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » ص ٢٨١ ـ ٣٠٢ .

(٢) طبعت منه ثلاثة أجزاء .

على كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فى أربعة أجزاء ، و الكتاب من (Lothrop Stoddard) و ترجمة الأستاذ عجاج نويهض ، فالاول موسوعة فى ما يتعلق بالأندلس الاسلامى ، و الثانى موسوعة فى واقع العالم الا و رجالاته و حركاته و بلاده ، و قد جاء فيه نقد بصير للمستشرقين و الأ الأوربيين ، ودراسات قيمة عن الحضارة الاسلامية ، والحركة العلمية فيها وم و ثيقة عن الدولة العثمانية و ما كان يتخللها من نزعات و حركات متناقضة فتوح العرب و الفتوحات الاسلامية فى مختلف البلاد ، و عن تاريخ ا الاجنبى فى مختلف البلاد الاسلامية و الحركات المناوئة له ، وعن النهضة ا ى القارات المختلفة ، و مقالات و بحوث مفيدة فى الدفاع عن الاسلام ، الأباطيل ، و كتاب « غزوات العرب فى فرنسة وشمالى ايطالية و فى سوي

و كان كتاب « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلى (فى اثنى عش مجلداً من أصل الكتاب و مستدركه و مجموع خطوط و صور) معجم الأفراد و قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب ، و ا و المستشرقين ، و الكتاب عمل موسوعى مجمعى يشكر مولفه عليه بمجهوده الفردى ، وقد ظهرت براعة المؤلف فى الاطلاع الواسع والاحا وفى حسن التلخيص و الاقتباس و توفير الوقت و المجهود على المؤلفين و

و كذلك مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، والأستاذ محمد فانها تمتاز بالعمق وسعة الدراسة و الثقافة ، و الاطلاع على المصادر و كتب العقاد فى العبقريات ، و كتابه « المرأة فى القرآن » و أثر الحضارة الأوربية ، « حقائق الاسلام و أباطيل خصومه » وغير ذلك من و البحوث ، و كتاب الأستاذ محمد كرد على « الاسلام و الحضارة

و كتابه « خطط الشام » مثال للكتابة العلمية و العمل المجمعى الموسوعى .

كذلك كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على « وكتاب تاريخ التراث الاسلامى» لفواد سزكين عمل مجمعى يستحق التقدير ، مع الاحتفاظ ببعض الملاحظات و النقد الذى هو حق الباحثين و طلاب العلم فى كل عصر ، و كتب اللواء الركن محمود شيت خطاب فى الغزوات و الفتوح الاسلاميــــة بعنوان قادة الفتح الاسلامى ، و « الرسول القائد » كتب ذات قيمة علمية تاريخية و عسكرية ، و مادة غزيرة من المعلومات و الدراسات .

و لا ينسى فى هذا الصدد المشروع العلمى الكبير و المخطط الواسع النافع الذى يقوم به صديقنا الأستاذ أنور الجندى وحده وهو « موسوعة مقدمات العلوم و المناهج » المجلد الأول منه خاص بالفكر الاسلامى ، و المجلد الثانى فى تاريخ الاسلام ، و المجلد الثالث فى العالم الاسلامى المعاصر ، و الرابع فى اللغة و الأدب والثقافة ، وقد صدرت هذه المجلدات الأربعة ، أما الخامس ففى التبشير والاستشراق و الدعوات الهدامة ، و السادس فى المجتمع الاسلامى ، والسابع فى الحضارة والعلم و العلوم الاجتماعية ، و الثامن فى الاسلام و موقفه من الفسلفــات و الأديان ، و التاسع فى الشبهات و الأخطاء الشائعة ، و العاشر فى حركة اليقظة الاسلامية و لوتم هذا العمل وصدر الكتـاب لجميع أجزائه كانت موسوعة كبيرة فيما يتصل بالاسلام و المسلمين ، ومكتبة غنية فى العلوم و الآداب الاسلامية .

ويلحق بكتاب الأعلام للزركلى ، و تاريخ التراث الاسلامى لفواد سزكين ، كتاب « معجم المؤلفين » (تراجم مصنفى الكتب العربية ، تأليف عمر رضـــا كحالة ، فى خمسة عشر جزءاً ، وإن كان ينقصها أسماء كثير من المؤلفين المعاصرين ،

و لكنه مجهود يستحق التقدير و الشكر (١) .

أما فى الموضوعات الدينية الشرعية فكتب العلامة محمد أبى زهرة المدارس الفقهية و العقائدية فى الاسلام ، وفى تاريخ الفرق الاسلامية و و كتاب صديقنا المجاهد الداعية الدكتور مصطفى السباعى « السنة و التشريع الاسلامى » و هو أفضل ما كتب فى الموضوع و أجمعه ، كتابه « المرأة بين الفقه و القانون » ، و كذلك كتاب زميله و صديقه مصطفى أحمد الزرقاء « المدخل الفقهى العام » مجهود على كبير يسد حاج الاسلامية التى يعنيها تطبيق الشريعة الاسلامية والقانون الاسلامى المدنى كتاب « التشريع الجنائى الاسلامى ، مقارنا بالقانون الوضعى » الأ القادر عودة الشهيد ، عمل على تحقيقى و إنتاج حقوقى كبير .

كذلك عمل الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتى والد لا حسن البنا فى ترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل على الأبواب الفقهية عمل جليل تاريخى ، و هو المسمى « بالفتح الربانى لترتيب مسند الام حنبل الشيبانى » (٢) و كذلك عمل العلامة أحمد محمد شاكر فى هـ نفسه عمل فردى شاق ينوء بالعصبة أولى القوة (٣) .

---

(١) ألف الكتاب فى ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) و نشرته مكتبة المثنى و التراث العربى .

(٢) مع الأسف لم يكمل هذا العمل ، و قد صدر من هذا الكتـ اثنان و عشرون (٢٢) جزءاً ، و مع الكتاب بلوغ أسرار الفتح الربانى ، صدر من مطبعة الاخوان المسلمين .

(٣) خرج العلامة أحمد محمد شاكر أحاديث الكتاب و رقمها و

دراسات إسلامية عميقة و مقارنة :

و قد ظهر فى هذه الفترة كتاب دل على سعة دراسة عالم دينى فقيه و عمق نظره فى الفلسفة القديمة و الحديثة ، و اطلاعه الواسع الدقيق على ما وصل إليه علم الحديث ، -- من الفيزيا والفلك -- وحسن عرضه للعقيدة الاسلامية و إثباتها بالدلائل العلمية ، فى إطار قصة شائقة ، و هو كتاب « قصة الايمان بين الفلسفة و العلم و القرآن » للشيخ نديم الجسر مفتى طرابلس ، و لبنان الشمالى (١) .

و كذلك كتابان للعالم العراقى الأستاذ محمد باقر الصدر يتسمان بعمق الدراسات المقارنة و الاطلاع الواسع و دقة النظر فى الفلسفات والنظم المعاصرة ، و هما كتاب « اقتصادنا » فى جزئين ، الجزء الأول فى دراسة موضوعية للمذاهب الاقتصادية ، و الجزء الثانى فى محاولة لاستنباط المذهب الاقتصادى فى الاسلام ، و الكتاب الثانى « فلسفتنا » و هى دراسة موضوعية فى معترك الصراع الفكرى القائم ، و من البديهى أنه لا يستلزم هذا الاعتراف الموافقة الكلية على ما جاء فى هذين الكتابين .

و يأتى بعد ذلك دور كتابات الأستاذ سيد قطب الشهيد ، فى مقدمتها كتاب « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » (٢) و مؤلفات أخيه محمد قطب ككتابه

★ فهارس للموضوعات و علق تعليقات قيمة ، و قد طبع من الكتاب خمسة عشر جزءاً ، و اخترمته المنية قبل أن يتمه رحمه الله .

(١) و هو ابن الشيخ حسين الجسر صاحب « الحصون الحميدية » الكتاب الذى ملأ فراغاً فى الحلقات الدراسية و المدرسية القديمة ، و سد حاجة من حاجاتها العلمية و التعليمية ، كذلك « الرسالة الحميدية »

(٢) مع تقدير الكاتب للكتاب وصلة الصداقة والحب بالكاتب . لا يوافق ☒

« شبهات حول الاسلام » و كتبه فى التربية الاسلامية و علم النفس ، و كتاب الدكتور محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » و كتاب الأستاذ محمد المبارك — الذى فقده العالم العربى و الدعوة الاسلامية حديثاً — « فى الفكر الاسلامى الحديث » و كتاب « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » و « حصوننا مهددة » للدكتور محمد محمد حسين ، أما كتاب صديقنا الدكتور الشيخ يوسف القرضاوى « فقه الزكاة » فهو عمل موسوعى كبير وأجمع كتاب فى هذا الموضوع ، و قد نقل إلى اللغة الأردية

كتاب الدعوة و دعاة الفكرة الاسلامية :

قد خصصنا بحثنا هذا بالكتب و البحوث التى تتناول الموضوعات التى كانت تعتبر من خصائص المستشرقين و مجالات تأليفهم ، و تمتاز بالاتجاه الموسوعى الأكاديمى و الدراسات المقارنة ، و الاستفادة من المصادر الأجنبية ، و إلا فقد نشأت نهضة أدبية و تأليفية قوية بتأثير حركة « الاخوان المسلمون » الكبرى فى مصر ، و انتقل الأدب و الكتابة و التأليف من دائرة البحث و التحقيق ، المقصورة على العلماء و الدارسين ، إلى دائرة شعبية أوسع ، و نبغ كتاب و مؤلفون يخاطبون الجمهور و يحركون العاطفة و الايمان و دوافع العمل الباطنية ، و تمس كتاباتهم القلوب كما أنها تغذى العقول ، كان فى مقدمتهم و على رأسهم الأستاذ سيد قطب ، و الشيخ محمد الغزالى ، والأستاذ سيد سابق (صاحب كتاب « فقه السنة » الكبير) و الأديب الكبير الأستاذ على الطنطاوى و غيرهم ،

* كاتب هذه السطور على كل جاء فى الكتاب عن ثالث الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، و على كل ما جاء فى نقد الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، و العصمة لله وحده .

و استعراض هؤلاء الكتاب و كتاباتهم الاسلامية الدعوية من موضوع مؤرخى الفكرة الاسلامية ، و الدعوة الاسلاميـــة ، و مجال البحث واسع يحتاج إلى كتاب مستقـل (١) .

البحث و التحقيق فى الجزيرة العربية :

و قـــد عاشت الجزيرة العربية فترة من الزمن فى عزلة عن حركة البحث و التحقيق التى نشطت ، و توسعت فى مصر و الشام بصفة خاصة ، بفضل المجامع العلمية (الأكاديميات) و الجامعات الكبيرة الكثيرة ، و المجلات العلميـة الراقية ، إلا أنها بدأت رحلتهـا فى عهـد الحكومة السعودية أخيراً ، و ظهرت كتـابات و بحوث و تأليفات تمتاز بالروح التحقيقيـة ، و يتسم بعضها بالطابع الموسوعى الأكاديمى تظهر نماذجه فى بحوث الأستاذ حمد الجاسر الجغرافية التحقيقية (٢) ، و بحوث الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار فى اللغة و المعـاجم (٣) ، و الشيخ

(١) نشرت مجلة « البحث الاسلامى » الصادرة من ندوة العلماء لكنئو ، الهند ، سلسلة مقالات الأستاذ واضح رشيد الندوى ، عنوانها « أدب الصحوة الاسلامية » و هى تدخل فى هـــذا الموضوع ، (« البحث الاسلامى » الأعداد الثامن و التاسع و العاشر من المجـــلد السادس و العشرين ، ١٤٠٢ ﻫ - ١٩٨٢ م) .

(٢) صاحب الكتابين « فى سراة غامد و زهران » و « فى شمـــال غرب الجزيرة » وهو صاحب الاسهام فى « الموسوعة الجغرافية لجزيرة العرب » صدر منه خمســة عشر مجلداً ، و كلها من منشورات دار اليمامة للبحث و الترجمة و النشر ، الرياض .

(٣) ككتابه « الصحاح و مدارس المعجمات العربية » ، و تحقيقــه لتهذيب الصحاح للزنجانى ، والصحاح للجوهرى ، ومقدمة تهذيب اللغة للأزهرى .

عبد القدوس الأنصارى فى الخطط و الآثار (١) ، والأستاذ محمد أحمد باشميل فى سلسلة من معارك الاسلام الفاصلة و الغزوات النبوية الشهيرة (٢) .

هذا عدا كتابات وكتب فى موضوع الفقه و التشريع الاسلامى ، والحديث و التفسير ، و بعض القضايا الاسلامية المعاصرة ، و قائمة أسماء العاملين فى هذا المجال تطول ، و أخشى أن تفوتنى فى هذه الفرصة القصيرة أسماء تستحق التنويه .

و قد ساقت الظروف القاسية و الأوضاع السياسية المتقلبة فى مراكز الثقافة الاسلامية العربية الكبرى فى الشرق العربى ، أقوى العناصر العلمية وخيرة الأساتذة و الباحثين الاسلاميين إلى المملكة العربية السعودية ، و إلى الكويت ، و قطر ، و الامارات العربيـة المتحدة ، و إلى لبنان ، و الأردن أحيـاناً ، فكان فى ذلك مكسب لهذه الأقطار التى كانت تستورد البضاعة العلمية فى الغالب ، ولا تصدرها ، و عينوا أسـاتذة فى جامعاتها ، فنشطت حركة البحث و التأليف ، و إعـداد البحوث و الرسائل العلمية ، خصوصاً فى جامعات المملكة الست (٣) و فى جامعة الكويت ، و جامعة قطر فى الدوحة ، و جامعة العين فى الامارات ، و ظهرت بحوث و رسائل تتفاوت فى قيمتها العلمية ، و تختلف مستوياتها ، و لكنها تعود على المكتبة العربية بفوائد وتثريها ، وقائمة هؤلاء الأساتذة المهاجرين أو اللاجئين ، أو الزائرين طويلة ، و لكنها مشرقة لهذه الجامعات ، ومصدر خير كثير .

---

(١) ككتابه « آثار المدينة المنورة » و « مدينة جدة »

(٢) صدرت منها عشرة أجزاء و هى غزوة بدر الكبرى ، غزوة أحد ، غزوة الأحزاب ، غزوة بنى قريظة ، صلح الحديبيـة ، غزوة خيبر ، غزوة مؤتة ، فتح مكة ، غزوة حنين ، غزوة تبوك .

(٣) و هى جامعة الامام محمـد بن سعود الاسلاميـة ، و جامعة الرياض ، وجامعة الملك عبد العزيز فى جدة ، وجامعة أم القرى فى مكة ، والجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة ، و جامعة البترول فى الظهران .

رسائل الدكتوراة و البحوث الجامعية :

و كان لنظام رسائل الدكتوراة الجامعية ، و البحوث التى يعدها طلبة الدكتوراة سهم فى التمرن على البحث العلمى على الأسلوب العصرى الجديد ، وإن كان أكثرها لا تحمل قيمة كبيرة لكثرة الراغبين فى ذلك ، و عدم وجود الاشراف الدقيق ، و التوجيه البصير الجاد فى كثير من الجامعات ، و لكن بعضها تحمل الخصائص الحسنة التى اشتهرت بها كتابات المستشرقين . من جمع المواد المبعثرة فى مظانها و فى غير مظانها و حسن تنظيمها ، و الاستنتاج منها ، بجانب المزايا التى لا يقدر عليها إلا أبناء اللغة ، و الناشئون فى البيئة الاسلامية ، يذكر من ذلك ـ على سبيل المثال ـ كتاب «المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول» للدكتور شكرى فيصل (١) ، و كتاب «أبو الكلام آزاد» رسالة جامعية للدكتور الشيخ عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف بمصر سابقاً) (٢) و كتاب «مكة و المدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف المدرس فى كلية الآداب جامعة عين شمس (٣) ، و كتاب «الطائف فى العصر الجاهلى و فى صدر الاسلام» للدكتورة نادية حسنى صقر (٤) ، و كتاب «بنوإسرائيل فى القرآن والسنة» للدكتور محمد سيد الطنطاوى ، و «الاسرائيليات و أثرها فى كتب التفسير» تأليف الدكتور رمزى نعناعة .

فى إيران و تركيا :

أما فى إيران ، و تركيا فمرقى بالنتاج العلمى التحقيق فيهما قليلة ، أستثنى

---

(١) قامت بنشره مكتبة المثنى ببغداد ، والخانجى بمصرسنة ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) .

(٢) و له كتاب «تاريخ الاسلام فى الهند» و كتاب «كفاح المسلمين فى تحرير الهند» من أحسن ما كتب مؤلف غيرهندى عن المسلمين فى الهند .

(٣) نشرته دار الفكر العربى فى مصر .

(٤) طبع دار الشروق جدة ١٩٨١م .

من ذلك كتب الدكتور السيد حسين نصر باللغة الانجليزية ، و هى على مستوى رفيع من البحث و اللغة .

في المغرب العربي الاسلامى :

أما ما يتصل بالمغرب العربي الشمالى ، فما زالت المدرسة المغربية العربية الاسلامية ، تحمل طابعاً خاصاً يتسم بسعة الدراسة و نقاء اللغة و الاطلاع الواسع على مصادر السنة و دواوين الحديث ، و قد كانت مؤلفات العلامة الشيخ عبد الحى الكتانى الحسنى الادريسى ، وخصوصاً كتابه «التراتيب الادارية» فى نظام الحكومة النبوية أشبه بموسوعات علمية تحمل العلم الغزير والفوائد الكثيرة .

و قد نبغ فى المغرب العربي مؤلفون باحثون تعمقوا فى الدراسات الدينية وفهم مقاصد الشريعة الاسلامية ، مثل العلامة زعيم المغرب الأستاذ علال الفاسى ، و الشيخ طاهر بن عاشور وابنه الفاضل فاضل بن عاشور ، و الأستاذ مالك بن بنى و الأستاذ محمد بشير الابراهيمى ، و لا يزال الأساتذة محمد الفاسى ، و عبد الله كنون ، و عبدالكريم الخطيب ، و مهدى بنعبود ، و عبد السلام يسين فى المغرب الأقصى ، و الأساتذة الدكتور الحبيب بالخوجة ، و الشاذلى نيفر ، وأحمد الحمانى ، يكتبون و يفيدون ، و يثرون المكتبة العربية الاسلامية ببحوثهم و تحقيقاتهم ، و هنالك كتاب وباحثون يظهرون على منبر « دعوة الحق » المغربية ، و المجلات العلمية الصادرة من هذه الناحية فى العالم العربي ، يبشرون بمستقبل زاهر فى مجال البحث ، و التفكير من الصعب العسير استقصاء أسمائهم .

جهاد اليوم و واجبه المحتم :

و أختم هذا المقال بقطعة أستعيرها من كتابى « ردة و لا أبا بكر لها » .

« إن جهاد اليوم وإن خلافة النبوة ، وإن أعظم القربات ، وأفضل العبادات أن تقاوم هذه الموجة اللادينية التى تجتاح العالم الاسلامى، وتغزو عقوله ومراكزه،

و أن تعاد الثقة المفقودة إلى نفوس الشباب و الطبقات المثقفة بمبادىء الاسلام و عقائده و حقائقه و نظمه ، و بالرسالة المحمدية ، و أن يزال القلق الفكرى ، و الاضطراب النفسى اللذان يساوران الشباب المثقف ، و أن يقتنعوا بالاسلام عقلياً و ثقافياً ، و أن تحارب المبادئ الجاهلية التى رسخت فى النفوس و سيطرت على العقول علمياً وعقلياً ، وأن تحل محلها المبادىء الاسلامية باقتناع وإيمان ، وحماسة .

لقد مضى علينا قرن كامل وأوربا تغتصب شبابنا و عقولنا ، و تنبت فى عقولنا الشك و الالحاد و النفاق و عدم الثقة بالحقائق الايمانية و الغيبية ، و الايمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية و السياسية . و نحن معرضون عن مقاومتها ، معتمدون على ما عندنا من تراث ، مضربون عن الانتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها و نظمها و محاسبتها محاسبة علمية . ونقدها و تشريحها كتشريح الأطباء الجراحين ، متطلون بالبحوث السطحية المستعجلة ، و بالزيادة فى ثروتنا العلمية القديمة ، حتى فوجئنا فى العصر الأخير بانهيار العالم الاسلامى فى الايمان والعقيدة ، وملك زمام الأمور فى البلاد الاسلامية جيل لا يؤمن بمبادىء الاسلام وعقيدته ، ولا يتحمس لها ، ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريئ إلا «القومية الاسلامية» أو المصالح السياسية .

إن العالم الاسلامى فى حاجة إلى منظمات علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الاسلامى القوى الجديد الذى يعيد الشباب المثقف إلى الاسلام بمعناه الواسع ، من جديد ، و يحررهم من رق الفلسفات الغربية التى آمن بها كثير منهم بوعى و دراسة ، و أكثرهم بتقليد و تسليم ، و يقيم فى عقولهم أسس الاسلام من جديد ، و يغذى عقولهم و قلوبهم ، إنه فى حاجة إلى رجال فى كل ناحية من نواحى عالم الاسلام عاكفين على هذا الجهاد .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مدخل إلى البحث :

المستشرقون و الاسلام

د/ أنور الجندى

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة ، و نستفتح بالذى هو خير ، و حتى نستطيع أن ندخل فى صميم البحث عن موقف المستشرقين من القرآن الكريم و السيرة النبوية و السنة لا بد أن نعرض لموقف الاستشراق من الاسلام جملة كتمهيد للموضوعات الثلاث المثارة ، فنقول وبالله التوفيق :

كان موقف الاستشراق من الاسلام موقفاً مستمداً من الفهم الدينى الغربى أساساً فهو فهم قاصر و محـــدود و مغلوط فى نفس الوقت لأنه مأخوذ من التفسيرات التى قام بها الأحبار و الرهبان لدين الله الحق ، و هى تفسيرات تحول دون فهم الاسلام : بوصفه ديناً خاتماً للاديان السماوية أو مصدقا لما بين يديه من الأديان ، وذلك لأن هذه التفسيرات فصلت نفسها عن الاسلام ، بينما جاء الاسلام فى كتب الأديان السابقة مرحلة تالية لها و جاءت رسلها مبشرين به و بنبيه ومن هنا فقد نظر الغربيون إلى الاسلام على أنه شئ معارض لما يعتقدون و ما هو بمعارض فى الحقيقة ، و نظروا إلى أنه مأخوذ من كتبهم و ما هو كذلك، وإنما التفسير الصحيح هو أن الأديان كلها من عند الله تبارك و تعالى ، و هى متكاملة المراحل يسلم بعضها إلى بعض حتى يكون الاسلام ختامها . فالأصول العامة لدين الله فى العقيدة واحدة ، ولذلك فلا عجب أن تلتقى فيه الأديان كلها ، و إن اختلفت فى الشرائع و النظم ، ومن هنا يثير المستشرقون الشبهات : شبهات مصدرها هذا الالتقاء

فى الأصول و إن تبين بعد أن وجـه المقارنة مفقود من حيث أن القرآن كتاب سماوى ما يزال محفوظاً بنصه الربانى بينما غيره من الكتب قد أصابها التحريف .

(١) و يذهب المستشرقون إلى فهم الاسلام فهما مادياً خالصاً فهم ينكرون الوحى وينكرون النبوة و ينكرون المصدر الربانى للقرآن وهم فى ذلك يصدرون عن مفهومهم المحدود للاديان الأخرى حيث يوصف « الانجيل » بأنه من كلام الرسل و حيث تختلط المفاهيم فى العلاقة بين الألوهية و النبوة .

و يحاول المستشرقون تعليل معجزة الاسلام الكاسحة فى الانتشار السريع فى العالم و فى التمكين اليسير فى الجزيرة العربيـــة بتعليل يخالف الحقيقة و يقلل من جوهر الأثر الذى أحدثه دين الله فى البشرية و خاصـــة فى الشعوب المغلوبة التى حررها الاسلام من ظلم الرومان ، فيصورن ذلك على نحو خاطئ فيقولون : إن العرب كانت ناهضة ولها حضارة و إنما كانت مستعدة للنهوض فلما جاء الرسول ﷺ قادها إلى النهوض فنهضت .

و هذا التعليل لا يصور الحقيقة أساسا فضلا عن أنه يقلل من أهمية الرسالة الاسلامية التى أخرجت الناس من الظلمات إلى النورر و بين أيدينا تاريخ الدعوة الاسلاميه وكيف قادها العرب ثلاثة عشر عاماً كاملة حتى اضطر الرسول إلى البحث عن بيئة أخرى تكون أكثر قابلية لدعوة الله و قد وجد ذلك فى يثرب بعد أن عاند أهل مكة عناداً شديداً و عارضوا دعوة الله معارضة بالغـــة و لم يكونوا فى حقيقة حياتهم مستعدين على النحو الذى يعين على النهوض بل كانوا يعبدون الأصنام و يأكلون الميته و يئدون البنات و يشربون الخمر و يقتلون و يزنون ، فلم يكونوا على أى وجه على صورة من صور الاستعداد للنهوض ، ولكن الاسلام هو الذى نقلهم هذه النقلة السريعة الخطيرة إلى الايمان بالله و رباهم على التضحية والبذل ، حتى

إذا ما انطلقوا فتحت أبوابهم الممالك ولقيهم أهلها رضاء بهم وثقة فى عدلهم ورحمتهم .

(٣) و لقد أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً للجاهليــة و حياة البداوة قبل الاسلام ، و اهتم بالوثنية العربية و حاول أن يتخذ منها منافذ للدس فى مختلف المجالات و خاصة فى مجال الشريعة ، فحاول أن يصور الجاهلية بأنها عصر البطولة كما عبر عن ذلك (هاملتون جب) مستهدفاً إظهار بعض جوانب القوة و الغنى فى حياة الجاهلية ، و لا عجب أن تكون فى الحياة الجاهلة جوانب قوة و هى بقية ما تركه دين إبراهيم و إسماعيل من آثار خلقية و اجتماعية ، هــذه الحنفية التى ظلت لها بقايا قائمة فى نفوس كثير من العرب حتى جاءت الرسالة الخاتمة .

ولقد حاول الاستشراق إعلاء الجاهلية واعتبار الاسلام اقتباسا منها وخاصة ما حاولوا التشكيك فيــه مما يتصل بآثار صلة المسلمين باليهود فى المدينة . كما أولى الاستشراق عن اهتماماً كبيراً بالأديان السابقة للاسلام وبالغساسنة والمناذرة بالذات طريق الادعاء بأن المسلمين عرفوا عن طريقهم شيئا من الكتب القديمة .

(٤) و من أخطاء الاستشراق ما يذهب إليه « هاملتون جب » فى كتابه (بنية الفكر الدينى فى الاسلام) حيث يقول ! إن الاسلام جاء ليضفى الصفــة الدينية على تلك الاحيائية العربيــة القديمة التى نسجتها الاعراف و البيئة بعد أن لم يستطع النبى عليــه السلام أن يتخلص منها ، و يقصد بالاحيائية القديمة تلك العقائد للروحية الخرافية كالسحر و التنجيم و الكهانة ، و لا ريب أن المستشرق (جب) قد اتخذ نفس طريقة الاستشراق التقليدية فى أن يقدم (فرضيات) مسبقة ثم يحاول البحث عن نصوص و قرائن لكى يضعها موضع القطع واليقين ، لا يبالى فى ذلك تزييف الأدلة أو نقضها أو نقل شطر منها و ترك شطر اخر كما فعل فيما نقل فى تأييد رأيه هـذا من كتاب (حجة الله البالغة) لشاه ولى الله الدهلوى بينما لم تبعد السطور بعد ذلك عن نفى ما ذهب إليه .

و قد ذهب (جب) إلى هذه الآراء من خلال افتراضه أن محمداً لم يكن (نبيا) و إن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهم إنما هو من مخترعاتهم و تقاليدهم ، التى ابتدعوها من عند أنفسهم ، وقال : إن تقديس الكعبة ليس أثراً من آثار دعوة إبرهيم و إنما هو شئ نسجته البيئة العربية فكان تقليداً و فرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية و إن ما جاء عنها فى القرآن و الأخبار مجرد وهم و تحمل تحريف الكلم عن مواضعه بنقل عبارة مغمورة من كلام طويل .

و تبدو غلبة الهوى على الاستشراق فى معارضته للحقائق الكبرى البارزة ، وحيث ينتصر المسلمون فى جميع معاركهم وأعدادهم أقل من أعداد عدوهم بمراحل كثيرة ، يجئ مثل الجنرال جلوب فى كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) ليثير شبهة تخلف المسلمين من ناحية الفن العسكرى ، بينما عرف المسلمون بالاقتدار فى مجال العسكرية و أساليب الحرب ، و قد اعترف لهم المنصفون بالفن العسكرى المتطور و القيادات الاستراتيجية و التكنيكية على أعلى مستوى ، بل لقد انفردت الحروب التى خاضها المسلمون و العرب أيام الفتوحات الأولى بمزايا سبقت أوانها بعصور (علم الحرب : لمنير شفيق) فقد قفز المسلمون فى العصر الأول بفن الحرب قفزة علت على أية قمة سبقتها ، و قد بقيت أرقى من أى قمة بعدها حتى جاء نابليون ، و لم يكن الجهاد الاسلامى جانب الفن العسكرى وحده ، و إنما كان إلى جانب ذلك الايمان و البذل و الحماسة التى تقوم على الرغبة فى الاستشهاد .

(٥) و يحاول بعض المستشرقين أن يثير شبهة الترابط بين الدنيا و الآخرة فى الاسلام بأنه انصراف عن الدنيا ، فيقول (فون حرونبادم) : إن الاسلام يدعو المسلمين إلى الانصراف عن الدنيا و مظاهرها ، و يدعوهم إلى تركيز العمل من أجل الآخرة و نعيمها المقيم ، و بهذه النظرة إلى الحياة يكون كل ما فيها عرض

زائل بما فيه العلم و الأدب و السياسة و الاقتصاد أما الجوهر فهو عبادة الله من صوم و صلاة .

ويرد على هذا الزيف الدكتور إبراهيم محمد زرقانه فيقول : إن هذا التفسير لتخلف المسلمين لا يتفق مع روح الاسلام ، فالاسلام لا يغلب العبادة على العمل بل لعله يغلب العمل على العبادة ، و المسلمون كانوا قادة العلم و كانوا وراء النهضة الأوربية الحديثة زودوها بالزاد العلمى الذى لولاه لما قامت هذه النهضة ثم كان رد الجميل أن استعمرت أوربا العالم الاسلامى وعملت على تخلفه ومنعه بالقوة العسكرية من أن يساير الركب العلمى و الاقتصادى فالتخلف فرض على المسلمين من أعدائهم و ليس فرضاً من دينهم ، و لعل المسلمين فى المستقبل القريب يقدمون الدليل على أن التخلف ليس من صفات دينهم بل إن دينهم هو دائماً سبب كل تقدم ، ذلك أن الاسلام يدعو إلى الربط بين التمسك بالدين و بين القوة الدينيــة برباط وثيق ، و يعتبر التمسك بالدين دعامة التقدم فى العلم و العمل و الاقتصاد و السياسة .

و إذا كان هناك انحراف فى التطبيق فليس معنى ذلك أن العيب كامن فى المسلمين أو أن التخلف أصبح نمطا حضارياً ثابتاً عند المسلمين ، كما أراد (جربنادم) أن يقول ، بل إن تخلف المسلمين عرض تاريخى لا يلبث أن يزول بزوال أسبابه ، و أكبر دليل على ذلك أن المسلمين شاعرون بتخلفهم و لو كان التخلف نمطا من أنماط حضارتهم لما شعروا به .

و المسلمون فى مختلف أنحاء العالم يتكلمون عن التخلف و يكادون يقفون على سببه الرئيسى بانصرافهم عن الاسلام و هو الانصراف الذى أغراهم به الاستعمار الغربى و مدى استعداد المسلمين للنقل من الحضارات الغربية ، و قد حرص كتاب الغرب على دفع المسلمين إلى النقل من الحضــارات الأخرى و تباكيهم على أن

المسلمين لا ينقلون قبل أن يستوثقوا أن ما ينقلوه لا يتعارض مع أصول دينهم ١٥٠.

(٦) تحت جناح الهوى و من وراء مشاعر التعصب عالج المستشرقون مستقبل الاسلام و حاول الكثير منهم القول بأن الاسلام لا مستقبل له ، أعلن ذالك (مرجليوث) منذ عام ١٩٠٤ ، و(لامنس) منذ عام ١٩٣٠ وكذبتهم الأحداث و وقائع التاريخ و تدفق الاسلام فى قوة ، فاتسع نطاقه فى أفريقيا و جنوب شرق آسيا ، و ظهرت دول إسلامية جديدة فى باكستان و إندونيسيا و غيرها ، و عاش الاسلام بعد أن ذهبت الخلافة ، و كانوا يتنبئون أنه سيسقط مع سقوط الدولة العثمانية و كانوا يدعون أن الاسلام لا يبقى و إذا ترك لنفسه إذا ما احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة ، واتصل الاسلام بالحضارة الاسلامية طويلا وتحداها و كشف عن زيفها و تحرر من كثير من محاولات احتوائه لها و سيطرته عليها ، و تجددت الفكرة الاسلامية مستمدة قوتها من منابعها الأولى .

و قالوا : إن التبشير المسيحى الغربى (التنصير) سوف يقضى على الاسلام ، و عجز التبشير بكل قوته و ماله و موارده ، أن يخرج مسلماً واحداً من دينه إلا من كان بطبيعته غير صادق الايمان بالله تبارك و تعالى .

ودخل المسلمون أفواجاً فى دين الله فى بلاد لم يكن لدولة الاسلام فيها نفوذ ، وفى نفس المناطق التى ينفق فيها التبشير المسيحى الملايين ويبنى المؤسسات وليس للمسلمين فيها نفوذ ، و لكن الاسلام كان دائماً القادر على كسب النفوس بالفطرة و البساطة و اليسر و السماحة .

و بالرغم مما ذهب إليه المستشرق (جب) من أن التغريب غالب على الكيان الاسلامى فان آثار هذا الاستغراب قد أخذت تتناقص ، وقد تنبه المسلمون إلى منابعهم الأولى ، و إلى شريعتهم يطالبون بتطبيقها و إن الاسلام يتصاعد الآن

بحيث يكشف عن جوهره فى مجال الاقتصاد و السياسة و الاجتماع و التربية بعد أن انكشفت المناهج الغربية عن فساد كثير و تخلف كثير .

و عندما كان (مرجليوث) يتحدث عن الاسلام كان يردد قول (برايس) السياسى المؤرخ من أن الاسلام لم يبق من عمره إلا قرنان و أن عدد أهله لا يقلون عن مائتى مليون نفس ، و قد تضاعف عدد المسلمين الآن حتى بلغ ألف مليون فى أصدق التقديرات ، و قد اتسع الاسلام خلال هذه الفترة بالحسنى و الاقناع و من تحت حراب الاستعمار و من خلف مدافعه فعاد مرة أخرى إلى أوربا ، و اقتحم أمريكا ، لم يبق مكان فى القارات الخمس لم ترتفع فيه منارة و يهتف باسم « الله أكبر » .

يقول مرجليوث المستشرق اليهودى : « لا يخلو قول القائلين بسرعة ذهاب الاسلام من وجه يستدعى النظر ، وجهوا أنه هو الحق الباقى على وجه الأرض و أن البشرية تتقدم الآن يوماً بعد يوم . و بالعلم ، بالتعرف ربها و تحطم كل الأوهام و التعبيرات الباطلة ، و إن الاسلام قد تحرر من كثير من نفوذ الدول العظمى السياسى و العسكرى و بقى يقادم نفوذها الاقتصادى و الثقافى .

و حين يرى (لا منسى) أن الخلافة الاسلامية و سقوطها سيكون بين الأثر على مستقبل الاسلام تكشف الأحداث عن زيف هذا التوقع . وأن المسلمين قد أقاموا بعد سقوط الخلافة قوائم وحدة و لقاءات و مؤتمرات تعالج قضاياهم كما وقع التقارب بين السنة والشيعة على نحو أذهل المراقبين الذين كانوا يظنون أن دعوات الاقليمية و القومية الضيقة و التفرقة العنصرية ستقضى عل وحدة المسلمين و تنقسم ثقافتهم و عقائدهم ، و قد وجد المسلمون حلولا صحيحة لمعضلات الفكرية و العلاقة بين العروبة و الاسلام وبين الفرعونية و العروبة و بين الفينيقية والاسلام .

وقد كشفت التقديرات عن زيادة عدد المسلمين فى السنوات الأخيرة زيادة كبرى على نحو يجعل لهذا التفوق البشرى آثاراً بعيدة المدى فى قوتهم و نحو مستقبلهم .

و كذلك فقد عاد التعليم القرآنى يتوسع من جديد بعد أن توقف تحت تأثر

المناهج الدراسية الغربية و العلمانية و قـــد تأكدت للسلمين حقيقة لا سبيل إلى تجاوزها أن التقدم فى عالم الاسلام لن يكون إلا فى إطار (الشريعة الاسلامية وفى محيط مفهوم الاسلام الجامع بين العلم و الدين و الروح والمادة والدنيا والآخرة.
هذا و بالله التوفق ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

المستشرقون و القرآن الكريم

النقطة الأولى

وقف الاستشراق من القرآن الكريم موقفه من الاسلام: موقف الخصومة ، و الانكار، و هذا طبيعى بالنسبة للاستشراق المسيحى الغربى، وبالنسبة للاستشراق اليهودى ، ذلك أن القرآن وقف من التوراة و الانجيل الموجودين فى أيدى الناس موقفا واضحاً : هو أنهما مما كتب البشر وليس مما نزل من عند الله ، كذلك فان « القرآن » هو الذى قدم تلك الحقائق المغايرة لما جاءت به التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار ، و الانجيل المكتوب بأيدى الرهبان و خاصة فى شأن « التوحيد » الذى هو طبيعة دين الله الحق دون التعدد و التثليث ، و فى شأن عيسى عليـه السلام رسول الله ، و إنكار ألوهيته فى شأن رفع عيسى دون قتله أو صلبه وإنكار قضية الخطيئة و الفداء ، و إنكار قضية شعب الله المختار إلى غير ذلك من القضايا .

و قد أقام القرآن الحجة فى أمور كثيرة اختلف فيها الرأى و خاصـــة فى نبوات موسى و عيسى و داود ولوط و ما ورد فى الكتب القديمة من صورلهم مغايرة لمكانتهم كأنبياء و رسل لله تعالى مكرمين معصومين .

وعند ما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة: نجد أن هناك إجماعاً على الوقوف فى وجه القرآن و إنكار مصدره الربانى و القول بأنه من عمل محمد ﷺ ، ويجئ هذا الرأى لا عن إسناد واضح أو دليل صريح و لكنـه يجئ تعصباً ضد القرآن

ونبيه ، أو عجزاً عن فهم الوحى فى تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية أو فى التشابه مع موقف الفكر المسيحى الذى يرى أن الانجيل ليس كتاباً من السماء و إنما هو من عمل الرسل .

و الشك فى إلهيـــة القرآن هو ماردده المستشرقون و تأثر به كثير من الكتاب و الباحثين العرب أمثال طه حسين و زكى مبارك و غيرهما .

ثم هم يذهبون إلى القول بأن النبى (ﷺ) استقى مادة القرآن و لا سيما قصصه من الأحبار و الرهبان الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم فى مكة . و لكن هذه الشبهات سرعان ما ستبدد عند ما نقارن بين روايات التوراة والانجيل ورواية القرآن لقصة من القصص ، حيث يبدو عمق الخلاف . نجد فى القرآن صياغة على نسق عال من البيان و الحكمة ، و معلومات أوسع و أعمق ، هى فارق بين البيان الربانى و بين القصص البشرى ، فالقرآن يتميز بالصدق المطلق و يتسم بالتماس العبرة و البعد عن التفصيلات الأسطورية ، و يرتفع عن سذاجـة العرض ، إلى قدر من الحكمة يتفق مع النظم القرآنى الذى بدأ به دخول البشرية إلى عصر الرشد الفكرى و عصر الرسالة الخالدة .

وما يردده المستشرقون ليس جديداً فقد ردده فى كل عصر خصوم الاسلام ، وقيل فى عهد النبى ﷺ نفسه وعرض له القرآن وأشار إليه و كشف زيفه و كان مشركوا مكة يزعمون أن القصص الذى جاء به القرآن إنما تعلمها (النبى ﷺ) من نصرانى أعجمى اللسان كان بمكة و قد رد القرآن على زعمهم فى سورة النحل .

ويردد هذا المعنى (جولد زيهر) المستشرق اليهودى و(بلا شير) فى كتابه « معضلة محمد » وغيرهم و جميعهم يشيرون إلى ما جاء فى العهد القديم أو الانجيل ويشيرون إلى رحلات النبى إلى الشام وغيرها : ويردون إليها ما ورد فى القرآن من قصص .

ثانياً : حاول (جولد زيهر) و (نولدكه) الادعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة النبى ، فيدعون أن اسم الرسول قثم أوقثامة ثم أبدل وصار محمداً لتيسير وضع الآية (و مبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

ولقد كان لرسول الله ﷺ أسماء كثيرة وقد التقط هذا الاسم مما جاء فى الروايات التى تروى عن محاولة جده عبد المطلب فى إطلاق (قثم) عليه قبل اختيار اسم (محمد) .

و تشير روايات المستشرقين المبطلة إلى ما كان يجهد له النبى ﷺ فى حالة الوحى فيصورون هذا بأنه نوبات من الصرع ، فيقولون : إنه كان عليه الصلاة و السلام يفقد وعيه و يسيل منـــه العرق و تعتريه التشنجات وتخرج منه الرغوة . فاذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه و تلا على أتباعه مايزعم أنه وحى من الله . ولا ريب أن مسألة اتصال البشرى فى الرسول بالملائكو فى جبريل إبان الوحى من الأمور الخطيرة التى تحدث عنها العلماء والباحثون و التى يعجز عنها مفهوم العلم المادى . فاذا أضيف إلى ذلك التعصب والتحيز و التماس العيب لبرماه كانت على هـــذه الصورة التى يرددها بعض متعصبى المستشرقين .

ثالثاً : ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة فى أوائل بعض سور القرآن ، و قال (نولدكه) إنها اختصارات لاسماء مالكى النسخ التى استخدمها (زيد ابن ثابت) لجمع القرآن فى مصحف واحد ، وهو استنتاج باطل و ساذج ، وذهب (ادوارد جوسنر) إلى أن هذه الحروف المتقطعة ليست إلا اختصارات للاسماء القديمة للسور ، ولاريب لو أنها كانت أسماء السور لوجب أن توضع قبل البسملة لا بعدها ، و لو كانت كذلك لعرفها المفسرون الأوائل و أشاروا إليها .

و واضح أن المحاولة كلها ترمی إلى هدف واحد هو اعتبار هـذه الحروف المقطعة و كأنها ليست من الوحی و أنها عمل متأخر عن زمن الرسول ، و الواقع غير ذلك تماماً ، و إن هـذه الحروف هی من صلب القرآن و إن هذه الحروف قد وردت على لسان النبی و من صميم الوحی .

و قد أدعی (لويس جارديه) و (الأب قنواتی) فی كتابهما (فلسفة الفكر الدينی بين المسيحية و الاسلام) : أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن فی خلافته فقسمه إلى سور وآيات و رتب السور وراء بعضها حسب طولها ، أولا ثم ما دونها طولا و هكذا .

و هـذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس وارداً بالتحقيق ما ذلك لأن ترتيب سور القرآن أمر توقيفی تم فی عهد النبی ﷺ ولم يحدث تغيير له أو تبديل فيما بعد

و لقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيباً آخر يختلف عن الترتيب القرآنی الأصيل ، ومنهم (وليم موير) و (ويل) و(رود ويل) و قد باءت محاولاتهم بالفشل ، و هناك من حاول أن يشكك فی لغة القرآن ذاتها وحاول أن يرميها بأنها لا تتميز بالعصمة واستند فی ذلك على بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة ، أراد بها إثارة الشبهـة بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبی فيما بينهم عليها ، و لا ريب أن هذه محاولات باطلة لا يعتد بها .

رابعاً : هناك محاولة القول بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل ، و إنما هو محاولة الاصلاح ، اتجه إليها النبی نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقی عند قومـه فی عصره ، و إنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكی يرغب

المعارضين فى الاصلاح و من ذلك الحديث عن المطففين ، و الهمزة اللمزة ، ونهيه عن قهر اليتيم ، ونهر السائل ، و أن محمداً قد تأثر بالوضع الاجتماعى فى مكة تأثراً شديداً .

و لا ريب أن هذه المحاولة باطلة فى أساسها ، إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذى جاء به القرآن وحياً من الله إلى رسوله محمد ﷺ ، حين يدرس دراسة عميقة فان الباحث المنصف يجد فيه منهجاً متكاملا جامعاً ربانى المصدر مما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو ، و هو فى قدرته على البقاء غضاً طرياً مع تغير الأزمنة والبيئات و عطائه المتصل فى كل عصر و بيئة و عدم اصطدامه بالمتغيرات و المتحولات ليؤكد كذب الادعاء بأنه من صنع بشر .

و مهما قال المستشرقون فى تأثر النبى بتعاليم اليهود و النصارى - و هو ما لم يحدث لسبب أساسى هو أن النبى ﷺ كان لا يعرف القراءة و الكتابة - فان التوراة و الانجيل لم يرد فى أحدهما مثل هذا النظام الذى قدمه القرآن . وإن القرآن فى مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معهما ، فضلا عما قدمه من مناهج : من المعرفة و من السنن الكونية و سنن الحضارات و الأمم ، فان ذلك كله لا يوجد منه شئ فى كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمداً قد اطلع عليهما .

خامساً : فساد القول بأن القرآن أسير السجع والقافية ، كما يقول (لويس مارسية) فان فى القرآن أساليب متعددة و أسلوب السجع واحد منهما ، وهو فى القرآن له طابع معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثر بسجع الكهان فى الجاهلية ويختلف عن الشعر كلية حتى قيل عنه : (والله ما هو بالشعر ولا بالسحر و لا بالكهانة) .

(۲)

كانت (ترجمة القرآن) من والخيوط المخطط الذى سداه الغرب المسيحى
الحروب الصليبية تحقيقاً لتوصية لويس التاسع التى محاولة لتحطيم الرأى العام ا
أخذ يتكون فى أوربا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك فى الشرق و الذين ع
عن سماحة الاسلام فى التعامل مع الغزاة ، و عظمة الاسلام فى الأداء الحض
ما أزعج الكنيسة و دفعها إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة الق
و تفسيره على النحو الذى يثير التكذيب لرسوله و التشكيك فى سلامته ، ي
أحد الباحثين : إنه بعد الغارة الصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن اس
الأوربيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم و لم يؤد إلى اعتناق الم
للمسيحية ، بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة الاسلام و عاداتهم وط
معيشتهم تأثيراً ملموساً فى الصليبين ، وعند ذلك كانت الأصوات تدعو إلى استه
الوسائل الفكرية فى محاربة الاسلام وفى مقدمة هؤلاء الطبرى المحترم ١١٦٥ . ا
أوفد إلى أسبانيا و سنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسي
فى أسبانيا و على سياسة الذين يرون أنه لا سبيل إلى مكافحة العقيدة المحمدية
بالحجج العقلية و قوة المنطق ، و من أجل معرفة آراء الخصم جيداً : تقرر ت
القرآن إلى اللغة اللاتينية ، وتعد أول طبعة لنص القرآن تلك التى نشرها (باجا
فى البندقية عام ١٥٣٠ و قد أحرقت جميع نسخها فى الحال بأمر من البابا بو
الثالث ، ثم أصدر البابا اسكندر الرابع أمراً بمنع طبع و نص القرآن تر
و حتى عام ١٦٦٧ لم يجسر القس الألمانى ابراهيم هيكلمان من طبع و ترجمة
التى نشرت ١٦٩٤ و التى قال فى مقدمتها : إنه من الضرورى أن نعرف ال
معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته ، و تمهيد السبيل لانتشار المسيحية فى الشرق .

و هكذا نجد أن المنطلق ن ترجمة القرآن كان لحساب التبشير و الاستشراق على أساس إعطاء الغربيين القدرة للتعرف على الجوانب التى يستطيعون منها مهاجمة الاسلام و مجادلة المسلمين ، و من هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا على هذه الوجهة و هذه الطريقة . و كانت منطلقاتهم جميعاً الادعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذى جاء منه القرآن و ماذا اقتبس محمد ن التعاليم اليهودية و أن الاسلام من بنات أقطار محمد و أن القرآن من تصميم محمد .

و هكذا نجد كتابات بوهل عن مادة (محمد) فى دائرة المعارف الاسلامية و توتينى فى بحث التاريخ ، ومن بعدهم وارنر ، و جايجر ، و لورى ، وكلهم يجرون على طرق واحد لا يصدر عن أسلوب علمى و لكن عن هوى و تعصب قوامه الزعم بأن القرآن من تاليف محمد . وأن الرسول أخذ من التوراة و الانجيل وتأثر بهما . و يقول بروكلمان إن النبوة كانت أمراً يتوقعه الرسول و الذى كان يكلمه هو صديق له ، و اتفاق المستشرقين فى ذلك كله ليس عفوياً بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير (محمد أسد) حين يقول : يظهر من بحوثهم كأن الاسلام لا يمكنه أن يعالج على أنه موضوع من البحث العلمى بل أنه متهم يقف أمام قضاته

و قد رد مفكرو الاسلام على هذه الشبهات جميعاً و زيفوها ، و مما قالوا إنه لو كانت التوراة والانجيل مصادر للقرآن كما يزعمون لكان اليهود أشرف الناس مداً و هم من هم خبثاً و حقداً على كل نبى و رسول ، و لقد كانت صداقتهم للمشركين فرصة لمساعدتهم على الطعن بوحى القرآن و بيان مشابهته للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة ، بل لقد شهد بعض كتاب الغرب لفساد رأى الاستشراق . يقول العالم أرنست فى كتابه (الاسلام و المسيحية الحقيقية) : :

العقيدة و النظام الدينى الذى جاء فى الاناجيل ليس الذى دعا إليه السيد المس
بقوله وعمله إن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المس
بل إلى دعاء بولس ، ذلك المارق اليهودى المسيحى و شرحه للصحف المقدسة
طريقـة التجسيم و أن بولس هو واضع ذلك المزيج من القصص و الأحاد
المتعارضة و من هنا فان هنـاك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لـ
إنجيل كاتباً (لوقا متى ، يوحنا ، مرقص ، برنابا) .

و من هنا جاء القرآن مخالفاً لهذه الاناجيل و للتوراة مادةو أسلوبا .

أما الذين يدعون بأن للقرآن مصدر من الانجيل و التوراة فانهم يجا
ما أورده القرآن من أصول عديدة لم ترد فى الكتابين و من تفصيلات فى بعـ
الأحداث لم يعرفها اليهود و النصارى . فقد أخبر القرآن بأشياء ما كان يعلمها ا
من أهل الكتـاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم ، فهم لم يكو
يعرفون شيئاً عن كفالة زكريا للسيدة مريم بعـد ولادتها ، كذلك فقد أ
القرآن بأشياء كثيرة تحققت تحققاً تاماً بعد الاخبار بها منها إخبـاره عن انته
الروم بعد انخذالهم وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ وإن دولة الروم
مختلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة و الغلبة و مع ذ
فقد أخبر القرآن بانتصار الروم فى بضع سنين والبضع ما بين الثلاث والتسع كذ
فان القرآن أخبر بأمور ما عرفت إلا فى هذا العصر الحديث وما كان أحد يعر
أو يؤمن بها إلا المسلمون ، ولم يرد بها أى اثارة من علم فى التوراة أو الان
ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوى فى أعالى الجو (فمن يرد الله أن يهديه يش
صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء

و كذلك الاخبار عن إهتزاز الأرض عند نزول المطر عليها (فاذا أنز
عليها الماء اهتزت و ربت) .

و فى القرآن أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول (ﷺ) لأنها تحوى معاتبته على تصرف من التصرفات ، و ما كان الرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه ، وذلك فى أمر إطلاق أسرى بدر ، و فى مسألة الأعمى و فى مسألة الصلاة على المنافقين و فى مسألة زينب بنت جحش .

أمام الزعم بأن النبى أخذ من التوراة و الانجيل و تأثر بأسلوبهما فأبسط الرد عليه أن ما فى القرآن مخالف للتوراة و الانجيل مخالفة تامة ، و هناك أمور فيها مخالفة جوهرية .

و ذلك شأن مريم و عيسى و معارضة القرآن للتثليث و الصلب و الخطيئة إن الزعم بأن النبوة أمر كان يتوقعه الرسول و يرغب فيـه و بأن النبى كان له صديق يكلمه ، فان الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقاً بأن النبى كان يرجو أن يكون النبى المنتظر ، ولو كان لدونه المحدثون والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن الصلت ، بل لقد صرح القرآن (و ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) و قد شهد اعداؤه جميعاً له بالصدق و خاصة أبا جهل و لو كان شئ من ذلك صحيحاً لكان كفار قريش أدرى به من (برو كلمان) و من شايعه و كان يكون من أكبر الحجج بين يدى المستشرقين و المنافقين و اليهود .

كذلك فقد برأ القرآن الرسول من أن يكون له من يعلمه (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى و هذا لسان عربى مبين) .

كذلك فقد كشف الباحثون « مقطع الأمر » فى قضية المفردات الأجنبية التى التقطها المستشرقون ليلمزوا القرآن بأن عربيته ليست كاملة ، فهذه الكلمات التى تبدو أجنبية ، وهى ليست كذلك ، إنما جاءت عن طريق الاشتراك فى أصل اللغات العربية القديمة أواتصلت عن طريق النقل و التعريف بالتجارة و الأسفار والمجاورة ، و استعملت فى اللغة استعمالا جارياً وفق قوانينها ، و لهـذا استعملها القرآن ،

وخاطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها و يسميه عربياً مبيناً ليكلفهم بعد هذا كله شيئاً لا يفهمونه (راجع أحمد نصيف الجنابى) .

وقد أثبت عديد من الباحثين أن الكلمات الأجنبية التى أوردها بعض المستشرقين كانت فى أصلها عربية نقلت إلى هذه اللغات الحبشية و السريانية و الفارسيـــة ثم عادت إلى عربيتها مرة أخرى ، و قد أشار إلى هـــذا المعنى الامام الطبرى حين قال : إنه غير جائز أن يتوهم ذى فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسى لا عربى ، و بعضه نبطى لا عربى ، و بعضه حبشى لا عربى ، بعد ما أخبر الله تعالى ذكره عنه أنه جعله قرآناً عربياً بل إن الله تبارك و تعالى نفى عنه العجمة و نفى أن يكون بعضه أعجمياً و بعضه عربى (و لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لو لا فصلت آياته) .

ملحق بالفصل الخاص بالقرآن :

المستشرقون : موقفهم من اللغة العربية والأدب العربى

كانت حملة الاستشراق على اللغة العربية مرتبطة بحملته على القرآن الكريم ، وكان الهدف واضحا و هو خلق فجوة بين « بيان » القرآن و بين لغة الكتابة العربية ، و لذلك فقـــد توالت دعوات المستشرقين إلى العاميات والحروف اللاتينية . قام ماسينون المستشرق الفرنسى بذلك فى المغرب و سوريا ، وقام بذلك المستشرق مرجليوث البريطانى اليهودى فى البلاد العربية . و كان التركيز على دمشق من كلا المستشرقين الكبيرين ، وكان الهدف أنه إذا حلت اللغة واستعجمت الألسنة انقطع الطريق إلى

الاسلام وتمزقت الأواصر . ولقد تجمعت شبهات الاستشراق حول اللغة العربية في أمور عديدة .

أولا : رميها بالقصور و عدم الكفاية العلمية .

ثانياً : صعوبة النطق و صعوبة الكتابة .

ثالثاً : ارتفاع مستواها عن فهم الناس .

رابعاً : التفاوت بين طريق النطق وطريق الكتابة .

وكان (لويس ماسينون) من أخطر الدعاة إلى الحروف اللاتينية واتخاذها أداة لكتابة اللغة العربية ، ومما كان يدعو إليه (إهمال الاعراب) على اعتبار أنه ييسر تعليم اللغة العربية للأجانب ، وقددعا « ماسنيون » رجال المجمع العلمى فى دمشق إلى اتخاذه وسيلة للتجديد ، و كرر دعوته فى أندية الشباب العربى فى باريس ، و قد وجدت دعوته رداً عنيفاً و معارضة واسعة ، كذلك فقدبذل (مارجليوث) جهوداً واسعة فى محاربة الحرف العربى والعمل على استبداله بالحرف اللاتينى وركز دعوته على دمشق كما فعل ماسينيون ، كما حاول مارجليوث دعوة الايرانيين إلى تغيير الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية ، وقد عارض الايرانيون هذه الدعوة وشجبوها واحتفظوا بالحروف العربية أساساً للغتهم الفارسية ، وقد جاء دور المستشرقين فى مقاومة الفصحى « لغة القرآن » بعد دور المبشرين : وليم ويلكوكس ، و ويلمور و سبيتا ، الذين بدأو حملتهم إلى العامية ، ثم جاء المستشرق فنسنك فنشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية فى اللغة المصرية القديمة ، ومن بينها رسالة «للمقتطف» أسماها « أجرومية مصرى » كتبها على هذا النحو .

(بل لسان المصرى و معها أمسلة)

يقصد : باللسان المصرى ومعها أمثلة

٢- تعددت محاولات المستشرقين للوصول إلى أغراضهم ، خاصة عن طريق مجامع اللغة العربية . التى اشتركوا فيها ، و منها دعوتهم إلى كتابة القرآن بلغة العصر فى محاولة القضاء على النهج الذى كتب به القرآن منذ عهد النبى ﷺ ، و الذى وضع على النحو الذى يتضمن الاستجابة لكل اللهجات العربية و لكل القراءات المنزلة ، وقد رد الامام أحمد بن حنبل رداً حازماً على هذه الدعوى منذ قديم ، وقال إن القراءة يجب أن تكون على ما كتبه الصحابة ، فقد نزل القرآن على سبعة أحرف وإن الكتابة جاءت موافقة لهذا فلو تغيرت الكتابة لضاعت هذه اللغة .

٣- حاول الاستشراق الغمز لعلوم النحو والصرف ، والادعاء بأنها من عوامل صعوبة اللغة العربية ، وهذه أيضاً من مؤامرات الاستشراق ، ذلك أن حماية اللغة العربية تتطلب المحافظة الكاملة على ما هو مقرر و منقول من الأصول و القواعد السليمة فى علمى النحو والصرف و على ما هو محرر مقبول فى علوم البلاغة التى هى المعانى و البيان والبديع دون السماح بما يؤدى إلى اللحن أو مسخ الأسلوب العربى المتين و الديباجة الرائعة و الجمل و الأساليب التى تمتاز بها اللغة العربية .

٤- حرص الاستشراق و بعض أعوانهم من رجال التغريب إلى إطلاق تلك النغمة التى تقول إن اللغة العربية هى لغتنا ، و لنا الحق فى القبول منها و الرفض والتغيير ، و هى نغمة مبطلة لأن اللغة العربية ليست ملك المصريين أو السوريين أو العرب جميعاً ، و إنما يشاركهم فيها ثمانمائة مليون من المسلمين تعد اللغة العربية بالنسبة لهم هى لغة الثقافة و الفكر و العقيدة ، و من هنا فان هذه الدعوى التى قد تصلح فى اللغات الأوربية القومية لا تصلح بالنسبة إلى اللغة العربية التى لا يملكها العرب وحدهم ،وليس لهم حق التصرف فيها تصرف الوارث القاصر ، إن محاولة القول بأن اللغة العربية لغتنا و نحن أصحابها و لنا حق التصرف فيها قول مردود ،

يرده واقع التاريخ و منطق البحث العلمى .

٥- كذب الواقع دعوى المستشرقين من القول بأن من عيوب اللغـــة العربية وجود لغة للكتابة ولغة للكلام ، و تبين من البحث العلمى الدقيق أن جميع لغات العالم تتسم بهذه السمة ، و أن أرقى اللغات الأوربية تختلف فيما بين الكتابة والكلام ، و لكن هذه المسافة قد تقصر وقد تتسع حسبما ينتشر التعليم الذى يرفع الأمم من لغة الكلام إلى لغة الكتابة ، ولذلك فان الدعوى إلى إنزال لغة الكتابة إلى لغة الكلام هو عمل مضاد لطبيعة اللغة و تطورهـا .

عندما يتحدث المستشرقون عن ضعف اللغة العربية أو جودها فانما هم يتنكرون لمصدر هذا الجود أو الضعف ، وهو ما قام به الاستعمار فى سبيل الحيلولة دون امتداد اللغة العربية و تغليب لغة المحتل عليها و تشجيع اللهجات العامية على النحو الذى حال بين اللغة العربية و بين التطور والنمو . وقد رسم دهـاقنة الاستعمار من أمثال (دنلوب) سياسة التعليم على أساس أن تحول بين اللغة العربية وبين أن تصبح الأداة الثقـافية لابناء الأمة المطلعين إلى أن ينهلوا من معين التقدم العلمى ، فاذا أصابوا قسطاً من علم دعوه فى قوالب أجنبية متضاربة ، منهـا ما هو مشدود بولائه الثقافى لأكسفورد أوكمبردج ، بتراكماتها التقليدية ، و منهـا من لا يؤمن بالفكر السربونى الواضح الرقراق ، و منهـا من اتجه كلية إلى الأسلوب الألمـانى الموغل فى التحليل . وقـد حرم الاستعمار التعليم بلغة الأمـة ، حتى لاتنقل العلوم بكليتها إلى تلك الأمـة فى حين تلقى العلوم عن طريق اللغات الأجنبية ، بحيث نقل بعض من أفراد الأمة إلى تلك العلوم .

٧- كشف رجال اللغة عن فساد المقارنة التى حاول المستشرقون عقدها بين اللغة العربية و بين اللغة اللاتينية ، تلك المحـاولة التى يستهدفون بها وضع اللغة العربيـــة

فی متحف اللاتینیة ، و تحویل اللهجات المصریة و السوریة و العراقیة إلی لغات ، و هو ما لا یتحقق مع وجود القرآن الکریم الذی هو العروة الوثقی للغة العربیة .
و الواقع أنه لا یوجد أی تشابه سواء من ناحیة التاریخ أو الأوضاع أو التحدیات بین اللغتین . و إن اللغة اللاتینیة إنما تقلصت ، وانفسح المجال أمام لهجاتها لأسباب سیاسیة ، منها انکماش الدولة الرومانیة و تقلص نفوذها السیاسی ، و لأن الدین المسیحی کان عاملا مساعداً فی انتشار اللهجات العامیة ، لأن التبشیر بذلك الدین بدأ بین العوام ، فمن الطبیعی أن تکون الدعوة له باللهجة العامیة ، بینما کانت الدعوة إلی الاسلام عن طریق القرآن نفسه ، فبلاغة القرآن هی روح الدعوة إلی الاسلام ، ومن هنا قضت العربیة علی السریانیة و القبطیة و البربریة و الحبشیة و الآرامیة .

٨- إن اللهجات المحلیة و العامیة و اللغة الوسطی ، و الحروف اللاتینیة کلها من مؤامرات الاستشراق ، و هی التی تسربت إلی دعاة التغریب حتی نری واحداً مثل الدکتور محمد کامل حسین یقول : أدعو إلی مثل الفصاحة ، و إلی تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر کثیر ، و هو قول یدل علی العجز عن فهم علاقة اللغة بالعقیدة أو فهم تاریخ الاسلام و علاقة لغة العرب به ، و هی کلمة من کلمات إستعلاء مفهوم عصر العلوم و لغة العلوم ، و هو تیار مهما بلغ من سلطانه فلن یستطیع أن یقضی علی سلطان العقائد و الفکر وعلی المفهوم الأصیل بأن المسلمین هم حملة لواء البیان الذی ارتقی بالبشریة من الأساطیر الساذجة والعامیات إلی عصر الرشد الفکری و الأخلاق والایمان وکلها ترتبط إرتباطاً أساسیاً ببلاغة القرآن التی جاءت قمة لتعطی النفس الانسانیة أشواقها و مطامعها . و لا ریب أن هناك عداوة للغة العربیة مصدرها عجز المستشرقین عن فهم اللغة العربیة ومصطلحات البلاغة والبیان . و هی عدوی سرت إلی دعاة التغریب و إلی اولئك الذین یعادون القرآن والاسلام

فهم يعادون الفصحى ، ومن هولاء من يدعو إلى كسر اللغة العربية و كسر عمود الشعر العربى ، و لا ريب أن الذين يشجعون اللهجات العامية هم أعداء الاسلام الذين يهمهم إبعاد المسلمين عن كتابهم الكريم وإضعاف شان الفكر الاسلامى وتبديد قوى المسلمين الذين يوحدهم الاسلام وكتابهم الواحد كتاب لغتهم الواحد ، وقد أصدر مؤتمر العالم الاسلامى قراراً تاريخيا عام ١٩٤٩ بوجوب اعتبار لغة القرآن لغة عامة للمسلمين فى جميع أنحاء العالم و العمل على نشرها و كتابة لغات العالم الاسلامى بخط النسخ العربى .

٩- عمد الاستشراق إلى إفساد اللغة العربية على النحو الذى نجــــده فى قاموس (المنجد) من إدخال مصطلحات غير عربية إلى صميم النص العربى ، و ما نجده من خطأ تفسير بعض المصطلحات العربية ، مثل محاولة تفسير كلمة (الطلقاء) بقولهم : إنهم الذين أدخلوا فى الاسلام كرهاً و تفسير كلمه (ع م د) بأنه غسل الولد بماء المعمودية فى حين أن المعمودية ليست كلمة عربية و إنما هى كلمة قبطيــة تنطق معموذيت بالذال المعجمة . يقول الدكتور مصطفى جواد : إن أغلاط المنجد لايمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبهنا على ثلاثمائة و أربع و عشرين منها و نحن لم نقرأ فيه إلا عند الحاجة .

(٢) المستشرقون و الأدب العربى

أولى الاستشراق الأدب العربى اهتماماً واضحاً وتخصص فيه أمثال : مارجليوث ، و كلمان هوار ، وجب ونلينو ، و بروكلمان و بريجيس بلاشير ، وكراتشو فسكى . وقد أعلى الاستشراق من الفكر الباطنى و إخوان الصفا وأعلن تأثر الأدب العربى بالفكر الفارسى و بالأدب اليونانى .

أما مارجليوث فقد فرض فرضا فى الشعر الجاهلى نشره فى يوليو ١٩٢٥ فى

أحدى المجلات الاستشراقية و فى خلال عام ١٩٢٦ نشره طه حسين فى كتابه (الشعر الجاهلى) و لم تختلف وجهة نظر المستشرقين فى الآدب عن وجهة نظرهم فى سائر العلوم فالغربيون منهم أمثال : بروكلمان يقول فى كتاب (عن الآدب العربى) إن القرآن محاولة للقول بان المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية ، وجولد سيهر يقول : بأن هذه المصادر ما خوذة من التوراة و يحق من يقتسم القرآن بينهما فيقول : إن المكى نصرانى و المدنى يهودى لمجاورة المسلمين فى مكة لنصارى نجران و بجاورة المسلمين فى المدينة ليهود غطفان .وقد ركز الاستشراق فى مجال الآدب على الآدب الشعبي و العاميات والاهتمام بشعر الغزل و المجون واعتبار ألف ليلة ،والأغانى مصادر البحث الأدبى . وقال نولدكه ومولر : إن قالب الشعر من القوالب الشعرية و إنه تأثر بموعظه المبشر المسيحى على لسان المبشرين العرب فى جنوبى الجزيرة . وقد جاء اعتماد رجال التغريب من أتباع المستشرقين على تطبيق نظريات الآدب الفرنسى على الآدب العربى و هى نظريات مادية تقوم على مفهوم : إن الانسان خاضع للبيئة و العصر و إنه مجبور و ليست له إرادة ، و إنه حيوان مادى يخضع للجنس أو لقمة العيش .

و كان أبرز التراث الذى حققه الاستشراق ، معلقة لبيد و مقامات الحريرى و كليلة و دمنة و المعلقات السبع و ديوان امرأ القيس و الطواسين للحلاج و ألف ليلة و رسائل إخوان الصفا وكلها أعمال لا تمشى بطابع الآدب العربى الحقيقى المستمد من القرآن و السنة و فى الشعر عمدوا إلى إحياء بشار و أبى نواس و الضحاك ، و يطلق (جب) على عصر الجاهلية : العصر البطولى ويرفض المستشرقون مصطلح العصر الجاهلى إسماً لعصر ما قبل الاسلام ، و يحاول المستشرقون تزييف عصر ما قبل الاسلام ، على أنه عصر استنارة و حضارة و يسمون عصر الاسلام : عصر

البحث الاسلامى

التوسع ليشككوا فى أن الاسلام لم قم بأى تغيير حقيق و إنما متابعاً لما قبله و
مجال اللغة يوهمون بأن اللغة العربية لغتان : شمالية و جنوبية .

ويركز (جب) و(نيكلسون) وغيرهم من مؤرخى الأدب العربى على الاشا
بدور الثقافة اليونانية فى المنطقة و أثرها ، و إليها يردون كل ما فى الأدب العر
من كلام و إلى الثقافات الفارسية و اليونانية يردون كل أمور النحو و البلاغة .

و يقول (جب) إن الذين رفعوا لواء الفكر والفن فى العصر العباسى هم م
أصل مسيحى أو نصف مسيحى . و هناك الاهتمام الواضح بالمعتزلة و هم يردو
الاعتزال إلى الفكر اليونانى و يهتمون بانتصار البويهيين والشيعة و يرى (جب
أن ذلك نتيجة الخبرة الهلينية و يهتمون بالموشحات والمقامات و يطلقون على الع
المملوكى عصر الانحطاط مع أنه حافل بالموسوعات .

المقريزى و عربشاه و السيوطى . و يكشفون عن إساءة تامة و تعصب كا
للعصر العثمانى و يربطون النهضة العربية الحديثة بالحملة الفرنسية و أثر الارساليات

و يركز جاك بيرك فى كتابه (مختارات من الأدب العربى المعاصر — ٩٦٤
على ما يسميه النهضة التى بدأت فى بيروت ١٨٨٠ (بطرس البستانى - اليازجيان
جرجى زيدان) ويقول : إن المجموعة المستنيرة بدأت من الأقليات ثم انضم إ
بعض المسلمين ويعنى عناية وافرة بجيل المهجر (جبران ونعيمه) ويرى أن طه حس
هو الذى قام بدور البطل فى حمل لواء النزعة العقلية فى أدب البحر المتوسط
و الواقع أن رؤياه لم تكن صادقة ، فقد تأثر بأدب كان مفروضاً على عصره
يكن نابعاً منه حين أهتم بالشعر الحر ، و بكتابات لويس عوض وحسين فوز
ونجيب محفوظ ، وسعيد عقل ، وحين جعل مصدر العمل فى الأدب العربى :
شعر و مجلة حوار .

وقد كشفت الدكتورة بنت الشاطئ فى مقدمة أطروحتها عن (الغفران) ما
فهم واحد منهم هو (نيكلسون) للبيان العربى وقالت إن فهمه للنصوص فيه أخ
كثيرة بعضها هين يمكن التجاوز عنــه ، أما الكثرة البـاقية فتعرض صوراً غر
لفهمه للنصوص العربية .

المستشرقون و السنة

إن موقف الاستشراق من السنة هو موقفها من القرآن وسيرة الرسول تما
فان السنة هى جزء من حياة الرسول و هى تفسير للقرآن فلا بد أن تنالها الشب
وتصل إليها السموم وعوامل التزييف يقول العلامه الفرنسى المسلم (اتيان دينية
إنه من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عند ما يؤرخون -
الرسول أو يدرسون سنته - وقد صرح فى مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد)
من المتعذر بل من المستحيل أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلف
وإنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد ﷺ مبلغاً غطى على الو
و أخفى الصورة الحقيقية و ذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباع أسـا
النقد البريئة و قوانين البحث العلمى المحايد . وقد عرض (اتيان دينه) لكثير
اتهاماتهم للنبى ﷺ و رده عليها واتخذ من [لامانس] مثالا واضحاً على صحة ما ذ
إليه وحكم به ، وقال : لقد أخترت لامنس لأن شهرته العلمية خدعت الكثير
فأحسنوا الثقــة به مع أن ماساقه من أدلة و براهين فى كتبه أغلبها من ة
التمويه على القارئ و الكذب على الحق و التاريخ .

قال لامنس : إن النبى ﷺ كان يكره الوحدة ، وأكد (دينية) أن ا
كان يتعبد فى غار حراء بنفسه ليستجمع ذهنه و شعوره منصرفاً كل الانصراف

هذا العالم المادى ، و حكم لامنس على النبى بأنه كان نؤوما ، و القرآن يشهد للنبى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل و نصفه و ثلثه) واتهم لامنس النبى بأنه كان أكولا وبين (اتيان دينية) أن محمداً كان زاهداً فى الطعام و ملذات الدنيا ، و حكم على لامنس بجنوحه و انحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن النبى و أصحابه لم يسلم أحد منهم من غمزاته و طعناته ، أما إذا تحدث عن أعداء الاسلام أبى جهل و أبى لهب و المنافقين و أعداء الدين فانه يشيد بهم و يمدحهم ، و المعروف أن (اتيان دينية) قد آمن بالاسلام وهو من أمثال اللوردهدلى ، وليوبولد فايس المسيحى محمد أسد و عبدالكريم جرمانوس .

و هناك منصفون لم يعلنوا إسلامهم أمثال كارليل و هنرى دى كاسترى الذى يقول : إن العقل ليحتار كيف يتأتى أن تصدر الآيات عن رجل أمى ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الانسان عن الاتيان بمثلها لفظاً و معنى لقد أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته ، و القرآن الذى نزل على محمد لايزا إلى يومنا سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها .

و نذكر شكوك المستشرقين فى السنة حول تأخر تدوين الحديث ، فهم يرو أن تأخر تدوين الحديث الذى بدأ فى المائة الثانية للهجرة قد أعطى فرصة للمسلم ليزيدوا و ينقصوا فى الحديث و متى وضع أحاديث لخدمة أغراضهم ، يردد هـ جولدزيهر ودوزى و شبرنجر ، وقد شك جولد زيهر فى صحة وجود صحف كثي فى عهد الرسول ، و يرى من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظ فى الصدور ، و هو يرى أيضاً إلى وصم السنة كلها باختلاق و الوضع على ألس المدونين ، وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق هوا و يرى شبرنجر فى كتابه (الحديث عند العرب) :

إن الشروع فى التدوين وقع فى القرن الهجرى الثانى و إن السنة انتق
بطريق المشافهة ، أما دوزى فهو ينكر نسبة هـــذه (التركة المجهولة) عن الآحاد
إلى الرسول .

و قد رد عليهم الدكتور صبحى الصالح فى كتابه (علوم الحديث ومصطلح
كما رد عليهم كثيرون و كشفوا زيفهم ، وجملة الرأى فى هذا ما أورده الدكـ
مصطفى السباعى فى رسالته الجامعــة عن السنة حين قال : حرص الصحابة
حفظ حديث رسول الله و نقله و حرص التابعين و تابعى التابعين من بعدهم
نقل هذا الحديث و جمعه و تنقيته من شوائب التحريف و التزيد و ما قام به
السنة من جهود جبارة فى تتبع الكذابين و الوضاعين وفضح نواياهم و دخا
و بيان مازادوه فى السنة من أحاديث مكذوبة حتى جمعت السنة فى كتب صحـ
و أشبعها النقاد بحثاً و تمحيصاً ثم خرجوا من ذلك الاعتراف بصحتها و التـ
بها ، و إذا أمعنت النظر فى ذلك كله أيقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخبطون فى أو
الأوهام ، و متأثرون بأوهامهم ونقصهم فى الحكم على حقائق يعتبر العبث بها فى
المحقق المنصف إسفافا و تلاعباً بالعلم و اخضاعـــاً لمكانة التاريخ إلى نظر
الهوى و البغض :

و لعل من الخرافات التى جرى و راءها المستشرقون وأتباعهم فرحين بـ
التقطوا شيئاً ما أطلق عليه (معراج ابن عباس) و الكتاب مكذوب لا يتداوله
عامة الناس وليس له سند يربطه به و لا رواية ترقى إليه ، وقد احتفل به المستشر
وقارنوا بينه و بين الكوميديا الالهية .

وليس أشد تعصباً من مستشرق مثل اندرسن الذى أبعد أحد المتخرجين
الأزهر فى رسالة عن حقوق المرأة فى الاسلام لأنه يبرهن على أن الاسلام أعـ

المرأة حقوقها كاملة ، و لقد لخص الدكتور مصطفى السباعى بعد جولة ضخمة مع المستشرقين في جامعات أوربا أهدافهم على هذا النحو :

(أولا) : إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب أهوائهم .

(ثانياً) : تحريف النصوص فى كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً .

(ثالثاً) : إساءة فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف .

(رابعاً) : تحكمهم فى المصادر التى ينقلون عنها فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكون به فى تاريخ الحديث و من كتب التاريخ ما يحكون به فى قضايا الفقــــه ، و هم يصححون ما يقوله الدميرى فى كتاب الحيوان ويكذبون ما يرويه مالك فى الموطا .

الاستشراق والشريعة الاسلامية

لما كانت الشريعة الاسلامية هى الغاية الكبرى من الاسلام فقد كان لا بد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها و محاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواه ، و قد وضح حقد المستشرقين على الشريعة الاسلامية فيما كتبه كوفن و رينان و كلامون وجانو وجولد زيهر و مرجليوث ولامنس .

و قد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الاسلامية هى سبب تأخرهم وأنها عائق فى سبيل تقدمهم و نهوضهم و أثاروا الشبهات حول نصوصها و عرضوا لما اسموه « تطور الشريعة » بتطور العصر و غير ذلك من المحاولات الباطلة التى عرفت عن الشرائع الوضعية التى تحتاج فى كل عصر إلى تغيير مع روح العصر و تحولاته ، بينما الشريعة الاسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر محققة لقيام مجتمع الأمن و السكينة و جعلها ذات أطر واسعة وافية و قادرة على

تقبل تغيرات العصور و البيئات و هى من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور أسسها الثابتة راسخة البنيان ، ثم هى راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغير و لقد حاول الاستشراق الادعاء بأن الشريعة الاسلامية جماع ما كان لدى ال من الأعراف و هو ظن كاذب و دعوى باطلة فندها علماء الاسلام و ما ذهب إليه أمثال (شاخت) و غيره ، و كانت من أخطر مجادلاتهم الا بأن الشريعة الاسلامية مأخوذة من القانون الرومانى و هى أيضاً دعوى ظـ البطلان ، و آية ذلك أن مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى عام ١٩٣٧ قرر الشريعة الاسلامية نظام قانونى مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى و تقرر تمثيل الشريعة الاسلامية فى محكمة العدل الدولية كنظام مستقل من النظم ا الكبرى ، و من تلك الشبهات التى أثارها الاستشراق دعوى الفصل بين و الدولة ، و القول بأن الاسلام دين عبادى لاصلة له بنظم المجتمع ، وهى لتصوير الاسلام على هيئة المسيحية الغربية ، بينما الاسلام فى جوهره و طبيعته و منهج حياة لا سبيل إلى انفصالهما ، ولقد كانت محاولة فصل الدين عن ال هى إحدى محاولات النفوذ الغربى الذى فرض على المجتمعات الاسلامية استعمال القا الوضعى ، و لقد كانت محاولات الاستشراق لضرب الشريعة الاسلامية عاملا يرمى إلى الحيلولة دون تطبيقها فى المجتمع الاسلامى .

أما محاولة الادعاء بالربط بين الشريعة الاسلامية و القانون الرومانى كشف علماء المسلمين عن فروق عميقة بين الشريعة و القانون أبرزها أن الشر لم تفرق بين الروح والجسد ولم تهمل أحدهما بحسبان أن الانسان مركب منهما ، وأن الفقه الاسلامى قسم على أساس العبادات و المعاملات و العقوبات بينما القانون الرومانى على أساس الأشخاص و الخصومات و أن أساس القانون الاسلا

مستمد من كلام الله (تبارك وتعالى) المنزل بالوحى ، أما أساس القانون الرومانى فستمد من مشيئة الانسان و إن خلاصة القانون الاسلامى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بينما بى الرومان احكامهم إما على أوامر رئيس الحكومة أو العرف العام وقد أهملت كتب الفقة الرومانى المسائل العموميـة : كالأمور الدستورية وأحكام القانون الدولية وجعلتها من أمور السياسة بينما الامام عند فقهاء المسلمين هو إمام صلاة الجماعة كما هو إمام دولة المسلمين و فى القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد و الخطأ و لا توجد هذه عند الرومان و كذلك الدية و القصاص عنـد المسلمين ، و كذلك الحدود التى تتعلق بالقتل و الزنا و السرقة و القذف و شرب الخمر و الارتداد ، بينما الزنا و القذف وشرب الخمر ليست محرمة عنـد الرومانيين و من ثم فلا عقاب عليها .

كذلك فقد دافع علمـاء المسلمين عن الشبهة التى أثارها الاستشراق ممثلا فى شاخت وجردنجيه وجولد زيهر من القول بأن التشريع الاسلامى المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الاسلام كان مستمداً من النظام القبلى وأن العقوبات فى الاسلام كانت تحت السلطان القبلى ، و كشفوا عن فساد هذه النظرية و عن مصدرها الحاقد المتعصب الذى يكمن فى صدور أهل الاستشراق الغربى و الصهيونى و كانت ردود المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة من أقوى ما كتب فى هذا الصدد .

و يثير فلهاوزن و تبعـه آخرون من المستشرقين أمثال كايتانى و بيكرديل و جرد همان شبهة أن العرب لم يعرفوا سياسة المال و نظام الضرائب لما فتحوا البلاد ويرى فلهاوزن أن العرب كانوا يجبون من البلاد التى فتحوها إتاوات إجمالية وأنهم اتبعوا النظام الفارسى و الرومانى الذى كان سائداً فى تلك البلاد وقد دحض الباحثون هذه الشبهات و كشفوا عن أن العرب عرفوا سياسة المال ونظام الضرائب

الحقيقة منذ قيام الدولة الاسلامية ولم يطلبوا إتاوة معلومة ثابتة من البلاد التى
إلا فى حالات قليلة معينة وأنه كانت هناك منذ البداية أنواع من الضرائب
لها قداعدها وشروطها و لها نظام جبايتها وكيفية تحصيلها وإنها كانت تزيد و
حسب الظروف و الملابسات و إن خطة العمل فى الجهاز الضريبى سارت
ونظام فى جميع الأقطار و كان مركز الخلافة شديد الرقابة والاشراف (الد
بدوى عبد اللطيف) و قد أعاد المستشرقون طبع أمهات كتب الخراج ،
كتاب الخراج لكل من يحيى بن آدم والامام أبى يوسف و كان هذين الكتا
طبعا قبل ذلك و الطبعة الحديثة التى قام بها المستشرقون (١٩٦٣) غير
و الواضح أن هدفهم هو تقديم نصوص فقه الخراج بصورة مشوهة وغايته
أسس نظرية زائفـــة يمكن استخدامها للنيل من عدالة تشريع الخراج فى ا
و قد حاولوا تفسير و ترجمة تلك النصوص الواضحة بشكل يخدم أغراضهم
تزييف تلك النصوص .

(عبد الله مختار بجلة المجمع - دمشق - إبريل ١٩٦٨)

(٢)
المستشرقون والسيرة النبوية

كانت شخصية الرسول محمد ﷺ هى محور المخطط المسموم الذى حمل
المستشرقون فى مراحله المختلفة ، سواء فى مرحلة التعبير الجارح أو فى مرحلة ا
الكاذبة . يقول الدكتور كامل عيـاد : ظن الأوربيون فى العصور الوسطى
القرن السابع عشر يتناقلون أسخف الأساطير عن الاسلام و يوجهون إلى •

أبشع المسبات و الشتائم ، ثم يرى أن الاستشراق قد أعلن من بعد تظاهره بالتحرر من التعصب الدينى و يدعى أنه يريد معرفة سيرة محمد (ﷺ) كما يرويها المسلمون أنفسهم ، و فى هذه المرحلة أخذ (بعض) الكتاب الغربيين منذ القرن ١٨ يتحاشون التهجم على شخص الرسول و يحاولون التزام العدل و الانصاف فى الحكم عليه . و لكنه يشهد بأنهم لم ينفذوا هذا الالتزام و يقول : و لابد من الاعتراف بأن أكثر المستشرقين ظلوا دوما يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها (مجلة المجمع ـ دمشق ٤٢) .

« ونجد من يعرض حياة الرسول من وجهة النظر المسيحية (غليوم بوستل) و منهم من يستق معلوماته من المصادر الكنائسية (ميشيل بوديه) و منهم من يقصد إلى التبشير بالمسيحية من خلال عرض سيرة الرسول (هويتجر) و منهم من اختار ما يعتقد أن فيه مجالا للطعن ثم أضاف إليه الأساطير السخيفة و المزاعم الوقحة . و ن الاستشهاد بالآيات وجه اهتمامه إلى الآيات التى فيها ذكر للمسيحية ، فادعى مخالفتها لما ورد فى الكتاب المقدس ١٠٥ .

٢ - و قد ركز المستشرقون على جملة مواقف فى حياة الرسول (ﷺ) منها التقاؤه بالراهب بحيرا و ورقة بن نوفل و قس بن ساعدة ، و قد زعموا أن الرسول عليه السلام التقى ببحيرا الراهب وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن ، و المعروف أن لقاء النبى ﷺ بالراهب بحيرا كان فى سن التاسعه أو الثانية عشرة ، و هذه سن لا يسمح بتلقين أو تعليم فضلا عن أنها لا تمكن من استيعاب المسائل الدينية بحيث يمكن أن يلقيها الرسول من بعد على الناس ، و عمه الذى صحبه فى هذه الرحلة لم يكن يفارقه البتة فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليعلمه ، و بالرغم من أن هذه الحادثة لا أهمية لها فان المستشرقين يركزون عليها ، و يجمعون عليها .

و منها معرفته بورقة بن نوفل ويصورون ورقة كداعية للنصرانية مع أن ورقة كا
موحداً وهو الذى تنبأ للرسول بأنه النبى المنتظر الذى بشربه المسيح عيسى بن مريم
ولو كان محمد قد أخذ من ورقة لروج ذلك أعداؤه من المشركين ولسار خبره ا
الناس جميعا ، أما قس بن ساعدة فقد كان موحداً ومؤمنا بالبعث .

٣ ـ يتعرض المستشرقون لتعدد زوجات النبى كى ينفذوا إلى الطعن فى شخص
الرسول و التشكيك فى رسالته الخالدة وتصويره بصورة الميل إلى إشباع الجنس م
أن الرسول (ﷺ) لم يعدد زوجاته إلابعد الأربعين لغايات تتعلق بالدعوة
أما فى الفترة الأولى من عمره فانه ﷺ قد اقتصر على زواج واحد هو زوا
السيدة خديجة رضى الله عنها ، و يتعرض المستشرقون للوحى و يصورونه بصور
الأمراض النفسيه و العقلية ، و هم فى ذلك عاجزون عن تصور هذه العلاقه ال
تقوم بين النبى المبشر المرسل وبين سيدنا جبريل الملك الذى يحمل الوحى من ا
إلى قلب النبى ، فعجزوا عن فهم هذه الأحاديث التى تكلم فيها النبى عن حالة الو
وما يكون له من أثر عليه وصوروها على هذا النحو الباطل .

٤ ـ و يحاول بعض المستشرقين الادعاء بأن النبى (ﷺ) كان قادراً ع
معرفة حاجة عصره و تحديات بيئته ، و أنه صورها على صورة منهج إصلا
فهو عندهم مصلح أو داعية إلى الحرية أو العدل الاجتماعى ،أو غير ذلك مما يوصف
الزعماء و المصلحون . و يقوم هذا التصور على عجز عن فهم الوحى و رسالة الس
أو انكار له و يرجع الخطأ إلى عدة أسباب أبرزها .

- حرص بعض المستشرقين على تحريف النصوص و تشويهها و التلاعب بالعبارات للطعن فى الاسلام و المسلمين .
- عدم القدرة على التجرد من التعصب الدينى .

- القصد إلى الدس والتضليل (و من أشد هؤلاء تعصباً و انحرافاً مرجليوث ولامنس) و قد أخذ على مرجليوث و هو الذى ألف كتاباً ضخماً عن سيرة الرسول ﷺ كما أشار الباحثون إلى أن أكثر أخطائه ترجع إلى التحكم فى الاستنباط و القياس الجزئى ، و بيان أسباب الحوادث و أقله عدم فهم اللغة كما أخذ عليه عدم فهم النبوة .

أما لامنس فقد عمل على تحريف النصوص ، و قد حرف تاريخ ميلاد الرسول و حاول أن يرسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء ، دون أى مستند تاريخى موثوق ، و قد انتقد أكثر المستشرقين (لامانس) و فضحوا مغالطاته و حذروا من الاعتماد عليه

يقول محمد كامل عياد : إن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن الرسول ﷺ بسبب تعصبهم الدينى ، أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم فى فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم فى النظرة التاريخية .

و من نماذج كتب المستشرقين المليئة بالأخطاء و الشبهات فى سيرة الرسول ﷺ كتاب المستشرق (ز . ف . بردلى) الذى ترجم إلى اللغة العربية دون الاعتناء باجراء التصحيح اللازم لأخطائه .

(١) نسب بردلى إلى النبى ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبى بأنه وارث الهاشميين حراس أصنام الكعبة .

(٢) زل قدمه فى سيرة النبى و أزواجه الطاهرات .

(٣) ادعاؤه استمداد الرسول من الرهبان فى رحلاته البعيدة و المتعددة و من الوعاظ فى سوق عكاظ .

و أغلب ما فى كتاباته (غلبة الروح التبشيرية) على كتابته عن

النبي و القول بتأثره ببحيرا و قس ساعدة و ورقة بن نوفل .

(٤) ادعاؤه كثرة رحلات النبي إلى الشام و اليمن و فلسطين و آسيا و آسيا الصغرى و فارس ، وكل هذا غير صحيح ، فان رحلات النبي باجماع المؤرخين إلى الشام لم تزد على المرتين أو الثلاث ولم يجتمع مع بحيرا إلا فى المرة الأولى.

و هكذا نجد أن كتابات المستشرقين حول سيرة الرسول مغلوطة محرفة ، سداها الهوى و لحمتها التعصب ، و قد أشار (اتيان دينية) فى كتابه عن سيرة الرسول إلى هذا المعنى حين قال :

إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النبي ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شئ جديد ، بل إذا أنعمنا النظر فى الآراء الجديدة التى جاء بها المستشرقون : فرنسيس و إنجليز و ألمان و بلجيكيين و هولانديين لا نجد إلا خلطا وخبطا .

و على الاحتمال فهم قد حاولوا إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية الرسول عليه الصلاة و السلام .

أولا : بايراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعه .

ثانياً : بعرض الأخبار الثابتة بطريقة تعطى عكس المراد .

ثالثاً : إيراد مواضيع مشكوك فيها أو آراء من بعض رجال الدين المحدثين .

رابعاً : إسقاط أجزاء من الأحاديث لتصويرها بصورة منحرفة مثال ذلك ماأورده مرجليوث فى حديث (إنما حبب إلى فى دنياكم الطيب و النساء) و إخفاء باقى الحديث (و جعلت قرة عينى فى الصلاة) حتى يظهر شخصية الرسول مشغوفة بأمور الدنيا .

(٤) المستشرقون و التأريخ

جرت محاولات الاستشراق حول تزييف تفسير التأريخ الاسلامى و إخضاعه لمناهج وافدة تفسره مادياً أو اقتصادياً أو تخرجه عن منهجه الأصيل و مفهومه الأساسى ، و بذلك تبدو صورة التأريخ للمسلمين ممزقة مضطربة ، و بذلك يفقد الهدف الأصيل من دراسته و الغاية المثلى من التعامل معه ، و لما كان التأريخ عاملا عاماً من عوامل بناء الأمم و تربية الأفراد فقد كان حرص الاستشراق على إفساد هذه الغاية و ذلك يبعث الجوانب المضطربة و الروايات الأخلاقية و صور التناقض و الخصومة ، و كلها صور لا قيمة لها فى بحر التأريخ الاسلامى العريض الجياش الملئ بصور البطولة و الحيوية و القوة و الذى كان قادراً على العطاء الدائم للأجيال المتجددة .

و يستهدف عرض الاستشراق للتأريخ إلى إثارة الالتباس بين القيم المتكاملة بين العرب و الاسلام و بين العرب والمسلمين و بين المسلمين أنفسهم (فرساً و تركاً و عرباً) و بين الموجات العربية التى خرجت من الجزيرة العربية إلى الآفاق تحت اسم الفرعونية و البابلية و الفينيقية حتى تصطرع هذه الدعوات مع العروبة و الاسلام ، و كذلك العمل على تمجيد الحضارات القديمة السابقة للاسلام ، مع التركيز على الحركات المضادة للاسلام و التوسع فى دراسات الفتن الأهلية والخلافات المذهبية و مظاهر الانقسام و التفسخ و يقوم هذا العمل على أساس دراسة الروايات المختلفة و النصوص المتعارضة و ضرب بعضها ببعض لاثارة الشبهات ، و لا ريب أن الهدف من بعث دعوات الفرعونية و الفينيقية و الآشورية إنما يستهدف تمزيق وحدة المسلمين و الغض من شأن الاسلام ، و هكذا تبدو صورة الاسلام فى كتابات الاستشراق مليئة بالسموم و الالتباسات

العقلية و التاريخية و إن نظرة فى كتابات (بروكلمان) فى كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » لتوحى بهذا الهدف ، فهو يدين كل الحركات الاسلامية الصحيحة و يعلى من شأن الزنج و القرامطة و الباطنيــة ، أما (روزنتــال) فانه يصور التاريخ الاسلامى على أنه سلسلة متصلة من الحكام الطغاة و أن التاريخ الحضارى للاسلام كان تكراراً مسجلا للأفكار و أن التــاريخ الدينى كان بقــايا متحجرة متجمــدة تناقلتها الأجيال بعضها عن بعض .

و هناك الغمز بصلاح الدين و التكلم عن شجاعة الصليبيين ، و القول بأن المصريين لم يعرفوا الاستقلال و كانوا فى تاريخهم كله خاضعين للرومان و الفرس و العرب فلماذا لا يخضعون للانجليز و الغرب ، و كذلك اتهامهم المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية ، و يحاول الاستشراق أن يصور الاسلام و قد قام بالسيف و أن المسلمين المجاهدين كانوا يطمعون من وراء الحرب إلى الغنائم كما يحاول القول بأن العرب بدو ، و يثير الخلاف بين العرب و الأعراب .

و هنــاك محاولة القول بأن العرب قبل الاسلام كانت لهم حضارة و ذلك فى محاولة إعلاء الجاهلية و وصفها بأنهــا عصر البطولة (كما أطلق عليها هاملتون جب) و اعتبار الاسلام امتداداً لهــا و الاهتمام بالغساسنة و المناذرة .

و كذلك التشكيك فى (عالميــة الرسالة الاسلامية) و إثارة الشكوك حول الكتب التى بعث بها النبى ﷺ إلى الملوك و الزعم بأنهــا وضعت فى صورتها الأولى بعد قرن من حيــاة النبى ﷺ .

و إذا راجعنا كتابات الاستشراق لتاريخ الاسلام وجدنا من يحاول استغلال الثغرات الموجودة فى المراجع العربية القديمة — كما يقرر الأستاذ محمود بسيونى — ليخرج منها استدلالات و تخريجات جديدة تتفق و هوى أصحابها و أن هذه الكتب

و إن اصطنعت المنهج العلمى فى دراستها إلا أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان و لذلك تعتبر بعض المراجع الأوربية فى التاريخ الاسلامى مراجع قاصرة قصوراً بقدر قيمة هذا العنصر الهام من عناصر الدراسة التاريخية، فالمستشرق حينما يحاول أن يكتب التاريخ الاسلامى ينظر دائماً من وجهة نظره الخاصة، كاوربى خذ مثلا (لين بول) فى كتابه (مصر فى العصور الوسطى) تجد حتى عنوان الكتاب يعبر بوضوح عن القصور. فالوضع الطبيعى أن يقول مصر الاسلامية أو حتى العربية لأن تعبير القرون الوسطى قد اقترن فى أذهان الأوربيين خاصة بالتدهور و الانحلال و الانحطاط فى حين أن هذه الفترة التاريخية كانت فترة إزدهار للوطن الاسلامى و العربى بما فيه مصر، و من ناحية أخرى نلمس بوضوح تعليلات (لين بول) الخاطئة للحوادث، فهو كانسان لا يؤمن بالاسلام لا يستطيع أن يضع أسبابا لحدث تاريخى عظيم مثل فتح المسلمين لمصر، غير تلك الأسباب المادية التى تقفز إلى ذهن الأوربى إنسان العصر المادى و لا يستطيع تحليله القاصر إلى أن يصل إلى أغوار الحقيقة العميقة الجذور و إذا أخذنا بما كتبه (لودلى) على الرسول ﷺ نجد نفس القصور مع تعمد أكثر للطعن.

و هكذا نجد أن التفسير الغربى للتاريخ عاجز عن فهم أبعاد التاريخ الاسلامى الذى يقوم على عنصرى المادة و الروح معاً متكاملين و على عنصرى الشهادة و الغيب مجتمعين أما التفسير المادى للتاريخ فانه يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام فهو لا يرى أن هناك قيما أخرى كالدين و الخلق و الايمان يمكن أن تكون دافعاً من دوافع حركة التاريخ و يتجاهل القوى المعنوية للأمم و الشعوب.

و التاريخ الاسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الاسلامية الجامعة المتكاملة للحياة الانسانية و كل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب

من الخطأ العلمى و مع الأسف فان بعض العرب يطبقون هذه المذا
تاريخ أمتهم فيخطئون أشد الخطأ ، ذلك أن روح الفكر الاسلا
و تاريخــه تقوم أساسا على وحـدة الكون و انسجام الطبيعة و ذا
أن الاسلام هو النظام الجامع المتكامل الوحيد الذى يحقق هذا الانس
بين الروح و الجســد فى نظـام الدين ، و السماء و الأرض فى ؛
و يسلكهما فى طريق واحد هو الطريق إلى الله ، و أن الاسلام و
هو الذى يجمع بين العلم و الدين فى وحدة تامة غير متنافسة ، و من
منهج المستشرقين فى فهم التاريخ يحول بين الباحث المتطلع إلى الحقيقة
الحقيقة و يجعل نتائج البحث مضطربة غامضـة ، و قد تنبه إلى هــ
من كتاب الغرب .

يقول الدكتور تريتون : إذا صح القول أن التفسير المـادى
صـالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخيـــة الكبرى و بيـان أسبا
و سقوطها ، فان هـــذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغـ
وحدة العرب و غلبتهم على غيرهم و قيام حضارتهم و اتسـاع رقعة
أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلم الصحيح له
الفردية : هذه الظـاهرة هى الاسلام ، و يقول (اليان و ايدجراى
المسلمين إلى التاريخ نظرة بنـاءه فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت
(القرآن) فان إرادتها حينئذ تتطـابق مع إرادة الله ، و يقول
سميث : إن المسلم يحس بالتـاريخ إحساساً جادا فهو يؤمن بتحقيق ه
الأرض ، فالمسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخا
لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه أو تقتله .

و يكون ذلك أعلى قربان يتقدم به إلى الله فان المسلم حين ؛

فنى سبيل أن هناك نظاما إلهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض ، و هذا قائم فى حسه و هو يضحى حتى يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام

المستشرقون و الحضارة الاسلامية

وجهت حركة الاستشراق إلى الحضارة الاسلامية كثيراً من الاتهامات و الشكوك و الشبهات ، فهم أولا لا يطلقون عليها اسم الحضارة الاسلامية بل ينسبونها إلى العرب حتى يثيروا الخلافات و يوقعون بين المسلمين و العرب ، يقول (رينان): إن الحضارة العربية حضارة سطحية ظاهرية أنتجتها عقول آرية و منابع يونانية ، فارسية . هندية ، غوطية ، و حيثما وجد الانسان ظاهرة من ظواهر الحضارة فى البلاد العربية فلابد من إرجاعها إلى عقلية آرية و إنتاج غير سامى ، و يزعم (يوسف شخت) : أن أحد أركان المدنية الاسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية ، فى آخر مراحلها فلم يكن العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنيـة العظيمة إلا بلغتهم و دينهم ، أما المواد الأخرى فانها مأخوذة من ذلك التراث الذى تركه اليونان ، و الذى قد توطد فى البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ، ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطيد العلوم و الآداب الاغريقية و الشرق الأدنى .

ويقول (ماسنيون) : إن كبار رجال الحضارة و الآداب لم يكونوا ذوى دم عربى محض بل موالى مستعربون ، و قد رد كثير من كتاب العرب على هـذه الاتهامات ، و يقول الدكتور جواد على : إن هذه النظريات لا قيمة لها أبدا إذا لم تدعم بالنصوص و البراهين ، كما أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجـة للحكم به على أمة ، و إنى أستطيع أن أجعل من الأمـة الجرمانيـة همجيـة بربرية مادية خاملة لم تنهض إلا أخيرا بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعـة من المصادر و المنابع عن التاريخ الجرمانى و يستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك

فى تاريخ أى أمة ، و أعتقد أنه لو كانت الأمـــة العربية قوية فى ال
لكانت النظرية على عكس ذلك تماما ، و يقول : إن الحضـارة الاسا
حضارة عنصرية و قد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الاسلام بصرف النظ
فان القرآن و اللغة العربية و التوحيد كانت هى العناصر الذى شكله
صنع الحضارة و لقد جاءت حضـارة الاسلام بعــــد حضارة العبو
و الفرعونية و الرومانية و عبادة الفرعون و القيصر و الهرمزان ،
الاخاء الانسانى و العدل و الرحم و السماحة و ترفع العبودية عن
علاقة الانسان بالانسان . و ذلك هو جوهر الحضارة الاسلامية و
التوحيد الخالص ، و بذلك فهى تختلف أشد الاختلاف عن الحضـار
و غيرهـا من الفكر اليونانى و غيره ، و لكن هذه الحضـارة استطا
فى بوتقتها ما كان موجوداً فى العالم من علوم و معارف بعد أن امتح
و أدخلتها فى بوتقة التجريب الذى هو المنهج الذى صنعه المسلمون و
و قامت عليه الحضارة المعاصرة .

و إن ما وجده المسلمون لدى اليونان لم يكن سوى نظريات بعضها
خاطئ ، فضلا عن الأساطير و التنجيم و الخرافات التى استبعدها المد

و لـــقد حاول المستشرقون اتهـام العرب و المسلمين بأنهم أحـ
الاسكندرية و هى دعوى باطلة كذبهـــا المؤرخ البريطـانى (جيبون
المؤرخين الذين تبين لهم أن مكتبة الاسكندرية أحرقت قبل الاسلام
نصفها يوليوس قيصر الرومان ، و أتم إحراق الجزء الثانى بطارقة ا
الاسلام ، و قد كذب الدكتور بطلر رواية يوحنـا النحوى و قال
دخول عمرو بن العاص إلى الاسكندرية بأربعين سنة أو ثلاثين على

أبوالفرج روى عن يوحنا النحوى فاذا سقط البطل سقطت الرواية .

كذلك ذكرت دائرة المعارف الفرنسيــة أن مجموعة المؤلفـات التى كانت فى (السرابيوم) قد أحرقها النصارى فى القرن الرابع الميلادى .

يقول الدكتور عمر فروخ : إن محاولة المستشرقين إنما تهدف أن لا يصل الاسلام صحيحاً إلى أهل الغرب فيؤمنوا به ، فهم يعملون على رد الاسلام وتشويهه بتقديمــه مهلهلا ، و إن كتاباتهم مشوهة و أحكامهم مزيفــة ، قوامها الجهل و السطحية و التعصب ، و إنهم يهدفون إلى إقتناص الحجج الغالطه تقــدم إلى المبشرين حتى يستغلوها فى الجدل ، و قد أشار إلى ذلك (كرادى فو) حين قال : إن محمداً ظل وقتاً طويلا معروفاً فى الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظة إلا نسبوها إليه ، و قد رد ما زعم هؤلاء الكتاب و الشعراء المرتزقة من الغربيين يهاجمون العرب ، و لم تكن مهاجمتهم إلا تهما باطلة بل و متناقضة .

و إن المستشرقين لا يرجون من تفضيل الآداب الغربية على أمثالها فى تاريخ العرب إلا خلق تخاذل روحى و شعور بالنقص فى نفوس الشرقيين و حملهم من هذا الطريق إلى الرضا بالخضوع للمدنية الغربية .

المستشرقون و التراث الاسلامى

و قد وقف الاستشراق من التراث الاسلامى موقفين متعارضين :

الأول : موقف التنكر لقيمة هذا التراث و تصويره بأنه متخلف و أنه لا يستطيع

أن يعطى العصر الحديث شيئاً نافعاً ، و ينكر أن كان لهذا التراث فضل على الحضارة الحديثة .

الثانى : بعث الجوانب الضعيفة و المختلف عليها من هذا التراث و خاصة ما يتعلق بالفرق السياسية و دعوات الباطنية و الزنج و القرامطة وغيرها من الجوانب المضطربة و التى لا تتفق مع جوهر الاسلام .

و لقد أنكر بعض المستشرقين نسبة الكتب اللاتينية الكيماوية التى تحمل اسم (جابر بن حيان) إليه بمجرد أن أصولها العربية فقدت ، ومنهم المستشرق (برتلو) كذلك أنكر المستشرق (دوزى) الحقيقة التى اعترف بها المؤرخون المنصفون من أن الشعر الفرنسى (البروبادور) قد تأثر بالشعر الاندلسى الاسلامى ، وقد تصدى له علماء راسخون مثل (لمبادرو ستيل) و أوضحوا أنه كان مخطئا و متعمداً وقال جورج سارطون : إن أى شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقا فى اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة فى الترجمة اللاتينية ، و أثبت (ربيرا) و (بنكل) بما لا يدع مجالا للشك أن شعر (البروبادور) متأثر إلى حد بعيد بالشعر العربى الاندلسى وبالموسيقى العربية ولو لا هما لما ظهر (التروبادور) و قد يقال : إنهم مستشرقون ينكرون و مستشرقون يعترفون .

و يقول : إن حركة التغريب لا تنقل لنا إلا وجهات نظر المنكرين و المعترضين والمنتقصين لتراثنا فى محاولتها الدائبة للغض من شأن كل ما يتصل بالاسلام وتراثه ، و إن هؤلاء المنصفون فى الأغلب (علماء) لادخل لهم بدائرة الاستشراق ومن مثل هؤلاء العلامة (درابر) الذى كتب فى منتصف القرن التاسع عشر معلقاً على أسلوب الانكار الذى يتخذه الأدب الأوربى إزاء الأدب

العربى ، وقال : إنه آسف بهذه الطريقة التى عمدبها الأدب الأوربى إلى التحايل (لاخفاء أفضال العرب العلمية علينا) و أشار (سيديو) إلى ذلك فقال : يحاول الأوربيون التقليل من شأن الدور الذى قام به العرب . ولكن الحقيقة ناصعة مشرقـــة ، ليس أمامنا من سبيل إلا أن نضفى عليهم الشرف الذى يستحقونه آجلا أو عاجلا .

و قد أشار (جارودى) إلى ما أطلق عليه « مؤامرة الصمت » التى استمرت أكثر من ثلاثمائة عام تقريباً والتى تجمع على التنكر للتراث الاسلامى و آثاره فى النهضة العلمية الحديثة .

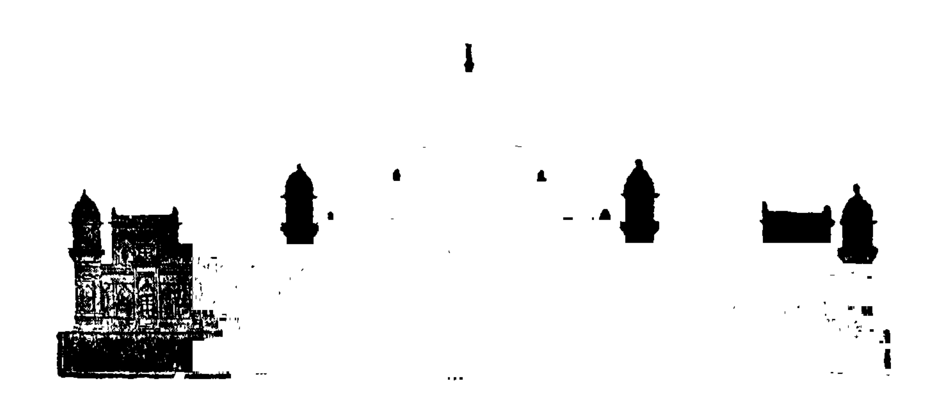
وفى نفس الوقت عمدت حركة الاستشراق إلى استخدام التراث الاسلامى استخداماً سيئا ، فقد بدأت المؤامرة على التراث منذ وقت بعيد . وهى ترمى إلى الاستيلاء علىـــه بأى ثمن و نقله إلى دوائر الغرب ، ثم كانت محاولة إبراز الجوانب الضعيفة منه و المعقدة و المتضاربة والمتصلة بالخلاف و الصراع بين الفرق الاسلامية ، و كل ما يتصل بما يشكك فى العقيدة الاسلامية وبخاصة دعوات الباطنية والقرامطة والحلاج وابن عربى و السهروردى ، حتى يعكف (ماسينون) أربعين عاماً على إحياء آثار الحلاج وإعادة طبعها ، ويجرى طبع كتب ابن عربى و ابن سبعين ، و غيرهما .

و فى نفس الوقت الذى يجرى فيه التجاهل تماماً الكتب الايجابيات الاسلامية والرد على الزنادقة والباطنية مما كتب الغزالى وابن تيمية وابن القيم .

و كذلك نجد أن الاستشراق قد استخدم التراث استخداماً خطيراً فقد أبرز و نشر و أذاع كل ما يفرق و أخفى كل ما يجمع . و أحيا كل

ما يتصل بالشبهات و الفرق ، و أغفل غيره ، فقد جرى المستشرقون على إحياء أنواع معينة من التراث ليست من خيرها وفى مقدمتها النصوص الفلسفية و خلافات المذاهب و تضارب الآراء و أبحاث الاعتزال و الباطنية ، و كل هذا ليس من صميم الفكر الاسلامى ، و لكنهم قصدوا من ذلك إحياء تلك الشبهات و إعادة طرح الخلافات القديمة فى أفق الفكر الاسلامى لتمزيق المسلمين شيعا ، و من ذلك اهتمامهم بالأدب المكشوف ممثلا فى بشار و أبي نواس وألف ليلة و الأغانى ، و الزنادقة أمثال ابن المقفع و ابن الراوندى ، و كل عملهم فى مجال التراث يستهدف طرح مفاهيم من شأنها أن تزاحم مفهوم الأصالة فى الاسلام لتزيفه و تفسده

و مع ذلك فقد وجدنا من يقول : سوف نرى عند ما تخرج إلى النور تلك الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأنا و أخطر أثرا مما عرفناه الآن .



المستشرقون و السيرة النبوية

الدكتور عماد الدين خليل

بدأ موقف (الغربي) من رسول الاسلام ﷺ يتشكل في إطـــار ديني صرف مترع بالتعصب و التشنج و الانفعال مليء بالحقد و الغضب و الكراهية تحيطه جهالة عمياء متعمدة حيناً وغير متعمدة أحياناً، جعلت بين القوم وبين شخصية رسولنا عليه السلام سداً يصعب اختراقه. و اثارت سحاباً من فوقه سحاب من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج أحد يده لم يكد يراها .. و النتيجة .. ليست أبحاثا تاريخية علمية أو موضوعية بحال . النتيجة هو ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب مارسها رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها كافة .. ومارسها رجال علمانيون لاعلاقة لهم الكنيسة من قريب أو بعيد .. وقد استمر هذا التيار حتى العصر الراهن . . ماذا كانوا يقولون عن رسولنا عليـــه الصلاة و السلام و عن رسالته ؟ .

تربأ الأقلام حتى عن سرد ما قالوه على سبيل الاستشهاد و لكن ما دام أن ناقل الكفر ليس بكافر فلا بأس بالاستماع إلى بعض شتائمهم تلك . نتلقاها عن أناس حديثي عهد بهذا العصر بل إن بعضهم لا يزال حيا ، يقول المونيسنيور كولي في كتابه (البحث عن الدين الحق) : برز في الشرق عدو جديد هو الاسلام الذي أسس على القوة و قام على أشد أنواع التعصب و لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين تبعوه و تساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعـــه بالفجور

والسلب، ووعد الذين يهلكون فى القتال بالا ستمتاع الدائم بالملذات فى الجنة ، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى و أفريقيا و أسبانيا فريسة له . حتى إيطاليا هددها الخطر و تناول الاجتياح نصف فرنسا ، لقد أصيبت المدنية . . . و لكن أنظر ها هى النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سدا فى وجه سير الاسلام المنتصر عند بواتية (٧٥٢م) ثم تعمل الحروب الصليبيه فى مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ - ١٢٥٤م) فى سبيل الدين فتدجج أوربا بالسلاح وتنجى النصرانية و هكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة » .

و يقول المسيوكيون فى كتابه ميثولوجيا الاسلام) (إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً . بل هو مرض مروع و شلل عام و جنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول و الكسل و لا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويد من معاقرة الخمور و يجمع فى القبائح وما قبر محمد فى مكة (!!) إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين و يلجئهم الاتيان بمظاهر الصرع (الهستريا) و الذهول العقلى وتكرار لفظة (الله الله) إلا ما لا نهاية ، وتعود عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير و النبيذ و الموسيقى و ترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة و الفجور فى الملذات . .) و يقول جويليان فى كتابه تاريخ فرنسا (إن محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو ، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى؟ أن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس أسلموا أوموتوا ، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم و إحسانهم ، ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين و المراكشيين) و جاء فى

كتاب (تقدم التبشير العالمى) الذى ألفه الدكتور غلوور و نشره فى نيويورك سنة ١٩٦٠ فى نهاية الباب الرابع (أن سيف محمد والقرآن أشد عدو وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ومن بين العوامل الهدامة التى اطلع عليها العالم إلى الآن) و قال : « القرآن خليط عجيب من الحقائق و الخرافات و من الشرائع و الأساطير كما هو مزيج غريب الاغلاط التاريخية و الأوهام الفاسدة و فوق ذلك هو غامض جدا لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص له والذى يعتقده المسلم أن المعبود هو الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، فانه ملك جبار متسلط ليست له علاقة مع خلقه و رعاياه رغم أن الاسلام يذكر الرابطة الموجودة بينهما) ثم ينتقد غلاوور شخصية الرسول ﷺ فيقول : « كان محمد حاكماً مطلقاً و كان يعتقد أن من حق الملك على الشعب أن يتبع هواه و يفعل ما يشاء و كان مجبولا على هذه الفكرة فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه فى هواه . أما جيشه العربى فكان يتعطش للتهديم و التغلب ، و قد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم و يبعد عن طريقهم » .

ويعتقد سفارى الذى ترجم القرآن سنة ١٧٥٢م أن محمداً قد لجأ إلى السلطة الالهية لكى يدفع الناس إلى قبول هذه العقيدة ، ومن هنا طالب بالايمان به كرسول لله . و قد كان هذا اعتقاداً مزيفاً أملته الحاجة العقلية . . .) وهذا يكفى .

لقد جاءت هذه المعطيات إفرازاً طبيعياً للصراع المحتدم بين الاسلام و الصليبية و قد كان للنتائج التى تمخضت عنها الحروب الصليبية طعم العلقم فى حلوق الغربيين ما نسوه أبداً . . إن ليوبولدفايس يتحدث عن التجربة المرة التى استحالت معضلة فى مناهجهم يصعب تجاوزها فيقول « فيما يتعلق بالاسلام فان الاحتقار التقليدى أخذ

يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية . و فى هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوربا و العالم الاسلامى (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر ثم أصبح احتقار الاسلام جزءاً أساسياً من التفكير الأوربى و الواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الاسلامية و كانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الاسلام و تاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من الوثنيين غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسئ توجيهها ، أما تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة و خاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول فى عقول الأوربين ليست الحروب الصليبية وحدها و لكنه الاسلام نفسه ، إن الخطر الحقيقى كما يقول لورانس براون فى كتاب أصدره عام ١٩٤٤ :

« كامن فى نظامه و فى قدرته على التوسع والاخضاع ، و فى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى » . . و نقرأ فى مجلة العالم الاسلامى (The Muslim world) عدد حزيران سنة ١٩٣٠م « إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى و لهذا الخوف أسباب منها : ـ أن الاسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عددياً بل دائماً فى ازدياد و اتساع ، ثم أن الاسلام ليس ديناً فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد و لم يتفق قط أن شعباً دخل فى الاسلام ثم عاد نصرانياً » و المستشرق الألمانى بيكر يقولها بصراحة « إن هناك عداء من النصرانية للاسلام بسبب أن الاسلام عند ما انتشر فى العصور الوسطى

قام سداً منيعاً فى وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » (١) .

وفى مؤازرة هذا التيار الكهنوتى المتعصب الذى يفتقد أى قدر من الرغبة فى التعرف على حقيقة الاسلام و شخصية نبيه عليه السلام و فى أعقاب عصر الاصلاح الدينى وفيما بعد خلال عصر التنور وانفصال الدين عن الدولة وحتى القرن العشرين توالت على المسرح أجيال من المعنيين بالدراسات الاسلامية عامة و سيرة رسولنا عليه السلام خاصة، وقد عرف هؤلاء بالمستشرقين. كان بعضهم ينتمى إلى الكنيسية ويرتدى ملابس الكهنوت، ولكن كان أغلبهم (مدنياً) ولا تربطه بالكنيسة رابطة وظيفية وكان يتوقع أن تخف حملاتهم على رسولنا ﷺ وأن تتغير نظرتهم فى تعاملهم مع شخصيته ومعطياته ، نعم لقد حدث شئ من هذا ، و لكنه ما تعدى التشذيب و التهذيب و تجاوز كلمات الغش و السباب أما المنهج فقد ظل هو المنهج : جهلا بتركيب السيرة و تعصباً حاقداً فى التعامل معها ، و تحليلات و استنتاجات ما أنزل الله بها من سلطان ، يؤكدها الواحد منهم المرة تلو المرة ، و يجمتع القوم عليها حتى لتكاد تغدو عدهم يقيناً من اليقين رغم أنها بنيت أساساً على الوهم الذى تستحيل معه رؤية الحقائق بحجمها الطبيعى و رغم أنها انبثت عن زاوية رؤية ضيقة مترعة

---

(١) عن النصوص السابقة ، ولمزيد من التفاصيل أنظر : محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث و صلته بالاستعمار الغربى ص٥٠٧ - ٥٢١ ، اليوبولد فايس (محمد أسد) : الاسلام على مفترق الطرق ص٣٠ فما بعد ، عمر فروخ و مصطفى الخالدى : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، توفيق الحكيم : تحت شمس الفكر ص ١٨ فيما بعد ، جريدة البلاغ الكويتية عدد ٥٨ ص ١٢ ، مجلة « البعث الاسلامى الهندية عدد ٩ السنة الثامنة .

بالتعصب و نظر إليها عبر منظار قد دخن عليه سلفاً . . و رغم أنها فى أحسن الأحوال قد بنيت على شواهد تاريخية و لكنها ليست بحال الشواهد المتواترة ذات الثقل ، و إنما هى الشاذ الغريب ، لا لشذوذه و غرابته و لكن لكونه يشبع فى نفوسهم و عقولهم حاجة .

وعموماً فاننا نستطيع أن نضع أيدينا على حشد من الأخطاء المنهجية والموضوعية لهـــذه الطبقة من المستشرقين ، و نشيرها هنا على وجه التحديد إلى بعض أنماط هذه الأخطاء .

أولا : الاعتماد على الضعيف الشاذ : « لقـــد أخذ المستشرقون بالخبر الضعيف فى بعض الأحيان و حكموا بموجبه ، و استعانوا بالشاذ و الغريب فقدموه على المعروف المشهور ، استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذى استغربه النقد و أشارو إلى نشوزه ، تعمدو ذلك لأن هذا الشاذ هو الاداة الوحيدة فى إثارة الشك » (١) .

ثانياً : رد معطيات السيرة إلى أصول نصرانيـــة أو يهودية « إن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقـــة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات اللاهوت ، و هم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة من الاسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصرانى و طائفة المستشرقين من يهود ، و خاصة بعد تأسيس (إسرائيل) و تحكم الصهيونية فى غالبيتهم ، يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامى وعربى لأصل يهودى ، وكلتا الطائفتين فى هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء » (٢) ويقول المستشرق البريطانى المعاصر مونتكمرى وات

---

(١) جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ١/٨-١١ .

(٢) نفسه ١/٩-١١ .

أن زيارة محمد لحراء ، و هو جبل قريب من مكة بصحبة عائلته أو بدونهم ليست مستحيلة ، و يمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينــة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه إلى الطائف ، يمكن للتأثير اليهودى المسيحى و لا سيما مثل الرهبان ، أو تجربة شخصية لمحمد أن يكون قد أثار فيه الحاجة للخلود والرغبة فيها » (١) .

و يقول فى مكان آخر : « تعتبر كلمة ناموس مشتقه من كلمة MOMOS اليونانية و هى تعنى أذن (الشريعة) أو (الكتب المقدسة) و هذا يتفق تماما مع ذكر موسى . وقد أبدى ورقة (ابن نوفل) ملاحظة بعد أن أخذ محمد يتلقى الوحى ، وهى تعنى أن ما نزل على محمد مماثل لكتب اليهود و المسيحيين المقدسة ، كما أن محمداً سمع ما يوهمه بأنه مؤسس أمة ومشرع لها ، وإذا كان محمد - كما يبدو - متردد بطبعه ، فان هذا التشجيع باقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدى أكبر أهمية لتطوره الداخلى . وقد تأثرت التعاليم الاسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة » (٢) .

« إن النظرة الأولى للاسلام تكشف مواضع شبه بينه وبين المسيحية ولكن النظرة الفاحصة عن قرب تبرز خلافات أساسيــة . و هذه الحقيقة كانت غالباً ما تثير المبشرين فى الماضى ، و ما زالت تستميل قليلا فى المجال الأكاديمى إلى التحايل على تصيد مثل هذه الشوارد كأصول للاسلام . و ينزع المبشر والباحث الأكاديمى إلى أن يتناسى و هو ينال من قدرة محمد بطريق مباشر أو غير مباشر ، كيف يقدس المسلمون الانقياء المسيح . و فى كتاب قريب من سلسلة بنجوين Penguin عمل مستشرق و هو قسيس انجليكانى على عقد عدة مقارنات ليظهر أن الاسلام كان

(٢) محمد فى مكة ص ٨١ .

(١) نفسه ص ٩٢ - ٩٣ .

فى صدق صورة غير محكمة أو مشوهة للسيحية . . و هناك دارس آخر للاسلام هو أيضاً من رجال الكهنوت (و يقصد به و لفرد كانتول سمت) يستحق الذكر هنا بوجه خاص بسبب تقديمه لمزيد من الجدل السطحى (Speatulation) الذى يعرض للتشابه بين المسيحية و الاسلام ، و هو يكتب (أن من أسباب تباعد المسلمين و المسيحين عن بعضهم البعض أن كلا الفريقين قد أساء فهم عقيدة الآخر بمحاولتـــــه أن يضعها خلال طراز الاعتقاد الذى يؤمن به) (١) ! ! و شأن كثير من التعميمات لا يبدو مثل هذا النص منصفا كما يحاول أن يكون . فان المسيحين وحدهم هم الذين ظلوا طوال القرون يحاولون فهم الاسلام - أو إساءة فهمه - من خلال اصطلاحات المسيحية أما النظرة الأساسية للسلم فقد ظلت على حالها لم تتغير على الدوام لأنها جزء من الوحى الالهى فى القرآن . ولم يحاول مسلم مؤمن أن يدخل المسيحية فى إطار آخر . و المسيحى لا يواجه فى كتبه المقدسة قيوداً صريحة تحجزه عن تقبل وجهة نظر المسلم عن الاسلام ، و مع ذلك فهو يرفض لا رأى المسلم فى المسيحية فحسب بل رأيه فى الاسلام أيضاً ، و هو يسعى جاهداً لتغيير الرأيين) (٢) و هذا مبشر قديم يحاضر فى الشريعة الاسلامية بجامعة لندن لا يبدى احتراماً يذكر لذكاء القارىء و يعلن فى مقدمة مقال له أنه يقدم معلومات صحيحة لمعالجة الدراسة موضوعيا حتى يكون منصفاً مدققاً ، و لكن بعد هذا كله يكتب أنه لا يمكن أن يكون هناك شك على أية صورة أن محمداً قد

---

(١) أنظر : أ . ل . طيباوى : المستشرقون الناطقون بالانكليزية ، مجلة The Muslim World) عدد تموز سنة ١٩٦٣ ، ترجمة فتحى عثمان ، عن محمد البهى ، الفكر الاسلامى الحديث ، ص ٥٩٣ - ١٠٦ .

(٢) نفسه .

تمثل أفكاراً من التلمود و بعض المصادر المحرفة ، أما بالنسبة للمسيحية فان هناك احتمالا طاغياً بأن محمداً قد استمد إيحاءه منها) . . و من أجل تبين مدى موضوعية المبشر المذكور يتوجب أن نقرأ هذه الكلمات الشاعرية التى وردت فى ختام مقاله (إن للعالم أن يرى ماذا سوف يحدث حين يعرض إنجيل المسيح الحى بالصورة الملائمة للملايين المسلمين) ! ! (١) .

ثالثاً : اعتماد المنهج المعكوس والانتقاء الكيفى : يشير الدكتور جواد على إلى أن كيتانى و هو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ كان يعتمد منهجاً معكوساً فى البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد فى حقل التاريخ الاسلامى و الذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه ، إذ أنهم يبيتون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ ، لكى يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك فلقد كان كيتانى « ذا رأى وفكرة ، وضع رأيه وكونه فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها ، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها و قويها . و تمسك بها كلها و لا سيما ما يلائم رأيه ، لم يبال بالخبر الضعيف بل قواه و سنده و عده حجة و بنى حكمه عليه . و من يدرى فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ، ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت و كيف يتمكن من إثباتها و إظهارها و تدوينها إذا ترك تلك الروايات و عالجها معالجة نقد و جرح و تعديل على أساليب البحث الحديث ؟ » (٢) و ترد فى ختام كتاب ايتين دينية القيم (الشرق كما يراه الغرب) بعض الآراء حول هذا

---

(١) نفسه .

(٢) تاريخ العرب فى الاسلام ١ / ٩٥ .

المنهج حيث يقول : « لقد أصاب الدكتور سنوك هير غونجه بقوله : إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق». هذه حقيقة يجمل بمستشرق العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصل إلى نتائج لاشك خاطئة ، فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء إلى هدم بعض الأخبار و ليس هذا بالأمر الهين ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا و هذا أمر لاريب مستحيل . إن العالم فى القرن العشرين يحتاج إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية كالزمن و البيئة و الاقليم و العادات و الحاجات و المطامع و الميول إلى آخره . لاسيما إدراك تلك القوى الباطنة التى لا تقع تحت مقاييس المعقول والتى يعمل بتأثيرها الأفراد و الجماعات » (١) ويضرب مونتكمرى وات بالمستشرق الفرنسى لامانس مثلا على الانحرافات المنهجية التى يمارسها كثير من المستشرقين و بخاصة خطيئة جعل بعض الوقائع التاريخية مجالا انتقائيا للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محـــدد سلفاً . إن (لا مانس) للأسف يتجاوز الأدلة كثيراً فى ناحية أخرى ، إذ أن طريقته العابثة فى معالجة الوقائع ليست طريقـــة علمية . . فهو يرفض هذا الرأى ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة و معتقداته . دون أن يعبأ بالموضوعية . ففى عبارة (الأحابيش و عبيد أهل مكة) نجد أن الواو تفسيرية تشير إلى أن الأحابيش من ضمن العبيد بينما نجد فى عبارة (الأحابيش و من أطاعهم ، أى القريشيين من قبائل كنانة و أهل تهامة) إن (الواو) تدل على تمييز تام و لكن لماذا يفعل لاماس ذلك ؟ يبدو أنه يؤكد حقيقة

---

(١) المقدمة ص ٤٣ - ٤٤ .

النظر التى يحـاول التدليل عليها » (١) و نحن نستطيع أن نحصل على عشرات بل مئات من هذا الانتقاء الكيفى و التفسير الاختيارى للنصوص التاريخية فى كثير من كتب المستشرقين و بخاصة أجيالهم السابقة . فبروكلمان على سبيل المثال لايشير إلى دور اليهود فى تأليب الأحزاب على المدينه و لا إلى نقض بنى قريظة عهدها مع الرسول (ﷺ) فى أشد ساعات محنته . و لكنـه يقول « ثم هاجم المسلمون بنى قريظة الذى كان سلوكهم غامضـا على كل حال » (٢) و يتغاضى إسرائيل و لفن سون عن حادثة نعيم بن مسعود فى معركة الخندق كسبب فى انعدام الثقة بين المشركين و اليهود (٣) . و لعله يريد أن يوحى بذالك أن اليهود لا يمكن أن يخدعوا ! !

رابعاً : التعاطف مع العناصر المضادة الاسلام و بخاصة اليهود : يشير إسرائيل و لفنسون بصدد مهاجمة يهود بنى النضير إلى أن مؤرخى العرب يذكرون سبباً آخر لاعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية ، ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول ﷺ « لكن المستشرقين ـ يقول ولفنسون ـ ينكرون صحة هذه الرواية و يستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها فى سورة الحشر التى نزلت بعد إجلاء بنى النضير . و الذى يظهر لكل ذى عينين (! !) أن بنى النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبى و اغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصاره و لو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط ، كان فى استطاعتهم أن يفاجئوه ، و هو يحادثهم إذ لم يكن معه غير قليل

(١) محمد فى مكة ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .
(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥٢ ـ ٥٣ .
(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

من أصحابه » (١) ويبدو أن و لفنسون يغفل هنا مسألة التركيب النفسي لليهودى و تجنبه المعروف لأية مجابهة حقيقية حتى وقت قريب !

و يقول بروكلمان: « لقد حالت الظروف بين الوصول وبين الشروع فى شن حملة نظامية مباشرة على المشركين . فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمة تمسك المهاجرين عن محاربة إخوانهم فى قريش فى حين كان المدنيون غير شديدى الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الأقوياء .. حتى إذا كان شهر رجب الحرام وجه جماعة من الغزاة بأوامر سرية ، فوفقت إلى مباغتة قافلة بالعروض . كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حرمة الشهر فأصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة، ولكن هذا النقض للقانون الخلق القبلى لم يلبث أن أثار عاصفة من الاستنكار فى المدينة نفسها . فما كان من محمد إلا أن أنكر صنيع أتباعه الذى تم و فقاً لرغباته بلا خلاف ، و عزاه إلى سوء فهم لأوامره . . . » (٢) . و يقول فى مكان آخر : « .. و لم يطل العهد بمحمد حتى تجر النزاع بينه و بين أحبار اليهود . فالواقع أنهم على الرغم مما تم لهم من علم هزيل فى تلك البقعة النائيــة كانوا يفوقون النبى الأمى فى المعلومات الوضعية و فى حدة الادراك .. » (٣) و يقول « و كان على محمد أن يعوض خسارة أحــد التى أصابت مجده العسكرى ، من طريق آخر ففكر فى القضاء على اليهود . فهاجم بنى النضير لسبب واه » (٤) . و يقول فلهاوزن « لم يبق الاسلام على تسامحه بعد بدر بل شرع فى الأخذ بسياسة الارهاب

(١) نفسه ص ١٣٥ - ١٣٧ .
(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٤ .
(٣) نفسه ص ٤٧ .
(٤) نفسه ص ٥٢ .

فى داخل المدينة ، و كانت أثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول . .
أما اليهود فقد حاول أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد ، و فى غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها فى الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية و قد التمس لذلك أسباباً واهية . . » (١) و يظهر مرغوليوث عطفه ـ هو الآخر ـ على اليهود ويرى أن اقتحام خيبر محض ظلم نزل باليهود لا مبرر له على الاطلاق .. « عاش محمد هذه السنين الست ما بعد هجرته إلى المدينة على التلصص و السلب و النهب ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة فقد كان هناك ـ على أى حال ـ سبب ما ، حقيقياً كان أم مصطنعاً يدعو إلى انتقامه منهم ، إلا أن خيبر التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها فى حقه و لا فى حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعا لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون ذريعة للانتقام .

و هذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذى طرأ على سياسة محمد ففى أيامه الأولى فى المدينة أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين لكنه الآن (بعد السنة السادسة للهجرة) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك فقد أصبح مجرد القول بأن جماعة ما غير مسلمة يعتبر كافياً لشن الغارة عليها ، و هذا يفسر لنا تلك الشهوة التى أثرت على نفس محمد و التى دفعته إلى شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبل و نابليون من بعد ، .. إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أى حد قد أصبح الاسلام خطراً على العالم » (٢) و يتمنى نولدكه « لو أن القبائل العربية

---

(١) الدولة العربية و سقوطها ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) محمد وقيام الاسلام ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ عن فتحى عثمان : أضواء على التاريخ الاسلامى ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

استطاعت أن تعقد بينها محالفات عربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية ، و الذود عن استقلالهم . إذن لاصبح جهاد محمد ضدهم غير مجد . إلا أن عجز العربى عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح له أن يخضعهم لدينه القبيلة تلو الأخرى ، و أن ينتصر عليهم بكل ، وسيلة ، فتارة بالقوة والقهر وتارة بالمحالفات الودية و الوسائل السلمية » (١) .

خامساً : النفى الكيفى و إثارة الشكوك فى معطيات السنة و التاريخ : « لقد غالوا فى كتاباتهم فى السيرة النبوية وأجهدوا أنفسهم فى إثارة الشكوك (فى معطياتها) و قد أثاروا الشك حتى فى اسم الرسول ﷺ و لوتمكنوا لأثاروا الشك حتى فى وجوده .. و لكنهم مهما قالوا فى نسبة التاريخ الصحيح فى سيرة الرسول ﷺ فان سيرته هى أوضح وأطول سيرة نعرفهابين سير جميع الرسل والأنبياء» (٢). ويشير درمنغم إلى هذه المسألة فيقول : « من المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين - من أمثال موير ومرغوليوث و نولدكه و شبرنجرودوزى و كيتانى و مارسين و غويم و غولد زيهر و غود فروا و غيرهم - فى النقـد أحياناً ، فلم تزل كتبهم عامل هـدم عـلى الخصوص و من المحزن ألا تزال النتائج التى انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة ، و لن تقوم سيرة على النفى ، و ليس من مقاصد كتابى أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة .. و من دواعى الأسف أن كان الأب لامانس الذى هو من أفضل المستشرقين المعاصرين من أشدهم تعصباً و أنه شوه كتبه الرائعة الدقيقة و أفسدها بكرهه الاسلام و نبى الاسلام ، فعند هذا العالم اليسوعى أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولا عن القرآن ، فلا

(١) تاريخ العالم للمؤرخين ٨ / ١١ .

(٢) جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ١ / ٩ - ١١ .

أدرى كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين لتهادمهما بحكم الضرورة بدلا من أن يؤيد أحدهما الآخر؟ » (١) .

و هذا يقودنا إلى موقف بعض المستشرقين من القرآن كمصدر أساسى من مصادر السيرة ، ذلك أن اعتماد القرآن الكريم فى هـــذا المجال يمكن أن يعتبر سلاحاً ذا حدين ، و يتمثل الحد السلبى بنفى الكثير من أحداث السيرة ما دامت لم ترد فى القرآن الكريم . ، و كأن القرآن كتاب تاريخى خاص بتفاصيل حياة محمد ﷺ ، و هذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع هدمى معاكس و هى التشكيك و رفض كل رواية لا ترد مؤيداتها فى القرآن ، سيما إذا كان فى هذه الرواية تمجيد للنبى ﷺ أو إذا كان فى نفيها تأكيد لاحدى وجهات النظر الاستشراقية ، فمثلا نجد شبرنكر (SPRENCER) يرى أن اسم النبى عليه السلام ورد فى أربع سور من القرآن هى آل عمران و الأحزاب ومحمد و الفتح ، و كلها سور مدنية و من ثم فان لفظة (محـــمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة و إنمـا اتخذه بتأثير قراءته للانجيل واتصاله بالنصارى (٢) . وقد يتوجب أن نسأل شبرنكر هنا : إذا كان النبى ﷺ قد التقط اسم (محمد) من خلال قراءاته لنبوءات الانجيل فأين ذهب إذن (محمد) الحقيقى الذى بشر به العهدان القديم و الجديد ؟

هنالك مثل آخر أن إسرائيل و لفنسون يشير بصدد مواجهة يهود بنى النضير إلى أن مؤرخى العرب يذكرون سبباً آخر لاعلان الحرب على هـــذه الطائفة اليهودية ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول عليه السلام « لكن المستشرقين ـ يقول و لفنسون ـ ينكرون صحة هذه الرواية و يستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها

(١) حياة محمد : المقدمة ص ٨ ، ١٠ ـ ١١ .

(٢) أنظر : جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ١ / ٧٨ و هوامشها .

فى سورة الحشر التى نزلت بعد إجلاء بنى النضير » (١) .

إننـا فى مجال الانتقاء و التشكيك و النفى الاعتباطى هذا لابد أن نتذكر عبارة مونتكمرى وات الذكية و التى قالها فى هذا الصدد ، لكنه هو نفسه لم يلتزم العمل بها دائماً ! ! « إذا أردنا أن نصحح الاغلاط المكتسبة من الماضى بصدد محمد فيجب علينا فى كل حالة من الحالات لا يقوم الدليل القاطع على ضدها أن نتمسك بصلابة بصدقـه ، و يجب أن لا ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً ، و إنه فى مثل هـذا الموضوع يصعب الحصول عليه » (٢) .

سادساً : إسقاط المنطق الوضعى ، العلمانى والرؤية البيئية المعاصرة للمناهج الغربية : لقد رأى دينية على سبيل المثال « أنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم و بيئتهم و نزعاتهم المختلفة ، و أنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبى و الصحابة مبلغاً يخشى على صورتها الحقيقية من شـدة التحريف فيها و رغم ما يزعمون من أتباعهم لأساليب النقد البريئة و لقوانين البحث العلمى الجاد فانا نلمس من خلال كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانيـة إذا كان المؤلف ألمانياً ، و بلهجة إيطاليه إذا كان الكاتب إيطالياً ، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا فى هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فانا لانكاد نجد لها من أثر ، إن المستشرقين يقدمون لنا صوراً خيالية هى أبعد ما تكون عن الحقيقة ، إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها أمثال (وولتر سكوت) و (اسكندر ديماس) و ذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصاً

(١) تاريخ اليهود ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) محمد فى مكة ص ٩٤ .

من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة فصوروهم حسب منطقهم الغربي و خيالهم العصرى » . وما يلبث دينية أن يضرب مثلا (عكسيا) فيقول : « مارأى الأوربيين فى عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التى تكثر عن مؤرخى الفرنسيين و يمحصها بمنطقه الشرقى البعيد ثم يهدم قصة (الكاردينال ريشليو) كما نعرفها ليعيد إلينا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين و سماته و طباعه ؟ إن مستشرقى العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لسيرة الرسول ﷺ ، و يخيل إلينا أننا نسمع محمداً يتحدث فى مؤلفاتهم إما باللهجة الألمانية أو الانكليزية أو الفرنسية ولا تمثله قط بهذه العقلية والطباع التى ألصقت به - يحدث عرباً باللغة العربية » وينتهى المستشرق الفرنسى - الذى أعلن إسلامه - إلى القول « إن صورة نبينا الجليلة التى خلقها المنقول الاسلامى تبدو أجل وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التى صيغت فى ظلال المكاتب بجهد جهيد » ٢٦ (١) .

و فضلا عن هذا نجد أن الطابع العلمانى الوضعى و الرؤية المحدودة للمناهج الغربية فى تعاملها مع تاريخنا أوقع عدداً من المستشرقين فى خطأ أخر مفاده أن الرسول ﷺ لم يكن يخطو خطوة واحدة و هو يعلم مسبقاً ما الذى يليها . . أى أن نشاطه كانت توحى به (الظروف الراهنة) ومتطلباتها ولوازمها . وأبرز مثل فى هذا المجال ما ذكره فلهاوزن وعدد من رفاقه حول إقليمية الحركة الاسلامية فى عصرها المكى و أنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية - فى العصر المدنى - إلا بعد أن أتاحت لها الظروف ذلك و لم يكن الرسول ﷺ ليفكر بذلك من قبل . و ما قالوه حول

(١) محمد رسول الله ، المقدمة ص ٢٧ - ٢٨ ، ٤٢ - ٤٤ .

اعتماد الرسول (ﷺ) أسلوب (اللاعنف) فى العصر المكى و تحوله إلى القوة بعد أن شكل دولة فى المدينة وتجمع حوله المقاتلون « لقد كان فى وسع محمد - يقول فلهاوزن - من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم . أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها . ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة . هذا هو الذى جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها . و لكن محمداً لم يرد ذلك . و من الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم (١) ويرفض سيرتوماس آرنولد فى كتابه (الدعوة إلى الاسلام) هذه الرؤية الخاطئة فيقول (من الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الاسلام قد قصد به مؤسسه فى بادى الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات . . (٢) و من بينهم السير وليم ميور إذ يقول : (إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد . و إن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات و الأحاديث التى تؤيدها . لم يفكر فيها محمد نفسه » و على فرض أنه فكر فيها فقد كانت الفكرة غامضة فان عالمه الذى كان يفكر فيه . إنما كان بلاد العرب . كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها . و إن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم ، و هكذا نرى أن نواة عالمية الاسلام قد غرست ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا إلى الظروف

---

(١) الدولة العربية و سقوطها ص ٤

(٢) يستشهد آرنولد بالآيات التالية : سورة ٣٦ آية ٦٩ - ٧٠ سورة ٢١ آية ١٠٧ سورة ٢٥ آية ١ سورة ٢٤ آية ٧ سورة ٦١ آية ٩ . . إلى آخرها . .

و الأحوال أكثر منه إلى الخطط و المناهج) (١) . . و يجيب آرنولد (لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب بل للعالم أجمع نصيب فيها . و لم يكن هناك غير إله واحد كذلك لايكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة (٢) . و لم يقف آرنولد وحده بمواجهة هذا الخطأ الواضح . إنما هناك كولد زيهر و نولدكه وسخاو الذى يؤكد (أن الرسالة الالهية ليست مقصورة على العرب بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات ومعنى ذلك خضوع الانسانية كلها خضوعاً مطلقاً . وقد كان لمحمد بوصفه رسولا من الله حق المطالبة بهذه الطاعة و قد كان عليه ان يطالب بها . و هذا ما ظهر من أول الأمر جزء لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء) (٣) . و يرفض آرنولد الخطأ الآخر الذى يرى أن محمداً قد تحول إلى القوة بمجرد أن واتته الظروف و هو رأى قد صرح به نقلا عن فلهاوزن بعض الباحثين ولا سيما ميور لدى حديثه عن غزوة بنى قريظة) (٤) . .

إلا أن آرنولد لم ينج من الوقوع فى الخطأ نفسه عند ما يقول : (كانت رغبة محمد ترمى إلى تأسيس دين جديد . وقد نجح فى هذا السبيل ، و لكنه فى الوقت نفسه أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً . و كانت رغبته بادىء الأمر مقصورة على توجيه بنى وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله » (٥) .

إن فهم السيرة لا يمكن أن يتم إلا وفق نظرة شمولية تدرس حركة الاسلام كخطوات فى برنامج شامل مرسوم فى علم الله ، و محدد فى قرآنه و أن الرسول ﷺ لم يكن سوى منفذ لهذا البرنامج بأسلوب يعتمد على قدراته و أخلاقيته وذكائه

---

(١) the Caliphate PP. 43 - 44 و كايتانى آخر من يؤكد هذا الرأى . Annali Dell Islam 7 - 323 - 324

عن : أرنولد : الدعوة إلى الاسلام هامش ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ (٣) نفسه ، هامش ١ ، ص ٤٨ .

(٤) نفسه ، هامش ١ ص ٥٤ . (٥) نفسه ، ٥٢ .

و إمكاناته الفذة فى التخطيط و التنفيذ . ورغـــم أن القرآن الكريم نزل مـ
و راحت آياته تنزل على مكث لكى تلامس الأحداث و تعلق عليها (بعد وقوعه
إلا أنه بمجموعة كبدأ (أيديولوجية) لا يخرج عن نطاق كونه برنامجاً إلهياً شـ
ترتبط ممارساته الجزئية بكليات شاملة محـددة سلفاً فى علم الله . و من ثم
(الظروف الراهنة) ليست هى الحتمية الموقتة التى تحدد مسار الاسلام وخطى ر
عليه السلام . إنما هنـاك (الهدف) الذى يفرض أحيـاناً (وقفة) ضد الأعـ
و الظروف (وتمرداً) عليها و (انقلابا) شاملا على مواضعاتها . و هـذا ما
واضحاً منذ أول لحظة فى الشعار الحاسم الذى طرحه الرسول (ﷺ) بوجه الجـ
(لا إله إلا الله) فأى ظرف راهن ، موقوت ، أوحى بهذا الشعار الانقلابى الشـ
الذى جاء يدمر على الوجود الجاهلى جل قيمه و أهدافه ومعالمه و مفاهيمه و ..
و تقاليده . ؟ إن توماس آرنولد يشير إلى ذلك بوضوح عند ما يقول (لا يغـ
على البال كيف ظهر جلياً أن الاسلام حركة حديثة العهد فى بلاد العرب الو..
و كيف كانت تتعارض المثل العليا فى هذين المجتمعين تعارضاً تاماً ذلك أن د
الاسلام فى المجتمع العربى لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية و..
فحسب و إنما كان انقلاباً كاملا لمثل الحياة التى كانت من قبل . . و الواقـ
المبادىء الأساسية فى دعوة محمد كانت تعارض كثيراً مع ما كان ينظر إليه العرب
ملؤها التقدير والاجلال حتى ذلك الحين . كما أنها كانت تعلم حديثى العهد بالا
بأن يعـدوا من الفضـائل صفـات كانوا قبل إسلامهـــم ينظرون إليهـا
الاحتقار) . (١) .

---

(١) نفسه ص ٦١ - ٦٢ و انظر بالتفصيل غولد تسين فى مؤلفه
Muhammedani The Stndien V, L, T,

إن القرآن الكريم كان قضية فوقية جاءت آياته لتقود الانسان فى كل زمان ومكان إلى عصر جديد و لم يكن ينفعل انفعالا موقتاً بالوضع السائد ، سلباً وإيجاباً ، كما يتصور معظم المستشرقين مسيحيين و ماركسيين (كما سنرى) و إنما كان ينظر نظرة شمولية بعيدة كل البعد عن رد الفعل المباشر ، وهذا هو الذى يفسر لنا الكثير من الأخطاء التى مارستها مناهج البحث الاستشراقية بكافة أجنحتها .

ونحن لا نطلب من الغربيين هنا أن يؤمنوا أن القرآن منزل من السماء وأن محمداً رسول . . و إنما نطلب أن يكونوا أكثر تجرداً و موضوعية فينظروا إلى سيرة الرسول ﷺ كوحـدة عضوية متكاملة . و إلى القرآن الكريم كبرنامج مرابط Ideology تعلو معطياته على الظروف الموقوتة زماناً ومكاناً ، رغم ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية و المكانية ، و لكنها الملامسة التى تنبثق عنها قيم و دلالات ذات طابع شمولى ما كان للمستشرقين أن يغفلوا عن أبعادها .

رغم أن العديد من أبناء هذه الطبقة من المستشرقين كشفوا بتعمقهم ونفاذهم و إحاطتهم ، النقاب عن الكثير من الجوانب المضطربة الغامضة فى تاريخنا الاسلامى عامة بما فيه سيرة الرسول ﷺ ، إلا أنهم بأخطائهم المنهجية التى عرضنا لبعض أنماطها ، طرحوا الكثير من النتائج و المعطيات الخاطئة على مستوى الموضوع . وهـذا أمر طبيعى ، فالخطأ لا ينتج إلا الخطأ و البعد عن الموضوعية لا يقود إلا إلى نتائج لا تحمل من روح العلم و الجدية إلا قليلا .

و لن يتحمل بحث موجز كهذا عرض و تحليل و مناقشة هـذه المعطيات والنتائج فلهذا كله مجال آخر ، وليس من نافلة القول الاشارة إلى أن هذه المعطيات تمثل حصاداً ضخماً يمكن أن يجفيه كل دارس بتأن وروية لما كتبه هؤلاء المستشرقون عن حياة الرسول ﷺ و هو حصـاد يحمل فى ثناياه كما رأينا عناصر تناقضـه

و اضطرابه و خروجه على البحث العلمى المنهجى الدقيق .

ولكن القوم - إذا توخينا الحكم الدقيق - ليسوا كلهم سواء ، فقد شذ عنهم بعض المستشرقين - و لكل قاعدة شواذ - و رغم قلة هؤلاء بالنسبة للتيار الأوسع و الأثقل ، فان صوتهم لم يضع وقد مارسوا كشفاً نقدياً طباً للكثير من أعمال رفاقهم فى البحث ، و ألقوا الضوء على الثغرات و المطبات التى وقعوا فيها . . وقد عرضنا لبعض مواقف هؤلاء : دينيــة وات ، درمنغهم ، أرنولد . . رغم أن هؤلاء أنفسهم ما كانت رؤيتهم تصل أبداً درجة النقاء العلمى المطلوب ، فهذا أمر يكاد أن يكون مستحيلا .

مع بدايات القرن ، و نجاح الثورة البلشفية فى روسيا ، بدأ يطل موقف جديد إزاء رسولنا عليه السلام ، وتاريخنا الاسلامى بعامة ، ينبثق عن التفسير المادى للتاريخ يسعى إلى إخضاع معطيات السيرة لمقولاته الصارمة . . يفصلها على مساحات منهجه المرسوم سلفاً . يقطع أوصالها لكى يرفض و ينفى و يستبعد مالا ينسجم و مطالب هذا المنهج ، ويأخذ و يستبقى ما ينسجم وهذه المقولات . . و بحسب ما يأخذ مما يدع فلا يعدو أن يكون واحداً من عشرة بحساب الأرقام .

و إذ كانت وقائع السيرة تتأبى على تحليلهم و محاولاتهم السرية . كانوا يزدادون شططاً وعناداً فى التقطيع والتمزيق ، و فى التفسير والتأويل . حتى لقد وصل الأمر بهم إلى أن يبلغوا حد المجانبة المتبذلة فى التعليل و التحوير لتحقيق التطابق المرتجى بين الوقائع و الفلسفــة . الأمر الذى جعل أحدهم ينقض رأى الآخر و ينحرف بتحليله فى اتجاه نقيض تماماً ، رغم أنهم تلامذة مدرسة واحدة ، ورؤية مشتركة للتاريخ و لكن لا بأس : : فما داموا من المؤمنين بفلسفة النقيض فليتصد أحدهم للآخر ، ولينقض بعضهم رأى الآخر ، فلابد أنهم واصلون يوماً موحدهم المرتجى .

- لننظر على سبيل المثال إلى بعض ما قالوه - و هو كثير بصدد سيرة رسولنا ﷺ .

لقد رأى بعضهم أن المجتمع العربى (فى مكة و المدينة) شهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق .

بينما يرى (بيجولفسكايا) أن القرآن يشعر بتركز مرحلة ملكية الرقيق ويذهب مع (بلاييف) إلى أن المرحلة الاقطاعيـة هى من آثار اتصال العرب بالشعوب الأخرى ، هـذا و يرى آخرون أن المجتمع الاقطاعى بدأ بالتكون فعلا ، و تبع هذا قلق فى التفسير ، فمنهم من يرى أن الاسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وارستقراطية الاقطاع مثل (كليوفيج) و منهم من يراه فى مصلحة ارستقراطية الرقيق فقط . فى حين أن البعض مثل (بلاييف) يرى أن الاسلام المتمثل بالقرآن لا يلائم المصالح السياسية و الاجتماعيـة للطبقات الحاكمة ، فلجأ أصحابه إلى الوضع فى الحديث لتبرير الاستغلال الطبقى الجديد .

« و فى حين أن بعضهم يقول إن الارستقراطيـة وحدت القبائل العربية لتحقيق أغراضها يقول غيرهم إن القبائل كانت تتوثب للوحـدة لجاء الاسلام موحداً يعبر عن ذلك التوثب .

« و يضطرب الموقف من منشأ الاسلام ذاته ، فبينما يدعى (كليوفيج) أن محمداً ﷺ واحد من عدة أنبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد و أرادوا توحيد القبائل . يذهب (تولستوف) إلى نفى وجود النبى العربى عليه السلام . و يعتبره شخصية أسطورية . و بينما يعترف البعض بظهور الاسلام ، يذهب (كليوفيج) إلى أن جزءاً كبيرا منه ظهر فيما بعد فى مصلحة الاقطاعيين . و نسب أصله إلى فعاليات معجزة لمحمد ، و تجاوز (تولستوف) إلى أن الاسلام نشأ عن أسطورة صنعت فى فترة

الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة ، و هى أسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة :
الحنيفية . . (١) .

ألا يقرب هذا من أن يكون ديناً جديداً لا يقل عن النصرانية ـ يوم
حقداً على الاسلام و كراهية لنبيه عليه الصلاة و السلام ، و بعداً عن المنهج
التعامل مع الوقائع و الأحداث ؟ . و أتباع المدرسة المادية . . أليسوا هم ر
جدداً فى موقفهم من رسولنا عليه السلام و تاريخنا غيروا أزياءهم و لكنهم
من داخل نفوسهم رهباناً ينتمون للكهنوت المادى الجديد الذى ما كان تدخينه
الرؤية النقية إزاء سيرة رسولنا عليه السلام بأقل كثافة عن الدخان الذى ا
رجال النصرانية الأوائل ؟ . هذا أحد أبناء الكنيسة المادية . بندلى جوزى ر
يقول محللا بعض مواقف رسولنا عليه السلام .

إن سياســـة النبى مع المكيين قد تغيرت كثيراً فى المدينـــة تحت :
عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى إليها الأختيار وحب
لوطنـــه الأصلى و أهله و ذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية و العو
السياسية التى ظهرت بعد موقعتى بدر و أحد وحصار المدينة ، و كان من نتا

---

(١) أنظر بالتفصيل : عبـــد العزيز الدورى و رفاقـــه : تفسير التاريخ
ص ١٤ - ١٦

(٢) بندلى جوزى (١٨٧١ - ١٩٤٢)م نصرانى من أهـل القدس ، تخصص
فى قازان باللغات الســامية و الدراسـات الشرقية ، و تولى التدريس ف
معهد الرهبان ثم فى جامعة « قازان ثم فى جامعة باو » إلى أن توفى . وقد
عده المستشرقون الروس مرجعاً من مراجعهم (عن كتاب نجيب العقيقى
المستشرقون ٣/ ٩٣١) .

أن النبى أخذ بلطف من سياسته نحو إخوانه المكيين . كما أن أصحاب السلطة فى مكة رأوا - بعد ما أصابهم فى موقعة بدر و بعد ما لحق بتجارتهم من الخسائر - أن يتساهلوا فى أمور كثيرة مع النبى على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة و الحج و عكاظ على ما كانت عليه قبل الاسلام . وأن يشملهم بالعفو - إلا بعض أشخاص - و يشركهم فى عمله الجديد الذى أخذوا يتوقعون منه خيراً لأنفسهم . و ربما كان من شروط التفاهم (١) أن يبقى النبى فى المدينة و أن لا يتعرض فى كلامه لأمورهم المالية . فكانت الحديبية وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة أخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل (Compromis) فصار الناس (يدخلون فى دين الله أفواجا) لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذى لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشئ القليل ، بل عن رغبة فى التقرب من أصحاب السلطة الجدد و حفظا لمراكزهم القديمة و ثروتهم المجموعة فى أجيال . يخيل لى - يقول جوزى - إن من جملة الشروط التى اتفق عليها الطرفان فى الحديبية أو فى زمان أو مكان آخرين أن يكف النبى عن الطعن فى الملأ المكى . و أن لا يحرض صعاليك العاصمة الحجازية و أرقاءها عليه ، و هذا على ما يظهر لى أحد أهم أسباب خلو السور المدنية و لا سيما تلك التى نزلت فى الدور الأخير ، من العبارات القارصة و الطعن فى سكان مكة . (٢)

و هناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الذى ذكرناه الآن و هو أن حالة النبى

---

(١) أى تفاهم هذا ؟ و فى أى مكان و زمان ، ثم و أية رواية أوردته ! و فى أى مصدر على الاطلاق ! .

(٢) هذا غاية ما يمكن أن يصل إليه مؤرخ من خروج على مستلزمات البحث العلمى ، و عبث صريح بالوقائع التاريخية . و إلا ففى أى زمان و مكان صنعت هذه الشروط ؟ و أين هى من شروط صلح الحديبية التى تواترت بنصوصها المرضية فى كافة المصادر و المراجع ؟

الاجتماعية فى المدينة تغيرت - كما هو معلوم - تغيراً ظاهراً أدى إلى تغيير نفس
فكان من نتائج هذا التغيير و من الأسباب التى ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر
إن بعض إصلاحات النبى الاجتماعية و الدينية جاءت مبتورة و فيها شئ مما يد
الأوربيون التساهل (١)

و يمضى بندلى جوزى إلى القول (بأن الدور المكى كان دور تمهيـ
و استعداد ، دور بث دعوة جـــديدة بين طبقـــات الأمة ، دور حرب و
كلامى بين رجل ثابت فى مبادئه ، مخلص فى عمله و بين طبقـة من الناس شع
بالخطر على ثروتها وزعامتها فى البلاد فهبت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه . دور ـ
وأحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد رأسا على عقب . ما أجمل هذا الدور وما أعظمه
أحلى تلك الأحلام و المساعى التى بذلت فى تحقيقهـا . و أما الدور الثانى ف
دور عمل وتنظيم و دور حروب وافتتاحات ودور سياسة ومكا شفات أدت إلى تـ
من الطرفين ، ومعنى التساهل فى مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مـ
أو مبادىء أو التلطف فى الطلب . والرجوع عن بعض الأفكار . أو وضعها فى قالب يـ
الفريقان و هذا ما كان من أمر النبى العربى و رئيس جمهورية مكة (أبو سفيا
الخبير المحنك الذى كان يتكلم بلسان الملأ المكى ، هذا يعترف بسيادة النبى الر
والعالمية و يهجو الأوثان ويؤدى الزكاة ويقيم الصلاة ، وذاك يتعهد أن تبقى مكة
البلاد العربية الدينى وأن يجعل لأعيان مكة وقادة أفكارها حظا فى إدارة المملـ
الجمهورية الروحية الجديدة و أن يتركهم و شأنهم يتاجرون و يعيشون كما يشا
أما الفريق الثـالث . أى الفقراء ، و هو الطرف الذى استسعرت الحرب لأ
و ظهرت الدعوة لتحسين أحواله فقد أرضوه فى بادىء الأمر بشئ من الصد
و الزكاة ثم نسوه أو تناسوه بعد وفاة النبى و خلفائه الأولين . فرجع إلى حـ

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٩ - ٥٠.

لى بل إلى ما هو أسوأ منها) . (١) .

و يقول فى مكان آخر (لا شك أن النبى العربى لم يقصد بأقواله و أفعاله مكة و المدينة إلى أن يستأصل أسباب الشر الاجتماعى و يقتل جميع جراثيمه ، يحاول أن يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف أسمائهم و نزعاتهم ، بل نت غايته الكبرى أن يخفف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ن خلقوا بعد قسمة الأرزاق أو وقعوا فى الفقر و الرق لأسباب لم يقو على مقاومتها . و إلا فلو أراد أن يقتل جراثيم الأمراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد أن أصبح صاحب الأمر و النهى فى جزيرة العرب إلى وسائل غير تلك التى ذكرناها . وما مثل النبى من هذا الوجه إلا كمثل سائر الأنبياء الذين سبقوه أى أنه فضل استعمال الوسائل الأدبية - إلا فيما ندر من الظروف - على غيرها من الطرق التى لجأ إليها فى عصرنا بعض مصلحى وسياسى أوربا كلينن ومسولينى وغيرهما . . وعليه يمكننا أن نقول إن محمداً أجاد فى وصف الأمراض الاجتماعية العربية و تعدادها أكثر منه فى علاجها و استئصال جراثيمها) (٢) .

وغير (بندلى جوزى) كثيرون . . و هم - للأسف - قد ازدادو أعداداً مع الأيام و كثر من سوادهم تلامذتهم المنتشرون هاهنا فى الشرق بين ظهرانينا رغم أنهم محسوبون - ظاهراً - على ديننا و عقيدتنا و لكنها (موضة) منهجية إذا صح التعبير و تؤول إلى انحسار كما انحسرت من قبلها مدارس و مناهج و أرآء و أفكار و فلسفات كانت قد سيطرت على المؤسسة و الشارع فى بلادنا تقليداً لهذا الفكر الدخيل أو ذاك و تمسحاً بهذا المنهج الوافد أو ذاك ، و لكنها لهجانتها وغربتها عن الأرض التى تحركت فيها سرعان ما ذبلت و تيبست وعصفت بها رياح الزمن . .

---

(١) نفسه ص - ٥١-٥٢ (٢) نفسه ٤٤ - ٤٥ -

و الذى يتبقى أبداً هو المنهـــج الأصيل . . الابن الشرعى للتـــاريخ و الأرض المسلمة . .

و هانحن نشهد تكسر الموجة الجديدة و تحول دعاتها أنفسهم إلى مو موضوعية و اعتدالا بعد إذ رأوا خطل ما كانوا فيه .

★★★

و الذى يتبقى ، بعد هذا كله ، بعد موجات الرهبان و المستشرقين بعد غبـارهم الذى أثاروه و دخانهم الذى حجبوا به الرؤية الصافية . . هو وقائع السيرة نفسها كما تخلقت يومها فى الزمن و المكان . . و يتبقى الفذة لصانع هذه الوقائع و قائدها فى الزمن و المكان . . رسول اختار الله لقيادة البشرية صوب الغد المرتجى . .

و مع الرسول عليه السلام جيل من الرواد ، حملوا شرف الانتماء للتحديات وقدروا على أن يطوروهـا بما يشبه الاعجاز . فليست مناهج الر النصرانية و العلمانية الاستشراقية و المادية التاريخية بقادرة على إدراك الب لهذا العصر الذى غير مجرى التاريخ . كما أنهم ليسوا بقادرين على طمسه

و الذى يدرك هــذا البعد و يستعيــد جوهره النقى . . هم أبنـا وحدهم . . و ليس غيرهم - أبداً - من يقدر على حمل الأمانة و أداء

أهم المراجع على الصفحة التا

أهم المراجع

أرنولد : البروفيسور ت . و

الدعوة إلى الاسلام ، مترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٧١ م .

بروكلمان : كارل

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة فارس و البعلبكى ، الطبعة الخامسة ، دارالعلم للملايين ، بيروت - ١٩٦٨ م .

البهى : محمد

الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، الطبعة الرابعة مكتبة وهبه ، القاهرة - ١٩٦٤ م .

درمنغهم : أميل

حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثانية . دار أحياء الكتب العربية . القاهرة - ١٩٤٩ م .

الدورى : عبد العزيز ورفاقه

تفسير التاريخ ، مكتبة النهضة ، بغداد ؟

دينيه : آتيين دينيه (ناصر الدين) الجزائرى وسليمان إبراهيم الجزائرى

محمد رسول الله ترجمة عبد الحليم محمود ، الطبعة الثالثة ، الشركة العربية ، القاهرة ١٩٥٩م

على : جواد

تاريخ العرب فى الاسلام « السيرة النبوية » ، الجزء الأول ، بغداد ، مطبعة الزعيم - ١٩٦١م

فایس : ليوبولد (محمد أسد)
الاسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ الطبعة السادسة دار العلم للملايين ، بيروت

فلهاوزن : يوليوس
تاريخ الدولة العربية ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة ، الطبعة الثانية ، لجنة التاليف و الترجمة و النشر القاهرة - ۱۹٦۸ م .

وات : مونتغمرى
محمد فى مكة ترجمة شعبان بركات ، المكتبة المصرية ، بيروت « ؟ »

و لفنسون : اسرائيل
تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام مطبعــة الاعتماد - القاهرة ۱۹۲۷م .

Margolioth : The Early Development Of Mohammedanism (London _ 1914) .

Mohmmed And The Rise Of Islam (London 1905)

M uir : William .

The Caliphate, Its Rise, Decline, And Fall. (London_1891)

The Encyclopeadia Of Islam (London, Leyden - 1913)

Islamic Quarterly (London, Vol, VIII)

Jewish Quarterly Review, (London _ 1903) .

المستشرقون و التاريخ

د / عبد العظيم الديب
جامعة قطر كلية الشريعة

الحمد لله رب العالمين نحمده سبحانه و تعالى و نعوذ به من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ونصلى ونسلم على صفوته من خلقه و خاتم رسله سيدنا محمد النبي الأمى، اللهم صل عليه وآله. و من دعا بدعوته و اهتدى بهديه و عمل بسنته إلى يوم الدين.

لا بد قبل الحديث أن أقدم التحية و التقدير لدار المصنفين على ما تقوم به وما تؤديه من جهود و ما قامت به من الاعداد لهذه الندوة العلمية الهادفة فهذه الأعمال الجادة الهادئة تستحق الاجلال و الاكبار، فى وقت كثر فيه الضجيج والعجيج و العمل على كسب الصيت و الذكر، و الشهرة و المجد الكاذب.

تاريخ حركة الاستشراق :

لقد بدأ الاستشراق مبكراً منذ اتصل الأوربيون بالمسلمين فى الأندلس واطلعوا على تقدم المسلمين العلمى فرأوا أن ينقلوا علوم المسلمين إلى لغاتهم، و فعلا كانت قرطبة وغيرها من المراكز العلمية الاسلامية مثابة لهؤلاء الوافدين الذين (استشرقوا) و نهلوا من علوم المسلمين ما كان زاداً لأوربا فى نهضتها، فكان الغرض فى هذه المرحلة هو الاستفادة من علوم المسلمين.

ثم انتقلت حركة الاستشراق إلى مرحلة ثانية، توجهت فيها إلى دراسة الدين الاسلامى والتاريخ الاسلامى وأثر ذلك فى توصية الحياة الاسلامية وما يسودها من

عادات و تقاليد ، و يحكمها من قيم و أخلاق ، و كان الهدف من ذلك هو التمهيد للاستعمار الزاحف فى ذلك الوقت ، حتى يمكن للستعمرين التعامل مع الشعوب المغلوبة المنهوبة ، على ضوء ما عرفوه عنها ، و فى هذه الفترة كانت جمعيات الاستشراق و مؤسساته و معاهده تتبع وزارات المستعمرات فى بعض الدول الأوربية ، مما يؤكد الهدف من هذه المرحلة .

ثم بعد ذلك بعد أن انتهى عصر الاستعمار ، و لم يعد الغرب فى حاجة إلى علومنا ، كان المعقول أن تتوقف حركة الاستشراق و ينقطع اهتمامهم بدراسة ديننا وتاريخنا ومجتمعنا ، ولكن ذلك لم يحدث ، بل على العكس زادت حركة الاستشراق و تعددت مدارسه ، و تنوعت دراساته ، و لبسوا مسوح العلماء ، و رفعوا شارة البحث العلمى ، زاعمين أنه لم يعد لهم من هدف إلا العلم و البحث ، و تبادل الخبرات و إثراء الثقافات .

والواقع أن هذه المرحلة من أخطر المراحل ، بل هذه هى الحرب الحقيقية ، و الغزوة الشرسة التى لا تهدف إلى هدم المنشآت و تمزيق الجيوش و الفتك بالجنود ، و اغتنام الأسلحة ، بل تهدف إلى امتلاك القلوب ، وزعزعة النفوس ، و تحطيم العزائم ، و طمس المعالم ، و تعمية الطريق و بذلك يضمنون الخضوع ، و الخنوع من غير أن يحتاجوا إلى أن يرفعوا سلاحاً ، أو يجيشوا جيوشاً . هذه هى معركتنا الآن ، معركة تستهدف الفكر و العقل ، و سلاحها تضليل المستشرقين و تزييفهم .

هل للستشرقين جهود تذكر أو تشكر ؟

بعض الباحثين المسلمين يرى أن للستشرقين بعض الجهود النافعة ويضرب مثلا

ذلك بالكتب التى حققوها ونشروها و بالفهرس العلمى الذى وضعوا لألفاظ السنة ، و كذا مفتاح كنوز السنة .

و لعلى على حق حين أقول : ليس فى ذلك فضل للمستشرقين أى فضـــل ، فالأعمال بالنيات ، و نحن فى حياتنا اليومية نرفض كثيراً مما يقدم لنا لأننا نشك فى نوايا من يقدمه ، و المستشرقون حينما حققوا و نشروا الكتب ، و وضعوا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث و مفتاح كنوز السنة . لم يقصدوا بحال من الأحوال إلى فائدتنا و خدمة علمنا ، و مع ذلك أنا لا أنكر أننا أفدنا كثيراً من عملهم هذا ، و لكنها إفادة بالاضافة و التبعية ولم تكن مقصودة لذاتها ، و إذا أردنا أن نشكر المستشرقين هذه الجهود ، فعلينا أن نشكر للمستعمرين إصلاحاتهم و أعمالهم التعميرية التى قاموا بها فى البلاد التى استعمروها كالهند مثلا ، وما أظن أحداً يقول بذلك ، فهى أعمال تمت من أجلهم و إفادتهم ، و إن كنا قد أصبنا منها خيراً فذلك أمر عرض و على غير رغبتهم .

واجبنا إزاء هذه الغزوة الفكرية الشرسة :

لقد غبر زمان و الذين يرون هذا الخطر ، و يعرفون مـــداه ، يكتفون بالصراخ والتحذير من أعمال المستشرقين ، و البعض يتقدم خطوة أبعد فيبين أخطاء المستشرقين و تضليلهم ، و يقف عند هذا الحد .

و لكن آن الأوان ، و بخاصة بعد هذه الندوة التى عقدت لأول مرة ، وكان فضل دار المصنفين فى الدعوة إليهـــا و تنظيمها أكبر من أن يفى بها كلمات الشكر و الثناء ، و يدل على وعى كامل بروح العصر ، و فطنة كاملة لما يجيش به هـــذا العالم من حولنا ، و ذلك إلهام من الله و توفيق للقائمين على هذه الدار .

أقول : بعد هذه الندوة ينبغى أن يؤدى العلماء المسلمون واجبهم نحو هـــذه المعركة الفكرية ، و أن ينتقلوا من مجرد التحذير من أعمال المستشرقين و تسفيههم ،

و من العمل الفردی إلی العمل الجاد المنسق الذی یعرف هدفه و یخطط طریقه .

المستشرقون و التاریخ :

أهمیة التاریخ : إن التاریخ لیس علم الماضی ، بل هو علم الحاضر و المستقبل ، و التاریخ هو الذی یهدی الأمة و یقود خطاها ، و هو ذاکرة الأمة وهو کما یقول الأدیب العلامة عقاد « التاریخ عرض الأمة » و العرض هو موضع الذم و القدح من الانسان کما هو موضع الثناء و المدح ، و من لایحرص علی عرضه ؟ ؟

و إذا کان التاریخ بهذه المثابة لأی أمة ، فهو بالنسبة للامة الاسلامیة أکثر أهمیة ، وحمایته وصیانته أکثر ضرورة ، ذلك أن التاریخ بالنسبة لأمتنا هو الاسلام مطبقاً منفذاً ، و أی تشویه لتاریخ أمتنا هو تشویه الاسلام ذاته ، فسوف یقول أعداؤنا هذا هو الاسلام ، صراع وفتن من عصر الصحابة ، و دماء و قتال ذهب بالآلاف من الصحابة وأولادهم ، ثم استبداد عربی من بنی أمیة ، ثم ترف وقصور و خمور و غناء و جواری عند العباسیین ، و سیقول أمثلهم طریقة : إن الاسلام منهج ربانی بالغ السمو ولکنه غیر صالح للبشر الذین لا یرتقون إلی هذا المستوی ، فصحابة محمد (علیه الصلاة و السلام) لم یطیقوا هذا المنهج ثلاثین سنة ، ثم کان ما کان و من هنا کان لا بد أن نتنبه لموضوع التاریخ و خطره ، ولا ندخر جهداً فی هذا السبیل مهما احتاج ذلك من جهد و وقت ومال .

و قد لفت نظری أن دار المصنفین انتهت لذلك بالهام من الله و توفیق منه ، فقد أصدرت ٦٤ کتابا منها ٥٧ فی التاریخ و السیرة ، و هــذا فی الواقع اتجاه یستحق التهنئة .

کما نذکر أیضاً لأستاذنا الفاضل أبو الحسن الندوی ـــ أطال الله عمره — تنویهه بقیمة التاریخ و أثره فی کتابه القیم (التربیة الاسلامیة) .

ـسائل المستشرقين لتشويه تاريخنا :

ـ. تتبع مواضع الالتهابات فى التاريخ الاسلامى، فلا يروق لهم إلا أخبار الفتن
الصراع و يأخذون فى تضخيم هذه الأحداث ، و يكثرون من الحديث عنها ،
حتى تصبح الصورة العامة لتاريخ الاسلام و المسلمين .

ـ اختيار الروايات التى توافق هواهم، وتؤيد مزاعمهم بدون تحقيق أو تمحيص
بل على العكس يعرضون عما يرونه من روايات تكشف زعمهم ، و لا تؤيد
هدفهم ، مهما كانت أوثق و أصح مما يعتمدون عليه من الروايات .

و مع ذلك يدعون الموضوعية و الحيدة العلمية .

٣ـ تفسير الأحداث بطريق (الاسقاط) فهم يسقطون ما بأنفسهم على
الأحداث التاريخية ، فيفسرونها فى ضوء خبراتهم و مشاعرهم الخاصة ، وما يعرفونه
من واقع حياتهم و مجتمعاتهم ، فيفسرون (بيعة أبى بكر) يوم السقيفة ، وكأنهم
يحللون انتخابات الرئاسة فى أمريكا بألاعيبها الحزبية . و يفسرون خروج طلحة
و الزبير على على كرم الله وجهه بأنه خوف على ثرواتهما التى جمعاها أثناء الفتوح
و من غنائم الفرس و الروم ، و كأنهم ينظرون إلى الصراع بين شركات الصلب
أو شركات السلاح و وزراء المالية و رجال الضرائب ، و هكذا .

بل لا يقف التفسير المعوج الخبيث عند حدود الوقائع التاريخية بل يمتد إلى
الظواهر الأدبية فى خبث غريب عجيب ، حيث يدس السم فى الدسم من حيث
لا يشعر الطاعمون الآمنون .

خذ مثلا لذلك ما يذكر فى كتب الأدب عن تفسير لشيوع الغزل فى العصر
الجاهلى و ما يذكر من تفسير لشيوع الغزل فى العصر الأموى ، فتراهم يقولون :
شاع الغزل فى العصر الجاهلى لأن العربى بطبعـه محب للجمال ، و لأن حياته

تموم عـلى الحل و الترحال ، فتثير كوامن الشوق ، و تهيج ساكن الذكريات و لأن بيئته الصحراوية الفسيحة المبسطة الصافية جعلت نفسه صورة منها ، و لأن العربى بطبعه جياش العواطف مرهف الحس .

فاذا جئنا إلى العصر الأموى نراهم يقولون : شاع الغزل فى العصر الأموى لأن الأمويين أغرقوا مكة و المدينة فى الأموال و الهبات ، حتى أترفوا وفشا بينهم الغناء و المعازف و القيان ، فكان الفراغ والترف مدعاة إلى شيوع الغزل ، و قد فعل ذلك بنو أمية حتى يلهوهم ويشغلوهم عن المشاركة فى السلطة و الحكم .

و هكذا فى نقطة واحدة طعنوا الطرفين ، فالأمويون مفسدون فاسدون و الآخرون غافلون مغفلون ! ! !

٤- توصية الدراسات العليا إلى مواضع معينة من التاريخ الاسلامى ، تخدم أغراضهم ، و نعنى بذلك أن المستشرقين هم الأساتذة الذين حصل أبناء المسلمين على أيديهم على درجاتهم العلمية (الدكتوراة) وعادوا أساتذة فى الجامعات . يقودون البحث و يوجهون ، و بالطبع على نحو ما علمهم أساتذتهم المستشرقون و أنت تجد موضوعات الدكتوراة ، تدور كلها تقريباً حول القرامطة ، والبابكية والخرمية ، و الخوارج ، و الاسماعيلية . . . و هكذا ، و عادة يعود (الدكتور) ليدرس و يعلم ما تعلمه ، و أول ما يعلمه هو أطروحة الدكتوراة التى نال بها الدرجة .

٥- توجيه نشر الكتب المخطوطة و إخراجها ، و بخاصة فى أمر الطباعة و النشر ، و لعل ما ناله كتاب مثل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى من عناية تنوعت بين التهذيب و التجريد و التلخيص و التقديم و التعريف و التنويه والدراسة ـ كل ذلك بتوجيه من المستشرقين وعون منهم حتى صار هذا الكتاب من أكثر الكتب تأثيراً فى الفكر التاريخى والدراسات الادبية ، مع أن أبا الفرج

الأصفهانى معروف عند علماء الجرح والتعديل بأنه كذاب يأتى بالغرائب والعجائب بلفظ حدثنا و أخبرنا ، فكيف يؤخذ التاريخ من مثل مرويات هذا الأصفهانى .

ولعلنا نلحظ ما ناله كتاب ألف ليلة وليلة من عناية أيضاً بتوجيه المستشرقين و عونهم و معروف مدى خطورة هذا الكتاب فى تشويه تاريخنا .

نماذج لأباطيل تاريخية شائعة :

قصة (ماء الحوأب) التى يزعمون أن كلاباً ينحت عائشة رضى الله عنها و هى فى هودجها فى طريقها إلى معركة الجمل ، فسألت أين نحن الآن ؟ فقالوا عند ماء الحوأب ، فقالت : ردونى فقد سمعت حديثاً من رسول الله يحذر من تنبحها كلاب الحوأب من نسائه ، فكذب عليها من كانوا معها من الصحابة وأقسموا لها بأن ما سمعته خطأ و أن هذا ليس ماء الحوأب .

و هذه قصة مخترعة مكذوبة كما حققه ذلك ابن العربى و الشيخ محب الدين الخطيب ، و الغرض منها لا يخفى و هو الطعن فى الصحابة و الاساءة إلى عائشة فى نفس الوقت .

معركة الحرة :

فالشائع على السنة الدارسين و علماء العصر و فى كتب التاريخ المحدثة أن القائد الأموى لجيش يزيد بن معاوية بعد أن أخضع المدينة المنورة وقتل من أهلها من قتل أباحها لجنوده ثلاثاً عملا بوصية يزيد الذى أمره بذلك .

و عند التحقيق نجد أن هذه الرواية ليس لها إلا مصدر واحد و هو راو غير موثوق به من رواة الطبرى .

التحكيم بين على و معاوية :

فهذه أكبر أكذوبة رأتها البشرية ، وأبداً لم تتم بالصورة المعروضة فى كتب التاريخ التى تدرس فى جامعاتنا ومدارسنا ، وقد فرغ العلماء من تحقيقها منذ القرن

الخامس الهجری ، مثل ما کتبه القاضی ابن العربی فی کتابه « العواصم من القواصم » و لکن الذی یذکر دائماً هو تلك الصورة البشعة التی تمثل خدعة عمرو بن العاص لأبی موسی الأشعری ، و کأننا أمام جماعة من عصابات المغامرین فی عصرنا هذا .

حریق الکعبة :

فالمقولة الشائعة أن الأمویین حرقوا الکعبة أیام ابن الزبیر مع أن هناك أکثر روایة تثبت أن الکعبة احترقت بواسطة شرارة أصابت ستائرها من نیران أشعلها جنود ابن الزبیر یستدفئون بها .

هارون الرشید :

و لعله لم یشوه تاریخ خلیفة من الخلفاء مثلما شوه تاریخ هارون الرشید ، و أمر هذا التشویه معروف لدیکم .

و یخیل لی أن هذا التشویه انتقام غربی من هارون الرشید الذی دوخ الروم و قصته مع (نقفور) ملك الروم معروفة مشهورة .

جوستاف فییت و کتابه مجد الاسلام :

هذا المستشرق کان مدیراً للتحف الاسلامی فی القاهرة ، وعرف عنا ما عرف و درس ما درس و لکنه حینما کتب کان نموذجا مفضوحا لمنهج المستشرقین فی کتابتهم لتاریخنا فهو یعرض مجد الاسلام بصورة عجیبة غریبة ، فهو مثلا یمجد الأمویین و لکن لأنهم فرقوا البیت الهاشمی و لأنهم انتصروا علی ابن الزبیر و لأنهم رفعوا شأن العنصر العربی و تعصبوا له . . . إلخ ، و نقر فنجد عجبا عجابا ـ و یسمیه مجد الاسلام وهذا الکتاب فی حاجة إلی من یعرضه ویقدمه حتی یکون نموذجا ماثلا قائما أمام کل من یظن الموضوعیة أو یزعم الحیدة العلمیة

لهؤلاء المستشرقين .

سؤال و بيان :

و ربما يسأل سائل قائلا : إن هذا الذى ذكرته (فيما عدا المثال الأخير) ليس من عمل المستشرقين و لكنه من روايات المؤرخين و من عمل الرواة المسلمين .

و الجواب : إننا لم نقل إن المستشرقين يخترعون لنا تاريخا و لكنهم كما أشرنا ـ يختارون ما يعرضونه من تاريخنا ـ فيلتقطون نقطة سوداء من هنا ، ونقطة من هناك حتى يرسموا صورة سوداء بشعة لتاريخنا ، و يقفون فى براءة و لسان حالهم يقول : هذا ما قرأناه فى مصادركم وبأقلام أسلافكم ، وهم فى هذا يأخذون بمذهب هذا المغالط الفاجر المزيف الذى قال :

ما قال ربك ويـل للألى سكروا : و لكن قال ويـل للمصلينا ،

ثم أيضاً إذا تتبعنا المؤلفات التاريخية التى تدرس فى جامعاتنا ومدارسنا نجد أنها بأقلام تلاميذ المستشرقين و بمناهجهم ، و يباهى كاتبوها بأنهم اتخذوا كتابات المستشرقين مراجعهم ، فمن هنا جاز لنا أن نسند هذا التشويه إلى المستشرقين لأنهم مصدره و الموصون به .

المنهج الذى نريده لكتابة التاريخ :

و لأننا لا يصح أن نقف عند قولنا بأن هؤلاء أجرموا فى حق أمتنا وتاريخنا فنحب أن نضع خطوطا سريعة للمنهج الذى ندعو لكتابة التاريخ على أساسه و هذا أمر يحتاج لتضافر جهود جماعة من العلماء المخلصين ، و لكننا نسدد و نقارب ، و على الله قصد السبيل فنقول من أسس هذا المنهج ما يلى :

١- الجمع و الاستقصاء للروايات المختلفة الواردة فى الحادثة الواحدة و ردها

إلى مصادرها و منابعها ، ثم تحقيقها و نقدها على ضوء العلم الذى تميزت به أمتنا (علم الجرح و التعديل) .

٢- و مع هذا و ربما قبله عمل حصر شامل لكتب التاريخ التى لم تنشر بعد ، و كذا كتب التراجم و كتب السنن و الآثار ، و كتب المناقب و كل ما يمكن أن يحوى جزء أو يشير إلى حادثة فأنا أكاد أجزم بأننا لم نر من كتبنـا و تراث أسلافنا إلا ما أريد لنا أن نرى .

٣- وضع خطة لنشر هذه الكتب المشار إليها ، و يحدد لها زمن ، وتوزع على المختصين فى أنحاء العالم الاسلامى ، ويعلن ذلك بكل وسائل الاعلان والتعريف حتى لا تتداخل الجهود و لا تتكرر ، و حتى يمكن الاستفادة من هـذه الكتب و المصادر بمجرد صدورها .

٤- فاذا حققنا الأحداث و الأخبار و بينـا زائفها من صحيحها نأتى إلى مرحلة تفسير الحدث و بواعثه و أثره ، و هنا ينبغى أن تفسر الأحداث تفسيراً إسلامياً ، فليس كل مؤرخ قادراً على استيعاب الحدث و تفسيره تفسيراً صحيحاً ، فمن كان محروما من الحس الاسلامى و الروح الاسلامى بدءاً لن يستطيع أن يفسر الحدث التاريخى إلا فى ضوء ما يسقطه من واقعه و مجتمعه و دخيلة نفسه ، و فى ذلك خطر عظيم يؤدى إلى تزييف بشع .

٥- يجب أن نحدد المستويات التى يكتب التاريخ لها ، فمن يكتب للصفوف الأولى من التعليم غير من يكتب للرحلة الثانوية غير من يكتب للجامعـــة غير الباحث المحقق فى مراكز البحوث و الاكاديميات ، و الحقائق التى تعرض و تذكر لا بد أنه تختلف فى كل مستوى عنها فى المستوى الآخر .

فليس من المعقول أن يكتب كتاب فى التاريخ لتلاميذ فى سن الثانية عشرة

فيتناول عزل خالد و مقتل مالك بن نويرة ، وفتنة عثمان ، و صراع على ومعاوية فيصبغ صفحات الكتاب كلها أو جلها بهذا اللون القاتم ، و كأنه يريد أن يقول: هذا هو تاريخكم أيها الابناء :

و نحن لا ننكر الأحداث و حاشا أن ندعو إلى شئ من ذلك و لكن يجب أن يوضع الحدث فى مكانه المناسب و يعطى حجمه المناسب و يفسر التفسير الصحيح ، فمن عدالة الميزان أن نحصى جمع الحسنات و جميع السيئات ، و حينئذ يظهر الحق و يصدق التقدير و يصح الحساب ، ويقيناً ستظهر السيئات و العثرات فى تاريخ أمتنا تافهة بجانب الحسنات و الأعمال الكبار .

٦- يجب الاتغفل كتب الحديث و الآثار و كتب التراجم و المناقب فهى مصادر هامة من مصادر التاريخ .

٧- يجب أن لا يغفل الجانب الحضارى عند كتابة التاريخ الاسلامى بمعنى أن لا ينصرف الاهتمام إلى تواريخ الخلفاء و الحكام و الفتوح و القتـال فقط و يذكر ما عداه تبعا - بل يكون للجانب الحضارى قدره و منزلته و نصيبه من اهتمام الكاتبين .

اقتراحات و توصيات :

و أخيراً يسعدنى أن أتقدم بالتوصيات و الاقتراحات الآتية .

١- أن تطبـع هذه البحوث التى ألقيت فى هـذه الندوة باللغة العربيـة و الانجليزية و الأردية و توزع على المراكز العلمية المختلفة ، و أيضاً عـلى المشاركين فى الندوة .

٢- أن نخرج من هذه الندوة بخطة محددة لمحاصرة سموم المستشرقين وتحديد الطريق و المسؤليات و توزيعها على العلماء ليقوم كل واحد منهم بدوره .

٣- أن تعقد هذه الندوة بصفة دورية كل عامين أو ثلاثة أعوام فى أماكن مختلفة من العالم الاسلامى على أن يعد لها إعداداً جيداً، فتتكون لجنة لدراسة البحوث و التوصيات التى تتمخض عنها هذه الدورة ، ثم بعد ذلك نضع خطة لمجموعة بحوث علمية على مستوى عال من العمق و الدقة و التوثيق ، و نحدد مواصفات الأبحاث بدقة ، وندعو أهل الاختصاص إلى الكتابة فيها ، مع ملاحظة أن تغطى البحوث جوانب معينة ، تكون هذه الابحاث قاطعة لكل ما يثار بشأنها ، حتى ننتهى منها و لا نعود إليها ثانية ، فمثلا إذا اتخذنا التاريخ الاسلامى موضوعا للندوة يمكن أن توزع الأبحاث على النحو التالى .

١- ما قاله المستشرقون عن حروب الردة .

٢- ما قاله المستشرقون عن فتوح فارس .

٣- ما قاله المستشرقون عن فتوح الشام و مصر و إفريقية .

٤- ما قاله المستشرقون عن حروب المسلمين فى أوربا .

٥- ما قالوه عن سيرة الخلفاء الراشدين .

و هكذا حتى نغطى و نستقصى كل ما قيل عن التاريخ الاسلامى ، و بهذا الحصر و الاستقصاء لا نعود إلى تكرير الجهود ثانية فى موضوع التاريخ ، ويعمم ذلك و يوزع فى جميع أنحاء العالم الاسلامى و غير الاسلامى بأكثر من لغة .

٤- اقترح أن تكون أمانة عامة دائمة لهذه النـدوة تتلق اقتراحات العلماء و توصياتهم و ملاحظاتهم ، و تقوم بالتنسيق بين الجهود المختلفة .

مقدم البحث
الدكتور عبد العظيم الديب
كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية
جامعة قطر

الاسلام انتشر بالسلم لا بالسيف

للأستاذ الدكتور محمود محمد الطنطاوى
رئيس قسم الشريعة الاسلامية بجامعة عين شمس
و الامارات العربية المتحدة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً و نساءاً ، و اتقوا الله الذى تساءلون به و الأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون »

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم و يغفر لكم ذنوبكم ، و من يطع الله و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً .

أما بعد

فقد قال المستشرقون : إن الاسلام انتشر بالسيف ، و هذه فرية باطلة و نحن إذا أردنا أن نرد على هذه الشبهة فينبغى أن نرجع إلى الوراء و ننظر إلى مبدأ الدعوة ، و كيف انتشرت ؟ و هل هى فعلا انتشرت بالسيف أم لا ؟ .

نزل الوحى أول ما نزل على محمد بن عبد الله صلوات الله و سلامه عليه و هو فى غار حراء يتعبد الليالى ذوات العدد كما كان يفصل فى كل عام ، و رجع النبى إلى بيته و أخبر زوجته أم المؤمنين خديجة بما حدث فطمأنته و هدأت من روعه ، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها و كانت له معرفة بالأديان السماوية السابقة ، و عندما سمع و رقة ماسمع من رسول الله ﷺ طمأنه و أخبره أنه نبى هذه الأمة و أن هذا الذى نزل عليه هو الناموس الذى أنزله الله على موسى عليه السلام ، و شجعه و قال له : ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك : فقال الرسول ﷺ له سائلا : أو مخرجى هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، و إن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

و رجع رسول ﷺ إلى بيته ، ثم عاوده الوحى و أمره بالدعوة إلى الإسلام سراً ، وبالفعل دعا رسول الله أول ما دعا من توسم فيه الخير ، ودخل فى الاسلام أم المؤمنين خديجة و أبو بكر وعلى وغيرهم ، و سرت دعوة الاسلام بين جنبات مكة المكرمة ، و دخل الناس فى دين الله أفواجا من غير إكراه على الدخول فيه ، ومن غير سيف ولا حرب ، وزاد عددالمسلمين شيئاً فشيئاً ، وآذى الكفار من دخل فى الاسلام ، وأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة مرة بعد مرة ، و رغم التعذيب الذى تعرض له المسلمون لم يرو لنا التاريخ أن أحداً منهم رجع عن دينـــه الجديد رغم ما نالهم من العذاب و النكال ، و إنما روى المؤرخون أن المسلمين استعذبوا الايذاء فى سبيل الله ، و ضحوا بكل غال وثمين فى سبيل بقائهم على الدين الاسلامى الحنيف .

و مرت فترة الدعوة السرية ، و أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يجهر بدعوته ، و نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين »

بالفعل دعا رسول الله ﷺ قومه ، و أصبح العداء بين المسلمين و بين كفار مكة قوياً ، و نال المسلمون كثيراً من العذاب و النكال ، و لم يقتصر الايذاء على أتباع محمد عليه الصلاة و السلام ، و إنما تعداهم إلى رسول الله ﷺ نفسه ،

و فى موسم الحج التق رسول الله ﷺ بالحجيج من يثرب ، و عرض عليهم الدخول فى هذا الدين الجديد ، و رضى هؤلاء بالدخول فى الاسلام ، و زاد عددهم فى المرة الثانية عن الأولى ، و بايعهم النبى ﷺ على أن ينصروه وينصروا دين الله و لا يتركونه لقريش حينما يهاجر إليهم .

و اشتد الايذاء من قريش للسلمين ، و وصل إيذاؤهم إلى المؤامرة الكبرى على رسول الله ليقتلوه ، و لكن الله تعالى الذى اصطفى محمداً و اختاره للرسالة العالمية الخاتمة لكل الرسالات السماوية ، حماه و رعاه و أعانه على مهمته و صدق قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين » وقوله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس . . » و أمر الله رسوله بالهجرة من مكة إلى يثرب (المدينة المنورة) و قد هاجر الرسول ﷺ رغم الحصار الشديد ، من مكة إلى المدينة ، و أذن الله أن ترتفع راية الاسلام خفاقة عالية فى المدينة تعلن مبدأ وجود الدولة المسلمة ، و كان الفرح الكبير و السعادة الغامرة يسيطران على أهل المدينة لقدوم النبى - ﷺ - إلى مدينتهم و وجوده بينهم ، و تشريفه لهم . و هناك آخى النبى عليه الصلاة و السلام - بين المهاجرين و الأنصار و تكون المجتمع الاسلامى الأول و نزلت آيات الأحكام التى تنظم هذا المجتمع الجديد الذى يتكون من المهاجرين و الأنصار و زاد عدد المسلمين شيئاً فشيئاً و حينما كان يقع الايذاء من قريش على

المسلمين ، كان يطلبون من النبي - ﷺ - أن يأذن لهم بقتال الكفار ، فيرد عليهم النبي - ﷺ - بقوله : « لم أومر بقتال » و رغم كل ذلك فالمسلمون فی زيادة مستمرة و عند ما نزل قول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير » أخذ النبي - ﷺ - وصحابته يستعدون لملاقاة أعداء الله ، و يردون عليهم اعتداءاتهم ، و كانت الحرب بين المسلمين المعتدى عليهم وبين كفار مكة المعتدين ، والحرب بين المسلمين و الكفار فی هذه الحالة لا تعتبر نشراً للاسلام بالسيف ، و إنما هی ضرورة تمليها على المسلمين دفاعهم عن عقيدتهم و عن نفوسهم و أعراضهم و أموالهم و عقولهم ، و هی لا تخرج عن ذلك أبداً ، و هذا بالنسبة لكفار مكة .

أما أهل الكتاب الموجودون فی المدينة ، فهم أهل دين سماوی ، و قد عقد الرسول - ﷺ - معهم المعاهدات على الاسلام بينهم و بين المسلمين ، و لو لم ينقضوا العهد و الميثاق بينهم و بين الرسول - ﷺ - ما حاربهم رسول الله وما أخرجوا من ديارهم ، و لكنه العداء للاسلام من أهل الكتاب ، هو الذی دفعهم إلى نقض العهد ، و موالاة أعداء الله ، وما دام الأمر كذلك فلابد من حربهم لتأديبهم ، و بالفعل حاربهم الرسول - ﷺ - و هم أهل دين سماوی سابق ، و ذلك عملا بقوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر ، و لا يحرمون ما حرم الله و رسوله ، و لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتـــاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »

و قد أذن الله لرسوله - ﷺ - حقنا للدماء أن تؤخذ منهم الجزية ويتركون

على ديانتهم ، و لهم ذمة المسلمين ، ولا يعتدى عليهم بأى نوع من أنواع الاعتداء بعد موافقتهم على دفع الجزية .

و الجزية ما هى إلا دراهم معدودة لا تؤخذ إلا من الشباب الذى يصلح للتجنيد و لا تؤخذ من الشيوخ الطاعنين فى السن ، و لا من الرهبان ، و لا من النساء و الصبيان ، و ما ذلك إلا على سبيل الرمز فقط . فهى دراهم قليلة تدفع مرة واحدة كل عام ممن وجبت عليه ، و يترتب على دفعهـا حماية أهل الكتاب والمحافظة عليهم و الدفاع عنهم ، و هذه أمور خطيرة فى مقابل مال قليل تافه .

و القرآن الكريم فيه قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى .. » و الدخول فى الاسلام بالسيف إكراه يتنافى و يتعـارض مع الآية القرآنية الكريمة . و لو كان الاسلام ينتشر بالسيف كما يقول المستشرقون ماوجدنا فى بلاد المسلمين مسيحياً أو يهودياً ، لكن الأمر على خلاف ذلك فلا تخلو بلاد المسلمين من غير المسلمين ، و مع ذلك يعيشون فى أمن و أمان على عقيـدتهم و على كنائسهم و بيعهم ، و على أنفسهم و أعراضهم و أموالهم ، و قد قال رسول الله - ﷺ - فى شأنهم : « من آذى ذمياً فأنا حجيجه يوم القيامة » أو « خصمه يوم القيامة » .

و ليس فى هذا نشر للاسلام بالسيف كما يدعون .

فكيف يقال بعد هذا : إن الاسلام انتشر بالسيف ؟

فهل ظهور الاسلام و تكوين دولة الاسلام الأولى بهذه الصورة كان عن طريقة السيف أم كان عن طريقة السلم ؟ .

إن الأمر واضح كل الوضوح لكل منصف يريد الوصول إلى الحق ، ولو كان نشر الاسلام يتوقف على الحرب بالسيف كما ادعى المبطلون ما تكونت هذه الدولة

الاسلامية الأولى ، و ما وجدنا مسيحياً و لا يهودياً بالدول الاسلاميــة الآن ، لكننا نراهم فى دول الاسلام يعيشون بين المسلمين ، ويعملون معهم و يصادقونهم ، و ما ذلك إلا بسبب الاسلام دين السلام .

و لا شك أن عدد أهل الكتاب لا يستهان به ، فأكثر أهل الأرض من أهل الكتاب ، و رغم ذلك لم يدخل فى دين الاسلام منهم إلا من شاء و رغب دون سيف أو إكراه بأى نوع من أنواع الاكراه .

و النبى - ﷺ - حينما كان يرسل السرايا و الغزوات كان يحث القواد على الدعوة إلى الله أولا بالدخول إلى هــذا الدين الجديد ، دون قتال أو إكراه ، فان دخلوا فى الاسلام فقد أصبحوا إخوانا و صدق عليهم قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » .

و إن أبوا الدخول فى الاسلام طالبوهم بدفع الجزية - إن كانوا من أهل الكتاب - فان قبلوا تركوا وما يدينون وكانوا أهل ذمة للسلمين لهم مالهم وعليهم ما عليهم من الأمور غير الدينيـــة التى تجعلهم يعيشون فى أمن و أمان و سلام بين المسلمين .

وإن أبوا دفع الجزية حاربهم المسلمون لامن أجل الدخول فى الاسلام بالاكراه ، و لكن من أجل عدم وقوفهم ضـــد الاسلام و المسلمين ، و من أجل عدم موالاتهم لأعداء المسلمين ، والحرب حينئذ لاتكون من أجل دخولهم فى الاسلام ، و لكنها تأمين للاسلام و المسلمين .

وقد نزل قوله تعالى : « فإمامناً بعد و إما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » فلو كان الاسلام ينتشر بالسيف ما كان المن على الأسرى بدون فداء و ما كان

المن عليهم بالفداء ، و إنما كان الاسلام أو السيف .

هذا بالنسبة لأهل الكتاب أصحاب الديانات السماوية السابقة - و هم الكثرة الغالبة فى العالم - أما غير أهل الكتاب فبعض الفقهاء يقول : لا بد من تخييرهم بين الاسلام أو السيف ، فان أبوا إلا الكفر ضربت أعناقهم بالسيف ولا تؤخذ منهم الجزية ، لكن البعض الآخر من الفقهاء يجيز أخذ الجزية منهم ، وبناء على هذا الرأى لا يكون القتل حتماً إذا أبوا الدخول فى الاسلام ، و من هنا لا يكون انتشار الاسلام بالسيف ، فهل بعد ذلك يقول قائل : إن الاسلام انتشر بالسيف؟

بقيت هناك نقطة ، و هى الفتح الاسلامى ، والدعوة إلى الله تعالى ، فلا بد من بحثها حتى يتبين الحق من الباطل .

إن المسلمين مأمورن بالدعوة إلى الدخول فى هذا الدين على طول الدهر ، و الدعوة إلى الله تعالى و العمل بدين محمد - ﷺ - ذلك الدين الذى ختم الله به الأديان السماوية كلها ، « ذلك الدين القيم » وتلك الدعوة الحقة ، وهذه العقيدة السمحة ، و هذا الصراط المستقيم ، و المنهج الواضح السهل اليسير الذى يؤدى إلى السعادة فى الدنيا و فى الآخرة ، و الدستور السماوى الخالد ، و قانون الحياة العادل الذى يصلح لكل زمان و مكان ، حتى يرث الله تعالى الأرض و ما عليها - أمر مفروض و واجب على المسلمين ، و تنفيذ هـــذا الأمر يستدعى الحرب أحياناً لقوله - ﷺ - : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاذا قالوها عصموامنى دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله »

و الآية السابقة التى نصت على قتال أهل الكتاب الذين يقفون ضد

الاسلام و المسلمين ، و الذين امتنعوا عن الدخول فى الاسلام ، و امتنعوا كذلك عن دفع الجزية .

و هذه الحرب - إذا حصلت - لا تكون أبداً لأجل الدخول فى الاسلام بالاكراه و لكنها لتأمين الدعوة و الدعاة ، و التأمين يستدعى أحياناً أن يكون بالحرب ، و ذلك إذا لم ينفع السلم و يؤدى إلى الأمان المطلوب .

و كما قلت - سابقاً - لا بد من اتباع الخطوات الآتية :

١- الدعوة إلى الدخول فى الاسلام بالحجة و المنطق و البرهان :

٢- فاذا لم تنجح هذه الطريقة فنطالبهم بالجزية رمزاً للخضوع وطريقاً للاستقرار فى المجتمع ، و فتحا للدعاة لهداية الناس ، فمن شاء فليؤمن و من شاء فليبق على عقيدته .

٣- فاذا لم يرضخ أعداء الاسلام ، و قاتلوا قاتلهم المسلمون لتأديبهم و رد كيدهم إلى نحورهم ، و ليس فى ذلك عيب ، و لا يعد ذلك إكراها على الدخول فى الاسلام .

و بذلك ينتشر الاسلام ، و يدخل الناس فى دين الله أفواجا ، و ترفرف على البشرية راية الاسلام ، راية الحق والعدل و السلام ، و يعيش الناس فى أمن و أمان ، و الله أسأل أن يوفق أولياء أمور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى ما فيه الخير و الصواب .

و الله ولى التوفيق　　　أ . د / محمود محمد الطنطاوى

أبحاث بالعربية :

١- المستشرقون و الاسلام .　　　للأستاذ أنور الجندى

٢- المستشرقون و القرآن .　　　» » »

٣- المستشرقون و السنة للأستاذ أنور الجندى
٤- المستشرقون و السيرة النبوية » » »
٥- المستشرقون و التاريخ » » »
٦- المستشرقون و السيرة النبوية للدكتور عماد الدين خليل

أبحاث بغير العربية :

٧- تاريخ المستشرقين وأدوارهم المختلفة وخطط العمل للمستقبل للدكتور خليق أحمد النظامى
٨- فكرة المستشرقين للاسلام فى خلفية التاريخ للدكتور خواجة أحمد الفاروقى
٩- المستشرق براون و الاسلام للدكتور سيد أمير حسن العابدى
١٠- أهداف سياسية لمستشرق الغرب فى ضوء مؤلفاتهم عن تركيا للدكتور أكمل الأيوبى
١١- الاسلام و المستشرقون للأستاذ أوصاف على
١٢- خدمات المستشرقين الطبية للطبيب محمد سعيد
١٣- القرآن و المستشرقون للأستاذ سيد أطهر حسين
١٤- المستشرق والفرد كانتوميل اسمت : ريفه وتحليله للدكتور مشير الحق
١٥- الاستشراق و الاسلام بين الأمس و اليوم للدكتور عابد رضا بيدار
١٦- المستشرق سارهملتون جب للدكتور ضياء الحسن الفاروقى
١٧- فكرة الغرب للاسلام و جانبها السياسى للدكتور عماد الحسن آزاد الفاروقى
١٨- المستشرق جولد زيهر للأستاذ سعيد أحمد أكبر آبادى
١٩- خدمات علماء الغرب و أبعادها للأستاذ سيد وحيد الدين
٢٠- هل تختلف شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام فى السور المدنية عنها فى السور المكية ؟ اعتراضات أسبرنجر و أسنوك هجرونيه للأستاذ ضياء الدين الاصلاحى



السنة مع المستشرقين و المستغربين

الدكتور تقى الدين الندوى
المستشار العلمى بدائرة القضاء الشرعى بأبوظبى
و أستاذ محاضر بجامعة الامارات بمدينة العين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد و آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

فمن المعروف أن المستشرقين و المضللين و منكرى السنة يبذلون قصارى جهودهم لاسقاط السنة النبوية من مكانتها الرفيعة كمصدر تشريعى ثان بعد كتاب الله العزيز إذ أنها شرحه و تفسيره و بيانه .

و يستهدفون من وراء ذلك هدم مجتمع الاسلام و نظامه لكى تسود الفوضى و تنتشر البلوى و على هذا التقى أعداء الاسلام من الزنادقة و غيرهم فى عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة مع أعداء الاسلام اليوم من المستشرقين و من لف حولهم فى الحضارة الغربية المعاصرة لأن ضوء الاسلام الباهر يغيظ أعداء الاسلام و يغشى أبصارهم فيندفعون بعصبيــة عمياء حمقاء لتهديم كل ما يتصل به من قرآن و سنة واجتهاد و لتشويه كل من حمل لواء الاسلام من رسول الله ﷺ وأصحابه إلى حملته من أعلام السنة والحديث ولإفساد الحقائق المتصلة به من حضارة وتاريخ .

و لا نشك أن هذه المعركة بين الاسلام و خصومه ستنتهى إلى هزيمتهم و كشف مقاصدهم الخبيثة .

و سنــة الله فى الحياة أن ينتصر الحق و العلم و النور دائماً و أبدا (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) الأنبياء ـ ١٨ .

و لكن من المؤسف أن بعض الكتاب المثقفين من المسلمين قد انخدعوا بمظاهر التحقيق العلمي الخادع من المستشرقين و المؤرخين و الكاتبين من أعداء الاسلام الغربيين إما لجهلهم بحقائق التراث الاسلامی و عدم اطلاعهم على ما يكفى من ينابيعه الصافية و إما لوقوعهم تحت تأثير أهواء و انحرافات فكرية لا يجدون مجالا إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين و الكاتبين .

ثم إن هؤلاء المستشرقين وأتاحت لهم حكوماتهم الفرصة للتفرغ للبحث والكتابة و وفرت لهم المصادر والمراجع و يختار كل واحد منهم الاختصاص بفن أو ناحية من نواحي ذلك الفن ، ويشتغل به طول حياته ، و لذلك كل ما يكتبونه يصبغونه بصبغة علمية ، ويذكرون مصادر ومراجع كثيرة من المخطوطات و المطبوعات فكان من أثر ذلك أن بحوثهم و دراساتهم أصبحت مرجعا للمثقفين منا ثقافة غربيـــة و الملمين بلغات أجنبية و قد انخدعوا بها و اعتقدوا بمقدرتهم العلمية و اخلاصهم للحق ، و جروا وراء آرائهم ينقلونها فى بحوثهم كما هى ، ومنهم من يفاخر بأخذها عنهم ، و منهم من يلبسها ثوبا إسلامياً جديداً .

و كان العديد من قادة الفكر العربي الاسلامی قد تتلمذوا على أيدى هؤلاء المستشرقين عن طريق ايفادهم إلى خارج بلادهم و استقدام أعلام المستشرقين إلى البلاد العربية و الاسلامية ليعملوا فى مؤسساتها الفكرية و مناهج التربية و التعليم و المؤلفات الاستشراقية التى زخرت بترجمتها المكتبة العربية الاسلامية .

إن الاعمال الفكرية الاستشراقية عن العلوم الاسلامية اتخذت طابعين :

١- طابع سلبى بمايتسم به من التطرف و التبشير و التغريب و هو الذى يغذى النفوس المريضة بالعداء ضد الاسلام و تعاليمه .

٢- و طابع ايجابى بما يتسم به من الموضوعية و التجرد فى البحث و التحقيق ،

فما قبله الاسلام و وضعه العلماء فى موضعه و ما رفضه الاسلام و الأصول النقدية نبهوا إلى أخطائه و أخطاره و ردوه غير آسفين عليه و هذا موقف معروف لعلمائنا فمن حق المعتدل بآرائه أن ينعت بأنه معتدل الرأى و من حق المنصف أن لايساء إليـــه فاذا قرأت مقدمة « مفتاح كنوز السنة » لأحمد محمد شاكر، وجدت إكباراً أوثناء للعمل الذى قام به (فنسنك) ولـكنك إذا قرأت موضوعا للمستشرق نفسه فى دائرة المعارف الاسلامية وجـــدت أحمد محمد شاكر وغيره معلقا ومعقبا مصححا ومقوما فهذا شئ وذلك شئ آخر.

وهكذا قد قامت دراسات نقدية من قبل العلماء المسلمين ، لـكن من المؤسف أن جماعة من المثقفين المسلمين ينقلون عن أساتذتهم المستشرقين بدون تمحيص وتحقيق وكثير منهم يدعون بالقول والقلم إلى أفكارهم ويتحمسون لاذاعتها فى البحوث والدراسة تحت اسم البحث العلمى من طليعتهم الأستاذ أحمد أمين مؤلف كتب «فجر الاسلام» و «ضحى الاسلام » و «ظهر الاسلام» وقد تحدث فى كتابه « فجر الاسلام » عن الحديث و السنة و مزج السم بالدسم و خلط الحق بالباطل ، و حرف حقائق الاسلام الثابتة و تحامل على جماعة من كبار الصحابة و للتابعين مشياً وراء أساتذة المستشرقين قال : (وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها و لكنهم (و الحق يقال) عنوا بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقل أن تظفر بنقد منهم من ناحية أن ما نسب إلى النبي ﷺ لايتفق والظروف التى قيل فيها أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفى يخالف المألوف فى تعبير النبى أو أن الحديث أشبه بشروطه و قيوده بمتون الفقه و لم تظفر منهم فى هذا الباب بعشر من معشار ما عنوا به من جرح الرجال و تعديلهم حتى نرى البخارى نفسه على جليل قدره و دقيق بحثه يثبت أحاديث

دلت الحوادث الزمنية و المشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال كحديث «لايبق على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة» و حديث من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم و لا سحر ذلك اليوم إلى الليل) (١).

فهذا الكلام تضمن أمرين :

١ـ نقد القواعد التى وضعها العلماء لنقد الحديث .

٢ـ نقد حديثين وردا فى صحيح البخارى تمشياً مع القواعد الجديدة التى وضعها للنقد الأستاذ أحمد أمين .

أن ما ذكره الأستاذ ففيه ظلم وحيف و إنكار للتاريخ و لكن ليس هـذا بغريب لأن الأستاذ أحمد أمين كما ذكر الدكتور مصطفى السباعى كان من الدعاة لافكار المستشرقين فى إنكاره للسنة ، أما ما بذل علماء السنة لحفظ الحديث الشريف و تخليصه من كل ما يشوبه فليس له نظير فى التاريخ ، وأن علماء الجرح والتعديل تناولوا نقد سند الحديث كما تناولوا نقد متنه و أن الجهود التى بذلوها فى نقد المتن لا تقل عن جهودهم فى نقـد السند من القى النظر على كتب علمائنا فى المصطلح لايجوز أن يعتقد أبداً أنه عنى بالسند أكثر من المتن ، فعلم مصطلح الحديث لايقتصر على مباحث الاسناد بل يتجاوزها إلى المسائل المتعلقـة بالمتن أيضاً و قد يبدو فى الظاهر أن نقاد الحديث عنوا بالاسناد أكثر من المتن و لكن هذا وهم بعيد ما أسرع تبدده لدى البحث العميق و النظر الدقيق ، أن مباحثهم تدور حول الاسناد و المتن من حيث القبول و الرد ، أنهم وضعوا علامات لتمييز السند الضعيف من السنـد الصحيح كما وضعوا علامات تميز متن الخبر الموضوع عن غيره فهذه

(١) فجر الاسلام ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

علامات ثمانية للمتن و أربعة للسند (١) .

بهذا نستطيع أن نرد على هذا القائل أن هذا الاحتياط و هذه الشدة فى النقد لم تعجب مؤلف فجر الاسلام لأنها لم تعجب أساتذته المستشرقين فانتقدها بما ذكرناه و زعم أنه كان على المحدثين أن يحققوا حين النقد فى المسائل الآتية :

١- هل يتفق ما نسب إلى النبى مع الظروف التى قيل فيها .

٢- هل الحوادث التاريخية تؤيده ؟

٣- و هل هذا الحديث نوع من التعبير الفلسفى يخالف المألوف عن النبى ؟

٤- هل الحديث أشبه بشروطه و قيوده بمتون الفقه ؟

هذه من القواعد الجديدة التى وضعها الأستاذ أحمد أمين ، فعلينا أن نبحث فى هذه المقاييس و تنظر إلى أى مدى كان موفقا فى اختيارها .

١- أما قوله: إنهم لم يحققوا فيما نسب إلى النبى ﷺ هل يتفق مع الظروف التى قيل فيها أم لا ؟ أن هذا الزعم غير صحيح لأنهم جعلوا ذلك من علامات الوضع فى المتن و مثلوا حديث أن النبى ﷺ وضع الجزية على أهل خيبر ورفع عنهم الكلفة و المسخرة بشهادة سعـــد بن معاذ و كتابة معاوية بن سفيان مع أن الثابت فى التاريخ أن الجزية لم تكن معروفة و لا مشروعة فى عام خيبر وإنما نزلت آية الجزية بعد عام تبوك و أن سعد بن معاذ توفى قبل ذلك فى غزوة خندق ، و إن معاوية إنما اسلم زمن الفتح (٢) لحقائق

---

(١) أنظر الباعث الحثيث ص ٩ و المنار لابن القيم الجوزية ١٢٠ و تدريب الراوى ص ١٨٠ .

(٢) الاعـــلان بالتوبيخ ص ١٠ و انظر المنـــار لابن القيم ص ٣٧ — ٣٨ و تذكرة الحفاظ للذهبى ١١٤١ .

التاريخ ترد هذا الحديث و تحكم عليه بالوضع . و من أمثلة ذالك حد
أنس دخلت الحمام و رأيت رسول الله ﷺ جالسا وعليه مئزر فهممت
أكلمه فقال يا أنس أنا حرمت دخول الحمام بغير مئزر من أجل هذا ،
أن الثابت تاريخيا أن الرسول لم يدخل حماما قط إذ لم تكن الحمامات معر
فى الحجاز فى عصره .

٢- و أما أن الحوادث التاريخية تؤكـده أو تكـذبه ؟ فانهم عدوا ذلك
علامات الوضع أيضاً ومثلوا له فى ردهم بحديث وضع الجزية على أهل خ
بأن الحوادث التاريخية ترده .

٣- و أما كون الحديث نوعا من التعبير الفلسفى يخالف المألوف من كلام النبى
فان ذلك داخل تحت بحث «ركاكة اللفظ» وضابطه أن تقطع بأن النبى ﷺ
لايقول مثل هذا الكلام قال الحافظ ابن حجر : المدار فى الركاكة على ركا
المعنى فحيثما وجدت دلت على الوضع و إن لم ينضم إليه ركاكة اللفظ لأ
الدين كله محاسن و الركاكة ترجع إلى الرداءة .
أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى
فغير ألفاظه بغير فصيح (١) .

٤- و أما أن الحديث أشبه بشروطه و قيوده بمتن الفقه ، فقد اشترط المحدثون
لصحة الحديث أن لا يكون المروى موافقا لمذهب الراوى المتعصب ، و قد
ردوا أحاديث كثيرة فى العقائد لأنها تؤيد مـذاهب الرواة و كذلك ردوا
أحاديث فى الفقه كثيرة للسبب نفسه ، مثل حديث « المضمضة و الاستنشاق

---

(١) الباعث الحثيث ص ٩٠ .

ثلاثاً للجنب فريضة» (١) ومثل «إذا كان فى الثوب قدر الدرهم من الدم غسل الثوب و أعيدت الصلاة » (٢) و أمثال هذه الأحاديث قد حكم عليها العلماء بالوضع

و أما ما قاله الأستاذ أحمد أمين من أن (البخارى نفسه على جليل قدره و دقيق بحثه يثبت الأحاديث دلت الحوادث الزمنية و المشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة ، لاقتصاره على نقد الرجال ، فهذا حكم لا نوافقه عليه ولا نقول به ، لأن ما استشهد به لدعم رأيه لا يثبت هذا ، بل يعارضه ، وإن حديث « لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة » صحيح أخرجه البخارى و أبو داود و الترمذى ، و قد روى هذا الحديث بطرق عدة فسر بعضها بعضا ، فالمراد من الحديث أنه عند انقضاء مائة سنة من قول رسول ﷺ لن يبقى أحـــد ممن كان موجوداً فى عهده ﷺ حين قال هذا النبأ وفعلا كان هذا الخبر من علامات نبوته عليه الصلاة والسلام لأنه لم يبق أحد ممن كان فى عهده عليه الصلاة والسلام أكثر من مائة عام ، فكل ما فى الأمر أن رسول الله ﷺ بين لأصحابه أنهم لن يعمروا كما عمر من قبلهم من الأمم (٣) ولذلك عليهم أن يجدوا فى طاعاتهم، ويعملوا فى دنياهم لآخرتهم وليس فى هذا ما يخالف الحوادث الزمنية والمشاهدات التجريبية ، ويقول الدكتور

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة ج ٢ ص ٦٧ ، قال البزاز : أجمع أهل العلم على نكرة هذا الحديث .

(٢) تنزيه الشريعة المرفوعة ج ٢ ص ٦٧ . قال ابن الجوزى فى سنده مجهولون و لم يدخل رسول الله حماما قط و لا كان عنده حمام .

(٣) أنظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١١٩ .

مصطفى السباعی : فانت ترى أن هذا الحـديث الذى كان فى الواقع معجزة من معجزات الرسول ﷺ ينقلب فى منطق النقد الجديد الذى دعا إليـه صاحب فجر الاسلام إلى أن يكون مكذوبا مفترى) (١) .

و أما حديث « من اصطبح كل يوم سبع تمرات لم يضره سم و لا سحر ذلك اليوم إلى الليل » فقد أخرجه البخارى فى كتاب الطب (٢) .

كما أخرجه الامام مسلم (٣) و الامام أحمد (٤) .

و قـد بين العلماء هذا الحديث فمنهم من خصه بتمر المـدينة اعتماداً على الأحاديث المقيدة بذلك ، و منهم من أطلقه و الذى ارتضاه الأكثرون تخصيصه لعجوة المدينة .

قال ابن القيم : عجوة المدينة من أنفع تمر الحجاز ، و هو صنف كريم ، و قال : و التمر فى الأصل عن أكثر الثمار التغذية لما فيه من الجوهر الحـار الرطب ، و أكله على الريق يقتل الديدان لما فيه من القوة الترياقية ، فاذا أديم أكله على الريق جفف مادة الدود أو أضعفه أو قتله » (٥) .

و نفع هذا العدد من التمر من هذا البلد ، من هذه البقعة بعينها ـ من السم و السحر بحيث تمنع اصابته ـ من الخواص التى لو قالها بقراط و جالينوس و غيرها من الاطباء لتلقاه عنهم الأطباء بالقبول و الاذعان و الانقياد ، مع أن القائل إنما معه الحدس و التخمين و الظن فمن كلامه كله يقين و قطع و برهان

---

(١) السنة و مكانتها ص ٢٦١ . (٢) البخارى ٧ / ٣٠ .

(٣) صحيح مسلم ٣ / ١٦١٨ .

(٤) فى سنده حديث ١٤٤٢ ، ١٥٢٨ ، ١٥٧١ ، ١٥٧٧ ج ٣ .

(٥) فتح البارى ١٠ / ٢٤٠ .

ـ وحى أولى بأن تتلق أقواله بالقبول و ترك الاعتراض . (١) جرأة بالغة منه لا يمكن أن تقبل فی المحيط العلمی بأی حال .

و قد رد الدكتور مصطفى السباعی علی جميع شبهات الأستاذ أحمد أمين رداً علميا قويا فليرجع فی كتابه السنة و مكانتها فی التشريع الاسلامی ص ٢٤٢ ـ ٣٠٣ و قال فی صدد رده علی أحمد أمين بخصوص هذا الحديث .

(إنك لاتشك معی فی أن إقدام مؤلف فجر الاسلام ، علی القطع بتكذيب هذا الحديث ما دام سنده صحيحاً بلا نزاع ، وما دام متنه صحيحاً علی وجه الاجمال و لا يضره بعد ذلك أن الطب لم يكتشف حتی الآن بقية مادل عليه من خواص العجوة و يقينی أنه لو كان فی الحجاز معاهد طبية راقية أو لو كان تمر العالية موجوداً عند الغربيين لاستطاع التحليل الطبي الحديث أن يكتشف فيه خواص كثيرة ، و لعله يستطع إن يكتشف هذه الخاصة العجيبة إن لم يكن اليوم ففی المستقبل إنشاء الله .

كذلك الأستاذ أحمد أمين يذكر نشأة موضع الحديث ، ويقول فی ص ٥٢٩ .

« و حسبك دليلا علی مقدار الوضع أن أحاديث التفسير التی ذكرت عن أحمد بن حنبل إنه قال : لم يصح عنده منها شئ ، قد جمع آلاف الأحاديث و إن البخاری و كتابه يشتمل علی سبعة آلاف منها نحو ثلاثة آلاف مكررة ، قالوا : إنه اختارها وصحت عنده من ستمائة ألف حديث كانت متداولة فی عصره » .

الأستاذ يريد أن يستدل علی كثرة الوضع فی الحديث و آتی لذلك بشيئين :

١ــ أحاديث التفسير .

٢ــ و أحاديث البخاری .

---

(١) زاد المعاد : ٣ / ٩٤ .

أما أحاديث التفسير : إن من طالع كتب السنة يجد تقريباً فى أكثرها أبواب التفسير وردت فيها أحاديث صحيحة ، لا غبار عليها ، قد اشترط العلماء لمن أراد أن يفسر القرآن فعليه أن يعتمد فيه على ما نقل عن النبى ﷺ .

قال الامام أبو جعفر الطبرى : إن مما أنزل الله من القرآن على نبيه مما لا يوصل إلى علم تأويله الا ببيان الرسول ﷺ ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره و نهيه و ندبه و ارشاده ـ إلى آخره (١) .

و قال أبو حيان الأندلسى فى تفسيره : (الوجه الرابع) تعيين مبهم وتبيين مجمل و سبب نزول و نسخ و يؤيد ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ : و ذلك عن علم الحديث .

و قد تضمنت الكتب و الأمهات التى سمعناها و رويناها ذلك كالصحيحين ، و الجامع للترمذى و سنن أبى داود ، . . . و أخذ يعدد كتب السنة (٢) .

و قال السيوطى فى الاتقان (٣) قال ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : (لتبين للناس ما نزل إليهم) (٤) يتناول هذا و هذا .

و قال الامام الشافعى (٥) : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله و لا تكن للخائنين خصيما) (٦) .

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٥ . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ٦ .
(٣) الاتقان ص ١٧٦ ج ٢ . (٤) سورة النحل ـ الآية ٦ .
(٥) مقدمة التفسير لابن تيمية . (٦) سورة النساء الآية ١٠٥ .

هذا وقد قسم الزركشى (١) القرآن إلى قسمين : قسم ورد تفسيره بالنقل و هو ما عن النبى ﷺ أو الصحابة و التابعين ، و قسم لم يرد .

إن العلماء قد جعلوا التفسير بين منقول وغير منقول ، وأوجبوا على المفسر أن يرجع إلى المنقول و لو لم يصح فيه شئ كثير لما فعلوا ذلك ، وهناك من العلماء من ذهب إلى أنه لا يجوز التفسير إلا بما ورد عن النبى ﷺ .

و قال السيوطى فى الاتقان (٢) اختلف الناس فى تفسير القرآن هـل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شئ من القرآن ، وإن كان عالما أديباً متسعاً فى معرفة الأدلة والفقه واللغة والنحو والأخبار والآثار ، وليس له إلا أن ينتهى إلى ما روى عن النبى ﷺ فى ذلك .. . إلخ .

و هذا القول و إن كان خلاف المعتمد إلا أنه يدل على أن هناك آثاراً فى التفسير لا يصح تجاهلها و لا يسوغ لأى عالم انكارها .

و أما ما نقله عن الامام أحمد أنه قال : ثلاثة ليس لهـا أصل : التفسير و الملاحم و المغازى و فى رواية ثلاثة كتب لا أصل لها ، المغازى و الملاحم و التفسير ، فالكلام عن هذه العبارة من وجوه :

أولا : إن فى النفس من صحتها شيئاً ، فان الامام أحمد ذكر فى سنده أحاديث كثيرة فى التفسير و المغازى و الملاحم ، فهذا يناقض قوله .

ثانياً : إن نفى الصحـة لا يستلزم الوضع و الضعف ، قال القـارى فى « تذكرة الموضوعات » لا يلزم من عدم الثبوت وجود الوضع ، قال الحافظ ابن حجر فى « تخريج الأذكار المسمى بنتائج الأفكار » ثبت عن أحمد أنه قال : لا أعلم فى التسمية (أى فى الوضوء) حديثاً ثابتاً ، قلت : لا يلزم من نفى

(١) البرهان . (٢) الاتقان ٢ / ١٨٠ .

العلم ثبوت العدم — و على التنزل لا يلزم من نفس الثبوت ثبوت الضعف لاحتمال أن يراد بالثبوت الصحة فلا ينتفى الحسن (١) .

ثالثاً ، إن الامام أحمد لم يقل : إنه لم يصح فى التفسير شئ : إنما قال : ثلاثة ليس لها أصل و الظاهر أن مراده نفى كتب خاصة بهذه العلوم الثلاثة كما ورد فى رواية أخرى .

رابعاً : و يحتمل أن يكون مراد الامام أحمد أن ما صح من هذه العلوم الثلاثة قليل بالنسبة لما لا يصح و على هذا المعنى حملها كثير من أهل العلم .

قال الزركشى فى « البرهان » مراده أن الغالب ليس لها أسانيد صحاح متصلة و إلا صح من ذلك كثير (٢) .

و أما ما استشهد الأستاذ أحمد أمين على مقدار الوضع بأحاديث البخارى ، و استغرب كيف انتقى الامام البخارى أحاديث صحيحة من ستمائة ألف حديث .

لاشك أن عدد الأحاديث التى تداولها الناس فى عصر الامام البخارى كانت كثيرة جداً ربما يتعجب الانسان إذ يقرأ فى الكتب ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبع مائة ألف حديث ، و كذلك يقال عن أبى زرعة ويروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة و مائة ألف من الأحاديث الصحيحة و يروى عن الامام مسلم أنه قال : جمعت كتابى هذا من ثلاث مائة ألف حديث .

و الحقيقة أن كثيراً من المتعلمين — فضلا عن عامة الناس لا يعرفون أن هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات و الشواهد التى عنى بها المحدثون ، لحديث

---

(١) أنظر الرفع و التكميل ص ٨٦ .

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ١٨٣ ـ ١٨٤ باختصار وبتغيير يسير.

(إنما الأعمال بالنيات) مثلا يروى من سبع مائة طريق (١) .

فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات و الشواهد لبقي عدد قليل من الأحاديث فالجامع الصحيح للامام البخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ثنين و ستمائة و حديثين و أحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث و هكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى كتب السنة خمسين ألف حديث ، منها الصحيح ومنها السقيم ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله النيسابورى الذى يعد من المتساهلين فى أخذ الحديث — أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف (٢) .

و ما زعمه مؤلف فجر الاسلام ، غير معروف عند العلماء ، بل المعروف أن البخارى لم يجمع فى كتابه كل ما صح عنده .

قال الامام البخارى : ما أدخلت فى كتاب الجامع إلا ما صح ، و تركت من الصحاح مخافة الطول (٣) .

قال الحافظ الحازمى فى كتابه « شروط الأئمة الخمسة » و أما البخارى فلم يلتزم أن يخرج كل ما صح عنده من الحديث .. . إنه قال : لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحاً ، و ما تركت فى الصحيح أكثر (٤) فاذا كان العلماء يقرون

---

(١) قال الحافظ ابن حجر العسقلانى قد تتبعت طرقه من الروايات المشهورة و الأجزاء المنثورة منذ طلبت الحديث إلى وقتى هذا فما قدرت على تكميل المائة ، و قد تتبعت طرق غيره فزدت على ما نقل عمن تقدم .

(٢) فتح البارى ج ١ ص ١٢ أنظر توجيه النظر ص ٩٣ .

(٣) أنظر تدريب الراوى ص ٤٧ و فتح المغيث ج ١ ص ١٧ .

(٤) شروط الأئمة الخمسة للحازمى ص ٤٧

أن البخارى لم يستوعب الصحيح فى جامعه ، وأنه يحفظ مائة ألف حديث
يكون ما نقله الأستاذ أحمد أمين غير صحيح .

كما تأثر الأستاذ أحمد أمين بأفكار المستشرقين و روجها بين المثقفين ا
بطريقة كتابة هذا الموضوع كذلك من تأثر بهم كثير من العلماء المعاصرين
الأستاذ فؤاد سزكين صاحب كتاب « تاريخ التراث العربى » الذى هذب
« تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان و زاد عليه زيادات قيمة فانه يذكر
مصنف كتبه مع مخطوطاتها و طباعاتها ، لا شك أنه عمل جليل و كتابه
لكل باحث و محقق ، و مع هذا إنه مشى وراء المستشرقين و أساء إلى ا
الصحيح للامام البخارى .

يقول « و الخطأ الأكبر الذى جر إلى أخطأ أخر هو اعتبار كتاب
أول كتاب « مصنف » ألف لينير الطريق فى كل باب من أبواب الفقه و
مسألة فقهية (١) .

« وقد أوضحت دراسة تطور علم الحديث أن مجموعات البخارى و مع
لا تمثل بأية حال بداية كتب المصنف لأنها ليست إلا جمعاً ملخصاً لمصنفات
فى مائة عام و يبدو أن البخارى ، قد استخدم كتب الحديث و كثيراً من
اللغوية و التاريخية و الفقهية كذلك دون انتقاء و توفيق (٢) .

نحن نستغرب من هذا الرأى الخاطىء الذى أخذه الأستاذ فؤاد سزكين
جولتيسهر حول كتاب الامام البخارى . لأنه لم يذكر أى عالم من علماء المسلمين
هذا الكتاب أول مصنف فى علم الحديث . بل الذى قال العلماء هو أنه أول م
فى الصحيح قال النووى فى التقريب أول مصنف فى الصحيح المجرد صحيح البخارى

---

(١) تاريخ التراث العربى ج ٢ ص ١٧٣ . (٢) تاريخ التراث العربى ج

ثم مسلم وهما أصح الكتب بعد القرآن العزيز و البخارى أصحهما .

و لا شك أن كتب الحديث قبل عصر الامام البخارى كانت موجودة ، و لكن كان الحديث فيه ممزوجا الصحيح بغيره ، بحيث لا يتعين للناظر فيها درجة الحديث من الصحة إلا بعد البحث عن أحوال رواته و غير ذلك مما هو معروف عن أهل الحديث فان لم يكن وقف على ذلك اضطر إلى أن يسأل أئمة الحديث عنه فان لم يتيسر له ذلك بقى ذلك الحديث مجهول الحال عنده ، و حين ظهر الامام البخارى و سارت له فيه المنزلة التى ليس فوقها منزلة أراد أن يجرد الصحيح و يجمله فى كتاب على حدة ليخلص الطالب من عناء البحث و السؤال فألف كتابه المشهور و أورد فيه ما يتبين له صحته و سمى كتاب « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ و سننه و أيامه » .

لذلك اتفق علماء هذه الأمة أن جامع البخارى أجل وأعظم من جميع كتب السنة بل هو أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز .

قال القسطلانى هو أصح الكتب المؤلفة فى هذا الشأن ، و المتلقى بالقبول من العلماء فى كل أوان ، و قد فاق أمثاله فى جميع الفنون و الأقسام وخص بمزايا من بين دواوين الاسلام ، شهد له بالبراعة الصناديد العظام و الأفاضل الكرام ، و فوائده أكثر من أن تحصى و اغزر من أن تستقى (١) .

و أما ما زعمه أن البخارى ألف لينير الطريق فى كل باب من أبواب الفقه و فى كل مسألة فقهية فان هذا ليس بمعروف عند العلماء و لا كان من هدف البخارى بل كان معظم مقصود البخارى فى صحيحه مع الاهتمام بصحة الأحاديث

---

(١) أنظر كتاب « الامام البخارى » للباحث وفيه أقوال كثيرة فى هذا الشأن من علماء المتقدمين و المتأخرين .

استخراج المعانى الكثيرة من المتون ولذلك كرر الأحاديث فى كتابه فى الأبواب المختلفة و ذكر بعضا من الاحاديث أكثر من عشرين مرة و لذلك اشتهر قول جمع من العلماء فقه البخارى فى تراجمه (١) .

قال الحافظ فى مقدمة الفتح « الفصل الثانى فى بيان موضوعه و الكشف عن مغزاه فيه » تقرر أنه التزم بالصحة فيه ، وإنه لا يورد فيه إلا حديثاً صحيحاً هذا أصل موضوعه و هو مستفاد من تسميته اياه « الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ و سننه و أيامه » (ومما نقلناه عنه من رواية الأئمة عنه صريحاً) ثم رأى أنه لا يخليه من الفوائد الفقهية و النكت الحكمية فاستخرج بفهمه من المتون معانى كثيرة فرقها فى أبواب الكتاب بحسب تناسبها (٢) .

فليس مقصود البخارى إيراد جميع أبواب الفقه و بيان كل مسألة فقهية كما يقول الأستاذ فؤاد سزكين .

و أما ما زعم « أنه استخدم كتب الحديث و كثيراً من الكتب اللغوية و التاريخية و الفقهية كذلك دون انتقاء و توفيق » .

فهذا كلام لا يقول إلا من لم يكن له معرفة بكتاب الامام البخارى و غاية تحريه لتخريج الحديث فى الكتاب ، قال الامام البخارى « ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت » و قال : صنفت الجامع من ستمائة ألف حديث فى ست عشرة سنة ، و جعلته حجة فيما بينى و بين الله ، و قال أيضاً : ما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى وصليت ركعتين و تيقنت صحته (٣) .

---

(١) مقدمة لامع الدرارى ص ٢٨٥ . (٢) مقدمة فتح البارى .

(٣) مقدمة لامع الدرارى على البخارى ص ١٢٢ .

ثم إن الامام البخارى اختار من هـذه المجموعة الكثيرة فى كتابه ثمانين و ستمائة و اثنين حديثاً ، وهل لهذا التحرى و الاحتياط يوجد له نظير ؟ .

ثم إن شرط البخارى فى صحيحه قد بلغ أقصى درجات الصحة و الثقة و التحرى فى نقل الصحيح الثابت والاجتهاد الذى يبلغ إليه إجتهاد المجتهدين وأمانة النقل و الرواية وأنه راعى فيه أدق الشروط التى وردت فى هذا الفن و التزم فيه التزامات لم تعرف عن أى مؤلف فى هذا الموضوع (١) .

و أما ما نقل البخارى عن كتب اللغة و التاريخ والفقه ، لاشك أنه اعتمد عـلى المراجع الصحيحة و البخارى مجتهد و يجتهد فى الأخذ من هذه المصادر ، و يمكن اختلاف الرأى فى هـذا (٢) و لكن لا يتصور أنه نقل منها دون انتقـاء و توفيق .

ويقول الأستاذ فؤاد سزكين (بالنسبة للأسانيد فان مصنف الجامع الصحيح للبخارى لا يرقى إلى الكمال ، فالأسانيد ناقصة فى حوالى ربع مادة و قد أطلق على هذا الأمر ابتداء من القرن الرابع اسم التعليق و بهذا يفقد كتاب البخارى كثيراً من شهرته بالجمع والشمول أما البخارى نفسه فقد ثبت أنه ليس عالم الحديث الذى طور الاسناد إلى الكمال كما زعم الكيتانى .

بل هو أول من بدأ معه إنهيار الاسناد (٣) و يقول الأستـاذ أيضاً : إن الاسنـاد لم يعرف شكله الأكمل عند البخارى فالواقع أنه بدأ من البخـارى يفقد مكانته (٤) .

---

(١) أنظر شروط الأئمة الستة للمقدسى وكتاب الامام البخارى للمؤلف ص ١١٢.

(٢) أنظر لامع الدرارى ج ٩ ص ٢ .

(٣) تاريخ التراث العربى ج ٢ ص ١٧٤ . (٤) أيضاً ج ٢ ص ١١٤ .

أفرد سزكين فى كتابه فصلا خاصاً كالمقدمة لعلم الحديث استغرق نحوا من ثلاثين صفحة حاول فيه أن يؤرخ تاريخ السنة وكتابتها وتدوينها و روايتها وأشار إلى فوائد كثيرة و لكنه نقل عن المستشرقين و مصادرهم بدون انتقاء و توفيق و ليس له دراسة لكتب السنة و لا لكتب مصطلح الحديث ، و حاول اسقاط مكانة الجامع الصحيح و مؤلفه ، قد ذكرنا أن الامام البخارى راعى أدق الشروط لتخريج الحديث ، بشرط البخارى أن يخرج الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابى المشهور « ثم اشترط البخارى اللقاء بين الراوى والمروى عنه حينما اكتفى مسلم بالمعاصرة »

قال الحازمى إن قصد البخارى كان وضع مختصر فى الحديث و إنه لم يقصد الاستيعاب لافى الرجال ولا فى الحديث وإن شرطه أن يخرج ما صح عنده (١).

و لذلك كان حذاق المحدثين و علماء أسماء الرجال يعتمدون فى ذلك على البخارى و مسلم أكثر مما كانوا يعتمدون على كتب أسماء الرجال .

كان الشيخ أبو الحسن المقدسى يقول فى الرجل الذى يخرج عنه فى الصحيح: هذا جاز القنطرة يعنى بذلك إنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه (٢) .

وبعد هذا لم نلتفت إلى ما فهم الأستاذ سزكين عن الحديث المعلق فى البخارى لأنه مبنى على فهم خاطىء ، لا شك أن الامام البخارى أخرج فى كتابه جملة من التعاليق عددها (١٣٤١) حديثاً ، و أكثرها مكرر ، يخرج فى الكتاب أصول متونه ، و ليس فيه من المتون التى لم تخرج فى الكتاب و لو من طريق آخر إلا مائة و ستون حديثاً ، و قد أفردها الحافظ فى كتاب مفرد لطيف متصلة

---

(١) مقدمة لامع الدرارى ٩٤ .

(٢) مقدمة فتح البارى ٤٦٩ تعليق حققه أحد الأفاضل وهو فى طريق الطبع الآن .

الأسانيد إلى من علق عنـــه و سماه تلفيق التعليق و المراد بالتعليق ما حذف من مبتـــدأ اسناده فأكثر و لو إلى آخر الاسناد و تارة يجزم به كقال و تارة لا يجزم به كيذكر .

ثم إن المقصود من هذا التصنيف بالذات هو الأحاديث الصحيحة المسندة و هى التى ترجم لها ، و المذكور بالعرض و التبع الآثار الموقوفة و الأحاديث المعلقة و الآيات الكريمة .

قد ألف كثير من العلماء فى هذا النوع مؤلفات و يستغنون بالنسبة إلى مخرجيها عن ذكر الاسناد كما فعله البغوى فى المصابيح والشيخ ولى الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الله الخطيب فى « المشكاة » و قال فى أوله : إنى إذا نسبت الحديث إليهم - أى الأئمة المتقنين البخارى ومسلم وغيرهما المتقدم ذكرهم - كأنى اسندت الحديث إلى النبى ﷺ لأنهم قد فرغوا منه و أغنونا عنه .

فها أنت ترى أن الامام البخارى لم يقتصر فى التحرى و التثبت فى أخذ الحديث وإما أن يكون هذا الفهم الخاطىء الأستاذ سزكين والمشى وراء المستشرقين عن عدم اطلاع و معرفة فيلزمه وهذا عجيب لأنه ممن تصدى لكتابة تاريخ و نقد كتب السنة و رجال الحديث .

و إما أن يكون بمعرفة فيلزمه محاولة هدم السنة تماماً ، و لا ثالث لهما واكتفى بهذا وهنا أمثلة كثيرة مثل ذلك من المثقفين المسلمين فصار هذا الموضوع مهماً للغاية فى هذا العصر الراهن و الله ولى الحق و هو يهدى السبيل .



نظرة خاطفة على موضوع « الاسلام و المستشرقون »

للشيخ أبي الليث الندوى الاصلاحى
أمير الجماعة الاسلامية بالهند

الحمد لله الذى علم الانسان ما لم يعلم، والصلوة والسلام على من قال « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها » وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد ! لحضرة الرئيس وإخوتى الأكارم :

إن انعقاد ندوة علمية عالمية على موضوع « الاسلام والمستشرقون » فى ساحة مجمع دار المصنفين واشتراك عدد كبير فيها من ممثلى المجامع العلمية فى الهند وخارجها من العالم الاسلامى و رجال البحوث الاسلامية والشخصيات البا زة منهم من شتى أنحاء العالم رمز واضح على أن هذا الموضوع سينال حقه موفوراً، و سيحظى بكل عناية و اهتمام لما له من أهمية ورزانة ، كما أنه من الناحية الدينية علامة بارزة على نهضة علمية حديثة نشأت بين أظهر المسلمين فى الهند وخارجها من البلاد الاسلامية وكان من الممكن أن يتم عقد ندوة علمية مثلها فى أية بقعة من العالم الاسلامى ولكن بلادنا الهند وخاصة مجمع دار المصنفين الذى يرأسها أخونا الفاضل الداعية الاسلامى الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى ، كان أحق نظراً إلى نشاطاته العلمية أن يسعى لعقد هذه الندوة وذلك لأن هذه الدار و خدماتها العلمية فى مجال نشر العلوم الاسلامية واضحة وضح النهار ، ومن مزايا هذه الدار أنها قدمت إلى العالم هدايا علمية غالية فى صورة كتب قيمة يجدر منها بالذكر . « سيرة النبى » و « الفاروق »

و « سيرة الصحابة » و « سيرة عائشة » و « أرض القرآن » و « مذهب و ساتنس » و « النقـــد على التمدن الاسلامى » و « سلسلة مقالات شبلى » و « الجهاد » و هذا كله تراث علمى مشترك للعالم الاسلامى . و بعض الكتب منها ككتاب سيرة النبى للعلامة شبلى النعمانى و لتلميـــذه الأستاذ السيد سليمان الندوى رحمهما الله لا يوجد له حتى الآن نظير و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان من مقتضيات هذه الندوة أن أقدم بين أيديكم مقالة علمية على موضوع من مواضيع الندوة مزودة بالبراهين والحجج ولكن أنا متأسف إذ لم أنجح فى ذلك ، لأن أشغالى المتنوعة لم تتح لى فرصة لانجاز هذا العمل ، و لكن مع هذا كله أريد أن أقدم بين أيديكم شيئا من انطباعاتى عن المستشرقين وأعمالهم فيما يلى . و ما هى إلا نظرة خاطفة على الموضوع .

أعمال المستشرقين و أهدافهم :

لا شك أنه يستحق التقدير كل ما أظهرت أوربا فى فترة القرون الماضية من ذوق و رغبة فى دراسات العلوم الاسلامية وبذلت من الجهود لطبع بعض الكتب القديمة و نشرها من كتب الأدب و السيرة و العلوم المختلفة . و التى كانت أحق أن نعتنى بها نحن المسلمون و لكن اغفالنا عنها جعلتها محصورة فى زوايا المكتبات الشهيرة فى العالم مختفية عن أنظار عامة المثقفين و بعيدة عن متناولهم لجهودهم هذه تستحق الشكر لأنه واجب خلقى تجاه كل من يقوم بانجاز عمل رزين و لكن مع هذا هناك عدة نواح أخرى لا بد أن نجعلها أمام أعيننا :

أولا : إنى أرى هذه الجهود لم تأت طلبا للحق و حرصاً على غاية سامية . بل جاءت لسد حاجة احتاجت إليه أوربا بعد أن نشأت فيها نهضة جديدة . و خضع لسلطانها السياسى معظم المعمورة ، و أصبح علمها يرفرف على الشرق ، فشعرت

بحاجة شديدة إلى الاطلاع على أوضاع الشرق و أفكاره ، و هنا تقدم المستشرقو
لسد هذه الحاجة و أحرزوا نجاحا ، حتى إن الذين سحرت أعينهم بلمعان الحضا
الغربية بدأوا يتوجهون إلى الغرب لاكمال الدراسات العالمية للعلوم الاسلامية ، و
برز هذا الاتجاه فى حين لم تكن أوربا معترفة بالتصور الاسلامى للوحى ولا مؤ
بنبوة محمد ﷺ و لكن مع هذا كله نجح المستشرقون فى مساعيهم إلى حد ـ
أصبحوا سنداً واحتلوا مكانة الأستاذية نتيجة للهزيمة الذهنية للمسلمين فى المجال السيا
تجاه أوربا و هى كانت لهم أشد خطراً من الهزيمة الحربية .

التهم الكاذبة :

و الأمر الثانى : الذى أريد أن ألفت أنظاركم إليه هو أنه ليس لأحد أ
يغفل عن ذلك الاتجاه العـدائى الذى نشأ فيهم من أجل الحروب الصليبية ، ا
كثيراً من المستشرقين مع علو مكانتهم العلمية لم يستطيعوا أن يرتفعوا عن هـ
الاتجاه ليؤدوا ما يجب عليهم نحو الحق بعد معرفتهم إياه إلا عدداً قليلا منهم ي
على الأنامل ، و من أجل ذلك نرى معظمهم يسعون فى كتاباتهم بصدد الاسا
و رسوله ﷺ إلى نشر قصص كاذبة ملفقة كأنها حقيقة ثابتة . و هنا لا يخفى ء
أحد أن تصور التوحيد فى الاسلام بارز جداً لا يوجد له نظير فى أى دين آخر
و لكن مع هذا بذل هؤلاء المستشرقون جهوداً لاقناع العالم ، بأن الاسلام شك
جديد لدين الوثنية ، و أن محمداً ﷺ نصب تمثاله الذهبى فى الكعبة المكرمة ب
ما أخرج منها التماثيل القديمة .

كذلك منهم من يصف كيفية نزول الوحى بداء الصرع لاقناع الناس بـ
ﷺ لم ينزل عليه وحى و لا رسالة من السماء و كان ﷺ مريضاً بداء الصرع

و کان تعود أن یقول للناس بعد إفاقة من نوبة عصبية تصيبه .. .. .. أنه كان في حالة نزول الوحی ثم کان يتلو عليهم آيات من عنـــد نفسه . استغفر الله من هذا الهذيان .

كذلك كان منهم من قام بوضع قصة كاذبة أخرى وهی أنه ﷺ كان عنده عديد من الحمائم قد رباها و علمها فكانت هذه الحمائم تأتی و تجلس علی کتفه إزاء أذنه ، فكان ﷺ يقول للناس : هذه الحمامة التی رأيتموها الآن جالسة علی کتفی لم تکن طائرة . و إنما هو جبرئيل عليه السلام جاءنی برسالة من الله .

كذلك منهم هؤلاء الذين يقولون : إن الدين الذی جاء به محمد ﷺ لايمت بصلة إلى وحی السماء و إنما هو مأخوذ من تعاليم بحيرة الراهب الذی اجتمع به محمد ﷺ خلال سفره إلى الشام ، من جراء ذلك تقول فئة منهم : إن الاسلام ليس بدين مستقل و إنما هو فرع جنوبی للمسيحية .

ولذلك هناك منهم من بذل جهوداً جبارة لاقناع العالم بأن الاسلام لم ينتشر فی العالم من أجل تعاليمه الحسنة و مبادئه السـامية ، وإنما تم انتشاره بقوة السيف وحده ، حتى بعضهم استدل مؤخراً بقول النبی ﷺ « نصرت بالرعب » علی أن الاسلام « دين إرهابی » .

كذلك منهم أولئك الذين استخدموا قوة أقلامهم ليثبتوا أن الشريعـــة الاسلامية هی ليست بشريعة ربانية بل فيها ما هو مأخوذ من القوانين الرومية و ما هو منقول من شريعة حمورابی .

كذلك إذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً عن تاريخ الاسلام والمسلمين فلا يضيعون فرصة لالصاق التهم بالمسلمين ، فانهم أظهروا جرأة فائقة فی رمی المسلمين باحراق

مكتبتين شهيرتين فى الاسكندرية وبغداد، رحم الله حجة الاسلام شبلى النعمانى وأكرم مثواه، فانه نفى هذه الأكاذيب و التهم بالحجج القاطعة المسكتة و رد كيد الاعداء إلى نحورهم فى كتابه سيرة النبى والنقد على التمدن الاسلامى وغيرهما من الكتب.

هذه هى نبـــذة من افتراءات المستشرقين و دسائسهم و قد أجاب علماء الاسلام على هذه التهم جواباً شافياً بالدلائل الساطعة و البراهين النيرة و كان من ردود فعل هذه الاجراءات الجوابية - أن توجه بعض المستشرقين إلى مراجعة وجهة نظرهم مجتنبين بعض الشيء اتجاه سلفهم، و إلى اختيار أسلوب أحسن بكل دقة و حكمة مما كانوا يمارسونه فى كتاباتهم، دون أن يغفلوا عن هدفهم مثلا، نتيجة لذلك تقدم بعض المستشرقين أمام الناس فى زى العدل و الانصاف و شنوا هجوما على السيرة الطيبـــة باستخدام مصطلحات علم النفس و العلوم الأخرى ليثبتوا أن الرسول ﷺ صرف مساعيه فى أول الأمر للسيطرة و التغلب على القوة الجنسية و لكنـــه فشل و لم يكن النجاح حليفه، حتى ظهرت نتائجه النهائية فى صورة تعدد الزوجات.

هذه هى نبذة من نشاطات المستشرقين عن الاسلام و المسلمين فانهم سعوا سعياً متواصلا فى المجال الأدبى و التاريخى و فى مجال السيرة أيضاً لاثارة الشبهات حول الاسلام ومبادئه وحول شخصية الرسول ﷺ معلنين أنها بحوث علمية وتاريخية و أدبية متسمة بسمات الحرية الفكرية و الذهنية.

و هذه هى انطباعاتى عن المستشرقين و أعمالهم و جهودهم ذكرتها لـكم بالاختصار. و انطلاقا منهم أريد أن أقول:

الأول - الأمر المهم الذى أريد أن استرعى انتباهكم إليه، هو أن المستشرقين ماداموا يحتلون مكانة الأستاذية، ومادامو يعتبرون سنداً ومرجعاً للعلوم الاسلامية

وما دام الناس يتوجهون إليهم لفهم الاسلام، يكون الباب مفتوحا لدخول الشبهات فى المجتمع الاسلامى . ولكن مع ذلك لا ينبغى أن نغفل عما يأتى به المستشرقون من إنتاجات علمية، فان الاغفال عنها يكون أشد خطراً لنا كما يمكن أن نكون محرومين عن بعض الكتب القيمة فلا بد لأصحاب البصيرة من علمائنا أن يكونوا دائماً على حذر ويقظة من انتاجاتهم بالاطلاع على الكتب الصادرة من قلمهم فان هذه اليقظة و الاطلاع يجعل العالم الاسلامى أن يعرف ، أين وكيف تبذل الجهود للاساءة إلى سمعة الاسلام والمسلمين، و عليهم أن لا يتركوا هذه الجهود تعمل عملها السئ فى المسلمين عامة و الشباب و الجيل الجديد منهم خاصة و عامة المثقفين من غير المسلمين الذين يريدون الاطلاع على الاسلام و السيرة النبوية وجل اعتمادهم فى ذلك على بحوث هؤلاء المستشرقين و كتبهم بل يجب عليهم بجانب هـذا الاطلاع و اليقظة إبطال افتراءات المستشرقين ودسائسهم بالحجج والدلائل حتى يتبين الحق من الباطل ويتميز السمين من الغث ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

ثانياً : إن غايتنا هذه تملى علينـا أن نبذل مساعينا بجانب هذا العمل فى إعداد كتب قيمة عن الاسلام و تعاليمه و عن السيرة النبوية حسب ما يقتضيه الظروف الراهنة على المستوى العلمى و التحقيق . و من الضرورى أن تكون هذه الكتب فى أسلوبها و موادها أرفع و أعلى من مؤلفات هؤلاء المستشرقين ، أو لا يكون أدنى منها عـلى الأقل . ليكون الناس فى غنى عنها و يجدوا لها بديلا عنها خيراً منهـا بسهولة .

و أرى أن هذه مسئولية دينية تاريخية تقع على العالم الاسلامى كله بما فيه من المعاهد و العلماء و أما فى الهند فأرى أن مجمع دار المصنفين هو أحق بغيره لانجاز هذا العمل فانه عمل يتفق مع هدفه .

ثالثاً : الأمر الذی نستهدفه یتقاضی منا أن لانکتفی بالرد علی التهم الموجهة إلینا من قبل أعدائنا أو بإعداد کتب قیمة عن الاسلام بل ینبغی أن نسعی لابراز نموذج حی صادق للاسلام علی المستوی الفردی و الاجتماعی - فی مجالات الحیاة حسب المستطاع و الظروف - فانه سبیل أنفع لاحباط کید الاعداء و إبراز القیم الاسلامیة و محاسنه و مزایاه فی واقع الحیاة - کذلك هذا هو طریق أشد تأثیراً و أوقع فی القلوب فی إقناع الناس بأن رسولنا محمداً ﷺ هو رسول البشریة جمعاء و أن الله بعثه رحمة لجمیع الناس و هادیاً و سراجاً منیرا و أن الدین الذی جاء به هو أکمل الدیانات کلها و هو الطریق الوحید لحل جمیع الازمات و المشاکل التی یواجهها المجتمع البشری فی هذه الأیام . ولافوز ولا نجاة إلا باتباع تعالیم الاسلام وهدی نبینا ﷺ .

و ختاما أوجه شکری و امتنانی إلی صدیقی الحمیم الأمین العام لدار المصنفین و رئیس التحریر لمجلة معارف « السید صباح الدین عبد الرحمن » الذی وجه إلی الدعوة لحضور هذا الحفل ، و بذلك أتاح لی الفرصة أن أستفید من هذه الندوة العلمیة ، وأتشرف بزیارة العلماء الأفاضل ، بارك الله فی جهوده و نرجو منه تعالی التوفیق و السداد و آخر دعوانا الحمد لله رب العالمین .



العالم الاسلامى :

على هامش الأحداث

العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى (رحمه الله)

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
رئيس كلية اللغة العربية بدار العلوم ندوة العلماء

لقد فقد العالم الاسلامى فى يوم الاثنين ١/ شعبان ١٤٠٢ھ علما من أعلام الاسلام وعالماً بعلوم السنة من الطراز الأول وهو سماحة العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى الهندى ثم المدنى ، هاجر من الهند إلى المدينـــة المنورة قبل وفاته بسنوات ونال الجنسية السعودية هناك فاستوطن مدينة الرسول ﷺ و كانت إقامته فى المدينة المنورة على صاحبها ألف ألف تحية وتسليم ، إقامة مؤمن مهاجر إلى الله منقطع إلى طاعته وعبادته ، وقد أثبت بسلوكه وبمنهج حياته أن هجرته كانت بمعنى كلمة الهجرة الدينية فكان يهتم بكافة الآداب المشروعة للمسلم المقيم فى مدينة الرسول ﷺ و بحياة الرجل المتعبد لله تعالى المتبتل إليه . أما ما كان يتوفر من أوقاته بعد أداء واجبات العبادة وآداب المسلم المهاجر إلى الحرم النبوى الشريف فكان يبذله فى خدمة علوم الشريعة الاسلامية و خاصة علم الحديث الشريف الذى كان قد بذل كل حياته من شبابه إلى شيخوخته فى الاشتغال به ، تدريساً و تأليفاً و دراسة و تحقيقاً فقد صدرت له عدة شروح لكتب الحديث وعدة مؤلفات فى فنون ذات الاتصال بالحديث وصدرت له مؤلفات فى تربية النفوس على الأخلاق الدينية السنية وصلاح الباطن ، و قد عمت هذه الكتب فى القراء و نالت قبولا عاماً و رواجاً كبيراً فى الهنـــد

و باكستان و فی أقطار من العام الاسلامی ، كانت شخصية العالم الربانی علامة علم الحديث الكبير الشيخ محمد زكريا من طراز قل نظيره فی هذا العهد الأخير ، فقد كانت شخصية جامعة بين خصائص علمية و دينية مختلفة و جوانب من العلم و العمل و كان ذلك سبب صيته البعيد و كسبه لمحبة أعظم عدد من المسلمين فی شبه القارة الهندية و خارجها . و سبب اتصالهم الواسع به تقديراً لفضله و اقتباساً من علمه واستفادة من تربيته ، فحيثما كان يقيم أو ينزل كان المسلمون علماؤهم وعامتهم يتجمعون حوله و ينزلون ضيوفاً عليه و هو يقربهم ، و يربی منهم من يريد منه التربية ، فكان مورداً ثاراً فياضاً من العلم و الدين .

أربی سماحة العلامة المرحوم على الثمانين فسنحت للمسلمين فرصة واسعة للاستفادة منه ، لذلك نجد عدد العلماء المتلمذين عليه و المستفيدين بعلمه كبيراً جداً ، هذا بالاضافة إلى ذلك العدد الضخم من عامة المسلمين الذين نالوا فيضاً من تربيته الدينية الكريمة ، و كان منظر كثرة القاصدين إليه و المستفدين من تربيته الدينية الكريمة يتجلى فی شهر رمضان المبارك بصورة خاصة حيث كان سماحة المرحوم يعتكف فی مسجده فی سهارنفور و ينزل عليه تلاميذه و المحبون له و الطالبون للاستفادة الدينية منه ضيوفاً عليه يقضون معه أيام رمضان و لياليه ، فيكون منظراً دينياً خلاباً محركاً للنفس و منعشاً للروح قلما كان يوجد له نظير فی العالم كله فی كثرة المهتمين باحسان الصلاة و الصيام و التلاوة و ذكر الله فی مكان واحد إلا الحرمين الشريفين ، فكم من المسلمين الغافلين عن دينهم يزورون هذا المكان التربوی الدينی العظيم ليوم أو يومين فيخلب المنظر لبه و يصبح قلبه مشدوداً به فما يغادر هذا المكان إلا و قد صلحت حاله و خشع قلبه لذكر الله .

لقد كان سماحة الشيخ الكاندهلوی بركة زمانه و حجة عصره أحبه الناس فی

حياته و حزنوا على وفاته فى نطاق كبير جداً و شعروا لوفاته بحرمانهم من مورد
دينى و علمى فياض يصعب أن ينالوا بدله فى المستقبل القريب .

لقد كان المستفيدون بسماحة العلامة المرحوم يقصدون إليه فى حياته إلى كل
مكان ينزل أو يقيم فيه ويتهافتون عليه لقاءاً واستفادة وبذلك كانوا يغذون عقولهم
و أرواحهم بالغذاء العلمى و الدينى ، و لما انتقل من هذه الحياة الفانية إلى الحياة
الباقية و لحق بالرفيق الأعلى ، صدق عليه ما قاله الشاعر العباسى :

نزعت بك الأحلاس نزع إقامة | و استرجعت نزاعها الأمصار
فاذهب كما ذهبت غوادى مزنة | أثنى عليها السهل و الأوعار

ولد سماحة الشيخ فى أوائل القرن الهجرى الماضى فى كاندهله بلدة بعيدة عن
العاصمة الهندية دهلى بنحو مائة كيلو و قريبة من مدينة سهارنفور بنحو خمسين كيلو
و هى منطقة كثرت فيها مدارس و جامعات إسلامية أهلية و منها جامعة مظاهر
العلوم فى سهارنفور التى كان يدرس فيها والده العالم الجليل الشيخ محمد يحيى فنشأ الشيخ
محمد زكريا و درس فى مظاهر العلوم تحت رعاية والده إلى أن انتقل والده إلى
رحمة الله فاتصل بكبير علماء زمانه الشيخ خليل أحمد السهارنفورى رئيس قسم
الحديث الشريف فى الجامعة و كان مربياً دينياً كبيراً أيضاً و قوى اتصال الشيخ
محمد زكريا بالشيخ خليل أحمد حتى نال ثقته وتقديره و ساعد الشيخ زكريا أستاذه
فى إكماله لشرح « سنن أبى داؤد » باسم « بذل المجهود فى شرح أبى داؤد » فى
مجلدات كثيرة ثم حل محل أستاذه فى رئاسة قسم الحديث فى الجامعة بعد وفاته ،
و نال ثقة مسئولى الجامعة فاختير مشرفا على الجامعة كذلك و لاشتغاله الخاص
بعلم الحديث لقب بشيخ الحديث ولصق باسمه هذا اللقب إلى أن صار بمنزلة الاسم
نفسه فكان يذكر بشيخ الحديث و يعرف به .

لقد كثرت مؤلفات العلامة الشيخ محمد زكريا و أغلبها إما شرح للحديث أو دراسة لعلومه المختلفة أو ما ألفه فى مجالى الدعوة و التربية الدينية ، وقد عظم إقبال المسلمين على قراءة هذه الكتب كلها ، و أغلب كتبه العلمية هى باللغة العربية أما البقية منها و هى كتب التربية الدينية فهى باللغة الأردية .

و أسرة الشيخ محمد زكريا أسرة علمية و دينية فوالده الشيخ محمد يحيى وعمه الشيخ محمد الياس كانا من كبار العلماء الربانيين ، أما الشيخ محمد الياس فهو مؤسس حركة الدعوة و التبليغ فى الهند التى عمت اليوم بلدان العالم كلها و حصلت منها نتائج الصلاح الدينى العظيمة وجده الشيخ محمد إسمعيل أيضاً من كبار علماء عصره ، و لا يزال ميزة العلم و الدين فى أسرته مستدرة ، و قد ترك الشيخ عند وفاته بنات و ابناً واحداً و هو الشيخ محمد طلحة الكاندهلوى و هو عالم و مرب و على آثار والده الجليل المرحوم .

ندعو الله الشيخ المرحوم المغفرة و الرضوان عند الله و لذويه وأسرته الصبر و السلوان و التوفيق بالسير على آثار رجلها العظيم ، والله ولى التوفيق .



الملك خالد بن عبد العزيز فى ذمة الله

قلم التحرير

فى ٢٠ شعبان ١٤٠٢هـ و١٣ يونيو ١٩٨٢م تلقت أسرة ندوة العلماء فى الهند بجميع أقسامها و فروعها نبأ وفاة العاهل السعودى الملك خالد بن عبد العزيز بأسى بالغ و حزن عميق ، و ذلك إثر نوبة قلبية مفاجئة ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

قضى المغفور له الملك الراحل سبع سنوات حافلة فى الاهتمام بقضايا الأمة الاسلامية و بغاية من الهدوء و الصمت ، و قام بدور مهم فى مجال تحقيق التضامن و إيجاد حلول للقضايا الحيوية التى كانت تواجه المسلمين فى فلسطين ، و أفغانستان ، و الفلبين و غيرها من الأقطار الاسلامية ، و لم يأل جهداً فى دعم المشاريع والحركات الاسلامية فى جميع أنحاء العالم ، كما أنه قام بمواجهة حادث احتلال الحرم المكى الشريف فى محرم ١٤٠٠هـ بشجاعة نادرة ، و حزم كبير .

عاش الملك الراحل حياة بسيطة فى تدين كامل وتمسك بذيل النزاهة والورع، مع يقظة تامة لما جرى حول العالم من قضايا ذات أهمية بالغة ، و دراسة واعية للشئون العالمية باتجاهاتها المتعددة ، و لقد تابع فى آخر أيامه العدوان الاسرائيلى الغاشم لجنوب لبنان ، و مأساة اللاجئين التى تصاعدت بعد وفاته إلى آخر نقطة من تدمير القرى والمدن وتقتيل الأبرياء والعزل من الفلسطينيين ، و لعل ذلك كان سبباً فى الاصابة القلبية ، و تحولها إلى نوبة قاتلة .

و قد تمت مبايعة ولى عهده سمو الأمير فهد بن عبد العزيز كعاهل للمملكة العربية السعودية ، ونحن إذ نعزى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز والأسرة الملكية فى الملك الراحل ، ندعو الله سبحـــانه لهم بالتوفيق للقيام بالواجب الكبير الذى يتولونه ، ونهنئ عاهل المملكة العربية السعودية الجديد على المنصب الجليل الذى أكرمه الله به و ولى عهده سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز ، ونرجو الله تعالى أن يفيد الأمة الاسلامية بتجاربهما الطيبة و برؤيتهما العادلة لقضايا المسلمين ، و إيجـاد حل لمشكلات العالم الاسلامى وحماية المقدسات الاسلامية ، ومواجهة الموقف الاسرائيلى الغـــاشم نحو المسجد الأقصى و نواياه السيئة فى الحرمين الشريفين ، و ما يحيط بالمسلمين اليوم من أزمات ومتاعب ، فان المملكة العزيزة لها شرف الريادة والاهتمام بشئون و قضايا العالم الاسلامى كله .

مـــذابح لبنـــان . . . !
من المسئول عنهـــا ؟

لا يخفى على العالم البشرى شرقا وغرباً ما قام به العدو الاسرائيلى و لا يزال فى جنوب وغرب لبنان من تدمير شامل ، وتقتيل كامل خلال الفترة الأخيرة ، وذلك ، لتصفية الوجود الفلسطينى وإنهاء قضيته للابد ، فقد تجاوز عدد القتلى ثلاثين الفا او أكثر حسب التقديرات الاعلامية التى تتابعها الجهات المعنية ، ورغم قرارات مجلس الأمن المتكررة لوضع الحد على العدو ، فى استمرار الضربات الوحشية الجوية والبرية على قرى ومدن اللاجئيسن الفلسطنيين فى لبنان ، يوغل العدو اليهودى فى عمليات القصف والنسف و الدمار و التخريب على أوسع مدى من غير أى مبالاة

بقرارات مجلس الأمن و بردود الفعل التى ظهرت فى العالم كله ضـــد الاعتداءات الخارقة التى يقوم بها .

إن العدو كان فى استعداد تام وتعبئة كاملة للهجوم الوحشى ، وتصفية الوجود الفلسطينى فى جنوب لبنان ، و لكنه كان يترقب الفرصة المناسبة للتحركات العسكرية الوحشية فى هذه المنطقة ، فخطط لتحقيق الغرض المشئوم حادثا سماه محاولة اغتيـال السفير الاسرائيلى « شلومو ارجوف » فى لندن ، ونسبها إلى منظمة التحرير الفلسطينية ورغم أن دوائر التحقيق البريطانى نفت نسبة هذه المحاولة إلى أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية وأسفر الأمر عن دحض هذه الدعوى المزعومة ، لم يمنع العدو عن شن الهجمات الوحشية على مراكز التجمع الفلسطينية فى بيروت وصيدا وصور ومخيمات وقرى اللاجئين فى الجنوب وحول نهر الليطانى وفى برج البراجنة وصابرا والفاكهانى .

فوجئت أحياء الفلسطينيين بهجمات عنيفة لابادات جماعيـــة غاشمة من قبل العدو بحيث لم يوجد لهـا نظير فى تاريخ حروب الابادة و التدمير ، ولقد اعترف الصحفيون الذين زاروا هذه المناطق خلال الاعتداء الاسرائيلى بأن العدوان الاسرائيلى على لبنان اتخذ حجما وأبعاداً لم يسبق لها مثيل ، وقد أثار استنكار العالم بالاجماع ، حتى إن الأوساط السياسية فى أمريكا بدأت تستنكر عمليـات اسرائيـل العدوانية ، وخرق اسرائيل جميع قوانين و آداب السياسة الدولية ، وقرار الأمم المتحدة .

بدراسة جميع هذه الأوضاع العدوانية التى تجرى فى لبنان ، واستنكار الضمير العالمى للمجازر الرهيبة التى تولتها اسرائيل فى لبنان و ما جاورها من أحياء وقرى وتجمعات الفلسطينيين يبدوجليا واضحاً أن اسرائيل لا تعتبر نفسهـا مسئولة عن احترام مبادىء القانون والأخلاق والانسانية ، بل إنها تستطيع أن تمارس كل جريمة منكرة وعملية بشعة لتحقيق مطامعها التوسعية فى العالم العربى الاسلامى ، ولتنفيذ مخططاته فى احتلال

الاراضی العربية والمقدسات الاسلامية والأماكن المقدسة فی الوطن العربی الاسلامی .

اسرائيل لا تتقيد بقرارات الأمم المتحدة و لا تحفل بنداءات و محاولات الأمن و السلام التی تنبعث من الجهات المتعددة فی العالم ، إنها تحارب كل قرار ، و كل نداء ومحاولة يحول دون تحقيق نواياهـــا الخبيثة ، و هی مستمرة فی الابادة و التدمير على أوسع نطاق و آخر مدى من غير هوادة ولا مبالاة بما يوجه إليها العالم من نداء لوقف إطلاق النار .

فما هو السر وراء كل ذلك ؟

يجب أن لا نغفل للحظة واحدة أن اسرائيل فی الواقع هی الوجــه الظاهر الكالح لما تخفيه جميع دول العالم الغربی والمعسكر الشرقی من عداء ضد العالم الاسلامی العربی وخاصة ضد الدول الاسلاميــة التی تملك ثروة هائلة من الذهب الاسود ، و قــد أقامت هذه الدول اسرائيل عميلة لهـا فی إضعاف الدول الاسلامية وسلب تلك النعمة الغالية منها التی يقوم عليها أساسها و هی نعمة العقيدة ، و قد استخدمت لهذا الغرض أكبر وسيلة ـ من جملة وسائلها ـ اسرائيل التی تجد كل دعم وعون مادی وعسكری من قبل هذه الدول المـــادية للقضاء على الوعی الاسلامی ، و إخراج هيبة العقيدة و الشعور الايمانی من القلوب ، و هی تنال منهم كل تشجيع لكل عدوان و احتلال ، و لكل قصف ونسف و إبادة .

و من هنالك فان اسرائيل ليست هی التی تحاوب ضد الدول الاسلامية بالرغم من أسيادها و كبرائها ، بل إنها فی الحقيقة تودی ضريبة الوفاء لدول العالم المـادية باحتلالها فی المسجد الأقصى و المقدسات الاسلامية ، وبنسفها أحياء وقرى ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وبالابادة الجماعية التی تقوم بهـا فی لبنان اليوم ، ولو لا الواقع على ما نقول لما استطاعت إسرائيل أن تتشجع للقيام بـــأی تهديد أوخرق للقوانين

الآداب فضلا عن أن تعبث بدماء وأشلاء الأبرياء فى لبنـــان و أن تقيم مـذابح رهيبة طوال فترات طويلة ، ورغم قرارات واستنكارات ضد ما تقوم به من عمليات بربرية على مرأى من العالم ومسمعه .

إن اسرائيل ليست إلا آلة خاضعة لسطان القوى المادية التى تخطط ضد العالم الاسلامى والمسلمين وضد المقدسات الاسلامية وتأمر اسرائيل بتنفيذ مخططاتها بأبشع شكل و أوحش طريق ، فهى فى الواقع مدفوعة مأمورة ، ليس لها سلطة بذاتهـا و لا حكم بنفسه ، ولا سياسة ذاتية ، و لا شخصية مستقلة ، و إنما القوى المادية و الدول الاستعمارية هى التى تتمثل فى صورة اسرائيل .

لا نستطيع أن نقاوم هذا السرطان الخبيث الذى أصاب جسم الأمة الاسلامية إلا بتفهم الواقـع الاسرائيلى على حقيقتـه ، وإدراك هـــذا السر الذى يكمن وراء عدوان اسرائيل وغزوها واحتلالها ، لا نستطيع أن ندفع عنا اسرائيل وغيرها من الأمراض الفتاكة التى تتسلط علينا عن طريق الأمم المتحـــدة ، أو بالاحتجاجات و الصرخات التى نطلقهـا حينا لآخر ، بل لا بد من العودة إلى واقعنـا الأصيل ، وتاريخنا العظيم ، و قد أعجبنى ما وصفته من العلاج لهذا المرض الخطير كلمة نقلهـا مجلة الوعى الاسلامى « الـكويتية ، فى عددها الأخير ، بعنوان « القدس يستصرخكم » جاء فيها ما يلى :

« تطالعنا الصحف اليومية و النشرات الاخبارية الاذاعيـة بتهديد دولة صهيون « لعنة الله عليهم » بغزو جنوب لبنـان و القضـاء على مراكز الفدائيين و ملاجىء الفلسطينيين .

و لـكى نعلم قوة هذا الهجوم و شدته ننظر إلى مقدار ما حشدته إسرائيل من قوات يهودية على طول حدود لبنان الجنوبية ، و كل الصحف ذكرت مقـدار هذه القوة الـكبيرة .

ثم يعلن اليهود بكل جرأة استعدادهم لغزو جنوب لبنان و مراكز القوات المشتركة ، كأنها تستهزئ و تسخر من طول باعنا فى الجهاد .

إن العرب لو يفهمون ما فى إعلان إسرائيل بغزو جنوب لبنان و تهديدنا بذلك ، لعرفوا ما يتضمنه ذلك من سخرية و استهزاء بالعرب و قواتهم المكدسة إلى أجل غير معلوم .

متى نستيقظ يا عرب ؟ متى تحين الساعة ونضرب الطغاة فى عقر دارهم ؟ متى و متى و متى ،ولن يحدث شئ إلا بالرجوع إلى كتاب الله و سنة نبيه .
عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله و هم كذلك .

و الحديث معناه أنه لا تزال هناك جماعة من الناس منصورين على أعدائهم ما داموا ملتزمين بالحق حتى قرب يوم القيامة ، فهل نكون نحن هؤلاء ؟ ندعو الله بذلك .

و لعله كان من الأفضل بدلا من الاحتجاج و التشجيب على المجزرة التى حدثت فى الحرم الشريف أرض الاسراء و المعراج ، و الشكوى إلى هيئة الأمم و طلب ادانة إسرائيل ، التى يعلمون أنهم و إن حققوا الادانة و ما هم بمحققيها إلا باذن الله ، فلن تستجيب لها إسرائيل أو حليفتها الولايات المتحدة ، و قد كنت أعتقد أن العرب قد استفادوا من طول الخبرة فى هيئة الأمم و مجالس الأمن لدورهم البارز فى طلبات إدانة اسرائيل و توقيع العقوبات عليها بسبب جرائمها المتعددة على العراق و سوريا و لبنان و داخل فلسطين نفسها ، و إسرائيل فى كل هذا « واضعة فى بطنها بطيخة صيفى » و لا تهمها الادانات و لا قرارات مجلس الأمن لأنها معتمدة على حق الفيتو لأمها الولايات المتحدة .

الأفضل من ذلك كله ، بل الأفضل من إعلان الاضراب تضامنا مع الشعب الفلسطينى فى يوم الاربعاء ، هو أن نعود إلى حظيرة الايمان ، و نوحد الصفوف و نقضى على الخلافات الداخلية و ندعو إلى حمل السلاح و الجهاد فى سبيل الله و نعلن الجهاد المقدس و الحرب على عدو المسلمين و عدو الله من الازل البعيد ، و علينا الاعتماد على الله خير العماد ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا و ما فيها » .

كم فرحت عندما سمعت أن العرب و المسلمين يساندون الشعب الفلسطينى و يعلنون التضامن معه ، و لكن سعادتى و فرحتى لم تدم و لم تلبث ، كأنها وميض برق و زال عندما سمعت أن ذلك سوف يكون عن طريق الاضراب لمدة يوم واحد .

و كان من الأجدر بالعرب بدلا من أن يمر ذلك اليوم بلا فائدة ، أن يجلسوا بعضهم مع بعض ويتشاوروا و يتباحثوا فى كيفية رد الاعتداء الصهيونى الغاشم على الحرم الشريف معتمدين على الله و على امكاناتهم الهائلة .

يا شباب العرب إن القدس يستصرخكم و يستغيث بكم - وهو يعلم النتيجة سلفاً متمنياً من الله أن تتغير أحوال المسلمين العرب و يهبوا لنجدته فأغيثوه و انصروه ينصركم الله قبل أن يستفحل خطر اليهود و ينتشر كالسرطان اللدود ، و القدس لم يقطع فيكم الأمل فما زلتم من جيشه و لحمه و دمه ، أم أن الترف و البطر قد غيركم .

إن القدس يصرخ ويستنجد بكم منذ أكثر من ثلاثين عاما وأنتم لا تفعلون شيئا فهل حان وقت الجد و العمل ، أم ما زال هناك مجال لانتظار قرارات هيئة الأمم و مجلس الأمن .

و لا حول و لا قوة إلا بالله .

Phones 49747 42948

Regd No. LW/NP 58

ALBAAS-EL-ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (India)

الكتب التالية :

من مؤلفات سماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى

★ ماذ خسر العالم بانحطاط المسلمين

★ الأركان الأربعة فى الاسلام

★ الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية

★ إذا هبت ريح الايمان

★ روائع إقبال

★ روائع من أدب الدعوة فى القرآن و السيره

★ التفسير السياسى للاسلام

★ رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام (الجزء الأول - الجزء الثانى)

★ الصراع بين الايمان و المادية

أطلبوها فى الهند

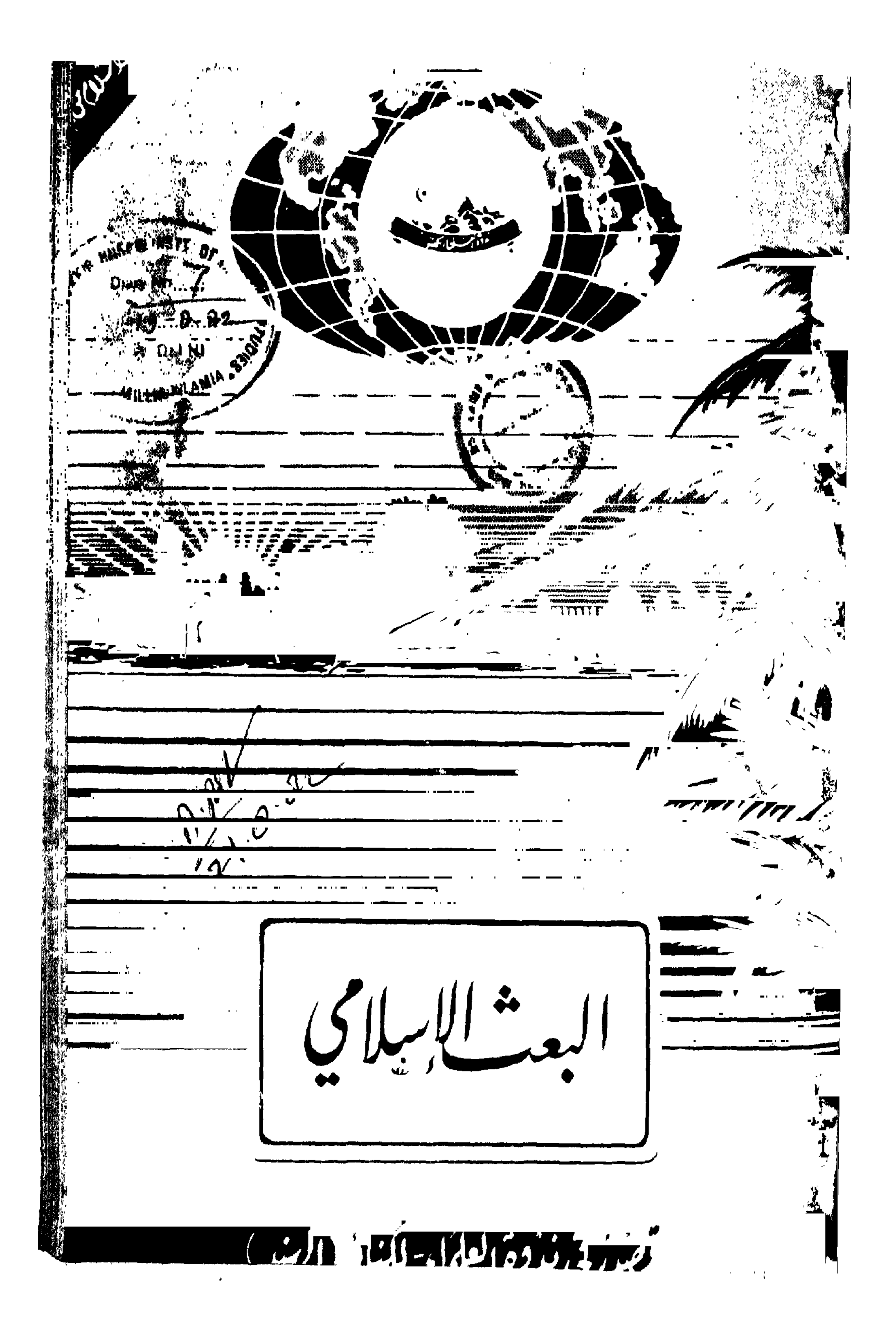
من مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ الهند

و فى العالم العربى

من دار القلم شارع السور ص . ب ٢٠١٤٦ الكويت

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير: سعيد الأعظمى



البعث الإسلامي

في هذا العدد

★ الافتتاحية

إلى متى نعيش تحت مظلات الخوف و الظلم ؟

قضية الغزو اليهودي للبنان تجاوزت جميع حدود القياس وتخطت مقاييس العقل و الشرعية و القانون كلها، وظل العالم كله من الشرق إلى الغرب يشاهد عمليات الشعب الاسرائيلي من القصف والنسف والدمار والتحريق والعبث بالانسان والسخرية بالقيم والأقدار، بشيء كثير من الدهشة والاستنكار، و قد تصدى أكبر مؤسسة سياسية أممية «هيئة الأمم المتحدة» لا يقاف زحف الجيش و الاحتلال، و صدر قرار مجلس الأمن لوضع الحد على هذه الجريمة النكراء و لكن دون جدوى.

إسرائيل مصممة على تنفيذ مخططاتها [illegible] في لبنان و فلسطين [illegible]

[illegible]

فی میزان الکرامة و الاباء، وما بخلوا بأغلی متاعهم فی ساحة الشرف و الشموخ !

حقاً، تغیر الوضع الیوم رأساً علی عقب وحلت محل الدوافع العملیة والروح الفدائیة ،کلمات رنانة ، و ألفاظ جمیلة لمصطلحات حـدیثة تتضمن معانی الاستنکار و التهدید وخلع ألقاب اللامن و العار والوقاحة و النذالة علی العدو الذی لا یبالی بأي قرار و لا استنکار ، و لا یقیم للشتائم و التهدیدات أی وزن بل إنه منهمك فی جدیة تامة فی تحقیق أحلامه من غیر هوادة ولا رحمة ، ورغم موجات الاستیاء التی تعم ضده فی جمیع أنحاء العالم .

و هنا . . تساؤلات کثیرة تثیرها عملیات العدو المستمرة ضـد المسلمین من الفدائیین و اللاجئین و المدنیین ، فی لبنان . . . . ؟

لماذا تتخاذل الدول العربیة أمام کل ذلك وتتظاهر بمواقف متناقضة ؟ !

لماذا تتساقط العزائم وتسکت أصوات الجهاد ضد العدو فی هذه المناسبة ؟ ؟ !

لماذا تکتفی الجامعة العربیة باصدار قرارات الاستنکار دون استخدام حقهـا فی صد الغزو ؟ ؟

و لماذا دول المواجهة تحتمل کل ضیم وخسف .

و لماذا دول الحلفاء تؤثر السلامة علی دعم المقاومة المسلحة وتزوید المسلمین بالسلاح والعتاد ؟

هذه و أمثالها من تسأولات أخری عدیدة تشغل بال کل انسان .

و لکن الاجابة علی جمیع هذه الأسئلة و ما أشبهها لیست بصعبة إذا درسنا الوضع عبر الحقائق التاریخیة الواسعة وفی ضوء النفسیة التی تعیش الأمة الیهودیة منذ أن کتب الله لها الجلاء ، إنها بعد استیلائها علی المسیرة السیاسیة العالمیة تصدت لأداء ذلك الدور المعادی للأمة الاسلامیة الذی یشفی غیظ قلوب أهلها وزعمائها ، ونضع

لأخذ الثأر من الأمة العربية والفلسطينية التى كانت هدفها المنشود منذ ذلك العهد البعيد ، وبمجرد السيطرة اليهودية على الساحة السياسية العالمية و على الولايات المتحدة بوجه خاص تسنى للصهاينة و الصليبيين أن يخططوا للاحتلال فى فلسطين و القدس و المقدسات الاسلامية مهما كلف ذلك من ثمن غال ، و المسرحية مستمرة منذ مدة طويلة تقام على جثث و أشلاء الأمة العربية ، و على مقدسات الاسلام و المسجد الأقصى ، و كلها مهددة بالهدم و الضياع - و الله غالب على أمره - إلا أن الأمة الاسلامية اليوم لا تكاد تنجح - فيما يبدو - فى إنقاذ وطنها ومقدساتها ، بل بالعكس من ذلك فانها تنسحب من الجولان ، و لبنان و الضفة الغربية و من الأجزاء المهمة الأخرى التى لها قيمتها الاستراتيجية الكبيرة .

الدول العربية ترجو من الولايات المتحدة غربا و من الاتحاد السوفياتى شرقا أن تنال نجدة فى القضية فاذا بالولايات المتحدة تسحقها سحقاً بدعم إسرائيل بالأسلحة النووية الحديثة وباستخدام « الفيتو » فى مجلس الأمن ، و إذا بالاتحاد السوفياتى ينسحب عن المعركة و يقف موقف المتفرج و لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة حول القضية بل ويحاول أن يصرف الدول العربية الموالية له عن تأييد الحق و الخوض فى المعركة الحامية ، فلا تلبث الدول الاشتراكية العربية الموالية للاتحاد السوفياتى أن تعلن « وقف إطلاق النار » وتنسحب عن القتال ضد اسرائيل .

و رغم وضوح الحقيقة فيما تضمره دول الغرب و الشرق غير المسلمة حول الغزو الاسرائيلى تتجه آمالنا نحوها و لا نترك أى فرصة إلا و نستجدى فيها العطف والرحمة من الولايات المتحدة التى تساند اسرائيل وتخطط لها الغزو وتشجعها على توسعة مناطق نفوذها فى الوطن الاسلامى ،رغماً من علمنا بهذا الواقع المر ، وبما يقوم به الاتحاد السوفياتى من العبث بأرواحنا ومقدساتنا ، و تحويل أمتنا إلى شعب علمانى ملحد ، و السيطرة على منابع خيراتنا وثرواتنا و مع العلم بغزوه

الظالم لافغانستان و بدوره الوحشى فى الابادة الجماعية فيما نتوقع منه مدداً فى أى مازق وسلاحاً فى أى وقت عصيب .

ليس من المعقول أبداً ، لا من النظرة السياسية ولا من الناحية العقلية والخلقية أن نتوقع من أصدقاء العدو أنهم ينصفوننا ويساعدوننا أو أنهم يقفون منا موقف الحياد وعدم الانحياز ، وقد جربناهم مراراً خلال فترات عصيبة مرت علينا . ونجربهم الآن وسط حومات الغزو الاسرائيلى ، وتضييق الحصار على المسلمين و الفلسطينيين فى لبنان ، فلم نجدهم إلا هتافات فارغة ، لا يهمهم ظروفنا القاسية التى نعيشها من أجل العدو فى بيوتنا و أوطاننا ، بل الواقع الذى لامراء فيه أن هؤلاء الناس إنما يحدثون لنا مشكلات من كل نوع ، و يتمنون أن يشغلونا دائماً بأحداث وعراقيل تدور علينا كالحلقات المفرغة .

يبدو أن دول المسلمين فى العالم العربى و الاسلامى تعيش فى خوف وحذر شديدين من اسرائيل منذ زمن طويل ، و أنها تستعطف منها ، و ترجو منها أن تسمح لها بالعيش فى سلام مقابل ثمن تؤديه لها سواء بالمال أو بالاعتراف بشرعيتها السياسية من غير إعلان ، و من هنا كان الوجه الظاهر لهاتيك الدول الاسلامية تجاه إسرائيل غير الوجه الخافى نحوها الذى يعتبر الأساس الأصيل لكل سلوك أو تعامل أو مواجهة معها ، و هذا أقصى ما فرضناه على أنفسنا فى هذه القضية ، اعترافاً منا بأن اسرائيل إنما تملك من القوة المادية و التأييد السياسى ما لا يقاوم بأى حال .

و هكذا تمكنت إسرائيل من أراضينا و احتلت مقدساتنا و غزت عواصمنا و مدننا ، و حققت نواياها التوسعية و مطامعها الاستعمارية حيثما أرادت و كيفما شاءت ، و لقد قامت بدور خطير فى إبعاد شقة الخلاف و إدامة الحرب بين العراق و إيران ، و كذلك مؤامراتها السيئة ضد الدول العربية الشقيقة و إثارة بعضها على بعض ، كل ذلك مما يطلع عليه الخبير ، المتابع لمجريات الأمور بدقة و تعمق .

يندى الجبين حياء ، و نجد فى القلب وخزاً ، حينما نرى أنه قد بلغ بنا الأمر إلى المدى الذى نستجدى فيه من إسرائيل عطفاً ، و فرصة القمة عيش قليل و متعة حقيرة على حساب الضمير و الايمان ، و على حساب الحياء و الفضيلة و الأخلاق .

ذلك لأن إسرائيل يعطف عليها العم سام و الكرملين ، و لأنها كلب مدلل لواشنطن و موسكو كلتيهما ، و بلغ بهما الدلال و الغطرسة إلى أنها تستمر بالقصف و النسف و إبادة المجتمعات الانسانية و تدمير القرى و المدن العامرة من غير أن تخضع لأوامر سادتها أو تتبع حدوداً قانونية فيما تقوم به .

و كلما تنازل المسلمون عن مسئولياتهم الخلقية و الدينية ، و انساقوا مع المتع الجسدية و الهدوء المادى ، و تحملوا كل ذلك على حساب دينهم و إيمانهم ، و أخلاقهم و فضائلهم ، و على حساب تاريخهم العظيم الزاهر و بصرف النظر عن ذلك الرجل العظيم النبى الكريم ﷺ الذى أخرجهم من الذل و الجور و العسف و الظلم و الطغيان و الظلام إلى العز و العدل و المساواة و الرحمة و النور ، كلما نسوا أو تناسوا هذه المنة العظيمة و تغافلوا عن دينهم و منصبهم و انصرفوا إلى المعاصى ، أحاط بهم مثل ما أحاط بهم اليوم من ذل و خسف ، و خسارة و ظلم و حرب و عدوان ، و غزو و محاصرة و تضييق و إهانة ، و الله سبحانه و تعالى يقول : « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » .

فمن ذا الذى يقوم بمراجعة الحساب حتى يعود الأمر إلى النصاب ! ؟

سعيد الأعظمى

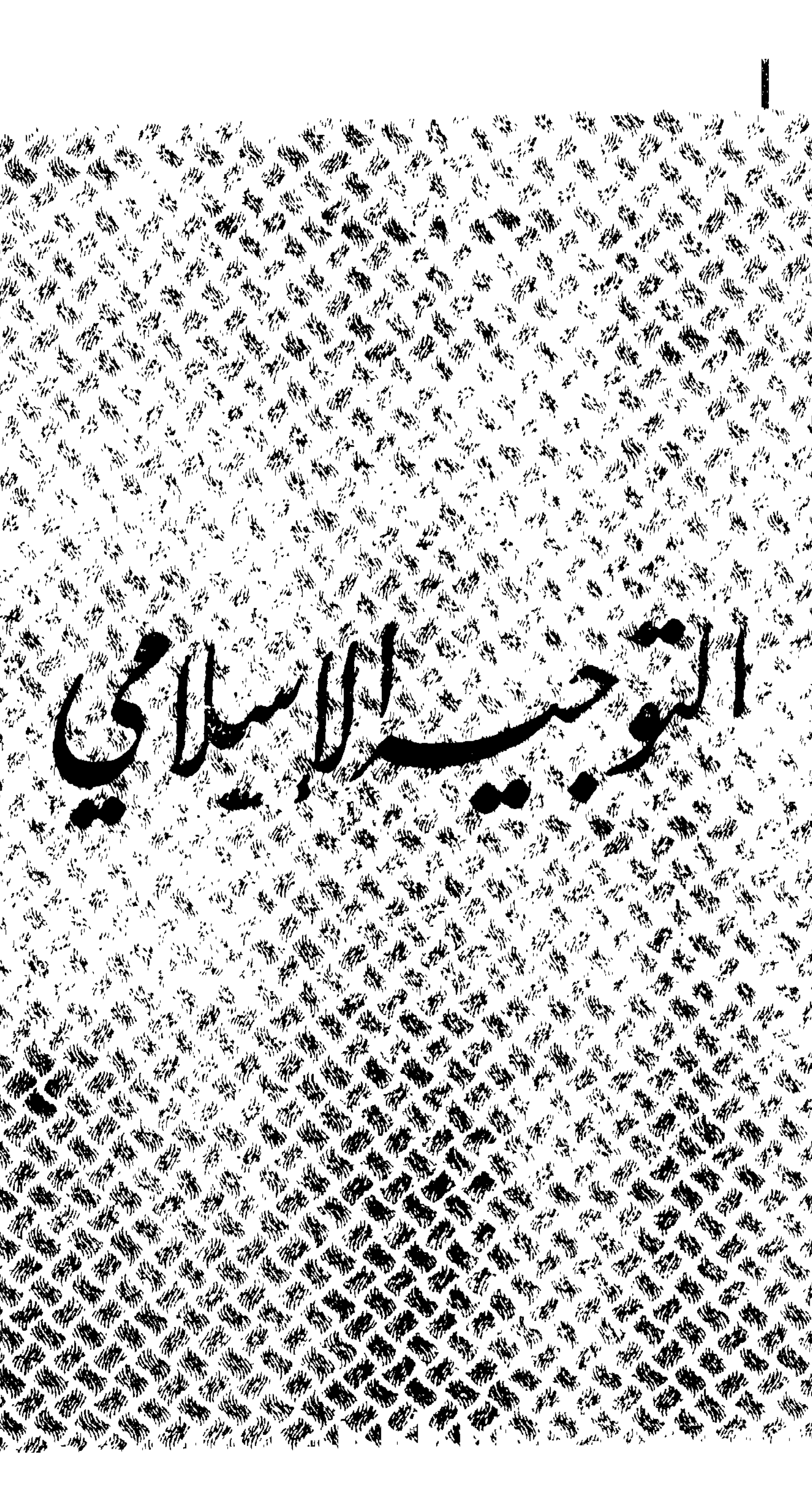
والله لينصرن الله وليه

وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه

لقد كان جيش هرقل كثيفاً بازاء جيش المسلمين ، و أخبر بذلك عمرو بن العاص أبابكر رضى الله عنهما ، فكتب إليه : إنكم لا تغلبون بقلة عددكم و إنما تغلبون بالمعاصى على كثرة عدوكم فاحترسوا منها » و ذلك ما جعل المسلمين غالبين على كل شئ من البر و البحر و الحيوانات من السباع و الجوارح عدا الانسان ، ويزخر التاريخ بقصص انتصاراتهم التى تحوج إلى أسفار ، ذات مرة احتاج المسلمون إلى نصب معسكرهم فى إحدى غابات أفريقيا التى كانت تموج بالسباع و الحشرات السامة ، فوصل عقبة بن عامر قائد الجيش إلى ناحية مع بعض أصحاب رسول الله ﷺ و أعلن قائلا : أيتها الحشرات والسباع نحن أصحاب رسول الله فارحلوا فانا نازلون فن وجدناه بعد قتلناه » و ما هى إلا لمحات قليلة إذ عم هذا الخبر فى أوساط هذه الحيوانات و ارتحلت كلها تحمل أولادها .

« و عن ابن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر ، فانطلق هارباً يلتمس الجيش فاذا هو بالأسد ، فقال ياأبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ كان من أمرى كيت وكيت فأقبل الأسد له بصبصة حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتاً أهوى إليه ، ثم أقبل يمشى إلى جنبه حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد » و لما حان الزحف على المدائن فى حرب الفرس كانت دجلة تعترض الطريق ، فأمر الكفار بنقل السفن منها لكى لا يعبرها المسلمون ، و كانت أيام المطر و دجلة فائضة ، فأمر قائد الجيش سعد الفرسان أن يخوضوا النهر بأفراسهم ، فكانوا يمشون فى النهر مشى تسبح أفراسهم ، و كان سلمان رفيق سعد رضى الله عنهما فى السباحة ، فكان يكرر سعد رضى الله عنه قوله : والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه ، ما لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

[شيخ الحديث العلامة محمد زكريا الكاندهلوى رحمه الله]


التوجيه الإسلامي

نظرات فى سورة يوسف

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

ما أجمل قصة يوسف الجميلة الرائعة التى حكاها الله تعالى كاملة مفردة فى سورة يوسف ، و يوسف كله جمال فى حياته و سيرته ، و فى أخلاقه و تصرفاته ، و فى ضعفه و خموله ، و فى مجده و أبهته ، وفى صبره و احتماله ، و فى رجائه و إيمانه ، و فى وعظه و دعوته ، و فى صفحه و كرمه ، وفى سماحته و سخائه ، و فى بدايته و فى نهايته ، و كل حديث عن يوسف جميل جليل ، حلو عذب .

فيا طيب أخبار و يا حسن منظر

نطالع فى القرآن سورتين جليلتين ، نزلتا لتسلية النبى ﷺ و أصحابه ، الذين كانوا يعيشون فى أقسى الظروف التى جربها فرد أو جماعة فى تاريخ الانسانية الطويل ، والنبوة بالمستقبل المشرق الباهر الذى لا يبلغ إليه قياس الأذكياء ، لا كهانة الكاهنين ولا طموح الطامحين ، احداهما سورة يوسف ، والأخرى سورة القصص . و كلتاهما مكيتان الا أن الأولى تتناول شخص الرسول الكريم ، و تبشر بمستقبله العظيم ، و الأخرى تتناول جماعة المؤمنين ، المضطهدين المعذبين و تنبئ بانتصارها و ازدهارها ، و سيادتها ، و قيادتها ، و قد كان المجتمع الاسلامى المستضعف الممتحن فى مكة فى حاجة ملحة إلى ذلك لتقوية عقيدته و إيمانه ، و ثقته بمركز التوجيه ، و مصدر الاشعاع ، و ثقته بمستقبله المضمون المكفول ، و كان الذين يحاربون هذه الدعوة و زعيمها ، و اتباعه ، و يسومونهم سوء العذاب ، ويتكهنون

بزوالهم السريع وفنائهم القريب ، فى حاجة كذلك إلى هذه النبوة الجريئة المجلجلة ، الهائمة للقلوب ، فسورة يوسف تبدأ بقوله تعالى : « لقد كان فى يوسف و أخوته آيات للسائلين (١) » ، و يتوسط السورة بقوله : « إنه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين (٢) » و تختم السورة بقوله : » لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب وما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ و هدى و رحمة لقوم يؤمنون (٣) » وكلها إشارات لطيفة بل تصريحات مكشوفة بالفتح العظيم الذى يبدد الظلام و ينفى الأوهام ويشق الطريق إلى الأمام ، ويجعل من الشخص الضعيف الطريد المجفو سيد الأمة وملك البلاد وقابض الزمام .

وتبدأ سورة القصص بالاعلان الملكى الصارخ المفزع : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانو يحذرون (٤) » و يتوسط السورة قوله : » و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (٥) » وختم السورة بقوله : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض و لا فساداً و العاقبة للمتقين (٦) » فجاءت السورتان على تفاوت بين زمن نزولهما ـ و لكن كلتيهما نزلتا بمكة ـ بلسما لجروح المسلمين لا يعرف وقعهما فى القلوب ، وسحرهما فى النفوس إلا من عاش فى ذلك المجتمع المخنوق ، المرهق بالجراح و المتاعب ، وفقه القرآن و عرف أسلوبه ، و تذوق معانيــــه ، ولا تزالان مادة سكينة و سلوى ، وثقة و بشارة لكل داعية بجفوه محارب و لكل دعوة مضطهدة مطاردة و لكل جماعة مؤمنة تتألب عليها القوى ويتنمر عليها الأعداء

---

(١) سورة يوسف /٧ . (٢) أيضاً /٩٠ . (٣) أيضاً /١١١ .

(٤) سورة القصص /٥ . (٥) أيضاً /٥٨ . (٦) أيضاً /٨٢ .

ويرمونها عن قوس واحدة؟» وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك و جاءك فى هذه الحق و موعظة و ذكرى للمؤمنين و قل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون (١) »

لقد اجتمع ليوسف شخصياً، ولبنى إسرائيل مجموعة جميع الأسباب والظروف الموجبـة لخيبتهم و إخفاقهم فى كفاح الحياة ، و الخمول و الضياع ، و الفناء و الانطواء و البقاء على وضع ذليل ، فقد بيع يوسف كعبد رقيق ، و اشترى بثمن بخس دراهم معدودة تدل على رخص السلعة ، و هوانهـا فى عين البائع و المشترى ، و دخل فى قصر عزيز مصر عبداً رقيقاً لا يعرف أحد نسبه ، وطيب أرومته ولا كرم معدنه ، ثم اتهم بتهمة خلقية شنيعة كثر عنها الحديث ، و تناولتها الألسن ، و شاعت فى المجتمع ، ودخل السجن متهما لا مدافع عنه ولا مزكى له ، كل ذلك كان كفيلا بتخلفه فى المجتمع ، و بقائه فى غياهب السجون تحيط به هالة الأراجيف و الاشاعات ، و الظنون و الشبهات و الاحتقار ، و الامتهان ، ويزيد فى محنته و بلائه أنه غريب فى مصر لا يتمتع بوطنية و جنسية ولا يتصل بالشعب الحاكم ، و بالأسرة الحاكمة بنسب أو دم ، و هو فرد من أفراد شعب ينظر إليه الشعب المصرى المتمدن الراقى ، المتغطرس ، نظرة هوان و احتقـار ، و لا يرى فرداً من أفراد هذا الشعب المتخلف كفوآ لوظيفـة كبيرة ، فضلا عن السيادة و القيادة ، و تقلد وزارة أو صدارة ، كل ذلك كان كافياً ليجعل مستقبل هـذا الشاب الغريب ، مظلماً بائسا و يختم على حظه و مصيره ختما لا تفضه يد بشر و لا حيلة عقل .

ولكن يوسف قد خرج من كل ذلك خروج السيف من الجلاء ، والابريز

(١) سورة هود/١٢٠-١٢٢

الخالص من النار ، و سطع نجمه و بزغ نوره كطلوع البدر فی اللیلة الظلماء ، وقد ذكر یوسف فی صدقه النبوی ، و فی بلاغته النادرة ، و قد تساءل أخوته الذین فوجئوا برؤیته علی عرش مصر و معرفته بعد جهل طویل ، و قالوا فی دهشة و فزع : أ إنك لأنت یوسف ؟ ، قال : « أنا یوسف و هـذا أخی قد من الله علینا ، إنه من یتق و یصبر فان الله لا یضیع أجر المحسنین (١) » ، إنه هو التقوی و الصبر اللذان قد تجلیا فی یوسف بأروع مظاهرهما و أبدع آیاتهما حتی أصبحت قصة یوسف رمزا للتقوی و الصبر و عنوانا لهما .

و هذه قصة محمد ﷺ و أصحابه ، و قصة أمته ، و قصة الدعاة فی أمته ، فی كل زمان و مكان ، و فی كل جیل و عصر .

وقد اشتملت قصة یوسف علی فصول كثیرة من المحنة و البلاء ، قلما تجتمع فی قصة رجل واحد ، ذلك لیكون درساً و عبرة ، لكل داعیة فی كل محنة ولكل مؤمن فی كل نكبة ، ثم انتهت هذه القصة الجلیلة بفصل رائع و نهایة عظیمة تغمر النفوس ثقة و إیماناً ، و سكینة وحنانا ، وتطمع الطامعین فی رحمة الله ، ولطیف صنعه ، ودقیق حكمته .

إنسان تبتدیء قصته من التعرض لحسد الاخوة و بنی الأب ، و مكیدتهم ، ومعرتهم التی قلما تعرض لها إنسان ، فمن حضانة الوالد الشفیق والرفیق ورعایته إلی ظلام الجب و وحشة الصحراء ، إلی رق القساة الذین یبیعونه بثمن بخس دراهم معدودة ، إلی خدمة عزیز مصر و مكیدة امرأته و مؤامرتها ، إلی التهمة الشنیعة التی هو منها بریئ كبراءة الذئب من دمه ، إلی محنة السجن ، و القالة التی تشیع فی البلد إلی الخروج منه مكرما مبجلا ، مطلوباً مـدعوا إلی تقلد أعظم مركز ،

(١) سورة یوسف /٩٠

و أدقه فى حكومة متمدنة و بلد راق ، إلى احتياج الاخوة الذين جازفوا بحياته ، إلى رفده و بره ، و اعترافهم بجنايتهم و خيانتهم ، إلى الاجتماع بالأخ الشقيق ، والأب الشفيق ، وقرة عين برؤيتهم و الاجتماع بهم بعد فرقة طويلة والاستئناس بهم بعد وحشة طويلة وقرة عينهم كلهم برؤية مجد بيتهم ، وسلطان عشيرتهم ، قصة ذات فصول ، كل فصل آية فى الجمال و الجلال ، و فى الدقة و الكمال ، كل فصل حلقه جميلة محكمة فى سلسلة حوادث ، قدرها العزيز العليم صنع الله الذى أتقن كل شئ .

و تتسم قصة يوسف بأربع خصال سيطرت على حياته كلها ، هى النزاهة و الاستقامة ، وكبر النفس و علو الهمة ، و الحكمة و الفقه ، والانابة والعبودية ، لقد كان يوسف نزيها مستقيماً فى جميع المراحل والتجارب التى مر بها فى حياته ، كان نزيها مستقيما فى قصر العزيز يوم امتحن امتحاناً تزول له الجبال الراسيات ، فقد تهيأله من أسباب الاغراء و الاستهواء — من الجمال والمال والسلطان والشباب و الصحة و الأمن من كل شبهة و تهمة — ما لوتهيأ أقله لأحد لكان كافيا لفتنته ، و قد كان مطلوبا أشد الطلب ، و لكنه تمرد على كل ذلك ، و ثبت على كل ذلك ، و كلمته الخالدة التى تجلى فيها الكرم ، و صفاء المعدن ، و الاعتراف بالاحسان ، و تجلى فيها الايمان بالغيب ، و العلم بسنن الله و نتائج الأعمال ؟ « معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون (١) » ، و كان نزيها مستقيماً فى السجن فى معاملته برفاقه ، و من تولى أمرهم حتى حاز ثقتهم ، واستولى على قلوبهم حتى خاطبوه بقولهم : « يوسف أيها الصديق (٢) » و قالوا : « إنا نراك من المحسنين (٣) » ، و كان نزيها مستقيماً فى ولايته و فى تصرفاته حتى

---

(١) سورة يوسف /٢٣ (٢) أيضاً /٤٦
(٣) أيضاً /٧٨

أحبه أهل البلاد ، و سرى بحديثه الركبان ، فقال له بنو يعقوب الغرباء البعداء : « إنا نراك من المحسنين (١) .

وكان كبير النفس عالى الهمة حين عصى سلطان النفس ، وسلطان الشباب ، و سلطان الجمال ، و سلطان ربة البيت ، و آثر الباقى على الفانى ، و الغيب على الشهود ، و حفظ السيد الغائب فى حرمته ، و فى أعز متاعه ، و كان كبير النفس عالى الهمة حين آثر شقاء السجن على سعادة القصر ، و التعب على أساس الأمانة ، و على الترفه على أساس الخيانة ، و قال : « رب السجن أحب إلى » مما يدعوننى إليه (٢) ، و كان كبير النفس عالى الهمة ، حين جاءته ، الدعوة الكريمة من تلك البلاد ، و صاحب العرش ، رفضها و اعتذر من قبولها فى كبر نفس و علو همة وقال : « ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة التى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم (٣) » ، وكان كبير النفس عالى الهمة حين لم يقبل أن يعيش مدللا مترفها يأكل من فتات مائدة الملك ، فطلب أن يتولى أدق مركز فى حكومة مصر ، وقال فى ثقة بمواهبه التى أكرمه الله بها : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم (٤) وكان كبير النفس عالى الهمة ، وواسع الأناة ، صبورا حين لم يفش سره لاخوته ، حتى جاءت المرحلة التى أذن الله له فيهـــا ، فقال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه إذ أنتم جاهلون (٥) » .

و تجلت حكمته و فقهه فى موعظته البليغة التى واجه بها صاحبيه فى السجن ، و هى من قطع الدعوة الحكيمة ، و الموعظة الحسنة الخالدة التى لا يقدر عليهـا غير الأنبياء فكـأنها قطعة من نفسه ، قبس من جماله ، كلما تأمل فيها عاقل رزق

(١) أيضاً /٧٨ (٢) أيضاً /٣٣ (٣) أيضاً /٥٠
(٤) سورة يوسف /٥٥ . (٥) أيضاً /٨٩ .

سلامة الذوق ، و رقة الشعور ، و صفاء الوجدان ، بهر بجمالها و تناسبها ، جاءه زميلان من أصحاب السجن يحكيان له رؤياهما ، و قد شغلت الرؤيا فكرهما و أفزعتهما ، فليس لهما هم غير هذه الرؤيا ، و قد واجههما يوسف مواجهة مؤسسة على الحكمة البليغة ، و المعرفة العميقة لطبائع الانسان ، و دخائل النفس ، مواجهة تجلت فيها الحكمة ، و الرحمة ، و الرقة ، و الصرامة ، لقد كانا قبل كل شئ فى حاجة إلى العلم ، بأنها لم يخطيئا فى الاختيار ، و أنهما أنما يخاطبان الخبير العليم الذى هو « صاحب الاختصاص » فى هـــذا الموضوع ، و ذلك أول ما يحتاج إليه المريض حين يقصد الطبيب ، والتلميذ حين يختار المعلم ، وكانا فى حاجة إلى أن يعرفا أن حاجتهما ستقضى فى أقرب مدة ، و فى أول فرصة ، و هى حاجة المريض و المنكوب ، و الطالب الصادق ، فجمع بين ذلك يوسف ، و قال مطمئناً مسلياً مؤكداً : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى (١) ، وهكذا اطمأن الرجلان ، و ارتاحا إلى علم يوسف ، و إلى أن غرضهما سيتحقق قريباً .

و عرف يوسف أن آذانهما و قلوبهما قد تفتحت له ، و أنها لا تتفتح فى كل وقت ، أنهما قد تهيئآ لسماع ما يلقى إليهما من قول ، و ما يخاطبهما به من حكمة ، فقد نشطت الآذان ، و رقت القلوب و تفتق الشعور ، فانتهز يوسف هذه الفرصة السانحة الغالية التى ليست إلا كوميض البرق ، صمم على أن يدخل فى هذه الآذان المفتوحة ، و فى هذه القلوب الرقيقة كلمة حكمة ، و دعوة ، هى أهم لهم و أنفع و أجدى من تأويل الأحلام ، و التى ترتبط بها حياتهم ارتباطا أشد و أوثق من ارتباطها بهذه الأحلام ، و لكنه لم يرد ، و هو الحكيم العطوف

(١) أيضاً /٣٧ .

أن يغير على هـذه القلوب و أن يهاجمها مهاجمة عنيفة ، فينغلق الباب المفتوح ، و يجمع القلب الأليف ، فوصل الدعوة بمعرفته التى كان فى حاجة إلى ذكرها صلة رفيقة رقيقة ، و تدرج منها إلى الدعوة إلى التوحيد ، تدرجا لم يثقل على قلب المستمعين ، و لم يشعروا بهذا الانتقال اللطيف ، بل جاء كالماء الزلال السلسال ، الذى لا يستثقله العطشان ، بل يتهافت عليه الانسان الظمآن ، فقال واصلا بقوله : ذلكما مما علمنى ربى : «إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وبالآخرة هم كافرون»(١) و ذلك سر معرفته و سبب كرامته ، ثم قال و قد تهيأ له الجو ، و استعدت له القلوب ، : « و اتبعت ملة آبائى إبراهيم و إسحاق و يعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينـــا و على الناس و لكن أكثر النـــاس لا يشكرون » (٢) ، ثم تقدم قائلا و قد نشطت الآذان و القلوب ، و أساغت السابق و تهيأت للاحق ، : « يا صاحبى السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء اسميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ، أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣) .

و هنا عرف يوسف أن الوجبة الأولى قد تمت ، و أنه ليس من الحكمة أن يزيد فيها و يطيل الكلام و يقف طويلا بينهم و بين ما جاؤا له ، فهذا هو التناسب الذى لا يشعر به إلا الأنبياء و العلماء الربانيون ، و قد جاء فى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان رسول - ﷺ - يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا ، و كان مما أوصى به داعيين من الدعاة أرسلهما إلى اليمن : « يسرا

---

(١) أيضاً /٣٧ . (٢) أيضاً /٣٨ .

(٣) سورة يوسف /٣٩ .

و لا تعسرا ، و بشرا و لا تنفرا » فهنـــالك وقف یوسف و بدأ یؤول لهما أحلامهما ، فقال : « یا صاحبی السجن أما أحد کما فیسقی ربه خمراً و أما الآخر فیصلب فتأ کل الطیر من رأسه قضی الأمر الذی فیه تستفتیان (۱) » ، و بذلك جاءت هذه الموعظة البلیغة نموذجا رائعاً لدعوة الأنبیاء ، ومعجزة باهرة من حکمهم ، و مادة لا تنقطع لأصول الدعوة و حکمتها ، و مناهجها فی کل عصر .

وتجلت إنابته و عبودیته فی جمیع مراحلة فلم یصاف ولم یتبجح ، ولم یرجع الفضل إلی نفسه وقوة مقاومته، فقال و قد استطاع أن یستعصی علی هذا الجو من الاغراء و الاستهواء ، وثبت فیه کالصخرة الصماء : « وإن لا تصرف عنی کیدهن أصب إلیهن و أکن من الجاهلین (۲) » ، و قال حین ثبتت براءته و نزاهته : « و ما أبرئ نفسی إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحـــم ربی أن ربی غفور رحیم (۳) » ، و تجلت هذه الانابة والعبودیة ، والافتقار یوم بلغ إلی قمة مجده ، و أوج سعادته ، و إلی القارئ الکریم تفصیل ذلك :

یتربع یوسف علی أریکة مصر ذات النیل السعید ، و الخصب المزید ، و یتم له الأمر و النهی فیها و یتم له من المجد والعظمة ، ونفوذ الکلمة و بسطة السلطان ، ما یتم لأکبر حاکم و أعظم وال فی الدنیا ، فهو الرجل الذی یخشی ویرجی ، وتأتیه الدنیا راغمة صاغرة ، ثم لا یشغله کل ذلك عن التواضع ، لا یشغله عن ربه وعن معرفة نفسه ، وعن تذکر مصیره ، ولا یذهله عن قیمته وحقیقته ، و لا یذهله عن إیثار الآخرة علی العاجلة ، و الباقیة علی الفانیة و عن إیثار آبائه الفقراء الزاهدین الذین عاشوا فی شظف من العیش ، و فی تقشف من الحیاة علی

---

(۱) أیضاً /٤١ . (۲) أیضاً /۳۳ .
(۳) أیضاً /٥۳ .

الأمراء الباذخين ، و الملوك الجابرين الذين جلسوا على عرش مصر وغير مصر .

لقد تقلد يوسف العزيز أعظم منصب و أكرم مركز فى حكومة مصر المتمدنة الواسعة ليخدم عيال الله ، و ليرفه البلاد و العباد ، و ليؤدى الأمانة إلى أهلها ، لقد فعل يوسف كل ذلك بحكم الضرورة و مقتضى المصلحة الواقعة ، فكان فيه براً تقياً ، أميناً قوياً ، و لكن قلبه لم يتعلق بذلك ، و لكن الملك لم يسترقه و لم يتملك قلبه ، إنه بقى يحن إلى معيشة آبائه الزاهدين ، قائماً بدعوتهم ، محافظاً على أمانتهم ، و لما علا نجمه . و كمل مجده ، و تم إقباله ، فاض لسانه و جنانه بالحمد و الشكر . و الاعتراف ، و الدعاء الأثير الحبيب ، و الأمنية اللـــذيذة العزيزة ، فقال :

« رب قد آتيتنى من الملك و علمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات و الأرض ، أنت وليى فى الدنيـا و الآخرة ، توفنى مسلمـــاً و ألحقنى بالصالحين (١) » .

و هكذا كانت نهاية هذه القصة الجميلة الرائعة ، فكانت خير نهاية لقصة إنسان مؤمن عريق فى الكرم ، و بيت النبوة ، و لانسان عظيم و نبى كريم .

و هذه الخصال الأربع ميراث النبوة ، و طبيعة الأنبياء ، و أفضل ما يتجمل به الدعاة إلى الله ، و خلفاء الأنبياء ، و الربانيون فى كل عصر و جيل ، و هى سلاح الدعوة الماضى ، و كنزها الذى لا ينفد ، و مددها الذى لا ينقطع و مفتاح خزائن الله فى كل عصر و مصر ، و هو المنهاج الذى يجب أن يكون موضوع الدراسة ، و مادة التقليد .

و سيرة محمد - ﷺ - من أشبه السير بسيرة يوسف ، فكلاهما من معدن

(١) سورة يوسف /١٠١ .

كريم ، و أثير حبيب ، و كلاهما حسد و عودى ، و كيد له ، و كلاهما أقصى من وطنه ، و كلاهما لبث مختفياً متوارياً . ذلك فى غيابة الجب ، وهذا فى ظلام الغار ، و كلاهما بلغ ما أراد الله به من الكرامة فى موطن الغربة ، و فى دار الهجرة ، و كلاهما أمد أعداءه الحاسدين الكائدين بالميرة و القوت فى عام المجاعة و كلاهما جاء ، أخوته الحاسدون ، و قالوا له : « تا الله لقد آثرك الله علينا و إن كنا لخاطئين (١) » ، و كلاهما كان جوابه : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو أرحم الراحمين (٢) » ، و هكذا كان سورة يوسف مرآة وضيئة يرى فيها رسول الله - ﷺ - قسمات وجهه المنير ، و ملامح مستقبله الزاهر ، و يقرأ فيها قصته و ما يؤول إليه أمره فى الغد القريب ، كما كانت سورة القصص مرآة صافية يرى فيها الصحابة و المسلمون فى العصر الأول ، و المسلمون الذين يلقون عنتا ، و يواجهون اضطهاداً و تعذيباً ، و سخرة و محاولة القضاء على مقومات شخصيتهم ، و ملامح وجوهم ، و صورة مستقبلهم ، و صدق الله العظيم :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى و لكن تصديق الذى بين يديه و تفصيل كل شئ و هدى و رحمة لقوم يؤمنون (٣) » .



(١) أيضاً /٩١ .
(٢) أيضاً /٩٢ .
(٣) أيضاً /١١١ .

حكام المسلمين .. و التفريط فى الخلافة

د / فاروق عبد السلام

لم ينكب المسلمون فى أمر من أمور حياتهم السياسية منـذ بعثة المصطفى المعصوم عليه أفضل الصلاة و السلام و إلى يومنا هذا بقدر ما نكبوا فى ضياع الخلافـة .

و لم ينجح أعداء المسلمين فى النيل من الاسلام و أهله بقـدر ما نجحوا فى تسديد الضربة بالسعى السافر الفاجر و الدؤوب المستمر و الخسيس الغادر لهـدم عرى الوحدة بين المسلمين و نقض خلافتهم للتسلط عليهم و التمكن منهم على مبدأ ـ فرق تسـد ـ .

و الخلافة رأس الأمر كله . . و الخلافة ببساطة إنما تعنى : وحدة المسلمين تحت رئاسة عامة من أجل حراسة الدين و سياسة الدنيا .

. . تحت أعطافها كان المسلمون أمة واحدة . . تمتـد من المحيط إلى الخليج يرهبون عدو الله و عدوهم !! .

. . و فى غيابها أصبحوا دويلات مبعثرة . . تداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . . فرادى كالغنم الشاردة فى الليلة الشاتية !! .

استمر عطاء الخلافة على مـدى ثلاثة عشر قرنا من الزمان فلا يغض من شأنها أو يبرر إلغاءها شرعاً أو عقلا وقوع بعض التجاوزات كانحراف خليفـة من الخلفاء . .

فقد استمرت الخلافة طوال عهودها الشعلة أو الراية التى يرفعها شوامخ الرجال و يحملها فرسان الاسلام فى سباق التتابع الدائر بينهم و بين أعدائهم من المتربصين لدين الله و رسوله .

. . إذا هرمت أو شاخت خلافة الأمويين قام لها العباسيون !!

. . و إذا وهنت أو ضعفت خلافة العباسيين كان لها الفاطميون !!

. . و إذا فترت أو كلت عزائم العباسيين و الفاطميين قام لها آل عثمان !!

. . و كان الفتح و الخير الذى عاد على المسلمين فى ظل الخلافـة و تحت رايتها يدرأ الشر الذى عاد عليهم فى عهود بعض رجالاتها .

. . و فى غيابها لم تسلم بلاد المسلمين من هذا الشر من جانب حكامهم و الذى أصبح أكثر و أعم و أدهى و أمر و بكل المقاييس و من واقع تجربة نصف قرن مضى على إلغاء الخلافة حتى الآن بل و يزيد . .

. و الخلافة فى أبسط صورها و بلغة العصر : قيـادة موحدة و مسئولة على رأس دولة أكبر و أقوى و أعز ، تجمع العرب و العجم تحت شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله (ﷺ) .

فاذا شاءت المقادير . . و آلت مقاليـد الأمور و زمام الحل و العقـد و الأمر و النهى فى شأنها إلى حاكم ما . . فهل يعقل أن يفرط فيها بالالغاء ؟!

. . حتى و لو كانت العلمانية مذهبه و ملتـه !!

. . حتى و لو كان التحديث و عشق كل ما هو أجنبى دينه و قبلته !!

لا يفكر فى هذا عاقل أبداً .. و لو كان مدمن خمر و زير نساء ؟!

و لا يقدم عليه مسلم أبداً . . و لو كان من هؤلاء المشكوك فى صحة إسلامهم ؟!

. . و لو كان من يهود « الدونمة » . . و لو كان كمال أتاتورك

نفسه ! ! حتى و لو كان الزهری الذی أصابه ، قد أثر على تفكيره و أكل بعض خلايا جهازه العصبي المريض ؟ !

★ إن هان عليه إسلامه - إن صح إسلامه - فكيف تهون عليه طموحاته العسكرية و الدنيوية ؟ !

و العهد بالعسكريين إذا آلت إليهم مقاليد الأمور فى السياسة أن ينشدوا التوسع . .

و العهد بأصحاب التغيير و الثورة على كل قديم و هواة التحديث و التجديد تصدير أفكارهم خارج حدود بلادهم و الانفتاح على غيرهم و ليس التقوقع فى عقر دارهم . . و الكماليون عرفوا طريق الحكم و تسللوا إلى سراديبه تحت شعار « الاتحاد و الترقى » فهل كان الاتحاد فى شرعتهم يعنى انكماشهم داخل حدود بلادهم ؟ ! و هل كانت تركيا فى حد ذاتها ينقصها الاتحاد ؟ !

غاية ما نقصده و نود التنبيه إليه و لا نمل تكرار إعلانه و التركيز عليه . . هو أن إلغاء الخلافة إنما فرض علينا فرضاً . . و لم يكن دور كمال أتاتورك فى ذلك يتعدى دور الخادم المطيع و المنفذ لرغبة و أوامر أسياده من الحلفاء . . تشهد بذلك وثيقة بروتوكول « معاهدة لوزان » المعقودة بين الحلفاء و الدولة التركية عام ١٩٢٣م و التى تتضمن شروطاً أربعة اشتهرت باسم « شروط كرزن » الأربعة (١) و نصها :

أولا : قطع كل صلة بالاسلام .

ثانياً : إلغاء الخلافة .

ثالثاً : إخراج أنصار الخلافة و الاسلام من البلاد .

---

(١) أنور الجندى - العروبة و الاسلام - دار الاعتصام - القاهرة .

رابعاً : إتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

. . و لم يقف كيد أعداء المسلمين و تخطيطهم للنيل من الاسلام و أهله عند هذا الحد ! !

. . و لم تكن نكبة المسلمين فى المهزومين من أبنائهم لتقف هى الأخرى عند حد ! !

★ كان العهد بصراع الرجال على الخلافة وجود المستعد دائما لتحمل مسئوليتها و رفع رايتها بمجرد ظهور الوهن فى صفوف القائمين عليها . .

و كانت لهفة شوائخ الرجال على الفوز بها تدفعهم دفعاً إلى أخذها غلاباً و بحد السيف . .

و جاء يوم أعلن فيه إلغاء الخلافة رسميا من المسئولين فى البلد المسئول عن آخر خلافة إسلامية ! !

و كان غريباً بعدئذ أن تخلو الساحة فمن يتصدى لها ؟ ! و يتقدم لتحمل أعبائها ! ! لقد أدت خلافة آل عثمان دورها و كانت حسناتها تغلب سيئاتها . . و كفاها فخراً نشرها للاسلام فى قلب أوربا و مواصلة زحفها المظفر حتى حاصرت جيوشها أسوار « فيينا » ببركة لا إله إلا الله محمد رسول الله (ﷺ) و كانت كنائس الأعداء لا تجرؤ على دق أجراسها إذا كان الأسطول العثمانى يتجول فى مياه البحر الأبيض المتوسط ! !

و كان مجئ يوم تعجز فيه خلافة آل عثمان عن القدرة على مواصلة العطاء مما يرد على الخاطر و يدخل فى الحسبان كما هى سنة الحياة و كما هو العهد بالدهر و نوائبه ـ و إن كان من العار و مما يندى له الجبين أن تأتى النهاية على هذه

الصورة المهينة و بالأمر من خلفاء النصارى ! ! -

على أية حال كانت النهاية واردة على أى شكل من الأشكال و لكن ما لم يكن وارداً على الخاطر و الغريب بحق هو أن ينتهى دور آل عثمان و يعلن عن إلغاء الخلافة رسمياً فى « أنقره » و لا يظهر بين صفوف المسلمين من يتصدى لتكملة المسيرة فى « بغداد » أو « دمشق » أو « القاهرة » كما كانت العادة ! :

. . و إذا عرف السبب بطل العجب ! !

إن الذين وضعوا و فرضوا شروط كرزن الأربعة كانوا قد خططوا لكل شئ و عملوا حساب كل شئ ! !

★ فى دمشق و بغداد طفحت على الساحة دعوى القومية العرقيـة و العنصرية القبلية بحجة التخلص من بقايا الاستعمار العثمانى على حد قولهم ؟ ! حتى جاء يوم أصبح فيه فيلسوف الأمة العربية و رائدها و موجه سياستها الجديدة القائد الرفيق ميشيل عفلق . . و يا للحسرة ! ! و ألف حسرة ! ! نصرانى الملة ! ! و مثله لا يطـالب و لا يخطر على باله أن يطالب دول المنطقـة بوحدة على أسـاس لا إله إلا الله محمد رسول الله . . و الخلافـة لا تقوم إلا على هـذا الأساس و لو كره الكافرون ؟ !

. . و فى القـاهرة فى أبريل ١٩٢٥ م ظهر كتـاب غريب و عجيب بعنوان ـ الاسلام و أصول الحكم ـ و باسم الشيخ على عبد الرازق أحد القضاة الشرعيين و من خريجى الأزهر الشريف و مما تقوله صفحات الكتـاب السجين هو أن الخلافـة ليست من أصول الدين و لا القضاء و لا تدبير الجيوش و أن أبا بكر أول ملك فى الاسلام و أن فتوح العرب تدخل فى دائرة الاستعمار و أن الخلافة هى أصل كل الشرور و النكبات ! !

و ثبت بالبحث أن الشيخ ليس له من نصيب فى الكتاب أكثر من وضع اسمه على الغلاف و أن الكتاب من وضع أحد المستشرقين و هو فى أغلب الظن « مرجليوت » اليهودى (١) و كانت هيئة كبار العلماء قد حاكمت الشيخ و أدانته بعد أخذ أقواله و إقراره على نفسه بأنه صاحب الكتاب . . و خرجت من جحورها الحيات و الأفاعى تنفث سموم فكرها العلمانى الخبيث . . فانبرى كثيرون للدفاع عن الشيخ تحت شعار حرية الرأى و الاعتقاد و فى نفس الوقت يتهمون رجال الدين بالكهنوتية و الارهاب و يعلنون فى تحد سافر ضرورة فصل الدين عن السياسة و رفض قيام الوحدة أو غيرها من أمور السياسة على أساس من الدين ! ! و استمر الحال على ذلك . . حتى جاء يوم ضرب فيه بقرار هيئة كبار العلماء عرض الحائط و نال الشيخ الوزارة و يا للعجب ! ! و ألف عجب ! !

★ ★ ★

• و سرعان ما أطبق الصمت على موضوع الخلافة هنا و هناك و مضى على إلغائها حتى الآن أكثر من نصف قرن من الزمان دفع فيه المسلمون الثمن غاليا و ما زالوا يدفعون . . ذلك لأنه بضياع الخلافة لم يعد للسلمين دولة كبرى تتحدث باسمهم فى السلم و تدافع عنهم فى الحرب و ضاع بذلك الأمل فى أن ينالوا حقوقهم كاملة بالسلم أو بالحرب ! !

- ذلك لأن القرار النهائى فى حل المشاكل الدولية بالطرق السلمية أصبح اليوم بيد الدول الخمس الكبرى صاحبة العضوية الدائمة فى « مجلس الأمة » و التى تملك حق « الفيتو » أى حق الاعتراض على أى قرار ليس على هوى كل دولة

(١) د . محمد ضياء الدين الريس - الاسلام و الخلافة فى العصر الحديث - منشورات العصر الحديث ببيروت - .

منها . . و ليس من بينها دولة واحدة مسلمة ؟ !

- و فى ميدان الحرب دخلت البشرية عصر الحرب النووية و تم تفجير الذرة و تمكن أصحاب كل ملة من وضع أيديهم على أسرارها و الحصول عليها إلا المسلمين . . و كان الدرس قاسياً بالنسبة لهم ! ! و أكثر عبرة لو كانوا يعتبرون ! ! و كأنما شاءت إرادة العلى القدير أن تلقنهم الدرس المر فيكتب عليهم التخلف فى هذا المجال بالذات جزاء تفريطهم فى الخلافة ! !

ذلك ببساطة لأن اللحاق بالركب الدولى فى المجال النووى يتطلب توافر عاملين هامين :

(١) عقلية علمية رائدة و مبدعة .

(٢) إمكانيات مادية فوق العادة .

و تسخر منا الأقدار بعد ما انفرط عقد الخلافة :

• • فتتوفر العقلية العلمية الحديثة فى بلاد إسلامية معدمة و فقيرة و اقتصادها تحت الصفر كمصر و باكستان و تركيا . . و يهاجر العلماء من أبنائها يستجدون العمل فى البلاد العجم و ملكاتهم و خبراتهم العلمية مسخرة فى خدمة أعداء الله و رسوله ﷺ ! !

• • و فى نفس الوقت تتفجر ينابيع النفط بقدرة قادر و تنهمر الثروة كالمطر و بغير حساب فى بلاد إسلامية متخلفة و لا يجد أثرياؤها مكاناً يحفظون و يستثمرون فيه أموالهم و عوائد ذهبهم الأسود إلا فى بنوك الأجانب من الصهاينة و الصليبيين و بشروطهم الخارجة على شرع الله ! !

• و إذا فكرت باكستان المسلمة على سبيل المثال فى إنشاء مفاعل نووى كان عليها أن تستجدى المال من ليبيا المسلمة و بشروط حاكمها و تحت رحمة

مزاجه و هــواه !!

.. و ما كان لمثل هذا أن يحدث لو كانت للمسلمين خلافة توحد سياستهم الخارجيــة و الماليـــة و الحربيـــة .. و فى أضعف الايمان و بأدنـــة العصر وحــدة أو إتحــاد من أى نوع : شخصى أو فعلى أو فيــدرالى و هـو المركزى أو كونفدرالى ، و هو الاستقلالى أو التعاهدى (١) .. و أقربها و أنسبها على الطريق الفيدرالى ، و ما لا يدرك كله لا يترك كله و من القواعد الشرعيــة اختيار أخف الضررين و ترك أقوى المكروهين .. وحدة تجمع هذا الشتات من الدويلات المبعثرة الهزيلة تحت راية دولة أكبر و أعز و أكرم تنفق مال المسلمين فى خير المسلمين قبل أن تجف منابع النفط و تهلك عوائده تحت أقــدام البغايا و فوق موائد السكارى فى بلاد النصارى !!



خلاصة الأمر : أن الخلافة وظيفة و مضمون قبل أن تكون شكلا من أشكال نظــام الحكم .

و مقصود الخلافة إتحاد المسلمين من أجل حراسة الدين و سياسة الدنيــا .
و لا يمنع مانع لا شرعا و لا عقلا من أن يسمى الخليفة رئيس الاتحاد الاسلامى فقد سمى مرة بخليفة رسول الله ﷺ و مرة بأمير المؤمنين و مرة بالامام .

و لا يمنع مانع لا شرعا و لا عقلا من أن تسمى الخلافة بالاتحاد الاسلامى أو الولايات الاسلامية المتحدة أو اتحاد الجمهوريات الاسلامية .

فالمعنى مقدم على الدعوى و الأهداف و الغايات أهم من المسميات .

• هذا و لا يحول دون قيام اتحاد إسلامى معاصر اختلاف المسلمين إلى سنة

(١) د. سليمان محمد الطماوى ـ السلطات الثلاث ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة

و شيعة أو عرب و عجم أو ملكيين و جمهوريين . . فأكثر هـذه الخلافات كانت موجودة طوال عهود الخلافة و لم تمنع من قيامها . . و مثل هذه الخلافات كانت و ما زالت و سوف تظل موجودة دائما عند المسلمين و مثلها عند غيرهم مع الفارق . . و لكن العقلاء دائما يقدمون الأهم على المهم ! !

و على سبيل المثال قامت فى ألمانيا فى عام ١٨٧١ م دولة إتحادية نظامها ملكى و رئيسها امبراطور و مع ذلك كانت تضم ثلاث دويلات تأخذ بالنظام الجمهورى هى « لوبيك » و « بريم » و « همبورج » و بقية دويلات الاتحاد و عددها ٢٢ ـ كانت تأخذ بالنظام الملكى (١) .

. . و الوحدة تحت راية الاسلام لا تقوم إلا على أساس العقيدة و الدين قبل التراب أو الدم أو الطين ! ! فسيد ولد آدم المصطفى عليه أفضل الصلاة و السلام خاتم النبيين و المرسلين لم يبعث لقوم دون قوم شأن السابقين له من الأنبياء و الرسل الكرام و إنما بعث للناس كافة .

قال الله تعالى : « و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيرا »
سورة سبأ آية ٢٨

و قال تعالى : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »
سورة الأعراف آية ١٥٨

. . هذا و لا يعترض على إقامة إتحاد إسلامى من حكام المسلمين المعاصرين إلا حاكم تسلل إلى عرش بلده بغير حق و فى غفلة من الزمان . . لأنه لو كان قد نالها بحقها و بتأييد من شعبه لن يهدم هذه الامارة على بلده فى غالب الأمر

(١) د . مصطفى أبو زيد فهمى ـ فى الحرية و الاشتراكية و الوحدة ـ دار المعارف ـ القاهرة .

كولاية من ولايات الاتحاد مضافا إلى ذلك فرصته كغيره فى الوصول إلى ما هو أعلى و أرقى على مستوى الاتحاد ككل ! !

.. هذا و ليكن معلوماً أن الوحدة بين المسلمين و اعتصامهم بحبل الله جميعا مطلب عقائدى له فى نفوس العامة و الشباب بصفة خاصة نفس التقدير و التعظيم الذى يكنونه للنطق بالشهادتين ..

و أولى بحكام المسلمين أن يأتى زمام المبادرة نحو توحيد شعوبهم و إعادة مجد الخلافة بأيديهم و من خلال المؤسسات الدستورية القائمة على عيوبها رحمة بأنفسهم و شعوبهم قبل أن يفرضها الشباب بأساليب متهورة و دموية - لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - خاصة و أنهم فى قمة انبهارهم و تعلقهم بالثورة الاسلامية فى إيران رغم كل ما صاحبها و يصاحبها من تجاوزات ! !



يبقى فى النهاية أصل الداء من البداية : و هو رفض البعض قيام الوحدة و أى شأن من شئون السياسة على أساس الدين ؟ !

و نسألهم : كيف يقام الاتحاد السوفيتى على أساس الالحاد و انكار وجود الله و لا تقام دولة على أساس توحيده و الايمان به ؟ ! و هل يمنح الدين بالنفى و الانكار من الحقوق ما لا يمنح للدين بالايجاب و الاقرار ؟ !

و كيف يزرعون فى المنطقة و بين ظهرانينا و بغير حق دولة إسرائيل على أساس من الدين ..

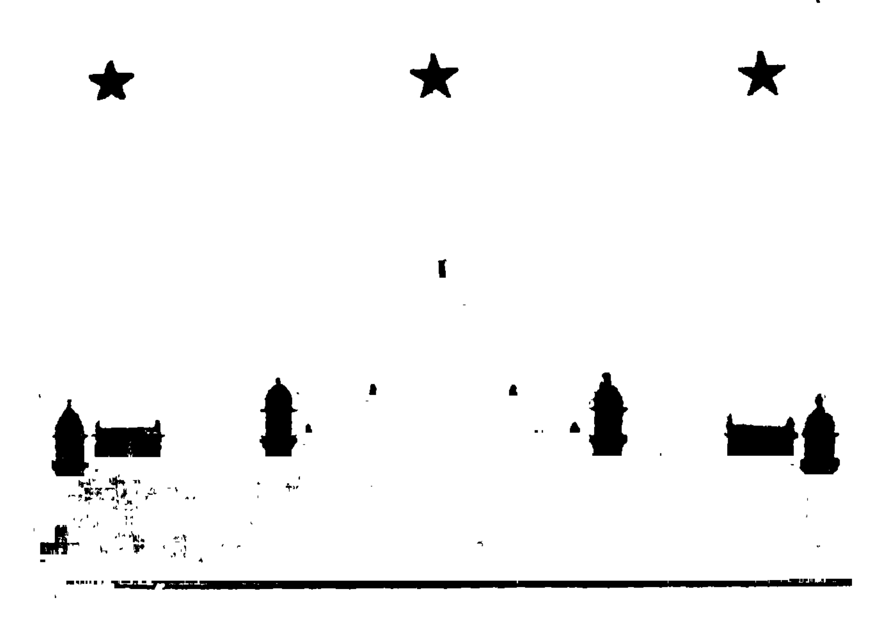
و لا تمنح أنفسنا نحن أصحاب المنطقة حق إقامة وحدة لنا على أساس الدين ؟ ! شاهت العقول ؟ ! أم على قلوب أقفالها ؟ !

أم يتهمون أنضر صفحات تاريخهم الطويل حيث قامت الخلافة على أساس

الدين بأنها كانت باطلا من الأباطيل استمر ثلاثة عشر قرنا من الزمان ؟ ! مثلهم فى ذلك مثل هؤلاء الذين يمنحون شرعيــة الوجود لاسرائيل و يعترفون لأبنـاء صهيون بحقوق فى المنطقة متهمين آباءهم و أجدادهم دون أن يدروا بسلب هــذه الحقوق و استعمار هذه المنطقة طوال هذه القرون ؟ !

و ما قبلوه مؤخرا رفضه بإباء و شمم آخر سلاطين آل عثمان و كان رفضه يعنى بداية كيد الصهانية علناً للخلافة . . رد الله كيــدهم فى نحورهم و رد للمسلمين وحــدتهم تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله و لو كره الكافرون ! ! و رغم أنف صغــار العلمــانيين من المهزومين فى صفوف المسلمين إنه نعم المولى و نعم النصـير ! !

★ ★ ★



مشكلات الشباب و حلولها

★ فى ضوء الكتاب و السنة ★

الأستاذ على القاضى ، مشرف تربية عملية
(جامعة قطر)

عنى الاسلام بتربية الشباب عناية واضحـــة ، ذلك لأن فترة الشباب هى فترة القوة و الحيوية و النشاط و فترة امتصاص الأفكار و اعتناق المبادىء و الحماسة لها و الدفاع عنها و محاولة نشرها و البذل فى سبيلها بكل شئ بالصحـــة و المال و الوقت بل و النفس فى كثير من الأحيان .

و من هنا رأينا الصراعات المختلفة حول الشباب و محاولة اجتذابهم حول الفكرة التى يعمل فيها كل منهم . . و قد وجدنا عناية الاسلام بالشباب تلك العناية الرائعة التى جعلته يعطيه الامكانات التى تكفل انطلاقه و تسلحه بكافة الأسلحة التى تعينه على أداء رسالته فى هذه الحياة .

عناية سابقة على وجوده :

و عناية الاسلام بالشباب تبدأ من قبل أن يولد . . تبدأ بتكوين الأسرة التى تحقق البيئة الصالحة له فهو يرى أن تكوين الأسرة له أسس تحقق الاطمئنان والسكن و التربية الكاملة المتكاملة : (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة) الروم /٢١ ـ و لذلك فقد طلب من الرجل أن يختار المرأة الصالحة التى تحقق التربية المثاليـــة و تعطى للطفل كل حاجاته ـ و يعبر الرسول

الکریم عن ذلك بقوله : (فاظفر بذات الدین تربت یداك) البخاری ـ و مثل ذلك فی اختیار الرجل : (إذا جاءکم من ترضون خلقه و دینه فزوجوه إلا تفعلوه تکن فتنة فی الأرض و فساد کبیر) ابن ماجة ـ و لأن صفات الوراثة تظهر فی الأبناء فان الاسلام یعطی لأبنائه مؤشرات تساعده فی اختیار العناصر الصالحة فی تکوین الأسرة فهو یقول : (تخیروا لنطفکم فان العرق دســـاس) البخاری ، و یقول : (إیاکم و خضراء الدمن) و یفسر الرسول الکریم خضراء الدمن بأنها (المرأة الحسناء فی المنبت السیئ) .

و بهذا التخطیط یضمن الأساس السلیم للبیئة المتکاملة التی ینشأ فیها الطفل المسلم ثم هو یحاول أن یضمن له الاستقرار الدائم فی کنف الاسرة فیجعل الطلاق أبغض الحلال إلی الله کما یقول الرسول الکریم — و یجعل أساس البیوت الوفاء کما یقول عمر بن الخطاب — ثم یجعل الأسرة مسئولة مسئولیة کاملة عن تربیة الأبناء، یقول الرسول الکریم : (کلکم راع وکلکم مسئول عن رعیته) ـ البخاری .

وظیفة الشباب فی الاسلام :

و وظیفة الشباب فی الاسلام هی وظیفة المسلم بعامة ، و لکن الشباب أقدر من غیرهم علی حملها بما لهم من حماسة و حیویة و نشاط و استعداد للتضحیة ـ فهو جزء من هذا الکون والکون ساحة لنشاطه ومیدان لحضارته یدین بالعبودیة لله و یتحرر من عبادة ما سواه من استذلال النظم و القوانین و الأشخاص والشهوات و الشیطان ـ إنه سید الکون و لیس عبداً إلا لله الذی خلقه و خلق الکون ـ ثم إن الکون کله مصدر رائع للمعارف و العلوم و منبع لسکینة الانسان و هدوئه و مشاعره — و بذلك یرفع الاسلام من اهتمامات المسلمین بقدر ما یرفع تصورهم للوجود کله ، و بقدر ما یکشف أیضاً عن علة وجودهم و حقیقته و مصیره —

ـ المسلم يحس بقيمته حين يعلم أن الله خلقه فى أحسن تقويم و سواه و نفخ فيه من روحه ، و جعل الملئكة تسجد له وجعله خليفة له فى الأرض .

و الاسلام بهذا يرسى القواعد الاساسية التى لا تتغير و لا تؤثر فيها تطورات الحياة كما لا يؤثر فيها اختلاف النظم و لا تعدد المذاهب و لا تنوع البيئات فمن أداها كاملة فقد أدى وظيفته ، و من قصر فيها أو نكل عنها فقد أصبح بلا وظيفة فى هــــذه الحياة و أصبحت حياته خاوية من معناها الأصيل الذى تستمد منها قيمتها الأولى ، ثم إذا به يسير إلى الضياع الذى يصيب كل من يتخلى عن وظيفته ، والاسلام يوجه طاقة الشباب إلى العمل المنتج المفيد الذى هو ثمرة الايمان بالله — و القرآن الكريم يؤكد تأكيداً شديداً على العمل الصالح فى عشرات الآيات : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحــاً و لا يشرك بعبادة ربه أحداً) آخر الكهف ـ و العمل الصالح يشمل كل ما يقوم به المسلم نحو ربه ونحو نفسه ونحو أسرته ونحو مجتمعه الاسلامى بل والمجتمع الانسانى كله.

والشباب المسلم يستطيع أن يقوم برسالته كاملة ما دام خالياً من المشكلات ـ و لكن إذا وجدت المشكلات فى حياته فان ذلك يعوقه عن أداء هذه الرسالة .

و لما كان الاسلام حريصاً على الشباب و على أن يؤدى رسالته كاملة فانه يعمل على إزالة العقبات من طريقه و على تقوية شخصيته بحيث يستطيع أن يقاوم هذه المشكلات فاذا ما جاءت المشكلات بعد ذلك حاول علاجها بالأسلوب الذى يفيد و يريح و ينتج .

الاسلام يزيل العقبات أمام الشباب :

من طبيعة الشباب الحركة و الحيوية و النشاط ، و قد يستتبع هذا الخطأ فى جانب من الجوانب و الله سبحانه و تعالى يفتح بابه للتائبين دون وساطة

و يقول : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة :
الله يغفر الذنوب جميعاً) الزمر /٥٣ ، و يقول : (وإذا سألك عبادى ع
قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) البقرة /١٨٦ ، وجعل من السبعة الذين
الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله (شاب نشأ فى عبادة الله) البخارى ،
للشباب أن الخطأ طبعى و المهم أن يتوب الشاب ، والنبى الكريم يقول :
ربك من شاب ليس له صبوة) ، والمهم ألا يتمادى الشاب فى أخطائه ولا
بها ، يقول الرسول عليه السلام : (كل أمتى معافى إلا المجاهرين و إن من
أن يعمل الرجل عملا بالليل فيصبح وقد ستره الله يكشف ستر الله عليه) البخ
والاسلام يزيل العقبات الداخلية حين يربى المسلم على صفاء القلوب يقول النبى
السلام لأنس (يا بنى إن قدرت أن تصبح و تمسى و ليس فى قلبك بغض
فافعل — ثم قال : يا بنى و ذلك من سنتى و من أحيا سنتى فقد أحبنى
أحبنى دخل الجنة) الترمذى ، و قال عليه السلام عن رجل من الأنصار
من أهل الجنة .. و حين لحظ عبد الله بن عمر أن الرجل لا يمتاز بشئ
عادى و صارح الرجل بذلك فقال الرجل : يا بنى لا أعلم شيئاً عندى إلا
لا أبيت و فى نفسى حقد لإنسان و هو يبعد عن الشاب المسلم الحقد و ا
لأنه يقطع الروابط و يزيد المشكلات الاجتماعية — و يجعل الأوقات تضيع
يعود على الناس بالضرر — كما أنه يعلم الشباب الصبر عند الغضب حين يطلب
الغاضب أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فاذا بالغضب يذهب عنه — كما :
من الغاضب أن يغير من وضعه فيكسر هذا من حدة الغضب ويصبح الانسان أ
هدوأ ، يقول الرسول عليه السلام : (إذا غضب أحدكم و هو قائم فليقعـد
ذهب عنه وإلا فليضطجع) ثم هو من الناحية الايجابية يبين للشباب قوة الج

المتكامل فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، و المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يسلمه و من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، و من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا و الآخرة ، و الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، بل إن الرسول الكريم يقول : (من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) مسلم ، و بهذا يزيل الاسلام العقبات أمام الشباب .

الناحية الانشائية فى الاسلام :

الاسلام عنى بالناحية الانشائية للشاب حتى يخرج إلى الحياة سليم النفس قوى الجسم فقد عمل على تهيئة الجو الملائم الذى يتربى فيه بحيث يخرج إلى الحياة مسلماً قائماً بواجبه نحو ربه ونحو نفسه ونحو أسرته ونحو مجتمعه — وقد حدد الاسلام واجبات الوالدين فى معاملة الأبناء من ناحية الرضاعة و العناية بالنواحى الجسمية والنفسية والعقلية — فالبيت الأمثل صلة روحية ورحمة ومودة بين ساكنيه — فيه تنبعث عواطف المحبة و التضحية و التعاون — وخير العواطف أمسها بحياة المجتمع وعواطف الصداقة والاحترام، احترام الطفل لأبويه الذى هو أساس احترامه لنفسه.. وكل سلطة زمنية أو روحية فيما بعد — فيه يتعلم الطفل معنى الضبط وقيمته يتقبله طوعا من والديه فقد عرف أن فيه خيره و سعادته .. فى هذا البيت يخرج الطفل إلى الحياة مزوداً بطاقة من العواطف الحميدة تكون فى يده سلاحاً للكفاح كما تكون أماناً من العلة النفسية فى مستقبل حياته — و الشاب الذى ينشأ فى البيت المسلم ينشأ على صلة قوية بالله فيحس بأنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها فيكون فى مأمن من الأمراض النفسية لأن الايمان بالله خالق الانسان و مدبر الكون يجعل الانسان يحس بأن له سنداً قوياً فى هذه الحياة — و المؤمن متصل بالقرآن

الذى أنزله الله ليكون شفاء و رحمة للمؤمن — ذلك لأن الايمان نور يشرق فى القلب فتشرق به النفس — فيرى الانسان الطريق أمامه واضحاً فلا يصيبه اضطراب و لا قلق — و عقيدة الاسلام حين تتغلغل فى النفس تدفعها إلى السلوك الايجابى السليم الذى يجعل المؤمن مطمئنا ثابتاً (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا و فى الآخرة) إبراهيم / ٢٧ .

و الاسلام يهيئ نفس المسلم لتحمل صعوبات الحياة : (و لنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) البقره /١٥٥ ـ وبمقدار صبر الانسان على ما يلقى بمقدار ثواب الله له : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) الزمر / ١٠ .

و ليس من المقبول مثلا أن يقول الانسان : إنى مسلم ثم لا يتحمل شيئاً فى سبيل عقيدته : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ، و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين) ٢ / ٣ ، العنكبوت ، و فى المعارك الاسلامية التى تقوم لتحقيق العدالة فى الأرض يطالب من المسلمين أن يصبروا و أن يصابروا وأن يرابطوا فى سبيل الله فاذا ما أصابهم ضرر فى المعركة فهذا أمر طبيعى ـ والضرر متبادل : (إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون و ترجون من الله مالا يرجون) النساء / ١٠٤ ، و فى مسألة الموت و الحياة يبين للمسلمين أن كل نفس ذائقة الموت ، و خاطب نبيه الكريم فقال : (إنك ميت و إنهم ميتون) الزمر / ٣٠ ، و على الانسان أن يمتثل لأمر الله و أن يصبر علـى ما أصابه و إذا خاف من ضيق الرزق فالله سبحانه و تعالى يطمئنه : (و فى السماء رزقكم و ما توعدون) الذاريات / ٢٢ ـ فالمسلم يتطلع إلى السماء و إلى الله الخالق ، أما الأرض و ما فيها من أسباب ظاهرية للرزق

يدعها تحول بينه و بين التطلع إلى المصدر الأول الذى أنشا هذا الأسباب — ليس معنى هذا إهمال الأرض — فالانسان مكلف بعمارتها — و لكن المقصود ألا يعلق نفسه بها ، و ألا يغفل عن الله فى عمارتها فهو يعمر فى الأرض آخذاً بأسباب السماء متطلعا إليها و هو مستيقن بأن ما وعد الله تعالى لا بد و أن يكون — و بذلك يعيش قلبه موصولا بالسماء و قدماه ثابتتان فى الأرض — و الشاب إذا وصل إلى هذه الدرجة فهو فى الحالة التى أنشأه الله عليهـا قبل أن يتناولها الانحراف : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) الروم / ٣٠ ـ و على الانسان ألا يتطلع إلى ما فى يد غيره أو إلى أن يكتسب أشياء فوق قـدراته المادية الجسمية و استعداداته الفطرية و بخاصة و أن ما فى يد غيره قد يكون مقصوداً به الفتنة و قد عافاه الله منها : (و لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) طه / ١٣١ .

و الانسان قد يخاف من المرض ، والانسان إذا أصابه المرض بعد أن اعتنى بنفسه وبعد أن أصبح جسمه قوياً و نفسه قوية فعليه أن يلتمس العلاج من مظانه ثم إن الاسلام يرشده إلى أن ما يصيب المسلم له ثواب عليه حتى الشوكة يشاكها — و المسلم بخير على كل حال إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له و إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له — و قـد يخاف من ضغوط الحياة عليـه لسبب من الأسباب — و الشاب المؤمن موصول القلب بالله و هـذا يجعله أكثر تحملا و إلا فعليه أن يعيد النظر فى قوة صلته بالله ولا يهمه الناس لأن الناس لايملكون له نفعا و لا ضراً وهم لو اجتمعو على أن ينفعوه بشئ لم ينفعوه إلا بشئ قـد كتبه الله له ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشئ قد كتبه الله عليه.

و الاسلام يربى أبناء ه عـلى الأمل و البعد عن اليأس ، ذلك لأن اليأس

و الايمان لا يجتمعان في قلب مؤمن و القرآن الكريم يقول : (و لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) يوسف / ٨٧ ، ذلك لأن اليأس يؤدى إلى انقباض الكرتزون فى الدم والغضب يؤدى إلى ارتفاع الادرالين و التروكسين فى الدم .. و إذا استسلم الانسان لدوافع الغضب و اليأس أصبح فريسة سهلة لقرحة المعدة و السكر و تقلص القولون و أمراض الغــدد الدرقية و الذبحة ، و هى أمراض لا علاج لها إلا المحبة و التفاؤل و التسامح لأنها فى حقيقتها أمراض نفسية ــ ومن هنا ندرك أهمية وصية النبى للصحابى الذى جاء يطلب نصيحة بقوله : أوصنى فقال له عليه السلام (لا تغضب) و كررها ثلاثا ـ البخارى ـ كما ندرك أهميـة قوله ﷺ : (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) متفق عليه ـ ومقاومة الأجسام للأمراض تكون على أعلى مستوى من الكفاءة إذا كان هناك انسجام بين كل الخلايا والغدد و الأعصاب و هى حالة ترتد فى النهاية إلى صورة من صور الائتلاف الكامل بين النفس و الجسد .. ولهذا يرى الأطباء أن الانفلونزا تعود الانسان بكثرة لأسباب نفسية حقيقة أنه لابد من وجود أسباب ـ و لكن لابد من وجود قابلية للعدوى أيضاً ـ و القابلية حالة نفسية كما أنها حالة جسمية .

وقد بدأ الأطباء يتجهون إلى أن مرض السل قد يكون سببه نفسياً ـ ومن الأشياء التى تلفت النظر أن بعض الأمراض كالأكزيما أمكن إحداثها بواسطة الايحاء أثناء التنويم المغناطيسى ـ كما أن الحالة النفسية قد تكون سبباً فى الحمى و الصداع و الضغط و السكر و الروماتزم و السرطان .

ومن هنا فاننا نجد أن المؤمنين الصادقين الذين سلمت نفوسهم وصفت قلوبهم بأخلص الايمان لم يتعرضوا مطلقاً للأمراض النفسية التى تجر وراءها الأمراض

البدنية - ذلك لأن هذه الأمراض بنوعيها لا تظهر إلا مع ضعف الايمان أو مع فقدانه حين تتسرب الوساوس إلى النفس فتنشأ العقد و تكثر الحاجة إلى الأدوية المنشطة و المهدئة و المخدرة التى لا يعتدل بها ما اعوج من النفوس - و سيظل الصراع قائماً فى زوايا النفس التى ضعف إيمانها .

مشكلات الشباب

و للشباب مشكلات تعوقه عن أداء رسالته فى هذه الحياة و تأخذ من وقته وجهده ما يصرفه عن الطريق السليم إن لم تحل على أساس سليم - بل إنه قد يكون عبئا على المجتمع الذى يعيش فيه و أداة من أداوات الهدم كما نرى فى المجتمعات الغربية فى عصرنا الحاضر .

وبعض هذه المشكلات متجدد أى أنه كان موجوداً فى الأزمان الماضية وهو موجود فى الزمن الحاضر وبعض هذه المشكلات نشر فى العصر الحديث بعد ظهور الآلات التى قلبت موازين الأفكار - وبعد ظهور الفلسفات المختلفة التى غيرت من مفاهيم القيم والأفكار ، و سنتناول أولا المشكلات القديمة الجديدة أى المتجددة ثم نتناول المشكلات الحديثة لنرى حلولها على ضوء الاسلام .

المشكلات المتجددة :

مشكلات الغريزة الجنسية :

الغريزة الجنسية من غرائز الانسان الهامة التى أوجدها الله تعالى لحفظ النوع البشرى - لكن فرويد اشتط فى أهميتها حين فسر السلوك البشرى كله على أساسها فنزل بالانسان إلى مستوى الحيوان وجعل الدوافع كلهـا مصدرهـا الجنس حتى العبادة - و قد رتب على هذا دمار الانسان إذا لم يشبع هـذه الغريزة - مع أن سلوك الانسان الجنسى يختلف عن سلوك الحيوان ، ذلك لأن الانسان فيه عقل

و روح و نفس - ثم هو يقوم بضروراته الجنسية على طريقة الانسان لا على الحيوان - و فرويد كان يهودياً واقعاً تحت تأثير البيئة التى كانت تسود فيها بعض المفاهيم الدينية المنحرفة التى كانت تعيشها أوربا و التى كانت تدعو إلى كراهية العلاقة بين الرجل و المرأة و تحث على الرهبنة - و مع أن تلاميذه أثبتوا أن هذا الرأى غير صحيح و أثبتوا أن عدم الاشباع لا يؤدى إلى الدمار - بل وليس هناك ضرر جسمى أو عقلى ينتج عن الامتناع عن الجنس - و مع أنهم بذلك أعادوا الكرامة إلى الجنس البشرى إلا أن آراء فرويد تلقفتها أيدى التجار و ساعدهم على ذلك أجهزة الاعلام فعملوا على نشر آراء فرويد من الناحية النظرية و أوجدوا كل الأساليب لتطبيقها من الناحية العملية حتى شملت آثارها الكبير و الصغير فى المجتمعات الغربية و سار على نهجها إلى حد كبير أو صغير البلاد الاسلامية - و اكتوى الجميع بنارها و لا يزالون يكتوون - لأن آراء فرويد و إن ثبت فشلها من الناحية النظرية و خطرها من الناحية العملية إلا أن التجار و أجهزة الأعلام لا زالت تسير فى الطريق الذى يثير الغرائز و يلهبها ، و بذلك فان المشكلة مستمرة و آثارها مدمرة و قد طغت هذه الناحية فى العصر الحديث على الفكر المسيحى المعادى للزواج والذى يرى أن الغريزة الجنسية ينبغى أن تكبت فاتجه إلى الرهبانية يدعولها و يشجع عليها و يفتح الأديرة و يضع لها أنظمتها - و على مدى التاريخ الطويل الذى انتشرت فيه الأديرة فشلت فى أداء رسالتها لأنها معادية للطبيعة البشرية .

الغريزة الجنسية فى الاسلام :

يقف الاسلام وسطا بين هذين الفكرين فهو يعترف بالغريزة الجنسية وأهميتها ولكنه يضعها فى إطارها الصحيح فهو لا يرى رأى فرويد فى سيطرتها التى لا تدفع

و لا يرى رأى من يكبتها عن طريق الرهبنة - لكنه ينظمها ويضبطها ، ويرى
ا من مميزات الجنس البشرى فهى سبب بقائه و سبب إنجاب الذرية التى تحقق
سالة الانسان فى هذه الحياة ،

و قد أزال الاسلام بذلك الفكر المعادى للزواج الذى ساد العالم المسيحى
حرم الرهبانية وقالها نبى الاسلام صريحة : (النكاح من سنتى فمن رغب عن سنتى
يس منى) البخارى .

و وصل المتعة بالدين بهدف بقاء الجنس البشرى وأداء رسالته فى هذه الحياة
يجعل التناقض غير موجود فى ضمير الشاب المؤمن بين قوانين الحياة التى يمارسها
- و بين تعاليم الدين التى يجب احترامها - و الجنس طاقة بشرية طبيعية تحتاج
إلى إشباع - و لكن الاستغراق الذى يجاوز حدوده المعقول هو الأمر المستنكر
فى الاسلام لأنه يضخم أحد جوانب الانسان على بقية الجوانب الأخرى .

والأعضاء التناسلية ليست مقززة فى التربية الاسلامية - فالطفل يعود الطهارة
من صغره لاتصاله بالصلاة - و فى كتب الفقه تفصيلات كثيرة يدرسها الأطفال
و الشباب ليتطهروا و يستعدوا للصلاة التى هى أهم ركن فى الاسلام .

والاسلام لا يثير الغريزة بل يمنع الاثارة فى أى صورة من الصور و ذلك
منذ الصغر فهو يوصى بألاتترك الفرصة للصغار للاطلاع على العورات قال تعالى :
(يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم و الذين لم يبلغوا الحلم منكم
ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر و حين تضعون ثيابكم من الظهيرة و من بعد
صلاة العشاء) النور / ٥٨ - فهذا أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية
مستهينين بآثاره النفسية و العصبية و الخلقيه ظانين أن الصغار لا تمتد أعينهم -
قبل البلوغ إلى هذه المناظر بينما يقرر النفسيون أن المشاهد التى تقع عليها أعين

الاطفال هى التى تؤثر فى حياتهم المقبلة - و الله سبحانه و تعالى يؤدب المؤمنين بهذه الآداب و هو يريد أن يبنى أمــة سليمة الأعصاب طاهرة القلوب نظيفة التصورات .

ثم إن الاسلام - لذلــك - لا يبيح الاختلاط المثير و لا يبيح الخلوة و لا يبيح الملابس المثيرة لما لهــا من خطورة ، فهو يمنع إبداء الزينة إلا للزوج و المحارم : (و لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) ثم يقول : (و لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن) الآية /٣١ النور - و ينهى المؤمنات عن الحركات التى تعلن الزينة المستترة و تهيج الشهوات الكامنة و توقظ المشاعر الهادئة : (و لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) النور /٣١ ، و من ذلك الاثارة عن طريق أجهزة الدعاية و الاعلام ، و من واجب المسلمين أن يطلبوا منع هذا .. و من واجب ولى الأمر أن يمنع فهو مسئول أمام الله وأمام الناس - والمسلم مطلوب منه أن يتعفف حتى عن النظر إلى المرأة فليس له إلا النظرة الأولى العفوية أما الثانية فهى عليه .

والاسلام يريد بذلك حماية المسلم من الأخطار النفسية التى يتعرض لها نتيجة لما يحدث فى المجتمعات التى تظهر زينة المرأة فتثير الشهوات و تحــدث الصراعات داخل النفس و تكون سببا من أسباب الكوارث عليها .

١- الزواج :

و الزواج هو الطريق الطبيعى لاستجابة الغريزة - و ذلك يتم فى ظــل الرعاية الالهية و قد جعله الله تعالى للبشرية ليكون سكينة وألفة ومودة - وبالزواج تتوحد القلوب تحت ظل العقيدة و هى أعمق ما يؤثر فى النفوس - و من هنا فقد حرم الاسلام الزواج بين المسلم و المشركة لأنهما لا يجتمعان على عقيدة واحدة -

و الله سبحانه و تعالى يريد ألا تكون هذه الصلة ميلا حيوانياً - بل يرفعها حتى يصلها بالله تعالى و يربط بينها و بين مشيئته فى نمو الحياة ، و رضى بزواج المسلم من الكتابية لأنها تؤمن بأصل العقيدة و قد تهتدى إلى الدين الحق .

و الزواج يعصم الانسان إلى حد كبير لأنه أغض للبصر و أحصن للفرج - بل إن فى إشباع الغريزة عن طريق الزواج أجر كما قال عليه السلام : (وفى بضع أحدكم صدقة فقالوا يا رسول أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ فقال عليه السلام أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر) مسلم .

و الاسلام لا يعتبر الحديث عن الغريزة عاراً لأنه يصلها بأهداف علوية وهو لذلك يتحدث عنها فى القرآن مبيناً كثيراً من الجوانب التى يحتاج إليها الانسان فى بيان الأحكام فهو يتحدث عن حل المباشرة الزوجية ليلة الصيام : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) البقرة / ١٨٧ ، و حرمتها لمن نوى الاعتكاف ، و لذلك فانه يقول فى نفس الآية : (و لا تباشروهن و أنتم عاكفون فى المساجد) ، و حرم اتصال المسلم بزوجته أثناء المحيض : (يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض و لا تقربوهن حتى يطهرن) ، ثم يقول : (فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) و معنى ذلك الاتيـان من منبت الاخصاب دون سواه - فليس الهدف هو حصول اللـذة - إنما هو امتـداد الحياة ابتغاء رضوان الله ، و لذلك فانه يقول فى نهاية الآية : (إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين) البقرة / ٢٢٢ ، يتحدث عن ذلك أثناء الحـديث عن أحكام الزواج و الطلاق و العدة و يرفع هذه العلاقة عن أن تكون مجرد متعة جسد .

ب ـ الصيام :

فاذا لم يستطع الشاب الزواج لسبب من الأسباب فعليه أن يلجأ إلى الصوم فانه له وقاية و الرسول الكريم يقول في ذلك : (من استطاع منكم الباءة ـ تكاليف الزواج ـ فليتزوج فانه أغض للبصر و أحصن للفرج و من لم يستطيع فعليه بالصوم فانه له وجاء ـ وقاء) البخاري ، فالصيام وسيلة قوية فعالة ذلك لأن الانسان يمتنع مختاراً عن كثير من لذائذ الحياة المباحة و يحقق كيانه بذلك .

ج ـ ضبط الغريزة :

و الاسلام يضبط الغريزة و يوجهها ـ و الضبط يأتي أولا من ربط القلب البشري بالله و مراقبته في كل عمل و من ربط المسلم باليوم الآخر ـ فالانسان يتلهف على لذائذ الحياة حين يحس بأن فرصته في الدنيا هي الفرصة الوحيدة فهو ينتهزها قبل أن تفوت ـ لكن المسلم يؤمن بأن متاع الدنيا قليل و أن الآخرة خير لمن اتقى . .

و الاسلام يعرض إلى جانب اللذة الجنسية الواناً من لذائذ الحس و النفس ينالها من يحاولون ضبط أنفسهم في هذه الحياة عن الاستغراق في لذائذها الحيية لتبق لهم إنسانيتهم الرفيعة ، ومن هنا فان القرآن الكريم يجمع في آية واحدة أحب شهوات الأرض إلى نفس الانسان : (زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الانعام و الحرث) آل عمران / ١٤ ـ ثم يبين للناس أن هذا كله متاع الحياة الدنيا ، و لكن هناك لذائذ أخرى و هي ما ذكرت في الآية الأخرى : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها

و أزواج مطهرة و رضوان من الله) آل عمران / ١٥ - كما أن لهفة الانسان على المتعة الجنسية تضبط حين يعرف المرء فى هـــذه المتعة وسائل لانتشار النوع و يربط بين نزوة الجسد العارضة و غايات الانسانية الدائمة و رفرفة الوجدان الدينى و يمزج بينها فى لحظة واحدة و حركة واحدة و اتجاه واحد ذالك المزج القائم فى كيان الانسان و أنه خليفة الله فى أرضه المستحق لهذه الخلافة بماركب فى طبيعته من قوى و بما أودع فى كيانه من طاقات .

و الاسلام مع هذا يستنفد طاقات الانسان النفسية فى اتجاهات عليا لا تلجأ إلى المتاع الحسى وحده - كما يستنفد هذه الطاقات فى اتجاهات عليـا بقصد تحويل الفائض منها عن أن يستغرق فى متاع الحس فهو لذلك حث - عن طريق الاعلاء - على الفروسية لأنها رياضة ترفع النفس عن محيط الحس وتوجه الطاقة إلى منصرف نبيل - و هو يقيم نظام المجتمع كلـــه بصورة لا تحصر الدوافع الفطرية و لكنهـا تمنع الاسراف فى كل شىء و الله لا يحب المسرفين .

من هنـا فان الشاب المسلم لا تظهر عنده العقـد النفسية لأنه لا يوضع بين ضغطين متعـــارضين ، ضغط من ضميره الذى كونه من الدين و العرف لا يجوز وجودها - وإن وجدت أخمدت ، وضغط غريزته ، عندئذ تتكون العقد النفسية - أما الاسلام فقد ضمن سلامة الانسان من هذا الصراع بين شطرى النفس البشرية من نوازع الشهوة و اللذة ، و حب الارتفاع و التسامى و لكل نشاطه المستمر فى حدود التوسط و الاعتدال .

الحب :

و يأخذ الحب كثيرا من التفكير و الوقت فى العصر الحديث ، و ما أكثر مشكلاته و ما أكثر الأمراض النفسية التى تنجم عنه ، ولعل أغرب تجـارة كسب

منها التجار ألوف الملايين هى تجارة الحب و صناعة السينما و نحوها ، ولقد ساعد ذلك على إفساد عواطف الشباب فى هذا الجيل الذى ولد بعد الحرب و قالوا له : إن الحب جميل و ساحر ، و أصبحت كلمة الحب صورة خيالية لايستطيع الانسان أن يصل إليها فيعجز الشاب عن ممارسة الحب و عن الرضـــا العاطفى ، و بذلك يختلف الانسان عن أفكاره لأن الواقع يصدمها ، و لذلك فـــلا بد و أن يعرف المجتمع الانسانى صاحب الثقافة الغربية حقائق الحياة جيداً و أن يقنع الانسان بأن يتعامل مع الحب كعاطفة إنسانية لا كشىء مدمر فتاك يطالب الولاء و التقديس ، ولا بد من منع وسائل الدعاية من نشر المفاهيم الخطيرة حول هذا الموضوع حتى نحفظ الشباب من الدمار الذى ينتظره .

و الاسلام يبدأ فى علاج هذه المشكلة مع الشباب بايجاد الصلة القوية بالله فهو نعم المعين لعبده فى كل وقت وقد فتح الباب أمام الجميع : (و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) البقرة ١٨٦ ـ و هو يناقش المشكلة مناقشة هادئة حتى يصل إلى الاقناع إلى قلب الشاب فيساعده بذلك على التغلب على مشكلته ـ جاء شاب إلى النبى صلوات الله عليه ، وطلب منه أن يصرح له بالزنا لأنه تمكن منه فلايستطيع التخلى عنه ـ و بدأ النبى عليه السلام يناقشـه فى هذه المسألة قائلا له : أترضاه لأمك ؟ قال الشاب : لا ، قال النبى الكريم : وكذلك الناس لايرضونه لامهاتهم ، ثم قال له : هل ترضاه لأختك ؟ قال الشاب : لا ، قال النبى الكريم : وكذلك الناس لايرضونه لأخواتهم ، ثم قال النبى الكريم : هل ترضـاه لا بنتك ؟ قال الشاب : لا ، قال النبى الكريم : و كذلك النـاس لا يرضونه لبناتهـــم : فاقتنع الشـاب بهذا المنطق و طلب من النبى الكريم أن يدعو له بعد أن عزم فى نفسه على الاقلاع عنه فدعاله النبى عليه السلام و مسح

على قلبه وشفى الشاب من هذه المشكلة ـ رواه أحمد .

و تذكر الانسان لله تعالى فى أشـد الأوقات يحميه من الوقوع فى الخطأ ، و هذا ما حدث مع النبي يوسف عليه السلام ـ فمع أنه كان غلاما فى بيت وزير يعيش فى مظاهر النعمة ، ومع أن التى راودته عن نفسها هى سيدته إلا أنه رفض الفاحشة فى إصرار رائع قائلا : (إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) يوسف / ٢٣ .

والتاريخ الاسلامى يحدثنا أن الشاب المسلم عبد الله الذى لقب بالقس لكثرة عبادته و ورعه أحب سلامـة المغنية حبا ملك عليه فؤاده و جعل الناس يطلقون عليها : سلامة القس ـ وقد استعملت معه كل وسائل الاغراء فلم تفلح فى جذبه إلى ما تريد و أخيراً صرحت له بما تريد وقالت له : إنى أحبك فقال : و أنا والله الذى لا إله إلا هو ـ فقالت و أشتهى أن أضع فمى على فمك فقال : و أنا و الله الذى لا إله إلا هو ، قالت : فما يمنعك فوالله إن المكان الخال ، فقال يمنعنى قوله تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عـدو إلا المتقين) الزخرف / ٦٧ . . ثم خرج و لم يعد إليها بعد ذلك أبداً .

« للبحث بقية »





الدعوة الإسلامية

انها الحضارة الالهية !

الأستاذ محمد الحسنى ، رح

إن الاسلام « حضارة إلهية » إذا صح هـذا التعبير ، فهو ليس كأصنام ينحتها البشر بأيديهم ثم يعبدونها ، أو يحطمونها إذا غضبوا عليها ، و يضعون محلها صنما آخر ، هو ليس كالمذاهب الفكرية و الحركات الاجتماعية التى اخترعها الانسان فى مختلف أدوار التاريخ ، ثم فرضها على نفسه من غير سلطان بين ، و أحاطها بهالة من التقديس و الاجلال ، حتى إذا وجد أن هـذه الحركات لا توافقه نسيها أو تناساها ، و وضع محلها مذهباً آخر ، و هو مغرور بنفسه و بعقله ، لا يدرى أين يسير به هذا الدوران ، و ما هى نهاية المطاف ؟

إن موقف الاسلام من هـذه الأصنام المادية و المذاهب الانسانيـة موقف صريح و موقف بين ، إنه لا يفرق بين الأصنـام القديمـة و الحديثة ، فكلاهما فى نظره سواء ، لأنهما من صنع البشر .

أما هو — أى الاسلام — فهو « شريعة و منهاج » من عند الله ، أنزله على البشر ليسير على هداه ، و بما أنه من عند الله فهو محفوظ عن الخطأ و الانحراف ، و الزيغ و الضلال ، لا حاجة فيه إلى تعديل أو تغيير ، و لا حاجة فيه إلى إدخال تحسينات و إصلاحات شأن المذاهب الانسانية و الحركات الاجتماعية و السياسية كلها ، و إلى ذلك أشار القرآن حين قال : « ألا يعلم من خلق و هو

اللطيف الخبير (١) » و قال : « لا مبدل لكلماته .. و هو السميع العليم (٢) » .

إذاً فهو « حضارة إلهية » فما أسس هذه الحضارة و مبادؤها ؟ و ما هي روحها و غايتها ؟ و كيف تكيف المجتمع تكييفاً كلياً ، و تخلقه خلقاً جديدا ؟ .

المبدأ الأول : إذا دققنا النظر و تعمقنا في دراسة هذه الحضارة وجدنا أن هنا شيئاً واحداً يهيمن على الجهاز كله ، و يسيطر عليه سيطرة كاملة ، و هو أن الوصول إلى الله و نيل رضاه هو في الحقيقة وظيفة الانسان الأولى و الأخيرة في هذه الحياة ، و لا وظيفة له غير ذلك مطلقا ، فيجب عليه أن لا يسعى لشيء مثل ما يسعى لهذه الغاية ، و لا يحب شيئاً مثل ما يحبها . « قل : إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين (٣) » « و اذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا (٤) » . إن هذه العقيدة و هذه العاطفة هو الينبوع الذي تتفجر منه الأنهار و الشلالات فيظن الجاهل أن هذه الأنهار أو هذه الشلالات هي غايته القصوى و أنها هي المقصودة ، و لا يفهم أنها مظاهر هذه العقيدة ، أو أجزاء هذا الكل ، و قد يندهش الباحث إذ يرى — و هو يدرس هذه الحضارة — أن خيطا من النور يربط مظاهر هذه الحضارة و أجزاءها برباط متين وثيق ، فمن إماطة الأذى عن الطريق إلى آخر درجات الجهاد و أفضل أنواع السعي الديني روح واحدة لا يتخللها شيء ، روح التقرب إلى الله و السعي إليه ، إن هذا التناسق و هذا الانسجام بين مبادىء هذه الحضارة و أعمالها

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١١٦ .

(٣) سورة الأنعام : ١٦٣ .

(٤) البقرة : ٢٠٠ .

و مظاهرها شيء يدهش له الانسان و لا يجد له تأويلا ، و كلما يخوض فى الدراسة يزداد حيرة و إعجابا ، و يزداد ايمانا و تصديقا .

« و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١) » .

بخلاف « الحضارة الانسانية » فانه يرى أن الغايات هنا متعددة ، و الأهداف هنا متنوعة ، و الآلهة هنا كثيرة ، أو ليست هناك غاية و لا هدف ، و لا اله على الاطلاق ، كما أنه لا يجد تناسقاً فى الأفعال ، و لا اتحاداً فى الغايات ، فما لقيصر لقيصر ، و ما لله لله ، بل ما لله لقيصر — إذا نظرنا إلى الحالة السائدة اليوم .

أما فى الحضارة الالهية فالحياة كلها عبادة ، و الأرض كلها مسجد ، فلا ترى إنسانا فى هذه الحضارة إلا و هو فى سعى دائب متواصل ، و حنين دائم مستمر لأن يكون أحسن عملا من جميع الناس ، و أن يكون « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين . و حسن أولئك رفيقا (٢) » .

و هذا هو المبدأ الأول الذى يقوم عليه صرح حضارتنا الالهية ، و هو ينفخ فى نفوس أبنائها روحا تحترق كالشمعة ، و قلباً سليماً لا يقر له قرار ، و لا يهدأ له بال ، و عاطفة مؤمنة جياشة لا يغرها الجمال الكاذب و المتاع الذاهب ، و تسيطر هذه الروح على جميع مرافق هذه الحضارة فمن النظام الفردى إلى النظام الدولى مظاهر متعددة لشيء واحد ، و صور شتى لحقيقة واحدة :

عباراتنا شتى و حسنك واحد و كل إلى ذاك الجمال يشير .

إنها حضارة متسقة متزنة ، قد يختلف فيها الاثنان فى مناهجهما و سلوكهما ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

و قد يختلفان فى وظائفهما و أعمالهما فهذا تاجر و ذلك عامل ، و هذا موظف و ذلك فلاح ، و هذا حاكم و ذلك محكوم ، و كل له حقل خاص ، و وظيفة خاصة ، و لكن الشيء الذى لن يختلف فيه اثنان فى هذه الحضارة هو النية من وراء هذه الوظائف و الأعمال ، و الروح التى تحدوها ، فان هذا الشيء لا تتعدد فيه مسالكهما و لا تتفرق فيه سبلهما أبداً .

المجتمع الربانى : إذا قلنا إن مجتمع الحضارة الالهية مجتمع تعاونى اشتراكى . لعدلنا كثيرا عن الصواب ، إن هذا المجتمع أكثر من اشتراكى و تعاونى و أفضل منه ، و هذا المعنى لا يكفى لتصوير روحه كاملا ، إن المجتمع الاشتراكى يقوم على أساس تبادل المنفعة ، بل إن كل مجتمع إنسانى يقوم على أساس التعاون و الاشتراك فى العمل ، و لا يستطيع أن يعيش يوما واحدا بغيره ، فان الانسان خلق ضعيفا ، و لا بد لهذا الانسان الضعيف أن يكون له أعوان و أنصار و أصدقاء ، و لكن المجتمع الربانى له لون خاص و مكانة فريدة بين الحضارات ، إنه لا يعتبر الانسان — شأن الحضارات الانسانية الأخرى — سلعة للبيع مهما كانت ثمينة أو غالية ، و لا يحب له أن يعيش على أساس تبادل المنفعة فحسب ، بل إنه يهديه إلى طريق أفضل ، و هو أن يعيش الانسان فى هذا العالم لتعيش رسالته و دعوته التى بعث من أجلها ، و أن يخدم الآخرين و يساعدهم غير طامع فى أجر ، و لا حريص على مكافأة « يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون (١) » و أن لا يعلق قلبه بمباهج الحياة و زخارفها ، فان أصابته سراء حمد الله ، و إن أصابته ضراء استغفر الله ، و أن يؤمن بأن القدر خيره و شره من الله تعالى ، فلا حاجة إلى الاستعانة

---

(١) سورة هود ، الآية ١٠٥ .

بمخلوق و الاقبال عليه فى أمر من الأمور ، بل ينبغى للجميع أن يتوجهوا إلى الله و يلجؤوا إليــه ، و أن لا يقصروا فى أداء ما عليهم من حقوق و واجبات و أمانات فرضها الله عليهم ، غير طامعين فيما عند الناس ، فان ما عند الله هو خير و أبقى ، و كان هذا شعار الأنبياء دائما ، و شعار أصحابهم من بعدهم .

إن الفرد فى هذا المجتمع لا يبر أخاه ، و لا يساعده ، و لا يعينه كواجب خلقى محض ، يجب على الجميع أن يؤدوه كاملا وفق ما تفرض عليهم اشتراكيـة المجتمع ، بل إنه يقوم بهذا العمل حرصا على الثواب ، و طلبا للمغفرة ، و طمعاً فى رضى الله سبحانه ، و فى هذا المعنى يقول الحديث الشريف : « الله فى عون العبـد ما كان العبـد فى عون أخيــه ، » بخلاف الفلسفـة المـادية التى تقول : « إن العبد فى عون العبـد ما داما متعاونين » و شتـان بينهمـا ، فالنتيجة أن كل فرد فى هذا المجتمع يبقى فى محاولة مستمرة ، ليسبق أخاه فى الخيرات و الحسنات ، حتى يستحق ثواب الله و رضاه ، و يستحق جنته التى وعدها الله عباده بالغيب .

اليد العليـا خير من اليد السفلى :

امل هذه الجملة هى خير ما تمثل المجتمع الربانى ، فهى يربى المجتمع على أجمل معـانى التضحية و الايثـار ، و هو مظهر رائع من مظـاهر الحضـارة الالهيـة و المجتمع الربانى .

و معنى اليد العليا أن يؤدى الانسان واجبه و لا يطلب حقــه و أن يعطى و لا يأخــذ ، و أن يعين و لا يستعين ، و أن يحب لأخيـه ما يحب لنفســه ، فاذا استقرت هذه المعانى فى مجتمع ، رفعت منه الثورات و الضغـائن ، و ذابت فيـه الأحقاد ، و قضى على النفعية و الانتهازية و حب الذات إلى الأبد ، و هذا هو الشىء الذى لم يوفق إليــه المجتمع المادى ، فكله الآن صراع مستمر من أجل

الحقوق ، العمال يحبون أن يعملوا قليلا و يربحوا كثيرا ، و أصحاب المعامل لا يريدون ذلك ، انهم يحبون أن يكدح العمال و الفلاحون ليل نهار مقابل راتب ضئيل لا يكفى لمطالب حاجاتهم ، و هنا ينشأ الصراع ، ثم ينتهى هذا الصراع إلى إضرابات ، و تؤدى هذه اضرابات إلى معارك دموية ، تزهق فيها الأرواح ، و تسفك فيها الدماء .

أما فى المجتمع الربانى فالحالة هنا مختلفة تماما ، لأن كل فرد فيه حريص على الانفاق ، حريص على الخير ، حريص على السماح و العفو ، فلا داعى للصراع بين الطبقات ، و لا مبرر للحقد و البغضاء فى النفوس .

« عن أبى ذر قال : دعانى رسول الله ﷺ ، و هو يشترط على أن لا تسئل الناس شيئا ، قلت : نعم . قال : و لا سوطك إن سقط منك حتى تنزل إليه و تأخذه » و هذا الحديث وحده يعيننا فى فهم هذا المجتمع و دراسته و تحليله .

— و فى حياة الرسول ﷺ ، و ما نقرأ عنه من أنه كان يزاول جميع أعماله بيده المباركة أكبر دليل على ذلك . و التاريخ الاسلامى حافل بهذه الأمثلة و القصص فنرى أن كل من تذوق حلاوة الايمان ، و دخلت بشاشته فى قلبه أفنى نفسه و ماله ابتغاءاً لوجه الله ، و طمعا فى رضاه ، و بالغ فى خدمة الناس و إيصال النفع إليهم و معاونتهم بينما لم يرض لنفسه أن يمن عليه أحد و لم يطلب حقه من أحد ، و تمنى لو جمع بين حسنات الجميع و رجع بثواب الجميع .

تضحية و إيثار :

إن التعاون واجب و طبيعى و لازم للبشرية ، و لكن دراسة الاسلام و دراسة حضارته الالهية تقنع الباحث الحر أن هنا فرقا عظيما بين المجتمعين : الربانى و الاشتراكى ، و أن هذا المجتمع لا يشبه المجتمعات القديمة و الحديثة

أدنى شبه ، و أن له آفاقا لا تشاركه فيها المجتمعات الأخرى .

فى الأول تضحية و إيثار و عفو و سماحة ، سماحة قلب و سماحة يد ، و سباق إلى الخير و مكارم الأخلاق ، و ذلك كله ايمانا و احتسابا .

و فى الثانى سوق للتجارة و تبادل منافع و مصالح ، و تقسيم أرباح ، فاذا قصر أحد فى واجبه حدث صراع بين الأفراد ، و عمت الفوضى ، فلا يلبث هذا التعاون أن يتحول إلى تطاحن و عراك ، يكدران صفو الحياة .

فى الأول : الناس يستقبلون تكاليف الحياة و مطالبها باسمين و ان لم يجدوا جزاءها فى هذه الدنيا ، لأنهم واثقون بأنهم سينالون جزاءها موفورا فى الدار الآخرة « و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة (١) » .

و فى الثانى : الناس لا يستطيعون أن يتحملوا تكاليف الحياة و مطالبها إلا إذا كانت لهم فى ذلك فائدة ملموسة و نفع ظاهر فى هذه الحياة ، و لا يحبون أن يحسنوا إلى أحد الا إذا أحسن هو إليهم ، و لا يؤثرون على أنفسهم و لو كانوا أغنياء ، و ذلك لأن حب الذات قد طغى عليهم إلى حد جعلهم لا يفرقون بين الشر و الخير ، و لا يميزون بين الخبيث و الطيب ، « من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد له وليا مرشدا (٢) » .

فاذا وصف أحد المجتمع الاسلامى بأنه مجتمع اشتراكى أو تعاونى ، فقد أخطأ و أساء إلى روح هذا المجتمع و شبهه بشىء لا يرفع قيمته بل ينقصه ، و إنه بذلك أدخله فى صف المجتمعات المادية قديما و حديثا ، التى لا ندرى أن واحدا منها حقق عشر ما حققه المجتمع الاسلامى ، أو أتى بثمرة واحدة

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

من الثمار الطيبة التى يتوفر بها هذا المجتمع .

إلى الله :

و إذا كنا أكثر صراحة و بساطة و أكثر دقة و وضوحا قا
إن هذه الكلمة الخفيفة على اللسان ، الثقيلة فى الميزان هى فى الحقيقة محور
هذا المجتمع ، و كعبة آماله و أحلامه ، و التى تنفخ فيه الروح و تبعث
النشاط ، و هى حادى الشوق الذى يحدو هذا المجتمع إلى غايته و مقصو
و يحبب إليه متاعب السفر ، و آلام الطريق ، و يجعله ينشد بلسان حاله :

فليتك تحلو و الحياة مريرة وليتك ترضى و الأنام غضاب
وليت الذى بينى و بينك عامر و بينى و بين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين و كل الذى فوق التراب تراب

إن المثل الفريد لكل فرد فى هذا المجتمع أن يكون من عباده الذين ذكر
فى كتابه المجيد ، بقوله : رضى الله عنهم و رضوا عنه (١) » فهو يبذل
و نفسه بلا تردد و لا حساب ، ليجمع أكبر مقدار ممكن من الحسنا
و الحسنات لا حد لها و لا نهاية ، و كلما يزداد حسنة يزداد شكرا و حمـ
و توبة و استغفارا ، و خشوعا و ابتهالا ، و لا يزال يقطع مسافة بعد مسـ
و يطوى مرحلة بعد مرحلة ، و يقتحم عقبة بعد عقبة ، إلا و يتكرر فى أ
قول الله تبارك و تعالى « هو الذى خلق الموت و الحياة ، ليبلوكم
أحسن عملا (٢) » « و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٣) » و « يا

(١) سورة البينة : ٨ .
(٢) سورة الملك - ٢ .
(٣) سورة الحجر - ٩٩

الانسان انك كادح إلى ربك كدحا فلاقيه (١) » . فتجيش العاطفة فى صـــدره مرة ثانيـة ، و يواصل رحلتـه الروحية بنشاط مزيد و أمل جـديد ، حتى يسمع هذه البشرى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنهم من قضى نحبـــه ، و منهم من ينتظر ، و ما بدلوا تبديلا (٢) » « ان الله اشـترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنـة » (٣) « يا أيتهـا النفس المطمئنـــة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى و ادخلى جنتى (٤) » .

إن هذه العقيدة الدافقة ، و هذا اليقين الراسخ ، و الحب الصـادق ، هو أكبر قوة موجهة و أكبر معجزة عرفتها البشرية فى عمرها الطويل ، و بهذه القوة الخارقة و المعجزة الكبرى كان وجود حضارتنـا الاسلامية و حياتهـا ، و بذلك كان بقاؤها و استمرارها ، و بذلك كان نموها و ازدهارها ، و بذلك كان إبداعهـا و إعجازها ، الحضارة التى أدهشت عقول الفلاسفة و المفكرين ، و حيرت العلمـاء و المؤرخين فى التاريخ ، و لا غرابة فانها شئ أعز و أثمن من التاريخ ، إنها من الله و إليـه . . إنها « الحضارة الالهية » .



(١) سورة الانشقاق ـ ٦ .

(٢) سورة الأحزاب ـ ٢٣ .

(٣) سورة التوبة ـ ١١١ .

(٤) سورة الفجر ـ ٣٠ .

ساعة مع الامام الممتحن

سعادة الشيخ عبد العزيز عبد الرحمن المسند

تناول العلماء قديماً و حديثاً البلوى التى امتحن بها أحمد بن حنبل و ألفوا فيها كتباً و صحائف ، و لعل أمراً قد يغفله بعضهم و هو الدس على المسلمين فى أصول دينهم و مسائله الحساسة . فان أناساً ورمت أنوفهم أن ينتصر دين الله و أن يسود فى الأرض و لكنهم لا يملكون معارضته أو نفيه علناً فهم يندسون فى صفوف المسلمين كالمرض الدفين فاذا وجدوا فرصة رفعوا رؤوسهم و بثوا أفكارهم فينخرون فى جسم الأمة الاسلامية و يستخدمون فى ذلك وسائل متعددة ، أهمها :

جلساء السوء و البطانة السيئة :

إن أخطر شئ فى حياة الأمة الاسلامية هذا النوع من الناس الذين يندسون إلى الحكام ليتقربوا إليهم بما يحبون و يزينوا لهم ما يشتهون حتى يتمكنوا من قلوبهم فيحققوا أهدافهم بواسطتهم و هكذا كان مسلك المعتزلة الذين خرجوا ببدعة القول بخلق القرآن وأول من قال بذلك رأس المعتزلة (الجعد بن درهم) فى عصر الأمويين و لكنه قضى عليه فى مهده حين ضحى به الأمير الشهم (خالد بن عبد الله القسرى) أمير الكوفة بأمر هشام بن عبد الملك . فقد أحضر الجعد موثقاً بالقيود إلى المصلى و عندماانتهى خالد من خطبته قال :

« أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضحٍ بالجعد بن درهم لأنه يقول :

لم يكلم الله موسى تكليماً ولم يتخذ الله إبراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً. ثم نزل من المنبر و قتله ..

ثم ظهرت هذه البادرة بعد حين دعا لها (الجهم بن صفوان) و وجد لها بعض أنصار ثم خمد هذا القول ما عدا بعض جذور مستترة و لم تبد بعد ذلك سوى مرة فی عهد الرشيد و لكنه قضى عليها و أرهب من تسول له نفسه القول بها و قد أثبت ذلك أبو الفرج بن الجوزی فقال :

« لم يزل الناس على رأی السلف و قولهم إن القرآن كلام الله غير مخلوق حتى نبغت المعتزلة فقالوا بخلق القرآن وكانوا يستترون بذلك إلى زمن الرشيد حتى إن الرشيد قال يوماً : بلغنی أن بشراً المريسی يقول : القرآن مخلوق والله على إن أظفرنی الله به لأقتلنه قتلة ما قتلت بها أحداً قبله، ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة فلما توفی الرشيد كان الأمر كذلك فی زمن ولده الأمين فلما ولی المأمون خالطه قوم من المعتزلة فضالوه و حسنوا له القول بخلق القرآن » .

و هی كذلك لم تبلغ مبلغها ، و لم تنتقل إلى امتحان و ابتلاء إلا حين خطط الأعداء لها و توصلوا إلى إدخال البلاط الملكی زعيمين من زعمائهم :

الاول : أبو الهذيل العلاف حيث كان مؤدباً و أستاذاً للمأمون حتى أدخل عليه هذه المعتقدات .

و الثانی : أحمد بن أبی دؤاد الذی تقرب إلى المأمون حتى بلغ منصب الوزارة و كان عالماً لبقاً استخدم علمه فی تسخير الخليفة المأمون بقبول رأيه فی القول بخلق القرآن . و لم يكن إقناع المأمون و هو العالم الأريب الأديب بالشیء السهل ، و لكن ابن أبی دؤاد — كما قلت — عاش حياته ينتظر فرصة واحدة

يستاب بها موافقة المأمون .. فما هى إلا أن حانت فرصة فى لحظة من اللحظات النادرة إذ مرض الخليفة القوى ، صعب الشكيمة — و ابن أبى دؤاد — جليسه و نديمه يعرف حركاته و سكناته و انفعالاته — فلما سنحت اللحظة الحاسمة .. التى لم يدركها سواه حيث ينتظرها كل حياته — و كان المأمون بعيداً عن بقيـة رجاله المخلصين له — حيث مرض (بطرطوس) أحد موانىء الشام لحرر ابن أبى دؤاد رسالة إلى عدد من العلماء والقضاة تلزمهم بالقول بخلق القرآن : و وقعها المريض : و وزعها أتباع ابن أبى دؤاد : هذا نصها :

« أما بعد ، فان حق الله على أئمة المسلمين و خلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استودعهم و العمل بالحق فى رعيتهم ، والتسخير لطاعة الله فيهم .. و الله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد و صريمته ، و الاقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته و منته . و قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم و السواد الأكبر من حشو الرعية و سفلة العامة ، ممن لا نظر له و لا روية و لا استدل له بدلالة الله و هدايته ، و لا استضاءة له بنور العلم و برهانه فى جميع الأقطار و الآفاق ، أهل جهالة بالله و عمى عنه ، و ضلالة عن حقيقة دينه و توحيده و الايمان به ، و نكوب عن واضحات اعلامه و واجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، و يعرفوه كنه معرفتـه ، و يفرقوا بينه و بين خلقه اضعف آرائهم ، و نقص عقولهم و جفائهم عن التفكير و التذكير . و ذلك أنهم ساووا بين الله تبارك و تعالى و بين ما أنزل من القرآن . فأطبقوا مجتمعين ، و اتفقوا غير متعارفين على أنه قديم أزل لم يخلقه الله و يحدثه و يخترعه ، و قد قال الله عزوجل فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، و للمؤمنين رحمة وهدى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) فكل ما جعله الله فقد خلقـه . و قال

(الحمد لله الذی خلق السموات و الأرض و جعل الظلمات و النور) و قال عزوجل : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخبر الله قصصاً لأمور حدثت بعدها ، و تلابه تقدمها و قال : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ..) و كل محكم مفصل فله محكم مفصل و الله محكم كتابه و مفصله فهو خالقه و مبتدعه ، ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم و نسبوا أنفسهم إلى السنة ، و فی كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم و مكذب دعواهم يرد عليهم قولهم و نحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق و الدين و الجماعة و أن من سواهم أهل الباطل و الكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس ، و مردوا به الجهال ، حتى قال قوم من أهل السمت الكاذب و التخشع لغير الله . و التقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، و مواطأتهم على سیء آرائهم تزيناً بذلك عندهم و تصنعاً للعدالة و الرئاسة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم و اتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادة و نفذت أحكام الكتاب بهم على دغل أمنهم ، و نغل أديمهم ، وفساد نياتهم و يقينهم ، و كان ذلك غايتهم التی إليها جروا و إياها طلبوا فی متابعتهم ، والكذب على مولاهم وقدأخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله إلا الحق و درسوا ما فيه أولئك الذين أصمهم الله فأعمى أبصارهم : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظاً و المبخوسون من الايمان نصيباً ، و أوعية الجهالة و أعيان الكذب و لسان إبليس الناطق فی أوليائه ، والمائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فی صدقه ، و تطرح شهادته . و لا يوثق بقوله و لا عمله فانه لا عمل إلا بعد يقين ، و لا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الاسلام و إخلاص التوحيد ،

و من عمى عن رشده و حظه من الايمان بالله و توحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله و القصد فى شهادته أعمى و أضل سبيلا . .

و لعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى وقوله تخرص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله فى وحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، إن أولاهم برد شهادته فى حكم الله و ذمته من رد شهادة الله ، و بهت حق الله بباطله ..

فاجمع من بحضرتك من القضاة و اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، و تكشفهم عما يعتقدون فى خلق القرآن و أحداثه ، و أعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله و استحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، و خلوص توحيده و يقينه .. .

فاذا أقروا بذلك و وافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، و مسائلتهم عن علمهم فى القرآن ، و ترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث و لم يره ، و الامتناع من توقيعها عنده .. .

و اكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسائلتهم ، و الأمر لهم بتمثل ذلك ثم أشرف عليهم و تفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا لشهادة أهل البصائر فى الدين و الاخلاص للتوحيد .

و اكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله .

و بهت الناس عندما قرأوا تلك الرسالة و تردد بعضهم ، و خاف أكثرهم ، و تسلط دعاة الشر بسلاح هذه الرسالة طالبين تنفيذها ، و هم فى قرارة أنفسهم ينفذون بدعتهم و كيدهم للاسلام و فى الظاهر يتابعون تنفيذ أوامر السلطان ، وقد تمادوا فى ذلك فاستعانوا بقوة الشرطة و ركزوا على من يطاع أمره و يتبع رأيه ، يحضرون إليه فى بيته أو يطلبونه للقصر فيقولون له أمام جماعتـــه : ما يقول فى

القرآن ؟ أهو منزل أم مخلوق ؟ فان قال : إنه منزل عذبوه .. و إن قال إنه مخلوق تركوه ..

إلى أن وصل الحال بأحمد بن حنبل فأنهم أحضروه و قالوا له : ما تقول فى القرآن .. ؟ فيقول : هو كلام الله ، فيقولون له : هل هو مخلوق ؟ .. فيقول : هو كلام الله .. فيقولون : قل إنه مخلوق فلا يجيب و لا يزيد على قوله : إنه كلام الله ، و لما صاولوه و صمد أمام تهديدهم قيدوه و حملوه إلى (طرطوس) ليقابل الخليفة (المأمون) و شاء الله أن يتوفى المأمون قبل وصول الامام إليه ، و بعد تولى خليفته و أخيه (المعتصم) بأيام زعموا أن المأمون أوصى لأخيه أن يستمر بالقول بخلق القرآن .. فبقى الامام فى السجن ، و لما فرغ له المعتصم ، استدعاه بتدبير ابن أبى دؤاد الذى بقى فى وزارته للمعتصم أيضاً . .

فحاجـه المعتصم بنفسه و هدده ثم أغراه بالمال و الجاه ، و لكنه لم يلن ولم يغير موقفه ، فكان يقول (القرآن كلام الله منزل غير مخلوق) فجلد فى مجلس المعتصم ، و ضرب بالسياط إلى أن أغمى عليـه فاذا أفاق قيل له : تقول بخلق القرآن؟ فيقول : هو كلام الله ، حتى بلغ به الحال أن أغمى عليه من شدة الضرب ، فينخس بالسيف فى بدنه فلا يحس ، فاذا أفاق لم يسمع منه سوى ذكر الله .

ثم أعادوه للسجن و بقى فيه مضيقاً عليه عامين و نصف عام ، و كانوا كلما علموا أن جراحه قد برئت عادوا يحاولون التأثير عليه فيبقى مصراً على رأيه فيعاد للسجن فى بغداد بعد الاهانة و التعذيب ، و توفى المعتصم و تولى الواثق الذى تبع سلفيه ، إلا أنه لم يعذب الامام بل اكتفى بمنعه من التدريس و الاجتماع بالناس ، و فرض عليه الاقامة الجبرية فى منزله .

و توفى الواثق و خلفه المتوكل فاختبر الامام و كلمه مرات و جادله وعرض عليه المال فلم يقبله .

مبادىء فى الأدب و الدعوة

فضيلة الشيخ حسن حبنكة الميدانى

خامساً ـ السطح و العمق

و من عناصر الجمال و الكمال الأدبى الرفيع فى الكلام أن يكون له سطح تفهمه العامــة دون غموض و لا ارتباك ذهنى . و أن يكون له مع ذلك عمق تفهمه الخاصة بالتأمل و التعمق و إعمال الذكاء .

و لا يستطيع تقديم بيــان رفيع مثل هــذا البيان الذى له سطح و عمق إلا نوابغ البلغاء الأذكياء .

و القدوة الهادية لهؤلاء النوابغ بلاغــة القرآن المعجز ، إن المتدبر لكلام الله عزوجل فى القرآن يلاحظ عجبا ، إنه ينظر إلى آية فيفهمها ، و يأخذ منهــا دلالة صحيحة ينتفع منها انتفاعا عظيما .

ثم تأتيه نفحات فى تدبر آخر ، فيفهم من الآية معانى جديدة لم ينتبه إليها فى التدبر الأول ، و هذه المعانى لا تتعارض مع ما فهمه فى التدبر الأول إذا كان تدبراً صحيحا ، بل تعطيه إضافات متممة لما كان قد تدبره من قبل .

ثم كلما تعمق فى التدبر تواردت عليـه مفاهيم جديدة تتكامل بها لديه المعرفـة المتعلقـة بدلالة الآية .

و العمق فى الكلام يتكون من أسباب ، و منها ما يلى :

الأول ـ عدم الاشارة باللفظ إلى الترابط المنطقى بين المعانى ، أو إلى الترتيب الزمانى أو المكانى بين الأحــداث ، أو غير ذلك من أمور مع إبقــاء كل جملة فى محلها الطبيعى .

و لو أنه جاءت الاشارة الصريحة إلى هذا الترابط ، أو هذا الترتيب بلفظ دال ، لخرج المعنى من العمق إلى السطح .

ولكن يفقد النص بذلك عاملا من عوامل جدته فى نفس القارىء عند كل تدبر.

الثانى - الكنايات البعيدة ذات الدلالات المتتابعة.

الثالث - المحاذيف التى تحذف للايجاز، و يقتضيها معنى النص، أو يستدعيها التوازن و التناظر و التكامل فيه. أو غير ذلك، و يبقى المعنى بعد حذفها صحيحا، الا أنه جزء من المعرفة التى يدل عليها السطح و العمق معاً.

مثال: كنت أقرأ قول الله تعالى فى سورة (البقرة):

★ الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء، و الله يعدكم مغفرة منه و فضلا و الله واسع عليم (٢٦٨) يؤتى الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، و ما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩) ★.

فأفهم من هذا النص سطحه، وهو أن الشيطان يخوف الناس من الفقر، حينما تتجه نفوسهم لبذل الصدقة، وأنه يأمرهم بالفحشاء لاسقاطهم فى الرذيلة، و أن الله عزوجل يدعونا إلى التوبة ويعدنا بالمغفرة وبفضل منه إذا صدقنا فى توبتنا.

إن هذه المعانى التى دل عليها سطح النص معان صحيحة سليمة، متمشية مع المفاهيم القرآنية الأخرى، لكنها ليست كل المعانى التى يمكن أن تفهم من النص.

و بعد نحو عشرين سنة أو أكثر ظهر لى هذا النص نفسه جديداً حين فتح الله على فتدبرت عمقه، و تكشفت لى فيه محاذيف يقتضيها التناظر و التوازن و التكامل، و وضح لى أن تقديرها يكون على الوجه التالى:

الشيطان ينهاكم عن الانفاق فى سبيل الله، إذ يعدكم الفقر على سبيل التخويف منه، و يأمركم بالفحشاء و لو اقتضت منكم إسرافاً فى البذل و تبذيرا.

و الله ينهاكم عن الفحشاء و عن التبذير، و يأمركم بالبذل فى سبيله و فى

وجوه الخير ، و يعدكم إذا عصيتم و استغفرتم مغفرة منــه ، و إذا أنفقتم فى سبيله أن يعطيكم و يخلف عليكم و يزيدكم فضلا منه و الله واسع عليم .

فالعناصر المتقابلة التى يستدعيها التوازن و التناظر و التكامل فى النص نلاحظها فى الميزان التالى :

الله جل جلالــه	الشيطان لعنــه الله
١ - أمر بالانفاق فى سبيله	١ - نهى عن الانفاق فى سبيل الله
٢ - نهى عن الفحشاء	٢ - أمر بالفحشاء
٣ - نهى عن الانفاق و التبذير فى وجوه الأثم	٣ - أمر بالانفاق و التبذير فى و جوه الاثــم
٤ - وعد بالاخلاف و الفضل مقابل الانفاق فى سبيله	٤ - وعد بالفقر و خوف منـه فى مجال الانفاق فى سبيل الله
٥ - وعد بالمغفرة و لوح بالجزاء	٥ - شكك بالجزاء و رغب فى اقتناء العاجلة ،

و المذكور أو المشار إليه فى النص بعض هذه العناصر المتقابلة ، أما سائرها فقد حذف ، الدلالة مقابلها عليها ، أو لدلالة النص بجملته عليها ، بمقتضى التوازن و التناظر و التكامل .

أما الأمر بالانفاق فى سبيل الله منها فقد جاء فى الآيات السابقة لهـذا النص .

و بديهى أن الحكمة توجب اتباع العناصر التى جاءت فى هداية الله ، أما اتباع العناصر المقابلة لها فهو نقيض الحكمة ، و هو من ضلالة الشيطان ، و لذلك قال الله تعالى فى الآية الثانية من النص (يؤتى الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، و ما يذكر إلا أولوا الألباب) و هم أصحاب العقول العميقة المتدبرة الواعية للحقائق

و إذا كان الحكيم قد أوتى خيراً كثيراً ، فمن حرم من الحكمة فقد حرم من خير كثير .

و إذا كان المتذكر المتعظ بهذا هم أولوا الألباب وحدهم فمن لا يتذكر و لا يتعظ لا لب له ، أى ليس لديه عقل يبحث عن عناصر الحكمة و يمسك بها ، ثم يرشد إليها الأجهزة المهيمنة على السلوك فى داخل الانسان .

هذه المعانى كلها قد تواردت من العمق لا من السطح .

و العمق القرآنى عمق معجز ، لذلك سيظل فى القرآن جديد يفهمه المتدبرون المتعمقون .

إن القرآن لا تفنى أعاجيبه ، و لا يخلق على كثرة الرد .

و السطح و العمق فى القرآن شيء غير الظاهر و الباطن الذى تدعيه الباطنية كذباً و بهتاناً و إفتراء على الله و رسوله ، إن الذى يقولون به خرافة يقصد منها تحريف نصوص كتاب الله و سنة رسوله ﷺ .

و من ميزة السطح و العمق فى القرآن أن العمق يكمل السطح و لا ينقضه و لا يتنافى معه .

و شأن المتدبر فى القرآن كشأن الباحث فى سطح البحر و عمقه .

و من بلغاء البيان من يكون لبعض كلامهم سطح و عمق ، إلا أن العمق لديهم سهل الاستخراج ، و قد يتنافى مع السطح .

إن قول المتنبى لكافور الأخشيدى :

« لقد كنت أرجو أن أراك فأطربا »

له سطح يمدح به كافورا ، لكن له عمقاً يسخر به منه .

« يتبع »

من بحوث الندوة العالمية للأدب الاسلامى :

روائع الأدب و البيـــان
فى كتب التراجم و الطبقات

عبــد الله الحسنى الندوى

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، و اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشهد أن سيدنا محمدا عبده و رسوله ـ أما بعد ! . . .

الأدب منزه عن الحدود و القيود :

تزعمنا ـ بتأثير الأدباء الذين احتكروا الأدب وجعلوه صناعة ومكسباً ـ أن للادب حدوداً وقيوداً لا ينفك عنها فلا يكون الأدب أدباً إلا إذا كتب لأجله تقليدا للادباء المتصنعين ، ومحاكاة لكتاباتهم . لأنهـا لا تنفق سوق الأدباء إلا إذا أعلن عنه فى سوق المناداة الأدبية وقرىء باسم الأدب كأنه محدود فى قصور الملوك و الأمراء ، و الحكام ، أو مقيد فى سلاسل الأدباء المحتكرين وأغلالهم لأننا إذا استعرضنا التاريخ نرى مثل هذا الأدب وجد بايعاز من الملوك و الأمراء أو بحب الانسلاك فى سمط الأدباء المتقدمين أو بارضاء لشهوة الأدب أو بتحقيق رغبة المجتمع أوحب للظهور والتفوق ، هذه كلها دوافع سطحية وأسباب حقيرة لا تمنح الكتابة القوة و الروح و لا تفصل عليه لباس البقاء و الخلود ، و الفرق بين هذا الأدب المصنوع و الأدب المترسل كالفرق بين الصورة و الانسان ، وكالفرق بين النائحـة

والشكلى ،كما قال الشيخ الندوى فى «مختارات ج ا ص ١٥» فالأدب منزه عن الحدود والقيود .لاهو محدود فى قصور الملوك ولاهو مقيد فى إطار الأدباء المصطنعين ، ولاهو يخضع لذات اليمين و لا يستسلم لذات الشمال بل إنه حر منطلق لا يخاف سلطانا و لا يخشى فقرا و لا ينطوى على نفسه و لا هو يناطح السحاب ويبارى الريح بتكلف وتصنع ، فان هذا الأدب أو هذه القطع الأدبية يوجد فى كتب الحديث و السيرة و التاريخ و الطبقات أروع وأجمل ، أحسن و أكمل من الكتب الأدبية الأخرى ، يقول الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى فى مقدمة كتابه (مختارات من الأدب العربى) ص ١٦ - ١٧ - «هذه القطع هى التى تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة و الأدب ، و هى التى تفتق القريحة وتنشط الذهن وتقوى الذوق السليم وتعلم الكتابة الحقيقية .

إن هذه القطع و النصوص منثورة ـ كما قلت ـ فى كتب الحديث والسيرة و التاريخ ، وكتب الطبقات و التراجم و الرحلات و فى الكتب التى ألفت فى الاصلاح والدين و الأخلاق و الاجتماع ، و فى بحوث علمية و دينية ، وفى كتب الوعظ و التصوف ، و فى الكتب التى سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم وملاحظاتهم وانطباعاتهم و رووا فيها قصة حياتهم ـ (ص ١٧) » .

فيعرف من هذه الكتب التى تحمل فى طياتها قطعا أدبية فائقة وعبارات ممتعة رشيقة ،فانها دفينة يجب أن نستلفت أنظارنا إليها لكى نستغلها استغلالا صحيحا ، ونجعلها مثالا يحتذى ونموذجا يقتدى فى كتابة المقالات وتصنيف المؤلفات ، و هى ذخيرة ممتعة رائعة جدا جهلناها وتناسيناها فحرمنا خيراً كثيراً وفقدنا ذلك المنبع العذب الزلال و المورد الصافى الشلال ، فان هؤلاء الذين ملكتهم الفكرة واستولت عليهم العقيدة وتغلغلتا فى أحشائهم فانهم يكتبون استجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم وينثرون على

صفحات الكتاب فلذات كبدهم ، ويضمون على أوراقها قطع قلوبهم ، ويصنفون فيها دقات نفوسهم فتشتعل مواهبهم وتتوقد أذهانهم وتنطلق ألسنتهم وتنثال عليهم المعانى وتنزل بهم الحقائق وتطاوعهم الالفاظ فيرسلون النفس على سجيتها ، فتؤثر هذه الكتابات على النفوس والقلوب وتغير الاذهان و العقول لأنها خرجت من القلب فلا تستقر إلا فى القلب و القلب ، هو الحقيقة الكبرى فى الجسم فيسوق اتباعه .

الأدب المصنوع يفقد قيمته ويفنى أثره :

إن أدبنا أصيب بمحنة شديدة حينما تكلف فيه المتكلفون ، وجعلوه حرفة وصناعة وادعوا أنهم انقطعوا إلى الأدب والانشاء فأبدوا صناعتهم الأدبية وبراعتهم اللفظية هؤلاء قد نبغوا فى العواصم العربية كأبى اسحاق الصابى و أبى الفضل ابن العميد و الصاحب ابن عباد و أبوبكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمدانى ، وقدموا كتاباتهم بأسلوب صناعى كالصناعة اليدوية و الوشى و التطريز ، وبالغوا فيه مبالغة تامة ، وغلوا فيه غلوا شديداً ، ثم جاء أبو القاسم الحريرى فألف المقامات ، ثم جاء القاضى الفاضل مجدد أسلوب الحريرى وبالاصح مقلده و هو وزير أعظم دولة إسلامية فى عصرها فانتشر هذا الاسلوب انتشارا سريعا و أكب عليه الأدباء والمنشئون والكتاب بالتقليد فصار هذا الاسلوب غاية الأدباء ومنتهى الكتاب .

فاقتفى أثره من جاء بعده وتناقله الأدباء وأصحاب الأقلام فى عصورهم ولم يزل هذا الاسلوب مقبولا لدى الكتاب ومحببا عند المؤرخين للادب ومتبعا من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ولكن مع كل ذلك بقيت طائفة من الأدباء البارعين معرضة عن هذا الاسلوب ومتحررة عن الحدود و القيود ، تكتب فى لغة حية نقية وأسلوب مطبوع زلزال فتركوا لنا نماذج رائعة وأمثلة ممتعة من الأدب الذى كان يتكلم بها العرب الأقحاح وأعراب البادية فى القرون الأولى ، وحفظ لنا كذلك

کثیراً و کثیرا حفاظ الأحادیث من النماذج التی لا یعرف لها نظیر فی تاریخ الأدب بتاتا .

إن الذین کتبوا هذا الأدب السلسال واختاروا هذا الاسلوب الزلزال لم یکن فی ذهنهم أنهم یصنفون هذه الکتب للأدب ولا کانوا یزعمون أنهم فی مکانة مرموقة فی الانشاء و لا یظنون أنهم فی منزلة رفیعة فی الترسل و الکتابة ، و لو أنهم تکلفوا فی الانشاء والکتابة وحاکوا محاکاة تقلیدیة لهؤلاء الأدباء المحتکرین واتبعوهم فی الصنائع و البدائع و المحسنات اللفظیة لضاعت تلك الروائع التی نجدها فی کتبهم التی صنفوها فی التاریخ و السیر و التراجم کما ضاعت کثیر من الکتب التی الفت فی الأدب و الانشاء فی القرون الماضیة، یقول سماحة الامام أبو الحسن الندوی :

« نری الکاتب الواحد إذا تناول موضوعا أدبیا وتکلف الانشاء تدلی وأسف وتوسف وتکلف ولم یأت بخیر إذا استرسل فی الکلام و إذا کتب فی موضوع علمی أودینی أحسن وأجاد ، هکذا نری الزمخشری متکلفا مقلدا فی « أطواق الذهب » وکاتباً موفقاً بلیغاً فی مقدمة « المفصل » و فی مواضع من تفسیره « الکشاف » ونجد ابن الجوزی غیر موفق فی کتابة « المدهش » وکاتبا مترسلا بلیغا فی کتابه « صید الخاطر » وظن أنهما کانا یعتبران أثریهما الأدبیین ،أطواق الذهب و المدهش من أفضل کتاباتهما الأدبیة التی یعتمدان علیها ویفتخران بها و لعل عصرهما صفق لهذین الکتابین ،الاطواق و المدهش ، أکثر مما صفق لکتاباتهم العلمیة و الأدبیة و الدینیة ولکن قاضی الزمان وحاکم الذوق قد حکما بالعدل ، ولیس الیوم لکتابین الأولین قیمة کبیرة ، أما صید الخاطر وتلبیس ابلیس و المفصل والکشاف فهی جدیرة بالبقاء ، جدیرة بکل اعتناء .

« یتبع »


دراسات وأبحاث

المستشرقون و القرآن الكريم

محمد صدر الحسن الندوى

(الحلقة الأولى)

لم تنحصر محاولات المستشرقين فى إثارة الشكوك و الشبهات حول أصالة الحضارة الاسلامية و التاريخ و الفقه و السنة فحسب . بل خطوا خطوة أخرى جريئة ، و حاولوا بكل ما كان فى وسعهم و طاقتهم أن ينالوا من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، و يثيروا الشكوك و الشبهات فى صحته و أصالته ، لكنهم أخفقوا فى مسعاهم ، فقد تصدى للرد على هذه الضربة المستشرقون ـ فضلا عن المسلمين ـ أمثال المستشرق الفرنسى موريس بوكائى (Maurice Bucaille) وغيره من المستشرقين . ونحن نحاول إلى حد ممكن أن نعرض أقوال علماء الغرب فى الرد على هذه الافتراءات حول كتاب الله ، ونستشهد بأقوالهم واعترافاتهم ، لكى لا يبقى أى مجال للشك للباحث البريئ ، و لانتهم بالانحياز فى البحث .

تعريف الكتاب :

« الكتاب هو القرآن و هو المصدر الأول من المصادر الاسلامية التشريعية الأساسية ، أنزل على محمد ﷺ منجماً من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية و الأربعين ، من ميلاده حيث أوحى إليه فى غار حراء الذى كان يتحنث فيه ، أول آية ، هى بسم الله الرحمن الرحيم « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ و ربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ،

إلى تاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، و الثالثة والستين من ميلاده ، حيث أوحى إليه آخر آية « اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا » (١) .

يستعرض المستشرق الفرنسى موريس بوكاى الشبهات حول القرآن فى كتابه « La, Bible le Coran Etla Science » (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) ، فيقول :

إن اليهود والمسيحيين والملحدين فى البلاد الغربية يجمعون على الزعم ، و ذلك دون أدنى دليل ، بأن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن محاكيا التوراة، ويزعم البعض أن هناك أقوالا قرآنية فى التاريخ الدينى تعيد أقوال التوراة و الانجيل ، مثل هذا الموقف لا يقل استخفافاً عن ذلك الذى يقود إلى القول بأن المسيح أيضاً قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم فى أثناء تبشيره ، فكل إنجيل متى ، كما رأينا يعتمد تلك الاستمرارية مع العهد القديم، أى مفسر هذا الذى تعن له فكرة أن ينزع عن المسيح صفته كرسول الله لذلك السبب . . . ؟ و مع ذلك فهكذا فى الغرب يحكم على محمد ﷺ فى غالب الأحيان، يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة و الانجيل، وذلك حكم بلا محاكمة ولا يضع مطلقاً فى اعتبارة أن القرآن و التوراة والانجيل قد تعطى عن نفس الحدث روايات مختلفة . لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات ثم يعلنون أنها متماثلة و بالتالى يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية (٢) .

إنه يقارن بين علوم القرآن و الاكتشافات الحديثة بفضل التقدم العلمى و التجارب البشرية المستمرة فى ميدان العلم والتكنولوجيا، فيصل إلى النتائج التالية :

(١) تاريخ التشريع الاسلامى للخضرى ص ١٥ الطبعة الخامسة

(٢) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ١٤٩-١٥٠ و ص ٢٧٧

« إن هذه المقارنة قد حملتنى على ابداء الملاحظة التالية و هى : كيف أمكن لمحمد عليه الصلاة و السلام ، أن يتناول قبل أربعة عشر قرنا حقائق علمية فى القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمى فى القرون الحديثة ، لو لم يكن القرآن وحياً منزلا لا شك فيه و الارتياب فى نصوصه (١) .

توفى رسول الله ﷺ ولم يجمع القرآن فى مصحف بل كان فى صحف متفرقة كتبها كتاب الوحى ، و فى صدور الحفاظ من الصحابة ، و فى عهد أبى بكر رضى الله عنه أمر بجمع القرآن لا فى مصحف واحد ، بل جمعت الصحف المختلفة التى فيها آيات القرآن و سوره و أودعت الصحف الكثيرة التى فيها آيات القرآن عند أبى بكر ، و قد تولى جمعه هذا زيد بن ثابت ، وانتقلت من أبى بكر إلى عمر ثم إلى حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها حتى إذا تولى عثمان رضى الله عنه أخذ الصحف من حفصة و عهد إلى جمع من الصحابة منهم زيد بن الثابت ، و عبد الله بن الزبير ، و سعيد بن العاص ، بجمعها فى مصحف واحد ، و كتب منها نسخاً كثيرة وزعت على الأمصار و أحرق ما يخالفها .

القرآن كله كان مسجلا فى حياته ﷺ

لا يقف المستشرق موريس بوكاى حائراً أمام أى قضية — بل يبت بالقول الفصل — مثل أنصاف العلماء و المستشرقين المغرضين المشككين و المتشككين و لا يتلكأ فى إعطاء شئ حقه من الانصاف ، فهو يتحدث عن تدوين القرآن و يقول بكل ثقة فى وضوح تام لا غموض فيه و لا التواء و لا إبهام فيه و لا مغمزة ، يقول :

« وفى الحقيقة يجب على القارىء أن يتذكر أن تعاليم النبى ﷺ قد انقسمت عند موته إلى مجموعتين :

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ١٤٩-١٥٠ و ص ٢٧٧

فمن ناحية كان هناك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، و كانوا يتلونه مثل النبى ﷺ دائماً ، و يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك تسجيلات كاملة لنص القرآن ، وقد تمت هذه التسجيلات فى حياة النبى ﷺ و بأمر منه » .

سجل القرآن بأقلام شهود عيان :

« و من ناحية أخرى فان المقربين من صحابة النبى و المؤمنين ممن كانوا من شهود العيان لأفعاله و أقواله قد حفظوها فى ذاكرتهم و اعتمدوا عليها بالاضافة إلى القرآن للتعريف بالعقيده و الشريعة الجديدتين .

غير أن هذه التعاليم القرآنية و النبوية لم تلبث أن دونت فيما بعد وفاة النبى ﷺ و ذلك فى مجموعتين منفصلتين ، و كانت أولى المجموعتين هى مجموعة نصوص القرآن التى دونت بصورة رسمية فى عهد الخليفتين أبى بكر و عثمان ، و خاصة فى خلافة هذا الأخير الذى عم على جميع الأمصار الاسلامية النص القطعى للقرآن ، و كان ذلك كله فيما بين العام الثانى عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة محمد عليه السلام و بمعرفة جميع شهود العيان لما قد سمعوا و حفظوا أو سجلوا (١) .

القرآن معجز فى معانيه :

ومن الدلائل الكبرى لكون القرآن وحياً منزلا من الله ، أن القرآن تحدى مشركى العرب و كفارهم أن يأتوا مثل هذا ، فقال فى آياته المختلفة بكل وضوح وجلاء : « و إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، و ادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا و لن تفعلوا فاتقوا النار التى و قودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين (٢) .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨٢

(٢) سورة البقرة : ٢٣-٢٤

وقال : «أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، و ادعوا من استطعم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، و أن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون (١) »

و قال : « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (٢) »

و قال : « قل لئن اجتمعت الانس و الجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً (٣) »

لكنهم مع هذه التحديات كلها ما استطاعوا أن يأتوا بآيات من مثله .

دليل واضح على إعجاز القرآن :

و الذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدى ، و جعله دلالة على صدق نبوته ، و تضمن أحكامه استباحة دمائهم و أموالهم وسبى ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، و توصلوا إلى تخليص أنفسهم و أهليهم و أموالهم من حكمه ، بأمر قريب ، هو عادتهم فى لسانهم ، و مألوف من خطابهم ، و كان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ، و إكثار المراء و الجدال ، و عن الجلاء عن الأوطان و عن تسليم الأهل و الذرية للسبى .

فلما لم تحصل هنـاك معارضة منهم على أنهم عاجزون عنهم ، دل ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد ، لا سيما مع استعظامه ما بدهه بالمجئ من خلع آلهته ، و تسفيه رأيه فى ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاء به ، و إظهار أمر يوجب الانقياد لطاعتـه ، و التصرف على حكم

(١) سورة هود : ١٣-١٤ (٢) سورة طور : ٣٣-٣٤

(٣) سورة الاسراء : ٨٨

إرادته ، و العدول عن إلفه و عادته ، و الانخراط فى سلك الاتباع بعد أن كان متبوعاً ، و التشييع بعد أن كان مشيعاً ، و تحكيم الغير فى ما له ، و تسليطه إياه على جملة أحواله ، و الدخول تحت تكاليف شاقة ، و عبادات متعبة بقوله ، و قد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه .

هذا والحمية حميتهم ، والهمم الكبيرة هممهم ، وقد بذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم و مألوف أمرهم ، و ما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو ينقطع دونه وتين ، أو يشتغل به خاطر ، وهو لسانهم الذى يتخاطبون به ، مع بلوغهم فى الفصاحة النهاية التى ليس وراءها متطلع ، و الرتبة التى ليس فوقها منزع ؟ !

و معلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره و تكذيب قوله ، و تفريق جمعه ، و تشتيت أسبابه ، و كان من صدق به يرجع على أعقابه و يعود فى مذهب أصحابه .

فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، مع طول المدة ، و وقوع الفسحة ، و كان الأمر يتزايد حالا فحالا ، و يعلو شيئاً فشيئاً . وهم على العجز عن القدح فى آيته و الطعن بما يؤثر فى دلالته ، علم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته و لا على توهين حجته (١) .

أبدلنى الله بالشعر سورة
البقرة و آل عمران :

هذا لبيد بن ربيعة أحد الشعراء المفلقين الذى كان قد ذاع صيته فى جودة

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٠ - ٢١ تحقيق السيد أحمد صقر . الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

الطبع ، و قوة البيان . لكنه ترك الشعر بعد ما أسلم فلم يقل فى الاسلام إلا بيتاً واحداً (١) وكتب عمر إلى عامله بالكوفة ، سل لبيداً والأغلب العجلى ما أحدثا من الشعر فى الاسلام فقال لبيد « أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة و آل عمران فزاد عمر فى عطائه (٢) .

و الحقيقة التى لا تنسى أن القرآن و أسلوبه قد استلفت أنظار الباحثين و المؤلفين الذين تدبروا فى الآيات القرآنية بايثار المنهج العلمى الموضوعى على كل منهج و فلسفة و على كل منحى و طريق ، و على كل أسلوب من التفكير و على كل لون من الحياة العلمية و الفكرية و بعيداً عن روح التعصب الدينى .

يقول الدكتور عبد الله عباس الندوى و هو يذكر ترجمات القرآن التى قام بها المستشرقون فى فترات مختلفة ، و يستعرض استعراضاً موضوعياً تلك الترجمات و يشير إلى نقاط هامة و أخطاء فاحشة وقعت فى تلك الترجمات ، و يشير أيضاً إلى دوافع الترجمات فى صورة معجزة موجزة ، يقول : إن الأستاذ آرثر . ج . آربرى (أستاذ الدراسات الاسلامية فى جامعـــة كمبردج قام بترجمة كاملة لمعانى القرآن الكريم ، تمتاز هذه الترجمة التى أسماها (القرآن المترجم) The Koran-inter preted - بأسلوب الترجمة الجميلة ، و حسن الاختيار للكلمـــة الانجليزية مقابل الكلمات القرآنية . و لأنه استطاع أن يجمع بين فصاحة البيان و التزام صحة الترجمة بدون حذف و نقص ، و هو المستشرق الوحيـــد الذى استطاع أن يتحرر من روح التعصب الدينى و يجعل عمله خالصاً للادب .

---

(١) الاعلام للزركلى الجزء السادس ص ١٠٤ الطبعة الثالثة

(٢) الاصابه فى تمييز الصحابة للعسقلانى ج ٣ ص ٣٦٢ دار صادر بيروت

كارلايل ينوه بالقرآن الكريم :

إنه يقول :

« ترجمة كارلايل (R . CARLILE) باسم القرآن المجيد (The holy Quran) نشرتها الجمعة القرآنية فى لندن عام ١٨٢٦م — ١٢٤٢هـ ، وهذه الترجمة لم تنل تشجيعاً من المستشرقين لأن صاحبها نوه بالقرآن و أسلوبه ، و اعترف بمكانة رسول الله ﷺ ، و قد ندد المؤلف بـ « بيل » فى مقدمة ترجمتـــه و قال : إن كارلايل بالغ فى مدح الاسلام و أطرى شخصية رسول الاسلام (١) .

المستشرق و ولستون

يعترف باعجاز القرآن :

ولذلك اضطر المستشرق « Wollaston » إلى اعتراف هذه الحقيقة وهى أن القرآن معجز ، هو يقول : — That Muhammad's boast as to the Literary excellence of the Quran was not Unfounded » يعنى الدعوى التى قام بها محمـــد فى إعجاز القرآن الأدبى لم تكن إدعاءاً محضاً » (٢) و كذلك يقول المستشرق « H . G . Sarwar » فى كتابه و هو يبحث عن إسلام لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامرى ، أحد الشعراء الفرسان فى الجاهلية و يقول : « إنه تأثر بآيات القرآن إلى حد ملموس ، و أعلن بكل ثقة أنه لا يمكن أن يكون القرآن من كلام أى إنسان و أنا أؤمن به (١) .

(١) ترجمات معانى القرآن الكريم و تطور فهمه عند الغرب ص ٥٤ الطبعـــة الأولى دار الفتح ١٤٩٤هـ-١٩٧٤م .

(٢) Muhammad his life and doctrines p. 143

(٣) Muhammad the holy prophet by H . G . Sarwar P. 448

نظرة عابرة على حقيقة الأناجيل والعهد القديم

يقول المستشرق الفرنسى موريس بوكاى و هو يستعرض استعراضاً موضوعياً الكتب المقدسة و القرآن الكريم :

« فى نهاية هذه الدراسة يبدو واضحاً أن الرأى السائد، المتمسك به فى بلادنا عن نصوص الكتب المقدسة التى فى حوزتنا اليوم ، لا يستقيم مع الواقع ، و لقد رأينا فى أى ظروف و فى أى عصور و بأى طريقة جمعت و نقلت كتابة العناصر التى شكلت العهد القديم و الأناجيل و القرآن ، و لما كانت الظروف التى سادت ميلاد كتابات كل من التنزيلات الثلاثة قد اختلفت اختلافاً شاسعاً ، فقد نجمت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص و ببعض جوانب مضامينها »

« إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً ، و هو يشكل مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدل البشر من عناصرها عبر السنين ، و قد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى ، كانت موجودة من قبل ، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جداً فى بعض الأحيان » .

الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود عيان :

« لقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر ، عبر سرد أفعال و أقوال المسيح ، بالتعاليم التى أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض ، والحق هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للامور التى أخبروا بها ، إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة وذلك فى شكل أقوال متوارثة شفهية أو مكتوبة ،

اختفت اليوم بعـــد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهى و النصوص النهائية (١)

أما ما يتعلق بقلة المعلومات عن حياة المسيح فحسبك قول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن فى مقاله فى دائرة المعارف البريطانية ، إنه يقول :

« ينبغى أن يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب فى سيرة المسيح ، بكل صراحة ، فانه لا وجود للمادة و المعلومات التى تساعد على تحقيق هـــذا الغرض . و الأيام التى توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً (٢) .

تعدد المصادر سبب إلى
التناقضـات فى الانجيل

ثم إنه يستطرد قائلا :

لقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات و التعارضات التى أعطينا عليها أمثلة عديدة ، و لما كان لكتاب الانجيل إزاء المسيح نفس الميول إلى تفخيم بعض الأمور مثل كتاب الأدب الملحمى فى القرون الوسطى إزاء الملاحم الغنائيـــة البطولية ، فان ناتج هذا هو أن الأحداث مقدمة بشكل خاص عند كل راو ، ولذلك تبدو صحة الامور المخبر بها فى عديد من الحالات مشكوكا فيها بشكل شديد ، و فى هذه الظروف فان بعض المقولات من الكتابات اليهودية المسيحية التى قد يكون عليها علاقة ما بالمعارف الحديثة يجب أن تدرس بالتحفظ الذى يفرضه المظهر الجـــدلى لصحتها (٣) .

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ٢٨٤

(٢) دائرة المعارف البريطانية . الطبعة الرابعة ج ١٣ ص ١٧١٠

(٣) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ٢٨٥

نصوص الأناجيل تتعارض مع معطيات العلم الحديث

إن التناقضات و الأمور غير المعقولة و التعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً وظيفياً مع كل ما سبق ،ولكن دهشة المسيحيين تعظم حقاً عند ما يدركون كل هذا ، فقد كان الجهـــد عميقاً و مستمراً ذلك الذى قام به كثير من المعلقين الرسميين حتى ذلك الوقت لاخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثـــة ذلك الذى أخفاه هؤلاء المعلقون تحت بهلوانيات جدلية حاذقة غارقة فى الرومانـــية المديحيـــة .

القرآن يختلف تماماً عن العهد القديم و الأناجيل

إن انتزيل القرآن تاريخاً يختلف تماماً عن تاريخ العهـــد القديم و الأناجيل ، فتنزيله يمتد على مدى عشرين عاماً تقريباً ، وبمجرد نزول جبريل به على النبى ﷺ كان المؤمنون يحفظونه عن ظهر قلب ، بل قد سجل كتابة حتى فى حياة محمد ﷺ .

إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية و هى السمـــة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يظهر أيضاً — لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية و على ضوء العلم — طابعه الخاص و هو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة ، بل أكثر من ذلك، و كما أثبتنا يكتشف القارىء فيه مقولات ذات طابع علمى ، من المستحيل تصور أن إنسـاناً فى عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها ، و على هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التى كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن .

ولا يستطيع الانسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف فی عصر محمد ﷺ ، لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحی من الله و أن تعطى له مكانة خاصة جداً ، حيث أن صحته أمر لا يمكن الشك (١) .

أما الأناجيل فقد بذل كثير من الملفقين الرسميين المحاولات المكثفة لاخفاء تلك الحقائق المغلوطة التی كانت موجودة فی الأناجيل ، و هذه ليست خافية على الذين امعنوا النظر فی الأناجيل فی نسخها المختلفة ، و يمكن لنا أن نشير إلى حقيقة واحدة فحسب ، فقد جاء فی التكوين ما ترجمته : « و فرغ الله فی اليوم السابع من عمله الذی عمل ، فاستراح فی اليوم السابع من جميع عمله الذی عمل (٢). ونصه الانجليزی يوجد فی الألفاظ التالية And on the seventh day God ended work which he made' & he rested on the seventh day from all his work which he had made (3)

و توجد هذه الألفاظ فی الترجمة التی نشرها اليهود فی سنة ١٩٥٤م فی مدينة فلاديفيا لكنهم الآن بدلوا لفظ استراح « بلفظ » « فرغ » فی الترجمة الأردية للكتاب المقدس ، لأنهم رأوا أن الاستراحة لا تليق بذات الله سبحانه و تعالى ، واستحيوا من انتماء هذا اللفظ إلى الله تعالى الذی منزه عن الصفات البشرية (٤)

و الآن نقدم ترجمة النص الأردی من الكتاب المقدس لتتضح هذه الحقيقة على القارىء البصير :

« و أنهى الله فی اليوم السابع عمله الذی عمل ، وفرغ فی اليوم السابع من جميع عمله الذی عمل (٥)

---

(1) نفس المصدر : ٢٨٥-٢٨٦

(2) التكوين ٢ : ٢

(3) The holy Bible king james Version 1611, Genesis

(4) تفهيم القرآن للاستاذ المودودی ج٥ ص١٢٥

(5) The holy Bible in Urdu revised printeb in Gret Britian 1958 Grenesis2,2

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

(٤)

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

الامام محمد بن الحسن:

« و كان أحسنهم تصنيفاً و ألزمهم درساً محمد بن الحسن وكان من خبره أنه تفقه على أبي حنيفة و أبي يوسف ثم خرج إلى المدينة فقرأ الموطأ على مالك ، ثم رجع إلى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسئلة مسئلة ، فان وافق فبها ، وإلا فان رأى طائفة من الصحابة والتابعين ذاهبين إلى مذهب من مذهب أصحابه ، فكذلك وإن وجد قياساً ضعيفاً أو تخريجاً ليناً يخالفه حديث صحيح مما عمل به الفقهاء ، أو يخالفه عمل أكثر العلماء تركه إلى مذاهب السلف مما يراه أرجح ما هنالك ، و هما (أى أبو يوسف و محمد) لا يزالان على محجة إبراهيم ما أمكن لهما ، كما كان أبو حنيفة يفعل ذلك ، و إنما كان اختلافهم فى أحـد شيئين : إما يكون لشيخهما تخريج على مذهب إبراهيم يزاحمانه فيه ، أو يكون لابراهيم ونظرائه (١) أقوال مختلفة يخالفان فى ترجيح بعضها على بعض ، فصنف و جمع رأى هؤلاء الثلاثة و نفع كثيراً من الناس ، فتوجه أصحاب أبي حنيفة إلى تلك التصانيف تلخيصاً ، و تقريباً ، و تخريجاً و تأسيساً و استدلالا ، ثم تفرقوا إلى خراسـان و ما وراء النهر ، فسمى ذلك مذهب أبي حنيفة (٢) » .

يتبين من هذا الاقتباس الذى نقلته أن مدرسة الكوفة كانت فى الحقيقة معتمدة على إبراهيم النخعى فى آرائه و نظراته و أفكاره وأقيسته ، و كان الامام أبو حنيفة

---

(١) أى إبراهيم و أبو حنيفة و أبو يوسف

(٢) الانصاف ٣٩ـ ٤٠ .

أبرز أبناء هذه المدرسة حيث آلت إليه الرئاسة والقيادة الفقهية فكل من ورد العراق كان لا بد من أن ينهل من منهل الامام أبى حنيفة إذا أراد معرفة هذه المدرسة و آراء كبار رجالها ، كما أن الامام الأعظم كان عقلية جبارة كأنها سبقة الأوان ، تمتاز بحس مرهف فقهى ، مع ممارسة عملية فى الأسواق مع الناس و زهادة منقطعة النظير ، فكان غير مستغرب أن تجتمع العقليات الكبيرة على صعيد مدرسة ، وتستفيد منه كما استفاده هو من أساتذته غير متقيد بآرائهم بل يجتهد كما اجتهدوا ، و شأن أبى يوسف ومحمد معه كشأنه مع إبراهيم لا يختلف اطلاقاً ، وهذا ما يقرره الامام الدهلوى إمام تلك الأوساط العلمية التى تحاول أن لا ترى من الامامين الجليلين أبى يوسف و محمد إلا مقلدين لشيخهما غير متجاوز عنه .

الامامان أبو يوسف ومحمد مجتهدان مطلقان:

يقول :

« و إنما عد مذهب أبى حنيفة مع مذهب أبى يوسف ومحمد واحداً مع نهما مجتهدان مطلقان ، ومخالفتهما غير قليلة فى الأصول والفروع لتوافقهم فى هذا الأصل (و هو كما رأيت استقاءهم من معين الامام إبراهيم النخعى) و لتدوين مذهبهم فى المبسوط و « الجامع الكبير » (١) .

موقفنا من أقوال الأئمة الثلاثة :

إن هذه النقطة التى صرح بها الامام الدهلوى فى غاية الأهمية لأنها تنبنى عليها لو سلمناها أمور خطيرة ، ويجب عندئذ أن ينظر فى أقوال هؤلاء الأئمة الثلاثة كأقوال متساوية فى قوة المصدر يرجح بعضها على بعض برجحان الدليل لا لكونه قول شيخهما الامام أبى حنيفة ، و نص الامام الدهلوى على ذلك فى موضع من كتابه « فيوض الحرمين » سوف أتعرض له فى محله .

(١) الانصاف ص ٤٠

أقوال العلماء الحنفية فى اجتهاد الأئمة الثلاثة أبى يوسف و محمد و زفر :

و قد نقل العلامة عبـــد الحى اللكنوى عن شهاب الدين المرجانى الحنفى ما مؤداه : « إن هؤلاء الثلاثة – الامام أبا يوسف ، و الامام محمـد بن الحسن و الامام زفر بن الهذيل – مجتهدون مطلقون ، مثل الأئمة الأربعة ، و أن لهم أصولا تفردوا بها عن أستاذهم ، و نقل عن الغزالى : أن صاحبى أبى حنيفة خالفاه فى ثلثى مذهبه » (١)

و عدهم ابن عابدين « أهل اجتهاد مطلق يفـارق تقليدهم له فى أغلب أصوله بناءاً على جواز تقليد المجتهد للمجتهد أو بناء على موافقة اجتهادهم اجتهاده » (٢) .

و عدهم ابن كمال باشا من المجتهـــدين فى المذهب ممن لا يخالفون إمامهم فى الأصول و إن خالفوه فى بعض أحكام الفروع .

و قد علق على كلامه الدكتور موسى توانا قائلا : « أما كلام ابن كمال باشا فهو سهو منه ، فان من هم دون هؤلاء خالفوا الامام فى بعض الأصول مثل الكرخى فى سقوط الاحتجاج بالعام بعد التخصيص ، فكيف لا يخالفه هؤلاء فى الأصول (٣)

و من الغريب جداً أن يوصف الامامان أبو يوسف ومحمد – رغم اختلافهما الواسع فى الفروع و الأصول و هو أمر واضح لكل يطالع الخلافات بين الامام أبى حنيفة و صاحبيه فى كتب الفقه – بأنهما مجتهدان فى المذهب ، و لا يدل اعتناء التلميذين بأقوال شيخهما ابداً على أنهما يتبعانه فى المـــذهب ، و معلوم قطعاً انهما

(١) النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير ١/ ٤-٦ .

(٢) شرح عقود رسم المفتى ص ٣١ .

(٣) الاجتهاد و مدى حاجتنا إليه فى هـــذا العصر للدكتور موسى توانا ص ١٦٠ – ٣٦١ – فى الحاشية .

لم يكن ينقصهما شئ فى شروط الاجتهاد المطلق ، و يعجبنى فى هذا الباب ما كتبه العلامة أبو زهرة ، و اختم به البحث فى هذه القضية .

رأى العلامة محمد أبى زهرة :

إن أبا يوسف و محمداً و زفر كانوا مستقلين فى تفكيرهم الفقهى ، وما كانوا مقلدين لشيخهم بأى نوع من أنواع التقليد ، و كونهم درسوا آراءه و تلقوها عليه ، لا يمنع استقلالهم ، و حرية اجتهادهم ، وإلا يكن فكل من يتلقى عن غيره يكون مقلداً ، و تنتهى القضية لا محالة إلى أن ننزل أبا حنيفة نفســه عن رتبة المجتهدين المستقلين ، وقد ادعى عليه ذلك بالباطل ، فانه ابتدأ دراسته يتلقى فقه إبراهيم النخعى على شيخه حماد بن أبى سليمان ، و كان كثير التخريج عليــه ، و كذلك قال من أراد أن يبخس أبا حنيفة حظه من الاجتهاد فى الفقه .

الاتحاد فى أكثر الأصول
لا دليل فيه على الاتباع :

و إذا كانت الأصول التى يبنى عليها استنباط هؤلاء التلاميذ و شيخهم متحدة فى أكثرها ، فليست متحدة فى كلها ، و حسبهم تلك المخالفـــة لتثبت لهم صفة الاستقلال ، و إنهم اتحـــدوا فى طرق الاستنباط فليس ذلك عن اتباع بل عن اقتناع ، و هذا هو الفارق بين من يقلد و من يجتهد و هو القسطاس المستقيم .

ملازمة أبى يوسف لأهل الحديث :

و إن من يدرس حياة أولئك الأئمه يبعد عنهم صفة التقليد ولو فى الأصول ، فهم لم يكتفوا بما درسوه على شيخهم ، بل درسوا من بعده على غيرهم ، فأبو يوسف لزم أهل الحديث ، و أخذ عنهم أحاديث كثيرة ، لعل أبا حنيفة لم يطلع عليهــا ، ثم هو قد اختير بالقضاء ، فعرف أحوال الناس ، فصقل ما وافق فيه شيخه بصقل قضائى ، و خالف شيخه متسلحاً بما هداه إليه اختباره للحكم و القضاء بين الناس ،

و من التجني على الحقائق أن نقول إن ذلك كله قد قاله أبو حنيفة ، و اختاره أبو يوسف من أقواله كما يزعم بعض فقهاء الحنفية متعصبين للاستاذ على التلميذ .

ملازمة محمد لمالك وروايته الموطا :

و محمد بن الحسن الشيباني لم يلازم أبا حنيفة إلا مدة قليلة في صدر حياته العلمية ، فأبو حنيفة توفي ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، ثم اتصل بمالك ولازمه ثلاث سنوات و روى عنه الموطأ ، و روايته له تعد من أصح الروايات اسناداً ، فاذا كان مقلداً في الأصول فلأي الامامين ، ألأبي حنيفة أم لمالك؟ أم لهما معاً؟ إلى المنطق يوجب أن نقول : إنه لا محالة غير مقلد ، و كذلك الشأن في شيخه أبي يوسف و في زفر ، فهؤلاء جميعاً مجتهدون مستقلون لا يقلدون لا في الفروع و لا في الأصول .

تأخر تحرير الأصول :

على أنه يجب أن نقرر أن الأصول لم تكن قد حررت تحريراً كاملا في عهد أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ حتى يقال : أنهم تلقوها عليه و اتبعوه فيها ، وإنما كانت الأصول تلاحظ عند الاستنباط و لا تلقى القاءاً ، و إذا كان قد جرى على لسان أبي حنيفة كلام فيما التزمه ، فهو كلام مجمل قد اتفقت عليه مذاهب الأمصار ، و لم يختلف فيه أحد .

و غريب أن يقرر ابن عابدين الاجتهاد المستقل لكمال الدين بن الهمام و لا يقرر للأئمة الأعلام ! (١) .

---

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية الجزء الثاني في تاريخ المذاهب الفقهية ص١١٢-١١٤ هذا ما قاله العلامة محمد أبو زهرة ، و لكن ما نقله الدكتور موسى عن شرح عقود رسم المفتي من ٣١ من قول ابن عابدين هو أنه عدهم أهل اجتهاد مطلق رغم تقليدهم له في أغلب أصوله كما تقدم .

العلماء ورثة الأنبياء

قصيدة و تعزية

(على وفاة فضيلة الشيخ عبد الله العلى المحمود)

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله
يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، و لكن يقبض ال
بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً إتخذ الناس رؤساً جهالا فسئلوا ، فأفت
بغير علم ، فضلوا و أضلوا » أخرجه البخارى .

و لقد قلبت الصحف إلى نعى أحد العلماء الأجلاء فقرأت كلمات التأ
و قصائد الرثاء التى أشاد أصحابها بالشيخ « عبد الله بن على المحمود » رئيس مر
الدعوة الاسلامية بالشارقة و عضو الهيئة التأسيسية لرابطة العالم الاسلا
بمكة المكرمة ، و شقيق كل من صديقى الودودين : أحمد بن على المحمود و الأد
محمد بن على المحمود ، رحمه الله رحمة واسعة ، فأسفت لموت عالم عامل و ما جز
من الموت لأنه حق . . . .

فالى روحه الرحمة و لاخوته و أنجاله و علماء المسلمين أقد
تعزيتى و قصيدتى :

سبحان من أنشأ الانسان من عدم
خلقاً قويماً و أحيا الأرض بالديم

فرد تعالى فلا ند يشابهه
حاشا و جل عظيم الفضل والكرم

أغنى و أقنى فلم تنقص خزائنه
سبحانه علم الانسان بالقلم

أحيا ، أمات ، و لا يبقى سوى عمل
العالمين يوم الفصل و الندم
أزجى الهداة لنا بالوحى أنذرنا
للنور أخرجنا من حالك الظلم
و الوارثون لأطهار ، أئمتنا
أهل العلوم ذوو الايمان و القيم
الزاهدون بدنيا الزيف إن بسمت
القائمون ببث الروح فى الأمم
المخلصون لدين الحق فى عمل
السابقون إلى الخيرات و الشيم
فوق المنابر للاصلاح دعوتهم
أهل الزيادة فى حرب و فى سلم
الله شرفهم لما به قرنوا
و الذكر خلدهم فى أصدق الكلم
يوم القيامة و الأبصار خاشعة
حبر التقاة يفوق المتقى بدم
و المصطفى يأمر الأبرار أن يصلوا
أهل العلوم كوصل الأهل و الرحم
من رام خيراً يزاحمهم بمجلسهم
بالركبتين و لا يرهب من الوصم
هم خيرة الناس فى الدنيا و أفضلهم
ما طبقوا الشرع لم يخشوا ذوى علم
و العلم يقبض إن ماتوا و إن فقدوا
و الشمل يصبح عقداً غير منتظم

يا قوم ، أمس ، قرأت النعى فى صحف
عن عالم من صحاب الفضل و الهمم
عزيت فيه إمارات و شارقة
و المسلمين من الأقصى إلى الحرم
عبد الإله : ربيب العلم فارقنا
فى ليلة ، يا لها مشهودة الظلم
من آل محمود من قوم عرفتهم
صحباً ، و لن أمدح الأحباب فى كلمى
لكنهم شرفوا بالعلم و اعتصموا
بالحبل ، حبل إله الناس من قدم
الله يحفظهم من كل نائبة
للصبر يلهمهم فى الحادث الألم
و الله أسأل إحساناً و مرحمة
للشيخ منزلة فى جنة النعم
يا رب عفوك إنا مسنا ضرر
فألطف بنا و احفظ الاسلام من سقم
هيىء لنا رشداً من أمرنا ويداً
تنقذ عبادك من طاغ و من قزم
و إنا لله و إنا إليه راجعون .

الدوحة فى ٥ /٦/ ١٤٠٢هـ

كمال عبد الكريم الوحيدى

قطر ـ الدوحة ـ ص ب ـ ٨٠٠ /

صور و أوضاع

عوامل أساسية فى مأساة لبنان

واضح رشيد النــدوى

لم تكن قضية فلسطين فى أى وقت من الأوقات قضية الاحتلال ، أو قضية غزو عسكرى ينتصر فيه فريق ، وينهزم آخر ، وإنما كانت قضية تآمر ، اشتركت فيه الفرق التى تدعى الآن أنها دول المجابهة و الصمود ، و قــد كشف عنهـــا المبصرون ، و المراقبون ، فلم تعد فى خفاء ، و قــد قامت انقلابات فى كثير من الدول المواجهة لاسرائيــل ، كالعراق ، و سوريا و مصر ، باسم تحرير فلسطين ، و كانت قضية الأسلحة الفاسدة ، و تآمر القيادات الحاكمة ، و قادة الجيش ، من القضايا التى سببت الانقلابات ، و فى مقدمتها انقلاب مصر لعام ١٩٥٢م و لكن القيادات التى تولت الحكم باسم فلسطين ، ثم كانت هى الأخرى فريســة للمؤامرات فلم تتخذ أى إجراء جدى لتحرير فلسطين ، و إنما عاشت على هتافات ، واقتصر تحرير فلسطين عــلى الاذاعات و الصحف ، و المؤتمرات ، و عاش الفلسطينيون حائرين مشردين ، يحاربهم كل بلد عربى فتطورت فيهم نقمة من الدول العربيـــة وقادتها أكثر من إسرائيل نفسها .

لقد عاش الفلسطينيون حياة شرود ، ومطاردة ولم يتذوقوا الكرامة والشرف فى أى عهد فكانوا عبئاً ثقيلا على القيادات الحاكمة التى ظلت تخطط لتضع هذا العب

عن كواملها وقامت فعلا عدة دول بمحاولات لتصفية الوجود الفلسطينى فى أراضيها وحدثت اشتباكات دامية للقضاء عليهم فى الأردن و سوريا ، لأن تصرفاتهم كانت تجلب سخط إسرائيل وتقلق بالها وتؤدى إلى عمليات انتقامية ، و لم يبق الوجود الفلسطينى المكثف بعد عمليات التصفية ، وتشريد العناصر الفلسطينية ، فى العالم العربى إلا فى جنوب لبنان حيث كانوا فى موقف التنظيم ، والتجنيد ، للضغط على إسرائيل ، و قد وقعت عدة عمليات جريئة هزت الكيان الاسرائيلى ، وتحمل الفلسطينيون عواقب هذه العمليات ، وتعرضوا للغارات الاسرائيلية المنظمة ، وتكبدوا خسائر فادحة ، و لكن سرعان ما نشأ الخلاف بينهم و بين حكومة لبنان التى لم تكن متحمسة فى مواجهة إسرائيل و كان ضلع المسيحيين و هم دائماً مع اليهود الذين يسيطرون على الحكم بفضل وصية المستعمرين السابقين ، و دخلت القوات السورية فى لبنان فى عام ١٩٧٧م كقوات الردع خلال الصراع بين الفلسطينيين و المسلمين و الحكومة اللبنانية المسيحية و لكن دخول قوات سوريا كان عملياً بمثابة ردع لتحركات الفلسطينيين وقد خسر الفلسطينيون عدة مواقع حاسمة ، واحتلها المسيحيون بدعم قوات سوريا ، و استمرت إسرائيل توجه الضربات على مواقع الفلسطينيين رغم وجود القوات السورية التى ظلت متفرجة ، وبقيت قواعدها العسكرية وقذائف سام السوفيتية مجمدة لاتحركها الغارات الجوية الاسرائيلية ، و قد أتيحت لها عدة فرص للانتقام من إسرائيل ، أو على الأقل إلحاقها بأضرار ملحوظة للحد من غطرستها رغم ما كانت سوريا تتبجح بهتافات و دعاوى الصمود .

و قد كان العدوان الاسرائيلى الأخير فرصة سانحة لقوات سوريا أن تصمد أمام العدوان و تكون جنة و وقاية للفلسطينيين ، لكنها كررت مأساة عام ١٩٦٧ التى تنازلت فيها عن الجولان ، فانسحبت عن المعركة بعد مناورات خادعة ، بدون

حرب فعلية و تركت الفلسطينين فى العراء ليصبحوا لقمة سائغة للقوات الاسرائيلية الوحشية ، ويصفو الجو لاسرائيل ، فقد خلا لها الجو فى غزة و السيناء بعد معاهدة كامب ديفيد ، و يخلولها الجو الآن بالقضاء على المقاومة الفلسطينية وإقامـــة دولة مسيحية حليفة لاسرائيل ، بعد ما ضمت الجولان شرعياً إليها وبذلك تصبح الحدود الاسرائيلية مضمونة مأمونة ،وقد اعترف الجنرال رفائيل ابتان رئيس الجيش الاسرائيلى أن تطويق المقاومة الفلسطينية أمكن فعلا بامتناع سوريا عن القتال وأثبتت سوريا مرة أن قواتها المسلحة مجندة بمحارب الشعب السورى و أن قائدها حافظ الأســـد على شعبه فحسب ، و قد قبل وقف إطلاق النار بعد هزيمة نكراء و إهانة و ذلة و خذلان ، فقد خذله سيده برزنيف و خذله رفيقه معمر القذاف الذى كان يهدد بحرب أمريكا ، و أوربا كلها ، وخذله الايرانيون المتحالفون ، الذين لم يفيقوا بعد من صدمة الفضيحة التى لحقت بهم بتهمة تعاون إسرائيل معهم فى حرب العراق ، أما العراق فقد صفرت وطابه فى حرب شط العرب .

كانت مأســـاة لبنان خيأنة أخرى فى قضية فلسطين ، فضحت فيها الثورة العربية ، التى قامت بالعروبة ، والاشتراكية ، فسقطت القومية العربية ، والاشتراكية فى آن واحد ، وقد كانت القومية العربية قد تمزقت فى الحرب العراقية الايرانية ، التى انقسم فيها العالم العربى ، وسقطت القومية العربية فى لبنـــان بتحالف المسيحيين هذا مع إسرئيل ، وصمتت مصر ، والدول العربية الأخرى على سفك الدماء وسقطت الاشتراكية لأن الحلفاء الاشتراكيين آثروا الابتعاد عن المسرح ، فلم يقدم الاتحاد السوفيتى الدعم الأخلاقى فضلا عن الدعم المادى .

كانت لأزمة لبنان أبعاد وزوايا متنوعة تحمل الدرس و العبرة ، فى مقدمتها خنوع الاتحاد السوفيتى ، وخذلانه لأصدقائه ، فقد كان الفلسطينيون وسوريا يعتمدون

على دعم الاتحاد السوفيتى ، ويثقون به ويؤثرونه على إخوانهم وأشقائهم وعقيدتهم ، و من هذه الدروس خيبة قيادة البعث العربى الاشتراكى ، الذى كان من سوء الحظ الحزب الحاكم فى سوريا و العراق ، لجلب لهما الويل و الدمار و الشقاء ما لا يوجد له نظير فى التاريخ المعاصر .

كان تأسيس حزب البعث فى عام ١٩٤٧ بموجب خطة صليبية مرسومة نفذها ميشيل عفلق الذى باركه البابا مراراً ، اعزل المسلمين و الاسلام عن الحكم فى البلاد العربية ، و قد حقق الحزب هذا الغرض ، و استولى على الحكم فى البلدين رجال الأقلية الفكرية و العددية ، وحورب الاسلام و المسلمون ، وعزلوا عن مواضع النفوذ ، ومنعوا من أن يمثلوا دورهم ، و قد ترك الحزب آثاراً على العقلية العربية تلاحظ خارج العراق وسوريا ، ولبنان ، وأحدث صراعاً فكرياً سبب فى اضطراب الموازين ، فلم تستقر للشعب السورى والشعب العراقى حال ، ولا تحمل حزب البعث إلا سجل الأحداث السوداء ، ثورات دموية ، وعمليات تصفية وحروب أهلية ، وتحامل على الاخوان ، و إهانة للكارم و المقدسات ، وشقاق و تنكر للوعود ، إنه تاريخ المؤامرات والخيانات التى أدت إلى تمزيق العرب وتجريدهم عن مثلهم و قيمهم التى كانوا يستمدون منها قوتهم ، وصمودهم ، فقد مر الفكر العربى بجهود زعماء هـذا الحزب ، فى البلاد التى كانت قلعة الاسلام ضد الصليبية بتطور جوهرى ، انتقلت فيه القيادة من الأغلبية إلى الأقليـة ، و من الاسلام إلى العنصرية ، و دخلت السياسـة فى الجيش ، وصـارت المصالح الحزبيـة و الفردية و العنصرية فوق المصـالح القوميـة .

ومن البلدان اللذان خضعا لحكم سياسة البعث بانقلابات متعاقبة لم تؤد إلا إلى نتيجة واحدة و هى تصفية للكفاءات و القدرات ، و تمزيق البلاد ، و حاولت كل

قيادة أن نبقى فى الحكم ولو على رؤوس القتلى ، و أنقاض بيوت العزل من الرعية ، و تحكى هذه المأساة الانسانية التى مرت بها سوريا و العراق خلال حكم البعث ، وقيادة عميل الاستعمار الصليبى الحاقد ميشيل عفلق ، و أتباعه ، كل بقعة من بقاع البلدين ، و تنتشر آثار الدمار و الخراب التى لا تخفيها الدعاوى البـــاطلة ، من خرم شهر إلى بيروت ، تلك الأراضى الشـاسعـــة الملطخة بالدماء ، و المزروعة بجماجم العرب و المسلمين ، أما العار الذى لحق بالجبين ، فـــلا يمحوه ماء دجلة والفرات وهذه الأرقام أرقام القتل والنهب ، و البطش ، والتدمير ، وأرقام الخزى و العار ، و الخيبـات ، لا يوجد لهـا نظير فى التاريخ الأخير ، و لا البعيــد ، فقد أضاف حكم البعث إلى التاريخ خيانات جديدة وصفحات استبداد و اضطهاد وقمع للشعب ، و انحراف عن القيم الخالدة ، وتنصل عن المسئوليات القومية ، وتضحية المصالح القومية ، وحاول كل زعيم من زعمائه أن يقيم صرحاً له و لو على رؤوس أفراد شعبه ، و يحتفظ بحكمه و لو بالتنازل عن جزء كبير من بلاده ، و قـــد قال أحد الحكام السوريين لدى سقوط الجولان ، إن بقـاء البعث فى الحكم أكثر أهمية من بقـاء الجولان ، و كان موقف الحكام السوريين فى أزمة لبنـان الأخيرة موقفـاً ممـاثلا ، فتنـازلوا عن التزاماتهم إزاء حماية الفلسطينيين فى صالح بقائهـم فى الحكم ، فتركوا الفلسطينيين لقمة سائغة لاسرائيل ، و تركوا لبنـان أداة فى أيدى إسرائيل ، تستخدمها ضد العرب و المسلمين حسب رغبتهـا ، و إذا زال الوجود الفلسطينى من لبنـان ، فان قضية فلسطين ستموت للأبد ، بالاضافـــة إلى الدمار الواسع ، و الخسائر الفادحة فى الأرواح ، و هى آخر قلعـــة تريد إسرائيل أن تفتحها ، فقد ضمت الجولان ، وتصالحت مع مصر ، وعطلت الأردن عن التحرك ، و وصلت إسرائيل بهذه الاجراءات على عتبة الاعتراف الشرعى بوجودهـا .

الصلف الأمريكي في قضية لبنـــان

✖ يذكرنا « الفيتو » الأمريكي الأخير الذى وصفه بعض المراقبين بأنه « أقذر » فيتو فى تاريخ مجلس الأمن .. يذكرنا بموقف أبى جهل حين ركبه الغرور واستولت عليه حمية الجاهلية قبيل بدر ، فأبى أن يذعن لاقتراح عرضه عليه بعض أصحـــابه بالمودة و الكف عن القتال ، قال أبو جهل يومئذ « لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم فيها ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً . . . !

الصلف الأمريكي هو هو صلف أبى جهل نفسه .. وخيلاء قريش هى هى خيلاء أمريكا نفسها اليوم ..

✖ و إذا كان صلف قريش وخيلاؤها لم ينفعها يومئـــذ فى بدر ، فان الأمر بالنسبة لأمريكا اليوم مغاير تماما ، ذلك بأن للصلف الأمريكي كثيراً من المسوغات التى تدفعه إلى التمادى وتجعله يبدو علينا هـكذا دون أى لون من ألوان « المجاملة » . .

الصلف الأمريكي المطلق إنما يعنى أن أمريكا واثقة من رضى اصدقائها العرب عنها مهما أظهرت من الدعم و التأييد لاسرائيل ، ومهما تغـافلت عن مصالح الشعوب المسلمة فى المنطقة ، ومهما تجاهلت الدماء والآلام والدمار الذى يحل ببلدان المنطقة .

و صلف أمريكا يعنى أن كلا النقيضين على الساحة العربية - المعتـدلين والمتشنجين - يدينون بالمصالح الأمريكية ، ويميلون مع الهوى الأمريكي ، ويرجعون إلى بيت الطاعة الأمريكي مهما بدا عليهم من ضروب النشوز و الاعراض .

والصلف الأمريكي يعنى من جهة ثالثة أن أمريكا لم تعد تعبأ بغضب الشعوب المسلمة ، مادامت مطمئنة إلى أن على صدر هذه الشعوب أنظمة تعتمد الارهـاب والقهر و الاستبداد فى إخماد الأنفاس ، والتصدى ، لكل الذين يحاولون أن يتمردوا على الارادة الأمريكية ، أو أن يهددوا المصالح الأمريكية ..

✖ ومع ذلك فمادام الصلف عنجهية وخيلاء ، لابد ان يخطىء فى بعض التقديرات ، أو ينسى بعض الحسابات . فمثلما غفلت قريش من قبل - و هى فى سورة الخيلاء

و الصلف - عن مصالحها التى لا بد أن تتعرض للتهديد من أولئك الذين عرضتهم قريش للهوان و العذاب والذل و الاضطهاد . . . كذلك تغفل أمريكا عن غضبة الشعوب المسلمة التى تهدر دماؤها و تستباح حرماتها ، و يدفن العزل الآمنون منها تحت أنقاض بيروت ، وأنقاض غيرها من مـــدن المسلمين .. و إذا كان المستقبل كفيلا بتوضيح غفلة الصلف الأمريكى فان أصدقاء أمريكا من المتشنجين و المتدلين هم أول من سيدفع الثمن الباهظ ، مثلهم فى ذلك مثل الذين « سايروا » أبا جهل فى صلفه وخيلائه فأوردهم موارد « بدر » المرة .

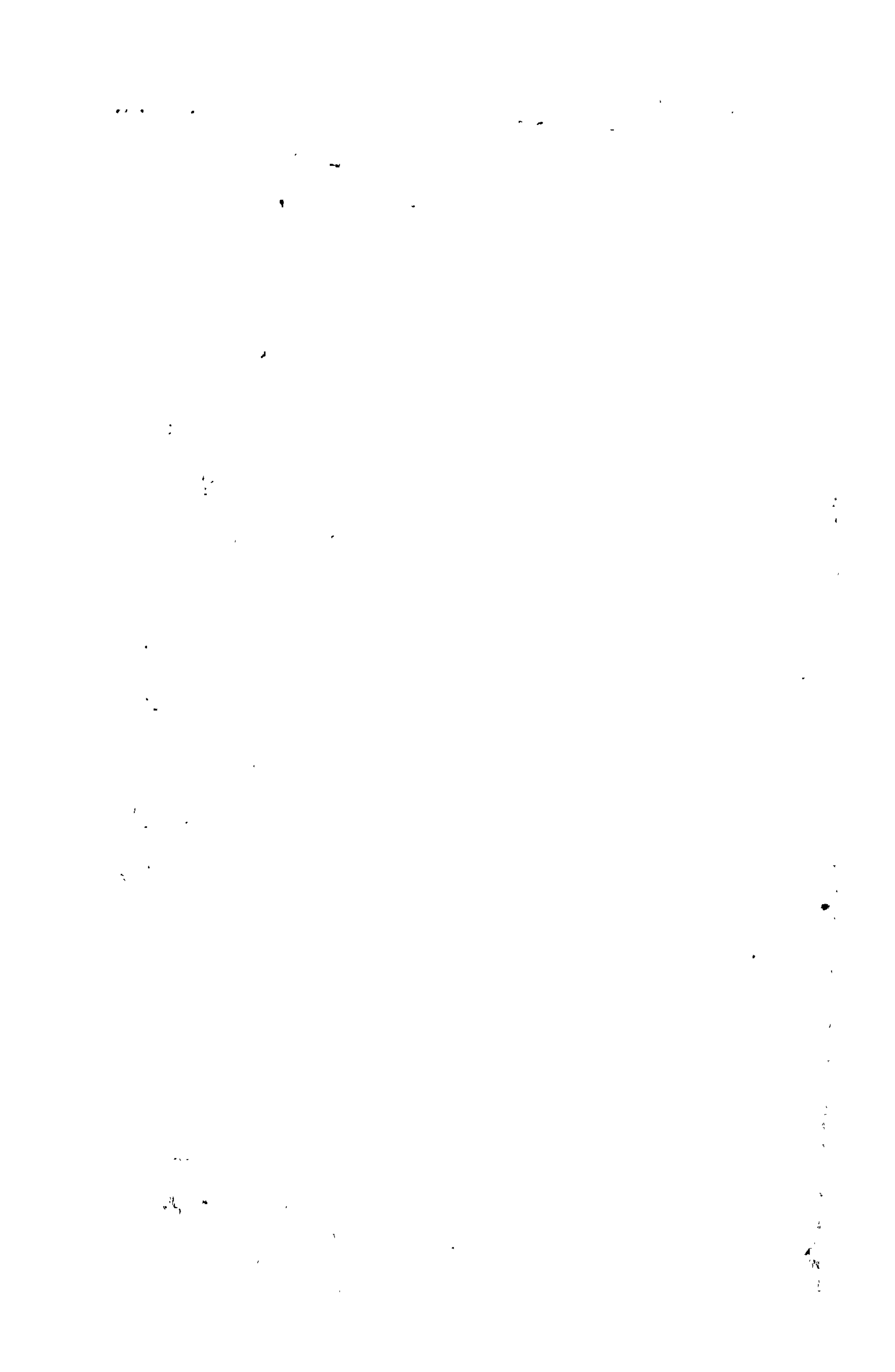
ولندع قليلا صفحات المستقبل الآتى ، ولنذكر أن صلف أبى جهل لم يتحطم - بالشجب الاعـــلامى و لا بالاستنكار الدعائى ، و لم يؤجل المسلمون مؤتمر قمتهم يوم بدر ليسخروا من أنفسهم .. و لكن الذى حطم صلف أبى جهل يوم بدر هو السيوف التى آمنت بالله ، و لم تهادن الأعداء ، ولم تصمت ولم تعجز ولم تتواطأ .. و لكنها كانت تقول بلسان سعد بن معاذ رضى الله عنه يجيب رسول الله ﷺ : « قد آمنا بك وصدقناك ، و شهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق ، لواستعرضت بنـا هذا البحر لخضته لخضناه معك . ما تخلف منا رجل واحد ، و ما نكره أن تلق بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منـا ما تقربه عينك ، فسربنا على بركة الله ! » .

مع الشكر لمجلة « المجتمع » الكويتية

العـــدد الرابع

سيصدر باذن الله تعالى فى شهر ذى الحجة ١٤٠٢هـ ويبدأ به العام الهجرى الجديد إن شاء الله تعـالى عام ١٤٠٣هـ ، فلا يترقب القراء عدد ذى الحجة ١٤٠٢هـ .

[التحرير]



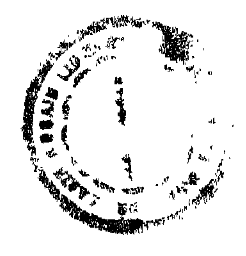
Phones . 49747 42948 Regd. No. LW/NP 59

ALBAAS-EL-ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (India)

الكتب التالية :

من مؤلفات سماحة الشيخ أبي الحسن على الندوى



- ★ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
- ★ الأركان الأربعة فى الاسلام
- ★ الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية
- ★ إذا هبت ريح الايمان
- ★ روائع إقبال
- ★ روائع من أدب الدعوة فى القرآن و السيرة
- ★ التفسير السياسى للاسلام
- ★ رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام (الجزء الأول ـ الجزء الثانى)
- ★ الصراع بين الايمان و المادية

أطلبوها فى الهند

من مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكهنو الهند

و فى العالم العربى

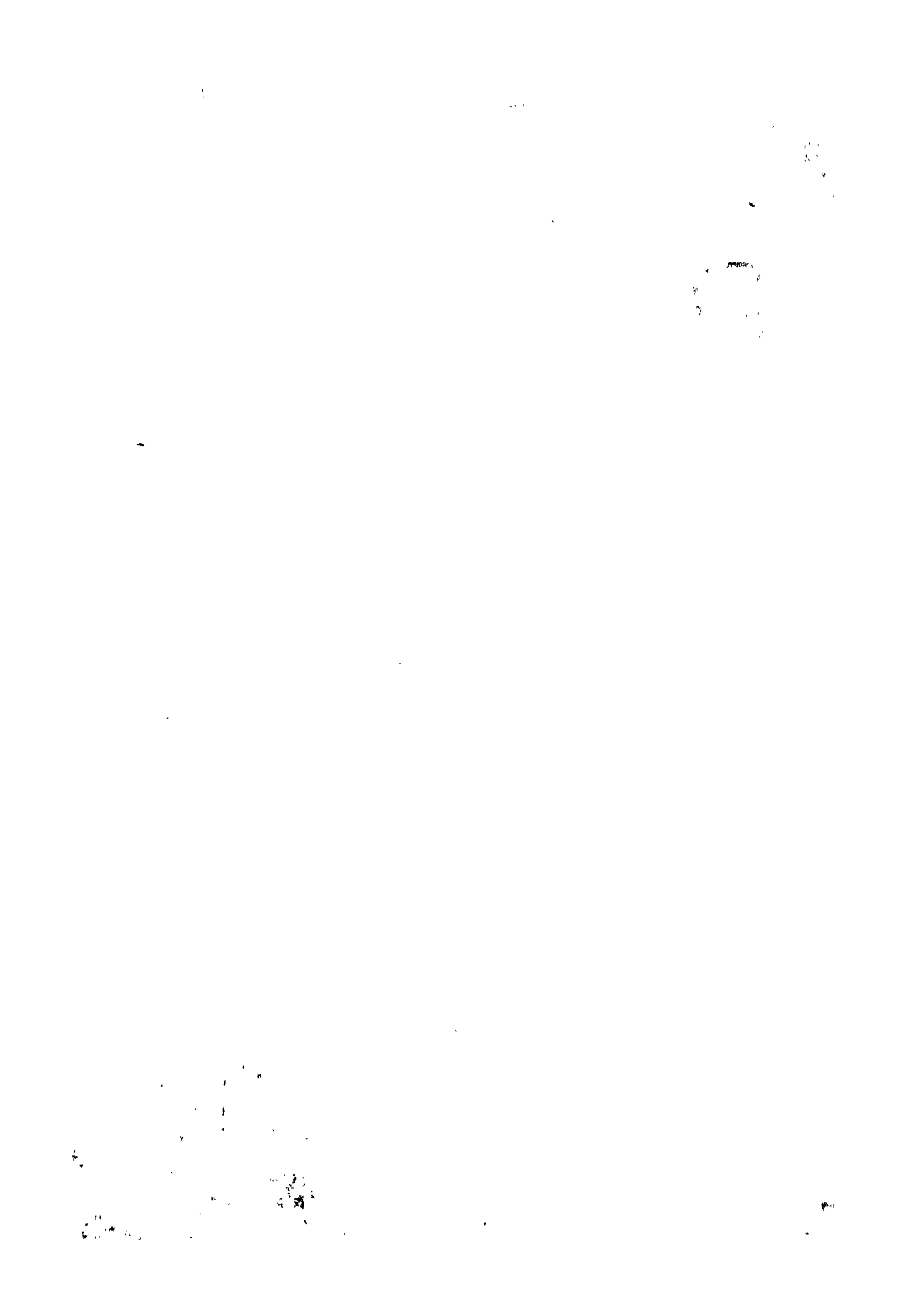
من دار القلم شارع السور ص . ب ٢٠١٤٦ الكويت

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنو (الهند)

رئيس التحرير: سعيد الأعظمى



البعث الإسلامي





البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

المجلد السابع والعشرون

العدد الرابع

★ محرم الحرام ١٤٠٣هـ ★

★ أكتوبر و نوفمبر ١٩٨٢م ★

بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى ، غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره و ألوانه ، و هذه هى نقطة الفصل ، ونقطة الالتباس أيضاً ، الأصل — فى المجتمع الاسلامى — هو العبودية لله ، و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان ، و الجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان . أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكون لتحقيق مهمته فى هذه الحياة ، وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولا يأخذ منها إلا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله .

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسني

(الاسلام الممتحن ص ١١٠)

البعث الإسلامي ندوة العلماء ص ب ٩٣ لكهنؤ

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية :

من الغاية الواسعة العميقة
إلى نقطة ضيقة محـــدودة

ما ظنكم بالاتجاهات السياسية فى المجتمعات المادية ؟!

هل يصح لأى شخص من أصحاب هـذه الاتجاهات أن يؤيد حزبه أو زعيمه فى أمور و يعارضه فى أمور أخرى ، بل هل يمكنه أن يعطى ولاءه لذلك الزعيم أو ذاك الحزب بنسبة ٩٠٪ مثلا ، ويحجز العشرة الباقية لمصلحة نفسه أو لحاجة طارئة ؟؟ هل يسمح له اتجاهه هذا بتفكير فى تقسيم ولائه بين جانبين متعارضين أو جوانب مضادة ، أم أن مجرد تفكير فى مثل هذا الانطلاق يعتبر جريمة كبرى تفرض على صاحبها عقاباً يكون نكالا لغيره ، سواء بفصله عن عضوية الحزب و حرمانه من كل عطف ، ثم تضييق الحصار عليه و مراقبته بكل دقة ، وقد يودع وراء القضبان الفولاذية إذا كان فى بلد شيوعى أوحكومة دكتاتورية ، بل الواقع أن أدنى ريبة تتجلى لهم من خلال نشاطات الرجل تجعله موضع نقمة شديدة و سريعة فى الدول الشيوعية و أنظمتها .

أما فى الدول التى تجرب الديموقراطية فالرجل يتقيد فيها بدستور الحزب ، و يطالب بالتأييد الكامل قولا و عملا للحزب ، و بالاستعداد التام لمصلحة الحزب ، و لكنه إذا تغير فى شئ من ذلك أو تظاهر بتأييد ناقص و ولاء غير مخلص فانه يطرد من الحزب أشنع طرد ، وقد لا يساعده الحظ فى عيش كريم و تختطفه الأيدى المجرمة بالتصفية الدائمة .

هذه النظرة المادية الضيقة لم تعد سراً من الأسرار ، و لكنها باتت حقيقة ملموسة لدى الجميع فى كل بلد ، ويذهب ضحيتها كل يوم من الخاصة و العامة ما لا يخفى على الخبير بالأوضاع ، إن هذه النظرة المادية تستعبد الفكر وتصوغه فى قالب مادى خاص ، إذا حاد عنه فى شئ - ولو كان تافهاً - لاستحق كل عقاب ، إنها لا تترك الحرية للضمير فى أى مناسبة . حتى فى الشئون الشخصية التى لا علاقة لها بمصلحة من مصالحها ، و لذلك فان من ينتمى إلى مثل هذه النظرات الزائفة المادية يقتل ضميره قبل أن يتم له هذا الانتماء ، ويبلد شعوره ويفتك بحسه ، فيعود تمثالا متحركا لا يملك من أمره شيئاً ، و يجعل كل صغير و كبير و حتى عقله و قوة تفكيره و حكمه خاضعاً للرئيس أو الزعيم الذى يمثل الحزب الذى انتمى إليه .

يصدق ذلك ما قد جاء فى بعض القصص القديمة من أن ملكا التف حوله شطار من الوزراء و المتزلفين و أرادوا أن يستغلوه بتملق و إبداء ولاء كاذب له ، فطفقوا يفدونه بمهجهم و أرواحهم و يكيلون له ثناءاً بالغاً فى مناسبة وغير مناسبة ، حتى بلغ به الاعجاب بالنفس إلى أن تعود منهم التأييد الكامل فى كل شأن ، فما لبثوا أن تجردوا عن الضمير وصدقوه فى كل كذب و صوبوه فى كل خطأ ، علماً منهم بأن الملك لا يرضيه إلا هذا الأسلوب وحده ، ثم لم يضرهم إذا خلعوا وخز الضمير مقابل رضا الملك و جوائزه .

مثل هذه العقلية الاستغلالية المادية تسربت إلى صفوف من المسلمين الواعين فقد رأينا أن بعض الناس يبدون إعجابهم بجماعة دينية أو بشخصية بارزة لها من المكانة و العظمة ما لا ينكره أحد ، و ينضمون إلى نشاطات تلك الجماعة أو دعوة ذلك الرجل الكبير . و لا يتركون أى فرصة للعمل و النشاط و الحماس و التأييد إلا و ينتهزونها ويستمرون فى ذلك ما داموا يتلقون لقاء نشاطهم وجهدهم ارتياحاً

نفسياً أو نفعاً مادياً ، أو ما لم يتحقق لهم غرضهم المنشود من وظيفة أو منصب و جاه ، و لكنهم بمجرد ما يتواجد لهم مطلوبهم يدب إليهم الفتور ، و على مر الأيام ينسحبون عن ذلك المجال إما بتدبير حيلة ، أو بالصاق تهمة ، أو بتوجيه ذنب إلى الوسط الذى عاشوا فيه .

ذلك أن الغاية الواسعة العميقة التى توخاها المسلم من نشاطه وعمله ، فى ضوء تعاليم الاسلام سابقاً انكمشت الآن بوجه عام فى نقطة ضيقة محدودة ، يمكن أن نعبر عنها بالعاجل أو الدنيا فحسب ، تلك هى النقطة الضيقة التى بدأت حياتنا تدور حولها ، فلا يهم المسلم اليوم من إسلامه إلا بعض الأشكال و الأزياء أو بعض الشعائر الدينية ، أو أداء بعض العبادات و الطقوس الظاهرة ، دون إصلاح النوايا و إخلاص العمل (لله تعالى) و تطهير النفس من الشوائب المادية الآثيمة و تزكية القلب من حب لدنيا و متاعها ، و دون طلب لمرضاة الله تعالى ، و تحقيق الطاعة المأمور بها فى الكتاب و السنة لله و لرسوله ، و من غير تقوى الله تعالى التى هى القطب الأصيل لحياة المسلم « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا و أنتم مسلمون »

لقد أصبحت اليوم فكرة الآخرة موضع سخرية لدى كثير من الناس ومدلول الحق و السفه فى أوساط تعتبر أنها أوساط راقية مثقفة لا تؤمن إلا بالحقائق و المشاهدات دون الافتراضات و الغيبيات ، و كذلك الايمان بالغيب لم يعد له أى أهمية أو حاجة لدى هذه الطبقة المنحرفة التى تتخبط فى الظلام و تعيش فى متاهات الشكوك و الأوهام . دع عنك العامة من الناس و إنما تستطيع أن تجرب الخاصة من العلماء والدعاة والموجهين . فى المعتقدات الغيبية ، لكى تتوصل إلى نتيجة محزنة . وتتكشف لك ما يعيش فى خفايا نفوسهم نحو هذه المعتقدات الأساسية من

شبهات ، و بتعبير أصح لا تكاد تستسيغ عقولهم حقيقة الآخرة ، من القبر إلى الجنة أو النار . رغم أنهم يكررون هذا الموضوع ، ويعلمونه غيرهم ويتناولون الناس بالوعظ و التوجيه فيما يتعلق بالآخرة .

و من هنالك يحدث من المنكرات و الانحرافات و من المعاصى و التناقضات الخلقية ما يملأ المجتمعات الاسلامية فى كل بلد ، و فى كل دولة ، تناقضات تعيشها الأمة الاسلامية على جميع المستويات فى القول والعمل ، فتجد الرجل العادى ورجل الشارع يقول ما لا يفعل ، يعلن أنه مسلم و يعتز باسلامه . غير أنه لا يتحاشى عن الأخلاق غير الاسلامية ، ولا يتردد فى تقليد غير المسلمين من أتباع الحضارات المادية و أصحاب النظرات العفنة نحو الحياة و الانسان والكون ، و كذلك الرجل المسلم الذكى الذى مارس الحياة ، وجالس العلماء ، ودرس الاسلام بتعمق ، لا يكاد يطبق الاسلام على نفسه كامل التطبيق ، لأنه لم يصادف النموذج الاسلامى فى أى مكان ، وظلت السيرة الاسلامية الكاملة ، ضالته رغم مجالسته العلماء والدعاة ، ومعايشته المجتمعات التى تسمى إسلامية .

نستطيع أن نرى نماذج كثيرة لهذه التناقضات فى أوساطنا و بيئاتنا . فمثلا هناك شخص متدين متصلب فى عقيدته ، يواظب على أداء الشعائر الاسلامية بغاية من الدقة و الأمانة ، لا يكاد يتخلف عن الصلوات المفروضة فى المسجد ، و لا تفوته السنن و النوافل ، و الأذكار و الأوراد ، و حتى أعمال البر والخيرات مع الناس ، إلا أنه لا يبالى بأداء وظيفته بالدقة والأمانة ، وليس عنده شعور بالمسئولية عن العمل الذى يتقاضى راتبه شهرياً ، أو أنه رغم تصلبه فى الدين و العقيدة ، و مواظبته على أعمال البر والخير و اهتمامه بالصلوات و العبادات ، لا يتحاشى من الخيانة و أكل أموال الناس بالباطل ، و لا يرى بأساً فيما إذا انتهز فرصة للغش

والخداع ، ولو مع غير المسلم ، وكذلك الشخص الذى يبلغ فى التورع والصلاح ، وفى الكفاءات العلمية والخلقية مبلغاً عالياً جداً ، وله مكانة فريدة فى العلم والتقوى ، و لكنه حريص على الدنيا والمتاع الحقير ، فلا يحفل بما إذا تعدى خطه فى التدبير للحصول على مال قليل و متعة حقيرة من الدنيا .

أما أن يكون الرجل من قادة الدين والشريعة ، و يتمتع بعلو المكانة و سمو الوارثة وعزة النسبة و خدمة الخلق ، ثم لا يتحرج فى اقتراف الكبائر ، وارتكاب المنكرات ، و لا يتلكأ فى التظاهر بأخلاق غير مرضيـــة ، فذلك شائع فى يومنا هذا ، إذ لا يوجد شئ من سفاسف الأمور و سوء الأخلاق . وشئ من الرذائل الخلقية إلا و هو متوفر فى أوساطنـا ، دون أن نرى ذلك أمراً شاذاً ، أليست الأمراض الخلقية من الاغتيـاب و السخرية ، و النميمة و الكذب ، و الخيـانة ، و الاهانة و الكبر و الفجور و الحسد ، و سرعة الغضب و الاحتقار ، والاتهام ، و التآمر و التنابز ، و سوء الظن ، و التجسس ، و التدابر و التباغض والتحاقد ، و كذلك حب المـال و الجاه ، و المنصب و المتاع ، و الركون إلى الشهوات و الفواحش ، أ ليس كل هذه الأدواء من خصائص المجتمع الذى نعيش فيه ، بل من علامات الحياة التى يعيشها المسلمون اليوم بوجه عام .

و من الطبيعى أن ينشأ هنا تساؤل حول الوضع الحاضر ، و نتساءل عما إذا كانت الاتجاهات السياسية لا تسمح بأى حال بالركون إلى غير النظرة التى تفرضها على أتباعها ، فضلا عن تأييد نظرة أخرى . و حتى لا تسمح بالتفكير فى أى شئ يعارض روح الحزب أو الزعيم ، فكيف يسوغ لنا نحن زعماء المسلمين وعلماءهم أن نبيح لأنفسنا كل هذه التناقضات ، و نعيش نصف الاسلام ، أو ثلثه و ربعه ، فنتصلب فى العقيدة و نلين فى المعاملات ، و نقسو فى الفضائل ونسامح فى الرذائل ، و نشدد فى العبادات ونهمل الأخلاق . و نهتم بالأشكال الظاهرة و القشور ونترك

الحقائق المستورة و اللباب ، و كيف نسوغ لأنفسنا أن نجمع بين الأمانة والخيانة ، و بين الحلال و الحرام ، و بين التطلع إلى الآخرة و التهافت على المتاع الحقير ، و بين السيرة الاسلامية و تقليد العقلية المادية ، و بين مسئولية الدعوة و التوجيه و الاعجاب بالفلسفات التى ثبت زيفها و فشلها . و بين حب الله ورسوله و حب أولياء الشيطان و ذريته .

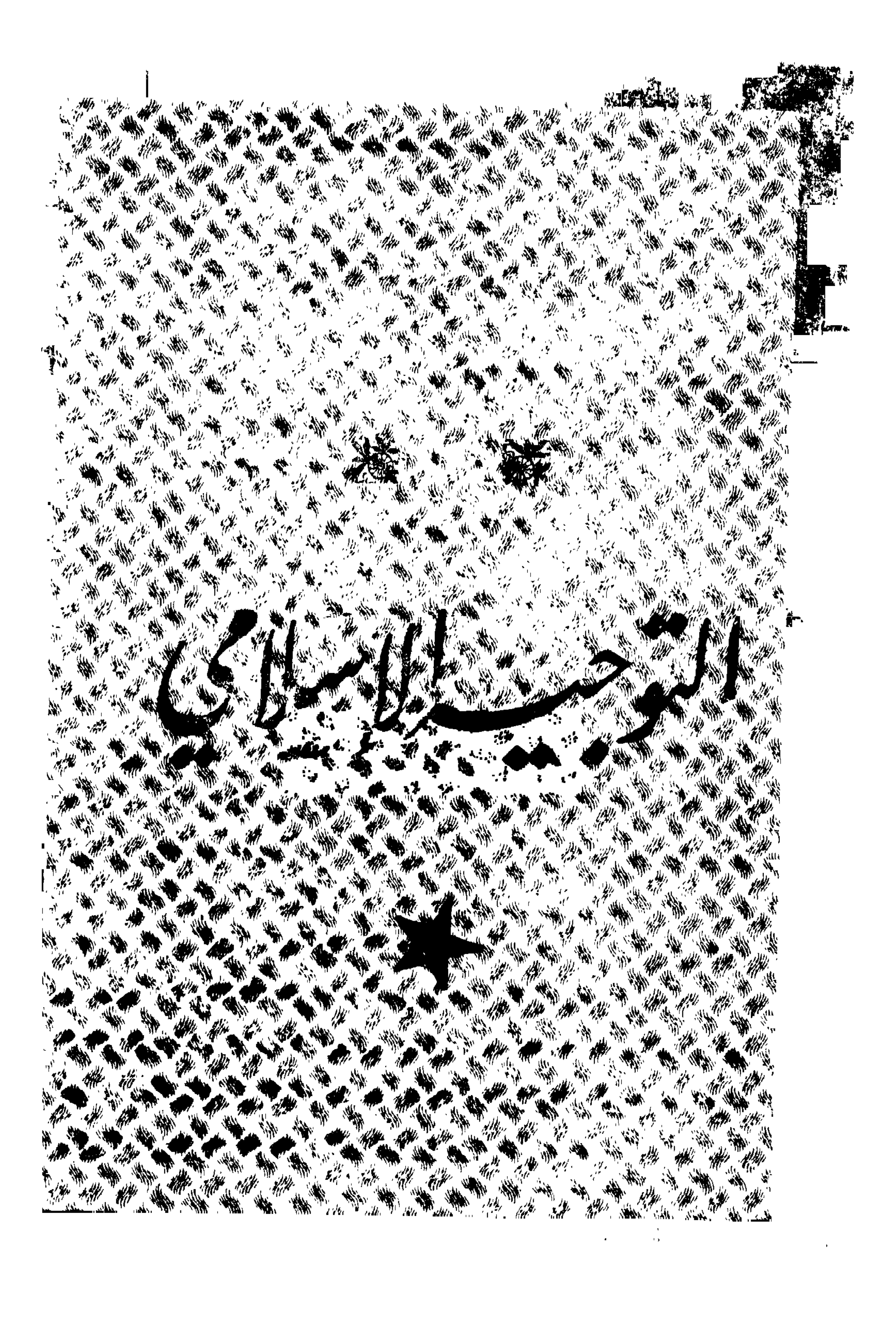
إذا كانت النظم المادية والفلسفات الوضعية الحقيرة لاتسمح لأتباعها والمعجبين بها بتشطير الولاء ، و تقسيم الوفاء بين جانب وجانب . أو العمل ببعض النظريات و إهمال بعضها ، فالاسلام أولى بذلك منها و أحق بأن نعلن فى وضوح وصراحة أنه « كل » لا يقبل أى تجزئة ، و « كامل » لا يرضى بتمثيل ناقص . ذلك أن يأخذ المسلم بعض تعاليمه بعين الاعتبار ، و يطوى كشحاً عن البعض الآخر ، أو ينفذ جزءاً و يعرض عن جزء آخر . « إن الدين عند الله الاسلام » « يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »

لا يقر الاسلام بأى تقسيم أو بنصف و ثلث و ربع ، وإذا كان المسلمون اليوم يمثلون إسلامهم ناقصاً غير كامل فليس ذلك مما يرجع عيبه إلى الاسلام نفسه ، لأنه دين القصد والاتزان ، ودين العقيدة والسلوك ، ودين الحياة الشامل الكامل .

لا يقر الاسلام بأنصاف المسلمين و أثلاثهم و أرباعهم ، إنما يريد مسلمين كاملين بكل ما فى الكلمة من معنى ، وقد ثبت فى ضوء الحقائق و التجارب العملية أن الاسلام هو الدين الأخير الذى أنزله الله سبحانه على رسوله الكريم محمد ﷺ لتحقيق السعادة و الأمن للنوع البشرى بأكمله فى كل زمان و مكان .

و لكن لا بالاسلام الذى نعيشه اليوم فى عصرنا ، و لكن بالاسلام الكامل الذى عاشه السلف الصالح من هذه الأمة ، « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون » .

سعيد الأعظمى


التوجيه الإسلامي

عروج النبوة و هبوط الجاهلية

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسني الندوى

« و النجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم و ما غوى ، و ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، و هو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر و ما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرأيتم اللات و العزى ، و مناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للانسان ما تمنى ، فلله الآخرة والأولى ، وكم من ملك في السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى ، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن و إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، فأعرض عن من تولى عن ذكرنا و لم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، و هو أعلم بمن اهتدى »

(سورة النجم : ١-٣٠)

إن الدين الذى لم يزل الأنبياء يأتون به فى عصورهم ، و جاء به محمد ﷺ أخيراً قائم على اتصال الأرض بالسماء و اتصال الشهود بالغيب ، و اتصال رس الأرض برسل السماء ، ويفتح كوة جديدة للعلم واليقين لا عهد لعلماء الطبيعة والآدا بها و لا سبيل لهم إليها ، هذا الاتصال هو الذى يسميه الله بالوحى و الرسالة وكان اتصالا يدين له العالم وتدين له الأجيال البشرية فى أعز ما عندها من العقي الصحيحة والمبادىء الصالحة والمدنية الفاضلة ، والأخلاق الكريمة ، وأحدث وأفه ثورة و أمثلها و أعدلها و أعمقها و أوسعها فى المجتمع البشرى .

يحكى الله فى مطلع هذه السورة الكريمة البديعة الجميلة التى سميت بسورة الن هذا الاتصال المبارك ، اتصال الرسول الكريم بوحى السماء عن طريق الملك الك و يقول مؤكداً : « ما ضل صاحبكم و ما غوى » ، و يقول إن الرسالة التى بها لا تقاس على ما أنتجته القرائح البشرية والعقول النابغة ، فمصدرها القياس والتج و منبعها الدراسة و الممارسة ، و دافعها الهوى و الضرورة .

أما الرسالة التى جاء بها محمد ﷺ فمصدرها الوحى و الالهام «« و ما ي عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » فلا يتطرق إليها الشك ، ولا تبطلها التجا و لا يعتريها البلى ، و لا تتناقض مع الحقائق ، و لا تفقد حياتها وجدتها عصر من العصور .

ثم وصف الله الواسطة الكريمة التى حملت هذه الرسالة إلى أفضل البشر بـ و صفات فيها الجلال و القوة ، و فيها الروعة و العظمة ، و وصف الجو يكتنف هذا الاتصال بصفات تتصل بعالم الغيب و عالم الروح و الملائكة ، - فنفى الوهم و الالتباس فى ساعة الوحى و تلقى الالهام و مشاهدة الملائكة والا

بعالم الغيب فقال : « ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

ثم أقبل إلى عباد الأوثان و أهل الجاهلية و الوثنية فى عصر ظهور الاسلام وقد حرصوا على تخصيص الاناث بالعبادة و إشراكها فى الألوهية ، فاللات والعزى ومناة أشهر آلهة الجاهلية العربية وأعظمها ، إناث ، وآلهة الاغريق القدماء ، وكثير من الشعوب التى كانت تسكن فى أواسط آسيا ، إناث ، وقد عرفت واشتهرت كراهة العرب و تذمها من البنات ، حتى شاع وأد البنات فى قبائل كثيرة ، و قد صور القرآن امتعاض العرب الأشراف من بنت تولد . تصويراً بليغاً دقيقاً فقال : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً و هو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب »

أقبل إلى هؤلاء المشركين الذين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا و جعلوا لله البنات و لهم البنين فقال : « أفرأيتم اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى » ثم قال متهكماً ساخراً : « تلك إذاً قسمة ضيزى »

وهكذا الوثنية خرافة وتناقض وأسطورة خيالية « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »

و ذلك لأن الجاهلية تقوم دائماً على الأساطير و الحكايات و التقاليد و العادات ، و الظنون و القياسات ، و الأهواء و الشهوات ، « إن يتبعون إلا الظن و ما تهوى الأنفس »

ثم ذكر أن هذه الجاهلية لا تقوم على أساس من العلم و اليقين ، إنما هى قياس فى قياس وظن وتخمين ، « و ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن و إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

و ذکر أن فی الناس طبقة لا شأن لها بالمعرفة الصحیحة ، و الحیاة الباقیة ، و الأعمال الصالحة و الأخلاق الفاضلة . أکبر همها و مبلغ علمها هذه الحیاة الدنیا و رفاهیتها و دعتها ومآکلها ومشاربها ، هذه هی الطبقة التی تضیع فیها حکمة الأنبیاء و شفقتهم و إخلاصهم و توجههم ، فالأولى الانصراف عنها إلى طبقة تبحث عن الهدایة ، و تهتم بالآخرة ، « فأعرض عن من تولى عن ذکرنا ولم یرد إلا الحیاة الدنیا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبیله و هو أعلم بمن اهتدى » .

و اقرأوا الآیات الآتیة بعدها تروا أن الله سبحانه وتعالى القادر على کل شئ وخالق کل شئ من السماوات والأرض ، کیف یقسم جزاءه بین من أساؤا بالعمل و من أحسنوا بالحسنى ،

«ولله ما فی السماوات وما فی الأرض لیجزی الذین أساؤا بما عملوا ویجزی الذین أحسنوا بالحسنى » .





حكام المسلمين .. و تحديد فترة الرئاسة

بقلم : دكتور فاروق عبد السلام

مما توصلت إليه وأخذت به بعض الدول الغربية فى مجال الفكر السياسى الحديث مبدأ تحديد فترة الرئاسة .. بمعنى عدم أحقية الحاكم فى ترشيح نفسه لأكثر من فترتين أو حسب ما ينص الدستور .. و هذا يعنى عدم أحقية الحاكم فى حكم بلاده لأكثر من عدد معين و معلوم من السنوات .. حتى ولو لم يرتكب من الاثم مايستحق عليه المساءلة طوال فترة حكمه لبلاده .. حتى ولو لم يوجد من هو أفضل منه ، أى و لو لم يكن اللاحق له خيراً منه أو فى مستواه ..

.. و قد يبدو للباحث المسلم و لأول وهلة أن هذا المبدأ ترفضه روح الشريعة ويرده الفكر السياسى الاسلامى .. يدفعه إلى ذلك الاعتقاد من الواقع العملى والتطبيق اضطراد بقاء الخليفة فى الحكم مدى حياته و حتى نهاية عمره .. ومن الواقع النظرى ما يستشفه و لأول وهلة أيضاً مما ورد فى الأثر من أقوال لبعض الخلفاء الراشدين و بعض فقهاء الفكر السياسى الاسلامى .

.. قال خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق (١) :

« أطيعونى ما أطعت الله و رسوله فاذا عصيت الله و رسوله فلا طاعة لى عليكم »

---

(١) تاريخ الطبرى - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر ١٩٦٩م ج ٣ ص ٢١٠ .

و هذا يعنى طاعة الحاكم و عدم خلعه طالما كان و ما دام طائعاً
لله و رسوله .

.. و قال ذو النورين عثمان بن عفان و هو محصور فى محنته (١) :

« أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله عز وجل
و أكرمنى به و خصنى به على غيرى » .

.. و يقول الامام أبو الحسن الماوردى فى « العزل » (٢) :

« ما كان فى غير سبب فهو خارج عن السياسة »

و يقول أيضاً :

« و قد قيل ـ العزل أحد الطلاقين ـ كما أنه لا يحسن الطلاق
لغير سبب كذلك لا يحسن العزل لغير سبب ، و إذا لم يثق
الناظر باستدامة نظره مع الاستقامة عدل عنها إلى النظر لنفسه
فعاد الوهن على عمله »

.. و مازال هذا الاعتقاد سائداً حتى عصرنا الحديث و يسلم به الكثيرون و من
ذلك على سبيل المثال ما أورده الدكتور مصطفى كمال وصفى فى مشروعه
أو تصوره لدستور إسلامى (٣) :

مادة ١٩ : تكون مدة الامامة مدى الحياة ويحدد القانون أحوال عزله ومن
يقوم مقامه فى أحوال غيبته أو امتناع قيامه بمهمته .

---

(١) تاريخ الطبرى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر
١٩٧٠م ج ٤ ص ٣٧٦ .

(٢) قوانين الوزارة ـ الماوردى ـ تحقيق دكتور فؤاد عبد المنعم ودكتور محمد
داود ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ اسكندرية .

(٣) الدستور الاسلامى ـ دكتور مصطفى كمال وصفى ـ القاهرة .

هذا و يتعين على الباحث المدقق و القارىء الجاد قبل الحكم أو الفتوى فى هذا المبدأ محل البحث من وجهة النظر الاسلامية أن يعمل فكره ويمعن نظره أولا فى الأقوال و الأفعال الآتية :

★ أولا : قول الامام مالك :

« كل أحد يؤخذ من كلامه و يترك إلا النبى ﷺ »

★ ثانياً : صلح الحسن بن على بـ تنازله عن الامارة لمعاوية بن أبى سفيان .

و لو كان المقصود و المفهوم من خليفة رسول الله أبى بكر الصديق وذى النورين عثمان بن عفان السالف ذكره عدم خلع الامام نفسه و عدم خلع المسلمين له مادام طائعاً لله و رسوله ما خلع الحسن نفسه أبداً و هو ابن بنت رسول الله و من أقدر خلق الله على طاعة الله و رسوله .

★ ثالثاً : ورد فى رواية ابن قتيبة الدينورى (١):

« قال حويطب بن عبد العزى : أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدا لى أن أتهم نفسى لهؤلاء ، فأت علياً وطلحة والزبير فقل لهم : هذا أمركم تولوه واصنعوا فيه ماشئتم »

و مما ورد فى الطبقات لابن سعد أن المغيرة بن الأخنس أشار على عثمان بأن يخلع نفسه فطلب ذو النورين رأى عبد الله بن عمر الذى قال له :

« فلا أرى أن تسن هذه السنة فى الاسلام ، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه ، لا تخلع قميصاً قمصكه الله »

و من هذا و ذاك يتضح بجلاء أن سيدنا عثمان بن عفان قد بدا له فى وقت

---

(١) الامامة و السياسة - ابن قتيبة الدينورى - الحلبى بمصر ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م ص ٣٥ .

من أوقات محنته أن يخلع نفسه .. و أن رفضه للخلع كان بمشورة .. و أنه لم يكن من الوارد على الخاطر يوماً و لا هو من الاسلام النظر إلى الامارة على أنها حق إلهى لا يمس و لا يناقش بالمفهوم الثيوقراطى و الكهنوتى .

★ رابعاً : يقول ابن عقيل (١) :

« السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح و أبعد عن الفساد و إن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى » .

أى أن كل ما تتحقق من ورائه المصلحة يعمل به ما لم يناقض نصاً قطعى الثبوت و الدلالة أو يتعارض مع قاعدة شرعية متفق عليها .

وعلى هذا أكثر شئون الحكم والسياسة .. فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلم أن رسول الله عليه أفضل الصلاة و السلام لم يستخلف و أن خليفة رسول الله أبى بكر الصديق استخلف واحداً و استخلف هو الستة الباقين من المبشرين بالجنة ليختاروا من بينهم واحداً مخالفاً بذلك ما كان من الرسول و من أبى بكر الصديق قائلا (٢) :

« إن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى و إن أدع فقد ودع من هو خير منى »

هذا و مبدأ تحديد فترة الرئاسة لا يوجد فى شرع الله ما يرده أو يتعارض معه من نص قطعى الثبوت و الدلالة أو نص لا يحتمل التأويل أو قاعدة شرعية متفق عليها .

---

(١) ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين ج ٤ ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) الامامة والسياسة - ابن قتيبة الدينورى - الحلبى بمصر ١٩٦٩م ص ٢٣ .

يقول الشيخ محمد الغزالى و هو من المعاصرين (١) :

« التوقيت والاطلاق سواء من الناحية الفقهية و تتواضع الأمم على ما تراه ، أكفل لحقوقها فاذا آثرت أن يكون اختيار الحاكم لأمد معلوم فلها ذلك »

ثم يضيف سيادته :

« لا سنة إلا بنص و لا نص هنا »

و يرى كل من الفقيه القانونى الدكتور السنهورى و أستاذ التاريخ الاسلامى الدكتور ضياء الدين الريس موافقة روح الشريعة للمبدأ مبدأ تحديد فترة الرئاسة وعدم الاعتراض عليه على أساس أن الامارة تدخل فى دائرة العقود والعقد شريعة المتعاقدين و من حق طرفى العقد أن يضيفا من الشروط ما يجلب المصلحة و يسد باب الفتنة و المفاسد .

يقول الدكتور ضياء الدين الريس (٢) :

« ما دام علماء الاسلام قد قرروا أن الامامة أو الدولة تقام بمقتضى - عقد - و قرروا حرية التعاقد قياساً على ما ساقوا من حديث بالنسبة لعقود أخرى يكون من حق طرفى العقد أن يضيفا من الشروط ما يريانه ملائماً ما دامت الشروط لا تتنافى مع طبيعة العقد و مادامت تحقق المصلحة العامة و بناء على ذلك لا يكون هناك أى مانع من أن يشترط الأمة - إذا أرادت - أن يكون العقد محدداً بأجل زمنى قابل للتجديد أو غير قابل » .

⁂ ⁂ ⁂

(١) مجلة الأمة - قطر - العدد العاشر ، السنة الأولى ص ٧٢ .

(٢) النظريات السياسية الاسلامية - دكتور محمد ضياء الدين الريس - دار المعارف بمصر ١٩٦٩م ص ٣٣٣ .

غاية الأمر أن مبدأ تحديد فترة الرئاسة من أهم المبادىء التي يجب أن تأخذ بها الشعوب الاسلامية المعاصرة إذا كانت تنشد بحق إصلاح حالها و النهوض من كبوتها و حيرتها .. و يجب أن يطالب به و يدعو إليه فقهاء المسلمين و علماؤهم في شتى المجالات و خاصة مجال الفكر السياسي الاسلامي .. كما يجب أن يتسامى حكام المسلمين المعاصرين إلى مستوى الأخذ بهذا المبدأ والعمل به رحمة بأنفسهم وبشعوبهم البـــائسة ..

.. ذلك ببساطة لأن المتأمل لحال المسلمين اليوم لا يجد حاكماً مسلماً بغير استثناء في شتى بلاد الاسلام اعتلى عرش السلطة و نزل من عليه إلا ميتاً أو مقتولا أو مطارداً مطروداً !!

.. ولا يشارك شعوب المسلمين في ذلك إلا شعوب العالم الثالث المتخلفة و النامية و شعوب الكتلة الشرقية الملحدة .

.. و الحاكم و تحت حوزته و في يده اليوم ما هو معلوم من الأسلحة والأجهزة و المعدات الحديثة لا يقتل و لا يطرد إلا و قد قتل و شرد و ضرب و أفسد و بدد و أتى على ثروات بلده و أزهق أرواح الآلاف من أبناء شعبه الأعزل .

.. و إصرار الحاكم على البقاء على كرسي السلطة مدى الحياة يكلف بلده الكثير لأن جزءاً كبيراً من ميزانية بلده سوف يخصص لحماية عرشه .. و سوف يقوم هو وبطانته وهم كثير بتهريب الكثير جداً للبنوك الأجنبية خارج بلده استعداد لساعة الصفر ..

.. و لو علم الحاكم مسبقاً أنه سوف يبقى فترة من حياته ولو ليوم واحد خارج السلطة غير متوج ما أقدم على اقتراف جرم واحد يضعه محل المساءلة وسوف

يعمل لهذا اليوم ألف حساب .

.. هذا ولا يغيب عن فطنة المواطن العادى مدى التلبيس أو التزييف الذى يمكن أن يحيط بقضية إثبات استمرار بقاء الوالى أو الحاكم على الطاعة .. إذ ما أيسره من مهمة على حكام اليوم وفى ظل ظروف العصر لو شاء الواحد منهم استفتاء شعبه على تجديد الثقة به و مبايعته و الشهادة له بالطاعة وقتما يشاء و كلما شاء و ان تكون نتيجة الاستفتاء على غير المعهود و المعتاد .. من حيث الموافقة و بالاجماع و بنسبة لا تقل عن تسعة و تسعين فى المائة .. ولو استفتاهم على أنه الحسيب النسيب و سادس الخلفاء الراشدين وأمير المؤمنين و وحيد عصره و زمانه ؟!

إن مبدأ تحديد فترة الرئاسة فى ظل ظروف العصر الحديث هو سر الأسرار وراء استقرار النظم السياسية فى دول الغرب .. ومن أهم عوامل تفوق الغرب علينا .. و من أهم ضمانات الحرية السياسية .. و يعجب المرء و يعصره الألم كلما تأمل فى مرارة و سأل النفس بكل الحزن و الأسى ..

كيف سبقنا الغرب فى مجال ترويض شهوة حب السلطة والتعلق بها والعض عليها ؟!

وكيف وجد من بين أبناء أهل الكتاب من يعزل عنها فى حياته راضياً مرضياً حريصاً على أن يكون أول المهنئين لمن يحمل الراية من بعده .. و نحن نعض عليها بالنواجذ حتى الموت وبيننا كتاب الله يتلى يأمر بالعدل والمعروف والزهد والقناعة و الرحمة و الايثار !!

:: :: ::

مشكلات الشباب و حلولها
★ فى ضوء الكتاب و السنة ★

(الحلقة الثانية) الأستاذ على القاضى ، مشرف تربية عملية
(جامعة قطر)

مشكلات الشباب المعاصر :

و جاء العصر الحديث ليغرق الشباب بمشكلات متعددة ، و كانت هذه المشكلات خطيرة ومتشابكة ، ذلك لأن الغرب قد تقدم صناعياً ، و استعمر البلاد الاسلامية كلها تقريباً وقام بنشر أفكاره بين الشباب وهو فى مركز القوة والتوجيه ، و ربى مجموعات كبيرة من الشباب المسلم على مفاهيمه الجديدة و ملكهم قيادة الحكم و التوجيه و التربية و وجد الشباب نفسه فى حيرة لا يدرى كيف يخرج منها و أحس بالمشكلات تحيط به و تملك عليه نفسه .

★ حول الطبيعة البشرية :

و كان من أهم هذه المشكلات الحديث حول الطبيعة البشرية هل الانسان أصله حيوان سار فى طريق التطور أم أنه مخلوق متميز ! .. و لهذه النظرة إلى الانسان آثارها العميقة فى نفس كل شاب بل آثارها المدمرة حين يحس بأن أصله حيوان كبقية الحيوانات فى هذه الدنيا .

وفى عام ١٩٧٨م أصدر البروفسور أدوارد نلسون أحد مؤسسى علم الأحياء الاجتماعى (و هو محاولة لدمج العلوم الاجتماعية بعلم الأحياء) و الأستاذ بجامعة

بيركلى ثم هارفارد كتاباً بعنوان : « حول الطبيعة البشرية » يقول فيه الكاتب عن علماء البيولوجيا : إن علماء القرن الماضى كانوا يعتقدون بأن الانسان لا يتميز عن بقية الثدييات بيولوجيا إلا ببعض الصفات الفسيولوجية التى اكتسبها من خلال تطوره و ارتقائه كانتصاب القامة وتطور تركيب الأطراف الأمامية واتساع الجمجمة الذى بدأ يسمح بنمو و مقدرة المخ .. إلخ .

و جاء علم القرن العشرين لكى يكتشف أن الانسان نوع متميز منذ بدأ الخليقة و أن امتيازه متطور فى خلاياه التى تتضمن صفات خاصة به وحده ينقلها إلى أبنائه و أجياله وتتطور هذه الخلايا حاملة خصائصه الوراثية (الجينات) تطوراً خاصاً رغم تأثره بما يكتسبه الانسان من معلومات وقدرات جديدة فى صراعه ضد الطبيعة ، وقال الكاتب عن علماء الاجتماع الوضعيين و التاريخيين كالماركسيين : إنهم كانوا يعتقدون بأن الانسان توقف غالباً عن التطور البيولوجى و الفسيولوجى وأن تطوره انتقل إلى مجال المخ والجهاز العصبى نتيجة دخوله فى مرحلة تكوين المجتمعات أى أن تاريخ الانسان أصبح تاريخاً اجتماعياً فقط و ليس تاريخاً بيولوجيا - و أن مخ الانسان وقدرته العصبية وحدها هى التى تتغير مع مكتسبات العلوم والتكنولوجيا و أدوات الانتاج و أساليبها و مع تسليمهم بأنه ليس للانسان أى تميز بيولوجيا يفصله عن عالم الثدييات الحيوانى إلا ببعض الصفات الفسيولوجية تتجسد فى بعض المهارات التى تمارسها أعضاؤه و التناسق المتطور لجهازه العصبى ومركزه فى المخ .

و جاء العلم الحديث لكى يكتشف أن للانسان صفات ثابتة لا يلحقها أى تغيير لأنها صفات تحمل خلاياه الوراثية كأنها بصمات أصابع شخص واحد لا يتغير طوال عمره و أن المكتشفات الحديدة تضاف إلى الصفات الثابتة و لا تمحوها .

و قال الكاتب عن علماء الانثروبولوجى : إن أصحاب هذا العلم الجديد نسبياً

كانوا يحاولون تفسير الوجود الاجتماعى و التاريخى للانسان عن طريق تركيبة نظرية تجمع بين علماء الآثار و تاريخ تكنولوجيا و تاريخ العلم و تاريخ العقائد و الفنون يربط بينهما تصور فسيولوجى اجتماعى ، وأنهم كانوا يفسرون (التغيرات) والاختلافات التى شهدها تاريخ البشرية على أساس تبادل التأثير بين تطور استخدام الانسان لأعضائه ومهاراته ومعارفه بين التحولات الاجتماعية المختلفة صغيرة أو كبيرة فكانوا قادرين على الاحساس بالتمايزات بين الثقافات المختلفة ، ولكنهم لم يضعوا فى اعتبارهم الخصائص الواحدة التى تكررت فى كل أنواع السلوك البشرى و اللغات و الثقافات ولدى كل الأمم و الحضارات و التى تكاد تكون من السمات التى تتميز بها النوع الانسانى و يظل يتميز بها أفراداً أو جماعات و أمماً لكى تفصله بشكل عام عن عالم الحيوان ـ وتتيح له الوضع المناسب للخروج من سجن الطبيعة و حدودها إلى رحاب الحرية التى انتزعها اعتماداً على هذه الصفات الخاصة به وحده و التى تشترك فيها كل فصائله و أنواعه ـ أى كل الأمم و الحضارات والقوميات ، و يقول ويلسون : إن نظرية التطور الداروينية ـ نسبة إلى داروين ـ من أكثر علوم القرن الماضى تأثراً بالنظرية الجديدة ـ أنها على ضوء هذه النظرية لم تعد قادرة على تفسير سلوك الأفراد رغم احتمال صلاحيتها لتفسير جانب من السلوك الخاص بالجنس البشرى ككل ـ فالقول بأن صراع البقاء يؤدى إلى بقاء الأصلح قد ينطبق على الأجناس بوجه عام و لكنه على المستوى الفردى كان يقضى بأن تختفى القيم الأخلاقية تماماً و التى يقوم عليها جزء من أسس أى مجتمع .

و هذه النظرة الجديدة حول الطبيعة البشرية تؤيد نظرة الاسلام إلى الانسان و فى الوقت نفسه تفيدنا فى علاج هذه المشكلة لأنها تأتى من الغرب الذى أوجد هذه المشكلـــة .

الانسان فى نظر الاسلام :

الانسان فى نظر الاسلام مخلوق متميز خلقه من تراب و نفخ من روحه و طلب من الملائكة أن يسجدوا له وعلمه الأسماء كلها ولم يعلمها الملائكة ، و وكل إليه خلافته فى الأرض يقوم بعمارتها و يحقق العدل فيها و جعله قريباً منه يجيبه إذا دعاه و ينصره إذا استنصره و يوضح الحديث القدسى الذى رواه البخارى مقدار اهتمام خالق الانسان بالانسان وذلك حين يقول : (أنا عند ظن عبدى بى و أنا معه إذا ذكرنى فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وان تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة) هكذا يكون الانسان قريباً من خالقه يعامله بلون من ألوان الرعاية والتدليل وذلك حين يتجه الانسان إلى خالقه ، وفى حديث آخر يخاطب رب العزة الانسان فيبين له من هو و يوجهه التوجيهات التى تفيده فى حياته و ذلك حين يقول له : (ابن آدم خلقتك لنفسى وخلقت كل شئ لك فبحق عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له ، ابن آدم خلقتك لنفسى فلا تلعب و تكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم اطلبنى تجدنى فان وجدتنى وجدت كل شئ وإن فتنى فاتك كل شئ ، وأنا أحب إليك من كل شئ) .

و الموت فى الاسلام ليس نهاية الانسان — بل إنه محطة انتقال إلى الأبد الذى لا نهاية له ، إلى دار الخلود إلى حيث يقال للمؤمنين : (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) الزمر /٧٣ ، و يرون ما هم فيه من نعيم و تكريم فيقولون : (الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشأ فنعم أجر العاملين ، الزمر/٧٤) فالانسان فى الاسلام مزدوج الطبيعة — وهو لذلك متوازن لأن الاسلام يتعامل مع النفس البشرية بضعفها وقوتها فلا تطغى ناحية على أخرى

و الوجود الذی یقوم نظام الحیاة فیه یقوم علی أساس الحیاة الشامل لأنه من صانع الوجود والانسان .

و المسلم متمیز علی غیره من بنی الانسان بأنه غیر متورط فی عالم المادیة بینما الانسان فی الغرب تورط فی المادیات تورطا لا یسوغ له القیام بمهمة تخلیص الانسانیة من ورطتها فی المادیة — والاسلام یری أن المال وسیلة لا غایة ، و صاحب المال له قیمـــة بمقدار ما ینفق فی أوجه الخیر لا بما یکنز أو یستغل أی نوع من أنواع الاستغلال . وهناك أمور أسمی من المال ولها أثرها فی تحقیق السعادة للفرد والمجتمع کالعقیدة و الأخلاق و العلم و الشعور بالمسئولیة و تحقیق إنسانیة الانسان .

و لابد من الاهتمام بالفضائل و الأخلاق والأعمال الصالحة بالنسبة للفرد مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه و بالنسبة للمجتمع مع خالقه و مع أفراده ومع المجتمعات الأخری ، وما ذکر القرآن الایمان فی القرآن إلا وذکر معه العمل الصالح ، و العمل الصالح یشمل کل شئ فی هذه الحیاة یساعد المسلم علی تحقیق رسالته سلبا أو إیجابا مع النفس أو مع الأفراد أو مع المجتمعات الأخری - بل إن الایمان یغیب عن المسلم حینما یرتکب رذیلة ، وفی الحدیث الشریف : (لا یزنی الزانی حین یزنی وهو مؤمن ولا یشرب الخمر شاربها وهو مؤمن) البخاری .

و إلی جانب هذا کله فان الانسان فی المسلم فی نظر الاسلام مخلوق متمیز عن غیره من بنی البشر لأنه یحمل رسالة سامیة هی تحقیق خلافة الله فی الأرض وهذا التمیز یأخذ طابع الشکل کما یأخذ طابع المضمون .

التمیز فی الشکل :

یتمیز الانسان المسلم بالرجولة والخشونة ، و من هنا فان الاسلام یحرم کل ما یحد من هذه الرجولة أو یؤثر علیها - ومن ذلك أنه حرم علی الرجال الاشیاء التی

تتحلى بها النساء كالذهب و الحرير ذلك لأن الاسلام دين الجهاد و القوة وهو لذلك يريد أن يصون رجولة الرجل من مظاهر الضعف والتكسر والانحلال ، ولذلك فقد نهى رسول الله ﷺ عن لبس المعصفر يروى مسلم عن على رضى الله عنه قال : نهانى رسول الله ﷺ عن التختم بالذهب و عن لبس القسى (نوع من الحرير) وعن لباس المعصفر ، وعن ابن عمر قال : (رأى رسول الله ﷺ على ثوبين معصفرين فقال : (إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها) رواه مسلم - وقد روى الشيخان عن عمر رضى الله عنه قال : (لا تلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة) و رأى النبى صلوات الله عليه خاتماً من ذهب فى يد رجل فنزعه و طرحه و قال : (يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده) فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ خذ خاتمك فانتفع به فقال : (لا والله لا آخذه و قد طرحه رسول الله ﷺ (البخارى) و يروى ابن ماجة عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه وأخذ ذهبا فجعله فى شماله ثم قال : (إن هذين حرام على ذكور أمتى حل لأناثهم) و أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى عثمان قال : كتب إلينا عمر و نحن بأذربيجان : يا عتبة بن فرقد أنه ليس من كدك ولا كد أبيك و لا كد أمك فاشبع المسلمين فى رحالهم مما تشبع منه فى رحلك و إياكم و التنعم وزى أهل الشرك و لبوس الحرير .

و كما يحافظ الرجل الاسلام على رجولة الرجل فانه يحافظ على أنوثة الأنثى حتى يتفرغ كل منهما لرسالته و حتى يبقى لكل نوع منهما خصائصه التى يستطيع بها ذلك — و هو يحرم على كل نوع منهما أن يتشبه بالآخر ، لأن فى ذلك إفساداً للمجتمع الاسلامى ، يقول رسول الله ﷺ : (لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال) البخارى ، و التشبه يكون فى الكلام وفى الحركة وفى

المشى و فى الملبس ، و قد روى الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال : (من لعنوا فى الدنيا وأمنت الملائكة على لعنهم رجل جعله الله ذكراً فأنث نفسه وتشبه بالنساء و امرأة جعلها الله أنثى فتذكرت و تشبهت بالرجال) كما روى أبو داود عن أبى هريرة قال : (لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة و المرأة تلبس لبسة الرجل) ، و روى البخارى عن ابن عباس قال : (لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال و المترجلات من النساء) .

و إلى جانب هــذا فان الاسلام يحارب الترف الذى يهدد الأمم بهلاكها — و الترف مظهر للظلم الاجتماعى و فيه يقول الله تعالى : (و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) الاسراء/ ١٦— و لذلك فقد نهى رسول الله ﷺ عن استعمال آنية الذهب و الفضة لأنهما من الرصيد العالمى للنقد فلا ينبغى استخدامهما إلا فى الحدود المرسومة لهما قال عليه السلام : (إن الذى يأكل و يشرب فى آنية الذهب و الفضــة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم) مسلم .

و فى تناول الطعام لا بد و أن يتميز المسلم فيأكل بيده اليمنى ، و يروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : (لا تأكلوا بالشمال فان الشيطان يأكل و يشرب بشماله) وجلوس المسلم لا بد و أن يكون مغايراً لجلوس غيره ، يروى أبو داود عن الشريك بن سويد مولى رسول الله ﷺ قال : (كنت جالساً هكذا — وقد وضعت يدى اليسرى خلف ظهرى و اتكأت على إلية يدى (اللحمة التى فى أصل الابهام) فقال رسول الله ﷺ : (أتقعد قعدة المغضوب عليهم ؟) و الرسول الكريم يبعد المسلم عن أن يجلس جلسة الكفار الذين غضب الله عليهم .

و اليهود و النصارى لا يصبغون شعورهم — و التميز يقتضى أن يصبغوا ،

يروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : (إن اليهود و النصارى لا يصبغون فخالفوهم) و المشركين يحلقون لحاهم و يبقون شواربهم و قد طلب النبى الكريم تميز المسلمين عن المشركين ، فى ذلك يروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : (خالفوا المشركين وفروا اللحى و أحفوا الشوارب) رواه مسلم .

و الاسلام يحب نظافة الجسم و الثوب و الجسم و الشارع و كل شئ — و من هنا كان الوضوء و الاغتسال و أخذ الزينة عند كل مسجد — و مع ذلك فهو ينفر المسلمين من أن يكونوا كاليهود فى عدم الاعتناء بأفنيتهم ، يروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود) الترمذى .

و بيوت الكفار عادة تكون فيها الصور و التماثيل إعجاباً أو تقديراً أو زينة — و قد ينقلب هذا فى يوم من الأيام إلى عبادة أو ما يشبهها — و لذلك فان النبى الكريم يقول : (إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تمثيل) ، مسلم رواه ثم يشدد على ذلك تشديداً واضحاً حين يقول : (إن من أشد الناس عــذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور) متفق عليه .

و قد درج غير المسلمين على أن يقوموا تحية للقادم و تعظيماً له فقال النبى عليه السلام : (لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً) رواه أبو داؤد ، كما تعودوا من الاكثار فى الثناء عليه فنبههم النبى الكريم إلى أن المجتمع الاسلامى ينبغى أن يكون متميزاً عن غيره من المجتمعات و أن يكون مقلداً لا مقلد يقول الرسول الكريم فى الحديث الذى رواه البخارى : (لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم و لكن قولوا عبد الله و رسوله) .

و صام رسول الله عليه السلام يوم عاشوراء و أمر بصيامه فقال الصحابة :

يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود فقال عليه السلام : (فاذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع فلم أت العام المقبل حتى توفى رسول الله ﷺ) الموطأ .

و قد جعل الاسلام أعياد المسلمين مرتبطة بالشعائر الاسلامية — و حين قدم رسول الله ﷺ المدينة و وجد الأنصار يلعبون فى يومين قال : ما هذان اليومان قالوا يومان كنا نلعب فيهما فى الجاهلية فقال عليه السلام : (قد أبدلكم الله خيراً منهما يوم الأضحى و يوم الفطر) الترمذى .

و هكذا يحرص الاسلام على تميز المسلم فى كل شئ فان المشابهة فى الظاهر سبب للمشابهة فى الأخلاق و قد تصل إلى المشابهة فى المعتقدات .

التميز فى المضمون :

والانسان المسلم كما يتميز فى الشكل فانه يتميز فى المضمون أيضاً - فالمسلم يحس بكرامته على الله تعالى و بمكانته فى الملأ الأعلى و بمركزه القيادى فى هذا الكون - و هذا كله يجعله معتزا بذاته لأنه يشعر بانتسابه إلى الله تعالى وارتباطه بكل ما فى الوجود - فالعقيدة الاسلامية تجعل المسلم إنساناً كاملا و تعطى للحياة معنى .

و الاسلام وجه عناية بالغة إلى الجانب الانسانى فى هذه الحياة ، ذلك لأن الشعائر - و هى الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج - لا تأخذ إلا جانباً قليلا من القرآن و السنة و من كتب الفقه - و أطول آية فى القرآن الكريم هى آية الدين فى سورة البقرة - و التداين جانب هام من جوانب التعامل الانسانى - و مع ذلك فالشعائر فيها جوانب إنسانية - فالصلاة تحقق المساواة بين الناس جميعاً فى وقوفهم صفوفاً متراصة كما تمثل تعليم الطاعة للقائد فى صلاة الجماعة و فى تنفيذ الديمقراطية حين يستفتح الامام على المأموم عند الخطأ - ثم إن الصلاة عون للانسان فى هذه الحياة ، والقرآن الكريم يقول : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة

إن الله مع الصابرين » الحج / ٢٨ ، و الزكاة تؤخذ من الغنى لترد على الفقير ـ و هى لنفس الغنى تزكية و تطهير و للفقير إغناء و تحرير ـ و الصوم تربية لارادة الانسان على الصبر فى مواجهة صعوبات الحياة وتربية لمشاعره على الاحساس بآلام غيره فيسعى إلى مواساته ـ و الحج اجتماع فيه منافع للناس من أوجه مختلفة ففيه تتحقق المساواة و فيه التجارة و فيه الانسلاخ من الدنيا و التقرب إلى الله تعالى .

و كل عمل يعمله الانسان يبتغى فيه وجه الله تعالى فهو عبادة ، وبخاصة تلك التى تبنى المجتمع ، يقول الرسول الكريم : (أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة أو تقضى عنه دينا أو تطرد عنه جوعاً ـ و لأن تمشى مع أخ فى حاجة أحب من أن تعتكف فى هذا المسجد (مسجد المدينة) شهراً ـ ومن كظم غيظه ولوشاء أن يمضيه أمضاه ـ ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، و من مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام) البخارى ، فالمجتمع الاسلامى هو مجتمع الحب و التعاون و التآلف و هو بعيد عن الحقد و الحسد سواء أكان ذلك بالنسبة للأفراد أم بالنسبة للجماعات .

والحب فى المجتمع الاسلامى أساسى ولن يؤمن المسلم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه و يكره له ما يكرهه لها .

و المسلم يحس بأنه عضو هام فى المجتمع و هو فيه راع ومسئول عن رعيته ـ و المسئولية عامة لكل فرد من أفراد المجتمع ـ و شعور المسلم بهذه المسئوليه يريحه و يجعله يحس بكيانه و بأهميته فى مجتمعه .

و الاسلام جعل للانسانية مبادىء تسير عليها فالناس جميعاً إخوة من أب واحد و أم واحدة : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) النساء/ ١ ـ والأخوة شاملة للبشرية جميعاً والمساواة بين الناس مبدأ إنسانى إسلامى

فلا تفرقة بين عنصر و عنصر أو لون ولون أو جنس و جنس : (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير) الحجرات / ٢٣ . فالقيمة الانسانية للجميع واحدة و لا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى و النبى الكريم يقولها واضحة : (يا فاطمة بنت محمد اعملى صالحا لا أغنى عنك من الله شيئاً) البخارى .

و من أهم خصائص إنسانية الاسلام أن يعمر المسلم الأرض بالأسلوب الذى رسمه الله تعالى ، ونشر العدالة الكاملة فيها تحت أى ظرف من الظروف و فى أى مكان ـ ومع جميع الناس بل حتى و مع النفس لأن الله تعالى سيحاسب على ذلك كله : (يأيها الذى آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا و إن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) النساء / ١٣٥ .

و الأمر بالمعروف و النهى عن المكر من خصائص الانسان المسلم ـ و قد اختار الله تعالى الأمة الاسلامية لتحقيق هذه الخصيصة و جعلها خير أمة أخرجت للناس (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله) آل عمران ١١٠ .

و من خصائص إنسانية الانسان فى الاسلام ـ العلم ـ ذلك لأن المعرفة سلاح وكلما أوغل الانسان فيها اكتشف من أسرار الكون ما يزيده تعرفا على إنسانيته ـ و العلم للفرد والمجتمع امكان على تحقيق الرسالة و لذلك قال الله تعالى يرفع الذين آمنوا و الذين أوتوا العلم درجات.

و شخصية المسلم شخصية مستقلة لا تتأثر بالرأى العام إذا كان خطئاً ذلك لأنها ترى بعين الله وفى الحديث الشريف : (لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت و إن أساءوا أسأت ـ ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن

الناس أن تحسنوا و أن أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم) ـ ومن هنا كان أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند إمام جائر .

و المسلم فى هذه الحياة يدافع عن الحق و يحمى أماكن العبادة كلهـا سواء أكانت إسلامية أم يهودية أم مسيحية ـ و يوضح ذلك القرآن الكريم فى قوله : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع و صلوات ، مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا و لينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) الحج : ٣٩ ـ ٤٠ ـ و يلاحظ فى هذه الآيات أنه قدم الصلوات و البيع على المساجد ـ ذلك لأن المسلم بطبيعة عقيدته سيدافع عن أماكن عبادته و لكنه قد لا يدافع عن بقية أماكن العبادة و لذلك فان الآية الكريمة قدمت الصوامع حتى يحس المسلم بأن الدفاع عنها من تمام رسالته .

و إذا كان الانسان فى كل المجتمعات قديمها و حديثها يقاتل لتوسيع رقعة الأرض أو لارضاء كبرياء مجتمعه أو لاستعباد الآخرين و قهرهم و نهب خيراتهم أو لتحقيق المصالح الخاصة و التكالب على متاع الدنيا ـ و يستخدم الطاقات فى خدمة الصراع الذى يحدث بين الأفراد و الجماعات و الدول و الشعوب التى تتصارع على الأرض كلها ـ و يسعى بعضها إلى سحق بعض و تكون القوى الانسانية كلها فى خدمة الشيطان ـ إذا كان الأمر كذلك ـ فان الاسلام شرع الجهاد ليحارب كل هذه الأشياء ـ يقاتل الطغاة (الذين يسخرون شعوبهم من أجل حريتها و يحرر تلك الشعوب من استبعاد الطغاة لها ـ و ذلك بدعوتهم إلى عبادة الله الواحد الأحد فى جميع الاتجاهات كما يتحررون من القيم الزائفة و من العبودية لغير الله ـ وهذا يحقق معنى الآية الكريمة : الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون

فى سبيل الطاغوت) النساء / ٧٦ .

كما أن من مهمة المجتمع الاسلامى أن يقاتل ليحرر المستضعفين فى هذه الأرض : (و ما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله و المستضعفين فى الأرض من الرجال و النساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله و الذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) النساء ٧٥ /٧٦ . و حتى فى الهزيمة يتميز المسلمون عن أعدائهم فلا وهن و لا ضعف و هم الأعلون و فى مكان القيادة : (و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله و تلك الأيام نداولها بين الناس و ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) آل عمران / ٤٠ .

و معنى النجاح فى الاسلام يتغير عن معناه عند سائر الامم - فهو فى الاسلام يكون بأداء الواجب على أكمل وجه وبالنية - والله سبحانه وتعالى يجازى الانسان على ذلك لا على النتائج ، و المسلم الحقيقى هو النموذج الحى للأمن والاستقرار - الأمن من العوارض المادية و الآفات و الكوارث الواقعة بأن يأمن على نفسه و على عقيدته و على ماله وعلى عرضه وعلى حريته - ثم الأمن فى الآخرة من عذاب الله تعالى - والآية الكريمة الآتية توضح كيف يكون الانسان المسلم مع إيمانه بالله و أدائه لرسالته فى أمن فى الدنيا و الآخرة : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا و فى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم) فصلت ٣٠ / ٣٢ .

و الاسلام حريص على المسلم - حريص على مواهبه و استعداداته و اتجاهاته يربيها و ينميها و فى الوقت نفسه لا يكبتها و لا يتركها تتبدد هنا و هناك من غير فائدة - كما يحدث فى المجتمعات المعاصرة - الاسلام لا يكبت الطاقات لأنها موهبة من الله خالق البشر - و كل ما وهبه الله للانسان هو خير ينبغى أن ينميه و يستغله فى الخير و يشكر فضل الله عليه - و المسلم لا يبدد هذه الطاقات لأنها نعمة فهى تنفق فى المصلحة الخاصة و العامة و فى تحقيق الرسالة - المسلم يوجه هذه الطاقات للخير و فى الخير - للفرد والأمة وتكون الفائدة فى الدنيا و الآخرة.

و الانسان غير المسلم يحس بأنه يعيش فى ضياع - لا يعرف لماذا جاء و لا إلى أين ينتهى ؟ و ينشد :

جئت لا أعلم من أين و لكنى أتيت
و لقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت
و سأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقى لست أدرى ؟

لكن الانسان المسلم يعرف الاجابة عن كل هذه الأسئلة لأنه إنسان صاحب رسالة لنفسه ولدينه و لمجتمعه كما حدد الله سبحانه وتعالى و هذا عكس الفلسفات البشرية فهى متأثرة بقصور الانسان و ملابسات حياته فهى لذلك تقصر عن الاحاطة بجميع الاحتمالات فى الوقت الواحد - و قد يعالج ظاهرة فريدة أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد ، لأن الفلسفات البشرية تقصر عن الاحاطة بالنفس البشرية وكل أطوارها وأحوالها .

« للبحث صلة »

الدّعوة الإسلامية

من البحوث المقدمة فى الملتقى السادس عشر للفكر
الاسلامى بالجزائر المنعقد فى شوال ١٤٠٢هـ

لمحات شعورية و نفسية فى كلام الرسول ﷺ

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
رئيس كلية اللغة العربية جامعة ندوة العلماء

مما لا شك فيه أن نصوص كلام رسول الله ﷺ تحمل مادة أدبية مؤثرة كبيرة ، فيها صور من العاطفة الانسانية القوية و الانفعال البشرى الرقيق ، ويتجلى أثر العاطفة و الانفعال هذا بصورة خاصة فى نصوصه التى تشتمل على ظواهر و أحوال نفسية و شعورية معينة .

وهذه الصور الأدبية والأساليب المؤثرة لا تنحصر فى أن تكون مادة يبحث فيها من الناحية الأدبية المجردة فحسب ، بل إنها تخدم أيضاً بخصائصها الفنية هذه ، تلك الأهداف الكريمة التى بعث ﷺ فى الانسانية لأجلها ، و هى الدعوة والتربية و ما يتصل بهما ، و لذلك تستحق هذه الناحية من أدب الرسول عليه السلام أن يهتم به المعتنون بكلام رسول الله ﷺ بصفة خاصة لأنها تمثل جانباً مهما من الحياة.

و تتجلى هذه الناحية فى كلام الرسول عليه الصلاة و السلام بعضها عند تعليقه على الأحداث الشخصية و فى شئون تحمل طبيعة نفسية خاصة ، و يتجلى بصورة أشد و أقوى فى أدعيته ﷺ .

أما المناسبات الاجتماعية التى تتسم بنفسية شعورية خاصة ، فنجد من أمثلتها ما قاله الرسول عليه السلام لوفد عبد القيس و هم قبيلة من ربيعة ، و المجافاة بين ربيعة و بين مضر التى ينتمى إليها رسولنا العظيم معروفة و ظاهرة ، و فى حالة وجود هذه المجافاة كان من المحتمل تماماً أن تتحرك فى نفوس أبناء الوفد حساسية

ما بسبب قلة الاكتراث بهم و فى استقبالهم ، فراعى رسول الله ﷺ تدارك هذه النفسية ، و رحب بالوفد بكلام يعالج الموقف خير معالجة ، فقد قال : مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى . و بهذا بعث فى نفوس أفراد الوفد الطمأنينة والثقة بأنهم مكرمون محترمون فلا يحسبوا أنفسهم فى غربة أو بين أجانب فلا يشعروا بخزى كان يشعر به العرب فى مثل حالتهم هذه ، ولا يندموا على أنهم وفدوا إلى من لا يحتفى بهم ، ولقد كان رسول الله ﷺ فى موقف من العزة و القوة حيث كان يمكن له أن يكتفى بابداء اهتمام عادى فحسب ، و أن لا يكترث بحساسية غير عادية من رجل أو وفد يأتى إليه مقبلا مستفيداً ، فهم فى موضع الطلب ، ورسول الله ﷺ فى موضع الاعطاء .

و مثال آخر من هذا القبيل هو قول رسولنا ﷺ للصحابى الفارسى الجليل سلمان الفارسى : « سلمان منا أهل البيت » ، فان هذا القول كما يحمل فى طيه معنى جميلا من معانى مكارم الأخلاق يشتمل على تعبير لفظى يوحى بالثقة والطمأنينة ، وهو كلمة « منا أهل البيت » بصورة خاصة و هذا الكلام من أدب الرسول ﷺ ويتصل أيضاً بالنفسية الشعورية التى تساور النفوس فى مثل هذه الأحوال .

ونجد مثالا مؤثراً لشعور نفسى مرهف فى كلام رسول الله ﷺ عند مواجهته لمصرع عمه المحبوب حمزة بن عبد المطلب . فقد كان صلة رسول الله ﷺ بعمه حمزة بن عبد المطلب صلة اجتمعت فيها خصائص مودة و ارتباط وجدانى عديد ، فقد كان قرين رضاعة له و مدانيا له فى السن ، و قد تحمس حمزة عند ما سمع عن إيذاء أبى جهل لرسول الله ﷺ فثار له و انهال على أبى جهل ضرباً وشجا انتصاراً لرسول الله ﷺ و دخل فى الاسلام محاباة لشعوره بالحب لابن أخيه ثم دام يناصر الاسلام و رسول الاسلام بفتوته و حماسته ، و كان من أبرز فتيان

قريش وأشجعهم، فكان الرسول ﷺ يحبه لصلته و يجد فيه سنداً وناصراً وأنيساً .

هذا العم المحبوب العظيم ينال مصرعه غيلة فى موقعة أحد بعد أن أبلى بلاءً حسناً فى الاسلام ، ويمثل به العدو تمثيلا و يهين جثمانه ويغير من خلقه الكريم ، فالى أى مدى يتأثر بذلك رسول الله ﷺ وهو مطبوع على الرقة والمحبة والرحمة، و الموقف من أشد المواقف تأثيراً و إيلاماً لنفسه ، يقول ابن هشام :

خرج رسول الله ﷺ حينما بلغه يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، فوجده فى بطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده و مثل به فجدع أنفه و أذناه ، و لما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً أغيظ إلى من هذا ، و قال : لو لا أن تحزن صفية و يكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع و حواصل الطير ، و لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم ، تكلم رسول الله ﷺ بذلك لشدة تأثره و لكنه رجع من هذه الارادة لما عرف أنها ليست من رضا الله .

ثم مر رسول ﷺ بدار من دور الأنصار من بنى الأشهل و ظفر فسمع البكاء و النوائح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قال : « لكن حمزة لا بواكى له » .

تكلم رسول الله ﷺ بهذا اللفظ المشحون لشعور الأسى و الألم وهو النبى النزيه من ترهات البشرية و لكن الشعور بالفجيعة الداميـــة حمله ﷺ على النطق بهذا المنطوق الوجدانى المصور لنفسه الحزينة ، وعرف الأنصار رضى الله عنهم أسى رسول الله ﷺ و كلامه فأمروا نساءهم أن يبكين على عم رسول الله ، و سمع رسول الله ﷺ بكاءهن وهن على باب المسجد يبكين عليه ، فقال : رحم الله الأنصار فان المواساة منهم ما عتمت لقديمة مروهن فلينصرفن ، و فى رواية فى كتاب ابن

الكثير فقال ارجعن يرحمكن الله فقد تأسيتن بأنفسكن ، و قال : ما هذا أردت و ما أحب البكاء و نهى عنه .

و كان قاتل حمزة عبد من الحبشة اسمه وحشي و كان فعل ما فعل طلبا لعتقه لأن سيده كان حمله على ذلك و وعد به ، ففر من رسول الله ﷺ بعد ذلك ، و الاسلام ينتشر و تتسع رقعته فى بلاد العرب حتى عجز من الفرار أخيراً فنصحه الناس بأن يدخل على رسول الله ﷺ مع الاسلام فانه لن يؤاخذه بعد ذلك ، يقول وحشى : خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت نعم يا رسول الله ، قال : أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ، قال : فحدثته ، فلما فرغت من حديثى قال : ويحك غيب عنى وجهك فلا أرينك ، وفى رواية للبخارى فلما رآنى قال : أنت وحشى ؟ قلت نعم ، قال أنت قتلت حمزة ؟ قلت : قد كان من الأمر ما بلغك ، قال : فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى ، قال : فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يرانى حتى قبضه الله ﷺ .

وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك تجنيبا لنفسه من مساورة الحزن على نفسه بذكر مقتل حمزة كلما يرى وجه قاتله و تجنيباً لوحشى من ظلال السوء التى قد تلحقه من تأثير الانفعال النفسى المنبعث فى قلب الرسول ﷺ تجاه صاحب هذه الوقعة عند ما يواجهه و يتذكر الحادث المؤلم .

ونجد مثالا للاحساس المرهف و الشعور المتزن الحكيم فى كلام رسول الله ﷺ عند خطابه للانصار فى الجعرانة ، وذلك عقب غزوة حنين ، والانصار رضى الله عنهم قوم استقبلوا رسول الله ﷺ عند هجرته إلى المدينة أحسن استقبال و قاموا بالقرى و الضيافة له و لأقاربه و لأتباعه المهاجرين ، و قاموا بكل ما

يستطيعونه من الترحيب و المحبة والاكرام ، و كان رسول الله ﷺ يعترف بكل ذلك و يعامل الأنصار برفق ، و لذلك كان من الطبيعى أن يخطر ببال الأنصار شعور خاص حينما وجدوا أن الرسول عليه السلام قسم الغنائم وجعل سهام الانصار أقل من سهام أهل مكة و غيرهم ، ولما بلغ إلى رسول الله ﷺ شعور الانصار هذا تدارك الموقف بخطاب بليغ معجز يستحق أن يعد من أروع القطع الأدبية الفنية العالمية ، فقد جمع الأنصار فى حظيرة و تكلم معهم بأسلوب نفسى بليغ فيه الرعاية كل الرعاية بما قد يساور النفوس من خاطر و موجدة .

إنه هون عليهم المتاع المادى الذى كان سببا لظهور الحساسية فيهم ولفت نظرهم إلى قيمة ما وهبهم الله تعالى عن طريق نصرتهم لنبيه و عن طريق نزول الرسول العظيم فيهم وهدايتهم من الضلال الذى كان سبب ضياعهم وهوانهم ، وبذلك حرك الرسول عليه السلام فى نفوسهم الشعور المضاد لشعورهم السابق ، الشعور بتفاهة متاع الدنيا و بعظمة الثروة الايمانية ، و ولم يكتف بذلك بل و أفضى إلى صور تعبيرية مؤثرة حيث جعل نفسه فى حيز الأنصار بتمثيلهم بلسانه و النطق عنهم ، حمد الله تعالى و أثنى عليه أولا ثم قال :

« يا معشر الانصار » ما هذه القالة التى بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ، أما آتيتكم ضلالا فهداكم الله بى ، و عالة فأغناكم الله بى ، و أعداءا فألف الله بين قلوبكم » قالو : لله المن والفضل ، فقال : ألا تجيبونى يامعشر الانصار قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله : لله المن والفضل ، قال : و الله لو قلتم لصدقتم و لصدقتكم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك ، و طريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك »

أنظروا ماذا يكون من تأثير هذه الملاطفة و الملائمة مع الأنصار فى مناسبة

هی مناسبة عتاب ، وتصحیح لخاطرهم ، فقد دمج نفسه فی نفوسهم ، وخالط مشاعرهم و أحاسیسهم ، و أثر بذلك علی نفسیة الغیریة التی نشأت أو كادت تنشأ فیهم ، ولما وجد أن النفوس تهیأت للانسجام التام ضرب علی وترها الحساس ضربة محبة نافذة ، فقال : « یا معشر الأنصار أ وجدتم علی فی لعاعة من الدنیا تألفت بها قوما لیسلموا ، ووكلتكم إلی إسلامكم ، أما ترضون یا معشر الأنصار أن یذهب الناس بالشاء والبعیر إلی رحالهم وترجعون برسول الله ﷺ إلی و حالكم ! والله لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا و وادیا و سلكت الأنصار شعبا و وادیا لسلكت شعب الأنصار ، و وادیها ، الأنصار شعار و الناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار » .

یا للهول من تأثیر هذه الجمل ، إنها تذیب الحجر و تفجر منه الماء ، فكیف لا یتأثر سادتنا الأنصار ، فقد وقع ما وقع أن هملت دموعهم حتی أخضلت لحاهم و قالوا : رضینا برسول الله قسماً و حظاً .

أما أدعیة رسول الله ﷺ ففیها أمثلة رائعة معجزة لظهور الانفعال الشعوری ، فقد كان رسول الله ﷺ یخاطب فیها ربه و یناجیه مناجاة تبتل و انقطاع ، لیس بینه وبین ربه حجاب ، وهو عارف بمقام ربه ، وعارف بضعف المخلوقات والانسان أمامه ، إنه یعرف عن نفسه أنه رسول حقا ، ولكنه یعرف أنه عبد كذلك فحینما یكون إمام الناس فتفرض علیه مسئولیته نحو رسالته أن یقوم بالدعوة و التوجیه یبلغهم رسالة ربهم و یعلمهم الكتاب و الحكمة و یزكیهم ، و لكنه حینما یخلو بنفسه و ینظر إلی عجزه و احتیاجه أمام الله و افتقاره إلی نصرته فی كل حال فیناجی ربه ویدعوه دعوة بائس ملهوف بالشعور العبدی الخالص ، ویجند فی هذا المجال طاقاته التعبیریه و البیانیة ، فكیف لا تكون أدعیته قطعا من البیان المعجز المشرق ،

ـ الرسول عليه السلام أبلغ العالمين . فانه من ذوابة قومه ، وهو الرسول الأعظم ، زيادة إلى ذالك لأنه نشأ وتربى فى أفصح بيئات ، ولد فى قريش ونشأ فى بنى سعد ثم ترعرع و تربى فى الفصاحة و البيان ، وزادته خلواته فى الغار جلاءا فى صدق الشعور وحسن التأمل ثم زينه كتاب الله وأدبه القرآن وهو معجزة البيان العربى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : أدبنى ربى فأحسن تأديبى » و قال : القرآن مأدبة الله فى الأرض . وقالت عائشة رضى الله عنها عنه ﷺ : «كان خلقه القرآن » ، فكيف لا يكون رسول الله ﷺ أروع تعبيرا وأجود بيانا وبخاصة فيما يخلو مع نفسه أمام ربه يتصور عجزه و حاجته و يرجو من رحمتـه و نصرته ، ثم يحاول أن يضيف ذلك لربه ، فأى قدرة بيانية تبق ولاتتأتى لهذا الداعى المبين وبذلك تصبح أدعية رسول الله ﷺ أصدق مرآة لشعوره و أحاسيسه و من أمثلة ذلك دعاؤه فى عرفات .

فقد وقف فى موقف عرفات الذى اجتمع فيه مأة و عشرون ألف عبد من عباد الله حاسرين رؤوسهم محاكين بوقوفهم هذا وقوفهم أمام الله يوم القيامة الذى لا تملك فيه نفس لنفس شيئا و يكون الحكم كله لله ، يقف رسول الله ﷺ هذا الموقف من عرفات و يناجى ربه و ينطق بكلمات و تعبيرات كأنها قطع من القلب و تصورات مجسدة متحركة و تصوير لواقعيـة العبد الحقيق الفقير أمام ربه الخبير الغنى ، انظروا إلى الكلمات و التعبير ، يقول الرسول عليه السلام :

« اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى و علانيتى و لايخفى عليك شئ من أمرى . وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنوبى ، أسألك مسألة المسكين وابتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته ، و فاضت لك عبرته ، و ذل لك جسمه ، ورغم لك أنفه . اللهـم لا تجعلنى بدعائك شقيا ، وكن لى رؤوفا رحيماً يا خير المسئولين و ياخير المعطين .

إن قيمـــة الأدب أيها السادة هى أن يصور من الانسان و من أحواله ما لا يصوره الكلام العقلى العام . و ذلك بأن يشعر القارى أو السامع أنه لا يقرأ و لا يسمع بل إنما ينظر ويشاهد ، وبهذه الميزة يلعب الأدب دورا مهما فى الحياة و لكن البيان يقتصر على صاحب البيان و على طاقاته ومواهبه ، وهو يتجلى بشكل قوى فى كلام الرسول عليه السلام ، لقد بدأ رسول الله ﷺ بدعائه هذا فى صورة عبـــد بائس ضرير محروم فقير إلى عطف ربه خائف من سخطه ، فهو إذن فى ذعر و خوف فان الرب هو رب الأرض و السماء وبيده المنع و العطاء فاذا لم ينل العبد رضاه و عطاءه فما له خلاص ولا نجاة .

ومن هذا القبيل نفسه دعاؤه ﷺ فى الطائف ، ولابد قبل قراءة دعائه النظر إلى خلفية هذا الدعاء .

لقد كان الرسول عليـــه السلام بسبب دعوته فى مكة فى محنـــة وبلاء تمالأت قريش عليه بعقولها و وسائلها و كادت تنجح لو لم يكن عمه أبو طالب الذى كان مع كونه متدينا بدين قريش ينافح عن ابن أخيه و يحوطه بالعطف و النصرة ، ولقد وجد رسول الله ﷺ فيه ملجأ ماديا ظاهراً و كانت زوجته خديجـــة رضى الله عنها تحوطه بالعطف و إدخال الطمأنينة فى قلبه حينما كان يعود ﷺ إلى بيته .

و لقد حاولت قريش صرف أبى طالب عن نصرة رسول الله ﷺ و حملته على إقناعـــه بأن يترك الدعوة ، وقد تأثر أبو طالب بمحاولة قريش وتكلم مـــع رسول الله ﷺ فى ذلك وبصره بالوضع الشائك ففطن بذلك رسول الله ﷺ أن هذا السند الظاهرى القوى أيضا كاد يضعف عن نصرته ، فأثر ذلك فى نفسه ولكنه لم يتغير ، لا شك أنه تأثر بذلك فظهر ذلك فى رقتـــه وبكائه عند رده على أبى طالب ، ولكنه كان ثابتاً على دعوته لم يتغير ، فعبر عن ذلك بخير تعبير و أقوى

أسلوب حيث قال : ياعم و الله لو وضعوا الشمس فی يمينی و القمر فی يساری علی أن أترك هذا الأمر حتی يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته ، واستعبر رسول الله ﷺ فبكی ثم قام فلما ولی ناداه أبو طالب و كان قد تأثر من قول ابن أخيه الحبيب ، و قال اذهب يا ابن أخی ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشیٔ أبدا (أو فی معناه) .

توفی أبو طالب عمه هذا و توفيت خديجة زوجته فی سنة واحدة ، و أصبح رسول الله ﷺ فی مكة بدون جوار قوی و الأمر صعب بدون الجوار فتوجه الرسول عليه السلام إلی الطائف . وهی المدينة التی كانت تنافس مكة فی المدنية و المكانة و كان يؤمل أنه قد يلقی فی الطائف من سادتها من يقبل دعوته و يقوم بنصرته و حمايته ، ففی هذه الحالة من الأسی والأمل وصل إلی الطائف مجتازاً الجبال و الوديان محتملا لشدائد السفر ، و لما وصل إليها ولقی سادتها وجد منهم كل عنف و جفاء و لم يكتفوا بذلك بل أرسلوا شبابهم و سفهاءهم يتبعونه و يجرحونه بالحجارة ، فخرج بائساً حزينا محطم النفس ضائع الأمل مجهوداً غريباً ، فلما ابتعد عن عمران الطائف وتبعه سفهاء الشباب ، و قد رموه بالحجارة حتی دميت رجلاه الكريمتان ، جلس تحت ظل فی مكان ليرتاح قليلا ، و حينئذ انفجر قلبه بالدعاء .

فيا تری ما ذا يكون الدعاء و بأی كلمات يكون ، وأی تعبير يمكنه أن يستعمله ، ألا تكون كلماته كلها عواطف مجسدة تطفح بآلامه و شعوره بالحرمان و الأذی المعيب فی حالتی الغربة و الفقر ، و شدة الحال فی المستقبل فهو يتصور عودته إلی مكة ، كيف تكون ؟ ألا يواجه هناك سخرية و هزءا من هذه النتيجة التی لقيها بعد جهد و أمل .

و رسول الله ﷺ هو الرجل البليغ صاحب البيان و اللسان ، فماذا يمـ
يكون دعاؤه فى هذه المناسبة ، هل يكون مرآة لسقوط الهمة و اليأس أو مـ
لغضبه على هؤلاء الأشرار و طلب عقاب الله لهم ، أوتناسباً لكل ذلك وتو
تخفى وراءهما الحقيقة و هو الانسان و الرسول ، فانسانيته تقتضى منـــه أن
ساقط الهمة أو مستشيطاً بالغضب من الأشرار و الأعداء وذا شكوى من ربه
لم ينصره فى هذه المحنة القاسية .

و مكانة النبوة تقتضى منه أن يتغلب على العواطف البشرية الحرة و يظ
مظهر عبد مطيع لربه ممتثل لأوامره ، و هذه هى نقطة بلاغة هذا النص ، فقد
رسول الله ﷺ فيه كل هذه الجوانب جمعاً عجيباً ، و بألفـاظ و تعبيرات د
و محدودة فأصبح مثالا للتعبير الشعورى الصادق قلما يجمع نص أدبى بهذا ا
السهل هذه الجوانب المتعددة الصعبة الاجتماع ، لقد دعا ﷺ بالكلمات الآتية

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، رب المستـ
إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ، ان لم يكن ؛
غضب فلا أبالى غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشر
الظلمات ، و صلح عليه أمر الدنيـا و الآخرة من أن يحل بى غضبك أو يـ
سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، و لا حول و لا قوة إلا بك »

ينادى ربه و يشكو له ضعف حالته و ضآلة تدبيره و كيف أن الناس
جرءاء عليه فلا يكترثون لمكانته و لا لقيمته »

ثم يصف ربه بوصف يتناسب مع حاجته إليه مع حالته الضعيفة
يقول : رب المستضعفين » لأن الناس استضعفوه إلى حد الاعتداء و الـ
ربه ، هل تركتنى يارب و وكلتنى إلى غيرك ، إلى بعيد مخالف يجافينى و يـ

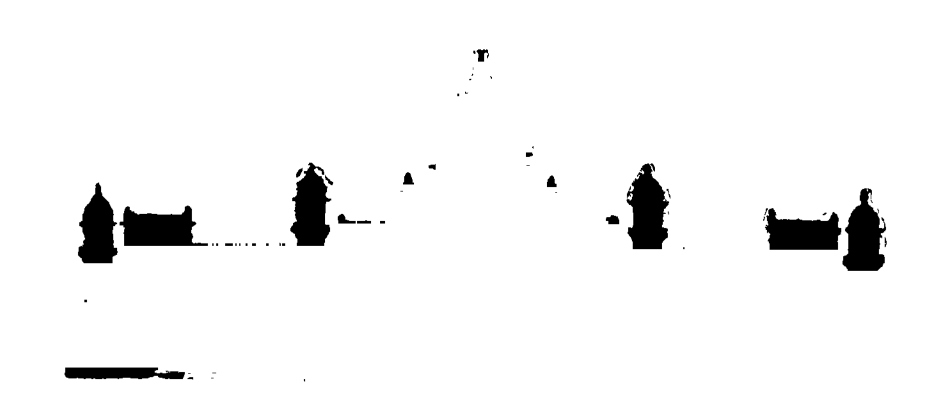
عدو لى جعلته مالكا لأمورى فيصنع معى ما يشاء ، يقول هذا و لا ينسى أنه
د طائع لله فى كل الأحوال مستعد لقبول كل ما يريده له ربه و مالكه و مهما
ن ، و أنه واضع نصب عينيه رضاه منه و عدم حلول غضبه عليه فيقول : إن لم
ن لك على غضب فلا أبالى . ثم يشير فى أسلوب الاقرار العبدى إلى افتقاره إلى فضل
به و الرجاء منه فيقول : و لكن عافيتك أوسع لى » و يكتفى بهذه الاشارة الخفية
ن حاجته ويعوذ بربه من كل سوء . ويعلن عظمة ربه وسموه وأنه نور السماوات
الأرض فلا فرار من غضبه و سخطه إلا إليه و أنه لن يزال طالباً لزواله حتى
غ إلى رضاه ، ولكنه لا يجد لنفسه قوة فى ذلك إلا بمعونة ربه و فضله .

و هنا دعاء آخر دعا به الرسول عليه الصلاة و السلام عند السفر ، و السفر
الة تثير فكر الانسان و شعوره فهو يفكر فى الأهداف المنشودة و يحتكم إلى عقله
يحمل نفسه على متاعب السفر ومخاطره ، وحينما يفكر فى مفارقة الأهل والأخوان
فى مخاطر السفر فيشعر بحنين وخوف و يتمنى العودة بالسلامة ، يقول رسول
ﷺ فى دعائه : اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر و التقوى و من العمل ما
رضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا و اطوعنا بعد الأرض ، اللهم أنت الصاحب
السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر
سوء المنقلب فى الأهل و المال »

كلام جامع موجز شامل للمخاوف و طلب العافية و إظهار العبودية والافتقار
الالتجاء إلى الرب جل و علا ، و يكرر فيه كلمة « اللهم » فيزيد المعنى رقة
استعطافا »

على كل فان كلام رسول الله ﷺ حامل للمحات شعورية و نفسية فى مختلف
شئونه من حديث و خطبة و دعاء .

فكل من ينظر فيها بهذه النظرة يجد فيها ما يشتمل على صور مؤثرة منوعة ـ ظلال نفسية موحية كثيرة تتجلى فيها صورة إنسان صادق أمين فى كل ناحية من نواحى حياته الانسانية ، ففيها سمو النبى الذى أكرمه الله بوحيه و رسالته ـ بساطة رجل يعيش مع أهله و ذويه ورقة إنسان نشأ وتربى على المحبة للجميع ، و الصدق للجميع و طلب الخير للجميع ، و همة رسول عزم على تبليغ رسالته و أداء أمانته ، فلا يسأم و لا يكل و لا يمارى و لا يتاجر بل يكافح و يناضل حتى ينجح ، حتى قال الله عز وجل : لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، صدق الله العظيم و صدق رسوله النبى الكريم ، و أنا على ذلك لمن الشاهدين . و صلى الله على نبينا و مولانا محمد و على آله و صحبه أجمعين .



أصول الدراسة و التعليم

للامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

تعريب : محمد أكرم الندوى

الحمد لله ملهم الحكم و مجزل النعم ، و الصلاة والسلام على أفضل من أوتى الكتاب و أفضل الخطاب ، و على آله و أصحابه الذين بلغوا شرايع الدين وبينوا لنا ما يحصل اليقين ، و بعد ، فيقول الفقير إلى الله ولى الله بن عبد الرحيم : « إنى أخذت فن « الدراسة والتعليم » عن أبى عن مير محمد زاهد القاضى أسلم الهروى عن ملا محمد فاضل عن ملا يوسف القراباغى عن ميرزان جان عن ملا محمود الشيرازى عن ملا جلال الدين الدوانى عن أبيه أسعد بن عبد الرحيم و ملا مظهر الدين الكازرنى عن ملا سعد الدين التفتازانى و السيد الشريف الجرجانى عن قطب الدين الرازى ، وهو وملا سعد الدين التفتازانى عن القاضى عضد عن ملا زين الدين عن القاضى البيضاوى بسنده المعروف فى كتب التاريخ إلى الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، و بالجملة فقد أخذ الفقير فن الدراسة و التعليم وعلم الكلام و الأصول مختلطا بعضه ببعض بهذا الاسناد الذى تقدم ذكره .

و رجال هذا الاسناد بأسرهم من المؤلفين الباحثين المشتغلين بالتأليف و التدريس إلا أبى فانه لم يلتفت إلى التأليف و التدريس لاقباله على أعمال التزكية و الاحسان ، ثم خطر ببالى أن أقيد فن « الدراسة و التعليم » ليطلع عليها أهل هذا العصر و يعملوا بها و يأخذوا بتجارب و تطبيقات عملية ،

فان قلت : « ما الذى أردت بفن الدراسة و التعليم » ، قلت : « أردت به دراســـة الكتب و تدريسها و الاطلاع على ما فيها من علوم و معارف ، و تنقسم هى إلى ثلاث مراحل أو مستويات .

إحداها : الاشتغال بالكتب دراسة و بحثاً و تمحيصاً .

الثانية : إلقاء الدروس على الطلبة والكشف لهم عما فى الكتب من معان ومطالب .

الثالثة : شرح الكتب أو التعليق عليها و المبالغة فى الكشف عما فيها من رموز و دقائق .

فان قلت : ما الفائدة التى ترجوها من تقييد هذه الأصول وضبطها .

قلت : فائدتان .

إحـداهما : أنه يعرف بذلك طريق الدراســـة فيتجنب الخطأ و يهتدى إلى الصواب ، وتفصيل ذلك أن الطالب إذا حفظ بعض مقـــدمات « العلم » كالصرف و النحو واللغة وما إلى ذلك و اشتغل بدراسة كتاب و راجع بعض شروحه ، و أطلعه أستاذه على القواعد الكلية و على نكت كلام الشارح فى كل موضع منـــه نشأت فيه صلاحيـــة الأخذ و الاستفادة من الكتاب لتطبيقه هذه الأصول ، ومما لاشك فيه أن معرفة الأحكام الكلية تمهد الطريق لمعرفة الجزئيات و إنشاء أخواتها و نظائرها كمعرفة العروض بالنسبة إلى من يمارس دواوين الشعراء وينشد الشعر .

و الفائدة الثانية : أن العلمـاء المعروفين ببراعتهم فى فن أصول الدراســـة و التعليم خلطوا هذا الفن بعلم الكلام و أصوله ، فربمـا لا يميزه الطالب منهـا ، و يعتبرها مجموعة واحدة كما هو حال معظم مدعى العلم فى هذا العصر ، فلا يحسن عندئذ إدراك العلوم ولا إتقان « أصول الدراسة و التعليم » .

إن فن أصول الدراسة و التعليم متميز عن العلوم ذاتها ، فاذا حفظ الطالب

هذه الأصول عرف الفن الذى يريد دراسته على حقيقته ، و تمثلت له صورته الجامعة المحدودة المتميزة ، وما أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله .

إعلم أنه لابد لمن أراد أن يلق على تلامذته درس كتاب من الكتب بطرق الدراية والبحث والتحقيق ولمن أراد أن يشرح كتابا ، أن يطبق خمسة عشر أصلا :

١ ـ ضبط المشكل : وهو أن يبين حركات الأسماء و الأفعال و سكناتها إذا كانت مشتبهة غامضـــة ، و كذلك يبين إعجام الحروف و إهمالها كيلا يقع الناس فى التصحيف

٢ ـ شرح الغريب : هو أن يشرح الكلمات الغريبة شرحاً لغوياً و اصطلاحياً إذا استعصى على الطلبة فهمها .

٣ ـ كشف المغلق : هو أن يشرح الجمل الصعبة و الصيغ المويصة فى ضوء علم النحو و علم الصرف .

٤ ـ تصوير المسألة : وهو أنه إذا ذكرت فى الكتاب قاعـــدة لا تدركها عقول الطلبة يبينها بعبارة واضحة فصيحة ويضرب لها الأمثلة حتى تستقر فى عقولهم و أذهانهم .

٥ ـ تقريب الدلائل : إذا أقيم فى الكتاب دليل على مسألة ساق مقدماته الخفية بأن تثبت الدعوى بلزوم بعض المقدمات ببعضها أو دخول بعضها فى بعض ، و يرجع إلى المقدمات البديهية التى لا يدخلها الشك .

٦ ـ البحث عن التعريفات وبيان فوائد القيود و الشروط و توضيح الأقسام والأمثلة وذكر طريقـة استنباط التعاريف الجامعة المانعة التى لا يبق فيها غموض أو تقصير .

٧ ـ تبيين القواعد الكلية و فوائد القيود و توضيح الأنواع و الأمثلة و طريقـــة

استنباط تلك القاعدة منها جامعة مانعة لا غموض فيها ولا يستدرك عليها .

٨ - الكشف عن وجه الحصر فى التقسيمات ، وهو أن يبين بالاستقراء أو بدليل عقلى أن المطالب محصور فى هذه الأقسام ويذكر أسباب التقديم و التأخير فى الفصول و القواعد .

٩ - التفريق بين متماثلين : هو أن يبين الفرق بين نوعين متماثلين ومذهبين مختلفين متماثلين .

١٠- التطبيق بين مختلفين : إذا اختلف كلام المؤلف فى مكانين حاول التطبيق بينهما ، مهما كان المكانان مختلفين بالدلالة التطابقية أو أحدهما بالدلالة التطابقية و الآخر بالدلالة التضمنية أو الالتزامية .

١١ - دفع الشبهات الظاهرة مما هو ممنوع فى التعريفات كالاستدراك وتعريف الشيء بالأخفى و عدم كونها جامعة مانعة - و مما هو ممنوع فى الدلائل كجزئية الكبرى و من مخالفه قوله قول المؤلف وعدم انطباق مناظرته على قواعد المناظرة فيدفع ذلك كله .

١٢ - بيان المصدر الذى أحال عليها المؤلف ، و ذكر سبب النظر حيث قال : « و فيه نظر » و تقرير المقدرات .

١٣ - ترجمة الكتاب إلى لغة الطلبة إذا كانت لغتهم مختلفة عن لغة الكتاب .

١٤ - تنقيح التأويلات و تعيين الأصح منها ، أعنى أنه إذا اختلف رأى الاستاذ و رأى الشارحين فى شرح الغريب أو ضبط المشكل ، ناقش هذه الآراء المختلفة و عين الأصوب منها .

١٥ - التوضيح بعبارة سهلة : وهو أن يوضح هذه الأصول الاثنى عشرة بعبارات واضحة موجزة سهلة التناول بحيث تستسيغها العقول ، ومن ذلك أن يمزج كلامه

المؤلف بحيث ينظم شمل الكلام و تتسق المعانی و العبارات .

إذا تحققت فی أی مدرس أو مؤلف هذه الأصول الخمسة عشر فقد تأهل للتدريس وشرح الكتب و التعليق عليها .

و ينبغی للأستاذ :

١ - أن يطلع طلبته علی هذه الأصول بطريق الاجمال .

٢ - ثم إذا مر فی الشروح بهذه الأصول نبهہم علی أن الشارح أراد هنا الأصل الفلانی و هنا الأصل الفلانی .

٣ - و أن يوجهہم إلی أن تكون هذه الأصول نصب أعينہم عند دراسة الكتب و أن لا تخرج أفكارهم عن هذا النطاق .

٤ - و أن يعرض مطالعة الطلبة - علی دراسته وينبهہم علی أخطائهم .

٥ - و أن يأمرهم بشرح كتاب أو التعليق عليه و يختبر عملهم ، فانه منتهی التعليم و التربية .

إعلم أن هذه الأصول متداولة فی كتب العقل و النقل و العلوم البرهانية و الخطابية ، أما فی كتب النقل فالحاجة إلی تحقيق العبارات و البحث عنها أشد و فی كتب العقل إلی تمحيص المسائل ، و فی العلوم البرهانية إلی المقدمات البديهية بواسطة أو وسائط ، و لكن بطريق البرهان ، و فی العلوم الخطابية عن طريق الظن . هذا تقرير لفن أصول الدراسة و التعليم ، أخذته عن شيوخی بالاسناد المذكور فی صدر الرسالة .

دراسات وأبحاث

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

فى تاريخ التشريع الاسلامى
و أسباب الاختلاف فى المذاهب الفقهية

[[٥]]

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

(الامام الشافعى) (١٥٠ - ٢٠٤هـ)

ينتقل الامام الدهلوى بعد ذكر الامام أبى حنيفة وصاحبيه - رضى الله عنهم - إلى الامام الشافعى - رضى الله عنه - و قد كان متأثراً به تأثراً بالغاً ، و لاشك أن أستاذه بالمدينة المنورة الشيخ أبا طاهر الكردى المدنى الشافعى الذى قرأ عليه طائفة من كتب الحديث وكتب الفقه الشافعى كالأم و شرح المهذب و غيرهما أثر فى نفسه كما أن دراسته المقارنة بين الفقه الحنفى و الفقه الشافعى أكدت لديه قوة مصادر الشافعى وإصابة آرائه ورجحان مسلكه ودليله فى أكثر المسائل الفقهية التى يختلف فيها الحنفية و الشافعية ، ويتجلى فى عباراته حيثما يتعرض لذكر الشافعى هذا الاعجاب و التأثر و الاقتناع بمذهبه وأصوله . ولا أريد أن أخوض هنا فى مبحث حنفيته أو شافعيته أو اجتهاده، ومن أى نوع كان ، وإلى من كان انتسابه ، إلا أنه كان يرى فى الأوساط العلمية الهندية إذ ذاك تحاملا على الامام الشافعى وقلة وقوف على أدلة مذهبه و عدم قراءة لكتبه أو كتب مذهبه مباشرة . كل ذلك أيضا كان يحمله على الانصاف و الايضاح و الثناء عليه .

و الامام الشافعى هو محمد بن إدريس الشافعى ينتسب إلى أحد أجداده شافع الذى يكون هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف جده الرابع . ولد عام وفاة الامام الأعظم أبى حنيفة (١٥٠هـ) وتلمذ فيمن تلمذ عليه ، على مالك وأخذ عنه الموطا

و لازمه إلى وفاته عام ١٧٩هـ ودخل بغداد (١) عام ١٨٤هـ أو قبلها فى خلافة هرون الرشيد واتصل بالامام محمد بن الحسن الشيبانى (م١٨٩هـ) وأخذ عنه فقهه و أراءه و آراء الامام أبى حنيفة ، كما أخذ عنه روايات العراقيين (٢) و جرت بينهما مناظرات فى الأصول و الفروع إلا أن الشافعى كان يجل الامام محمدا ويراه أستاذه و صاحب أياد بيضاء عليه ، فقد نزل عنده طالبا وضيفا نال الاكرام و الحب و العلم ، واستفاد منه فقه العراقيين و أحاديثهم و أكسبه هذا الاتصال بالمدرستين ، المدرسة المدنية الحديثية التى كان أستاذها الامام مالك والمدرسة العراقية الفقهية التى كان أستاذها الامام أبو حنيفة ، معرفة بفقههما و أدلتهما و اطلاعا واسعاً على محاسنهما و مواضع نقصهما .

ويحسن بى قبل أن أنقل ما ذكره الامام الدهلوى من منهجه و أصوله وجهوده أن أقدم رسماً بيانياً لمدرسته :

الامام مالك (١٧٩) ———— الامام أبو حنيفة (١٥٠) عن طريق الامام محمد (م١٨٩)

الامام الشافعى (٢٠٤)

الربيع المرادى	المزنى	البويطى	ابن حنبل	أبو ثور	الكرابيسى	الزعفرانى
(م ٢٧٠)	(م ٢٦٤)	(م ٢٣١)	(م ٢٤١)	(م٢٤٠)	(م ١٤٨)	(م ٢٦٠)

تحدث الامام الدهلوى عن موقف الامام الشافعى من مذهبى الامامين مالك

---

(١) ثم دخل بغداد عام ١٩٥ ثم عام ١٩٨ للمرة الثالثة ودخل مصر عام ١٩٩ ، و مكث حتى مات عام ٢٠٤هـ — رضى الله عنه — .

(٢) أنظر تاريخ المذاهب الاسلامية لأبى زهرة الجزء الثانى ص ٢٣٥ .

و أبی حنیفة و لماذا تفرد بمذهب مستقل ، و ما هی مؤاخذته علیهما ، و آراؤه الأصولیة ، یقول :

« و نشأ الشافعی فی أوائل ظهور المذهبین و ترتیب أصولهما و فروعهما ، فنظر فی صنیع الأوائل فوجد فیه أموراً کبحت عنانه عن الجریان فی طریقهم ، و قد ذکرها فی أوائل کتاب « الأم » (١) (٢) .

١ــ منها أنه وجدهم یأخذون بالمرسل (٣) والمنقطع (٤) فیدخل فیهما الخلل فانه إذا

---

(١) النسخ الموجودة من کتاب « الأم » تبدأ ــ کما هو معروف ــ بکتاب الطهارة ، وتذکر فیه المسائل الفقهیة حسب ماعرف فی مثل هذا الکتاب من الکتب الفقهیة ، و الذی أشار إلیه و أحال علیه الامام الدهلوی هو ما یوجد من المباحث فی الجزء السابع من « الأم » الذی طبع بتحقیق محمد زهری النجار .

(٢) الانصاف ص ٤١ .

(٣) المرسل عند جمهور المحدثین هو ما سقط من آخره من بعد التابعی . وصورته أن یقول التابعی قال رسول الله ﷺ ــ (أنظر شرح نخبة الفکر للحافظ ابن حجر ص ٦٦ طبع مکتبة الغزالی دمشق) و یطلق علی المنقطع أیضاً و به قطع الخطیب (أنظر تدریب الراوی ج ١ ص ١٩٦) .

و قد احتج بالمرسل علی التعریف الأول الامامان مالك وأبو حنیفة ــ و الامام أحمد أیضاً کما جاء فی روایة عنه . (أنظر الباعث الحثیث شرح اختصار علوم الحدیث ص ٤٨) وأدلة المحتجین به مبسوطة فی کتب الأصول لمذهبهما ، و قال ابن جریر : إن التابعین أجمعوا علی قبول المرسل و إن الشافعی أول من أباه (تدریب الراوی ج ١ ص ٢٠٢) .

(٤) الصحیح أن المنقطع هو ما لم یتصل إسناده علی أی وجه کان انقطاعه . وأکثرهم

جمع طرق الحديث يظهر أنه كم من مرسل لا أصل له (١) وكم من مرسل يخالف مسنداً (٢) ، فقرر ألا يأخذ بالمرسل إلا عند وجود شروط (٣) و هى مذكورة فى كتب الأصول

✕ ما يستعمل فى رواية من دون التابعى عن الصحابى (تدريب الراوى ج ١ ص ١٠٨) . و مثل هذا لا يحتج به عند الجمهور و لا عند مالك و أبى حنيفة اللهم إلا أن يقال إن الامام مالكا أورد فى كتابه الموطأ المنقطعات والبلاغات و يفيد ذلك احتجاجه بها ، ولم يوردها مالك إلا شواهد ومتابعات و ليس من مذهبه الاحتجاج بها .

(١) قال العراقى : مراسيل الحسن (البصرى) شبه الريح و قال ابن معين : مراسيل الزهرى ليس بشئ ، و كان يحيى بن سعيد ، لا يرى إرسال قتادة شيئاً و يقول هو بمنزلة الريح (أى لا وزن له و لا اعتبار) .
تدريب الراوى ج ١ ص ٢٠٤-٢٠٥)

(٢) قال الحاكم : هو ما اتصل إسناده إلى رسول الله ﷺ ، و قال الخطيب هو ما اتصل إلى منتهاه (سواء كان موقوفاً أو مقطوعاً) (أنظر الباعث الحثيث ص ٤٤ — ٤٥) .

(٣) يقول الحافظ ابن كثير : و أما الشافعى فنص على أن مرسلات سعيد بن المسيب حسان ، قالوا لأنه تتبعها فوجدها مسندة و الله أعلم ، و الذين عول عليه كلامه فى الرسالة : أن مراسيل كبار التابعين حجة إن جاءت من وجه آخر ولو مرسلة ، أو اعتضدت بقول صحابى أو أكثر العلماء أو كان المرسل لوسمى لا يسمى إلا ثقة فحينئذ يكون مرسله حجة و لا ينتهض إلى رتبة المتصل . (أنظر الباعث الحثيث ص ٤٨ - ٤٩) و (الرسالة للامام الشافعى بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ص ٤٦٢ - ٤٦٤) .

٢ - و منها أنه لم تكن قواعد الجمع بين المختلفات مضبوطة (١) عندهم فكان يتطرق بذلك خلل فى مجتهداتهم فوضع لها أصولا و دونها فى كتاب ، و هذا أول تدوين (٢) كان فى أصول الفقه » (٣) .

و مثل الامام الدهلوى لذلك بمسألة القضاء بالشاهد الواحد مع اليمين التى لم يقل بها الامام أبو حنيفة ، لأنها زيادة على كتاب الله مع أنه أخذ بحديث « لاوصيـــة لوارث » رغم أنه زيادة (٤) على الكتاب حيث قال الله تعالى : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصيـــة للوالدين و الأقربين ، الآية (٥) .

---

(١) عدم كون قواعد الجمع بين المختلفات مضبوطة يحتاج إلى دليل قوى أما أنها لم تكن مدونة فهو أقرب إلى الصحة .

(٢) هذا الذى يراه جمهور العلماء المعنيين بتتبع كتب الأقدمين و إن كان بعض الناس رأى أن أبا يوسف سبق الشافعى إلى تدوين هذا العلم كما ذكره بعض المترجمين له ، إلا أنه لا يعرف أثره و لم ينقل إلينا و لا رأينا نقل العلماء منه فى كتبهم .

(٣) الانصاف ص ٤١ .

(٤) الحنفية لا يقولون بنسخ الخبر الواحد لحكم ثبت بالقرآن و لا بالزيادة على كتاب الله ـ وهو أيضاً نسخ عندهم ـ بخبر الواحد . أما هذا الحديث الذى نسخوا به حكم الآية الكريمة فهو فى حيز التواتر لشهرته و استفاضته و تلق العلمـــاء له بالقبول (أنظر أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٦) .

(٥) الآية ١٨٠ من سورة البقرة .

ثم قال :

٣- ومنها أن بعض الأحاديث الصحيحة لم تبلغ علماء التابعين ممن وسد إليهم الفتوى فاجتهـدوا بآرائهم أو اتبعو العموميات أو اقتدوا بمن مضى من الصحابة فأفتوا حسب ذلك ثم ظهرت (تلك الأحاديث) بعد ذلك فى الطبقة الثالثة فلم يعملوا بها ظنا منهم (١) أنها تخالف عمل أهل مدينتهم وسنتهم التى لا اختلاف لهم فيها و قادح فى الحديث أوعلة مسقطة له ، أو لم تظهر فى الثالثة و إنما ظهرت بعد ذلك عند ما أمعن أهل الحديث فى جمع طرق الحديث و رحلوا إلى أقطار الأرض و بحثوا عن حملة العلم .

فكثير من الأحاديث لايرويه من الصحابة إلا رجل واحـــد أو رجلان و لا يرويه عنه أو عنهما إلا رجل أو رجلان . و هلم جرا ، فخفى عـلى أهل الفقه و ظهر فى عصر الحفاظ الجامعين لطرق الحديث .

و كثير من الأحاديث رواه أهل البصرة مثلا و سائر الأقطار فى - غفلة عنـه ، فبين الامام الشافعى - رحمه الله تعالى - أن العلماء من الصحابة و التابعين لم يزل شأنهم أنهم يطلبون الحديث فى المسألة فاذا لم يجدوا تمسكوا بنوع من أخر من الاستدلال . ثم إذا ظهر عليه الحديث بعد رجعوا عن اجتهادهم إلى الحديث فاذا كان الأمر على ذلك لا يكون عدم تمسكهم بالحديث قدحا فيه ، اللهم إلا إذا بينوا العلة القادحة - (٢) .

و مثل الامام الدهلوى لذلك بحديث القلتين (٣) وحكم عليه بالصحة وعلل

---

(١) أخذاً منهم بأصلهم لاظناً منهم .

(٢) الانصاف ص ٤١ - ٤٣ .

(٣) و هو : « إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث » . أخرج أبو داؤد رقم★

عدم قبول الامامين أبی حنيفة و مالك له بعدم ظهوره . و عدم أخذ العلماء به فی زمنهما ، و بحديث خيار المجلس (١) و إن أمره كذلك (٢) .

ثم قال :

٤- و منها أن أقوال الصحابة جمعت فی عصر الشافعی (٣) فتكثرت

★ ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ فی الطهارة باب ما ينجس الماء . و الترمذی رقم ٦٧ فی الطهارة باب رقم ٥٠ و النسائی ١ / ١٧٥ فی المياه / باب التوقيت فی الماء . و رواه أحمد و الدارمی و ابن ماجة و ابن خزيمة و ابن حبان و الحاكم .. و صححه و وافقه الذهبی (أنظر جامع الأصول تحقيق و تعليق الأستاذ عبد القادر أرناؤوط ج ٧ ص ٦٥). (و أنظر تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر على سنن الترمذی ج ١ ص ٩٨ - ٩٩) .

(١) و مضى الحديث : البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، و جاء بألفاظ أخرى متقاربة أخرجه البخاری فی البيوع : باب كم يجوز الخيار . و أبواب أخرى ، و أخرجه مسلم فی البيوع : باب ثبوت خيار المجلس ، و أخرجه مالك و أبو داؤد والنسائی و الترمذی .

(٢) هذا ما قاله الامام الدهلوی . و الناظر فی كتب الحنفية و المالكية و كتب الفقه المقارن يرى غير ذالك فان ترك هذين الحديثين كان لعلل أخرى من الاضطراب فی - السند والمتن فی الأول . وتوجيه المعنى فی الثانی : لا لسبب عدم ظهورهما فی عصر المجتهدين الأوائل .

(٣) لقد كان القرن الثالث الهجری عصر النهضة الحديثية و قيام الرحلات العلمية و النشاط الملحوظ على النطاق الواسع . و قد ظهر فيه الأئمة الستة و غيرهم إلا أن المجاميع الحديثية الصغيرة و المسانيد الكثيرة ألفت إلى ☒

و اختلفت و تشعبت ، و رأى كثيراً منها يخالف الحديث الصحيح حيث لم يبلغهم و رأى السلف لم يزالوا يرجعون فى مثل ذلك إلى الحديث فترك التمسك بأقوالهم ما لم يتفقوا (١) و قال : هم رجال و نحن رجال .

٥ - ومنها أنه رأى قوما من الفقهاء (٢) يخلطون الرأى الذى لم يسوغه الشرع بالقياس الذى أثبته فلا يميزون واحداً منهما من الآخر و يسمونه تارة بالاستحسان (٣) وأعنى بالرأى أن ينصب مظنة حرج أو مصلحة علة لحكم

✕ نهاية القرن الثانى و ذلك هو عصر نضوج الامام الشافعى كما أن رحلاته إلى الحجاز و العراق و اليمن و مصر ساعدته على جمع روايات الأقطار و البلدان ولم يحصل ذلك للامامين أبى حنيفة ومالك رحمهما الله تعالى .

(١) هذا هو ما يذكر فى كتب الأصول و لكن الأستاذ أبا زهرة رجح أنه يقسم رأى الصحابة إلى ثلاثة أقسام : ١ - فيأخذ بما أجمعوا عليه ٢ - ويأخذ بقول واحد منهم إذا لم يخالفه آخر ٣ - وعند اختلافهم يتخير كمذهب أبى حنيفة (تاريخ المذاهب الاسلامية ج ٢ ص ٢٦١-٢٦٢) و أنظر التفصيل فى « الامام الشافعى » لأبى زهرة .

(٢) و يريد بذلك المالكية و الحنفية لأنهم يقولون بالاستحسان و قال مالك : الاستحسان تسعة أعشار العلم ، وفسره بأنه الأخذ بالمصلحة المرسلة (تاريخ المذاهب الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٧) .

(٣) هذا التعريف الذى ذكره الامام الدهلوى للاستحسان هو ما كان يراه الامام الشافعى ولاشك أن الاستحسان إذا كان بهذا المعنى فلا يقول به إلا مبتدع ضعيف الحجة ، ويبدو أنه كان هناك ممن ينتسب إلى الامام أبى حنيفة والامام مالك من تجاوز الحدود فى هذا الباب ، و أدخل الرأى المجرد فى القياس ، الأمر الذى دعا الامام الشافعى إلى أن يقول : « فهل تجيز أنت أن يقول ✕

وإنما القياس أن تخرج العلة من الحكم المنصوص، ويدار عليها الحكم، فأبطل هذا النوع أتم إبطال وقال: من استحسن فانه أراد أن يكون شارعا (١).

※ الرجل: استحسن بغير قياس؟» و أن يقول: و إنما الاستحسان تلذذ. (اقرأ باب الاستحسان فى الرسالة للامام الشافعى ص ٥٠٣ - ٥٠٧) أو أن الامام الشافعى فهم من كلمة الاستحسان المستعملة لدى الفقهاء الحنفية و المالكية معنى آخر غيرما يريدون، كما حصل ذلك فى قضية الارجاء بين المحدثين و الحنفية.

و الاستحسان اصطلاحاً هو إما ترجيح قياس خفى على قياس جلى بدليل (المصلحة المرسلة) أو استثناء جزئية من حكم كلى بدليل. (علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٨٠) و قال بعض المحققين: «الحق أنه لايتحقق استحسان مختلف فيه لأنهم ذكروا فى تفسيره أمورا لا تصلح للخلاف.... و قال ابن السمعانى: إن كان الاستحسان هو القول بما يستحسنه الانسان و يشتهيه من غير دليل فهو باطل و لايقول به أحد، و إن كان الاستحسان هو العدول عن موجب دليل إلى موجب أقوى منه فهذا مما لا ينكره أحد. ومن هذا يؤخذ أن المختلفين فى الاستحسان لم يحرروا موضع النزاع، واختلافهم هو اختلاف ظاهرى لفظى لا حقيق (أنظر «مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه» للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٧٩ - ٨٣) وقد قرب الامام الدهلوى بشرحه لمعنى الرأى الذى ذكره معنى الاستحسان إلى تعريف المصطلح، إلا أنه لو صرح بالمصلحة المرسلة و أنه أخذ بقياس خفى تجاه قياس جلى بدليل لكان أولى، ولكنه يذهب فى هذا مذهب الامام الشافعى و يرى قوله هو الصواب.

(١) الانصاف ص ٤٤ - ٤٥.

و مثل لذلك برشد اليتيم فقد ادعى أصحاب الاستحسان أن بلوغ خمس و عشرين سنة ، مظنة الرشد فيقام مقامه و قالوا : هـــذا استحسان (١) و القياس لا يؤيد ذلك .

و ختم الامام الدهلوى هنا المبحث بقوله :

« و بالجملة فلما رأى الشافعى فى صنيع الأوائل مثل هذه الأمور أخذ الفقه من الرأس ، فأسس الأصول ، وفرع الفروع ، وصنف الكتب فأجاد و أفاد . واجتمع عليها الفقهاء و تصرفوا اختصاراً و شرحاً و استـدلالا وتخريجا ثم تفرقوا فى البلدان فكان هذا مذهب الشافعى ـ رحمه الله تعالى » (٢)

يتبين مما تقدم من تحليل الامام الدهـــلوى لأسباب اختلاف الامام الشافعى عن الامامين أبى حنيفة و مالك و معارضتـــه إياهما فى كثير من الأصول والفروع أن رؤوس المسائل الخلافية أو أسباب الخلاف الرئيسية هى:

١ـ هم يأخذون بالمراسيل و المنقطعات و الامام الشافعى لا يأخذ بها إلا ببعض المراسيل و بشروط معتبرة عنده ونشأ من ذلك خلاف فى المسائل التى أخذ فيها الامامان أبو حنيفـــة و مالك بالأحاديث المرسلة ـ و كلاهما يحتجان بالمراسيل ـ و خالفهما الامام الشافعى (٣) .

---

(١) القول الذى ذكر ، هو قول الامام أبى حنيفة ، و خالفه صاحباه و دليله أن منع المال عنه بطريق التأديب ، و لا يتأدب بعد هذا ظاهراً و غالباً ، ودليل الصاحبين أن علة المنع السفه فيبقى ما بقى العلة .

(أنظر الهداية للرغينانى الجزء الثالث . طبع المكتبة الاسلامية) .

(٢) الانصاف ٤٥ .

(٣) ويا حبذا لو قام واحد بجمع هذه المسائل الخلافية التى كان مبعث الخلاف فيها حجية المرسل أو عدم حجيته ، ليس غير .

٢ - إن الامامين أبا حنيفة و مالكا و من كان فى عصرهما من الأئمة المتقدمين لم تكن الأصول والقواعد الفقهية مضبوطة مدونة عندهم فكانت استنتاجاتهم و استنباطاتهم تنبع من الاجتهاد الذى يعتمد على التجربة والممارسة وتذوق الفن لا على أصول محررة يرجعون إليها ولا يعدلون عنها، أما الامام الشافعى فقد دون الأصول و حررها وضبطها ثم نظر فى المسائل وضبطها على أصوله فكان ذلك أيضا مبعث خلاف بينه وبين الامامين السابقين، لا سيما الامام أبا حنيفة .

٣ - إن الامامين أبا حنيفة ومالكا لم يبلغهما و غيرهما من فقهاء التابعين وأتباعهم بعض الأحاديث الصحيحة فنظروا فى العموميات أو استعملوا القياس . أما الامام الشافعى فقد وجد - لتأخر زمنه - فرصة الاطلاع على أكثر الجاميع الحديثية ، فقد كان فى عصره نشاط ملحوظ فى جمع الأحاديث و الرحلة فيه ، وتتبع أحاديث الأقطار و البلدان فأداه اطلاعه على هذه الأحاديث التى لم تبلغ الامامين و غيرهما إلى الاختلاف عنهما .

٤ - إن موقفه من أقوال الصحابة - رضى الله عنهم - يختلف عن موقف الامامين لأنه نظر فى أقوال الصحابة و آرائهم التى جمعت أكثرها فى عصره فرأى كثيراً منها تخالف الأحاديث الصحيحة و لم يكن ذلك إلا لعدم وصول تلك الأحاديث إليهم ، فأداه هذا النظر إلى أن لا يؤخذ قول الصحابى حجة لأنه قول الصحابى ، فقد يكون هو رأيه واجتهاده الذى لا يلزمنا بل لا بد من البحث عن الدليل و هو الحديث الصحيح .

٥ - وسع العلماء الحنفية دائرة القياس حتى أدخلوا فيها الاستحسان وليس هو فى نظر الامام الشافعى إلا رأياً مجرداً بدون دليل شرعى منصوص فخالف هذا الأصل و رد كل المسائل التى ثبتت لدى الحنفية بالاستحسان .

لاينكر أحد من الدارسين أن هذه الأمور المتقدمة و أخرى غيرها سببت الخلاف بين الامام الشافعى و الامامين السابقين أبي حنيفة ومالك - رحمهما الله - و لكن هل كان فيها الحق مع الشافعى أو مع أبي حنيفة ومالك، لا سيما فى قضية الاحتجاج بالمراسيل، ذلك أمر لا يحسن بى الخوض هنا فيه ويرجع لذلك إلى كتب الأصول و كتب الفقه المقارن .

أما عدم ضبط القواعد و الأصول و أنه أيضاً سبب الخلاف، وتمثيل الامام الدهلوى له مناظرة الامام الشافعى مع الامام محمد فى مسألة القضاء بالشاهد الواحد مع اليمين وتناقضه مع قاعدته إذا صحت القصة (١) لا يصلح دليلا على أن القواعد لم تكن مضبوطة عندهم لا سيما و الامام أبو حنيفة كان يذاكر أصحابه وتلاميذه ويتداول الرأى معهم حول المسائل والقضايا وينظرون فيها طويلا حتى يستقر رأيهم على شئ فعلى أى أساس يكون هذا النظر إذا لم تكن الأصول واضحة مضبوطة لديهم ؟ . ثم إن الامام أبا حنيفة معروف بنظره الفقهى الدقيق الذى لا بد و أن يسبق اجتهاداته تأصيل للضوابط و القواعد وترتيب للمقدمات . و قد شهد الامام الشافعى له بذلك « الناس فى الفقه عيال على أبي حنيفة » . أما أن يكون القواعد غير مدونة و لا مسجلة فلا ضير فى ذلك .

---

(١) أرى أن ما يروى من سكوت الامام محمد فى مناظرته مع الشافعى و إفحام له بذلك لا يصح ، فانه لم يتناقض مع قاعدته . فقد ترك هذا الحديث لأنه مخالف لما جاء فى القرآن و هو خبر آحاد . و أخذ بحديث لاوصية لوارث » لأنه مشهور متلق بالقبول . و قد تقدم ذلك نقلا عن الجصاص الرازى .

يمكن أن يقال ذلك فى الامام مالك - رحمه الله - الذى لم يكثر من القياس و لم يكن نظره فى القواعد والأصول أكثر من نظره فى نصوص الأحاديث ، وقاعدتاه « عمل أهل المدينة » و « السنة التى لا اختلاف فيها عندنا » كما يعبر هو ، غير منضبطتين انضباط القواعد الأخرى ، فيمكن أن تخالف القياس و يمكن أن تخالف الأحاديث الأخرى التى اشتهرت أو عرفت فى الأقطار الأخرى ولذلك فان هذا الكلام يصعب قبوله على إطلاقه ولا يخلو من التساؤلات عن مدى صلاحيته ليكون مبعث خلاف .

أما أن بعض الأحاديث الصحيحة لم تبلغ الامامين فأمر ممكن ، و قد يكون واقعاً أيضاً ، و إذا كان أبو بكر و عمر — رضى الله عنهما — يمكن أن تغيب عنهما أحاديث ثابتة معروفة لدينا الآن ، فلا غرابة أيضاً فى أن تغيب عن الامامين أبى حنيفة و مالك ، و لكن تطبيق هذه الحقيقة و إثبات أن الأقوال الفلانية للامامين لا تصح لسبب أن الأحاديث الفلانية لم تصلهما ، أمر ليس باليسير ، وهذا هو مبعث الخلاف وليس غياب الحديث عنهما فانه لو ثبت أن قولهما مخالف للحديث الثابت و لم يبلغهما ذلك الحديث كان الأخذ بالحديث و ترك قولهما ، هو قولهما و وصيتهما و مذهبهما ولا يبقى الخلاف حينئذ ، ولكن الخلاف يثور عندما يقول أتباع كل إمام ، ما دليلكم على صحة دعواكم بأن الحديث لم يصله ؟ قد يكون وصله ولكنه تركه لدليل أقوى عنده ، أو ثبت عندكم ولم يثبت لديه على قواعده لنقد الحديث .

ثم إنه يجب على المخالف فى هذا إذا صح لديه عدم وصول الحديث الفلانى إلى إمام من الأئمة أن يعتذر عنه ويثبت أن هذا القول قوله لو كان وصله الحديث ، و كثيراً ما يدعى ذلك و يثار الخلاف ، ثم لا يحسم القضية .

و يلاحظ أن الامام الدهلوى قد أفاض فى ذكر الامام الشافعى و مذهبه وأصوله أكثر من الامامين أبى حنيفة و مالك ، و يدل أسلوبه على ارتضائه لمسلكه وموقفه مع الامامين السابقين ، وقد صرح بأن دراسة كتب الأئمة الشافعية تورث

صلاحية الاجتهاد (١) كما صرح بأنه كثر فى مذهبه و أتباعه المجتهدون و الفقهاء المحدثون و أصحاب الوجوه و الترجيح .

يقول : أما مذهب الشافعى فأكثر المذاهب مجتهداً مطلقاً (٢) و مجتهداً فى المذاهب ، و أكثر المذاهب أصولياً و متكلماً ، و أوفرها مفسراً للقرآن وشارحاً للحديث ، و أشدها إسناداً و رواية و أقواها ضبطاً لنصوص الامام ، و أشدها تمييزاً بين أقوال الامام و وجوه الأصحاب، و أكثرها اعتناء بترجيح بعض الأقوال و الوجوه على بعض ، و كل ذلك لا يخفى على من مارس المذاهب و اشتغل بها ، وكان أوائل أصحابه مجتهدين بالاجتهاد المطلق ، ليس فيهم من يقلده فى جميع مجتهداته (٣) .

و يفيد رأيه هذا فى أصحاب الامام الشافعى و هم البويطى و المزنى و الربيع المرادى و غيرهم أنهم كأصحاب أبى حنيفة ، أبى يوسف و محمد و زفر و غيرهم ، و لكن هذا لا يعنى أنهم متساوون فى الرتبة و درجة الاجتهاد، فالامام أبو يوسف و الامام محمد بن الحسن إمامان مجتهدان مستقلان ، مخالفتهما ليست بقليلة ، أما أصحاب الامام الشافعى فمخالفتهم دون مخالفة هذين الامامين و استقلالهم دون استقلالهما ، يدل على ذلك المقارنة بين آثارهما و أقوالهما و آثار هؤلاء و أقوالهم (٤) .

---

(١) صرح بذلك فيما يتعلق باجتهاده وفى تصديره لكتابه المصفى شرح الموطأ بالفارسية .

(٢) يريد به مجتهداً مستقلا منتسباً . يفيد ذلك قوله : ليس فيهم من يقلده فى جميع مجتهداته .

(٣) الانصاف ص ٨٥ .

(٤) و قد جاء فى طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ١٠٢ «إن المزنى لا يخالف أصول الشافعى و أنه ليس كأبى يوسف و محمد فإنهما يخالفان أصول صاحبهما .» و المزنى أقيس أصحاب الشافعى كما وصفه الامام نفسه (أنظر طبقات الشافعية ج ٢ ص ٩٤) .

و يفيد بأن مذهب الامام الشافعى مخـدوم ، كثرت فيه الكتب ، و نخل و محّص و طبع ، و لم يحصل ذلك لمذهب غيره ، يقول :

« و لا يخفى عليه (أى على من مارس المذاهب و اشتغل بها) أيضـاً أن مادة مذهب الشافعى من الأحاديث و الآثار مدونة مشهورة مخدومـــة و لم يتفق ذلك فى مذهب غيره (١) (٢) » .

ثم ينصح من يخاطبه ـ و هم أولا علماء الهند الذين عاصروه و كانوا بمنأى عن كتب الشافعية و ينقذون مذهب الامام الشافعى بالأدلة ـ المنطقية القياسية و ليس لهم طول باع فى علوم الحديث ـ باحترام الامام الشافعى و الاستفادة من كتبـه و كتب أصحابه و أتباعه و نبذ التعصب الأعمى ، يقول :

« و إذا أحطت بما ذكرناه اتضح عندك أن من عادى مذهب الشافعى يكون محروماً عن مذهب الاجتهـاد المطلق ، و إن علم الحديث قد أبى أن يناصح لمن لم يتطفل على الشافعى و أصحابه رضى الله عنهم (٣) »

و كن طفيليهم على أدب فلا أرى شافعاً سوى الأدب « يتبع »

---

(١) و من الدليل على ذلك أن كتـاب الطحـاوى شرح معانى الآثار لا يزال ينتظر من يخدمه .

(٢) الانصاف ص ٨٧ .

(٣) الانصاف ص ٨٦ . و قد جاءت هذه العبارة فى الطبعة التى أخرجها شيخنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ حفظه الله ـ بمراجعته و تعليقاته . ، هكـذا « إن من حاد مذهب الشافعى يكون محروماً عن مذهب الاجتهـاد المطلق ، و إن علم الحديث ، قـد أبى أن ينــاصح من يتطفل على الشافعى و أصحابهم رضى الله عنهم » و يبدو أن فيها سهواً .

المستشرقون و القرآن الكريم

(٢)

محمد صدر الحسن الندوی

لكن القرآن لم تمسه يد التحريف ، بل توجد فی القرآن آيات كثيرة تدل علی أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر ، لأن محتوياتها تعبر عن معان مختلفة من حيث مدلولاتها إلی تلك الحقيقة الناصعة ، يشير الدكتور العلامة محمد عبد الله دراز فی كتابه القيم « النبأ العظيم » إنه يقول :

كان القرآن ينزل حسب

مشيئة الله تبارك وتعالی :

« لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلی القول و كانت حاجته القصوی تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا ، ولكنه كانت تمضی الأيام و الليالی و لا يجد فی شأنها قرآناً يقرؤه علی الناس .

أبطأ الوحی فی مناسبات عديدة :

« ألم يرجف المنافقون بحديث الافك عن زوجته عائشة رضی الله عنها و أبطأ الوحی و طال الأمر و الناس يخوضون ، حتی بلغت القلوب الحناجر و هو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ و احتراس » إنی لا أعلم عنها إلا خيراً ، ثم إنه بعد أن بذل جهده فی التحری و السؤال و استشارة الاصحاب ، و مضی شهر بأكمله و الكل يقولون ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد علی أن قال لها آخر الأمر « يا عائشة أما أنه بلغنی كذا و كذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله و إن كنت ألممت بذنب فاستغفری الله .

هذا كلامه بوحى ضميره و هو كما ترى كلام البشر لا يعلم الغيب ، و كلام الصديق المتثبت الذى لا يتبع الظن ، و لا يقول ما ليس له بعلم ، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات ، حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها ، و مصدر الحكم المبرم بشرفها و طهارتها ، الحديث أخرجه الشيخان و غيرهما .

لا يمكن الرسول أن يتقول على الله :

« فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمى بها عرضه و يذب بها عن عرينه و ينسبها إلى الوحى السماوى لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟ و لكنه ما كان ليذر الكذب على الناس و يكذب على الله « و لو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين (١) » .

القرآن يعتب رسول الله :

« و أخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه و يهواه فيخطئه فى الرأى يراه ، ويأذن له فى الشئ لا يميل إليه ، فاذا تلبث فيه يسيراً تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد و العتاب القاسى ، والنقد المر ، حتى فى أقل الأشياء خطراً « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك (٢) » « و تخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » (٣) « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤) » « و ما كان للنبى و الذين آمنوا

(١) سورة الحاقة : ٤٤ - ٤٧ .
(٢) سورة التحريم : ١ .
(٣) سورة الأحزاب : ٣٧ .
(٤) سورة التوبة : ٤٣ .

أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم »« (١) ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيـــا و الله يريد الآخرة ، و الله عزيز حكيم ، لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٢) »« أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك الا يزكى ، و أما من جاءك يسعى و هو يخشى فأنت عنه تلهى (٣) » .

لو كان القرآن من محمـــد ﷺ
لما وجدت فيه هذه التقريعات المؤلمة :

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه معبرة عن ندمه و وخز ضميره حين بداله خلاف ما فرط من رأيه ، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التحويل و التشنيع ؟ ألم يكن له فى السكوت عنها ستر على نفسه و استبقاء على آرائه ؟ بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذالك الوجدان ، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات ، و لكنه الوحى لا يستطيع كتمانه ، « و ما هو على الغيب بضنين » (٤) .

المعارف الحديثـــة تثبت
القرآن كتاباً منزلاً من الله :

وهنا حقائق فى كتاب الله تعالى لايمكن لانسان بعث قبل أربعة عشرقرناً أن يأتى بمثله من تلقاء نفسه، وقد صدقتها التجارب الحديثة فى عصر العلوم والاكتشافات و يحسن بنا أن نلفت الأنظار إلى حقائق ثابتة .

(١) سورة التوبة : ١١٣ .
(٢) سورة الانفال : ٦٧ - ٦٨ .
(٣) سورة عبس : ٥ - ١٠ .
(٤) النبأ العظيم : ج ١ ص ٢٣ - ٢٦ الطبعة الثانية للدكتور محمد عبد الله دراز .

نظرة مجملة على الكتب التى ألفت في التفاسير العلميــة للقرآن :

و لكن قبل أن نلفت الأنظار إلى الحقائق العلمية التى وردت في القرآن الكريم نريد أن ننبه على الأخطاء التى ارتكبها بعض المؤلفين فى الماضى ويرتكبونها فى الحاضر فقد ألف الأستاذ طنطاوى جوهرى (١) « جواهر العلوم » فى ستة و عشرين جزءاً تتألف من نحو ستة آلاف و خمسمائة صفحة من القطع الكبير و نستطيع أن نجد فى هذا التفسير كل شئ و بامكانك أن تقول .

« إن تفسير طنطاوى جوهرى يحتوى على كل شئ إلا على تفسير القرآن ، إنه يؤلف من مواد تتــداعى على غير نظام و تذكر لمناسبــة و لغير مناسبة ، و الكتاب فى جملته صورة للفوضى الكاملة ، لا شك فى أن طنطاوى جوهرى قد أحب أن يحبب الاسلام إلى الناس بمـا كان يقول من أنك تستطيع أن تعرف من القرآن مثلا مقدار البوتاسيوس فى نبات البرسيم ، إن الرجل محمود لحسن نيته

---

(١) هو مؤلف مصرى ولد سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وكانت فى سنة ١٣٥٨هـ (١٩٤٠م) تعلم فى الأزهر و تعلم شيئاً من اللغــة الانكلزية و قرأ أشياء من العلوم الرياضيـة و الطبيعية ثم علم فى المدارس الابتدائيــة ، و حاضر فى الجامعة المصرية - و كان اهتمامه الأول منصبا عـــلى روية مفردات المعارف الانسانية فى القرآن الكريم ، ولعله أول الذين أغرموا بهــذا الموضوع ، و له تصــانيف أخرى مثل « التـاج المرصع بجواهر القرآن الكريم » « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » « القرآن و العلوم العصرية » .

ثم ألفت على هذا المنوال كتب أخرى فى فترات مختلفة ، مثل★

و لكن تفسيره الذی مضى عليه الآن نحو ثمانين سنة أصبح لا قيمة علمية له ، لا فى العلم و لا فى التفسير (١) .

إن طنطاوی جوهری و من سلك مسلكه أتى بكل غث و سمين فى تفسير تلك الآيات القرآنية التى دلت عليها معارف حديثة ولم يتحر فيه الدقة والصواب ، و الأشياء الكثيرة التى أوردوها فى تفاسيرهم قد رفضتها المعارف الحديثة فى هذا الوقت ، و لذلك سببت هذه التفاسير العلمية إلى إساءة الظن بالقرآن الكريم فلا بد لنا أن نتوخى الدقة لأن آيات القرآن فيها حقائق ثابتة لا تتغير ولا تبتدل

★ « تنبيه العقول الانسانية لما فى آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية » تاليف الأستاذ محمد بخيت المطيعى و « القرآن و العلم الحديث » تأليف الأستاذ عبد الرزاق نوفل و « نهاية الكون بين العلم و القرآن » تاليف الأستاذ محسن عبد الصاحب المظفر ، و « العلوم الطبيعية فى القرآن » تاليف الأستاذ يوسف مروه و « لفتات علمية من القرآن » تاليف الأستاذ يعقوب يوسف ، و « أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى » محاضرة الأستاذ عبد العزيز جاويش ، و « نقد الفهم العصرى للقرآن » تاليف الأستاذ عاطف أحمد ، و « القرآن و علم النفس » تاليف الأستاذ محمد مصطفى زيدان ، و « القرآن و العلم » الفصل الأول (ص ١٧ - ٤٩) لكتاب « الاسلام والعصر الحديث » و « تسخير القمر كما يراه القرآن » تاليف الأستاذ شهاب الدين الندوى ، و « التفسير العلمى الآيات الكونية فى القرآن » للاستاذ حنفى أحمد ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف .

(١) أثر الرسالة الاسلامية فى الحضارة الانسانية ، مقال الدكتور عمر فروخ ، مجلة حضارة الاسلام ، جمادى الآخرة ، رجب ١٤٠٠ .

بتغير الأحوال و الظروف ، فلا يليق بنا أن نخضع آيات القرآن للمعارف الحديثة ، بل يمكن لنا أن نقول فى غاية من الحيطة و الدقة أن الاكتشافات الحديثة تتفق أحياناً بالآيات التى تشير إلى الحقائق الكونية و أحياناً لا تتفق ، و من هنا نعلم أن هذا الاكتشاف يحتاج إلى إعادة النظر فيه. لأنها معرضة للخطأ و الصواب ، أما القرآن فهو منزه عن الأخطاء و الاغلاط .

المنهج المفضل فى التفسير
العلمى للقرآن :

« إن مبدأ « التفسير العلمى للقرآن الكريم » فى حد ذاته سليم و واجب علمى و دينى فى نفس الوقت ، و لكن علينا أن نتوخى الدقة و السلامة فيما نسوق من حقائق العلم التى لا تتغير ، و أن لا نحمل الآيات ما لا طاقة لها به ، العلم هو الذى يبصرنا بآيات الخالق فى هذا الكون و أقصد بها الحقائق الثابتة التى لا تتبدل ، و من هنا كان التقاء العلم بالدين ، و من هنا جاءت تلك القضايا العلمية التى أثارها القرآن الكريم معجزة فى عصر العلم ، نحن نستمد منه - القرآن الكريم - الحقائق ثم نردها إليه لنتبين مدى صحتها ، فان خالفت ما فى الكون اعتبرت وهما وخيالا (١) .

---

(١) مجلة الوعى الاسلامى عدد ٢٠٢ شوال ١٤٠١هـ مقال الدكتور محمد جمال الدين الفندى ، بعنوان « التفسير العلمى للقرآن الكريم » .

مبادىء فى الأدب و الدعوة

فضيلة الشيخ عبد الرحمن جسن حبنكه الميدانى

سادساً — أوجه النص

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبى الرفيع فى الكلام أن يكون له عدة أهداف ، وهذه الأهداف كلها مقصودة منه ، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب بالكلام جماعة ذات فئات مختلفة ، و عناصر متباينة .

فمن أمثلة النص ذى الهدف المزدوج أن يوجه ذو سلطان عام تهديده الشديد للذين يخالفون أوامر مبعوث من قبله ، للقيام بمهمة من المهمات السلطانية ، إننا نلاحظ فى هذا النص التهديدى هدفين معاً :

أحدهما : تهديد الذين يخالفون وثانيهما : رفع معنوية المبعوث ، وشد أزره وشحذ همته للقيام بما بعث به على أفضل وجه .

و قد يكون الكلام مثلث الهدف ، و أكثر من ذلك ، وكل صاحب علاقة يأخذ من النص ما ناسب حاله ، و يكثر هذا فى النصوص القرآنية ، فقد يكون الكلام تهديداً و توعداً للكافرين ، و وعداً للمؤمنين ، و تربية و تأديباً و تسلية للرسول صلوات الله و سلامه عليه .

سابعاً — الشعر و فنونه

و من عناصر الجمال فى الكلام أن يرضى الحس الموسيقى فى الانسان ، و يدغدغه بامتاع .

إن للموسيقى و موازينها تأثيراً مستعذبا فى النفوس ، فإذا جاء الكلام موزونا على بعض موازينها الحلوة المستعذبة اكتسب حلاوة .

ثم إذا توفرت فى الكلام مع ذلك عناصر متلائمة من عناصر الجمال والكمال الأدبى إزداد الكلام حسناً و قوة تأثير فى الناس .

إن الأشياء الجميلة التى تلامس مشاعر الانسان بمؤثراتها الحلوة من جانبين ، هى أكثر تأثيراً فيه من التى تلامس مشاعره من جانب واحد ، و كلما ازدادت الجوانب ازدادت قوة التأثير ، حتى تصل إلى محاصرة الانسان من كل مشاعره الجسدية و النفسية و الفكرية و الوجدانية ، فيفقد عندئذ كل مقاومته ، و يستسلم استسلاماً تاماً ، مستغرقاً فى لذات المشاعر الحلوة .

إنه إذا اجتمع المنظر الجميل ، والصوت الحسن ، والرائحة الزكية ، و الطعم اللذيذ ، و الملمس الحلو الممتع ، و الراحة النفسية ، و كان الحـــديث أدباً جميلا رفيعاً ، موضوعاً بقالب موسيقى شعرى ، فقد حاصر الجمال معظم مشاعر الانسان ، وأخذ يهيمن عليها بمؤثراته الحلوة ، حتى يسلبها كل مقاوماتها ، فتستسلم استسلاماً تاماً .

و لما كانت النفس الانسانية تطرب للوسيقى ، و ترتاح لموازينها الحلوة ، و كان الشعر كلاماً يجرى فى بعض جداولها ، و على بعض موازينها . كان للشعر تأثير حلو على النفوس الانسانية ، و يظهر هذا حتى على الأطفال الصغـار الذين يظهر شعر طفلى على بعض جملهم التى يرددونها أو يغنون بها .

ويتفاوت الناس فى مدى إحساسهم بهذا النوع من أنواع الجمال فى الوجود ، و فى مدى تذوقهم له ، لذلك نلاحظ أن بعض الناس يتأثرون بالشعر أكثر من بعض ، مع وجود أصل التأثر به عند كل الناس إلا نادراً .

و بعض الناس لديه بالتكوين الفطرى فطرة نظم الكلام على ميزان شعرى .

و كلنا يعلم أن الكلام الموضوع فى قالب ميزان شعرى أسرع إلى الحفظ ، و أثبت فى الذاكرة ، و أسهل استدعاء عند الحاجة .

فلا غرو اذن أن يكون الشعر عنصراً من عناصر الجمال فى الكلام .

وهنا نقول : إن على أصحاب الأهداف النبيلة والدعوات الخيرة ، أن يحسنوا استخدام هذا اللون الجمالى من الوان المؤثرات على النفس الانسانية ، وأن لا يدعوا

ساحته للشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، الذين هم فى كل واد من أودية أهواء النفس و شهواتها ، و أودية الضلال والفساد فى الأرض يهيمون ، والذين هم يقولون ما لا يفعلون .

إن الشعر سلاح من أسلحة الأدب ، وهو وسيلة حيادية بذاتها ، إن استخدمت فى الخير كانت خيراً ، و إن استخدمت فى الشر كانت شراً .

و بوسع المصلحين و دعاة الخير ممن لديهم القدرة على كتابة الشعر الرفيع أن يلبسوا درع قول الله تعالى فى سورة (الشعراء) :

« إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، و ذكروا الله كثيراً ، و انتصروا من بعد ما ظلموا ، و سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (٢٢٧) .

بعد أن وصف الله واقع حال معظم الشعراء بقوله تعالى :

« والشعراء يتبعهم الغاوون (٢٢٤) ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون (٢٢٥) و أنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦) .

فالشعراء الذين يهيمون فى كل واد من أودية الضلال و الهوى ، و الكذب و الطعن فى الناس ظلماً ، و المدح لبعض الناس استجداء ، و الانتصار بغير حق ، ويتبجحون بشعرهم كذباً وزوراً ، فيصفون أنفسهم بالشجاعة وهم الجبناء ، وبالكرم و هم البخلاء ، و بالعقل و هم السفهاء ، و بالعفة و هم الفساق ، و يتحدثون عن مغامرات غرامية لم تحدث فيفضحون بأكاذيبهم محصنات عفيفات ، و يفتخرون بالحسب والنسب وهم صعاليك لاحسب لهم ولا نسب ، ويعدون ولا يفون ، ويعاهدون ويغدرون ، ويظهرون صدق الحب و هم الطامعون ، فهم يقولون ما لا يفعلون .

هؤلاء يزخرف الشعر الذى يملكون القدرة على صناعته و التأثير بفنونه إنما يتبعهم الغاوون من الناس الذين سفهوا نفوسهم ، تخدعهم الكلمة المزخرفة ولو كانت باطلا وزوراً ، و دعوة إلى الشر و الفساد فى الأرض .

و من هؤلاء شعراء الحانات ، و المواخير والليالى الحمر ، وشعراء الاباحية ، و شعراء المذاهب الضالة الهدامة .

أما الشعراء الذين يلبسون درع الاستثناء القرآنى فقد برز منهم فى عصر

الرسول ﷺ «حسان بن ثابت - و عبد الله بن رواحة - و كعب بن مالك» .

و اتخذهم الرسول ﷺ أسلحة بيانية أدبية ضد شعراء أهل الكفر و الشرك بالله ، و كان يستحثهم أحياناً لمجاهدة الكافرين و المشركين بشعرهم .

و ظهر فى العصور الاسلامية التالية شعر إسلامى كثير ، ولكن ظلت نسبة المبدعين من فحول الشعراء فى جانب الذين يتبعهم الغاوون هى النسبة الأكبر ، أما الذين لبسوا درع الاستثناء القرآنى ، فقد كان فيهم موهوبون قدرات عالية تؤهلهم لأن يكونوا من فحول الشعراء ، إلا أنهم فيما أرى آثروا الابداع فى العلوم الاسلامية و الاشتغال بها ، عن توجيه كل اهتماماتهم للشعر ، فلم يبرزوا به كما برز الآخرون .

و فى ظنى لو أراد الامام الشافعى أن يكون شاعراً لبذ أبا نواس فى الشعر ، و لكنه آثر أن يكون عالماً فقيها .

و قد تكون شدة الحذر من الانزلاق بالشعر إلى فئة الذين يتبعهم الغاوون قد كفت كثيراً من الذين يملكون فى فطرتهم القدرة الشعرية العالية عن أن يخوضوا بحور فنونه و يستخدموه للدعوة ، و يبلغوا فيه إلى مستوى فحول الشعراء .

و فى مناسبة الحديث عن الشعر الاسلامى يطيب لى أن أثنى على كلية اللغة العربية فى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية فى المملكة العربية السعودية ، إذ وجهت عنايتها لجميع شعر الدعوة عن طريق البحوث الجامعية التى تشجع على كتابتها بعض طلابها ضمن البحوث المطلوبة للتخرج ، وقد طبعت قسما من هذه البحوث الجيدة ، باشراف أساتذة متخصصين ممن لهم اهتمام صادق بأدب الدعوة الاسلامية ، وقد اطلعت على بعضها باشراف الأخ الصديق الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا . فجزاهم الله خيرا .

ثامنا - الغرض الفكرى البيانى من الصورة البلاغية المختارة

ليس يكفى إيراد الكلام وفق صورة من الصور البلاغية التى يذكرها علماء البلاغة بل لا بد من ملاحظة غرض فكرى بيانى تؤديه هذه الصورة المختارة .

إن نسبة الجمال فى الكلام ترتقى جدا حينما ندرك أن الأديب قد اختار الصورة

البلاغية التى أوردها فى كلامه لغرض فكرى زائد على مجرد اختيار صورة جمالية بلاغية يذكرها علماء البلاغة .

إن الصورة البلاغية مهما كانت جميلة فى ذاتها ، تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكرى بيانى تهدف إليه فى البيان ، باستثناء عناصر الجمال اللفظى أو الموسيقى ، و الزينات التى لا تحتمل أداء غرض فكرى بيانى .

ولدى بحث أى جانب بلاغى فى كلام رفيع من كلام البلغاء ، ينبغى البحث لاستجلاء الغرض الفكرى من الصورة البلاغية ، فليس المهم مجرد الاشارة إلى الصورة البلاغية ، إنما المهم بعد ذلك هو استجلاء الغرض الفكرى البيانى من ورائها .

و من أمثلة ذلك قوله تعالى « فسالت أودية بقدرها » إن الصورة البلاغية فى هذا النص تتلخص باسناد السيلان إلى الوادى ، مع أن المراد سيلان الماء فيه .

فهل انتهينا من البحث ؟

إن الذى يملك الحس الأدبى الرفيع يقول : لا ، لأنه يتساءل : و لماذا أسند السيلان إلى الوادى بدل اسناده إلى الماء ؟ وما الداعى إلى ذلك وما هو الغرض منه ؟

و بالتأمل يجد الجوانب على تساؤله ، إذ يرى أن الغرض الفكرى البيانى من هذا الاسناد ، و هو إعطاء السامع أو القارىء صورة تشعر على سبيل التخيل بأن الوادى يسيل فعلا لكثرة تدفق الماء و ارتفاع نسبته فى جانبى الوادى .

و هذه الصورة قد تحدث فى وهم الانسان أو فى تخيلاته حينما يشاهد هدير الماء الكثير المتدفق الذى يغمر قدراً كبيراً من الوادى .

فالتعبير إذن تصوير صادق لما يجرى فى التخيل لدى مشاهدة الحدث المادى .

إذن ينبغى للاديب أن يراعى ذلك فى كلامه ، و عليه أن يلاحظ باستمرار أن كبار البلغاء حينما يعطفون فى كلامهم عن مجراه إلى صور بلاغية يختارونها إنما يفعلون ذلك لأغراض فكرية بيانية يهدفون إليها ، و لا يكتفون باختيار الصور البلاغية لمجرد أنها صور بلاغية . و هذا ما يعطى كلامهم ارتقاء أدبياً عظيماً ، و جمالا مكثفاً مضاعفاً .

روائع الأدب و البيـــان

★ فى كتب التراجم و الطبقات ★

عبد الله الحسنى الندوى

الأدب كالعسل المصفى :

إن القطع الانشائية والروائع الأدبية التى توجد فى الكتب والمؤلفات التى لم تؤلف باسم الأدب ، و لا توجد فى مظانها بل هى منثورة فى ثنايا الكتب التى ألفت فى مختلف العلوم و الفنون ، منها كتب التراجم و الطبقات ، و هى مثل الرياحين و الأزهار التى يمتص رحيقها النحل ثم يصبها عسلا صافياً فيه شفاء للناس و لكل منها لون منفرد و مزايا تستقل بها دون غيرها ، فمن زعم أن الأدب لا يوجد إلا فى القصص و الروايات و الشعر و الخيال فقد جنى على الأدب بكامله و حرم نفسه و قارئه عن خير كثير مبثوث فى كتابات العلماء و الباحثين ، مثله كمثل رجل سن القوانين للنحلة لامتصاص الرياحين و الجلوس على زهرة دون زهرة أو كما قال للعندليب أن له حدوداً فى اختيار الرياحين و الأزهار و الجلوس عليها و التمتع بمناظرها الخلابة المتنوعة ولا يمكنه أن يكون حراً فى الاختيار و الانتفاع إلا فى ذلك الاطار الذى عين له .

و هذا الأدب ليس بأدب طبيعى بل هو كالأزهار القرطاسية التى طرزتها

أيدی الصناعة وزركشتها أقلام التكلف والتصنع ، ففقدت رونقه و رواءه و ذهب جمالها و بهاءها ، فبذل هؤلاء الأدباء المتكلفون كل جهدهم فی محاكاة هذه الأزهار الصناعية ، معرضين عن الجمال الفطری والأدب الطبيعی ، أما الأزهار الفطرية فتتفتح فی كل مكان و يتمتع بها كل من رزق ذوقاً سليماً و يطرب و يعتبر ذلك جناية عظيمة أن يغض البصر أحد عنها أو يحط من قيمتها و هو برهان ساطع على فساد الذوق و على بعده عن الفطرة السليمة و الطبيعة المستقيمة .

وحيث إنه من واجبنا أن نستعرض أصول الأدب من ناحية أخرى وننظر إليه من خلال الجمال حيثما يكون و أينما يوجد فيجب علينا أن لا نغض البصر و لا نتنازل من تلك الدرر الثمينة التی نثرتها الكتب التی أشرنا إليها من قبل فی أعماقها و أغوارها . و نقتطف تلك الأزهار الجميلة و الرياحين الرائعة التی حرمنا من التمتع بها منذ قرون لأجل غوغائية الأدباء المتزعمين و تطبيل المنشئين المحتكرين و عفونة الجو و حالكة الظلام ، فننشد هذا الشعر :

ستعرف حين ينكشف الغبـــار
أ فرس تحت رجلك أم حمـــار

و قد انكشف الغبار و رفع اللثام لكن الحق يعلو و لا يعلى عليه ، ونستهل السفر و نبدأ التاريخ بمطالعة عميقة و دراسة جذرية و استعراض جديد الأدب و تاريخـــه .

★ القطع الأدبية و النماذج :

و نظراً لضيق الوقت و إيماناً بادراك العلماء المحاضرين أمثالكم نقتصر هنا بنماذج من كتب التراجم و الطبقات التی نجد فيها دقة الوصف وسعة الفكر و سرعة البديهة و رشاقة الأسلوب المترسل السلسال وقد أتاح الله لنا هذه الفرصة

الطيبة بمناسبة هذه الندوة الأدبية العالمية ، فاغتنمتها لتقديم بعض النماذج الأدبية أمامكم ، واقتطفتها من ثنايا الكتب - التى أشرت إليها من قبل - حتى لا أحرم من السعادة التى ساقها الله الينا ، و هو ولى التوفيق .

يقول شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر بن خلكان - المولود ٦٠٨ المتوفى ٦٨١ - فى وفيات الأعيان على ص ١٥١ ج ٦ واصفاً صلاح الدين الايوبى أنه كيف دانت له بلاد مصر وكيف تمكن منها ، فانه صور ذلك تصويراً دقيقاً فيه الجمال و الحب و فيه دقة الملاحظة :

ذكر المؤرخون أن أسد الدين لما مات استقرت الأمور بعده للسلطان صلاح الدين ابن أيوب بمصر وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الاوضاع ، وبذل الامو ل و ملك قلوب الرجال ، هانت عنده الدنيا فلكها و شكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر و أعرض عن أسباب اللهو و تقمص بقميص الجد و الاجتهاد و مازال على قدم الخير و فعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات ، ثم يقول على ص ١٥٢ فى ذكره غشى الناس من سحائب الأفضال والأفعال مالم يؤرخ غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير متابع للقوم ، لكنه يقول بمذهب أهل السنة ، مارس أهل الفقه والعلم و التصوف و الدين و الناس يهرعون إليه من كل صوب و يفدون عليه من كل جانب و هو لا يخيب قاصداً و لا يعدم وافداً إلى سنة خمس و ستين وخمسمائة ، ص ١٥٢ ج ٦ ، ثم إنه يذكر جعفر البرمكى الذى كان من أحب الناس إلى هارون الرشيد فذكر تلك المكانة التى احتلها جعفر فى قلب الخليفة فيقول :

كان من علو القدر و نفاذ الأمر ، وبعد الهمة ، وعظم المحل و جلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها و لم يشارك فيها ، و كان سمح الأخلاق طلق الوجه ، ظاهر البشر ، أما جوده وسخاؤه ، وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر ،

و كان من ذوى الفصاحة و المشهورين باللسن والبلاغة ، ثم يقول على ص ٢٩٦

و كان جعفر متمكنا عند الرشيد غالباً على أمره ، واصلا منه ، بلغ من علوالمرتبة عنده مالم يبلغ سواه حتى إن الرشيد اتخذ ثوبا له زيقان فكان يلبسه هو و جعفر جملة و لم يكن للرشيد صبر عنه - وكان الرشيد أيضاً شديد المحبة لأخته العباسة ابنة المهدى و هى من أعز النساء إليه ولا يقدر على مفارقتها ، و كان متى غاب أحد من جعفر و العباسة لا يتم له السرور فقال يا جعفر إنه لايتم لى سرور إلا بك و بالعباسة و إنى سأزوجها منك ليحل لكما أن تجتمعا و لكن إياكما أن تجتمعا و أنا دونكما فتزوجها على هذا الشرط .

يقول عن امام الحرمين ضياء الدين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى : أعلم المتأخرين من أصحاب الامام الشافعى على الاطلاق المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه و مادته و تفننه فى العلوم عن الاصول و الفروع و الأدب و غير ذلك ، رزق من التوسع فى العبادة مالم يعهد فى غيره و كان يذكر دروساً يقع كل واحد منها فى عدة أوراق و لا يتلعثم فى كلمة منه و هو تفقه فى صباه على والده أبى محمد و كان يعجب من طبعه وتحصيله وجودة قريحته و ما يظهر عليه من مخايل الاقبال فأتى على جميع مصنفات والده و تصرف فيها حتى زاد عليه فى التحقيق و التدقيق ، مات وقت العشاء الأخيرة الخامس و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان و سبعين و أربعمأة ، ص ٣٤١ ج ٢

يقول الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى - م ٤٦٣هـ فى كتابه تاريخ بغداد على ص ٢٤٢/ ج ٧ فى ترجمة الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى : أصله من نهاوند إلا أن مولده و منشأه ببغداد و سمع بها الحديث و لقى العلماء ، و درس الفقه على أبى ثور ، صحب جماعة من الصالحين و اشتهر منهم الحارث المحاسبى وسرى السقطى ثم اشتغل بالعبادة و لازمها حتى علت سنه حتى صار

شيخ وقته و فريد عصره فى علم الأحوال و الكلام على لسان الصوفية وطريقة الوعظ ، و له أخبار مشهورة و كرامات مأثورة ـ ثم يقول على ص ٢٤٢

كان الجنيد قد سمع الحديث الكثير من الشيوخ و شاهد الصالحين و أهل المعرفة و رزق من الذكاء و صواب الجوابات فى فنون العلم ما لم ير فى زمانه مثله عند أحد من قرنائه و لا ممن أرفع منه سنا ، فمن كان ينسب منهم إلى العلم الباطن و العلم الظاهر فى عفاف وعزوف عن الدنيا وأبنائها! إنه قال ذات يوم كنت أفتى فى حلقة أبى ثور الكلبى الفقيه و لى عشرون سنة .

ويكتب فى المجلد الثامن من كتابه « تاريخ بغداد » فى ترجمة « ربيعة الرأى » قصته الممتعة الغريبة مع أبيه أبى عبد الرحمن « خرج فروخ أبو عبد الرحمن فى البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية غازيا ، و ولده ربيعة حمل فى بطن أمه ، و خلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار ، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة و هو راكب فرساً فى يده رمح ، فنزل عن فرسه ثم دفع الباب برمحه فخرج ربيعة ، فقال له يا عدو الله أتهجم على منزلى ؟ فقال لا ، و قال فروخ ياعدو الله أنت رجل دخلت على حرمتى ، فتواثبا وتلبب كل واحد منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران ، فبلغ مالك بن أنس و المشيخة فأتوا يعينون ربيعة ، فجعل ربيعة يقول ، و الله لا فارقتك إلا عند السلطان ، و جعل فروخ يقول ! و الله لا فارقتك إلا بالسلطان و أنت مع امرأتى ، و كثر الضجيج فلما بصروا بمالك ، سكت الناس كلهم فقال مالك أيها الشيخ لك سعة فى غير هذه الدار ، فقال الشيخ هى دارى و أنا فروخ مولى فلان ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت فقالت هذا زوجى و هذا ابنى الذى خلفته و أنا حامل به ، فاعتنقا جميعاً و بكيا ، فدخل فروخ المنزل وقال : هذا ابنى ؟ قالت نعم ، قال فأخرجى المال الذى لى عندك وهذه معى أربعة الآف دينار ، فقالت المال قد دفنته و أنا أخرجه بعد أيام .

فخرج ربیعة إلی المسجد و جلس فی حلقته و أتاه مالك بن أنس و الحسن بن زید و ابن أبی علی اللهبی و المساحقی وأشراف أهل المدینة وأحدق الناس به ، فقالت إمرأته اخرج صل فی مسجد الرسول ﷺ فخرج فصلی . فنظر إلی حلقة « وافرة » ، فأتاه فوقف علیه ، ففرجوا له قلیلا و نکس ربیعة رأسه یوهمه أنه لم یره ، و علیه طویلة ، فشك فیه أبو عبد الرحمن فقال من هذا الرجل فقالوا له هذا ربیعة بن أبی عبد الرحمن فقال أبو عبد الرحمن لقد رفع الله ابنی ، فرجع إلی منزله فقال لوالدته ، لقد رأیت ولدك فی حالة ما رأیت أحداً من أهل العلم والفقه علیها ، فقالت أمه ، أیما أحب إلیك ثلاثون ألف دینار أو هذا الذی هو فیه من الجاه ؟ فقال لا و الله إلا هذا ، قالت فانی أنفقت المال کله علیه قال فوالله ما ضیعته »

یکتب فی المجلد الثامن أیضاً فی ترجمة داؤد الطائی یقول أبو الربیع الأعرج : دخلت علی داؤد الطائی بیته بعد المغرب فقرب إلی کسیرات یابسة فعطشت فقمت إلی دن فیه ماء حار فقلت رحمك الله لو اتخذت إناء غیر هذا یکون فیه الماء ، فقال لی إذا کنت لا أشرب إلا بارداً ولا آکل إلا طیباً ولا ألبس إلا لینا فما أبقیت لآخرتی قال قلت فأوصنی قال صم الدنیا واجعل افطارك فیها الموت وفر من الناس فرارك من السبع ، وصاحب أهل التقوی فانهم أقل مؤنة وأحسن معونة ولا تدع الجماعة ، حسبك هذا إن عملت بها ، ج ٨ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ تاریخ بغداد ترجمة داؤدطائی .

و صور تصویراً دقیقاً فی عرض حلیة المنصور ج ١٠ ص ٩٤

یقول علی بن میسره الرازی قال رأیت سنة خمس و عشرین جعفر المنصور بمکة فتی اسمر رقیق السمرة موخر اللمة خفیف اللحیة رحب الجبهة أقنی الأنف بین القنی ، أعین کأن عینیه لسانان ناطقان ، تخالطه أبهة الملوك بزی النساك تقبله القلوب وتتبعه العیون ، یعرف الشرف فی تواضعه ، والعتق فی صورته ، واللب فی مشیته .

« یتبع »

فرصة للاعداد، و تصفية الحساب مع الأعداء و الأصدقاء

واضح رشيد الندوى

لا يشك أحد يتابع الأحداث فى العالم الاسلامى ، و فى مقدمته البلاد العربية ، أن الوعى الاسلامى اليوم أقوى مما كان عليه أمس ، و أن هذا الوعى بدأ يتجسد و يتحول إلى قنوات العمل الاسلامى، و لو بصورة غير منظمة، فلم يعد خيالا حسناً ، و لا تفكيراً مجرداً ، بل دخل فى مرحلة التجربة و الاختبار، و ذلك ما يقلق أعداء الاسلام و أتباعهم فى العالم الاسلامى، فيحاولون أن يسدوا سائر المنافذ ، و لكن هذه المجهودات لوقف التحرك الاسلامى و انتعاش الضمير الحر ، ستمنى بالفشل على غرار المجهودات السابقة ، الرامية إلى وقف الوعى الاسلامى بحملة الكراهية ضد الاسلام و المسلمين ، و تشويه التاريخ، و نشر الجهالة فى المسلمين ، و منعهم من اتخاذ تدابير للاعتماد الذاتى، و تربية أولادهم و تثقيفهم بتربية أصيلة

و قد كانت هذه المجهودات التى جرت باسم المعرفة ، و العلم ، و الثقافة ، و التقدم ، مدعمة بوسائل الحكومات القوية الجبارة ، لكنها فشلت فى محاولتها لصد الوعى الاسلامى ، و تغلب الاسلام على سائر المحاولات الخارجية ، و الداخلية

ضده ، و تجتاح الآن موجة قوية للدخول فى الاسلام فى البلاد الخاضعة للصليبية الحاقدة ، و موجة قوية لتطبيق الشريعة الاسلامية و اللجوء إلى حلولها لمشاكل الحياة ، فى البلاد الاسلامية إلا أنها لا تزال تسود الأفراد و الجماعات و لم تتوغل إلى صفوف الولاة فى معظم البلاد الاسلامية حقيقة .

تلك هى البلاد التى تتبع نظم التعليم و التربية و الثقافة و الاعلام التى ورثتها من أوربا ، و تطلق العنان لوسائل الأعلام و التربية لتبث السموم و تنشر فكر التبعية للغرب و تمجد حضارته ، و تخفى جرائمه الانسانية ، و تقمع روح الاسلام و تغض بصرها عن الوعى الاسلامى الكاسح و تكب على قمعه ، و تبطش بالحركة الاسلامية ، و تعانق الصليبيين و الصهاينة و الملحدين رغم أنف شعوبها المسلمة التى عزلتها عن الحياة .

إن الاصوات التى نسمعها من حفنة يسيرة أو شرذمة قليلة ، ممن يدعون بالعلم و المعرفة و الثقافة أصوات متشتتة لاتجد تجاوباً من الشعب ، و لاتلائمها البيئة المتغيرة التى تكاد تتدفق بالعاطفة الاسلامية ، ولو لا حماية القادة والزعماء السياسيين الذين يملكون زمام الأمور فى البلدان الاسلامية التى تدعى بالتقدمية و هى فى الواقع تحت الوصاية العقلية الراسبة لأوربا ، لما وجدت هذه الخناجر المريضة و الأقلام المسعورة جراءة لترفع أصواتها ضد دين الأغلبية و ثقافتها و تاريخها ، و لا سطرت أقلامها ذلك الكلام الهراء الذى تبثه حينا بعد حين ، ولولا حماية النظم التابعة للعقل الأوربى ، لكان سخط الشعب المسلم و انتفاضته و غيرته على دينه أكبر وازع و درس رادع لهذه العقول الطفيلية .

لقد تولى عهد العقل الطفيلى فى العالم الاسلامى ، و الشعوب المسلمة فى كل بلد فى طريق إلى استرداد حقها ، و تثبيت دعائم ثقافتها الأصيلة فلم يبق مجال للشك

فی أن النظم التی سادت منذ غلبة الغرب ، لم تکن إلا ستاراً للاستعمار ، و أن هذه النظم السیاسیة و الاقتصادیة و الفلسفات الاجتماعیة لم تزد العالم الاسلامی إلا تشتتاً و تمزقاً و تبعیة ، و ما نشاهد الیوم من تمزق و تضارب فکری و تبعیة یرجع إلی الاستعمار الغربی الفکری و السیاسی .

و قد ازداد هذا الشعور خلال أزمة لبنان وضوحاً ، حیث زحزحت الثقـــة فی کلا المعسکرین و عرف المسلمون أن الصهیونیة و الصلیبیة و الاشتراکیة العـالمیة لا تتمیز فی عدائها للاسلام و المسلمین ، و فضحت حرب لبنان أصدقاء أمریکا ، کما فضحت أصدقاء روسیا ، فی آن واحد ، فکانت لذلک سقوطاً سیاسیاً لسائر النظم فی البلاد العربیة ، و سائر الحرکات ، التی لم تخرج من مدارها لتأیید الفلسطینیین ، و لم تمثل علنا و عملیاً رغبات شعوبها الاسلامیة ، إلا الحرکة الاسلامیـة التی کانت مبعدة عن المسرح السیاسی .

إذا کانت أزمة لبنـان تحمل عنصر تفاؤل فإن الشعور الذی نشأ بهذه الکارثة لمکسب کبیر سیکون له تأثیر توجیهی ، علی العـالم الاسلامی ، و یشکل هـــذا الشعور موشراً إلی الجهـــة التی یجب علی الشعوب و الحکومات الاسلامیة إن تسیر إلیها إذا لم یخدعها خادع أو مضلل سیاسی جدید .

لقد کانت أزمة لبنان أکبر فرصـــة و یجب أن تکون آخر فرصة لتثور فی المسلمین ، غیرة دینیـــة و حمیة ملیة ، فاذا کانت اسرائیل الدولة الفتیة التی تشکل أجناساً و عناصر شردت فی العالم کله بأیدی النـــازیین ، و التی لاقت أبشع أنواع المهانة و الذلة و التشرید قبل نصف قرن تقریباً ، تصبح لأسباب سیاسیة و اقتصادیة و علمیة بجهدهـا و کدها خلال فترة التشرید ، عنصراً فعالا یخطط لأمریکا سیاستها التی یتبعها کل رئیس من رؤسائها ، و تصبح أمریکا أداة فی یدها ، تسعی دائما إلی

إرضائها كالوالد العجوز الطاعن فى السن أمام وحيده المارد ، فتتحمل الممارسات المماردة لإسرائيل التى تركت أمريكا أحيانا فى المنابر الدولية فى موقف موحش يرثى له ، و إذا كانت الدولة التى نشأتها أمريكا و حلفاءها ، و قامت بتربيتها و حمايتها ، تقود الدولة المربية و تملى عليها سياستها ، فإن الدول الاسلامية بذخائرها ، و القوى البشرية التى تملكها ، و الأهمية الجغرافية التى تتمتع بها ، و صلاحيات أبنائها تستطيع أن تفرض على العالم ، لا على أمريكا وحدها . إرادتها و رغبتها أكثر من إسرائيل ، فإن الضمير الانسانى معها و قد تحرك هذا الضمير أكثر هذه المرة . و نال العرب العطف العالمى ، و لكن الشئ الذى يحول دون هذا التحول الجوهرى ، هو عدم وجود الانسجام بين الشعوب الاسلامية و النظم القائمة فى بلادها ، و قد حان الوقت لأن تزول الحواجز بين الشعوب و النظم السياسية و يتكاتف الجانبان ، و أن يسود الوعى الذى ظهرت آثاره فى الشعوب ، على عقول القادة الذين يتولون الحكم كذلك ، و أن يعرفوا أصدقاءهم و أعداءهم الحقيقيين ، فقد سقطت فى لبنان سائر التكايا ، و رفعت الأقنعة عن الدول الكبرى التى كانت الحكومات الاسلامية تحتمى بها ، و سقطت سائر المناهج . و خابت سائر الوسائل ، و انهارت سائر الفلسفات و لم يبق أمام الشعوب و الحكومات الاسلامية و فى مقدمتها الدول العربية بديل إلا العودة إلى أصالتها و ذاتيتها و إلا سيكون مصير كل بلد مصير الأمم البائدة .

إن الأمم تعيش بالشعور بالذاتية ، و بارتباطها بعقيدتها و ثقافتها و مثلها و تستمد قوتها منها ، و شتان بين مجاهد يقاتل لعقيدته . و لإرضاء ربه ، و لا يميز بين الحياة و الموت ، و بين مرتزق و أجير ، يعمل لخدمته و مصلحته ، و قد أثبتت بعض المعارك فى لبنان كما أثبتت الحرب فى أفغانستان أن العنصر الذى

يحارب لدينه ، أكثر ثباتاً ، و صبراً و تحملا للشدائد ، و اقتحاماً لغمرات الموت ، من القوميين و السياسيين و الثوريين ، و التقدميين ، و قد كان للاسلاميين مواقف خالدة غيرت مجرى التاريخ فى سائر المعارك التى وقعت فى التاريخ المعاصر و سمح لهم فيها بالاشتراك .

و قد حان الوقت لتنظر الدول الاسلامية هل تريد أن تعيش بحرية ؟

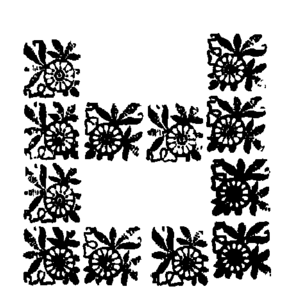
أما الهزائم فى الحرب فلاتدعو إلى اليأس و خيبة الأمل ، فقد جاء فى المثل العربى « الحرب سجال » و أمثلتها متوفرة حتى فى تاريخ المسلمين أنفسهم ، لقد سقطت القدس مرات ، و سقطت عدة مناطق إسلامية فى عهود كثيرة ، و لكنها رجعت لأن العزم على استردادها ، و عاطفة الانتقام من أعدائها ، و الغيرة و الحمية ، كانت متوغلة فى نفوس القادة ، و الشعوب الاسلامية ، و كان بينهما اتفاق عليها ، و سقطت الأندلس فلم تعد ، لأن الغيرة الاسلامية و الارادة الاسلامية فى قادتها كانت مفقودة ، إنها ليست مسئلة شخصيات و لا ظروف و إنما هى مسألة غيرة ، و عزم و إرادة و إيمان ، فقد تخسر الأرض ، و تعاد ، و لكن العزم و الارادة و الغيرة إذا فقدت لا تعود .

لقد كان العالم الاسلامى فى عهد المماليك أكثر تشتتاً و تحاربا بين الاشقاء و الولاة ، حتى فى عهد صلاح الدين و الزنكى ، و بيبرس ، و فى عهد محمد الفاتح ، و لكن الغيرة الدينية و الارادة الذاتية ، جعلت الدول المتناحرة قوة واحدة و بنيانا مرصوصاً فى وجه الطغاة .

و هذه الغيرة ذاتها منعت العثمانيين فى عهد الانحطاط أن يتهاونوا فى حماية المقدسات الاسلامية ، فلما تغلبت الحمية القومية ، و حلت محل الحمية الدينية و الغيرة عجز الاتراك عن الدفاع عما بقى من دولتهم ، و تحولت البلاد العربية إلى مستعمرات

غربية ، و تغنى المثقفون العرب بعهد الاستعمار ، و وصفوا المستعمرين بأنهم حماة الانسانية و رواد النهضة و الحرية ، و إنهم أصـــدقاؤهم ، فاعتمدوا عليهم و أسندوا إليهم أمورهم فكانت عاقبتهم ما يشاهد اليوم من تمزق و تشتت .

لقد كان سبب غلبة الصليبيين و الدول الأوربيـة على المسلمين انتعاش الروح الدنية فيها ، و تنميـة الشعور بأنهـا عرضة لخطر المسلمين ، و قد نفخ القساوسة روح الانتقام من المسلمين ، و بذلك وحدوا أوربا كلها . و جعلوها كتلة أمام المسلمين ، و بذلوا المجهود فى كل مجال لمنافسة المسلمين ، و التغلب عليهم فاجتمعت أوربا تحت لواء الدين ، و ان يجتمع المسلمون اليوم إلا تحت لواء الدين ، و ان يوحـــــدهم و يحييهم من غفوتهم إلا عاطفـة الانتقـام من أوربا التى استعمرتهم مـدة طويلة ، و لاتزال تسيطر عليهم ، فليكن هم قادة المسلمين تنمية الشعور بالذاتية و الاستقلال ، و تنمية روح اعادة الشخصية الاسلامية و تحريرها من أيدى المستعمرين و الانفصـال عن الأعداء ، و الاعتماد الذاتى الكامل بعدة الايمان ، و رصيد اليقين بأنهم خير أمة و أن المستقبل لهم .



الشعور بالمسئولية

* تكرم سماحة الشيخ عبد الله عبد الغنى خياط، خطيب المسجد الحرام بهذا الخطاب الكريم، إشادة بالجهود المتواضعة التى يقوم بها المسئولون عن مجلة البعث الاسلامى، ننشره بالشكر و التقدير، سائلين منه الدعاء لنا بالتوفيق والسداد والصلاح، والله ولى التوفيق»

‡ التحرير ‡

وصل إلى العدد الثالث من المجلد السابع والعشرين من مجلة البعث الاسلامى عدد ذو القعدة ١٤٠٢هـ، وصل إلى فى اليوم التاسع عشر من شهر شوال، أى قبل بزوغ شمس شهر ذى القعدة ــ و قليل من المجلات أو الصحف إن لم تكن نادرة التى تصدر قبل ميعاد صدورها و تصل إلى قرائها.

و لقد فكرت ملياً فى سبب إصدار مجلة البعث الاسلامى دائماً قبل ميعاد صدورها المقرر فلم أجد غير شعور القائمين عليها بالمسئولية الأدبية أمام قراء هذه المجلة الحبيبة المحبية التى تجوب الأقطار و الامصار و تشرق شمسها على الآفاق هادية إلى النهج القويم و التمسك بالدين والدعوة الخيرة إلى كل مسالك سديد رشيد يكون من ورائه تقويم المعوج و رسم الطريق الواضح للاسلام من جديد، وعلى سبيل المثل أذكر قول المرحوم الأستاذ محمد الحسنى منشئ مجلة البعث الاسلامى و رئيس تحريرها الأسبق .. .. .. «الأصل فى المجتمع الاسلامى هو العبودية لله ــ والخضوع أمام شريعته ــ و الاتصال به اتصال القلب والروح و التفكير والوجدان ــ والجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان» إلى آخر ما جاء فى توجيهه، أليس فى هذا القول و أمثاله مما تحويه مجلة البعث الاسلامى ضمن توجيهاتها، ودلالتها على الخير، برهان على رسم الطريق الواضح للاسلام من جديد.

إن الشعور بالمسئولية الأدبية دون عون الله و تسديده و توفيقه و تأييده

لا يكفى وحده و ما باعث التسديد و التوفيق و التأييد غير إخلاص النية و الصبر والتضحية فى أرفع ذروة ، وذلك ديدن القائمين على مجلة البعث الاسلامى من رئاسة تحرير و كتاب و موجهين و على رأسهم فضيلة الداعية الاسلامى العلامة الشيخ أبى الحسن الندوى أمد الله فى عمره و نفع بتوجيهاته و علمه .

كم من المجلات و الصحف الاسلامية أو العربية إن قامت بواجبها فى إصدار أعدادها فى مواعيدها و بصورة منتظمة بخونها الحظ فتخضع للظروف و ترجئ الصدور ، أو قد تجمع عددين فى عدد واحد لكسب الوقت والئلا يطول على قرائها أمد انتظارها و قد تكون تلك الصحف أو المجلات ولا أعنى صحيفة أو مجلة خاصة وإنما أتحدث عن الواقع المرير الذى قد تضطر إليه فى الارجاء وضم الأعداد إلى بعضها ، أقول قد تكون تلك الصحف أو المجلات أعظم إمكانات و أكثر روافد و أسعد بمتطلباتها فى النشر و التسويق و ذيوع الصيت غير أن مجلة البعث الاسلامى كان من التوفيق لها أن تشق طريقها منذ صدورها بعيدة عن التعثر و التعويق فى إصدارها أو ضم عدد إلى آخر ، وذلك أثر معية الله لها ومن يكن الله معه يأتى بالعجائب ومن يكتب الله له مدده لاتقعد به عن مطلبه ومقصده الشريف صروف الليالى أو الظروف القاسية تتوالى عليه .

هذه كلمة عاجلة كنت أريد أن أكتبها منذ أمد بعيد بمناسبة صدور أعداد مجلة البعث الاسلامى قبل موعد إصدارها بزمن طويل غير أن المشاغل صرفتنى عن القيام بهذا الواجب فأقضيه اليوم .

مكرراً شكرى ومردداً دعواتى إلى المولى جل وعلا بأن يديم هذه المجلة إلى الأبد قائدة رائدة هادية ويأجر القائمين عليها والمسهمين فى التعاون معها لقاء ما بذلوا ويبذلون من تضحيات وتوجيهات ودلالة على الخير وهداية إلى سبيل الله السوى .

عبد الله عبد الغنى خياط

خطيب المسجد الحرام

* * * *

برامج ثقافية و دعوية
في مقر رابطة العالم الاسلامي : مكة المكرمة :

ورد إلينا من الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، جدول أعمال الندوة الاسلامية العالمية (الدورة الحادية عشرة) لعام ١٤٠٢هـ ، ننشره فيما يلي تعميماً للنفع :

الجلسة الأولى : ١ ١٢ ١٤٠٢هـ ، موضوعها :

مستقبل الاسلام في أفريقيا

(١) صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة.
يفتتح الندوة و يرأس جلستها الأولى

(٢) سعادة الأستاذ علي محمد مختار الأمين العام المساعد للمساجد بالرابطة.
مقرراً للجلسة الأولى من الندوة

(٣) سعادة الدكتور عبد العزيز خوجه - وكيل وزارة الأعلام.
عضواً في الجلسة الأولى من الندوة
موضوعه : التيارات الهدامة في أفريقيا.

(٤) سعادة الأستاذ عبد الوهاب دوكري عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي.
عضواً في الجلسة الأولى من الندوة
موضوعه : التيار الالحادي في أفريقيا.

(٥) فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي.
عضواً في الجلسة الأولى من الندوة
موضوعه : التنصير في أفريقيا.

الجلسة الثانية : ٢ ١٢ ١٤٠٢هـ ، موضوعها :

المشاكل الاقتصادية و الثقافية و الاجتماعية فى أفريقيا

(١) سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لادارات البحوث العلمية و الافتاء و الدعوة و الارشاد .

رئيساً للجلسة الثانية من الندوة

(٢) سعادة الأستاذ حاتم قاضى - مدير مكتب الأمين العام المساعد و رئيس تحرير مجلة الرابطة باللغة الانجليزية .

مقرراً للجلسة الثانية من الندوة

(٣) الشيخ عوض الله صالح عضو المجلس التأسيسى للرابطة .

عضواً للجلسة الثانية من الندوة

موضوعه : المشاكل الاقتصادية و الثقافية فى أفريقيا .

(٤) الأستاذ سيد عبد المجيد بكر - جامعة الملك عبد العزيز بجده

عضواً للجلسة الثانية من الندوة

موضوعه : النهوض بالناحية الاجتماعية .

(٥) سعادة الأستاذ مصطفى سيسى سفير السنغال لدى المملكة بجدة

عضواً للجلسة الثانية من الندوة

موضوعه : النهوض بالناحية الاقتصادية .

الجلسة الثالثة : ٣ ١٢ ١٤٠٢هـ ، موضوعها :

مستقبل الدعوة الاسلامية فى أفريقيا

(١) سماحة الشيخ محمد بن على الحركان - الأمين العام للرابطة .

رئيساً للجلسة الثالثة من الندوة

(٢) سعادة الدكتور عبد الصبور مرزوق المدير العام للرابطة .

مقرراً للجلسة الثالثة من الندوة

(٣) فضيلة الشيخ عبد الله كنون عضو المجلس التأسيسى للرابطة .

عضواً للجلسة الثالثة من الندوة

موضوعه : تطوير أساليب الدعوة .

(٤) سعادة الدكتور محمد إبراهيم أحمد على - رئيس قسم الدعوة بكلية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

عضواً للجلسة الثالثة من الندوة

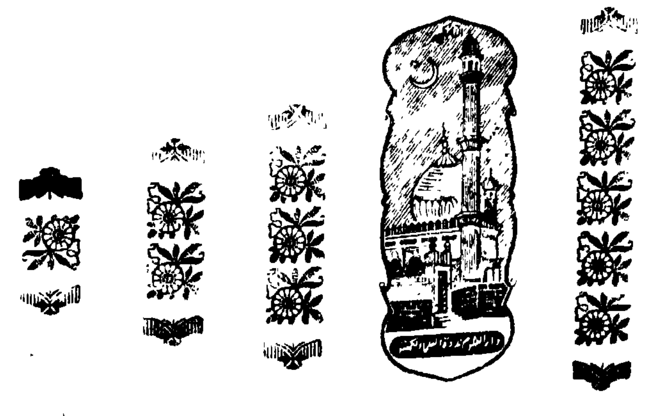
موضوعه : إعداد الدعاة .

(٥) فضيلة الشيخ محمد ناصر العبودى ـ الأمين العام للدعوة الاسلامية ـ العامة للبحوث العلمية و الافتاء و الدعوة و الارشاد ـ الرياض .

عضواً للجلسة الثالثة من الندوة

موضوعه : الهيئات العاملة فى حقل الدعوة الاسلامية .

الجلسة الرابعة : قراءة القرارات و التوصيات



أخبار اجتماعية و ثقافية

« قلم التحرير »

١- ورد إلينا الجزء الأول والثاني من كتاب الأمثال، في الحديث النبوي الشريف، تأليف أبي عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني المتوفى ٣٦٩هـ.

يتحلى هذا الكتاب القيم بحليـة الطبع لأول مرة، بفضل الجهود المخلصة التي بذلها فضيلة الشيخ مختار أحمد الندوي السلفي في إخراج هـذا السفر الجليل محققاً مدروساً، و قد التزمت الدار السلفية في بمباي بنشر هذا الكتاب في ثوب جميل من الورق الصقيل المتين و الطباعة الجيدة الأنيقـة بالحروف الحديدية و تجليد جميل و متين.

و الواقع أن هذا الكتاب يأتي ضمن كتب التراث من السنة فقد كان مطموراً بين المخطوطات التي لم تر النور، ولم تحظ بتداول أيدي الناس، و بالنظر إلى أهمية الكتاب فقد طلب الشيخ مختار أحمد الندوي إلى الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأستاذ بقسم الدراسات الاسلامية بجامعـه بايرو كانو نيجريا، أن يتولى تحقيق هذه المخطوطة، و إخراجها إلى الأوساط العلمية و الدينية بتحقيق و تعليق قيمين، و قد وفق الدكتور المحقق إلى ما أراد من القيام بهذه الخدمة الجليلة، التي تعتبر زيادة طيبة في المكتبة الاسلامية.

و نحن إذ نهنئ المهتمين بهذا العمل المشكور، نرجو الله سبحانه أن يتقبل منهم جهودهم المخلصة و يجعلها موضع النفع و التقدير للجميع.

٢- وصل إلينا كتاب مجلة « الأمة » لفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي « الصحوة الاسلامية بين الجحود و التطرف » و هو الكتاب الثاني من سلسلة فصلية تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية و الشئون الدينية في دولة قطر.

قضية التطرف الدينى أصبحت اليوم فى رأس القضايا الاسلامية التى شغلت بال العلماء و الدعاة . ذلك لأن هذا التعبير الجديد للغلو فى الدين لم يقصد به الاصلاح و العودة إلى طريق الاتزان والاعتدال ، أو بتعبير أصح : إلى طبيعة الدين الأصيلة وإنما كان الغرض من وراء ذلك اتهام الدين الاسلامى بنقيصة يستحق من أجلها أن يقصى عن ميدان الحياة أو يتناول بالتصحيح و التقويم و بالتهذيب و التثقيف ، فى ضوء الحياة المعاصرة الحديثة ، الأمر الذى يعنى هدم صرح الاسلام و تقويض أركانه و إثارة الشبهات ، حتى فى نفوس المسلمين و أوساط الدعاة حول صلاحية الاسلام لقيادة العالم فى كل عصر و مصر ، و إن كان قد تظاهر بعض هؤلاء المتهمين بأنهم لا يريدون من قضيه التطرف الدينى إلا العودة بأصحاب التطرف إلى منهج الاعتـــدال و القصد . ووضع الحد على التطرف الذى تورط فيه أفراد من شباب بعض الجماعات الدينية .

الواقع أن هذه القضية كانت ضمن المؤامرات التى يدبرها أعداء الاسلام ضده و يستغلون بعض ما أصيب به المسلمون أخيراً من إفراط و تفريط فى الحياة الفردية و الجماعية .

ولقد تصدى فضيلة الدكتور القرضاوى لمعالجة الموضوع بدقة وأمانة فى ضوء الكتاب و السنة و التاريخ الاسلامى وأثبت أن الصحوة الاسلامية التى شملت العالم كلـــه مع مطلع القرن الخامس عشر الهجرى أقلقت بعض الأعداء وأقضت مضاجعهم فلم يلبثوا أن استخدموا كل طاقاتهم لاخراج هيبة هـــذه الصحوة من القلوب و تغطيتها بغطاء الجحود مرة وغطاء التطرف مرة أخرى .

إن فضيلة المؤلف يستحق الثناء والتقدير على ما تفضل به من إهداء الأمة بهذه الهدية الطريفة الغالية فى وقتها المناسب .

٣— أهدى إلينا فضيلة الشيخ عبد الوهاب زاهد الحلبى النـــدوى مؤلفه الجديد

« الحياة الاجتماعية فى الاسلام » هذا الكتاب يشرح الحياة الاجتماعية فى الاسلام فى ضوء السنة النبوية الشريفة وزعه المؤلف إلى ثلاثة أجزاء كل جزء يشتمل على عشرين حديثاً ، فالجزء الأول يبتدىء من الاخلاص فى النية و ينتهى بموضوع الحلال و الحرام ، وكذلك كل موضوع يبدأ بحديث ويشرحه متناً و إسناداً و ألفاظاً و معانى مع الاشارة إلى الارشادات التى تتلخص من الحديث ، وهكذا دأب المؤلف مع حديث كل موضوع فى كل جزء ، حيث إنه تناول ستين موضوعاً من الحياة الاجتماعية الاسلامية و شرحها كلها فى ضوء أحاديث الرسول ﷺ . الأسلوب الذى جعل الكتاب فى مكانة محترمة بين الكتب التى يتحدث عن الحياة الاجتماعية و خاصة لطلاب المدارس الثانوية الذين يحتاجون إلى مثل هذا الكتاب لاتمام دراستهم الدينية فى فصولهم ، كما أن الكتاب لا يخلو من نفع ديني لكل من يطالعه من الكبار .

نهنئ فضيلة المؤلف على هذه الخطوة الطيبة التى خطاها فى مجال التربية الدينية و إن عمله هذا المقبول باذن الله تعالى ، والكتاب يتحلى بمقدمة لسماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى و غيره من العلماء الكبار .

٤ـ صدر من الامانة الدائمة للندوة العالميـــة للادب الاسلامى ، فى ندوة العلماء كتاب قيم باسم « أدب الصحوة الاسلامية » بقلم الاستاذ واضح رشيد الندوى رئيس صحيفة الرائد وأستاذ الأدب العربى وأدب الدعوة فى كلية اللغة العربية و المعهد العالى للدعوة و الفكر الاسلامى بندوة العلماء .

هذا الكتاب القيم و إن كان صغير الحجم و لا يقع إلا فى نحو مأة صفحة و لكنه فى الحقيقة تاريخ الأدب الاسلامى فى العصر الحاضر و يتحدث عن الواقع التاريخى الذى مر به الأدب الاسلامى فى هذا الزمان ويحتوى على نماذج أدب الصحوة ، مع الاشارة إلى أهمية الموضوع وتعريف لصاحب النص .

نرجو أن يتسع نطاق الموضوع و ينال الأدب الاسلامى اهتمام الباحثين

من الأدباء و أصحاب الأقلام الجريئة و يودى دوره المنشود فى مجال الدعوة الاسلامية .

٥- وصلت إلينا مجلة « الرائد » التى تصدرها الدار الاسلامية للاعلام فى بون (ألمانيا الغربية) فى ثوب قشيب من القطع الكبير و الطباعة الأنيقة ، و زيادة المواد الحادفة و المعلومات الدعوية و التربوية .

هذه المجلة لسان حال الطلائع الاسلامية فى أوروبا و أمريكا ، يديرها ويكتب فيها الشباب المتحمسون الذين يتميزون بالفهم الصحيح والفكر الهادىء ، و المتشبعون بروح الدعوة الاسلامية و الحماس الدينى ، و لذلك فان لها مكانة فى القلوب ، و بين أوساط الدعاة من العلماء و الشباب .

نرجو أن هذه المجلة الزميلة ليتسع نطاق فوائدها الاعلامية والتربوية فى عهدها الجديد ، نتمنى لها اتساعاً و ازدهاراً مطرداً .

وفاة الشيخ محمد عبد الله الكشميرى

توفى الشيخ محمد عبد الله الكشميرى ليلة الخميس ٢٠/ ذى القعدة ١٤٠٢ المصادف ٨/ سبتمبر ١٩٧٢م أثر نوبة قلبية عنيفة أصابته أخيراً ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

لقد كان الشيخ محمد عبد الله رئيس وزراء ولاية جامون وكشمير ، وقد شغل مناصب مهمة فى الحكومة ، و كان له تأثير عميق فى نفوس الشعب الكشميرى خاصة و الشعب الهندى بوجه عام ، فكان يدعى « بأسد كشمير » و الواقع أنه كان يبلغ من الجراءة و الذكاء و المصارحة بالحق فى مجال السياسة أيضاً إلى القمة ، وله خدمات سياسية جبارة . و خاصة فيما يتعلق بتحرير كشمير من براثن الأقيال و المستعمرين ، و منح الشعب الكشميرى حقه من السيادة و الاستقلال .

ولقد عوقب عدة مرات بالاعتقال دون أن يؤثر ذلك على معتقداته وأفكاره أو نظراته ، بلغ الله به من العمر ٧٧ عاماً و لكنه لم يكل عن أداء مسئولياته حتى فى حال مرضه ، و قضى أكثر من ٥٠/ عاماً فى الخدمة السياسية ، رحمه الله و أسكنه فسيح جنانه .



Phones . 49747 - 42948 Regd. No. Lw/NP 59

ALBAAS - EL - ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA)

صدر حديثاً :

العقيــــــــــدة و السلوك

فى ضوء الكتاب و السنـــة و السيرة النبوية

آخر ما صدر بقلم الداعية الاسلامى الكبير سماحة العلامة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى فى موضوع العقيدة و السلوك .

هذا الكتاب فى الواقع كتاب الجيل المسلم الباحث عن الحق و النصيحة ، و عن حكمة الدين و هداية الشريعة .

يصلح لأن يكون دليلا إلى الاعتقاد السليم المطلوب ، و السلوك الاسلامى الجامع ، و دستوراً للحياة لــكل مسلم يطلب الحق باخلاص ، و يبحث عن الأسوة النبوية فى الأعمال و الأخلاق فى دقة و أمانة .

و سننشر عرضاً شاملا و تلخيصاً كاملا للكتاب فى العدد القادم ـ باذن الله ـ .

يطلب من

المجمع الاسلامى العلمى ندوة العلماء ـ ص. ب ١١٩ لكهنؤ الهند

مكتبة دار العلوم ندوة العلماء ـ ص . ب ٩٣ لكهنؤ الهند

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمى


البعث الإسلامي





فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني (رحمه الله) في عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

السنة المجلد السابع والعشرون

العدد الخامس ٥

★ صفر ١٤٠٣هـ ★

★ نوفمبر و ديسمبر ١٩٨٢م ★



بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة في المجتمع الإسلامي، غير مقياسها في المجتمع الجاهلي بجميع صوره وألوانه، وهذه هي نقطة الفصل، ونقطة الالتباس أيضاً، الأصل — في المجتمع الإسلامي — هو العبودية لله، والخضوع أمام شريعته والاعتصام به، اتصال القلب والروح والتفكير والوجدان، والجهاد في سبيله بأعز ما يملكه الإنسان. أما هذه الوسائل والأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفي لتحقيق مهمته في هذه الحياة، وإعلاء كلمة الله في الأرض، ولا يأخذ منها إلا في حدود معلومة واضحة أذن بها الله.

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسني

(الإسلام الممتحن ص ١٢٠)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

مذبحة بشرية تقشعر منها الجلود ، ولكنها لماذا ؟

هنا القلم المتواضع — رغم طاقته — يشعر بواجبه نحو ما حدث في بيروت بالأمس القريب !

نحو النساء العزيزة التي هلكت بها الطرقات الأفنية و الشوارع في مخيمات لاجئين ، والأرواح الزكية البريئة من البراعم و النساء و الشيوخ التي أزهقت على غفلة من أهلها بقسوة لا مثيل لها في التاريخ القريب ، و الصدور [illegible] للشباب الغض الطري ، التي تعرضت لرصاصات الظلم و العدوان . و سقطت جثثا هامدة كأكبر رمز للتعدي و الوحشية في هذا العالم المتحضر الذي يزعم حركة الرفق بالحيوان ، و التحافظ البالغ بحقوق الإنسان .

لقد تولى تخطيط هذه المجازر المروعة و تنفيذها أولئك الذئاب الضواري و السباع المخيفة من البشر الذين يتأدبون بالعلم و الحضارة ، و يتحلون بالعقل و الذكاء و العبقرية و الفن ، و ما هذا القتل [illegible] و الكراهية ضد هؤلاء المقتولين و الشهداء إلا لأنهم يطالبون بحقهم الشرعي في وطنهم الذي طردوا منه و أخرجوا منه ، و [illegible] كل ظلم و طرد و عدوان بسالة و بطولات [illegible] التي جرت عليهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

الغابة ، و القصص الخيالية التى تصورها سير الجبابرة و الطغاة من الملوك الذين عاشوا عصور ماقبل التاريخ .

و لكن الشئ الذى يميز مأساة الشعب الفلسطينى عن كل ما سبق من نكبات النوع البشرى و شقاء الأمم و الشعوب عبر التاريخ هو أن هذا الظلم العظيم يقوم به حفنة من البشر و شرذمة قليلة من شعب يهودى ضربت عليه الذلة و المسكنة بازاء الأمة الإسلامية التى هى آخر الأمم ، و أحق بالسيادة و العلو بحكم القرار الربانى و الاعلان القرآنى « هو اجتباكم و ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل و فى هذا . ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس » و لقد وجه القرآن الكريم إنذاراً إلى المسلمين بما إذا خدعهم اليهود أو تظاهروا بالوداد نحوهم فأخبرهم بأن الله تعالى ضرب عليهم الذلة و باؤا بغضب منه ، و أعلمهم بشدة العداوة التى يضمرونها فى خفايا نفوسهم و بالحقد الأسود الذى يحملونه فى قلوبهم ضد المسلمين « و لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا » الواقع الذى لا يسمح بأى حال بالركون إلى مثل هذه الأمة الذليلة و الحاقدة المعادية فضلا عن التودد إليها ، و الثقة برجالها و زعمائها .

و منذ أن فتحنا صدورنا لمودة اليهود و كسب صداقتهم اختل هذا الاتزان الطبيعى الذى سبق كتاب الله بالإشارة إليه و حذر المسلمين بما إذا اغتروا ببعض ما يتظاهر به أعداؤنا من موقف ودى لين نحو المسلمين ، و فعلا حسن ظنهم باليهود و نجحت الحيلة اليهودية فى تليين موقفهم من المخططات السياسية التى يخططونها لأمم العالم على اختلاف طبقاتها و أجناسها و وجهات أنظارها ، خاصة لان موقف كثير من زعماء المسلمين نحوهم فى عشرينات هذا القرن حينما لم يروا بأساً فى قبول عضوية المحفل الماسونى الذى كان أكبر مؤامرة خطيرة يهودية صهيونية ضد فلسطين و الحركات الإسلامية فى العالم كله ، و كان منبعاً لكثير من الإجراءات الهدامة التى تقتلع جذور الايمان و اليقين من قلوب المسلمين ، و تحولهم إلى أمة مجردة عن جميع

خصائصها القومية و الدينية . و قد شاهد التاريخ و سجل ما قام به هـذا المحفل المشؤم من مداولات تعسفية و من أعمال وحشية من المطامع الخبيثة و النوايا الاجرامية ضد الأمة الاسلامية التى يعرفها المطلعون على الحقائق ، والمتتبعون للأحداث .

استطاع كبراء اليهود و قادتهم بهذا الأسلوب و أمثاله أن يمهدوا الطريق إلى تأسيس دولة يهودية فى قلب الوطن الاسلامى العربى ، ليتمكنوا عن طريقها من النفوذ إلى المقدسات الاسلامية و الاستيلاء عليها ، ثم من السيطرة الكاملة على جميع منابعها المادية و الروحية . و الوصول إلى الحرمين الشريفين — لا قدر الله أبداً — وتحقيق مخططاتهم الخبيثة فيهما ، و لكن الغيرة الايمانية أبت أن تفسح المجال لهذه المطامع و حالت دونها ما استطاعت ، إلا أن ضعف العزائم وقلة الصمود لدى المسلمين شجع القوى الكبرى و الاستعمار العالمى على تحقيق حلم الدولة اليهودية فى فلسطين باسم إسرائيل ، و قد وضعت الدول الغربية جميع إمكانياتها فى خدمة هذا الهدف البغيض و تقوية اسرائيل بكل ما تيسر لها من وسائل الحرب و القوة ، و ما يوم قناة السويس و سيناء و العريش ببعيد ، و ما حرب الجولان و الضفة الغربية و احتلال القدس و الخليل و إشعال النار فى المسجد الأقصى بسر .

كل ذلك من الحقائق التاريخية التى احتضنتها القضية الفلسطينية و تكونت منها لحمتها و سداها ، و باتت معها اكبر قضية انسانية شهدها العالم المعاصر ، و تداعت عليها الدول الغربية كلها التى لم تأل جهداً فى تعقيدها ، و تضييق الحصار على أهلها من تزعموها و اعتبروها قضية الحياة و الموت ، و قضية البقاء و الفناء و قضية العزة و الكرامة ، و لم ينته الأمر إلى هذا الحد و إنما تجاوزه إلى إخراج الجماهير المسلمة من فلسطين ، و طرد أهلها من ديارهم و بيوتهم ، و اغتصاب ممتلكاتهم و سلب أموالهم و انتهاك حرماتهم مما أدى إلى تبعثر الأمة الفلسطينية و تشتت شملها و لجوئها إلى دول مجاورة و بلدان ذات صلة بتاريخ فلسطين .

و من الطبيعى أن تتكون جاليات اللاجئين الفلسطينيين فى الأردن و سوريا و لبنان ، وأن تتأصل فى طبائعهم كراهية العدو اليهودى و مقته و تتربى فيهم دوافع

الانتقام والغضب ، و تثور فيهم عوامل الاعداد اللازم من التعبئة العسكرية و التدريبات الحربية و الحصول على وسائل الدفاع عن الأرواح و الأموال و طرد العدو المغتصب من أراضيهم و مقدساتهم .

ومن هنا انتهز بعض المعسكرات العالمية فرصة المحاباة للفلسطينيين و تأييد قضيتهم على الساحة السياسية ، وزودهم بشيء من الأسلحة لاثارة النقمة و اكتفى فی معظم الأحوال بالمواعيد المعسولة و بكلمات التأييد أكثر من دعم عملی ، ذالك أن الغرض الوحيد إنما كان يتركز على تجريدهم عن الثقة الايمانية وتأكيد أن الدين الذی ينتمون إليه إنما أخفق فی الحدب عليهم والدفاع عن قضيتهم ، وحل مشكلاتهم ، ولم يستطع مراعاة حقوقهم الشرعية فی الحياة ، و قد نجح الاتحاد السوفياتی فی زرع الشبهات وتعميقها فی نفوسهم حول صلاحية الدين الاسلامی فی حل ما يواجهونه من المشاكل الفردية والاجتماعية ، وكان دوره فی ترسيخ هذا الظن الخاطئ فی مجتمعات اللاجئين مهماً جداً ، حيث إن الحزب الشيوعی عد ذلك من أعظم الانتصارات النظرية التی فاز بها فی بلد إسلامی و أمة ذات انتماء قريب مع المسجد الأقصى و مركز الأنبياء و الرسل .

وغدت مخيمات اللاجئين فی هذه المناطق علامة ظلم اجتماعی تمثل مأساة إنسانية فی جانب وفی جانب آخر تؤدی دوراً متطرفاً فی المجال الخلقی و الدينی حيث إن الأوضاع التی مرت بهم ملأت نفوسهم باليأس و النفسية الانهزامية ، وظنوا أن القيم الخلقية و الدينية التی ورثوها أباً عن جد قد فقدت روحها و قوتها فلم تغن عنهم شيئاً بل وقد خذلتهم فی الطريق ، ولعل هذا الظن الخاطئ و التسرع فی الحكم على الدين و الأخلاق مهد لهم طريقا واسعاً نحو الأخذ بالنظرات المادية التی طالما ينخدع بها الانسان المعاصر و يزعمها سفينة نجاة فی خضم المصائب و المشكلات .

كان إقبال المتحمسين من الشباب اللاجئين على النظرة الماركسية وانتصارهم لها نتيجة لهذه النفسية التی تمكنت منهم ، وانتشر بينهم المقت و الكراهية ضد الاسلام واشتد تمسكهم بالمبادىء الشيوعية ، خاصة و قد كان دعاة الشيوعية واقفين بالمرصاد ،

ومتسلحين بجميع أسلحة الاستهواء الخلقية و السياسية و أساليب التأثير المعلومة التى غيرت مخيمات اللاجئين إلى معسكرات الدعوات الشيوعية و الماركسيـــة و مراكز الخدمة للاتحاد السوفياتى و الاعجاب به فى كل ما يقوم به من نشاط فى المجالات الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية ، ودعم للقضية الفلسطينية بالعدة و العتاد حيناً ، وباليد و اللسان حيناً آخر ، حتى إن الجيل الأخير للشباب الفلسطينيين نشأ فى أحضان الشيوعية ، و لم يعد يعرف عن الاسلام إلا أنه رجعية و تخلف و عودة إلى عبادة إله مجهول ، و جرى وراء رسوم متطرفة ، ليس غير .

فى هذا الجو من الازدراء برسالة الاسلام و الانتصار للفلسفة الماركسية عاش إخواننا بوجه عام ، مجردين عن الخلق الاسلامى النبيل وبعيدين عن الحلول الحقيقية لمشكلاتهم و التجاوب الواقعى مع قضيتهم ، وتركز جل اعتمادهم على بعض ما تصدق به لهم الاتحاد السوفياتى من عتاد حربى و أسلحة خداعة ، وبتعبير أصح : أسلحة صادئة لا تصلح للاستعمال ، فكلما فاجأهم وقت عصيب وقامت إسرائيل بهجوم مسلح عليهم خانهم السلاح السوفياتى ، و لم يغير من وضع المشكلة فى قليل و لا كثير ، كما أن السادة السوفيات لم يحضروا لدى أى مفاجأة إسرائيلية ولم يخففوا من معاناتهم شيئاً ، إلا أنهم لم يضنوا باللعنة الظاهرة على إسرائيل و الولايات المتحدة و لم يبخلوا بالتهديد الكاذب فى أى مناسبة ، و بالقدر المناسب الذى يشرح صدور زعماء وقادة القضية الفلسطينية ، و يبعث فى نفوسهم آمالا قوية .

وظلت إسرائيل تقذفهم بالقنابل وتقوم بهجمات قوية مدمرة على مخيمات اللاجئين فى كل مكان يسكنونه ، ورغم الانذارات السوفياتية لم تتوقف إسرائيل لحظة واحدة ولا انزاحت عن موقفها قيد شعرة ، وقد حدث ما حدث فى خلال الأشهر الماضية من المآسى الانسانية فى غرب بيروت وما قامت به الصليبية الحاقدة بوحى من سادتها و كبرائهـا ، من التجاوز حتى حدود السباع و الوحوش ، باقامـــة مجازر رهيبـــة تقشعر من مجرد ذكرها الجلود ، و لا يسع إنساناً له قلب وضمير أن يتحمل سماع بعض الاجراءات السبعية فضلا عن كلها و عن تفاصيلها و أبعادها ، و لقـــد قامت أجهزة الاعلام فى

العالم كله يبث أخبار هذه المذابح التى فاقت جميع ما مر فى التاريخ الحديث ، و لكن لم يجد الاتحاد السوفياتى يتكلف مساعدة واقعية للذين سقطوا فى مذابح بيروت على أيدى الكتائب و اليهود .

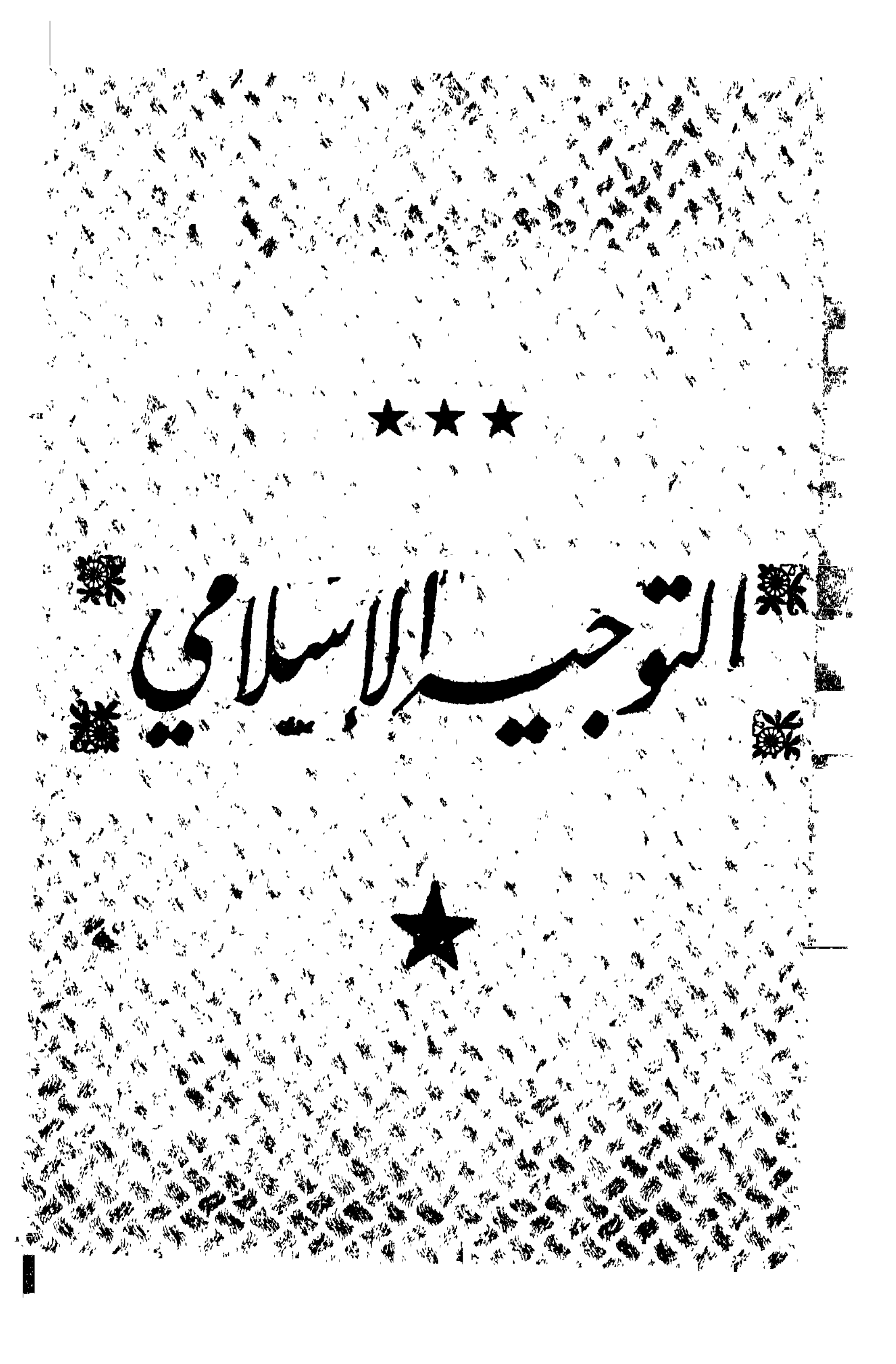
و نحن لا يعنينا فى هذه المناسبة أن نتناول مجازر بيروت بأى تعليق أو شرح ، بل الذى يهمنا أن نقول : إن ما وقع إنما هو نتيجة طبعية للوضع الذى اخترناه ، و للفلسفة التى عشناها ، فلو حدث هناك غير ما جرى لكان مبعث استغراب و تساؤلات ومثار شبهات حول منهج الاسلام للحياة . إذ لا اقتران بين الحياة الاسلامية و الحياة المادية البحتة ، و لا تجتمع نظرة الاسلام نحو الحياة و الكون و الانسان بنظرة الماركسية أو الشيوعية نحو الحياة و الكون و الانسان ، « قل هل يستوى الأعمى و البصير أم هل تستوى الظلمات و النور » .

هذه المذابح التى فاقت فى نوعيتها و كيفيتها جميع المذابح الانسانية التى تولاها الوحوش من البشر فى فترات تاريخية ، والتى مارس فيها المجرمون كل الأنواع والألوان من الفتك و الذبح ومن الازدراء بجثث القتلى و الشهداء حيث رفعوها بنقالات القمام ودسوها فى التراب ، أو تركوها للذئاب و الكلاب ، إنما هى فى الواقع أولى ثمرات الازدراء بنعمة الاسلام التى أتمها الله عليهم ، والانتصار للشيوعية و الماركسية ، ونتيجة الاستهزاء بالله و رسوله و الاستهانة بتعاليم الاسلام الخلقية و الايمانية ، و هذه هى عاقبة كل شعب مسلم ازدرى نعمة العقيدة و الايمان و داسها بالأقدام .

إننى لست فى مكان أحكم فيه بالنفاق أو الايمان لشخص ينتمى إلى الاسلام ، ولكننى أومن أجزم إيمان بأن النفاق خصلة وجدت فى مجتمعات وبيوت المسلمين ، و أنه نقيض الايمان الذى إذا اضمحل أو ضعف أو خرج من القلوب — لا قدر الله — حل محله النفاق الذى هو أخطر من الكفر و أضل من الالحاد والانكار ، فقد أنتج ما نشاهده اليوم من دمار وشقاء .

قبل أن نقيس أبعاد هذه المذابح وعمقها بمقياس مادى يجب أن نفتش فى نفوسنا عن الأسباب الواقعية التى جرت إلينا هذا الشقاء ، و هذه المهانة ، و هذه الجروح

البقية على ص ١٠٠


التوجيه الإسلامي



طبيعة هذا الدين وسماته البارزة

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسني الندوي

[ألقي هذا البحث القيم في ملتقى الفكر الاسلامي السادس عشر . الذي عقد في تلمسان (الجزائر) في الأسبوع الأول من شوال ١٤٠٢ﻫ ٢٧ يوليو ١٩٨٢م ، نقدمه إلى قرائنا الكرام نظراً إلى قيمــة البحث و أهميتــه الكبيرتين] التحرير

إن لكل كائن حي طبيعة خاصة ، و سمات بارزة ، و ملامح مميزة ، يتكون منها واقع يعبر عنه ، « بالشخصية » أو « الذاتية المميزة » ، و يستوى في ذلك الأفراد و الجماعات ، والشعوب و الأمم ، و الديانات و الفلسفات ، فما هي شخصية هذا الدين وذاتيته المميزه؟، يجب علينا أن نعرف ذلك قبل أن نخوض في التفاصيل والتعاليم والآداب المعينة . فذلك هو المدخل الطبيعي للانتفاع بهذا الدين والانصباغ بصبغتــه .

يجب علينــا أن نعرف أولا أن هذا الدين لم يصل إلينا عن طريق الحكماء و المفكرين . و لا عن طريق المقننين و المشرعين . و لا عن طريق المؤسسين للحكومات و الفاتحين . ولا عن طريق الأذكياء الخياليين ، و لا عن طريق الزعماء و القادة السياسيين ، إنما وصل إلينا عن طريق الأنبياء الذين يوحى إليهم من الله ، الذين ختمت رسالاتهم برسالة خاتم الأنبيـاء و المرسلين محمد صلى الله عليه و آله

وسلم ، و هو الذى نزلت عليه الآية القرآنية فى حجة الوداع فى يوم عرفة : اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام ديناً ، (١) و الذى يقول عنه القرآن « و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى (٢) » فما هى طبيعة هذا الدين ، و ما هى سماته البارزة ؟

١- إن سمة هذا الدين الأولى ، و شعاره المميز الأول التركيز على العقيدة أولا و قبل كل شئ ، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ ، يدعون إلى عقيدة معينة يوحى بها إليهم ، يدعون إليها ، و يطالبون بها ، لا يقبلون عنها صرفاً و لا عدلا ، و لا يبغون بها عوضاً و لا بدلا ، و إن أفضل حياة خلقاً و سلوكاً ، و رحمة و براً ، و استقامة و سداداً ، وإن أنجح إنسان فى تأسيس حكومة ، أو إنشاء مجتمع ، أو إحداث إنقلاب ، لا قيمة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاءوا بها ودعوا إليها ، ولم يقم كل هذه الجهود على أساسها ، و هذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء عليهم و على نبينا الصلاة و السلام ، و بين الزعماء و القادة القوميين ، و الانقلابيين والثوريين ، و النفعيين و الماديين ، و كل من كان مصدر تفكيره غير مصدر تعاليم الأنبياء وسيرهم ، لسبب من الأسباب الأصيلة أو الطارئة من التعليم و التربية أو رد من ردود الفعل ، أو الحب الزائد لتحقق النتيجة المطلوبة ، أو قلب نظام أو انتصار أو انتقام (٣) .

(١) سورة المائدة : ٣ .

(٢) سورة النجم . ٣ - ٤ .

(٣) و قد سرت هذه النفسية فى كثير من العاملين فى مجال العمل الاسلامی ، ★

و القرآن الذى هو الكتاب السماوى الوحيد المحفوظ من التحريف و الباقى إلى آخر الأبد، و السيرة النبوية التى هى السيرة الوحيدة من سير الأنبياء التى يمكن الاعتماد عليها، و الاستفادة منها. و الاحتجاج بها، مليئان بالشواهد على ذلك، و نقتصر على أمثلة قليلة.

من ذلك ما حكاه الله تعالى عن نبيه و خليله إبراهيم، الذى وصفه بقوله: «إن إبراهيم لحليم أواه منيب (١)» و هو قوله تعالى مخبراً و آمراً:

«قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم و الذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤا منكم و مما تعبدون من دون الله كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة و البغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ، ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا وإليك المصير (٢)»

وربما يختلج فى بعض النفوس قوله تعالى: «إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك». فلماذا وعد إبراهيم أباه المشرك بالدعاء و الاستغفار؟. و تفسر ذلك آية أخرى فى سورة البراءة، و هو قوله تعالى:

«ما كان للنبى و الذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن

★ والمتذمرين من الأوضاع الفاسدة فى هذا العصر، فيغتفرون لكل من يهتف بهتاف الثورة، أو يتحدى قوة جبارة، كل فساد فى العقيدة، و انحراف و زيغ فى التفكير، و يصرفون النظر عن ديانته و سلامة عقيدته، بل يتهمون كل من يثير هذا الموضوع. و يتساءل عن عقيدته. بالتمالؤ مع القوى الأجنبية

(١) سورة هود: ٧٥. (٢) سورة الممتحنة: ٤.

موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم(١).

و ناحيك بأن سورة « الكافرون » نزلت بمكة حين كان الوضع يقتضى شيئاً من اللين والرقة ، و عدم إثارة العداء على أساس العقيدة و العبادة ، وتأجيل ذلك إلى وقت يكون الاسلام فيه أقوى و المسلمون آمن . و لكن القرآن يقول ، و الرسول يعلن :

« قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، و لا أنتم عابدون ما أعبد ، و لا أنا عابد ما عبدتم ، و لا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » .

و لو كان أحد جديراً بالغض عن عقيدته وصرف النظر عنها ، لنصرته ، منعه و حبه للرسول ﷺ ، لكان أبو طالب عم الرسول ﷺ ، فقد قال أصحاب السير عنه : « كان لرسول ﷺ عضداً و حرزاً فى أمره ، و منعة و ناصراً على قومه » و لكن فى الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على أبى طالب عند موته وعنده أبو جهل و عبد الله بن أبى أمية ، فقال : يا عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل و ابن أبى أمية ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟، فقال أنا على ملة عبد المطلب .

« و ثبت فى الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول ﷺ ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟، قال : نعم ، وجدته فى غمرات من النار فأخرجته عن ضحضاح (٢) »

وشاهد آخر ما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة ، قالت قلت : يارسول الله ! « إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم و يطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟

---

(١) سورة التوبة : ١١٣ - ١١٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الايمان .

قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفرلی خطیئتی یوم الدين (١) »

و أوضح من كل ذلك و أصرح ما رواه مسلم فی صحيحه : « عن عائشة رضى الله عنها زوج النبی ﷺ أنها قالت : خرج رسول الله ﷺ ، قبل بدر ، فلما كان بحرة الوبرة ،أدركه رجل ، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ : جئت لأتبعك و أصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ : « تؤمن بالله و رسوله ؟ » قال : لا ، قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك » .

قالت : ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له النبی ﷺ كما قال أول مرة ، قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك » ، قال : ثم رجع فأدركه بالبيداء ، فقال له كما قال أول مرة : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم ، فقال له رسول الله ﷺ « فانطلق » (٢) .

٢- و الأمر الثانی أن الدافع الحقيقی لدعوة الأنبياء - و فی مقدمتهم و على رأسهم محمد رسول الله ﷺ - و جهدهم و جهادهم ، إنما هو طلب رضا الله تعالى لا غير ، و هو كالسيف الحاد الذی يقطع كل شئ و يأتی على كل شئ ، فلا عرض من متاع الدنيا ، ولا غرض من حكم و رئاسة أو ملك ، ولا طلب علو فی الأرض ، أو سيطرة على الناس ، أو تمتع برفاهية أو بذخ أو غضب أو حمية ، أو ثار أو ترة ، أو دفاع عن أمة أو بلد يحملهم على ذلك .

وقد تجلى ذلك فی دعاء رسول الله ﷺ فی الطائف فی أروع مظاهره ،

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد و السير .

إذ قال: و قد لقى هنا ما لقى من الأذى و الجفاء، و لم يتحقق الغرض الذى جاء لأجله، فما أسلم أحد من الناس، ولكنه يقول فى أدق ساعة وفى أحرج الأحوال النفسيـــة :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، و قلة حيلتى، و هوانى على الناس، أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى » .

و هنا تتجلى الطبيعة النبوية التى رباها الله تعالى و غذاهـا، فيقول : « إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى » (١) .

و هذا نوح عليه و على نبينا الصلاة و السلام، و هو من أولى العزم من الرسل، يحكى عنه القرآن فيقول : « لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً (٢) » و قد قضى هذه المدة كلها فى شغل شاغل من الدعوة و انصراف إليها، و التماس جميع الطرق، و اتخاذ الأساليب كلها لاقناع الناس بها. فيحكى القرآن قوله :

« قال رب إنى دعوت قومى ليلا و نهاراً »، و قوله :

« ثم إنى أعلنت لهم و أسررت لهم إسراراً » (٣) .

فماذا كانت النتيجة ؟، حسبنا ما يقول القرآن :

« و ما آمن معه إلا قليل » (٤) .

ولكن نوحاً لم يتسخط و لم يعتب، و لم يعتبر كل مجهوده قد ذهب سدى

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٥٠ و زاد المعاد ج ١ ص ٣٠٢ و اللفظ لزاد المعـاد .

(٢) سورة العنكبوت : ١٤ . (٣) سورة نوح : ٩ .

(٤) سورة هود : ٤٠ .

و لم يؤثر ذلك فى مكانته عند الله ، و قربه إلى الله ، و كونه من أولى العزم من الرسل ، فقد كان الله راضياً عنه ، و كان راضياً عن الله ، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، و جاهد فى الله حق جهاده ، بل يقول الله .

« و تركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين (١) »

و يقول القرآن معلماً و مؤدباً لجميع العاملين فى مجال الدعوة والجهاد فى سبيل الله : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض و لا فساداً ، و العاقبة للمتقين (٢) »

و ليس معنى ذلك أن القوة التى يستطيع بها المسلم أن ينفذ بها أحكام الله و يزيل بها العقبات التى تعترض سبيل الدعوة ، و يطفئ بها نائرة الفساد فى الأرض والانتصار للباطل ، ويكون بها البيئة الهادئة الواعية للحياة الاسلامية المثالية والمجتمع المؤمن المتدين الكريم ، شئ يزهد فيه و ينصرف عنه ، إنما هى فكرة دخيلة غير سليمة ، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، والله يقول فى معرض المن والأنعام :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٣) »

و قال : « و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله (٤) »

و قال :

« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف

---

(١) سورة الصافات : ٧٨ - ٨١ . (٢) سورة القصص : ٨٣ .
(٣) سورة النور : ٥٥ . (٤) سورة الأنفال : ٣٩ .

من النقط الأساسية فى دعوتهم، ويشعر كل من يعيش فى أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا يزال ماثلة أمامهم بنعيمها و جحيمها، و سعادتها وشقائها. فهم إلى الجنة فى حنين شديد، و من جهنم فى فزع كبير وهو شئ طبيعى قد ملك عليهم مشاعرهم، واستولى على فكرهم.

و الايمان بالآخرة و تمثل ما فيها من سعادة دائمة و شقاء دائم، وما أعد الله فيها لعبادة المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار العصاة من عقاب، هو الحافز الحقيقى إلى دعوتهم و بذل نصحهم، و هو الذى يقلقهم و يطير نومهم ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لايهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار (١)

والقارىء الذكى يلاحظ أن دعوة الأنبياء إلى الايمان بالآخرة ليست كضرورة خلقية. و كحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل. ومدنية صالحة. فضلا عن المجتمع الاسلامى، وهذا وإن كان يستحق التقدير والاعجاب و لكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم، و منهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، و الفرق بينهما، أن الأول - منهج الأنبياء - إيمان و وجدان، و شعور و عاطفة، و عقيدة تملك على الانسان مشاعره و تفكيره، و تصرفاته، و الثانى اعتراف و تقدير، و قانون مرسوم، و إن الأنبياء يتكلمون عن « الآخرة » باندفاع و التذاذ، و يدعون إليها بحماسة و قوة، و رجال التربية والاصلاح وقادة الجماعات العقلاء يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية، أو الحاجة الاجتماعية، و بدافع من الاصلاح و التنظيم الخلق، و شتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للنطق والمصالح الاجتماعية (٢).

---

(١) النبوة و الأنبياء فى ضوء القرآن، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) الصراع بين الايمان و المادية، ص ٨٩ - ٩٠.

« و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك (١) » ، و قال رسول الله ﷺ لأصحـــابه : « إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين (٢) » ، والنصوص فى ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى (٣) ، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض فى سيرة الأنبيـاء السابقين ، للحكمـة التى وصفهم الله بها ، فقد قال :

« و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب (٤) » ، و قال فى أنبيائه :

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب و الحكم و النبوة (٥) » .

« و لكن كل هذا التيسير و التدريج ، و مراعاة الحكمة و المصلحة والنظر إلى استعداد النفوس ، إنما هو فى التعليم والتربية وفى المسائل الجزئية ، وبما ليس من العقائد ومبادىء الدين فى شئ ، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص وما يفرق بين الايمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، و كان من شعائر الاسلام و حدود الله ، فالأنبياء عليهم السلام على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد ، و أثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلا ، و لا يعرفون هوادة ، و لا يرضون مساومة (٦) » .

٤- السمة الرابعة من سمات النبوية وملامح دعوتهم و شعائرها ، هو التشديد على جانب الآخرة واللهج بها ، و الاشادة بذكرها ، و التنويه بشأنها تنويهاً يجعلها

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) صحيح البخارى : ج ١ ص ٣٥

(٣) اقرأ الفصل النفيس « باب التيسير » فى « حجة الله البالغة » لشيخ الاسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى ، ج ١ .

(٤) سورة ص : ٢٠　　　(٥) سورة الأنعام : ٨٩ .

(٦) ملتقط من كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن » ص ٥١ .

معه، على أن قال: «أبعده الله، تعجل فانية اشتراها بباقية فما ربحت تجارته (١)»

و ليس معنى ذلك أن الأنبياء غلاظ شداد لا يستخدمون الحكمة فى دعوتهم و لا يكلمون الناس على قدر عقولهم، فان ذلك ينافى النصوص القرآنية، والسيرة النبوية المحفوظة، و ليس قوله تعالى:

«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (٢)» محصوراً فى كلمات و مفردات، إنما يشمل المعانى و الأساليب و مدخل الكلام، كما تجلى ذلك فى موعظة سيدنا يوسف مع زميليه فى السجن، و حوار سيدنا إبراهيم و موسى مع ملوك عصرهما و قومهما (٣)، و قد أمر الله نبيه - و عن طريقه و بواسطته كل قارئ للقرآن و كل داع إلى الاسلام - بقوله:

«أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة (٤)»، و قد كان النبى ﷺ يوصى أصحابه الذين يرسلهم للدعوة إلى الله، و تبليغ أحكام الله باللين والرفق و التيسير و التبشير، و قد قال لمعاذ بن جبل و أبى موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسرا و لا تعسرا، بشرا و لا تنفرا (٥)» و قد قال الله لنبيه ﷺ:

(١) فتوح البلدان للبلاذرى، ص ١٤٢، باختصار، و تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٨١.

(٢) سورة إبراهيم: ٣.

(٣) راجع للتفصيل كتابنا «روائع من أدب الدعوة فى القرآن و السيرة النبوية طبع المجمع الاسلامى العلمى لكناؤ، (الهند) و طبع دار القلم الكويتية.

(٤) سورة النحل: ١٢٥.

(٥) صحيح البخارى: ج ٢ ص ٦٢٢.

القرآن و أحكام الشريعة ، ومبادىء الاسلام ، غير محتفلين بما يجر ذلك من إقبال أو إدبار ، أو ربح أو خسارة .

و خير مثال لذلك ما روى فى التاريخ عن موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قضية جبلة بن الأيهم الغسانى ، وكان من ملوك آل جفنة ، وقد خرج إلى المدينة فى خمس مائة من أهل بيته من عك وغسان ، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر و لا عانس إلا خرجت تنظر إليه و إلى زيه ، و خرج عمر للحج ، فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوف بالبيت ، و كان مشهوداً بالموسم ، وطئ إزاره رجل من بنى فزارة فانحل ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى ، فاستعدى عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال ما هذا ؟ ، قال : نعم ياأمير المؤمنين ، إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر : قد أقررت ، فاما أن ترضى الرجل ، و إما أن أقيده منك ، قال جبلة : وماذا تصنع بى ؟ ، قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : و كيف ذاك يا أمير المؤمنين ، و هو سوقة و أنا ملك ؟ ، قال : إن الاسلام جمعك و إياه ، فلست تفضله بشئ إلا بالتقى والعافية ، قال جبلة : ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الاسلام أعز منى فى الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ، فانك إن لم ترض الرجل أقدته منك .

و لما رأى جبلة الصدق من عمر ، قال أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، و أذن له عمر فى الانصراف ، حتى إذا نام الناس و هدؤا ، تحمل جبلة بخيله و رواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة و هى منهم بلاقع ، و لم يزد عمر حين سمع قصة ما هو فيه من نعيم ومظاهر ملوكية من جثامة بن مساحق الكنانى الذى وفد عليه وجلس

و لو كان أحد مقام نبى الله ﷺ من القادة و الزعماء ، و رجال التنظيم الانسانى ، و الوعى السياسى ، لكان جوابه أنه يجتمع شملكم بعد فرقة و يكون لكم كيان بعد ضعف ، فتستطيعون أن تقيموا دولة وتنشئوا قوة ، و لم يكن ذلك أمراً غريباً تأباه عقولهم ، و قد دلت كل القرائن على إمكان ذلك و وقوعه و قد قال قائلهم : « إنا قد تركنا قومنا و لا قوم بينهم العداوة و الشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم ، فندعوا إلى أمرك ، و تعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك (١) »

و لكن الرسول ﷺ لم يزد فى جواب سؤالهم : « فما لنا بذلك يا رسول الله ؟ » على قوله : « الجنة » . هنالك قالوا أبسط يدك فبسط يده فبايعوه (٢) .

ومن آثار هذه الغيرة أنهم لا يغيرون حكماً من أحكام الشريعة ولا يعطلون العمل به لمصلحة سياسية ، ولكثرة من يدخل فى دينهم ويكثر السواد ، أو يكسب له القوة و المجد ، و قد نفذوا حدود الله و أحكامه فى الأباعد و الأقارب ، و لم يعطلوها لشفاعة أحب الناس إليهم ، وقد قال رسول الله ﷺ حين شفع سامة فى امرأة من بنى مخزوم ، و قد سرقت ، أتشفع فى حد من حدود الله ؟ . ثم قام فاختطب . فقال : « أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (٣) »

و قد انتقلت هذه الغيرة إلى خلفاء الرسل و أصحابهم . فحافظوا على تعاليم

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٤٢٩ .
(٢) ابن هشام ق ١ ص ٤٢٩ .
(٣) صحيح مسلم كتاب الحدود ، باب حد السرقة و نصابها .

و يلتزم الأنبياء عليهم الصلاة و السلام فى تبليغ رسالتهم و فى الحوار مع الأمم التى يبعثون إليها التعابير النبوية التى تتفق مع روح دعوتهم وطبيعة رسالتهم، و لا يكون فيها إبهام ولا غموض . فيدعون إلى الآخرة دعوة سافرة ، ويطمعون فى الجنة و نعيمها ، و يحذرون من جهنم و عذابها و جحيمها ، كأنهما رأى عين، ويطالبون بالايمان بالغيب ، ولا تخلو عصورهم من فلسفات مادية وإن كانت بسيطة و بدائية ، و من مصطلحات تستخدمها فئات من الناس ، إنهم لا يجهلونها ، و لا يجهلون أنها عملة سائدة لها رواج و ذيوع ، و فيها بريق و جاذبية ، و لكنهم لا يستخدمونها لجلب الناس إليهم ، فيدعون إلى الايمان بالله و بصفاته و أفعاله . و بالملآئكة . و القدر خيره و شره من الله . و البعث بعد الموت ، و يقولون - فى غير استحياء و معذرة - إن جزاء كل ذلك الجنة ، و رضوان من الله .

و خير نموذج لهذا المنهج النبوى فى الدعوة ، ما يراه القارئ فى قصة بيعة العقبة الثانية ، فقد خرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم من أهل الشرك و اجتمعوا فى الشعب عند العقبة . و هم ثلاثة و سبعون - ٧٣ - رجلا و امرأتان من النساء ، و جاء رسول الله ﷺ معه عمه عباس بن عبد المطلب ، و هو يومئذ على دين قومه ، و تكلم رسول الله ﷺ و تلا القرآن و دعا إلى الله و رغب فى الاسلام ، ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم و أبناءكم . فبايعوه و استوثقوا منه أن لا يدعهم و يرجع إلى قومه ، وعرفوا وهم عقلاء ، ما يستتبع ذلك من خطر و ضرر ، و إثارة لغيظ القبائل و عداء العرب كلهم ، و نبههم على ذلك عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، فقالوا فى جوانب ذلك كله ، إنا نأخذه على مصيبة الأموال و قتل الأشراف، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا (بذلك) ؟.

عقيدة و دعوة وشريعة ، فلا يرضون فى حال من الأحوال باحداث تعديل فيها ، أو تغيير لها ، حتى لمصلحة من مصالح الدعوة ، وانتشارها أو انتصارها ، أو للتخفيف من حدة العداء و شدة المعارضة ، فلا مداهنة عندهم و لا مساومة ، و لا تنازل و لا عدول ، و لا إرجاء و لا تأجيل ، و الله يقول لرسوله آخر الرسل ﷺ : « فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين (١) » ، و يقول : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته ، و الله يعصمك من الناس (٢) » و يقول : « ودوا لو تدهن فيدهنون (٣) » .

و لم يكن موقف الرسول ﷺ فيما يتصل بالتوحيد و ما يعارضه ، و فى العقائد الأساسية و حتى فى أركان الاسلام ، موقفاً سلبياً سياسياً مرناً ، كما عهد من الزعماء و القادة السياسيين الذين يسمون أنفسهم « واقعيين » و « عمليين » .

و قد قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ - بعد فتح الطائف - و قد أسلموا و سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ، و ما برحوا يسألونه سنة سنة ، و يأبى عليهم رسول الله ﷺ حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم ، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب و المغيرة بن شعبة - و هو من قومهم - يهدمانها ، و سألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال : « لا خير فى دين لا صلاة فيه »

و لما فرغوا من أمرهم و توجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث معهم أباسفيان ابن حرب و المغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة . و انتشر الاسلام فى ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم (٤) »

---

(١) الحجر : ٩٤ . (٢) المائدة : ٦٧ ، (٣) القلم : ٩ .

(٤) زاد المعاد ، ج ١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ ملخصاً .

و نهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور (١) »

و قد وعد الله بالعلو و الغلبة للؤمنين ، إذا تحققت فيهم الصفات الايمانية . و عملوا لرضا الله تعالى ، و لم يكن هدفهم العلو ، فان العلو نتيجة لا غاية ، و منحة لا هدف ، فيقول :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٢) »

و قد صرح القرآن فى أكثر من موضع ، أن المطلوب من الله والنافع عند الله ، هو القلب السليم ، فقال : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم (٣) »

و يقول مادحاً لنبيه إبراهيم : « إذ جاء ربه بقلب سليم (٤) »

فلنكن على حذر من كل ما يعارض صفة القلب السليم ، و يتحول إلى وثن من الأوثان ، أو حبالة من حبائل الشيطان ، ويكون سهيماً فى حب الله تعالى ومشاركاً له . يقول القرآن : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه (٥) و يقول النبي ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم (٦) »

٣- الأمر الثالث أن الأنبياء عليهم السلام قد اشتدت غيرتهم على ما جاؤا به من

---

(١) سورة الحج : ٤١ . (٢) سورة آل عمران : ١٣٩ .

(٣) سورة الشعراء : ٨٩ .

(٤) سورة الصافات : ٨٤ ، قال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح : وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر و المنافق مريض ، قال الله تعالى : فى قلوبهم مرض » (تفسير ابن كثير) و قال سفيان الثورى : هو الذى ليس فيه غير الله عز و جل . (روح المعانى) .

(٥) سورة الفرقان ٤٣ .

(٦) رواه الشيخان و أبو داؤود و الامام أحمد فى المسند .

٥- إن الله هو الحاكم الحقيق . و الحكم المطلق و شرع الدين من حقه ، و قد قال : « إن الحكم إلا الله (١) » و قال : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله (٢) » و لكن صلة العبد و ربه أشمل و أوسع ، و أعمق و أدق ، بكثير من صلة الحاكم و المحكوم ، و الآمر و المأمور ، و السلطان و الرعية ، و قد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله و صفاته فى بسط وتفصيل ، وأسلوب شيق جميل (٣) ، لا يدلان أبداً على أن المطلوب من العبد هو الايمان بمجرد حاكميته المطلقة ، و الاذعان بسلطته العلياء ، وأن لا يشرك آخرين معه فى سلطته ، إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الالهية التى زخر القرآن بذكرها ، وما ورد من الآيات التى فيها مدح الحب لله (٤)، و الحث على ذكره الكثير الدائم - تتطلب فى صراحة أن يحب العبد إلهه

(١) سورة الأنعام : ٥٧ ، سورة يوسف : ٤٠ و ٦٧ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) اقرأ على سبيل المثال الآيات الأخيرة من سورة الحشر : « هو الله الذى لا إله إلا هو .. » إلى قوله : « و هو العزيز الحكيم » (٢٢ - ٢٤).

(٤) كقوله تعالى : « و الذين آمنوا أشد حباً لله (البقرة : ١٦٥) و قوله : « و يحبهم و يحبونه » (المائدة : ٥٤) و قوله فى قصة يحيى : « و حناناً من لدنا و زكوة (مريم : ١٣) و ما ورد فى قصة إبراهيم و أمره بذبح إسماعيل ، و ما ورد من الآيات التى يصعب إحصاؤها فى الحث على ذكر الله ، و ذم المقصرين فيه كقوله : « يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم » (آل عمران : ١٩١) ، و قوله : « و لا يذكرون الله إلا قليلا » (النساء : ١٤٢) .

و ربه بقلبه و قالبه . و أن يتفانى فى طلب رضاه ، و أن يتغنى بمجده ، و يسبح بحمده ، و أن يلهج بذكره قياماً و قعوداً ، و أن يكون ذلك هو شغله الشاغل و همه الكبير ، وأن يظل خائفاً منه ، فزعاً من بطشه وقهره ، وجلا من غضبه و سطوته ، ملتجأ إليه فى كل حال ، ماداً إليه يد السؤال . متضرعاً إليه بالحاح و إقبال ، متطلعاً إلى جمـــاله الذى هو مصدر الحسن و الاحسان ، و منتهى الفضل و الكمال ، تملكه عاطفة البذل فى سبيله بكل ما عنده ، من نفس و نفيس ، و غال و رخيص (١) .

٦- مما تجب الاشارة إليه و التنويه به - و نحن فى حديث عن طبيعة هذا الدين و سماته البارزة - أن شأن الأنبياء و الرسل - و فى مقدمتهم و على رأسهم أفضل الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ - مع الأمم التى يبعثون إليها ، ومع الخليقة ، ليس شأن البرد (٢) ، وحملة الرسائل ، و بالتعبير العصرى « سعاة البريد » الذين يبلغون الرسائل أو الرسالات . ثم لا شأن لمن تبلغهم هذه الرسائل أو الرسالات ، بالذين كانوا واسطة أو أداة فى بلوغ هذه الرسائل أو الرسالات إليهم ، وهم أحرار يفعلون ما يشاؤون ، و صلة الأمم المبعوثة إليهم مع من بعثوا ، صلة موقتة قانونية آلية ، لا شأن لها بسيرتهم وبأذواقهم و اتجاهاتهم و حياتهم الفردية و المنزلية ، و هذا تصور خاطىء و ناقص قد راج فى بعض الأوساط التى جهلت مقام النبوة و الأنبياء ، و فى عصرنا فى بعض الأوساط التى ظهرت فيها فكرة إنكار الحديث و حجيته . أو سيطر عليها التفكير الغربى ، تقليداً للتصور المسيحى الدينى .　　« يتبع »

★★★

(١) مقتبس من كتاب المؤلف « التفسير السياسى للاسلام » ص ٧٨ - ٧٩ ، طبع دار القلم الكويت . الطبعة الثالثة .　　(٢) جمع بريد .



الرسول (ﷺ) المثل الكامل أمام المقاييس الأخلاقية

دكتور عبـد الحليم عويس

أستـاذ بكلية العلوم الاجتماعية الرياض

إن الحديث عن (المثل الكامل) يقتضى أن نعرض الشخصيـة التى نزمع الحديث عنها — على مقياسعين أساسيين ، هما :

١— المقياس الأخلاقى ، باعتباره عنصراً جوهرياً مشتركاً بين الانسانية فى تقديرها لمعانى العظمة الكاملة .

٢— المقياس الانسانى العام ، الذى يتخطى المقاييس الاقليمية ، أو المقاييس المذهبية المحدودة ، و الذى يزن العظمة بميزان لا يختلف عليه العقلاء .

وإيمانا منا بهذا المنهج ها نحن نضع سيرة الرسول ﷺ من خلال بعض أخلاقياته و مواقفه — على هذا الميزان الذى لا يكاد يختلف حوله المنصفون .

أولا : الرسول امام المقاييس الأخلاقية .

إن النسيج الأخلاقى لمحمد — ﷺ — هو الآية البشرية العظمى فى تاريخ هذا العالم .

إن جوهر القضية ليس فى اتصـاف محمـد ببعض الأخلاق الحيدة ، فكم من أناس اشتهروا ببعض الأخلاق ، و عرفوا بها .

لقد عرفنا عن المرسلين ، وعن بعض العظماء ، اشتهـارهم ببعض الأخلاق ، و القرآن — نفسه — يصف المرسلين ببعض ما اشتهروا به .

فاسماعيل — عليه السلام — كان صادق الوعد .

« و اذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد » (١) .

و عيسى — عليه السلام — وصفه القرآن بالمبارك البار بأمه .

« قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة و الزكاة ما دمت حياً ، و براً بوالدتى و لم يجعلنى جباراً شقياً » (٢) .

وفى سورة الأنبياء يصف القرآن إسحاق و يعقوب بأنهما كانا صالحين خيرين :

« و وهبنا له إسحاق و يعقوب نافلة و كلا جعلنا صالحين ، و جعلناهم أئمة يهدون بأمره و أوحينا إليهم فعل الخيرات (٣) .

و فى السورة نفسها يصف القرآن لوطاً و داود و سليمان بالعلم .

« ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً » ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتيناه حكما وعلماً ، (٤) .

و فى السورة أيضاً — يوصف اسماعيل و ادريس و ذو الكفل بالصبر .

« و اسماعيل و ادريس و ذا الكفل من الصابرين » (٥) .

و هكذا يصف القرآن — فى سورة الأنبياء كما ذكرنا — عدداً من الأنبياء ببعض الصفات . لكن فى ختام السورة نفسها عند ما يصف محمدا فانه لا يصفه بصفة جزئية ، و إنما يجعله — الله — هداية إلهية إلى العالم .

إنه رحمة لهذه الانسانية أرسلها الله كما يرسل الشمس أو القمر .

« و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٦) .

و فى موضع آخر يمدح القرآن محمدا هذا المدح الكلى ، فيقول له :

---

(١) مريم ٥٤ .		(٢) مريم ٣٠ - ٣٢ .
(٣) الأنبياء ٧١ ، ٧١ .		(٤) الأنبياء ٧١ .		(٥) الأنبياء ٧٩ .
(٥) الأنبياء ٨٥ .		(٦) الأنبياء ١٧ .

« و إنك لعلى خلق عظيم » (١) .

و بعض المفسرين (٢) يرون أنه « النور » المقصود فى قوله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين » (٣) .

وهكذا تتجلى الخاصية التى ينفرد بها النسيج الأخلاق لمحمد الرسول (ﷺ) .

إنه نسيج متكامل ، وإنه نظام أخلاقى متعانق الخيوط ، فليس ثمة خبط نشاز ، أوخيط من فصيلة مختلفه ، و إنما هى الحقيقة الأخلاقية الواحدة التى يتعامل بها الرسول مع الحياة و الأحياء .

و هذه الوحدة الأخلاقية « تمثل جوهر رسالته إلى العالم » إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (٤) « و تفسر — فى الوقت نفسه — معنى أنه رحمة و نور لهذا العالم .

فالعالم الانسانى لا نور له ، ولا رحمة فيه إذا هو تجرد عن الأخلاق ، وإن أزمات ، الحضارات ما اندثر منها وما بقى إنما يعود إلى فقدان الأخلاق .

و من عجب أن ذلك الأمى ، اليتيم ، الفقير ، عاش أخلاقياً طول عمره ، لدرجة أنه كان ينادى بصفته الأخلاقية فى الجاهلية ، فكان يطلق عليه (الصادق الأمين) .

إن هذا النبى الأمى كان له كما يقول كاتب عربى نصرانى — فى مجال الأخلاق — شؤون و شؤون ، فبالرغم من مهامه الجسام ، و أشغاله الكثيرة المتنوعة وبالرغم

---

(١) سورة القلم ٤ .

(٢) أنظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ١١٨ (عن الزجاج) طبعة دار الكتب و دار الكاتب العربى ١٩٦٧م .

(٣) المائدة : ١٥ (٤) رواه الامام أحمد .

من الغزوات والسرايا و الحروب واضطلاعه بجميع المسئوليات وحده دون سواه ، فلقد وجـد الوقت الكافى ليلقى على المؤمنين بأقواله و أفعاله — درساً فى شؤون لا تمر ببال مسؤول كبير فى مثل مستواه و خطورته (١) .

فذلك العظيم الذى كان يحاول تغيير التاريخ ، و يعـد شعباً لفتح الدنيا من أجل الله . ذلك الرجل وجـد الوقت الكافى ليلقى على الناس دروساً فى آداب المجتمع و فى أصول المجالسة و كيفيـة القاء السلام كأنه معلم حصرت مهمته فى تثقيف بضعة و عشرين تلميذاً ، و لم يكن له مهمة سواها (٢) .

و الوحدة الأخلاقية التى تمثل نسيج أخلاق محمـد الرسول ليست فى أنه « أخلاقى » يمتاز بمجموعة الأخلاق الانسانية المتعارف عليها ، فلا يند عنه خلق ، فهو الأمين إذا ذكرت الأمانة ، وهو الصادق إذا ذكر الصدق ،وهو الوفى .. و هو الكريم .. و هو الشجاع ، و هو الزاهـد ، وهو المتواضع ، و هو الرحيم ، و هو البار ، و هو الحكيم ، و هو الفصيح البليغ ، و هو العابد .

إن هذه الوحدة الأخلاقية التى ترجمتها شخصية محمد الاجتماعية ليست فى هذا كله — و حسب ، بل — وهو الأهم — فى أنه عليه السلام — لم يسمح للظروف الصعبة — كل الصعوبة — فى أن تغير شيئاً عن نسيج أخلاقه و لم يجعل لتقلبات حياته من شدة إلى يسر أى أثر فى ذلك .

فأخلاقه فوق الظروف . . و فوق التقلبات .

فاذا كان التاريخ قد ذكر أن قوم موسى من بنى إسرائيل حين خرجوا من مصر أخذوا حلى المصريات ودائع ، ثم هربوا بها — فان محمداً و أصحاب محمـد

---

(١) نصرى سلهيب فى خطى محمد ٣٦٦ .

(٢) المرجع السابق ٣٦٧ .

ما سمح لهم نظـامهم الخلق أن يفعلوا شيئاً من ذلك ، بل إنهم تركوا أموالهم و ديارهم للشركين ، أما محمد فانه أبقى علياً بعده ليؤدى الأمانات إلى أهلها .

و ما رأيك فى أن الشخصية الأخلاقية لهذا النبى لم تسمح له بأن يرد هـذه الأموال و هذه الديار إلى أصحابها المسلمين بعد فتح مكة ؟ .

لـماذا ؟

لأنهم فقدوها فى سبيل الله و لأنهم سجلوا فى سبيل هذا المغرم من المهاجرين السابقين الأولين . . فلا يجوز لهم أن يشوهوا هذا الشرف بطلب ما فقدوه فى سبيل الله .

بل ما رأيك فى أن النبى الوفى لم يقبل أن يأخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة و يعطيـه لعلى بن أبى طالب . . حتى لا يعطى مقابلا مادياً للاسلام ويحرم آخرين من حقوق تاريخية عرفت لهم .

قال ابن اسحاق : يصف ما فعل الرسول بعد فتحه مكة :

حدثنى أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقـال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت و سقاية الحاج . . يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية و تعظمها بالآباء والنـاس من آدم و آدم من تراب . . يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم ابن أخ كريم قال : اذهبو فأنتم الطلقاء ، ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب و مفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ ، أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٣٢ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

حتى فى هذه اللحظة الفاصلة . . لحظة الانتصار الكاسح ، لم يتخل محمد الرسول عن طبيعته الأخلاقية : العفو عن العتاة المذنبين . . والوفاء لأصحاب الحقوق . . والوقوف من أصحابه — المنتصرين — الموقف الصارم العادل .

إنه لقادر على أن يلتزم الموقف الأخلاقى المناسب ، مهما تكن اللحظة التاريخية حرجـة و حاسمة . . إنه نبى يشرع بسلوكه ، و ينطلق من منهج واضح و ليس من (رد فعل) ، تمليه أو تفرضه أى ضواغط أو ظروف .

لقد تحدث بعض الكتاب معدد الخوارق التى صاحبت لدعوة المحمدية فقال : « إن من أعظم الخوارق التى كانت لمحمد ﷺ أخلاقه ، فكانت فى ذاتها أمراً خارقاً للعادة بين بنى الانسان ، فهى أعلى من أخلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم : « لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون » وليس فيـه روحانية عيسى السلام المجردة ، بل كانت فيـه الروحانية الانسانية ، بما فى الانسان من مطالب الجسم و تجرد الجسم و الروح ، فمحمد بين الناس الانسان الذى تتجلى فيه الانسانيـة الكاملة ، و فى طبعه روحانية إرادية (١) .

و قد كانت صفحة حياته — عليه الصلاة والسلام — كما نقلت إلينا بكل دقة و توثيق — أخلاقية إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسـان أن يبلغ ، و كانت لذلك أسوة حسنة لمن هـداه القدر وأن يحاول بلوغ الكمال الانسانى من طريق الايمان و العمل الصالح ، و أى سمو فى الحياة كهذا السمو الذى جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل فى الصدق و الكرامة و الأمانة ، كما كانت بعـد الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به تضحية استهدفت

---

(١) الشيخ أبو زهرة : خاتم النبيين : ١ / ٢٤٢ طبع قطر ، و الآية الواردة فى النص من سورة التحريم .

حياته من جرائها للموت مرات فلم يصده عنه أن أغراه قومه و هو فى الذروة منهم حسباً ونسباً ، بالمال و بكل المغريات (١) . . و الغريب أن هـــذه الانسانية الأخلاقية قد بقت على هذا النحو الخارق للعادة فى أروع صور البساطة واليسر. فبدت — مع سموها — و كأن البساطة وعدم التقعر أو التكلف هى نسيجها الذى يجمع بين خيوطها المترابطة.

فعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : ما لعن رسول الله ﷺ مسلماً من لعنة تذكر ولا انتقم لنفسه شيئاً يوتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، ولا يضرب بيده شيئاً قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله ، و لا سئل شيئاً قط فمنعه إلا أن يسأل مأثما ، فانه كان أبعد الناس منه ، ولا خير بين أمرين إلا اختار ايسرهما (٢) .

و قد سئلت عائشة : ما كان رسول الله ﷺ يصنع فى بيته ؟ قالت : كان يخيط ثوبه ، و يخصف نعله و يعمل ما تعمل الرجال فى بيوتهم (٣) .

و أخبر أبو بكر بن عبـــد الله بن أويس . . قال كانت فى النبى ﷺ خصال ليست فى الجبارين ، و كان لا يدعوه أحمر و لا أسود من النـــاس إلا أجابه ، و كان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها فيهوى بها إلى فيه و أنه ليخشى أن تكون من الصدقة ، و كان يركب الحمار عرياً ليس عليه شئ (٤) .

و كان خادمه أنس بن مالك يقول : خدمت النبى ﷺ عشر سنين فـما قال لى أف قط ، ولا قال لشئ صنعته لم صنعته ، ولا لشئ تركته لم تركته ، و كان لا يظلم أحداً أجره (٥) .

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ٥٨٣ الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١ / ٣٦٧ وقد ورد فى البخارى بشىء من الاختلاف

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٦٦ . (٤) الطبقات الكبرى ١ / ٣٧٠ .

(٥) رواة البخارى .

و كان من عادته أن يجلس حيث ينتهى به المجلس ، و أن يبش إلى كل من يجلس إليه حتى يظن أنه أحب أصحابه إليه .

و عن الحسن رضى الله عنه أنه ذكر رسول الله ﷺ فقال : لا و الله ما كان يغلق دونه الأبواب ، و لا يقوم دونه الحجاب ، ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها ، و لكنه كان بارزاً من أراد أن يلتقى نبى الله لقيه ، وكان يجلس بالأرض و يوضع طعامه بالأرض ، و يلبس الغليظ و يركب الحمار و يردف بعده و يعلق و الله يده (١) .

وعن قيس بن أبى حازم أن رجلا أتى النبى ﷺ فلما قام بين يديه استقبلته رعدة ، فقال له النبى ﷺ : « هون عليك فانى لست ملكا إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تاكل القديد » (٢) .

و مما يتصل ببساطته و إنسانيته الكريمة حبه للدعابة و المزاح و الابتسام المودود ، و قد رويت عنه فى ذلك — روايات كثيرة ، منها قصته مع العجوز التى قال لها : أو ما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز ؟ فلما ولت تبكى قال ردوها ، و طمأنها بأنها ستعود بكراً شابة « إنا أنشأناهن أنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً » (٣) .

و كان يسابق عائشة فلما سبقها بعد أن سبقته قال : هذه بتلك (٤) .

و كان — عليه السلام — مسمحاً متواضعاً واسع الرحمة بالضعفاء و البهائم ،

---

(١) ابن الجوزى : الوفا بأحوال المصطفى /٢ / ٩٨

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة الواقعة ٣٥،٣٧ وانظر : ابن الجوزى الوفاء ٢ / ١٠٩ .

(٤) ابن الجوزى الوفاء ٢ / ١٠٨ .

و قد سمع بكاء صبى و هو فى الصلاة فخفف صلاته حتى لا تفتن أمه التى كانت تصلى وراءه .

و رأى جملا هزيلا فقال اتقوا الله فى هذه البهائم أطعموها و اركبوها صالحة ، و كان زاهداً فى الدنيا ، و قصته مع عمر بن الخطاب معروفة ذائعة فقد دخل عليه عمر رضى الله تعالى عنه يوماً فرآه على حصير قد أثر فى جنبه و رفع رأسه فى البيت فلم يجد إلا إهابا معلقاً و قبضة من شعير و حصيراً تكاد تبلى ، فبكى عمر ، فقال له ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقال عمر : يا نبى الله و ما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى . وذاك كسرى و قيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته فقال له الرسول : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت طيباتهم فى الحياة الدنيا (١) .

و كان مع ذلك كله — أشجع الناس ، و قد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق رسول الله ﷺ قبل الصوت فتلقاهم و رسول الله ﷺ عرى فى عنقه السيف : فجعل يقول للناس : لن تراعوا : قال : وجدناه بحرا أو أنه لبحر يعنى الفرس (٢) .

و عن على رضى الله عنه قال لقد رأيتنى يوم بدر و نحن نلوذ بالنبى ﷺ و هو أقربنا إلى العدو ، و كان من أشد الناس يومئذ ، و عنه قال : كنا إذا احمر البأس ولقى القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما كان أحد أقرب إلى العدو منه (٣)

وكان أوفى الناس بعهوده ، و أوفاهم لأصحاب الأيادى ، حتى و لو كانوا من أعدائه ، و لا زال وفاء الرسول بشروط وصلح الحديبية المجحفة أمراً يتناقله

(١) رواه البخارى ومسلم وانظر ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ٤٦٧ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ٣٦٢ .
(٣) ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى ٢/ ١٠٦ .

المؤرخون باعجاب ، وقد ظهر وفاؤه من اللحظة الأولى التى أعقبت توقيع الصلح. إذا جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو « يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، فلم يقبله الرسول و قال له : (اصبر واحتسب فان الله جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجاً و مخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحاً و أعطيناهم على ذلك — و اعطونا عهد الله و إنا لا نغدر بهم (١) .

و أما وفاؤه لأصحاب الحقوق فهو آية من آيات خلقه النادرة ، و معروف فى التاريخ قصته مع هوازن بعد موقعة حنين فان هوازن التى وقع نساؤها وأطفالها فى الأسر لم تجد ما تشفع به إلا أن النبى ﷺ قد استرضع فيهم . . فكان تذكيرهم للرسول بذلك ، بعد ما أساؤا إليه ابلغ اساءة سبباً فى إطلاق آلاف الأسرى (٢) .

و عند ما كان الرسول ﷺ فى مرض الموت خرج إلى أصحابه فى هذه اللحظات الصعبة ، ليخطب فيهم ، و يقول لهم :

« معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً ، فان الناس يزيدون و إن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، و إنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم ، و تجاوزوا عن مسيئهم » (٣) .

و لعل مما ينطبع فى الذهن فلا يتحول ، قوله عليه السلام بينما هو فى محنة غزوة أحد ، و المسلمون يدفنون شهداء هم عقيب المعركة .

« أنظروا إلى عمر بن الجموح ، و عبد الله بن عمرو بن حرام فانهما كانا

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٤ / ٣٦٧ .
(٢) انظر ابن هشام : السيرة النبوية ٤ / ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٤ / ٣٢٨ .

متصافيين فى الدنيا ، فاجعلوهما فى قبر واحد (١) .

إن هذه بعض ملامح شخصية الرسول الأخلاقية، وقد عمدنا فيها إلى الايجاز الشديد ، و إلى التركيز على بعض المواقف و النظرات الضرورية و لقــد أغنانا كتاب الشمائل و السير عن التفصيل ، و الجدير بالنظر فى نهاية هذا العرض — أن قيمة هذه الأخلاق قد تجلت فى وضع كل خلق موضعه الصحيح ، دون أن تختل النسب و الموازين التى تستحقها القيمة الأخلاقية فى ظرفها المناسب ، و قد بدت أخلاق الرسول — فى مجموعها — على هــذا النحو ، و كأنها عقد جميل منسجم الحبات يتوج جبين الانسانية ،و يطلعها — فى الوقت نفسه — على المستوى الانسانى الرفيع الذى يمكنها أن تدنو منــه ، و أن تتأسى به الأسوة الحسنة فى إطــار من التواضع و البساطة و الرفق ، لأن النظام الأخلاقى لمحمد يعتمد الرفق أساساً فى المعاملة بين الانسان و أخيه الانسان وبين الانسان و الحيوان و بين الانسان و الجمـاد (٢) .

إنه هو الذى يقول « من يحرم الخير كله » و يقول : « لا تنزع الرحمـة إلا من شقى » ،

و يقول عن جبل أحد : « أحد جبل يحبنا و نحبه » .

فهل رأت البشرية أرقى من هذه النظرة الأخلاقية الكونية الشاملة التى تنتظم كل من فى الحياة . . و ما فى الحياة ؟ .

إنها نظرة أخلاقية واحدة من مصدر واحد ، و تعتمد على وسيلة واحدة ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣ / ٤٩ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

(٢) انظر عبد الرحمن عزام : فصل رحمته وبره من كتابه بطل الأبطال، طبع وزارة المعارف بالسعودية

و تهدف لغاية واحدة .

إن شخصية الرسول الأخلاقية التى وقفت فى وجه المشركين ثلاثة عشر عاماً بمكة لم تعجز ، ولم تهن ، و لم تيأس ، هى نفسها التى فاضت فى المدينة على شؤون الدنيا ، فدلت على ما فيها من الحيوية و القوى التى جعلتها أهلا للتغلب على كل معضلة فى وقتها و مناسبتها .

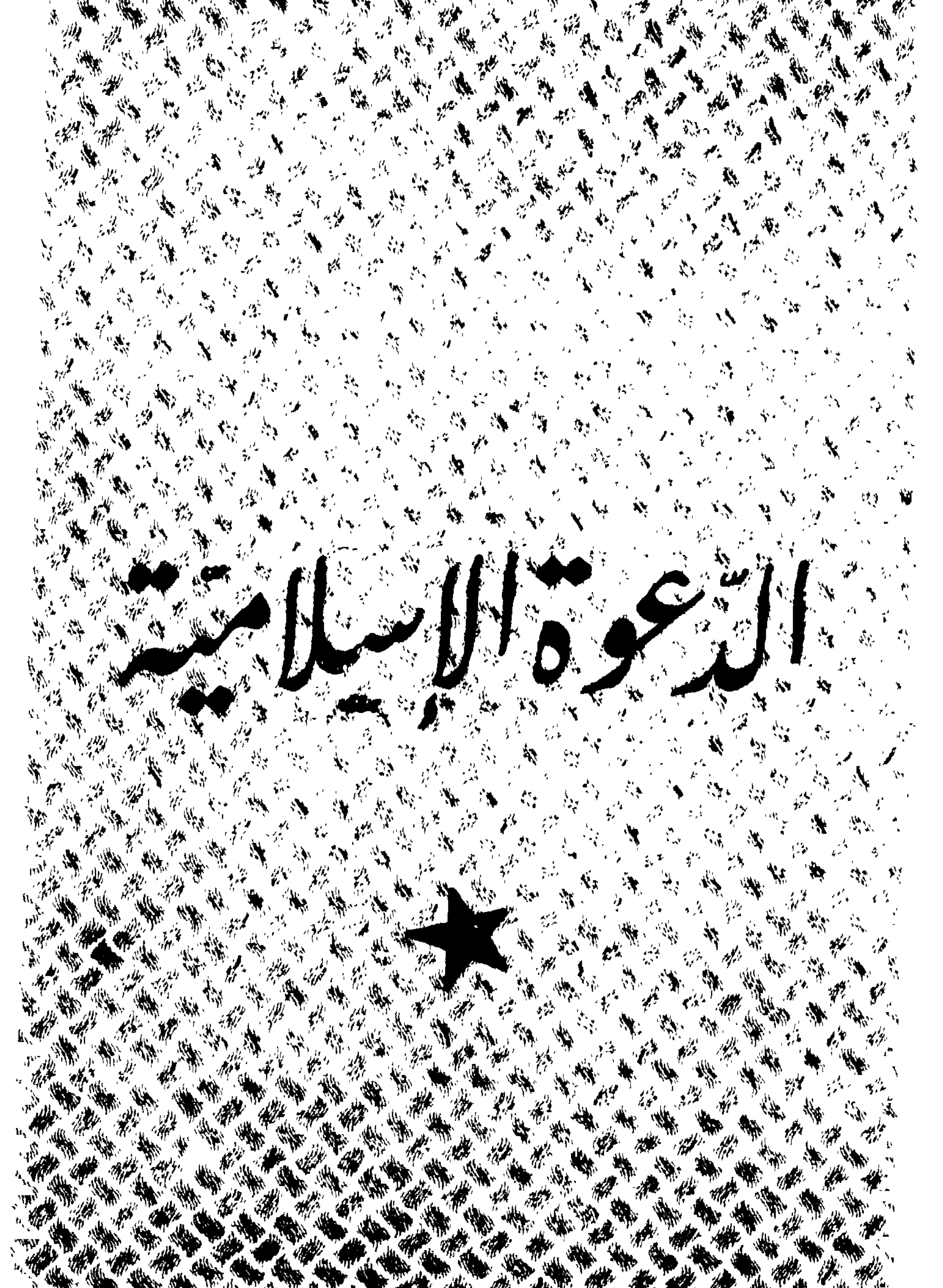
تلك القوى و الصفات التى لم تجتمع لأحد قبله و لا بعده — عليه الصلاة و السلام — فمن أى ناحية نظرت إليه وجدته « مثلا كاملا » و أسوة حسنة ، بل من مجموع هذه القوى و الصفات يبرز للناس رسول الله ﷺ (سواء أكان فى أيام الدعوة المجردة عن السلطة ، أم فى أيام الدعوة المصحوبة بالرياسة الزمنية فى المدينة) ذاتاً موفقة ناجحة ، انصرفت إلى الله بكليتها فجعلته أمامها ، و وضعت ما عداه وراءها . . هو فى كلتا القريتين الناسك العابد ، الباكى بين يدى خالقه وهو فيهما الزاهد ، يعرض عليه أصحابه أن يوطئوا له فراشاً فيقول : ما لى و للدنيا . . ما أنا و الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح و تركها (١) .

و تلك ، بعض أبعاد شخصيه الرسول الأخلاقية . . المتكاملة الشاملة . . فعلى النبي الأمى الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق أفضل الصلاة و أزكى السلام .

« يتبع »

---

(١) عبد الرحمن عزام بطل الابطال ص ١١٠ .


الدعوة الإسلامية

وضع الدين فى المجتمع الاسلامى

(الحلقة الثالثة)　　الأستاذ على القاضى ، مشرف تربية عملية
(جامعة قطر)

و من المشكلات التى يجدها الشاب فى العصر الحديث فى مجتمعاتنا الإسلامية وضع الدين ، وهل هو خاص بالمسجد أم أنه يتناول كل جوانب الحياة — بل أحيانا يجد فى بعض الفلسفات الغربية من ينكر الدين تماماً ويرى أنه من رواسب الماضى أو أنه مخدر للشعوب .

فقد غزت المدنية الغربية البلاد الإسلامية و جاءت معها أفكارها و وسائلها و قيمها و أخلاقياتها و أساليب تربيتها — وكان من أثر ذلك أن تغير الكثير من مظاهر حياتنا الخاصة و العامة — كما تغيرت نظم الحكم و الإدارة و القانون ، و بالتالى تغير نظامنا التعليمى وحل محله تعليم جديد يهتم بالناحية المعرفية وحدها - و لا يهتم بالروح و لا بالعواطف و السلوك و الإتجاهات و لا بالقيم الدينية ، و أفقدنا هذه القدرة على التحكم فى حاضرنا ، لأنه نما فى كثير من جوانبه فى بيئة غير بيئتنا و أصبحنا تابعين لغيرنا فى مجال الحياة الفكرية و الإجتماعية و شلت إرادتنا و قلت مقاومتنا شيئاً فشيئاً حتى يمكن أن نقول : إنها توقفت و ترتب

على ذلك أننا اهتممنا بالقشور و تركنا اللباب و اعتنينا بالمظاهر و تركنا الجوهر ، و أصبنا بذلك بانفصام فى شخصيتنا ، و أصبح هناك ازدواجية فى المجتمع بين الضمير و مستوى الأداء — بين القول و العمل — بين الايمان و السلوك — بل و أصبح المسلمون يفهمون الاسلام كما يفهم المسيحيون المسيحية — فالاسلام خاص بالصلاة و الصيام و بقية الشعائر — أما القيم و الأخلاق و ما إلى ذلك فهى بعيدة عن إسلام المسلم مع أن العبادة فى الاسلام شاملة لكل شئ يفعله المسلم مادام ذلك يهدف إلى تحقيق رسالته فى هذه الحياة .

و ينظر الشاب المسلم إلى المجتمعات حوله فيجدها قد تخلت عن الدين و عن قيمه — ذلك لأن العداء بين المفكرين و الكنيسة فى العالم المسيحى قد أدى إلى بروز العديد من الفلسفات الوضعية التى تركت بصماتها بوضوح على الفكر و على التعليم — و لكن هذا لم يحدث بالنسبة للدين الاسلامى — و مع ذلك فإن الشاب المعاصر نظراً لأنه يرى الثقافة الغربية تنتشر هنا و هناك و تترك آثارها على كل ناحية فإنه يتأثر بها شعورياً و لا شعورياً — و هذا هو الذى يجعل بعض المفكرين يسأل : هل علاقة الانسان بالحياة قد فهمت فهماً واضحاً ؟ — و فى الغرب يقولون : فشل التعليم الدينى فى أداء رسالته و هم يقصدون التعليم الكنسى — و لكن الدين الاسلامى به شمول يعجز البشرية قاطبة عن الاحاطة به لأنه نظام شامل للحياة كلها — و نحن نقصد بالتعليم الدينى فى الاسلام صياغة المعارف الانسانية كلها من تصور إسلامى صحيح — و حبذا لو قلنا عنه التعليم الاسلامى ليظهر تفرده من أول لحظة .

و ينظر الشاب المعاصر فيرى اهتمام الأفراد و الجماعات قاصراً على النواحى المادية وحدها — و بذلك أصبح الانسان خطراً على نفسه باستخدام المهدئات و المخدرات و ما يؤدى به إلى الأمراض النفسية و العقلية — و خطراً على المجتمعات

من حوله — و يكفى مخزون القنابل الذرية لدى الدول العظمى — و ما نراه من انتشار تلوث أخطار البيئة و انتشار الصواريخ عابرة القارات ثم عدم كفاية المواد الغذائية — و ذلك يهدد بانتشار المجاعات و فناء البشرية ، و قد أصبحت السياسة مناورات لا أخلاقية ، و لم يعد النصر للحق ، و أصبح من المسلمات أن الغاية تبرر الوسيلة ، و بذلك أصبح الإنسان كطائر يطير بجناح واحد و فى هذا ما فيه من الأخطار التى تصيب الإنسان فى الصميم .

و ينظر الشاب المسلم المعاصر إلى مظاهر الحياة حوله فيجد أنها تسير بسرعة هائلة — و هكذا كل منتجات التقنية التى لا يكاد الإنسان يقدر على مسايرتها — ثم ينظر على تقنية التعليم فيجد أنها جد بطيئة — و لهذا يقول توماس كاريل فى كتابه « الإنسان و مشكلات الحضارة » : (إن الحضارة آخذة فى الإنهيار لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا فتقبلنا هداياها بلا تبصر و لا تمييز ، و أصبح الفرد ضعيفاً متلصصاً فاجراً غبياً غير قادر على التحكم فى نفسه و مؤسساته) .

و من مشكلات الشاب المسلم المعاصر أن يرى فساد القيم ينعكس على النظم التعليمية ذاتها ، فالرأسمالية و الشيوعية خاليتان من القيم الدينية و الأخلاقية - و لذلك فقد انحطت أساليب الصراعات بينهما إلى أدنى المستويات — و أصبح من سمات هذا العصر فقدان القدرة الحسنة التى لها آثارها الواضحة فى كل ناحية من نواحى الحياة — و أصبحنا نرى الإضطرابات و العنف و الكبت و الأمراض النفسية تعم كثيراً من الدول .

لقد تخلت المجتمعات المعاصرة عن الدين كأساس للأمة — و أصبح الخوف من الإرتباط بأية قيمة أخلاقية أو دينية من سمات المعاهد التعليمية المعاصرة

مع أن التعليم ينبغى أن يضئ حياة الإنسان بتعريفه بنفسه و بحقيقة وضعه فى الكون و الغاية من وجوده فيه و كيف يستطيع القيام برسالته . . . و لقد أصبحت نظم التعليم المعاصرة مقتصرة على نقل المعلومات ، و بذلك فقدت دورها التربوى فى اكتساب المهارات و الأخلاق و السلوك السليم — و فى تكوين الإتجاهات و العواطف و أصبح هدف الطلاب من تعليمهم فى المدارس النجاح بأية وسيلة ليحصلوا على الشهادة و بالتالى ليحصلوا على الوظيفة المناسبة .

تربية الشاب المسلم المعاصر :

و الإسلام يهدف إلى تربية الإنسان الصالح الذى يقوم برسالته على الوجه الأكمل و هذه التربية الكاملة المتكاملة تجعله قادراً على التحكم فى نفسه و ضبط تصرفاته و الإيمان بالمثل العليا التى يحيا لها و يموت فى سبيلها جاعلا شعاره : (إن صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين لا شريك له) الأنعام / ١٦٢ ، وهذه التربية تجعل لدى المسلم القدرة على الإستفادة من أقصى مايصل إليه الإنسان من الإستفادة التى تمكنه من أداء رسالته و التى تجعله ينتج أفضل ما يصل إليه الإنسان من الإستفادة التى تمكنه من أن يفيد البشرية ويحقق هدف الإسلام السامى .

و الشاب المسلم بذلك يستطيع أن يعيش حياته بقيمه و أخلاقه التى قررها الله له مع اسقاطه لكل القيم والأخلاق الواردة عن الغرب ثم أنه يريد أن يتعرف على النواميس الكونية التى أودعها الله له هذا الكون المادى ليستخدمها فى ترقية الحياة — و حينئذ يحس بأن عمله كله عبادة .

و التقدم الحضارى الإسلامى روح تكمن وراء الإنجاز المادى و الفكرى فإذا تطورت الروح تغير العالم من حولها و الآية الكريمة : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد / ١١ ، تبين ذلك — و نلاحظ تعبير : أنفسهم

-- فهو الذى يحدث التقدم الحقيقى الذى يتكامل فيه الظاهر و الباطن — و غاية هذا التعبير أن يتطابق القول و العمل و أن يعيش الناس القيم الاسلامية .

و الاسلام لا يرفض التقدم المادى و لا الاستمتاع به ما دام ذلك فى الاطار الاسلامى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق) الاعراف ٣٢ بل يحث عليه و يطلب أن يشارك أبناءه فيه أو أن يقوموا به ما دام ذلك يساعدهم على تحقيق رسالتهم .

و إذا كان الفكر الغربى المعاصر يفصل الدين عن العلم ' و ينكر بعض رجاله الدين و يعترف بعضهم به و لكنه يضعه فى إطار محدد هو الكنيسة فإن الاسلام ليس فيه هذا الفصل — فالعلم من الدين و هو يسير فى تحقيق أهداف الاسلام و هكذا يمكنه من قيادة حركة الحياة بالنسبة للفرد المسلم و بالنسبة للمجتمع على السواء، و فى ذلك يقول الله تعالى : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر) الحج / ٤١ ، و الاسلام لا يقبل أن يستورد نظماً غريبه عنه فتحدث آثارها السيئة فى الأفراد و فى الجماعات على السواء — هو يقبل التقنية الحديثة و لكنه يرفض القيم المصاحبة لها لأن له قيمه الخاصة به و هى التى تكون شخصية المسلم التكوين الذى يمكنه من أداء رسالته .

و الاسلام دين عالمى فى نظرته للفرد و الأمة و فى علاجه للمشكلات و لا يرضى باقامة الحواجز التى نشأت فى العصور المختلفة لأنه دين يهدف إلى جمع البشر كافة تحت راية واحدة — و هو بالنسبة لهذا العالم الذى مزقته الأحقاد و التنافس بين أممه المختلفة — رسالة الحياة و الأمل فى مستقبل عظيم مزدهر .

الوطنية الغربية :

و من مشكلات الشاب المسلم فى العصر الحديث المفهوم السائد للوطنية الغربية فى البلاد الإسلامية و قد أصبحنا نرددها و نجح الاستعمار فى حملنا عليها - و أصبح هناك هوة بين بعض البلاد العربية و الإسلامية و بعضها الآخر - كل دولة تعمل على مصلحتها فى الاطار الضيق و لو تعارض مع مصالح غيرها .

و من خصائص الوطنية الغربية الكراهية و الخوف فالوطن لا يبقى إلا إذا كان للشعب ما يكرهه و ما يخافه و لا يزال المسؤلون هناك يثيرون الكامن من عواطف الخوف و الكراهية .

و من مظاهر الوطنية الغربية ما فعله الاستعمار فى نشر الخمر و الحشيش و الأفيون و الربا و القمار و الفجور بالقوة تارة و تحت عناوين براقة أخرى كالمدنية و التقدمية و الحضارة ، و أصبحت مخترعات المدنية تستخدم فى التدمير و الاعتداء و نشر الكراهية و الحقد .

و قد قسمت الدول الإسلامية إلى دويلات تمشياً مع هذه النزعة مثل الشام التى قسمت إلى أربع دول ، و أهم من ذلك الروح التى تسود هذه الدويلات و أصبح كل قطر إسلامى يتعامل مع غيره على أساس العداوة فى أكثر الأحيان .

و تسير الجامعات فى البلاد الإسلامية على تربية المواطن الصالح بالمفهوم الغربى و يصبح الشباب المسلم فى حيرة بين مثل إسلامه و بين واقع حياته .

و الإسلام يعنى بتربية الإنسان الصالح و هو الذى ينظر نظرة عامة إلى المجتمع الإنسانى يحاول أن يحقق فيه رسالته عن طريق عمارة الأرض و نشر الأمن و العدالة فيها : (و العصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر) سورة العصر .

و الإسلام لا يمنع الشاب المسلم أن يحب البيئة التى ولد فيها و تربى و عاش

فلها حقوق الأخوة و الجيرة و الأصدقاء — و الزكاة ينفقها صاحبها على الفقراء من أهل بلده و أقاربه و الرسول الكريم يقول عن مكة : (و والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله و أحب بلاد الله إلى و لولا أن قومك أخرجونى ما خرجت) — و لكن الإسلام لا يرضى بالعصبية لأنه يرى أن الناس جميعاً من أب واحد و من أم واحدة و قد جعلهم الله شعوباً و قبائل ليتعارفوا لا ليستعبد بعضهم بعضاً و لا ليطغى بعضهم على بعض ، و الرسول الكريم يقول : (ليس منا من دعا إلى عصبية و ليس منا من قاتل على عصبية) أبو داؤد ، و القرآن الكريم يقولها صريحة مدوية : (و لا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا و تعاونوا على البر و التقوى و لا تعاونوا على الإثم و العدوان) المائدة / ٢ .

مشكلة الحرية :

و من مشكلات الشاب فى عصرنا الحاضر مفهوم الحرية الذى جاء من الغرب ، و احتضنته فلسفات مختلفة و كلها تعنى الإنفلات من كل القيم و الأخلاقيات بحيث يكون الإنسان حراً فى كل ما يفعل و ليس له ضابط خلقى أو إطار قيمى يفعل فيه ، و من ذلك .

الوجودية :

و تلخيص هذه النظرية : أنت مطلق الحرية فاصنع ما تشاء فإن الحياة كلها سخط يورث القلق و الضجر يقول سارتر (اليوم كغد و الغد كبعد غد و إنه لا طعم لشئ و لا لذة و لا أمل فى شئ) مجلة حضـــارة الإسلام ، شعبـان / ١٣٩٨ هـ .

فهى بذلك تريد جرف الإنسان إلى غاية من الحرية المطلقة غير الملتزمة بأى إطار أخلاقى مثالى — غاية تسودها الفوضى و تظهر انعكاساتها السلبية على كيـان

الأسرة و على علاقات الناس بعضهم ببعض — و على علاقات النـــاس بالدولة — لقد كان حصاد ذلك كله موجبات الجيز التى تسود أوربا فى عصرنا الحاضر .

البراجماتية :

و هى فلسفة تؤله الفرد على الحساب المجموع — و تضع معايير للتقـدم و النجاح و لا تلق بالا لعذاب المجتمع فى سبيل صعود الفرد حتى تصل بالنظـــام الاقتصادى إلى مرحلة الاحتكار و الاستبـــداد و القهر المستتر تحت أردية الحرية — و نتائج هذا ما نشاهده من مظاهر التفسخ الاجتماعى التى تظهر دلائلها الآن فى أمريكا و تدفع بالمئات إلى الانتحار الجماعى .

فلسفة التربية الإسلامية :

و هكذا نرى هذه الفلسفات التى تفسر الحرية بالانطلاق الكامل الذى يدمر الانسان لأنها فلسفات بشرية تنظر للانسان من زاوية واحـدة و تنظر إليه نظرة خاصة فى وقت خاص—و من هنا كانت الخطورة ، لكن فلسفة الاسلام فى التربية تجعل مفهوم الحرية بعيداً عن هذا كله لأنها تحده بقيود الأخلاق الاسلامية و ترفع الانسان إلى مرتبة عليا لأنه خليفة الله فى هذه الأرض يقوم بعمارتها فى حرية كاملة بالأسلوب الذى يراه و لكن فى إطار الاسلام و مع الالتزام بالقيم الاسلامية ، و بذلك يصبح مفهوم الحرية هو مفهوم البناء— بناء الفرد و بناء المجتمع و بناء الأمة و بناء الانسانية كلها . . و إذا كانت الفلسفات الوضعية قد فشلت فى تحقيق سلام الانسان مع نفسه رغم المؤتمرات العديدة التى تقوم بعقدها فإن الانسان نجح فى تحقيق سلام الانسان مع الانسان و فى تحقيق سلام الانسان مع الحيوان و سلام الانسان مع النبات و سلام الانسان مع الجماد لأن كل هذه الأشياء مخلوقة لله ، و إذا كانت الدول المتحضرة فى العصر الحديث تحاول أن تثبت حقوق الانسان فإن

الإنسان قد فرغ من هذا كله منذ أربعة عشر قرناً و زاد عليه حقوق الكون كله على الإنسان من حيوان و نبات و جماد . . الإسلام يبنى و الحضارات الحديثة تهدم ، و تلك هى الخلفية الثقافية لكل ما يقومون به فى هذه الحياة .

إن الإسلام يحرم على المسلم أن يطأ بقدمه كسرة خبز أو ما يؤكل مما يفيد الإنسان أو غيره من مخلوقات الله تعالى لأن فى ذلك امتهاناً للقمة التى حماها الله — فاحترام النعمة و المحافظة عليها سببه حاجة مخلوق من مخلوقات الله تعالى من ناحية و تقدير لجهد عامل من ناحية أخرى ، و إلى جانب ذلك ففيه ابتعاد عن الإسراف و منع للفساد — و لو قارنا هذا بما يحدث فى أمريكا مثلا لوجدنا البون شاسعاً — و من ذلك أن ما يلقيه الشعب الأمريكى فى القمامة فى عام واحد يكفى العالم الثالث الجائع لمدة عام كامل .

المساواة بين الرجل و المرأة :

و ما أكثر ما نادى المنادون فى الغرب — ثم فى الشرق بالمساواة التامة بين الرجل و المرأة ، و ما أكثر الخطوات التى اتخذوها فى سبيل ذلك حيث فتحوا لها أبواب العمل فى المجالات المختلفة التى تناسبها و التى لا تناسبها — و جعلوا التعليم واحداً للفتى و الفتاة و كأن ليس لكل واحد منهما وظيفته فى هذه الحياة — و ساعدت أجهزة الدعاية و الاعلام و الجمعيات النسائية فى نشر هذه المفاهيم بين الناس ، و افتعلت المعارك بين الرجل و المرأة ، ففلان نصير للمرأة و فلان عدو لها ، و تنشر الصحف دائماً عن المكاسب التى حصلت عليها المرأة فى دولة كذا و دولة كذا .

و سارت البلاد الإسلامية فى هذا الإتجاه — ذلك لأن العالم الإسلامى أصبح فى موقف المستقبل لا المرسل و المتأثر لا المؤثر — فالغرب قد ربى أبناء

الاسلام و غرس فيهم المفاهيم و القيم التى جعلتهم يسيرون فى إتجاهه و هم يظنون أن هذه الأشياء هى علامات التقدم و الحضارة و المدنية . . : و كانت نتيجة ذلك ما لاحظه المفكرون و علماء النفس من ضياع أجيال و إصابتهم بمختلف الأمراض النفسية و العقلية لفقدانهم الرعاية و الحنان و العطف والرعاية الطبعية — و تركهم فى المحاضن أو مع العاملات فى المنازل — كما كان من نتيجة ذلك تخلخل داخل كل أسرة من الأسر — لأن المرأة شغلتها وظيفتها عن رعاية أسرتها - و كان هذا فوق ما تحتمله المرأة — بل و فوق ما تحتمله الجماعات الانسانية .

و كانت هذه مشكلة حيرت الشاب المسلم من الجنسين الذى وقع فى حيرة كبيرة من جراء هذه الأفكار التى تصب فى أذنه ليل نهار، بينما يرى واقع الحياة على غير ما يتوقع — و علاج هذه المشكلة من نشر الأفكار الاسلامية التى تنظم العلاقة بين الرجل و المرأة و تدعيمها بأحدث البحوث الغربية التى تناولت علاج هذه المشكلة و التى تبين أن المساواة بين الرجل و المرأة لا سند لها من علم أو فكر سليم فى أى ناحية من النواحى . و أن هناك فروقاً بين الرجل و المرأة من الناحية البيلوجية و من الناحية الفسيلوجية و من الناحية السيكلوجية و من الناحية العقلية ، و إن العالم إذا أراد أن يخفف من مشكلاته فلابد و أن يعود بالمرأة إلى وظيفتها الأولى و هى تربية الأجيال .

الفروق البيلوجية :

الدكتور الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل للعلم . يبين الفرق بين الرجل و المرأة من الناحية البيلوجية فى كتابه « الانسان ذلك المجهول » (إن الأمور التى تفرق بين الرجل و المرأة لا تتحد فى الأشكال الخاصة بأعضائها الجنسية و الرحم و الحمل — إن هذه الفوارق ذات طبيعة أساسية نابعة

من اختلاف نوع الانسجة فى جسم كليهما — كما أن المرأة تختلف عن الرجل كليا فى المادة الكيماوية التى تفرز من الرحم داخل جسمها — فكل خلية فى جسمها تحمل طابعاً أنثويا — و هكذا تتكون أعضاؤه المختلفة — بل و أكثر من هذا فهذا هو حال جهازها العصبى) . و توحد فروق أيضاً كثيرة بين الرجل والمرأة فى الوزن و فى العظام و فى القوة البدنية و غير ذلك .

الفروق الفسيولوجية :

و من الناحية الوظيفية أو الفسيولوجية فإن أعضاء الجسم تتخذ شكلا يتناسب و الإختلافات التشريحية فهناك فروق فى الكبد و فروق فى الدم و ما إلى ذلك . . يقول فيرنسيه فى دائرة معارفه (إنه نتيجة لضعف دم المرأة و نمو مجموعها العصبى فإننا نرى مزاجها العصبى أكثر تهيجاً من مزاج الرجل ، فتركيبها أقل مقاومة لأن تأديتها لوظائف الحمل و الأمومة و الرضاعة تسبب لها أمراضاً قليلة أو كثيرة الخطر) . كما يقول الدكتور درفاريني فى دائرة المعارف الكبيرة (إن المجموع العضلى عند المرأة أقل منه كمالا عند الرجل و أضعف منه بمقدار الثلث — و القلب عند المرأة أصغر و أخف منه بمقدار ٢٠ جراماً فى المتوسط فالرجل أكثر ذكاء و إدراكاً و المرأة أكثر انفعالا و تهيجاً) كما يقول نكوليه دبلين فى دائرة المعارف الكبيرة (إن الحواس عند المرأة أضعف منها عند الرجل .

الفروق السيكلوجية :

و هناك فروق بين الرجل و المرأة فى العاطفة — و المرأة أكثر حساسية و تأثراً بالظواهر الطبيعية و المرأة لا تستطيع حفظ الأسرار — و المرأة يجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة — و انفعالات الرجال أعمق أثراً

من انفعالات النساء و لكنها أقل بعكس النساء اللاتى تظهر عليهن الإنفعالات الحادة الفجائية من غير كظم أو اخفاء — و قد لوحظ أن جرائم الشباب هى التشاجر و القسوة و التشرد أما البنات فإن جرائمهن هى الأمور الجنسية و الكذب و محاولة الإنتحار .

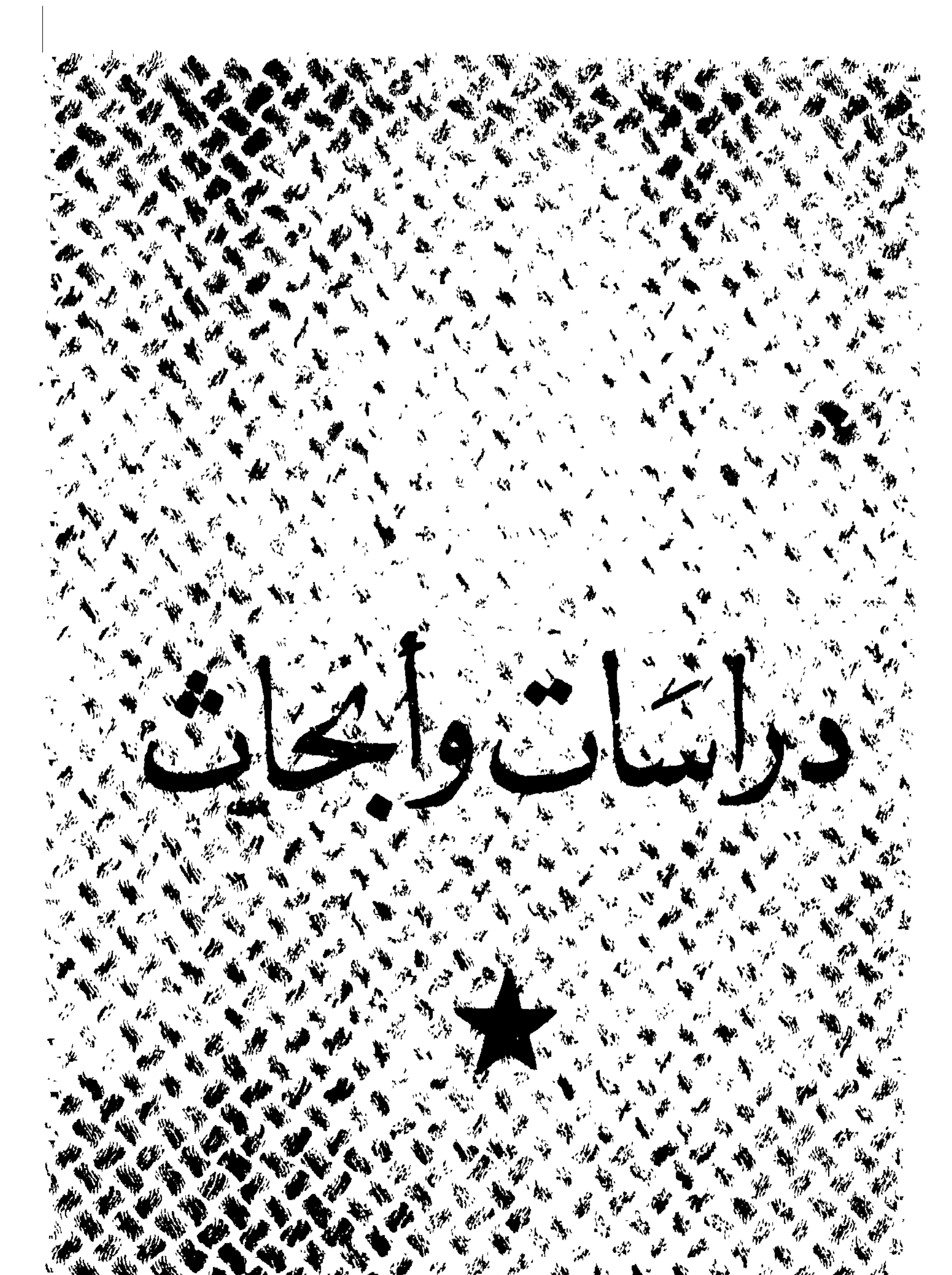
الفروق العقلية :

تثبت الدراسات أن هناك فروقاً فى النواحى العقلية بين الرجل و المرأه يقول الدكتور جابر عبد الحميد رئيس قسم علم النفس فى جامعة قطر فى كتابه الذكاء و قياسه (لوحظ على الدوام أن الذكور يمتازون فى نواحى القدرة الميكانيكية — كذلك يتفوقون على الإناث فى الاختبارات العددية التى تتطلب الإستدلال — و تتفوق البنات فى اختبار الدقة و فى استخدام الأصابع مع الإدراك الكافى للتفاصيل) .

فترات خاصة :

و هناك فترات خاصة تمر بها المرأة و لا يمر بها الرجل و تظهر فيها أمراض كثيرة تكون خلالها مضطربة قلقة لا تتمكن من أن تسير سيراً طبيعياً و هى حالات الدورة الشهرية و الحمل و الولادة و النفاس . . يقول فان دى فلد فى كتابه الزواج المثالى : (أما الأعراض البدنية السائدة فى المرأة قبل الحيض و خلاله فهى الشعور بالتعب و الضيق الغامض — و يظهر الصداع غالباً فيمن اعتدن الصداع فى هذه الفترات — و يزداد تدفق اللعاب و يتمدد الكبد و يتضخم و يحدث مغص فى الكيس الصفراوى و يضطرب الهضم كما تضطرب شهية الأكل — إلى آخره .




دراسات وأبحاث

تقديم قيم على كتاب مهم

بقلم سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى

[هذا المقال القيم تقديم لكتاب ألفه فضيلة الأستاذ محمد تقى العثمانى حول معتقدات الديانة المسيحية و معتنقيها ، نشرت بعض حلقاتها فى هذه المجلة ننشره لما يحتوى عليه من الحقائق التاريخية و المعلومات القيمة فى ضوء التاريخ و الواقع] [التحرير]

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين ، مد النبي الأمى الأمين ، الذى خص بكتاب تكفل الله بحفظه و صيانته من تحريف لمحرفين و عبث العابثين ، و بدين ضمن الله ببقائه على أصالته و نقائه إلى يوم لدين . و عقيدة التوحيد الصافية البريئة عن ألواث الشرك و الوثنية و الثنوية ، ـ الحلول و الاتحاد و تأثير المحرفين ، و آله و صحبه الذين كانوا أشد غيرة على هذا لدين منهم على الآباء و الأمهات و الأزواج و البنات و البنين ، و من تبعهم ـ ورثهم من العلماء الراسخين ، الذين ما زالوا و لا يزالون ينفون عن هذا الدين ـريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين .

و بعد ، فمن الألغاز التاريخية التى لم يكن من السهل و الميسور حلها و فكها ، ـ من الظواهر التى لا يسهل تفسيرها و الاهتداء إلى سرها ، أن الديانة المسيحية ـغم كونها هى المنافسة الكبرى ، للدين الاسلامى من يومه الأول ، فى المجال ـدعوى و الميدان السياسى ، و الوصاية على المجتمع للبشرى ، و فى قيادة الركب

الإنسانى ، لم توضع — فى مجال الدراسات المقارنة الأديان و العقائد و فى كتب التوحيد ، و علم الكلام و تاريخ الملل و النحل — على محك البحث العلمى ، و النقد التحليلى ، و لم تخضع لمبادىء النقد الأمين المحايد — إذا لم نقل التزاماً لأدب الأسلوب العلمى — للتشريح الطبى و الجراحى .

و كان من مناهج المؤلفين فى استعراض الديانة و العقائد المسيحية و البحث فيها و الحكم عليها ، التى درجت عليها الأجيال و مضت عليها القرون ، وضع الديانة المسيحية على صعيد الديانات السماوية — و بالأصح على مستوى الديانة السماوية الوحيدة التى هو الإسلام ، إذ ليست هنالك ديانة سماوية محفوظة على وجه الأرض غيره — و وضع الأناجيل الأربعة على مستوى الكتاب العزيز الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، ثم المحاكمة بينهما كما هو الشأن فى كائنات و شخصيات — بالمعنى العام — من جنس واحد ، مع اختلاف قد يكون صغيراً و قد يكون كبيراً ، مع أن الأناجيل الأربعة لم تؤلف إلا بعد سيدنا المسيح و لم يدرك أحد مؤلفيها نبى الله عيسى ابن مريم ، و يكتنف تدوينها و مؤلفيها الشئ الكثير من الغموض و الإلتباس و الإضطراب ، و كانت بكتب السيرة و الأخبار و الآثار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله ، المبنية على الوحى و الإلهام (١) ، و المواد المنيرة لحياة سيدنا المسيح و تعاليمه لا يتجاوز عن خمسين يوماً من حياة المسيح (٢) ، و كان أحسن حالها أن توضع على مستوى

---

(١) راجع للتفصيل و الأمثلة و الشواهد فصل « الصحف السماوية السابقة و القرآن فى ميزان العلم و التاريخ » فى كتاب صاحب التقديم « النبى الخاتم » و « النبوة و الأنبياء فى ضوء القرآن » ص / ١٩٨ إلى ٢٠٤ .

(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية «مقال شارلس اندرسن سكات» ، ج / ١٣ ، ص / ١٧١٠ .

كتب السير من الدرجة الثانية أو الثالثة، إذا لم نقل قصص المولد الكثيرة المنتشرة بين المسلمين فضلا عن الصحاح و كتب الحديث الموثوق بها .

و بذلك الموقف الذى لم يصدر إلا عن سلامة قلوب المسلمين و احترام ممثليه و قادته للديانات السماوية نالت هذه الديانة — التى كانت من أضعف الديانات العالمية علمياً و عقلياً و أكثرها تعرضاً للتزييف فى مخبر التاريخ و محكمته — و نالت الأناجيل التى كانت مليئة بالاختلافات و التناقضات ما لم تكن تستحقه من الثقة و التقدير و علو المكان و نباهة الشأن ، و تخلصت بذلك عن كثير من التساؤلات و الجرح و النقد .

و كان أشد من ذلك أن كثيراً من المؤلفين فى الملل و النحل آثروا خطة الدفاع عن الإسلام على خطة الهجوم على هذه الديانة التى كان من أقوى براهينها التى كانت تعتمد عليها فى إثبات صدقها و كونها دين الله المختار و تعاليم نبى مؤيد من الله ، الحكومات الواسعة التى قد لا تغرب فيها الشمس و القوة المادية التى لا تضارعها قوة ، و ضخامة عدد أتباعها و كثرة الأعمال الخيرية و المستشفيات و المؤسسات العلمية ، و التقدم التكنالوجى ، و قدرة على تنظيم الحياة مع أن شيئاً من ذلك لا شأن له بثبوت ديانة أو عقيدة و لا صلة له بحقية و بطلان .

و لا شك أنه يكون من التجنى و من القسوة فى الحكم ، إطلاق هذا الحكم على جميع المؤلفين الإسلاميين و المتكلمين الأولين و المتوسطين . فما من علم إلا و قد خص منه البعض كما يقول التعبير الأصولى ، و يمكن الاكتفاء باسم شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) صاحب كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » (١) . فقد آثر خطة الهجوم على الدفاع و تناول

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب صاحب المقدمة الجزء الثانى من كتاب ★

العقائد المسيحية و الأناجيل الأربعة بالنقد الجرىء و الحكم البرىء ، و أصاب المحز ، و فى لفظ صاحب هذا التقديم « غير ذلك وجه البحث و الجو الذى تقوم فيه المناظرة ، و أفقد الخصوم الموقف المشرف الذى تمتعوا به و استغلوه زمناً طويلا » (١) .

و الذى يستحق أن يذكر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية و يعترف بفضله و سبقه ، هو الإمام العلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمان العثمانى الكيرانوى (م ١٣٠٨هـ ١٨٨١م) صاحب الكتب العظيمة المقبولة ، فى العالم الإسلامى ، المجلجلة فى العالم المسيحى . أهمها كتاب « إظهار الحق » و « إزالة الأوهام » و « إزالة الشكوك » فقد تجنب فى نقده للمسيحية و كتب العهد القديم و الجديد ، البحوث الدقيقة التى يتسع فيها مجال الجدال و يكثر فيه القيل و القال ، بل اتخذ بتأييد من الله بعبقريته الكلامية - طريقة رياضية واقعية لا تقبل نقاشاً و لا تسمح بتشكيك أو تأويل ، فاعتمد على التناقضات الواضحة و البديهيات الجلية و أثبت أن التوراة و الإنجيل ملئية بالإختلافات و التناقضات ، و قد وقع فيها أخطاء لا يقبل تأويلا ، و تعرض فيه لمغالطات النصارى و تمويههم فى أسلوب سائغ مقنع (٢) .

و لما ظهرت ترجمة هذا الكتاب العظيم فى الأردية باسم « بائبل سے

★ « رجال الفكر و الدعوة فى الإسلام » الحافظ ابن تيميــة ، فصل « الرد على المسيحية » .

(١) تقديم كتاب « إظهار الحق » ص / ١٤م ١٥م .

(٢) إقرأ للتفصيل و لموقفه البطولى الحاسم من القس فندر الذى تحدى الإسلام و المسلمين فى عصره فى تقديم الكتاب بقلم كاتب هذه السطور .

قرآن تك » (من العهد القديم إلى القرآن) فى كراتشى ، قام الأستاذ الفاضل صديقنا الأستاذ محمد تقى العثمانى مدير دار العلوم فى كراتشى . و المستشار الدينى و القاضى الشرعى فى محاكم باكستان العليا ، و قد تلقى العلوم الدينية فى عمق و إتقان ، و تخرج على والده العظيم ، العلامة الكبير مفتى الديار الباكستانية الأكبر سماحة الشيخ المفتى محمد شفيع العثمانى الديوبندى رحمه الله ، مؤسس دار العلوم فى كراتشى ، ثم درس اللغة الإنكليزية و تخرج فيها و فى الحقوق ، و كان بذلك قادراً على الإستفادة من المصادر الإسلامية و المصادر المسيحية ، و تاريخها بطريق مباشر ، فحلى جيد هذا الكتاب بمقدمة فى نقد المسيحية و تاريخها ، و تطور عقيدتها و مبادئها ، و تحولها مع الزمن فى وقت مكبر ، من ديانة سماوية سمحة مؤسسة على عقيدة التوحيد الخالص ، إلى ديانة محرفة مطعمة بالوثنية اليونانية و الجاهلية الرومانية ، و تعمقات فلسفية حلولية اتحادية ، و قد ذكر فى تفصيل : العوامل التاريخية و العقائدية التى لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ هذه الديانة المظلومة التى قلما يوجد لها نظير ث وقوعها فريسة سهلة و لقمة سائغة لأهل الأهواء و الأغراض ، و أزاح الستار — فى قدرة فائقة و خبرة واسعة و أمانة علمية — عن المؤامرات المحبوكة الأطراف و المحن القاسية التى تعرضت لها هذه الديانة التى كان انتصارها فى ميدان السياسة و السيطرة العالمية ، مقابل إخفاقها و انهزامها فى مجال الديانات و العقائد ، فكان كل من ذلك قد بلغ القمة ، و ذكر الفرق التى رفضت أن تؤمن بألوهية المسيح ، و الرجال الذين رفضوا عقيدة الحلول و التجسد ، و ما آلوا إليه من خيبة و إخفاق و استعراض الفرق المختلفة و اختلافاتها . و تناول عقيدة « الصليب المقدس » و « العشاء الربانى » و ولادة سيدنا المسيح و تطور العقيدة المسيحية و أسبابه ، و ذكر ما كان لقسطنطين الكبير

من دور فى تحويل المسيحية عن طبيعتها الأولى . و واصل السير إلى غريغوريوس ، و ذكر تاريخ المسيحية فى مختلف العهود ، و المناطق ، ثم أشار إلى محاولات ضائعة فى سبيل الإصلاح ، و حركات التجديد و الاحياء ، و تناول إنجيل برنابا بالتحقيق و حدد مكانته فى الأناجيل فى ضوء التاريخ و البحث العلمى .

و قد توصل بعد هذا البحث الدقيق العميق فى تاريخ المسيحية و تطورات عقائدها ، إلى أن الدين الذى جاء به المسيح –عليه و على نبينا الصلاة والسلام– قد اندرس بعده بمدة قليلة ، وحلت محله ديانة كانت تعاليمها على عكس أقوال سيدنا عيسى عليه السلام و تعاليمه » وأن المسيحية المعاصرة ليس مؤسسها هو سيدنا عيسى عليه السلام ، و إنما هو بولس الذى توجد له ١٤ رسالة فى « الكتاب المقدس » و يستشهد بقول عالم مسيحى (W' WREDE) : « إن بولس قد غير المسيحية بدرجة أنه أمسى مؤسسها الثانى . إنه فى الواقع مؤسس المسيحية الكنسية التى تختلف عن المسيحية التى جاء بها يسوع المسيح تمام الاختلاف ، و لا يمكن الجمع بينهما فى العمل فى وقت واحد .

و من شواهد توارد الخواطر و وحدة النتائج العلمية و التقائها إذا كانت طرقها و وسائلها صحيحة ، أن كاتب هذه السطور قد قال فى إحدى كتاباته و هو يتكلم أن تسمية القرآن النصارى بـ « الضالين » ما معناه :

« لا يفهم سر هذه الكلمة و حكمة هذه التسمية — المختلفة عن اليهود الذين سماهم القرآن بـ « المغضوب عليهم » — إلا من كان له اطلاع دقيق على تاريخ نشوء المسيحية و تطورها فى أول عهدها ، فقد انحرفت عن الجادة التى تركها عليها المسيح فى أول رحلتها ، و سارت على درب مختلف عن الدرب الأول كل الاختلاف وتكفى لذلك شهادة واحدة ، و هى شهادة العالم المسيحى ERNEST DE BUNSEN

فيقول: « إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الانجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله و عمله . إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم و بين اليهود و المسلمين، ليس إلى المسيح، بل إلى دهاء بولس (PAUL) ذلك المارق اليهودى والمسيحى وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسم (ESSENE) والتمثيل(١) .

و لما اطلع كاتب هذه السطور على هذه المقدمة العلمية المستفيضة التى تقوم مقام كتاب، كتب إلى صاحبها الأستاذ محمد تقى العثمانى ، يبدى إعجابه بها و يقترح عليه الاسراع فى نقلها إلى اللغتين الانجليزية و العربية ، لقيمتها العلمية و الدعوية ، و لأنها منيرة للعقول و الأذهان ، كاشفة لحقيقة الديانة المسيحية قد تكون وسيلة — إذا حالف التوفيق الالهى وزال غطاء العصبية — « للتفكير الجاد » العميق و الاهتداء إلى الدين القويم و الصراط المستقيم .

و قد شرح الله صدر كاتبها أخيراً لتحقيق هذا الغرض و هيأ له أسبابه ، فطلب من أخينا العزيز الأستاذ نور عالم الأمينى الندوى ، أن ينقله إلى العربية : و هو مترجم قدير و عالم ضليع فى اللغتين ، فقام بهذه المهمة فى دقة و أمانة ، و قدرة ولباقة ، و يسعد كاتب هذه السطور — و لعله صاحب الفكرة الأولى فى نشرها و نقلها إلى اللغة الانجليزية ، — أن يقدم هذه المقدمة التى تنشر ككتاب مستقل ، و تقدم إلى قراء العربية ، كتحفة علمية ، و ثمرة يانعة شهية ، لشجرة البحث العلمى الخالص و الدراسات الدينية المقارنة ، والحمد لله أولا و آخراً .



(١) Islam or True Christianity P. 128 .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

فى تاريخ التشريع الاسلامى
و أسباب الاختلاف فى المذاهب الفقهية

(الحلقة السادسة)

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

الامام أحمد بن حنبل
(١٦٤ — ٢٤١) :

لم يتعرض الامام الدهلوى لذكر الامام أحمد فى الأئمة الفقهاء ولم يذكر مذهبه و أصوله بصورة مستقلة و يرجع السبب فى ذلك إلى أنه لا يعده إماماً مستقلا كأبى حنيفة و مالك و الشافعى بل يعده من مرتبة أصحابهم ، كأشهب و القاسم و أبى يوسف و محمد و المزنى و الربيع و إن كان أكبرهم قدراً و أكثرهم جمعاً للحديث .

يقول :

« و منزلة مذهب أحمد من مذهب الشافعى بمنزلة مذهب أبى يوسف و محمد من مذهب أبى حنفة إلا أن مذهبه لم يجمع فى التدوين مع مذهب الشافعى ، كما دون مذهبهما مع مذهب أبى حنيفة ، فلذلك لم يعدا مذهباً واحداً فيما نرى ، والله أعلم — وليس تدوينه مع مذهبه عسيراً على من تلقاهما على وجههما » (١) .

---

(١) الانصاف ص ٨٤ — ٨٥ و قد وقع فيه « تميزاً » « بدل « عسيراً » و يبدو أنه تحريف .

فمذهب الامام أحمد عند الامام الدهلوی فرع من مذهب الشافعی و لکنه حیث یتحدث عن انقراض المجتهدین فی المذاهب یقول :

« و أما مذهب أحمد فکان قلیلا قدیماً و حدیثاً و کان فیه المجتهدون طبقة بعد طبقة إلی أن انقرض فی المائة التاسعة ، و اضمحل المذهب فی أکثر البلاد ، أللهم إلا أناس قلیلون بمصر و بغداد » (۱) .

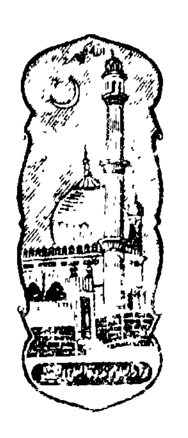
و لیس قول الامام الدهلوی بدعاً فی هذا الباب ، فقد عده بعض العلماء المتقدمین أیضاً من المحدثین لا من الفقهاء المجتهدین ، أصحاب المذاهب ، و لکن الحقیقة التی لا یمکن إنکارها أن مذهبه تمسك به أتباعه مذهباً مستقلا متفرداً ، و أصلوه و خرجوه و فرعوه ، و مما یمیز فقه الامام أحمد عن فقه الامام الشافعی أیضاً أنه یغلب علیه جانب الحدیث و أنه یأخذ بالمرسل ، و لا یخرج عن أقوال الصحابة ویأخذ بالحدیث الضعیف مقدماً إیاه علی القیاس ویأخذ بالمصالح والاستحسان و الاستصحاب (۲) .

کل ذلك یجعل مذهبه مستقلا ، عن مذهب الامام الشافعی أما أن تکون نتائج بحثه تتفق مع کثیر من نتائج بحث الشافعی ، و تعددت أقواله کما تعددت أقوال

(۱) الانصاف ص ۸٤ ، هذا کان حال المذهب فی زمن الامام الدهلوی (۱۱۱٤—۱۱۷٦ھ) ثم أقام الله الدولة السعودیة فی جزیرة العرب التی أخذت بمذهب الامام أحمد مذهباً رسمیاً فأصبح یحکم قطراً واسعاً ، و رفع الله مناره فی الحرمین الشریفین و ذلك من فضل الله یؤتیه من یشاء .

(۲) اقرأ البحث النفیس فی هذا الموضوع فی تاریخ المذاهب الاسلامیة لأبی زهرة (۳۲۳—۳٤٤) و کتابه الامام أحمد بن حنبل .

الشافعى فهذا أمر آخر لا يجعل مذهبه جزءاً من مذهب الامام الشافعى (١) إلا أن قول الامام الدهلوى « وليس تدوينه (أى مذهب الامام أحمد) مع مذهب الامام الشافعى عسيراً على من تلقاهما على وجههما » يحتاج إلى تأمل و تجربة وجهد علمى فى الفقه المقارن ، ثم يختـــار من أقوالهما القول الأوفق بالصواب ، و الله الميسر للصعاب .



(١) و قد قامت أخيراً جهود طيبـة نحو تحرير أصول مذهب الامام أحـمد بن حنبل و من تلك الجهود العلميـــة رسالة الدكتور الشيخ عبـــد الله بن عبد المحسن التركى مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، للدكتوراة حول هذا الموضوع ، وهو من أجمع ما كتب فى الآونة الأخيرة فى أصول الامام أحمد و يقدم أيضاً دليلا على استقلال مذهبه وتميزه و اختلافه عن مذاهب الأئمة الآخرين بل يتفق فى كثير من أصوله مع مذهب الامام أبى حنيفة كما تقدم من الاحتجاج — بالمرسل و الاستحسان و غيرهما .

من بحوث الندوة العلمية حول الإسلام و المستشرقين :

عهود متعددة لأفكار المستشرقين و نظرياتهم

البروفيسور خليق أحمد النظامى

كل أمة لها روح اجتماعية تخصها ، و لا يمكن التوصل إلى حقائق أساسية لتاريخ أى أمة إلا عن طريق تفهم روحها الاجتماعية ، و لقد قام المستشرقون بمحاولات كبيرة للبحث عن تاريخ الإسلام و حضارته ، و لكن معظمهم لم يتمكنوا من فهم ما يحويه التاريخ الإسلامى من مزايا معنوية ، و يمكن أن نتناول أسباب هذا الإخفاق بالتوجيه المناسب فى ضوء البواعث التى دفعت المستشرقين إلى تركيز عنايتهم على دراسة تاريخ الإسلام و حضارته و الإطلاع على فكر الإسلام الدينى و نوعية مؤسساته الحضارية ، و إن هذه الدوافع كانت تعتمد حيناً على العصبية الدينية و حيناً آخر كانت تتعين وجهتها على أساس المصالح السياسية ، و أحياناً كانت العقلية الاقتصادية تتجلى فى اشكال مجهودات علمية ، و لم تكن المحاولات العلمية و الدراسات الموضوعية إلا لوناً خاطفاً فى حلبة السياسة و الاقتصاد ، و تفيد دراسة الخلفية التاريخية للاستشراق أن الجهود العلمية التى بذلها المستشرقون لدراسة العلوم الإسلامية تتوزع بين خمس مراحل .

المرحلة الأولى :

نشأت فى الغرب رغبة الإطلاع على ما حققه الإسلام من مآثر حضارية

حينما دخل العرب فى أسبانيا و صقلية ، و لم يكن دخول العرب فيها فتحاً لدولة أو جزيرة فحسب ، بل إنه كان فتحاً لعهد جديد فى مجال العلوم و الفنون و الحضارة و المدنية ، و قد بعث هذا الفتح كما قال المستشرق الفرنسى « ميسيونيون » يقظة حضارية فى أوربا و فتح للغرب آفاقاً جديدة للتقدم و الرقى ، و قد كان حب الاستفادة من علوم العرب و تفهم حقيقة دينهم باعثاً لدراسة شاملة للاسلام ، و كان علماء أوربا يحاولون الأخذ و الاستفادة مما أنجزه العرب من اكتشافات جديدة و تجارب علميـــة .

و فى عام ١١٣٠ م قام عالم طليطلى « دريموريند » بانشاء مؤسسة لنقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية ، و شارك فيها كثير من علماء اليهود . و فى ١١٥٨م وصل عالم من طليطلة يدعى إبراهيم بن عذراء إلى إنجلترا ، حيث لفت أنظار الناس إلى ضرورة دراسة العلوم الاسلامية ، و بدأ النصارى و اليهود يتقنون اللغة العربية و ينقلون الكتب العربية إلى اللاتينية ، و وصل ما ترجم « جيرد دى كريمونا » (م ١١٨٧ م) من كتب الرازى و ابن سينا ، و غيرهما إلى اللاتينية ما يقارب ستين كتاباً ، و أصبحت مدارس أسبانيا العربية فى هذه الفترة من الزمن مقصد علماء الدول الأوربية ، خاصة إنجلترا منها ، و الذى يجدر بالذكر من علمـــاء القرن الثانى عشر هو ايديلرد (Adelard) الذى كتب الشئ الكثير فى إنجلترا لابراز العلوم العربية ، و ذهب دينل آف مارلى (Daniel of Marley) إلى أسبـانيـا حيث تلقى العلم فى المدارس العربية ، و أخذ ميشيل إسكات (Michael Scatt) العلوم الاسلامية فى صقلية ، و اشتغل فى ترجمة كتب أرسطو من العربية ، و أحست الكنيسة بأهمية العلوم الاسلامية ، و أرسل البابا (Pope Iohn xx1I) مرسوماً إلى ممثله فى باريس يوصيه بالاشراف على القسم العربى بالكلية .

و قد ذكر ايديلرد فى كتابه « (Natural Questions) » ما قام به العرب من إثارة الحركة العلمية فى أوربا ، و لقد أسمت العرب أوربا بأن العقل (Reason) يفوق السند (Authority) ، و انطلاقاً من هذا المبدأ لعبت أوربا دوراً كبيراً فى بعث العلوم و الفنون ، و هو الذى جعلها تقود العالم فى القرون التى قلت فى مجال العلم ، و تحرز المزيد من الانتصارات على مر الأجيال و العصور .

المرحلة الثانية :

تبتدىء هذه المرحلة من الحروب الصليبية ، و إن كان بعض المستشرقين الذين ذكرناهم آنفاً قد عاشوا زمن هذه الحروب و لكن محاولاتهم العلمية لم تكن متصلة بالإسلام ، و إنما كان هدفها دراسة ما نشر المسلمون من علوم و فنون بموضوعية و حياد ، و تحدث العلامة شبلى النعمانى عن النشاطات العلمية للمستشرقين فقال : « إن رحابة صدر أوربا وسعة أفقها يبعث على الغبطة و الإعجاب ، فقد كانت تتعطش لدماء المسلمين بسبب الخلافات الدينية من جهة ، و تستفيد من مائدة علومهم بدون احتشام من جهة أخرى » (١) .

و لكن هذه السعة و رحابة الصدر اقتصرت على الكتابات التى لا تمت إلى الدين بصلة ، و أما ما يتعلق بالدين فقد لوحظ تطور كبير فى وجهة نظر المستشرقين و مناهج بحثهم و تفكيرهم بعد الحرب الصليبية ، فلم تكن ناحية من نواحى تعاليم الإسلام و السيرة النبوية و الحضارة الإسلامية فى مأمن من عصبيتهم ، و قد بذلوا كل ما بوسعهم من جهود و كفاءات لإثبات أن الإسلام دين ليست له مدنية

---

(١) مقالات شبلى ج ٥ ص ٥٠ .

و حضارة ، لأنهم حسبوا أن هـذا هو الطريق الوحيد للدفاع عن المسيحية ، و وجهت إلى الإسلام و المسلمين طعنات و ضربات قاسية ، و أثيرت حول الإسلام إشاعات لا تستند إلى أصل ما ، و اختلق المستشرقون فى هذا العهد أحدوثة إحراق مكتبة الإسكندرية ، و نسبوها إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ، و قاموا بدعاية مكثفـة ، حتى أصبح كأنه حقيقة تاريخية ثابتة آمن بها الأصدقاء و الأعداء ، كما قاموا بتدسيس الأفكار المضللة فى الأناشيد الوطنية لإثارة الضغائن و الأحقاد ضد المسلمين ، و قد أصبحت هذه الأفكار جزءا من العقائد الدينية لدى المسيحيين ، لامندوحة من تعلمها لمن يدخل فى المسيحية .

و إن الصورة المشوهة للإسلام التى قدمها المستشرقون بقيت كحقيقة تاريخية فى أوربا و مستعمراتها مدة طويلة من الزمن .

المرحلة الثالثة :

ابتدأت هذه المرحلة للجهود العلمى للمستشرقين عندما أثارت الثورة الصناعية فى الدول الأوربية مطامع جديدة للاستعمار و احتلال البلاد ، و بدأت الدول الأوربية تنظر إلى البلاد الإسلامية بنظرة ملؤها الطمع و الحرص ، و كان شن الحملة العلنية على الإسلام آنذاك يتنافى مع المصالح السياسية ، و كان احتلال البلاد الإسلامية عملية تتطلب دراسة عميقة لتاريخ المسلمين ، و الإطلاع الواسع على ميولهم السياسية و أفكارهم الدينية ، لأن نجاح الحاكم فى مثل هذه العمليات يتوقف على تغيير ميول المحكومين و نزعاتهم ، ولكى يتحقق هذا الهدف ركزت الدول الأوربية عنايتها على جامعاتها و مؤسساتها العلمية ، و لقيت منها تجاوباً كبيراً و نصرة لمهمتها ، و فى القرن السابع عشر أنشئ فى جامعة كيمبردج و أوكسفرد قسم خاص

لتعليم اللغة العربية ، و وضعت خطط واسعة لجمع الذخائر العلمية للاسلام حيثما وجدت ، و قد وجد ايدورد بوكوك (Edward Pococke) أستاذ اللغة العربية بجامعة أوكسفرد ذخائر ثمينة للخطوطات العربية فى حلب ، و بدأ يختصر المؤلفات العربية فى ظل شجرة التين التى كان قد جلبها من الشام ، و التى توجد هناك حتى الآن ، و كان هدفه من هذه الدراسة و الاختصار إدراك طبيعة المسلمين القومية و كفاءاتهم العلمية ، و فى الفترة نفسها قام جورج سيل (George Sale) بالترجمة الانجليزية للقرآن الكريم ، و كانت هذه الترجمة أول ترجمة كاملة للقرآن الكريم باللغة الأوربية .

و قد لقى تيار الاستشراق بفعل المصالح السياسية حافزاً كبيراً فتسابقت الدول الأوربية فى مجال البحث عن تاريخ المسلمين و لغتهم و دينهم ، فقد ألف ريسكى (Reiske) (م ١٧٧٤م) فى ألمانيا ، و بورهرد (Burhard) (م ١٨١٧م) فى سويسرا ، و سلويستردى ساسى (Sylvestrede Sacy) فى فرنسا ، و دوزى (Dozy) فى هولندا ، و رابرتن اسمث فى انجلترا كتباً كثيرة على موضوع التاريخ الاسلامى و الأدب الاسلامى و أما برهارد فقد اعتنق الاسلام ، و سافر إلى الشام و الحجاز ، و ازدادت عناية أقسام الدراسات الشرقية بباريس و مدريد و برلين و لندن و ليدن و أوكسفرد بالبحث و التنقيب عن العلوم الاسلامية ، و بدأ نابليون بعد سنة ١٧٩٨ م ينقل الذخائر العلمية من مصر إلى فرنسا ، و قام الانجليز بعد سنة ١٨٥٧م بنقل المخطوطات النادرة من الهند إلى لندن ، و بذلك تجملت المكتبات الأوربية بالتراث الاسلامى العالى الذى انتقل من اندونيسيا و الهند و إيران و مصر و الشام و العراق إلى أوربا ، و أحس نابليون بمتطلبات

عصره ، فأعلن احترامه للإسلام أمام عدد كبير من علماء الأزهر الشريف يبلغ ستين عالماً ، و نصح نائبه كليبر (Kleber) أن يسعى للحصول على تعاون الأوساط الدينيـــة للمسلمين فى شؤون الحكومـــة (١) .

و كانت هذه كلها ظاهرة سياسية سادت من أوكسفرد إلى الأزهر ، و قـد تغير أسلوب الغزو فى هذا العهد ، و أصبح هدف كل المحاولات السيطرة على عقول المسلمين ، و إحداث مركب النقص فيهم و تجميد قوتهم العقليـــة ببعث الشكوك و الشبهات فى أذهانهم ، لكى يعيشوا عالة على الغرب ولا يتمكنوا من تعيين جهتهم بحرية ، ويفقدوا صلاحية التمييز بين الحسن و القبيح ،

و ممـا يجدر بالذكر أن المستشرقين الذين ركزوا عنايتهم على تاريخ المسلمين فى الهند بعد عام ١٨٥٧م كان معظمهم يتصل بالجيش ، أمثال رورتى (Raverty) وبريجس (Briggs) و اسكوت (Scott) و داو (Dow) و ديوى (Davy) ، ثم إن هؤلاء الباحثين وضعوا خطة لتحقيق مآربهم السياسية لصياغة تاريخ المسلمين بلون يفكك تلك الوشائج و العلاقات القوية التى كانت سمة بارزة للحياة الاجتماعية المشتركة بين المسلمين والهندوس فى الهند منذ قرون . و قد ألف السيرهنرى ايليت ثمانية مجلدات كبار لتحقيق هذا الهدف ، و إن ايليت يستحق منـا الشكر على أنه ذكر أهدافه فى مذكرة أراد تقديمها إلى حكومة انجلترا ، و قد ألحقت هـــذه المذكرة بالكتاب ، و لم يخطر بباله أن هذه المذكرة ستعتبر أكبر وثيقة تاريخية لكشف الأهداف المضللة للاستشراق .

و كذلك كان معظم أنصار نابليون فى مصر من تلاميذ المستشرق الفرنسى الشهير سلوستردى ساسى ، و لما قام دى ليسبس (De Lesseps) بانشاء قناة السويس كان

---

(١) Thiry ' Bonaparte en EgyPpt . 434 .

کثیر من المستشرقین ینظرون إلی مشروعه بلهفة وشوق لتحقیق أمانیهم وأحلامهم وقد قام المستشرقون فی هذا العهد بدس السم فی عسل البحث والتحقیق بطریق لا یشعر اللسان بالمرارة و لا یدرکهـا و یسری السم إلی العروق و یؤثر علی القلب و الذهن .

المرحلة الرابعة :

حینما بدأ الاستعمار یلفظ نفسه الأخیر وبدأت الدول الاسلامیة ترفع لواء الاستقلال و التحریر نشأ تطور مدهش فی مناهج بحث المستشرقین وطریقة أعمالهم. لم یکن فی وسعهم أن یؤجلوا سیرتیار الحریة ، فی المستعمرات ، ولکن اغفاله کان یعنی القضاء علی السیطرة السیاسیة ، فأصبحت دراسة العلوم الاسلامیة تتطلب منهجا آخر جدیداً لتعزیز الوشائج المدنیة علی أسس جدیدة ، و إن کانت بریطانیا لم تترد فی تحریر مستعمراتها ، و لکنها أبت أن ترد إلیها ثروتها المدنیة التی لا تزال تزین مکتبات انجلترا ومتاحفها .

و دخل فی جهود مستشرقی هذا العهد التی بذلوها فی دراسة العلوم الاسلامیة عنصر رزانة واحترام ، ومما یدل علی ذلك أن الدکتور العلامة إقبال حینما لقی البروفیسور میسیونون فی عام ١٩٣٢م قال له : إن عصبیة و عداوة المورخین الغربیین ضد الاسلام راحت تقل علی مر الأیام ، وتتضح علیهم حقیقة الاسلام ، فاتفق میسیونیون مع الدکتور إقبال علی رأیه (١) .

و الحقیقة أن هذا التطور الذی وقع فی الفکر کان نتیجة لتغیر الهدف و کانت مصلحة إبقاء السیطرة السیاسیة علی البلاد الاسلامیة تقتضی بأن یظهر بالنسبة للاسلام إجلال و احترام بادیء ذی بدء ، لئلا تثور الحرکات السیاسیة للتحرر ، من نیر الاستعمار الغربی و الرق الفکری . و لکن فی الوقت نفسه بذلت جهود

(١) رزگار فقیر ١٣٥ .

مكثفة بصمت وهدوء لاثارة تلك الفتن التى تمزق وحدة البلاد الاسلامية ، وكان مستشرقو هذا العهد مستشارى وزارة الخارجية . لبلادهم ، يدبرون سياسة البلاد الغربية . وتستشيرمعهم وزارة الخارجية لاحكام السيطرة على المستعمرات وإحداث التغييرات فيها ، فكان أساتذة الكليات و الجامعات يؤدون وظيفة رجال الشرطة و الضباط العسكريين .

و لقد أعدت انجلترا التقرير الذى يدعى (Scarbrough Report) بعد الحرب العالمية الثانية ، و إن هذا التقرير يستحق أن يعتبر ميثاق الاستشراق الجديد ، (Charrterd Of Modern Orientalism) ويتضمن التقرير إشارات إلى ضرورة فهم الاتجاهات الجديدة فى الشرق وإلا تعرض أهداف بريطانيا التى ذكرت تحت عنوان السلام العالمى (World Peace) لأخطار جسيمة ولكن دوافع الاستعمار تتجلى فيه بلافتة الأفكار الجديدة ، و نظر جب (Gib) فى كتابه (Modern Trends in Islam) إلى الاسلام و المسلمين فى ضوء الأحداث الجديدة .

المرحلة الخامسة :

صادف جهود المستشرقين التى بذلوها لتحقيق المصالح السياسية انفجار آبار الذهب الأسود فى البلاد الاسلامية و هم لا يزالون يفكرون فى تدابير مواجهة الاتجاهات الجديدة ، و أصبحت البلاد العربية مركز الثقل للعالم كله ، و كان تحرر هذه البلاد اقتصاديا ضربة قاسية على مطامع الاستعمار و مخططاته ، و هذا التطور قد أقلق بال المستشرقين ، فظلوا يحاولون الاستفادة من هذه الثروة ، ولكنهم يهملون دراسة إسلام القرون الأولى وتتركز عنايتهم الآن على دراسة الحركات الدينية الحاضرة و النزعات الاجتماعية و الامكانيات الاقتصادية ، و اهتموا باستعراض و تحليل الأوضاع الداخلية و الخارجية للبلاد الاسلامية أكثر من

دراسة و تحليل الفكر الاسلامية ، و أصبحت عناصر القوميـة التى تشتت شمل الوحدة الاسلاميـة موضوع بحثهم . ويبدو أن الصهيونيـة تتـآمر مع أساليب لمستشرقين لمصلحتها .

و لعل الغرب لم يهتم بالاسلام فى أى عهـد من عهود التاريخ أكثر من اهتمامه به فى العصر الراهن ، و إن تطور الوضع قد أثار توترا شديداً فى عقلية المستشرقين الذين لايملكون السلاح لمقاومة الوضع الجديد والظروف تتغير بسرعة . و إن الأعمال التى يقوم بها المستشرقون الآن تساعد على دراسة نفسيتهم أنفسهم أكثر من دراسة الاسلام فانهم يتحاشون عن دراسة العناصر الدينية ملتجئين إلى مواضيع كدراسة الطبيعة و السياسة الاجتماعية و الزراعية .

انشئت جمعية دراسات الشرق الأوسط لأمريكا الشمالية و The Midle Easrt Studies Assocciaton Of North America) فى أمريكا عام ١٩٦٦م ، والجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط (British Society For Mid Easten Studies) عام ١٩٧٦م ، و إن أمثال هذه الجمعيات تلقى الضوء على ما حدث فى الأوضاع و الميول من تغير وتطور . وتدل مطبوعاتها ونشراتها على مدى ما يواجهه المستشرقون من بلبلة فكرية واضطراب ذهنى فأحيانا يدرسون نظام الرى فى وادى النيل (Waterbury) وأحيانا الاسلام والاستعمار ، ونظرية الجهاد فى العصر الحاضر ، ولكنهم يقصرون فى فهم اتجاه الفكر الاسلامى .

يبدو أن المستشرقين لم يتمكنوا من إدراك تيار الفكر الاسلامى المعاصر لكى يقفوا فى وجهه ، ولقد اعترف مؤلف كتاب جديد (Islam And The West) نورمل دانيل (Normal Danial) وهو يتحدث عن كتابات المستشرقين أن أوربا اللاطينية أشاعت كثيراً من الأفكار الخاطئة ضد الاسلام ، و لكن عصبية تمنعه من وصف هذه العملية بالخيانة العلمية .

هذه هى المراحل الخمس لحركة الاستشراق .

أهداف الاستشراق :

١- إن للتاريخ أهمية بالغة فى حياة الأمم والشعوب ، و لقد كان هم المستشرقين قطع صلة المسلمين من المنابع الدينية و الفكرية و المدنية لحياتهم الاجتماعية ، لكى يخضعوا للسلطان الفكرى الغربى ، و يؤمنوا بفضل الغرب فى كل مجال من مجالات الحياة ، قال العلامة شبلى النعمانى : « إننا لا نأسف على خضوع أحيائنا لسلطان أحياء أوربا فحسب ، بل نبكى على وقوع موتانا تحت سيطرة موتاها ، (١) .

و لكى لتحقيق هذا الغرض المشئوم بذلت الجهود لاثارة مركب النقص فى المسلمين علميا و ثقافيا ، لتجف منابع تفكيرهم ، و يفقدوا الاعتداد بالنفس ، و يؤمنوا بنبوغ العلماء الغربيين .

٢- فى العصر الذى شهدت فيه الدول الاسلامية حدوث الصراع بين العلم والدين و أحدثت الاكتشافات العلمية اضطرابات فى العقول والنفوس كان المستشرقون يحاولون إخضاع المسلمين لسطان العلم و أن تنقطع صلتهم بالدين و الشريعة ، و أن يعتبروا شريعتهم وقانونهم ونظام حياتهم باليا وعاطلا فنادى المستشرقون أنفسهم بادخال التغييرات فى الأحوال الشخصية للمسلمين .

حميت المعركة بين العلم و الدين فى أوربا و لم تستمر طويلا ، و لكنها استمرت فى الشرق مدة طويلة ، أذكى شعلتها المستشرقون لاثارة الشعور فى المسلمين بالنقص فى الاسلام وسقوطه فى هذه المعركة .

٣- دفع المسلمين إلى الاشتغال بالقضايا التى ليست لها علاقة بالحياة العملية ، و التى تسبب اضمحلال القوى الفكرية و العقلية .

٤- تصيد تلك الأحداث التاريخية من التاريخ الاسلامى التى تهدم أساس الوحدة الاسلامية الجامعة ، لتحقيق هذا الهدف أثار المستشرقون كثيراً من العداوات و الحزازات التى كانت قد امحت على مرور الزمان .

(١) مقالات شبلى ج ١٥ .

روائع الأدب و البيان
فى كتب التراجم و الطبقات
(الحلقة الثالثة الأخيرة)

عبد الله الحسنى الندوى

يقول الشيخ السبكى فى الطبقات ج ٢ ص ٣٤٨ رقم الترجمة ٢٢٢ وصفا الامام أبى الحسن الأشعرى .

شيخ طريقة أهل السنة والجماعة ، إمام المتكلمين ، وناصر نسبة سيد المرسلين ، والذاب عن الدين ، والساعى فى حفظ عقائد المسلمين سعياً يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين إمام حبر ، وتقى بر ، حمى جناب الشرع من الحديث المفترى قام فى نصرة ملة الاسلام فنصرها نصراً مؤزرا .

بهمة فى الثريا أثر أخمصها و عزلة ليس من عاداتها السام و ما برح يدلج و يسير ، و ينهض بساعد التشمير ، حتى نقى الصدور من الشبه ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وقى بأنوار اليقين من الوقوع فى ورطات ما التبس .

ثم يقول على صفحة ٣٥١ :

و اعلم انا لو رأدنا إستيعاب مناقب الشيخ اضاقت بنا الأوراق وكلت الأوراق و من أراد معرفة قدره ، وإن يمتلىء قلبه من حبه فعليه بكتابه « تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الامام أبى الحسن الأشعرى » الذى صنف الحافظ ابن عساكر و هو

من أجل الكتب و أعظمها فائدة و أحسنها .

ثم يكتب على ج ٥ ص ١٧٧ فى ذكر إمام الحرمين الجوينى إنه عند ما رجع من الحجاز بعد ما اقام فيها أربع سنوات يدرس ويفتى ، وبنيت له المدرسة النظامية واقعد للتدريس فيها .

بقى على ذلك قريباً ثلاثين سنة ، غير مزاحم و مدافع مسلم له المحراب و المنبر و الخطابة و التدريس و مجلس التذكير يوم الجمعة و المناظرة و هجرت له المجالس ، و انغمر غيره من الفقها بعلمه و تسلطه و كسدت الأسواق فى جنبه ، و نفق سوق المحققين من خواصه و تلامذته ، و ظهرت تصانيفه ، و حضر درسه الأكابر و الجم العظيم من الطلبة تخرج به جماعة من الأئمة و الفحول و أولاد الصدور حتى بلغوا محل التدريس فى زمانه .

و انتظم باقباله على العلم و مواظبته على التدريس و المناظرة و المباحثة أسباب و محافل و مجامع ، و امعان فى طلب العلم و سوق نافقه لأهله لم تعهد قبله .

كذلك إلى أن قلد زعامة الأصحاب و رياسة الطائفة و فوض إليه أمور الأوقاف و صارت حشمته وزر العلماء و الأئمة و القضاة و قوله فى الفتوى مرجع العظماء و الأكابر و الولاة ص ١٧٧) .

يقول الحافظ جلال الدين السيوطى (م ٩١١هـ) فى كتابه بغية الوعاة فى طبقات اللغويين و النحاة (ص ٧٤) .

يكتب عن محمد بن على بن أحمد الخولانى .

أستاذ الجماعة ، علم الصناعة ، و سيبويه العصر وآخر الطبقة من أهل هذا الفن ، كان فاضلا ، تقياً متعبداً عاكفاً على العلم ملازماً للتدريس ، إمام الأئمة من غير مدافع ، مبرز إمام أعلام البصريين من النحاة منتشر الذكر بعيد الصيت ،

عظیم الشهرة ، مستبحر الحفظ ینفجر بالعربیة تفجر البحر و یسترسل استرسال القطر قد خالطت لحمه ودمه لا یشكل علیه منها مشكل و لا یعوزه توجیه و لا تشذ عنه حجة ، جدد بالاندلس ما كان قد درس من العربیة من لدن وفاة أبی علی الشلوبین وكانت له مشاركة فی غیر العربیة من قراءة وفقه وعروض و تفسیر وتقدم خطیباً بالمسجد الجامع الأعظم و درس بالنصریة و قل فی الأندلس من لم یأخذ عنه من الطلبة و استعمل فی السفارة إلی القدوة مع مثله من الفقهاء فكانت له حیث حل الشهرة و علیه الازدحام درس و أقرأ و كان و قورا مفرط الطول نحیفاً سریع الخطوط قلیل الاعتراف والتعریج ، جامعاً بین الحرص والقناعة قرأ علی أبی اسحاق الغافقی و لازمه و انتفع به و بغیره ومات بغرناطة لیلة الاثنین ثانی عشر رجب سنة أربع و خمسین و سبعمأة و كانت جنازته حافلة .

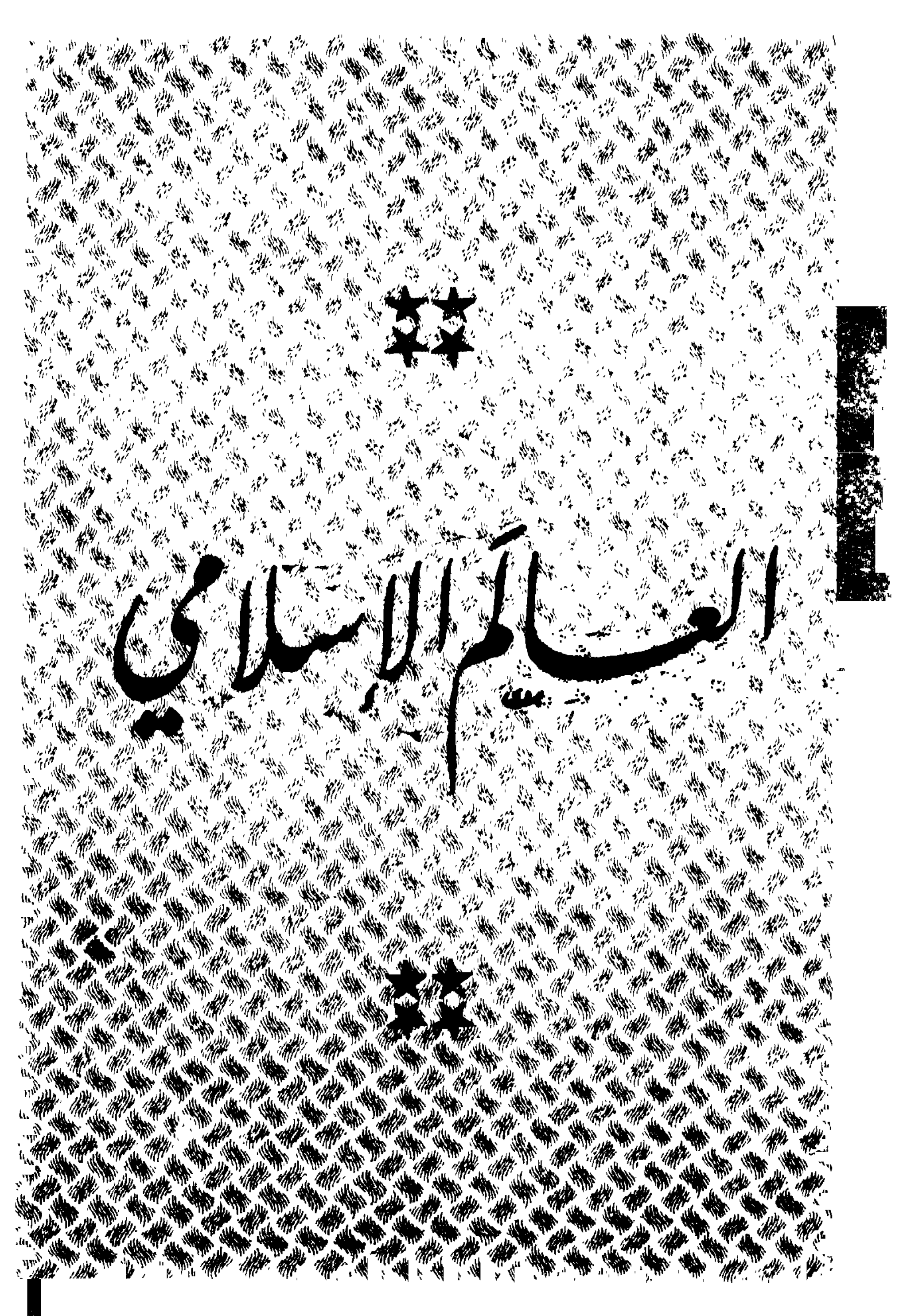
یكتب الشیخ عبد الحی الحسنی فی كتابه نزهة الخواطر ج ٥ ص ٤١ فی ترجمة الامام المجدد أحمد بن عبد الرحیم السرهندی و وصفه وصفاً دقیقاً وعرض مآثره الجلیلة فی أسلوب شیق رشیق وعبارة مؤثره ممتعة نذكر طرفا منها .

الامام العارف بحر الحقائق والاسرار والمعارف ومحی السنة النبویة ، وناصر الشریعة البیضاء السنیة مشید مبانی الطریقة مجدد معالم الحقیقة ، برهان العارفین والمحققین وحجة الأولیاء المتقین مفتخر الأعصر و الدهور ومعتمد الفارغین إلیه فی حل الأمور آیة من آیات الله العظام و نادرة من نوادر الأیام الذی أخذ بید العلم لما زلت به القدم و كاد أن یهوی فی مهاوی العدم حتی جاء مجدد الألف الثانی برهانا ساطعاً علی أشرفیة النوع الانسانی .

و یذكر فی ج ٨ ص ٢٣٥ فی ترجمة الشیخ عبد الحق الفرنكی محلی .

إنى حضرت بمجلسه غير مرة فألفيته صبح الوجه أسود العينين ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، ذكياً فطينا ، حاد الذهن ، عفيف النفس ، رقيق الجانب خطيباً مصقعاً ، متبحراً فى العلوم معقولا ومنقولا ، مطلعاً على دقائق الشرع و غوامضه تبحر فى العلوم و تحرى فى نقل الاحكام وحرر المسائل وانفرد فى الهند بعلم الفتوى ، فسارت بذكره الركبان بحيث أن علماء كل أقليم - يشيرون إلى جلالتـــه .

و له فى الأصول والفروع قوة كاملة ، وقدرة شاملة ، فضيلة تامة و احاطة عامة ، و فى حسن التعليم صناعة لا يقدر عليها غيره و كان إذا إجتمع بأهل العلم وجرت المباحثة فى فن من فنون العلم لا يتكلم قط بل ينظر إليهم ساكتاً فيرجعون إليه بعد ذلك ، فيتكلم بكلام يقبله الجميع ، يقتنع به كل سامع وكان هذا دأبه على مرور الأيام لا يعتريه الطيش و الخفة فى شيء كائناً ما كان ، و الحاصل إنه كان من عجائب الزمن و محاسن الهند ، وكان الثناء عليه كلمة اجتماع و الاعتراف بفضله ليس فيه نزاع .


العالم الإسلامي

بيـــــــــــان من

سماحـــة الشيخ السيـــد أبي الحسن على الحسنى النـــدوى

بمنــــــاسبـــــة مأساة بيروت

الحمد لله وحده ، و السلاة و السلام على من لا نبي بعده .

و بعد ! فإن إجراءات إسرائيل الوحشية الضارية فى بيروت ، و طرد اللاجئين الفلسطينيين و المناضلين للحرية و الإستقلال ، بالفرض و الإكراه . ثم المجزرة البشعة الرهيبة للبقيـــة الباقيـة من اللاجئين الفلسطينيين التى تمت على أيدى الكتـائبيين ، حادثة لم يقع لها مثيل فى العـالم المتحضر المعاصر ، و لا يوجد لها نظير فى العصور الماضية القريبة .

لقد تجلى من ذلك كالصبح لكل ذى عينين أنه لا يزال فى الجيل « الانسانى الحاضر » و فى الناس المتمدنين المثقفين الذين يدعون الحضارة ، تلك الوحشيـــة الظامئة للدماء و الضراوة الوالغة فى دماء الأبرياء ، التى كانت إحدى خصـائص الجاهلية العمياء قبل آلاف من السنين ، و لا يزال منهـا بقايا فى بعض القبـائل الموغلة فى الصحارى التى تعودت افتراس الادميين و أكل لحومهم ، و التى اعتقد الناس عنهـا أن العلم و الحضـارة و تبادل المعـارف و التعـارف بين الشعوب والشعور بالحـــاجة إلى الوحدة و التـــآلف ، قـد قضى عليهـا بتـاتـاً ، و استأصل شافتها للابد .

كما أثبتت المجزرة الفظيعة الهائلة للاجئين الفلسطينيين التى ارتكبتها الأيدى الآثمة لحزب الكتائب (الذى كان رئيسه بشير الجميل رئيس لبنان المقتول) أن الكراهة و العصبية الدينية لا تزال فى العالم المسيحى بصفة خاصة ، أو فى هذه المنطقة بالذات على أقل تقدير ، حية مشتعلة متأججة كما كانت تتلظى فى صدور المهاجمين الأوربيين الصليبيين الذين قادوا الجيوش إلى فلسطين فى قيادة الملك رتشارد

و غیره من رؤساء الدول الأوربية ، و سفحوا دماء المسلمين حتى جرت على الأرض كالأنهار و غاصت فيها الخيول الصليبية إلى ركبها ، على حسب تصريح الكاتب المسيحی فی الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia of Britanica) .

كما تجلت أيضاً حقيقة أخرى كالشمس فی رابعة النهـار ، و هی أن الضمير الانسانی ، و الشعور الخلق ، و تنديد الشعوب المحبة للعدالة و السلام ، و شجبها و استنكارها ، بل و استنكار الحكومات و احتجاجات منظمة عالمية كبيرة كهيئـة الأمم المتحدة و قراراتهـا ، لا قيمة لها و لا تأثير إزاء قوة أثيمة مصممة تمضی لتحقيق أغراضها الدنسة و نواياها الخبيثة ، و لا تقف فی وجههـا إلا قوة منظمة مسلحة تعتمد على إرادتها الصارمة و عزيمتها الأكيدة ، و أنه لا تزال تتحكم فی هذا العالم المتمدن شريعة الغابات و قانون العصابات ، و القاعدة المنحرفة الشاذة التی تقول « Might is Right » (إن القوة هی الحق) ، و سفيه و عدو نفسه من يعقد الآمال فی مستقبل الأيام ، بهذا الضمير العالمی ، أو بهيئة الأمم المتحدة ، أو بالحلفاء و الموالين ، و باستنكار الناس المحبين للعدالة و السلام و احتجاجاتهم و مظاهراتهم ، فإن ذلك لا يعدو تسلية الأطفال و خداع النفس ، و لا يقل عن « الانتحار » ، و لم يتبد للناس عياناً و جهاراً ضعف هذه الوسائل و قلة غنائها من زمن بعيـــد كما تبدى ذلك واضحاً جلياً فی هذه المأساة المفزعة التی استفزت الوجدان و تندى لهـا جبين الانسان .

و مما ظهر أيضاً كحقيقة بديهية أن اتخاذ أی إجراء أو أی عملية اعتماداً على إحدى القوتين الكبيرتين فی العـالم (روسيا و أمريكا) أو الرجاء منهما فكر صبيانی و غرور ، بلی به العالم الاسلامی أخيراً ، و لم يبق الآن أی مبرر له ، فلا حركت روسيا إصبعاً لمساعدة تلك الدول التی انضمت إلى كتلتهـا و تستورد

منهـا الأسلحة كسورية ، ولا أعانت أمريكا تلك الأقطار التى كانت تحت « مظلتهـا الحامية » ، و التى ظنت أنهـا تحرس مصالحها و تضمن لها بالوجود و البقاء ٠

أما أمريكا فمما لا شك فيه أن إسرائيل كانت و لا تزال كلبها المعلم للصيد لا أكثر و لا أقل، يعدو بإذن مربيه و إشارة منه ، بل يصول بأمر منه على الفريسة ، و يرميها مقتولة مصطادة على قدميه ٠

لقد أثبتت البيانات و المعلومات المؤخرة أن كل ما وقع لم يكن مفـاجأة لأمريكا ، كما ثبت بكل صراحة أن ضمير هذا البلد الكبير ، المتمدن الراقى ، الذى يتألم لألم الحيوانات ، و لا يسمح بالاعتداء عليها لا يحرك ساكنهـا ما اجترمه الإسرائيليون و المارونيون مع المسلمين و العرب من همجية ضارية و وحشيـــة مفظعـــة ، و لم تحدث على أرضهـا احتجـاجات و مظـاهرات حتى كالتى وقعت فى إسرائيل نفسهـا ٠

و ثبت أن أمريكا لا تقصد إلا إلى تحويل لبنان قاعدة أمريكية ، و تستهدف إقامة دولة مسيحية فى منطقة الشرق الأوسط و العالم العربى تكون عمليـة رخيصة لها ، لا تختلف أغراضها عن الأغراض الاستعمارية التى أقامت الدولة البريطانية لأجلهـا حكومة إسرائيل فى قلب العالم العربى ، و كانت قد نجحت فى تحقيق هذه الخطـــة لقصر نظر الحكومات العربية وقتئذ ، و ضعف الحمية الدينية و القوميـــة فيهـا ، فلم تقم بالمقاومة الجادة الصارمة ، بل مثلت مسرحية الحرب لخداع جماهيرها ، التى لم يكن فيها دور جيوشها إلا ما أملى به عليها السادة الأوربيون ، أو ما دعت إليـه الضرورة و الملابسات المحلية ، وكان شأنها فى حرب فلسطين كما قال الشاعر العربى :

أوردها سعد و سعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

لقد علم كاتب هذه السطور كل هذه الحقائق المؤلمة فى رحلته إلى القدس و الأردن عام ١٩٥١م عن طريق الرواة الثقات و شاهدى العيان الذين حكوا حكايات هذه

المهزلة و هم يبكون ، و قد صرح بهـا فى مذكراته عن هذه الرحلة التى نشرت باسم : « مذكرات سائح فى الشرق العربى » .

و إنه يجب مع معرفة هذه الحقائق التى تتصل بالقوى الخارجية و المنظمات العسكرية المهاجمة و الجهات التى ساعدتهـا و أيدتها ، الاطلاع على حقيقة أخرى ، و كشفها و الاعتراف بهـا ، و هى أن مسؤلية هذه المـأساة الدامية والحـادثة المرجفة التى أذلت رقاب المسلمين فى العالم كله ، و ذاقوا مرارتهـا و شاطروا فى حزنهـا و عارها فى كل بقعة من بقاع الأرض ، و ما شوهد بمناسبة هذه المأساة من تبلد شعور العالم الاسلامى ، و عدم إثارتهـا لضمير العـالم العربى و شعوره إثارة تبدو آثارها . و ردود فعلهـا فى شكل جلى واضح ، تقع هذه المسؤليـة أولا و قبل كل شئ على الدول العربية المواجهة ، و الحقيقة أن الشعوب و الجماهير المسلمة و العربية (كما علمنا ذلك عن طريق مصادر عليمة ذات اختصاص) تعانى كبتاً نفسياً و قلقاً داخلياً يغلى مرجله ، و لكنها مضغوطة مغلوبة على أمرها ، نتيجة بعض الحوادث الماضيـة و بإشارة من القوى الكبرى ، فلا تستطيع أن تمثل دورها فى هذه المعركة ، و تقوم بواجبها و تنفس عن نفسها .

و لا تزال فى منطقة الشرق الأوسط دول مسلمـة و عربيـة قوية كانت تستطيع أن تقاوم إسرائيل و تحبسها فى قمقمها ، و لكن جميع طاقات هذه الحكومات العربية المسلمة و كفاءاتها و عبقرياتها استهلكت من زمان فى قمع العواطف الدينية و الحميـة الاسلاميـة التى بدأت تجيش بهـا صدور الشباب المسلم ، و بدأوا يطالبون باقامـة مجتمع إسلامى سليم كريم و قوى ، فى بلد إسلامى خالص ، و لكن هذه الطاقات إنما شغلت بعملية التخلص من تلك العناصر السليمة القوية التى كانت — لو سمح لها بابداء مواهبها و قوتها الايمانية — أعظم قوة تمثل دوراً رائعاً فى معركة الحق و الباطل و العدل و الظلم ، فساحة العرب الحقيقية و المعركة الحامية

قائمة على قدم و ساق بين هذه الحكومات و شعوبها ، فأنى تجد هذه الحكومات فرصة للنظر فى خطر خارجى مشترك داهم .

هذا و فى جانب آخر ضعفت الدعوة إلى إشعال الجمرة الايمانية فى القلوب و تربية النفوس على بذل النفس و النفيس فى سبيل الله و الاستهانة بالحياة ، و الحنين إلى الشهادة ، و قد ظهرت بعض نماذجها فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م على أيدى المتطوعين من المسلمين العرب المجاهدين .

ثم إن هذه الحكومات ابتليت أخيراً بالفلسفات المستوردة و الأنانيات القيادية فسادت عليها الخلافات و الانقسامات التى لا تقضى عليها إلا الوحدة الاسلامية و العاطفة الايمانية أو الشعور القوى بالخطر المشترك من العدو المتربص ، و لكن هذه القوى الايمانية — للأسف الشديد — استهدفت للمقاومة أو الاستهانة على الأقل فى الحكومات العربية و البلدان التى رفعت رايات « القومية » و « الاشتراكية و « البعث العربى » ، و من الحقائق المؤلمة أيضاً أن البلدان التى لم تغزها هذه الفلسفات المستوردة ، نخرها الترف و البذخ ، و التنعم فى الحياة ، فعل السوس و الدود فى الخشب ، و لم يدع فيها عرقاً ينبض للمغامرة و ركوب الصعاب و الاستماتة ، و بلغ بهم هذا الاسترخاء و الجمود إلى أنهم لم تحدثهم نفوسهم لمقاطعة الشركات و البضائع الأمريكية ، و يعلنوا شجبهم و استنكارهم و كراهتهم لدور أمريكا و ضلعها فى المأساة الرهيبة .

و مع كل ما تقدم فان هناك حقيقة مرة أخرى ، و هى أن العالم الاسلامى فقد تلك القوة التى أشار إليها القرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة إلى حد مقلق خطير :

« و لا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون و ترجون من الله ما لا يرجون » (النساء : ١٠٤) .

تلك القوة الإيمانية و العاطفة الدينية التى تجلت أروع مظاهرها فى رجال القرن الأول ، و أبطال العهود التاريخية الإسلامية ، و فى حركة الامام أحمد بن عرفان الشهيد ، و الشيخ محمد اسماعيل الشهيد الإصلاحية الجهادية ، و أصحابهما و رجال حركتهما الجهادية العظيمة فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى (القرن التاسع عشر المسيحى) . و قد حكينا بعض حكايات هذه البطولات الرائعة و القوة الإيمانية الدافعة فى كتابنا « إذا هبت ريح الإيمان » .

و لم يظهر للأسف الشديد بعد حركة الامام أحمد بن عرفان الشهيد فى ما يقرب من قرن و نصف قرن دعوة قوية أو حركة مؤثرة — باستثناء حركة الاخوان المسلمين فى مصر إلى حد ما — تنفخ فى الأمة الإسلامية روح الإيمان و التضحية و الفداء ، و قد كان نتيجة ذلك ما نراه من تخاذل المسلمين و ذلهم و مسكنتهم ، و فقدهم الشعور و الحمية ، و هو الذى جرأ الإسرائيليين و المارونيين على هذا التطاول الوقح و الاعتداء السافر ، و تخطى حدود الإنسانية .

لقد كان كاتب هذه السطور أبدى قبل ٩ سنوات — بعد إقامته لعدة أيام فى بيروت عام ١٩٧٣م - بعض انطباعاته و مشاعره و كشف عن بعض الأخطار فى مذكراته لرحلته المشهورة باسم « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » ، و قد تحققت هذه الأخطار و أصبحت واقعاً ملموساً .

لقد شعر كاتب هذه السطور فى ذلك الوقت أن المجاهدين و اللاجئين الفلسطينيين الذين يقيمون فى بيروت ليسوا إلا نزلاء غير مرغوب فيهم ، و أن سكان بيروت المسيحيين و حكومة لبنان لم تقبلهم عن رضا و طيب نفس ، و قد حدثت اشتباكات عديدة بين الفلسطينيين و الجيش اللبنانى ، و أنقل هنا ما قلته فى مذكراتى عن بيروت :

« و قد مررنا بمناطق البلد المختلفة المتناقضة أحیانا فی المستوی الدینی ، و الاقتصادی ، و الاجتماعی ، و مررنا فی طریقنا إلی البحر ، و إلی الامام الأوزاعی ، بالمناطق التی کانت مرکزاً للفدائیین و وقعت فیها المعرکة الحامیة بین الجیش اللبنانی و الفدائیین و کیف اشتغلت العواطف الدینیة المختلفة و الأغراض السیاسیة فی هذه المعرکة ، و ما کان لها من أثر فی حیاة البلد و فی علاقات العناصر المختلفة ، بعضها ببعض ، و رأینا ما ترکته الرصاصات و القنابل من آثار فی البنایات ، و فی قلوب سکان هذا البلد ، و ما تکتنفه قضیة اللاجئین ، و مسألة فلسطین من تعقد و غموض ، و تناقض و تردد ، لا یوجد نظیره فی قضایا العالم الاسلامی الأخری .

و مررنا بالمنطقة التی یسکنها اللاجئون الفلسطینیون وما تتسم به هذه المنطقة ، من تخلف و فقر ، و عدم نظافة ، و عدم ثقة بالمستقبل ، و تذمر من الأوضاع القائمة ، و کله نذیر خطر لیس فی هذا البلد فحسب ، بل فی العالم العربی کله ، و هو وضع غیر صالح للبقاء و الاستمرار ، مهما طالت مدته ، و أرخی الستار علیه ، هذا و البلد یرفل فی حلل من رغد العیش و فائض من الأموال و الخیرات ، و یتقلب فی أعطاف الحیاة الرخیة و العیش الهنیء » (من نهر کابل إلی نهر الیرموک ، ص / ۱۲۱ الطبعة الثانیة) .

و أدعو الله تعالی — أخیراً — أن یجعل هذه المأساة الهائلة التی هزت العالم الاسلامی هزاً ، سبباً للیقظة الجدیدة و الاستعداد الجدید و توحید القیادات و إخلاصها للاسلام فی العالم الاسلامی و فی العالم العربی بصفة خاصة و للنهضة الاسلامیة الجدیدة فی المسلمین أجمعین . فانه لا یتدارک ما فات المسلمین بأقل من ذلك ، و الله المستعان ، و علیه فلیتوکل المتوکلون .

أبوالحسن علی الحسنی الندوی

قصة لبنان . . . .قصة عار

الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
رئيس كلية اللغة العربية بدار العلوم ندوة العلماء لكناؤ

نجحت إسرائيل فى تحقيق آمالها من تحطيم الطاقـــة الفلسطينية العسكرية . أو تشتيتها على الأقل ، وأصبحت فى مأمن من وقوع الهجمات عليها من جبهة المقاومة الفلسطينية المتمركزة فى جنوبى لبنان ، وخرقت فى ذلك الميثاق العالمى وكرامة الدول المجاورة فقد هتكت كرامة لبنان بغزوها لأراضيها و العبث فيها بأرواح سكانها .

و بقيت الدول العربية المحيطة باسرائيل ساكتة مراقبة ، لأنها وجدت أنفسها فى غير خطر ، و لم ترد أن تقف أمام إسرائيل كخصم رئيسى فى هـــذه القضية ، ولكنها لم تر أن إسرائيل تسير خطوة و خطوة ، فهى حينما حققت هدفها من توسعة سلطانها فى المنطقة إلى هذه المرحلة ، فسوف تكون لها مرحلة جديدة و تستهدف دولة عربية جديدة ، و ظهر من الوضع السائد فى العـالم العربى أن الدول سوف تبق ساكنة فى المرحلة الآتية كذلك ، و تترك الدولة الضحية بدون التعاون معهـا و استنقاذها من التهافت و الانهيار ، و بذلك قد تتكسر عيدان الدول العربية عوداً عوداً على أيدى إسرائيل ، و هى سائرة فى طريقها لتحقيق منشودهـا من الفرات إلى النيل ، و حينئذ لن يجدى البكاء ولا العويل الذى تحسنه القيادات العربيـــة فى قضية فلسطين منذ بداية القضية .

ما هى إسرائيل و من هم العرب ؟ إنها طاقة مليونين ونصف مليون إسرائيلى فى وجه طاقات اثنى عشر مليون عربى ، ثم تنجح و تحقق الانتصار ! !

« و قد مررنا بمناطق البلد المختلفة المتناقضة أحيانا فى المستوى الدينى ، و الاقتصادى ، و الاجتماعى ، و مررنا فى طريقنا إلى البحر ، و إلى الامام الأوزاعى ، بالمناطق التى كانت مركزاً للفدائيين و وقعت فيها المعركة الحامية بين الجيش اللبنانى و الفدائيين و كيف اشتغلت العواطف الدينية المختلفة و الأغراض السياسية فى هذه المعركة ، و ما كان لها من أثر فى حياة البلد و فى علاقات العناصر المختلفة ، بعضها ببعض ، و رأينا ما تركته الرصاصات و القنابل من آثار فى البنايات ، و فى قلوب سكان هذا البلد ، و ما تكتنفه قضية اللاجئين ، و مسألة فلسطين من تعقد و غموض ، و تناقض و تردد ، لا يوجد نظيره فى قضايا العالم الاسلامى الأخرى .

و مررنا بالمنطقة التى يسكنها اللاجئون الفلسطينيون وما تتسم به هذه المنطقة ، من تخلف و فقر ، و عدم نظافة ، و عدم ثقة بالمستقبل ، و تذمر من الأوضاع القائمة ، و كله نذير خطر ليس فى هذا البلد فحسب ، بل فى العالم العربى كله ، و هو وضع غير صالح للبقاء و الاستمرار ، مهما طالت مدته ، و أرخى الستار عليه ، هذا و البلد يرفل فى حلل من رغد العيش و فائض من الأموال و الخيرات ، و يتقلب فى أعطاف الحياة الرخية و العيش الهنيء » (من نهر كابل إلى نهر اليرموك ، ص / ١٢١ الطبعة الثانية) .

و أدعو الله تعالى — أخيراً — أن يجعل هذه المأساة الهائلة التى هزت العالم الاسلامى هزاً ، سبباً لليقظة الجديدة و الاستعداد الجديد و توحيد القيادات و إخلاصها للاسلام فى العالم الاسلامى و فى العالم العربى بصفة خاصة و للنهضة الاسلامية الجديدة فى المسلمين أجمعين . فانه لا يتدارك ما فات المسلمين بأقل من ذلك ، و الله المستعان ، و عليه فليتوكل المتوكلون .

أبوالحسن على الحسنى الندوى

قصة لبنان . . . .قصة عار

الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
رئيس كلية اللغة العربية بدار العلوم ندوة العلماء لكناؤ

نجحت إسرائيل فى تحقيق آمالها من تحطيم الطاقة الفلسطينية العسكرية . أو تشتيتها على الأقل ، وأصبحت فى مأمن من وقوع الهجمات عليها من جبهة المقاومة الفلسطينية المتمركزة فى جنوبى لبنان ، وخرقت فى ذلك الميثاق العالمى وكرامة الدول المجاورة فقد هتكت كرامة لبنان بغزوها لأراضيها و العبث فيها بأرواح سكانها .

و بقيت الدول العربية المحيطة باسرائيل ساكتة مراقبة ، لأنها وجدت أنفسها فى غير خطر ، و لم ترد أن تقف أمام إسرائيل كخصم رئيسى فى هذه القضية ، ولكنها لم تر أن إسرائيل تسير خطوة و خطوة ، فهى حينما حققت هدفها من توسعة سلطانها فى المنطقة إلى هده المرحلة ، فسوف تكون لها مرحلة جديدة و تستهدف دولة عربية جديدة ، و ظهر من الوضع السائد فى العالم العربى أن الدول سوف تبقى ساكنة فى المرحلة الآتية كذلك ، و تترك الدولة الضحية بدون التعاون معها و استنقاذها من التهافت و الانهيار ، و بذلك قد تتكسر عيدان الدول العربية عوداً عوداً على أيدى إسرائيل . و هى سائرة فى طريقها لتحقيق منشودها من الفرات إلى النيل ، و حينئذ لن يجدى البكاء ولا العويل الذى تحسنه القيادات العربية فى قضية فلسطين منذ بداية القضية .

ما هى إسرائيل و من هم العرب ؟ إنها طاقة مليونين ونصف مليون إسرائيلى فى وجه طاقات اثنى عشر مليون عربى ، ثم تنجح و تحقق الانتصار ! !

يقولون : إن وراء إسرائيل أميركا ، أما وراء العرب فأميركا و روسيا معاً ، حيث إن نصف الدول العربيـــة هى فى الفلك الأمريكى ، أما نصفها الباقى فهى فى الفلك الروسى ، وهو الفلك الذى يشعر اشتراكيو العرب بأنه الملجأ القوى والركن الشديد ، عند عدوان طاقة من طاقات الفلك الأمريكى و لكن هذا السلطان الشديد فى المعركة الجديدة ظل مكتفياً بالكلام متمشياً على سيرة العرب الحالية ، و سارت أميركا على طريقتها ، و هى الميل إلى إسرائيل و حمايتهـــا ، فمنطق الاعتذار بأميركا منطق لا أمل فيه ، إنما هو منطق لمن لا يريد الحق و الكرامة ، لأنهما يطلبان العزيمة و التضحيـــة .

فلو عرفت إسرائيل أنها حينما تهاجم المقاومـــة الفلسطينية فى لبنان فانها تثير غضبة الدول العربية جمعاء ، أو حميتها الصادقة على الأقل ، لم تجترىء على هذه العملية المهينـــة المكشوفة ، و لكنها عرفت أن الدول العربية لن تتحرك إلا بألسنتها و بمحادثاتها ، و هى لا تجدى نفعاً و لا تردع عدواً . و بخاصـــة إذا كان العدو مثل إسرائيل التى لا تلزم بعهود و لا وعود و لا مواثيق ، و هى لا تحذر من أميركا و لا روسيا ، لأنها مدللة لدى الأولى ، و تحابيها الأخرى ، و تعرف ذلك حكومات العرب .

فلماذا سكتت الدول العربية على الحادث الأخير ، حتى تمت الهزيمة والهوان؟ لعلها ظنت أن شر إسرائيل قاصر بمنظمة عسكرية معينة لا بالدول المجاورة ، فاذاً لا يصل إليها فلماذا تتدخل هذه الدول فى هذه القضية؟ و لكن الدول العربيـــة تناست أن هذا الشر مع عدم وصوله إليها بصورة مباشرة إنما يصل إليها بصورة غير مباشرة . لأن هزيمة المقاومة الفلسطينيـــة و انسحابها عن المعركة تحمل معانى عديدة ، منها : أن طاقة من طاقات العرب فى القضية الفلسطينية قد تحطمت وزالت ،

و منها : أن إسرائيل عرفت عدم وجود حمية فى العرب ، لا إسلامية ولا جاهلية ، و عدم نصرة بعضهم لبعض فى المحن و الأحـــداث ، و منها : أن الصف الامامى لدفاع العرب قد زال الآن ، و قد كان هذا الصف هو المدافع الأول للعرب أمام هجمات إسرائيل ، ويصبح الباب بعده مفتوحاً أمام إسرائيل لضرب العرب دولة بعد دولة — لا قدر الله ذلك — .

لقد ذابت عن حكام العرب قيمهم العربيـــة ، فلم يبق لديهم شئ ذو بال ، لا إسلامية منها و لا غير إسلامية ، فليست لديهم قيم للصداقة و لا قيم للعداوة ، فهى تصادق الأعـــداء و تعادى الأصدقاء ، و مهما طعنا فى اليهود و الكـفـــار و لكنهم أثبتوا التزامهم بقيم ، فإن اليهود ينشدون أرضاً موعوداً فى نظرهم ، فيبذلون لهـــا كل رخيص و غال ، و يسعون فى القيام بالمستحيل ، و المسيحيون يحملون ضغينة الحروب الصليبية فى قلوبهم ، فيصدرون عن هذه الضغينة فى عملياتهم السياسية ، و إلا فما معنى نصرتهم لليهود ، و هم الذين قتلوا فى نظرهم رسولهم بل إلههـــم ؟ . . . إنها عداوة للمسلمين ، و لكن المسلمين العرب هم أصدقاء المسيحيين فى كل حال ، يتبخترون فى زيهم ، و يعتزون بأتباعهم ، و يثقون بولائهم ، مع أنهم قاموا أخيراً بتضامن منهم مع اليهود بقتل المسلمين قتلا جماعياً فى بيروت تحت لواء قوتهم الكتائبية المسيحية النازية ، فقصة لبنان ، قصة دامية محزنة عجيبة ، إنهـا وصمـــة عار فى جبين المسلمين العرب بل إنها مظهر ذلة ، و خسارة و رزيـئـــة للمسلمين العرب خاصة و المسلمين فى العالم عامة .

سفراء الدول الاسلامية . . ما يهمهم و ما لا يهمهم . .

واضح رشيد الندوى

ما هو موقف السفراء المسلمين وأعضاء السلك الدبلوماسى للبلدان الاسلامية، إزاء القضايا الوطنية و القومية و تجاوبهم لشعور العطف، و التأييد فى البلدان التى يمثلون فيها بلادهم و مدى استعدادهم لمواجهة الدعاية المضادة التى تقوم بها إسرائيل وحدها ، و الصحف و الوكالات الصليبية الحاقدة ؟

يرد على هذا السؤال المهم تقرير نشرته صحيفة « Impact » الاسلامية الصادرة فى لندن (١٠ــ٢٣/ سبتمبر ١٩٨٢م ، ويتضمن التقرير تجارب مريرة مع السفراء العرب و المسلمين ، فى بريطانيا ، و هو يعكس مدى اهتمام السفراء بقضايا بلادهم .

« إن الرعايا المسلمين فى بريطانيا لا يهمهم ما يفعله السفراء المسلمون فى بريطانيا ، و لا يعرفون ذلك ، إلا إذا حدثت أزمة فى أحد البلدان الاسلاميه ، فيتوجهون إلى سفارة ذلك البلد لابداء شعور عطفهم ، وتضامنهم، وعندئذ يواجهون موقفاً عجيباً ، كما حدث فى نكســة يونيو ١٩٦٧م ، واحرق المسجد الأقصى » فى ١٩٦٨م وغزو الاتحاد السوفيتى لأفغانستان ١٩٧٨م وأخيراً طردواذلال الفلسطينيين فى بيروت .

لا يسع المسلمين فى مثل هذه المناسبات إلا الاستنكار ، و تاكيد تضامنهم مع إخوانهم ، و التظاهر لابداء شعورهم ، و تقديم معونات و تبرعات ماليــة ، و ارسال فرق اسعاف ، و من أجل ذلك يحرصون على الاجتماع بسفراء البلدان الاسلامية لمعرفة ما يمكنهم من المساهمة فى الجهود لمواجهة الوضع .

علی اعقاب الغزو الاسرائیلی للبنان، حاولت لجنة التضامن الاسلامی وهی تمثل المنظمات الاسلامیة المختلفة فی بریطانیا، أن تقیم اتصالا بثمانیه و عشرین سفیراً من سفراء الدول الاسلامیة، فی لندن، و طلبت بتحدید موعد للقاء، فکان التجاوب غریباً، و مؤشراً إلی موقف هؤلآء السفراء و اهتمامهم بقضایا بلادهم، لم یبد إلا ١٢ سفیراً استعدادهم للاجتماع، و لم یتحقق هذا اللقاء الموعود إلا بثمانیه سفراء، و لم یعتذر منهم إلا بضعة سفراء.

و کان من السفراء الذین أبدوا اهتماماً سفیر باکستان و سفیر نیجیریا، فقد قابلا الوفد الاسلامی بحماس و بشر، و بمجاملة دبلوماسیة لائقة.

و استمر اللقاء بالسفیر الباکستانی السید علی أرشد ساعتین و شرح السفیر ما قامت به بلاده تجاه هذه القضیة، بموجب الرابطة الأخویة.

و کانت سوریا أکثر البلدان الاسلامیة امتناعاً عن اللقاء، و تعنتا، و إن کانت سوریا فی هذه القضیة الوسیلة الوحیدة لمساعدة المنکوبین فی لبنان، و هی المدخل الوحید.

وکان موقف جامعة الدول العربیه مدهشاً، فقد وعدت بتحدید موعد عاجل و لکن بعد أسبوع کامل کتب أحد موظفی السفارة إلی اللجنة، إن صاحب السعادة لا یستطیع استقبال الوفد، لارتباطات طارئة، و نصح صاحب الرسالة بأن یقابل الوفد السید سالم عزام السکرتیر العام للمجلس الاسلامی الأوربی.

و لیست هذه التجربة جدیدة، فقد حدثت نفس التجربة فی عام ١٩٦٧، فقد استقبل السفیر الباکستانی فی ذلك الوقت السید سلمان علی وفداً إسلامیاً، و کشف أن الرئیس أیوب خان، أرسل برقیة إلی الرئیس جمال عبد الناصر یعرض فیها ارسال قوات باکستانیة بالطائرات و لکن الرئیس الباکستانی لم یتلق أی رد من جمال عبد الناصر.

و من السفراء الآخرين الذين أبدوا بعض الاهتمام و احترموا مشاعر المسلمين ، كان سفير تركيا ، وأفغانستان فى ١٩٦٧م وقد بعث هذا التجاوب الحار من سفراء الدول غير العربية على دهشة و استغراب ، لأعضاء الوفد من الاخوان العرب ، نظراً لموقف سفراء الدول العربية أنفسهم .

مجزرة لبنان أخطر من فضيحة ووترجيت

فى عام ١٩٧٤ كان الرئيس الأمريكى نكسون على ذروة مجده بذكائه وحنكته السياسية و دوره فى تخفيف التوتر العالمى و تغيير خريطة العالم و توازن القوى ، وحل القضايا المعقدة كمشكلة الصين الشيوعية ، باعترافها و السماح لها بعضوية الأمم المتحدة ، و المحادثات السياسية الماكرة مع الاتحاد السوفيتى ، و ابرام عدة اتفاقيات دولية إثر الزيارات العالمية الخطيرة التى قام بها ، و تغيير الولاءات و كسب المودة لصالح أمريكا ، و استبعاد امكانيات المجابهة و نشوب الحرب العالمية .

و قد أصيب نكسون فى خضم هذا التموج السياسى بفضيحة ووترجيت التى اضطرته إلى التنازل عن منصبه الكبير ، وهو على ذروة مجده السياسى يلعب بمصير الأمم و الشعوب ، و يدبر تغيير خريطة العالم السياسية فسقط من القمة باكتشاف هذه العلمية الجاسوسية فى ووترجيت ، و شجبته بلاده و أدانته ، فاستقال احتراماً لمشاعر قومه بيد مرتعشة ، و نقلت الصحف أنه عندما استقال أجهش بالبكاء ، و لكنه قبل المسؤلية ، و لم يتشبث بمنصبه ، و العالم يشجبه .

كان الرئيس نكسون أكثر حياءاً واحتراماً للشعور القومى ، وخضوعاً لنواميس الأخلاق ، والقيم الانسانية رغم طبيعته الاستعمارية ، وصلته بالصهيونية ، من الرئيس الأمريكى الحالى الممثل ريجان ، الذى أثبت أنه فى الواقع رجل من خشب لا ينفعل ،

و لا يستجيب للشعور الانسانی ، بل سواء عليه أيشتمه العالم أم يمدحه .

أدان العالم كله أمريكا فی سائر المنابر الدولية ، وخذلها حلفاؤها و أصدقاؤها ، كبريطانيا ، و فرنسا ، و الدول الحليفة الأخرى ، و استنكر حتى الصهاينـة فی فی إسرائيل ، المذبحة فی لبنان ، و طالبوا باستقالة بيجين وشارون ، و حدث وضع شبه تمرد فی الجيش الاسرائيلی ، و لكن ريجان ، يقف وحده ، كالمشنوق ، ليعرف العالم كيف يكون الانسان إذا فقد الضمير ، و إذا ذهب عنه الحياء .

إن ما يفعله ريجان يشكل تصرفاً لا نظير له ، إلا فی عالم الحب و الغرام ، حيث يتصرف الانسان تبعاً لهواه ، تخذله عشيرته ،و يخلعـه مجتمعه ، فلا يبالی ، أو موقف رجل لا يعقل ، و لا يستحی .

إنه موقف غريب ، و أغرب منه موقف من يطبل لهذا الموقف و يلتمس العذر ، فان الرئيس الأمريكی ممثل ، والممثل يتخلی قبل أی شئی ، عن الحياء ، أو هو مرتبط بغرام بيجين ، فيضحی فی سبيله كل شئی و حتی شرف نفسـه و بلاده ، فلا يخجل إذ يهدد أنه سيترك كل منظمة و جمعية ، تخرج منها إسرائيل ، لأنه يجد الوحشة بدون إسرائيل ، فيترك العالم كله ويجلب سخطه فی رضاه ، كما قال الشاعر العربی .

و ليتك تحلو و الحيـاة مريرة و ليتك ترضی و الأنام غضاب

إذا صح منك الود فالكل هين و كل الذی فوق التراب تراب

لقد كانت مذبحة بيروت ، وهمجية إسرائيل التی لاقت كل استنكار فی العالم ، و التورط الأمريكی المكشوف بعد أن اعترف به كارتر ، و غيره من الزعماء الأمريكيين ، تقتضی و هو أدنی واجب ، أن يستقيل ريجان من منصبه ، و ينعزل عن السياسة قبل أن يعزل بلاده عن الجالية العالمية ، و يجعلها هدفاً للادانة فی سائر المنابر الدولية باعتبارها موئل الجزارين و الخارجين علی النظام و العرف الدولی .

وماذا بقى للرئيس الأمريكى من خزى وعار، إنه لم يسئ إلى المدنية المعاصرة التى يمثلها لحسب، بل أساء إلى المسيحية كذلك، فقد كان العالم يكاد ينسى الاضطهاد و القمع و البربرية و انتهاك الحرمات من الصليبيين الغاشمين، لجدد ريجان بغباء سياسته، أو قلة حيائه هذه الذكريات المريرة، وعلم العالم و المسلمون طبيعة المدنية المعاصرة الاستعمارية، و وحشيتها، وطبيعة الصليبيين البربرية .

معطيات الحضارة الغربية للانسانية

انتاج و تصدير أسلحة الفتك و التدمير أكثر من وسائل التعليم والتربية .

يفيد تقرير عسكرى عن الاشتباكات و الحروب الاقليمية التى نشأت منذ الحرب العالمية الثانية أن اكثر من عشرة ملايين نسمة لاقوا حتفهم فى الحروب الاقليمية التى نشبت فى مختلف أنحاء العالم منذ ١٩٤٥م و يقدر التقرير أن حوالى ١٧ مليون مقاتل كانوا ضحيمة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥م) علاوة على المدنيين الذين لاقوا حتفهم .

ويفيد التقرير استناداً إلى معلومات زودها بها بنتاجون ، والمخابرات الأمريكية و مصادر أخرى أن نفقات الدفاع الحالية تبلغ مليون دولار فى كل دقيقة .

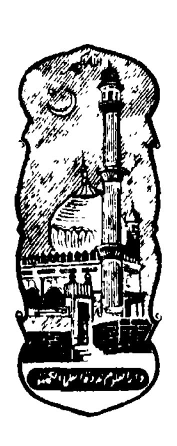
ذخائر الأسلحة النووية المكدسية تساوى ١٦ مليون طن ، T. N. T. وكانت ثلاثة ملايين طن فقط من الذخائر قد استخدمت فى الحرب العالمية الثانية و أدت إلى مقتل أربعين مليون نسمة .

و يقول التقرير أن الولايات المتحدة الأمريكية و الاتحاد السوفيتى البلدين اللذان يشكلان ١١ ٪ من سكان العالم يقودان سباق التسلح فى العالم منذ ١٩٤٥ و أن نفقاتهما على الاستعدادات الحربية تشكل أكثر من نصف ما ينفقه العالم كله ،

و يصدران أكثر من ٤٨ فى المائة من معدات الفتك و التـــدمير إلى مختلف بلاد العالم و تملكان أكثر من ٩٥ ٪ من الذخائر النووية فى العالم.

و لا يشتمل التقرير على الخسائر التى أدت إليها الحرب العالمية الأولى التى خاضتها الدول الأوربية فيما بينها خلال ١٩١٤— ١٩١٨م و أصيب العالم كله فيها بتدمير وخسائر فى الأرواح تقدر بحوالى تسعة ملايين نسمـــة ، من القتلى و ٣٨ مليون نسمة من المصـــابين ، و لا يشتمل التقرير على ضحايا الثورات العسكرية التى قامت بايعاز الدول الأوربية و ذهب ضحيتها و ملايين من الناس .

و بعد هـــذا الدمار والفتك تدعى أوربا بالتقـــدم و الحضارة ، واحترام كرامة الانسان والحرية ، وبهذا السجل الأسود تتهم الشرق الاسلامى بالوحشية والجهالة و تقيم وكالات اعلامها الدنيا و تقعدهـا بالصراخ و العويل على أى حادث بسيط فى العالم الاسلامى .



حركة البعث الاسلامى .. و العقبات الجديدة

واضح رشيد الندوى

واجهت حركة البعث الاسلامى عقبات أخرى فى عام ١٤٠٢هـ و جهوداً مكثفة نجحت إلى حد ما لتوريط الفكر الاسلامى و رواده، فى مسائل إقليمية ، و عقائدية ، و سياسية ، و إفتعال حوادث لتحويل الانتباه عن المسار إلى استعادة الذاتية و الأصالة ، فى العالم الاسلامى ، و لكن بفضل الله تعالى ، ظهرت نتائج هذه الجهود المضادة للبعث الاسلامى على عكس ما كان يتوقعه المدبرون لها فقد ازداد الذهن الاسلامى إيماناً ويقيناً بأنه لا مناص من الاستقلال الكامل فى سائر مجالات العمل ، و أن الاعتماد على القوى الخارجية لا يجدى نفعاً ، بل يخون عند الضرورة ، و أن الكفر ملة واحدة ، و لا فرق بين اشتراكى و لا صهيونى و لا صليبى و لا وثنى .

لقد وقعت فى العالم فى نهاية عام ١٤٠٢هـ حوادث مؤلمة كلفت المسلمين كثيراً من الأرواح ، و أدت إلى خسائر فادحة مذهلة ، و اشتركت فى تدبير هذه الحوادث الدامية أيد كثيرة ذات أيديولوجيات ، و مذاهب و ديانات مختلفة ، من الاشتراكية و الصهيونية ، و الصليبية ، و الوثنية ، فقد وقعت هذه الحوادث فى مختلف أماكن العالم الشاسعة ، لا صلة بينها فى الظاهر ، و لكن العوامل قد تكون متحدة ، أو تكون فيها مشاركة من غير شعور ، أو يربط بينها عداء الاسلام .

أصيب المسلمون فى لبنان بغزوين فى آن واحد ، غزو من الصهيونية التى كانت مدعمة بأحدث الآلات الحربية ، تؤيدها فيه أقوى دول العالم ، و غزو

آخر من الصليبية المتآمرة مع الصهيونية ، كانت الصهيونية تستهدف الفلسطينيين الذين كانوا مسلحين نوعاما و كانوا متأهبين للقتال ، فهاجمتهم الصهيونية بأضعاف قوتهم ، مثل من يقتل العصفور بمدفعيـــة ، لكن الفدائيين أبدوا بسالة و بطولة ، لا نظير لهـا ، و خاصة المقاتلين الذين كانوا يتحلون بروح الجهاد ، و قد اعترفت القوات الاسرائيلية بذلك ، وكانت هذه المقاومة الشديدة التي أدت إلى خسائر اسرائيلية لأول مرة فی تاريخ النزاع العربی الاسرائيلی ، أكبر عامل للتذمر فی الجيش الاسرائيلی ، و قد أثبتت هذه الأحداث أن العنصر الاسلامی إذا اقترن فی القتال بروح الجهاد كانت النتائج غير النتائج التی تصورها العرب .

و انتهزت الصليبية هذه الفرصة لتقضى على البقية الباقية ، من الوجود الفلسطينی لكن أثبتت جبنها و خورها فاستهدفت النساء و الأطفـال ، و العزل من الرجال ، و الطاعنين فی السن ، و الصغار ، و ارتكبت مجزرة لا يوجد نظيرهـا إلا فی تاريخ الصليبيين ، فأغارت على مخيمی صبرا و شتيلا ، و قتلت أكثر من ألف نسمـة ، و بعثرت جثث القتلى ، و أحرقت و دفنت جماعياً ، على مرأى من الصحفيين العـالميين و مسمعهم .

و قد جددت هذه المذبحة ، مذابح أخرى بشعة تعرض لهـا المسلمون فی التاريخ المعاصر ، فی دير ياسين ، و فی الجزائر . حيث قتل المسلمون جماعياً و دفنوا فی مقبرة جماعيـــة .

سجلت الصهيونية و الصليبية هذا التاريخ الدامی و لم تكن الشيوعية متخلفة فإنها تستمر فی تمثيل دورها الدامی فی أفغانستان فتدمر قرى بكاملهـا ، و تبيد الجنس البشری ، و تنتهك حقوق الانسان علناً .

و فی خلفية هذه الأحداث الدامية ، تشكل الحرب الايرانية العراقية علامة

سؤال كبيرة ، و يستغرب موقف إيران أكثر من موقف العراق ، فإن صدام حسين بعثى اشتراكى ، لا يؤمن بما يدعى بإيمانه الايرانيون ، فإذا كان لا يهتم صدام بتوفير قوى المسلمين ، فلماذا لايستمع الايرانيون صوت العقل و المنطق و المصلحة الاسلامية فى هذا الوقت الرهيب و يوفرون مدافعهم و طائراتهم ، و القوى البشرية و الذخائر الحربية لقتال أعداء الاسلام التقليديين العالميين ، كالصهيونية و الصليبية ، و الاستعمار الغربى ؟ إنه سؤال لا يجد جواباً شافياً .

و لا تقل عن إراقة الدماء للسلمين و هدرها ، غرابة تلك الحركات التى تبعث على الاضطراب الفكرى و القلق السياسى فى العالم الاسلامى ، و إشباع المصالح الذاتية فى الحكام ، و بعض قادة الفكر الاسلامى ، فإن العالم الاسلامى اليوم و هو فى مرحلة رهيبة . و فى حالة انتقال لايحتمل جهود التفرقة ، و التشرذم ، و خاصة فى جانب قادة الفكر الاسلامى ، فيتطلب الوضع تكاتفاً ، و تزاملا بتجنب نزاعات فكرية أو نظرية داخلية لمواجهة العدو المشترك .

لقد كان من المؤسف أن الثورة الايرانية التى تطلع إليها كثير من العاملين للبعث الاسلامى كمنطلق إلى جهة البعث الجديد ، لم تخرج بعد من مرحلة الهدم و لم تدخل فى مرحلة البناء ، فإنها تنظر إلى العالم الخارجى أكثر من اهتمامها بمسائل بلادها و تهتم بالدعاية و الإعلام أكثر من البناء الداخلى و ترصيف الجهود الاسلامية ، و شغلت نفسها بعنصر واحد بدلا من الملة الاسلامية .

إن الوضع اليوم وضع مصيرى يقتضى أن تذوب فيه الأحزاب ، و النظريات ، و الأشخاص فى الشخصية الاسلامية الواحدة ، و كل محاولة لتقديس شخص أو الاصرار على متابعة تجربة إقليمية ، تزيد التفرق ، و التباعد فى مجال العلم ، فليكن هم الاسلاميين اقتلاع جرثومة الفساد ، و كسر الصنم الأكبر ، أما الذين يعبدون

هذا الصنم الأكبر فإنهم سيسقطون بسقوطه ، فلا حاجة إلى استنزاف قواهم فی محاربتهم .

كانت نهاية عام ١٤٠٢هـ مؤلمة كذلك بوقوع اضطرابات دامية فی مدينة ميرتهه بالهند ، فقد استمرت هذه الاضطرابات التی بدأت بنزاع حول امتلاك قطعة أرض ، ادعی المسلمون أنها تضم ضريحاً ، و الهنادك أنها تضم معبداً ، فوقعت حوادث أدت إلى مقتل عدد كبير ، و أعمال نهب و سلب ، و تفيد التقارير الرسمية بمقتل أكثر من ثلاثين شخصاً ، و لكن الأحزاب السياسية الأخرى التی أجرت تحقيقاً تدعی بوقوع مائة قتيل ، و شكت الأحزاب السياسية المعارضة و منها الحزب الشيوعی ، و الأحزاب الاسلامية ، أعمال استبداد و بطش شديدة قام بها حرس الولاية ، (P. A. C) الذی عرف فی السابق بمواقف معادية سافرة للمسلمين ، و ادعت الأحزاب المعارضة أن الحرس المسلح ناب عن رجال الشغب المتطرفين ، فقام بدور فعال فی التعذيب ، و القتل ، و تدمير الممتلكات و نهبها ، و قد اعتقل أكثر من ألف شخص ، و قد بدأت الظروف الآن تعود إلى الطبيعة تدريجياً ، و قد حاولت بعض الأوساط توريط البلاد العربية فی هذه الحوادث لكن وزير الداخلية نفی وجود أی دور للأموال الأجنبية .

و بالإضافة إلى هذه الحوادث استمرت سياسية قمع الحركة الاسلامية فی معظم البلاد الاسلامية ، و لكن صوت الحق يرتفع رغم القيود .

كانت هذه بعض الجوانب المظلمة التی تشكل عقبات فی طريق استقطاب الجهود الاسلامية إلى البعث الجديد ، لكن حركة البعث الجديد رغم هذه العوائق تستمر فی إعداد الذهن و تتقدم إلى مجال العمل ، و بدأ المسلمون يفهمون أعداءهم الحقيقيين ، و لكننا نحتاج إلى تيقظ أكبر ، و استجماع القوى ، لنصل إلى مرحلة كسر الصنم الأكبر ، « و الله متم نوره و لو كره الكافرون » .

سماحة الشيخ عبد الله بن حميد فى ذمة الله

☼ فجع العــالم الاسلامى فى الشهر المنصرم بوفاة العالم الكبير و المربى الجليل سماحة العلامة الشيخ عبد الله بن حميد ، رئيس مجلس القضاء الأعلى ، بالمملكة السعودية وعضو المجلس التأسيسى لرابطة العالم الاسلامى ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، و لقد كان الفقيد رحمه الله من كبار العلماء الأفاضل فى العالم الاسلامى كله ، و قد اشتهر بفتاواه الشرعية و أفكاره الدينية الصائبة فى كل مكان ، ولقد انتهزت المملكة السعودية فرصة علمه الغزير ونظرته الواسعة العميقة فى الفقه الاسلامى فانتدبته منذ أيام الملك الراحل عبد العزيز بن سعود لمناصب دينية هامة . فمن منصب القضاء فى الرياض و سدير و القصيم إلى النظر فى القضايا الشرعية فى المحاكم الكبرى بمكة المكرمة و المدينة المنورة و الطائف وجدة ، إلى الاشراف الدينى على المسجــــد الحرام و رئاسة الحرمين الشريفين ، و إلقاء الدروس الدينية فى الحرم المكى الشريف ، و فى أواخر عام ١٣٩٥ھ اختاره الملك الراحل خالد بن عبد العزيز رحمه الله رئيساً للمجلس الاعلى للقضاء ، ورئيس المجمع الفقهى فى رابطة العالم الاسلامى ، وظل قائماً بنشاطه العلمى و الفقهى إلى آخر أيام حياته ، و أفاد المملكة والمسلمين فى العالم كله بآرائه العلمية و نظرته الواسعة الفقهية حتى وافاه الأجل و هو مشغول بوظيفته الدينية ، و قد أثرى المكتبة الدينية بآثاره العلمية و مؤلفاته القيمة .

تلقت ندوة العلماء نبأ وفاته بحزن و أسى بالغين ، وبعث سماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى برقية تعزية إلى المسئولين فى المملكة العزيزة .

رحمه الله و أفاض عليه من نعمه ومغفرته فى آخرته ، وأدخله فسيح جناته ، و ألهم أهله و ذويه الصبر و السلوان .

الأستاذ محمد سميع الصديقى إلى رحمة الله

☼ استأثرت رحمة الله تعالى بالأستاذ الكبير محمد سميع الصديقى فى غرة محرم ١٤٠٣ عقب مرض ألم به فجاءة وسبب وفاته المفاجئة فانا لله و إنا إليه راجعون ، و قد كان المغفور له من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء من عهدها القديم ، يدرس

اللغة الانجليزية ويلقى محاضرات حول السياسة و الاقتصاد . و قد كان طويل الباع فى مادته التى يدرسها للطلاب ، و هو و إن كان متخرجاً من الجامعات العصرية و لكن كان شديد الحرص على صحبة العلماء ومجالستهم ، ولذلك أصبح تدينه وورعه موضع غبطة لدى الناس . وقد أكرمه الله تعالى بالاقامة فى محيط دار العلوم ندوة العلماء و المساهمة فى نشاطاتها التدريسية و التربوية مما كان له أثر بالغ فى نفوس الأجيال التى تخرجت و درست فى دار العلوم ، فكان أستاذاً لأجيال عديدة يحبه تلاميذه ويعجبون به لأخلاقه الفاضلة و لتواضعه و اهتمامه الكبير بافادة الطلاب واستجابته لشئونهم وحاجاتهم التعليمية و غيرها ، فكانت شخصيته ذات جاذبية كبيرة فى كل طبقة من طبقات الناس .

أربى عمره على ثمانين عاما ولكن دأب على نشاطه القديم فيبدو كأنه شاب ، لا يكل عن الأعمال التعليمية و الثقافية . و لم يكن يتوقع أحد أنه سيفاجئه الموت من غير إنذار سابق ولكنه تقدير من الله العزيز العليم ، و قد خلف وراءه أربعة أولاد وبنتين ، وكلهم على مستوى عال فى المجال التعليمى و الثقافى ، كما قد خلف آثاراً تأليفية و أدبية فى اللغتين الأردية و الانجليزية ، رحمه الله رحمة واسعة و ألهم أهله وذويه الصبر ، و أدخله فسيح جناته .

ندوة علمية فى الجامعة العثمانية بحيدر آباد

عقد قسم اللغة العربية فى المعهد المركزى للغة الانجليزية و اللغات الأجنبية التابع للجامعة العثمانية فى حيدر آباد ندوة علمية حول مشاكل تدريس اللغة العربية فى المعاهد الهندية مع التركيز على المناهج الدراسية و الأغراض المنشودة و الطرق المتبعة ، فى الفترة ما بين ١١–١٣ أكتوبر ١٩٨٢م ٢٣–٢٥ ذو الحجة ١٤٠٢ه ، وقد افتتح

الندوة سماحة العلامة مولانا الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى برئاسة المير أكبر على الحاكم السابق لولاية اترابرديش ، وألقى كلمة مستفيضة حول الموضوع ، و لفت الأنظار إلى الهدف المنشود من مثل هذه الندوات العلمية وتأثيرها فى المجالات العلمية و الثقافية ، وقد حضرها مندوبو الجامعات الكبرى فى الهند كما مثل فيها ندوة العلماء فضيلة الشيخ محمد الرابع الندوى رئيس كلية اللغة العربية و سعيد الأعظمى كاتب هذه السطور .

تولى مهام هذه الندوة وعقدها فضيلة الدكتور عبد الحليم الندوى رئيس قسم اللغة العربية بالمعهد المذكور والدكتور معين الأعظمى وإن جهودهما المخلصة فى هذا المجال لموضع شكر وتقدير ، فقد مهدا الطريق إلى مثل هذه الندوات العلمية فى هذه المدينة التى لها تاريخ حضارى وثقافى قديم ، وسيكون لها امتداد باذن الله فى كثير من المجالات الثقافية .

بقية الافتتاحية المنشورة على ص ٨

العميقة ، و يكفى أن نستيقظ من الآن و ندرك حقيقة الفلسفات و النظرات اللعينة التى أدت نفوسنا و أرواحنا إلى هذه اللعنة و العار .

ليس أمامنا أى طريق سوى طريق العقيدة و الايمان . وقد قضى الله لنا بذلك و ربط مصيرنا به ، فهلا أدركنا هذا الحكم الربانى وتفهمنا هذا القضاء السماوى ، و حسبنا الآن ما جربناه من الطرق و الأساليب ، و لنرجع إلى المنصب الذى خلقه الله لنا ، و الذى يكتفل عودتنا إلى جميع الحقوق الانسانية التى حرمناها وسلبت منا .

فهل من يتجاوب معنا فى هذا الاعتقاد و يتجنب أن يعيش ضمن الأخسرين أعمالا ، الذين تحدث الله عنهم :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . و الله يقول الحق و هو يهدى السبيل .

سعيد الأعظمى



Phones . 49747 - 42948 Regd. No. Lw/NP 59

ALBAAS - EL - ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA)

صدر حديثاً :

العقيـــــــــــدة و السلوك

في ضوء الكتاب و السنـــة و السيرة النبوية

آخر ما صدر بقلم الداعية الاسلامي الكبير سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوع العقيدة و السلوك .

هذا الكتاب في الواقع كتاب الجيل لمسلم الباحث عن الحق ، و النصيحة ، و عن حكمة الدين و هداية الشريعة .

يصلح لأن يكون دليلا إلى الاعتقاد السليم المطلوب ، و السلوك الاسلامي الجامع ، و دستوراً للحياة لكل مسلم يطلب الحق باخلاص ، و يبحث عن الأسوة النبوية في الأعمال و الأخلاق في دقة و أمانة .

و سننشر عرضاً شاملا و تلخيصاً كاملا للكتاب في العدد القادم ـ باذن الله ـ .

يطلب من

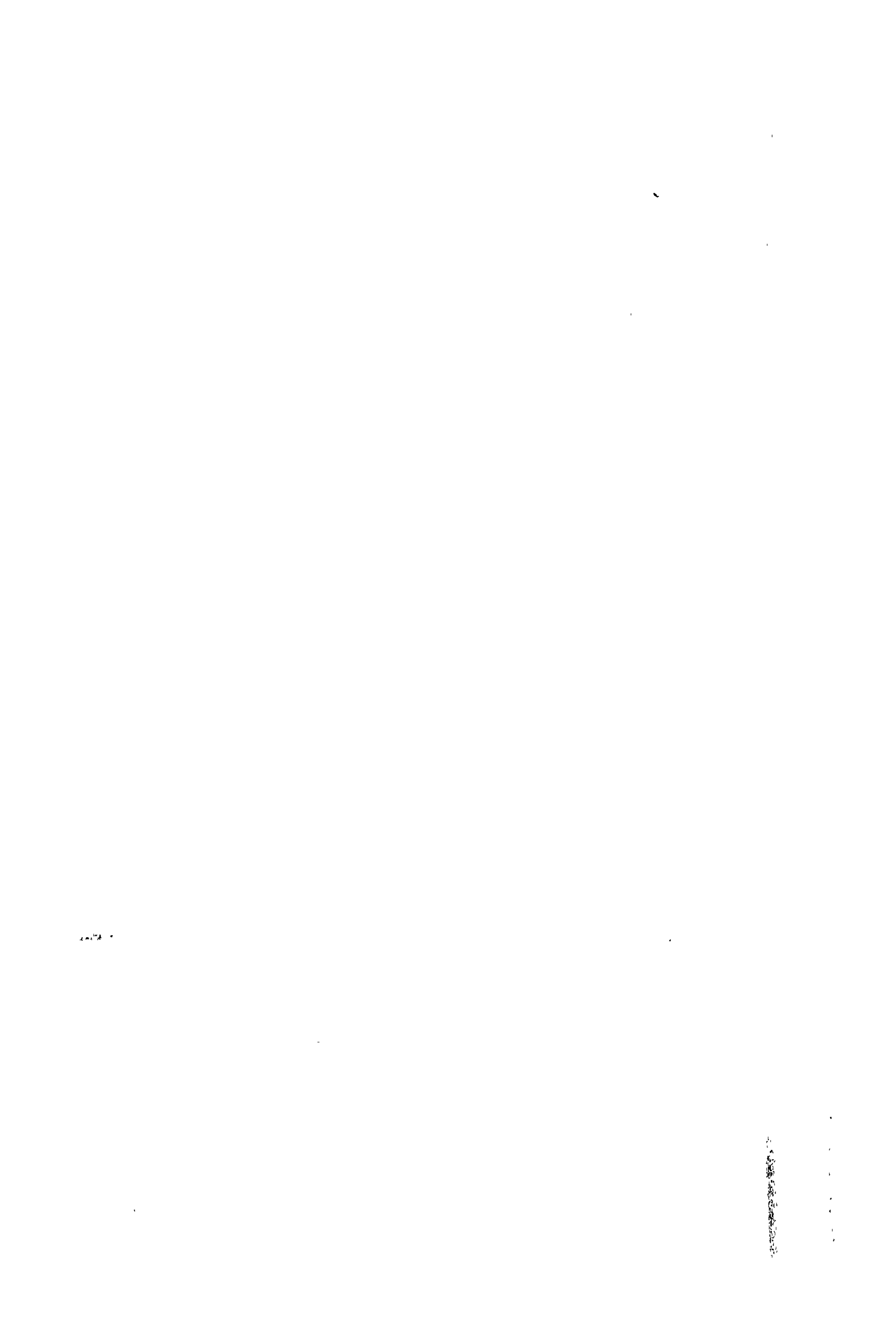
المجمع الاسلامي العلمي ندوة العلماء ـ ص . ب ١١٩ لكهنؤ الهند

مكتبة دار العلوم ندوة العلماء ـ ص . ب ٩٣ لكهنؤ الهند

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوي في مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمي





أنشأها فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني في عام ١٩٥٥م

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

المجلد السابع والعشرون

العدد السادس

ربيع الأول ١٤٠٣هـ

ديسمبر ١٩٨٢م و يناير ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة في المجتمع الاسلامي، غير مقياسها في المجتمع الجاهلي بجميع صوره و ألوانه، و هذه هي نقطة الفصل، ونقطة الالتباس أيضاً. الأصل — في المجتمع الاسلامي — هو العبودية لله، و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان، و الجهاد في سبيله بأعز ما يملكه الانسان، أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفي لتحقيق مهمته في هذه الحياة، و إعلاء كلمة الله في الأرض، ولا يأخذ منها إلا في حدود معلومة واضحة أذن بها الله.

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسني

(الاسلام الممتحن ص ١٤٠)

المراسلة: البعث الإسلامي ندوة العلماء ص.ب ٩٣ (الهند)

ALBAAS-EL-ISLAMI Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (India)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

« أيدلوجية » البعث الاسلامى

تكاثر الحديث عن الرؤية الاسلامية نحو أحداث الحياة و مشكلات الانسان و قضايا العالم ، و طالما يدور هذا الحديث فى قطاعات مختلفة على شتى المستويات ، و قد يتخذ لوناً فلسفياً فيكون محله صفحات الكتب الضخمة أو منابر الندوات العلمية أو منصات المؤتمرات العالمية ، حيث يتفرع الحديث عن الموضوع إلى فروع كثيرة مما يتصل به و بعناوين جذابة ذات صبغة نظرية ، يتناولها الباحثون فى ضوء دراساتهم و مرئياتهم ، و من خلال الفكر السائد على أوساطهم و أذهانهم ، ولهذا النشاط الفكرى فوائد البحث و الانتاج و العثور على زوايا جديدة من العلم ، و الاطلاع على مداخل حديثة من باب الشرح و مواجهة الحقائق حيث يمكن عرض رسالة الاسلام ووجهة نظره نحو الحياة على المجتمعات التى اتخمت باالثقافات و الأفكار و الايدلوجيات الكثيرة المنوعة .

بدأ هذا الأسلوب الفلسفى يطغى على التفكير فى موضوعات العلم و البحث و حتى فيما يتصل بالحقائق الواضحة و العقائد الثابتة ، و يرى كثير من المفكرين و الباحثين أن تفسير الأشياء بمفهوم منطقى واضح قد ينال قبولا و إقبالا فى أوساط غير المثقفين أو أنصافهم ، إلا أن هذا الأسلوب العارى الساذج لا يكاد يتمتع بالاعجاب و الاعتناء لدى العالم المتغير النامى ، و المجتمعات ذات الصلة الوطيدة بالمسيرات الحديثة للعلم و الفن و الصناعة ، إنهم يرون من حتميات المبادئ الدعوية و التوجيهية أن يصحبها العمق و التحليل فى ضوء المقاييس الفكرية الخالصة ، و يقترن بها قسط كبير من العقلانية الجديدة التى تضفى على المجهودات الانسانية لوناً من الجاذبية و النزاهة .

من خلال هذه الرؤية الفلسفية أصبحنا ننظر إلى رسالة الاسلام الأخيرة ، و نقيس قضايا الحياة كلها بمقياسها حتى إن الأسس الأولية التى لا تتعارض مع العقل فى أى عصر و لا تفتقر إلى سند مادى باتت توزن بميزان البحث و التحقيق و تقاس بالأوليات المذهبية و الدينية التى فقدت قيمتها منذ أن نسخت الشرائع السماوية و الأرضية كلها عن طريق الدين القيم الخالد الذى لا يتغير و لا يتطور بأى حال أو زمان « و من يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه و هو فى الآخرة من الخاسرين » و بشهادة الاسلام العالمية التى بعث معها الرسول ﷺ و أكرم بها أمته الأخيرة التى سماها القرآن الكريم أمة وسطا ، « هو سماكم المسلمين من قبل و فى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس » « و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً » .

فى ضوء هذه الآية البالغة فى العمق و البراعة الأدبية مبلغها الأخير يحسن أن ندرس شهادة الرسول ﷺ التى أداها خير أداء فى ظروف قاسية لا تخفى على المؤرخ الخبير الواعى حيث لم يرض للحظة واحدة بأن يفتر عن مسؤليته نحو بناء العالم المنهار ، و إعادة الحياة السائرة على غير هدى إلى سيرها الطبيعى ، و لم يترك أى جزء حقير من أجزاء تلك الوحدة الايمانية العظيمة التى جاء لتحقيقها ، ناقصاً أو مهجوراً ، و إنما قام فى غاية من الجدية و الاعتناء و الدقة بجمع الرفات من أجزاء الجسم الانسانى و تغييره بالجديد الأقوى ، و بناء هيكل المجتمع على أساس متين من الأخلاق و الفضائل ، يحكم فيه العدل و السمو ، و يشرف عليه الشريعة السمحاء ، و تصونه الحصانة الايمانية و العقائدية من كل زيغ و فساد .

بعث الرسول الكريم بهذه المهمة الخارقة ، و بهذه المسؤلية الضخمة التى تنوء بها مجموعات هائلة من الطاقات البشرية مهما كانت ، و اقترن بهذه البعثة العظيمة توجيهات تربوية سهر عليها الرسول العظيم و تناول بها أفراد المجتمع الجاهلى و أعضاء الأسر و البيوتات برفق و حكمة لم يفارقاه فى أى وقت عصيب و ظرف قاس ، و على الرغم مما عاناه من مخالفات حادة و عداوات و مؤامرات خطيرة لم ييأس ، و لم يراوده أى شعور بالخيبة و الاخفاق رغماً مما أحاطت به من

المثبطات ما كان يكفى للقعود عن الاستمرار فى الدعوة أو التوقف لفترة من الوقت انتظاراً لأمر آخر أو لتغيير فى الاستراتيجية أو تبديل فى الموقف ، و لكن كل ذلك لم يحدث ، وظل منهمكاً فى عمل الدعوة و التربية ، بنفس النشاط و الجدية ، و فى تغيير البيئة و القضاء على العادات الجاهلية و العقائد الفاسدة بنفس الروح و الرحمة ، و بالرأفة النبوية التى فطر عليها و بعث بها « و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ثم استطاع بعد كل ذلك أن يحقق الثورة التى أرادها الله سبحانه ، ثورة على الرذائل التى كانت قد تمكنت من نفوس الناس و أبعدتهم عن مكانتهم الأصيلة ، و ما هى إلا مدة يسيرة ، إذ طفق يتغير الوضع و يتقلص ظل الشقاء الذى شمل المجتمع آنذاك أفراداً و جماعات ، و ظل يتسع نطاق الخير و الصلاح و المعروف ، و أقبل الدين ينمو بتعاليمه الشاملة و ينال إعجاباً ، حتى من أولئك الذين حاربوه بكل ضراوة ، و انتشر فضله وعم جوانب الحياة ، وجعلت أصنام العبادة و العادات و العصبيات تتساقط واحداً تلو الآخر ، و صفا الجو للسعادة أن تنشر ظلالها و تزرع بذورها فى أرض الحياة القاحلة ، و كل ذلك إيذاناً بأن الجاهلية باتت مرفوضة و أن الاسلام أضحى مقبولا و مرحباً به فى الأوساط البشرية و المجتمعات التى شقيت طويلا و وجدت لها بديلا كريماً فى صورة هذا الدين الخالد « و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله و عمل صالحاً و قال إننى من المسلمين » .

لقد تم بعث الحياة من أوحالها التى ساخت فيها إلى الآذان ، و انتشال الانسان من حضيض البهيمية و الهمجية بمجرد نجاح الدعوة الاسلامية فى ربوع البلد الأمين ، و منها إلى العالم كله ، فقد أسفر ليل الانسان المدلهم بصبح أشرق بنور الايمان و جلى درب الحياة للسائرين نحو الغاية ، و اتصلت السماء بالأرض لأول مرة فى التاريخ البشرى ، و ارتفعت قيمة الانسان غاية بلغت به إلى المستوى الأفضل الأعلى حيث أعلن الرب الكريم فى صراحة و ثقة أنه خليفته فى الأرض ، و يقوم فيها بأعباء و مسئوليات الخلافة ، و هى عظمة قفزت إلى الانسان المسلم بفضل البعثة المحمدية والرسالة الاسلامية التى اعتنقها ، وهى عظمة اختصت به ونعمة لزمته

بصفة مستمرة خالدة ، اغتبط بها الملائكة و أنكرتها أن تختص بالانسان دونها ، و قد تجلى هذا الانكار فى الكلام الذى كان رداً على ما أخبرهم الله به من جعل الانسان خليفته فى الأرض « و إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ، و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك » و لكن الله سبحانه أسكتهم بقوله البليغ العظيم و لم يرض بالافاضة فى الموضوع فقال « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

فلا تقدر قوة من القوى البشرية أن تغلق ما فتحه الله من باب الخلافة للانسان فى الأرض ، و إن هذه المسؤلية لن تتوقف فى يوم من الأيام ، و إنما تستمر المجهودات و القدرات من كل نوع لأدائها ، و لا يمكن تحديدها كماً أو كيفاً ، بل يتوقف ذلك على الكفاءات التى تتنوع باختلاف أصحابها ، فكل يعمل فى حدوده ومجاله و بامكانه و وسائله بما يسعه من عمل و نشاط ، إلا أنه لايستطيع أن يعتبر نفسه بريئاً من ذمة الخلافة التى أكرمه الله بها ، و أن يظن ذلك فرض كفاية إذا قام به أحد سقط عن غيره ، و إنما الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر وصيانة حدود الله بتنفيذها و السهر على استمرارية الدعوة إلى الخير و الجهاد فى سبيل تغليب أوامر الله على أهواء النفس ، كل ذلك من مسئوليات الخلافة و متطلبات العمل الذى نيط بالمسلم و أمر به من نشر الفضائل بجميع أنواعها و إصلاح كل ما يحول دون أداء هذه المسئولية ، سواء كان مما يضن به المرء من نفس ومال وأهل و أولاد أو مما يعترض فى طريقه من عقبات و عراقيل ، و إزالة كل ذلك بالحكمة و الرفق ما لم يفتقر إلى استخدام عنف أو شدة « محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » و « قوله أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله و لا يخافون لومة لائم » .

هذه المسئولية تحتم على المسلم أن لا يألوجهداً فيما إذا أتيحت له فرصة الدعوة إلى الله فى استخدام ما يملكه من وسائل القلم و اللسان و الجوارح و أن لا يغفل أن عوامل الهدم و التضليل نشيطة إلى آخر ما فى الكلمة من معنى ، و أن الاسلام ليس كديانات محلية أو موقتة إذا توقفت عن العمل أو نفد زيتها يطوى عنها كشحاً ،

و تترك فى ذمة التاريخ، و لكنه آخر رسالة إنسانية تنمو مع الطبيعة و تساير مع الحياة خطوة بخطوة دون أن يفقد حيويته فى أى مرحلة وفى أى ظرف أو جيل، « ذلك الدين القيم ، و لكن أكثر الناس لا يعلمون » لذلك فان من واجب أهل الدعوة و الفكر أن يعملوا جهدهم لاحباط الجهود و المحاولات التى تتربص بهـذا الدين دوائر من كل نوع و من كل جهة و على كل مستوى ، إنهم مسئولون عن تجديده كلما أحاطت به ظروف زمانية أو مكانية ، و تشن حملتها عليه من جهات العلم و الفلسفة مرة و من ناحية العقل و الطبيعة مرة أخرى ، و كذلك تريد أن تفرض عليه نظرات زائفة أو تطبق عليه مبادىء مادية أو تضم إليه عقائد ذات أفكار هزيلة لا تسمن و لا تغنى من جوع .

و لقـد تصدى العلماء أصحاب اختصاص و تجارب فى الدعوة و الفكر الدينى و أصحاب الفكر النير والفهم المتزن الصحيح للاسلام لبعث رسالة الاسلام من جديد و إحياء الفكر الدينى و وضعه موضع الاعتبار، و شرح تعاليمه بحيث يتفق ومفهوم الحيـاة الواضح و يعين مسارها المستقيم و يسبق العالم بسيره السريع فى جميع المجالات ، و حتى فى المجال العلمى و التكنالوجى ، وفى المجال الصناعى والابداعى ، مع التركيز على بناء الانسان العظيم الذى يملأ العالم عدلا و نزاهة ، و يخلف ربه فى مهمة الخلافة فيستعرض الأوضاع السائدة و يتناول ما فسـد منها بالاصلاح و التغيير ، و يعالج ما جد منها بالتطبيق والتفسير ، حتى يخضع هو الآخر لمصلحة هذا الدين و تعزيز فكره المستنير ، و إعلاء كلمة الله على كلمة الانسـان المسكين ، و فتح آفاق الفكر لتغطية جميع الجوانب الجديدة التى ظلت مهجورة و لم تلق عناية كاملة بالدراسة و التطبيق، ذلك كى تصبح أداة مفيدة فى أداء دور البناء والاصلاح و تحقيق البعث الاسلامى الذى لا يتخلى عنه العالم المعاصر ، و لا أن المجتمعات الانسانيـة تستطيع أن تثبت وجودها و تستحق الحياة و البقاء بدونه .

من هنالك توافرت لدينا مبررات كثيرة للقيام بواجب البعث الاسلامى فى كل زمان و مكان و اعتباره حاجة هذا الدين فى كل عصر وجيل ، غير أن هـذه الحاجة نحو بعث الدين من جديد والدعوة إليه أصبحت ذات جهات متعددة واتسعت

دائرتها إلى مجالات عديدة لأنواع العمل من تفسير متقن للمفاهيم الدينية و عرضها على القطاعات العلمية و الفنية و الفكرية و الاعلامية بأسلوب سائغ مقنع و مؤثر ، و كذلك تمثيل الفكرة فى الحياة العملية و المناحى التطبيقية بدءاً من النشاطات الرتيبة الشخصية والأعمال العادية إلى الوظيفة القيادية والمسئولية التربوية التى تتطلبها الخلافة المنصوصة ، الموهوبة من الله سبحانه الانسان .

إن عمل البعث الاسلامى و تجديد الدين أو تطهيره من الأفكار الهزيلة ، و التفسيرات الخاطئة ليس مما يصعب على المسلم فهمه أو يتعسر عليه الاعداد للقيام به ، و لا سيما إذا كان لا يحرم سلاح الايمان و العمل ، و سلاح العلم و الفكر للخوض فى هذه المعركة ، و أقولها معركة ، لأن ذلك فى الواقع يقف بالمسلم فى أحيان كثيرة موقف الجندى المهاجم الذى يشهد الصراع العنيف بين الاسلام بمعناه الكامل و الجاهلية بمفهومها الواسع ، و قد تتسلح هذه الجاهلية بأحدث الأسلحة وأفتكها بازاء الاسلام الذى سيصرعها بقوة الايمان والعمل ، كما حدث فى أيام التاريخ الأولى ، و لكن لا بد كذلك من إعداد واسع النطاق لتغطية البعث الاسلامى ، و أعنى بالاعداد أن لا يفوتنا الجمع المتزن التام بين الفهم الصحيح السليم للدين و تعاليمه فى العقائد و الأخلاق و الأعمال و الايمان ، و الاطلاع الواسع الشامل ، على جميع ما تواجد أو يتواجد فى العالم الحديث من أفكار و فلسفات ، و من مخططات ومرئيات وحضارات ومن تحديات يواجهها و من نظريات و أيدلوجيات ، سواء لخدمة العلم و الفن أو لهدم القديم و تدمير المجتمعات و إبادة الانسان الذى يؤمن بالقديم أو يعتقد فى الدين .

و إذا كانت الجاهلية الجديدة تعتمد على أسماء و مصطلحات و على نظريات و أيدلوجيات و أفكار و فلسفات لفرض وجودها على العالم الحديث فان إسلامنا كان و لا يزال فى غنى عن أن يستند إلى نظريات وفلسفات ، وإن البعث الاسلامى النابع من نية صالحة و إرادة خالصة لغنى عن أن يكون له أيدلوجية أو تكون له فلسفة ونظرية ، إذ أن الاسلام دين واضح من غير تفلسف وتعقد ورسالة إنسانية حية بدون التواء أو غموض . « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون » ؟

سعيد الأعظمى

التوجيه الإسلامي

طبيعة هذا الدين وسماته البارزة

(الحلقة الثانية)

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى

بالعكس من ذلك فالأنبياء عليهم الصلاة و السلام هم القدوة للانسانية و المثل الكامل فى الأخلاق و الأذواق ، و الأخذ و الرد ، و الحب و الرضا ، و محط العناية و الرضا من الله تعالى أحاطت العناية الالهية و القبول الرحمانى بنفوسهم ، و الحياة التى كانوا يعيشونها ، و شملت أخلاقهم و عاداتهم و سننهم و طرق معيشتهم ، و اختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، و عاداتهم من بين العادات الكثيرة التى تعودها النـــاس ، حتى إذا سلكوا شعباً و وادياً ، و سلك النـــاس شعباً و وادياً كان شعبهم و واديهم أحب إلى الله من شعب الناس و واديهم ، ونفذت فيهم و فى كل ما اختاروه ، و أصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله و رضاه ، حتى تقليدهم و اتباعهم واتخاذ شاراتهم و شعائرهم و التخلق بأخلاقهم و التشبه بهم ، أقرب الأسباب و أقرب الطرق وأيسرها لجلب محبة الله ، وصار من اتبعهم و تشبه بهم ، من المحبوبين ، لأن المشبه بالحبيب حبيب و بالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلا من الأصول ، و القانون الذى لا يتبدل و لا يتغير على مر الزمان ، و اختلاف المكان ، و أصبحت الدعوة إليه عامة و علانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ .

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (١) .

---

(١) سورة آل عمران ٣١ .

و بالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين و الكفار ، و إيثار طريقتهم و السير بسيرتهم جالباً لسخط الله و البعد عنه ، فقال : « و لا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار و مالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون (١) » .

و هذا سر ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة و سنن الهدى ، و تشيد بها و تحث على الأخذ بها ، و بمجموع هذه الأخلاق والعادات يحدث إنصباغاً بصبغتهم ، و هى الصبغة التى يقول الله عنها : « صبغة الله و من أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (٢) » ، و هذا سر تفضيل الله عادة على عادة ، و خلقا على خلق ، و وضعاً على وضع ، و هيئة على هيئة ، و هذا سر ما تتخذه الشريعة الاسلامية شعاراً لأهل الايمان ولأهل الطاعة ، وسنة موافقة للفطرة ، وضده علامة للانحراف و شعاراً لأهل الجهل و السفاهة ، و لأهل الجاهلية والكفر ، و لا فرق بينهما ، إلا أن الأول كان شعاراً للانبياء و من عادتهم و اختيارهم ، و فيه تشبه بهم ، و الثانى شعار لأهل الكفر ، و عادة من عادات الجاهلية ، و من أوضاع الشيطان و أتباعه و تشبه بهم .

ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة ، والاختلاط ، وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين (٣) .

أما فيما يتصل بالنبى ﷺ ، فالحاجة إلى العناية بهذه الناحية أشد و أقوى ، فلا بد من تقوية الصلة الروحية و العاطفية بالنبى ﷺ ، و الحب العميق له ، الذى

---

(١) سورة هود — ١١٣

(٢) سورة البقرة — ١٣٨ .

(٣) النبوة و الأنبياء فى ضوء القرآن ، ص/ ٩٤ — ٩٧ .

يؤثره على النفس ، و الأهل و الولد ، كما جاء فى الحديث الصحيح (١) . والايمان به كـ « خاتم الرسل ، و إمام الكل ، و منير السبل » و الحذر من كل العوامل و المؤثرات التى تسبب تجفيف منابع هذا الحب و إضعافه على الأقل ، و تحدث جفافاً فى الشعور ، وضعفاً فى العمل بالسنة ، و تجرؤا فى القول ، و انصرافاً عن الافتخار به ، و الولوع بدراسة سيرته و حديثه ، و كل ما يحرك هـــذا الحب و يغذيه (٢) ، و يدل التأمل فى سورة الأحزاب ، و سورة الحجرات ، وسورة الفتح ، و غيرها ، على أن المطلوب من المسلم فى حق الرسول ﷺ أكثر مما يجوز أن يسمى بالصلة القانونية ، و هى الطاعة الحرفية فقط ، بل المطلوب الأدب النابع من القلب ، و الحب المتغلغل فى الأحشاء ، و ما يعبر عنه القرآن بالتعزير والتوقير « و تعزروه و توقروه (٣) » ، و هو الذى مثله الصحـــابة رضى الله عنهم فى حياتهم و سيرتهم .

وقد تجلى ذلك فى قصة خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فى وقعة رجيع و قد قال أبو سفيان بن حرب لزيد بن الدثنة حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، و أنك فى أهلك ؟ ، قال : و الله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب

---

(١) جاء فى الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليـــه من ولده و والده و الناس أجمعين » (متفق عليه) وفى حديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه (رواه أحمد بن حنبل عن عبد الله ابن هشام) .

(٢) « القرن الخامس عشر الهجرى الجديد فى ضوء التاريخ والواقع » ص/٧٤ (للمؤلف)

(٣) الفتح — ٩ .

محمد محمداً (١) » ، و تترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقع النبل فی ظهره و هو منحن عليه ، حتی كثر فيه النبل (٢).

و تترس طلحة بن عبيد الله علی سول الله ﷺ فی غزوة أحد بيده يقی بها النبي ﷺ ، فأصيبت أنامله وشلت يده (٣) و قد أصيب فی غزوة أحد زوج امرأة من بنی دينار وأخوها ، وأبوها ، فلما نعوا لها ، قالت : « فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، و هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتی أنظر إليه ، قال سعد بن أبي وقاص ، فأشير لها إليه فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل (٤) » .

و لما رأی عروة بن مسعود الثقفی رسول قريش شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ و تسابقهم فی حبه و طاعته ، و كان إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، و ما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، قال لأصحابه حين رجع ، أی قوم ! و الله لقد وفدت علی الملوك علی كسری و قيصر و النجاشی و الله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، فوصف لهم ما رآه (٥) » و كتب الحديث و السيرة مشحونة بمثل هذه الأمثلة و النماذج .

و امتاز بهذا الحب و كان له فيه النصيب الأوفر ، كل من تشبع بروح هذا

(١) سيرة ابن هشام ، ق / ٢ ، ص / ١٧٢ .

(٢) أيضاً ص/ ٨٢ ، و رواه البخاری فی غزوة أحد فی باب قوله تعالی : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .

(٣) الاصابة فی تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانی ، ج/ ٢ ص/ ٢٢٩ .

(٤) أی صغيرة ، سيرة ابن هشام ، ق/ ٢ ص/ ٩٩ .

(٥) زاد المعاد ، ج/ ١ ص ٣٨٢ .

الدين و أراد الله أن ينفع به الاسلام و المسلمين ، من العلماء الراسخين ، والمصلحين و المجددين ، و القادة المصلحين ، و هذا الحب — الخاضع لأحكام الشريعة وآدابها و المتأسي بأسوة الصحابة — يعين على الاتباع الكامل ، و الاستقامة على الشريعة ، و محاسبة النفس الدقيقة الأمينة ، والطاعة فى المنشط و المكره ، و يزيل الأمراض النفسية و يزكى النفس و يهذب الأخلاق ، فان موجة الحب تجرف بالحشيش وتسرى فى النفس سريان النار فى الهشيم ، و قد أصبح المسلمون بعد ما كانوا — مع الحب لله و لرسوله — شعلة من الحياة ، و جـــذوة من النار ، ركاماً بشرياً ، أو لحماً حجرياً ، بعد عهده بالنار و الحرارة .

٧— و من خصائص هذا الدين كماله و خلوده فقد أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد و الشرائع ، و ما تتوقف عليه سعادتهم فى الدنيا ، و نجاتهم فى الآخرة ، فقال الله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، و لكن رسول الله و خاتم النبيين ، و كان الله بكل شئ عليما » (١) .

و قد صرح القرآن بلسان عربى مبين ، أن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال و الوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء و الاستمرار ، فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا » (٢) .

و قد نزلت هذه الآية يوم عرفة فى حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، و فهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، و تاريخ الديانات أنها كرامة خص بها المسلمون ، و مفخرة لهذا الدين لا يشاركه فيها دين آخر ، فقالوا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤن

(١) الأحزاب — ٤٠ .

(٢) المائدة — ٣ .

آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً » (۱) .

و قد كان انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ تكريماً للانسانية و رأفة بها ، و إعلاناً أن الانسانية قد بلغت سن الرشد ، و مرحلة النضج و الاستواء ، و قد خرجت من إطارها الضيق الذى عاشت فيه أحقاباً ، و استعدت لأن تدخل فى مرحلة جديدة من العلم و المدنية ، و التعارف و الوحدة . و تسخير الكون و طاقاته ، و التغلب على العوائق الطبعية ، و التقسيمات الجغرافية ، و الفوارق السياسية ، و جاء دور الاعتماد فى مجال الحياة على القوى الطبعية و وسائل العلم — مع الاعتماد فى العقائد و الشرائع على رسالة الله الأخيرة و الشريعة الخالدة — و العقل المؤمن ، و القلب السليم ، و كان شقاء الأمم فى الزمن الماضى بالتباس الأمور ، و اختلاط الحق بالباطل ، و كثرة الدعوات المدعية الاتصال الخاص بالسماء و تلقى التعليم من فوق كذباً و زوراً ، و توزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس ، و قد تكاثر هؤلاء المتنبؤن فى البيئات اليهودية و المسيحية ، حتى أحدث ذلك مشكلة شغلت العقول و استنفذت الطاقات ، و نشرت الفوضى ، و الاضطراب النفسى و العقلى » (۲) . و قد كان فى انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ

---

(۱) و قد قال عمر فى جواب ذلك . إنى لأعلم حيث أنزلت ، و أين أنزلت ، و أين رسول الله ﷺ حين أنزلت ، يوم عرفة (صحيح البخارى . كتاب التفسير) يعنى أن ذلك لا يحتاج إلى عيد جديد ، فقد كان ذلك عيداً ، والاسلام ليس دين أعياد و مواسم للحوادث ، والوقائع الكبيرة ، يحتفل بها ، شأن الديانات الأخرى .

(۲) راجع دائرة المعارف فى الأديان و الأخلاق (Encyclopedia of Religion-& Ethics) ج/ ۸ ص/ ٥۸۸ ومقال (Edwin Konx Mitchell) فى هذه الموسوعة .

توفير للجهود البشرية ، والطاقات الانسانية ، عن أن تمتحن و تستنفد بعد كل فترة زمنية ، أو على مسافة مكانية فى التصديق و التكذيب ، و توجيه بالانسان إلى أن ينظر إلى الأرض و الكون ، فى استخدام مواهبه و طاقاته ، لا إلى السماء بين آونة و أخرى ، لينزل للانسانية وحى جديد ، و علم مفيد مزيد ، فيتفادى بذلك من بلبلة فكرية ، و صراع مذهبي ، و تمزق اجتماعى .

و قد استطاعت هذه الأمة — بفضل هذه العقيدة — أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، و تحافظ على وحدتها فى الدين و العقيدة ، لا يزال لها مركز روحى موحد و مصدر علمى و ثقافى عالمى ، و شخصية تجمع عليها ، ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فيجتمع لها الشمل و تتوحد لها الكلمة ، و يقوى عندها الشعور بالمسئولية ، و قوة مقاومة الفساد ، و إقامة الحق و العدل و موازين القسط ، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و الدعوة إلى الخالص ، لا تنتظر لذلك نبياً جديداً يبعث ، أو إماماً معصوماً ينهض ، فيحقق ما عجز الأنبياء عن تحقيقه ، ويكمل ما تركوه ناقصاً (١) . و لا تعتمد فى الانتفاضة الاسلامية ، و فى النشأة الدينية الجديدة ، على شئ غامض يجل عن العقول و الظواهر ، و يدق فهمه ، و يستغله المغرضون و الطامحون من أصحاب النيات السيئة ، و الأغراض السياسية ، « و ذلك من فضل الله علينا و على الناس ، و لكن أكثر الناس لا يشكرون » (٢) .

٨— و من خصائص هذا الدين بقاؤه على أصالته و حيويته ، محفوظاً كتابه مفهوماً ، مصونة أمته من الضلال العام و الجهالة المطبقة ، و الانحراف الاجتماعى الذى أبتليت به الأمة المسيحية فى عهدها الباكر ، فسماهم القرآن الكتاب السماوى

(١) كما يعتقد كثير من الامامية .

(٢) ملخصاً من كتاب المؤلف « النبى الخاتم » .

المعجز بـ « الضالين » (۱) ، فقد قال الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون » (۲) . و الوعد بالحفظ فی موضع الامتنان ، يستوجب الفهم والشرح ، و العمل و التطبيق ، فلا خير فی كتاب يبقى مطوياً على غرته ، و تنقطع الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، و تمضى على ذلك قرون و أجيال ، لا تتبين الأمة فيها حقيقة الكلمات التی يدور عليها هذا الكتاب ، و تقوم عليها تعاليمه و دعوته ، و قد قال لرسوله : « إن علينا جمعه و قرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » (۳) .

---

(۱) لا يفهم سر هذه الكلمة و حكمة هذه التسمية — المختلفة عن اليهود الذين سماهم القرآن بـ « المغضوب عليهم » — إلا من كان له اطلاع دقيق على تاريخ نشوء المسيحية و تطورها فی أول عهدها ، فقد انحرفت عن الجادة التی تركها عليها المسيح — عليه السلام — فی أول رحلتها ، و سارت على درب مختلف عن الدرب الأول كل الاختلاف ، و تكفی لذلك شهادة واحدة و هی شهادة العالم المسيحی (Ernest de Bunsen) فيقول : « إن العقيدة و النظام الدينی الذی جاء فی الانجيل ، ليس الذی دعا إليه السيد المسيح بقوله و عمله ، إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم ، و بين اليهود و المسلمين ، ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارق اليهودی و المسيحی ، و شرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم و التمثيل (Essenie). « (Islam or True Christianity P. 128) .

(۲) سورة الحجر — ۹ .

(۳) سورة القيامة — ۱۷— ۱۹ .

ولا ثقة بدين لم يعمل به إلا فی فترات قصيرة تتخللها فجوات واسعة عميقة، كان يسود عليها الظلام، وتتغلب فيها الجاهلية بكل معانيها فالشجرة التی تبقى أطول زمان و أفضله لا تعطی ثمارها، غير جديرة بالاعتماد وبالاعتناء، و ليست الشجرة التی أصلها ثابت و فرعها فی السماء.

و لم تصب هذه الأمة حاملة الرسالة الأخيرة التی أخرجت للناس، و التی يرتبط بها مصير الانسانية، بالعقم و الجدب الفكری الدائم، و لا تعيش فی عمى و ضلال عن مقاصده و متطلباته، ولا تجتمع على ضلاله، و قد جاء فی حديث صحيح: «لا تجتمع أمتی على ضلالة» (١). و كل فساد و انحراف يغزو هذه الأمة إنما هو طارىء ودخيل. و مناف لطبيعتها و هو كالغبار على جوهر أصيل، و ذهب وهاج. لا يلبث أن ينتفض و يتطاير بتأثير القرآن و السنة و الدعوة إلى الدين الخالص، وحركة الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر، وهو ما جاء معناه فی حديث آخر: «لا تزال طائفة من أمتی ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتی أمر الله و كذلك». و الدراسة الواسعة الدقيقة لتاريخ الأمة و رجالها يشهد بذلك (٢).

٩- و أخيراً إن الاسلام يحتاج إلى مناخ إسلامی — و بتعبير أدق وأكثر وضوحاً — إلى طقس و درجة حرارة و برودة معينة (Temperature)، لأنه

---

(١) يقول العلامة السخاوی «هو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة، و شواهده متعددة» (المقاصد الحسنة فصل اللام و الألف).

(٢) راجع مقدمة كتاب «رجال الفكر و الدعوة فی الاسلام» الجزء الأول بعنوان «الحاجة إلى الاصلاح و التجديد، و البعث الجديد، و اتصالهما فی تاريخ الاسلام».

دين حى إنسانى . ليس ديناً عقلياً يعيش فى المخ ، أو فى فلسفة أو مكتبة ، بالعكس إن الاسلام فى وقت واحد ، عقيدة وعمل . و سلوك و خلق ، و عاطفة وشعور و ذوق يسيطر على التفكير و الشعور ، و يتحكم فى موازين الأشياء و القيم ، إنه يسبك الانسان سبكاً جديداً ، و يصوغ الحياة صياغة جديدة ، لذلك نرى أن الله تبارك و تعالى يسمى الاسلام بصبغة الله ، و الصبغــة لون شـامل و سمة مميزة ، و طابع ممتاز ، وللاسلام حساسية زائدة بالنسبة إلى الديانات الأخرى ، إنه يتأثر أكثر من كل دين ، له حدود معروفة معينة ، لا يمكن أن يتخطاها المسلم ، و لا مفهوم للردة و لاشناعة لها ، فى دين آخر ، بالمعنى الواضح الذى نجده فى الشريعة الاسلامية ، و التصور الاسلامى .

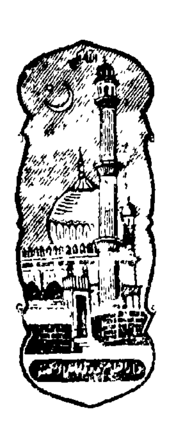
و وقائع حياة النبى ﷺ و أحداثها ، و توجيهاته و تعاليمــه ، و أسوته و سنته ، — من مجال العقائد و العبادات ، إلى مجال الأخلاق و المعاملات ، إلى المشاعر و الانفعالات — تخلق ذلك الجو الذى تخضر فيه شجرة الدين ، و تورق و تثمر ، لأن الدين لا يبقى مستجمعاً لجميع شرائط الحياة و صفاتها — منها النمو و التحرك ، و الاهتزاز و الحساسيــة — بدون العواطف و الروح ، و الوقائع و الأمثلة العملية ، و بمجموعتها الحديث النبوى الصحيح ، و السنة المحفوظة ، و بقاء صورة العهد النبوى — بجانب القرآن الكريم — مسجلة ، و بقاء حديث صـاحب النبوة ، و صورة جو عهده محفوظة ، معجزة من معجزات الاسلام ، و مزية من مزاياه التى لا تشاركه فيها ديانة ، و ذلك شئ طبيعى ، فان الدين الذى جاء ليبقى إلى يوم القيامة ، و يقدم للاجيال القادمة فى أجواء متباينة و بيئات مختلفة ، نماذج عملية موحدة ، يوفر دواعى العمل ونوازعه القوية ، و يجسم خروج الحكم الشرعى من حيز التصور و الامكان العقلى ، إلى حيز التطبيق العملى ، و يغذى العقل القلب

فی وقت واحد ، لا یمکن أن یعیش بدون الجو ، و هذا الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحدیث .

و قد أکدت التجارب الطویل المتصلة التی مر بها تاریخ الأدیان و الأقوام ، أن مجرد الأمر القانونی والضابطة الرسمیة لیسا بکفیلین بأن یضفیا علی عمل و نشاط ، مسحة من الروح و الکیفیات المطلوبة ، ولا یستطیعان أن ینشأ المناخ الذی لا بد منه ، و کل القرآئن تدل علی أن الله تعالی کان یرید کجمع القرآن صیانة صحیفة حامله ، و بفضل ذلك بقی امتداد الحیاة المبارکة – علی صاحبها الصلاة والسلام – علی مدی الأجیال و القرون ، و ظلت الأمة فی کل دور و أدوارها تتنفس فی ذلك المناخ الاسلامی الروحانی ، و العلمی و الایمانی ، الذی سعد به الصحابة رضی الله عنهم مباشرة ، تعرف بذلك الفرق بین المعروف والمنکر ، و السنة و البدعة ، و الأصیل والدخیل ، و تحمل « میزان الحرارة » (Therma meter) أو مقیاس الضغط الجوی (Barometer) الذی یعرف به علماء هذه الأمة مدی ابتعاد المجتمع الاسلامی المعاصر ، أو الجیل الاسلامی الجدید ، عن الحیاة الاسلامیة المثالیة – عقیدة و سلوکا – و یتعرفون بالموجات الأجنبیة عن الاسلام و تعالیمه التی تغزو هذا المجتمع ، و تحدث فیه انعکاسات و تموجات بعیدة عن الاسلام و مثله و قیمه ، و أهدافه و غایاته . فیقیمون علیه الحسبة الدینیة و یکافحون هذا الانحراف عن الخط الاسلامی المستقیم ، و یعیدون الأمر إلی نصابه ، و المیاه إلی مجاریها ، لذلك نری أن جمیع حرکات الاصلاح و التجدید ، و صیحات العودة إلی الاسلام ، و التعلیم الاسلامیة ، و أسوة الرسول ﷺ ، نبعت علی مدار التاریخ الاسلامی الطویل ، من دراسة کتب السنة و الحدیث ، و فهمها العمیق ، و کان القائمون بها فی مختلف الأعصار و الأمصار ، عاکفین علی دراسة الکتاب

و السنة ، و مشتغلين بالحديث تدريساً و تأليفاً ، و دعوة و نشراً ، و كلما ضعفت الصلة بالحديث النبوى أو عم الجهل له ، خفتت أصوات الاصلاح و التجديد و الانكار على شعائر الجاهلية و تقاليدها و الرد على البدع ، و ظل الأمر كذلك إلى يومنا هذا ، فلا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين إلى الدين الخالص و الاسلام الكامل ، و الأسوة النبوية ، و عهد السعادة و النور (١) .

هذه طبيعة هذا الدين الخاصة به ، و سماته البارزة ، و ملامحه المميزة له عن غيره ، التى تتكون منها شخصيته التى يجب علينا أن نتعرف بها و نغار عليها لنقدر هذه النعمة قدرها ، و نأمن من الالتباس ، و قياس هذا الدين على غيره من الديانات و الفلسفات البشرية ، و النظم و المناهج الوضعية ، و نكون على بينة من الأمر ، و شعور بعظم المسئولية و دقة الأمانة .



(١) راجع للتفصيل الأمثلة و الدلائل من التاريخ ، رسالة المؤلف « دور الحديث فى تكوين المناخ الاسلامى و صيانته » (طبع المجمع الاسلامى العلمى فى ندوة العلماء لكهنؤ ، الهند) .

الرسول (ﷺ) أمام المقاييس الانسانية العامة

- ٢ -

دكتور عبــد الحليم عويس

أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية الرياض

عهد مؤرخو السيرة النبوية فى القديم و الحديث إلى الاشارة إلى المقـاييس الأساسية التى تبنى عليها العظمة الانسانيــة و لئن كانت إشاراتهم بجملة إلا أن ذلك لا ينقص من قيمة هذه الاشارات ، فالاجمال الذى التزموا به فى ذكر المقـاييس قد أغنى عنه تتبعهم الدقيق لصفات الرسول ﷺ الجسمية و الخلقية تتبعاً استقصائياً ، لم يتحقق لشخصية غيره فى تاريخ الأنبياء و العظماء ، و قــد تسابقوا فى ذلك ، و صنفوا فى شمائله كتباً مستقلة أبرزها ما جمعه الامام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، فى كتابه المعروف (بكتاب الشمائل) و الحافظ ابن عساكر فى شرحه للترمذى ، و لامام المزنى فى تهذيب الكمال ، فضلا عن أبواب الشمائل فى كتب الحديث المعتمدة ، و ما ورد فى سيرة ابن هشام ، و طبقــات ابن سعــد و زاد المعـاد لابن قيم الجوزية و غيره .

و قــد شاع بين المحــدثين و مؤرخى السيرة ذلك المقيــاس المعروف المجمل الثابت فى النظر إلى الرسول ﷺ أنه المقياس الذى يتلخص فى عبـــادة زوجه عائشة رضى الله عنها عند ما سئلت عن خلقه و أجابت « كان خلقـه القرآن »

فنى رواية اسماعيل بن ابراهيم الأسدى عن يونس عن الحسن قال : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : — « كان خلقه القرآن » (١) .

و فى رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد ابن هشام قال : قلت لعائشة أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قال : قلت : بلى ، قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ القرآن ، قال قتادة : و إن القرآن جاء بأحسن أخلاق الناس (٢) .

و قد فطن المحدثون و مؤرخو السيرة النبوية إلى الفرق فى أخلاق رسول الله ﷺ بين مستويين : مستوى النبوة ، و مستوى الانسانية ، فقد ورد فى كتابه الشفاء للقاضى عياض أن خصال الجمال و الكمال فى البشر نوعان : ضرورى دنيوى اقتضته الجبلة ، و ضرورة الحياة الدنيا ، و مكتسب دينى و هو ما يحمد فاعله ، و يقرب إلى الله تعالى زلفى ، ثم هى على فئتين أيضاً ، منهما ما يتخلص لأحد الوصفين ، و ما يتمازج و يتداخل ، فأما الضرورى المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار و لا اكتساب مثل ما كان فى جبلته عليه الصلاة و السلام من كمال خلقته ، و جمال صورته و قوة عقله و صحة فهمه و فصاحة لسانه — و قوة حواسه و أعضائه و اعتدال حركاته ، و شرف نسبه و عزة قومه و كرم أرضه . . . .

و يلحق به ما تدعو ضرورة حياته إليه من غذائه و نومه و ملبسه و مسكنه و منكحه و ماله و جاهه .

و أما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية و الفضائل الشرعية من الدين و العلم ، و الحلم ، و الصبر و الشكر و العدل ، و الزهد ، و الصمت

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١ / ٣٧٤ ، طبع دار بيروت للطبع و النشر .

(٢) المصدر السابق و الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين .

و التؤدة و الوقار و الرحمة و حسن الخلق ، و المعاشرة و أخواتها ، و هى التى جماعها حسن الخلق (١) ، و من هذا النص نرى أن مقياس القاضى عياض يفرق بين المستوى الذى هو هبة من الله . . و لا مجال للقياس عليه ، و المستوى الإنسانى المكتسب من توجيهات الدين ، لكن هذه التفرقة و إن كانت لها أهميتها فى الجانب التربوى و التعليمى ، لكنها لا أهمية لها فى جانب تقويم شخصية الرسول ﷺ ، فشخصيته كل لا يتجزأ من ناحية تكوينها الخاص ، و أعمالها الانعكاسية ، و تعبر عن جماع العظمة و عن كينونته كرسول و إنسان فى آن واحد .

على أن مساحة الرسول الإنسانية مساحة فسيحة تعطينا نموذجاً كاملا لذروة من الحياة تتعدد فيها المواقف و الأبعاد ، و لا نكاد نتوجه إليها بموقف من المواقف أو مشكلة من المشكلات إلا و نجدها تعطينا الحلول المثلى التى تليق بإنسانيته حين يسمو إلى أقصى القمة التى يمكنها أن تصعد إليها النفس الإنسانية .

و لئن كان محمد — الرسول — ﷺ أبعد من أن ترنو إليه البشرية — أو أن تسعى للوصول إلى درجته ، لأن درجته — كرسول — إنما هى درجة اصطفاء محض « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٢) .

« الله يصطفى من الملائكة رسلا و من الناس (٣) — فإن الجانب الآخر من شخصية محمد - الإنسان — إنما يشكل إطاراً فسيحاً يستطيع أن يرنو إليه

(١) القاضى عياض : الشفا — مقدمة كلامه فى أوصاف النبى ، و انظر : محمد أبوزهرة فى خاتم النبيين ص ٢١٩ الجزء الأول طبع قطر .

(٢) الأنبياء ١٢٤ .

(٣) الحج ٧٥ .

كل انسان بل إنه لمن الواجب أن يرنو إليه و أن يحاول تمثله و التخلق بخلقه « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (١) .

وليس معنى ذلك أن ثمة انفصالا ملموساً فى شخصية الرسول بين الناحيتين النبوية و الانسانية بمعنى أنه عليه الصلاة و السلام ، يمكن أن يبدو فى بعض الأحايين ملائكياً خارجاً عن نطاق البشر فى سلوكياته — إذا كان فى موقف من مواقف النبوة — أو أن ينزل إلى مستوى بشرى لا يليق بسموه إذا كان فى موقف من مواقف الانسانة . . . كلا ، فإن شخصية محمد قد رشحت بالجانبين فى سياق واحد ، و هذا معنى الربط القرآنى الدائم فى شخصية الرسول بين البشرية و الرسالة « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » (٢) « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » (٣) .

و نحن نعرف من تاريخ بعض الهداة أنهم فصلوا — فى الحياة — بين جوانب و جوانب ، كما أننا نعرف أن إحدى الديانات الكبرى قد انحرف بها أصحابها فجعلوا من نبيها عيسى عليه الصلاة و السلام شبه الله ، « و قالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (٤) ، و بالتالى فقد ضاع معنى « الشخصية الانسانية النموذجية » التى يمكن أن يتأسس بها ، و قد أغرقت — بألوهيتها المزعومة — فى البعد عن واقع الناس ، و عن إمكانية أن تكون مقياساً لهم ، و كان من أثر ذلك أن ضاعت ملامحها و أبعادها . . و انحصرت

---

(١) الحج ٧٥ . (٢) الاسراء ٩٣ .

(٣) الكهف ١١٠ ، (٤) التوبة ٣٠ .

فى دائرة محدودة — فى جانب و فقدت تأثيرها الشمولى الانسانى الملموس فى جانب آخر .

أما شخصية (محمد الرسول) فقد رآها الناس نموذجاً حياً متحركاً يواجه الحياة فى شكلها العادى ، يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و يجوع ، و يتزوج ، و يغضب ، و يحارب ، و يزور الأرمل و المريض إلى آخر الأحوال و العوارض التى تلم بحياة الناس كلهم .

و المهم أنه يواجه كل هذه الجزئيات المعاشية بمنهج النبوة ، مقدماً للناس الأسوة النبوية التى تحافظ على معالم منهجها مهما تباينت الأحوال و اختلفت الظروف . . .

يقول الأستاذ العلامة سليمان الندوى مصوراً هذه الخاصة التى بهرت الباحثين المنصفين ، مسلمين و غير مسلمين ، و التى مثلت إطاراً فريداً فى شخصيات التاريخ البشرى كله . . . . يقول :

« كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن على رحمه الله يصدر فى (بتنة) قبل خمسين عاماً مجلة (نور الاسلام) ، و قد قال فى جزء منها أن صديقاً له من البراهمة قال له : إنى رأى رسول الاسلام ، أعظم رجال العالم و أكملهم ، فقال له الأستاذ حسن على :

— و بماذا كان رسول الاسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فأجاب : لأنى أجد فى رسول الاسلام خلالا مختلفة ، و أخلاقاً جمة ، و خصالا كثيرة ، لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم الانسانى فى آن واحد : فقد كان ملكا دانت له أوطانه كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء ، و هو — مع ذلك — متواضع فى نفسه :

يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا ، و أن الأمر كله بيد ربه ، و تراه فى غنى عظيم ، تأتيه الإبل مؤفرة بالخزائن إلى عاصمته ، و يبقى مع ذلك محتاجاً ، و لا توقد فى بيته نار للطعام الأيام الطوال ، وكثيراً ما يطوى على الجوع ، و تراه قائداً عظيماً ، يقود الجنـــد القليل الضعيف العدد ، فيقــاتل بهم ألوفاً من الجنـــد المدجج بالأسلحة الكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة .

و نجده محباً للسلام مؤثراً للصلح ، و يوقع شروط الهدنة على القرطــاس بقلب مطمئن هادىء ، و معــه ألوف من أصحابه ، من كل شجاع باسل و صاحب حماسة و حميـــة تملأ جوانحــه ، و نشاهـــده بطلا شجاعــاً ، يصمـــد فى وجوه الآلاف من أعـــــــــــدائه ، غير مكترث بكثرتهم و هو مع ذلك رقيق القلب ، رحيم رؤوف ، متعفف عن سفك قطرة دم ، و تراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها ، بينما هو لايفوته أمر من أمور بيته و أزواجه و أولاده ، و لا من أمور فقراء المسلمين و مساكنهم ، و يهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم و صدوا عنه فيحرص على إصلاحهم ، و بالجملة إنه انسان يهمه أمر العالم كلــه ، و هو مع ذلك متبتل إلى الله منقطع عن الدنيا ، فهو فى الدنيا ، و ليس فيها ، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله و بما يرضى الله ، لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير و يريد لهم الخير ، لكنه لا يعفو عن أعداء الله ، ولا يتركهم ، و لا يزال ينذر الذين قد صدوا عن سبيل الله و يوعدهم عذاب جهنم ، و تراه زاهداً فى الدنيا عابداً يقوم الليل لذكر الله و مناجاته ، إنك لتراه الجندى البـاسل المقاتل بالسيف و تراه رسولا حصيفاً ، و نبياً معصوماً ، فى الساعة التى تتصوره فيهـا فاتحـاً للبلاد ظـافراً بالأمم ، و إنه ليضطجع على حصير له من خوص ،

و يتكئ على وسادة حشوها من ليف، حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بلسان العرب، و يكون أهل بيته فى فاقة و شدة، و عقب استقباله الأموال العظيمة الآتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية، فتكون فى فناء مسجده أكواماً، و تأتيه ابنته و فلذة كبده فاطمة : تشكو إليه ما تكابد، من حمل القربة و الطحن بالرحى، حتى مجلت يدها و أثرت القربة فى جسمها، و الرسول - يومئذ - يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب و إمائها فلا تنال بنته من ذلك إلا دعاء لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربها (١) .

و من هنا فإننا يجوز لنا أن نصف شخصية الرسول بكل النعوت الانسانية، فنتحدث عنه زوجاً، و أباً، و قائداً، و تاجراً، و عبقرياً .

و فى المقابل فإن لنا أن نتحدث عنه نبياً معصوماً لا ينطق عن الهوى « و ما ينطق عن الهوى » (٢)، و معلماً لا يزيغ و لا يهذل، و مشرعاً عظيماً يأمرنا القرآن باتباعه « و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا » (٣)، من يطع الرسول فقد أطاع الله (٤) .

و لسنا نجد أدنى شبهة تعارض بين جانبى شخصيته عليه الصلاة و السلام .

و قد ظن بعض الناس أن مكانة محمد الرسول لا تجيز أن ننعته ببعض الصفات، البشرية الكريمة، كالعبقرية، و النبوغ، و الأريحية مثلا . . . و هذا منهج خاطئ فإن شرف الرسالة و مهمتها العظمى لا يجوز أن يرقى إليها إنسان نقى عظيم مؤهل لكى يؤدى الأمانة، و يحمل تبعة تمثيل الرسالة فى

---

(١) سليمان الندوى : الرسالة المحمدية (نقلا عن د / عبد الحليم محمود، دلائل النبوة ص ٤٤٦ مطابع دار الانسان) .

(٢) النجم ٣ (٣) الحشر : ٧ (٤) النساء ٨ .

الحياة ، على خير وجه ممكن ، و مهما كان من قول بعضهم فى حادثة (شق صدره) عليه الصلاة و السلام ، و هى الحادثة التى تكررت فى حياته مرتين : مرة و هو دون الخامسة أيام كان عند حليمة فى بادية بنى سعد ، و مرة قد جاوز الخمسين ، و هما حادثتان أكد أولاهما مسلم فى صحيحه ، و أحمد فى مسنده و الحاكم و ابن جرير الطبرى المؤرخ ، و أكد ثانيتهما البخارى فى صحيحه و النسائى من حديث مالك بن صعصعة .

نقول : « مهما يكن من قول بعضهم (١) فى هاتين الحادثتين من الناحية التاريخية — فإن العبرة المستخلصة من هذه الحادثة — سواء كانت حقيقة أو مجازاً — أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية الإلهية ، غرضاً للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، و أنها إنما تختار للغاية العظمى نفساً عظيمة (٢) .

و من هنا فقد كانت سيرة محمد قبل البعثة سيرة إجلال و أريحية و لم يعرف أنه ﷺ شارك فى صغائر أو فساد قط .

فالعظمة الإنسانية — بكل مقاييسها الصحيحة — صالحة لأن تطبق عليه دلائل النبوة - من جانب آخر - ناضجة » فى كل مسيرته الإنسانية ، و الفرق بين

(١) شك فى الحادثة المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة و قال : إن أخبار الشق لا تخلو من اضطراب ، لكنه فى النهاية — وقف غير راد و لا مصدق (أنظر خاتم النبيين ١ / ١٥٤ طبع قطر) و قد مال الشيخ محمد الغزالى أن الحادثة من باب المجاز (أنظر فقه السيرة ٦٨ الطبعة السابعة - مصر ١٩٦ ، و أنا أميل إلى صحة الواقعة حقيقة و مجازاً — .

(٢) أنظر فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى ١٦٨ .

النبوة و العظمة هو أن مقاييس الكمال فى النبوة تقاس بمن فى السماء ، و مقاييس الفطرة تقاس بمن فى الأرض ، و النبوة سماء تتكلم نوراً ، و العظمة تراب يصعد غروراً إلا أن العظمة المستمدة من النبوة نور من الأرض يتصل بنور من السماء (١) و ليس وصف النبى بالعظمة أو العبقرية معناه أن النبوة من جنس هذه العبقرية أو البطولات — كما وهم بعضهم — لكن يراد به مجموعة الملكات و المواهب و الاستعدادات التى فطر الله نبيه عليها ، فهى له نور فى الأرض ، قبل أن يتصل به نور السماء ، و من هنا كان مبدأ العصمة عن الكبائر قبل النبوة و بعدها (٢) .

و يقول الأستاذ عباس محمود العقاد ، فى دفاعه عن وصفه لمحمد بالعبقرية فى كتابه الموسوم باسم (عبقرية محمد) ، يقول :

« و لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون و يساوى فى إقراره المسلمون و غير المسلمين نافعاً فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير إنه لنافع لمن يقدرون محمداً عليه الصلاة و السلام — و ليس بنافع لمحمد أن يقدروه لأنه فى عظمته الخالدة لا يضار بإنكار ، و لا ينال منه بغى الجهلاء إلا كما نال بغى الكفار . . و إنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد و البينات التى يراها غير المسلم فلا يسعه إلا أن يقدرها و يجرى على مجراه فيها لأن مسلماً يقدر محمداً على

---

(١) أنظر د / مصطفى السباعى : عظماؤنا فى التاريخ ، مطابع المكتب الاسلامى ص ٣٠ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠ بتصرف .

هذا النحو يحب محمداً مرتين : مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره ، و مرة بحكم الشمائل الانسانية التى يشترك فيها جميع الناس (١) .

فلا ضير إذن فى أن نتحدث عن الشمائل الإنسانية عند النبى ﷺ تحت أى عنوان ، لتدل على أن محمداً كان عظيماً بكل مقياس ، و أن حظه من التوقير و الاحترام و الاعجاب ، و مكانته فى التقدم على عظماء الأرض ، يجب أن يشارك فيها المسلم و غير المسلم ، و يضاف إلى هذا أن الله سبحانه لم يجعل من شمائل محمد شمائل إنسانية بكل عرف ، و بكل قياس و بكل تقدير ، و فى جميع الأمكنة و الأزمان إلا ليدل على أنه نبى الانسانية الكامل ، و مثلها الأعلى ، و ملاذها الأخير ﷺ (٢) .

و ها هى القرون تتابع ، و منكرو عظمته يتضاءلون ، و جوانب نبوته تزداد نقاء و شهادات الخصوم — قبل الأنصار — أصبحت تلقف الأكاذيب و التلفيقات التى أحيطت بها سيرته ، بحيث إن (مايكل هارت) سنة ١٩٧٨م — و هو النصرانى — لم يجد من أن يضعه على رأس قائمة العظماء فى التاريخ . . . . إنه « الأول » (بعد أن كان محمد عليه الصلاة و السلام فى (جحيم) الكوميديا الإلهية للشاعر المعروف (دانتى) خلال القرون الكنسية الوسطى . . و كان (مايكل هارت) « الأول » فى التاريخ ، فهو يحاول — جاهداً — أن يبرر النتيجة التى انتهى إليها البحث . فيقول : « إن اختيارى لمحمد ليكون فى رأس القائمة التى تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمى فى مختلف المجالات ، إن هذا

(١) العقاد عبقرية محمد (التمهيد) طبع دار الهلال .

(٢) د / مصطفى السباعى : المرجع السابق ٣١ ، ٣٢ بتصرف .

الاختيار ربما أدهش كثيراً من القراء إلى حد أنه قد يثير بعض التساؤلات ، و لكن فى اعتقاد المؤلف أن محمداً كان الرجل الوحيد فى التاريخ الذى نجح بشكل أسمى و أبرز ، فى كلا المستويين الدينى و الدنيوى (١) .

و قبل (مايكل هارت) دوت خلال النصف الأول من القرن العشرين للميلاد (الرابع عشر للهجرة) كلمات الكاتب و الفيلسوف الانجليزى النصرانى المشهور (برنارد شو) التى نظر فيها إلى عظمة (محمد الرسول) بالمقياس الانسانى العام ، و لم يملك إلا أن يخاطب بنى قومه و يقول :

« لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى ، بسبب حيويته العظيمة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة . بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان و مكان » .

ثم استطرد يقول :

« لا مشاحة فى أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب ، و قد بدأ أن يكون مقبولا لديها اليوم ، و لقد صور أكليروس القرون الوسطى للاسلام بأحلك الألوان : إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم .

و لقد كانوا — فى الواقع — يمرنوننا على كراهية محمد و كراهية دينه و كانوا يعتبرونه خصماً للمسيح .

و لقد درسته — باعتباره رجلا عظيماً — فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى : منقذ الانسانية .

---

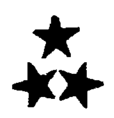
(١) دراسة فى المائة الأوائل ص ١٩ .

و إنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث ، لنجح فى حل مشكلته و بطريقة تجلب إلى العالم السلام و السعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما .

و لقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون ، أمثال كارلايل ، وجوته ، و جيبون ، القيمة الذاتية لدين محمد ، و هكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الاسلام ، و لكن أوربا — فى القرن الراهن — تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد ، و فى القرون القادمة ، قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها ، بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى (١) .

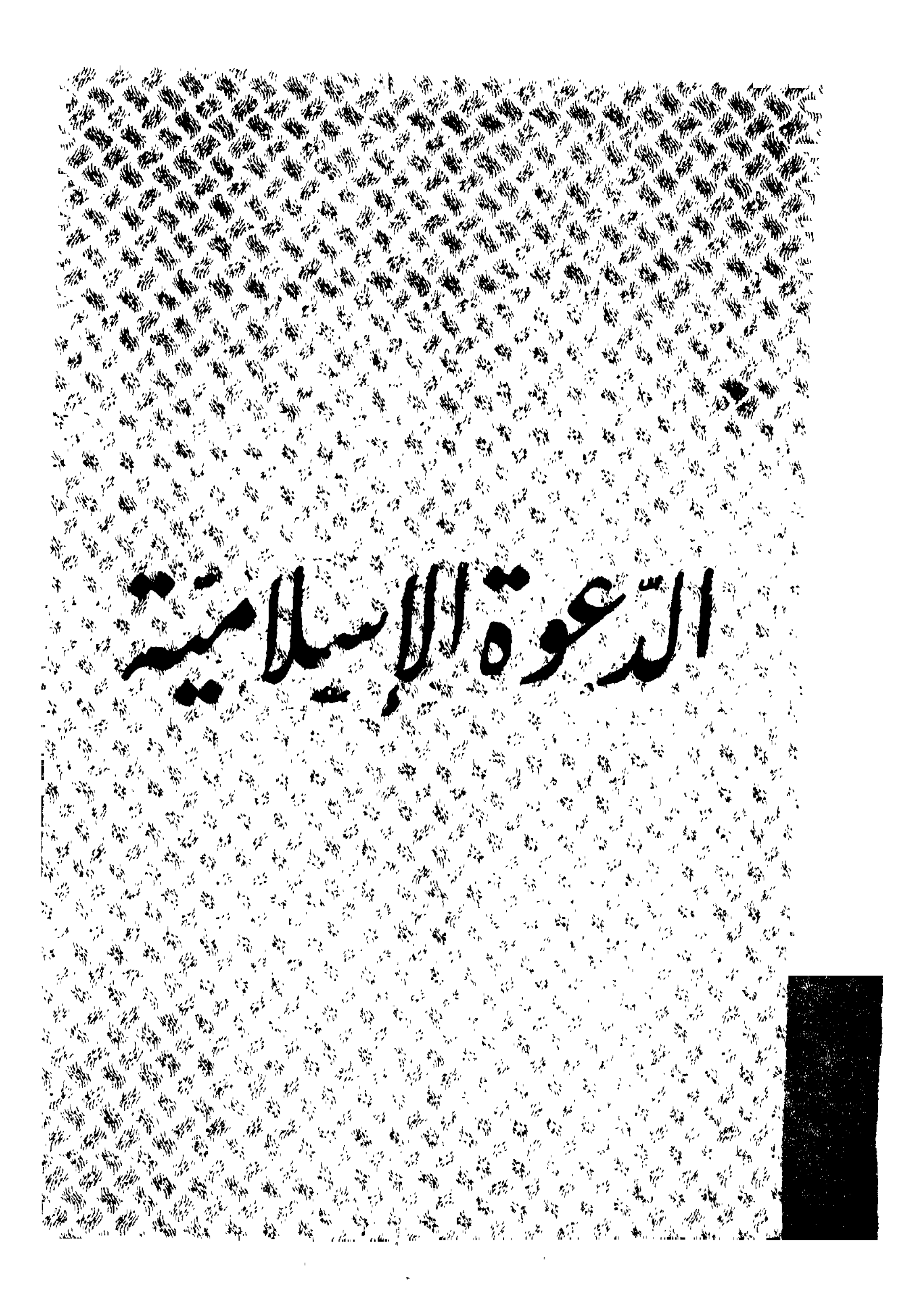
و هكذا — كما رأينا من تحليل البرهمى ، و ، مايكل هارت ، و ، برنارد شو — تقف (شخصية محمد الرسول) — قمة سامقة . . أمام كل العصور و الأماكن و المذاهب . . و أمام كل المقاييس الانسانية الصحيحة .

فعليه الصلاة و السلام



---

(١) نقلا عن : دلائل النبوة و معجزات الرسول . للدكتور عبد الحليم محمود ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، نشر دار الانسان — القاهرة .


الدعوة الإسلامية

وضع الدين فى المجتمع الاسلامى

(الحلقة الرابعة)

الأستاذ على القاضى ، مشرف تربية عملية
(جامعة قطر)

المرأة فى الاسلام :

و لا بد و أن يعرف الشباب المسلم بنوعية رأى الاسلام فى المرأة و الرجل بعد أن عرفوا رأى العلم الغربى الحديث ، وأن يعرفوا الاجابة عن المساواة الكاملة فى العمل و فى حق الطلاق و الميراث و ما إلى ذلك مما يثيرونه بين لحظة وأخرى حتى يكونوا على بينة من أمرهم ثم يقوموا بعد ذلك بتطبيق ذلك فى المجتمع الاسلامى فلا يقعوا فى المشكلات المختلفة التى وقع فيها المجتمع الغربى وأصبح يبحث عن طريق للخروج منها و لكن هيهات أن يصل إلى ذلك ما دام يعتمد على آراء بعض مفكريه مبتعدا عن هــدى الله الذى خلق الرجل و المرأة وجعل لكل منهما وظيفته التى تتناسب و قدراته : (ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير) الملك / ١٤ .

خلق الله آدم ليكون خليفة له فى الأرض ليقوم بعمارتها وإحقاق الحق فى ربوعها : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) البقرة / ٣٠ - وخلق حواء من آدم لتكون عونا له فى هذه الحياة يسكن إليها ويطمئن قلبه بها - فالمرأة لذلك جزء من الرجل تكمله ويكملها ولكن مهمة كل واحد منهما تختلف عن

مهمة الآخر و إلا لما كان هناك ضرورة لخلق نوعين من جنس واحد ، و العلاقة بين الرجل و المرأة تقوم على أساس عنصرين هامين فى الحياة هما المودة والرحمة : (و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليهـا وجعل بينكم مودة و رحمة) الروم / ٢١ ، وهذان المعنيان تتعلق بهما جميع المعانى الأخرى من حب وانسجام - ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالمودة والرحمة وسمى نفسه الودود الرحيم ، و حين تقوم العلاقـة بين الرجل و المرأة على المودة والرحمة فان ذلك يؤدى إلى الاستقرار الذى يؤدى إلى السعادة التى ترفرف على الرجل والمرأة و على الأسرة كلها ، وبالتالى على المجتمع الاسلامى كله - و هذه العلاقة تقوم على العقل و العاطفة ، وامتزاج العقل بالعاطفة يضع الأمور فى نصابها - وبذلك يمكن التغلب على كل اختلاف أو تنافر أو خصام قد يحصل بين الزوجين .

و لقد حذر الله تعالى آدم وحواء من إبليس بقوله : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) طه ١١٧ ، وبهذه الآية حدد الله سبحانه وتعالى مهمة الشقاء والعمل و الكد و الكسب و جعلها للرجل وحده و لو أنه أراد الشقاء للمرأة أيضاً لقال : فتشقيا بدلا من فتشقى - كما بين الله سبحانه وتعالى اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل فى قوله : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى) سورة الليل ، فسعى المرأة يختلف عن سعى الرجل ، ومهمة المرأة أن يسكن إليها الرجل فتخفف من آلامه وتهون عليه متاعبه بكل ما يلزمه من متطلبات الحياة - ثم هى بعد ذلك مصدر المودة و الرحمة التى يحتاج إليها الانسان - فالراحة التى نفقدها الرجل فى الخارج و هو متحفظ فى كل تصرفاته سيجد مكانها فى بيته الراحة و السكن و الاطمئنـان ،

ولقد كانت السيدة خديجة رضى الله عنها خير سند للرسول صلوات الله عليه منذ

رسالته وحتى وفاتها و من هنا كان حزنه الشديد عليها طوال حياته حتى لقد غارت منها السيدة عائشة مع أنها كانت ميتة - و من الأمثلة الرائعة التي يحدثنا عنها التاريخ موقف أم سلمة زوج النبي الكريم و ذلك حين اشتاق النبي وصحبه إلى مكة فلما ذهبوا ليعتمروا و كانوا على بعد عشرين كيلو من مكة وقف الكفار ليصدوهم عن الذهاب إلى البيت وحدثت مفاوضات كان من نتيجتها أن عقد النبي صلوات الله عليه معهم معاهدة تنص على أن يرجع هذه السنة بدون دخول مكة حتى لاتقول قريش: إن المسلمين دخلوا مكة عنوة وقهراً - فيكون على المسلمين العودة هذا العام على أن تسمح لهم قريش فى العام المقبل بالدخول إلى بيتها بأمرها - واقتنع الرسول الكريم و كتب العهد و لكن المسلمين حزنوا و قالوا: يارسول الله: كيف نقبل الدنية على نفوسنا ؟ لا بد و أن ندخل فكان النبي يقول لهم: (أنا رسول الله لن أخالف أمره و لن يضيعنى) و لكن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا غاضبين و بخاصة و أن من بنود الاتفاق: أن من أسلم من الكفار و ذهب إلى محمد فعلى محمد أن يرجعه إلى الكفار و من كفر من المسلمين فليس لهم أن يردوه . .

فلما فرغ النبي من قصة الكتاب قال لهم قوموا فانحروا ثم احلقوا و ذلك ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة - فلم يقم منهم رجل - حتى قال ذلك ثلاثا - فلما لم يقم أحد منهم دخل على أم سلمة فذكر لها مالقى من المسلمين فقالت أم سلمة: يارسول الله إنهم جاؤا يريدون دخول المسجد الحرام مقصرين ثم منعوا و هم على بعد قليل منه فهم مطرودون - و لكن اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة ثم تنحر بدنك وتدعو حالقك، فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك، فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زال عنهم الذهول و أحسوا خطر المعصية لأمر النبي ﷺ فقاموا عجلين ينحرون هديهم ويحلقون بعضهم لبعض حتى كاد يقتل بعضهم بعضا من الغم .

ثم هناك مهمة أخرى للمرأة لها أهميتها فى استمرار الجنس البشرى - و هى إنجاب الأطفال وتربيتهم التربية الكاملة التى يحتاج إليها الطفل، ذلك أن المرأة تتميز بالأمومة ويتجلى ذلك فى قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) النحل / ٧٢ .

مواطن الاشتراك :

و لما كان الرجل و المرأة من جنس واحد فانهما يشتركان فى أشياء هى التى يشترك فيها الجنس الواحد - فهما يشتركان فى طبيعــة التكوين للرجل و المرأة : (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) النساء / ١ - كما أنهما يشتركان فى الكرامة الانسانية التى يقول الله تعالى فيها : (ولقد كرمنا بنى آدم) الاسراء / ٧٠ - و بذلك تدخل المرأة و الرجل على السواء - كما أنهما يشتركان فى حرية الاعتقاد ، فكل من الرجل و المرأة حر فى أن يعتقد ما يريد و كل منهما محاسب على ما يعتقد و ليس هناك قهر أو إجبار - و القرآن الكريم يحدثنا عن بعض أنبياء الله الذين كانت زوجاتهم كافرات بالله تعـالى كنوح و لوط عليهما الصلاة و السلام يقول الله تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) التحريم ١٠ - و قــد أباح الاسلام أن يتزوج المسلم من كتابية - يهودية أو مسيحية - بدون أن يجبرها على دينه .

و الرجل و المرأة يشتركان فى الثواب و العقاب و كل ما يترتب على الايمان من عمل ، و لقد أفاضت الآية الكريمة فى ذلك . يقول الله تعالى : (إن المسلمين و المسلمات و المؤمنين و المؤمنات و القانتين و القانتات و الصـادقين و الصادقات و الصابرين و الصابرات و الخاشعين و الخاشعات و المتصــدقين و المتصـدقات

و الصـــائمين و الصائمات و الحافظين فروجهم و الحافظات و الذاكرين الله كثيراً و الذاكرات أعد الله لهم مغفرة و أجراً عظيما) الاحزاب / ٣٥ .

و للمرأة مثل ما للرجل فى الحقوق المدنية كالبيع و الشراء و الهبة و الاجارة - ولها أن تتصرف فى ملكهـــا بأى تصرف و ليس عليها وصى قبل الزواج أو بعـــده - و هـــذه الناحية لم تحصل بعض النساء فى أرقى المجتمعات عليها حتى الآن - فهى قبل الزواج تحت وصاية الأب أو الأخ و هى بعـــد الزواج تحت وصاية الزوج - و النظام المالى فى فرنسا يجعل المرأة تابعة لزوجها .

فالزوج هو الذى يدير الأموال المشتركة - وله حق التصرف بالبيع أو الرهن أو غير ذلك دون إذن من الزوجة لا تملك أن تبرم أمراً بشأن هـــذه الأموال دون إذن من الزوج . يقول جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب : (إن حقوق الزوجة المسلمة أفضل بكثير من حقوق الزوجة الأوربية - إن الزوجة المسلمـــة تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها و عن أنه لا يطلب منهـا أن تشترك فى الانفاق على أمور المنزل - و هى إذا أصبحت طالقا أخذت النفقة و إذا تأيمت أخذت نفقة سنة ونالت حصة من تركة زوجها) .

و للمرأة فى الاسلام حق التعليم و فى ذلك يقول رسول الله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) البخارى ، و قد طلب النساء من النبى صلوات الله عليه أن يجعل لهن يوما يعلمهن فيه و يعظهن فحدد لهن يوما .

و للمرأة الحرية الكاملة فى اختيار الزوج فهى كالرجل يباح لها فى أثناء الخطبة أن تنظر إليه و تستمع لحديثه بمقدار ما يعطيها انطباعا بأنه مقبول لديهـــا و ذلك فى حدود ما شرع الله و عند عقد الزوج يؤخذ رأيها - و رأيها ضرورى لاتمام عقد الزواج ، و فى ذلك يقول الرسول الكريم : (الثيب أحق بنفسها من وليهـا

و البكر تستأمر (تستأذن) و إذنها سكوتها -) البخارى ، و لو أن أباها زوجها بدون علمها أو رغما عنها فلها حق فى أن تفسخ هذا العقد .

و الاسلام كرم المرأة لجعل لها حق النفقة و السكنى و ألا تكلف بعمل خارج المنزل فان حرفتها الأمومة وصناعة الانسان - و هى أشرف صناعة و أهمها فى هذه الحياة ، يقول الشيخ شعراوى فى محاضراته التى ألقيت فى الدوحة عام ١٣٩٦ (و الاسلام لا يمنع المرأة من العمل و لكنه يضعه فى حدود الضرورة و قد بين القرآن الكريم ذلك فى قصة ابنتى شعيب إذ أن اباهما كان شيخا لا يقوى على السعى و ليس لهما إخوة من الذكور - ثم هما تلزمان حدودهما فلا تزاحمان بل تنتظران حتى يصدر الرعاء - و بذلك لا تنسى نوعها ولا تزاحم كما يزاحم الرجال - و بالتالى فقد ظهر فى هذه القصة مهمة المجتمع بالنسبة للمرأة فى إعانة موسى لهما على السقى .. ومن هنا يتضح لنا أن تنظيم الاسلام للاسرة قائم على الفطرة التى لا تتغير إلا بالانحراف و هو يجارى الفطرة فى تخصيص المرأة لوظيفتها - و حين يخص الاسلام المرأة للأسرة فانما يخصها لرعاية الانتاج البشرى و هو خير ما فى الوجود - والمجتمع الاسلامى المحض الذى يتربى فيه الطفل و يتشرب أخلاق الاسلام و عقيدته و شريعته و يقوم بواجب خلافة الله فى الأرض هو المجتمع الذى تقوم الزوجة فيه بدورها المرسوم لها فى الاسلام - و لذلك فينبغى ألا نشغل أعصابها باعالة نفسها و هى تقوم بهذا العمل و لا نفسد أعصابها بالعمل الذى تشارك فيه الرجل .

و من هنا فان الاسلام لم يكتب على المرأة الجهاد لأنها تلد الرجال الذين يحاربون - و هى فى هذا الميدان أقدر و أنفع لأن كل خلية فى جسمها معدة لهذا العمل - و أنفع بالنظر إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل - فالمعركة حين تحصد

الرجال و تستبق النساء تدع للأمة مراكز إنتاج الذرية فتعوض الفراغ ، و رجل واحد فى النظام الاسلامى يمكن أن يحمل أربع نساء ينتجن و يملأن الفراغ الذى تتركه الحروب بعد فترة من الأمان - فالمرأة هى المكان الطبعى الذى يسكن إليه الرجل هى تكمله و هو يكملها - و التفوق الطبيعى فى استعداد الرجل و نهوضه بأعباء المجتمع و تكاليف الحياة البيتية يمكنه من القوامة على المرأة) .

و الاسلام حين منح المرأة هذه الحقوق فقد منحها لها دون طلب و دون ثورة و دون جمعيات نسائية لأن الذى أعطى لها هذه الحقوق هو الذى خلقها وخلق الرجل و هو أدرى بامكانات كل - و من هنا فقد جعل الاسلام الرجل رجلا و المرأة امرأة ، و أودع كلا منهما خصائصه المميزة له ، وجعل لكل منهما وظائفه المحدودة - وكل واحدة منهما مكمل للآخر تحت ظل من المودة والرحمة . . و من هنا فلا يوجد خصام و لا شقاق و لا معركة حادة بين الرجل و المرأة و لا تحديات ولا يوجد رجل عدواً للمرأة و لا امرأة عدوة للرجل ،

وحين يرى الغرب ضرورة عمل المرأة فان العمل لم يخفف من شقاء الرجل و ازدادت هى شقاء ، ، و المرأة فى المجتمعات الغربية تعمل كالرجل وأجرها أقل ، و هذا العبء زيادة على الوضع الطبيعى للمرأة من حمل و رضاعة و ولادة وشئون منزل ، و قد أثر هذا على الأبناء فى تربيتهم ، و إن نسبة العاملات فى مصر ٤ ٪ فقط ومع ذلك فقد ظهر مرض اسمه فقدان الحنان و أصبح له كرسى فى جامعة الاسكندرية - فما الأمراض التى تحدث عند ما تبلغ نسبة العاملات ٥٠ ٪ مثلا ؟ .

فالمنهج الاسلامى يتبع الفطرة فى تقسيم الوظائف بين الرجال و النساء - و الفطرة جعلت الرجل رجلا و المرأة امرأة ، وأودعت كلا منهما الخصائص المميزة

له - وجعلت لكل منهما وظـائف معينة لحساب الانسانية - و تصوير الموقف كما لو كان معركة حادة بين الرجل و المرأة فيه تجن على الحقيقة و هو ضد مصلحة المجتمع الاسلامى بل و المجتمع الانسانى كلـه - فالمسألة هى توزيع اختصاصات و تنويع و تكامل وعدل بعد ذلك فى المنهج الاسلامى، لأن الذى شرعه هو خالق الذكر و الأنثى و هو أدرى بكل منهما ما يصلحه و ما يصلح له .

مواطن الاختلاف :

و ثـار حول المرأة المسلمة شبهات لمحاولة إبعادها عن الاسلام و السير بها فى طريق الغرب رغـم أن الغرب يلاقى أنواعا من المتاعب و المشكلات و من ذلك قيـادة البيت .

ومن وجهة نظر الاسلام فان قيادة البيت و الانفاق على الأسرة عملية تنظيم و لا تسيء إلى إنسانية المرأة أو تنقص من قدرها ،و لذلك فينبغى أن ينظر إليها فى إطار الأسرة ككل وكوحدة اجتماعية، يقول الله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بمـا أنفقوا من أموالهم) النساء / ٣٤ .

و قيادة الرجل للأسرة قيـادة رأى و تنفيذ لمـا تنتهى إليـه الشورى فى الأسرة و ليست قيادة سيادة أو استبداد و إن كانت الأصوات العاليـة فى الغرب و فى الشرق أحيانا تحاول أن تصور ذلك، و السبب أن عنصر المودة و الحب بين الزوجين قائم فى الأحوال السوية إلى درجة أن القرآن الكريم يصور هذه الصلة يقول : (هن لباس لكم و أنتم لباس لهن) البقرة / ١٨٧ - و الطبيعة قـد أعدت المرأة لدورها كما أعـدت الرجل لدوره - فالمرأة مزودة بالرقة و العطف و سرعة الانفعال و الاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة و هذه المطالب ليست سطحية بل غائرة فى التكوين العضوى و العصبى و العقلى و النفسى للمرأة ، و دور الرجل

الخشونة و الصلابة و استخـــدام الوعی و التفکیر قبل الحرکة و الاستجابة و هو بطیء الانفعال - و ذلك لأن وظائفه کلها تحتاج إلی قدر من التروی و إعمال الفکر ، و هذه الخصائص تجعله أقدر علی القوامة و أفضل فی مجالها .

و من الشبهات التی تثار حول المرأة فی الاسلام قول النبی صلوات الله علیه عن النساء : (إنهن ناقصات عقل و دین) فی البخاری ، و یجیب علی هذا الشیخ شعراوی فی محاضراته فی الدوحة عام ١٣٩٦ (العقل بمعنی الجهاز الذی یعقل وهو المخ بما فیـــه من مخیلات و حافظات و ذاکرة موجودة عنـــد الرجل و المرأة - و العقل أیضاً حصیلة تجارب و ثقافـــة و هو العقل المکتسب - المرأة المسلمـــة مفروض علیها أن تعتزل المجتمع فخبرتها فی هـــذه الناحیة قلیلة و لذلك کانت الآیة الکریمة الآتیة موضحة السبب : (و استشهدوا شهیدین من رجالکم فان لم یکونا رجلین فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذکر احداهما الأخری) البقرة / ٢٨٢ ، فالضلالة هنـا ضلالة اختصاص - ولذلك فان المرأة تقبل شهادتها فی شئون النساء بدون شهادة الرجال کالرضاعة والولادة - ولو اقتحم الرجال میادین النساء فلن یعرفوا فیها کسن الأطفال - والمعاملات من میادین الرجال فاذا اقتحمتها النساء فهذا ضلالة - فالمرأة حین تری شیئاً فی الخارج فانهـــا لن تتغلغل فی المسألة فقد یکون هنـا شیء أو کلمة تخدش الحیاء فتصرف نظرها عنه - أما الرجل فمفطور علی الحیاة و لیس له هذا التحفظ - فالشهادة من الأشیاء التی ترید من الانسان أن یلتقط کل ما یمت للشیء بصلة والمرأة نظرا لوضعها فی أنوثتها و نفسها ومجتمعها قد لا تتابع الشیء - و هذا لیس نقصا فیها - بل کمال فی جهتها لیعینها فی مهمتهـــا فی الحیـــاة) .

و المرأة تتعرض لمؤثرات ذاتیة تستجیب لها علی نحو معین من غیر أن یکون

لها ارادة فى الاستجابة - و الوظائف العامة أحوج ما تكون إلى استقرار القاضى وعدم تعرضه لمؤثرات خارجية أو ذاتية تخضعه حتما لأوضاع نفسية أو بدنيـــة قد تكون متناقضة .

المـــــــيراث :

و من الشبهات التى أثيرت حول المرأة فى الاسلام - أن الاسلام لم يساوها بالرجل فى الميراث لقد كانت المرأة فى الجاهلية مجرد متاع يورث - لا شأن لهـا و لا وزن ، و لا ترث كما يرث الرجل لأنها لا تشترك فى الدفاع عن حمى القبيلة - و كثيراً ما كان العربى فى الجاهلية يضيق بولادة الأنثى حتى إن بعضهم كان يسارع إلى وأدها : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ســاء ما يحكمون) النحل / ٥٨ / ٥٩ .

و لقد كانت المرأة فى الجاهلية إذا تزوجت ثم مات عنها زوجها سارع أحد أبناء زوجها إلى الزواج بها إذا أعجبته أو يمنعها من الزواج حتى تفتدى نفسها بمبلغ من المال - و إلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله (يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) النساء /١٩ - كما لا يسمح لها بالتصرف فى مالها دون إذن زوجها أو وليها . .

ثم جاء الاسلام ورد إليها كرامتها فساواها فى الانسانية بالرجل وحرم وأد البنات وفرض على أوليائهن تعليمهن و أوجب على الرجل الانفاق على المرأة و لو كان لها مال خاص - و كذلك الانفاق على الأسرة - و لذلك فانه لم يسو بين الرجل و المرأة فى الميراث - لأن المرأة ليست مكلفة بشىء بالنسبة للأسرة فهى الكاسبة على هذا الوضع — وعدم التسوية بينهما يعتبر مؤشرا إلى طريق الاحتفاظ

باعتبارها البشرى و بخصائصها فى الأنوثة و الزوجية و الأمومة — أى بخصائصها، كأنثى حتى لا تتحول إلى رجل أو شبه رجل — و مساواتها بالرجل اقتصاديا واستقلالها يعرضها لأزمات نفسية فهو يضعف إحساسها بالأنوثة كما يضعف إحساسها بالأمومة ويجعل هناك تراخيا فى العلاقات الزوجية .

الطـــــلاق :

و من الشبهات التى تثار حول الاسلام أنه أباح الطلاق فهو بذلك لا يحافظ على كيان الأسرة وأنه جعله فى يد الرجل و فى هذا هضم لحقوق المرأة لعدم مساواتها بالرجـــل .

و الاسلام دين واقعى فهو أولا قـــد أبعد عن الأسرة شبح الطلاق لأن الأسرة قائمة على المودة والسكن ، و الطلاق مدمر لكيان الأسرة — وقد جعله الله سبحانه و تعالى أبغض الحلال إلى الله يقول الرسول الكريم (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) وطلب من الرجل أن يصبر على زوجته حتى عند الكراهية يقول الله تعالى : (و عاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً و يجعـــل الله فيه خيراً كثيراً) النساء / ١٩ — و حين تتأزم العلاقة بين الزوجين فان الاسلام يطلب من الرجل سعة الصدر و التعقل و يلزمه باتباع أساليب من شأنها أن تعيد للأسرة استقرارها فالزوج عليه أولا أن يعظ زوجته و ينصحها فان لم يفد ذلك فيمكنه أن يهجرها فى المضجع فان لم يفد ذلك فيمكنه أن يضربها ضربا غير مبرح لكى تشعر المرأة التى تتصرف بعاطفتهـــا مقدار ما يجره عليها تعنتها من ضرر على الأسرة — و حين لا يؤدى ذلك إلى نتيجة يقوم حكم من أهله و حكم من أهلهـا بدراسة المشكلة من جميع نواحيها — ولهما بعد ذلك أن يقررا دوام العشرة الزوجية أو استحالتها ، يقول الله تعالى : (فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها إن يريدا

اصلاحا يوفق الله بينهما) النساء / ٣٥ .

و حتى الطلاق لم يجعله نهائيا من أول طلقـة — و اشترط أن يقع الطلاق فى طهر و ألا تخرج المرأة من بيت زوجها خلال العدة فى الطلقتين الأولى والثانية فعسى أن تطمئن النفوس و تهدأ الأعصاب ويتـذكر الزوجان ما بينهما من رباط فتعود المياه إلى مجاريها — كل هذا من أجل الوحدة الصغيرة للمجتمع فان لم يجـد ذلك كله فالطلقة الثالثة التى تمثل نهايه المطاف ، يقول الله تعالى : (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) البقرة / ٢٢٩ — ومنع الطلاق نهائيـا ناحية مثالية قد تصلح فكرا و لكنها لاتصلح تطبيقا فى المجتمعات البشرية التى نعيش فيهـا — و لقد مكث الناس فى الغرب و فى الشرق غير الاسلامى فترات طويلة ينفصلون فيها عن زوجاتهم بغير طلاق و يمارس كل منهما حريته الجنسية عن غير طريق الزواج — كما راح جماعات من الناس يثبتون الزنا على أنفسهم حين كان هذا هو الأسلوب الوحيد فى بعض المذاهب المسيحية للحصول على الطلاق — كما راح جمـاعات من الناس يعتنقون الاسلام لتطليق زوجاتهم فاذا تم لهم ذلك عادوا إلى دينهم السابق — و لقد أصبح معروفا فى المجتمعات البشرية أنه لا بد من إباحـة الطلاق فأقرت المجتمعات الغربيـة الطلاق — بل توسعت فيه إلى درجة هـددت مجتمعاتها تهديدات مختلفة ، ولقد نشرت جريدة « التيكونو ميست » البريطانية فى عددهـا الصادر فى ١٩ / ٥ / ١٩٧٧ (لقـد انتهى رئيس قسم الأسرة بالمحكمة العليا من اقتراح قانون بسيط للطلاق مثل استراليا يسمح بانهاء أى زواج بعـد أن يكون الزوجان قد انفصلا لمدة عام — و الجمعيـة القانونية ربمـا تصدر نداءها للاصلاح فى الشهر القادم — حل واحد أوصت به لجنة فنية عام ١٩٧٢ بالنسبة للأسر ذات أحد الوالدين هو تكوين محاكم قادرة على علاج المشاكل المعقدة الناتجة عن الطلاق

مثل الوصاية و كفالة الأبناء، وتسمى محاكم الأسرة و تتكون من قضاة متخصصين فى شئون الأسرة — ولكن السويد خطت خطوة أبعد من ذلك فقد نقلت الطلاق من القاضى إلى الزوجين معا فاذا ما اتفق الزوجان على الطلاق فانه يتم بينهما دون حاجة إلى حكم القاضى و يكفى تسجيله فى السجل المدنى . وهم يعتبرون ذلك خطوة على طريق الحضارة فى تحرير المرأة الأوربية لأنه يتجنب تعقيد الاجراءات القضائية من جهة كما يتجنب الكشف عن أسرار الزوجية من جهة أخرى .

و لقد كان الطلاق حقاً من حقوق الرجل لأن المرأة تحكمها العاطفة — وحين مكنت المرأة من حق الطلاق فى الغرب أصبح يحدث لأتفه الأسباب — و فى أمريكا تبلغ نسبة الطلاق ٤٨ ٪ — و هناك أسباب عجيبة للطلاق مثل أن تطلب المرأة الطلاق لأن زوجها لم يحلق لحيته كل يوم أو لأنه لا يشركها فى شئونه — و مع ذلك فلو اشترطت المرأة المسلمة أن تكون العصمة بيدها فان ذلك من حقها — ثم إن لها الحق فى أن تخلع نفسها و تخرج من العلاقة الزوجية : (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) البقرة ٢٢٩ ، و قد فعلت امرأة ثابت بن قيس ذلك على عهد الرسول صلوات الله عليه .

لقد كرم الاسلام المرأة تكريماً لا نظير له فى فلسفة من الفلسفات أو مجتمع من المجتمعات ، فالرسول الكريم يقول : (ما أكرم النساء إلا كريم و لا أهانهن إلا لئيم) و قد كانت آخر كلمة قالها الرسول الكريم و هو على فراش الموت : (استوصوا بالنساء خيراً) و يقول : (أكرم المؤمنين إيماناً أحسنهن خلقاً و خيارکم لنسائهم) و يقول : (استوصوا بالنساء خيراً فانهن خلقن من ضلع أعوج — و أن أعوج ما فى الضلع أعلاه فان أردت أن تقيمه كسرته وأن تركته لم يزل أعوج) النسائى — وهو بذلك يريد أن يتحمل الرجل تصرفات النساء

- و لقد كان النبي عليه السلام قـدوة فى ذلك .

و لذلك فانه من الخطأ أن يراد للمرأة أن تأخذ موقعا لم تهيأ له لأنهم أرادوا لها أن تتمرد على دينها فى مجتمعاتنا الاسلامية تحت شعارات الحرية والمدينة والحضارة وهى عبارات براقة تخفى وراءها ما تخفى من متاعب و تخلخل فى المجتمع الاسلامى و سيؤدى ذلك إلى أنها ستخرج متبرجة فتلهب الغرائز وسيؤدى ذلك إلى انحراف المنحرفين و أنها ستشغل نفسها بالخارج و تترك أمر بيتها - و إذا خرجت المرأة إلى الشارع فانها ستترك وظيفتها الأساسية التى خلقت لهـا و سيؤدى ذلك إلى انحراف المجتمع - و هذا ما يريد الغرب أن يصل إليه فى المجتمع الاسلامى حتى يصل إلى ما يريد .

خاتمـة :

الاسلام يعتبر الشباب هم عدته التى ينشر بها رسالتـه و من هنا فانه يعمل على تربيته التربية الكاملة المتكاملة من كل الزوايا بل ويهيئ له البيئة الصالحة من قبل وجوده - ثم إنه يكون متكيفا فى المجتمع الذى يعيش فيه و مع نفسـه و مع قيمه و أفكاره قوى الشخصية يؤثر أكثر مما يتأثر - و لكى يكون الشاب المسلم متوافقا بينه و بين نفسه لابد و أن يكون قادراً على أن يتعامل معها و أن يعرف كيف يسعد بهـا و يسيطر عليها - و فكرة المرء عن نفسـه هى النواة الأساسية التى تقوم عليها شخصيته و هى العامل الأساسى فى تكيفه الاجتماعى أيضاً - والصورة الذهنية تؤثر بها بطريقة مباشرة على حياة الفرد وتحدد الأسلوب الذى يحقق له التكيف و المواءمة مع كل جانب من جوانب البيئة المادية و الاجتماعية و النفسية بحيث يستطيع أن يؤدى رسالته التى خلقه الله تعالى من أجلها ..

و يقصد بالبيئة كل المؤثرات و الامكانات و القوى المحيطة بالشاب التى يمكنها أن تؤثر على جهوده للحصول عـلى الاستقرار النفسى و البدنى فى بيئته . و هى تشمل البيئة الطبعية كما تشمل البيئة الاجتماعية .

فالبيئة الطبيعية : تشمل كل ما يحيط بالفرد من مسكن أو ملبس أوطعام أو غير ذلك مما يحيط بالفرد من أشياء مادية و طبيعية و كل ما يلزمه و يحتاج إليه من مواد و أدوات تساعد على الحياة فهى تمثل جوانب هامة تؤثر على نمو الفرد و قدرته على التوافق و مقدار ما يبذله من جهد فى سبيل أدائه لرسالته .

و البيئة الاجتماعية : تشمل المجتمع و العلاقة بين الأفراد بعضهم مع بعض كما تشمل العادات و التقاليد و القوانين والنظم التى تنظم العلاقة بين الأفراد بعضهم مع بعض — فالانسان يتفاعل مع المجتمع يأخذ منه ويعطيه — و قد أدت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد إلى وجود نوع من الشعور الاجتماعى المشترك بين الأفراد يتحلى فى تضامن أعضاء الجماعة تجاه المهمات المشتركة والمسئوليات الاسلامية .

و التكيف يجب أن يكون عملية إيجابية مستمرة تواجه مطالب الحياة المستمرة لأن الحياة فى تغير مستمر و هى لذلك تتطلب من الفرد أن يكون مرنا و إلا انهار الانسان من كل جوانبه و بالتالى انهار المجتمع الذى يمثله — و كل ذلك فى إطار القيم الاسلامية .

و التكيف إما شخصى و إما اجتماعى فالتكيف الشخصى معناه أن يكون الشاب راضياً عن نفسه و أن تكون حياته خالية من التوترات و الصراعات النفسية التى تقترن بمشاعر القلق و الضيق و الشعور بالذنب — و يساعد على ذلك أن يدرك الشاب ما زود به من امكانات بدون حظ من قدرها أو زيادة فيها — وأن ينجح فى تحقيق آماله طبقاً لامكاناته و أن يكون راضياً عن هذا النجاح .

والتكيف السليم لا يتحقق الا إذا كانت حياة الشاب خالية من الاضطرابات النفسية و إلا إذا كان الفرد قادراً على مواجهة المشكلات بطريقة موضوعية ينعم فيها بحياة مستقرة هادئة —وهذا من خصائص الشخص الناضج السوى — والشخص الناضج هو الذى تتوافر فيه صفات أهمها أن يحسن استخدام وقت فراغه و أن يروح عن نفسه فى ظل القيم الاسلامية و أن يحس بالسعادة فى كل عمل يقوم به

نحو نفسه و نحو مجتمعه و نحو ربه ثم هو الذى ينظر إلى كل ما يحيط به نظرة موضوعية يخطط و ينظم و يعمل فاذا وفق شكر الله تعالى و إذا لم يوفق حمد الله تعالى و تمثل الآية الكريمة : (و عسى أن تكرهوا شيئاً و هو خير لكم) البقرة/ ٢١٦ .

و التكيف الاجتماعى هو قدرة الشاب على أن يعقد صلات اجتماعية راضية مرضية مع من يعاشرونه أو يعملون معه من الناس دون أن يشعر الفرد بحاجة ملحة إلى السيطرة أو العدوان على من يقترب منه أو برغبة ملحة فى اطرائهم له أو فى استدرار عطفهم عليه أو طلب المعونة منهم بحيث يستطيع أن يؤدى رسالته معهم بالأسلوب الاسلامى .

للتكيف السليم مظاهر يراها الناس ويحس بها صاحبها منها الراحة النفسية بمعنى أن الشاب يستطيع حل المشكلات بطريقة يرضاها لنفسه و يقرها الاسلام و بذلك لا يحس بالتعب النفسى أو القلق الزائد أو عدم الاقبال على الحياة و هذا ما يجعله أقدر على الصمود حيال الأزمات و الشدائد و ضروب الاحباط المختلفة دون أن يختل ميزانه — و منها الكفاية فى العمل و الانتاج إذ أن العمل له صلة وثيقة بالأهداف التى تكمن وراء السلوك الانسانى — و يحرص الاسلام على أن يعيش كل فرد فيه سعيداً متكيفاً مع نفسه ومع بيئته ، و التعاليم الاسلامية تجنب الشاب الوقوع فى الخطأ و بالتالى تخفف من حدة التوتر الذى يسببه له تصارع الدوافع والاتجاهات — و الشاب المسلم الذى يتمسك بقيمه يتمسك فى الوقت نفسه باطار يحدد أساليب سلوكه و يجد الشاب سنداً قوياً يلجأ إليه إذا ضاقت به الأمور ، و شعوره بهذا السند المتين يكون امراً باعثاً على الاطمئنان النفسى و الله تعالى يقول : (و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للؤمنين) الاسراء/ ٨٢ ، فالقرآن شفاء من القلق ومن الحيرة و الاضطراب ذلك لأن المسلم يحس بأن الله معه يرعاه فيحس بالراحة و الاطمئنان و الأمن و يبعد ذلك عنه اليأس و القنوط لأن

اليأس و الايمان لا يجتمعان فى قلب مؤمن كما يقول النبى صلوات الله عليـــه — و المسلم إذا أراد شيئاً فى هذه الحياة فعليه أن يسأل الله من فضله (و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن و اسألوا الله من فضله) النساء/ ٣٢ .

و الفرد بمجرد دخوله الاسلام عن اقتناع و فهم و تدبر فانه يكون قوى التكيف سريع الاستجابة لكل المواقف التى تتمشى مع الاسلام و تعاليمه — ومن ذلك ما حدث للذين يشربون الخمر حين نزلت الآية الكريمة : (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطـــان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء فى الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله و عن الصلاة فهل أنتم منتهون) المائدة ٩٠/ ٩١ ، فقالوا فور سماعهم هذه الآيات الكريمة : انتهينا ربنا وكسروا زقاق الخمر و أراقوا ما فيها على الأرض .

و الاسلام يقوى التكيف لدى المسلمين بالاهتمام بالوسائل الدافعة المتمثلة فى القدوة الحسنة و البيئة و الترغيب و الملاينة قال الله لنبيه « و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » آل عمران ١٥٩ وفى استخدام الوسائل المانعة كالتهديد أو العقاب عند الضرورة ، وقد ترتب على التكيف الذى حدث فى المجتمع الاسلامى الأول أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، و قد استطاعت التربية الاسلاميـــة بالمنهج الربانى أن تحرر نفوس من دخل الاسلام على الانقياد لهذه المشاعر القوية و الانقياد لهذا السلوك وأن تزيح العقبات المختلفة التى تعوق تقدم الشباب أو تكيفه مع نفسه أو مع مجتمعه .

جاء الاسلام ليربط القلوب بالله تعالى و ليقيم موازين القيم الأخلاقية بميزان الله — و ليخرج المسلمين إلى مجال الأخلاق والتعامل مع الأصدقاء و مع الأعداء على السواء و وصلت سعادة الأفراد و الجماعات إلى درجة تهفو إليها نفوس الناس فى عصرنا الحاضر فى الشرق و فى الغرب على السواء .

من كنت مولاه فعلى مولاه

للعلامة عبد الحى الحسنى رح

فى حديث براء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما نزل بغدير خم (١) أخذ بيد على رضى الله عنه فقال ، ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا بلى ، قال ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه قالوا بلى ، فقال : اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه فلقيه عمر رضى الله عنه بعد ذلك فقال له : هنيئاً يا ابن أبى طالب أصبحت و أمسيت مولى كل مومن ومومنة ، رواه أحمد (٢) قال الهروى (٣) فى المرقاة (٤) تمسك

---

(١) قال الزمخشرى : اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذى بين مكة و المدينة بالجحفة ، و قيل : هو على ثلاثة أميال من الجحفة . و ذكر صاحب المشارق أن خم اسم غيضة هناك وبها غدير نسب إليها ، قال الحازمى : خم واد بين مكة و المدينة عند الجحفة به غدير عنده خطب رسول الله ﷺ (معجم البلدان) .

(٢) أخرجه الترمذى فى المناقب رقم ٣٧١٤ ، ورواه أيضاً أحمد فى «المسند» ٤ / ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٨٢

وهو حديث صحيح كذا فى جامع الاصول فى أخبار الرسول لابن أثير الجزرى ج ٨ ص ٦٥٩ ، رقم الحديث ٦٤٨٨ ، بتحقيق عبد القادر الارناووط .

(٣) هو على بن سلطان محمد القارى الهروى — م١٠١٤هـ .

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج ٥ ص ٥٦٨ .

الشیعة بأن هذا الحدیث من النص الصریح بخلافة علی رضی الله عنه حیث قالوا ! معنی المولی ، الأولی بالامامة و إلا لما احتاج إلی جمعهم کذلك ، و هذا أقوی شبههم ، و دفعها علماء أهل السنة بأن المولی بمعنی المحبوب ، و هو کرم الله وجهه سیدنا و حبیبنا و له معان أخر ، و منه الناصر وأمثاله فخرج عن کونه نصاً فضلا عن أن یکون صریحاً ، ولو سلم أنه بمعنی الأولی بالامامة فالمراد به المآل وإلا لزم أن یکون هو الامام مع وجوده ﷺ فتعین أن یکون المقصود حین یوجد عقد البیعة له فلا ینافیه تقدیم الخلفاء الثلاثة الائمة علیه لانعقاد اجماع من یعتد به حتی من علی رضی الله عنه نفسه ثم سکوته عن الاحتجاج به إلی أیام خلافته قاض من له أدنی مسکة بأنه علم منه أنه لا نص فیه علی خلافته عقب وفاته ﷺ مع أن علیا کرم الله وجهه صرح نفسه بأنه ﷺ لم ینص علیه و لا علی غیره ، انتهی ملخصا .

قال القنوجی (۱) فی الدین الخالص (۲) و لو کان ﷺ أراد بذلك خلافته لم یکن له مانع من التصریح به ، فلما لم یصرح به واختار لفظاً له معان کثیرة سقط الاحتجاج به علی مراد الشیعة فان الاحتمال یسقط الاستدلال ، و لو فرض أن له دلالة علی الخلافة فأین دلالته علیهما بلا فصل ، هل فیه لفظ یدل علی ذلك ، قل لی إن کان بقی فیك بقیة من الحیاء و الانصاف و لا منکر لخلافته فی زمن بیعته ، وسیاق الحدیث یأبی هذا الاحتجاج المنکر المخالف للادلة الصحیحة لأن قوله ﷺ «أللهم وال من والاه وعاد من عاداه» نص واضح جلی علی أن المراد بالمولی المحبوب لا غیر ، لوقوع الموالاة فی محاذاة المعاداة فقد فسر رسول ﷺ حدثیه بنفسه

(۱) السید محمد صدیق حسن خان الحسینی القنوجی ۱۲٤۸ھ — ۱۳۰۷ھ .
(۲) الدین الخالص ج ۳ ص ۵۳ — ٤۵۲ .

الشريف و عين مراده بذكر التولى و التبرى ، فهو فى معنى الحديث لا يحبه إلا مومن و لا يبغضه إلا منافق (١) ، ويدل له رواية أخرى فى حديث الباب بلفظ : وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه وأنصر من نصره وأخذل من خذله و أدر الحق معه حيث دار ، وكل ذلك دعاء له ، و لمن والاه و أحبه ونصره ولم يخذله ، و قد امتثل ذلك أولا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث هنأه بهذا الحديث ، ثم تتابع عليه أهل السنة و الجماعة ، وأما الرافضة - فخذلوه و لم يوالوه و لا نصروه و لا أحبوه كما ظاهر من صنائعهم و بدائعهم و إن كان الف بعضهم فى إثبات المولى بمعنى الأولى كتابا ضخماً (٢) فى أجزاء كبار حكى فيه أقوال الفقهاء و غيرهم من أهل السنة و الجماعة ، وهـذا لا ينفعهم أبداً ، فان من معانى المولى الأولى أيضاً نسلمه و لكنه لا دلالة له على مراد الشيعة ، فان الاولوية لا تقتضى الخلافة بلا فصل (٣) و لا تقديم صاحبها على غيره لا عقلا و لا شرعا فأين

---

(١) أخرجه الترمذى فى مناقب على بن طالب ، واسناده ضعيف و لكن يشهد له الحديث الذى أخرجه مسلم والترمذى والنسائى عن رزين بن رحبيش قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول : و الذى خلق الحبة وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبى الأمى إلى : إنه لا يحبنى إلا مومن ولا يبغضنى إلا منافق ، فهو به حسن ، و لذلك قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هـذا الوجه جامع الأصول ج ٨ ص ٦٥٦ .

(٢) فيما نظن هو كتاب «عبقات الأنوار» فى ثلاثين جزءاً ، للسيد حامد حسين الكنتورى — م ١٣٠٦ — نزهة الخواطر ج ٨ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) إن حكيم الاسلام الامام ولى الله الدهلوى — ١٧٠٢م — ١٧٦٣م — كتب فى كتـابه الفريد « قرة العينين فى تفضيل الشيخين » بحثا قيما فى *

هذا من ذاك وأين السمك من السماك ، قال و قد وقفت على كتاب فى هـــذا الباب فوجدت أن مؤلفه قلع الجبل و أخرج الكلأ وأضحك أهل المعرفة ، بكيفية الاستدلال عليه فى الخلأ والملأ ، ثم نقل القنوجى عن كلام العلماء وما هو مذكور فى الصواعق المحرقة (٤) وحاصله أنا لا نسلم أن المولى هنا بمعنى الحاكم و الوالى ، بل هو بمعنى الناصر و المحبوب ، كيف وهذه اللفظة مشتركة بين معانى عـــديدة ، منها المعتق و العتيق و المتصرف فى الأمر و غيرها ولا اعتبار بتعيين بعض المعانى المشتركة بلادليل و نحن و هم متفقون على صحة إرادة معنى المحبوب و الناصر ، وسياق الحديث أيضاً ناظر فى ذلك ، و كون المولى بمعنى الامام المعهود و المعلوم لم يثبت من لغة و لا من شرع و لم يذكر أحد من أئمة اللغة أن مفعلا أتى بمعنى أفعل ، ويقال هـــذا الشى أولى من الشئ الفلانى ولا يقال مولى منه ، فالغرض من التنصيص على موالاته الاجتناب من بغضه ، فان التنصيص على ذلك أوفى و أوكد لمزيد شرفه رضى الله عنه ، و لهذا صدر الحديث بقوله : ألست أولى بالمومنين من أنفسهم ، و دعا أيضاً لهذا السبب و قد ورد فى بعض طرقه ذكر أهل بيت النبوة عموماً و ذكر على رضى الله عنه خصوصاً كما عند الطبرانى و غيره بسند صحيح ، وهذا يدل على أن المراد بذلك الحث و الترغيب و التأكيد على محبتهم و ورد أن بعض الصحابة كانوا فى اليمن و شكوا عنه - كرم الله وجهه - وأنكروا عليه فى بعض الأمور كبريدة الاسلمى (١) - رضى الله عنه - و هو فى البخارى وصححه الذهبى

---

* استخلاف أبى بكر رضى الله عنه — ص ١٢ — ١٣

(٤) الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع و الزندقة ، لشهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى المكى ص ٢٤ — ٢٥ .

(١) عن بريدة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عليا إلى خالد ليقبض[]

أيضاً فتغير وجـه رسول الله ﷺ - و قال يا بريدة ألست أولى بالمومنين من أنفسهم ، الحديث .. .. وجمع الصحابة و أكدهم فى ذلك .

قال ابن حجر المكى سلمنا أن المولى بمعنى الأولى ولكن من اين يستلزم لأن يكون المراد به أولى بالامامة بل المراد به الأولى بالقرب و الاتباع كما قال سبحانه « إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه » و ليس عنـدنا دليل قاطع يدل على نفى هذا الاحتمال ، سلمنا أن المراد به أولى بالامامة و لكن أين الدليل على إمامتـه فى الحال بل فى المآل وقت البيعة معه - رضى الله عنه - و تقديم الأئمة الثلاثة باجماع من الصحابة و على - رضى الله عنـه - داخل فى هـذا الاجماع منهم ، وبقرينة الأمور الأخرى المصرحة بخلافة أبى بكر (١) - رضى الله عنه - بعده - ﷺ ، و كيف يكون حجة ونصاً على الامامة ، و لم يحتج به على و لا عباس - رضى الله عنهما به و لا غيرهما عند مس الحاجة إليه بل استدل به على - رضى الله عنه - فى زمن خلافته ، فسكوته عن الاحتجاج به إلى أيام الخلافة دليل بين على أنه علم أن هذا ليس بنص منه ﷺ على خلافته بعد وفاته - ﷺ - و فى

[] الخمس فقبضه منه فاصطفى على منه سبية فأصبح وقد اغتسل ليلا ، وكنت أبغض عليا فقلت لخالد : ألا ترى إلى هذا ؟ فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له ، فقال يا بريدة أتبغض عليا ، قلت نعم ، قال لا تبغضه فان له فى الخمس أكثر من ذلك ، هكذا أخرج البخارى فى المغازى باب بعث على بن طالب و خالد بن الوليد رضى الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع ، و قد أخرج الترمذى هذا الحديث فى مناقب على بن أبى طالب بالفاظ أخرى و راو آخر .

(١) و قد أشار رسول الله ﷺ إشارات واضحـة إلى استخلاف أبى بكر..

البخارى (١) أن عليا و العباس - رضى الله عنهما - خرجا من عنده - ﷺ - فى مرض الموت فقال العباس لعلى - رضى الله عنهما - أطلب هذا الأمر يكون فينا ، فقال على - رضى الله عنه - لا أطلب ، و لو كان هذا الحديث نصاً فى إمامته - كرم الله وجهه - لم تكن الحاجة إلى المراجعة إليه - ﷺ - والسؤال عنه و لم يقل العباس - رضى الله عنه - اطلب هذا الأمر يكون فينا مع قرب العهد بغدير خم نحو شهرين أو أقل أو أكثر ، و لا يجوز العقل نسيان

.. رضى الله عنه بعده ، كما جاء فى رواية عن عبد الله بن ربيعة عن رسول الله ﷺ : مروا أبا بكر يصل بالناس قال فخرجنا فاذا عمر فى المسجد وكان أبو بكر غائبا ، فقلت يا عمر : قم فصل للناس فتقدم فكبر ، فلما سمع النبى ﷺ صوته ، و كان عمر رجلا مجهراً قال ! فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون ، فبعث إلى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس ، رواه أبو داود ، فى باب استخلاف أبى بكر رضى الله عنه .

يقول صاحب جامع الأصول : يأبى الله ذلك و المسلمون ! فيه نوع دلالة عن خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، لأن هذا القول يعلم منه أن المراد به ليس نفى جواز الصلاة خلف عمر ، كيف و هى جائز خلف غيره من آحاد المسلمين ممن هو دون عمر ، و إنما أراد به الامامة التى هى النيابة والخلافة عن النبى ﷺ فلذلك قال فيه : يأبى الله ذلك والمسلمون ، جامع الأصول ج ٨ ص ٥٩٥ .

(١) أخرجه البخارى فى الاستئذان ، باب المعانقة و قول : الرجل كيف أصبحت ؟ و فى المغازى باب مرض النبى ﷺ .

الصحابة كلهم أجمعين لهذا الخبر وكذلك كتمانهم إياه مع العلم به بل كانوا ذاكرين بهذا الحديث فى حالة البيعة بأبى بكر الصديق — رضى الله عنه — عالمين به ، و قد خطب رسول الله — ﷺ — بعد يوم غدير خم و أظهر حق أبى بكر و عمر — رضى الله عنهما — قال لا يكون أحد أميرا عليكم كما فى الأخبار ، و قد ثبت أنه — ﷺ — حث وحض على مودة أهل بيته ومحبتهم و موالاتهم فى هذا الحديث و غيره ، وبين الموالاة و الخلافة فرق واضح ، قالت الشيعة إن الصحابة علموا بهذا النص و لكن لم يتبعوه و لم ينقادوا له ظلماً وعناداً و مكابرة ، وترك على — رضى الله عنه — الطلب و الاحتجاج تقية (١) ، و هذا كذب و افتراء

(١) قد جاء فى كتاب موثوق به عند الشيعة و قد صنفه مؤلفه فى عشرين سنة و هو كتاب « الأصول من الجامع الكافى » لمحمد بن يعقوب الكلينى - ٣٢٩هـ - انظر ترجمته فى « الاعلام » لخير الدين الزركلى ج ٨ ص ١٧ .

قال أبو جعفر عليه السلام ! التقية من دينى و دين آبائى ولا إيمان لمن لا تقيــة له . ص ٤٨٤ ، و جاء فى موضع آخر : عن ابن أبى عمير قال قال لى أبو عبد الله عليه السلام : يا أبا عمر إن تسعة أعشار الدين فى التقية و لا دين لمن لا تقية له ، ص ٤٨٢ ، و جاء فى موضع ثالث : عن سليمان بن خالد قال أبو عبد الله عليه السلام : يا سليمان إنكم على دين من كتمه أعزه الله و من أذاعه أذله الله — ص ٤٨٥ .

و قد جاء فى الكتاب افتراءات عجيبة ، و أكاذيب غريبة لا يسيغها العقل ولا يقبلها الشرع ، وإنهم عزوا إلى الأئمة علائم التقى و الهدى كل فرية و نسبوا إليهم كل نسبة ، هم فيها برآء .

و قد تناول العلماء المسلمون - قديماً و حديثاً - هذا الموضوع ★

لأنه — رضى الله عنه — كان شديد القوة ، كثير العدد ، شجاعاً ، و قد سمع النبى ﷺ هذا النص فلا يمكن له أن لا يحتج به و لا يعمل به بل هذا محـ منه ، وقد احتج أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — بحديث «الأئمة من قريش لم لم يقل إن النص واقع فى خصوصه و كيف تحتج بهذا العموم .

و ذكر البيهق عن أبى حنيفة أنه قال : أصل عقيدة الشيعة تضليل الصحا. والروافض قائلون بتكفيرهم قالوا كفر كلهم إلا أشخاصاً عديدة ، قال أبو بكر الباقلانى و فيما ذهب إليه الرافضة إبطال لدين الاسلام بتمامه لأنه لما وقع منهم وصـ عنهم كتمان النصوص ، و وقع الظلم و الافتراء و الكذب فى أول أحكام الاسـ بالغرض النفسانى . فسائر ما روى عن هؤلاء من الأحاديث والأخبار يكون زو وباطلا بل هذه المنقصة ترجع إلى رسول الأمة وبنى الرحمة لصيرورتهم لذلك صحبته — ﷺ بل إلى على — رضى الله عنه — أيضاً لأنه تهاون وقصر فى طا الحق و تأييده وجبن فى تحصيله هـذا كلام الشيخ ابن حجر المكى فى الصوا و هو طويل و فيما ذكرناه كفاية (١) اهـ .

★ و أدوا ما عليهم من مسئوليات نحو الفرق الضالة من الشيعة و غيرها ، نلاحظها فى كتبهم التى ألفوها فى هذا الموضوع ، من ابن تيمية الحرانى إلى الشيخ عبد الشكور اللكنوى .

(١) إن الروافض أساؤا إلى الاسلام و المسلمين كثيراً ، و ألصقوا بجبينهم وصمة ذل و هوان بهذه المعتقدات السرية الباطلة ، التاريخ الاسلامى حافل بأنهم قاموا بهتافات جذابة ولا فتات خلابة للنيل من كرامة الاسلام و الحط من قيمته ، و لكن علماء الاسلام و المجددين لهذا الدين ، دحضوا أباطيلهم بردود مقنعة ، وكشفوا اللثام عن نواياهم الخبيثة .

. . . .

و من شؤم هذه المعتقدات و تعاستها أننا نرى أن إيران أصبحت عقيمة حينما تمذهبت بالمذهب الشيعى و كانت قد أنجبت عباقرة العلم و عمالقة الفكر وأئمة الفن و أفذاذاً لا نظير لهم فى العالم ، و كانت تربتها صالحة منتجة و إليها أشار الدكتور محمد إقبال « إنه لم ينهض من ربوع إيران و أرضها الخصبة رجل فى منزلة جلال الدين الرومى منذ زمن طويل ، مع أن التربة هى التربة ، و تبريز هى تبريز » .

لأنهم أخذوا بالقشور دون اللباب ، و استغرقوا فى الاعمال التى لاتمت بصلة ما إلى آية محكمة ، و لا إلى سنة قائمة ، و لا إلى فريضة عادلة ، فضلوا و أضلوا ، وإليه أشار الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى فى كتابه « من نهركابل إلى نهر اليرموك » ص ٨٧ . حينما قام بجولة استطلاعية دعوية فى ربوعها :

و قد لاحظنا مدة إقامتنا القصيرة فى إيران ، أن المشاهد أكثر عمرانا و ازدحاما ، و النفوس أعلق بها من المساجد ، فاذا دخل غريب فى مشهد سيدنا على الرضا لم يشعر إلا و أنه داخل فى الحرم . وهوغاص بالحجيج ، مدوى بالبكاء والضجيج ، مكتظ بالرجال و النساء ، مزخرف بأفخر الزخارف والزينات قد تدفقت إليه ثروة الاثرياء، وأموال الأغنياء، وتبرعات المتوسطين والفقراء، فلايكاد يفرق بينه وبين الحرم المكى والمسجد النبوى . و يرى أقل من ذلك فى مدفن السيد معصومة بـ « قم » .

الأدب الاسلامى و صلته بالحياة

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الدوى
رئيس كلية اللغة العربية لندوة العلماء لكناؤ

الأدب يمثل الحياة ويصورها ويعرض على القارى والسامع صوراً تنعكس وتبدو من مجالات العيش المختلفة و يعرض عرضاً جميلا و مؤثراً لشتى جوانبها و أشكالها ، فتبدو فيه ملامح الكون و الحياة وأشكالها المتنوعة فعند ما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة ننظر إليها و نشاهدها فى مرآة الأدب بشريطة أن يجيد الأدب عمله وتصدق من صاحبه مقدرته و تحسن ملكته ، و بذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة و صورها فهى تلمس و تشاهد ولو بعد وقوعها بزمن بعيد إذا بقيت العبارة المصورة لها ، و بقى التعبير الفنى الجميل عنها و بقيت معانيها و كلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة فى أوانها .

فبالأدب يصل الانسان إلى فهم ظواهر الحياة و تذوق كيفياتها ، وقد يكون هذا الفهم و التذوق أحسن و أقوى من فهمها و تذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب ، و لو أن ظواهر الحقيقية هى أقرب منالا و من السهل أن تسبر أغوارها بصورة مباشرة ، ولكن الأدب ينوب عن ذلك منابا كبيراً و واسعاً إذا انصرمت أو غابت الظواهر الحقيقية و الوقائع العملية .

و يتسع الأدب باتساع الحياة و تتعدد جوانبه و نواحيه كما تتعدد جوانب الحياة و نواحيها و يستطيع به القارى أو السامع أن يطل على حياة البعيدين فى المكان أو السالفين فى الزمان مهما قدم تاريخهم أو بعدت أوطانهم .

ومن أغزر اللغات أدباً وأطولها مدة هی اللغة العربیة و آدابها فان امتدادها لا یقصر من خمسة عشر قرناً بالتواصل و التوالی ، لم تنقطع هذه اللغة ولا آدابها فی هذا الانتهاء مـــدة ، و لم تنسحب من المجال الأدبی إلا بقدر ما اعتورها من ضعف و استکانة لأسباب متغیرة و طـــارئة ، و کان الاسلام أقوی و أرد علی اللغة العربیة و علی آدابها ولقد تلقاه الأدب و حمله بل و تزعم به و أصبح لباساً مطابقاً له و احتمل مسؤلیة عرضه و تقدیمه ، فقد کان رسول هذا الدین محمد بن عبد الله ﷺ و هو الداعی الأعظم للاسلام من أکثر أهل هذه اللغة و آدابهـا قوة و إجادة ، لم یکن قائلا للشعر و لکنه کان مجیداً لفهمه و متذوقاً لمحاسنه أما النثر الأدبی فقد کان ﷺ أروع الناس جمیعاً کلاماً فیه و الفهم له .

ثم إن الدین الاسلامی لم یکن دیناً قاصراً محدوداً فی العبادات وحدها حتی یقال عنه إنه إذا سایره أدب کان أدباً منحصراً فی العبادات وحدها بل إنما الاسلام هو الدین الفرید الذی اتسع کاتساع الانسان و امتد کامتداد حیاته ، و لم یتعارض إلا مع ما یتعارض مع مصلحة الحیاة الانسانیة ذاتها و مع ذوقهـــا الجمیل ، فانه إذا تعارض فیتعارض مع عملیات الهدم و الاخلال بصالح الانسان و إنسانیته .

فلم یکن للعمل الأدبی أن یجد صعوبة فی منادمة الاسلام و مسایرته ولم یکن له عائق عن أن یجد تحقیقاً لأهدافه فی تصویر جوانب الحیاة المتلائمة مع الاسلام.

فموضع الاختلاف بین الأدب الاسلامی و غیره من أجناس الأدب هو فی رعایة مصلحة الحیاة الانسانیة وعدم رعایتها حیث إن الأدب الاسلامی یری مجالات العمل فی الکون و الحیاة و یمیز بین اللائق بانسانیة الانسان و غیر اللائق بها ، فهو أدب ملتزم فی هذا المعنی ، و لکنه ملتزم بالمفید الصالح لا بالجمود و التقلید ، أما الأدب غیر الاسلامی فهو لا یبالی بمجالات العمل فی الکون و الحیاة ، یدخل

فی کل مکان مثل البهیمة الهاملة ترعی فیما تشـــاء و لا تفرق بین الصافی و العفن و بین الطیب و الخبیث و لا تبالی بین المراعی الفائحة و القاذورات النتنة ، الأدب الاسلامی لا یحب هتك العورات و لا إثارة المزابل إلا فی نطاق هادف محدود ، أمام الأدب غیر الاسلامی فلا یبالی أین وقع و ماذا أفسد ، بل إنه حینما یجرد نفسه من الالتزام ، یجد أحب مجالات عمله کل صورة مثیرة للعواطف و کل معنی یغذی النزوات مهما أتی به فی إثره من فساد وإنهیار ، وهذا هو موضع الخلاف بین الأدب الاسلامی و الأدب غیر الاسلامی ، الأدب الاسلامی یتلقی روحـــه و هدایته من الاسلام ، و من حیاة نبی الاسلام ، و الأدب غیر الاسلامی یتلقی روحه و إرشاده من هوی الانسان و حیاة کل هائم من الحیوان ، و لیس صحیحاً أن الأدب بعد التزامه بالاسلام یصبح محدوداً و قاصراً لأننا حینما نشطب جانب الفساد و القبیح من الحیاة فالذی یبقی بعده فی الأدب هو واسع و کثیر و متنوع الجوانب و مختلف الصور و الأشکال ، و لن یشعر الممارس له و المستفید به أی قصور فیه لقضاء حاجته من الأدب ، بل إنما یجده یخدمه فی کل ما یعنیه فی حیاته.

فلقـــد اشتمل الأدب الاسلامی علی الشعور بالألم و السرور و علی السخط و الرضاء وعلی الغضب و اللطف و علی البکاء و الضحك و علی الکراهیة و الحب و علی الجد و المزاح و علی الشقاء و اللذة و علی العقل و الوجدان و علی الحکمة و اللعب ، و هو یصور سلوك الصدیق مع الصدیق و سلوك الرجل مع المرأة ، ویصور انفعال الرجل فی الأحداث وشعوره للعواطف وتأثره بکل مؤثر واستجابته لکل ظاهرة مسترعیـة للانتباه ، و هو یشتمل علی التاریخ و السیرة و علی القصة و الرسالة و علی الخطبـــة و الحوار و علی الوصف و التصویر و التعبیر المؤثر الجمیل و هو نثر سلیس و شعر رائع ، و صور زاهیة للاسلوب الأدبی ، و هو

تقريع و عتاب وتطريب وإمتاع وبيان و إفهام . إنه مرآة كلامية للحياة الانسانية فى أحوالها النفسية وأحوالها الكونية غير أنه يتجنب فى كل ذلك القذارة والفساد ، و ذلك لأن الاسلام ليس ديناً بالمعنى الذى راج و عم فى الديانات الأخرى فى العالم حيث لا يتسع الدين فى نظرها اتساع الحياة و تدل على صحة ما قلت سنـة الرسول عليه الصلاة و السلام ، فقـد عمت على جوانب الحياة كلها ففيها شئون و شجون ذات اتصال بالأحوال الفردية و بعلاقة الرجل مع زوجـه و الصديق مع صديقه و المواطن بجار المواطن و صلة الخصم بخصمه و العـدو مع عدوه و فيها الحديث عن النفس و عن المجتمع و عن الحياة ، و هذه كلها خامات للادب الانسانى البليغ وحيث إن الدين الاسلامى يشتمل على كل ذلك فالحديث البليغ عن كل ذلك يستحق أن يدعى أدباً بل و أدباً عظيماً وأن ينظر إليه بتقدير واستفادة ، و هو لكونه تعبيراً عن ظواهر الحياة الاسلامية أو مصطبغة بالصبغة الاسلاميـة يستحق أن يسمى أدباً إسلامياً ، لأنه أدب يمثل الحياة الاسلامية ، أوأدب إسلامى يمثل الحياة .

ويمكن معرفة الفارق بين النظرة الاسلامية والنظرة الجاهلية إلى الحياة وسريانهما فى الأدب و دلالتهما على اختلاف الأدب الاسلامى عن غير الأدب الاسـلامى بحيث تتبين به ملامح كلا الأدبين و فكرتاهما من الفقرة السائرة فى عرب الجاهلية « أنصر أخاك ظالماً أو كان مظلوماً » .

فقد كان مفهومها الجاهلى نصرة الأخ بدون النظر إلى صواب عمله أو خطئه ، و نعى رسول الله ﷺ على هذا المفهوم الفاسد و نهى عن استخدامه و أرشد إلى المفهوم الاسلامى عوضاً عن هذا المفهوم فكان نصرة الرجل على أسـاس الحق لا على أساس القرابة والنسب ، وقام بتربية النفوس المسلمة على هذا النظر الاسلامى

فتربوا عليه و أصبحت الأولية فى نظرهم للعدالة و الحق ، و إذا برسول ﷺ يتكلم نفسه بهذه الجملة « انصر أخاك ظالماً أو كان مظلوماً » فيتعجب صحابته على هذا التعبير و يستفسرونه عن مراده فيشرحه رسول الله ﷺ بأن نصرة الظالم هو منعه من الظلم . فدخل بذلك على الفقرة الأدبية السابقة مفهوم جديد و حل محل المفهوم القديم و أصبح للفقرة مفهومان مفهوم إسلامى و مفهوم جاهلى .

و إذا بحثنا فى استعمال رسول الله ﷺ لهذه الفقرة نفسها و عدم استبدال غيرها بها فنجد فيه مقاصد لكل منها أهمية و قيمة ، أحدها التعليم لأن استعماله لجملة ممنوعة غير حاملة لمعنى طيب فى أذهان السامعين يسترعى انتباهاً شديداً لأنه كان من لسان الرسول الكريم الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، و هذا الانتباه نفسه كان يضمن لنفوذ المفهوم الجديد للفقرة فى نفوس السامعين .

والمقصد الثانى هو التأثير لأن التكلم بجملة فيها تأثير فى لكثرة ما استعملت فى مفهوم ذى علاقة بالعاطفة و القلب و هى العصبية القبلية الجاهلية يثير فى النفس انجذاباً و ولعا به . و به يحصل تأثير قوى .

و المقصد الثالث هو تركيز المفهوم الجديد فى نفوس المسلمين و هو مفهوم الأخوة الاسلامية التى سعى رسول الله ﷺ إحلالها محل الأخوة القبلية التى سادت النفوس زمناً طويلا .

و مثال آخر يدل على الشخصية الاسلامية للادب فى الحياة هو بيت شاعر المعلقات المعروف لبيد بن ربيعة حيث قال : « بلغنا السماء مجدنا وجدودنا - وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً » فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ تغير وجهه الكريم و سأل إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال الشاعر إلى الجنة يا رسول الله ، وبذلك طابت نفس رسول الله ﷺ لأنه عرف من شرح الشاعر لشعره أن المفهوم ليس كما يبدو من ظاهر

س بأن يكون جراءة مع الذات الالهية بل إنه مفهوم التقرب إليه وطالب مثوبته
جنته ، فبيت واحد من الشعر كان يدخل فى حيز الالحاد و الكفر إذا وجدنا
ـيره تفسيراً مغايراً للحق و الاسلام و لكنــه يصير بيتاً من الشعر الاسلامى
. ما يتفق مفهومه مع النظر الاسلامى .

لقــد ظهر هذا الاتجاه الأدبى السليم الملتزم لأول مرة فى كلام رسول الله
ﷺ و اشتمل على أصناف و أنواع أدبية مختلفة من الكلام الأدبى و قلده واتبعه
، صحابته رضى الله عنهم الذين أتوا من بعدهم من أتباعهم بل وطوروا البيـان
لأدبى وفقه ونوعوه ملتزمين به محتفظين بالسمة السليمة المقتبسة من المنهج القرآنى
يان الأدبى و من بيان الرسول عليه السلام فوجدت بذلك فى موضع كل لون من
لأدب الجـاهلى لون من الأدب الاسلامى ، الخطيب فى موضع الخطب ، و العهود
العقود فى موضع العهود و العقود و الحكم والأمثال فى موضوع الحكم والامثال ،
:ا كان فيها فساد فى السابق ، أما إذا لم يكن هناك فساد و انحراف فأبقى عليه
لاسلام و لم يعامله معـاملة النفى و الشطب بل إن نظرة الاسـلام إلى مثله كانت
نظرته إلى الناس فيهم خيار و شرار ، فقد قال رسول الله ﷺ الناس معادن
ـيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا . . . »

و لذلك نجد عند الصحابة رضى الله عنهم إعتناءاً بالشعر الجاهلى ليستعينوا فى
فهم معانى ألفاظ القرآن إنهم استفادوا به فى مختلف حاجاتهم و قضوا به لبانات
نفوسهم الملتزمة و شهــد بذلك ما روى عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه اجتمع
بأبناء هرم بن سنان ممدوح شـاعر الجـاهلية الكبير زهير بن أبى سلمى فاستنشدهم
سيدنا عمر بن الخطاب شعر زهير فى مدح أبيهم فأنشدوه فعلق عليه سيدنا عمر بقوله
ما أحسن هذا المدح فقـالوا و ما أحسن العطاء كذلك الذى جاد به له أبونا فقال
سيدنا عمر بن الخطاب ولكن عطاء أبيكم نفد و عطاء زهير لا يزال .

و كذلك لما اجتمع بسيدنا عمر رضى الله عنه شاعر الرثاء المعروف متمم بن نويرة و استنشده سيدنا عمر بن الخطاب رثاءه فى أخيه مالك بن نويرة الذى قتل بيد سيدنا خالد بن وليد قائد جيوش المسلمين فأنشده متمم شعره الذى أوله :

لقد لا منى عند القبور على البكا رفيق لتدراف الدموع السوافك

فتأثر به سيدنا عمر و قال ليت مثله قيل لأخى زيد بن الخطاب و كان استشهد فى القتال للاسلام فقال متمم و لكن أخى مالكا لو قتل كما قتل أخوك لم أبك عليه ، يعنى أنه لم يقتل فى جهاد ، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه لم يعزنى أحد فى أخى زيد بن الخطاب أحسن من هذا العزاء ، فهذا كله يدل على أن الاسلام لم يشطب الأدب الجاهلى كله بل إنما شطب الأدب الكاذب والمنافق والفاسد منه .

و منذ أن تقرر للشعر و الأدب حدود إسلامية نابعة من القرآن و السنة و أدب الصحابة بقى الأدب يؤدى دوره ملتزماً بتلك الحدود و القيود .

فالاسلام لم يعارض الأدب و لم يتخل عن مجال من مجالاته الكثيرة إلا فى حدود إلتزامه بالحق و النزاهة و نفيه للانحراف و العدوان ، وبه يتعين المفهوم الاسلامى للادب و يتبين صلاحيته لتمثيل الحياة ، و يتبين أيضاً أن الأدب المشتمل على هذا المفهوم لا يعجز عن تعبير عن أى جانب من جوانب الحياة و لا عن تأدية رسالة الأدب الموكولة إليه غير أن ميزة الأدب الاسلامى هى خدمة الحياة بالبناء والاصلاح حينما نجد ميزة الأدب الجاهلى تحقيق مآرب الحياة التائهة ومساعدتها بكل وسائل العربدة و الاختباط و ذلك لأن الاسلام لا يرضى بالحرية التى تكون متعة ولذة لواحد و هتكا و اعتداء على الآخر أو إفساداً و هدماً لسلامة الانسانية و خيرها .

والأدب الاسلامى ينقسم بصلته إلى الحياة إلى قسمين ، قسم يؤدى دور نشر

الوعى الإسلامى و تبليغ الدعوة و الفكر الاسلامى ، أو يشتمل على الابتهـالات و الدعوات، وقسم آخر يتصل بالحياة الاسلامية العامة و يخدم جانباً من جوانبها و هذا القسم الثانى يحمل حيناً شعاراً إسلامياً واضحاً و قد يخلو من شعار واضح منه ، و لكنه يخضع الاسلام بالتزامه بالاطار المسموح للادب من الاسلام .

فالقسم الأول من الأدب الاسلامى إنما يوجد فى مجالات الدعوة و التوعية الاسلامية و نصوص الابتهالات و الدعاء و فى التعبير عن الكلمة الاسلاميـة ، وهذا القسم واضح المعالم و بين الملامح فى إسلاميته . أما القسم الثانى فربما يشك فى أمره و يظن أن ليس من الاسلام لأنه لا يحمل دائماً شعاراً إسلامياً و لكنه يدخل فى الاطار الاسلامى ما دام يكون خالياً مما نهى الله و رسوله عنه فقد رضى الرسول عليه السلام بهذا القسم من الأدب فانه استمع إلى شعر العهد الجاهلى ونثر العهد الجاهلى بدون أن يتى عليه ، و يدل على ذلك قبوله لشعر كعب بن زهير و تحدثه بحديث أم زرع و قوله بعده لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : أنا لك كأبى زرع لأم زرع ، و قد جرى على سنته خلفاؤه كما ظهر من استماع سيدنا عمر بن الخطـاب لقصيده رثاء مالك بن نويرة و رغبته لكون مثل هذا الرثاء لأخيه زيد أيضاً .

و كان ذلك لكون هذه النصوص الأدبية غير خارجة من الحدود المسموحة للادب و كلما خرجت نصوص أدبية من هذه الحدود المرسومة استدركوها وحكموا عليها بحكم الاسلام كما ظهر من سيدنا عمر بن الخطاب نفسه لما ثبت لديه أن الحطيئة أساء إلى سمعة الصحابى الجليل زبرقان بن بدر بهجائه له ولم يكن يجوز له ذلك لأن زبرقان بن بدر لم يظلمه ولم يبخس حقه ولا أساء إليه ، بل إنما كان أمره أن قراه للشاعر لم يبلغ مبلغ رضاه و رغبته وكان الحطيئة يقوم بمثل هذه الاساءة إلى كرامة الناس بصورة عامة و متكررة فعاقبه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه معاقبة

صدت شره من وصوله إلى الناس، ثم أطلق سراحه بعد فترة من الزمن بعد توبته من قول السوء. و شهد بذلك أيضاً ما وقع بين الشاعر الكبير جرير و الخليفة المسلم سيـــدنا عمر بن عبد العزيز .

فالقسم الثانى من الأدب الاسلامى قد يشتبه أمره فى نظر بعض الناس لعدم وضوح حاله بالخضوع الملموس للاسلام لكنه ينظر إليه من ناحية التزامه بالاطـار الاسلامى و يقبل على أساس تقيده بالقيود المرسومة و يشطب على أساس انحرافه عن ذلك ، و هذا الشطب إنما يكون فى صالح المجتمع الاسلامى و صالح الفرد المسلم بل و فى صالح الانسانية كذلك لأن القيود المرسومة للادب عند الاسلام هى قيود صلاح وبناء للانسانية جمعاء فان الاسلام لا يعارض إلا الفاسد المفسد ، و يستحسن الحسن معه و يقويه و يقبح القبيح منه و يوهيه - ولقـــد مثل كلام رسول الله ﷺ هذا الأدب النزيه البناء و اشتمل على أصناف وألوان منه . كان أبلغ الناس و أملكهم للبيان و الفصاحة فقد ولد فى قريش و رضع فى بنى سعد ، و هما قبيلتان من أفصح القبائل العربية .

و كان يشارك أصحابه فى محادثاتهم ويسمع منهم فقد روى عن جابر بن سمرة رضى الله عنـــه قال جالست رسول الله ﷺ أكثر من مأة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر و يتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية و هو ساكت و ربما تبسم معهم ويقول الشريد استنشدنى نبى الله شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته (الأدب المفرد للبخارى ص ١٢٧) .

فان رسول الله ﷺ لم يزهد فى الاستماع إلى الشعر ولا إلى أحاديث الناس العامة وهى التى تشتمل بوجه عام على مواد أدبية مختلفة من أحوال نفسية وشعورية و سلوكية و أحـــداث مؤثرة و غير مؤثرة و كان ﷺ يسمع محادثات أصحابه

ففرح به رسول الله ﷺ و تلقاه بالبشر و قبل جبهته و قال والله ما أرى بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ، (زاد المعاد ج ١ ص ٣٩٧) .

ومنه كلامه المعبر عن عاطفة حزنه و تألمه ومثاله قوله على وفاة ابنه إبراهيم و هناك أحاديث تشتمل على نصوص مصورة بعاطفة حبه و رقته و رحمته ، مثل حبه لبنته فاطمة رضى الله عنها و زوجته الأثيرة عائشة رضى الله عنها ، و زوجته الأولى التى ناصرتها عند بدأ الوحى و هى خديجة رضى الله عنها - و مثل عاطفة الرقة و الرحمة حتى مع الحيوان .

فقد قال رسول الله ﷺ إن الله كتب الاحسان على كل شئ فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، و إذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة و ليحد أحدكم شفرته و يرح ذبيحته . (رواه مسلم فى باب الأمر باحسان الذبح كتاب الذبائح) .

وقوله عليه السلام: الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من السماء (رواه أبو داؤد) .

و منه ما جاء فى حديث له قدسى ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إن الله عز و جل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ! قال : يا رب كيف أعودك و أنت رب العالمين ، قال : أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب كيف أطعمك و أنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يا ابن آدم استقيتك فلم تسقنى قال : يا رب كيف أسقيك و أنت رب العالمين ، قال استقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت لو سقيته لوجدت ذلك عندى (رواه مسلم) .

و لقد كثرت فى كلامه ﷺ التشبيهات البليغة ، و التمثيلات الرائقة ، و قد اعتمد فى عدد من هذه التمثيلات على الظواهر الطبيعية الملموسة المشهودة لدى الناس

فقد ساق مثالا للرجل المسلم وهو رجل يتحلى بكريم الخصال وصالح الطباع بطريقة سواء أولا ثم بتشبيه بأنفع وأطيب شجرة لدى العرب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المؤمن حدثونى ما هى فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبـــد الله و وقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله هى قال النخلة . (البخارى كتاب العلم)

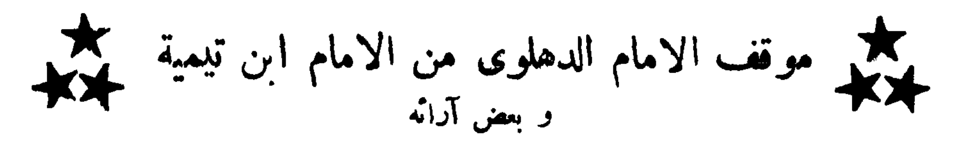
كان العرب يعرفون جوانب الخير و النفعية فى شجرة النخل معرفة دقيقـــة و شاملة فكان تشبيه رجل بها ضامنا لمعرفة خصال هذا الرجل معرفة دقيقة وشاملة فكانت هذه الطريقة فى الخير و فى استرعاء الانتباه و طريقـــة السؤال و صرف أذهان السامعين إلى السعى فى طلب الجواب طريقة مؤثرة وبالغة فى الوصول الأدبى إلى الغرض المنشود من الكلام .

وهناك مثال لضربه للمثل لبيان أهمية الدعوة إلى الخير ومنع أهل الشر من تنفيذ شرهم فانهم إن قاموا بتنفيذ شرهم فذلك لا يضرهم وحدهم بل إنما يضر الجميع لأن الجميع يعيشون معاً ، و يشتركون فى المنافع و المضار معاً ، فقد ضرب ﷺ مثلا لذلك من سفينة البحر التى يصبح ركابها مجتمعاً واحداً مع تباين أوطانهم وأحبابهم ، يقول الحديث :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: « مثل القائم فى حدود الله و الواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذ استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا ! لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً و لم نوذ من فوقنا . فان تركوهم و ما أرادوا هلكوا جميعاً ، و إن أخذوا على أيديهم نجوا و نجوا جميعاً (رواه البخارى) .

« للبحث صلة »

دراسات وأبحاث



موقف الامام الدهلوى من الامام ابن تيمية
و بعض آرائه

الاستاذ سلمان الحسينى الندوى

لا يخفى على من يطـالع كتب الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى تأثره بكتابات الامام ابن تيمية ، فكثيراً ما نراه يوافقه فى الآراء ، سواء فى المسائل الاعتقادية و الكلامية ، و فى كثير من مسائل أصول الفقه ، والحديث والتفسير ، حتى لقد أثبت الشيخ الفاضل محمد أويس الندوى المرحوم شيخ التفسير فى دار العلوم ندوة العلماء سابقاً ، أن هناك عبارات اقتبسها الامام الدهلوى من كلام الامام ابن تيمية (١) إلا أن الدارس لكتاباته لا يظفر باسم الامام ابن تيمية فى ثنايا كتبه ، و الاحالة إليه ، حتى يكاد يظن أنه لم يعرف ابن تيمية و لم يتيسر له الرجوع إلى كتبـــه .

و معلوم أيضاً أن العصر الذى كان فيه الامام الدهلوى (١١١٤ - ١١٧٦) وما قبله من العهود فى الهند ، لم يكن يعرف فيها العلماء فضلا عن العامة أو الطلاب الامام ابن تيمية معرفة جيدة وإذا عرفه بعضهم عرفة بنقائص وانحرافات فى العقيدة و السلوك ، و جموده على بعض النصوص ، و قلة أدب (و حاشاه من ذلك)

---

(١) انظر العدد الخاص بالامام الدهلوى من مجلة « الفرقان » الأردية الصـادرة بلكنـاؤ - الهنـد -

مع الفقهاء المجتهدین ، حتی مع صاحب الرسالة ﷺ .

وجد الامام الدهلوی هذه البیئة العلمیة التی کان اشتغالها بکتب الفقه والفلسفة و المنطق و الکلام أکثر من اشتغالها بکتاب الله تعالی و سنة رسوله ﷺ و قد کان هو فطر علی الحریة الفکریة ، و الانطلاق من قیود العلم العجوز ، إلا أنه کان فقیه النفس حکیماً ، و قد وفق فی نهایة عام ١١٤٣ھ للحج و الزیارة ، و بقی فی الحرمین الشریفین إلی بدایة عام ١١٤٥ھ ، و قد استفاد فی هذه المدة من المشایخ المحدثین ، من المالکیة والشوافع والحنابلة والأحناف ، وأکثر من الأخذ والاستفادة من الشیخ أبی طاهر الکردی الشافعی (م ١١٢٥ھ) ویبدو أنه أثناء إقامته بالحرمین الشریفین ، تتبع المکتبات ، و اطلع علی مجموعة کبیرة من الکتب ، نجد الاحالة إلیها فی مواضع کثیرة من کتاباته ، و اطلع من بین هذه المجموعة علی مؤلفات الامام ابن تیمیة ، وقرأها بامعان و تفصیل ، لیقف علی حقیقة الأمر فیه ، ویتجلی له زیف الاشاعات التی أشیعت حوله .

رجع الامام الدهلوی من الحرمین الشریفین ، وانقطع إلی التصنیف والتألیف ، لیؤسس مدرسة فکریة شاملة ، للأجیال القادمة ، کان من أکبر منجزاتها کتابه « حجة الله البالغة » الذی بدأ تألیفه فی الحجاز و أتمه فی الهند ، و بث فی کثیر من کتاباته ما یوافق آراء الامام ابن تیمیة .

و قد ینقل عن کتبه إلا أنه رأی من المصلحة اللازمة أن لا یبوح باسمه ، و لا یصرح بأسماء کتبه .

لأنه إن فعل ذلک ، فسوف یرغب قاریه عن کتابه ، قبل أن ینظر فیه ویحکم العقل و الشرع .

و لکن الامام الدهلوی لم یفضل الصراحة فی شأنه ، وتبرئة ساحته عما اتهمه

به الناس فى مراسلاته مع أصحابه ، وخاصته ، ممن علم فيهم الانصاف ، والاعتراف بالحق ، فكتب فى رسالة إلى الشيخ معين الدين التهتهوى (١) رداً على رسالته التى استفسر فيها الامام عن الشبهات والاعتراضات التى يعترض بها على الامام ابن تيمية ، فجاءت رسالة مفصلة تتناول جوانب مهمة ، من آراء الامام ابن تيمية ، و آراء الامام الدهلوى مؤيدة لها ، أو باحثة لها عن محامل طيبة ، تكشف عن مدى اطلاعه على كتابات الامام ابن تيمية ، و أنه لم يمر بها مر الكرام ، بل درسها دراسة فهم و تدبر و إتقان ، و تذكر هذه الرسالة فى فهرس كتبه ، باسم « رسالة فى فضائل ابن تيمية » وقد طبعت مع مجموعة من رسائله الموجهة إلى أصحابه و تلامذته ، منها رسالة فى مناقب الامام البخارى (٢) .

و لما أن هذه الرسالة أصبحت منسية مغمورة لا يعرفها كثير من الناس ، أحببت أن أبرزها ، مع تعليقات موجزة يظهر بها انصاف الامام الدهلوى ، وموقفه من آراء الامام ابن تيمية و تحليله لبعض عباراته ، و حملها على محاملها الصحيحة ، وهى وثيقة مهمة ، ينبغى أن يوليها المعتنون بكتاباته عنايتهم ، و هاكم نصها فيما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفيض النعم وملهم الحكم وصلى الله على سيدنا محمد سيد العرب و العجم و على آله و صحبه أصحاب عوالى الهمم أما بعد !

(١) تهتهه مدينة بولاية السند .

(٢) طبعت هذه المجموعة من الرسائل فى مطبعة أحمدى بدلهى ، باشراف الشيخ ظهير الدين سبط الشيخ رفيع الدين بن الامام الدهلوى رحمهم الله .

فيقول الفقير ولى الله بن عبد الرحيم - عاملهما الله تعالى بفضله الجسيم - وردت رقيمة كريمة من مخدوم مكرم لا زال معيناً للحق و الدين (١) فى الفحص عن حال الشيخ تقى الدين أحمد بن تيمية - عامله الله تعالى - بفضله ، و أى شئى ينبغى أن يعتقد فيه ، فوجب الائتمار بأمره وإن كنت بمعزل عن مثل ذلك (٢).

الذى أعتقده أنا و أحسب أن يعتقده جميع المسلمين فى علماء الاسلام حملة الكتاب و السنة والفقه الذابين عن عقيدة أهل السنة والحديث أنهم عدول بتعديل النبى ﷺ حيث قال :

يحمل هذا الدين من كل طبقة عدوله (٣) وإن كان بعضهم تكلم بما لا يرتضيه

---

(١) إشارة إلى اسم المرسل إليه وهو الشيخ معين الدين التهتهوى كما تقدم ذكره.

(٢) يشير بذلك إلى موقفه فى كتاباته حيث لا يتعرض لذكر الامام ابن تيمية و لا يريد أن يخوض فى غمار معارضيه و مؤيديه ، و لكن لما سئل عن حاله ، كان بيان الحق و الصواب فى أمره واجباً خلقياً و علمياً عليه .

(٣) ورد هذا الحديث بلفظ « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين و تأويل الجاهلين ، من طرف مرسلة و متصلة و كلها ضعيفة .

قال العراقى: قد ورد هذا الحديث متصلا من رواية على وابن عمرو وجابر ابن سمرة و أبى أمامة وأبى هريرة ، و كلها ضعيفة ، لا يثبت منها شيئ ، وليس فيها شيئ يقوى المرسل ، وروى عن الامام أحمد أنه صححه ، وعقب عليه ابن القطان قائلا :

و خفى على أحمد من أمره ما علمه غيره .

وقال الزركشى : وفيما صار إليه ابن القطان من تضعيفه نظر ، فانه يتقوى ★

هذا المعتقد (١) إذا كان قوله (٢) ذلك غير مردود بنص الكتاب والسنة والاجماع و كان قوله ذلك محتملا و كان مجالا و مساغاً للخوض فيه سواء كان قوله ذلك فى أصول الدين، أو فى المباحث الفقهية ، أو فى الحقائق الوجدانية و على هذا الأصل اعتقدنا فى الشيخ الأجل محى الدين على بن العربى (٣) و فى الشيخ المجدد أحمد بن

★ بتعدد طرقه ، و من شواهده كتاب عمر إلى أبى موسى : المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو مطعوناً فى ولاء أو نسب ،

-(انظر تدريب الراوى و تعليق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ج ١ ص ٣٠٣)- و انظر شرح العراقى لألفيته ، و فتح المغيث للسخاوى .

(١) يعنى أن هناك علماء تكلموا بآراء لا يرتضيها الامام الدهلوى . ولا بد من أن تتباين الآراء ، و تختلف وجهات النظر .

(٢) يعنى بالرغم من إنى لا أرتضى آراء بعضهم و لكن اعتقد فى عدالتهم إذا كانت أقوالهم غير مردودة بنص الكتاب و السنة و الاجماع ، و كان فيها مجال للبحث و النظر .

(٣) هو .. . .. - المعروف بابن عربى و ابن العربى بالألف و اللام أيضاً ولد عام ٥٦٠ - وتوفى عام ٦٣٨ ، و الامام الدهلوى لا يوافق ابن تيمية على رأيه فى ابن عربى ، بل هو ممن يراه من كبار المحققين ، و قد تحدث عنه فى مواضع متفرقة من كتاباته فى التصوف ، و على هذا سار حفيده الامام إسماعيل الشهيد وتحدث عنه فى كتابه الرائع « عقبات » وهذا مذهب كثير من العلماء فى شأنه ، وقد ترجم له ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب (طبع بيروت) فى وفيات عام ٦٣٨ ، ترجمة حافلة ، و نقل فيه أقوال★

بد الأحد السرهندى (١) .

إنهما من صفوة عباد الله و لم نلتفت إلى ما قيل فيهما (٢) .

★ القادحين و رد عليهما بأقوال المادحين كعبد الرؤوف المناوى . والسيوطى و أبى بكر المقدسى ، و النووى و الشيخ أحمد المقرى المغربى ، و مجد الدين الفيروز آبادى و ابن كمال باشا وغيرهم .

و قال الأستاذ أبو الحسن الندوى فى معرض ذكر ابن تيمية و معارضته لابن عربى : و مما ينبغى التنبه له أن طائفة من المشتغلين بكتب الشيخ ابن عربى و علومه و معارفه تقول بأن هناك إلحاقات و زيادات مدسوسة فى كتب ابن عربى لا سيما فى كتاب « فصوص الحكم » و كان الشيخ أحمد الحارون العسل فى دمشق - الذى كان من محبى الشيخ ابن عربى و حملة معارفه - يقطع بأن ثلث كتاب فصوص الحكم ، أو أكثره مدسوس عليه ، (أنظر تاريخ دعوت و عزيمت ص ٦٤)

(١) و هو معروف بمجدد الألف الثانى ، له منة عظيمة على المسلمين فى الهند إذ حول - بحول الله و قوته - تيار الحكومة المغولية المتجهه إلى الالحاد و الكفر ، و إنكار خلود الرسالة المحمدية ، إلى الاسلام و الايمان من جديد بنبوة محمد ﷺ ، ولنقرأ تفصيل دعوته و جهاده فى كتاب مستقل عنه بقلم الأستاذ أبى الحسن الندوى و سيصدر قريباً إن شاء الله .

(٢) و قد خالف الامام السرهندى الشيخ ابن عربى فى كثير من آرائه ، لاسيما فى نظرية وحدة الوجود ، فأصبح موضع طعن لدى كثير من الناس ولكن الامام الدهلوى لم يلتفت إلى الطعون الموجهة إليهما لما تحقق لديه من عدالتهما و جلالة شأنهما .

فكذلك ابن تيمية فانا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله و معانيه اللغوية و الشرعية و حافظ لسنة رسول الله ﷺ و آثار السلف ، عارف بمعانيها اللغوية الشرعية ، أستاذ فى النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعه و أصوله (١) ، فائق فى الذكاء ، ذو لسن و بلاغة فى الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة ، أللهم إلا هذه الأمور التى ضيق عليه لأجلها و ليس شئ منها إلا و معه دليله ، من الكتاب و السنة . و آثار السلف . فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود فى العالم و من يطيق أن يلحق شاؤه فى تحريره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى و إن كان تضييقهم ذلك ناشئاً من اجتهاد (٢) و مشاحة العلماء فى مثل ذلك ما هى إلا كمشاجرة الصحابة فيما بينهم و الواجب فى ذلك كف اللسان إلا بخير ، و قد ذكر أنه قال :

« إن الله تعالى فوق العرش » (٣)

والتحقيق أن فى هذه المسألة ثلاثة مقامات - أحدها البحث عما يصح اثباته للحق توقيفاً و عما لا يصح توقيفاً و الحق فى هذا المقام أن الله تعالى - أثبت لنفسه جهة الفوق (٤) و أن الأحاديث متظاهرة على ذلك و قد نقل الترمذى ذلك عن

---

(١) و يفيد وصفه الدقيق هذا لابن تيمية أنه اطلع على كتبه اطلاع الناقد البصير ، و أنه فى حكمه هذا يصدر عن دراسة طويلة لكتبه .

(٢) و هذا من الانصاف و التشبث بمسلك الاعتدال الذى عرف به دائماً ، فلا يحط من شأن معارضيه و لا يقدح فيهم ، بل يتأول لهم أيضاً .

(٣) انظر فتاوى الامام ابن تيمية ج ٣ ص ١٣٥ - ١٤٢ ، و ج ٥ ص ٣ ، ٥ ، ٦ ، ١١٧ ، ١٦٤ ، وغيرها من الصفحات ،

(٤) اقرأ للتحقيق و التفصيل فى ذلك المجلد الثالث و الخامس من فتاوى ★

الامام مالك و نظائره (١)

و ثانيها أن العقل هل يجوز كون مثل هذا الكلام حقيقة أو يوجب حمله على المجـاز ؟ و الحق فى هذا المقام أن العقل يوجب أنه ليس على ظاهره فى نفس الأمر (٢) .

و ثالثها أنه هل يجب تأويله أو يجوز وقفه على ظاهره من غير تعيين المراد؟ والحق فيه أنه لم يثبت فى حديث صحيح أو ضعيف أنه يجب تأويله ولا أن لايجوز استعمال مثل تلك العبارات فى الأمة :

أخبرنى أبو طاهر عن أبيه أنه قال : قال الحافظ ابن حجر العسقلانى (٣)

★ الامام ابن تيمية ، « و العلو للعلى الغفار » للامام الذهبى .

(١) لم أقف على نقل الترمذى عن الامام مالك فى الاستواء على العرش إلا أن الترمذى لما روى حديث - يمين الله ملأى سحاء إلى قوله (وعرشه على الماء) و بيده الميزان يرفع و يخفض - قال : هذا حديث قد روته الأئمة هكذا قال غير واحد من الأئمة الثورى و مالك ابن أنس و ابن عيينة و ابن المبارك - إنه تروى هذه الأشياء و نؤمن بها و لا يقال كيف - (انظر جامع الترمذى ، كتاب التفسير باب سورة المائدة رقم الحديث ٣٠٤٥ و يروى عن مالك ، قوله : الاستواء غير مجهول و الكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة ، و قوله : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان ، لا يخلو عن علمه مكان .

(انظر فتاوى الامام ابن تيمية ج ٥ ص ١٣٩).

(٢) و يمكن أن يقال إن العقل أسير الظواهر ، يقيس عليها ، و يفرع عليها ، والقضية المبحوث فيها وراء طور العقل ، فليس لا يجابه من معنى ، وينبغى أن يقرأ فى هذا الباب كتاب « بيان موافقة صريح المعقول لصريح المنقول » للامام ابن تيمية .

(٣) يبدو من ذلك أن الامام الدهلوى لم يطلع مباشرة على كلام الحافظ ابن ★

، لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة من طريق صحيح ، التصريح بوجوب تأويل شئ من ذلك يعنى المتشابهات و لا المنع من ذكره ، و من المحال أن يأمر الله نبيه تبليغ ما أنزل إليه من ربه و ينزل عليه « اليوم أكملت لكم دينكم » ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه تعالى مما لا يجوز مع حثه على تبليغ الشاهد الغائب حتى نقلوا أقواله و أفعاله و أحواله و ما فعل بحضرته فدل على أنهم اتفقوا على الايمان به على الوجه الذى أراد الله تعالى منها ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى « ليس كمثله شئ » فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم (١) انتهى

وهذا الذى حققنا هو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعرى عند التحقيق (٢).

أقرأني أبو طاهر المدنى رضى الله عنه بخط أبيه (٣) :

أن الشيخ أبا الحسن قال فى كتابه « إنى على مذهب أحمد فى مسألة الصفات و أن الله فوق العرش (٤) .

★ حجر ، و أنه لم يباشر القراءة من كتاب فتح البارى ، و هل لم يكن عند أبي طاهر أيضاً ، كتاب فتح البارى حتى احتاج إلى نقله عن والده ؟

(١) (انظر فتح البارى ج ١٣ ص ٣٩٠) طبعة مكتبة الرياض .

(٢) و هو الحق الذى صرح به الامام أبو الحسن الأشعرى فى آخر كتبه « الابانة » و رجع عما قرره فى كتبه السابقة ، قال فيه : (باب ذكر الاستواء) إن قال قائل : ما تقولون فى الاستواء نقول له : إن الله تعالى مستو على عرشه كما قال تعالى « الرحمن على العرش استوى » (و انظر الصواعق المرسلة للامام ابن القيم ج ٢ ص ١٣٦) و « الابانة عن أصول الديانة » فصل ذكر الاستواء على العرش .

(٣) و هذا يفيد أن الامام الدهلوى لم يطلع على كتاب « الإبانة الامام أبي الحسن الأشعرى »

(٤) و الذى ورد عنه عن قوله فى كتاب الإبانة هو ما يلى :—

و كلام ابن تيمية محمول على المقام الأول و الثالث ،

و إذا رجعنا إلى الوجدان (١) .

فلا شك أن لله تعـالى خصوصية مع العرش ليست مع غيره من مخـلوقات و لا نجد عبارة فى ذلك أفصح و أقرب من الاستواء على العرش كما أنا لا نجد عبارة فى انكشاف المسموعات و المبصرات أفصح من السمع و البصر ، و الله أعلم بحقائق الأمور .

[] للبحث بقية []

★ « قولنا الذى نقول به و ديانتنا التى ندين بها التمسك بكتاب ربنا - عز و جل - و بسنة نبينـا - عليه الصلاة و السلام - و ما روى عن الصحابة و التابعين و أئمة الحديث ، و نحن بذلك معتصمون و بمـا كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه و رفع درجتـه و أجزل مثوبته - قائلون ، و لما خالف قوله مخالفون لأنه الامام الفاضل و الرئيس الكامل ، إلـخ (انظر الابانة باب فى إبانة قول أهل الحق و السنـة) .

(١) يريد الامـام الدهلوى بالوجدان انكشاف الحقـائق بالهـام الله - تعـالى - و العلوم اللدنية التى يهبهـا الله - تعالى - لعباده المحسنين المخلصين ، وهـذا العلم نور تتنور به روح المؤمن و عقله و قلبـه ، فيرى فى مدلهمات المسائل والخطوب ، الحق الصراح ، وهذا مقام أولئك الذين قيل فيهم :—

« حتى أكون بصره الذى يبصر به ، و سمعه الذى يسمع به و يده التى يبطش بهـا » إلخ .

(انظر صحيح البخارى : كتاب الرقاق - باب التواضع)

عهود متعددة لأفكار المستشرقين و نظرياتهم

(الحلقة الثانيـة)

البروفيسور خليق أحمد
تعريب : الأخ حشه

منــاهج العمل :

١- كان تواجد الثراوت العلمية الاسلامية عملية ذات تأثير بالغ لتحقيق أهـ الاستشراق ، و لقد احتوت المؤسسات العلمية و المتاحف الوطنية والمـ ى أوربا على جميع المصادر الموثوق بهـا لتاريخ الاسلام ، حتى افتقر ا أنفسم إلى المستشرقين للاستفادة من هذه المصادر .

٢- لقد أسدل المستشرقون ستار الدراسة الموضوعية على محاولاتهم الهدامة ، جرجى زيدان فى كتابه تاريخ التمدن الاسلامى حملات شديدة على المـ و لكنه يبدو كأنه يمدحهم ، و من أجل ذلك لم يتفطن الناس لمـ الكتاب من دسائس و أباطيل ، و تناولوه بالقبول ، (١) .

٣- قام المستشرقون بنشر بعض الأفكار الخاطئـــة بحماس ونشاط بالغين آمن بصدقها المسلمون .

٤- حاول المستشرقون إثارة غضب المسلمين عن طريق مزج الأكاذيب والا بالجمل المثيرة ، لئلا يتمكنوا من كشف زيفهـا بأسلوب علمى رزين ، العلامة شبلى النعمانى أول من أدرك خطورة هذا الأسلوب ، فلم يمكز

---

(١) مقالات شبلى ج ٤ ص ١٣٣ .

من استغلال غضبه ، وحينما رأى السيد أحمد خان كتاب « وليم ميور » ثار غضبه ، و لكنه تمالك نفسه .

و لم يتمكن جميع الباحثين الذين حاولوا دحض أباطيل المستشرقين من التغلب على مشاعر الغضب ، و شق طريقة جدية للبحث و الاستدلال ، كالسيد أحمد و العلامة النعمانى ، فكانت النتيجة أن البعض لم يعر تلك الأباطيل أى اهتمام ، و البعض الآخر قابل المستشرقين بالسب و الشتم ، و بقيت الأفكار الخاطئة تنشر سمومها .

٥- كان نشر كتب « Dictionary of Islam » و « Encyclopaedia of Islam » و Orientale Muslim theorias of finance .

و غير ذلك من الكتب عملا كبيراً قام به المستشرقون ، و لكن هذه الكتب - رغم قيمتها العلمية - أغلقت للدارسين أبواب البحث والتنقيب ، بل وأشاعت الترهات والأباطيل التى ليس من السهل القضاء عليها ، و لا يجوز لأى باحث أن ينكر ما بذل فى إعداد هذه الكتب من جهود و محاولات ، و ما تحويه من قيمة و أهمية ، و لكن دحض تلك الأفكار و النظريات التى نشرت عن طريق هذه الكتب كحقائق علمية ثابتة يحتاج إلى بذل مجهودات علمية على نطاق أوسع وأشمل ، لأن هذه المؤلفات التى تناولت قضايا مدنية و سياسية و فقهية للاسلام بالبحث أصبحت سنداً لا يقبل الرد و النقاش .

أراد العلامة السيد سليمان الندوى أن يحارب هذا الوضع المؤلم ، فقال فى جلسة المؤتمر التاريخى للهند التى عقدت عام ١٩٤٤م : « مما يبعث الأسف البالغ و الحزن و العميق أن العلماء الباحثين يعتمدون على الموسوعة الاسلامية لايضاح جهة النظر الاسلامية إزاء بعض القضايا التاريخية ، ويثقون بكتاب ميكدانلد لكشف

دقائق الفقه الاسلامى ، و يراجعون معجم ريوند ميور (Dictionary of Islam) لحل القضايا الاسلامية ، وينظرون إلى مبادىء الحكومة والمالية بوجهة نظر أرنولد و نحن نقبل هذه الأفكار الباطلة باسم البحث و التحقيق (١) .

٦- التحق عدد كبير من الطلبة المسلمين بأقسام الدراسات الشرقية بوجه عام و الاسلامية بوجه خاص فى الجامعات الأوربية ، و احتل هؤلاء الطلاب فيما بعد مكانة الأستاذية فى مؤسسات بلادهم ، وقاموا بدور كبير فى نشر آراء المستشرقين ، لأنهم كانوا تلاميذ بارين لأساتذتهم الغربيين ، و يفيد استعراض ما تركت جهود المستشرقين من آثار بالغــة على مؤسسات البلاد الاسلامية فى القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين أن هؤلاء التلاميذ هم الذين مهدوا لهم طريق السيادة فى العالم الاسلامى .

٧- اهتم الأساتذة الغربيون بعقد المؤتمرات و نشر الجرائد و المجلات لبث آرائهم ، فأنشئت الجمعيــة الآسوية الأولى عام ١٧٧٨م ، و قام سير وليم جونس بانشاء الجمعية الآسوية سنة ١٧٨٤م ، وأنشئت هذه الجمعية فى باريس فى سنة ١٨٢١م ، و شكلت الجمعية الملكية الآسوية سنة ١٨٢٣م ، و الجمعية الأمريكية الشرقيــة عام ١٨٤٢م ، و كان الهدف من تكوين هذه الجمعيات كلماملأ الفراغ فى مجال الدراسة و البحث ، لئلا ينتبه المسلمون للتفكير فى قضاياهم .

و تتابع عقد المؤتمرات التى اصطبغت بالصبغة العلمية بادى ذى بدء و لكنها كانت وسيلة لوضع خطط سياسية لوزارات خارجية الدول المختلفة .

و لعبت الصحف و الجرائد التى نشرها المستشرقون دوراً مهــما فى تعزيز صلتهم بالأوساط العلمية فى العــالم كله ، و تستحق جهودهم التى بذلوهـــا فى تحقيق

---

(١) مقالات سليمان ج ١ ص ٣٨٤ .

الدراسات المفيدة الاعجاب و التقدير ، و لكن عصبيتهم تقلل من قيمتها العلمية ، فقد كتب العلامة شبلى النعمانى وهو يكشف القناع عن مدى عصبية مرجليوت : ان عصبيته تجعل دراساته الواسعة لا تحمل أى قيمة علمية ، (١) .

لم يتمكن المستشرقون من تفهم روح الحضارة الاسلامية ، رغم ما بذلوا من جهود مكثفة فى البحث و التنقيب ، و لكن حقدهم الدفين دفعهم إلى النيل و الانتقاص منها .

ردود الفعل فى الهند :

إن كلا من جامعة على جراه الاسلامية ، و ندوة العلماء ودار العلوم ديوبند ، رفعت نداءها ضد تلك الأفكار و الآراء التى بثها المستشرقون ، و كان السيد أحمد خان فى طليعة الثائرين ضدهم ، فقد خطا خطوة جريئة فى الرد على ما أودع وليم ميور فى كتابه عن السيرة النبوية من أكاذيب وافتراءات ، و ألف كتابا فى لندن يعرف باسم « الخطبات الأحمدية » نقض فيه كل ما أثار وليم ميور من اعتراضات حول السيرة النبوية ، و رد فى آخر مقال كتبه قبل وفاته بأيام على الافتراءات التى أشاعها المستشرقون عن زوجات النبى - ﷺ - (٢) .

يقول الأستاذ عبد الحليم شرر : « إن بعض الطلبة المسلمين كتبوا إلى السيد أحمد خان أن مقالاته (الخطبات الأحمدية) أدت دوراً مهما فى ربط علاقتهم بالاسلام ، و لولاها لارتدوا عن الاسلام » وكان السيد أحمد يعتبر هذه الرسائل زاداً لآخرته .

و لا شك أن السيد أحمد خان كان متأثرا بالحضارة الغربية إلى حد كبير ،

(١) سيرة النبى ج ١ ص ٧٠ .
(٢) مجلة « كلية عليكراه » ابريل ١٨٩٨ م .

و لكنه صمد فى وجه المستشرقين بجرأة نادرة و عزيمة كبيرة ، و كتب ر
مفحمة لدحض أباطيلهم .

و لا ينسى تاريخ الهند أبداً ذلك الدور البارز الذى قام به مولانا محمد
النانوتوى ، و مولانا رحمة الله الكيرانوى ، و العلامة شبلى النعمانى ، و مو
السيد محمد على المونجيرى ، و الدكتور العلامة محمد إقبال ، و السيد أمير عا
مقاومة آراء المستشرقين ، و لقد كانت مؤامرة الاستشراق و التبشير خطراً
للهند ، و قد قال ميور نفسه : إنه ألف كتابا عن السيرة النبوية استجابة لد
الأسقف «فندر» الذى كان بحاجة إلى مثل هذا الكتاب ، فبذل مولانا رحمة
الكيرانوى ومولانا محمد على المونجيرى جهوداً جبارة لاحباط مؤامرات المستش
و المبشرين ، و كشف اللثام عن أكاذيبهم .

ولقد ظل العلامة النعمانى طول حياته صامدا فى الرد على افتراءات المستش
و لما اطلع على دعوى عدم صحة القرآن الكريم التى نشرتها ج
(London Times) تناولها بالنقد الجرئ ، وقال : نحن نثبت أن القرآن ال
كتاب منزل من الله العزيز الحكيم ولن يجد التغير إليه سبيلا ، فلا يكون كالا
بافتعال الحجج الواهية (١) .

إن هذه القولة التى قالها العلامة النعمانى تكشف عن الدافع الحقيق لمحاو
المستشرقين ، و لما اعترض الأسقف بروتشلى على نظام تعدد الزوجات تحرك
العلامة للرد على اعتراضاته ، كما كتب الانتقاد على كتاب التمدن الاسلامى لج
زيدان ، (٢) و حاول المستشرقون أن يستغلوا ما حدث فى أرمينيا من تشاج

(١) مقالات شبلى ج ١ ص ٦٦—٧٤ .
(٢) مقالات شبلى ج ٤ ص ١٣٣

. الاسلامى عهود متعددة لأفكار المستشرقين و نظرياتهم

المسلمين و المسيحيين لإثبات أن الرعايا المسيحيين واجهوا الظلم و الاعتداء
يد فى هذه التشاجرات ، و أن الاسلام يبيح لأتباعه مثل هذه التصرفات بل
بها ، ورد العلامة النعمانى على هذه الافتراءات فى كتابه حقوق الذميين والجزية
لاسلام ، و لما أراد أن يكتب « سيرة النبى » استعرض ما أثار الاستشراق
قضايا و مشاكل ، فنشر تلميذه العلامة السيد سليمان الندوى سلسلة طويلة من
لاته فى « الندوة » (١) سنة ١٢—١٩١١م ، استعرض فيها أعمال المستشرقين .

و قام الدكتور العلامة محمد إقبال بدراسة عميقة لآراء المستشرقين الانجليز
الفرنسيين و الألمانيين ، و مناهج بحثهم و تفكيرهم ، و كشف زيف دراستهم
ضوعية ونزع من القلوب هيبتهم العلمية وأثار فى المسلمين النخوة والغيرة والاعتداد
س ، و علمهم أن العلم الحديث ليس وليد الغرب ، بل وضع نواته المسلمون ،
ستخدمه أوربا للقضاء على الروح الانسانية الوثابة ، و ينبغى للمسلمين أن يستخدموا
وم الغربية الحديثة فى مصلحة الاسلام .

و أنقذ الدكتور إقبال الجيل المسلم الجديد من الرق الفكرى و مركب النقص
ى نشأ فيه بفعل جهود المستشرقين و حرمه من التفكير فى القضايا الاسلامية
يوية ، ولعبت محاضراته دوراً كبيراً لا ينساه التاريخ الاسلامى أبداً فى القضاء على
اعم المستشرقين ، و فضل العلوم الغربية ، بجانب التركيز على ضرورة صياغة
ديدة للفكر الاسلامى .

التنويه بدراسات المستشرقين ، المفيدة :

لا بد من الاعتراف والتنويه بخدماتهم العلمية المفيدة بجانب الاخطار بنشاطاتهم

---

١) المجلة العلمية الراقية التى أصدرتها ندوة العلماء فى عام ١٩١١م كلسان حالها
وذاع صيتها فى أوساط الهند العلمية بفضل موادها العلمية و ثقافتها العالية .

المدامة ، و لیس من الانصاف أن تنكر ما بذلوه من جهود مستمرة فی دراسة العلوم و الفنون الاسلامية ، و لقد قال مولانا أبو الكلام آزاد وهو ينوه بدورهم إن أهم كتب التاریخ والأدب التی تشكل ثروة هائلة تزدان بها اللغة العربية والمكتبة الاسلامية إنما انتشرت بفضل أوربا ، وشكر العلامة شبلی النعمانی للمستشرقین ما بذلوه من جهود فی نشر طبقات ابن سعد ، و مناقب عمر بن عبد العزیز ، و تجارب الأمم و غیرها من الكتب ، وهم الذین قاموا بحفظ ما أنجزه العلماء المسلمون من إنتاج علمی ضخم حول مواضیع التاریخ و الجغرافیة واللغة و الطب والفلسفة والأدب القدیم و ما إلی ذلك .

قال « أربیری » (Arbarry) : إن نكلسن كان یواصل اللیل بالنهار فی مطالعة « المثنوی » حتی فقد بصره ، و كتب العلامة النعمانی عن مرجلیوت فی « سیرة النبی » فقال : إنه قرأ مسند الامام أحمد بن حنبل بكامله » (۱) ولما اعتزم جولدزیهر (Goldziher) و « وین سنك » (Wensicnck) ترتیب الأحادیث النبویة قاما بدراسة واسعة لكتب الحدیث ، و الواقع أن جهود المستشرقین التی بذلوها فی نشر وصیانة المصادر العلمیة القیمة لتاریخ الاسلام وحضارته ومدنیته تستحق كل الاعتراف و التقدیر ، و تحمل قصة (D. K. Niebuh) التی تدل علی شغفه باكتشاف العلوم الاسلامية درساً و عبرة لنا ، فانه اكتشف بعض اللوحات القدیمة فی البلاد العربیة ، و لم یجد هناك أی عالم أو خبیر یتمكن من فهمها ، فأرسل صورة لها إلی ریسكی (Reiske) بألمانیا ، الذی حل المعضلة ، و بصرف النظر عما تحویه هذه القصة من عنایة فائقة بالبحث و الاكتشاف فانها تدل علی أن دراسة الاسلام المتواصلة أثرت فی حیاة المستشرقین تأثیراً كبیراً ، فكاد مسسونیون

---

(۱) سیرة النبی ج ۱ ص ٦٩ .

أ سورة الكهف يتغير وجهه ، و كان جونة (Goothe) يتحــدث عن القرآن فيقول : كلما أقرأ هذا الكتاب ترتجف روحى فى الجسد ، وما أبدى رى شمل ، من شغف بالتصوف يدل على ما كان يجيش فى صدره من أحاسيس ــاعر نحوه .

قتراحات :

مهما نبــذل من جهود فى الرد على افتراءات المستشرقين و كشف أباطيلهم دى أى نفع إن لم نفكر فى وضع خطة شاملة للعمل الهادف الايجابى البناء ، ى أرى :

١ــ أن الحاجة ماسة إلى إنشاء مراكز علمية كبيرة لدراسة العلوم الاسلامية ، توفر جميع المصادر الموثوق بها للعلوم و الفنون الاسلامية باستخدام وسائل سهيلات العلم الحديث ، و لانجاز هــذا المشروع يجب على كل دولة من دول الاسلامى أن تقوم باستعراض تراثها العلمى ، كما قام العلامة السيد عبد الحى الحسنى راض تراث الهند العلمى فى كتابه « الثقافة الاسلاميــة فى الهند » و يكون له « برو كلمان » و « استورى » من جهود فى هذا الصدد دليلا يضئ الطريق ين ، و لكن هذا السعى ليس إلا ذريعة للتوصل إلى الهدف المنشود ، و إذا حنا لانحتاج إلى الاعتماد على المصادر المستوردة من أوربا نكون قد اكتسبنا الثقة س ، الثقة التى تكسب مسيرتنا العلمية مزيداً من القوة و النشاط .

٢ــ قامت أوربا بنشر مآت من كتب الحديث والفقه و التاريخ و الآدب ، ن هناك كثيراً من مصادر التاريخ الاسلامى التى توجد فى اللغة العربية والفارسية تركية ، لم تنشر بعد ، و يكون نشرها عملا جليلا فى مجال البحث والتحقيق ، بد من إنجاز هذا المشروع الضخم فى أسرع وقت ممكن .

٣— إعداد الموسوعات الاسلامية التى يوثق بها لاستقاء المعلومات التاريخية ، و الدينية و الحضارية و المدنية ، و التى تتسم بالموضوعية و الأصالة ، و تصحح الأخطاء و الأفكار الباطلة التى نشرت بطرق مختلفة .

لما شرع فى إعادة طبعة الموسوعة الاسلامية (Encyclopaedia of Islam) وصف بعض الباحثين الاسلاميين هذا العمل بمؤامرة المستشرقين اليهود، وتكاد تتم طبعتها الثانية و لكن المسلمين لم يقدموا لها بديلا ، ومما يؤسف له أن بعض الدول الاسلامية نقلت هـــذه الموسوعة إلى لغاتهم و ظنت أنها قامت بأداء ما عليها من واجب ، وفى الفترة الأخيرة ، وضع مشروع إعداد (Encyclopaedia of Religion) تحت إشراف البروفيسور (Minece Eliade) و تكتمل هذه الموسوعة فى أربعة عشر مجلداً ، أو لم يأن للسلمين أن يخطوا إلى مثل هذه الخطوات البناءة ؟

كان الدكتور ذكى وليد الطوغان قد وضع تصميماً لتحقيق الدراسة المستفيضة و البحث الشامل حول تاريخ و مدنية الأتراك ، بغية تصحيح الأخطاء التى وردت فى دراسة المستشرقين ، و لكن لا أدرى إلى أين وصل هذا التصميم بعـــد وفاة الدكتور ذكى . وقررت إيران وضع الموسوعة الفارسية ، ويشرف على هذا المشروع إحسان يارشاطر ، ولكن زمام الأمر فى أيدى المستشرقين الأمريكيين ، وأستميحكم عذراً أن أقول : إنى استوعبت هذه الموسوعات فلم أجد فى الباحثين المسلمين من الدقة و العمق و البصيرة و الاطلاع كما وجدته فى هؤلاء المستشرقين .

إن العلم (Science) بفضل اكتشافاته الجديدة و تقدمه المدهش قد قضى على مسافات الزمان و المكان ، و أحدث انقلاباً فى مجال البحث والتفكير ، وهناك بعض الأعمال لا يمكن تحقيقها بدون الاطلاع على ما أوجـــده العلم من نظريات و تجارب حديثة ، و لقـــد صدق الدكتور إقبال حيث قال : « إن أكبر مشكلة

يواجهها مؤرخ الثقافة الاسلامية أنه لا يجد — فى معظم الأحوال — أى باحث إسلامى نال تربية و اختصاصاً فى دراسة العلم الجديد » (١) .

فلا بد أن يجتمع خبراء العلوم القديمة والجديدة لملء هذا الفراغ ، ومن متطلبات كل عصر من عصور التاريخ أن يكون علم كلام جديد يخصه ، و بما أن إنسان هذا العصر قد اجتاز مراحل بعيدة من التقدم و الرقى حتى أصبح يحقق قول الله عز و جل « و سخرلكم الليل و النهار و الشمس و القمر » فان علم الكلام الذى يتجدد لهذا العصر خاصة لا يستطيع أن يصرف نظره عن أهمية العلم (Sci:nee) وقد مضى الزمن الذى حاول فيه العلماء و المفكرون المسلمون — و فى مقدمتهم السيد أحمد خان — إثبات أن الدين لا يتعارض مع نظريات العلم ، ثم جاء زمن أعلن فيه مولانا أبو الكلام آزاد أن طريق الدين يختلف عن طريق العلم ، و ليس من المعقول إخضاع الدين لاكتشافات العلم ، و لكن العلم بدأ الآن يؤيد المقومات الأساسية للدين ، و إن تطور الوضع يحمل أهمية كبرى يجب أن نشعر بها ، و نستغل هذا الوضع لصالح الاسلام .

و يتطلب الوضع الراهن أن نقوم بدراسة بعض العلوم الاسلامية من جديد ، فيجب أن نوسع نطاق الدراسة السيمانتيكيـــة (S:mantics) للقرآن الكريم التى بدأها (Izutsu) و نبحث عن طرق جديدة لدراسة الحديث النبوى الشريف ، وجمعه وترتيبه ، فى ضوء مارسمه جولدزيهر (Goldziher) و وين سينك (Wensinck) من خطوط للبحث و التحقيق ، و إن ما أنجزه العلماء المسلمون من خدمات جليلة فى مجال العلوم القرآنية و الحديثية يحمل أهمية كبرى يجب أن نعترف بها ، ولكن الحاجة ماسة إلى أن نخطو فى هذا المجال خطوات جديدة ، و أصبح من المهم أيضاً

---

(١) روزگار فقير

صوغ جديد لكتب الفقه الاسلامى صوغاً يتفق و الذوق العلمى الحديث ، و يلائم تطورات العصر ، لكى تتجلى نواحى مفيدة بناءة لنظام الحياة الاسلامى ، و لقد ازدادت اليوم أهمية هذا العمل إذ اصبح الناس فى أمريكا وأوربا يميلون إلى الاسلام لكونه دنيا سماوياً ، ولو تحقق هذا العمل يمكن إصلاح ما وقع فى أفكار ميكدانلد وشاخت واندرسن ، وغيرهم من أخطاء ، بل وتتضح خطط جديدة للتفكير فى نظام الحياة الاسلامى ، و أسرار الدين الحنيف .

و انطلاقا من الشعور بأهمية هذا المشروع الكبير أراد الدكتور محمد إقبال قبل خمس وستين سنة تقديم الفقه الاسلامى فى صياغة جديدة تلائم الذوق الجديد ، و ذلك بمساعدة العلامة أنور شاه الكشميرى ، و لكنه لم يتمكن من ذلك ، و يجب أن لايتأخر هذا العمل الجليل .

ولا تثمر هذه المجهودات كلها ثمارها المرجوة إلا أن تقبل جماعة من العلماء و الباحثين الاسلاميين ، تحب العلم و تعتبره تراثها ، على هذا العمل ، و تستنفد كل طاقاتها لتحقيقه ، و لقد صدق العلامة السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى إذ يقول فى بحثه عن الاسلام و المستشرقين :

« ولسد تأثير المستشرقين السلبى و إصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الاسلام و رجال البحث و التفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ، و يقدموا للعالم الاسلامى المعلومات الاسلامية المؤكدة و وجهة نظر الاسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التى يمتازبها المستشرقون ، بل و الزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم و مؤلفاتهم ممتازة من حيث أصالة التحقيق وسعة الدراسة وعمق النظر ، و تأكد المصادر وصحتها ، و استدلالها القوى بالنسبة لكتابات المستشرقين و مؤلفاتهم ، و أن تكون حاملة لجميع نواحى الاتقان والصحة ، بعيدة عن الأخطاء و النقائص العلمية .

صور و أوضاع

الاسلاميون و الجماهير الاسلامية

واضح رشيد الندوى

لهـذا العصر ظواهر كثيرة . و من أبرز ظواهره ، اجتماعية العمل ، و قد اكتشف هذا الطريق ، للحصول على حقوق مسلوبة ، من أصحاب السلطات الكبرى وللضغط على مطالب الضعفاء . ومنع أصحاب النفوذ من البطش والاضطهاد ، عمت هذه العقلية أولا فى المصانع ، و المعامل ، و المكاتب حيث تكثر الأيدى العاملة . فتقف أفواج من العمال كجنود مجندة فى مساندة عامل واحد أو فئة من العمال و يشكلون جداراً مرصوصاً أمام الاستبداد لصاحب العمل و يمنعونه من اتخاذ أى عمل تأديبى ، وقد يكون العامل مقصراً حقاً فى عمله ، و يستحق العقاب و لكن قوة العمال و مساندة الزملاء ، و تكاتفهم و تعاضدهم ، تخلصه من البطش أو التأديب .

كانت هذه الاجتماعية نابعة من روح المناصرة للضعفاء فكانت كقوة مضادة للسلطات الهائلة التى يتمتع بها أصحاب النفوذ والثروة ، وأصحاب السلطة ، وتتكرر اليوم هذه المظاهرة ، مظاهرة القوة الجماعية للضعفاء فى وجه القوى الهائلة لفرد من الأفراد و تكون رادعة لعنجهية المستبدين و وقاية للضعيف المستكين ، و قد يساء استخدام هذه القوة الجماعية فتسبب إخلال النظام ، و تحول دون تأديب المقصرين ، و لكن لها وزناً يحسب له حساب ، فلها مساوئ و منافع فى وقت واحد ، و يتوقف ذلك على الدوافع .

و وجدت هذه الاجتماعية كذلك فى عهد الاستعمار على الساحة السياسية مثلما وجدت فى الساحة الاقتصادية ، و بفضلها تمكن المناضلون العزل عن السلاح ، من مقاومة السلطات الكبرى المدعمة بالقوى العسكرية و وسائل القمع ، و نظام المخابرات ، و قهروها فى فترة قصيرة ، رغم ضآلة وسائلهم ، بالطاقة البشرية التى كانوا يتمتعون بها ، فخرج المستعمرون من بلدانهم التى كانت خاضعة لهم باعتبار الوسائل ، وكان الجهاز الادارى ، و الموظفون الرسميون تابعين لهم ، مؤمنين بهم ، يتصرفون كالعبيد لهم ، لكن لم تعصمهم هذه الخدمة الادارية و القوة العسكرية ، عن زحف المواطنين ،

تقدم لنا الحركات السياسية التى قامت فى كثير من البلدان المستضعفة فى التاريخ الأخير سجلا حافلا لانتصار حركة سياسية بالتأييد الشعبى و تغلبها على قوة متعمقة الجذور ، وأمامنا مثال لتحرير الهند فقد كان الزعماء فيها يحرصون أكثر من أى شئ آخر ، على مشاركة أكبر عدد من المواطنين ليكونوا صفاً واحداً فى وجه الطغاة ، وأن ينموا فيهم الشعور بضرورة الحرية ، وحقهم فيها ، وأن يتعزز العزم على تحرير البلاد ، و أن تنمو فيهم حساسية بالنسبة للمستعمر ، بل ينشأ فيهم نوع من كراهية المستعمر ، ليس فى المجال السياسى فحسب بل فى المجال الاجتماعى و الاقتصادى ، أيضاً ، و هذه الخطوة لا بد منها فى مجال التحرير عن السيطرة الأجنبية أو محاربة الأعداء ، و فى إقرار الشخصية ، و مكافحة التبعية ، و لا بد من تعميم هذا الشعور وتنمية تلك الحساسية ، و لا تستطيع قوة مكافحة الحساسية إذا عمت شعباً .

هذه الاجتماعية أو الشعبية قوة كبرى للحركات ، سياسية كانت أم اجتماعية ، فكرية كانت أم عقيدية ، و هى مصدر كبير للاندفاع ، فاذا تكونت هذه القوة فانها تحول العاملين إلى قوة لا تقهر ، لأن العاملين إذا تمتعوا بهذه الشعبية فلا يقفون وحدهم و إنما يقف وراءهم شعب كامل أو قوة كبيرة من أفراد الشعب ، و إذا وجدت فيهم حساسية لحقوقهم أو لأفكارهم ضد فريق فلا يمكن التغلب على هذه الحساسية ، و القوة الجماعية المتدفقة .

كانت هذه القوة الشعبية وراء عدة ثورات في التاريخ ، و كانت هذه القوة الشعبية درعاً ومناعة فى وجه جيوش احتلال فى فترات كثيرة من التاريخ .

و هــذه القوة الشعبيــة كانت ، مصــدراً كبيراً لقوة و انتشار حركات و دعوات كثيرة و أفكار عالمية انتشرت كاندلاع النيران وشملت البلاد وقهرت كل قوة جاءت لاخمادها ، أو إحباطها .

و إذا درسنا تاريخنا الاسلامى وجدنا أمثلة كثيرة لبروز هذه القوة فان الاسلام يعتمد أكثر مما يعتمد على شيئ على الاقناع وعلى تعميم دعوته ، وتركيزه على عامــة الناس و إصلاح شئونهم و التعاطف معهم و الاختلاط بهــم لأنهم عدة كل دعوة ، و رصيد كل حركة . فاذا أثرت عقيدة عليهم فانهم يهبونها أنفسهم و يفدونها بمهجهم .

يقدم تاريخنا المجيد أمثلة رائعة من مشاركة الشعب المسلم فى مجهود القيادة الرشيدة المتدفقة بروح الفداء ، و قد ساند الشعب المسلم قادته الفكريين و الروحانيين أمام الطغاة فى فترات كثيرة من التاريخ ، و وقف سداً منيعاً و كان لهم حصناً يعيش معهم فى السراء و الضراء ، و قد شهد التاريخ مراراً حيث أجبر الطغاة على تغيير حكمهم ، تنازلا لضغط الشعب المسلم ، عندما أدرك أن حكمه لا ينفــذ على شخص واحد ، أو جماعة قليلة ، وإنما ينفذ على أفواج ممن يتدفقون بروح الفداء .

شهد التاريخ مرارا أن حاكما مستبداً أصدر حكمه بنفى المشايخ أو العلماء الربانيين واستسلم المحكوم عليــه للأمر ، لكنــــه صادف سكان البلد بكامله لا ليودعوه ، بل ليخرجوا معه إذا خرج من بلدهم .

ليست هــذه الشعبية مصادفة ، أو حادثة منعزلة فى التاريخ الاسلامى و إن لهـا أمثلة يحفل بهـا التاريخ .

الشعب المسلم أكثر ذكاء و شعوراً من الشعوب الأخرى، لأن الاسلام ليس بدين الرهبان، و لا بدين الخاصة، و شريعته ليست مقصورة على طائفة من الناس إنها مفتوحة وعامة، و لا يوجد فى الاسلام ذلك التقديس الأعمى للعلماء و الزعماء فانهم مقدسون ومقلدون ما دام العلماء و الزعماء متمسكين بتعاليم الاسلام و ما دامت أعمالهم تتطابق مع اقتضاء الشريعة الاسلامية وتتجسم مع روحها، فلا يدوم تأييدهم وحبهم لزعيم، وكان ذلك أكبر سبب لعدم تسرب التحريف فى الاسلام، لأن الشريعة و العمل بها كان مقياسا للحب و الاجلال.

و ليست قيادة الشعب الذكى كقيادة غير الذكى.

لقد صرف قادة المسلمين اليوم اهتمامهم إلى حركات تقوم على هتافات براقة وخطط منسقة و مناهج طويلة، و بذلوا طاقاتهم فى عقد حفلات، وندوات، و نشر المنشورات و تعزيز الاعلام، لكن يبدو أن صلتهم بالحياة العامة وكسبهم لود وعطف عامة المسلمين ضئيل، إنهم تعودوا على أن يتكلموا من فوق المنابر، و المنصات العالية، ويوجهوا دعوتهم العظيمة من أفواههم لكنهم لم يختلطوا بشعوبهم، و لم يؤثروا على قلوبهم و لم يغرسوا حبهم فيها. فتميل القلوب إليهم، وتنجذب إلى نمط حياتهم و أفكارهم و سلوكهم، فلا تنفصل عنهم الشعوب، بل تندمج معهم فى السراء و الضراء، و تربط مصيرها مع مصيرهم.

كانت الدعوة الاسلامية نابعة من عامة المسلمين، وانتصرت بمساندتهم، ولكنها اليوم دعوة فى الكتب ومحاضرات فى ندوات ومباحثات فى المجالس العلمية الخاصة، لكنها بعيدة عن ساحة العمل و عن واقع الحياة حتى عن حياة الدعاة أنفسهم فلا تقتنع بدعوتهم قلوب العامة و لا تندمج إليهم، و إن أكبر برهان على هذا الانفصال رغم كل ما يدعيه قادة الدعوة الاسلامية أن جماعة من الدعاة يزج بها إلى

السجون و توجه إليها الشتائم فی الصحافة و وسائل الاعلام ، و تلاقی أنواع التعذيب ، و عامة المسلمين الذين يشكلون أغلبية تلك البلاد تتمتع ، وتتفرج ، وفوق ذلك يعلق قادة على المشانق و يعذب زعيم كبير و يموت و لا يسمح لتشييع جنازته و لا يثور الشعب ، ولا يتحرك ، لقد حدث ذلك فی مصر و فی سوريا ، و كثير من بلاد الثورة .

إن الشعوب المسلمة فی كل بلد إسلامی تعيش و تأكل وتلهو ، و قادتها فی السجون يلاقون أشد أنواع العذاب ، وإنها تقرأ ما تكتبه الأقلام المسعورة فلا تقاطع الصحف و لا وسائل الاعلام التی تصب على هؤلاء الأبرياء الشتائم ، و تشوه سمعتهم ، و لا تبدی هذه الشعوب أی تذمر مما يكتب ضد الاسلام ، وتاريخ الاسلام ، و لا تبدی كراهيته .

إن مثل هذا الموقف السلبی إزاء قادة المسلمين ودعوتهم الاسلامية يجب أن يتغير ، و الحلقة المفقودة بين الاسلاميين و الجماهير المسلمة يجب أن تستعاد ؟

البعث الاسلامی شهرية ، إسلامية ، جامعة

رئاسة التحرير : سعيد الأعظمی الندوی — واضح رشيد الندوی

الاشتراكات السنوية

فی الهند : ٣٠ روبية — ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف

فی العالم العربی : ٩ دولارات بالبريد السطحی — ١٨ دولاراً بالبريد الجوی

فی أوربا وافريقيا وأمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحی — ٣٠ دولاراً بالبريد الجوی

فی باكستان وبنغلاديش ودول شرق آسيا : ٨ دولارات بالسطحی ، ١٨ دولاراً بالجوی

المراسلات : مكتب رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامی ندوة العلماء ص . ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

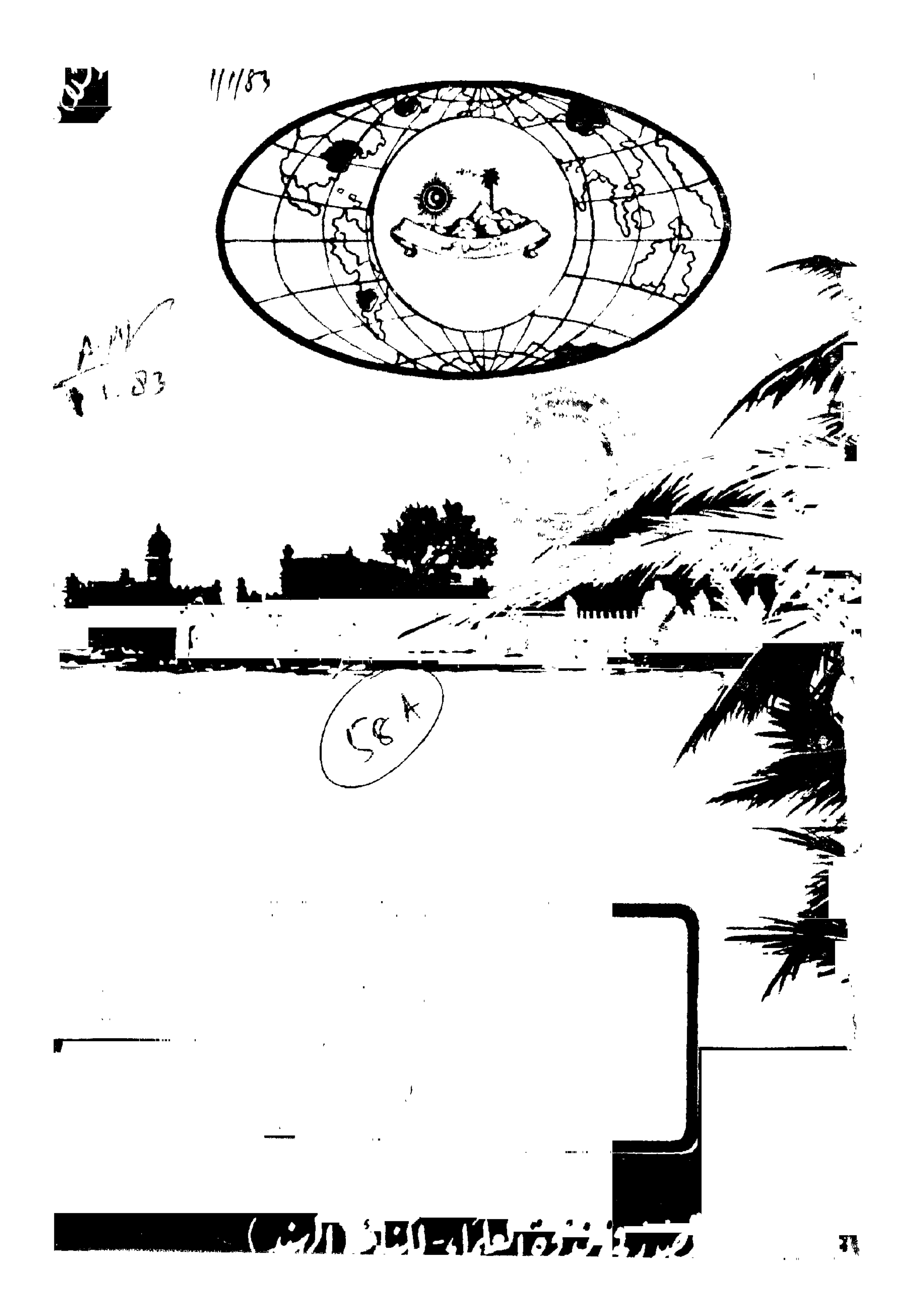
Phones . 48747 - 42948 Regd. No. Lw/NP 59

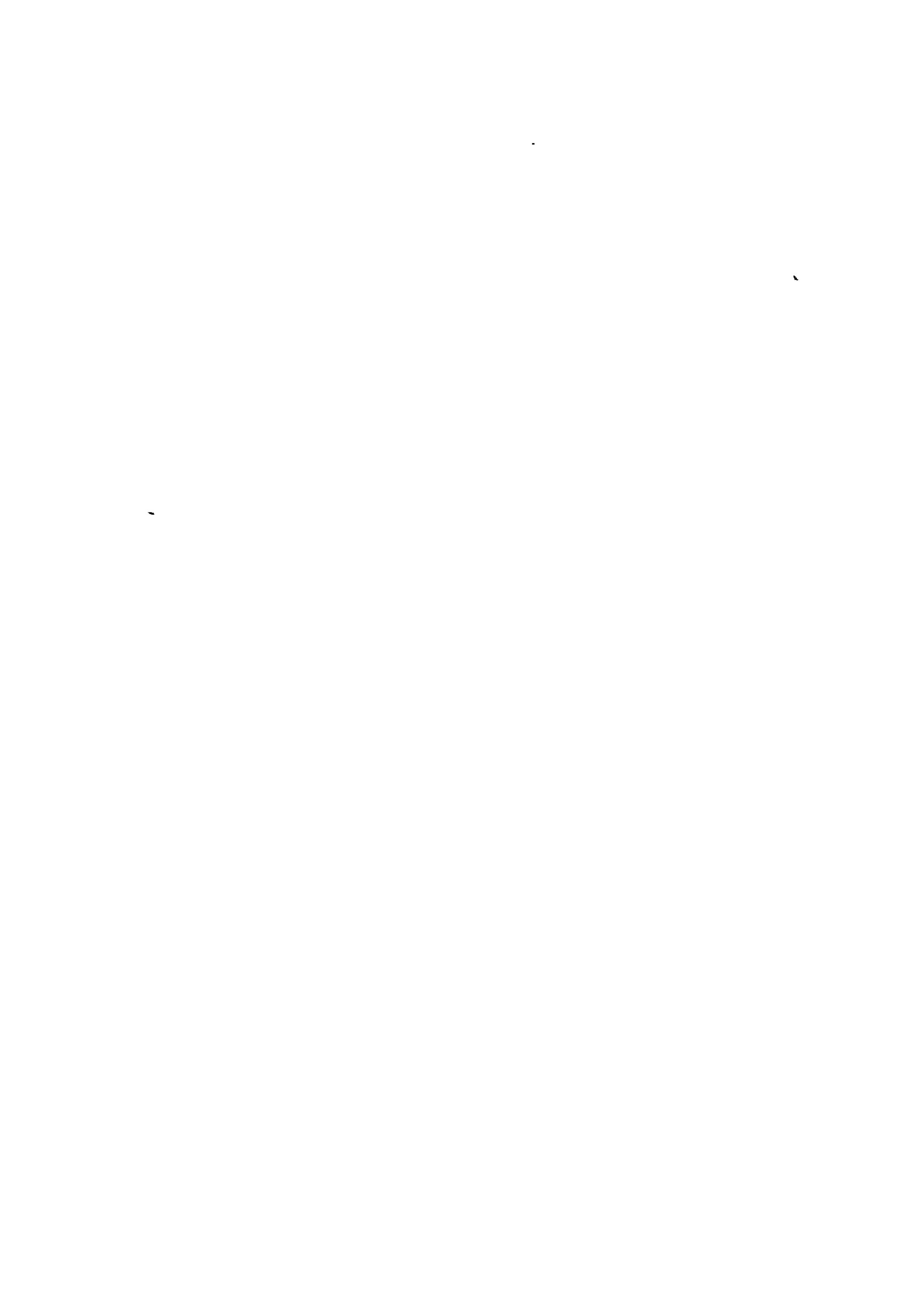
ALBAAS - EL - ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيـد الأعظمى





أنشأها فقيد الندوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني رحمه الله ١٩٥٥

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

المجلد السابع والعشرون

العدد السابع

ربيع الثاني ١٤٠٣هـ

يناير و فبراير ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى . غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره و ألوانه . و هذه هى نقطة التفاصل ، ونقطة الالتباس أيضاً . الأصل فى المجتمع الاسلامى — هو العبودية لله . و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان . و الجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان . أما ما عداه من الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفى لتحقيق مهمته فى هذه الحياة و إعلاء كلمة الله فى الأرض . ولا يأخذ منها إلا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسنى

(الاسلام الممتحن ص [illegible])



في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية :

ظاهرة العنف و القسوة فى ممارسات عقلاء العالم الحديث ضد المسلمين

تعيش أمتنا الاسلامية اليوم بين فكى الصهيونية العالمية بما فيها الصليبية الحاقدة و اليهودية الحاسدة .

و البلشفية بما فيها الماركسية الملحدة و الشيوعية المادية .

وكلتا هاتين الكتلتين تضيقان عليها الحصار من كل جانب ، وهما مشغوفتان بإبادة هذه الأمة على جميع المستويات ، وتصفيتها نهائياً فى جميع المجالات ، ولا أدل على هذا الواقع من أحداث لبنان و مأساة بيروت وما يسبقهما من تاريخ القضية الفلسطينية ، ومن الغزو العسكرى الماركسى المستمر فى أفغانستان ، ومن المحن و المعاناة الكثيرة التى فرضت و لا تزال تفرض على هذه الأمة فى أجزاء وطنها المختلفة « و ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات و الأرض »

ولقد تزايدت ضغوط الكتلتين على العالم الاسلامى فى الفترات الأخيرة وطالما اتسمت بطابع العنف و الشدة ، حيث إن عقلاءهما توصلوا أثر التجارب الواسعة التى أجروها على هذه الأمة أن جميع المحاولات التى استخدمت لإضعافها و محوها من الوجود قد فشلت ، ولم تغن عن تلك أى وسيلة من وسائل الاستعمار الفكرى و الحضارى ، بل ألجئ أن هذه الأمة طائفة قوية

رغم ضعفها ، و صامدة أمام المحن و المشكلات رغم جميع أدوائها وعلاتها ، وبلغت آمالهم بالخيبة المريرة نحو تحقيق تلك الأهداف الخبيثة التى كانت تتولى هدم كيان المسلمين ، و بسط النفوذ الكامل على بلدانهم و دولهم ، و من هنالك تأكدت عزائمهم وصحت نياتهم على استخدام طرق العنف والدمار والابادة فى دول ومجتمعات المسلمين ، واتحدت فروعهما الكثيرة على هذه النقطة زعماً منها أن العنف هو الطريق الوحيد للقضاء على أمة الاسلام ، وبالتالى السيطرة الكاملة على مناطق نفوذها والاستيلاء على ثرواتها و معادنها .

هذه القصة لها تاريخ يرجع إلى قرون غابرة إلا أن الفلسفات الجديدة المادية أضفت عليها لوناً من القسوة والنقمة والحقد ، واستهدفت إعداد الأساليب والأنماط التى تستهوى نفس المرء ولا يرى بأساً فى اتخاذها و الاعتماد عليها فى شئون الحياة من غير أن يتفطن لما يختفى وراءها من أضرار تهدد وجوده ، إن هؤلاء المداهين لم يدخروا وسعاً فى تحطيم معنوية المسلمين و هدم الفضائل الايمانية التى تعتبر أكبر ميزة لهم ، و لقد ركزوا على تبليد الشعور بالوازع الدينى لدى المسلم ، ذلك الذى يحول دون السيئات و الآثام من كل نوع ويثير فيه روح الورع والخشية من الله سبحانه و تعالى عند كل عمل و نشاط .

وقد حشروا لهذا الغرض أفواجاً من الخبراء والعاملين ممن يبتكرون أساليب جذابة ، و وسائل ذات تأثير لتضليل المسلمين و قطع علاقتهم عن منبع العز و القوة و عن مصدر الايمان و العبودية ، و مهما اختلفت الكتلتان فى الرؤى و المبادىء و الفلسفات و الأنظار ، و لكنهما مرعان ما تتحدان حول ما يتصل بالأمة الاسلامية و باقتلاع جذورها من الأرض ، أو تحويلها أمة مادية خالصة تكون قد تنكرت لدينها و منهج حياتها و تعاليمها الخلقية ومثلها العليا ، وتتضامنان وتتعاونان

بغاية من التأكيد فى كل ما يجر إليها الشقاء و التخاذل ، و ينخر كيانهـــا الخلق و الدينى ، و يرميها فى أحضان المادية العمياء و الحضارات العفنة .

لقد وجدت فيما سبق من الأزمان محاولات كثيرة لحصر المسلمين فى نطاق ضيق محدود وتطويق الأمة الاسلامية بحيث لا تتمكن من أداء وظيفتها فى أى مجال ، ذلك كالاستعمار السياسى والاستعمار الفكرى ، وما يشغلها عن نفسها من هتافات جاهلية ، أو ما يعوقها عن التفكير فى منصبها العظيم و مكانتها العالية ، مثل تطوير المفـاهيم الخلقية و تعديل التصورات الفكرية ، و إهمال شأن العقائد و السلوك و تهوين قيمة الأعمال و العبادات ، و قد نجحت تلك المحاولات فى إيجاد طبقة متنورة من المسلمين المثقفين تنادى بادخال تطويرات وتحسينات فى الشريعة الاسلامية ، وصوغها فى قالب حديث ، ولا تزال هذه الطبقة قائمة بهتافها القديم و لكنها تريد أن تؤدى دورها من وراء الكواليس نظراً إلى موجات اليقظة الاسلامية العارمة ، و إقبال الأمم و الشعوب على تعاليم الاسلام و الاعجاب بها .

و كرد فعل لصحوة المسلمين و تيقظ شعورهم بالحاجة إلى رسالة الاسلام الخالدة ، و نشاطات العلماء و الدعاة فى مجال الدعوة إلى الاسلام ، و ما لها من تأثير ايجابى عميق فى المجتمعات الانسانية بوجه عام ، اتجه الحـاقدون و المتآمرون على الاسلام نحو استخدام العنف و القوة فى تحقيق مآربهم ، و قد جربوهـا فى القضيه الفلسطينية بطرد العائلات العربية من ديارهـا ، و إجبارها على اللجوء إلى المخيمات ، و فى الحرب الأخيرة لهذه القضية التى احتلوا فيهـا القدس و المسجد الأقصى بقوة و عنوة عن طريق إسرائيل ، و فى الهجمات الجوية العنيفة فى لبنـان حيث كانوا يستهدفون بها نسف المنشآت والمخيمات الفلسطينية فى أحياء اللاجئين العرب ، دون مبالاة بعدد القتلى الهائل ، و فيما قاموا به أخيراً من قتل آلاف مؤلفة من

لاجئى مخيمات صبرا و شتيلا بطريق مباغت و من غير رحمة وهوادة ، بل بشر قسوة عرفت بها مجموعة بشرية ، و ما حدث فى الحبشة من قتل عام للمسلمين و فى الفلبين و ما جرى فى إيران و العراق و اريتريا و الصومال ، و فى دول عربية خالصة على أيدى الطغمة الحاكمة ، و شهده العالم ، و لا يزال فى الحرب العراقية و الايرانية ، المستمرة من نحو ثلاث سنوات من مظاهر العنف والشدة و استخدام القوة و إلزام منطق القسوة و الاجبار و الاكراه و القتل و الانتهاك و الظلم و الاضطهاد ما يعرفـــه الجميع ، و كل ذلك لمجرد الحصول على غرض رخيص ، أو إرضاء نهمة نفسانية أو شهوة بهيمية .

استهدفوا المسلمين فى كل هذه الاجراءات التصفية لتصفية وجودهم من الأرض كأمة لها شأنها الكبير وتاريخها المجيد ، وإن منطق العنف والقسوة هو المنطق المفهوم و المعمول به لدى هؤلاء الحاقدين ، الذين يزعمون أن المسلمين سيذوبون و ينتهون بالشدة و القهر ، و يرون ذلك آخر سهم فى كنانتهم و يطلقونه للقضاء على الأمة الاسلامية أو جرفها فى التيار المادى الحضارى على أقل تقدير ، وحيثما نرى المسلمين يواجهون أوضاعاً متماثلة فذاك جزء من المخططات الارهابية و المكائد الاجرامية التى تكون لحمتها وسداها من منطق العنف و القسوة السائد ، ليس غير « قد بدت البغضاء من أفواههم ، و ما تخفى صدورهم أكبر » .

أما أفغانستان فقـــد اتفقوا على أن يتظاهروا فيها بكل ما أمكن من عنف وقسوة وهمجية ، و اتخذوها أكبر مسرح للاحتلال الشيوعى و أوسع مجال لتجربة كل نوع من أنواع القسوة والظلم على مشهد من العالم علما منهم بأن المسلم الأفغانى أشد غيرة على دينه ، و أقوى شعوراً بايمانه مع ما رزق من قوة الساعد و البنان و شدة الشكيمة ساعة الامتحان » و لكنه لكى يقبل الشيوعية و يرفض الاسلام

و يساوم الماديين المغرضين بلاده وخيراتها بفلسفة شيوعية فاشلة، استخدم الاقتصاد السوفياتى منطق العنف ظناً منه بأن الأفغان يخضعون له فى أول وهلة من الهجوم وفى أولى ساعات الاحتلال، ولكن ذلك لم يتم وقد مضت على الاحتلال المشئوم ثلاث سنوات تكبدت خلالها القوات السوفيانية بخسائر فادحة و كأنها فى أول يوم من احتلالها نظراً إلى شدة المقاومة و روح الجهاد الخالصة التى يتمتع بها المسلم الأفغانى و لا يقصر فى ترخيص النفس و المال فى سبيل الدفاع عن عقيدته و إيمانه، ورد الغزو و الاحتلال المشئومين إلى نحور الغزاة و المحتلين. و على مضى ثلاث سنوات فان الجهاد بروح التضحية والفداء فى تصاعد مستمر، والقوات المحتلة على كثرة عددها و عددها فى تخاذل يخونها النصر و يفوتها الانتصار على المجاهدين مع قلة عددهم و عتادهم، و لكنه الايمان و روح الشهادة التى يتحلى بها المؤمنون فى كل زمان و مكان، فيقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون. « ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار و ليجدوا فيكم غلظة، و اعلموا أن الله مع المتقين ».

إن هذا الغزو العسكرى فى أفغانستان له أكثر من مغزى، إنه لا يعنى احتلال بلد فحسب ولكنه قبل كل شئ يشير إلى ذلك المخطط الرهيب الذى يخططه زعماء هاتين الكتلتين للقضاء البات على كل ما يسمى بالاسلام أو ينمى إليه من فكر و منهج أو عبادة و تقليد، أو عقيدة و سلوك، ذاك أنهم لا يقلقون لشئ كما يقلقون للاسلام أن يسود مجتمعاً أو يقود قوماً أو يملى حكما، و قد تركزت جهود الماركسيين و الماديين من زمان طويل على إخراج العاطفة الايمانية الجياشة فى قلوب المسلمين الأفغان، أو إضعافها على أقل تقدير، ولقد كان هذا الاحتلال تفسيراً لما تم لهم من النجاح فى تغيير الأمة الأفغانية، و لم يكونوا يظنون أنه سيلاقى مثل هذه المقاومة العنيفة، بل كانوا متأكدين تماماً أن البلد الأفغانى مستعد تمام الاستعداد لقبول النظام الشيوعى، إلا أن الدوافع الايمانية و الغيرة الدينية انبعثت فى القلوب، و صمدت فى وجه كل عنف وظلم و قسوة

لقد مارست الكتلتان لفترات طويلة أساليب مقنعة لسلخ المسلمين عن عقائدهم و غيرتهم وإيمانهم وسلوكهم ، و لكنهما لجأتا الآن فى الفترة الأخيرة إلى استخدام طرق الشدة و العنوة و الاجبار ما دام الأمر لم يتم بصورة نهائية بأساليب اللين و الحكمة و بطرق العلم و الحضارة و الفكر ، و قد تجلت هذه الظاهرة بغاية من الوضوح فيما يمارس اليوم من أساليب القمع و الاذابة و التطوير فى دول المسلمين ومجتمعاتهم ، ولا يستطيع الناس أن يستنكروا ظواهر العنف و التدمير حتى الدول الاسلامية لاتكاد تنبس ببنت شفة حول أوضاع المسلمين الحالية ، التى هم فيها على بركان من الظلم و الاعتداء ، و يبدو كأن نبوءة الحديث الشريف التى أشار فيها رسول الله ﷺ إلى تداعى الأمم والشعوب على المسلمين و تألبها عليهم كما يتداعى الأكلة على القصعة ، كأنها تتحقق اليوم فينا نحن المسلمين من قبل الزعماء المناديين من اليهود و النصارى فى أشكال عنيفة تهدد القضاء على المسلمين .

إنها نبوءة تتطلب أن نأخذها بعين الاعتبار ونتناولها بشئ كثير من الدراسة و التفكير ونرى كيف أنها تنطبق على الواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم فى كل بلد ، فقد جاء فيما رواه أبو داؤد و البيهقى .

« عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : و من قلة نحن يومئذ ، قال بل أنتم يومئذ كثير ، و لكنكم غثاء كغثاء السيل ، و ليزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا و كراهية الموت » .

و ما أصدقها نبوءة و أكثرها انطباقاً علينا نحن المسلمين ؟

سعيد الأعظمي الندوي

التوجيه الإسلامي

العقيدة الاسلامية السنية

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى

★ مصادر تلق العقيدة الصحيحة ،

و المعـــــــــــــدة فيها : إن أجل علم أخذ عن الأنبياء عليهم صلوات الله و سلامه ،

معرفة الله تعالى و علم ذاته و صفاته و أفعاله ، و ذلك علم يختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ هو علم ليست له وسائل وآلات ، ومعلومات أولية وتجارب عند البشر ولا يتناوله القياس ولا يفيد فيه الذكاء والفطنة ، لفقدان أساس القياس ، و تعالى الله تعالى عن الأشباه و النظائر ، و سموه و تقدسه و تنزهه عن التشبيه و التمثل ، و لبعده عن كل ما عرفه البشر و ألفه و جربه فى عالم الحس والمادة ، لأنه ليس حلبة تجرى فيها جياد العقول و تتسابق فيها عتاق العلم و التجربة .

وكان أجل علم تتوقف عليه سعادة البشر ، إذ هو الأساس للعقائد والأعمال و الأخلاق والمدنية ، و هو الذى يعرف به الانسان نفسه ، و يفك لغزة الكون ويكشف عن سر الحياة ، و به يعين الانسان مركزه فى هذا العالم ، وينظم علاقاته و اتصالاته بين جنسه ، و يضع منهاج حياته و يحدد غاياته ، فى ثقة و بصيرة ، و وضوح و يقين .

لذلك عظم الاعتناء به فى كل أمة و جيل ، و فى كل عصر و طبقـة

وحرص عليه وأولع به كل جاد مخلص ، ناصح لنفسه ، مشفق على حياته ومصيره ، لأن جهله - أو تجاهله - يؤدى إلى الشقاء الذى ليس بعده شقاء ، و وقوع فى الهاوية التى ليس لها قرار .

و كان الناس فى ذلك فريقين : فريق اعتمد فى ذلك على الأنبياء و الرسل و علومهم صلى الله عليهم ، الذين أكرمهم الله بالنبوة و خصهم بمعرفته و تكليمه و رسالاته ، و جعلهم واسطة بين الحق و الخلق ، فى معرفة ذاته وصفاته وطرق مرضاته ، و أفردهم باليقين الذى ليس فوقه يقين و نور ليس بعده نور ، فقال : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين »(١) و قال قائلهم و قد نازعه قوم فى ذات الله و صفاته فى غير علم يملكونه أو نور يحملونه : « أتحاجونى فى الله و قد هدان (٢) » ثم أضافوا إلى ذلك التأمل فى الكون و التفكر فى خلق السماوات و الأرض ، و النظر فى آيات الله ، و تدبر كتابه الحكيم ، والعمل الصالح والتقوى ، و تزكية النفس وتهذيب الخلق ، و تصفية القلب على منهاج الأنبياء عليهم السلام ، و استعمال عقولهم و مواهبهم ، و النظر فى العلوم الكونية والعقلية - بحرية واستقلال فكر - فرأوا أن بعضها يصدق بعضاً ، فازدادوا يقيناً إلى يقين « و ما زادهم إلا إيماناً و تسليماً » (٣) .

و فريق اعتمد فى ذلك على ذكائه و علمه و تجاربه و مواهبه ، و أطلق عنان العقل و أركض جواد القياس ، و تناول ذات الله و صفاته بالدراسة والبحث و التحليل و التجزئة ، كمادة كيمياوية أو قوة طبيعية أو طاقة نباتية ، و قالوا : هو كذا و ليس كذا ، و كان قولهم ليس كذا ، أكثر من قولهم هو كذا ، و النفى

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٧٥ . (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٨٠ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٢ .

دائماً - إذا فقد اليقين و عدم النور - أسهل من الاثبات و التقرير ، و جاءت نتائج بحثهم و تقريرهم ، أكثرها سلوب ، و المدنية لا تقوم على السلوب ، وليس ذلك شأن الأنبياء الذين يشاهدون و يسمعون و يردون عن علم و تجربة شخصية ، فجاءت فلسفتهم الالهية - كما سموها - آراء متضاربة ، و تخمينات ما أنزل الله بها من سلطان ، و لم يقم عليها دليل أو برهان ، و لم تؤيدها تجربة أو وجدان .

و كان فى مقدمة هذا الفريق و على رأسه ، اليونان الذين عرفوا من قديم الزمان بالذكاء المفرط ، و القريحة الوقادة ، والفلسفة العميقة ، والشعر البليغ و الفن الرفيع ، ولم يكن هذا - علم الالهيات - مجال شئ من ذلك ولا يتصل به بنسب قريب أو بعيد ، فجاهدوا فى غير جهاد و مشوا بين شوك و قتاد ، « فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض » (١) ليس معهم نور يهديهم ، أو دليل يرشدهم ، أو تجربة سابقة تأخذ بيدهم ، أو مقدمات و معلومات أولية يتوصلون بها إلى المجهول .

وكان ضغثاً على إبالة ، أنهم كانوا أصحاب وثنية عتيقة ، عميقة عريقة ، وأصحاب أساطير و خرافات ، تغلغلت فى فلسفتهم وشعرهم ، و أدبهم و دياناتهم ، لهم فلسفة وثنية خاصة عن الأفلاك و العقول ، توارثوها جيلا بعد جيل ، فجاءت فلسفتهم الالهية مزيجاً من الفلسفة و الوثنية ، جامعة بين العلم و الديانة - الديانة التى آمنوا بها و قلدوها - و وضعوا لآرائهم و تحكماتهم أسماء هائلة مرعبة ، و كسوها لباس الفلسفة و الفن ، القشيب المزخرف .

و قد قلدهم عامة النظار و الباحثين من الأمم - غير الهند التى عرفت بفلسفتها و الوثنية الخاصة - و خضعوا لها تقليداً و إيماناً بالغيب ، لبراعتهم فى

(١) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

الحساب و الهندسة ، وبعض العلوم الطبيعية ، وهذا داء البشر القديم ، إذا خضعوا لأحد فى شئ خضعوا له فى جميع الأشياء كما قرره حجة الاسلام الغزالى فى مقدمة « تهافت الفلاسفة » و العلامة ابن خلدون فى مقدمته العظيمة ، و أخذوا بحوثهم و آراءهم كنتائج مقررة ثابتة ، و حقائق علمية ، لا يتطرق إليها الشك ولا ينازعها إلا جاهل أو متعصب .

و لا يستغرب ذلك عن الأمم التى أفلست فى ثروتها الدينية من القديم وضيعت الهدى والنور ، ولكنه غريب من علماء المسلمين الذين أكرمهم الله بالرسالة المحمدية - على صاحبها الصلاة و السلام - و الكتاب الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (١) ، فخضع كثير منهم لهذه الفلسفة وبدأوا يبحثون فيها كلها قائم على المسلمات والحقائق و التجارب ، و سلموا كثيراً من متخيلاتهم ومفروضاتهم ، وأخضع كثير منهم - حباً للاسلام تارة وضعفاً منهم أخرى - الآيات القرآنية أو أولوها تأويلا شديداً ، و فسروها تفسيراً يطابق ما ثبت و تقرر فى الفلسفة اليونانية الالهية .

و كان أكثر ما دهوا به و أوتوا من قبله هو « اللوازم الفاسدة » التى يجب أن ينزه عنها « واجب الوجود » ففروا من إثبات كثير من الأسماء والصفات و الأفعال ، لأنها يلزم منها ما يختص بالحدث و يثبت ما به الجسم وما يتنزه عنه « القديم » كل ذلك قياساً على الانسان و على تجاربهم المحدودة ، إذ لا يتصور ولم يجرب وجود هذه الصفات إلا بهذه اللوازم ، و فاتهم أنها صفات إلهية يمكن وجودها بغير هذه اللوازم ، وهكذا مال فريق منهم إلى نفى الصفات ، و كان أحسنهم حالا من تأولها أوفسرها تفسيراً كاد يؤدى إلى التعطيل ، وفاتت أو كادت تفوت حكمة الصفات .

---

(١) سورة حم السجدة ، الآية : ٤٢ .

و مشى الكثير على هذا الدرب على اختلاف نزعاتهم و مشاربهم و تكون علم الكلام و تضخم ، و كان المسلمون فى حاجة إلى من يؤسس عقيدته و تفكيره على ما ثبت من الكتاب و السنة و آمن به السلف ، و يجعله الأساس ، و ينظر فى الفلسفة و غير الفلسفة كعلم يناقش و يبحث فيه ، و ينكر بعضه ويؤخذ بعضه ، و يستعرضه استعراضاً علمياً حراً ، لا تقليد فيه و لا استسلام ، و لا يأخذ من مفروضات الفلاسفة اليونانيين ومقلديهم ومستلزماتهم ، إلا ما قام عليه الدليل ورجح فى ميزان العلم ، و لا ينظر إلى أرسطاطاليس و أضرابه كآلهة أو أنبياء معصومين عن الخطاء ، و كان المسلمون فى حاجة إلى نوابغ مستقلين فى التفكير ، مجتهدين متمسكين ، ثائرين مؤمنين ، هدامين بنائين ، يجمعون بين العلم الواسع العميق للكتاب و السنة ، والنظر الدقيق والعلم الغزير للمناهج الكلامية والمذاهب الفلسفية ، يواجهون الفلسفة و آراء الفلاسفة القدماء وجهاً لوجه ، يؤمنون بالقرآن كما أنزل ، و يؤمنون بالله كما وصف نفسه ، من غير تحريف ولا تأويل ، و يفسرون ذلك كله تفسيراً يقره العقل و المنطق ، و يؤيده العلم و البرهان .

كان من هؤلاء الثائرين المؤمنين ، الثائرين على الفلسفة ومفروضاتها وتهويلاتها و المؤمنين بكتاب الله ، و وصف الله نفسه ظاهراً و باطناً ، علماء « ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، و تأويل الجاهلين ، (١) لم يخل منهم عصر ، و كان منهم و من أشهرهم شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى الدمشقى فى القرن الثامن ، فقد جمع - كما شهد به أعلام هذه الأمة ونطق به كتبه - بين الايمان القوى بكل ما جاء به الرسول ونطق به الكتاب ، والاقتناع بعقيدة السلف

(١) رواه البيهقى ، و لفظ الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، و انتحال المبطلين ، و تأويل الجاهلين » .

الصالح ، و الاطلاع الواسع ، الذى لا يرام فوقه ، على ما دون فى صحائف هذه الأمة فى الماضى ، و العلم الدقيق العميق بفلسفة اليونان و منطقهم ، والمذاهب التى نشأت فى الاسلام بتأثير الفلسفة اليونانية ، فى قليل أو كثير ، و النقد القوى الحر الجرى لمناهجها و بحوثها ، و قد رزق تلميذاً و خليفة مشى على إثره ، و شرح ما أبهمه ، و جمع ما نشره ، و أكمل ما بدأه ، و هو العلامة ابن قيم الجوزية (م ٧٩١هـ) .

و كان من خير من يلحق بهما و يذكر معهما شيخ الاسلام حكيم الأمة الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى (م ١١٧٦هـ) صاحب « حجة الله البالغة » فقد جمع بين العقيدة السنية السلفية ، و الفهم الدقيق للقرآن ، و الخبرة الواسعة بالحديث و العلم بأسرار الشريعة ، وبين الدراسة العميقة الواسعة للفلسفة اليونانية و علوم الحكمة و التصوف ، علماً و عملا ، و وصل إلى درجة الاجتهاد (١) ، و هو الذى نشر علم الحديث و روج بضاعته فى الهند ، و دافع عن الامام ابن تيمية والمحدثين ، وألف الكتب البديعة فى مقاصد الاسلام والشريعة ، منقطعة النظير فى مكتبة الاسلام العامرة الواسعة (٢) .

و كان هؤلاء ـ و من كان على شاكلتهم - أجدر الناس بشرح العقيدة الاسلامية و عرضها إذ كانوا وسطاً بين الجامدين القشوريين ، و الجاحدين المؤولين الذين يصرفون الكلم عن مواضعه ، يجمعون بين المعقول والمنقول والشريعة والحكمة ،

(١) قال الأمير صديق حسن خان صاحب المؤلفات الكثيرة السائرة: « لو كان فى العصر الأول لعد من المجتهدين الكبار » .

(٢) اقرأ ترجمته الصافية فى الجزء السادس لـ « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى رح ، طبع دائرة المعارف فى حيدر آباد (الهند) .

مطلعين على المناهج الكلامية متمسكين بالكتاب و السنة و عقيدة السلف ، و كانت كتبهم و مؤلفاتهم أجدر بالتدريس و الاعتناء والشرح و الايضاح ، من كثير من الكتب التى يعنى بها فى مدارسنا و جامعاتنا .

وكان كتابه « العقيدة الحسنة » متناً وجيزاً محكماً يجمع بين الدقة والسهولة ، و قد اشتملت على اللب و اللباب ، و المهم من العقيدة وعلم التوحيد الذى لا يسع المتعلم جهله ، فلذلك اعتمدنا عليه مع التلخيص فى عرض العقيدة الاسلامية السنية ، مع استعانة قليلة ، و زيادة يسيرة من كتب السلف المعتمدة كعقيدة الطحاوى ، و كتب فى شرح العقائد ، لكبار علماء السنة .

★ العقائد الاسلامية الأساسية : إن للعالم صانعاً قديماً لم يزل و لا يزال ، واجباً وجوده ، ممتنعاً عدمه ، و هو الكبير المتعال ، متصفاً بجميع صفات الكمال ، منزهاً من جميع سمات النقص و الزوال ، وهو خالق لجميع المخلوقات ، عالم لجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات ، مريد لجميع الكائنات ، حى سميع ، بصير ، لا شبه له ، ولا ضد له ، و لا ند له ، و لا مثل و لا ظهير له ، لا شريك له فى وجوب الوجود ، و لا فى استحقاق العبادة ، و لا فى الخلق و التدبير ، لا يستحق العبادة (أى أقصى غاية التعظيم) إلا هو ، و لا يشفى مريضاً و لا يرزق رزقاً ، ولا يكشف ضراً إلا هو ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، لا يحل فى غيره ، و لا يتحد بغيره ، ليس فى ذاته ولا فى صفاته حدوث (١) ، ليس بجوهر (٢) ،

---

(١) إنما الحدوث فى تعلق الصفات بمتعلقاتها .

(٢) هو القائم بنفسه ، أو الشاغل للحيز .

و لا عرض (١) ، و لا جسم ، و لا فى حيز ، و هو فوق العرش ، مرئى المؤمنين يوم القيامة ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، غنى لا يحتاج إلى شئ ولا حاكم عليه ، لا يسأل عما يفعل و هم يسألون ، لا يجب عليه شئ بايجاب غيره ، موصوف بالحكمة ، لا قبيح منه ، و لا حاكم سواه .

و القدر خيره و شره من الله ، قد شمل علمه الأزلى الذاتى كلما وجد أو سيوجد من الحوادث ، و هو الذى يوجب الحوادث قبل وجودها (٢) .

ولله تعالى ملائكة علويون ، مقربون ، و ملائكة هم مؤكلون على كتابة الأعمال و حفظ العبد عن المهالك ، و الدعوة إلى الخير ، ويلمون بالعبد لمة الخير ، ومن خلق الله تعالى الشياطين ، لهم لمة شر بابن آدم ، و من خلقه الجن .

و القرآن كلام الله ، و لا يجوز الالحاد فى أسماء الله و صفاته ، و هو أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، أو أن يتؤول أوصافه على ما لا يليق به ، فيتوقف الاطلاق على الشرع .

و المعاد الجسمانى حق ثابت ، و المجازاة و المحاسبة حق ، و الصراط ثابت بالكتاب و السنة ، و الميزان حق ، و الجنة حق ، و النار حق ، و هما مخلوقتان اليوم ، و الأرواح مخلوقة لا تفنى ، و هى غير قديمة .

ولا يخلد المسلم صاحب الكبيرة فى النار ، والشفاعة حق لمن أذن له الرحمن و شفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمته حق ، و هو مشفع ، و عذاب

---

(١) العرض ما يحتاج إلى المحل المقوم له .

(٢) صح من حديث رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره و شره ، و حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، و أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه» (رواه الترمذى)

القبر للفاسق ، و تنعيمه للمؤمن حق ، و سؤال المنكر و النكير حق .

و بعثة الرسل إلى الخلق حق ، و تكليف الله عباده بالأمر و النهى على ألسنة الرسل حق ، وهم متميزون بأمور لا توجد فى غيرهم ، على سبيل الاجتماع ، تدل على كونهم أنبياء . منها خرق العوائد لهم و هى المعجزات ، و منها سلامة فطرتهم ، و كمال أخلاقهم ، وغير ذلك . والأنبياء معصومون من الكفر ، وتعمد الكبائر ، و الاصرار عليها .

و محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيئين ، لا نبى بعده ، و دعوته عامة لجميع الانس و الجن ، و هو أفضل الأنبياء بهذه الخاصة ، و بخواص أخرى نحو هذه ، و قد أسرى به فى اليقظة إلى بيت المقدس و منه إلى ما شاء الله .

و كرامات الأولياء ، و هم المؤمنون العارفون بالله تعالى وصفاته ، المحسنون فى إيمانهم حق ، يكرم الله بهـا من يشاء ، و يختص برحمته من يشاء ، ولا يسقط التكليف عن أحد مهما بلغ من الولاية و المجاهدة و الجهاد ، و لا يزال مكلفاً بالفرائض ، و لا يحل له شئ من المحرمات ، و المعاصى ، ما دام صحيح الحواس واعياً ، و النبوة أفضل من الولاية إطلاقاً ، و لا يبلغ أحد من الأولياء و إن كان أعظمهم ، درجة صحابى ، و إن لم يكن من كبار الصحـابة رضى الله عنهم ، و فضل الصحابة على الأولياء بكثرة الثواب و عظم القبول لا بكثرة العمل (١) .

و الصحابة - رضوان الله عليهم - خيار المؤمنين و خير الخلائق بعد الأنبياء - عليهم السلام - و نشهد بالجنة و الخير للعشرة المبشرة ، و نوقر أهل البيت و أزواج الرسول أمهات المؤمنين ، و نحبهم و نعترف بعظم محلهم فى الاسلام ،

---

(١) فى الحديث الصحيح : « لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم و لا نصفه » (متفق عليه) .

و كذلك أهل بدر ، و أهل بيعة الرضوان ، و أهل السنة يرون عدالة الصحابة و لا يعتقدون عصمتهم ، و يمسكون عما شجر بينهم .

و أبو بكر الصديق رضى الله عنه إمام حق بعد رسول الله ﷺ ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم ، ثم تمت الخلافة على منهاج النبوة ، و بعدها ملك عضوض ، و أبو بكر وعمر أفضل أمة محمد ﷺ (١) ، و نكف ألسنتنا عن ذكر الصحابة إلا بخير ، و هم أئمتنا و قادتنا فى الدين ، و سبهم حرام ، و تعظيمهم واجب .

ولا نكفر أحداً من أهل القبلة (٢) ، إلا بما فيه نفى الصانع القادر المختار ، أو عبادة غير الله ، أو إنكار المعاد والنبى ، وسائر ضروريات الدين ، و استحلال المعصية كفر (إذا صح ثبوتها معصية) . و الاستهزاء بالشريعة و الاستهانة بها كفر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب بشرط أن لا يؤدى إلى الفتنة ،

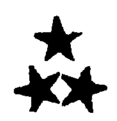
---

(١) يقول الشيخ فى شرح هذا المعنى إننا لا نعنى الأفضلية من جميع الوجوه حتى تعم النسب و الشجاعة و القوة و العلم و أمثالها ، بل هى بمعنى عظم نفعهما فى الاسلام .

(٢) أهل القبلة فى اصطلاح المتكلمين من يصدق بضروريات الدين أى الأمور التى علم ثبوتها فى الشرع واشتهر ، فمن أنكر شيئاً من الضروريات كحدوث العالم ، و حشر الأجساد وعلم الله سبحانه بالجزئيات ، و فرضية الصلاة ، والصوم ، لم يكن من أهل القبلة ، ولو كان مجاهداً فى الطاعات ، وكذلك من باشر شيئاً من إمارات التكذيب ، كسجود الصنم ، و الاهانة لأمر شرعى ، و الاستهزاء به ، فليس من أهل القبلة .

و أن يظن قبوله (١) .

و تؤمن بجميع الرسل و الأنبياء ، و الكتب المنزلة عليهم ، لا نفرق بين أحد من رسله ، و الايمان هو الاقرار باللسان ، و التصديق بالجنان ، و تؤمن بعذاب القبر ، و سؤال منكر و نكير ، و أفعال العباد هى خلق الله ، و كسب من العباد و تؤمن بأشراط الساعة ، كما جاءت فى الحديث ، و نرى الجمعة (٢) حقاً و ثواباً ، و الفرقة زيغاً و عذاباً .



(١) تلخيصاً من العقيدة الحسنة لشيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى ، مع زيادات يسيرة مقتبسة من كتب العقائد وعلم التوحيد لغيره من كبار علماء السنة .

(٢) أى الاجتماع

الاسلام .. و أنظمة الحكم المعاصرة !!

بقلم : دكتور فاروق عبد السلام

أنظمة الحكم فى العالم المعاصر باختصار غير مخل و دون تطويل ممل إما « ديموقراطية » أو « ديكتاتورية » .

و الديموقراطية: تعنى – حكم الشعب – أى أن الارادة إرادة الشعب والقرار قرار الشعب و الحاكم يختاره الشعب بكامل إرادته الحرة عبر قنوات شرعية أهمها الانتخاب .

و الديكتاتورية : تعنى – حكم الفرد – أى أن الارادة إرادة الفرد والقرار قرار الفرد و الحاكم مفروض على الشعب رغم أنف إرادته بوسيلة أو بأخرى غير شرعية و أهمها الانقلاب .

و الديكتاتور قد يكون ملكا أو رئيس جمهورية .. عسكريا أو مدنيا . . والديكتاتورية فى أحدث صورها قد تلبس مسوحاً مزيفة وترتدى أقنعة مضللة حينما تستعير من الديموقراطية بعض مظاهرها :

– فهناك ديكتاتورية الحزب الواحد فى الأنظمة الشمولية حيث تسقط الدولة ككل فى قبضة شبكة محكمة من خلايا الحزب الواحد والقرار فى النهاية للفرد الواحد المتسلط على رأس هذا الحزب ،

- و هناك ديكتاتورية تأخذ بنظام تعدد الأحزاب السياسية ولكنها أحزاب مصطنعة ومتفق عليها وهشة و هزيلة اصطنعها الحاكم على يديه و بعلمه و بتخطيط مسبق من وراء الكواليس لخداع الجماهير البائسة و المغلوبة على أمرها .. و القرار فى النهاية قرار الفرد الواحد المتسلط على قمة الجهاز ..

هذا و هناك نوع ثالث من أنظمة الحكم اصطلح رجال القانون الدستورى و النظم السياسية على تسميته بالنظام « الثيوقراطى » .. إلا أن هذا النوع الثالث من الممكن أن يدرج تحت أعطاف النوع الثانى الديكتاتورى ، لأن « الثيوقراطية » فى حقيقتها ديكتاتورية ولكن باسم الدين وتحت عباءته وتسلط على الحكم بدعوى الحق الالهى و عصمة البعض من البشر ممن لا ترد لهم كلمة ولا يخرج عليهم إلا مطرود من رحمة الله .. و هى ديكتاتورية مغلفة بأسوار و أستار من الرهبة و الكهنوتية يصعب على جماهير العامة اجتيازها أو التطاول عليها بسهولة ..

.. والاسلام يرفض كل أشكال الديكتاتورية لا خلاف .. ديكتاتورية الفرد أو الحزب ، ديكتاتورية الملك أو رئيس الجمهورية .. كما يرفض الاسلام الملك الوراثى شكلا وموضوعاً .. و يرفض الديكتاتورية من كل حاكم ورئيس .. و يرفضها أكثر إذا كان الرئيس رجلا من رجال الدين لأنه أعلم من غيره بشئون دينه .. و الحكم فى الاسلام يقوم على الشورى بينما الديكتاتور يستبد برأيه و الله تعالى يقول فى كتابه الكريم .

« و شاورهم فى الأمر » آل عمران : ١٥٩ .

و قال تعـــالى :

« و أمرهم شورى بينهم » الشورى : ٣٨ .

والاسلام لا يعرف هذه « الثيوقراطية » ولا يشترط فى الاسلام بالضرورة

أن يكون الجالس على رأس الدولة رجلا من رجال الدين المتخصصين و يكفى أن يصل اجتهاد فقهاء المسلمين فى هذا المجال إلى حد قول شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ٦٦١ - ٧٢٨هـ (١) :

« فيختار الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه .. »

و يقول : «والقوة فى كل ولاية بحسبها فالقوة فى إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها فان الحرب خدعة .. . »

و يقول : و القوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب و السنة و إلى القدرة على تنفيذ الأحكام »

إلى أن يقول شيخنا ابن تيمية :

« فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها فاذا تمين رجلان أحدهما أعظم أمانة و الآخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية و أقلهما ضرراً فيها .. »

- « و الديكتـــاتورية » بكافة أشكالها و صورها هى الظلم .. ظلم الحكام للمحكومين .. و الاسلام دين العدل يكره الظلم ويتوعد الظالمين .. وموقف الاسلام من كل الأنظمة الديكتاتورية مهما تلونت معلوم ومشهور و ليس محل خلاف عقلا أو نقلا .. و لكن الخلاف يأتى فى موقف الاسلام من « الديموقراطية » و هو اختلاف على درجة كبيرة من الأهمية يستحق استمرار البحث والغربلة والتنقية . . لأن فى ذلك مجالا لما يؤخذ و ما يترك .. وما يقبل وما يرد .. وما قيل وما هو معروف عن الديموقراطية لا يؤخذ كله من وجهة نظر الشرع الاسلامى كما لايترك

(١) « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » لأبى العباس أحمد بن تيمية - القاهرة دار الشعب ١٩٧١م .

كله !! فالديموقراطية كلمة لها سحرها و يكفى أنها تعنى كما ذكرنا « حكم الشعب .. »

- ونجحت النظم الديموقراطية فعلا فى كثير من بلاد الغرب المسيحى فى هجر نظام الملك الوارثى و فى البعض الباقى نجحت فى سحب اختصاصات الملوك من الحكم و قامت بحصرها فى الملك !! كما نجحت فى بعض بلاد الغرب المسيحى أيضاً فى كبح جماح شهوة حب السلطة و التسلط فى ظل النظام الجمهورى بتحديد فترة الرئاسة !!

و أصبح الحكام فعلا فى كثير من بلاد الغرب فى ظل الديموقراطية يصلون إلى كراسى الحكم بارادة شعوبهم .. وأصبح انتقال السلطة يتم بأقل قدر من العنف و دون سفك الدماء و إزهاق الأرواح و ذلك عن طريق المجالس النيابية و ممثلى الشعوب من أعضاء هذه المجالس ..

- وهذه أهم حسنات الديموقراطية أو الوجه الحسن للديموقراطية الذى اختطف بريقه الأنظار فغطى على الوجه الآخر للعملة !!

- و أصبح كل حاكم فى العالم و لو كان ديكتاتوراً يصر على أن يعلن على الدنيا فى كل حين أن نظامه السياسى أكثر النظم فى العالم ديموقراطية !!

- و تتصدر معظم دساتير العالم الوضعية مادة تنص على أن نظام الحكم ديموقراطى و إن بات النص مهجوراً فى معظمها !!

و بلاد المسلمين اليوم من هذه البلاد التى يعلن حكامها ليل نهار أن أنظمتهم السياسية ديموقراطية مائة فى المائة ؟ .

و أهم من هذا فى مجال الفكر يسارع البعض من كتاب المسلمين إلى الحكم بأن نظام الاسلام ديموقراطى بطبعه ؟ !

و هناك يفرض السؤال نفسه : هل الاسلام حقاً نظام ديموقراطى ؟ !

وإذا لم يكن كذلك فبماذا نسميه ؟ : وهل الديموقراطية هى هذا النظام الأمثل

و المقدس و الكامل الخالى من العيوب ؟ !

و الاجابة على الفور : لا - ليس الاسلام ديموقراطيا هكذا مع ترك الحبل على الغارب و إطلاق الكلمة على عواهنها دون تحفظ : و ليست الديموقراطية هى ذلك النظام الأمثل و المقدس و الكامل بمعنى الخالى من العيوب ! !

بل للعملة وجه آخر غير الوجه الحسن الذى عرفناه يمكن أن يسمى بالوجه القبيح للديموقراطية .

و ذلك ببساطة لأن الديموقراطية على أساس فلسفتها العلمانية تأخذ بمبدأ تحكيم الأفراد و الأخذ بأغلبية الأصوات فى كل شئون الحياة : اعتقادية وتشريعية !

و بقدر ما حققت النظرية الديموقراطية من مكاسب فى مجال الصراع على السلطة و قصر حق اختيار الحكام على إرادة الأغلبية الشعبية . . بقدر ما جلبت من خسائر أصابت القوم فى صلب دينهم فأحلت الحرام و حرمت الحلال و قلبت الأمور رأساً على عقب فى محرمات بديهية و ثابتة و معتقدات راسخة توارثها القوم منذ الأزل . . و ما كانوا ليختلفوا عليها بديهة و منطقاً . . عقلا و نقلا . . وإلى أن يرث الله الأرض و من عليها !

و إلا : فما معنى أن يباح الشذوذ الجنسى باسم الديموقراطية فى بلد متحضر و فى القرن العشرين الميلادى ! ! و الميلادى نسبة إلى ميلاد السيد المسيح و بدء ظهور المسيحية ؟ ! .

و ما معنى إخضاع الحكم فى مثل هذه الأمور إلى أخذ الأصوات والاعتبار بالأغلبية مطلقة أو نسبية .

ما معنى تقنين إباحة الزنا إذا وقع الفعل بالرضا . . و تشريع شرب الخمر و إباحته إذا لم يؤد إلى حالة السكر البين ! ! .

و ما معنى أن تمنح « الراقصة » « و المومس » باسم الديموقراطيــة نفس الحقوق التى تمنح للقديسة و الراهبة ؟ ! . . و يمنح القواد و الملحد نفس الحقوق التى تمنح للؤمن و الموحد ؟ ! و تقام الكنيسة بجوار الخمارة و بيت الدعارة .. و يصبح للعبد من حقوق الحماية و الحرامة و الرعاية نفس القدر من الحقوق التى توفرها الديموقراطية « للبار » وصالة القمار ؟ !

و لم يبق من بدع الديموقراطية إلا بدعة تحكيم الأغلبية و أخذ الأصوات على إثبات وجود الله والايمان برسله وملائكته وكتبه . . وإن كان أخذ الأصوات على منح الشرعية لأحزاب ملحدة كالأحزاب الشيوعية يعد من هذا القبيل ! !

إنها بحق و من هذا الجانب يمكن أن يطلق عليها ديموقراطية « اشتهاء المثيل » و « تدليل المجرمين » و « احترام الملحدين » و « إباحة الحرام و تحريم الحلال إذا توافر شرط الرضا عند الراغبين » .

وإذا كان الوجه الحسن للديموقراطية قد حقق للناس مكاسب فى جانب حياتهم السياسية ، فان الوجه القبيح للديموقراطية قد دنس جوانب كثيرة فى حياتهم الدينيه : اجتماعية و عقائدية و تشريعية ! !

و الناس بقدر ما هم فى أمس الحاجة للتعامل فى صراعهم السياسية بطريقة آدمية و متحضرة و ليس كما يتعامل الوحوش فى الغابة و الحيتـــان فى اليم . . هم كذلك فى حياتهم العقيدية والتشريعية و الاجتماعية فى أشد الحاجة للتعامل مع بعضهم البعض بطريقة آدمية و متحضرة و ليس كما يتعامل التيوس و الخنازير فى الحظائر و الزرائب و الخرابات ! !

و لا يتأتى هذا أبداً والحلال والحرام فى دين الله . . و كل قضية من قضايا الدين فى العقيدة و الشريعة بل و دين الله نفسه ككل محل طرح البحث فى مجالس

نيابية يتحدد فيها القرار بأخذ الأصوات وحسب الأغلبية الشعبية .

وهذا الوجه القبيح للديموقراطية من وجهة نظر الشريعة الاسلامية يعد بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .. وعند هذه النقطة بالذات يتحدد فراق ما بين الديموقراطية العلمانية والشورى فى الاسلام !!

ففى ظل الديموقراطية العلمانية : تصبح الارادة الشعبية ممثلة فى الأغلبية البرلمانية هى صاحبة القرار فى أى شأن من الشئون غير مقيدة فى ذلك بأى قيد من القيود .

أما فى الاسلام : فالارادة الشعبية صاحبة القرار فقط فى كل شأن من شئون حياتها لم يرد فيه نص قطعى الثبوت والدلالة فى كتاب الله وسنة رسوله .

أى أن ديموقراطية الاسلام مقيدة بالثابت المتفق عليه فى شرع الله . .

وكل شأن يرى المتخصصون من الفقهاء والعلماء أن الحكم فيه ثابت فى شرع الله لا يطرح على المجالس النيابية الشعبية بأى حال من الأحوال فلا اجتهاد مع النص .

وحول هـــذا المعنى فى الفرق بين الديموقراطيه العلمانية أو الغربية وبين الاسلام يقول أبو الأعلى المودودى (١) :

« ولكن الفرق بيننا وبينهم أنهم يحسبون ديموقراطيتهم حرة مطلقة العنان ونحن نعتقد الخلافة الديموقراطية متقيدة بقانون الله عزوجل » .

ويقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس (٢) :

« إن سلطة الأمة فى الديموقراطية الغربية مطلقة ، فالأمة حقاً وعلى

---

(١) نظرية الاسلام وهديه فى السياســة والقانون والدستور - أبو الأعلى المودودى - دار الفكر ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م ص ٢٦٠ .

(٢) النظريات السياسية الاسلامية - د/ محمد ضياء الدين الريس - دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ١٩٦٩م ص ٣٤٢ .

الاطلاق هى صاحبـــة السيادة هى أو المجلس الذى تنتخبه التى تضع القانون أو تلغيه ، و القرارات التى يصدرها هذا المجلس تصبح قانونا واجب النفاذ وتجب له الطاعة حتى وإن جاءت مخالفة للقانون الأخلاقى أو متعارضة مع المصالح الانسانية العامة .. »

ثم يقول : « و لكن فى الاسلام ليست سلطة الأمة مطلقة هكـــذا و إنما هى مقيدة بالشريعة : بدين الله ، الدين الذى اعتقه والتزم به كل فرد منها ، فهى لا تستطيع أن تتصرف إلا فى حدود هذا القانون ، و هـــذا القانون هو الذى يحويه الكتاب و السنة »

- وعلى هذا يصبح من نقصان الدين أن يقول المسلم عن نفسه أنه ديموقراطى و يسكت أو أن ينص فى صلب دستور أى بلد إسلامى أنه ديموقراطى فحسب ! ! لأن ذلك إذا كان يعنى أن الحكم للشعب يعنى أيضاً و فى نفس الوقت قدرة هـــذا الشعب على أن يحل فى حرمات الله و يحرم فى حلال الله حسب إرادة الأغلبية ! !

- و يبقى فى النهاية و فى مجال الحديث عن الاسلام و أنظمة الحكم المعاصرة التنبيه إلى أمرين على درجة كبيرة من الأهمية :

الأمر الأول :

أن مصيبة المصائب فى واقعنا الاسلامى المعاصر تتلخص فى أن حكام المسلمين فى المحيط إلى الخليج يأخذون باخلاص من الديموقراطية الغربية أسوأ ما فيها ولا يخلصون أو يصدقون فى الأخذ بأحسن ما فيهـــا .. أى أنهم يخلصون فى تنفيذ و تطبيق الوجه القبيح للديموقراطية .. أما الوجه الحسن والذى يخص الجانب السياسى منها فينافقون مع شعوبهم و يماطلون و لا يملون تكرار الاعلان قولا ونصاً بأن أنظمة حكمهم أكثر الأنظمة ديموقراطية وهو قول لا يصدقه عمل - و صدق الله العظيم -

قال تعالى فى كتابه الكريم :

« يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » (١) .

الأمر الثانى :

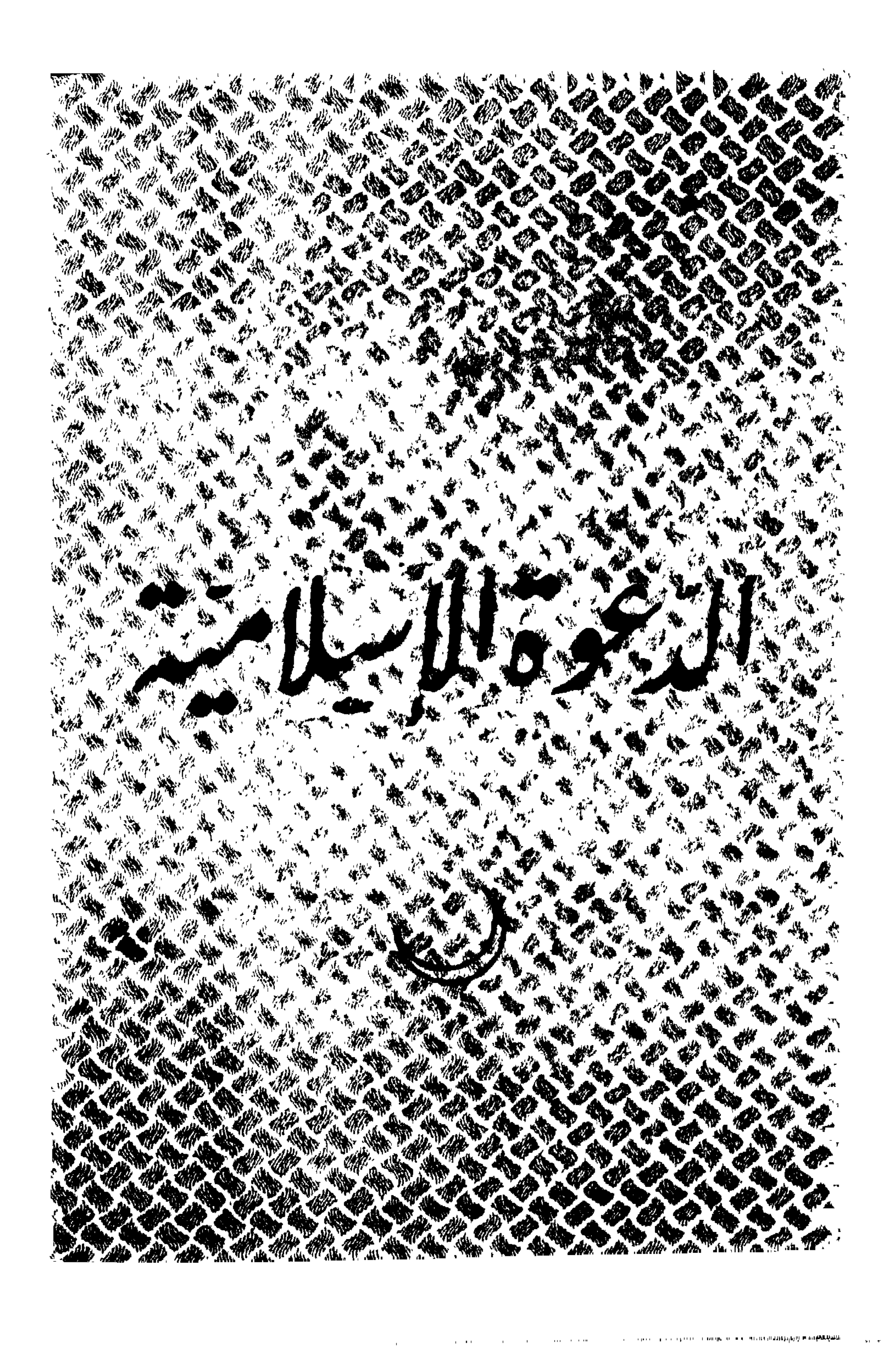
أنه إذا كان من المسلم به أن الاسلام نظام مستقل و قائم بذاته و لا يزيد من قدره أن يستعير له من المسميات الأجنبية و الحديثة .. إلا أنه من الواجب علينا شرعاً و عقلا أن نقدم الاسلام للآخرين و نعرفهم به .. وإذا كان هذا لايتم إلا بلغة يفهمونها و يتداولها العصر الذى نعيش فيه .. لزمنا شرعاً أن نستعير من هذه المسميات ما يقرب فهم الاسلام على حقيقته للناس أجمعين حسب ظروف الزمان و المكان ..

- و إذا كانت « ديكتاتورية » و « ثيوقراطية » و « ديموقراطية » لاتناسب الاسلام و لا تعبر عنه تعبيراً صادقاً و كاملا فأقرب ما يقال عن نظام الحكم فى الاسلام بلغة يفهمها رجال القانون الدستورى و رجال السياسة فى العصر الحديث أنه نظام « ثيوديموقراطى » و « ثيو » نسبة إلى الله و « ديموقراطى » نسبة إلى حكم الشعب نفسه على كتاب الله وسنة رسوله - أى حكم الشعب و الرأى للاغلبية النيابية إلا فيما ثبت فيه حكم فى كتاب الله وسنة رسوله - فلا اجتهاد مع النص - و الله أعلم و الله المستعان - سبحانه و تعالى يعصم من الزلات و يهدى من يشاء إلى سواء السبيل .

(-)

---

(١) سورة الصف: ٢ ، ٣


الدعوة الإسلامية

توجيهات السنة النبوية

★ فى مجـال التشريع الحربى ★

معالى الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى
مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
(الرياض)

★ توطئـــة :

إن دراسة السنة النبوية فى عصرنا عمل من أجل الأعمال التى يقوم بهـــا الباحثون المسلمون ، فى مواجهة تلك المحاولات التى عمد أصحابها إلى الانتقاص من مكانة السنة ، إو الغاء مكانها الأساسى فى التشريع الاسلامى والأخلاق الاسلامية.

والحق أننا فى صدد هذا الحديث نحب أن نحدد مفهومنا حول كلمتى « التشريع و الأخلاق » و لا سيما و بعض الناس ينظر إلى الأخلاق على أنهـا جانب ثانوى يضفى على التشريع ألواناً و ظلالا لكنه لا يضيف إليه أركاناً أساسية .

فنحن نرى أن الأخلاق فى الاسلام جزء أساسى من التشريع ، و عندما يقول الرسول ﷺ : «بعثت لأتمم حسن الخلق (١) » فانه - عليه الصلاة والسلام - قد أعطى للأخلاق مكاناً أساسياً - لا ثانوياً - فى رسالته الشريفة .

وكل عمل تشريعى لا يرتبط بالأخلاق يفقد جزءاً كبيراً منّ قيمته ، بل إنه يفقد روحه و ملامحه الاسلامية.

ولعلى عندما اخترت موضوع (توجيهات السنة النبوية فى مجال التشريع الحربى) قد أردت التركيز على هذا الجانب، جانب الامتزاج الكامل بين التشريع والأخلاق ،

---

(١) رواه أحمد و مالك فى الموطأ .

نظراً لأن (التشريع الحربى الاسلامى) من القضايا الأساسية التى يتجلى فيها هذا الامتزاج بين ما هو تشريع و ما هو أخلاق ، بحيث إننا يصعب علينا أن نفرق بين الجانبين .

و فى عصرنا الحديث ، و فى ظل التطور الهائل فى وسائل الحرب ، فقدت القوانين الوضعية قيمتها ، و انحسر دور الأخلاق ، أو تلاشى ، و أصبحت الحرب شاملة مدمرة لا تفرق بين محارب و ضعيف ، و لا بين كهل و طفل ، ولا بين رجل و امرأة .

وهذا الوضع الجديد ، يدفعنا إلى أن نتعمق - اليوم - توجيهات السنة النبوية فى مجال التشريع الحربى ، لنعرف القيمة العالية للسنة النبوية ، و لنعطى حضارتنا الاسلامية الزكية حقها الانسانى الكريم ، و مكانتها الأخلاقية الرائدة .

★ الضمانات الأخلاقية للتشريع :

و فى هذا المقام ، و لتأكد ما ذهبنا إليه من التآزر الوثيق بين الأخلاق و التشريع ، نبين أن هناك ضمانات ثلاثة وضعها الرسول ﷺ فى سنته الشريفة ، لحماية الجانب الأخلاقى فى التشريع :

الأول : الباعث ، و هو النية الصالحة التى تقف وراء كل عمل يقبله الله .

ولعل حديث الرسول المشهور (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى) يغنينا عن الاستطراد فى تأكيد أهمية الباعث .

الثانى : الوسيلة الكريمة ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً .

ثالثاً : الغاية الأخلاقية التى يحرص عليها الشارع من كل عمل ، فاعلاء كلمة الله و تطبيق شريعته ، ونشر دينه ، و الوصول إلى رضاه يجب أن يكون الغاية المتوخاة من كل سلوك .

و السنة النبوية تقدم حشداً من الأحاديث المؤكدة لهذه الضمانات الأخلاقية لتضع التشريع فى مكانه الصحيح ، كجزء من دين له غاياته العليا .

فالرسول ﷺ يقول لمن سأله: أى الايمان أفضل؟ قال (حسن الخلق)(١) فكأنه عليه الصلاة والسلام لخص غاية التشريع و الايمان فى حسن الخلق ، بضماناته الثلاثة التى ذكرناها سابقاً.

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً (٢) » و قوله : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً » (فى رواية البخارى و مسلم) و فى رواية (الترمذى) أنه عليه الصلاة و السلام قال : « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً .

و هكذا تأخذ الأخلاق مكانتها الأساسية إلى جانب التشريع ، فتصبح بعضاً منه و تمتزج به امتزاج الروح بالجسم .



وإن البشرية لم تصل إلى الهاوية إلا منذ ابتعدت عن هذا التشريع الأخلاق وابتدعت لنفسها قوانين وضعية جافة أخفقت فى أن تفهم الوعاء الأخلاق و الروحى للانسان ، و تعاملت معه كآلة صماء ، فساقته إلى كثير من الموبقات و المهالك و الحروب المدمرة .

★ تفسير الأزمة المعاصرة للتشريعات و الأخلاق :

قال أحد الأوربيين : إذا لم يكن الله موجوداً فكل شئ مباح .

---

(١) رواه أحمـــد .

(٢) رواه الترمذى باسناد صحيح .

و هذه حكمة صادقة ، فان وجود الرقيب الذى يرصد أعمال البشر و يحصيها عليهم ويحاسبهم عليها - خيراً أو شراً - إنما هو مناط بقاء البشرة وصمام أمنهم ،

و لماذا يترك الانسان السرقة و الغش و الرشوة و الاختلاس و الكذب و سائر الموبقات ؟

لماذا يتركها مع أنها ذات منفعة (ظاهرية) له ، ما دام الأمر ليس فيه رقابة و لا حساب ، كما يذهب إلى ذلك الملاحدة ؟!



وعندما كادت علاقة أوربا أن تنقطع بالله ، حاولت أن تأتى ببدائل تغنيها عن هذه العلاقة ، فأوجدت من القوانين الصارمة ما يكفل استقرار الأوضاع ، حتى لا يتفكك نسيج المجتمع ، و إن كانت هـــذه القوانين تتعرض لضربات قاتلة فى السنوات الأخيرة .

و لما كان النظام الشيوعى لا يؤمن بالله أصلا ، و يؤمن بنسبية الأخلاق فقد كان لزاماً عليه أن يكون أعتى وأكثر صرامة فى استحداث القوانين و تطبيقها ، و إلا تعرض بناؤه للسقوط العاجل ، ومع ذلك ، لم تصلح هذه القوانين ، عوضا عن العلاقة بالله ، وما تبسطه هذه العلاقة على الحياة و المجتمعات البشرية من حماية أخلاقية و إنسانية عامة .

كما أنه لا يعرف قيمة المال إلا من فقده ، و لا يعرف قيمة الصحة إلا المريض ، فكذلك لا يمكننا أن نعرف قيمة الأخلاق وأهميتها إلا إذا تخيلنا ، أو عشنا فى مجتمعات غير أخلاقية . . . .

- مجتمعات تقوم على ظلم القوى للضعيف ، و حقد الضعيف على القوى ،

و خيانة الرجل لزوجته و خيانة المرأة لزوجها ، و عقوق الابناء لآبائهم ، و تخلى الوالد عن مسئوليته تجاه زوجته و أبنائه .. . .

ـ مجتمعات تقوم على السرقة و الرشوة و القتل لأتفه الأسباب ، و انتهاك الاعراض .. . .. بحيث لا يأمن أحد على دينه أو ماله أو عرضه .

– إن الحياة فى هذه المجتمعات ستصبح بلا شك حياة فى غابة لا يذوق فيها الانسان طعم الأمن أو الحب أو الرحمة و لا يتنسم إنسان فيها أية نسمة من نسمات الأخلاق .. . .. إنها معركة طاحنة ، و هى ميدان حرب يجرد من كل ألوان الانسانية .

و فى أحقاب التاريخ المتطاولة كان هناك (ميزان) الأخلاق هو الذى يحدد مدى الانسانية أو مدى هبوطها .

و لما كانت تسيطر على التاريخ ـ فى بعض الأحقاب – فلسفات تنتقص م قيمة الأخلاق ، كان المجتمع سرعان ما يتعرض للانهيار .

و ما أضرت بالبشرية فكرة مثلما أضرت بها فكرة (نسبية الأخلاق و (نفعيتها) فالنسبية الأخلاقية ، أو توجيه الأخلاق توجيهاً نفعياً إنما هو عمل منا القواعد الأخلاقية الانسانية الفطرية التى يتميز بها الانسان على سائر الكائنات الأرضية

و قد كان من أسباب هذا الخطأ الشديد فى النظر إلى الأخلاق أن القائلين بهذا الرأى قد اعتمدوا على ثلاثة أشياء :

★ الأول : تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الانسانى ، يميزوا الظواهر الخلقية ، عن الظواهر الجمالية و الأدبية ، و العادات والتقاليد الاجتماعية إلى غير ذلك من صور الخلط والتشو

★ الثانى : أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدراً يرجع إليه فى الحكم الأخلاق ، مع أن فى كثير من هذه المفاهيم أخطاء فادحة ، وفساداً كبيراً ، يرجع إلى تحكم الأهواء والشهوات و العادات و التقاليد فيها و يرجع أيضاً إلى أمور أخرى غير ذلك ، و التحرى العلمى يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة ، حيث توجد الحقيقة ، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها ، حيث قد يثبتها مثبتون ، و ينكرها منكرون ، و يتشكك بها متشككون ، و يتلاعب فيها متلاعبون .

★ الثالث: اعتمادهم على أفكارهم و ضمائرهم فقط ، و جعلها المقياس الوحيد الذى تقاس به الأخلاق (١) .

« للبحث بقية »



(١) انظر عبد الرحمن الميدانى: الأخلاق الاسلامية وأسسها - ج ١/ ٩٦-٩٧.

الأدب الاسلامى و صلته بالحياة

(٢)

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
رئيس كلية اللغة العربية ندوة العلماء

وهناك نصوص أخرى لرسول الله ﷺ ذات اتصال بجوانب الحياة المتنوعة على حسب اختصاصاته وسيرته السمحة وكلها تودى عمله بأحسن أسلوب وأقوى تأثير . للتعليم و الارشاد

و من أمثلة ذلك خطبته فى منى فى حجة الوداع وهى تدل على اهتمامه بالتفهيم و إحلال المعنى فى أعماق القلب بوسائل مؤثرة للكلام من تكرير النداء و التأكيد على الجوانب المهمة من المعانى و إيثار السهولة و السلاسة فقد خطب و كان من آخر خطبته فى حياته و كان يريد ترسيخ معانيها فى الأذهان لتكون كلمة باقية بعده و ذلك فى منى فقد قال :

« أيها الناس ! اسمعوا من قولى و اعقلوه ، فانه لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، أيها الناس ! أى شهر هذا؟ فسكتوا ، فقال : هذا شهر حرام ، وأى بلد هذا؟ فسكتوا ، فقال: بلد حرام ، وأى يوم هذا ؟ فسكتوا ، قال يوم حرام ، ثم قال : إن الله قد حرم دماكم و أموالكم و أعراضكم كحرمة شهركم هذا ، فى يومكم هذا إلى أن تلقوا ربكم ، ألا هل بلغت؟ قال الناس: نعم ! قال: اللهم اشهد ! ألا و من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، ألا و إن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : اللهم

نعم! قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم:
و لا يحل مال امرىء مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس إلى أن قال:

إن كل مسلم أخو المسلم، و إنما المسلمون أخوة، و لا يحل لامرىء مسلم دم أخيه و لا ماله، إلا بطيب نفس منه، و إنما امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوا عصموا منى دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله، و لا تظلموا أنفسكم و لا ترجعوا بعدى كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، إنى قد تركت فيكم ما لا تضلون به، كتاب الله ألا هل بلغت؟ قال الناس نعم، قال اللهم اشهد[1].

قصص للاعتبار:

و فيما يلى نص من كلامه اشتمل على المنهج القصصى فيه حوار و وصف و تصوير المشهد.

كان ثلاثة من بنى إسرائيل، أبرص، و أقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أى شئى أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، و يذهب عنى الذى قد قذرنى الناس، فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الابل.. فأعطى ناقة عشراء، فقال بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع، فقال: أى شئى أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس، فمسحه فذهب عنه، و أعطى شعراً حسناً، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطى بقرة حاملا، فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أى شئى أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلى بصرى، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطى شاة والداً، فانتج هذان وولد

هذا ، قال : فكان لهذا واد من الابل ، و لهذا واد من البقر ، و لهذا واد من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ؟ فأسألك بالذى أعطاك اللون الحسن و الجلد الحسن ، والمال بعيراً ، أتبلغ عليه فى سفرى ، فقال الحقوق كثيرة . فقال له كأنى أعرفك . ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ، فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع فى صورته فقال له مثل ما قال لهذا ، و رد عليه مثل ما رد على هذا ، وقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأعمى فى صورته و هيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك ، شاة ، أتبلغ بها فى سفرى فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله ، فقال أمسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضى عنك و سخط على صاحبيك . (البخارى و مسلم)

وفى أدب الرسول عليه السلام نماذج أخرى مما يتصل بجوانب الحياة المتنوعة فقد كان رسولا وبشراً يأتى إليه الوحى فيكون مصدراً للعلومات الدينية والتوجيهات الاسلامية تساوره الاحوال البشرية وتمر عليه الظروف الدنيوية فيشعر بها كما يشعر كل إنسان ويتفاعل معها كانسان و يظهر ذلك فى كلامه ، فكانت حياة الرسول عليه السلام ذات جانبين ، جانب دينى و جانب دنيوى ، كانت التعليمات الدينية مصدر الجانب الأول و كانت التجربة الانسانية و الشعور الانسانى العام مصـــدر الجانب الثانى ، ولذلك وجدنا فيما مر من نصوص الرسول عليه السلام الأدبية القصيرة منها

و العافية أنه كان يسر بما يسر به أى إنسان كما ظهر عند قدوم ابن عمه الحبيب جعفر بن أبى طالب و كان يحزن كما يحزن أى إنسان كما ظهر منه عند وفاة ابنه سيدنا إبراهيم ، حيث قال : تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول إلا ما يرضى الرب ، إنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون »

و كانت مشاعر أصدقائه ، و محبيه تثير فى نفسه الاهتمام و العمل بما يناسب ذلك المقام كما يتجلى ذلك من مختلف النصوص المذكورة فى أحاديثه ﷺ ، ومنها خطبته فى الأنصار عند تفوله من غزوة حنين فقد اشتملت على العتاب والاستعطاف جميعاً بأسلوب مؤثر جميل ، وكانت العواطف تتحرك فى نفسه حسب الظروف والأحوال كما نجد مثال ذلك فى دعائه فى الطائف عند ما أصابه حزن و ألم شديدان .

وفى دعائه فى عرفات الذى يتجلى بأقوى ما يتجلى به كلامه من عاطفة التواضع و الانكسار والرجاء المخلص من ربه سبحانه و تعالى ، فنصوص الرسول عليه السلام من أقوى النماذج الأدبيـــة المتصلة بجوانب الحياة الفاضلة ، و هى الأسوة الكبرى للادب الانسانى النبيل ، أما الأدب الانسانى الغير النبيل فلا يقبله الاسلام وليست له أسوة فى أدب الرسول عليه السلام و لا يكون أدباً إسلامياً .

و لقد تربى على نصوص الرسول عليه السلام صحابته ، ثم من أتى بعدهم من أتباعهم وذلك مع تلقيهم للتربية من القرآن الكريم فكان بذلك لهم أدب جم ونصوص بليغة تمثل جوانب الحياة الانسانية و الاسلامية المختلفة ، يمكن اقتناؤها من بطون الكتب وهى تدل أيضاً على تنوع مجالات الأدب الاسلامى وعلى جامعيته و اتصاله بالحياة ، أكتفى منها هنا بنماذج من أدب الصحابة رضى الله عنهم .

عند وفاة الرسول ﷺ :

و منها انطباعات غم و عزاء جاءت على لسان الخليفة الأولى سيدنا أبى بكر

الصديق رضى الله عنه يقول الراوى دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على النبى عليه الصلاة و السلام و هو مسجى بثوب فكشف عنه الثوب و قال :

« بأبى أنت و أمى ! طبت حياً ، وطبت ميتاً ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء ، و خصصت حتى صرت مسلاة ، و عممت حتى صرنا فيك سواء ، و لو لا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، و لو لا أنك نهيت عن البلاء لأنفدنا عليك ماء الشئون ، فاما ما نستطيع نفيه عنا ، فكمد و إدناف يتخالفان ولا يبرحان ، ألّهم فأبلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك و لنكن من بالك ، فلو لا ما خلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة اللهم ابلغ نبيك عنا و احفظه فينا »

ثم خرج إلى الناس وهم فى شديد غمراتهم و عظيم سكراتهم فخطب خطبة .

لقد كان وفاة الرسول عليه السلام أعنف صدمة نفسية وأشدها إيلاماً للصحابة رضى الله عنهم فكان لها أن تؤثر على عواطفهم ما تؤثر و تنشئ آثاراً أليمة على نفوسهم والنص الذى قدمه كان لاقرب الناس إليه وأشد الناس تأثراً بهذه الصدمة و لكنه كان أوقر المسلمين و اشد هم اتباعاً لأسوة الرسول عليه السلام فتجلت فى كلامه صورتان صورة الشعور بالصدمة المؤلمة و صورة الصبر و الاحتمال .

تعليمات قضائية :

و منها توجيه الخليفة الثانى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاضيه و إرشاده إياه إلى المنهج السليم فى القضاء، وذلك بأسلوب بليغ موجز :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك ! أما بعد ! فان القضاء فريضة محكمة و سنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى مجلسك و وجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا يخاف ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين

على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالا أوأحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك ، و هديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم و مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم ، الفهم عند ما تلجلج فى صدرك مما ليس يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى ﷺ ! إعرف الامثال و الأشباه و قس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله و أشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للدعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه و إلا وجهت عليه القضاء فانه أنفى للشك و أجلى للعمى و أبلغ فى العذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً فى حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى عنكم السرائر و درأ عنكم بالشبهات و إياك و القلق و الضجر ، و التأذى بالناس ، و التنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله به الأجر ، و يحسن به الذخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه و بين الله تبارك و تعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ، و من تزين للناس بما يعلم الله خلافه هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، والسلام عليك (البيان والتبيين) .

يظهر من هذا النص امتلاك سيدنا عمر رضى الله عنه ناصية البلاغة فقد راعى لطبيعة الموضوع العلمية فجاء له بعبارات موجزة جامعة و لكن بكلمات ناصعة فصيحة تستهدف الغاية بكل دقة و أمانة .

قصص مصورة للتضايق النفسى و السرور :

وفيما يلى قطعتان من نصوص الصحابة رضى الله عنهم نجد فيهما أقوى ما نجده فى الأدب من تصوير للشاعر فهما تزخران بعاطفة التضايق و الألم ثم تتكشف الغمة فيأتى عاطفة الابتهاج والارتياح ، أما القطعة الأولى فهى من كلام أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها حينما ذكر عنها بعض الناس ما يسيئ إلى عرضها وكرامتها على شبهة لم يكن لها أساس قوى ، ثم ينزل الله سبحانه و تعالى براءتها فهى تحدث

عن شأن هذه الظاهرة بعد ما ذكرت تفصيلا سبق ذلك ، قالت : فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع و لا اكتحل بنوم ، قالت : و أصبح أبواى عندى و قد بكيت ليلتين ويوماً لا اكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى ، فبينا أبواى جالسان عندى و أنا أبكى فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها جلست تبكى معى .

قالت : فبينـــا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس قالت : و لم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها ، و قد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشئ قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال :

أما بعد : ياعائشة ! إنه بلغنى عنك كذا و كذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه »

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس قطرة منه فقلت : لأبى أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال . فقال أبى : و الله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت : لأمى أجيبى رسول الله ﷺ فيما قال . قالت أمى : و الله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت أنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً ، إنى و الله لقـــد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى - وإن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى منه بريئة - لتصدقنى فو الله لا أجد لى و لكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال : « فصبر جميل ، و الله المستعان على ما تصفون » ثم تحولت واضطجعت على فراشى .

و الله يعلم أنى حينئذ بريئة و أن الله مبرئى ببراءتى و لكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ، لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .

فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه و لا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان و هو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه .

قالت فسرى عن رسول الله ﷺ و هو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال يا عائشة ! أما الله فقد برأك قالت فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه فانى لا أحمد إلا الله .

قالت وأنزل الله تعالى « إن الذين جاؤا بالافك العشر الآيات » ثم أنزل الله هذا فى براءتى .

قال أبو بكر الصديق و كان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه و فقره : و الله لا أنفق على مسطح شيئاً أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال فأنزل الله « ولا يأتل أولوا الفضل منكم إلى قوله غفور رحيم »

قال أبو بكر الصديق بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، و قال و الله لا أنزعها منه أبداً ، قالت عائشة و كان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن امرى فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمى سمعى و بصرى و الله ما علمت إلا خيراً .

والقطعة الثانية للصحابى الجليل كعب بن مالك الأنصارى يتحدث فيها عن قصته عند ما تخلف عن غزوة تبوك لأسباب غير هامة ، و استحق بذلك عتاباً ظهر من رسول الله ﷺ باعراضه عنه و بأمره لصحابته الآخرين أيضاً بالاعراض عنه حتى يحكم الله فى أمره ثم نزلت توبة الله سبحانه و تعالى عليه ، يقول كعب رضى الله عنه بعد ما يذكر بعض تفاصيل هذه القصة .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر و لم يعاتب أحد تخلف عنها ، إنما خرج

رسول الله ﷺ یرید عیر قریش حتی جمع الله بینهم و بین عدوهم علی غیر میعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ لیلة العقبة حین تواثقنا علی الاسلام وما أحب أن لی بها مشهد بدر و إن کانت بدر أذکر فی الناس منها إلی أن یقول :

و نهی رسول الله ﷺ المسلمین عن کلامنا إلیها الثلاثة من بین من تخلف عنه فاجتنبنا الناس و تغیروا لنا حتی تنکرت فی نفسی الأرض فما هی التی أعرف فلبثنا علی ذلک خمسین لیلة فأما صاحبای فاستکانا وقعدا فی بیوتهما یبکیان و أما أنا فکنت أشب القوم و أجلدهم فکنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمین وأطوف فی الأسواق ولا یکلمنی أحدوآتی رسول الله ﷺ فأسلم علیه وهو فی مجلسه بعد الصلاة فأقول فی نفسی هل حرک شفتیه برد السلام علی أم لا؟ ثم أصلی قریباً منه فأسارقه النظر فاذا أقبلت علی صلاتی أقبل إلی وإذا التفت نحوه أعرض عنی حتی إذا طال علی ذلک من جفوة الناس مشیت حتی تسورت جدار حائط أبی قتادة و هو ابن عمی و أحب الناس إلی فسلمت علیه فو الله ما رد علی السلام فقلت یا أبا قتادة ! أنشدک بالله هل تعلمنی أحب الله و رسوله ؟ فسکت فعدت له فنشدته فسکت فعدت له فنشدته فقال الله و رسوله أعلم ففاضت عینای و تولیت حتی تسورت الجدار ، قال فبینا أنا أمشی بسوق المدینة إذا نبطی من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام یبیعه بالمدینة یقول : - من یدل علی کعب بن مالک فطفق الناس یشیرون له حتی إذا جاءنی دفع إلی کتاباً من ملک غسان فاذا فیه : أما بعد ! فانه قد بلغنی أن صاحبک قد جفاک و لم یجعلک الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسک .

فقلت لما قرأتها و هذا أیضاً من البلاء فتیممت بها التنور فسجرته بها حتی إذا مضت أربعون لیلة من الخمسین إذا رسول ﷺ ، یأتینی فقال إن رسول الله ﷺ یأمرک أن تعتزل امرأتک فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل اعتزلها

و لا تقربها ، و أرسل إلى صاحبى مثل ذلك فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ، قال : لا ولكن لا يقربك ، قالت : إنه - والله - ما به حركة إلى شئ والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى لو أستأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت و الله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ و ما يدرينى ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها و أنا رجل شاب .

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة و أنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت : سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته .

يا كعب بن مالك ! أبشر ، قال : فخررت ساجداً و عرفت أن قد جاء فرج و آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا و ذهب قبل صاحبى مبشرون .

و ركض إلى رجل فرساً و سعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل و كان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ و استعرت ثوبين فلبستهما .

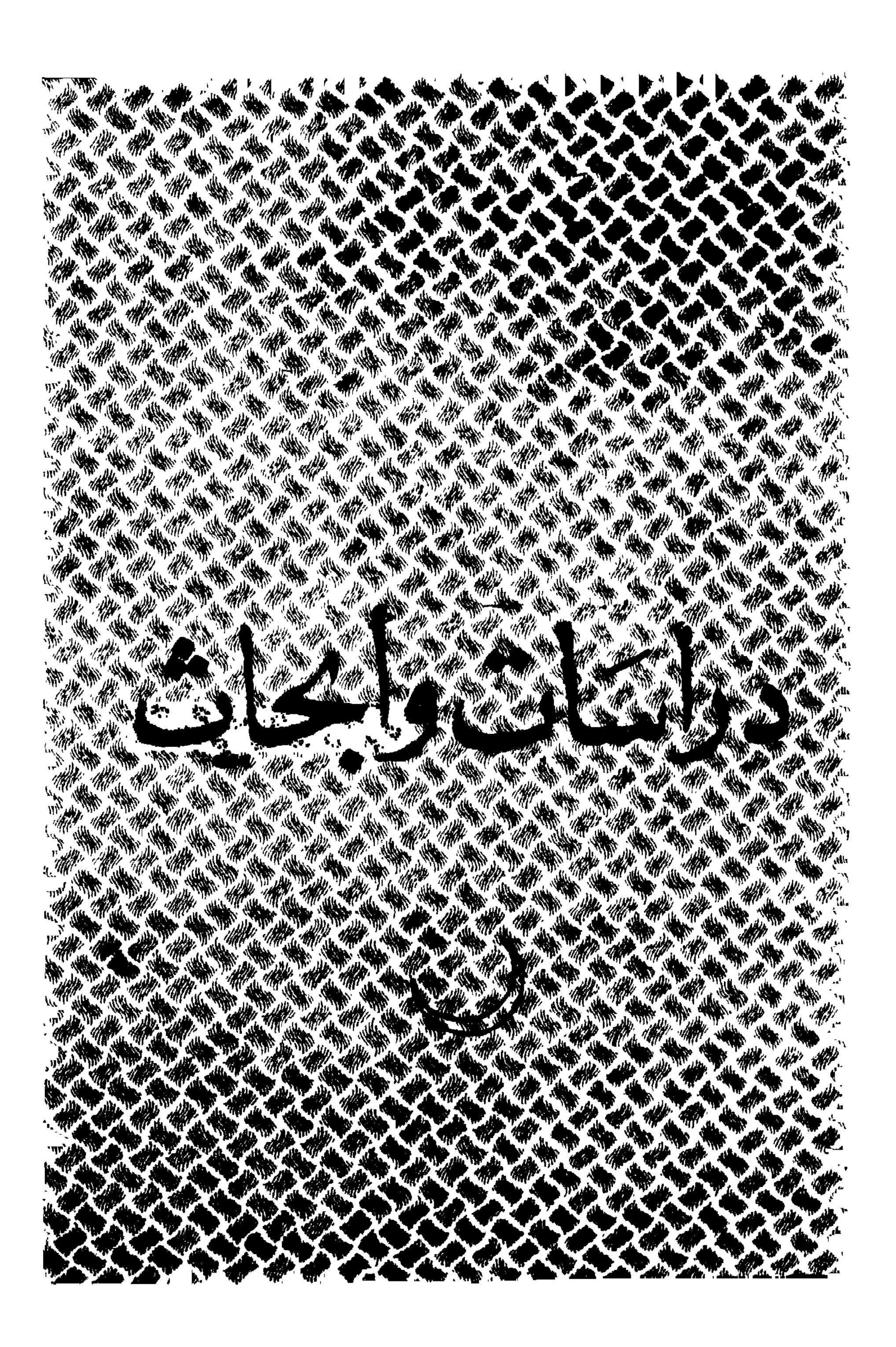
وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بالتوبة ، يقولون لتهنئك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد فاذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، و الله

ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره و لا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : - وهو يبرق وجهه من السرور - أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله .

و كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ! إن من توبتى أن انخلع من مالى صدقة إلى الله و إلى رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، قلت فانى أمسك سهمى الذى بخيبر ، فقلت يا رسول الله ﷺ ! إن الله إنما نجانى بالصدق و إن من توبتى أن لا أحدث الا صدقا ما بقيت ، فو الله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا أحسن مما أبلانى ، و ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول ﷺ إلى يومى هذا كذباً و انى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسول الله ﷺ «لقد تاب الله على النبى والمهاجرين» إلى قوله « و كونوا مع الصادقين » فو الله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للاسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فان الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تبارك و تعالى : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم » إلى قوله « فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .


دراسات وأبحاث

موقف الامام الدهلوى من الامام ابن تيمية
و بعض آرائه

—٢— الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

و قد ذكر عنه أنه منع السفر لزيارة النبى ﷺ ولا يروى كلامه ذلك بدليل صريح صحيح فانه لم يمنع الزيارة مطلقاً بل منع السفر للزيارة بحديث « لا تشد الرحال » و « بحديث » لا تتخذوا قبرى عيداً (١) فاذا كان لقوله مساغ اجتهادى لا ينبغى أن يشدد على ذلك التشديد (٢) .

---

(١) اقرأ للوقوف على بحث الامام ابن تيمية فى هذا الموضوع ، المجلد السابع و العشرين من فتاواه ، و خلاصتها ما ذكره الامام الدهلوى .

(٢) و يفيد هذا أن الامام الدهلوى لا يوافق الامام ابن تيمية فى هذا الباب ، أو لا يريد أن يثير على نفسه فتنة العوام إلا أنه قال فى « المصفى شرح الموطا » فى باب « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » : والتحقيق فى هذا الباب أن أهل الجاهلية كانوا يسافرون إلى مواضع يتبركون بها حسب زعمهم ، فأراد النبى ﷺ سد باب التحريف ، ونهى عن السفر إلى المواضع المقدسة بقصد التبرك بها ، غير هذه المساجد ، حتى لا يعود أمر الجاهلية و ينتشر من جديد ، وهذا هو العموم الذى أراده بصرة الغفارى (راوى الحديث) و نهى أبا هريرة رضى الله عنه ، عن السفر إلى جبل طور ، و يستفاد من ذلك - و إن لم يصرح الامام - أنه موافق لابن تيمية فى رأيه .

و قد ذكر عنه أنه أنكر وجود القطب و الغوث و الخضر و الذى تدعيه الشيعة أنه المهدى (١) ، و حق له ذلك السنى (٢) ، مادام على شرط من اعتقاد

---

(١) انظر المجلد الحادى عشر لفتاوى الامام ابن تيمية ، و المهدى الذى تدعيه الشيعة لا وجود له إلا فى أخيلتهم ، أما المهدى الذى تتظاهر على وصفه الأحاديث النبوية الصحيحة ، فهو حق ، و يظهر قبل نزول عيسى - عليه السلام - بقليل ، أما الخضر فانه كان فى زمن موسى - عليه السلام - و هذا حق لا مراء فيه ، و لكنه هل يستمر فى الحياة ، وتتحقق لقاءات أهل التصوف معه ، هذا ما أنكره الامام ابن تيمية ، أما الغوث و القطب وغيرهما فقد قال الامام ابن تيمية فيهم :

« أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك و العامة ، مثل « الغوث » الذى بمكة و « الأوتاد الأربعة » و « الأقطاب السبعة » و « الابدال الأربعون » و « النجباء الثلاثمائة » فهذه أسماء ليست موجودة فى كتاب الله تعالى ، و لا هى أيضاً مأثورة عن النبى ﷺ باسناد صحيح و لا ضعيف يحمل عليه لفظ الأبدال .

ثم تكلم على حديث الأبدال و ضعفه لانقطاع سنده ، و قال :

« ولا توجد هذه الأسماء فى كلام السلف ، كما هى على هذا الترتيب ، ولاهى مأثورة على هذا الترتيب و المعانى عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولا عاماً ، وإنما توجد عن بعض المتوسطين من المشايخ ، وقد قالها إما آثراً لها عن غيره أو ذاكراً »

و هذا الجنس و نحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله ، ومن الباطل مايوجب ★

ما ثبت بالكتاب و السنة و الاجماع ، و السكوت عما لا يثبت بها ، يجوز له أن لا يعتقد ذلك ومن أثبت من الصوفية فانه لم يثبت عن كتاب وسنة أللهم إلا الكشف و ليس من أدلة الشرع (١) .

و الذى أفهم من كلامه أنه يريد أن هذا قول متبدع باطل اعتقاده من حيث الشرع يقوله ﷺ (٢) :

« من أحدث من أمرنا هذا ما ليس منه فهورد » و لو كان قطع بالانكار لم يستحق التكفير و لا التفسيق أيضاً (٣) .

★ رده ، و صار كثير من الناس على طرفى نقيض » . . . و قال :

« وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمداً أو خطأ »

و قد رد على مصطلح الغوث و أنه لا يليق إلا بالله ، أما الأوتاد ، والأقطاب ، و الأبدال ، فصحح التسمية بها ، و لكنه عارض تحديد ذلك بعدد معين ، وفسرها بأولياء الله تعالى - أما تفاسيرها الأخرى فرأى أنها مدسوسة من الرافضة وغيرها من الفرق الباطنية .

(انظر فتاوى ابن تيمية ج ١١ ، ص ٤٣٣ - ٤٤٤)

(٢) هكذا فى الأصل ، كأنه يمدح شدة تمسكه بالسنة .

---

(١) و ثبت بذلك أن التشنيع على معارض هذه المصطلحات والأسماء ومسمياتها لا يصح ، لأن ذلك إلزام له بما لا يجب عليه أن يلتزمه .

(٢) لا من حيث الكشف ، فالذى سكت عنه الشرع يمكن أن يكون حقاً وصواباً مادام لا يعارض نصاً من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ أو إجماع الأمة المعتبر أو قياساً صريحاً جلياً .

(٣) فكيف يستحق التكفير و التفسيق و هو لم يقطع بالانكار ؟!

و ههنا دقيقة و هى أنه كم من مسألة لم يدل عليها الشرع لا نفياً و لا إثباتاً ودل عليها العقل كقولنا : « يحصل من ضرب العشرة فى العشرة المائة » أو الكشف والوجدان كقولنا : « المحبة الذاتية ثابتة للكل من عباد الله وهى ميل الوجود الخاص إلى أصله المطلق من القيود كمثل ميل كل عنصر إلى مقره » و هذه المسائل حقة فى الحقيقة (١) و لو اعتقد إنسان أنها من الشرع كان اعتقاده ذلك خطأ و لو أحلها محل الثابت بالشرع فأنكر على من لم يقل بها أو حاول إثباتها على منكريها كاثبات الشرعيات كان خطأ أيضاً (٢) .

و قد ذكر عنه أنه أنكر اعتقاد الشيعة فى الامام المحجوب على زعمهم (٣) و حق له أن ينكر ذلك بل الأشاعرة كلهم على هذا الانكار ، لا أعلم أن أحداً قال به .

و قد ذكر عنه أنه أساء الأدب إلى سيدنا على - رضى الله عنه - وحاشاه

---

(١) يفيد ذلك أن الامام الدهلوى ممن يقول بوجود الأقطاب والأوتاد وغيرهم ، بدليل من الكشف ، وقد يخطئ الكشف ويصيب ، ولكنه يرى الكشف فى هذا الأمر مصيباً ، و ذلك لأنه على مسلك المشايخ المتوسطين الذين أشار إليهم الامام ابن تيمية (انظر التعليق رقم ١ ص ٥٠)

(٢) و هذا هو المسلك الواضح المعتدل الذى يتجلى فى جميع مواقف الامام الدهلوى ، فالكشف يمكن أن يكون حجة لصاحبه ، و لكنه لا يكون حجة لغيره ، و ذلك كشهود الشخص هلال رمضان أو هلال العيد ، لا يعتبر القاضى بشهادته فان عليه العمل بشهوده فى خاصة نفسه دون غيره .

(٣) (انظر فتاوى ابن تيمية ج ١١ ص ٤٤٣ - ٤٤٤) ومنهاج السنة النبوية ص ٢٥ - ٢٩ ، طبع الرياض (السعودية) .

من ذلك وقد طالعت كتابه فوجدت بعضه مسوقاً فى مناقضة كلام الشيعة فى طعنهم على الخلفاء الثلاثة بأمور تخيلوها نقصاً كما هو مذكور فى آخر التجريد (١) .

فقام هذا الشيخ يعدد عليهم أموراً اعترفوا بها فى سيدنا على -رضى الله عنه- هى مثلها كأنه يقول: ليست هذه الأمور نقصاً كما تخيلتم فان مثلها مأثور عن سيدنا على رضى الله عنه و هو مرضى عندنا و عندكم وما هو جوابكم فى سيدنا على رضى الله عنه هو جوابنا فى الخلفاء الثلاثة ، و هذا من كمال علمه و قوة مناظرته و من الاعتراف بفضل سيدنا على ، وعلى هذا الأصل يخرج قول: « معلوم أن الرأى إن لم يكن مذموماً إلخ (٢) .

و قوله : فان الحسين رضى الله عنه لم يعظم إنكار الأمة بقتله كما أعظم إنكارهم بقتل عثمان (٣) .

و قوله : « فان فضل أبى بكر رضى الله عنه إلخ » معناه الرد على الشيعة فى طعنهم على الصديق بمنع فدك ، و أنه إيذاء لفاطمة رضى الله تعالى عنها (٤) و قد قال النبى ﷺ : « يوذينى ما آذاها » (٥) .

وحاصله أن مثل هذه الأمور مستثنى من مطلق الايذاء لأنه ما يشرع للشرع ، و كذلك قوله : « و أما فعل توذينى » إلخ (٦) ، حاشاه أن يشنع على على و فاطمة رضى الله تعالى عنهما بل هو على سبيل المناقضة كأنه قال تشنيعكم على

(١) لعله يريد به تلخيص منهاج السنة النبوية للامام ابن تيمية الذى قام به الامام الذهبى باسم المنتقى ، و رجعت إلى منهاج السنة ، و هو الأصل ، و خرجت منه الأقوال المشار إليها .

(٢) انظر منهاج السنة النبوية طبع الرياض ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) منهاج السنة ج ٢ ص ٢٤٠

(٤) انظر منهاج السنة ج ٢ ص ٢١٠ و ما بعدها

(٥) حديث متفق عليه .

(٦) هكذا ، ولعله « وأما فعل ما يؤذى » (انظر منهاج السنة ج ١ ص ٢١٨)

أبي بكر هو مثل ما يفرض من تشنيع أحد على على وفاطمة رضى الله تعالى عنهما و جوابكم هو جوابنا بعينه (١) .

و بعضه فى مناقضته الشيعة فى إثباتهم أفضلية سيدنا على على الخلفاء الثلاثة كما هو مذكور فى آخر التجريد أيضاً ، فقام هذا الشيخ يثبت للخلفاء الثلاثة مثل ما أثبتوا لسيدنا على أو أفضل منه وليس فى التفضيل إساءة أدب فان التفضيل مذهب أهل السنة أجمع و حاشاهم أن يسيئوا الأدب إليه رضى الله تعالى عنه .

و أما تفسير آية الطهارة بالارادة التشريعية دون الارادة التكوينية (٢) ، فصحيح و مثله قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « و يريد الله أن يتوب عليكم » (٣) إلى غير ذلك من الآيات .

وبعد فانى أذكر الله عزوجل كل مسلم فى هذه المسألة وأمثالها ، الله الله أن يسب أحد من المسلمين عالماً مجتهداً فى أمثال هذه .

هذا ما تيسر فى الحال من الجواب وما حملنى عليه إلا النصح والله أعلم بحقيقة الأمور .

---

(١) انظر منهاج السنة ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) أى أن التطهير أمر شرعى ينبغى أن يلاحظه أهل البيت و يراعوا مكانتهم فيعملوا ، لا أن هذا أمر تكوينى خلق اختصهم الله به دون سائر الخليقة .
(انظر منهاج السنة ج ٢ ص ٢١٩ ، و ج ٤ ص ٢٠ - ٢٣)

(٣) فهذه الارادة الواردة فى الآية الكريمة إرادة تشريعية ، وليست بارادة تكوينية و إلا لم يقع أحد من الناس فى العسر ، ولم يبق على وجه الأرض من لم يتب الله عليه ، كذلك قوله تعالى « يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » يعنى الارادة التشريعية لا الارادة التكوينية .

المستشرقون و القرآن الكريم

— ٣ —

محمد صدر الحسن الندوى

الآن نريد أن نشير إلى الحقائق الكونية - التى وردت فى القرآن الكريم و صدقتها الاكتشافات الحديثة - بغاية من الحيطة والدقة ، و نحاول أن لا نتورط فى سردها و نعدو الحق و الصواب .

قال الله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ، مما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

★ التجزئة العلمية لعسل النحل :

ما أصدق الآية الكريمة (١) « فيه شفاء للناس » عند ذكر النحل ، وتركيبه الكيمياوى هو :

٢٥ - ٤٠ جلوكوز

٣٠ - ٤٥ فروكتور

١٥ - ٢٥ ماء

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أى غذاء حر هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم وبالحقن الشرجية و تحت الجلد ، و فى الوريد ، و يعطى بصفته مقوياً و مغذياً ، و ضد

---

(١) النحل : ٦٨ - ٦٩ .

التسمم الناشىء من مواد خارجية مثل الزرنيخ و الزئبق و الذهب و الكلوفورم و المورفين .. . و ضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء فى الجسم مثل التسمم البولى ، و الناشئ من أمراض الكبد و الاضطرابات المعدية المعوية ، وضد التسمم فى الحميات مثل التيفويد و الالتهاب الرئوى و السحائى المخى والحصبة ، وفى حالات ضعف القلب ، و حالات الذبحة و بطريقة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة و فى احتقان المخ و فى الأورام المخية .

و إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع « الانسيولين » حتى فى حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكرى ، علمنا مقدار فوائده ، و إن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة و لكنه تنزيل عن خلق الانسان و النحل و علم علاقة كل منهما بالآخر (١) .

★ التجربة قامت بها الباحثة الأمريكية جوليا تشر سن :

قد توصلت الباحثة الأمريكية « جوليا تشرسن » بعد تجارب متعددة على الخنازير الغينية إلى إثبات وجود مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ، و وجد أن العسل المستخرج من القرص مباشرة دون أن يسخن ، أو يتعرض لأى معاملة صناعية يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب به الانسان ، وقد تبين أن الخنازير الغينية التى نقصها هذه المادة المجهولة أو فيتامين « س » كما تسميه الباحثة ، تتأثر أشكال عظامها تماماً كما يحدث للآدميين المصابين بالتهاب المفاصل ، كما أن بعض العظام المتحركة تصبح تدريجياً عديم الحركة .

و استطاعت الباحثة أن تشفى الحالات المتوسطة من تصلب المفاصل ، خلال

---

(١) الاسلام و الطب الحديث . للدكتور عبد العزيز إسماعيل ص ١٩٩ .

أسبوع بواسطة جرعات يومية لا تتجاوز نصف الجرام من العسل و شمعه ، و قد أثار هذا الاكتشاف اهتماماً كبيراً بين هيئات البحوث العلمية الأمريكية فانهالت على الباحثة الهبات (١) .

★ العسل يساعد على تغطية آثار الجروح : « ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦م أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نور فولك » الانجليزى ، استخدم عسل النحل ، لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها بعد أن ثبت أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح و إزالة آثارها ، فلا تترك ندوباً و تشويهاً بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل و ما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية .

و أذيع من « بادن بادن » فى ٦ ابريل سنة ١٩٥٦م ما يفيد أنه قد افتتح فى هذا التاريخ المؤتمر الدولى الثانى بتحسين الأوضاع ، و أعلن فيه البروفيسور « كلودهيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى النحل الملكى ، له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم (٢) .

قال الله تعالى : « و لم يكن له شريك فى الملك و خلق كل شئ فقدره تقـديراً (٣) .

يقول الله تبارك و تعالى فى هذه الآية الكريمة إنه مالك كل شئ و خلق

---

(١) لفتات علمية من القرآن ، يعقوب يوسف ص ٨٢ - ٨٣ الطبعة الثانية .

(٢) الله و العلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل ص ١٩٥ .

(٣) سورة الفرقان : ٢٥ .

كل شئ و سواه فى صورة متناسبة لا يطغى بعضه على بعض و أوجد تحت قوانين خاصة وليست محض مصادفة عمياء، وقد درس علماء الطبيعة أشياء وقاموا بدراسات جدية عميقة فى الأشياء على اختلاف أنواعها و أجناسها و اضطروا إلى إبداء تلك الحقيقة الكبرى الكونية التى أشار إليها القرآن فى قوله المعجز الموجز « خلق كل شئ فقدره تقديراً » وأخيراً اعترفوا بأن هناك إلهاً واحداً يقوم بتدبير هذه الأمور كلها ، و نحاول أن ننقل هنا بعض التجارب التى قاموا بها .

★ القرآن يشير إلى حقيقة حتمية : يقول الدكتور « جون كليفلاند كوثران » رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت أخصائى فى تحضير التترازول و فى تنقية التنجستين :

« انظر إلى العناصر الكيموية المعروفة التى يبلغ عددها اثنين بعد المائة و لاحظ ما بينها من أوجه التشابه و الاختلاف العجيبة ، فمنها الملون وغير الملون و بعضها غاز يصعب تحويله إلى سائل أو صلب ، و بعضها سائل و الآخر صلب يصعب تحويله إلى سائل أو غاز وبعضها هش والآخر شديد الصلابة وبعضها خفيف و الآخر ثقيل ، وبعضها موصل و بعضها ردى التوصيل ، و بعضها مغناطيسى و الآخر غير مغناطيسى ، و بعضها نشيط والآخر خامل و بعضها يكون أحماضاً ، و الآخر يكون قواعد . و بعضها معمر والآخر لايبقى إلا لفترة محدودة من الزمان و مع ذلك فانها جميعاً تخضع لقانون واحد »

و قد أثبت اكتشاف تركيب الذرة أن التفاعلات الكيموية التى نشاهدها والخواص التى نلاحظها ترجع إلى وجود قوانين خاصة وليست محض مصادفة عمياء.

« إن التقدم الذى أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل ، من أننا إذا فكرنا تفكيراً عميقاً فان العلوم

سوف تضطرنا إلى الايمان بالله (١) .

و يقول الدكتور « A. Cressy Morrison » و هو يشير إلى نفس تلك الحقيقة و يتعجب من هذا التوافق التام و التنظيم المحكم ، يقول :

« لنتخذ مثلا من الأوكسجين علم التنظيم المحكم إلى غير حده : إن الهواء الذى فوق الأرض مكون من الأوكسجين والنتروجين و الأرجون و النيون والكنسيون والكريبتون ، وهو يحتوى بخاراً وكذا ثانى أوكسيد الكربون بنسبة $\frac{٣}{١٠٠}$ من ١ ٪ أو نحو ثلاثة أجزاء من ١٠,٠٠٠ ، والغازات النادرة تظهر نفسها فى شكل الألوان الحمراء و الزرقاء و الخضراء بلافتات الاعلان ، أما الأرجون الذى يوجد فى الهواء بنسبة $\frac{٦}{١٠}$ فى ١ ٪ فانه يعطينا النور الساطع الباهر الذى تتقدم به المدنية حيث يستخدم ، و يوجد النتروجين بنسبة ٧٨ ٪ والهواء فى حين تحدد بنسبة الأوكسجين عادة بـ ٢١ ٪ والهواء فى جملته يضغط على الأرض بمعدل خمسة عشر رطلا تقريباً على البوصة المربعة من السطح بمستوى البحر ، والأوكسجين الذى يوجد فى الهواء هو جزء من هذا الضغط ، وهو بمعدل نحو ثلاثة أرطال على البوصة المربعة ، وكل الباقى من الأوكسجين محبوس فى شكل مركبات فى قشرة الأرض ، وهو يكون $\frac{٨}{١٠}$ من جميع المياه فى العالم ، و الأوكسجين هو نسبة الحياة لكل الحيوانات التى توجد فوق الأرض ، و هو لا يمكن الحصول عليه لهذا الغرض إلا من الهواء »

ثم يقول :

« و لنا الآن أن نسأل ، كيف هذا المنصر ذا النشاط البالغ من الوجهة الكيموية قد أفلت من الاتحاد مع غيره وترك فى الجو بنفس النسبة تقريباً اللازمة

---

(١) The evidence of God in an expanding universe edited by john clover mousma, 1958 New York P. 23, 25 .

جميع الكائنات الحية . لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ ٪ مثلا أو أكثر من الهواء بدلا من ٢١ ٪ فان جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر ، ولو أن نسبة الأوكسجين فى الهواء قد هبطت إلى ١٠ ٪ أو أقل ، فان الحياة ربما طابقت نفسها عليها فى خلال الدهور .

ولكن فى هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التى ألفها الانسان - كالنار مثلا - تتوافر له ، و إذا امتص الأوكسجين الطليق ، ذلك الجزء الواحد من عدة ملايين من مادة الأرض ، فان كل حياة حيوانية تقف على الفور .

و بعد ذلك يقول :

« ليس لدى العلم إيضاح لهذه « الحقائق » أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية (١)

وقال الله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٢) » المكان المحدد هو تفسير كلمة « مستقر » و ليس هناك أدنى شك فى أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذه الكلمة !

كيف تبدو المقابلة بين هذه الدعاوى والمعطيات التى أقرها العلم الحديث .. ؟

يعطى القرآن حداً لتطور الشمس و مكاناً لوصولها ، و هو يحدد أيضاً نهاية شوط القمر ، ولكى نفهم المعنى الممكن لهذه المقولات ، يجب التذكير بالمعارف الحديثة عن تطور النجوم عامة والشمس خاصة ، و بالتالى عن التشكلات السماوية التى تتبع

---

(١) Man does not stand alone, by A. cressy morrison 1944 Newyork P. 69 - 73 .

(٢) سورة يس : ٣٨ .

بالضرورة حركة الشمس فى الفضاء و التى يعد القمر جزءاً منها .

الشمس نجم يقدر علماء الفلك عمره بحوالى ٥ و ٤ مليارات سنة ، وكما هو الحال بالنسبة لكل النجوم ، فيمكن تحديد مرحلة تطوره ، الشمس حالياً فى مرحلة أولى تتسم بتحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم : نظرياً يمكن أن تدوم هذه المرحلة ٥ و ٥ مليارات سنة على حسب الحسابات التى أنجزت ، و التى تقدر لهذه المرحلة الأولى لنجم من نمط الشمس ديمومة زمنية قدرها ١٠ مليارات سنة ، تلى هذه المرحلة كما لوحظ ذلك بالنسبة إلى نجوم أخرى ، من نفس النمط ، فترة ثانية تتميز بتمام تحول الهيدروجين إلى هليوم و يكون نتيجة هذا التحول تمدد الطبقات الخارجية و برود الشمس ، وفى المرحلة النهائية تتناقص ضوئية الشمس بشدة وترتفع كثافتها بشدة أيضاً ، ذلك ما يلاحظ فى إنماط النجوم المسماة بالأقزام البيضاء .

و يحدد علم الفلك الحديث بشكل كامل هذا المكان ، بل لقد أعطاه اسم « مستقر الشمس Apex solaire » الواقع أن النظام الشمسى يتحرك فى الفضاء نحو نقطة فى فلك (Constellation) هرقل مجاورة لنجمة فيجا (Vega Lyrae) التى تحددت تماماً إحداثيها ، و لقد أمكن تحديد سرعة هذه الحركة و هى تقريباً ١٩ كم ثانية ، لقد كان من الواجب ذكر معطيات علم الفلك هذه ، بمناسبة تفسير آيتى القرآن اللتين نستطيع أن نقول إنهما تتطابقان تماماً فيما يتضح مع معطيات العلمية الحديثة (١).

(١) دراسات الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ١٩١ - ١٩٢ ط ١٩٧٧م .



الحاجة إلى اتحاد العالم الاسلامى

حول مسألة رؤية الهلال

الأستاذ ضياء الدين اللاهورى
« معرب »

يثير اختلاف مواعيد الأعياد الدينية فى بعض أوساط المسلمين استياءاً عاماً و يتهم الناس علماء الاسلام بعدم اطلاعهم على التحقيق الفلكى الحديث و باتخاذهم الوسائل العتيقة لرؤية الهلال ، و من بين هذه التهم التى توجه إليهم أنهم يبيحون الاستفادة من الوسائل الحديثة فى تعيين أوقات الصلوات ، و لا يرون ذلك مباحاً فى مسألة رؤية الهلال .

أما هؤلاء العلماء فانهم يبرهنون على إباحة الاستفادة من الوسائل الحديثة لتعيين أوقات الصلوات من اختراع « الساعة » التى تستوفى شروط الفقه الاسلامى فى تعيين أوقات الصلوات ، ذلك أن كيفية طلوع و غروب الشمس فى أيام الشهور الاثنى عشر فى التقويم الشمسى تستمر على حال واحدة فى كل عام ، فلم تكن مسألة لتعيين أوقات الصلوات مما يحتمل مجالا للخلاف ، بالعكس من مسألة رؤية الهلال فانها لا تقاس على مسألة تعيين أوقات الصلوات ، إذ من المعلوم أن حالة القمر فى الطلوع و الغروب عبر السنين والأعوام لاتساوى حالة الشمس .

و لقد تصدى بعض المتجددين من العلماء و المفكرين بكتابة بحوث و رسائل أكدوا فيها أن المرصد الفلكى يستطيع أن يوفر معلومات أكيدة حول موعد رؤية الهلال

قبلها بفترة ، وقد استفسرت عن الموضوع الأستاذ د/ میکنالی ، المدیر المساعد لقسم العلوم الفلکیة والطبعیة بجامعة لندن فتکرم بالرد علی مسألة المرصد الفلکی(Observatory) ببراعة عالیة فائقة ، فی ۱۱/ یولیو ۱۹۸۰م و فیما یلی ملخص کلامه :

« بالنسبة إلی استفسارکم عما إذا کان علماء المرصد الفلکی (Observatory) قد تمکنوا من وضع مقیاس یستطیعون علی أساسه أن یؤکدوا بنبوءة رؤیة الهلال فی أصیل الیوم الذی یتوقع فیه الرؤیة ، وإنه لیؤسفنی أن أقول لکم : لا ، إن ذلك لا یمکن ، و الواقع أنه یستحیل وضع افتراض حول رؤیة الهلال »

کما یشیر إلی الموضوع ملخص ما جاء من أحدث تحقیق فلکی فی البند السادس من المعلومات الفلکیة التی توصل إلیها مجلس الدراسات العلمیة لمرصد انجلترا الفلکی التابع « لغرین وج » الملکی .

« لا یمکن أی نبوءة عن مواعید أول رؤیة لهلال جدید فی کل شهر ، ذلك أنها لیست عندنا مشاهدات کاملة موثوق بها تستعمل لتعیین تلك الشروط التی تکفی لاثبات رؤیة الهلال الأولی فی کل شهر ، إن أی نبوءة حول رؤیة الهلال لا یوثق بها »

إن هذه المرئیة لأشهر خبراء المرصد الفلکی فی العالم توفر البراءة لعلماء الاسلام من التهمة المذکورة أعلاه ، و لکن هناك ما یورد علی نظام الرؤیة لدینا و هو أن إمکانیة التفاوت بین رؤیة الهلال فی السعودیة و رؤیته فی بلادنا لا ینبغی أن تزید علی یوم واحد إلا أن الرؤیة قد تتفاوت بینهما لیومین -کما هو المشاهد الملموس- بوجه عام ، و لذلك فان إعلان الرؤیة عندنا لا یتفق الواقع دائماً ، إذ لیس من الممکن أبداً أن تتم رؤیة الهلال مساء یوم فی السعودیة و لا یتم ذلك فی الهند مثلا فی مساء الیوم التالی ، إن هذا الاعتراض یبتنی علی خطأ فی الفهم ، و قلما یعرف الناس أن نظام الرؤیة فی السعودیة یختلف عنه فی بلدنا ، فی السعودیة لا یعلنون عن بدء الشهر

وفق رؤية الهلال بل يعلنون عن ذلك طبقاً للنظام الفلكى حينما يتم القران بين الشمس و القمر ، فى أى نقطة على الفلك ، و يسمى ذلك هلالا فلكياً جديداً ، ومنذ ذلك الوقت يبتدى العمر الطبيعى للهلال ، الذى يكون فى ساعات عمره البدائية أدق من الشعر و أقرب إلى مدار الشمس و فى مواجهة أشعتها مباشرة ، وفى هذه الحال تستحيل رؤيته ، و كلما تمر الساعات على عمره يزيد حجم الهلال ، و يبتعد عن الشمس و يخرج عن تأثير أشعتها تدريجياً حتى تمكن رؤيته للعيون ، و يسمى عندئذ هلالا بصرياً ، هذا هو المقياس الذى نتخذه لرؤية الهلال ، وطبقاً لما جاء فى دراسات لمرصد انجلترا الفلكى لـ « غرين وج » ، فان الهلال لا تتم رؤيته لأول مرة ما لم يمر عليه أكثر من ثلاثين ساعة .

و من ثم فان تفاوت ٣٠ / ساعة بين الرؤيتين يشكل اختلاف المطلع بين البلدين لمدة يوم بالتأكيد ، إلا أن اقتران الشمس والقمر إذا حدث فى وقت المساء فبما أن الهلال لا يكون قد مضى عليه ٣٠/ ساعة فى المساء التالى ، لا يمكن رؤيته فى هذا المساء كذلك ، وهنالك تتسع مدة اختلاف المطلع بين البلدين من يوم واحد إلى يومين .

و قد تحدث السيد محمد حمزه نعيم عن مشاهداته الشخصية خلال إقامته فى المملكة السعودية حول نظام رؤية الهلال هنالك ، و نشرها فى مجلة « روحانى دنيا » الشهرية الصادرة من كراتشى فى عدد يناير ١٩٨١م بعنوان « باكستان والعالم الاسلامى، و التقويم الاسلامى » جاء فيها ما يلى :

« فى عام ١٩٧٨م سعدت بالسفر إلى المدينة المنورة و الاقامة هنالك شهراً كاملا ، و كنت قد حضرت المملكة ضمن وفد أوفدته الحكومة الباكستانية إلى جامعة الرياض لاتمام مدة تدريبية تعليمية على منحة من المملكة السعودية ، وهكذا سنحت

لی فرصة رؤیة الهلال هناك عملیاً ، و ذات مرة حاولت أن أری الهلال بأم عینی فنی الأیام الأخیرة من شهر ذی القعدة بدا لی أن أری هلال ذی الحجة من فوق جبل أحد ، و قمت بذلك ثلاثة أیام متتالیة و أحببت أن أری الهلال من قمة الجبل و مکثت لهذا الغرض فی إحدی القری المجاورة للجبل .

و قام بنفس العملیة أحد أصدقائی الأفاضل الأستاذ غلام نبی طارق و هو خبیر جغرافی و له فی هذا العلم براعة ممتازة و یستطیع أن یری الهلال بواسطة الماء و المرآة قبل مطلعه بعشر ساعات ، إنه صعد علی جبل أبی قبیس و حاول من قمته أن یری الهلال و لکن دون جدوی .

هذا و قد أعلن المسئولون هناك عن رؤیه الهلال وبدء شهر ذی الحجة رغم أننا لم نتمکن من رؤیة الهلال فی مساء الیوم التالی الذی کان غرة ذی الحجة حسب الاعلان الرسمی ، و ما قصرنا فی البحث عن الهلال فی ذلك المساء أیضاً ، إلا أننا رأینا الهلال فی مساء الیوم الثالث و کان فی ارتفاع عن المطلع ، ولکن لا نستطیع أن نزید علی أن نعتبره هلال اللیلة الماضیة و حسب ، و بالنظر إلی علم هیئة الفلك کان قد تم القران بین الشمس و القمر فی الساعة الواحدة فی لیلة ٣١ / أکتوبر و أول نوفمبر ١٩٧٨م ، و علیّ ذلك فقد أعلن عن هذه اللیلة بأنها اللیلة الأولی لشهر ذی الحجة ، و یوم أول نوفمبر هو غرة ذی الحجة ، و لو کان الأمر علی الأسلوب الذی یتم فی بلدنا لکان یوم عرفة فی ذلك العام یوم السبت أو یوم الجمعة علی أکثر تقدیر ، إلا أن یوم عرفة فی المملکة السعودیة کان یوم الخمیس ، و یوم الجمعة یوم النحر ، و کذلك کان قران الشمس والقمر فی لیلة ٢٩ - ٣٠ دیسمبر عام ١٩٧٨م ، و اعتبروها لیلة الغرة من الشهر الجدید ، ومما یثیر العجب أن نعتبر لیلة القران قبل حدوث القران بساعات عدیدة لیلة الغرة من الشهر ، و بالعکس من

ذلك فقد أعلنت لجنة رؤية الهلال فى باكستان رؤيه الهلال بعدها بيومين ، الأمر الذى كان صحيحاً بالنسبة إلى الرؤية البصرية »

و مما يجب أن نوضحه أن كاتب البحث هذا اعتمد على دلائل وشواهد كثيرة تأييداً لنظام رؤية الهلال الفلكى ، وأشار على العلماء باصطناع نظام الرؤية السعودى ، و لذلك فلا نستطيع أن نظن أن مشاهداته تقوم على نوع من المبالغة .

أما مسألة الرؤية البصرية و الرؤية الفلكية فأيهما أقرب إلى الصواب فى ضوء ما مر من شرح لبعض جوانبهما ؟ و لا شك أن علماء الاسلام هم الذين يجدرون بالبحث فى هذا الموضوع ، إلا أننى أتجرأ أن أقول فى المناسبة : إن وجود شرح للرؤية البصرية فى السنة النبوية و اجتهاد أشكال مختلفة للشهادة البصرية من خلال تدوين الفقه الاسلامى على أساس من السنة يثبتان أن المقياس المعمول به منذ فجر الاسلام لرؤية الهلال هو نفس المقياس الرائج فى بلادنا .

وليس فى الاسلام ما يمنع عن الاستفادة من العلوم الحديثة فى تأييد المسائل الشرعية ، بشرط أن لا تتعارض النتيجة مع تعاليم الكتاب و السنة الأساسية فان اختراع « الساعة » و تعيين مواعيد الطلوع و الغروب قد مهدا الطريق إلى معرفة أوقات الصلوات ، غير أن علماء الطبيعة لم يتمكنوا إلى الآن من تأكيد نبوءة لرؤية الهلال البصرية ، ورغماً من الحقائق المذكورة أعلاه إذا سلمنا أساس رؤية الهلال الفلكية صواباً فبالنظر إلى حقيقة أن هناك تفاوت ثلاثين ساعة بين الهلال الفلكى و الهلال البصرى الجديدين يتحتم علينا القول بأن جميع مواعيد الأعياد و رمضان إنما تمت فى غير أيامها و أوقاتها ، و مما هو معلوم بالضرورة أن الصلوات كانت تودى قبل اختراع « الساعة » فى نفس الأوقات التى تودى فيها الآن ، إلا أن العبادات الدينية التى تتأدى على أساس الرؤية الفلكية لا تكون فى أيامها و أوقاتها الخاصة الصحيحة ، فكما أن الصلوات قبل مواعيدها لا تصح كذلك عقد العيدين

قبل مواعيدها الأصلية باطل .

و يجب أن نفكر فيما أذا أمكن تيسير رؤية الهلال فى ضوء آخر ما توصل إليه علماء الطبيعة من تحقيق و تحليل ، إلا أنه لا يمكن تأكيد بنوعة فى ذلك ، فمثلا لا يعتبر مقياس مرور ثلاثين ساعة على الهلال الفلكى للرؤية البصرية ، أمراً قطعياً لا يقبل تغييراً ، كما يشير إليه تحقيق مرصد انجلترا الفلكى التابع « لغرين وج » يقول :

« تتوفر لدينا معلومات موثوق بها توكد أن رؤية الهلال قد تحققت فى أحوال جيدة بعد مرور عشرين ساعة فقط على عمره الفلكى .

بما أن مواعيد اقتران الشمس والقمر من وجهة النظر الحساب الدقيق صحيحة لا شك فيها ، فلا بد من انتهاز إمكانيات لرؤية الهلال الجديد و على سبيل المثال إذا كان الهلال الجديد قد مر عليه ١٥ ساعة أو أقل منها لا يوجد هناك أى إمكان للرؤيه البصرية إطلاقاً ، و لكن إذا مر عليه أكثر من ٣٥ ساعة تتقوى إمكانات الرؤية ، ولذلك فاننا نستطيع فى حيلتنا اليومية أن نقوم بالاهتمام اللازم برؤية الهلال فى الأشهر التى تهمنا من النواحى التعبدية ، فان خبراء الفلك بامكانهم أن يعينوا الوجهة الصحيحة لوجود الهلال فى السماء كل شهر ، و على أساس ذلك يتسنى البحث عن الهلال فى جهته المشار إليها .

إن أمنية اتحاد العالم الاسلامى كله فى الأعياد و المناسبات الدينية فى أيام ومواعيد واحدة ، جميلة جداً ، ولكن لكى تتحقق هذه الأمنية لا يمكن صرف النظر عن الالتزامات الشرعية ، بل الواقع أن بلدان العالم الواقعة فى الشرق و الغرب تختلف ليلا و نهاراً ، ذلك أن التوقيت المحلى على كل درجة من طول البلد يختلف باختلاف درجاته ، و يمتد ذلك الاختلاف على الكرة الأرضية كلها إلى ٢٤ ساعة من الليل و النهار ، فمثلا التفاوت التوقيتى النهائى بين نيوزى لندا وكندا ٢١ ساعة ،

معنى ذلك أن اليوم و التاريخ اللذين يعيشهما أهل نيوزى لندا لا يكونان قد طلعا على أهل كندا الذين يتأخرون عن سكان نيوزى لندا بيوم واحد، وهذا هو وضع عيدهم الكبير المعروف بـ «كرسمس» فحينما يكون أهل نيوزى لندا قد انتهوا من يوم العيد و جن عليهم ليل اليوم التالى وناموا، يكون أهل كندا يتمتعون بنوم الإنتظار ليوم العيد الذى سيطلع عليهم نهاره بعد انتهاء الليل ، و كذلك تبدأ مناسبات هذا العيد فى أقصى الغرب للولايات المتحدة بعد نهايتها فى أقصى شرق روسيا بثمانى عشرة ساعة، فبالرغم من اتحاد اليوم والتاريخ تتفاوت أعيادهم بنحو يوم واحد بالنسبة إلى الشرق و الغرب، و من غير أن يثير ذلك فيهم أى مشكلة .

و من المعلوم أن النصارى يتعيدون بعيد «كرسمس» فى ٢٥/ ديسمبر من كل عام، من قديم الزمان باستمرار، ولكن التقويم الميلادى الذى وضعه وأصدره بولس فى عام ١٥٨٢م وحذف منه عشرة أيام بالنسبة إلى التقويم القديم ، فصادف أن اليوم الذى احتفلت فيه بعض البلدان الأوربية بهذا العيـــد بالنسبة إلى البلدان الأخرى التى ظلت متمسكة بالتقويم القديم ١٥/ ديسمبر فى الواقع ، و اتسع نطاق هذا التفاوت فى عام ١٧٠٠م فأصبح أحد عشر يوماً ، و استمر هذا التفاوت فى بريطانيا إلى أكثر من مدة قرن ونصف قرن ما لم يقبلوا ذلك التغيير التقويمى الذى قام به بولس روما ، كما استمر هـذا الوضع بمزيد من التفاوت فى بعض البلدان الأوربية إلى الربع الأول من القرن العشرين .

هذا مثال للبلدان التى نعتبرها بلداناً مثالية ، فقد كان أهلها يعقدون مناسبات عيدهم الدينية هذا إلى أكثر من مدة ثلاثة قرون بتفاوت أسبوع ونصف .

فماذا يضر المسلمين إذا تفاوتت أيام أعيادهم من يوم إلى آخر لاختلاف المطالع بين بلدان بعيدة ، و إذا كان الزعماء الدينيون فى الديانات الأخرى قاموا

بتطوير عقائدهم الدينية نظراً إلى متطلبات العصر، فان الاسلام دين الفطرة و ليست عباداته خاضعة لقوانين العلوم الحديثة و الاختراعات الصناعية ، التي يستفيد منها الانسان فى حاجاته الفردية والجماعية ، أما أن يسمح الاسلام بالتغيير فى أوقات وأيام العبادات فمستحيل .

و لا شك فان التقويم الشمسى ظل رهين التنقيح و التطوير فى عصور مختلفة مع تغير وجهات أنظار خبراء علم الهيئة ، و يمكن أن يتناوله الخبراء القادمون بنوع من التنقيح والتعديل فوق ما تم إلى الآن ، إلا أن رؤية الهلال البصرية بعيدة عن كل هذه العيوب و المشكلات ، و لست أعنى بذلك أن نكون فى تردد دائم فى هذا الموضوع ، و لا مجال لأى اعتراض أو شك فيما إذا وضع مقياس موحد لرؤية الهلال فى ضوء دراسات شرعية محققة ، ولكن لا ينبغى أن يكون هذا التحقيق من النوع الذى تخضع فيه رؤية الهلال للنظرة الفلكية ، فتتسع لجوة اختلاف الرؤية من يوم واحد إلى يومين ، كما هو المشاهد بين بلدان المسلمين اليوم .

إن اختراع نظام القمر الصناعى قرب المسافات البعيدة ، فاذا كان هناك اقتراح حول إذاعة نبأ رؤية الهلال بنظام القمر الصناعى من البلد الذى تمت فيه الرؤية عن طريق لجنة عالمية لرؤية الهلال لكى تتحد أيام الأعياد فى العالم الاسلامى كله فذلك أمر مستحيل عملياً بصرف النظر عن كون رؤية بلد حجة لبلد آخر نظراً إلى اختلاف المطالع .

الأقطار التى تقع نحو الجهة الغربية تتم فيها الرؤية قبل البلدان التى هى فى الشرق ، و لا يمكن تنفيذها فى الأقطار الشرقية لأنها تكون قد انتصفت فيها النهار مع طلوع الشمس فى الأقطار الغربية ، كما لا يمكن مواجهة حالة التردد بعد مضى جزء وجيه من الليل فى الأقطار المتوسطة التى بين الشرق و الغرب ، إذ أن رؤية الهلال تتعلق أحياناً بعبادات تبدأ أوقاتها من بعد صلاة المغرب مباشرة ،

و بالاعداد اللازم للعيد فى الصبح التالى كذلك .

إن وجود مثل هذا الاختلاف بين بلدان متعددة أمر عادى ، بل إن ذلك يوجد فى بلد واحد يمتد على بقاع واسعة بين الشرق و الغرب ، فعلى سبيل المثال الولايات المتحدة التى يختلف فيها المطلع بين قطاعها الشرقى و القطاع الغربى بست ساعات ، فان تمت رؤية الهلال فى القطاع الغربى يكون حينئذ منتصف الليل فى القطاع الشرقى و يبلغ هذا التفاوت فى الاتحاد السوفياتى إلى سبع ساعات ، و هذا التفاوت عام بين هاتيك البلدان بالنسبة إلى ثغورها الغربية والشرقية ، فاذا كانت هذه البلدان لا تواجه أى مشكلة فى الحياة العامة هناك بتفاوت المطالع واختلاف أوقات الطلوع و الغروب ، فأى ضرر يلحقنا إذا اختلفت رؤية الهلال البصرية عندنا بين دول الشرق و الغرب .

و اعتقد أن هذه المشكلة تنحل إذا توفر تعاون بين خبراء العلوم الفلكيـــة و علماء الشريعة ، ذاك أن يتفاوض الفريقان فى الموضوع و يشرح كل واحد منهم لغيره مبادىء علومه الأساسية و وجهات أنظاره العلمية و الدينية بتفصيل ، حتى يتم البحث عن حل للمشكلة حول الرؤية البصرية فى ضوء مشاهـــدات و تجارب تستمر إلى مدة مطلوبة .

خرافة يجب تكذيبها

بيان من سماحة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز
الرئيس العام
لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد (الرياض)

اطلعت على ما نشرته جريدة عكاظ فى عددها (رقم : ٥٩٧٧) الصادر فى يوم الاثنين الموافق ٢٤/١٢/١٤٠٢هـ ص ٢٠ نقلا من صحيفة السياسة الكويتية عن الرجل المدعو محمد المصرى الذى يزعم أنه أغمى عليه يوم الاربعاء و ظن أنه ميت ودفن يوم الاربعاء وأخرج من قبره يوم الجمعة ومارأى من العجائب والغرائب .. إلخ.

و نظراً إلى كون هذه الحكاية قد تروج على بعض الناس ويظن صحتها رأيت التنبيه على بطلانها و أنها خرافة لا تروج على عاقل بل هى كذب بحت زورها من سمى نفسه محمد المصرى أو غيره لأغراض خسيسة حملته على ذلك، ومن المعلوم أن من يسمع كلام أهله و كلام الطبيب و كلام المشيعين لجنازته لا تخفى حياته لا على الطبيب و لا على غيره ممن ينظر إليه و يقلبه ثم كيف يكون مغمى عليه وهو يعى و يحفظ كل ما دار حوله .

و من المعلوم أيضاً أن سنة الله فى عباده أن من جعل فى محل مكتوم ضيق لا يعيش مثل هذه المدة ، ثم من المعلوم شرعاً أن ملكى القبر لا يأتيان إلى الحى إذا وضع فى القبر و إنما يأتيان إلى الميت ، و الله سبحانه يعلم الأحياء و الأموات و هو الذى يرسل الملكين إلى الميت لسؤاله .

ثم هذا الرجل الكذاب وصف الملكين بما يدل على أنهما رجلان لا ملكان

ثم الملكان لا يخبران الميت لا بحسناته و لا بسيئاته و إنما يسألانه عن ربه و دينه و نبيه فان أجاب جواباً صحيحاً فاز بالنعيم و أن أجاب بالشك عذب، ثم ما ذكره بعد ذلك من المناظر الغريبة إنما قصد بذلك ترويج باطله و إيهام الناس أنه من الناجين حتى يعطفوا عليه ويساعدوا بما طلب منهم أو يعطفوا عليه بدون طلب، وقد يكون من قصده الشهرة بين الناس حتى يطلب فى كل مكان ليسأل عما رأى ويحصل له بعض ما يريد، ومن جهله قوله: «وتشاء الصدف أن كان أهلى قد جاؤا لزيارة قبرى» و مثل هذا الكلام لا يجوز، و الصواب أن يقال (و يشاء الله) لأن الصدف لا مشيئة لها .

و الخلاصة أن هذه الحكاية موضوعة مكذوبة لا أساس لها من الصحة كما يتضح ذلك من سياقها و واقعها و لا ينبغى لصحفنا و لا للصحف التى تحترم نفسها أن تنشر مثل هذه الخرافات .

و نسأل الله أن يطهر صحفنا و صحف المسلمين من كل باطل و أن يكبت الخداعين و الماكرين و يفضحهم و يكفى المسلمين شرهم و أن يوفق جميع المسلمين للفقه فى دينه والثبات عليه إنه سبحانه خير مسئول ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد و آله و صحبه .



الأسس الأولية لدراسات المستشرقين

والدور الذى قامت به « دار المصنفين »

الأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن
مدير مجمع « دار المصنفين » أعظم كره (الهند)

إن الهدف الرئيسى الذى أنشئت من أجله دار المصنفين « أكاديمية شبلى » هو استعراض ودراسة البحوث التى كتبت بين فينة وأخرى حول العلوم والفنون الاسلامية ، و السيرة النبوية العطرة ، ولفت الأنظار إلى ما يقع فيها من الأخطاء العلمية - عن قصد أو عن غير قصد - وتشجيع الدراسات المفيدة منها ، و يهم دار المصنفين أن يكون كل ما يكتب عن الاسلام فى أسلوب علمى بحت .

و أود أن أقدم إليكم بهذه المناسبة تلك الأسس التى وضعها مؤسس هذه الدار العلمية العلامة شبلى النعمانى حول النظر فى كتابات المستشرقين ، فقد قال العلامـــة شبلى النعمانى :

« نستطيع أن نوزع هؤلاء المستشرقين فى ثلاث طوائف :

١- طائفة لا تعرف اللغة العربية والمآخذ الأصيلة للعلوم الاسلامية ، وهى تعتمد كلياً لاستقاء المعلومات على كتابات الآخرين و ترجمات الكتب الاسلامية إلى لغاتهم ، و إن هذه المعلومات تنقصها الصحة و النضج و الواقعية .

٢- و طائفة تعد من خبراء التاريخ الاسلامى و الفلسفة و اللغة العربية و لكنها لا تعرف شيئاً عن السيرة النبوية و العلوم الدينية الشرعية ، إلا أن ظنها الخاطئ بمعرفتها للغة العربية يدفعها إلى أن تحوم حول حمى الاسلام و تنال من صفائه ونقائه بقلة علم وجراءة غير محمودة ، خذوا مثلاً الباحث الألمانى الكبير «ساخو» الذى قام بنشر «طبقات ابن سعد» فانه يعرف اللغة العربية ولكن

حينما يتناول موضوعاً من المواضيع الاسلامية بالبحث والتحقيق يدهش القارى ويشك صدقه فى البحث ودراسته الموضوعية، وكأنه تقمص بشخصية أخرى غير التى تعرف بالبحث والتنقيب، وقام «نولد يكى» بدراسة القرآن الكريم بصفة خاصة ولكن مقالته فى دائرة المعارف عن القرآن تنم عن مدى تعصبه بل جهله بالموضوع .

٣- و طائفة ثالثة درست الثروة الاسلامية الدينية دراسة وافية مثل مرجليوث الذى كان حرياً بأن نرجو منه الانصاف، و لكنه - رغم دراسته الوافية و اطلاعه الواسع و جهده فى البحث والتنقيب و معرفته باللغة العربية - يأتى بأشياء لاتكاد تصدق أنها تصدر من قلم عالم دارس للوضوع بجدية واجتهاد.

وإن مرجليوث درس «مسند الامام أحمد بن حنبل» كله، ولكن كتابه عن سيرة النبى ﷺ أكثر الكتب فى تاريخ العالم كذباً و افتراء، و إن ميزته أنه يختلق — بقوة منطقه وحدة ذكائه — أشياء تقدح فى السيرة ولا يقبلها الجدل و النقاش و تردها الدراسة الأمينة .

و الذى يدفع الباحثين الأوربيين إلى مثل هذه الافتراءات و الأكاذيب هو العصبية الدينية و المصالح التبشيرية و السياسية ، بالاضافة إلى أسباب أخرى تجعلنا نعذرهم، من أهم تلك الأسباب أن ثروتهم العلمية ودراستهم تنحصر فى كتب السيرة و التاريخ أمثال كتاب المغازى للواقدى و سيرة ابن هشام و سيرة محمد بن إسحاق و تاريخ الطبرى و ما إلى ذلك ، و الحقيقة أنه ليس من بين كتب السيرة كتاب يعتمد عليه و يوثق به من ناحية البحث والتحقيق والدراسة العلمية الموضوعية، فان أحداث السيرة و وقائعها الموثوق بها هى ما نقل إلينا عن طريق كتب الحديث بالروايات الصحيحة. ومعظم علماء أوربا لا يعرفون هذه الثروة العلمية القيمة، وإن كان هناك من يطلع عليها فانه لا يعتبر خبيراً بالموضوع ، و إذا كانت لأحد منهم بعض الخبرة فانه لا يخلو من تعصب يدفعه إلى النيل و الانتقاص من قيمتها .

و السبب الثانى الذى هو أيضاً من أهم الأسباب أن أصول الدراية و قواعد البحث والدراسة عند الباحثين الأوربيين تعرضت لاختلاف شديد وهى تحتمل نقاشاً طويلا ، فلا يهم علماء أوربا أن يكون الراوى صادقاً أو كاذباً فقد يروى الراوى الذى يكون أكثر الرواة كذباً حادثة تبدو صحيحة نظراً إلى حوادث أخرى تكشف تلك الحادثة ، فلا يتردد الذوق الأوربى فى الاعتراف بصحة الرواية و قبولها على علاتها لأنها صحت فى مقاييسهم ، و قبلتها عقليتهم الأوربية » .

إن هذه الحقائق التى أصبحت الآن معروفة قد كشف عنها العلامــة شبلى النعمانى قبل عقود من السنين فى ضوء دراسته لكتابات المستشرقين ، و جاء تلميذه الخاص وخليفته فى العلم والبحث فأيد رأيه هذا فى منهج البحث والتحقيق الذى تبناه الباحثون فى أوربا فقال :

« إن علماء أوربا إذا كانوا قد وفقوا لتوفير بضاعة من العلوم الحديثة وعرض ثقافاتهم الأوربية بأساليب جديدة ، فان أهمية العلوم الاسلامية استرعت شغفهم العلمى إلى أن يعتنوا بها ، و تواجدت منهم فئة مستقلة باسم المستشرقين استهدفت صيانة و نشر الآداب العربية و علومها و اعتبرتها غاية بذاتها .

و لا شك فان مجهودات المستشرقين الملحوظة نحو العلوم الاسلامية و آدابها لجـــديرة بالشكر حيث إنهم قاموا باثارة بعض الدفائن من تراثنا العلمى و الأدبى و تنشيطها من جديد . . . و مما لا شك فيـــه أن هذه العلوم و هذه الحضارة الاسلامية لم تكن ذات انتماء خاص بهم و لا بتاريخهم و ديانتهم ، لذلك فما كانوا يستطيعون أن ينظروا إليها بنظرة الحب و العطف كشأن المسلمين ، و من ثم كان لمجهوداتهم العلمية فى مجالات العلوم و الحضارة الاسلاميـــة بعض النفع فى جانب ، و أضرار بالغة فى جانب آخر تحتم على علمــاء المسلمين أن يتــداركوها بدراساتهم و تحقيقاتهم العلمية الرصينة .

كما ظهرت من بينهم فئة أخرى رضيت بوضع هذه المجهودات المباركة بغير موضعها و بدأت تنظر إلى العلوم و الآداب الاسلامية من خلال وجهات الأنظار الغربية و المسيحية و فتحت جبهة جديدة باسم التحقيق ، و الدراسات ، تشن منها هجمات سافرة على دين الاسلام وعلى نبى الاسلام وعلى العلوم و الآداب الاسلامية و على الحضارة الاسلامية حتى تراكمت اليوم دراسات و مؤلفات من هـذا النوع و تكونت منها مكتبة بذاتها .

و رغم أن هذه الفئة اتخذت التاريخ الاسلامى و العلوم و الآداب الاسلامية مجالا لنشاطها الدراسى بادى ذى بدء ، إلا أن هـذا المجال ما زال يتسع إلى أن شمل السير و التراجم و علم الكلام و الفقه الاسلامى ثم غطى الكتاب و السنـة و موضوع التزكية ، و توافرت كتب و مؤلفـات فى هـذه الموضوعات بأقـلام المستشرقين تحمل طابع البحث و التحقيق .

يصعب أن تقدر مدى أضرار هذا النوع من الكتب و المؤلفات التى نالت من قيمة الاسلام وتنال منها فى المستقبل ، فان تركنا هذه السموم تسرى فى الكيان الاسلامى ولم نبحث لها عن درياق فاذا سيكون مصير علومنا و آدابنا الاسلامية ، وكيف تتسرب سموم هذه الدراسات الناقمة إلى أذهان الناشئة من العلماء والمفكرين »

لقد كانت مهمة البحث و التحقيق و النظر فى كتابات المستشرقين و تصويب أخطائهم العلمية التى قام بها مؤسس هذه الدار وخليفته بعده حملتنا فى العصر المتطور الذى تقدم فيه العلم أشواطا ، و ظهرت كتابات غنية دقيقة غيرت آراء الكثير من الباحثين الأوربين ، على عقد هذه الندوة العلمية التى جمعت كبـار الباحثين و أفاضل العلماء لنستنير برأيهم ونستفيد من خبراتهم و دراساتهم فى هذا الموضوع ، و بذلك نؤدى بعض الواجب تجاه العلامة شبلى النعمانى و العلامة سليمان الندوى وغيرهما من العلماء والباحثين الذين كرسوا جهودهم فى الدفاع عن الاسلام وتقديم كتب علمية أثرت المكتبة الاسلامية فى السيرة والتاريخ ومختلف العلوم الاسلامية .

ابن بطوطة و رحلته إلى الهند

سعيد الأعظمى

من الذى لم يسمع بابن بطوطة !؟

ذلك الاسم الشهير الذى دوى فى تاريخ الرحلات و السياحات الشرقية والغربية ونال من الشهرة والاعجاب ما جعله يأتلق فى سماء التاريخ كالنجوم الزاهرة ، ذلك الرجل العظيم المغامر الذى سجل بطولة عظيمة فى السياحة العالمية و جاوز رقم القياس فى التجوال حول بلدان العالم وأقطاره ، فكان أعظم رجل مهد الطريق وذلل العقبات ، و شحذ الهمم ، و شجع النفوس للخروج من الركن الضيق الذى ولد فيه الانسان ونشأ ، إلى الآفاق الواسعة و البلاد النائية و الأرجاء البعيدة ، إنه لم يبال بقلة الوسائل ، و ضآلة الامكانيات و فقدان المواصلات فى عهده الذى نشأ فيه و لكنه عزم على السياحة والتيقيب فى الأرض واثقاً بنفسه وقوة ساعده ، معتمداً على ما كان يتمتع به من همة عالية و عزيمة راسخة ، و طبيعة هادئة .

لقد مضى فى التاريخ عدد وجيه من السياح و الرحالين المسلمين و اشتهر من بينهم فى المغامرات السياحية أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى فى القرن العاشر الميلادى ، والمقدسى فى نفس هذا القرن ، وياقوت الحموى فى القرن الثانى والثالث عشر ، و ابن جبير الأندلسى فى القرن الثالث عشر ، ومحمد المازنى فى القرن الثانى عشر ، و محمد بن مفرج النباتى فى هذا القرن بالذات ، و لكن الرحلة التى قام بها ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر الميلادى تفوق جميع الرحلات السابقة و تبذ عليها

فى المغامرة والدقة والعمق، هى تحمل من الأهمية البالغة ما ليس لأى رحلة فى التاريخ.

ولد محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بطنجة إحدى مدن المغرب الأقصى فى ١٧/ رجب عام ٧٠٣ه المصادف ٢٤/ فبراير عام ١٣٠٤م ، و بدأ هذه الرحلة العالمية فى الثانية والعشرين من عمره فى عام ١٣٢٥م قاصداً مكة المكرمة لحج بيت الله الحرام و ذلك عن طريق البر عابراً صحراء أفريقية الشمالية .

مر فى رحلته بكثير من الأقطار و المدن و البلدان و شاهد ما شاهد فيها من حياة و حضارة و طبيعة و آثار ، مر بالأقطار العربية و الحواضر الاسلامية و العواصم الكبرى ، و تجول فى أفريقيا و اناطوليا و الصين ، و درس فى كل مكان وصل إليه طبائع أهله و عاداتهم و تقاليدهم و ثقافتهم و كل ما يتصل بالحياة الفردية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية من أوضاع و أحوال ، و وصل إلى وادى السند فى ١٢/ ستمبر ١٣٣٣م بعد ما استغرق ثمانى سنين يسيح فى غيرها من البلدان و الأقاليم .

لما وصل ابن بطوطة إلى السند استقبله رجال الحكومة ، بحفاوة و تكريم بالغين ، وذلك فى عهد السلطان المعظم محمد شاه تغلق ملك الهند ، وأخبروا بقدومه قطب الملك حاكم مدينة ملتان فتناوله بالاكرام و الاحتفاء ، لما عرف من مكانته و أهميته ، حينما أوعزه السلطان محمد شاه إلى ذلك ، فقد كان من عادة السلطان أن يأمر بأكرام الضيوف القادمين من بلدان أخرى وتخصيصهم بالولايات والمناصب الرفيعة ، كما كان يأمر بأن يسمى الغرباء فى بلاده بالأعزة فصار لهم ذلك الاسم علماً ، وكان لا بد لكل قادم عليه أن يقدم له هدية فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة ، و قد انتهج ابن بطوطة هذا المنهج وقدم إلى السلطان هدايا غالية من الخيل والجمال و المماليك .

أراد ابن بطوطة أن يبدأ جولته فى الهند فخرج من ملتان و عبر نهر السند متجهاً إلى مدينه جنانى ولأول مرة زار الكركدن فى هذا الطريق ودرس هيئته وشكله بغاية من الدقة والتعمق حتى تحدث عنه بتفصيل ، و وصل مدينة جنانى بعد يومين من خروجه فوجدها مدينة جميلة على شاطئ نهر السند لها أسواق مليحة و سكانها طائفة يقال لهم السامرة ، ذكرهم ابن بطوطة فقال: « هؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحداً من غيرهم ولا يصاهر إليهم أحد ، و كان لهم فى هذا العهد أمير يسمى « ونار »

و سافر ابن بطوطة من « جنانى » إلى « سيوستان » فوجدها مدينة كبيرة وخارجها صحراء و رمال يكثر فيها أشجار الغيلان ، ولا يزرع على نهرها شئ سوى البطيخ و اليقطين و قصب السكر و الذرة ، و لقى فى هذه المدينة العالم الشهير علاء الملك الخراسانى قاضى هراة ، وكان السلطان قد عينه حاكم « لاهرى » البلدة التى كانت على نحو ٢٨ ميلا من ميناء كراتشى فى الجنوب الشرقى ، ولا يزال خرابها موجوداً لحد الآن ، وقد زارها ابن بطوطة مع الحاكم علاء الملك فى مركب كان يسمى بأهوار ، و صادف ابن بطوطة على مقربة من « لاهرى » فى خراب اسمه « تارنا » غريبة من غرائب الزمان ، و لنتركه هو نفسه يقصها علينا :

« ركبت يوماً مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها و يعرف « بتارنا » فرأيت هناك ما لا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين و البهائم ، و قد تغير كثير منها ، و دثرت أشكاله فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما ، ... ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة و فى وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمى إلا أن رأسه طويل ، وفمه فى جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف ، وهنالك

مياه شديدة النتن ، و كتابة على بعض الجدران بالهندى ، و أخبرنى علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فسخوا حجارة » .

و توجه إلى دهلى فمر بمدن وقرى و أرياف كثيرة و شاهد فيها من الآثار و العادات و تقاليد الحياة المنوعة و المجتمعات المتعددة و أنواع الحبوب و الطعام و القرى ما تأثر ببعضه و زاد فى تجاربه و معلوماته ، و ما أثار فيه مرآه غيرته و بعثه على التقليد و الاتباع ، إنه خرج من ملتان فمر بمدينة « ابوهر » ومنها إلى « أجودهن » فمدينة « سرسوتى » التى وصفها بطيب أرزها ، ومنها إلى مدينة « هانسى » و قد أعجب بها فمدحها بأنها من أحسن المدن وأتقنها و أكثرها عمارة ، ولها سور عظيم بناه رجل من كبار السلاطين كان اسمه « تورة » و سار من هانسى فوصل إلى « مسعود آباد » بعد يومين و هى على عشرة أميال من دهلى ، و أقام هناك ثلاثة أيام .

ولما أراد ابن بطوطة أن يدخل مدينة دهلى وكانت قاعدة الحكم يومئذ كذلك ، وجد أن السلطان المعظم ليس موجوداً فيها و كان فى رحلة إلى ناحية « قنوج » فكث فى « مسعود آباد » ينتظر من يستقبله بايعاز من السلطان ويرحب به كضيف من ضيوفه ، و قد تحدث ابن بطوطة عن ذلك فى رحلته ، فقال :

« وكان سلطان الهند الذى قصدنا حضرته غائباً عنها بناحية مدينة قنوج وبينها و بين حضرة دهلى عشرة أيام ، و كانت بالحضرة والدته ، وتدعى المخدومة جهان ، و كان بها وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن أياس فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا ، وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه ، فكان من الذين عينهم للقاضى الشيخ البسطامى و الشريف المازندرانى ، و الفقيه علاء الدين الملتانى ، و كتب إلى

السلطان بخبرنا و أتاه الجواب فی تلك الأيام الثلاثة التی أقناها بمسعود آباد و بعد تلك الأیام خرج إلى لقائنا القضاة و الفقهاء و المشایخ و بعض الأمراء ، و خرج إلى لقائنا الشیخ ظهیر الدین الزنجانی و هو کبیر المنزلة عند السلطان ، ثم رحلنا من مسعود آباد فنزلنا بمقربة من قریة تسمی « بالم Palam » وفی غد ذلك الیوم وصلنا إلى حضرة دهلی قاعدة بلاد الهند ، و هی المدینة العظیمة الشأن ، الضخمة الجامعة بین الحسن و الحصانة و علیها السور الذی لا یعلم له فی بلاد الدنیا نظیر ، و هی أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام کلها بالمشرق »

و مکث ابن بطوطة فی الهند یتجول فی مدنها و جزائرها و یشتغل بأمور الدولة و یتولی القضاء ، و یعیش بین أهلها کأحد أفراد البلاد ، و قد تزوج فیها وقضی حیاة منزلیة واجتماعیة بعد ما عاش فیها غریباً وزائراً ، وقد درس الأوضاع السیاسیة و الاجتماعیة و التاریخیة و العادات القومیة و التقالید الهندیة ، و الأحوال الأقلیمیة والجغرافیة ، دراسة واعیة وحکاها کلها بغایة من التفصیل فی رحلته القیمة .

و لم یکتف ابن بطوطة بدراسة الأحوال العلیة و السیاسیة وما یتصل بطبیعة البلاد و أهلها بل إنه تناول ذکر الثمار والأشجار و الفواکه و الحبوب ، والمحاصیل الزراعیة ، و ذکر مبانیها و آثارها و أسواقها و مناسبتها و أعیادها و مشاهدها ، و أنهارها و بساتینها ، و مراکبها و سفنها ، و مدارسها و مساجدها و معابدها و مقدساتها و مزاراتها و مقابرها ، و علماءها و مشایخها ، و سلاطینها وزراءها ، ومصانعها ومعاملها ، و صناعاتها و منتجاتها ، وسجل کل ذلك فی کتاب سماه « تحفة النظار فی غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » و یعرف لدی العامة بکتاب « رحلة ابن بطوطة »

(()(()(()(()(()(())())())())())())

تحيـــة للمجـــاهـــدين الأفغان

★ ★ ★ ★ ★

[بيان من سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ،
بمناسبة مرور ثمانى سنوات على النضال الأفغانى البطولى
ضد القوات الشيوعية فى أفغانستان] [التحرير]

إن الثورة البلشفية (التى حدثت فى مارس ١٩١٧م) لم تكن تتناول الجغرافية والخارطة السياسية بالتغير والتحريف فقط ولم تكن مقصورة على الاقتصاد والسياسة لحسب - كما يعتقد كثير من قصار النظر - إنما كانت تهدم أسس العقيدة و العمل و الأصول و المبادىء الخلقية التى اتفقت عليها الشرائع السماوية ، و قامت عليها المجتمعات البشرية ، و قبلتها الفطر السليمة و العقول المستقيمة على مدار التاريخ ، بل تقوض القيم الانسانية و الشعور الانسانى الرقيق الرحيم بأسره ، لكى تقيم على أنقاضه بناءاً جديداً ، و كانت أكبر تحد للكيان الانسانى القديم ، وأكثر المؤامرات الاجرامية السلبية الفوضوية نجاحاً فى التاريخ الانسانى ، على مدى الأحقاب والأجيال .

و كان نصيب الاسلام و المسلمين فى الاستهداف للخطر و الضرر و النكبة و الخسارة ، بتقدم النفوذ الشيوعى و اتساعه ، أعظم بطبيعة الحال ، من خسارة ديانات ومجتمعات أخرى ، لأن الاسلام هو الدين الايجابى الواضح الوحيد ، الدين المقتحم الدافق بالحيوية ، الحامل للرسالة العالمية وهو الذى يعلن أنه يملأ كل فراغ فى الحياة ، و يقدم له تعاليم مضبوطة وقوانين معينة ، و المسلمون هم الذين يؤمنون

بأن مسئوليتهم الحسبة على المجتمع البشرى ، والوصاية على العالم الانسانى ، فى صالح الانسانية نفسها .

و لكن مع الأسف لم يشعر المسلمون - حكومات ومجتمعات - بهذا الخطر الجذرى فى وقته شعوراً حقيقياً ، وإذا كان هنالك استثناء فى الأفراد ، فهو استثناء الرجل المؤمن المجاهد الغازى أنور باشا وزير حرب تركيا سابقاً ، الذى أسس جبهة قوية ضد الشيوعيين بتيظيمه سكان تركستان فى سنة ۱۹۲۱م — ۱۹۲۲م ، و سقط شهيداً فى هذه المعركة ، و إذا كان استثناء فى الشعوب فهو استثناء الشعب الأفغانى الباسل ، الذى صمد فى محاربة الحكومة الشيوعية العميلة فى كابل ، ومقاومة الأخبطوط الشيوعى القاصد لالتهام الشعوب المسلمة و البلاد المجاورة بأسرها .

وقد تحقق فضل شجاعة هذا الشعب المؤمن الغيور على دينه ومقومات شخصيته ، المستميت فى سبيل الاحتفاظ بكيانه وشرفه ، على كثير من الشعوب والبلاد الاسلامية و العربية التى كانت أقدم عهداً فى احتضان رسالة الاسلام و تراثه و حضارته ، و أكثر أصالة و أعرق فى التاريخ الأسلامى وأمجاده ، و قد صدقت بذلك فراسة « أمير البيان الأمير شكيب أرسلان » فى هذا الشعب والبلد ، و تحقق أنه لم يكل المدح جزافاً ، إذ قال فى حواشيه التاريخية الخالدة على « حاضر العالم الاسلامى » : لعمرى لو لم يبق للاسلام فى الدنيا عرق ينبض لرأيت عرقه بين سكان جبال الهلايا و الهند كوش نابضاً و عزمه هنالك ناهضاً (۱) »

و هو البلد الوحيد الذى لم تضع فيه الحرب أوزارها أمام القراصنة البلديين والأجانب مدة لا يستهان بطولها فى أوضاع حربية شاذة ، لا مثيل لها فى بلد آخر ، معتمداً فيه على الغيرة الاسلامية الشعبية ، و الحماس الدينى ، و الاستهانة بالحياة

---

(۱) حواشى « حاضر العالم الاسلامى » للأمير شكيب أرسلان » المجلد الثانى ص / ۱۹۷ .

و معرفة فضل الجهاد فی سبيل الله و الحنين إلى الشهادة ، و التقشف فی الحياة « والفتوة » التی أصبحت من خصائص الشعب الأفغانی ومميزاته منذ قرون طويلة، و طبيعة المحافظة على حدود الوطن الاسلامی و استقلاله ، الطبيعة التی كانت سبباً -أيام الحكم الانجليزی فی شبه القارة الهندية- فی تلف الجيش الانجليزی المسلح الكثير العدد ، برمته و على بكرة أبيه ، فی طريقه إلى الهجوم على كابل و محاولة التسلط على أفغانستان ، حتى لم ينج إلا طبيب انجليزی عاد إلى مقر القوات الانجليزية فی الهند و أخبرها بالمأساة الأليمة التی استهدف لها الجيش الانجليزی ، و كانت حادثة قلما يوجد نظيرها فی تاريخ الغارات و الغزوات فی العهد الأخير .

و يعود الفضل فی تفرد الشعب الأفغانی المسلم فی القدرة على هذه المقاومة الطويلة الدقيقة و يكمن سره فی شيئين :

★ ١- الشق الأول :

الغيرة الأفغانية الاسلامية على الحرية و الاستقلال ، و البعد عن النفوذ الأجنبی ، و كراهته لذلك كراهة شديدة ، فهو لا يكره العبودية و الحكم الأجنبی بل يعافه ويتعير منه تعيراً شديداً ، وذلك الذی أعانه على الاحتفاظ بحريته وشخصيته منذ ألف سنة وأكثر ، فانه لم يخضع إلا للفتح الاسلامی فی القرن الأول الهجری إذ كان عن طريق الرسالة الانسانية الرحيمة العادلة ، العارفة لقيمة الانسان ، المقررة للأخوة والمساواة ، المفيضة على الشعوب المترامية فی أحضانها ، حياة جديدة وطموحاً جديداً ، المبرزة للكوامن ، المفتقة للقرائح .

و قد بقی الشعب الأفغانی محتفظاً بعقيدة واحدة و شريعة واحدة ، وحضارة واحدة ، على تغير الأسر الحاكمة و الحكومات المسلمة المختلفة ، و هو البلد المجاور للهند الوحيد الذی قطع الانجليز الرجاء منه و تركوه على طبيعته .

★ ٢- الشق الثانی :

هو أن الشعب الأفغانی حذق « صناعة الموت » و ظل محافظاً عليها طيلة قرون ، و هی الصناعة التی لا بقاء لأمة و لا كرامة لها بغيرها ، و قد تناساها

كثير من الشعوب الاسلامية والعربية ، وبقيت عاطفة الجهاد قوية جياشة فى صدور أفراد الشعب الأفغانى شباناً و شيوخاً ، بل غلماناً و نساءاً ، فى بعض الأحيان ، و هو الذى يسميه الأفغان : « بالغزاء » فإن هتافاً واحداً بالغزاء يثير فيه نخوة إسلامية أفغانية و يغير الدم فى عروقه و يغلى فيه مرجل الحماس ، فيثور كالأسد ، هذه العاطفة التى فترت و فقدت الكثير من قوتها فى كثير من الأقطار الاسلامية و الحكومات العربية ، هذا الفتور الذى جر على هذه الأقطار و الحكومات ، رغم وسائلها و إمكانياتها الواسعة الغنية ، و صلتها بلغة القرآن و السنة و وجود كثير من المراكز الثقافية و الجامعات العلمية التى تدرس الكتاب و السنة ، و المكتبات الهائلة التى تجرى سيلا من المطبوعات الاسلامية بما فيها من كتب التاريخ والبطولات ، و وجود الخطباء المصاقيع و الندوات الدينية ، ضعفاً كبيراً و قلة حمية عند المآسى القومية و الدينية ، كانت من أكبرها مأساة بيروت الفلسطينية التى وقفت أمامها الحكومات المواجهة والأقطار الاسلامية القريبة والبعيدة مكتوفة الأيدى ، مكمومة الفم ، مشدوهة حائرة .

فارق عجيب ، يجب أن يكون موضع دراسة المعنيين بدراسة واقع العالم الاسلامى ، و مستقبل الدعوة الاسلامية .

فتحياتى للمجاهدين الأفغان ، وتحياتى لقادة الكفاح الأفغانى الاسلامى ، متمثلا بأبيات أحد شعراء « الحماسة » أبى الغول الطهوى :

فدت نفسى وما ملكت يمينى فوارس صدقت فيهم ظنونى
فوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحى الحرب الزبون
و لا تبلى بسالتهم ، و إن هم صلوا بالحرب حيناً بعد حين



ألعاب رياضية ومناورات سياسية

واضح رشيد الندوى

كانت الألعاب الآسيوية بدلهى الجديدة التى انتهت فى ٤/ ديسمبر ١٩٨٢ مسرحاً للاحداث الرياضية و المناورات السياسية فى وقت واحد ، و قد واجه المنظمون لها عدة مشاكل كادت تهدد سيرها فى جوهادىء و بروح رياضية ، ومن هذه المشاكل ، كان تهديد حزب أكالى لطائفة السيخ بالعرقلة فى الألعاب للتشديد على مطالبه بحقوق أضافية لولاية بنجاب ، فاتخذت الحكومة اجراءات وقائية شديدة لتسيير المباريات مسارها الطبيعى ، و قد وفقت الحكومة إلى حــد كبير فى منع متطوعى حزب اكالى السيخ من التـــدخل فى نظام « الآسياد » ، و اقتصرت الحملة على مظاهرات تؤدى إلى اعتقال عدد من رجال طائفة السيخ .

بينما كانت الحكومة مشغولة بمعالجة هذا الوضع نشأت مشكلة جديدة لا تقل أهمية من المشكلة السابقة ، فقد كانت المشكلة السابقة سياسة و المشكلة الجــديدة دينية ، و كانت المشكلة السابقة محصورة فى طائفة أقلية ، أما المشكلة الجديدة فانها كانت صادرة عن الأغلبية ، و كانت تحركها مشاعر دينية و قد أدت فى الماضى إلى إراقة دماء و صراع شديد بين الحكومة و المتطرفين الذين هاجموا البرلمان الهندى على مثل هذه المسائل .

كانت هذه المشكلة اضافة الضيوف الأجانب فى الآسياد بلحم البقر ، و قد علمت التنظيمات الهندوكية بعد مضى أيام كثيرة أن الحكومة ، نزولا لرغبة الضيوف

الأجانب، تقوم باضافتهم بلحم البقر ، فقامت مظاهرات احتجاجاً على ذبح البقر ، ولكن قبل أن تبلغ هذه الاحتجاجات ذروتها وصلت المباريات إلى المرحلة الأخيرة وطوى بساطها ، و لكن المسألة لم تنته بعد ، فقد انضمت عدة هيئات و تنظيمات إلى الحركة وهى تواصل الاحتجاج وأعدت برنامجاً لتعبئة الرأى العام لعقد اجتماعات و مظاهرات لاجبار الحكومة على فرض حظر عام على ذبح البقر .

اتخذت الهند لدورة الألعاب الآسيوية التاسعة اجراءات واسعة النطاق وانفقت عليها بسخاء ، بل أغدقت عليها و زينت دلهى كالعروس ، و لتأمين اقصى الراحة والهدوء قامت بانشاء فنادق جديدة للضيوف ، وأنشئت قرية «الآسياد» لفرق اللاعبين كانت مبانيها و غرفها تضاهى فى الأناقة و التسهيلات ، الفنادق الفاخرة .

ثارت قبيل انعقاد الألعاب الآسيوية مشكلة كانت موضوع الصحف الهندية ، و هى إصرار بعض البلدان العربية على أن ينزل الرياضيون العرب فى الفنادق ذات ذات النجوم الخمسة ، و كانت الفنادق الكبرى الموجودة فى العاصمة لا تسع لهـــذا العدد الكبير من اللاعبين والضيوف ، ونقلت بعض الصحف خبراً مفاده أن الفرق الكويتية فكرت فى أن تنتقل كل يوم من بومباى إلى دلهى و من دلهى إلى بومباى فى طائرات الجبو التى أقلتها من الكويت إلى الهند ، و أفادت بعض التقارير أن بعض البلدان العربية اقترحت شراء ، فندق فاخر لنزول اللاعبين فى تلك البلاد ، ثم نقلت الصحف أن عدة فرق غادرت قرية الآسياد الفاخرة ، وانتقلت إلى فندق كبير .

أثار هذا السلوك من الدول العربية تساؤلات فى الصحف ، وانتقده الكتاب بوصفه متناقضاً مع الروح الرياضية و نكراناً للحفاوة معاً ، لأن الفرق من الدول المتقدمة التى كانت تساهم فى الألعاب مساهمة فعلية لم تعترض على الترتيبات .

حقا إن هذه التقارير تعطى صورة سيئة عن طبيعة الحياة لدى العرب ، فان اللاعبين الذين يعيشون فى الفنادق الفاخرة ، و يأخذون قسطاً كبيراً من الراحة ، بدلا من التمرينات الشاقة التى هى روح الرياضة ، لا يستطيعون أن يتسابقوا ، أو يكون لهم دور ملحوظ فى المجال الذى يتطلب الجهد ، و الكفاح ، والاجتهاد العملى ، ولذلك لم يكن للعرب ، رغم عددهم الكبير مكانة مرموقة فى قائمة الفائزين.

و قد أشارت إليه صحيفة هندية تقول إن الذين يسكنون فى قرية الآسياد يفوزون بالميداليات أما الذين يبحثون عن وسائل الراحة فليس لهم دور ملحوظ .

ويشير هذا الأمر إلى اتجاه خطير ، وهو تعود الشباب على التنعم ، والترهل فى الحياة ، فاذا كان الرياضيون لا يحتملون الحياة بدون وسائل الترف العالية ، فمن يحتمل إذن هذه الحياة ، أيحتملها الأمراء و الشيوخ ؟ ذلك داء سرى فى كل مجال من مجالات الشباب ، ومنها مجال الجيش ، ولن يكون ذلك اليوم بعيداً إذا استمرت هذه الأوضاع ، إذا طالب الجنود بثكنات مكيفة ، وفنادق مكيفة أو الانسحاب من ساحة القتال حباً للسلامة والعافية .

إن هذا الموقف يشكل علامة خطيرة لأنه يكشف عن مدى تسرب الوهن. والتراخى فى الشباب فان الرياضيين فى كل بلد يكونون قوام الكفاح ، وصلب النضال ، ورمزاً للحركة و الحياة ، واحتمال المكروه وتحمل الشدائد ، ويجرى اختيار الرجال لأعمال الجد ، و العمل المضنى و الانطلاق ، من الرياضيين ، فاذا تسرب داء الوهن و التراخى ، فى فرق اللاعبين فانه يكشف عن مدى توغل هذا الداء فى الطبقات الأخرى ، و قد كنا نكذب التقارير التى كانت ترد من الدول الاوربية عن فرق اللاعبين العرب و الشباب المتعلمين و تهافتهم على مواقع الاستمتاع والترف والميوعة الخلقية و كنا نعتبرها دعاية و لكن الألعاب الآسيوية الأخرى قد أثارت هـذه

الشكوك من جديد و نرجو أن يكون معظمها مبالغاً فيها أو دعاية كاذبة .

كان موقف إيران و العراق محرجاً للنظمين طيلة أيام المباريات ، فانهما نقلا عواطف القتال الذى يجرى بين البلدين إلى ساحات الألعاب الرياضية، وقد أثارت ايران مشاكل فى يوم الافتتاح إذ اعترضت أولا على اتباع فتاة تحمل لافتة اسم البلاد ، و كان لهذا الموقف مبرر من الناحية الدينية ، و نال ذلك الموقف ترحيباً من الأوساط الاسلامية و يتوقع ذلك من أى بلد إسلامى متمسك بدينه وشعوره ، و لكن هذا الموقف الجريئ فقـــد قيمته و تأثيره برفض إيران أن يمشى فريقها خلف فريق العراق ، الذى كان يسبق بترتيب حروف الهجاء الانجليزى ، فاصر الفريق الايرانى على تغيير الترتيب أو الفصل ، ففصل بينهما بوضع إندونيسيا لتحول بين الفريقين المتحاربين .

كان هذا الموقف الأخير يكشف عن التفكير الجاهلى ، فخلط الايرانيون بين موقف إسلامى ، وموقف جاهلى ، و أثاروا الشكوك فى الأذهان ما إذا كان الموقف الأول إسلامياً خالصاً أم كان مجرد مناورة سياسية لتسلط عليهم الأضواء ، ثم إذا كان الوقوف خلف امرأة متعارضاً للفكر الدينى . فان هناك ألعاباً كثيرة اشترك فيها الايرانيون و هى تتنافى مع الفكر الدينى و التربية الدينية .

و قـــد أثار الايرانيون و العراقيون مشاكل فى كل مباراة بين البلدين ، و لتحاشيهم من المواجهة ، قـــد ألغيت إحدى المباريات لأن الفريقين هددا بنقل اللعب إلى قتال عملى ، كما حدث فى المصارعة .

كانت هذه المواقف تدل على الحالة النفسية التى تعانى منها البلاد الاسلامية ، حالة تناقضات ، و صراع فكرى ، و مجابهة داخلية ، وحيرة و ارتبـاك ، و زاد الطين بلة التعود على حياة البذخ والترف المترفة، وتخلف هذه المواقف الشاذة انعكاسات

سيح فى كل مؤتمر عالمى ، و دورات ألعاب رياضية ، تسمع صداها مـدة من الزمن وتعالجها الصحف ، و تنسبها إلى الاسلام ، والاسلام برئ منها ، لأنه مجد وحارب فى كل بلد ، مهما ادعى ذلك البلد إسلاميته ، وقد ظهر ذلك جلياً ، واضحاً للعيان باشتراك الفتيات الكويتيات فى سباق الخيل فقد تكس ذلك الموقف المشين لحكومة الكويت رؤس المسلمين الذين رزقهم الله الحس الدينى وكان هذا الموقف أكثر غرابة بالنظر إلى عدم اشتراك أى مسابقة من عدد كبير من الدول الاسلامية و كان أدهى و أمر أن اللاعبات الكويتيات كن من العائلة الحاكمة فى الكويت .

إن هذه المناسبات العالمية فرصة غالية لعرض النموذج الصالح و الشخصيـة الاسلامية ، لأن النموذج العملى الواحد خير من ألف خطبة ، وألف كتاب ولكن الحقيقة المرة أن المندوبين المسلمين فى المناسبات العالمية أحياناً لينحطون عن المستوى العادى للسلوك الانسانى النزيه ، فضلا عن السلوك الاسلامى الرفيع ، و يتهافتون على المصالح الذاتية و القومية الضيقة ، و يقدمون صورة مشوهة لهم و لبلادهم .

المسلمون و العالم و الحقد الدفين

لا يفوت الصحـافة العالمية غير الاسلامية ، أن تتعرض بالتكيت و الدهشة لأى تصرف أو بيان ، أو خطوة تشم منها رائحة الاسلام و الانتماء إليـه ، و الاعتزاز به فتعتبر من مسئوليتها أن توجه الاهتمام إلى ذلك الحادث و تشخص خطره المهدد للانسانية كلها ، و تحث على معالجته ، و اقتلاع جذوره قبل أن تنمو و تتقوى و يستعصى علاجها .

وقد رسمت هذا الخط الصحافة الأوربية و عليه تسير سائر الصحف الكبرى الصادرة فى البلاد الأوربية و غير الأوربية و هى تحمل عـدسة تصوير حساسـة

فنانية و مسجلا حساساً ، يسجل و حتى دقات القلوب ، و تصور آلة تصويرها أدق و أخفى جوانب الحياة الاسلاميـة ، و أحدثت بذلك قضية الذعر فى سائر القيادات السياسية الاسلامية و غير الاسلاميـة ، كأنها تريد أن تقول « الاسلام قادم ، فأعدوا له قبل أن يدهمكم » لأن الاسلام إذا تحققت له السيادة فستنهار الحضارة الحديثة ، أو تسقط مؤسساتها كأرواق الخريف .

زاد هذا الذعر والقلق بالاسلام و رد الفعل الذى حدث فى العالم الاسلامى اثر الثورة فى إيران التى قام بها العلماء ، و رجال الدين ، فقامت الصحافة العالمية بتخويف كل حكم فى البلاد الاسلامية و غير الاسلامية من اليقظه الاسلامية ، و نشاطات العلماء و كل من يحمل الشعور الدينى .

و مما لا شك فيه أن اليقظة الاسلامية واقع لا ينكره أحد ، ولها عوامل كثيرة ، سياسية و طبيعية و تاريخيـة ، و أكبر عامل من عواملها سياسة الجحود التى انتهجتها أوربا لهذا الدين العظيم ، و الأمة الاسلامية المنتشرة فى العالم بمواهبها و صلاحيتها و تاريخها ، و دورها العظيم فى بناء الانسانية ، و قيادتها .

و قد كان من حكم المنطق السليم ، و العقل و الحكمة أن يمنح الاسلام و المسلمون المكانة و الأهمية ، و الاحترام الذى يستحقونه ، كـدين من الأديان الكبرى التى ينتشر أتباعها فى سائر أنحاء العالم ، و كأمة لها أهمية تاريخية وجغرافية و سياسية و اقتصادية ، و ثقافيـة ، أمة شعارها احترام كل الأديان ، و الرسل ، و الكتب السماوية ، و موقفها مع سائر العلوم و الحضارات وإنتاج العقول موقف التسامح ، و التلق ، على عكس الثوريين الجدد الذين يقفون إزاء سائر المعتقدات ، و المنـاهج موقف عناد كاسح ، فيمحون من الوجود كل ما لايمت إليهم بصلة ، أو لا يتفق مع لونهم .

فكان من حق الاسلام أن يكون موقف غير المسلمين معه موقف الاحترام و التسامح ، ولكن الاسلام معرض لكل تضليل وتشويه ، وتهم وتلفيق ، وتراقب حركاته ، و ممارسة تعاليمه و أخلاقه ، مراقبة شنيعة ، فاذا انعقد أى اجتماع أو ملتقى لرجال للفكر الاسلامى ، أو ألف حزب يدعو إلى تطبيق الشريعة الاسلامية لأن الأغلبية الاسلامية تريد ذلك ، أو شكلت لجنة كان معظم أعضائها من المسلمين أو أعضاء يحملون الشعور الدينى ، أو ألفت لجنة لاغاثة المنكوبين المسلمين فى حادثة أو كارثة ، أو لوحظ أى نشاط على أساس الأخوة الاسلامية ، فيتبادر إلى أذهان الكتاب و المحللين فى الصحف العالمية أن مؤامرة تدبر للثورة الاسلامية ، أو مجهود يبذل للانفصال .

و لا يعرف هؤلاء المحللون من الاسلام إلا قطع أيدى السارقين ، والقصاص وجلد و رجم مرتكبى الزنا ، والحجاب ، و الحريم ، و الجوارى ، واللحية واستعماله السيف لنشر الاسلام ، ومن غريب عقليتهم ومنهج تحليلهم ، إذا رأوا عدداً من النسا فى الحجاب أسرعوا إلى القول بأن التزمت ينتشر فى البلاد ، و أن الحجاب عقبة فى سبيل التقدم ، و كذلك إذا رأوا عدداً من أصحاب اللحى ، فى مراكز التعليم أو المنشآت العامة أصدروا ذلك الحكم ، إذا رأوا بناء مساجد ، أو صيانة مقابر ، وعدداً ممن يرتادون إلى المساجد للصلوات ، أو إنشاء كتاتيب إسلامية وعقد اجتماعات للتربية الاسلامية ، أو حلقات دينية ، فى أى بقعة من العالم أو زاوية ، فينادون أن الحضارة الحديثة فى خطر ، و الاسلام قادم ، و التزمت يكتسح تلك البلاد ، كأن الاسلام يقف فى وجه الحضارة و الانسانية ، و أنه معول هدم وتقويض .

و لا تختلف فى هذا المنهج الفكرى المتحيز ، صحف الهند ، و الاتحاد السوفيتى و البلاد الأوربية ، و الافريقية ، صحف من لا يدين بالاسلام وصحف من يشك

فی الاسلام و یؤمن بتفوق الغرب ، و نذکر هنا بعض الأمثلة من الصحف الهندية الانجليزية فقط .

● استغربت الصحف الهندية عدم اشتراك فرق اللاعبات من البلاد الاسلامية باستثناء بضعة بلدان إسلامية فی الآسیاد و کتبت إحدى الصحف أن هذا العمل يدل على ازدياد سيطرة العلماء و رجال الدين ، وغلبة التزمت الاسلامی ، و أنه مؤامرة ضد النساء و تفرقة بين الجنسين و حرمان كبير .

● نشرت إحدى الصحف الهندية الصادرة بالانجليزية تقريراً عن جزيرة مالديب ، و هی جزيرة على ساحل الهند و أكثر من تسعين من سكانها مسلمون و استعرضت الحياة فيها ، فأعربت عن القلق بأن صلاتها مع الدول الاسلامية تتعزز و خاصة الدول الخليجية التی تقوم بتمويل عدة مشاريع إسلامية وتزورها دفود علماء الخليج ، و كتبت تقول إن هذا الاتجاه مصدر خطر للهند ، ثم صبت جام غضبها و حقدها على ما وصفته بالتزمت الاسلامی ، و الحركات الاسلامية .

● نشرت « تايمس آف انديا » تقريراً لمراسلها فی الملازيا ، أعربت فيه عن القلق بازدياد نشاط الاسلاميين فی الملازيا ، و ذكرت أن الحكومة قلقة بخطر تصعد نشاط الاسلاميين لكيلا يحدث فی البلاد وضع مماثل لايران و أشارت إلى فتح جامعة إسلامية ، وبنك إسلامی فی البلاد و مطالبة تطبيق الشريعة .

و أعربت الصحيفة تقول إن عدد غير المسلمين فی الملازيا يبلغ ٤٥ فی المائة و لذلك فان ازدياد نشاط الاسلاميين و توغل نفوذهم فی الحكم سيودی إلى أخطار لمصالح غير المسلمين فی البلاد ، وأشارت الجريدة بصورة خاصة إلى نشاطات حزب .P. A. S الحزب الاسلامی للملازيا الذی يطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية فی البلاد .

و ذكرت الصحيفة أن رئيس الوزراء الملازى ، هـاجم العلماء بشدة أنهم يثيرون المشاكل فى البلاد ، و أنهم يريدون أن يستولوا على الحكم .

● و أغرب من ذلك كله ما كتبته صحيفة انجليزية صادرة من دلهى على تأليف اتحاد لعبة الهوكى ، بعد الألعاب الآسيوية و انتقدت تشكيل هذا الاتحاد لأن الأغلبية فيه تنتمى إلى الدول الاسلامية ، فصار بذلك اتحاداً اسلامياً ، أو كتلة إسلامية ، و وصفته بثورة .

و ما ذنب الدول الإسلامية التى يكثر عددها فى خريطة العالم إذا اشتركت فى اتحاد ، وازداد عددها و إن كانت فى الواقع بعيدة عن الاسلام و تعاليمه و لكن لكونها دول الأغلبية الاسلامية ، يصير ذلك الاتحاد إسلامياً ، و يكون انتخاب تلك الدول على التزمت الاسلامى و العصبية الاسلامية ، إنه منطق غريب لا يدل إلا على الحقد الدفين ، و الكراهية للحق المبين ، و مظاهر مثل هذه المواقف المتعصبة كثيرة فى صحف العالم و تظهر كل يوم ، إنه ليس بموقف السخط و إنما هو موقف الحقد و الضغينه يقترن به مركب النقص إزاء الاسلام .

أخبار و تعليقات لوكالة الأنباء الأفغانية

لنـــدن : نوفمبر ١١- قال الدكتور أمانيار ، مندوب الاتحاد الاسلامى لمجاهدى أفغانستان فى لندن تعليقاً على نبأ وفاة ليونيد بريزنيف ، رئيس الاتحاد السوفياتى :

« إن الاتحاد السوفياتى قد فقد قائدها ليونيد بريزنيف ، المتطرف و التوسعى مثل ستالين ، الذى لم يكن يعرف التسوية ولم يرض على أقل من الشيوعية ، إنها كانت عداوة بريزنيف و خوفه من الاسلام بحيث تجرأ على احتلال أفغانستان أثر الثورة الاسلامية فى جوار الاتحاد السوفياتى ، إيران .

لقد خاف السوفيات أن الصحوة الاسلامية قد يتسبب التوتر فى مناطق آسيا الوسطى المسلمة فى داخل الاتحاد السوفياتى نفسها ، و هذا الذى حدا بريزنيف إلى الاقدام على احتلال أفغانستان .

و الحقيقـــة أن عقب ثلاث سنوات الاحتلال السوفياتى لأفغانستان لم ينجح السوفيات فى القضاء على الاسلام ولا المجاهدين الأفغان ، و لنتوقع من القادة الجدد للاتحاد السوفياتى أن يأخذوا بعين الاعتبار ويعيدوا النظر فى حساباتهم و أن يتعلموا دروس الاحتلال والحماقة التى ارتكبها سلفهم ، فيسحبوا قواتهم من أفغانستان بدون خسارة مزيد من الارواح و بعد الفشل الذريع و الخزى بأيدى المجاهدين .

لنـــدن : نوفمبر ١١ - فى اشتباك مع المجاهدين أول هذا الأسبوع ، قتل أمير هرات ، المنطقة التى تقع قرب الحدود الايرانية .

تقول مصادر الوكالة فى هرات ، لقد استمرت الاشتباكات بين قوات المجاهدين و قوات كارمل السوفيات لمدة أربعة أيام ابتداء من السبت فى قلب المدينة . و قد قتل مع الأمير وكيله و ٤٥ جندياً من قوات العدو ، و استولى المجاهدون على ٥ دبابات وثلاثة من سلاح المدرعات وعدد كبير من الأسلحة الخفيفة .

و قد أذاع النبأ راديو تهران أيضاً و وثقته وكالة الأنباء الايرانية الرسمية .

مؤتمر بن بيلا الصحفى :

لندن : نوفمبر ٨- « إن الاحتلال السوفياتى لأفغانستان قد تسبب فى تصعيد الأزمة فى آسيا الوسطى فى الاتحاد السوفيتى » قاله السيد بن بيلا الرئيس الجزائرى الأسبق وقائد حركة التحرير الجزائرى فى مقابلة صحفية مع هذه الوكالة.

و قال السيد بن بيلا ، الذى يشغل منصب رئيس الهيئة الاسلامية لحقوق الانسان ، مقارنا الوضع فى لبنان و أفغانستان : « إن القوى الكبرى من أمريكا و روسيا كلتيهما عديمة الرأفة فى معاملتهما مع العالم الاسلامى . و أضاف قائلا : إن بعض المسؤليات بشأن الأوضاع فى البلدين تقع على العالم الاسلامى أيضاً . إن المسلمين قد فشلوا فى إدراك خطورة الوضع وتركيز جهودهم و مواردهم للضغط على القوى العظمى .

و قال بن بيلا أثر إشادة كبيرة لجهود المجاهدين الأفغان : « إن السوفيات قد ارتكبوا خطأً باحتلالهم أفغانستان و هذا لا يزال يكلفهم كبيراً ، وخطأهم هذا قد يجرهم إلى مشكلة أخرى فى آسيا الوسطى » .

وقد أبدى الرئيس الجزائرى الأسبق عن ارتياحه تجاه تشكيل الاتحاد الاسلامى لمجاهدى أفغانستان و قال : « إن الجهود المتضافرة هى التى تكفل النجاح للمجاهدين الأحرار »

وقال السید بن بیلا فی زیارة تفقدیة لمقر « وكالة الأنباء الأفغانية » بلندن باصطحاب أمین عام المجلس الأوربی الاسلامی السید سالم عزام. وقام مدیر الوكالة السیـد تنظیم و اسطی بشرح أعمال و نشاطات الوكالة و الخدمات التی توفرهـا الوكالة لشرح وجهة نظر المجاهدین الأفغان منذ إنشائها فی سنة ۱۹۸۰ .

و قد أشاد الرئیس الجزائری الأسبق بجهود الوكالة فی نشر و تعمیم الحقائق عن الجهاد الاسلامی فی أفغانستان بأنحاء العالم أجمع .

المؤتمر الصحفی للسید بن بیلا فی لندن :

لنـــدن : نوفمبر ٥- قال السید بن بیلا الرئیس الجزائری الأول والثوری العظیم و رئیس الهیئة الاسلامیة لحقوق الانسان، فی مؤتمر صحفی بلنـــدن أنه یری مماثلات كثیرة فی الجهاد الاسلامی فی أفغانستان ضد السوفیات و الحركة التحرریة الجزائریة ضد الفرنسیین، إن المجاهدین فی أفغانستان یحملون نفس الشرارة والتزمع التی حدا به المجاهدون الجزائریون .

و قال بن بیلا فی إجابة سؤال من مراسل الوكالة : « إن السوفیـات قـــد ارتكبوا خطأ فاحشاً بالاعتداء علی البلد الاسلامی الحر المستقل ، أفغانستان » .

و أضاف قائلا :

إنه مندهش بتجاهل الأجهزة الاعلامیة الغربیة الجهاد الاسلامی فی أفغانستـان و الاعتداءات السوفیاتیة علی هذا المستوی الكبیر فی حین أن هذه الأجهزة تقوم بتغطیة الأحداث فی بولندا بقدر كبیر ، وفی حین أنا تؤید قضیة البولندیین ، تتوقع أن یكون هناك توازن و قسط فی التغطیة علی قدر الأهمیة وحقیقة الوضع .

و قد لام الرئیس الجزائری الأسبق الحكومات الغربیة و الدول العربیة علی

عدم مناصرتهم المجاهدين الأفغان قدر ما يستحقون، واطلع السيد بن بيلا الصحفيين بأنه سيتم تشكيل محكمة للتحقيق فى الأعمال الوحشية والبربرية التى ارتكبها السوفيات فى أفغانستان، وأكد السيد بن بيلا للمؤتمر أن المجلس الاسلامى سيقدم الدعم العملى إضافة على الدعم المعنوى.

تم انعقاد المؤتمر الصحفى فى فندق ورلدروف بلندن فى نوفمبر - ٥ .

وقد خاطب المؤتمر السيد سالم عزام أمين عام المجلس الأوربى الاسلامى أيضاً.

و قام بخدمات الترجمة السيد نجم الدين بامات الأفغانى الأصل .

لندن : نوفمبر ٩ - قال رئيس جمعية مراقبة أوضاع أفغانستان ، بفرنسا، السيد جين جوز بيغ : إن قبضة السوفيات على أفغانستان لا تزال تتقلص يوماً يوم ، و المجاهدون الأفغان يجابهون عظيم السوفيات بإيمانهم و عقيدتهم فى دين الاسلام .

إن السيد بيغ هو شاهد عيان للتطورات الأخيرة فى أفغانستان حيث زار أفغانستان عدة مرات بين فترات قصيرة إثر الاحتلال السوفياتى للبلاد فى سنة ١٩٧٩، و السيد بيغ رجع مؤخراً من زيارة لأفغانستان ، و فى حوار مع مركز الاعلام الأفغانى فى باريس قال: إن الحرب لا تزال تستمر فى جميع أفغانستان وحتى المناطق النائية التى لا يعلمها العالم الخارجى مثل وادى « غوربند » و « واليان » ، ويكبد السوفيات خسائر فادحة فى تلك المناطق أيضاً .

و فى تعليق السيد بيغ و تقييم له للاوضاع فى أفغانستان قال : النضال الاسلامى للمجاهدين فى أحسن وضع مما كان عليه فى السنوات الثلاث الماضية .

و يدرك المجاهدون تماماً أن العدو الحقيق للاسلام فى أفغانستان هم السوفيات.

و السوفيات يدفعون ثمناً كبيراً لاعتدائهم على أفغانستان ، و عــدائهم للاسلام ، بصورة خسائر فادحة للارواح و المعدات .

و اختتم السيد بيغ حديثه قائلا : إن وادى « بنج شير » تبقى رمز المقاومة الاسلامى للجاهدين و يتحدى الاحتلال السوفياتى ، لقد قاوم المجاهدون ولا يزالون يقاومون ويهزون القوة السوفياتية منذ ثلاث سنوات الماضية ، و سيظلون فى مقاومتهم حتى تحرير بلادهم مرة أخرى .

بيـــــان :

لنـــدن : نوفمبر ١٠ — قال دكتور أمانيار منــدوب الاتحاد الاسلامى للجاهدين فى لندن فى تعليق له على كارثة النفق فى أفغانستان : إن السرية التى تدور حول كارثة النفق و تعتيم الأخبار عنها لبضعة أيام تدل على مدى وحشيــة أعمال السوفيات و عملائهم — نظام كارمل — و محاولة إخفائها ، ثم إذا لم يقدروا على الاخفاء ألقوا اللوم على المجاهدين .

إن المجاهــدين لم يكونوا ليزعجوا أناسا أبرياء من المواطنين و حتى الجندى الأفغانى ، و مضى الدكتور قائلا : « إن حربنا هو ضد السوفيات لا ضد إخواننا المواطنين الذين ليسوا جزءاً من نظام كارمل ، و لا ضد الجنديين الأفغـان الذين يرغمون لمحاربتنـا » .

لقد أعرب الدكتور أمانيار عن قلقه و دهشه على عدد المصابين و خســارة الأرواح من الابرياء فى كارثة النفق التى نتجت عن اشتباه ، بدون أساس ، لمسؤل سوفياتى والذى أمر باغلاق مخارج النفق ، و أضاف الدكتور قائلا : إن السوفيات لم يستطيعوا من أول يوم احتلالهم سيطرة جبل « سراج » و « دوشى » و « اندوب »

وينج شير الكل فى منطقة سلانغ باس، إن هذه المناطق فى سيطرة كاملة للمجاهدين، و كان بامكاننا أن دمرنا هذا النفق إذا كنا أردنا حيث يحتل النفق موقعاً استراتيجيا و طريقاً إلى الاتحاد السوفياتى، و لكن النفق يطول بقدر ميلين و هو الطريق الوحيد و السريع بين شمال أفغانستان و جنوبها، إن أية اعتداء على النفق قد كان ينتج عن إصابة الأبرياء بجانب خسارة العدو، و لن نفكر فى تدمير النفق أبدا، إذا كان السوفيات أصدقاء الأفغان كما يزعمه نظام كارمل فلماذا أغلقوا مخارج النفق و تركوا الناس ليموتوا و لم يساعدوا فى حفظ أرواحهم، و إذا ما كان هناك « فدائيون » فكان من الممكن للسوفيات أن يسيطروا عليهم.

إن هذه الاجراءات الوحشية نفسها تدل على نوعية الصداقة التى يعاملها السوفيات مع الأفغان.



شهرية، إسلامية، جامعة

رئاسة التحرير : سعيد الأعظمى الندوى — واضح رشيد الندوى

الاشتراكات السنوية

فى الهند : ٣٠ روبية — ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف

فى العالم العربى : ٩ دولارات بالبريد السطحى — ١٨ دولاراً بالبريد الجوى

فى أوربا وافريقيا وأمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى — ٣٠ دولاراً بالجوى

فى باكستان، بنغلاديش ودول شرق آسيا : ٨ دولارات بالسطحى ١٨ دولاراً بالجوى

المراسلات : مكتب رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامى

ندوة العلماء ص . ب ٩٣ لكناؤ (الهند)

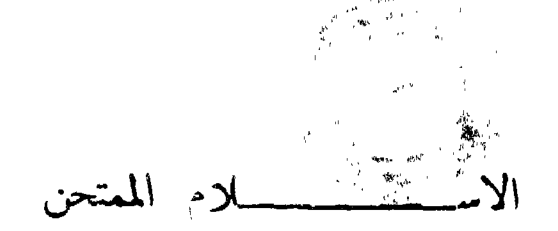


Phones . 49747 - 42948 Regd. No. Lw

ALBAAS - EL - ISLAM

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA

حديثاً :



الاســـــــــلام الممتحن

طبعة رابعـــة منقحة

بقلم : الأستاذ محمد الحسني رح

الكتاب الثائر على الأنظمة الجاهلية المعاصرة و الأوضاع الفاسدة .

كتاب الجيل المسلم الجديد و الطلائع الاسلامية فى العالم .

كتاب الحق و الحرية و القوة و الدعوة الحكيمة و التفكير السليم .

الناشر ، دار عرفات

يطلب من « الحسن » ص . ب ٣٣٥

٣٧ / كوئن رود لكهنؤ (الهند)

بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيـــد الأعظمى



تصدرها ندوة العلماء - لكناؤ (الهند)



البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

المجلد السابع والعشرون

العدد الثامن

جمادى الأولى ١٤٠٣هـ

فبراير و مارس ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة في المجتمع الإسلامي، غير مقياسها في المجتمع الجاهلي بجميع صوره و ألوانه، وهذه هي نقطة الفصل، ونقطة الالتباس أيضا، الأصل — في المجتمع الإسلامي — هو العبودية لله، و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و الفكر و الوجدان، و الجهاد في سبيله بأعز ما يملكه الإنسان، أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفي لتحقيق مهمته في هذه الحياة، و إعلاء كلمة الله في الأرض ... لا يأخذه إلا في حدود مطلوبة واضحة أذن بها الله.

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسني

(الإسلام الممتحن ص ١١٠)



البعث الإسلامي ندوة العلماء ص.ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

ALBAAS-EL-ISLAMI Nadwatul Ulama LUCKNOW (India)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية :

القضايا الايجابية لا تعالج بالسلبيات

إن دراسة جدية و متعمقة فى واقع الانسان المعاصر تعطينا صورة — و لو مصغرة — لتلك الاتجاهات المتناقضة التى تستولى عليه و توزعه بين طبقات و مجموعات ، هذه الاتجاهات هى التى وسعت الفجوة بينه و بين ما يسمى بالاستقرار و الهدوء ، و يمكن أن نعبر عن أنواع هذه الاتجاهات و الميول المتعارضة المتضاربة ، بالبحث عن الملجأ ، و العداء الشديد ضد القيم الخلقية و الدينية . و المسالمة مع الظروف ، و الفرار عن الحقائق ، و الاعتراف بالواقع .

ترى أن الذين يبحثون عن الملجأ من غير استناد إلى أساس واقعى للحياة يتيهون فى الأرض ، و ينتقلون من باب إلى آخر ، رجاء أن يدركوا ضالتهم على أى باب ، و يوفروا لهم ملجأ يأووا إليه ، و يستريحوا فيه عن عناء الحياة و شقاء الأحوال و تعاسة الظروف ، و إن هؤلاء طالما تنحرف بهم الطرق و النظرات فيمرون بتجارب متعددة و يمارسون نظرات مختلفة ، و قد يجدون استجابة لبعض طلباتهم خلال تجاربهم القاسية ، و لكن سرعان ما يتبين لهم إخفاق الجهود التى بذلوها ، و لا يتيسر لهم سوى الحيرة المريرة التى يعانون منها . و إن هذا النوع من الناس هو الذى يتزيا بأزياء منوعة و منه تنبثق الخنفسة * و الرهبنة و التنسك ،

و الالتجاء إلى الكهوف و المغارات ، و الاشتغال بألوان من أعمال غير طبعية ، و لعل هذا النوع من الانسان لا يندر وجوده فى أى مكان ، و لعل العاملين فى مجالات الدعوة إلى الله يستطيعون أن يحلوا هذه المشكلة ، و يعينوا الملجأ لهؤلاء الباحثين عنه .

وأما العداء الشديد ضد القيم الخلقية و الدينية فقد اتخذه شعاراً قوم من الشرق بوجه خاص ، و اخترعوا لذلك مصطلحاً علمياً و جعلوه فكرة مستقلة و فلسفة بذاتها ، و هى فكرة الشيوعية التى تنكر وجود أى خالق لهذا الكون الواسع و ما فيه من آيات و آثار ، و ترفض تأثير الأخلاق و الفضائل فى الحياة ، و تعتبر الانسان مخلوقاً حيوانياً يتميز بعقل صناعى و إنتاجى ليس غير . فهى تعامله معاملة الآلات و الماكينات و تضعه موضع مكسب مادى من غير نظر إلى ما أودع فيه من عاطفة و دافع ، و من قلب خفاق و شعور متفاعل مع العوامل و الأحداث ، تعتبره رباط العمل المستمر للحصول على لقمة العيش ، و دوامة الجهد المتواصل لكى يثبت بذلك حق البقاء فى المجتمع المادى الأصيل الذى تخلقه الشيوعية باسم المجتمع الاشتراكى الثورى المادى .

هذه الفلسفة قد حولت الانسان الكريم إلى آلة صماء يجب أن تدور بأسرع ما يمكن من غير توقف و لا هوادة ، و إذا توقفت لسبب ما فسرعان ما تقع عليه المطارق باستمرار حتى تعود إلى سيرتها الأولى أو تلفظ بقسوة إلى المزابل البشرية دونما رحمة أو لين ، يصور هذه المأساة الأليمة التى تتصدع لها القلوب شاعر بولندى اسمه « آدم فازكى » (ADAM VAZKY) و قد مر بتجربة الشيوعية القاسية :

« هناك انسان عاد متعباً من العمل المتتابع ، برتقالات بولندا لا ينالها أهلها ، هناك أطفال أبرياء ، و طفلات بريئات يرغمون على الكذب ، هناك انسان ينتظر الانصاف ، و لكن هيهات أن يناله ، تناشد باسم الانسان الذى عاد

مرهقاً من العمل، نريد أقفالا نغلق بها أبوابنا، نريد حجرات ذات شبابيك، نطلب جدراناً لا تكون متداعية منخورة، لكى نعيش كالانسان».

ويشهد سكريتر الحزب الاشتراكى فى فرنسا «بيرى كامن» بما ساقته الثورة الصناعية إلى الانسان من سوءات قضت على كرامته وعادت به ماكينة إنتاج مادية فحسب:

«نحن على ثقة كاملة بأن الثورة لم تكن فى صالح الانسان، و لا فى زيادة كرامته و شرفه، و إنما نجحت فى تحويله آلة صماء» و هذا «ييسينن» (YESSENIN) الشاعر الروسى الذى عاش فى عهد ما بعد الثورة و طار صيته فى ۳۰ من عمره، كيف يصور قلقه البالغ و حياته التعسة التى كانت هدية الثورة، و المحنة الخلقية التى عاشها:

«إننى غريب فى وطنى، و واقف فى الطريق، إننى لست انساناً جديداً، و رغم أن إحدى خطوتى تتأخر بى إلى الماضى السحيق أريد أن أدخل العالم الحديث، عالم الفولاذ و الحديد، و مهما كنت ضليعاً لا أتمكن من المشى السليم و لكننى لا أريد غير هذا».

و مات الشاعر و خلف وراءه ورقة مكتوب فيها «يا صديق، يا حبيبى! ليست مفارقة هذه الحياة أمراً مهماً، و لكن بالتأكيد ليس هناك أى جدة أو طرافة فى استمرارية الحياة».

أى معاناة أتعس مما يعانيه الانسان فى بلد ألغيت فيه الملكية الفردية و أعلنت فيه المساواة و العدالة فى كل ناحية، و أخرجت فيه المرأة من حضانة الطفل و تربية الأسرة إلى المصانع و الأسواق لكى تعمل مع الرجال سواء بسواء؟.

★★★

و الذين يسالمون مع الظروف إما لجهل بالهدف الذى يتوخونه أو لغباء يرثونه من بيئتهم فيؤثرونه على الذكاء و التفطن، وإما عملا بمبدأ «در مع الزمان

حيث دائر » فإنهم مترهلون يريدون أن يعيشوا فى صفاء و متعة من غير أن يعكروا صفو الراحة و المتعة بملابسات الانحياز من جانب إلى آخر و الاهتمام بالأحداث و مجريات الأمور ، فيرون العافية كلها فى الخضوع للظروف و قبول كل ما يواجههم من مشكلات و قضايا بسلم ودعة و مهادنة و تسامح .

هذه النظرة إن دلت فإنها تدل على ضيق التفكير و قلة الاهتمام بالرابطة الانسانية التى تجمع الانسان فى أسرة و مجتمع و بلد ، و نبذ روح التعاون و الحب التى هى أقوى عامل للتضامن و الوحدة ، و أرسخ أساس للقوة و بالتالى للرخاء المادى و الهناء الروحى ، و لذلك فقد اعتنى بهذه الناحية دين الاسلام ، و عمق فى أتباعه روح الترحيب بالمعروف و الأمر به و إنكار المنكر و النهى عنه ، أما أن يتغاضى المرء عن المنكر لأن مصدره هو الدولة أو الجهات القوية المعنية أو الرئيس و الحاكم و الملك ، فاعتبر ذلك منكراً فوق منكر ، ألم تروا كيف يركز رسول الاسلام محمد ﷺ على إنكار المنكر بما استطاع إليه المرء من سبيل « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، و ذلك أضعف الايمان » .

إذن ما معنى المسالمة مع الظروف ، أليس ذلك من موشرات الأثرة و الانتهازية و النفاق ، خاصة إذا كان المرء يسالم مع ظروف يستنكرها من قلبه ، و يتفهم ما تكنه من أضرار و سوءات و متاعب و مشكلات للمجتمع و الحياة فى مستقبل قريب أو بعيد ، ولا شك فإن هذه الخصلة ليست من خلال المؤمن ولا من دأب المسلم الذى يقول الحق و يعمل به مهما كانت الظروف « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم و يغفر لكم ذنوبكم ، و من يطع الله و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » .

و قد أضحى الفرار عن مواجهة الحقائق عادة متبعة لدى أناس لأخلاق لهم من جراءة خلقية، وثقة بالنفس، فلكی يعللوا أنفسهم بالتأويلات الفارغة والتفسيرات الخاطئة للاحداث و الأوضاع يريدون أن يغيروا الحقائق، و يسدلوا عليها ستاراً من أوهام وأفكار زائفة، إنهم يصورون الوضع على غير ما هو عليه، ويؤكدون للناس أن ما يقولونه و يعرضونه عليهم هو الحق الواقع، يعتمدون على التلفيق و التلبيس فی معظم الأحوال، و هم بذلك يغررن أنفسهم قبل أن يغروا غيرهم، و يخدعون ضميرهم دون أن يعودوا بطائل أو نفع، و بالايجاز: إنهم بذلك ينالون من قضاياهم و يخسرون مكاسبهم فی الحياة.

إن الحقائق لن تتغير بالفرار عنها أو إخفائها وراء ستائر غليظة من تحوير أو تأويل، و الذين يواجهونها بجراءة و يعترفون بها برحابة صدر و اعتقاد قلب إنما يحرزون لأنفسهم و لمن معهم فوائد كثيرة من كل نوع، و لقد كثر عدد من لا يأبهون بهذا الواقع، و يزعمون أنهم برفضهم مجابهة الحق يستطيعون أن يغيروه بشئ آخر غيره، فمثلا الذين ينكرون واقع الدين وتأثيره فی حياة الانسان، إنما يخدعون أنفسهم، و يجلبون لها الشقاء و المتاعب قبل أن يجلبوهما لغيرهم، نرى أن كراهية شئ تمهد الطريق إلى إنكاره. و لذلك فان الذين يعادون الاسلام أو يكرهون المسلمين و منهج الحياة الذی جاءت به الشريعة الاسلامية لا يعترفون بحقيقة «فطرية الاسلام» و أبدية رسالته و خلود منهجه و خاتمية نبيه ﷺ، و رغم أنهم يعتقدون - عن دراسة و اقتناع - بأن الاسلام حقيقة خالدة لا تتغير و نظام شامل لا يتأثر بتأثير الأجواء والطقوس ولكنهم يخافون أن يواجهوا هذه الحقيقة بشجاعة و قوة، إما لحاجة فی أنفسهم أو لمصلحة فی حياتهم، أو مرض فی قلوبهم «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فی الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلانقيم لهم يوم القيامة وزناً، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتی و رسلی هزواً»

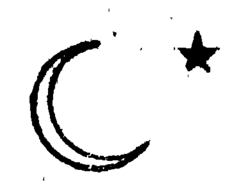
و هكذا يقاس هذا الاتجاه المنكر فى شئون الحياة الأخرى، إلا أن الحقائق لا تتبدل بالتغاضى عنها أو رفضها أو إسدال الستار عليها « سنة الله و لن تجد لسنة الله تبديلا ».

و بازاء هذا الجانب السلبى بالنسبة إلى الحقائق، جانب إيجابى نعبر عنه بالاعتراف بالواقع، و له دور كبير فى تاريخ الانسان، و خاصة فيما يتعلق بالقيم الخلقية و المبادىء الدينية، و فيما يقفز فيه الانسان إلى أهداف عالية بعيدة نحو بناء المستقبل اللامع فى المجالات الفردية و الجماعية، و لقد قام الأنبياء و الرسل صلوات الله عليهم أجمعين نحو المجموعات البشرية و الجماهير من الناس يدعونها إلى الاعتراف بالواقع الذى حملوه إليهم، واقع الدين الذى يتوقف عليه سعادة الانسان و شقاؤه، فهذا نوح و إبراهيم و موسى وعيسى و هود و لوط و صالح و شعيب (على جميعهم صلوات الله و سلامه) إنما دعوا إلى الايمان و الطاعة و التقوى و البر، ذلك الواقع الذى رفضه ناس و قبله آخرون، و لكن الذين رفضوه، فأى حظ وجدوه من الدنيا، سوى الخسران و الشقاء، و الآلام و المتاعب، أما الآخرة فلم تستقبلهم بجائزة النعيم و الجنة أيضاً. بل رفضتهم كما رفضوا دعوة الأنبياء و توجيهات الدين.

من هنالك كان للاعتراف بالواقع قيمة كبيرة فى بناء المستقبل و الاستمتاع من طيبات الدنيا و الآخرة، و أى واقع أعظم و أهم من واقع الاسلام الحى الخالد، و الاعتراف به، و الاعتقاد فيه، و تنفيذه فى الحياة هو الضمان الأول و الأخير لسعادة النوع البشرى على جميع المستويات. وفى ذلك وحده تكمن سلامة الانسان والحلول لجميع ما يواجهه من مشاكل الحياة وقضايا الاجتماع والعلوم والأفكار.

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ».

سعيد الأعظمى



التوجيه الإسلامي

حقية التوحيد و الدين الخالص

و حقيقة الشرك

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى

وقوام العبودية تصحيح العقيدة و الايمان ، ومن تطرق إلى عقيدته خلل
تعرض إيمانه لفساد ، لم تقبل منه عبادة ، و لم يصح له عمل ، و من صحت
دته . استقام إيمانه ، كان القليل من عمله كثيراً ، و هنا وجب على كل إنسان
لا يدخر وسعاً فى تصحيح إيمانه ، و أن يكون الحصول عليه و الاستيثاق منه
عمله ، و نهاية سؤله ، لا يعدل به شيئاً ، و لا يتأخر فيه دقيقة (١) .

لقد تبين من دراسة القرآن المخلصة العميقة ، أن الكفار الذين كانوا فى عصر
ﷺ لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله ، و يرونهم مع الله بمنزلة سواء ، بل كانوا
ون بأنهم مخلوقون و عبيد ، و لم يكونوا يعتقدون أبداً ، أن آلهتهم لا يقلون
الله قدرة و قوة ، وهم ، والله ، فى كفة واحدة ، فما كان كفرهم وشركهم ،
نداؤهم لآلهتهم ، و النذور التى كانوا يتذرون لها و القرابين التى كانوا يقربونها
سمائهم ، و اتخاذهم لهم شفعا ، و وكلاء ، فمن عامل أحداً بما عامل به الكفار
تهم وإن كان يقر بأنه مخلوق وعبد ، كان هو وأبو جهل فى الشرك بمنزلة سواء ،
يقول شيخ الاسلام الشيخ ولى الله الدهلوى :

« واعلم أن للتوحيد أربع مراتب ، إحداها حصر وجوب الوجود فيه تعالى ،

---

١) رسالة التوحيد ، للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، تعريب : المؤلف ، ص ٢٠ .

فلا يكون غيره واجباً ، و الثانية حصر خلق العرش والسماوات والأرض ، و سائر الجواهر فيه تعالى (١) .

و هاتان المرتبتان لم تبحث الكتب الالهية عنهما ، و لم يخالف فيهما مشركو العرب ، و لا اليهود و لا النصارى ، بل القرآن العظيم ناص (٢) ، على أنهما من المقدمات المسلمة عندهم ، و الثالثة حصر تدبير السماوات و الأرض و ما بينهما فيه تعالى ، و الرابعة أنه لا يستحق غيره العبادة (٣) ، و هما متشابكتان متلازمتان لربط طبيعي بينهما ... وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم ، و رد على الكافرين شبهتهم رداً مشبعاً (٤) .

فظهر أن الشرك لا يتوقف على أن يعدل الانسان أحداً بالله ، و يساوى بينهما ، فلا فرق ، بل إن حقيقة الشرك أن يأتى الانسان بخلال و أعمال ، خصها الله بذاته العلية ، وجعلها شعاراً للعبودية ، لأحد من الناس ، كالسجود لأحد ، والذبح باسمه ، و النذر له ، و الاستغاثة به فى الشدة ، و اعتقاد أنه حاضر ناظر فى كل مكان ، و إثبات قدرة التصرف له ، وكل ذلك يثبت به الشرك ، ويصبح الانسان به مشركاً ، و إن كان يعتقد أن هذا الانسان ، أو الملك ، أو الجنى الذى يسجد له ، أو يذبح أو ينذر له ، أو يستغيث به ، أقل من الله شأناً ، و أصغر منه مكاناً ، و أن الله هو الخالق ، و هذا عبده و خلقه ، لا فرق فى ذلك بين الأنبياء

---

(١) و هو ما يعبر عنه بتوحيد الربوبية .

(٢) قال تعالى : « و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (الزخرف - ٩)

(٣) و هو ما يعبر عنه بتوحيد الألوهية .

(٤) حجة الله البالغة ، ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ باختصار .

و الأولياء ، و الجن والشياطين ، و العفاريت ، والجنيات ، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركاً ، لذلك وصف الله اليهود والنصارى، الذين غلوا فى أحبارهم ورهبانهم، مثل ما غلا المشركون فى آلهتهم، بما وصف به عباد الأوثان والمشركين ، وغضب على هؤلاء الغلاة المنحرفين ، كما غضب على غلاة المشركين . فقال: «اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله و المسيح ابن مريم و ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه و تعالى عما يشركون » (١) .

★ مظاهر الشرك و أعماله و العادات الجاهلية :

ولا بد بعد هذا الكلام الأصولى العام ، من أن نشير إلى مواضع الداء والبلاء فى الجهال ، و من خضع للمؤثرات الأجنبية ، و العادات الجاهلية ، و نشأ فى بيئات بعيدة عن التعليم الاسلامى الصحيح ، و العلم بالكتاب و السنة ، و الدعوة إلى الدين الخالص، ونضع الأصبع على مواضع الداء، والوتر الحساس فى الجسم السقيم .

إن العلم المحيط الشامل و التصرف المطلق بالارادة ، و القدرة الكاملة ، من خصائص الله تعالى و أعمال العبادة و شعائرها ، كالسجود و الركوع ، و الصوم وقصد البيت من أنحاء بعيدة ، و المعاملة به كالمعاملة بالبيت الحرام، وسوق الهدى إليه ، و نذر النذور هناك ، من أعمال الشرك و مظاهره .

و علامات التعظيم الدال على العبودية و الاستكانة خاصة بالله تعالى ، و علم الغيب خاص بالله تعالى و وراء طور البشر ، و العلم بمكنونات الضمائر و هواجس الخواطر ليس بميسور دائماً لأحد، ولا يقاس الله سبحانه و تعالى على ملوك الدنيا فى قبول الشفاعات ، وإرضاء أهل الوجاهة والنفوذ، والله يرجع إليه فى كل صغير

---

(١) سورة التوبة : ٣١ .

و كبير ، فانه ليس كملوك الدنيا فى تدبير المملكة ، و الاستعانة بالحاشية ، والسجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى ، والمناسك ، ومظاهر التعظيم الأقصى ، وشعائر الحب و التفانى خاصة بالبيت و الحرم ، و تخصيص الحيوانات للصالحين ، والتقرب باحترامها و نذرها و ذبحها إليهم ، حرام ، و غاية التعظيم فى تذلل و خشوع من حق الله تعالى . و الذبح تقرباً و تعظيماً من حق الله تعالى ، و اعتقاد التأثير فى الأنواء والكواكب فى العالم إشراك بالله ، و الاعتماد على العرافة والكهانة والمخبرين بالمغيبات ، كفر و جبت ، و ينبغى الحث على إظهار شعار التوحيد فى الأسماء ، و الحذر من الكلام الموهم ، و الحلف بغير الله ، إشراك بالله ، و لا يجوز النذر لغير الله ، و الذبح فى مكان كان فيه وثن ، أو عيد من أعياد الجاهلية ، و ينبغى العدول عن الافراط والتفريط فى تعظيم النبى ﷺ وعن تقليد النصارى فى اطرائهم لنبيهم ، و غلوهم فيه ، و عن تعظيم صور الصالحين (١) .

★ هدف النبوة الأساسى وأهم مقاصد البعثة ، القضاء على الجاهلية الوثنية العالميـــة : إن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم فى كل زمان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة فى الله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد و ربه ، و الدعوة إلى إخلاص الدين و إفراد العبادة لله وحده ، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة و الدعاء و الالتجاء و النسك وحده ، و كانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان و الأصنام و الصالحين المقدسين من الأحياء و الأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف و التأله ، و جعلهم متصرفين فى بعض

---

(١) ملتقط من « رسالة التوحيد » للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، تعريب المؤلف.

الأمور الخاصة و يقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً ، و يقلده تدبير تلك المملكة فى ما عدا الأمور العظام (١) .

و كل من له صلة بالقرآن - و هو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة - يعرف اضطراراً و بداهة أن القضاء على هذه الوثنية ، و الانكار عليها ، و محاربتها و إنقاذ الناس من براثنها ، كان هدف النبوة الأساسى ، و مقصد بعثة الأنبياء ، و أساس دعوتهم ، و منتهى أعمالهم ، و غاية جهادهم ، و قطب الرحى فى حياتهم و دعوتهم ، حولها يدندنون ، و منها يصدرون ، و إليها يرجعون ، و منها يبدأون و إليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول بالاجمال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢) ، و تارة يقول بالتفصيل فيسمى نبياً نبياً ، و يذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد .

إن هذه الوثنية و الشرك بمعنى التأله لغير الله و غاية التذلل له ، و السجود و الدعاء و الاستغاثة و النذر و الذبح له ، هى الجاهلية الدائمة التى هى أقدم أدواء البشر و مواضع ضعفهم و سقطتهم ، و هى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياتهم و تطوراتها ، و هى التى تثير غضب الله و غيرته ، و تحول بين العبد و تقدمه الروحى و الخلقى و المدنى ، و تهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات .

و لا يزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعوات الدينية و حركات الاصلاح إلى يوم القيامة ، و هو تراث النبوة الخالدة ، « و جعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون (٣) » و شعار جميع الدعاة إلى الله و جميع المصلحين المجاهدين .

---

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة ، للامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٣) سورة الزخرف : ٢٨ .

★ لا يجوز التقليل من شأن الشرك الجلي، و غض النظر عنه:

ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلي المتقدم ذكره وأهميته، و أن يوضع في الهامش من منهاج دعوة أو جهاد، أو يساوى بينه و بين معاني الطاعة و الحكم السياسية و يحكم عليها حكماً واحداً، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التي ولى عصرها و انقضى دورها، فان هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء و جهودهم، و شك في خلود القرآن و أنه هو الكتاب الأخير الدائم، و شك في أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى و الذي كتب له من النجاح والتوفيق و الانتاج والاثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الاصلاح.

★ البدعة و مضارها و تناقضها مع الشريعة الكاملة الخالدة:

تعرف البدعة بأنها إدخال شئ في الدين لم يدخله الله ورسوله فيه، ولم يأمرا به، و اعتقاد أنه جزء من الدين، يعمل به احتساباً، مع التزام آدابه، و شروطه المزعومة، كالتزام الحكم الشرعي. و البدعة شريعة وضعية إزاء شريعة إلهية، لها فقهها المستقل، و فرائضها و واجباتها، وسننها ومندوباتها، التي تقف نداً الشريعة الالهية حيناً، و تفوقها أهمية و عظمة حيناً آخر.

و تنقض البدعة طرفها عن حقيقة ناصعة، و هي أن الدين قد أكمل، و أن الشريعة قد ختم عليها، فما كان ينبغي أن يتقرر، تقرر، و ما كان ليتعين فرضاً أو واجباً تعين فرضاً أو واجباً، وأغلقت «دار الضرب» للدين، فأي عملة جديدة تنسب إليه، لا تكون إلا مزورة مزيفة، و ما أحسن ما قال الامام مالك رحمه الله:

« من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، فان الله سبحانه يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً (١) »

و إن من خصائص الشريعة المنزلة من الله عز وجل أن تكون سمحة سهلة ، صالحة للعمل و التطبيق فى كل عصر و مصر ، لأن من شرع هذا الدين هو الذى خلق الناس ، فهو الذى يعرف ضروراتهم و حاجاتهم ، و طبائعهم و طاقاتهم ، و مواضع ضعفهم و عجزهم : « ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير (٢) »

و لأجل ذلك لوحظت مراعاة هذه الأمور كلها فى التشريع الالهى ، ولكن إذا اتخذ الانسان نفسه شارعاً فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة ، و كلما تختلط البدع و المحدثات بالدين ، و تجرى تعديلات و إضافات بشرية فيه ، يزداد الدين عسراً و ضيقاً و تعقداً ، حتى يضطر الناس إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم و يحرموا هذه النعمة المتحققة فى رفع الحرج « و ما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٣) ، و يمكن أن تلاحظ أمثلة ما نقول فى تلك الفهارس الطويلة للطقوس و العبادات ، و الفرائض و السنن المحدثة ، التى عملت فيها البدع عملها بكل حرية و انطلاق .

و من خصائص الدين و الشريعة الاسلامية الانسجام التام ، و الوحدة العالمية ، فلا يتغيران ، و لا يتفرقان فى عصر و زمان ، فلو سافر مسلم من بقعة فى العالم الانسانى إلى بقعة أخرى ، لا يلقى أى صعوبة و حرج فى العمل بالدين ، و تطبيق الشريعة ، و لا يحتاج إلى منهج مخصص ، أو دليل محلى ، أما البدع فلا

---

(١) رواه ابن الماجشون عن مالك . (٢) سورة الملك : ١٤ .
(٣) سورة الحج : ٧٨ .

توافق فيها و لا انسجام ، فهى تصهر فى بوتقة علية فى كل مكان ، و تضرب فى دار الضرب لمدينة ما من المدن أو بلد من البلدان ، وتكون نتاج العوامل التاريخية المحلية الخاصة ، و المصالح الشخصية ، و الأغراض الفردية الخاصة ، فتختص بدع كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بدع كل ولاية ، وكل مدينة وخرافاتها ، بل بدع كل حى من الأحياء و كل بيعه من البيوت ، و أباطيلها و خرافاتها تختص بها نفسها ، ينتج من كل ذلك دين متعارض يصطدم بعضه ببعض فى كل قرية وبلد ، و كل حى و منزل .

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التى نطم بعضها و لا نحيط بها ، نهى الرسول ﷺ من اقتراب البدع ، و أمرهم باجتناب كل المحدثات فى الدين ، والحفاظ على السنة ، و التمسك بها ، يقول عليه الصلاة و السلام :

« من أحدث فى أمرنا هذا ، ما ليس منه فهو رد (١) » « إياكم و محدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، و كل بدعة ضلالة (٢) »

و تنبأ بهذه النبوة الحكيمة : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع بها مثلها من السنة » (٣) .

★ جهاد ورثة النبى ﷺ وحملة الشريعة ضد البدع و المحدثات :

و قد عارض الصحابة رضى الله عنهم و أئمة الدين و فقهاء المسلمين ، و جميع المجددين والمصلحين ، والعلماء الربانيين فى عصورهم ، محدثات زمانهم والبدع

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه أحمد و أبو داؤد . نقلا عن « مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة »
(٣) رواه الامام أحمد فى المسند .

ناشئة فيه ، معارضة عنيفة قوية ، وبذلوا جهد طاقتهم فى الحيلولة دون رواج هذه بدع و المحدثات و تأثيرها فى المجتمعات الاسلامية والأوساط الدينية ، وقد صور القرآن الكريم ما يوجد فى هذه البدع المحدثات - فى كل عصر - من جاذبية مغناطيسية ، وما يرتبط بها من أغراض أبناء الدنيا ، والمحترفين بالدين ، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية ، و منافعها الذاتية ، فى أسلوبه المعجز الحكيم ، فقال :

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار و الرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، و يصدون عن سبيل الله (١) »

و لقى هؤلاء الدعاة و المصلحون ، و المجددون فى سبيل ذلك من الأذى الاضطهاد ، ما لقوا ، و لكنهم لم يبالوا بما أوذوا به فى سبيل الله ، واعتقدوا ن عملهم هذا جهاد الساعة ، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء ، والدين الخالص من التحريف و التزوير ، و قد لقب هؤلاء المعارضين للبدع و المحدثات ، الحاملين لراية السنة ، و الشريعة المطهرة ، مخالفوهم من العامة ، أو الخاصة الذين لا يمتازون عن العامة ، بألقاب تشبه ألقاب الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة المارقة (٢) و أعداء الدين ، فلم يعيروها أى اهتمام ، و قضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم و اللسان ، و إثبات الحق و إبطال الباطل ، على كثير من البدع و محدثات الأمور ، التى لا نجد لها الآن ذكراً إلا فى بعض كتب التاريخ ، و ما بقى منها لم يزل يكافحها العلماء الربانيون ، ولا يزالون يحاربونها ، ويقضون عليها ، وصدق الله العظيم :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، منهم من ينتظر ، و ما بدلوا تبديلا (٣) »

---

(١) سورة التوبة : ٣٤ .

(٢) مثل « الوهابية » والجامدين والمحافظين والقشوريين ، والحرفيين ، وغيرها فى عصرنا هذا .

(٣) سورة الأحزاب : ٢٣ .

المرأة فى التشريع الاسلامى

دكتور توفيق محمد شاهين
المركز الاسلامى - أتوا - كندا

[المرأة هى المدرسة الأولى لتربية الجيل ، و هى حجر الزاوية فى بناء الأسرة الصالحة و لها دورها العظيم فى تكوين المجتمع الأفضل، إلى هذه النقطة يشير البحث المنشور أدناه، مع ما له من قيمة دراسية تحقيقية فى ضوء الشريعة الاسلامية - و حسب القراء الكرام اسم الدكتور توفيق محمد شاهين فى مجال الدعوة و الفكر الاسلامى] [التحرير]

★ تقديم :

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، و لم يجعل له عوجاً ، وصل إلينا متواتراً ، من غير تغيير ولا تبديل ، تحقيقاً لوعد الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون » و أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ، و أمر سبحانه بطاعة الله و رسوله .

فاقترنت السنة النبوية الشريفة بكتاب الاسلام الخالد ، تشرح مجمله ، و تبين مقاصده ، فيما لم يكن فيه تفصيل ، فتذكر الوقائع وتتبع الجزئيات ، وتشرح المجمل ، و تشرع ما يفى بحاجات الناس ، مثل :—

تحريم زواج المتعة ، و تحريم المدينة ، و تحريم لحوم الحمر الأهلية ، ومسألة

الشفعة و المساقاة ، و ميراث الجدة ، و تحريم الجمع بين المرأة و عمتها ، وتحريم أكل ما يعتمد فى حياته على نابه أو ظفره .. .

فسمع المسلمون و أطاعوا و طبقوا ، تحقيقاً لقوله تعالى : « أطيعوا الله ، و أطيعوا الرسول »

« و ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى »

يقول الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله : من شاهد أحواله - النبى ﷺ - أو أصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه و أحواله وأفعاله وعاداته وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق، وقيادته إياهم إلى طاعته ، مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة ، وبدائع تدبيراته فى مصالح الخلق ، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع ، الذى يعجز الفقهاء و العقلاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم ، لم يبق لديه ريب و لا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية .. . بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى ، و قدرة إلهية ، بل كانت شمائله و أحواله شواهد ساطعة بصدقه ، ﷺ .

و لمصدرى التشريع فى الاسلام روافد من :

★ رأى و نظر و اجتهاد : فردى و جماعى ، فى زمن الرسول ﷺ وصحابته من بعده ، حين أمر أصحابه المرسلين إلى الأقاليم ، و حارب أبو بكر رضى الله عنه المرتدين برأيه ، و وافق الصحابة عليا رضى الله عنه على مضاعفة حد شارب الخمر .

★ ومن ، قياس : لالحاق مسألة جديدة لم يرد فيها نص بذاتها ، بمسألة أخرى نص الشارع على حكمها لاتحاد أو مماثلة بينهما .

★ ومن ، استحسان : كأداة لتحرى العدل ، عندما لا يسعف القياس .

★ ومن ، مصالح مرسلة : كأداة لتحقيق مصالح العباد ، بلاضرر ولاضرار.

و بهذا و ذاك اتسمت الحركة الفكرية العاقلة ، و الاجتهاد المخلص - فيما عدا العقائد و أصول التشريع - لتغطى ما يجد من أمور الحياة و التطور الانسانی، فی ظل الكتاب و السنة .

و من ثم كانت روعة الفقه الاسلامی فی جانبيه : العلمی و العملی ، فی بيان الأحكام الثابتة ، والنظريات التی تتطور بحسب الزمان و المكان ، و تتحرك فی دائرة مبادیء ثابتة ، تراعی مصلحة العامة ، و ترفع الحرج وتسد الذرائع ، و تقدم درء المفاسد على جلب المنافع ، وتعتبر العرف و العادة عند موافقة النص .

وبذلك كان الاسلام خير تشريع فی شكل إنسانی واقعی ، يفوق فی كل عصر قمة ما وصلته ، أو تصل إليه تشريعات بشرية ، فضلا عن أنه أعطى تكميلا وتكاملا مع ما سبقه من رسالات ، و سد القصور ، و جعل مبادئه سهلة بسيطة ، و ترك لمبادئه أبعاداً مرنة ، تواكب ما يتمشى و متطلبات الحيـــاة الاجتماعية المتجـددة ، و نموذجاً يخرج بانسانه من نمط الحياة المحلية إلى نمط المجتمع العالمی الانسانی .



★ ذاتية التشريع الاسلامی :

وللاسلام ذاتية فی رسالته ، و لم يكن صدى تلقائياً لبيئته ، و لا تطوراً طبيعياً لأحداث حوله عاصرته .. و كان حازماً فی علاجه : فتحفظ و عارض ما لا يتفق و المستوى الفاضل فی الانسانية ، و أبقى على الصالح منها و أجازه ليبقى ركائز إنسانية تنسحب على كل جيل فی سلاسة ، تعطيه ملامحه و ظروفه ، لأن الناس بزمانهم أشبه (ومن لان عوده كثفت أغصانه) كما قال الامام علی رضی الله عنه .

و من هنا اتجهت اجتماعية الانسان فى القرآن إلى الاستقرار فى أسرة صغيرة أو كبيرة ، و أتاحت له التفتح على قضاياه الحقيقية : قضايا تطوره و تكيفه مع متطلبات مجتمعه ، و حتم ذلك تلقائياً تحمله مسئولياته .

و يسهم بالتالى فى الحضارة الانسانية بدور بناء ، يلبى مطالب جسده وأشواق روحه ، فى دوائر مفتوحة مرنة منبثقة من أصول راسخة واقعية ، وجعل بين « الله » و « الكون » و « الروح » ارتباطاً كيانياً ، لا وحدات متناثرة ، و لا ازدواجية متنافرة بين الروح و المادة ، كما يقول إقبال الفيلسوف .

و لا عجب - إذن - أن يرى المقننون و المشرعون فى كل مؤتمر ، بأن الشريعة الاسلامية فيها من المزايا ما يجعلها صالحة للتشريع العام ، جاء ذلك فى كل المؤتمرات القانونية و التشريعية حديثاً .

أما ما ترمى به الشريعة الاسلامية - بهتاناً - من جمود ، أو قصور ، فأمر مرجعه إلى الجهل بها ، أو الحنق عليها ، أو عدم تمام الدراية بها ، أو قعود عن الانتفاع بمنابعها و روافدها ، لحل المشاكل المعاصرة الانسانية والتطور البشرى :—

يقول ابن القيم رحمه الله : « .. الجماهير و رؤساء الدول ، وعلماء الاسلام ، جعلوا الشريعة قاصرة ، لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، و سدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق ، و التنفيذ له ، و عطلوها بتقصيرهم فى معرفة الشريعة والواقع ، ولما رأى ولاة الامور ذلك أحدثوا من أوضاع سياستهم شراً طويلا ، فتفاقم الأمر ، و تعذر استدراكه ، وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس ، و استنقاذها من المهالك »

★ نحو أسرة طيبة :

و الانسان خليفة الله فى الأرض ، و هو اجتماعى بطبعه ، و من ثم شرع

له الاسلام مبادىء تعلى فيه شأن الخلافة ، و تحدد مدلول الطبيعة الاجتماعية لبناء الانسان السوى على مستوى الفرد و الأسرة و الجماعة و بذلك يتصعد الانسان كخليفة و لا يتسفل ، و يرى أسساً ملهمة لما يجب أن تكون عليه مظاهر السلوك و العلاقات فى مجتمع فاضل رشيد .

فعلى مستوى العلاقات الأسرية حدد الاسلام من سمو المبادىء الأنموذج الأمثل :—

فللأسرة قوامة يتحملها من هو أهل لحملها ، وسداها مودة و رحمة و سكن ، و لحمتها نظافة وطهارة وعلائق إنسانية سامية ، وعلى كل فرد فى الأسرة مسئوليات و تبعات يطالب بها قبل أن يستوفى حقه .

و حول الأسرة وفى داخلها أسوار حماية ، و ضمانات أمن - تحميها الحتوف السود التى تتحيفها من الخارج ، و تمنعها التحطم والانهيار من الداخل ، فيظل البناء بقدر شموخه قوياً .

فالمحبة قدر شائع و سابغ ، و الرحمة قدر وافر و دائم ، و دقائق التفاصيل واجبة الأداء و تراعى :—

فدخول البيت باذن ، و غض البصر واجب ، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، و الأولى لك و الثانية عليك ، كما فى الحديث ، و الاعراض عن اللغو فضيلة ، و إشاعة البهجة مطلوب ، و كل ما من شأنه زعزعة البناء الأسرى بغيض .. و بعد ذلك فسيرة السلامة مأمونة للأسرة المسلمة و المسلم يمارس جنساً نظيفاً عفيفاً ، بين إنسان و إنسانة اقترنا باسم الله ، و ارتبطا بميثاق غليظ على سنة الله و رسوله ، و تحمل المسؤوليات المترتبة عليه ، لأنه اقتران الحقوق والواجبات .. و كل خلل من شأنه تعطيل هذا ، أو تعكير الصفو .. يحسمه الاسلام فوراً وقطعاً

فيمنع الاقتراب من الزنا ، لأنه كان فاحشة و مقتاً و ساء سبيلا ، و المسلم لايزنى وهو مؤمن ، و الموؤدة ستسأل بأى ذنب قتلت ، و المسلمون لا يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، و المسلمات حافظات للشرف و الكرامة ، و حب البنين و الخفدة يلامس شغافهما .

جاء الاسلام فوجد نماذج زواج أو شبه تزاوج لا ترضى ولا ترضى ، دفع إليها القهر أو الظلم أو الحاجة ، ومن ثم كانت تشق ولا تسعد ، وتضر ولا تنفع ، تعدد زوجات ظالم بلا حد ، وتعسف فى استعمال الحق ، طلاق بلا أسباب ، وقهر للمرأة بلا حدود ، و فاحشة شائعة تقوض أركان المجتمع ، و أطفال بلا أسر ، و أنساب مختلة بجهولة .. إلخ .

و كان لا بد من علاج حاسم على يدى خاتم أديان السماء .. ولم يكن الأمر سهلا فى الخيار :—

فالتصدى لبعض المسائل – كتعدد الزوجات بلا حد ولا حصر – بالبتر والحسم – مع شيوعه وعمومه – يعرض المجتمع – بلا شك لاهتزاز البنية كلها دفعة واحدة فيكون علاجاً إثمه أكبر من نفعه .. فكان لا بد من التدرج و الاحاطة بالضمانات التى تهذب و تشذب ، و تصلح وتعدل ، تمهيداً للاذابة دون ردود عكسية ، واختار الاسلام فى هذا الجانب الحل الوسط ، لأن الدين الوسط ، ترتبط فيه الانسانية ارتباطاً كيانياً فى وحدة متناسقة متحدة منسجمة مع الكون كله متآخية غير متنافرة .

و بعض المسائل تقتضى الحسم الفورى ، فلا مناص و لا مهادنة ، لأن فى الابقاء أو المهادنة خطراً على بنيان الأسرة و استمراريتها ، فكان لا بد من الحسم الفورى بالردع المحذر ، لما من شأنه تلويث البيئة ، و تعرض البنيان الأسرى – لعدم المناعة – بالانهيار داخلياً ، أو إمكانية التقويض خارجياً وكان ذلك مؤهلا

للتكيف و تحمل مسئولياته بجدارة ، و كان ذلك سر تفوق إنسان الاسلام بالتالى فى فتراته الذهبية ، التى أسهم فيها باضافات بناءة إلى رصيد الحضارة الانسانى :—

يقول (أوجست كومت) : « إن القرآن ربط الوحدانية بالواقع الاجتماعى ، و حدد الأبعاد عقلياً و عملياً »

و يقول : « اتجهت اجتماعية الانسان المسلم إلى الاستقرار فى جماعة ، فترك له ذلك التفتح على قضاياه الحقيقية فى إيجابية وقابلية .. ومن ثم أصل اجتماعيته جنباً إلى جنب مع روحانيته ، فكان التفوق الاجتماعى الذى أهل المسلم ليكون أكثر صلاحية من غيره ، و أهلية للعالمية »

★ الزواج السعيد :

و قوام الأسرة المسلمة زواج بميثاق شريف يتسامى بالانسانية ، مؤلف من زوج و زوجة ، و ثمرته مزج الأرواح من بنين وحفدة ، و تترتب عليه مسئوليات و حقوق و واجبات .

فهو ليس زواج جسد و متعة ، و مجرد قضاء شهوة عارمة ، يولد صراعاً خفياً ، بعد لحظة عابرة ، ويقظة نادمة ، إثر اصطراع حيوانية الغرائز الجامحة والمتدافعة و الطمع البادى و المستتر ، و تحكم الأنانية ، فلا يكون إلا تمزق الانسان داخلا و خارجياً ، وحيرته بين مثل يتغنى بها مظهرياً ، و يتنكر لها سلوكياً إن صحا لحظ ضميره ، و إلا فتزداد الشهوة ضراماً و سعاراً ، و يندى جبين الانسانية مما يدو فى دنيا الحيوانية .

وللفرد فى الاسلام كيانه واعتباره ، ذكراً كان أو أنثى ، فبعضهم من بعض و النساء شقائق الرجال كما قال محمد بن عبد الله ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم سو فى الاعتبار البشرى ، و العمل الأخروى ..

و المساواة بين الرجل و المرأة أساسها الحقوق و الواجبات و المسئوليات :
النساء لهن : « مثل الذى عليهن بالمعروف ، و للرجال عليهن درجة » .. و كانت
الدرجة فى مقابل زيادة الواجب المفروض ، لتهيئة المجتمع الأمثل فى عدالة التوزيع
مسئوليات ، و ترتب الحقوق و الواجبات ، بمقتضى تكليف قوامه مراعاة الجهد
الطاقة ، و متطلبات المصلحة ، و المناسبة للبيئة و الزمان ،

« فلهن مثل الذى عليهن بالمعروف » لكن الواقعية تتطلب مراعاة التفاوت فى
الخصائص التى كانت مع أصل الخلقة ، و مقتضى الطبيعة ، و ما تترتب عليه آثار
الحقوق و الواجبات .. فلم يكن من العدل عموم المساواة فى كل الاعتبارات مع
هذه التفاوتات ، فكان للرجال عليهن درجة ، و كان من العدل أن يكون : « للذكر
مثل حظ الأنثيين » لأن نفقتها على أبيها وعصبتها ، ثم على زوجها . وليست مكلفة
بالانفاق عليه ، فنصيبها محفوظ ، فالاسلام جاملها فى هذا أكثر من مجاملة الرجل
مراعاة لرقتها ، و هو سينفق على زوجته ، و هى لا تنفق على أحد ، و لعاطفية
الأنثى وانشغالها كانت شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ، فسبحان العادل العليم الذى
شرع وقنن ، لمن خلق .

و من ثم ، فالزواج فى الاسلام - لفضله و شرف معانيه - شريعة ومنهاج
حياة كريمة ، به عمارة الكون ، و تسلسل الخلافة ، و ازدهار الحضارة الانسانية ،
و ذكر للانسان من بعده ، و مودة خالصة ، و رحمة سابغة ، و انسجام متبادل ،
و رعاية للمشاعر و الأحاسيس فى امتنان و تقدير ، و تكثير لسواد الأمة و إعزاز
لشأنها ، و حماية من أضرار الانحراف و الشذوذ و التحلل و الحيوانية الداهمة ،
و بالجملة فهو اقتران إنسان بانسانة .

والمرأة قطب الرحى فى هذا الزواج ، والشريك الضعيف والمطلوب ، والمضحية

بالصبر الأكبر فى هذه الشركة المقدسة، فلا بدع فى أن يوصى الرسول ﷺ الرجال بالرفق بالقوارير، و الحكم بأن إكرامهن من شيمة الكرماء، و إهانتهن من أخلاق اللؤماء، و التغاضى عما لا يرضى - أحياناً - منهن، شأن الحكماء، و الاستمتاع بهن على ما يبدو من طبيعتهن - كعوج - أمر الحكماء.

و قد عبر الاسلام فى زمن قصير عن حلول عملية لما يعتور الحياة والأحياء من مزعجات أو متطلبات أو ما يكدر الصفو وينغص العيش .. مما لم تستطعه أديان أخرى و تشريعات متلاحقة عبر قرون و أجيال:

ففى موضوعنا نجده كرم المرأة و أعلى من شأنها فى جميع أطوار حياتها كانسانة جديرة بالتكريم : فرعايتها طفلة و الفرح بها وليدة خلق حميد، و تأديبها صبية عمل يستوجب الجنة، و كفالتها علو مكانة مع خير أنبياء الله فى الجنة.

و الاسلام دين العلم و تكريم العلماء، و هى أم الأجيال، و خطرها جاهلة و ويل عليها و عليهم، و نحن نعلم أن دنيا الثقافة و ضروبها واسعة، و ثقافة ربة البيت واسعة ولها أهميتها، لحبذا لو تثقفت وفق طبيعتها، و مع كل هذا فالاسلام يفرض عليها طلب العلم، و ستقترن بمن يساويها أو يفوقها منزلة، و من هنا ينتشر نور العلم وازدهار الرقى، ويحكى ابن خلكان فى وفيات الأعيان : أن السيدة نفيسة فى مصر تتلمذ عليها الامام الشافعى رضى الله عنه فى الحديث، و كان لها مجلس علم و أدب، و من أساتذة ابن خلكان : مؤنسة الأيوبية، و شافية التيمية، و زينب البغدادية بنت عبد اللطيف البغدادى.

★ المرأة هنا و هناك :

كرم الاسلام المرأة زوجة، فأعطاها حرية الاختيار، و شرفها بالمهر وأوجب على زوجها التسمى، وأوصاه بالصبر على ما يكره منها، مراعاة لتقلب مزاجها

و طبيعة تكوينها ، و ضرورة مراعاة شعورها و نفسيتها ، و عدم إيذائها ما أمكن السبيل إلى ذلك ؛ و ما كان من درجة الرجل فهى (قوامة) فى مقابل أعباء ، هو مؤهل لها بتكوينه ، لا تعنتا ضدها ، و لا غضاً من شأنها ، و قد فرضت شريعة الواجب لها الرعاية و التقدير فى مقابل ما كلفت به من أعباء .

و قد عرفت الشرائع قبل الاسلام تعدد الزوجات بلا حصر ، فهذبه الاسلام وشرعه للضرورة الملجئة ، و أحاطه بسياج العدل ، و كان الطلاق - أبغض الحلال إلى الله - لما هو أشد منه بغضاً و كراهة ، حين يحدث ما يعكر صفو الحياة ، أو تستحيل العشرة الهانئة ، و لم تجد المساعى الحميدة و لا الزجر الهين فى إصلاح ذات البين ، وقتئذ لا مفر من القسوة المكروهة و البغيضة ، طلاق رجعى على أمل التقارب و استئناف المسيرة السعيدة و إلا ففى الطلاق البائن وضع حد لمصاعب و متاعب قد تتفاقم فلا تبق ولا تذر .. و قد عرفت الشرائع قبلنا الطلاق ، وكان فيه ما فيه من قسوة و إذلال ، ثم منعته فى ظروف سياسية ، و أخيراً أباحته الكنيسة فى روما بموافقة اثنى عشر ألف قسيس ، لأنهم وجدوا الفساد بتحريم الطلاق أكثر من الفساد بوجود الطلاق ، فارتقوا بتشريعاتهم و أصبح ما كان يعاب على ديننا شرعاً و حلا و منفذاً و منقذاً !!

و سبق الاسلام بعدالة نظام الطلاق : رجعياً و بائناً ، و المخالعة ، و جعل العصمة بيد المرأة إن وافق زوجها على شرطها ، وحسب الاسلام تكريماً للمرأة أنه :

— لم يجعلها متاعاً يباع و يشترى و يرهن ، كما عاملها الاغويق و الرومان و الانجليز إلى ١٨٠٥م .

— و لم يجعلها علة الخطيئة ومنبع الشقاء ، كما صورها قدماء المصريين ، و التصور الرهبانى المسيحى فى أوروبا .

— و لم ينه حياتها بوفاة زوجها، أو تعيش منبوذة، كما يعاملها الهنود. وصورها بعضهم بأنها ليست بشراً .

— و لم يجعلها تابعة كالظل لزوجها ، و قد تحرم من الميراث أو الوصية ، كما فى القانون الفرنسى .

— ولم يجبرها على الشقاء فى العمل المرهق قسراً ، حتى تتجرد من أنوثتها كما هو حال المرأة فى روسيا .

— و لم يئدها حية فى التراب ، كما صنع أغزار العرب فى الجاهلية ، ليحرمها حق الحياة خوف الحاجة أو العار .

— و لم يسمح لها بالقاء الحبل على الغارب ، تنطلق فى همجية نحو تحطيم نفسها و أسرتها و الضياع .

— فحضارات العالم القديم حرمتها حرية التصرف فى التعامل فى كل أطوار حياتها، و من كل من يلون أمرها فى هذه الأطوار .

— و ثار – حتى المفكرون – فى وجه من نادى بوجوب إعطائها بعض حقها ، حتى فى العصور الوسيطة .

— و حتى سقراط و أفلاطون ، رأوها فقط للحرث و النسل ، لأنه ليس لها استعداد عقلى لما أهل له الرجل من التصرفات .

و كثير من المفكرين يرون ضرورة عودة المرأة إلى جنتها و مملكتها و بيتها و أطفالها كل الوقت .

و يستشهد هؤلاء على أن بيت المرأة أولى بها ، بما يقوله مفكرو الغرب – وهم من ألفوا شاهدوا آثار الاختلاط ، و التحرر الزائد و الخروج من الجنة – بأن المرأة أولى بها بيتها وأسرتها .. على سبيل المثال يقول الدكتور (الكسس كاريل)

فى كتابه - الانسان ذلك المجهول -:-

«لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاماً ، و لهذا تترك الأمهـات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى ينصرفن لأعمالهن ، أو مطامعهن الاجتماعية ، أو مباذلهن و هوايتهن الادبية و الفنية ، أو ارتياد دور السينما .. و هذا يضيعن أوقاتهن فى الكسل ، إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة و اجتماعاتها التى يتصل الطفل فيها بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة .. لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى و العقلى و العاطفى طبقاً للقوالب الموجودة فى محيطه ، إذ أنه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين هم فى مثل سنه»

★ و يقول (كاريل) عن تشبه النساء بالرجال :

« يجب أن نعيد إنشاء الانسان فى تمام شخصيته ، هذا الانسان الذى أضعفته الحياة العصرية و مقاييسها الموضوعية .. كما يجب أن يحدد الانسان مرة أخرى ، فيكون كل فرد إما ذكراً أو أنثى ، فلا يتقمص صفات الجنس الآخر العقلية ، وميوله الجنسية ، و طموحه الذاتى »

★ و يتحدث (كاريل) عن الاختلافات بين الرجل و المرأة ، فيقول :

« إن الاختلافات بين الرجل و المرأة ليست فى الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، و فى وجود الرحم و الحمل ، بل هى ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك : إن الاختلافات بينهما تنشأ عن تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ، و قد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، و أن يمنحا سلطات واحدة ، و مسئوليات متشابهة ، و الحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر صحيح بالنسبة لأعضائها و لجهازها العصبى »

(()(()(()(()(()(())(())(())(())(())(())

توجيهـــات السنـــة النبوية

★★★★ فى مجال التشريع الحربى ★★★★

— ٢ —

معالى الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى
مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
[—(الرياض)—]

★ التوجيهات الأخلاقية للسنة فى التشريع الحربى :

ينظر إلى الفترة المدنية على أنها الفترة التى ازدهر فيها الجانب التشريعى .. . و هذه الفترة تبدأ من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، و تستمر عشر سنوات ، حتى لقى الرسول ﷺ ربه فى السنة العاشرة للهجرة .

و خلال هذه الفترة الوجيزة - فى عمر التاريخ - كانت للرسول غزوات ، و بعوث و سرايا ، بلغت نحو سبعين غزوة و سرية و بعثاً .

و نحن نرى أن هذه الغزوات و السرايا و البعوث - كانت فرصة كبيرة انظهر لنا عظمة توجيهات السنة الأخلاقية فى الحروب ، و عظمة أخلاق الرسول - أيضاً إذ أن الشدائد و التحديات و ما تستوجبه من إعداد لمواجهتها ، و صبر على تبـاتهما ، إنما تكون ميزاناً أكثر دقة فى الحكم على أخلاق العظماء ، و على عظمة الأخـــلاق .

و قد استوعبت هذه العمليات - بسائر مستوياتها - الفترة الزمنية للعهد المدنى كلها -كما ذكرنا- فلم تكن تخلو سنة من السنوات من غزوات أو سرايا أوبعوث .

— فى السنة الأولى للهجرة - مثلا خرجت سرايا حمزة إلى العيص ، و عبيدة ابن الحارث إلى رابغ ، وسعد ابن أبى وقاص إلى الخزار قرب الجحفة ..

— و فى السنة الثانية - خرجت سرايا عبد الله بن جحش إلى نخلة ، و عمير الخطمى ، و سالم بن عمير لقتل الأفراد شديدى العداء من اليهود - كما كانت السنه نفسها غزوات البواط و العشيرة و ودان و بدر الكبرى و بنى قينقاع و السويق .

— و فى السنة الثالثة كانت غزوات غطفان ، ونجران ، و أحد ، وحمراء الأسد و بعض السرايا .

— و فى السنة الرابعة : كانت غزوات بنى النضير و ذات الرقاع ، وبدر الآخرة و سرايا أبى سلمة و الرجيع و المنذر إلى بئر معونة .

— و فى السنة الخامسة : كانت غزوة الخندق التى حوصر فيها المسلمون حصاراً شديداً ، و كانت سرايا محمد بن مسلمة إلى بنى بكر و ذى القصة ، و عكاشة ابن محسن إلى بنى أسد ، وزيد إلى العيص و بنى ثعلبة و جذام وبنى فزارة ، و دومة الجندل .. و غيرها .. .

— وفى السنة السادسة: كانت غزوة الحديبية وبيعة الرضوان .. وبعض السرايا .

— و فى السنة السابعة : كانت غزوة خيبر و سرايا عمر إلى هوازن، وأبى بكر إلى بنى فزارة و بشير بن سعد إلى بنى مرة ، وغيرها .

— و فى السنة الثامنة : كان فتح مكة و حنين و كانت سرايا غالب إلى بنى الملوح و فدك ، و كعب إلى ذات أطلاح ، و مؤتة ، و عمرو إلى ذات السلاسل .. وغيرها .

— و فى السنة التاسعة : كانت غزوة تبوك و بعض السرايا .. . .

— و فى السنة العاشرة : كان عدد من السرايا و البعوث إلى نجران و اليمن ..

و مع هذه الحركة الجهادية الموصولة الحلقات كانت توجيهات الرسول

الانسانية العالية تفرض نفسها فى كل موقف من المواقف، وكل سلوك من السلوكيات.

إنه النبى و الرسول و الانسان العظيم الذى يترجم بأفعاله و أقواله ، هذه الحقيقة فى كل موقف .. .

إن المسلم فى مجتمع المدينة - و فى مجتمعاتنا المعاصرة - ليستطيع أن يتلمس إنسانيته العالية فى الحرب ،كما يتلمسها فى المسلم ..

فلم تكن الفترات الجهادية حلقات انقطاع فى سلسلة غرسه للجوانب الأخلاقية. بل كانت حلقات تتألق فيها صور الانسانية النبوية الكريمة بما يتفق مع كثافة التحديات وقسوة الظروف .. فهو - هو - النبى الانسان العظيم فى كل ذلك ، وهى نفسها توجيهاته الأخلاقية و تعاليمه الشريفة السامية .

★★★★

و منذ الهجرة ، و ما اكتنفها من مشكلات و تحديات ، و نحن نجد صوراً للتوجيهات الأخلاقية تتوالى على الطريق ، مع وقع أقدامه ، فى الطريق من مكة إلى المدينة ..

فلقد كانت هجرته محكمة بارعة كأقوى ما تكون براعة قائد محنك يعلم البشرية كيف تلتحم سنن الله الكونية بالاعتماد على الله ، دون أن يكون ثمة تواكلية (صوفية) أو جحود (عقلى) للدد الالهى الكريم .. فالنبى الرسول محمد لم يتجاهل سنن الله التى توجب الأخذ بالأسباب فى كل موقف من المواقف .. و هكذا يكون التصرف الانسانى الاسلامى الرشيد .. ولقد قامت الخطة على أساس عدد من الرجال والنساء يقوم كل منهم بدور واضح محدد ، فأبوبكر الصديق كان عليه إعداد الزاد و الراحلة و الصحبة ، و على بن أبى طالب كان عليه التعمية على المشركين بالمبيت فى فراش

رسول الله ، ثم أداء الأمانات إلى أهلها ، لأن إنسانية محمد تأبى تحت أى ظرف من الظروف الضاغطة ، أن يترك ثغرة فى بناء إنسانيته الأخلاقية المثالية !!

و كان عبد الله بن أبى بكر مكلفاً بمتابعة حركات قريش و أخبارها و كان عامر بن فهيرة مكلفاً باحضار الأغنام إلى الغار ليشرب منها الرسول و أبو بكر ، لتقوم الأغنـام بالتعفية على آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر ، و على أقدام أسماء بنت أبى بكر (ذات النطاقين) التى كانت تحمل لهما الطعام و الماء .

و كان عبد الله بن أريقط هو الدليل فى الرحلة ..

فكل هذه الصور من التخطيط للحذر الذكى اعتمد عليه الرسول .. . و مع ذلك كان دائم اللجوء إلى الله ، يطلب منه الحماية فى كل لحظة من اللحظات ، قد تجلت هداية الله له فى أكثر من موقف ، فى خيمة أم معبد ، و مع سراقة بن جعشم وفى الغار ، فأغشى الله أبصارهم و أنزل سكينته على رسوله عليه السلام على صاحبه رضى الله عنه .

★★★

و فى كل معركة من المعارك ، وفى كل سرية من السرايا ، كان الرسول يعلم صحابه المبادىء الأساسية التى تقوم عليها الحرب الاسلامية .. . إنهـا حرب على باطل لافساح المجال أمام الحق .. . وبالتالى لابد أن يقدم المسلمون النموذج المثالى حق .. . لا بد أن يحافظوا على الأطفال و الشيوخ و الرهبان ، و أن لا يمثلوا يحرقوا أو يبيدوا أو يدمروا .. .

و هذه التعليمات الواضحة كانت الدستور الذى تقوم عليه الحرب الاسلامية ، ب المبادىء لا حرب المطامع .. .

و بالاضافة إلى هذه التعليمات ، بل وفوقها ، كانت للرسول سلوكيات بقيت النموذج الأعلى للسلوك الانسانى (فى الحرب) إلى يوم الناس هذا ، و إلى أن يرث الله الأرض و من عليها !!

ففى غزوة بدر تجلت كثير من المواقف المثالية للرسول ﷺ .

فعند ما خرج الرسول على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه المدينة و معه المسلمون لا يريدون إلا العير .. . قد خرجوا على النواضح يعتقب الثلاثة منهم على البعير الواحد .. . فكان رسول الله مثلهم ، لا يفضل نفسه عليهم فى هذا الأمر ، و كان زميلاه على بعيره على بن أبى طالب ، و مرثد بن أبى مرثد الغنوى (١).

و لما وصل المسلمون إلى عرق الظبية لقيهم راكب من تهامة ، فوافقه نفر من أصحاب الرسول ﷺ ، فسألوه عن أبى سفيان ، فقال: لا علم لى به فلما يئسوا من خبره قالوا له : سلم على النبى ﷺ ، فقال :

— و فيكم رسول الله ؟

— قالوا نعم ، قال : أيكم هو ؟ فأشاروا إليه ، فقال الأعرابى :

— أنت رسول الله كما تقول ؟ قال نعم .

— قال : إن كنت رسول الله كما تزعم فحدثنى بما فى بطن ناقتى هذه .. . ..

فغضب رجل من الأنصار من بنى الأشهل يقال له سلامة بن وقش ، فقال للاعرابى : وقعت على ناقتك ، فحملت منك ، فكره رسول الله ﷺ ما قاله سلامة حين أفحش ، فأعرض عنه (٢) .

فهذا موقف لا يصدر إلا عن رسول الله ﷺ .. . ذلك لأن هذا الرجل

---

(١) مغازى رسول الله لعروة بن الزبير ١٣٥ نشر الرياض بتحقيق الأعظمى .

(٢) المصدر السابق : المكان نفسه .

التهامى .. . رفض أن يفيد المسلمين شيئاً عن عدوهم أبى سفيان ، و لو سلك هذا الرجل المسلك مع أى قائد آخر لأباح لنفسه استعمال كل الوسائل فى سبيل استخلاص المعلومات منه .. و لعل أعراف الحروب الحديثة و تقاليدها تبيح مثل هذا السلوك .

و لم يقف أمر التسامح مع هذا الرجل عند هذا الحد .. بل إنه عند ما أمر أن يسلم على رسول الله .. . لم يفعل .. بل ذهب يتطاول على رسول الله ، فيسأل سؤاله البذىء عن الذى فى بطن ناقته .. و البعد الثالث من أبعاد هذا الموقف أن ينكر الرسول على الصحابى سلامة بن رقش مواجهة الرجل بكلام فاحش فى مواجهة تطاوله البذىء .

فهكذا كان سلوكه عليه الصلاة و السلام فى حربه كما فى سلمه .. . . سلوكا نموذجياً رفيقاً يضرب المثل الأعلى فى علاقة الانسان بالانسان !!

وفى بدر - كذلك ـ تجلى تقدير الرسول لمبدأ الشورى .. فى كل خطوة من خطوات المعركة .

— فنى كل موقف كان يقول لصحابته :

أشيروا على أيها الناس .

قالها للمهاجرين ، و قالها للأوس ، و قالها للخزرج ، و قالها حين غابت عنه أخبار قريش فأفاده أبو بكر بمكانهم من الأرض ، و قالها حين استقر منزل الجيش دون البئر .. فأشار الحباب بن المنذر بالسير حتى يسبقوا الماء فيستولوا عليها ، فوافقه الرسول ، و سار الجيش حتى ملك الماء (١) .

و كما كان موقف الرسول مع الرجل التهامى حين اعترض على الاخاش له ـ

---

(١) المصدر السابق : ١٣٦ .

كذلك كان موقفه حين اعترض على ضرب العبدين اللذين أسرهما المسلمون، واستطاع ﷺ بذكائه و حلمه أن يعرف منهما عدد جيش قريش حين لجأ إلى سؤالهما عن العدد الذى ينحرونه من الابل كل يوم ، و لمـــا عرف أنه بين التسعة و العشرة قال لأصحـــابه :

— القوم بين التسعمائة و الألف (۱) .

و عند ما احتدمت معركة (بدر) لم ينس الرسول ﷺ ، مع أنه و جيشه قلة لا تزيد عن الثلث بالنسبة لقريش ... لم ينس واجب الوفاء حتى لألد أعـدائه الذين جاؤا مع هذا الجيش يقاتلونه .. فقد أوصى جيشه بأن لا يقتل (أبا البختری ابن هشام) و يكتفى بأسره ، ذلك تقديراً لموقفه الكريم فى نقض صحيفة المقاطعة التى كانت قريش قد أبرمتها ضد المسلمين .. . و قد بذل (أبو داؤد المزنی) كل توسلاته لأبى البختری ، و أخبره أن الرسول نهى عن قتله لـكنه رفض و شد عليه بالسيف .. فاضطر أبو داؤد إلى طعنه بالسيف ، و أجهز عليه (۲) .

و لما انتهت المعركة بنصر الله المؤزر للسلمين ، و بعد أن تضرع الرسول ما تضرع إلى الله يستنجزه وعده ، و ضرب الرسول المسلمين أسهمهم — لم يفته ﷺ أن يضرب بسهام لمن لم يشهد بدراً لعذر قاهر حال بينهم و بين حضورها ـ وكان من هؤلاء عثمان بن عفان رضى الله عنه لتخلفه بالمدينة لمرض زوجته رقيـة بنت رسول الله ﷺ .

و من هؤلاء طلحة بن عبيد الله ، لغيبته فى الشام ، و سعيد بن زيد وعمرو ابن نفيل .. لقدومه من الشام بعد المعركة .. و أبو لبابة الذى خلفـه الرسول على المدينة بعده .. و الحارث بن حاطب ، و عاصم بن عدى، لأن الرسول هو الذى

---

(۱) المصدر السابق : ۱۳۸ .
(۲) المصدر السابق : ۱٤۲ .

ردهما إلى المدينة لحاجة رآها .. و الحارث بن الصمة لأنه كسر بالروحاء فضرب له النبى بسهم .

و قد كان هذا السلوك من رسول الله ، آية فى الوفاء ، و تقدير الظروف و إرضاء النفوس ، حتى لا يجتمع على الذى حالت الظروف بينه و بين المعركة ، قسوة ظروفه الخاصة ، و حرمانه الاجتماعى و المادى ، و نظرة جماعة المسلمين إليه .. . .. مع أنه لم يكن له يد فيما فاته من خير الدنيا و الآخرة فى هذه الغزوة العظيمـــة .. . ..

★★★

وفى غزوة (الخندق) كان القائد الرسول ﷺ يعمل مع الناس ، و لم يكن يقف مراقباً أو مو- حسب ، بل كان يحفر معهم و يجوع معهم ، و يلجئون إليه فى ضرو

عن سلمان الفارسى أنه قال : ضربت فى ناحية
الله ﷺ قريب منى ، فلما رآنى أضرب
يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت
فلمعت تحته برقة أخرى ، قال :
بأبى أنت وأمى يا رسول

قال : أما الأولى
المغرب ،

عنه أخبار قريش
الجيش دون البئر .. فأشار
فوافقه الرسول ، و سار الجيش حتى
و كما كان موقف الرسول مع الرجل التهامى

(١) المصدر السابق : ١٣٦ .

و أما فى (خيبر) فقد أوردت أمهات كتب السيرة قصة لم يقف عندها كثير من المؤرخين .. إنها قصة (الأسود الراعى) ، أو بتعبير آخر قصة العبد الأسود الذى رزقه الله الايمان و الشهادة فى ساعة واحدة .. .

فقد جاء عبد أسود من أهل خيبر كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم ، قال : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فوقع فى نفسه ذكر النبى فأقبل بغنمه حتى عند الرسول الله ﷺ ، فقال : إلى ما تدعو ؟ قال : أدعوك إلى الاسلام ، إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله ، وأن لا تعبدوا إلا الله ، قال فقال العبد : فماذا يكون لى إن شهدت بذلك و آمنت بالله ، قال رسول الله ﷺ: الجنة ، إن مت على ذلك ، فأسلم العبد ، فقال يا نبى الله إن هذه الغنم عندى أمانة ، فقال رسول الله ﷺ : أخرجها من عسكرنا ، وارمها بالحصا فان الله سيؤدى عنك أمانتك ، ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعرف اليهودى أن غلامه قد أسلم فقام رسول الله ﷺ فوعظ الناس ، فذكر الحديث فى إعطائه الراية علياً ، ودنوه من حصن اليهود وقتله مرحباً، وقتل مع على ذلك العبد الأسود فاحتمله المسلمون إلى عسكرهم ، فأدخل فى الفسطاط ، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع فى الفسطاط ثم اطلع على أصحابه ، فقال : لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر ، قد كان الاسلام فى قلبه حقاً ، وقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين (١) » .. !!

فالرسول عليه الصلاة والسلام - حتى وهو يحارب خيبر - رفض أن يستولى على أغنامها من هذا العبد المؤتمن عليها، ولقنه أول درس من دروس الاسلام التى

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/ ٣٤٤ ، عروة بن الزبير : مغازى رسول الله ﷺ ٢٠٠ .

لقنها - بعد الشهادتين - و هو درس تقدير الأمانة قدرها ، فى أحلك الظروف ، تماماً مثلما فعل الرسول ﷺ فى حادث الهجرة .. . ..

و إننا لنستطيع - من كل غزواته عليه الصلاة و السلام - تلمس جوانب (أخلاقية تشريعية) تعطى القيم مكانتها فى الحرب ، و تجعل من الحرب - إذا وقعت - حالة طارئة ، محكومة بضوابط أخلاقية وتوجيهات تشريعية وليست صراعاً بين وحوش كاسرة فى غابة من الغابات .

و يضاف إلى ما استلهمنا من غزوات الرسول عليه الصلاة و السلام نفسه ، بعض القيم الأخرى التى بثها الرسول فى أصحابه و وجههم إليها ، لتكون دستورهم فى الحروب .. .

و روى كثير من العلماء أن الأصل فى مشروعية القتال ، هو رد العدوان ، وإزالة العقبات أمام الدعوة، وليس الكفر فى حد ذاته هو الأصل فى المشروعية ، و إلا وجب قتال الكفار حتى و لو أدوا الجزية .

كما يرى البعض أن اختلاف العقيدة لا يكون سبباً فى القتال مستدلا بقوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى (١) »

و يقول الامام ابن تيمية :

« إنا لا نكره أحداً على الاسلام ، ولو كان الكافر يقتل حتى يسلم لكان هذا أعظم الاكراه فى الدين »

— و ليس الأمر رفض الاكراه فى الدين فحسب ، بل ورد فى القرآن وجوب تبليغ المشركين مأمنهم إن استجاروا بنا .. .

أما إذا وقع القتال فلا يجوز أن يتعدى المقاتلين إلى غيرهم من الشيوخ والنساء و الأطفال ، و المنقطعين للعبادة الذين لا يشاركون قومهم فى القتال .. .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

— يقول الرسول ﷺ للمقاتلين : أغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، و لاتغدروا ، و لا تغلوا ، و لا تقاتلوا وليداً ، و لا امرأة ، و لا كبيراً فانياً و لا منعزلا بصومعته ، و لا تحرقوا نخلا ، و لا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءاً .. .

بل إن الرسول ﷺ ليذهب فى توجيهاته النبوية الحربية ، إلى ما هو أبعد من هذا الذى تضمنته وصيته السابقة ، فكان يوصى بمحاولة تجنب القتال ، و يأمر أصحابه قبل القتال بقوله : « لا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل و قولوا لهم ، و هل إلى خير من هذا السبيل ؟ فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس و غربت »

و بعـــد :

فان هذه التوجيهات النبوية فى مجال التشريع الحربى مما استلهمناه من غزواته ﷺ ، و مما أوصى به الرسول و أصحابه .. .

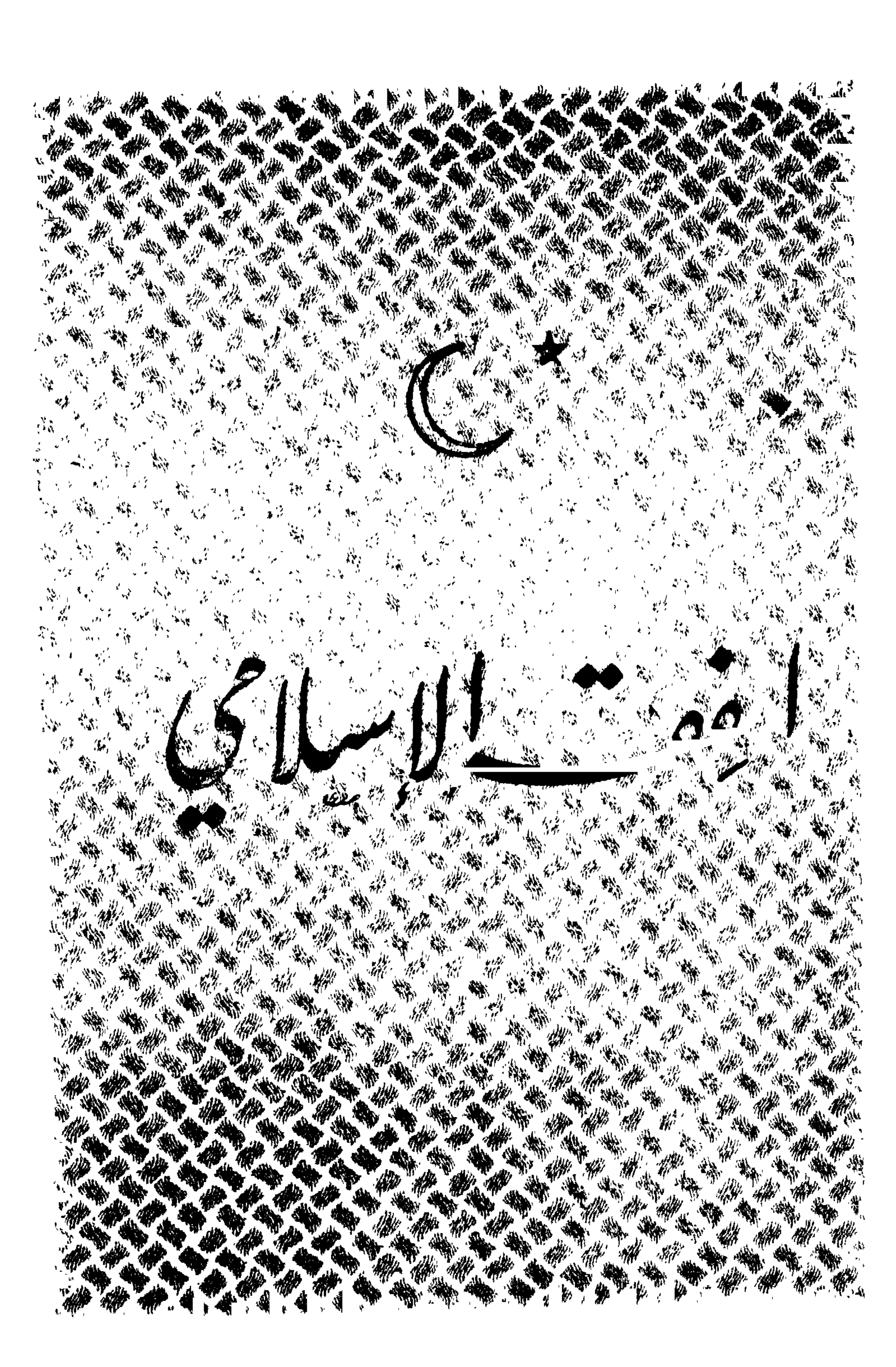
إن هذه التوجيهات لتعد دستوراً أخلاقياً تشريعياً غرس بذوره وثبت قواعده هذا الرسول العظيم الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

« و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ..

— و أعظم ما فى محمد ﷺ وفى سنته المأثورة عنه أنه كان رحمة فى سلمه و فى حربه حقاً .. .

و هذا ما لم تستطيع البشرية أن تسمو إليه فى كثير من أحقابها ، ولا سيما فى عصرنا الحديث ، عصر الحروب الشاملة والأسلحة النووية التى توشك أن تقوض دعائم البناء الانسانى كله .

و صلى الله على محمد و آله و أصحابه و سلم .


الفقه الإسلامي

الفوائد المصرفية و ربويتها و حكم الانتفاع بها

— ١ —

فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى
أستاذ التفسير والحديث وأمين مجلس الدراسات الشرعية
بدار العلوم لندوة العلماء - لكناؤ (الهند)

تعريب : محمد اكرم الندوى

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على رسوله الأمين محمد و آله و أصحابه أجمعين وبعد .

فان النظم الاقتصادية التى فرضت - من سوء حظنا نحن المسلمين - منذ فترة طويلة على العالم - بما فيه البلاد الاسلامية - تقوم على الربا و البيوع الفاسدة و العقود المحرمة الأخرى ، وكذلك أصبح استخدام المصارف و إيداع الأموال فيها ضرورة لازمة لأجل المصلحة التجارية و غيرها من المصالح ، و من المعلوم أن المصارف بصفة عامة تعتمد على التعامل الربوى بل ويحتل الربا فيها مكانه رئيسية (١) و يستغنى عن الذكر مدى كراهية الاسلام للربا و تذمره منه ، و لكن لا يخلو من الفائدة إذا أشرنا هنا إلى بعض النصوص التى وردت فى ذم الربا و التنديد به .

الربا فى القرآن :

قال الله تعالى : « الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (٢) .

---

(١) إن الذين يشكون فى ربوية الفوائد المصرفية قد ذكرنا لهم فى الصفحات التالية بعض الكتب التى لايشك أحد بعد دراستها فى ربوية هذه الفوائد .

(٢) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .

و قال تعالى فى آية أخرى فى أسلوب الزجر و التوبيخ : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، و ذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله » (١) .

على أن الله تعالى أوعد أكلة الربا بالنار التى أعدت للكفرة حيث قال : « و اتقوا النار التى أعدت للكافرين » (٢) ، يقول الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله : « إن هذه الآية هى أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه » (٣) .

و كتب العلامة محمود الآلوسى رحمه الله فى تفسير هذه الآية : « و فيه إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفرة » (٤) .

الربا فى السنة :

و أما الأحاديث التى وردت عن النبى ﷺ فى التنديد بالمرابين و التشنيع عليهم و تشديد الوعيد لهم فتقشعر منها جلود الذين آمنوا ، قال ﷺ : « درهم يأكله الرجل و هو يعلم أشد من ستة و ثلاثين زنية ، و زاد فى بعض الروايات : « من نبت لحمه من السحت فالنار أولى به » (٥) .

و لعله لا حاجة هنا إلى ذكر أن الشرع لم يرد بتحريم أخذ الربا فحسب بل حرم مساهمة نوع ما فى التعامل الربوى ، فقد أخرج مسلم فى صحيحه : « لعن

(١) الآية ٢٧٨ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٣١ من سورة آل عمران

(٣) مدارك التنزيل للنسفى تحت تفسير هذه الآية .

(٤) روح المعانى فى تفسير هذه الآية .

(٥) أحمد والدار قطنى والبيهقى نقلا عن «المشكاة» باب الربا ٢٣٦ (الطبعة الهندية) .

رسول الله ﷺ آكل الربا و موكله و كاتبه وشاهديه وقال هم سواء » (١).

إن هــذه الآيات و الأحاديث تحتم على كل من يؤمن بالله و رسوله أن يتجنب الربا ما أمكنه ، ويفر منه فراره من الأسد أو أى حيوان مفترس وسبع مخيف ، و لكنَ مع ذلك فقــد أنبأ النبى ﷺ بأنه : « ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا فان لم يأكله أصابه من بخاره » (٢) .

و لعل هذا النبأ قد تحقق فى عصرنا هـذا ، فانه ما من رجل - مهما حاول أن يتجنب الربا - إلا و يصيبــه من بخاره ، وهــذه الهيمنة للربا نشأت من أجل أن أصبح النظام المصرفى ضرورة لازمة ، فهل يباح التعامل المصرفى فى هذا الوضع استنادا إلى الاصل الشرعى المعروف « الضرورات تبيح المحظورات » (٣) أو نتجنبه عملا بالآيات و الأحاديث ؟ هذا سؤال يتحتم على علماء العصر أن يجيبوا عنه ، وقد قمت بمحاولة متواضعة فى الصفحات القادمة للاجابة على هذا السؤال وتفسير موقف الشريعة الاسلامية من التعامل المصرفى ، و الله الموفق للسداد .

النظام المصرفى يقوم على الربا:

الواقع المعلوم - كما قدمنا - أن النظام المصرفى الذى غزا العالم كله اليوم يقوم على الربا (٤) ما عدا المصارف الاسلامية التى أسست منذ سنوات فى بعض البلاد

(١) الصحيح للامام مسلم بن الحجاج ، ج ٢ (كتاب الربا) ص ٧٢ (الطبعة الهندية) .

(٢) أحمد و أبو داؤد و النسائى و ابن ماجــة نقلا عن « المشكاة » ٢٤٥ (الطبعة الهنـدية) .

(٣) سيأتى تفصيل هذا فى الصفحات القادمة مع الاحالة على المصدر .

(٤) يقول بعض الناس : « إن النظام المصرفى لا يقوم على الربا بل على الربح التجارى ، و لكن جرت فى النصف الأخير من هذا القرن مناقشات حول هذا الموضوع لا يراد عليها ، و أثبت عدد كبير من العلماء بالدلائل أن النظام المصرفى إنما يقوم على الربا لا على الربح التجارى حتى أجمع الآن على هذا الرأى المنصفون من العلماء فى العالم كله .

الاسلامية ، و مقرها الرئيسى هو « البنك الاسلامى للتنمية » فى جدة .

المصرف ضرورة اقتصـــادية :

فما هو حكم الشرع فى الضرورات ؟

أصبح المصرف اليوم ضرورة لأزمة للاقتصاد السائد فى المدنية المعاصرة ، ومن المعلوم بداهة أن التعامل مع المصرف ليس ضروريا للتجارات و العقود فحسب ، بل لا يمكن استيفاء أجور الطائرات و دفعها فى الرحلات الخارجية حتى لفريضة الحج إلا عن طريق المصارف ، فتتوقف اليوم إقامة بعض الفرائض أيضاً على التعامل مع المصارف ، يبـــدو من ذلك أن تحريم التعامل مع المصارف (بعلة أنه تعاون على الاثم) يكون سببـا لتعطيل التجارات و العقود بل و إلغاء الفرائض الدينية ، و معلوم أنه لا يأمر بهذا الشرع الذى ورد فى ميزاته أنه « يسر » و « سمح » وسهل (١) والذى يقوم على القاعدة المعروفة « الحرج مدفوع » و « المشقة تجلب التيسير » ، و هـذه القاعدة مستنبطة من الكتاب و السنة قال الله تعالى « ماجعل عليكم فى الدين من حرج» (٢) و قال : « يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر » (٣) و قال النبى ﷺ : « إن الدين يسر » (٤) وقال ﷺ : « بعثت بالحنيفية السمحة » (٥) .

و قد سرد العلامة الكبير جلال الدين السيوطى أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع فى « القاعدة الثالثة » من كتابه « الأشباه و النظائر » .

---

(١) هذه كلمات وردت فى الحديث النبوى صفة للاسلام .

(٢) الآية ٦ من سورة المـائدة .

(٣) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٤) صحيح البخارى ج ١ ص ١٠ من « كتاب الايمان » (الطبعة الهندية) .

(٥) الترمذى نقلا عن « المناوى » .

ما هى الضرورة و المشقة :

و طبعاينشأ هنا سؤال ، و هو أنه أى قدر من المشقة يجلب التيسير ، هل يدخل فى هذا أدنى ضرر مالى او بدنى يصيب الانسان ! لو أريد هذا الاطلاق لم يبق حكم شرعى يجب العمل به ، لأنه ما من حكم من أحكام الشرع يخلو من هذا القدر من المشقة ، الواقع أن سائر الأحكام الشرعية تحمل نوعا ما من المشقة و الحرج (و مما تلطف الاشارة إليه أن افتراض الأحكام الشرعية على العباد يعبر عنه « بالتكليف ») ولا احتمال هنا لهذا المعنى أن أدنى حرج فى حكم من أحكام الشرع يرفعه ، فان النظام الدينى الذى أرسل به الأنبياء يلغو ويتعطل بأسره بارادة هذا المعنى ، و تفقد « الشريعة » و « الأحكام الشرعية » و غيرها من الكلمات معناها ، فمست الحاجة إلى أن نتعرف على مدى الحرج الذى يجلب التيسير فى أحكام الشرع ، إننا لا نحسن أن نقوم هنا بعملية الاجتهاد و استعراض جميع النصوص المتعلقة بهذا البحث للحكم فيه ، بل نستدل بأقوال العلماء الذين أفنوا أعمارهم فى الدراسة و إعمال النظر و الفكر فى أحكام الشرع ، و وصلوا فى سعة العلم ودقة النظر ونفاذ البصيرة إلى قمة لانقدرها نحن الآن بقيمتها .

قسم السيوطى و ابن النجيم المشقة إلى نوعين :

١– مشقة لا تنفك عنها العبادة غالبا ٢– مشقة تنفك عنها العبادات غالبا ، أما النوع الأول فلا أثر له فى إسقاط الحكم ، أى أنه لا يكون سببا لتخفيف فى الحكم ، و أما النوع الثانى فعلى مراتب ١– مشقة عظيمة فادحة كمشقة الخوف على النفوس و الأطراف و منافع الأعضاء ، فهى موجبة للتخفيف ٢– مشقة خفيفة كأدنى وجع فى أصبع ، فهذا لا أثر له و لا التفات إليه ، ٣– مشقة متوسطة بين هاتين ، ألحقت بالتى كانت أقرب إليها منهما (١) .

---

(١) ملخصا من « الأشباه والنظائر » للسيوطى ص ٨٩ ولابن النجيم ص ١١٨-١١٩، هذان الكتابان يتحدان فى الاسم و الموضوع ويتشابهان فى الترتيب .

، وعدا فى موضع آخر «العسر» من أسباب الترخيص و التخفيف فى الأحكام ، و أوردا له أمثلة كثيرة .

الضرورات التى تبيح المحظورات :

و هناك قاعدة معروفة عدا هذه القواعد أشرنا إليها فى بداية مقالنا ، و هى : « الضرورات تبيح المحظورات » تدل عليها الآيات التالية من القرآن الكريم ، قال تعالى : « حرمت عليكم الميتـــة .. .. .. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا أثم عليه » (١) و قال تعالى: «فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم» (٢) و قال : « و قد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » (٣) .

وينشأ هنا كذلك السؤال السابق ، «هل الضرورة» كل حاجة تعترض الانسان أم هى حاجة خاصة يندر وجودها ؟ » إن أردنا الاحتمال الأول حل كل حرام وأبيح كل محظور ، ولا شك أن عاقلا لا يستسيغ هذا ولا يقبله ، فما هى « الضرورة » إذاً ! إننا لا نجيب عن هذا السؤال بأنفسنا ، بل نقدم أقوال الفقهاء .

يقول الفقيه الشامى الشهير العلامة أحمد الحموى - نقلا عن المحقق ابن الهمام - : « ههنا خمسة مراتب : ضرورة ١- و حاجة ٢- ، و منفعة ٣- ، و زينة ٤- ، و فضول ٥- » ثم يذكر تعريف كل واحد من هذه الخمسة وحكمه الاجمالى ، يقول : « فالضرورة » بلوغه حدا إن لم يتناول الحرام هلك أو قارب ، وهذا يبيح تناول الحرام ، و « الحاجة » كالجائع الذى لو لم يجد ما يأكله لم يهلك ، غير أنه يكون فى جهد ومشقة ، و هذا لا يبيح الحرام ، ويبيح الفطر فى الصوم ، و« المنفعة » كالذى

---

(١) الآية ١٨٣ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١١٩ من الأنعـــام .

يشتهى خبز البر ولحم الغنم و الطعام الدسم ، و «الزينة» كالمشتهى بحلوى والسكر ، و «الفضول» ، التوسع بأكل الحرام و المشتبه (١) » .

و ذكر السيوطى نحو هذا الكلام فى كتابه الأشباه مبتـدئاً بقوله : « قال بعضهم » (٢) .

و بعد أن استعرضنا هذه النصوص و الأصول و نظرنا فيها تيسرلنا أن نقطع بحكم شرعى عن قضية التعامل مع المصارف فى ضوئها .

الضرورة تقدر بقدرها :

قبل أن ندخل فى صلب الموضوع و نقدم الحل الناجع لهذه القضية - فى ضوء القواعد و الأصول الآنفة الذكر - ، يجـدربنا أن نذكر قاعدة أساسية ، و هى « الضرورة تقدر بقدرها » نفيد منهـا فى المباحث الآتية ، و هذه القاعدة مستنبطة من عدة آى القرآن الكريم (فمثلا قوله تعالى : « غير متجانف لاثم » وقوله : « غير باغ و لاعاد ») و كذلك تقتضى حرمة حكم الشرع و عظمته أن تقـدر الاباحة العارضة بقدر الضرورة - إذا اضطر الانسان إلى أن يتجاوز الحكم الأصلى - لا كالمباحات الأصلية التى يتمتع بهـا الانسان متى شاء و كيف شاء ، و إلا فقد الحكم عظمته و حرمته ، و تعطل الشرع ولغا .

هل التعامل مع المصارف ضرورة كل إنسان :

حينما نستعرض وضعنا الراهن نجد أن التعامل المصرفى ليس ضرورة كل إنسان فان الأغلبية الساحقة فى العالم ليست تجارتهم متسعة منتشرة فى البلاد ، ولايسافرون خارج بلادهم ، و لا يملكون أموالا طائلة و لا ثروات هائلة يضطرون معها إلى التعامل مع المصارف والاحتفاظ فيها ، وكذلك التجار الذين لا يلزمهم شرعا (قانونا)

(١) تعليق الحموى على الأشباه لابن النجيم ص ١٢٢ ، .
(٢) الأشبـاه للسيوطى ٩٤ .

التعامل مع المصرف أو ايداع الأموال فيه ، فهؤلاء كلهم لا يجوز لهم الاستقراض من المصارف و إيداع النقود فيها ، أى أن الشرع لا يبيح اجراء الحسابات فيها ، فان معناه التعاون معها (و لا يغيبن عن البال أنا لم نعن بالمصرف إلا المصرف الربوى ، لا المصرف الاسلامى) لأن تعاملهم مع المصارف لايتأتى تحت « الضرورة » و لا « الحاجة » و لا حرج لهم يواجهونه إذا لم يتعاملوا معها ، بل يدخل هذا فى نطاق « المنفعة » أو « الزينة » بل فى نطاق « الفضول » ، و هو تعاون على الاثم و ارتكاب جريمة أخذ الربا من غير ضرورة .

و أما الذين يضطرون إلى التعامل مع المصارف شرعا (قانونا) لأجل تجاراتهم الخارجية أو رحلاتهم الخارجية أو الحفاظ على المال ، فهل يجوز لهؤلاء استخدام المصارف أم لا ! هذا سؤال يجب على العلماء أن يبحثوا عن حل ناجع له ، للذين يغلب عليهم روح العمل بالدين ومقتضياته ، وقبل أن نجيب على السؤال يجدربنا أن نعرف هل يواجه الانسان فى هذه الحالة صعوبة ومشقة يعبر عنها « بالضرورة » أو « الحاجة » .

التعامل مع المصارف للتجارة الخارجية :

يبدو من التعريف المذكور للضرورة « إن لم يتناول الحرام هلك أوقارب » أنه يتعذر إطلاق « الضرورة » على أى صورة مما قدمنا ، فانه لا يتعرض أحد للخطر والهلاك بترك التجارة الخارجية أو الرحلات الخارجية و كذلك ليس إيداع النقود مما تطلق عليه « الضرورة » دائما ، و أما إذا كانت الأوضاع الأمنية سيئة و تعرضت الأرواح مع الأموال للخطر ، فهذا يدخل فى « الضرورة » (و يجوز حينئذ إيداع النقود فى المصارف حفاظا عليها) وذلك ما يقال فى الرحلات الخارجية ، و لكن هل يتفق تحريم التعامل بالمصارف فى هذه الصور - بعلة أن التعريف الفقهى

للضرورة لا يصدق عليها - مع أصل الشريعة « اليسر » و « دفع الحرج » وهل يمكن ترك التعامل بها عمليا ! وكذلك لابد لنا أن ننظر فيما إذا تخلى التجار المسلمون قاطبة عن التجارة الخارجية أو ترك الناس الرحلة خارج بلادهم ، فهل يمكن ذلك في الأوضاع الراهنة إذ أصبح العالم كله كفناء بيت كبير وأصبح الناس جميعا كأسرة واحدة تجمعهم مصالح شتى و أسباب مختلفة .

حتى لا تستطيع بلاد أن تعيش حياتها مستغنية عن الأخرى . ولا يمكن أمة أن توفر لنفسها حاجياتها البسيطة الساذجة منعزلة عن الأمم الأخرى (كمعظم الدول العربية التي تحتاج إليها حتى في المواد الغذائيـــة) فلو فرضنا الحظر على التجـارة الخارجية لهلك الناس كلهم أو معظمهم جوعا ، لعدم حصولهم على الغذاء ، فحينئذ تحريم التجارة الخارجية لا يؤدى إلى هلاك فرد بل إلى هلاك بلد أو بلاد بأسرها وأمة بكاملها ، فلا بد أن يدخل هذا في « الضرورة » ويباح .

التعامل مع المصرف لأجل الرحلة للحج :

و إذا كانت في العالم كله أجور الطائرات و البواخر في الرحلات الخارجية تدفع عن طريق الشيكات والحوالات فالنهى عن الرحلة لأجل هـذه العلة يفضى إلى الحرمان من هذه الفريضة بل إلى إسقاطها (١) و لا شك أن الحكم باسقاط مثل هذه الفريضة التي هي أحد أركان الاسلام ليس أمرا سهلا ، و لو سلمنا أن هـذه الأعذار لا تدخل في حـــد « الضرورة » بحثنا عن حل لهـا في كلام الفقهاء الذين استناروا بنور الله و مشكاة النبوة ، فانهم قد ذكروا قاعدة : « الحاجـة تنزل منزلة

(١) و الكاتب على معرفة بقول بعض الفقهاء الذين أفتوا باسقاط الحج في مثل هذه الأحوال ، و لكن المحققين من العلماء و الفقهاء رجحوا الرأى القائل بعدم إسقـاطـه .

« الضرورة (١) و « الحاجة إذا عمت كانت كالضرورة » (٢) و استنبطوها من النصوص ، و تدخل تحتها مسائل كثيرة ، و قد نصت الأحاديث النبوية على كثير منها ، كشرعية الاجارة ، أو النظر إلى الأجنبية لأجل النكاح أو المصلحة الطبية ، مع أن النهى عن النظر إلى الأجنبية ثبت بنص صريح ، و لكن الأحاديث الصحيحة وردت فى إباحة النظر إلى المخطوبة قبل النكاح (٣).

الاجارة ، هى بيع المنفعة - وهى معدومة عند العقد - وقد تواترت الأحاديث على تحريم بيع المعدوم (منها أحاديث النهى عن بيع حبل الحبلة) (٤) - ولكن مع ذلك ثبتت شرعية الاجارة بالقرآن و السنة ، و معلوم أن « النظر إلى الأجنبية المخطوبة » أو « استيجار شئ » ليس من الضروريات التى يتعرض الانسان أو عضو منه بتركها الخطر و الضياع ، نعم ! يدخل هذا فى الحاجة ، فان ترك النظر إلى الأجنبية قبل النكاح يسبب فى بعض الأحيان أن يعيش طول العمر فى الحرج والضيق ، و كذلك إذا لم يكن عنده من المال قدر ما يستطيع به أن يشترى مسكنا لا شك أنه لا يهلك فى أكثر الأحيان و لكن يكون فى مشقة وضيق و حرج ، فكذلك فى العصر الحاضر يكون تحريم التعامل مع المصارف سببا لأكثر حرج و مشقة من بعض الأحيان من ترك النظر إلى الأجنبية و الامتناع من استيجار المسكن ، فلا يحمل على الخطأ إذا استنتجنا من هذا أنه يباح التعامل مع المصارف فى هذه

(١ و ٢) الأشباه للسيوطى ص ٩٧ - (٣) صحيح البخارى كتاب النكاح ج ٢ ص ٧٦٨ ، و صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٦ كتاب النكاح .

(٤) صحيح مسلم كتاب البيوع ج ٢ ص ٢- كان هذا البيع معروفا فى الجاهلية ، قال النووى فى شرحه لمسلم : « هو بيع ولد الناقة الحامل (قبل أن يولد) و هذا البيع باطل .. .. لأنه بيع معدوم و مجهول » .

الأحوال شرعاً (١) ، وقد أفتى بذلك عدد من العلماء- بل لانعدو الحق إذا قلنا : إن العالم كله أجمع على إباحته عملياً - نذكر هنا فتاوى بعض العلماء الثقات :

الحكم على شئ « بالضرورة » و « الحاجة »

موكول إلى جماعة العلماء الربانيين :

يجدر بنا - قبل أن نذكر آراء العلماء- أن نستلفت الأنظار إلى أنه لا يعتمد على رأى فرد أو اجتهاد شخص فى ترخيص شئ واباحته- بناء على أنه يدخل فى « الضروريات » أو « الحاجيات » - لأن اخراج حكم من الحرمة إلى الحلة على أساس رأى عالم أو عالمين - مهما بلغوا فى التدين وسعة العلم - خطوة جريئة وقحة و إذا استند حكم إلى اتفاق كثير من العلماء الربانيين رجحت فيه كفة الخير ، و إلا يخاف الوقوع فى خطأ كبير .

و من سعادة حظنا أن عدداً كبيرا من العلماء الربانيين أجمع على إباحة التعامل مع المصارف - عند تحقق الضروريات و الحاجيات التى شرحناها آنفا ـ وعلى رأس هؤلاء العالم الجليل المحقق و الباحث الكبير الشيخ مصطفى الزرقاء (حفظه الله) - الذى أعد بحثا جامعا مفصلا على هذا الموضوع و قدمه إلى العلماء - فى ندوة علية (أو شورى العلماء) سيأتى تفصيلها - يقول بعد التوطئة و هو يوجه سؤالا :- «هل إيداع النقود فى المصارف الربوية جائز شرعا أم محظور ؟ » - ثم يجيب بنفسه و يقول : « إن كان هذا الايداع عن غير اضطرار فهو محظور وعمل اثم ، لأنه

---

(١) هذا الرأى الذى وصلت إليه إنما هو نتيجة نظرى وفكرى كطالب ، فلا يحمل على فتوى شخصية ، وألتمس إلى حضرات العلماء أن يطلعونى على آرائهم القيمة عن هذا الموضوع و ينبهونى على ما إذا كان هناك خطأ فى الرأى ، وسيأتى ذكر آراء بعض العلماء التى تؤيد رأيي (فالحمد لله على ذلك) .

فيه تقوية للصرف على المراباة ، و هذه التقوية هى إعانة على المعصية » - و قد ذكر الشيخ قبل هذا - « و إن أمكن القول بأن الاعانة على المعصية قد لا تبلغ فى الاثم درجة المعان عليها ذاتها » ثم يقول :

- « هذا إذا لم يكن الايداع فى المصارف الربوية بلا اضطرار ، فاذا لم يكن هناك بد من هذا الايداع ، إما لصيانة المال أولحاجة أخرى مشروعة كتسهيل تداوله و تحويله إلى الجهات التى يراد تحويله إليها - فان الوجــه حينئذ يختلف ، و المودع عندئذ غير آثم » .

ثم يثير الشيخ سؤالا و هو أن المصالح التى تدفع الناس إلى إيداع النقود فى المصارف هل تدخل فى الضروريات أو الحاجيـــات أم لا ! ثم يجيب على هـــذا بنفسه و يقول :

« إن كل من له بصيرة فى الأحوال و الأوضاع الزمنية اليوم لا يستطيع أن ينكر وجود حاجة عامة بالناس إلى إيداع وفر نقودهم فى المصارف القائمة فى بلدانهم لأن حفظ النقود فى البيوت أو المحال التجارية مخاطرة لايفعلها ذو عقل .. ودفن الأموال فى المخابى الأرضيـــة هو أعظم خطرا ، فأصبح إيداع الأموال فى المصارف حاجة لازمة للناس إن لم تكن ضرورة لازمة » .

ثم يشير إلى أمرمهم جداً نبع عن قلبه المليئ بالتقوى والخشية ، يقول :

« أما الحاجة التى تنزل منزلة الضرورة فى الترخص فانها تبيح و لا توجب ، فلو صبر المكلف على الحاجة و تحمل الضيق و المشقة لا يكون عاصيا آثما » .

و أذا سلم أن التعامل مع المصارف يباح فى هـــذه الأموال (بالضرورة أو الحاجة) اقتضى ذلك أن تقتصر هذه الاباحة على الضرورة أو الحاجة ولا تتجاوزها ، يقول الشيخ : « فلا يجوز تجاوز مقدار ما تندفع به الحاجة أو الاضطرار » .

فاذا أسست المصارف اللاربوية و أمكن إيداع النقود فيها واستخدامها فى جميع الشئون الأخرى المصرفية حرم حينئذ التعامل مع المصارف الربوية قطعـا ، و إذا عرف أن إيداع النقود فى المصارف - بعلة الإضطرار- لا يباح إلا إلى حد لامناص منه ، فمن تجاوز هذا الحد فقد ارتكب الحرام ، لأن « الضرورة تقدر بقدرهـا » .

و « ما جاز لعذر بطل بزواله » :

حكم الفوائد المصرفيـة العامـة :

هنـا ينشأ سؤال آخر - كاقتضاء طبيعى للتعاون بالمصارف الربوية (وقت الضرورة أو الحاجة) - وهو أن المصارف العامة تعطى الربا (١) لمن أودع فيها النقود و تأخذ الربا ممن يقترض منها فهل يباح أخذ الربا من المصارف و إعطاؤه إياها جميعا ؟ ، أم يباح واحد منهما ؟ ويحرم الآخر ؟ :

يتضح لنـا بمـا قدمنـا من المباحث الأصوليـة أن الاستقراض من المصارف بقدر الضرورة يباح لمن لا قبل له به ، و يباح لازمه (أى إعطاء الربا إذا لم يكن بدمنه) بناء على القاعدة المعروفة : « إذا ثبت الشئ ثبت بلوازمه » .

و إذا أودعت النقود فى المصارف فى حالة الاضطرار ، ثم أخذ منها ما يسمى « بالفائدة » فما هو الحكم الشرعى لهـا ؟ و فى أى جهة تصرف ، هذه « الفائدة » لأن إباحة الايداع فى المصارف لبعض الأعذار لاتستلزم إباحة أخذ الربا (الفائدة) فما هو حكم الشرع فى هذه الفائدة أو الربا ؟ .

---

(١) و قـد عالج الأستاذ المودودى هذا الموضوع فى كتابه « الربا » لا يشك - بعد دراسته - من له أدنى بصيرة - فى ربوية الفوائد المصرفية وضررها ، بل يقتنع بأن المصارف هى جرثومة الفساد فى الاقتصاد الحاضر ، و قد نشرت حول هذا الموضوع كتابات وبحوث كثيرة فى اللغـات المختلفـة ، منها العربية و الأردية .

الندوة العلمية المنعقدة بجدة :

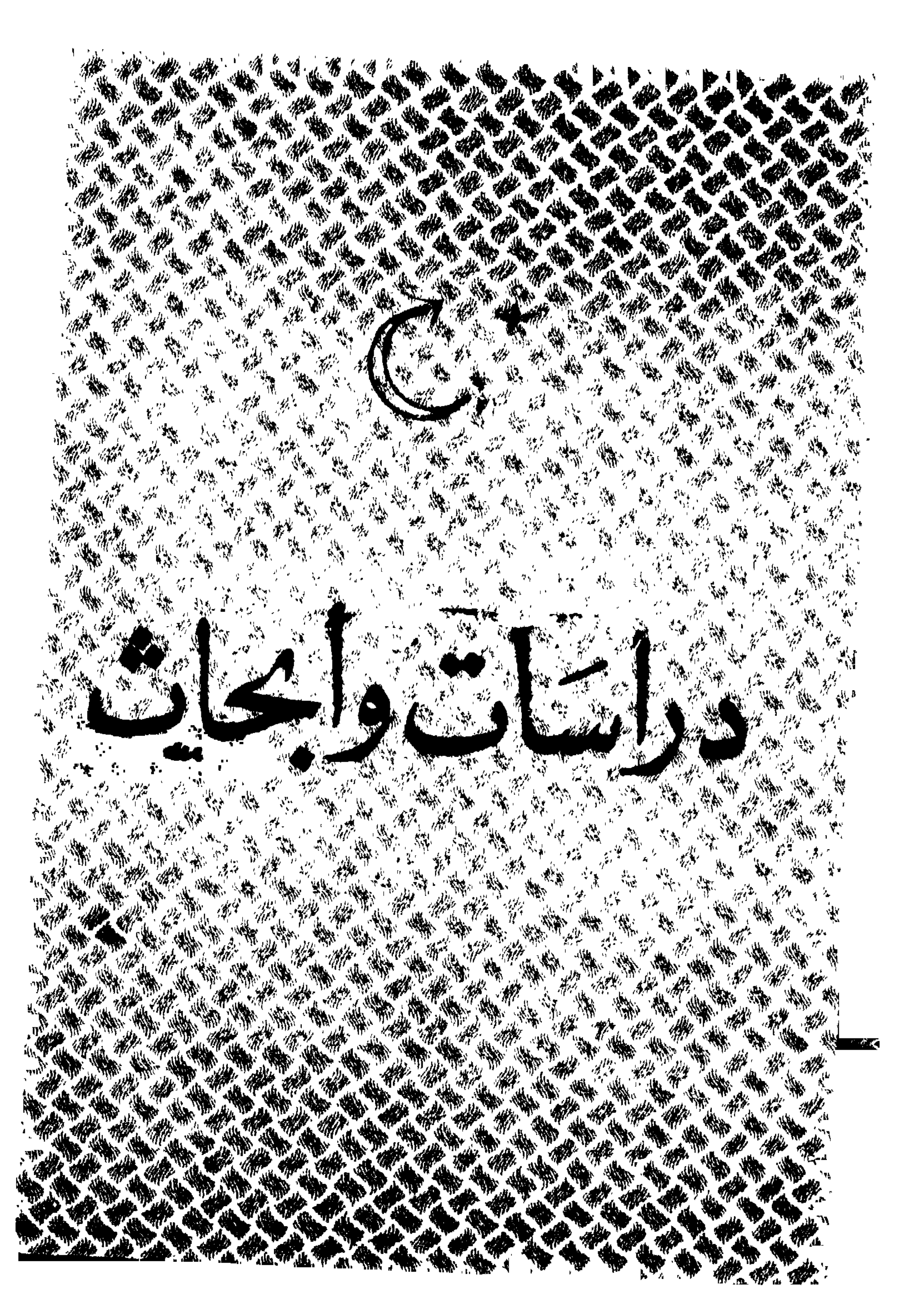
هذا هو السؤال الذى عقد لحله المدير الفاضل (١) لـ « البنك الاسلامى للتمية فى جدة » ندوة علمية دعا للساهمة فيها عددا من الأفاضل من العالم كله (وقد تشرف هذا الكاتب أيضاً بشهود هذه الندوة و تقديم البحث فيها) و أرسل المدير بحثا علميا قيما جامعا للشيخ مصطفى الزرقاء (أعده باقتراح مدير البنك الاسلامى) حول هذا الموضوع بطباعة « سائيكلو استايل » إلى المندوبين لتجرى المناقشات فى ضوئه ، إن انعقاد هذه الندوة أوعز إلى إجماعهم على أن الفوائد المصرفية ليست إلا من الربا الذى حرمه الله و رسوله، لم يختلف فيه أحد من المندوبين الممثلين للبلدان المختلفة من العالم .

فتوى علماء الهند قبل نصف قرن :

قدم هذا السؤل نفسه - قبل خمسين اوستين عاما - إلى علماء الهند الراسخين فى العلم فأفتوا بأن الفوائد التى تؤخذ من المصارف ليست إلا ربا محرما يحرم الانتفاع بها للآخذين و يجب عليهم أن يؤتوها الفقراء ، و الحمد لله على أن القرار الذى أصدرته ندوة جدة كأنه لم يكن إلا دعما لفتوى علماء الهند ، وبعبارة أخرى فان النتيجة التى وصل إليها علماء الهند الأفاضل قبل نصف قرن وصل إليها العلماء الممتازون من مختلف بلاد العالم الاسلامى فى ندوتهم المنعقدة فى قلب العالم الاسلامى ، فكأنهم اعترفوا - ولو بلسان الحال - بدقة نظر علماء الهند ونفاذ بصيرتهم ، ولما قدم الكاتب مقاله التى ذكر فيه فتوى علماء الهند التى أفتوا بها قبل نصف قرن بدت ملامح الاستحجاب المسرة معا على وجوه المستمعين، وقد اعترف الداعى الكريم بهذا الفضل بلسانه ، سنذكر هذه الفتوى - بنصها - فى الحلقة الآتية . «يتبع»

---

(١) سعادة الدكتور أحمد محمد على حفظه الله ورعاه وما زال سعيه مشكورا ، (رئيس البنك الاسلامى للتنمية ومدير بنك العالم الاسلامى) .


دراسات وأبحاث

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى في

★★★ تاريخ التشريع الاسلامى و أسباب الاختلاف ★★★

- ٧ - بين أهل الرأى و أهل الحديث

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

تقدم فيما سبق بيان آراء الامام الدهلوى فى أسباب الاختلافات الفقهية بين فقهاء الأربعة : أبى حنيفة و مالك و الشافعى وأحمد ، و أتناول الآن آراء الامام قضية حساسة مهمة ، و هى أسباب الاختلاف بين أهل الرأى و أهل الحديث البحث فى منهج كل من الفريقين .

★ مصطلح أهل الرأى وتفسيره الخاطئ :

قد أسيئ فهم هذين المصطلحين كثيراً فى أوساط أنصاف المتعلمين ، ففسر مصطلح أهل الرأى بأنهم أولئك المستنبطون الذين يحكمون آراءهم المجردة فى نصوص الشريعة ، و يستدلون ويرجحون بناءاً على الأقيسة العقلية المحضة ، بغض النظر عما تقوله النصوص الثابتة .

و لا شك أن هذا التفسير لأهل الرأى - و هو مصطلح أطلق على الفقهاء الكوفيين لا سيما من كان منهم على مذهب الامام أبى حنيفة أو يرتضى مسالكه الاجتهادية - تفسير خاطئ لاينبئ إلا على قلة اطلاع على معنى الرأى السائغ فى الدين .

★ الرأى لدى الصحابة والتابعين :

وقد ثبت استعمال الرأى عن الصحابة و التابعين و أتباعهم ... وردت فى ذلك عنهم نصوص صريحة (١) تفيد الأخذ بالرأى والاجتهاد والقياس ،

---

(١) روى ابن عبد البر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أرسل إلى زيد بن

و لم ينكر ذلك إلا بعض المعتزلة و داؤد الظاهرى و ابن حزم (١)، وقد تكفل العلماء بالرد عليهم و إثبات تناقضهم و تهافت أدلتهم فى نفس القياس و إنكاره (٢).

★ ثابت « أفى كتاب الله ثلث ما بقى » فقال زيد : إنما أقول برأيى وتقول برأيك ، وعن ابن عمر أنه سئل عن شئى فعله : أرأيت رسول الله ﷺ يفعل هذا أو شئى رأيته ، قال : بل شئى رأيته ، و عن ابن مسعود أنه قال فى غير ما مسألة أقول فيها برأيى ، وبعد أن نقل الحافظ ابن عبد البر روايات كثيرة فى هذا الباب ، قال : وقد جاء عن الصحابة رضى الله عنهم من اجتهاد الرأى والقول بالقياس على الأصول عند عدمها ما يطول ذكره ، ثم ذكر أسماء الكثيرين من الأئمة والتابعين وأتباعهم ممن اجتهدوا بآرائهم، (أنظر جامع البيان العلم ج ٢ ص ٦١ - ٦٢ ، طبعة المكتبة العلمية ، المدينة المنورة).

(١) و مال العلامة الشوكانى إلى إثبات أن الخلاف بين مثبتى القياس و نفاته لفظى و أن كلهم متفقون على أصل القياس ، أما القول بجميع أنواع القياس الذى اعتبره كثير من الأصوليين فهو المختلف فيه ، (أنظر إرشاد الفحول ص ١٧٨ - ١٧٩ طبعة محمد على بمصر).

(٢) تكفل علماء أصول الفقه من أتباع المذاهب الأربعة بالرد على أدلة نفاة القياس من المعتزلة و الشيعة و الظاهرية ، و الحقيقة أن إنكار جميع أنواع القياس لا يقول به أحد كما أن إثبات جميع أنواع القياس يحتاج إلى بحث انظر حواشى الأمير الصنعانى و الأستاذ أحمد محمد شاكر على المحلى ج ص ٥٩ - ٦٢ - ٧١ ، و غيرها ، و قد وقع أكبر نفاة القياس العلامة ابن حزم لانكاره القياس فى أمور مضحكة طريفة ، و جاء بمسائل لو قيلت

. .. .

★ لطالب فى الكتاب لاستقريها ، منها : أن الكلب لو ولغ فى الاناء غسل سبع مرات لصحة الحديث فيه ، أما إذا أكل فى الاناء أو أدخل رجله فيه أو وقع بكله فيه ، فلا يلزم غسل الاناء ولا إهراق ما فيه . وهو طاهر حلال ، كذلك قوله : إن الماء الذى غسل به هذا الاناء طاهر (انظر المحلى ج ١ ص ١٠٩ - ١١١) وقوله : يجوز الاستنجاء بحجر إذا كان عليه نجاسة غير الرجيع ، و قوله : مسح البول باليمين جائز ، و كذلك مستقبل القبلة لأنه لم ينه عنه فى البول و إنما نهى فى الاستنجاء فقط (انظر المحلى ج ١ ص ٩٨ - ٩٩) و قوله إن الكافر نجس العين ، نجس لعابه وعرقه و دمعه إلخ (المحلى ج ١ ص ١٣٠) وقوله : إذا وقعت نجاسة فى ماء أو عسل أو طيب أو غير ذلك فهو طاهر ما لم يغير لونه أو طعمه أو ريحه ، وقوله : إن البائل فى الماء الراكد لا يجوز له الوضوء فيه و الاغتسال منه ، أما غيره فيجوز له شربه و الوضوء فيه و الاغتسال به (المحلى ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦) ، وقوله : فرض على كل من قام من النوم أن يغسل يده ثلاث مرات و يستنشق ويستنثر ثلاث مرات ، فان لم يفعل لم يجزئه الوضوء و لا تلك الصلاة ناسياً ترك ذلك أو عامداً (المحلى ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧) كذلك تفريقه بين البول فى الماء الراكد و بين التغوط فيه ، فالتغوط ليس به بأس و لا يتنجس به الماء .

هذا قليل من كثير مما وقع فيه مفند اجتهادات الأئمة الأعلام ، و المبرز فى ميدان الحجاج و المناظرة و صاحب اللسان السليط العلامة ابن حزم من تخبطات و أقوال شاذة مريضة ، و كل ذلك لحيده عن طريق القياس و الرأى و إنكاره و المكابرة فيه .

★ الرأى المذموم : أما الرأى المذموم فقد فسرته طائفة بأنه « البدع المخالفة للسنن فى الاعتقاد كرأى جهم وسائر مذاهب أهل الكلام لأنهم قوم قياسهم و آرائهم فى رد الحديث » (١)، وقال جماعة من أهل العلم « إنما الرأى المذموم المعيب المهجور الذى لا يحل النظر فيه و لا الاشتغال به الرأى المبتدع » (٢) ، أما جمهور العلماء فقد فسروا الرأى المذموم المنهى عنه فى النصوص هو القول فى أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون.

★ موقف أصحاب الحديث من الامام أبى حنيفة : ثم ألصق بعض الناس هذا الرأى بالامام أبى حنيفة وقد نقل الحافظ ابن عبد البر أقوالهم ، ثم قال :

« أفرط أصحاب الحديث فى ذم أبى حنيفة و تجاوزوا الحد فى ذلك ، و السبب و الموجب لذلك عندهم إدخاله الرأى و القياس على الآثار و اعتبارهما .. . و كان رده لما رد من الأحكام بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إلى غيره وتابعه عليه مثله من قال بالرأى ، وجل مايوجد من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده كابراهيم النخعى و أصحاب ابن مسعود إلا أنه أغرق و أفرط فى تنزيل النوازل هو وأصحابه و الجواب فيها برأيهم و استحسانهم فأتى منه من ذلك خلاف كبير للسلف و شنع هى عند مخـــالفيهم بدع ، و ما أعلم أحداً من أهل العلم إلا و له تأويل فى آية أو مذهب فى سنة رد من أجل ذلك سنة أخرى بتأويل سائغ أو ادعاء نسخ إلا أن لأبى حنيفة من ذلك كثيراً و هو يوجد لغيره قليل » ثم قال :

« قال أبو عمر : ليس لأحد من علماء الأمة يثبت حديثاً عن النبى ﷺ ثم

---

(١) (٢) انظر جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٣٨ ،

يرده دون ادعاء نسخ عليه بأثر مثله أو باجماع يجب على أصله الانقياد إليه أوطعن فى سنده ، و لو فعل ذلك أحد لسقطت عدالته فضلا عن أن يتخذ إماماً و لزمه أثم الفسق و نقموا على أبى حنيفة الارجاء (١) و من أهل العلم من ينسب إلى الارجاء كثير لم يعن أحد بنقل قبيح ما قيل فيه ، كاعنوا بذلك فى أبى حنيفة لامامته ، وكان أيضاً مع هذا يحسد وينسب إليه ما ليس فيه ويختلف عليه ما لايليق (٢).

لقد كانت هذه هى العوامل التى سمى بسببها أبو حنيفة وأصحابه « أهل الرأي » و لكن الحق الذى يجب أن يقال أن أبا حنيفة لم يختلف عنهم إلا فى الكثرة من هذه المسائل المفرعة و المخرجة ، أما أصل الرأى بالمعنى الذى قد وضح فقد شاركه فيه جميع الفقهاء و المحدثين .

★ كراهية الامام أبى حنيفة للـــــرأى المجـــــرد :

و قد صرح الامام أبو حنيفة نفسه بكراهته للرأى المذموم الذى لايستند إلى دليل شرعى ، قال الخطيب البغدادى : « وقد قال أبو حنيفة فى عيب القياس قولا يحمل على أنه أراد به القياس المخالف للنص و الله أعلم » ثم روى سنده عن وكيع يقول : سمعت أبا

---

(١) الارجاء الذى نسب إلى الامام أبى حنيفة هو غير الارجاء الذى ينسب إلى فرقة مبتدعة ضد القدرية ، فالفرقة المرجئة ترى أن العمل ليس لازماً وأنه لا تضر مع الايمان معصية ، أما أبو حنيفة فلم يكن يقول بذلك إنما كان يقول إن الأعمال ليست داخلة فى معنى الايمان ، فالايمان شق و الأعمال شق آخر وهذا هو الحق والصواب (انظر تفصيل البحث فى الرفع والتكميل للكنوى ص ٢١٦ - ٢٥٢ بتحقيق فضيلة الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة)

(٢) انظر جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

حنيفة يقول : « البول فى المسجد أحسن من بعض القياس » و هذا إبداء منه لكراهته الشديدة للقياس الذى لا يعتمد على نص ، وجاء عن زفر بن الهذيل -وهو أحد تلامذته المعروفين بالقياس- قال : « إنما نأخذ بالرأى ما لم يجئ الأثر ، فاذا جاء الأثر تركنا الرأى و أخذنا بالأثر » (١) ، و قد قدمت فى ترجمة الامام أبى حنيفة بيان مسلكه فى الاجتهاد فلا حاجة إلى الاعادة (٢) .

★ مصطلح أهل الحديث :

أما مصطلح « أهل الحديث » فقد أخطأ فى فهمه أيضاً قوم ، لحملوه على المحدثين الذين يأخذون بظواهر النصوص ، و لا يعترفون بالقياس ، و طرف الاستنباط ، وليس الأمر كذلك بل إن العلماء قديماً وحديثاً أخذوا بالرأى والقياس قال ابن عبد البر بعد ذكر أسماء من ثبت عنهم القول بالرأى : « و على ذلك كان العلماء قديماً و حديثاً عند ما ينزل بهم و لم يزالوا على إجازة القياس حتى حدث إبراهيم بن سيار النظام ، وقوم من المعتزلة سلكوا طريقة فى نفى القياس والاجتهاد فى الأحكام و خالفوا ما مضى عليه السلف .. . و اتبعهم من أهل السنة على نفى القياس فى الأحكام داؤد بن على بن خلف الأصفهانى و لكنه أثبت الدليل . وهو

---

(١) انظر كتاب الفقيه و المتفقه ج ١ ص ٢٠٩ ، و قد كان من مذهب الامام أبى حنيفة تقديم الحديث الضعيف أيضاً على القياس ، (أنظر إعلام الموقعين ج ١ ص ٨٨

(٢) و راجع فى معرفة مكانة الامام أبى حنيفة بين المحدثين وأسباب انتقاد من انتقده منهم ترجمة الامام أبى حنيفة فى كتاب « قواعد فى علوم الحديث » للعلامة ظفر أحمد التهانوى بتحقيق فضيلة الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة ص ٣٠٥ - ٣٣٨ .

نوع واحد من القياس (١) .

★ إفراط و تفريط : إلا أن كلتا الطائفتين - أهل الرأى و أهل الحديث - وقع كثير منهم فى الافراط والتفريط، فاذا غلا بعض أهل الرأى فى الرأى و القياس ، وتفلسفوا و تمحلوا فى المفروضات فقد غلا كثير من أهل الحديث فى الظاهرية و الحرفية الجامدة ، و قد كان هؤلاء هم السبب الاول فى توسيع الشقة بين الطائفتين وإساءة الظنون بالفريقين ، و سنرى الامام الدهلوى - وهو معروف باعتداله و إنصافه - كيف يتعرض لهذه القضية و يذكر أسبابها وعواملها ونتائجها بتحليل على رصين .

(١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ٦٢ ، و قد ذكر ابن عبد البر فى جامعه هذا ج ٢ ص ٧٤ معنى الدليل بذكر أمثلة منه، مثل قوله تعالى : « واشهدوا ذوى عدل منكم » لو قال قائل : فيه دليل على رد شهادة الفساق لكان مستدلا مصيباً ، فكذلك قوله « إن جاء فاسق بنبأ » كان فيه دليل على قول خبر العدل إلخ ، ثم قال فى هذا الاستدلال قولان : أحدهما أنه نوع من أنواع القياس ، و الثانى أنه النص بعينه و فحوى خطابه ، إذن يكون الخلاف فى حقيقته لفظياً ، و أصل القياس مسلم به ، أما الأنواع الأخرى من القياس و الاكثار فيه فهو المذموم عندهم ، و قال فى ص ٧٧ : أما القياس على الأصول و الحكم للشئ بحكم نظيره فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف بل كل من روى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل مخالف السلف فى الأحكام »

★ تهيب الرأى و الفتيا : تحدث الامام الدهلوى عن كراهة كثير من التابعين وأتباعهم استعمال

الرأى ، وأنه لا يرجع إليه إلا عند الضرورة القصوى ، فذكر أنه كان من العلماء فى عصر سعيد بن المسيب و إبراهيم و الزهرى و فى عصر مالك و سفيان وبعد ذلك قوم كانوا يكرهون الخوض بالرأى و يهابون الفتيا و الاستنباط إلا لضرورة لا يجدون منها بدآ (١) فكان هؤلاء بطبيعة الحال يهتمون بالأحاديث والآثار ، وقد ورد عن عدد من الصحابة - رضى الله عنهم - أنهم لم يكونوا يحبون أن يتكلموا فى مسألة قبل وقوعها فعلا ، فاذا وقعت أجالوا فيها النظر إن لم يجدوا نصاً فى الكتاب و السنة .

★ الكلام فى الوقائع لا فى الفروض : و قد كانت مواقفهم هذه تجاه المسائل و القضايا ، و كراهتهم

للرأى و النظر إلا عند الضرورة ، و أقوالهم فى هذا الباب (٢) دفعت العلماء إلى تتبع الأحاديث و الآثار و جمعها و تدوينها حتى قل من يكون من أهل الرواية إلا كان له تدوين أو صحيفة أو نسخة ، و بدأت الرحلات على قدم و ساق ، و سافر الناس من خراسان إلى العراق والشام و الحجاز وتتبعوا النسخ و المجاميع الحديثية و غرائب الأحاديث ونوادر الآثار ، فكان من نتائج هذا البحث والتنقيب والرحلة و الطلب حسب ما يقول الامام الدهلوى ، هو ما يلى :

---

(١) الانصاف : ص ٤٦ .

(٢) انظر سنن الدارمى ج ١ باب اتباع السنة و باب كراهية الفتيا وباب فى كراهية أخذ الرأى .

★ نتائج تتبع الحديث و جمعه :

١- اجتمع لهم من الأحاديث و الآثار ما لم يجتمع لأحد قبلهم .

٢- و تيسر لهم من النظر فى طرف الأحاديث و ترجيحها و موازنتها ما لم يتيسر لمن قبلهم .

٣- وقد كان يجتمع نتيجة هذا البحث عند شخص منهم مائة طريق لحديث واحد ، فكشف بعض الطرف ما استتر فى الآخر و أمكن لهم النظر فى المتابعات و الشواهد .

٤- و عرفوا محل كل حديث من الغرابة و الاستفاضة .

٥- و ظهر عليهم أحاديث صحيحة كثيرة لم تظهر على أهل الفتوى من قبل ، قال الامام الشافعى رحمه الله الامام أحمد : أنتم أعلم بالأخبار الصحيحة منا فأعلمونى حتى أذهب إليه كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً (حكاه ابن الهمام) و السبب فى ذلك أنه كم من حديث صحيح لايرويه إلا أهل بلد خاصة كأفراد الشاميين و العراقيين (١) أو أهل بيت خاصة (٢) كنسخة بريد عن أبى بردة عن

---

(١) و هذه الأحاديث الأفراد مفرقة فى كتب السنن ، وقد ألف المحدثون كتباً مستقلة فى الأفراد و الغرائب ، و قلما تسلم الأحاديث الغريبة من بعض الطعون ، ولكن رغم ذلك يخلص عدد كبير من الأحاديث الصحيحة الغريبة .

(٢) النسخ التى يرويها أهل بيت خاصة أبا عن جد لا تخلو من انتقادات وطعون لا سيما النسخ التى يرويها المتشيعون من أهل البيت فلم يسلم منها شئ ، أما نسخة بريد بن عبدالله بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهم عن جده أبى بردة عن أبيه أبى موسى فان المحدثين اختلفوا فى صحة أحاديثها ، و بريد وثقه ابن معين و العجلى و الترمذى و أبو داؤد و ابن حبان ★

أبي موسى ، ونسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أو يكون الصحابي مقلا خاملا فلم يحمل عنه إلا شرذمة قليلون .

٦- و اجتمعت عندهم آثار فقهاء كل من الصحابة و التابعين ، و كان الرجل فيما قبلهم لا يتمكن إلا من جمع حديث بلده و أصحابه .

هذا فى الحديث و طرقه و متونه و شواهده .

★ علم أسماء الرجال : أما علم أسماء الرجال :

١- فقد كان الأوائل يعتمدون فى معرفة أسماء الرجال و مراتب عدالتهم على ما يخلص إليهم من مشاهدة الحال و تتبع القرائن .

٢- إلا أن هذه الطبقة التي سبقت الاشارة إليها أمعنت فى هذا الفن وجعلته شيئاً مستقلا للتدوين و البحث ،

★ و ضعفه أبو حاتم و النسائي ، قال : ليس بذاك القوى ، و الحق أنه ثقة يخطئ قليلا ، كما صرح به الحافظ ابن حجر فى التقريب (انظر تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، و التقريب ج ١ ص ٩٦) و أبو بردة ثقة والنسخة صحيحة ، وقد أخرج لبريد الجماعة ونقلوا عنه أحاديث هذه النسخة ، و أما نسخة عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبيه شعيب و هو عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص فهى أيضاً نسخة صحيحة محتج بها وإن تكلم فيها بعض الناس بغير حق ، فعمرو بن شعيب من رواة السنن الأربعة و قال فيه ابن حجر صدوق (التقريب ج ٢ ص ٧٢) و شعيب أخرج عنه البخاري فى الأدب المفرد و الأربعة ، قال فيه ابن حجر : صدوق ثبت سماعه من جده (التقريب ج ١ ص ٣٥٣ .

٣- و ناظرت فی الحکم بصحة الحدیث رأو عدم صحته بنــاءاً علی تعدیل الرجال أو تضعیفهم و اتصال الروایة أو انقطاعها .

٤- وکان نتیجة ذلك أنهم لم یکونوا یتمکنون من الحدیث الصحیح المرفوع المتصل إلا من دون الألف حدیث ، «کما ذکره أبو داؤد السجستانی فی رسـالته إلی أهل مکة»

٥- و قد بلغت مجامیع الحدیث عند هؤلاء أربعین ألف حدیث فما یقرب منها ، بل اختصر البخاری صحیحه من ستمائة ألف حدیث ، واختصر أبو داؤد سننه من خمسمائة ألف حدیث .

★ الطراز الأول من المحدثین : و قد کان رؤوس هؤلآء المحدثین فی طبقاتهم عبد الرحمن بن مهدی (١٩٨)

و یحیی بن سعید القطان (١٩٨) و یزید بن هارون (٢٠٦) و عبد الرزاق (٢١١) و أبو بکر بن أبی شیبة (٢٣٥) و مسدد (٢٢٨) و هناد (٢٤٣) و أحمد بن حنبل (٢٤١) و إسحاق بن راهویه (٢٣٨) و الفضل بن دکین (٢١٨) و علی بن المدینی (٢٣٤) و أقرانهم ، و هذه الطبقة هی الطراز الأول من طبقات المحدثین .

(()(()(()(()(()(()(()(()(()(()(()(()(()(()(()

المستشرقون و القرآن الكريم

— ٤ —

محمد صدر الحسن الندوى

قال الله تعالى فى كتابه العظيم : أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما و جعلنا من الماء كل شئ حى ، أفلا يؤمنون (١) .

إذا كان صحيحاً أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالى ١٢٠٠٠ درجة ، أو كانت تلك درجة حرارة سطح الشمس فعندئذ كانت العناصر حرة ، و لذا لم يكن فى الامكان وجود أى تركيب كيميوى ذى شأن ، ولما أخذت الكرة الأرضية ، أو الأجزاء المكونة لها فى أن تبرد تدريجياً ، حدثت تركيبات وتكونت خلية العالم كما نعرفه ، وما كان للاوكسيجن و الهيدروجن أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فرنهايت ، و عند هذه النقطة اندفعت معا تلك العناصر و كونت الماء الذى نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية ، و لا بد أنه كان هائلا فى ذلك الحين ، و جميع المحيطات كانت فى السماء ، وجميع تلك العناصر التى لم تكن قد اتحدت كانت غازات فى الهواء ، وبعد أن تكون الماء فى الجو الخارجى سقط نحو الأرض و لكنه لم يستطع الوصول إليها ، إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال فى خارجها ، و بالطبع جاء الوقت الذى صار الطوفان يصل فيه إلى

(١) سورة الأنبياء .

الأرض ليطير منها ثانياً فى شكل بخار ، ولما كانت المحيطات فى الهواء فان الفيضانات التى كانت تحدث مع تقدم التبريد ، كانت فوق الحسبان و تمشى الجيشان مع التفتت وسادت حال من الفوضى ولا يمكن وصفها ملايين من السنين ، وفى هذا الاضطراب الذى لا يمكن ادراكه ، كان الأوكسيجن يتحد مع جميع مواد قشرة الأرض تقريباً ، و قد اتحد أيضاً مع كل الهيدورجين قد فرت من جاذبية الأرض قبل أن تبرد هذه ، و لو لا ذلك لكانت كتلة الماء قد بلغت الآن من الضخامة بحيث كانت تغرق الأرض إلى عمق أميال ، و ربما هدأت الأشياء و استقرت منذ بليون- سنة ، و بذا كونت الأرض الصلبة و المحيطات ، و الجو - أى ذلك الراسب الذى نسميه بالهواء - وكان اتحاد العناصر كاملا لدرجة أن ما ترك ، وهو الهواء المكون من الاوكسيجن و النتروجين على الأخص ، لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية ، فلماذا لم يمتص كله ، أو لماذا لم يكن بنسبة أكبر كثيراً من تلك النسبة ؟ فى كلتا الحالتين كان الانسان لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض و إذا كان الوجود ممكناً تحت ضغط آلاف أرطال على البوصة المربعة الواحدة فقد كان من المحال أن يتطور كانسان .

و دون تأكيد لهذه المسألة بعد ذلك ، نرى أنه مما يدعو إلى الدهشة على الأقل ، أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل بالغاً هذه الدقة الفائقة لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى بمقدار بضع أقدام ، لامتص ثانى أوكسيد الكربون و الأوكسيجن و لما أمكن وجود حياة النبات ، وهناك احتمال بأن قشرة الأرض والمحيطات السبعة قد امتصت كل الأوكسيجن ، وأن ظهور جميع الحيوانات التى تستنشق الأوكسجين قد تأخر انتصاراً لنمو النباتات التى تلفظ الأوكسجين ، و أن الحساب الدقيق قد يجعل هذا المصدر للاوكسجين فى حيز الامكان ، و لكن

مهما كان مصدره فان كيته هى بالضبط مطابقة لاحتياجاتنا (١) .

قال الله تعالى فى القرآن الكريم: وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزجاً و حجراً محجوراً (٢) وقال : مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان (٣) .

إن الظاهرة الطبيعية التى يذكرها القرآن فى هذه الآيات معروفة عند الانسان منذ أقدم العصور ، و هى أنه إذا ما التقى نهران ، فى ممر مائى واحد ، فماء أحدهما لا يدخل (أى لا يذوب) فى الآخر ، وهناك على سبيل المثال ، نهران يسيران فى تشاتغام (Chittagong) بنجلاديش إلى مدينة أزكان فى « بورما » و يمكن مشاهدة النهرين مستقلا أحدها عن الآخر ، و يبدو أن خيطا يمر بينهما ، حــدا فاصلا ، و الماء عذب فى جانب و ملح فى جانب آخر ، و هذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث « المد البحرى » ولكنهما لا يختلطان ، و يبقى المــاء عذباً تحت الماء الأجاج ، و هكذا عنــد ملتقى نهرى الكنج والجــامونا فى مدينة « إله آباد » فى الهنــد ، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياهما و يبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما عن الآخر .

إن هذه الظاهرة « كما قلت ، كانت معروفة لدى الانسان القديم ، و لكننا لم نكتشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين ، فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطا للاشياء السائلة يسمى « قانون المط السطحى » . . . . . .

---

(١) Man does not stand alone dy A. Cressy morrison P. 63'65 .

(٢) الفرقان : ٥٣ .

(٣) الرحمن : ١٩-٢٠ .

(Surface Tensison) و هو يفصل بين السائلين . لأن تجاذب الجزئيات يختلف من سائل آخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله ، و قد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون ، الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى «بينهما برزخ لا يبغيان » و ملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة ، و نستطيع بكل ثقة أن نقول إن المراد من « البرزخ » إنما هو « المط أو التمدد السطحى » الذى يوجد فى المائين و الذى يفصل أحدهما عن الآخر .

و يمكن فهم هذا المط السطحى بمثال بسيط وهو أنك لو ملأت كوبا بالماء فانه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معينا . و السبب فى ذلك ان « جزئيات » السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب تتحول إلى ما هو تحتها . و عندئذ توجد « غشاوة مرنة » (Elastic Film) على سطح الماء ، و هذه الغشاوة هى التى تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة ، و هى غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فانها لن تغوص ! و هذه الظاهرة هى ما يسمى بالمط السطحى ، الذى يحول دون اختلاط الماء و الزيت ، و الذى يفصل بين الماء العذب و الملح (١) .

و قال الله تعالى : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين (٢) » .

يقول الدكتور جون وليام كلوتس أستاذ علم الأحياء و الفسيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا و عضو جمعة الدراسات الوراثية و متخصص فى الوراثة و علم البيئة .

---

(١) الاسلام يتحدى ص ١٤٢—١٤٣ الطبعة الثانية دار البحوث العلمية الكويت .

(٢) سورة هود ٤٠ .

« من التعقيدات الطريفة فى هذا الكون ، ما نشاهد من العلاقات التوافقية الاضطرارية بين الأشياء أحياناً . و من أمثلتها العلاقة الموجودة بين فراشة اليوكا ونبات اليوكا و هو أحد النباتات الزنبقية . فزهرة اليوكا تتدلى إلى أسفل و يكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضاً عن عضو التذكير أو السداة ، أما الميسم و هو الجزء من الزهرة الذى يتلقى حبوب اللقاح ، فانه يكون على شكل الكأس ، و هو موضوع بطريقة يستحيل معها أن تسقط فيه حبوب اللقاح ، ولا بد أن تنتقل هذه الحبوب بوساطة فراشة اليوكا التى تبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل فتجمع كمية من حبوب اللقاح من متك الأزهار التى تزورها وتحفظها فى فمها الذى بنى بطريقة خاصة لاداء هذا العمل . ثم تطير الفراشة إلى نبات آخر من نفس النوع وتثقب مبيضها بجهاز خاص فى مؤخر جسمها ، ينتهى بطرف مدبب يشبه الابرة و ينزل منه البيض و تضع الفراشة بيضة أو أكثر ثم تزحف إلى أسفل الزهرة حتى تصل إلى القلم ، و هناك تترك ما جمعته من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق ميسم الزهرة . وينتج النبات عدداً كبيراً من الحبوب يستخدم بعضها طعاماً ليرقة الفراشة و ينضج بعضها لكى يواصل دورة الحياة .

و هنالك علاقة مشابهة بين نبات الطين و مجموعة من الزنابير الصغيرة ، و ينتج هذا النبات بعين من مجموعات الأزهار يحتوى أحدهما على الأزهار المذكرة والمؤنثة معا ، أما الآخر فجميع أزهاره مؤنثة ، ويقوم بتلقيح الأزهار المؤنثة فى كلا النوعين السابقين إناث الزنابير ، و تكون فتحة التخت الذى يحمل مجموعات الأزهار فى كلا النوعين ضيقة إلى حد كبير بسبب إحاطتها بكثير من الأوراق الحرشفية ، مما يجعل وصول الحشرة إلى الداخل يتم بصعوبة كبيرة و يؤدى إلى تمزق أجنحتها ، وعند ما تدخل الحشرة إلى المجموعة التى تشتمل على الأزهار الذكرية

و الآنوية تضع الحشرة الأنثى بيضها ثم تموت ثم ينقض البيض وتتزاوج الصغائر الصغيرة الناتجة و لا يستطيع أن يخرج منها سوى الأنثى أما الذكور فتموت، وقبل أن تخرج الاناث تلتصق هبوات اللقح بأجسامها فتحملها إلى مجموعات جديدة من الأزهار، فاذا كانت المجموعة الجديدة تشتمل على أزهار ذكور و أخرى إناث، فان العملية تتكرر بالصورة السابقة (١).

التنبؤات تثبت القرآن كتاباً
منزلا من الله تعالى :

من الحوادث التى تكهن بها القرآن الكريم و صدقتها الوقائع التى حدثت بعد، يمكن أن نوردها فى صدد إثبات القرآن كتاباً منزلا من الله. لكن استقصاء تلك التكهنات وإلقاء الضوء عليها صعب جداً لأنها ستستغرق مجلدات وأسفاراً لكنه ما لا يدرك كله لايترك كله، فنورد هنا تكهنا واحداً فحسب من تلك التكهنات كلها، و هذا التكهن يتعلق بغلبة الروم، جاء هذا التكهن فى القرآن فى الألفاظ التالية.

قال الله تعالى: «الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل و من بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده و لكن أكثر الناس لايعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٢)»

تدل هذه الآيات القرآنية أن الروم ستغلب بعد أن غلبت فى بضع سنين بالتحديد، و الملابسات و الظروف التى كانت قد أحاطت بالمملكة الرومانية ماكان

---

(١) The Evidence Of God in an Expanding Universe P. 46-47

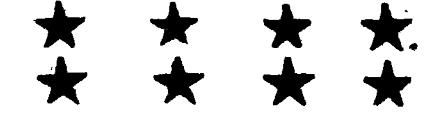
(٢) الروم : ١—٧ .

لأى قائد محنك و زعيم خبير و سياسى مضطلع أن يحكم بالظفر و النجاح و الفوز فضلا أن يتكهن بشئ يتعلق بغلبة المملكة الرومية على المملكة الايرانية ، فقد سبقت لنا التكهنات للقواد المحنكين والساسة الخبراء لم تتحقق فى تلك الأيام التى تكهنوا بها ولا بعدها فى مدة قليلة ، ونضرب لذلك مثلا ، قامت حرب دامية بين السنوسيين و الايطاليين و دامت سنوات ، وقد تكهن الخبراء أن هذه الحرب تستمر لأسبوعين أو ثلاثة أشهر ، لكن ماذا حدث ! ؟ .

يقول أمير البيان وكاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان و هو يشير إلى هذه الحقيقة الكبرى .

« يذكر الناس أن الطليان قدروا تدويخ طرابلس و برقة كلتيهما مدة خمسة عشر يوما ، من أول نزولهم ، وإن قواداً من الانكليز المحنكين فى حروب المستعمرات و البوادى ، قالوا إن الطليان أفرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة أنه قد تأخذ هذه المسألة معهم ثلاثه أشهر ، فلينظر الانسان كيف أن المدة التى قدرها أركان الحرب فى إيطاليا ١٥ يوماً و قدرها أركان الحرب فى إنكلترا ثلاثة أشهر تطاولت ١٣ سنة كاملة ، و الحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها (١) .

لكن هذا التكهن كان من الله الذى يعلم ظاهر الأمور وباطنها فجاء هذا التكهن كفلق الصبح فى بضع سنوات .



(١) هوامش على حاضر العالم الاسلامى للأمير شكيب أرسلان ج ٢ ص ١٦١ ط ١٣٥٢هـ

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخى و الجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً) -
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة «العربية» (*Arabia*) حالياً

التعبير الأدبى فى كل مجالات التعبير ، الأدب الوظيفى :

اتخذ منظمو هذه الندوة محوراً لدراساتها و وجهوا إليه الأنظار ، وإنه لجدير بالتأمل و البحث . و هو يتجاوز ما شاع و ذاع من مقولة أن الأدب ينبغى أن يكون للحياة لا للأدب فى ذاته ، فان القول بأن الأدب هو للحياة قد لا يقى الأدب الصنعة و الاحتراف ، وقد لا يقيه انحصار التعبير الأدبى و التذوق الجمالى فى مفاهيم محدودة عن الفقر و الترف و التناقض و الصراع و تكرار هذه المعانى بكرة و عشياً حتى يسأمها و يمجها الأدباء المبدعون و النقاد و القارئون جميعاً . . . . . .

إن منظمى هذه الندوة تجاوزوا مقولة (الأدب للحياة) إلى ما يمكن أن يعبر عنه « بالأدب فى الحياة » أو « الأدب الوظيفى » أى الادب المستخدم فى مختلف مجالات الحياة و الموظف المستثمر فيها فلا يهيم الأدب و الأدباء فى كل واد يطلبون الجمال وحده بعيداً عن النفع العملى «ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون و أنهم يقولون مالا يفعلون» (الشعراء/ ٢٢٥ - ٢٢٦) . و مثل ذلك يمكن أن يقال فى (الفن الوظيفى) بحيث يكون الفن موظفاً مستثمراً فى شتى المجالات العملية

لا لمجرد استعراض الطاقات المادية و الابداعية « أتبنون بكل ريع آية تعبثون . و تتخذون مصانع لعلكم تخلدون » (الشعراء / ١٢٨ - ١٢٩) بل لا تنفك (الجمال) ملتحما و مقترنا (بالنفع) ، فلا يكون ثمة جمال أو تجمل فى منأى عن المجالات العلمية النافعة ، كما لا يكون ثمة اهتمام بقصد النفع وحده فى التعبير بعيداً عن الجمال ، فان الجمال الفارغ من النفع ليس هو الجمال الأصيل الكامل ، و النفع العارى عن الجمال لايتم نفعه و لا يتعمق تأثيره . و لقد علم القرآن المؤمنين اقتران المنفعة بالجمال فى صنع الله الذى أتقن كل شئ ، و علمهم وجوب اقتران الانتفاع بالتذوق الجمالى عند كامل الادراك مرهف الحس، فقال عزمن قائل « و الأنعام خلقها لكم فيها دفء و منافع و منها تأكلون . و لكم فيها جمال حين تريحون و حين تسرحون . و تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤف رحيم . و الخيل و البغال و الحمير لتركبوها و زينة ، و يخلق مالا تعلمون » (النحل / ٥ - ٨) ، « و ماذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً و تستخرجوا منه حلية تلبسونها و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (النحل / ١٣ - ١٤) ، « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (النحل / ٦٩) ، « و أنزل لكم من السماء ماءا فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أ إله مع الله ، بل هم قوم يعدلون » (النمل/٦٠) ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . و الأرض مددناها و ألقينا فيها رواسى و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب . و نزلنا من السماء ماءاً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . و النخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، و أحيينا به بلدة ميتا ،

كـ ذلك الخروج » (ق / ٦ - ١١) « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون و الرمان مشتبها و غير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (الأنعام / ٩٩) « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد » (الصافات / ٦ - ٧) « و علامات و بالنجم يهتــدون » (النحل / ١٦) « و لقــد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » (الملك / ٥) .

و هكذا يوجه القرآن المؤمنين — و هو قمة التربية و التوجيه — إلى أن يتجاوزوا حدود الانتفاع الحيوى المادى فلا ينحصروا فى الجانب البيولوجى الذى يشترك فيــه الانسان مع من دونه من الكائنات بل عليهم أن يعيشوا فى مستوى الانسان مرهف الحس عميق الادراك ، فينتفعوا بما سخر الله لهـم فى هذا الكون العظيم و يتذوقوا جمال خلق الله الذى سخره لا نتفاعهم فى الوقت نفسه ، و بهذا يتم الانتفاع و الاستمتاع ، هم يصلون بممارسة الانتفاع العملى و التذوق الجمالى إلى نتيجتهما المنطقية الرفيعة التى تهدى إلى الخالق البارىء المصور الحكيم القدير « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوهـــا ، إن الله لغفور رحيم » (النحل / ١٧ - ١٨) ، « الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور » (الملك / ٣) ، « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك و الأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه و تقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين ، و إنا إلى ربنا لمنقلبون » (الزخرف / ١٣ - ١٤) .

و بهذا التوازن و الاتزان وجه القرآن الرجل المؤمن إلى أن يأخذ زينته و هو يغشى المسجد ليعبد الله « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا و لا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و الاثم و البغى بغير الحق ، و أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، و أن تقولوا على الله مالا تعلمون » (الأعراف / ٣١ - ٣٣) . و هكذا فان الجمال هو الجمال فى كل مجال : فى الصورة والفكر والسلوك ، فى المظهر والمخبر ، وهو ما أكده جمهرة علماء الجمال (Aesthetics) أيا كانت نزعاتهم و أجيالهم و مواطنهم . و المؤمن الذى يغشى المساجد يتلقى تربية قرآنية متكاملة ، بأن يقرن بين جمال المخبر و المظهر ، و لا يهمل جمال الظاهر اكتفاء بجمال الباطن كما لا يغش الناس بجمال الظاهر دون الباطن ، كذلك تقترن طهارة البدن و الثوب و المكان بطهارة الجنان ، و هذا هو التكامل و الاكتمال فى تربية الاسلام .

● ● ● ● ● ● ● ●

« و الذى يؤثر عن هذه الأمة و تحتوى عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبيعى و كلام مرسل و تعبير بليغ ، يحرك النفوس و يثير الاعجاب ويوسع آفاق الفكر و يبعث فى النفس الثقة . و لا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب و الانشاء ولم يتخذوه حرفة و مكسباً ، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية و لم يكن لهذا الانتاج الأدبى الجميل الرائع عون أدبى ، ولم يكن فى سياق أدبى ، و إنما جاء فى بحث دينى أو كتاب علمى أو موضوع فلسفى أو اجتماعى ، فبقى مغموراً مطموراً . . . . . . و لم يشأ الأدب الصناعى بكبريائه أن يفسح

له فی مجلســـه ، و لم یتنبه له مؤرخو الأدب — بضیق تفکیرهم و قصور نظرهم فینوهوا به و یعطوه مکانه اللائق به . إن هذا الأدب الطبیعی الجمیل القوی کثیر و قدیم فی المکتبة العربیة ، بل هو أکبر سنا و أسبق زمنا من الأدب الصناعی ، فقد دون هذا الأدب فی کتب الحدیث والسیرة قبل أن یدون الأدب الصناعی فی کتب الرسائل و المقامات ، و لکنه لم یحظ من دراسة الأدباء و الباحثین وتمنیاتهم بما حظی به الأدب الصناعی . مع أنه هو الأدب الذی تجلت فیه عبقریة اللغـــة العربیة و أسرارها و بلاغة أهل اللغة و لباقتهم و هو مدرســـة الأدب الأصیلة الأولی . . . وضعت ندوة العلماء منذ إنشائها هذا الهدف نصب أعینها و جعلته موضع اهتمامها الخاص ، و یدل علی ذلك ما أنتجه رجال ندوة العلماء و خریجوها فی الأدب و نقده و تاریخه وبیان نصوصه ، حتی أصبحت لهم مدرسة أدبیة خاصة ظهرت آثارها فی لغة (أردو) لغة المسلمین فی شبه القارة الهندیة . . . . . . »

و یحق لندوة العلماء أن تعتز بجهدها المحمود فی غایته و آثاره ، و یحق لکل مسلم یشارکها فی توظیف الأدب فی مختلف مجالات التعبیر و أن یشد علی یدیها حتی یتزاید المتعاونون علی أن ینتشر الجمال خلال التعبیر فی کل مجال للتعبیر ، وأن ینتشر النفع خلال کل تعبیر جمیل . فان الفصام النکد بین الأدب وسائر المجالات الطبیعیة التعبیر قد أدی إلی محنة « تسلط أصحاب الصناعة والتکلیف علی الأدب وبخاصة الأدب العربی . . . . فیأتی علی الناس زمان لا یفهم من کلمة (الأدب) إلا ما أثر من هذه الطبقة من کلام مصنوع وأدب تقلیدی لا قوة فیه ولا روح ، و لا طرافة ولا متعة . . . » — کما یقول بحق منظمو هذه الندوة ، کما أنه أدی إلی محنة أخری لا تقل سوءا هی تخلی الذین یکتبون فی سائر المجالات الطبیعیة للتفکیر والکتابة عن مراعاة الجمال فیما یکتبون ماداموا لیسوا من المتأدبین المحترفین أصحاب الصناعة . . .

و هكذا افتقدنا النفع فى نتاج كثير من المتأدبين المحترفين أصحاب الصناعة ، كما افتقدنا الجمال فيما يكتبه المفكرون و الفقهاء المؤرخون و الجغرافيون و المربون و الاجتماعيون و الاقتصاديون و غيرهم ممن يعبرون عن آرائهم بالكلمة . . . .

و لقد قرر تراثنا و كتابنا الاقدمون حاجة الكاتب إلى معارف شتى تغذى أدبه حتى لايكون الأدب و الكتابة منه بوجه خاص صناعة لفظ و شقشقة كلام، و إنما يكون أداة تعبير عن حقائق نافعة مفيدة فى مختلف مجالات المعرفة . يقول عبد الحيد الكاتب (المتوفى فى ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) فى رسالته المشهورة إلى الكتاب « فتنافسوا معشر الكتاب فى صنوف العلم و الأدب . و تفقهوا فى الدين و ابدأوا بعلم كتاب الله عزوجل والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ، و أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، و اروروا الاشعار و اعرفوا غريبها و معانيها ، و أيام العرب و العجم و أحاديثها و سيرها . . . . » وتتابعت على ذلك التصانيف التى تنصح الكتاب و توجههم ، من أمثال كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة (المتوفى فى ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) و كتاب (أدب الكتاب) للصولى (المتوفى فى ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م) ، إلى أن ظهرت موسوعة النويرى (المتوفى فى ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) و ما أضخمها و أنفعها موسوعة أدبية علمية (نهاية الأرب فى فنون الأدب) واعقبتها أختها موسوعة القلقشندى (المتوفى فى ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) و هى الأخرى تحوى ثروة واسعة جليلة من المعرفة (صبح الأعشى فى صناعة الانشاء) ، على الرغم من قصر القلقشندى غاية موسوعته على إعداد كتاب ديوان الانشاء الذين يدبجون لرؤساء الدول الرسائل السياسية و الادارية و الحربية ، فضلا عن رسائل المناسبات الخاصة من تهنئة و تعزية و إهداء و شكر و اعتذار وعتاب و ما إلى ذلك . و يورد القلقشندى الأخيرة الواجبة من المعارف لهؤلاء الكتاب

فى وظائفهم الديوانية المحدودة ، فاذا هى ثقافة واسعة مستوعبة تبدأ بالكتاب والسنة و تشتمل على السير و أحكام الفقه ، و الأحكام السلطانية و فروعها ، و أشعار العرب و المولدين و نثرهم و خطبهم و أمثالهــم نثراً و شعراً ، و أيام العرب و حروبهم و التواريخ و أخبار الدول الماضية و سير الملوك و أحوال الممالك ، فضلا عما ينبغى للكاتب سعة الباع فى علوم اللغة و النحو و الصرف و البلاغــة و من حسن الحظ و العناية به . و إلى هــذا كله من واجب الكاتب أن يكون كريم الاخلاق أمينا نزيهاً شريف الانفة أما مقوماته الفكرية فتجمع حدة الذهن و حضور الحس وجودة الحدس ، و قوة النفس و حلاوة اللسان وجراءة البديهة و التؤدة فيما يحتاج إلى الروية . ولم تهمل مثل هذه المصنفات إعداد الكتاب الذين يعملون فى الدواوين الفرعية فألزمتهم معرفة الابتداء و الجواب و العقود و الفتوح و الحساب و المقاسمات و الحلال و الحرام و التأويل و التنزيل و المتشابه و الحدود و القصاص و الجراحات و البيخازير و الفرائض و الاختــلاف فى الأموال و الأنكحة و سائر الأحكام و الشروط و عطاء الجند و أرزاقهم و أعلامهــم و لباسهم و أحكام الغنيمة و الفىء . . . . إلخ إلخ . تقرأ مثل هذا فى كتاب كتاب البطليوسى (المتوفى فى ٥٢١ . هـ / ١١٢٧ م) : و (الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب) ، و كتاب ابن مماتى (المتوفى فى ٦٠٦ . هـ / ١٢٠٩ م) : (قوانين الدوارين) .

و هكذا تكون الثقافة الواجبة للكتاب الديوانيين المحترفين بحكم وظائفهم المحدودة فى الدولة كما يذكر أصحاب المصنفات التى عنيت بما ينبغى عليه ، هؤلاء ، و هم يتوقون بمــا نصحوا به القصور المعرفى عنــد هؤلاء الكتاب الديوانيين الموظفين ، حتى لا تكون صناعتهم محصورة فى رص الالفاظ و الشقشقة بالكلمات

التى تعجز عن مواجهة متطلبات الأمور الجارية والمشكلات الطارئة فى وظائفهم.....

ويبقى بعد ذلك و قبل ذلك الادب فى مختلف المجالات الطبيعية للتعبير دون احتراف أو احتكار . . . و هذا طالما تعارفه تراثنا و انبث فى ذخائرنا على اختلاف فنونها . . . ولنسق مثالا من تراثنا الفقهى الذى يظنه كثير من المتأدبين أبعد ما يكون عن الجمال الأدبى حتى ضرب المثل بأدب الفقهاء أو شعر الفقهاء على وجه التخصيص لبيان البعد عن الجمال .

صورة من الجمال الأدبى فى تراثنا الفقهى :

لقد أصدر قاضى القضاة الامام أبو يوسف رحمه الله (المتوفى بين سنة ١٨٢ و سنة ١٩٠ . هـ) كتابه الفقهى فى أحكام الخراج للخليفة العباسى الرشيد فكان من خطابه لأمير المؤمنين فى مفتتح الكتاب قوله : « إن الله و له الحمد قد قلدك أمراً عظيماً ثوابه أعظم الثواب و عقابه أشد العقاب . قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت و أمسيت و أنت تبنى لخلق كثير ، قد استرعاكهم الله و ائتمنك عليهم و ابتلاك بهم و ولاك أمرهم ، و ليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه و أعان عليه . فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة و الرعية . فان القوة فى العمل باذن الله » . ثم يقول عن كتابه الذى كان الخليفة قد طلبه : « إنى قد اجتهدت لك فى ذلك و لم آلك المسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله و ثوابه و خوف عقابه ، و إنى لأرجو أن عملت بما فيه من البيان أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، و يصلح لك رعيتك ، فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم و التظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم .. .. فوفقك الله لما يرضيه عنك و أصلح بك

و على يديك » (١) .

والجمال الأدبى عند أبى يوسف لم يأت فى هذا الكتاب مقصوراً على تقديمه أو ختامه — كما قد يظن ظان ، بل تراه جليا خلال معالجة مسائله الموضوعية . يقول مثلا : « قيل لأبى يوسف : لم رأيت أن يقاسم أهل الخراج ما أخرجت الأرض من صنوف الغلات و لم تردهم إلى ما كان عمر بن الخطاب وضعه على أرضهم و نخلهم و شجرهم و قد كانوا بذلك راضين و له محتملين ؟ ؟ فقال أبو يوسف : إن عمر رأى الأرض فى ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها ، و لم يقل حين وضع عليها ما وضع من الخراج أن هذا الخراج لازم لأهل الخراج وحتم عليهم و لا يجوز لى و لمن بعدى من الخلفاء أن ينقص منه و لا يزيد فيه ، بل كان فيما قال لحذيفة و عثمان حين أتيـــاه بخبر ما كان استعملهما عليه من أرض العراق : « لعلكما حملتما الأرض مالا تطيق » دليل على أنهما لو أخبراه أنها لا تطيق ذلك الذى حملته من أهلها لنقص عما كان جعله عليهم من الخراج ، و أنه لو كان ما فرضه وجعله على الأرض حتما لا يجوز النقص منه و لا الزيادة فيه ما سألهـــما عما سألهما من احتمال أهل الأرض أو عجزهم .... فلما رأينا ما كان جعل على أرضهم من الخراج يصعب عليهم و رأينا أرضهم غير محتملة له ، و تقدم (عمر) فى أن لا يكلفوا فوق طاقتهم ، اتبعنا ما أمر به و تقدم فيه ..... » (٢) .

و هكـــذا يعالج أبو يوسف قضايا الفقه بأسلوب أدبى جميل يزين حجته و منطقه . ثم يمضى أبو يوسف فى كتابه فيقول فى موضع آخر بعد سوق بعض

---

(١) أبو يوسف : الخراج .. المطبعة السلفية بالقاهرة — ط ٤ — ١٣٩٢ هـ . ص ٣ ، ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩١ - ٩٢ .

الأحكام الفقهية : « إن العدل و إنصاف المظلوم وتجنب الظلم مع ما فى ذلك من الأجر يزيد به الخراج و تكثر به عمارة البلاد ، و البركة مع العدل تكون و هى تفقد مع الجور ، و الخراج المأخوذ مع الجور تنقص به البلاد و تخرب . هذا عمر كان يجبى السواد مع عدله فى أهل الخراج و إنصافه لهم و رفعه الظلم عنهم مائة ألف ألف ، و الدرهم إذ ذاك وزنه وزن المثقال . فلو تقربت إلى الله عزوجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك فى الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم و تنكر على الظالم رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس إلا مجلساً أو مجلسين حتى يصير ذلك فى الأمصار و المدن ، فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترىء على الظلم ، و يأمل الضعيف المقهور جلوسك و نظرك فى أمره فيقوى قلبه و يكثر دعاؤه » . ثم يعقب أبو يوسف على بيانه لأحكام الجزية « وقد ينبغى يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك و ابن عمك ﷺ والتقدم لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا و لا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شئ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) » (١) . ثم يمضى أبو يوسف إلى بيان أحكام الجنايات و يعقب بقوله : « و من ظن به أو توهم عليه سرقة أو غير ذلك فلا ينبغى أن يعزر بالضرب و التوعد و التخويف ، فإن من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل و قد فعل ذلك به فليس إقراره بشئ و لا يحل قطعه و لا أخذه بما أقر به . . . و تقدم يا أمير المؤمنين إلى ولاتك لا يأخذون الناس بالتهم . . . . و لا ينبغى أن تقبل دعوى رجل على رجل فى قتل و لا سرقة و لا يقام عليه حد إلا ببينة عادلة أو باقراره

(١) المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥ ،

من غير تهديد الوالى له أو وعيد على ما ذكرته لك. و لا يحل و لا يسع أن تحبس رجلا متهمه رجل له . كان رسول الله ﷺ لا يأخذ الناس بالقرف و لكن ينبغي أن يجمع بين المدعى و المدعى عليه ، و إن كانت له بينة على ما ادعى حكم بها و إلا أخذ من المدعو عليه كفيل و خلى عنه فان أوضح المدعى عليه بعد ذلك شيئاً و إلا لم يتعرض له .. فقد كان يبلغ من توقى أصحاب رسول الله الحدود فى غير مواضعها و ما كانوا يرون من الفضل فى درئها بالشبهات أن يقولوا لمن أتى به سارقا أسرقت ؟ قل لا (و أورد عن أبي هريرة واقعة تشهد بذلك) » (١) . و يقول فى شأن المسجونين لأمير المؤمنين : « فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم و أدمهم ، و صير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فانك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن و القدام والجلاوزة . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح . . . . وكسوتهم فى الشتاء قميص و كساء ، و فى الصيف قميص و إزار ، و يجرى على النساء مثل ذلك ، و كسوتهن فى الشتاء قميص و مقنعة و فى الصيف قميص و إزار و مقنعة . . . . فمر ولاتك جميعاً بالنظر فى أمر أهل المحبوس فى كل أيام . فمن كان عليه أدب أدب و أطلق ، و من لم يكن له قضية خلى عنه . و تقدم إليهم أن لا يسرفوا فى الأدب و لا يتجاوزوا بذلك إلا مالا يحل و لا يسع . . . . ظهر المؤمن حمى إلا من حق يجب بفجور أو قذف أو سكر ، أو تعزير لأمر أتاه لا يجب فيه حد . . . و أن رسول الله ﷺ قد نهى عن ضرب المصلين » (٢) » .

و الامام الشافعى رحمه الله خير مثال للفقيه الأديب ، فكتابه (الرسالة)

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

الرائد فى الاصول قوى الحجة مشرق العبارة فذ فى أدب الحوار . ويكاد المؤرخون يجمعون على عذوبة منطقه وحسن بيانه و ذكائه و قدرته الفائقة على الجدل وقوته فى التفكير و مهارته فى الاستنباط . و ثقافته ثقافة فى اللغة و الأدب واسعة إلى جانب ثقافته فى الحديث «— كما قرر أحمد أمين بحق فى (ضحى الاسلام) . وهو يقول عن كتاب (الأم) : « بين أيدينا مجموعة فى سبعة أجزاء أغلبها من كلام الشافعى رواها عنه تلميذه (البويطى) و أدخل فيها بعض تعليقات أفردها و بينها حتى لا تلتبس بكلام الشافعى . . . و فى (الام) مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعى ، فهو فيه فصيح العبارة قوى الاداء ، تشوب عبارته بلاغة العبادية و فصاحتها ، و قوة القرشية و إيجازها . . . . و ليس يستطيع أن ينكر أحد ما فى عبارة الشافعى من دقة و قوة و بلاغة . و فى الكتاب تظهر قوة الشافعى فى الجدل ، فأسلوب الكتاب كله تقريباً أسلوب جدلى ، حتى ليفترض مجادلا يجادله فيرد عليه ثم يعترض فيجيب . . » (١) . و قد روى الزعفرانى فيما ينقله ابن عبد البر أن الشافعى لما اعتزم الخروج إلى مصر أنشد لنفسه .

أخى أرى نفسى تتوق إلى مصر و من دونها أرض المهامه و القفر
فو الله ما أدرى أللفوز و الغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى

قال الزعفرانى : فوالله لقد سيق إليهما جميعاً . (٢) ومما أثر عن الشافعى رضى الله عنه « ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق و يسدد و يعان ، و ما ناظرت أحداً إلا و لم أبال أن يبين الله الحق على لسانى أو لسانه » . و من أقواله التى تنبئ عن خبرته بدقائق النفوس و مقتضيات السلوك الاجتماعى :

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ط ٧ القاهرة ص ٢٢١ ، ٢٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ .

« يا ربيع ، رضاء الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما يصلحك فالزمه ، فانه لا سبيل إلى رضائهم ، و الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء ، و الانقباض عنهم مكسبة للعداوة . فكن بين المنقبض و المنبسط » . فقال له رجل : أوصنى فقال « إن الله تعالى خلقك حراً ، فكن حراً كما خلقك » . ومن أقواله « لا تبذل وجهك إلى من يهون عليك ردك » « لا تتكلم فيما لا يعنيك ، فانك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك و لم تملكها » (١) .

و الامام الفقيه الأديب ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) يورد فى ثنايا كتابه عن أصول الفقه (الأحكام فى أصول الأحكام) باباً (فى إثبات حجج العقول) ، يقول فيه و هو الفقيه الظاهرى الذى يأخذ بالنص وحده و بدلالة ظاهره لحسب ما يشهد بقوة منطقه وبيانه معاً : « بطل أن يعلم صحة الخبر بنفسه إذ لا فرق بين صورة الحق منه و صورة الباطل فلا بد من دليل يفرق بينهما ، و ليس ذلك إلا لحجة العقل المفرقة بين الحق والباطل » . واستطرد ابن حزم إلى مناقشة من يقول بابطال الجدال و المناظرة مبينا أن الجدال المنعدم شرعا هو ما فيه معاندة للحق و مخاصمة بالباطل ، أما الجدال المحمود فأمور به فى مثل قوله تعالى : « و جادلهم بالتى هى أحسن » « و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » . و من طريف ما استشهد به المؤلف أن المسلمين مأمورون باتباع ملة إبراهيم عليه السلام « فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً » و من ملته عليه السلام كما ورد فى القرآن (المناظرة) يقول تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » ، « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » - الآية - وقد أفاض ابن حزم فى التدليل

---

(١) أحمد الصرى : الامام الشافعى - الفقيه الأديب ، سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ٢٧ - جدة ، ص ٥٠ ، ٥٦ ، ٦٥ .

بالقرآن على سلامة المجادلة بالحق بل وجوبها على القادرين عليها عند الاقتضاء . إلى أن قال رحمه الله : و قد علمنا الله الحجـة على الدهرية و الثنوية و جميع الملل ، و أمر بالجدال على لسان رسوله : (جاهـدوا المشركين بأموالكم و أنفسكم و ألسنتكم) . و قد علمنـا رسول الله وضع السؤال موضعه و كيفيـة المحاجة ، و قد تحاج المهاجرون و الأنصار و سائر الصحابة ، و حاج ابن عباس الخوارج بأمر على ، و ما أنكر أحد من الصحابة الجدال فى طلب الحق .. .. » (١) .

و الجمال الأدبى هو طابع أسلوب حزم حتى و هو مستغرق فى مناقشـة القضايا الفقهية أو متحمس فى الرد على الاجتهادات المخالفة لما ذهب إليه . و تراه حين قرر قاعدته المشهورة فى الجزء السادس من (المحلى) : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، و يجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقـم الزكاوات بهم و لا فى سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه و من اللباس للشتاء و الصيف بمثل ذلك ، و بمكن أن تكنهم من المطر و الصيف و الشمس و عيون المارة » — تراه حين قرر ذلك يستـدل بالقرآن و السنة و آثار السلف ، و يعقب على كل دليل يسوقه بلمسة من قلبـه تفجر حكمته المذخورة و تكشف نوره المبين . فهو يروى مثلا بالسنـد الصحيح الحديث النبوى المشهور « من لايرحم الناس لا يرحمه الله » ثم يعقب على ذلك بقوله : « و من كان على فضلة و رأى أخاه جائعاً عريان فلم يغثه ، فما رحمـه بلاشك » . و يروى أيضاً الحديث المعروف بسنده الصيح « المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يسلمه » ثم يقبس منه هذه القبسة الثاقبة فيقول : « من تركه يجوع و يعرى و هو قادر على إطعامه و كسوته فقد أسلمه » . « يتبع »

---

(١) ابن حزم : الأحكام فى أصول الأحكام - مطبعة الخانجى بالقاهرة ج ١ ص ١٣ - ٢٩ .

١٩٨٣م ؛ عام الهدم أم عام البنـاء ؟

واضح رشيد الندوى

استقبل العالم عام ١٩٨٣م بتكهنات و تنبؤات عن مصير العالم فى العام الجديد، أ يكون العام الجديد عام الهدم، أم عام البناء ؟ وقد ازدادت هذه التكهنات تضارباً، و قلقاً ، بتكهن جهاز كمبيوتر أن كارثة نووية يخشى أن تحدث فى العام الجديد ، و ساعدت الحالة الذهنية للانسان المعاصر على قبول هذا التنبؤ ، لأنه مر بتجربة مريرة فى عام ١٩٨٢م ، الذى صدم فيه الضمير الانسانى ، بالمآسى ، و المجازر ، و التشريد ، و التعذيب و انتهاك الحرمات ، و أعمال السلب و النهب فى مختلف بقاع العالم، شرقاً وغرباً ، و اندلعت فيه الحروب، و الثورات الدامية ، واضطرب العالم فيه بوقوع كوارث طبيعية ، من زوابع و هزات أرضيـة ، و زلازل ، وسيول جارفة ، فى عدد من البلدان الآسيوية والأفريقية ، ودول أخرى فى العالم .

كان القدر الكبير من شقاء الانسان فى هذه الفترة من صنع الانسان نفسه، بما كسبت أيدى الناس ، بآلاته الحربية ، وسياسته الطاغية ، ولو صدقت الاحصائيات عن المشردين و اللاجئين التى صدرت عن منظمة العفو الدولية وحدها لظهر العـالم اليوم كرة أرضية ملتهبة ، فى حالة هياج شديد ، لا يخلو منه جزء من العالم .

ركز خبراء العصر الحديث اهتمامهم على تدفق السكان فحاولوا محاولة محكومة بتحديد النسل لوقف هذا التدفق السكانى ، وإنهم لقنوا العالم أن مصدر شقاء الانسان كثرة عدد السكان ، و ضآلة المصـادر ، و الفجوة الحائلة بين الامكانيات و بين

المستهلكين ، و الواقع أن مصدر شقاء الانسان ، يكمن فی موقف الانسان إزاء الانسان ، و خطائه فی معالجة قضايا الانسان ، و يظهر ذلك التناقض فی موقفه ، إنه يريد السلام بالحرب ، و يريد البناء بطريق هادم ، والتعمير بالتخريب ، ويعالج جسم الانسان باقلاق الروح .

أ ليست أمريكا صانعة الأسلحة الفتاكة تدعی أنها تسعی إلی إقرار السلام ، و تعتبر المجزرة البشرية فی لبنان مرحلة لحل القضية الفلسطينية ، و إقرار السلام فی المنطقة ، و تضع صواريخها فی مختلف أجزاء العالم لوقف خطر الاتحاد السوفياتی من أجل إقرار السلام فی المنطقة .

و روسيا الدولة الكبری الثانية ، تدعی أنها رائدة السلام العالمی ، وهی تكسب علی اقرار السلام فی أفغانستان بارسال أكثر من مائة ألف جندی ، و تقصف المناطق الآهلة بالسكان بالأسلحة الكمياوية .

و يكافأ بيجين ذلك الارهابی المعروف الذی خالف كل القيم الانسانية ، بجائزة السلام الدولية

و ليست أمريكا ، و روسيا و بلدان كبيرة أخری وحيدة فی مخالفة القيم الانسانية فان هذا العهد هو عهد النفاق ، و الكذب ، و التلفيق ، مهما ادعی المتحضرون ، ينال فيه القتلة و قطاع الطريق و الكذابون ، عن طريق الانتخابات المزورة ، أو عن طريق الثورات العسكرية ، درجة العمالقة الذين لا يتركون فی بلادهم بعد توليهم الحكم إلا أقزاماً ، بتطعهم رقاب كل من طالت قامته ، أو شرفت منزلته ، أو نفيه من البلاد ، أو الزج به إلی المعتقلات .

لقد تضخمت بسبب القمع والكبت والحروب الطاحنة فی عام ١٩٨٢ جيوش المشردين و اللاجئين ، فتجمع فی باكستان وحدها أكثر من سبعة ملايين لاجئ ، و فی إيران و العراق ، ملايين من اللاجئين ، و فی الدول الأوربية عدد ضخم من اللاجئين المشردين من دول المعسكر الشيوعی ، وفی أفريقيا حيث يستمر الصراع بين الدويلات الكثيرة التی غرسها الاستعمار فی أرض القارة الخضراء ، لخدمة مصلحته ،

فضحمت هذه الجيوش جيش اللاجئين الفلسطينيين ، الذين ينتظرون العودة إلى وطنهم المسلوب منذ ١٩٤٨م و لو استمر هذا المسار لتحول العالم بعد فترة قليلة إلى عالم المشردين ، و قامت ثورة اللاجئين على المواطنين فى كل بلد .

إن وضع العالم غريب جداً ، و يستحق هذا الوضع العناية القصوى من زعماء العالم .

كان الشعراء والفلاسفة يتكهنون فى بداية العصر الحديث ، بعالم لاخوف فيه ولا ذعر ، عالم حافل بالسعادة و الهناء ، عالم موحد ، لا إجبار فيه على العمل ، و لا اكراه فيه فى العقيدة ، و لا انقسام فيه على أساس اللون و العنصر ، يعيش الانسان فيه حراً سعيداً ، حسب رغبته ، بدون صراع ونزاع و إكراه ، و لكن الجنة التى كان يحلم بها الشعراء ، و فلاسفة العصر الحديث ، لا تزال الفردوس المفقود ، وعلى العكس إن زعماء العصر الحديث حولوا العالم إلى سجن ، وصار العالم كله الباستيل الكبير .

لقد قضى رجال الثورة الفرنسية على باستيل فرنسا ، و حسبوا أنهم أطلقوا الانسان ، لكنهم ساروا طريقاً ، فتحت به باستيلات فى كل بلد اقتدى بزعماء الاصلاح المعاصرين و سار مع التقدم الحضارى فى ظل الفلسفة الغربية للحياة .

أحدث هذا الموقف المضاد للانسان ، ردود فعل غريبة فى المجتمع الغربى ، فى الأفراد و الجماعات ، فآثر بعضهم طرق الانتحار للتخلص من هذه الحياة وشقائها ، وآثر بعضهم القتل الجماعى للانسان الذى وقعت حوادثه فى عدد من الدول الغربية ، و لم تكن هذه الأحداث أعمالا شاذة ، أو فلتات ، أو حوادث وقعت عفوا ، و إنما حدثت بجراء طبيعة الحياة المعاصرة التى تبعث على الخلل فى الدماغ و القلق النفسى ، حياة الضوء ، و الصوت ، و الحركة المذهلة و الانحراف عن القيم ، وفقدان الضمير وإهدار كرامة الانسان ، التى فقد فيها هدوء باله ، واضطربت الموازين ، و ستزداد هذه الحوادث إذا استمرت هذه الطبيعة الصاخبة الهائجة للحياة لأن الانسان ليس بآلة صماء ولا بحيوان بدون شعور وعقل ، و ليس بمجرد جسم ، بل له قلب متحرك و إحساس و شعور .

لا يخلو المجتمع المعاصر من المحبين للانسان من أصحاب القلوب الانسانية الذين يقلقهم مصير الانسان إلى الفناء، و إهدار كرامته، لكن هذا النوع من المحبين للانسان يعتبر الوضع الراهن حقيقة لامناص منها، فأنشأ جمعيات خيرية، و هي كثيرة و مقر معظمها في البلاد الأوربية كجمعية الرفق بالحيوانات، و منظمة العفو الدولية، و لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة، و صندوق إغاثة الأطفال، و جمعيات كثيرة أخرى لكنها جمعيات خيرية، تقوم بأعمال تضميد الجروح، أو ترفع كلمة التأييد و العطف، و لكنها لا تستطيع أن تمسك الظالم وتردعه عن ظلمه وبطشه، فيقف الانسان اليوم بدون ناصر ومسعف، يقف مكشوفا للظلم و الاهانة و إن تقدمت الحضارة في الآلات و الوسائل .

قطع الغيار لجسم الانسان

اكتشف في الحروب الكونية طريق بنك الدم، لاغاثة الجرحى، لأن الحاجة كانت ماسة إليها بسبب نشوب الحروب، و الحوادث، و اكتشف اليوم أحد الأطباء طريق إعداد قطع الغيار لجسم الانسان، لأن حجم الاصابات قد تعاظم بسبب التلوث المدني و التجارب الذرية، و الحروب التي تندلع حيناً بعد حين، و الحوادث التي تكثر بسبب الحياة الصاخبة .

وقد سبق أن عرف العالم قطع الغيار للطائرات والدبابات والمدافع، والآلات الصناعية الأخرى التي تصنعها الدول الغربية و تزود الدول الفقيرة بها و تجرى مساومة حول الحصول على قطع الغيار لها و لكنه لم يكن يعرف عن قطع الغيار لجسم الانسان، فكان عليه أن يصبر أو يشقى إذا فقد إحدى رجليه أو يديه، أو إذا أصيب في دماغه . أو تعرض لمرض قلبي، أو فقد رئته أو كليته، وكانت تجرى عمليات جراحية في ظروف خاصة تنجح أحياناً و تخفق أحياناً أخرى .

و قد فوجئ عام ١٩٨٣م بهذا الاكتشاف ويتضح به اتجاه و تفكير قادة الحضارة الحديثة، و هو موقف ينسجم مع الموقف السابق، فان طبيعتهم أنهم

لا يفكرون فى اجتثاث جذور المرض ، أو الآلم و الشقاء ، بل يعتبرونه حقيقـة ويصرفون هممم إلى وسائل بديلة لراحة الانسان ، كما توضع متاريس وأعمدة لامساك الكيان المتداعى .

جاء فى تقرير نشرته الصحف الكبرى كمفاجأة عام ۱۹۸۳م من و اشنطن فى أول يناير ۱۹۸۳م و لذلك يعتبر هدية العام الجديد .

« لقد خطا الطب خطوة جديدة فى عهد قطع الغيار ، بنجاحه فى صنع قلب صناعى فى مدينة سالت ليك ولا يزال الطب يواجه صعوبة فى تطوير دماغ صناعى لأن الدماغ الصناعى يمتنـع عن الاستسلام للطبيعة ، و التعاون معها ، و لكن الأطباء يعملون ليل نهار على إعداد دماغ صناعى و لن يكون من المستبعـد إذا كان عدد كبير من المصابين بأمراض دماغية يعيشون بدماغ صناعى فى المستقبـل وسيكون ذلك سلعة غالية لأن الحياة المعاصرة تؤثر على الدماغ وتشوشه أكثر من أى عضو آخر » .

وصرح كلارك كولتون ، أستاذ معهد الطب التكنولوجى ، أن أعضاء الجسم الصناعية لا يمكن أن تكون بديلا كاملا عن أعضاء الجسم الأصلية ، و لكنها تستطيع خلال سنوات عديدة أن تبقى آلافاً من النـاس على قيد الحياة ، و تحسن ظروف الحيـاة لآلاف آخرين .

و يعتقد الخبراء أن هناك إمكانية لاستبدال خمسين عضواً من أعضـاء الجسم بأعضاء صناعية ، و يجرى إنتاج ما بين مليونين و ثلاثة ملايين عضو صنـاعى بتكاليف تزيد عن ألف مليون دولار .

و يعمل البروفيسور كولتن على تحسين بنكرياس صناعى ، للمصابين بمرض السكر ، لأن هذا المرض يكثر نتيجة للهموم و الآلام والعمل المضنى و يعم حدوثه فى المناطق المتقدمة و أوساط المرفهين ، كما يعمل أحـد الأطبـاء على إعداد جلد صناعى لاستبدال الجلد المحروق ، و يعمل أستاذ آخر على إعداد يد صناعية تتحرك بمحرك إليكترونى ، و لكنهـا تكلف خمسة عشر ألف دولار ، كما تجرى التجـارب

على صنع عيون صناعية ، يتمكن بها المكفوفون من أن يبصروا بقدر الضرورة .

و قد يوفق هؤلاء العلماء فى بعض اختباراتهم ، كما وفق العلماء فى غرس القلب الذى كان لبعض الوقت حديثاً شاغباً ، و شغلا شاغلا ، واعتبره المخدوعون بالتقدم التكنى انتصاراً على الطبيعة ، و لكن هدأت العاصفة بعد زمن قصير .

ولا نكر ما حققه التكنيون من منجزات فى توفير الوسائل للانسان . ولكنه جزء يسير من حياة الانسان ، أما ما أضافه العلم فى ميدان إبادة البشر و محو آثار الحياة فيبلغ حجمه أضعاف ما أضيف فى ميدان رفاهية الانسان ، لأن وسائل الابادة عامة يتعرض لها ملايين من البشر ، و وسائل الراحة غالية و متعذرة لا يصل إليها إلا عديد من الناس ، و سيبقى السواد الأعظم فى شقاء و حرمان ، ببقاء مصدر شقائه ، و قد كان العلاج النافع أن يسد مصدر الشقاء باصلاح سلوك الانسان .

إن الخطأ يكمن فى تصور الغرب عن الانسان إنه حسبه آلة من الآلات لكون عقليته صناعية محضة ، أوحسبه حيواناً ، ففرض عليه مقاييس حيوانية والتفت إلى غرائزه ونوازعه البهيمية فأصبح الانسان بذلك حيواناً مفترساً - لايهمه إلا إشباع معدته ، و التنعم بالحياة لوحده ، و أن يسعد هو و يشقى غيره .

بحث علماء الغرب عن سعادة الانسان بتوفير الوسائل ، فصار الانسان تابعاً و عبداً للآلات ، و بحثوا عن سعادة الانسان فى تلبية غرائزه البهيمية فجعلوه جامحاً و شرساً فزادت مآسيه و تعاظم شقاؤه ، و لا يتغير هذا الوضع الذى يسير فيه الانسان اليوم إلى الهاوية إلا بتغيير النظرة إليه ، و بمعرفة حقيقته ، و إذا تفطن علماء الغرب لهذا الخطر و توصلوا إلى حل لمشاكل الانسان و سدوا منافذ الشقاء لاسعاد الانسان سعادة حقيقية ، يعيش حياة طمأنينة ، بسعادة قلبه و سلامة جسمه و رضا نفسه ، ولو بقدر محدود ، وفى منطقة محدودة ، لكان ذلك تحفة العام الجديد .

و لكن لا يتحقق ذلك بالنظرة الآلية ، ولا بالنظرة الحيوانية ، وإنما يتحقق ذلك بالسلوك الانسانى وفقاً لتعاليم خالق الانسان.

عرض سريع لاجراءات الندوة العلمية الأولى

للمعهد المركزى للغة الانجليزية و اللغات الأجنبية / حيدرآباد

حول تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها فى الهند

بقلم : دكتور شفيق أحمد الندوى

الندوة التى عقدها المعهد المركزى للانجليزية و اللغات الأجنبية فى حيدرآباد فى فترة ما بين ١١—١٣ أكتوبر ١٩٨٢م / ٢٣—٢٥ ذو الحجة ١٤٠٢ﻫ ، و التى نشر تقريرها الموجز فى العدد الماضى لمجلتنا «البعث الاسلامى» ، نرى من الواجب نشر بعض التفاصيل اللازمة فى هذا العدد أيضاً ، و ذلك تعميما للفائدة للأوساط التربوية العربية الأخرى .

ليس المعهد المركزى للغة الانجليزية و اللغات الأجنبية تابعاً للجامعة العثمانية بل هو مركز جامعى وجامعة مستقلة بالذات لتعليم اللغات الحية والبحوث اللغوية الحديثة و استخدام التكنولوجيا التعليمية المعاصرة و إعداد المتخصصين فى تعليم اللغات .

عقدت الندوة باشراف الدكتور البروفيسور عبد الحليم الندوى على نفقة المجلس الأعلى للجامعات الهندية ، حول المشاكل التى يواجهها المعلمون و المتعلمون فى تعليم اللغة العربية فى الهند بالاشارة إلى المناهج الدراسية و الأغراض المنشودة والطرق المتبعة فيها و التركيز على الخطوات الايجابية و ايجاد الحلول السلمية للديار الهندية على وجه الخصوص . افتتحها سماحة الشيخ العلامة أبو الحسن الندوى و ألقى كلمة قيمة عن الموضوع و حضرها مندوبو الجامعات و الكليات و المعاهد الهندية العربية الكبرى من معظم ولايات البلاد ، المتجاوز عددهم عن ٥٠ .

و قد تفضل برئاسة الحفل الأول للندوة المحامى الكبير المير أكبر على الحاكم السابق لولاية اترا پراديش ، و استمرت الندوة ثلاثة أيام ، ألقيت خلالها بحوث علمية هادفة ألقاها المندوبون المشاركون تناولت الجوانب التربوية كما يلى :

أولا : الصعوبات التی یواجهها الطلاب الهنود فی تعلم اللغة العربیة فی الهنـــد .
ثانیا : طرق تعلیم العربیة لغیر الناطقین بها ومشاکلها فی المعاهد الخاصة و الجامعات العصریة العامة .
ثالثا : المناهج الدراسیة المتبعة فی مثل هذه البلاد و وضعها من جدید .
رابعا : مراجعة کیفیة تعلیم النحو و الصرف و اللغة و الأدب .
وخامسا : الاستفادة من تکنولوجیا التعلیم و الوسائل السمعیـــة البصریة الشفویة بالمختبرات اللغویة الحدیثة فی تعلیم اللغـة العربیة و فی التدریبات اللغویة المکثفة علی وجه الخصوص .
واخیراً - بعض الموضوعات اللغویة الأخری التی تتضمن المشکلات التربویة لمعاهد اللغة العربیة الخاصة للمبتدئین الکبار فی سبیل تنمیة المهارات اللغویة الأربع .

و القرارات التی وافق علیها المؤتمرون و قدموها کتوصیات عامة فی الختام فهی علی النحو التالی :

(١) إن المندوبین المشارکین فی هذه الندوة یشعرون بخطورة المادة والمنهج و الطریقة فی تعلیم العربیة ویرونها متناقضة لاحتیاجات البلاد ، لهذا فانهم یتفقون علی وضع منهج دراسی متحد وصالح لجمیع الجامعات الهنـــدیة و کلیاتها علی السواء حسب المستطاع ، مع الملائمات البیئیة والتعدیلات اللازمة التی تقتضیها الاحتیاجات الخاصة للبلاد و للنطقه بالذات .

(٢) وتحقیقاً لهذا الغرض فقد قرروا تشکیل لجنة استشاریة مرکزیة ، مکونة من الأعضاء المذکورین أدناه ، لاعداد الکتب المدرسیة و لمراجعة وتنقیح المناهج الدراسیة و موادها اللغویة الموظفة للمستویات المختلفة کذلك .

١- البروفیسور عبد الحلیم الندوی ، المعهـــد المرکزی للانجلیزیة و اللغات الأجنبیة حیدرآباد ، مقرراً للجنة ٢- البروفیسورة سیدة مهر النساء ، الجامعة العثمانیة ، حیدرآباد (عضو) ٣- الدکتور محمد راشد الندوی جامعة علی کره الاسلامیـــة ، علی کره (عضو) ٤- الدکتور أی .کی. أحمـد کتی جامعة کالیکوت (عضو)

٥- الدکتور نثار أحمد الفاروقی جامعة دلهی (عضو) ٦- الدکتور مسعود الرحمن خان مرکز دراسات غرب آسیا ، جامعة علیکره الاسلامیة علی کره ، (عضو) ٧- الدکتور سید علی نیوکولیدج ، مدراس (عضو) ٨- السید شمیم الحسن جامعة جواهرلال نهرو دلهی الجدیدة (عضو) ٩- الدکتور شفیق أحمد خان الندوی الجامعة الملیة الاسلامیة دلهی الجدیدة (عضو) .

(٣) ونطلب من وزارة التربیة و الشؤن الثقافیة و المجلس الأعلی للجامعات لحکومة الهند أن تحدثا مرکزا تربویا لمعلمی اللغة العربیة فی مکان مناسب و تدعوا کبار أساتذة البلدان الهندیة و العربیة و خبرائهم لتولی مهام التربیة المنهجیة المکثفة فی البلاد لمدة سنة أکادیمیة کاملة .

(٤) و بما أن المعهد المرکزی للانجلیزیة و اللغة الأجنبیة تستهدف وضع المناهج الدراسیة وإنتاج المواد التعلیمیة إضافة إلی تربیة المعلمین ، فنوصی المعهد ذاته بتولیة إنتاج المواد التدریسیة بموجب توصیة اللجنة المرکزیة التی شکلتها الندوة بشأن المناهج . سائلین المجلس الأعلی للجامعات الهندیة الموافقة الایجابیة علی ما یرام من تزویده بالمساعدین و المعونات التی لا بد منها لتنفیذ هذه المشروعات .

(٥) کما نوصی بتقدیم طلب إلی وزارة التربیة والثقافة الهندیة فی اختیار وارسال أساتذة اللغة العربیة فی الهند إلی الجامعات العربیة ، علی حساب الدولة ، من أجل تربیتهم فی التدریس وإعداد الکتب المدرسیة و تألیفها لمدراسنا و الجامعات بصفة خاصة .

(٦) ونطلب من المجلس الأعلی للجامعات الهندیة أن یزود طلاب الدراسات العلیا و البحوث العربیة بالمساعدات السخیة ویزید عدد المنح الدراسیة بالنسبة لهم .

(٧) ونلتمس من المجلس الأعلی نفسه أن یسمح للکلیات بأن تبدأ المقررات و البرامج التعلیمیة الجامعیة وفوق الجامعیة و وحدات البحوث ، کلما وجد الطلب ، بخصوص هذا الأمر .

(٨) ونصمم علی تشکیل جمعیة لأساتذة اللغة العربیة فی الهند باسم رابطة

أساتذة اللغة العربية لعموم الهند .

تأسست رابطة أساتذة اللغة العربية لعموم الهند فى حيدرآباد برعاية سماحة الشيخ العلامة أبى الحسن على الحسنى الندوى الدائمة وعين الأستاذ الدكتور عبد الحليم الندوى رئيساً لها ينوب عنه الدكتور عبد الستار خان (الجامعة العثمانية بحيدرآباد) فى جنوب الهند والأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى بجامعة ندوة العلماء لكناؤ) فى شمال الهند . أما السكرتارية فانها فى جنوب الهند لدى الدكتور سيد على الكلية الجديدة (نيوكوليدج) بمدراس وفى شمالها لدى الدكتور نثار أحمد الفاروقى (بجامعة دلهى) و عينت الدكتورة عصمت مهدى (المعهد المركزى للانجليزية و اللغات الأجنبية بحيدرآباد) أمينة صندوق الرابطة ، أما أعضاء اللجنة التنفيذية فأسماؤهم ما يأتى :

فضيلة الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى (جامعة ندوة العلماء لكناؤ) والأستاذ الشيخ سلطان محى الدين (الجامعة النظامية / حيدرآباد) و الأستاذ وحيد الزمان الكيرانوى (دار العلوم بديوبند) و عضو من ندوة المجاهدين / كيرالا ، وعضو من مدرسة شمس الهدى / بتنه بيهار ، و لم يتحدد اسماهما بعد ، و الدكتور محمد راشد (جامعة على كره) ، و الدكتور إعجاز أحمد جامعة لكناؤ و الدكتور أى كى أحمد كتى (جامعة كاليكوت) و الأستاذ أسلم الاصلاحى (جامعة كشمير) و الدكتور محمد إبراهيم الندوى (الجامعة العثمانية بحدرآباد) و الدكتور مسعود الرحمن خان (قسم دراسات غرب آسيا بجامعة عليكره) ، و الأستاذ ضياء الحسن الندوى (الجامعة الملية الاسلامية نيو دلهى) و البروفيسور سيد عبد الرحيم (جامعة ناكبور) و الأستاذ عبد المتين (جامعة كوهاتى) و الدكتور راحت الله (جامعة كلكته) و البروفيسورة مهر السناء (الجامعة العثمانية حيدرآباد) و الدكتور عبد العلى (الكلية الحميدية بوبال) و الأستاذ شميم الحسن (جامعة نهرو نيو دلهى) وعضو مختار أو مفوض من الرئيس .

و أهداف هذه الجمعية التى تسمى ب « رابطة أساتذة اللغـــة العربية لعموم الهند » ما يلى :

١- تزويد أساتذة اللغة العربية و آدابها فى الجامعات و الكليات و المدارس والمعاهد الأخرى المهتمة بتعليم اللغة العربية كمادة من مقرراتها الدراسية ، بمنبر التبادل آرائهم عن المشكلات التى تتعلق بالمناهج و الكتب و نحوها مما يخص الدراسات العربية فى الهند .

٢- ترسيخ العلاقات مع المعاهد التى تدرس فيها اللغة العربية ومساعدتها - إذا شاؤوا - فى الحصول على الصحف والمجلات و الكتب ، واكتساب المعونات التى تستحقها من الجهات الرسمية للمجلس الأعلى للجامعات الهندية ووزارة التربية بالذات .

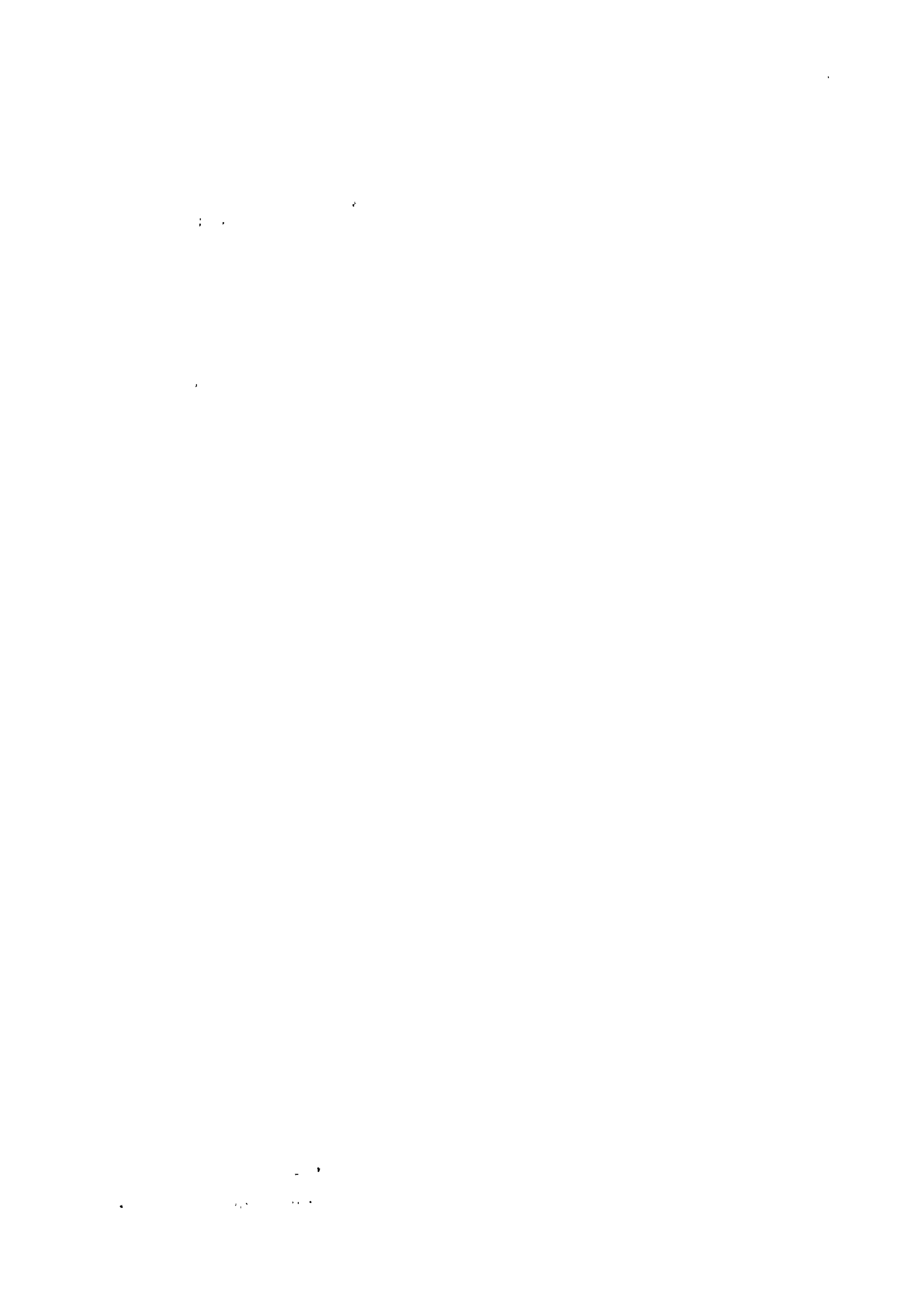
٣- تقديم مشكلة من المشكلات التى يواجهها قسم من إحدى الجامعات أو الكليات ، إلى وزارة التربية بشأن الامتداد ، و الحصول على الصحف و المجلات و الكتب ، وتربية المعلمين ، وإقامة الندوات وغيرها من المشكلات المتصلة بالحياة الأكاديمـــة .

٤- وتمثيل معهد أو قسم إلى الوزارة وطلب مساعدتها من أجله ، فى حالة التماسه من الوزارة ، من أجل الحصول على خدمات أستاذ زائر من الدول العربية تحت البرامج الثقافية المتبادلة .

٥- و تنظيم مؤتمر سنوى لأساتذة اللغة العربية على مستوى عموم الهنـــد بالمساعدة المادية من المجلس الأعلى للجامعات و وزارة التربية الهندية لتكاليف الاجتماع ونفقات سفر وعلاوات معيشة الوفود و المندوبين ، وذلك لاتاحة فرصة لتبـادل الآراء حول المشكلات التى تخص الدراسات العربية والبحوث على مختلف المستويات بالهند و توجيه الدعوة كذلك إلى وفود الدول العربية للمشاركة فى هذه المناسبات .

٦- و إقامة النـــدوات العادية وحفلات النقاش و المؤتمرات حول القضايا التربوية بجنب البرامج الثقافية المعروفة .

٧- و أى نشاط آخر يتصل بتعليم اللغة العربية و بحوثها فى الهنـد .



Phones . 49747 - 42948 Regd. No. Lw/NP 5

ALBAAS - EL - ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA)

صدر حديثاً :

الامام السرهنـــــــــدى . حياته وأعماله

هذا الكتاب يحكى قصة الامبراطورية المغولية العظيمة فى الهند فى القرن الحادى عشر حينما بدأت وجهتها تتحول من الارتباط بالدين الاسلامى . و التمسك بأهداب النبوة المحمدية (على صاحبها ألف ألف تحية وسلام) وتمثيل الحضارة الاسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندوسية ، ونظرية « وحدة الديانات » بتأثير الأغراض الشخصية و الميول الفردية و التأثيرات الخارجية ، و المصالح السياسية المزعومة .

كيف قام الامام أحمد بن عبد الاحد السرهندى فى وجه هذا التيار الجارف ، وتغلب على الوضع الشاذ ، وتهيأ لعملية « صناعة الرجال » وصنع العبقريات فى زاوية بعيدة عن صخب الحياة .

لكى تطلع على هذه القصة بتفصيل ، و ترى كيف أن العزم و الايمان والاخلاص والربانية يغير وجهة أمة بأسرها و وجه إمبراطورية بكاملها ، اقرأ هذا الكتاب القيم ، الذى هو سلسلة من رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام .

بقـــــــلم

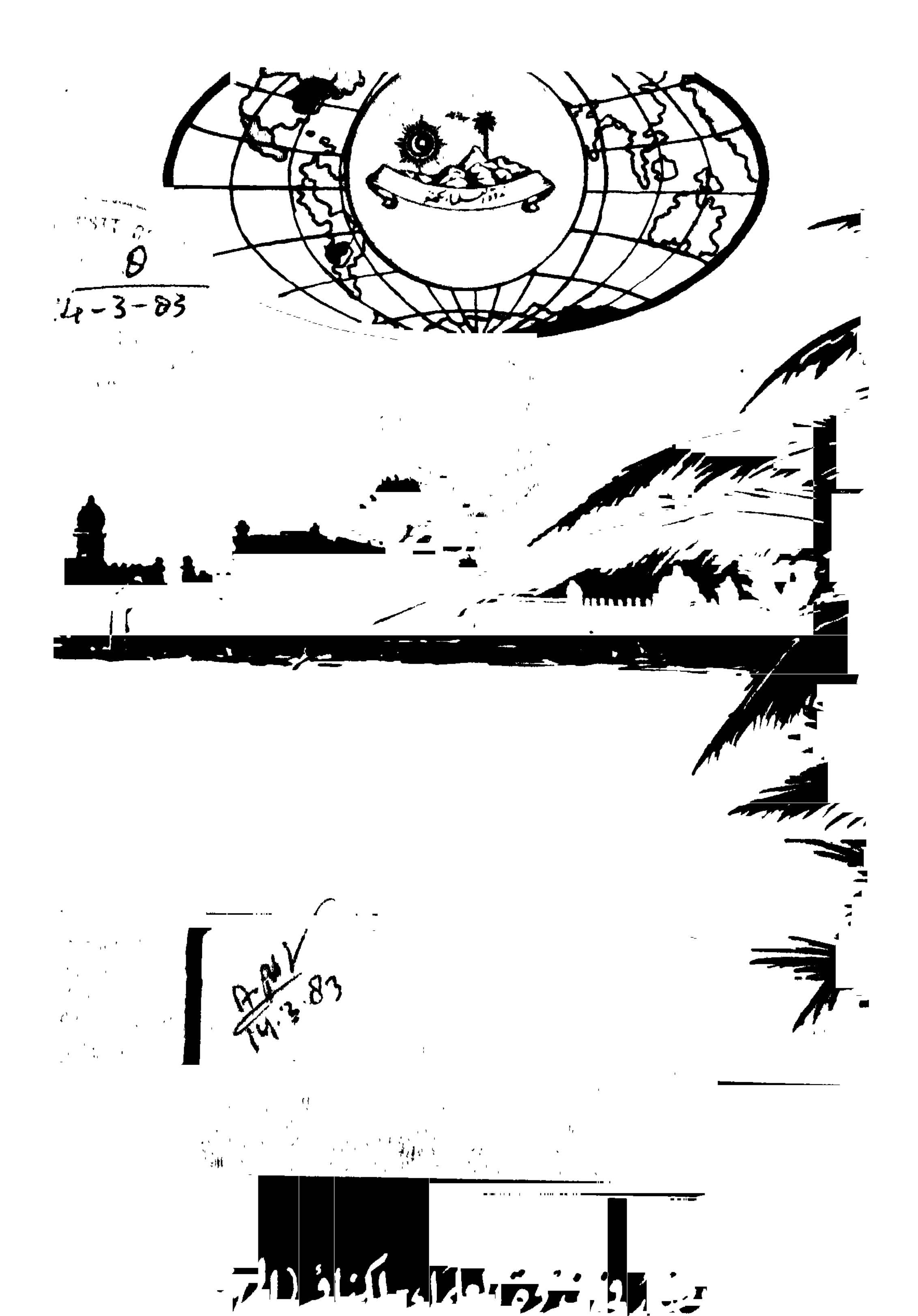
سماحة الشيخ العلامة السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

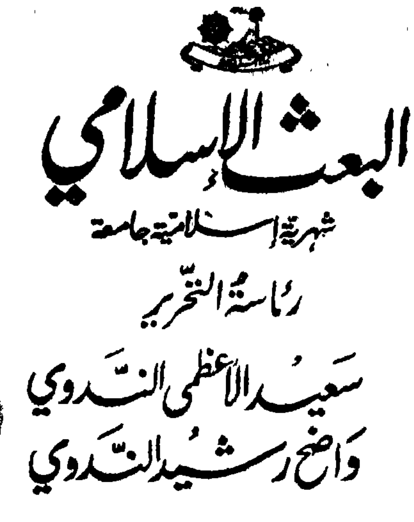
النـــــــاشر

دار القلم ، ص . ب ٢٠١٤٦ - الكويت

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيـــد الأعظمى







العدد التاسع
جمادى الثانية ١٤٠٣هـ
مارس وأبريل ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى ، غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره و ألوانه ، و هذه هى نقطة الفصل ، ونقطة الالتباس أيضاً ، الأصل — فى المجتمع الاسلامى — هو العبودية لله ، و الخضوع أمام شريعتــه و الاتصـال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان ، و الجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان ، أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفى لتحقيق مهمته فى هذه الحياة و إعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولا يأخذ منها إلا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله .

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسنى

(الاسلام الممتحن ص ١١٠)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية

مزيداً من التركيز على روح الاخلاص والتضحية يا دعاة الاسلام

مما يشجو القلب و يملؤه أسى أن يكون فى صف دعاتنا ممن لهم مكانة مرموقة ، و بين أقطاب الفكر السليم ، أناس لا يرون بأساً فيما إذا واجهتهم ظروف مضادة ، أو دعتهم مصلحة شخصية أن يجدوا فى أنفسهم تجاوباً للسير على غير هدى ، ويتمخض ذلك فى نهاية المطاف بانحراف عن الجادة ، وتظاهر بالاستياء الشديد ضد بعض المجريات من الأمور التى اعترضت لهم خلال رحلتهم العلمية والعملية التى تمتد فى طريق شاق طويل يتطلب تضحيات جسيمة ، ويتعرض صاحبه لكل نوع من الخطر على النفس والمال ، ولكل إهانة جسدية وروحية ، إذ أننا لا نعرف ولا مثالا واحداً على مدار التاريخ يكون فيه طريق الدعوة مفروشاً بالأزهار و الأوراد ، إنما هو طريق البلاء و الفتن و الصبر على الشدائد و المحن « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ، و لقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، و ليعلمن الكاذبين »

و قد تدعو بعض رجال الفكر و الدعوة إلى الانحراف عن الطريق المألوف إلى درب جديد ، ثقتهم الزائدة بعلو فكرهم وبعد نظرهم ، واتساع آفاق المعرفة ونطاق العقل لديهم ، ورغم أن مكانتهم الفكرية الممتازة تتكفل وقايتهم من كل ما يمس قيمتهم الغالية و يجرح منصبهم العظيم الذى يتولونه و تتفادى من تسرب أى شك نحو ما يتمتعون به من إخلاص و نصح للدين ، ورغم

كل ذلك فانهم لا يبالون بما إذا تناولوا بعض ظواهر المجتمع الاسلامى و أوضاع المسلمين بالنقد اللاذع و بتأكيد أن ذلك ليس إسلاماً ، و أن الاسلام برىء من مثله ، و هنالك يفيضون فى تفسير الاسلام بحيث لا يتركون صغيرة و لا كبيرة إلا و ينتقدونها من خلال التفسير العام لجوانب الدين المتعددة كأنهم يتعمدون فى تفسيراتهم نقاطاً خاصة لا يكون لها كبير صلة بصميم المنهج الدينى للحياة و شرح مفاهيم الجوانب الغامضة على الذين يراودهم شكوك فى بعض منها أو يحتارون فى تطبيق تعاليم الدين عليها فى ضوء التفسيرات المادية للنظرات الحديثة نحو الحياة والانسان.

و إذا كان هناك عدد من الدعاة الاسلاميين وقادة الفكر منهم انتهزوا فرصة الصحوة الفكرية فى العالم الحديث بوجه خاص لعرض الفكرة الاسلامية النقية بشئ كثير من الشرح والشمول ، على المجتمعات المادية فى أسلوب رصين ومقنع مؤثر ، فذاك عمل له من الأهمية مالا يستهان به ، ولقد كان ذلك العمل مشكوراً من جميع الجهات المعنية بالدعوة الاسلامية ، و كان واجباً كبيراً فى الوقت الحاضر ، لا سيما و كان الناس فى الأقطار الراقية المتقدمة و العالم المثقف المتحضر اجتازوا بتجارب كثيرة منوعة فى مجال التنمية الفكرية بجانب التنمية الصناعية و الاقتصادية ، ولكنهم لم يظفروا بضالتهم إلا فى منهج الحياة الذى اطلعو عليه من خلال ذلك الشرح المقنع الذى قام به قادتنا و دعاتنا فى مختلف الجهات و القطاعات غرباً و شرقاً .

و بفضل هذه الدراسة الدعوية الخالصة فوجئ العالم باقبال متزايد نحو دراسة الاسلام بجد و عمق وحتى فى الأوساط المادية الخالصة ، و تطلعت أنظار أهلها إلى التخلص من الأدواء غير طبعية أصابتهم بفعل العوامل النفسية فى الحضارات المادية ، التى حولت الحياة إلى كتلة من جماد يتناولها الميكانيكى بالتشكيلات التى تناسب أهواءه مع مراعاة طلبات السوق و مقدار الاستهلاك ، شأن البضائع و المنتجات التى تملأ

المتاجر و المراكز الصناعية الكبرى فى الأسواق الدولية ، فلما كان هناك نمط للحياة غير الأنماط التى جربوها ، و فيه مراعاة لجميع جوانب الحياة و فيه استجابة لجميع طلبات النفس والروح ، ولجميع الاحتياجات الانسانية ، فكيف لا تقبل عليه النفوس و لا ترغب فى إجراء هذه التجربة الفريدة من نوعها .

فكان طبيعياً أن ينال ما قام به دعاتنا المخلصون من عمل مشكور و مجهودات مخلصة فى هذا المجال اهتمام العائشين فى الحضارات والأوساط المادية البحتة ، ولكن الأمر لم يسر على مساره الطبيعى بل كان طبيعياً كذلك أن يتنبه إليه عقلاء العالم ويقيموا لهذا الاتجاه «الخطير» وزناً كبيراً ، ولا يتأخروا للحظة واحدة فى إيقاف هذا الخطر الداهم ، و المد المتفاقم ، فلم يدخروا وسعاً فى إعداد كل ما أمكنهم من وسائل الصد و إغلاق منافذ النور فى جانب ، و شل أعضاء الدعوة و تجميد عملهم فى جانب آخر ، دون أن يحفلوا بما يكلفهم ذلك من بذل النفوس والنفائس و طاقات كبيرة من الامكانيات والقدرات التى تقف فى وجوه العاملين ، سواء تم ذلك بتوجيه إنذارات تلقى فى صدورهم الرعب و تهددهم بنتائج خطيرة ، أو بصرف أفكارهم من الوجهة الصحيحة إلى جهة غير مألوفة وطريق شائك ، أو بشراء نشاطهم وحماسهم فى خدمة الفكر الاسلامى بمقابل جذاب من الاغراءات المادية التى لا تبدو أنها مادية أو أمر يعارض روح الدعوة و الكفاح الدينى .

إننى لا أنوى فى هذه المناسبة أن أشير إلى واقع خاص أو أريد إحباط تلك المجهودات العظيمة والأعمال المهمة التى تنجز فى مجال الدعوة والفكر الاسلامى اليوم ، و لا أريد أن أوفر موشرات لما قد يكون حدث هناك من مثل هذا الواقع المؤلم فى أوساط دعاتنا و كتابنا و حملة لواء الفكر الدينى فى عالمنا الذى نعيش فيه ، و إنما أريد فقط توجيه الاهتمام إلى مثل هذه الجوانب المهمة التى تسترعى

انتباه أعداء الاسلام و هم يتخذون فى التركيز عليها كل نوع من الامكانيات ، ولا يعرفون فى تنفيذ مخططاتهم أى معنى لليأس أو القعود ، و التعب و الضعف و الكلال والملال ، و لهذا الجهد الدائب والتضحية بكل غال و رخيص فى تنفيذ إرادتهم تأثير أى تأثير ، و لقد أدرك هذا السر أعداؤنا فأخذوه منا وتمسكوا به ، وجردونا من هذه الميزة الكبرى التى كان سجلها تاريخ المسلمين بحروف ذهبية ، وذلك أيضاً من ضمن إعداداتهم ونشاطاتهم التى يبذلونها فى تجفيف منابع القوة والحركة وسد منافذ النور.

و لاغرو فان ما يكب عليه أعداؤنا من إحباط كل ما يبذل اليوم فى سبيل إعادة الثقة بالاسلام و منهجه من نشاطات موسعة على المستويات العلمية و الفكرية و الاعلامية يفوق أضعافا كثيرة بازاء كل ذلك ، و عندهم من الامكانيات المادية الهائلة و الأرصدة الواسعة لكل نوع من الذخائر و الطاقات مالانكاد نحلم به فى أقطارنا و دولنا ومراكز توجيهاتنا و تربياتنا ، كما أنهم يتمتعون بالاخلاص العميق و التفانى المنعدم النظير فى سبيل المبدأ الذى يتمسكون به ، و فيما يعيشون له ومن أجله ، فهل تؤثر عليهم إغراءات أو تعوق سبيلهم قناطير مقنطرة من المال ، و هل تزعزع عقيدتهم زخارف و مناصب ؟ !

أما المسلم فلامانع لديه إلا ـ من عصمه الله ـ عن الانصياع التام لمن يريد أن يخدعه بالكلام المعسول أو يقطع عليه الطريق بحكمة بالغة وبأسلوب ماكر، دون أن يتفطن لما يختفى وراء كل ذلك من هدم و تدمير و نهب و سلب ، و لقد سرى أو يكاد يسرى هذا الاهمال فى أوساط العاملين للاسلام ، الذين جربوا المندسين إلى صفوفهم باسم العمل و الدعوة و الجهاد لاعلاء كلمة الله و لم يبالوا بتحمل أى مشقة فى تبرير موقفهم ، و إثبات إخلاصهم ، ولكن هذه العملة الزائفة لا توجد لدى المحاربين ضد الاسلام و المتآمرين عليه ، لأن هؤلاء المحاربين إذا كانوا بعيدين عن العصبية المنكرة و كانوا مخلصين لما هم فيه ، ثم إذا أدت بهم دراستهم المقارنة

بين الاسلام و الفلسفات و النظم الأخرى و تكشفت عليهم الحقيقة لا يتأخرون لحظة واحدة فى الاعتراف بالحق وقبول ما صح لديهم نتيجة لدراستهم الطويلة العميقة من فكرو منهج للحياة .

أمامنا اليوم أمثلة عديدة لأعلام المفكرين الغربيين الذين عكفوا على محاربة الاسلام مع متابعة دراستهم له عقوداً من السنين ثم توصلوا بعد التجارب الطويلة إلى أن الاسلام هو المنهج الحق لسعادة الانسان ، و آخر هؤلاء المفكرين الغربيين «رجاء جارودى» ذلك المفكر الفرنسى الكبير الذى عكف على خدمة الفكر المادى من كل نوع نحو نصف قرن من الزمان ، و لكن الله سبحانه من عليه بنعمة الاسلام فأشهر إسلامه من غير ترغيب و لا ترهيب ، و اعتنق بالاسلام باخلاص و اقتناع فى رمضان الماضى (عام ١٤٠٢هـ) .

ليس إسلام « جارودى » حدثاً عادياً يحدث مع مسيرة الدعوة إلى الله هنا وهناك فينة لأخرى ، لكنه يحمل فى طيه أكثر من مغزى نظراً إلى ما حمله من لواء الأفكار والفلسفات المادية بذاتها ، وشغل من مناصب هامة فى مجال السياسة والفكر حيث كان مفكراً كبيراً و فيلسوفاً عظيماً و سياسياً له من النشاط فى كل مجال ما يعرفه العالم المعاصر .

وقد جاء إسلامه فى وقت كانت الجهود فيه متجهة إلى تعقيم الفكر الاسلامى و تفسير منهج الاسلام للحياة بما يهدم كل أساس للعدالة الاجتماعية التى يتميز بها هذا المنهج العظيم ، و يهيمن على جميع الأيدلوجيات النظرية و الفلسفات المنهجية التى شغلت فكر الانسان المعاصر فى العالم الحديث ، و تاهت به فى متاهات من الحيرة والشذوذ الفكرى والخواء الروحى والعقد النفسية ، مما لم يجن منه الانسان أى نتيجة إيجابية على أى مستوى فردى أو جماعى فى العالم الحديث ، بل بالعكس من ذلك

فقد جنى من أجل ذلك كله جنايات خطيرة على نفسه و بنى جلدته .

و لقد جاء فى خلال محاضرات « جارودى » التى ألقاها أخيراً فى الكويت العزيزة ، أشارات تتضمن قصة إخفاق الحضارات والفلسفات المادية فى جميع القطاعات الاجتماعية والسياسية ، ورغم أنه عاش هذه الظواهر النظرية كلها و تناولها بدراسات عميقة و بتجارب شخصية فى ضوء الحقائق و الأرقام توصل أخيراً باخلاص و عمق و واقعية إلى أن ذلك كله لا يعدو سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، والتجأ إلى ظل الاسلام وانضوى إلى لواء الفكر الاسلامى حيث وجد ضالته ، والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، وسيكون إسلامه باذن الله تعالى موشر خير لأمثاله .

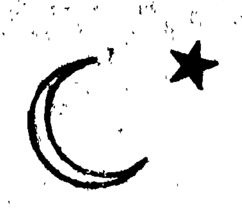
و أمثلة عديدة لأعلام المفكرين الاسلاميين كذلك ، و لكنهم لم يوفقوا فى مجال الفكر الاسلامى بأداء أى دور بناء و لم يجد فيهم المتعطشون لروح الاسلام و المتطلعون إلى مشاهدة مثال عملى للحياة الاسلامية أى نموذج يكون أجدر بالتقليد و الاتباع .

أليس ذلك عاملا كبيراً من بين العوامل الكثيرة التى يتولى إخفاق المجهودات المكثفة و الموسعة التى تبذل اليوم من منابر إسلامية كثيرة و بأساليب جذابة متعددة فى مجال خدمة الدعوة و الفكر الاسلامى .

لماذا هذه المفارقات كلها لدى هذه الأمة العظيمة التى أخرجت لأداء أعظم دور لهداية الانسان ، و لماذا ذلك التضامن و الاخلاص و التفانى عند أولئك المعتدين الظالمين الذين يريدون أن يدكوا صرح الانسانية و يعيدوها إلى حضارات مظلمة و فلسفات عقيمة ! ؟ .

هل لهذا التساؤل من جواب ؟

سعيد الأعظمي الندوي



التوجيه الإسلامي



العالم الاسلامى فى القرن العاشر الهجرى

[فصل مهم من كتاب «الامام السرهندى» لسماحة العلامة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى، الذى صدر حديثاً، وهو سلسلة مهمة من رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام، ننشر هذا الفصل نظراً إلى قيمته التاريخية والدعوية الكبيرة]

[التحرير]

★ أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر :

ينبغى - ونحن فى هذه الدراسة - أن لا نغفل حقيقة ذات شأن وهى أن العصر الذى يولد فيه الانسان، والعالم الذى يعاصره، و المجتمع الانسانى الذى يعيش فية ، هو كالنهر الجارى ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى ، و تتسق معها ، فلا يمكن - لأجل ذلك - أن يبقى بلد - مهما كان بعيداً نائياً ، تعيش فى عزلة عن سائر العالم - غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة ، والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية ، التى تجرى فى بلدان العالم الأخرى ، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث و الوقائع ، و الثورات و التطورات ، بلداً يشاركه فى العقيدة و المذهب ، و المشرب ، ويجاوره فى المكان ، و لذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير فى هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقى

نظرة عامة علی العالم الاسلامی کله فی القرن العاشر، لاسیما البلدان المسلمة المجاورة، التی کانت بینها وبین الهند أواصر علمیة، و دینیة و حضاریة. و کانت تصل إلیها لفحاتها الشدیدة اللاذعة، و نفحاتها الرخیة الناعمة، علی بعد الدار وطول المسافة.

★ الوضع السیاسی :

لقد نال الشرق الأوسط - وهو المنطقة المرکزیة للعالم الاسلامی - فی أوائل القرن العاشر - بعد زمن طویل - (ولعله بعد السلطان صلاح الدین الأیوبی المتوفی ۵۸۹هـ) استقراره السیاسی، و اجتمعت البلدان العربیة الواقعة فی آسیا الغربیة تحت الرایة التی کان رافعوها یعتزون بلقب «حامی الاسلام، و خادم الحرمین الشریفین، و حارس المسلمین» و کانوا قد نفخوا فی الخلافة الاسلامیة - التی عادت فی مصر کالبابویة النصرانیة بعد استشهاد آخر الخلفاء العباسیین «المستعصم بالله» عام ٦٥٦هـ - حیاة جدیدة، و لو کان ذلك تحت مصالحهم السیاسیة، فقد فتح یاور السلطان سلیم الأول مؤسس الخلافة العثمانیة - ۹۱۸-۹۲٦هـ بلاد الشام عام ۹۲۲هـ، و مصر عام ۹۲۳هـ، التی کانت تحت حکم الممالیك منذ قرنین ونصف قرن من الزمان، و کان حاکم مصر - حین زحف إلیها السلطان سلیم - قانصوه الغوری، و أعلن السلطان سلیم فی نفس سنة ۹۲۳هـ إعادة الخلافة، و أنه خادم الحرمین الشریفین، و وصی أمیناً علیهما من قبل المسلمین، و دخلت بعد ذلك جزیرة العرب، ثم البلدان العربیة الاسلامیة، الواقعة فی أفریقیا الشمالیة - عدا المغرب - تدریجیاً تحت حکم السلطان سلیم، ثم تحت حکم خلیفته السلطان سلیمان القانونی، (۹۲٦-۹۷٤هـ) الذی یذکره المؤرخون الغربیون باسم Sulaiman The Magnificent) یعنی سلیمان الکبیر العظیم.

وقد کان عهد سلیمان - الذی ولد الامام السرهندی قبل وفاته بثلاث سنوات -

عهد ازدهار الامبراطورية العثمانية ورقيها، إذ كانت ترفرف رأيتها على النمسا والمجر في أوروبا، و تزحف جيوشها المنتصرة - فى جانب آخر - إلى إيران، و كانت العراق كذلك، مثل الشام و مصر، انضمت إلى مملكته الواسعة، فكانت حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض فى عصره، أما فى عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢-١٠٠٤هـ فقد اشتملت مملكته على جزيرة قبرص و تونس، و عدد من ولايات إيران ذات الخصب و الريع الكثير، و اليمن، و تم فى عصره عام ٩٨٤هـ بناء الحرم المكى الشريف، و كان الامام السرهندى - إذ ذاك - قد بلغ سن الشعور و ليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث، و طبيعى أن يكون المسلمون فى ذلك العصر - و لو كانوا مسلمى الهند - يشعرون بفرح و اعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية، و اتساع رقعتها، و قد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم فى العقيدة السنية، و تمسكهم بالمذهب الحنفى، الذى كانت تدين به أكثرية مسلمى الهند.

و ظهرت فى بداية هذا القرن عام ٩٠٥هـ الأسرة الصفوية فى إيران و كان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوى ٩٠٥-٩٣٠، و قد أحكمت هذه الأسرة - تدريجياً - استيلاءها على هذه المنطقة كلها، و استقلت استقلالا تاماً، و كانت حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية، و قررت المذهب الامامى الجعفرى - خلافاً للدولة العثمانية - مذهب الدولة الرسمى، و استخدم إسماعيل الصفوى كل الوسائل، و استغل السلطة لنشر هذا المذهب، و الدعوة إليه، و حاز فى سبيل ذلك نجاحاً عظيماً منقطع النظير فى تاريخ الحكومات التى تعنى بتحويل الاتجاه الدينى للمصالح السياسية، فأصبحت هذه الحكومة - بعد أن أقامت على حدودها سوراً بشرياً يقوم على الخلاف المذهبى - بمعزل عن أن تذوب فى دولة العثمانيين التى انتشر فيها من يشاركهم فى المذهب السنى الحنفى، من القسطنطينية إلى لاهور ودلهى،

و كانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات .

و كان شاه عباس ٩٩٥-١٠٣٧هـ الذى هو أعظم سلاطين هـذه الأسرة ، و يعرف فى التاريخ بشاه عباس الكبير ، و الذى يستحق لأعماله البنائية أن يدعى شاهجان (١) أسرته ، معاصراً للامام السرهندى ، و قد بلغت الدولة الصفوية فى عصره أوجها ، و ذروة مجدها ، لحارب الأتراك ، واحتل نجف و كربلا ، و كان هو معاصراً للملك جلال الدين أكبر ، والملك نور الدين جهانكير ، و أصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف و الزوال .

وكانت البقعة الثانية من بقاع العالم الاسلامى الهامة بلاد تركستان التى دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الاسلامية ، و الثقافة العربية الدينية ، و تعرف فى الكتب القديمة بـ « ما وراء النهر » و كانت لها مساهمة كبيرة - بعد العراق - فى تدوين الفقه الحنفى ، و خلفت عدداً من الكتب القيمة الخالدة (٢) التى لا تزال مقررة فى مناهج الجامعات الاسلامية فى الهند ، و نشأت فيها الطريقة النقشبندية - التى ينتسب إليها الامام السرهندى و شيوخه - و نمت و ترعرت ، و انتشرت منها فى أجزاء العالم الاسلامى ، لقد دخلت هذه البلاد ، المخصبة الغنية بالثروات و العبقريات ، فى حكم الأسرة الشيبانية فرع الأزكبية فى بداية القرن العاشر عام ٩٠٥هـ ، وبقيت تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى - إلى ثورة روسيا البلشفية - إلا فترة قصيرة حل فيها الملك ظهير

---

(١) هو الامبراطور شهاب الدين شاهجان بن جهانكير التيمورى (م١٠٧٥هـ) بانى التاج محل فى آكره و الجامع الكبير فى دلهى .

(٢) كهداية الفقه للمرغينانى ، و شرح الوقاية و غيرهما لصدر الشريعة ، و ظلا مقررين فى المنهج الدراسى طوال قرون .

الدين بابر التيمورى بمساعدة الصفويين ، على ما وراء النهر ، و سيطر على سمرقند عاصمتها - آنذاك - ثم أصبحت « بخارى » فى القرن العاشر عاصمة الدولة الشيبانية فى عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨-٩٤٦هـ ، و الملك عبيد الله بن اسكندر ٩٦٤-١٠٠٦هـ ، وعادت بسببها بخارى مرة ثانية ، مركزاً للحياة السياسية الفكرية.

و أقرب البلدان المجاورة للهند الذى يقع غربيها ، هو أفغانستان ، تداول الحكم عليها فى بداية القرن العاشر أزابكة تركستان ، و صفويو إيران و غيرهما من الغزاة الطامحين المحليين ، فى فترات متخللة بين حكم الأسرتين المتقدم ذكرهما ، و كان يحكم « كابل » و « قندهار » المغول تارة و الايرانيون أخرى ، أما هرات فلوقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية ، و فى عام ٩٢٨هـ فتح الملك بابر « قندهار » ، ثم لما أسس الدولة التيمورية فى الهند ، جعل مقره كذلك فى الهند ، وكان يحكم من هناك ولايات « كابر » و « بدخشان » و « قندهار » ، و افتتحت أفغانستان - فى ذلك الوقت تحت تأثير دولتين عظيمتين قائمتين فى الهند ، و إيران - عهداً جديداً ، أقرب إلى الأمن و التنظيم ، و كانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولايتا هرات و سيستان فى إيران ، وإن كان الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر ، وأصبح « كابل » جزءاً من الدولة المغولية ، وكان قندهار يتداول السلطة عليه المغول و الايرانيون ، و أنشأ الحاكم سليمان مرزا ابن أخى الملك بابر - الذى ولاه بابر ولاية بدخشان - فى شمال كوهستان حكومة شبه مستقلة ، أما ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانت تحت حكم الشيبانيين ، وفى عام ٩٦٥هـ احتل طهماسب ملك إيران ، ولاية « قندهار » واستمرت تحت احتلال الايرانيين إلى عام ١٠٠٣هـ ، ثم سلمها ولى العهد مظفر حسين عام ١٠٠٣هـ إلى الملك أكبر ، و من ثم كانت أفغانستان ولاية من ولايات الدولة المغولية فى

الهند ، و دام الحال على ذلك إلى القرن الثانى عشر حتى زالت دولة آل بابر التى استمرت مائتين و أربعين ٢٤٠ عاماً على أيدى نادر شاه افشار عام ١١٥١هـ .

و لما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللودهية تحكم الهند ، و قد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللودهى عام ٩٣٢هـ، على يد مؤسس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بابر الكوركانى (٨٨٨ - ٩٣٩هـ) و تأسست على أنقاض الدولة اللودهية ، المملكة المغولية ، التى كانت من أكثر دول الهند استحكاماً و تنظيماً ، و أوسعها رقعة ، و أطولها عمراً ، كانت الأسرة اللودهية ، - لتمسكها بالتقاليد الأفغانية ، و النسب الأفغانى - متمسكة بالاسلام ، متقيدة بالمذهب السنى الحنفى ، لم تعرف التجدد و « العلمانية » و السياسة اللادينية ، و كان من أكثر هذه الأسرة تديناً ، و تقديراً للعلماء ، و تشجيعاً للعلوم الاسلامية الملك سكندر اللودهى (م٩٢٣هـ) و سعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شير شاه السورى (٩٤٦-٩٥٢هـ) ، الذى لم ينهض فى تاريخ الهند الاسلامى ملك متدين عالم ، أحسن منه تنظيماً و تقنيناً ، و أكثر منه توفيقاً للاعمال الخيرية ، و تحقيق المشاريع الهائلة فى المصلحة العامة ، و لم يحصل للهند بعد وفاة الملك شير شاه السورى . إلى تولى الملك أكبر للدولة ، الاستقرار السياسى ، و التنظيم السليم ، و لم يقر للحكومة قرار ، ولم يذق سكان البلاد طعم الأمن و الرخاء و الراحة ، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقرى السلطان شير شاه السورى ، لا يمت إلى أبيه فى تنظيمه ، و تدبير مملكته بسبب ، و لم يستطع كذلك الملك نصير الدين همايون خليفة الملك بابر (٩٣٧-٩٦٣هـ) أن يحكم الهند فى أمن و استقرار ، فقد شردته حملات الملك شير شاه السورى الظافرة ، و خذلان إخوته كل مشرد ، و كان شأنه هذا حتى اتصل بطهماسب الصفوى ملك إيران ، و طلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار ،

و اعتلى الملك أكبر عام ٩٦٣ھ عرش الدولة المغولية ، و دام فی الحكم نصف قرن ، بأبهته و عظمته و سلطانه غير منازع .

و تولى نور الدين جهانكير الملك فیعصر الامام السرهندی نفسه ، حينما كان ابن ثلاث و أربعين سنة ، و توفی الامام السرهندی فی عهده ، و كانت هناك - عدا هذه الدولة المركزية التی جعلت عاصمتها دلهی - حكومات إقليميـــة فی ولاية كجرات ، و بيجافور ، و كولكنده ، و أحمد نكر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة ، و كانت الحكومات الثلاث المؤخرة الذكر من الحكومات التی كانت تعتنق المذهب الشيعی .

★ الوضع الدينی و الروحی

لقد كان التدين سمة سائدة - إذ ذاك - علی العالم الاسلامی كله ، فكان عامة الناس - رغم انحطاطهم الخلقی و العلمی - راسخی الايمان ، محبين للاسلام ، موالين له ، و كانوا يمتازون بالحمية الدينية ، و الحماسة الاسلامية ، علی تصورهم الخاص ، و بالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البدع ، و يرتكبون ما يخالف الاسلام - أحياناً - ولكن كانوا شديدی الكراهية للكفر والالحاد ، يشمئزون منهما و يتبرأون .

و لأجل هذا الذوق الدينی العام ، و الطبيعة الايمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون - الذين لا يعبأون بأی قوة مناوئة كبيرة ، و كانت أوروبا ترتعد من قوتهم العسكرية - مضطرين لاحترام شعائر الاسلام ، و إعلان صيـــانة الدين ، و حماية بيضة الاسلام و المسلمين ، و لم تكن قلوب العامة من الناس ، تستشعر عظمتهم ، و تحبهم ، حتی يتظاهروا بهذه الناحية الدينية ، ولذلك لم تتوطد حكومة السلطان سليم الأول ، و لم تثبت جذورها ، حتی لقب نفســـه بخليفة المسلمين ، و خادم الحرمين الشريفين ، و أبدی أثنا إقامته بدمشق ، الحب و التقديس للديار

المقدسة ، و الاجلال لها ، و أنفذ فى شهر ذى الحجة عام ٩٢٣هـ قافلة للحجاج من دمشق ، و بعث معهم - لأول مرة فى الدول العثمانية - بهدية كسوة الكعبة ، ومن ذلك اليوم تسمى السلاطين الأتراك بـ « خادمى الحرمين الشريفين » ومهد لهم طريق المجد ، وعظمت أقدارهم فى أعين الناس ، و نجد أمثلة عديدة فى حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ، فقد انتسخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة فى المكتبة السليمانية ، و يظهر من ديوان شعره أنه مسلم راسخ العقيدة فى الاسلام ، و أنه جدد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبى السعود (م ٩٥٢هـ) صاحب « تفسير أبى السعود » ، وبنى جداول مخصصة بحصصة فى مكة المكرمة ، و أكمل السلطان مراد (م ٩٨٤ هـ) بناء الكعبة المشرفة ـ و هو البناء الذى لا يزال إلى الآن ـ هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى .

و كان الناس فى الدولة الشيعية بايران كذلك متدينين ، عقليتهم عقلية دينية ، ويغلب عليهم الطابع الدينى ، و كان السلاطين الصفويون يغذون هذه الناحية الدينية و ينمون هذه العواطف و يتظاهرون بحب آل البيت و إجلالهم و يستغلون ذلك لقوتهم السياسية و إحكام الدولة ، و وقوعهم موضع القبول فى الناس ، فقد تجشم شاه عباس الأول - أعظم سلطان فى الدولة الصفوية ـ مشقة السفر من أصفهان إلى « المشهد » (مدفن على الرضا) حوالى ثمانمائة ميل ، مشياً على الأقدام ، و حضر النجف و قام بخدمة الكناسة لضريح سيدنا على ـ كرم الله وجهه .

و بلغ حب الناس لشاه عباس و اعتقادهم فيه ، و غلوهم فى إجلاله ، إلى حد الخرافات و السخف العقلى ، و شاعت فى الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة .

أما سكان تركستان و أفغانستان ، فان رسوخهم فى العقيدة و صلابتهم فى التدين ، و تمسكهم بالسنية و المذهب الحنفى ، شئ يضرب به المثل ، فكان الحكام و الأمراء و الوزراء ، و أصحاب البلاط - كل حسب مستواه فى المعيشة وحالة من الترف - يتفقون معهم و يسايرونهم فى كل ذلك .

وكان تأسيس الدولة الاسلامية فى الهند على أيدى الحكام من الأسر الأفغانية أو التركية ، فكان - لأجل ذلك - تأثير الدين عميقاً فى قلوب أهل هذه البلاد ، و إن كان هذا التأثير ساذجاً بسيطاً ، شأن العقلية الأفغانية و التركية ، وذوقها الخاص ، و ما زال الناس متمسكين بالسنية و المذهب الحنفى - باستثناء بعض المدن الساحلية ، و منطقة مالابار فى جنوب الهند - و كان المذهب الحنفى هو الذى يطبق فى الدولة ، و يتحكم فى المحاكم ، و ألفت هنا بعض الكتب المهمة فى الفقه الحنفى كـ « الفتاوى التتار خانية » و « فتاوى قاضى خان (١) » .

ويمتاز عدد من السلاطين فى تاريخ الهند الاسلامى بحمايتهم الشريعة الاسلامية ، و السنة المطهرة ، و كراهة الكفر و الالحاد ، و محاربة البدع و المنكرات ، و الحمية الدينية و الغيرة الاسلامية ، ويكفينا أن نذكر « محمد تغلق » و « فيروز تغلق » فى القرن الثامن ، و السلطان سكندر اللودهى فى القرن العاشر ، فقد كان التدين - حسب ما يروى لنا مؤلفو « طبقات أكبرى » و « تاريخ فرشته » و « تاريخ داؤدى » - سائداً فى عهد السلطان سكندر ، و كان يبدو من تمسك الناس بالدين ، و شدة أخذهم به أنه نفخت فى الحياة روح جديدة ، و كان الدين

---

(١) و هذا قبل تدوين « الفتاوى العالمكيرية » بزمن طويل ، و قد نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى العالم الاسلامى ، و يعرف بـ « الفتاوى الهندية » فى مصر و الشام و العراق .

أعز و أحب إلى السلطان من نفسه ، و كان السلطان من أول حياته - كما يصفه هؤلاء المؤلفون - متحمساً للدين ، يحب المذاكرة العلمية ، و بدأ الهنادك فى عهده بدراسة اللغة الفارسية ، و قبلت طائفة « كائسته » الهندكية توجيه السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها و تولوا وظائف الكتابة و الديوان فى المملكة ، ونهى السلطان عن بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازى(١) التى كانت تحمل وفاءاً بالنذر ، و اعتقاداً فى البركة و النصر ، و كانت عادة سنوية مقدسة ، كما أصدر أوامر مشددة فى منع النساء من زيارة الضرائح و المشاهد ، ويقول بعض المؤرخين : إنه نهى حمل « الضرائح » المصنوعة من القرطاس والقصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن على الشهيد و عبادة « سيتلا » - آلهة الجدرى - نهياً قاطعاً (٢) ، و يقول مشتاق : إنه هدم كثيراً من المشاهد المزورة و سواها بالأرض و أجرى مكانها الأنهار (٣) » .

و كان السلطان سليم شاه السورى يؤم الناس فى الصلوات فى المسجد ، وكان يجتنب المسكرات أشد الاجتناب .

لقد كان هذا العصر عصر رقى التصوف ، و ازدهار السلاسل و الطرق ،

(١) هو السيد سالار مسعود الغازى دفين مدينة بهرائج فى الولاية الشمالية الغربية و هو من أشهر الأعلام فى الهند ، مات شهيداً سنة ٦٨٨هـ ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء ، و الناس يفدون إليه من بلاد شاسعة و يزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج ، فيحتفلون لعرسه ، و ينذرون له أعلاماً ينصبونها على قبره .

(٢) تاريخ هندوستان لذكاء الله الدهلوى ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٣) أنظر « واقعات مشتاقى » .

حتی لم تبق بقعة من بقاع العالم الاسلامی خالية من طريقة من طرق الصوفية ، و كانت الطرق حديث المجالس و النوادی ، و كانت « بخاری » و « سمرقند » - المركزان العلميان ، و الروحيان ، و المدينتان المعروفتان - فی تركستان ، و « بدخشان » و «هرات» فی أفغانستان ، و « طنطا » و « الاسكندرية » فی مصر و « تعز و صنعاء » فی اليمن ، و « شحر » و « تريم » و « سيون » فی حضر موت ، مراكز كبيرة للعلماء و الصوفية ، و مشايخ الطرق ، و كانت أسرة باعلوی العيدروسية فی حضرموت ذات شهرة و قبول فی الناس و معروفة بالفضل و العلم - وفی هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبی بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يعرف بقطب العالم ، و كانت مدينة « تريم » مركز أشراف آل باعلوی ، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن علی السوينی بامدحج السعيد ، الذی ذكره الشيخ محی الدين عبد القادر العيدروسی (٩٧٨ ، ١٠٣٧هـ) فی كتابه الشهير « النور السافر فی رجال القرن العاشر » ، و ختم بترجمته - التی تمتد من صفحة ٤٦٦ إلی ٤٨٠ ـ الكتاب (١) .

و قد كان للطريقة القادرية ، و للطريقة الجشتية - بفرعيها النظامية و الصابرية - رواج و انتشار ، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم و الفضل و الصلاح و الزهادة ، و لكن من الحق أن يقال إن هذا القرن قرن الشطارية العشقية التی تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية ، وسخرت الهند كلها .

أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله الخراسانی الذی نزل الهند ، فی أوائل القرن التاسع بالتقريب ، و استوطن « ماندو » عاصمة الولاية الخلجية فی الهند الوسطی ، و توفی سنة ٨٣٢هـ ، و دفن داخل القلعة فی ماندو ، كانت حياته حياة الأمراء ،

(١) ألف هذا الكتاب فی أحمد آباد عام ١٠١٢هـ .

يمتاز بالجذب و التأثير، انتفع به خلق كثير، و انتشرت طريقته فى الهند بسرعة فائقة، و لهذه الطريقه فرعان، ينتمى فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكواليارى، و بينه و بين الشيخ الشطارى ثلاث وسائط، و ينتمى الفرع الثانى إلى الشيخ على بن قوام الجونبورى، - المعروف بشيخ على عاشقان السرائى ميرى (١) - بينه و بين الشيخ عبد الله الشطارى واسطتان، و قد مزجت هذه الطريقة، لأول مرة، تعاليم «يوكا (٢)» بالتعاليم الصوفية، و اختارت من الأولى بعض الرياضات و الأوراد، و حبس النفس، و لقنت هذه التعاليم المريدين و السالكين، كما ضمت إلى الطريقة «علم السيمياء»، وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد، وشروح الرياضات الخاصة فى الرسالة الشطارية التى ألفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصارى القادرى (٣)، و توجد قصيدة للشيخ محمد الشطارى فى كتابه «كليد مخازن»

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة فى «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحى الحسنى الجزء الرابع.

(٢) نظام الرياضات الروحية و البدنية فى الهند القديمة.

(٣) و كان فى هذا القرن من الطرق المنتشرة فى الهند الطريقة المدارية، التى أسسها الشيخ بديع الدين المكن بورى (م٨٤٤هـ) و كان أساس هذه الطريقة على فكرة «وحدة الوجود» و الكشف عن معانيها و محتوياتها، و التجريد الظاهرى - حتى يقتصر على ستر العورة الغليظة - و التوكيل الصرف، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة إلى التحلل و الانحطاط، حتى أطلق لفظ «مدارى» على التكسب بالألعاب البهلوانية، و قد فقدت هذه الطريقة فى القرن العاشر تأثيرها و قبولها فى الخاصة، و لم نعثر بعد البحث و التنقيب فى «نزهة الخواطر» - الجزء الرابع - الذى أحصى فيه مشايخ كل طريقة احصاء كاملا تقريباً، إلا على رجلين كانا منخرطين فى سلك الطريقة المدارية.

ـ مفتاح الخزائن ـ تفيد عقيدة وحدة الوجود ، و عدم التفريق بين المسجد و البيعة ، و المسلم و البرهمى ، و عقيدة ظهور الاله و تجليه فى هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشئ من هذه الوحدة ، و هى ألوانها و مظاهرها المتنوعة ، وجاء فى آداب هذه الطريقة وشعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذى هو « الحجاب الأكبر » ، و من قيمة العبادات ، و من أهمية الايمان و ضرورته ، و يرفع شأن الحب الالهى ، و السكر و التفانى فيه ، و التجرد عن كل ما يتصل بالمادة و الجسم ، و الحياة الدنيا .

و كان أشهر رجال هذه الطريقة الشطارية ، و أكثرها تأثيراً ، الشيخ محمد غوث الكواليارى (م٩٧٠هـ) الذى حصل له القبول العام ، و أصبح المرجع للناس ، و كانت تضاهى أبهته و فخفختهم أبهة الملوك و الأمراء فخفختهم ، وتوازى دولته الروحية دولة البلاط ، و كان دخل عقاراته تسعمائة ألف عملة فضية (١) ، و كان له أربعون فيلا ، و جنود مجندة من الحاشية والخدم ، و كان عند ما يخرج فى سوق مدينة « آكره » تحتشد الحشود ، و يقف جموع الناس فكان يسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السرج ، و لا تعود فقاره ظهره إلى مكانها ، وكان قد استمال الملك أكبر كما جاء فى تصريح العلامة عبد القادر البدأيونى ـ و أدخله فى حلقة مريديه ، و لكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته و بيعته ، و كان لزهده ـ رغم هذه الأبهة الملوكية و الثروة الأميرية ـ صيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، و يتحدثون به ، و كان عند تسليمه على الناس ينحنى كانحناءة الركوع ، و لو كان من يسلم عليه مسلماً أو كافراً ، و كان العلماء

---

(١) و فى بعض الروايات عشرة ملايين .

ینتقدون ذلك ، و یعترضون علیه ، ومن مؤلفاته « جواهر خمسة » و «معراجیة (١) و « کنز الوحدة » و « بحر الحیاة » (٢) و کان له تأثیر کبیر علی الهند ، و راجت الطریقة الشطاریة (٣) و انتشرت ، و کانت ولادة الامام السرهندی بعد وفاته بعام .

و کان من کبار أصحاب هذه الطریقة ومشایخها الأجلة الشیخ علی بن قوام الجونبوری المعروف بعلی عاشقان السرائمیری (م ٩٥٥ھ) ، و الشیخ لشکر محمد البرهانبوری (م٩٩٣ھ) ، و الشیخ الله بخش الکده مکتیسری (م١٠٠٢ھ) کانوا مرجع خلق کثیر من عباد الله ، و قد ذکر بعض المؤرخین عن الشیخ علی عاشقان السرائی میری أنه لم تظهر الکرامات العجیبة علی ید أحد بعد الشیخ عبد القادر الجیلانی ، مثل ما ظهرت علی یدیه (٤) و کان خلیفة الشیخ محمد غوث الکوالیاری ، الشیخ ضیاء الله الأکبر آبادی (م١٠٠٥ھ) تلمیذ العلامة الشیخ

(١) کان ادعی لنفسه أنه عرج به إلی السماء مثل معراج الرسول - ﷺ - و أحدث ذلك فوضی و شغباً فی علماء کجرات .

(٢) اجع للتفصیل فی تاریخ المشایخ الشاریة ، « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٣) هذا الکتاب ترجمة لکتاب « امزت کند » ، یقول الأستاذ محمد اکرام عنه فی کتابه « رود کوثر » : « نقل فیه تفاصیل العادات ، و الأعمال و الاوراد ، التی یشتغل بها العباد الهنادکة ، و أصحاب « الیوك » إلی اللغة الفارسیة ، و کان تعرض لهذه الأعمال فی کتابه الذی ألفه من قبل « جواهر خمسة » تعرضاً قلیلا ، وتدل هذه المعلومات علی علاقة الطریقة الشطاریة بـ « الیوك الهندکی » (ص ٣٤-٣٦) .

(٤) راجع للتفصیل « العاشقیة » تألف عارف علی ، و « نزهة الخواطر » ج ٥

وجيه الدين ، سكن فى « أكبر آباد » ـ وكانت عاصمة الملك أكبر ـ ٣٥ عاماً ، و حصل له القبول فى الناس ، و دعى إلى بلاط الملك أكبر عدة مرات ، يقول العلامة عبد القادر البدايونى : « سلمت عليه مرة فثقل عليه و ساءه ، و شعر بأنى أهنته » ، و استهزأ بهذا الشعار الاسلامى و السنة الطيبة ، و قد صوره البدايونى تصويراً سيئاً ، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الاسلامية (١) .

عدا هؤلاء المشايخ المذكورين ـ أعلاه ـ كان الشيخ عبـــد الله السنديلوى (٩٢٤-١٠١٠هـ) و الشيخ عيسى بن قاسم السندى خليفة الشيخ لشكر محمد عارف بالله ـ و كان معاصراً للامام السرهندى ، و يقاربه فى السن ـ من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية (٢) .

وكان هناك مشايخ كبار ـ غير هؤلاء المشايخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطرق أخرى ، كان منهم الشيخ جائين لده السهنوى(٣) (م٩٩٨هـ) كان يدرس كتاب « الفصوص » و « نقد النصوص » ، و كان الملك أكبر يعتقد فيه ويجله ، و شاهده يوماً يصلى « الصلاة المعكوسة » فانصرف عنه ، وشيخ آخر يسمى الشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوى (٨٨٦-٩٤٩هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية ، و كان ـ رغم ـ كونه عالماً كبيراً يزاول التـــدريس و التصنيف ـ يدعو إلى « وحدة الوجود » ، و يتحمس لمذهب الشيخ محيى الدين ابن عربى وقد ألف فى هذا الموضوع عدة رسائل ، و كان الشيخ عبد العزيز شكربار (٨٥٨-٩٧٥هـ) كذلك يقول « بوحـــدة الوجود » ، و كان صوفياً يمتـــاز

(١) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر ، و« نزهة الخواطر » ج ٥.

(٢) أنظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) سهنة قرية فى مديرية كركانوه ، فى بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة .

بالأحوال و المقامات، و كان يلقى دروساً فى « فصوص الحكم » و شروحه. وهو من أجداد الامام ولى الله الدهلوى لأمه .

ونبغ فى هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهى (م٩٤٤ه) وعلا صيته، وطنت حصاته ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، و عادت غضة طريفة ، مؤثرة قوية ، و كان يبوح بأسرار « وحــدة الوجود » على ملأ من الناس، يدعو إليها وينادى بها ، و كان الشيخ قطب الدين بينادل (٧٧٦-٩٢٥ه) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين (م٩٧١ه) فى قرية كيتهل - بمديرية أنباله - من رؤساء الطريقة القادرية ، و مرشديها الكبار ، و قد استعادت بهما هاتان الطريقتان رونقهما و رواءهما . وذكر الامام السرهندى عن الشيخ كمال المذكور - أعلاه - نقلا عن والده الشيخ عبد الأحد ، أنه قال : « عند ما ينظر بنظار « الكشف » ، يبين لنا أنه لم يوجد فى السلسلة القادرية العالية بعد شيخ المشايخ الشيخ عبد القادر الجيلانى أفضل و لا أكمل حالا من الشيخ كمال (١) » .

و كان الشيخ نظام الدين الأميتهوى (٩٠٠-٩٧٩ه) فى ولاية « اوده » من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الاسلامية و الاتباع للسنة النبوية ، و صلاح السيرة ، كان يعتمــــد على « إحياء العلوم » و العوارف » و « الرسالة المكية » ، وقع بصره على كتاب « الفصوص » فى يد بعض الناس، فنزعه من يده ، و أعطاه كتاباً آخر للطالعة و القراءة ، و كان « السماع (٢) » عادة متبعة فى طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، و يتحاشاه (٣) .

(١) أنظر « زبدة المقامات » ، ص ١٠٨ .

(٢) الغناء تارة بالمزامير ، و تارة بغيرها .

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

هذه هى الأوضاع الروحية و الدينية السائدة فى العالم الاسلامى - آنذاك - و هؤلاء هم مشايخ الطرق و أصحاب السلاسل فى الهند على اختلاف مسالكهم و مشاربهم ، و تفاوت مراتبهم و درجاتهم ، الذين كانوا أسسوا فى القرن العاشر الهجرى - فى الأماكن المختلفة مراكز تربوية روحية و كان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك و المحبين للزهاد و الصالحين من عامة الناس و خاصتهم يتصلون بهم و ينتمون إليهم ، ويتمسكون بطريقتهم ، وقد شرحت هذه الأوضاع ، و تناولت هذا التاريخ بشئ من الاضافة و إطالة النفس ، ليتيسر للقارىء تقدير الجو الذى تنفس فيه الامام السرهندى ، و العهد الذى عاصره ، وذوقه و ميوله ، و ما كانت من الامكانيات و الصعوبات للعمل الاصلاحى التجديدى العظيم الذى قام به الامام خير قيام .

★ الوضع العلمى :

لم يكن القرن العاشر الهجرى قرن الابتكار و الاختراع فى العلوم و الفنون و الأصالة العلمية ، و النظر الدقيق الذى يتسم « بالاجتهاد » و التدوين الجديد للعلوم ، والزيادات ذات القيمة العلمية الكبيرة ، فان هذه الميزات إنما تتجلى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجرى ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعبقريون فى فنون كثيرة كشيخ الاسلام الحافظ بن تيمية الحرانى الدمشقى (م٧٢٨هـ) ، وشيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد (م٧٠٢هـ) ، والعلامة علاء الدين الباجى (م٧١٤هـ) و العلامة الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المزى (م٧٤٢هـ) ، و العلامة الحافظ شمس الدين الذهبى (م٧٤٨هـ) ، والعلامة أبو حيان النحوى (م٧٤٥) الذين خلفوا لنا فى علوم الحديث ، و الأصول ، و الكلام ، و أسماء الرجال و العربية آثاراً عظيمة ، و مؤلفات ضخمة ثمينة ، و كان عصر الحافظ ابن حجر العسقلانى

(م٨٥٢هـ) أمام العصر فى الحديث و صاحب « فتح البارى » الذى وصفه بعض الناس بقولهم « لا هجرة بعد الفتح » كذلك ولى من غير رجعة .

فكان القرن العاشر الهجرى قرن الجمع و الترتيب ، و التسهيل و التلخيص لكتب المتقدمين ، و إن كان يتجمل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السخاوى (م٩٠٢هـ) و العلامة الحافظ جلال الدين السيوطى (م٩١١هـ) من بحور العلم الزاخرة ، و كبار المؤلفين فى تاريخ الاسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السخاوى : إنه لم ينجب التاريخ مثله فى علم الحديث وفن الرجال و التاريخ بعد الامام الحافظ الذهبى ، و آذن علم الحديث بعده بالانحطاط و التدهور ، و يعد كتابه « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » فى أصول الحديث و مصطلحه ، و « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » فى التاريخ و الرجال ، من الكتب التى لا يوجد لها نظير ، و العلامة السيوطى غنى عن التعريف ، فانه من نبغاء الرجال المؤلفين ، و مشاهيرهم فى تاريخ الاسلام ، و تقوم بعض مؤلفاته مقام الموسوعات العلمية فى مواضيعها ، و لا يزال اسمه حياً خالداً فى الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقى مقرراً - إلى يومنا هذا - فى المناهج الدراسية فى شبه القارة الهندية و بعض البلاد الاسلامية .

« يتبع »

الاشتراكيـة أو الاسلام

★ ★ ★ ★ ★

الأستاذ خورشيد أحمد

تعريب : الأستاذ نور عالم الأمينى الندوى

أول ما يجب أن يفهم، هو أن الاشتراكية ما هى؟ وبعد تحديد مفهومها و برنامجها يمكن أن يقدر مدى تحديها للعالم الاسلامى تقديراً صحيحاً .

★ تعريف الاشتراكية :

كلمة « الاشتراكية » من تلك المصطلحات العديدة التى يكتنف تحديد مفهومها اختلاف شديد و اضطراب فكرى ، فهذه الكلمة تستخدم بدءاً من تدخل الحكومة العادى فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وانتهاءاً إلى تأميمها الاجبارى لجميع وسائل و موارد الثروة و الأشياء الاستهلاكية ، وما إلى ذلك من المفاهيم ، وتطلق الكلمة بدءاً من الفكر و الفلسفة حتى على المصطلحات الاقتصادية المتواضعة ، و يعبر بها عن الأفكار الاقتصادية و السياسية ذات النوعية المختلفة ، التابعة لشتى العوامل ، و لذلك فيوجد فى مفهوم الاشتراكية من الاختلاف ما ربما لا يوجد فى شأن أى كلمة أخرى ، و من ثم قال البروفيسور « جود » (Joad) : « إن الاشتراكية كقلنسوة فقدت هويتها ، و ذلك أن كل واحد يعنى بارتدائها على رأسه » (١) .

و يشكو كاتب المقال الفاضل لموسوعة العلوم الاجتماعية أيضاً بقوله : إن

---

(١) Joad, C. E M. Modern political theory, Oxford .

مصطلحات « الاشتراكية » و « الشيوعية » و « الاجتماعية » التي يستخدم كل منها بديلا عن الآخر على العموم ، مبهمة غير واضحة للغاية و محرومة من التعريف الصحيح » (١) .

★ و يشكو أحد الكتاب الانجليز بما يأتي :

« إن هذه الاشتراكية مرئية و غير مرئية أيضاً ، و نظرية و عملية في وقت واحد ، و تصوري و مادي معاً ، و قديم أقدم و جديد أجد . إن هذه الكلمة تستخدم بدءاً من العاطفة و الشعور العادي انتهاءاً إلى البرامج العملية الواضحة ، ويعرضها شتى أنصارها في شتى الصور ، فمثلا : فلسفة حياتية ، نوع من الديانات ، دستور أخلاقي ، نظام اقتصادي ، عرض تاريخي ، مبدأ قانوني ، ثم يقال عنها في وقت واحد : إنها حركة شعبية ، و تحليل علمي ، و تعبير عن الماضي ، و تصور للمستقبل ، نفير حرب ، وإعلان أمن ، وثورة عنيفة ، وانقلاب هادىء ، و صحيفة حب و إخلاص ، و تمثال تباغض و إثرة ، أمل للانسانية ، و عدو للحضارة ، حاملة لواء عهد جديد و نذير دمار مهيب » (٢) .

تتبدى من المقتطفات المسوق أعلاه مدى الاضطراب الفكري في تعريف الاشتراكية ، ومن هنالك فان كثيراً من أنصار الاشتراكية لا يجدون صعوبة ما في تغيير موقفهم لدى الجدال والنقاش ، أو تقليب جنبهم لدى اعتراض أي مشكلة .

---

(١) Jaszi, Oscar, « Socialism » Encyclopaedia of the social scieces. The macmillan Co., New York 1950. Vol. XIV, P. 210.

(٢) Shadwell, A. Quarterly Review. London, July 1924. P. 2. Quoted by Loucks William N. Comparative Economic Systems, HarPes & Bros. New york, 1964 P. 179.

و بعد كامل الاعتراف بهذا الجانب للاشتراكية سنحاول أن نوجد صورة للمعنى فى هذه الغابة من أخلاط الأصوات ، و نحاول أن نحدد ـ متغاضين عن الأنواع التى إنمـا تطلق عليها الاشتراكيـة تكلفاً ـ الأفكار و التصورات التى الاشتراكيـة عبـارة عنهـا .

بوسعنا أن نصرف النظر عن النزعات الاشتراكية التى يبحث عنها فى الماضى البعيد ، لأنها جميعاً جانبية جداً ، و ناقصة ومبهمة ويوطوبية (خيالية) (Utopian) و هى وليدة حالة خاصة فى وقتها و تأتى كمحاولة للقضـاء على عدم اتزان ما ، أما كفلسفة جامعة وحركة اجتماعية فالاشتراكية ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وموضع عنايتنا أصلا هو هذا العهد الجديد الاشتراكية .

★ إرتقـاء الاشتراكية :

ولدت الاشتراكية من بطن الحضارة الغربية وفى حضنها نشأت و ترعرعت ، و لا بد - من أجل هذه النظرية و هذه الحركة - من وضع خلفياتها الحضـارية فى الاعتبـــار .

قد كانت بداية الحياة الجديدة للحضارة الغربية من التيار الفكرى والنفسى الذى يعرف بالنهضة أو الانتفاضة الجديدة (Renaissance) والذى كان عبارة عن الثورة ضد القهر و التشدد الدينى فى القرون الوسطى ، و ظهرت أولا فى المجال الفكرى الليبرالية (Liberalism) التى كانت ظاهرتها الأولى إحياء الأدب القديم ، وكانت هذه الحركة فى الواقع رمزاً للاتصال الفكرى مقابل العهد الدينى فى أوروبا ، بعالم ما قبله ، فكان التراجع إلى الأدب الاغريق و الرومى الوثنى العريق (Pagan litrature) و التجرد فى جميع مجالات الفكر و الفن من القيم التى كانت من معطيات الدين ، بل اتخذ موقف الحياد عنها و الثورة ضدها ثورة عنيفة عارمة . ثم برزت هـذه

اللیبرالیة فی مجال الفلسفة و ادعت قطع رحلة الحیاة علی غنی عن التعالیم الالهامیة، وکانت حرکة « العقلانیة » (Retionolism) و حرکة « الانسانیة » (Humanism) حاملتی لواء هذه النزعة ، ثم تعدی ذلك إلی الأخلاق و الاجتماع و ظهرت تجاه الأخلاق التقلیدیة کیفیة من تحرر و انطلاق و شذوذ ، ثم ظهرت هذه التحرریة ذاتها فی نطاق الدین بالذات مما ولد حرکة الاصلاح الدینی (Reformation) و ما ظهر من الاتجاه بالمجموع کان موقفه اتخاذ مصالح هذه الدنیا أساساً بدل اتخاذ الآخرة ، و قد عاد مدار القیم الجدیدة هو تحصیل الدنیا ، و حصول المکسب المادی ، والتمتع باللذات ، و المادیة ، و کان المجال الأخیر لبلورتها هو السیاسة ، و تجلت فیه فی صورة « الفردیة » (Individualism) و کانت صورة ضد الملوکیة و الحکومة المستبدة ، و شنت المعرکة من أجل حقوق الفرد ، و أخیراً فقام بناء الجمهوریة اللادینیة علی أساس حاکیة الفرد ، وکانت شعبة من السیاسة بالذات الامارة الدولیة الشاملة باسم الدین ، فقامت الحرکة ضدها هی الأخری ، وحل محل الدولیة و العالمیة تصور القومیة الجغرافی المحدود ، و بالتالی تجلی هذا التیار الجدید فی دائرة الاقتصاد هو الآخر ، و نشأت علی أکتاف الثورة الصناعیة ، الرأسمالیة الجدیدة ، التی أعطت الفرد الحریة المطلقة فی المجهودات الاقتصادیة و اعتبر رأس المال قوة حاکمة أصلا ، و کان کسب المنفعة الشخصیة قوة موجهة للاقتصاد ، و حدد نطاق مدخل الحکومة أکثر ما یکون ، مما ولد الفردیة الاقتصادیة العنیفة (Economic - Individualism) - و استخدمت القوی العلمیة و التکنولوجیة (Technological) کافة فی تصعید الحضارة الفردیة ، و بینما عملت حرکة اللیبرالیة هذه علی القضاء علی کثیر من المفاسد الناشئة عن الاستبداد الدینی والسیاسی ، و ولدت قوی اختراعیة جدیدة ، إذا بها قد أوجدت قضایا و تعقیدات متنوعة ، وبدأ الانسان الجدید یسلك

طريق دمار من الانطلاق العائلى ، متخطياً حدود الأخلاق و الدين ، و الأعراف ، و بدأ عهد جديد أسوأ للظلم و الاستغلال ، و تجلت هذه المفسدة على أشد مايكون فى مجال الاقتصاد ، وما ظهر ضدها من ردود الفعل ، حلت فيه الجماعية محل الفردية ، وقد أبقى على جميع الأسس للحضارة الغربية على ما هى عليه ، ولكن طفقت تقترح تدابير من أجل إلزام الفرد بالمصالح الاجتماعية ، و ظهر تصور إعارة المجتمع أهمية مركزية بدل الفرد ، و كان تبلوره على شكله النهائى فى حركة الاشتراكية .

نبعت الاشتراكية من أساس الحضارة الغربية : العقلانية واللادينية ، والمادية ، و اتجهت إلى العمل على تصحيح و إكمال بعض جوانب الافراط و التفريط فيها - القومية ، و الفردية ، و الرأسمالية - عن طريق الاجتماعية ، و الطينة التى اختمر منها عجينها هى طينة الحضارة الغربية ، غير أنها تتم بعض جوانبها ، و تنفى بعض جوانبها و تحد منها ، تلك هى الخلفية النفسية و الحضارية للاشتراكية (١) .

---

(١) يقول أحد الكتاب الأمريكان المعروف « رسل دبليو ديوينبورت » : إن الصلة بين الحضارة الغربية الصناعية وبين المدنية الاشتراكية هى الصلة بين الأم و بنتها ، فنى عروقهما تجرى دم واحد ، و أساسهما واحد .

« و الأمور التى تضع الفرق بين أمريكا و روسيا ، لا تترك العالم الحر فى حيرة وذعر مثل الأمور التى توحد بينهما ، والشئ المشترك بين هاتين « الحضارتين التقنيتين » هو فلسفتهما التفاؤلية ، التى هى كلية جريئة فى شأن إحداهما ، و نسبية مترددة فى صدد أخراهما ، و لكن توجد على كل حال تفاؤلية ترى الانسان مولود الأرض ، وسعادته تتوقف على حصول الأغراض الاجتماعية التى كانت وسيلة الحصول عليها هى كثرة الانتاجات الصناعية و التوفر الاقتصادى و التعاون الفكرى ، صحيح أن ★

و تطلق كلمة الاشتراكية فى الأدب الحديث على ثلاثة أشياء مختلفة :

(ألف) نظام الفكر أو الفلسفة الاجتماعية التى ظهرت ضد الفردية والرأسمالية .

(ب) الحركة الاجتماعية العملية التى تبلورت من أجل إلغاء النظام الرأسمالى ؛ و إقامة النظام الاشتراكى .

(ج) نظام الحكم الذى قام فى الدول التى نجحت فيها الحركة الاشتراكية فى إحداث ثورتها المنشودة .

و يوجد بين هذه الثلاثة اتحاد جوهرى ، إلا أنه لا بد - من أجل التحليل و المقارنة - من التفريق بين النظرية والحركة و النظام ، و سيكون النظام والنظرية هما نصب أعيننا فى هذه الدراسة ، و سنتعرض لكيفية الحركة وما ولدته من قضايا و مشكلات ، و لكن استطراداً ، لا أصلا .

كان قد بدأ النداء يرتفع منذ المنتصف الأخير للقرن الثامن عشر ، ضد الرأسمالية و اللاالاتزانية التى تنطوى عليها ، و الظلم و الاستغلال الناجمين منها ، و معاملتها السيئة مع الشعب عامة و الطبقة العاملة خاصة ، و تصاعد الشعور فى مستهل القرن التاسع عشر بأنه لا بد - من أجل إصلاح الحال - من إحداث

★ التفاؤلية الكليانية والتفاؤلية التحررية قد ولدتا نوعين من الانسان : الانسان الجدلى والانسان الصناعى ، غير أن الخجل والحيرة اللذين تواجههما حورية الحرية ، هما أن الانسان الصناعى رغم اختلافه إلى حد عن الانسان الجدلى ، لا يختلف عنه كثيراً على طريق دراماتيكى ، الحقيقة أن الانسان الجدلى هو ذرية الانسان الصناعى ، كما يثبت من تاريخ الماركسية »

Russel W. Devenport, The dignity of man, Harper and Bros, New york, 1955, PP. 238 – 39.

تغييرات جذرية فى الحياة الاقتصادية ، و بما أن الرأسمالية كانت تقوم على أساس الملكية الشخصية الجامحة و التجارة الحرة ، فضربوا على هذا الأساس ، و طرحوا تصور أنه إذا أممت وسائط الانتاج أو جعلت الملكية الجماعية فسيعود الأفراد جميعاً سواءاً ، و لا يعود هناك ما يشكل سبباً فى الظلم الاقتصادى ، و ينشأ عن ذلك مجتمع يكون أصح و أصلح ، و كانوا يعتقدون أن هذا التغيير يمكن إحداثه عن طريق تمهيد الرأى العام و نتيجة الممارسات السياسية العامة ، ويمكن استخدام طبقة الحكام وأصحاب السلطة والنفوذ أنفسهم وسيلة لهذا الغرض ، وكان « سنات سائيمن - فيورهر » و « روبرت أوون » حاملى لواء هذا الاتجاه ، وظلا منصرفين إلى التبشيرية ، وبما أنهما كانا يعملان على فردية الرأسمالية ، ويريدان أن يجعل مصلحة المجتمع دون الفرد أساساً ، فسميت هذه الفكرة الجديدة بالاشتراكية .

و طلع فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر (٥٠ - ١٨٢٦) على الأفق الاشتراكى « ماركس » و ظل هو و أفكاره تسود الجو على مدى الخمسين عاماً القابلة .. الأمر الذى كان يعرضه من سبق « ماركس » على أسس أخلاقية وإنسانية ، عاد « ماركس » يعرضه فى الظاهر كعلم ، و منذئذ حتى يوم الناس هذا لا تزال كل مدرسة من مدارس الفكر الاشتراكية - تقريباً - تتسم بطابع أفكار « ماركس » و زميله فى التأليف « فرادرك اينجلز » .. قد كان الفكر الاشتراكى موجوداً من قبل على صورة أمل ، و أمنية ، و اقتراح ، و لكنه لم يأخذ حتى الآن صورة نظرية شاملة و نظام بديل ، و مأثرة « ماركس » و « اينجلز » فى الواقع أنهما حبياه هذه الصفة (١) ، حتى إن فروع الاشتراكية التى أبدت رضاها بالاصلاحات الجانبية ،

---

(١) و نشير فيما يلى إلى أهم تأليف « ماركس » و « اينجلز »

١- « المنشور الشيوعى الرسمى » (Gommunist Manifesto) الذى ★

٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥

★ صدر فى فبراير عام ١٨٤٨م ، واستهدف أصلا النظام الرأسمالى الذى أدعى فى شأنه بكل قوة أنه مشرف على الانهيار ، وتقوم مذه على تعبير تاريخى خاص — التعبير الاقتصادى — و هذا المنشور قد سما بموضوع النقاش عن مستوى الأخلاقيات إلى صعيـــد التاريخ و الصوصيولوجيا ، و اعتبر موت الرأسمالية و نشوء الاشتراكية شيئاً يقتضيه التاريخ ، و صارت القضية قضية المجتمع كله ، و فوض تقرير مصيره إلى الصراع الطبقى ، (راجع ماركس وايفجلز : المقالات المختارة ، موسكو ١٩٤٦م ، ص ٩٧ - ١٤٢).

٢- « نقد الاقتصاد السياسى » (Critique of Political Economy) جاء وضع هذا التأليف فى إثبات الدعوى التى احتواها كتـاب « المنشور الشيوعى » غير أن الكتاب لم يتم ، و إنما تم تحرير البابين اللذين صدرا بالعنوان المذكور أعلاه ، و مقدمة الكتاب من أهم الكتابات فى الأدب الاشتراكى . جاء فيها تنسيق نظرية مادية التاريخ تحت ١٥ نقطة ، كما جاء فى « نقد الاقتصاد السياسى » التعرض لبيان نظرية القدر الفائض فى صورته البدائية ، (ليراجع كارل ماركس و اينجلز : المقالات المختارة ، موسكو ، ج ١ ص ٢٩٩ - ٣١٣).

٣- « رأس المال » (Capital) قد أخفق كتاب « نقد الاقتصاد السياسى » فى إثبات تلك الدعوى ، و بالتالى كان غير مؤثر و غير منتج وعاد ماركس لهذا العمل فى ١٨٦٢م من جديد ، و بدأ يحرر نقده الأصلى مؤسساً على ذينك البابين والمعلومات الحاصلة عن المتحف البريطانى ، وظل يقتنى منذ ١٨٥٠م إلى ١٨٦٢م المواد فحسب ، و استطاع أن يؤلف المجلد ★

o o o o o o o o o o o o o

★ الأول من الكتاب بفضل جهده ليل نهار فى الفترة ما بين ١٨٦٢ م و ١٨٦٧م ، وصدر المجلدان الثانى والثالث فيما بعد موت ماركس ، حيث صدر المجلد الثانى فى ١٨٨٥م و المجلد الثالث فى ١٨٩٤م ، و ألف المجلد الأخير بناء على مذكرات ماركس ومسوداته ، وليست الاشتراكية موضوع هذا الكتاب و إنما هو الرأسمالية ، و احتوى هذا الكتاب وحده فلسفة ماركس التاريخية و الاقتصادية ، و الكتاب ذو أسلوب قصصى واقعى بالاضافة إلى الأسلوب التحليلى ، ويتضمن عرض ارتقاء الرأسمالية وقوانينها التاريخية فى المستقبل ، و قد جاءت الاشارة فى هذا الصدد إلى أن النظام الحياتى فى عهد يكون فى الواقع وليد وسائل إنتاج ذلك العهد و العلاقات الانتاجية المبنية عليها ، فلو شئنا أن نقضى على الحضارة الرأسمالية لكانت وسيلة ذلك تحويل وسائل الانتاج من الملكية الفردية إلى الملكية الجماعية ، والعلاقات الانتاجية ، والمؤسسات الاجتماعية العاملة ، فى المرحلة الرأسمالية المعاصرة ، لا تتفق فى شئ مع القدرات الانتاجية الجديدة ، فقوة الأوضاع هذه لا ترضى بدون أن تقضى على تلك العلاقات و المؤسسات ، و تحل محل الاشتراكية التى تنشأ بناءاً على القانون المجتمعى الطبيعى ، و موضوع ماركس أصلا هو ما تنطوى عليه الرأسمالية من التناقضات والظلم والاستغلال (Explcitation) والمغايرة (Alienation) ، وله فى ذلك مباحث قيمة جداً.

٤- فيما قبل تأليف « رأس المال » كان قد حرر ماركس مقالا وجيزاً باسم « فرضية فيور باخ » (These of Feuerbach) حول المفكر الألمانى « لدوك فيور باخ» وجه فيه انتقادات فلسفية إلى الدين ، (ليراجع ★

o o o o o o o o o o o o o

« المقالات المختارة » ج ١ ص ٣٥٢ - ٥٥) و كذلك ألف كتاباً باسم « إفلاس الفلسفة » (Poverty of Philosophy) وذلك فى ١٨٣٧م ، جاء فيه انتقاد شديد للاشتراكية الخيالية ، وموضوعه الرد على المفكر الفرنسى « برودهون » (راجع Poverty of Philosophy ط : موسكو) وهناك كتابات عديدة بقلم ماركس على الثورة و طريق الثورة ، جاء فيها تعليق على ثورة فرنسا الفاشلة عام ١٨٤٨م (Civil War in France) و انتقاد لـ « كوميون باريس » المنعقد ١٨٧٧م ،

٥- « نقد للبرنامج الغوطى » (Critique of the Gotha Progromme) وهو من آخر كتابات ماركس ، تناول فيه بالنقد برنامج الحزب الديموقراطى الاجتماعى فى ألمانيا - المعروف بالبرنامج الغوطى لأنه جاءت الموافقة عليه فى المؤتمر الذى عقد فى مكان « غوطا » (Gotha) (انظر « المقالات المختارة » ج ١ ص ١٣ - ٤٨) و قد حدد ماركس فى هذا المقال لأول مرة ، مرحلة الاشتراكية : الأولى و الآخرة ، و جاء فيه بعض أفكار ماركس فى صورة واضحة فى شأن المجتمع الاشتراكى ، على حين كانت كتاباته الأخرى متسمة بطابع نقدى و سلبى .

ومن مؤلفات « اينجلز » الأولى : « وضع الطبقة العاملة فى انجلترا » (Condition of working class in England) الذى صدر عام ١٨٤٥م ثم ساهم فى تسويد « المنشور الاشتراكى » و إن كان يقول إنه تأليف ماركس ، و ليس له أى مساهمة فيه إلا بالاسم ، (انظر ديباجة الطبعة الثالثة) وقد حرر « اينجلز » مقالات و كتيبات غاية فى القيمة والأهمية

ليست خالية من آثار تصور هذا النظام الكلى (١) ، و إن كانت تبرز جانباً آخر نظراً لمصالحها و ضروراتها ، وعادت الاشتراكية اليوم تحمل معنى مجتمع وحضارة ، و تنادى بالتغيير الكلى حسب وجهة نظرها ، و تلك هى النقطة الأساسية التى نادى بها الطبقة العليا من الكتاب الاشتراكيين ، واعترف بها جميع النقاد الفضلاء البارزين القائمين بالدراسة الاكاديمية و العلمية حول الاشتراكية (٢) .

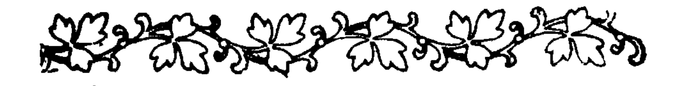
★ تناول جوانب شتى للاشتراكية بالشرح و الايضاح ، لكن « اينجلز قد أودع فلسفة المادية الجدلية بكاملها فى كتاب واحد بصورة جامعة للغاية ، وهو (Anti – Duhring) و لهذا الكتاب دور بارز فى تبليغ الاشتراكية الماركسية و ترويجها ، و قد بحث اينجلز على الأسئلة الجوهرية الناشئة فى صدد الأمور المتعلقة بالعلم ، فى (Dialectics of Nature) و هو باعتبار تكملة لـ « رديو هرنك » (ط : موسكو ١٩٥٤م) واستعراض خاطف لهذا الأدب يدل على أن ماركس واينجلز قد دون الفكر بكامله فى صورة نظـــام .

(١) احتفالا بالعيد الذهبى المئوى للمنشور الاشتراكى فى ١٩٤٨م قد أصدر حزب العمال فى بريطانيا ، طبعة جديدة له مشفوعاً بتعريف جديد بقلم أحد مفكريها المعروفين الاشتراكيين « هيرالد جيسى لاسكى » و جاءت فى الاسم الذى أطلق عليه دلالة دقيقة على تفاعلها : « المنشور الشيوعى ـ المعلم الاشتراكى » (The Communist Manifesto – Socialist Landmook)

(٢) نحن نعرف أن هناك عديداً من رجالات القلم ، يطرحون أنه يمكن إفراز الفكر الاقتصادى الأساسى عند الاشتراكية من فلسفتها المتعلقة بما وراء ★

o o o o o o o o o o o o o

★ الطبيعة (الميتافيزيقا) إذاً ليسا بمتلازمين ، و إنما نادى بذلك أولئك الذين كانوا يحـاولون أن يتخذوا من الاشتراكية مزيجـاً ، مثلا : دعاة الاشتراكية المسيحية ، إلا أن ذلك إنما أمكن هنالك لأن المسيحية بدورها كانت تقول بالأزدواجية ، و لم يكن لها نظام اجتماعى اقتصادى ذاتى ، ثم إن الواقع أن هذا التطعيم لم ينجح ، و لفظت المسيحية شيئاً فشيئاً أنفاسها الأخيرة و لم تعد فى هذا المزيج إلا الاشتراكية ، و قد قال « سدنى هك » وآخر من رجالات القلم فى العهد الجديد ، إن أصحاب هذا الاتجاه كأقلية لا تسترعي انتبـاهاً ، و لا ترضى بما يقولون الأغلبية الساحقة بل الاتجاه السائد (Mainstream) عند المفكرين الاشتراكيين ، كما يعجز عن تأييده كتابات مؤسسى الاشتراكية و نظامهم الفكرى بالمجموع .



★★★★ ★★★★

المرأة فى التشريع الاسلامى

★★★★★★★★★★★★★★★★

—: ٢ :—

الدكتور توفيق محمد شاهين

★ هل هناك فروق حتمية :

يرى الأستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه : مطالعات فى الكتب و الحياة: أن المرأة تختلف عن الرجل فى الكثير من الظواهر و البواطن فى مادة الدم ، و نبضات القلب ، و عوارض التنفس ، وفى سحنة الوجه و حجم الدماغ ، وهندام الجسم ، و نغم الصوت و لا يزعم أن المرأة هى الرجل و الرجل هو المرأة إلا من ينكر الحس ، و يناقض البداهة ، فالبداهة و الخبرة ترسمان مجالا للمرأة .. هو القيام على النسل ، و ما هو بالعمل الهين و لا بالحقير ، و ترسمان للرجل مجالا هو عراك الحياة وشئون السلطان ، وما هو بالعمل الكبير عليه، ولا هو بالنصيب الذى يحسد من أجله »

و يرى العالم الروسى (نيميلاف) فى كتابه (المأساة الحيوية للمرأة) أنه لا مساواة بينها و بين الرجل ، كما أثبتت ذلك تجارب العلوم الطبيعية ، ولم تكلفهما الفطرة بأعباء سواء »

و يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، فى كتابه (المرأة كما أرادهاالله) إنها (المرأة) تمثل النوع الثانى للجنس الانسانى ، فالجنس لفظ عام ، و ينقسم هذا اللفظ العام إلى مدلولين: الرجل و المرأة ، وإذن فالرجل نوع من الجنس ، والمرأة

نوع من الجنس ، ومادام الجنس يشملهما فلابد من وجود خصائص مشتركة يشترك فيها الرجل و المرأة شركة لا تميز فيها ، و إذا انقسم الجنس إلى نوعين : أى إلى رجل و امرأة ، فلا بد أن توجد سمات ، أو يوجد مجال للرجل ، و أن يوجد مجال للمرأة ، و لو كان المجال واحداً ، لاكتفى الحق - سبحانه - بأن يجعل الجنس واحداً ، و لكنه سبحانه حين قسم الجنس إلى نوعين ، أشار بذلك إلى أن الجنس يجمع بينهما بخصائصه و أوصافه و متطلباته ، و أن النوع يفرق بينهما فى الخصائص و المرادات و المتطلباب ، فمن يريد أن يجعل الرجل و المرأة مجرد أفراد للجنس بدون انقسام إلى نوع ، فقد أحال فيما خلق الله ،

و يرى أن المرأة و الرجل متكاملان ، و لكن الملكات مختلفة ، و لا مجال للمقارنة بين أمرين ضروريين ، على حد قول الشاعر :

هل السمع بعد العين يكفى مكانها أم العين بعد السمع تهدى كما يهدى ؟

و نحن نحتاج الليل و النهار ، لأنهما مكملان لبعضهما ، لأن للضوء مهمة فى تكوين الانسان و النبات و الحيوان ، و لأن الليل سكن و تخرج فيه النباتات ثانى أكسيد الكربون ، فالليل والنهار لازمان و متكاملان ولا غنى عن أحدهما ، وعلى هذا قياس الذكر و الأنثى و مهماتهما فى الحياة ، و من هنا نفهم لماذا لعن الرسول المتشبهين بالرجال من النساء و العكس .. و سيظل هدى الاسلام متفوقاً و لا شك لأنه هبة السماء ، و صبغة الخالق سبحانه .

★ المسئولية ضرورية و شرف :

الاسلام دين يلبى مطالب الجسوم ، و أشواق الروح ، فى وحدة متناسقة ، و سخر للانسان كل ما فى الكون مما خلق الله و أعطاه الطاقات البناءة و المبدعة ،

ثم فضله على كثير مما خلق الله ، فتبع كل ذلك أن يحمل كافة المسئوليات التى أهل لحلها ، كخليفة لله فى الأرض و ظل له سبحانه ، فكلنا راع ، و كلنا مسئول عن رعيتــه .

و المسئولية فى الأسرة متنوعة و متكاملة و تضامنية ، يحمل كل فرد فيها ما يطيق حمله ، وما هو أهل له كشريعة واجبة ، و لا يعفى منها إنسان كامل الأهلية ، إذ « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » و « كل ميسر لما خلق له »

فالانفــاق و الكسب مسئولية الرجل ، و تدبير البيت مسئولية المرأة ، و للضرورات أحكامها التى تقدر بقدرها ، و لكل قاعدة شواذ .

وحسن رعاية البنين و العناية بتربيتهم واجب الوالدين ، بضميمة واجب الدولة والأغنياء وذوى الجاه ، حتى لا يؤرقنا نعيق نادب بتحديد نسل ، أو إباحة إجهاض ، أو التبرم بوجود فلذات الأكباد ، و أمل المستقبل .

وحين يشب البنون والحفدة عن الطوق تظل مسئوليتنا الأدبية نحوهم بالمشورة و النصح و التسديد و الدعاء ، وتبدأ مسئوليتهم المادية و المعنوية نحو الوالدين جزاء وفاقاً .. يدفع إلى هذا و ذاك دافع قوى قوامه تبادل الاكرام و الفوز بالجنة التى جعلها الرسول تحت أقدام الأمهات ، و فى وصيته « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم »

و يمتد نطاق المسئولية فى الاسلام طولا و عمقاً و عرضاً ، لتشمل بالرعاية و العناية و الرحمة كل ما أحدثه الزواج من صلات نسبية ، و عصبية ، و رحمية ، تبقى ببقاء الأجل ، و هنا تترابط الأسرة بروابط متينة ، تجعل بناء المجتمع متماسكاً قوياً شامخــاً .

و تأتى صلة الرحم لتزيد من قوة أواصر المودة و التعاون و تشمل حتى صلة

الجار الملاصق والجنب، وتتسع دوائرها حتى تعم الانسانية، التى يناديها الاسلام.

أما صنيع غير المسلمين فى ترك حبل المسئولية بكل أنواعها عند سن معينة، أو التخلى عنها متى استغنى أولادهم .. فهنى لا يعرفه إنسان الاسلام، لأنه صنيع العجماوات، بينما ظل الله فى الأرض له خلافة مسئولة، تدفع إلى الايثار لا الأثرة، و تمتدح مألوف الأشعريين حين يتواسون بما يملكون فى النائبات، إذا عزت درجة الايثار، و لله در أقوام أقاموا صرح هذا الدين بما أعطوا، لأنهم يؤثرون على أنفسهم.

★ منزلة كريمة :

الاسلام هو الذى أعطى المرأة حقها الطبيعى فى الحياة، وأحقيتها فى التصرف، فلها أن تملك، و تبيع و لها أن تهب، ولها أن ترهن .. و هى حقوق ما حصلت عليها غير مسلمة فى الحديث إلا بشق الأنفس، و بعضهن لم تحصل عليها أو على بعضها حتى الآن.

و يتسامى الاسلام فى احترام المرأة إلى الذروة، خذوا مثلا :—

رسول الله يأمر المسلمين بالتحلل من الاحرام بعد إبرام معاهدة الحديبية، على أن يعتمروا فى العام القابل، و لكن المسلمين ـ فى حزن ـ يحاورونه عليه السلام كيف يقبلون الدنية فى دينهم، و يقول الرسول : « أنا رسول الله » و يقولون : (لا بد أن ندخل مكة) فيذهب الرسول إلى خبائه مهموماً، و يقول لزوجته ـ أم سلمة ـ رضى الله عنها : « يا أم سلمة هلك المسلمون، أمرتهم فلم يمتثلوا » .. فتشير بالرأى السليم و تقول : يا رسول الله، جاءوا على أمل أن يدخلوا المسجد الحرام مقصرين، ثم منعوا ـ و هم على بعد بسيط منه ـ فهم مضطرون، فأعذرهم يا رسول الله، و لكن أخرج فأعمل بما أمرك الله، فاذا ما رأوك قد فعلت،

علموا أن الأمر عزيمة و جد لا هزل فيه ، و سيصنعون كما تصنع فاستمع الرسول - الذى أرسل إلى النـاس بالدين المرتضى و ليكمل صلتهم بالله - لمشورة امرأته ، فهدى و نحر بدون كلام ، ففعل المسلمون ما فعله حبيب الله ورسوله ، بعد مشورة أم سلمـــة .

و للمرأة الرأى فى زواجها كما أسلفنا ، و لها أن ترفض ما يقبله وليها إذا لم يوافقها الاختيار ، فلها أمرها و إذنهـا مطلوب ، وللنساء مجالات كثيرة فى دنيـا العمل تناسبهن : كالطب النسائى و الأطفال و التمريض و التدريس ، وكل الخدمات الانسانية التى تحتاج إلى رقة و مهارة .

و تحس بها فى الحج شخصاً يؤدى ما تؤدى لله رب العالمين، وقام النبى ﷺ بغزواته و معه نساء مجاهدات فى مجالهن و منهن من حملت السلاح و دافعت دفاع الأبطال ، و حين أبلت أمينة الغفارية بلاء حسناً فى غزوة خيبر .. قلدها الرسول قلادة اعتزت بلبسها طول حياتها ، ثم أوصت بأن تدفن معها بعد موتها .

فمنزلة المرأة فى الاسلام سامية ، و لكن الأفكار المسمومة تحاول تشويه الاسلام فى نظرها حتى تتحول عنه و بتحولها يفسد المجتمع ، و تسقط بالتالى المناعة الدينية .. فيجب على المرأة المسلمة - التى هى قوام الأسرة و نصف المجتمع - أن تكون واعية لما يراد بها ، ويحاك حولها ، فقد أعطاها الانسان ما أعلى من شأنها : فهى فى الناحية الروحية و الاجتماعية و الرجل سواء فى الاعتبار البشرى : « بعضكم من بعض » .

ولها بالاسلام من الحقوق ما لم تنله أختها فى غيره ، ولها حق التعليم والتعلم لرقى الحياة و الازدهار .

و كان التعدد لمصلحتها قبل مصلحة الرجل ، إذا ما زاد عدد النساء ، و إلا

فأين يذهب هذا الفائض ؟

و كان الطلاق منفذاً لها من عشرة ملتها ، و لا تريد استئنافها على بغض و تنغيص و إزعاج .

« وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعة » بدلا من أن تحيا الأسرة فى جو نكد متعاند قوامه البغض والكراهية ، واللبنات الفاسدة تعجل بانهيار الأسرة وتقويض المجتمع .

والمرأة فى الاسلام إما بنت أثيرة حبيبة ، أو أم موقرة مبجلة يترضاها جميع من حولها ، و لذلك ليس فى الاسلام (عيد الأم) ، لأن كل أيامها أعياد .

أو زوجة إنسانة مكرمة و مختارة ، أو أخت عزيزة كريمة .

وإثارة الشبهات حول المرأة - من أعدائها المسمون أنصارها - لزحزحتها عن عرشها و زعزعة كرامتها ، و قوامة الرجل عليها لا بد منها لاستقامة أمر الأسرة و الحياة السعيدة .

و هى فى حقيقة التكوين الانسانى من جنس الرجل و من نفسه .. جعل لكم من أنفسكم أزواجاً « وإنما الرجال شقائق النساء » و (يفرك مؤمن مؤمنة : إن كره منها خلقاً رضى الآخر) ، كما قال رسول الله ﷺ .

و لها من الحقوق الاقتصادية ، و حرية التصرف فى مالها مثل ما للرجل ، و لها أن تعمل فيما يناسبها حين تضطرها ظروف العمل ، و كانت لا ترث قبل الاسلام ، فورثها الاسلام :—

يقول (جوستاف لوبون) : إن مبادىء الميراث فى الشريعة الاسلامية على جانب عظيم من العدالة والانصاف ، ومن مقابلتها مع القوانين الفرنسية و الانجليزية . . نجد أن الاسلام منح المرأة حقوقاً لا نجد مثلها فى قوانينا .

و سيظل الهتاف السماوى : « وعاشروهن بالمعروف » هو الشعار للسلم .

وستظل وصية الرسول الآكرم ﷺ : (واستوصوا بالنساء خيراً) نوراً هادياً فى حياتنا.

★ هموم متوهمـــة :

و إذا كان الزواج فى الاسلام أغض للبصر ، و أحفظ للفرج ، و حفظاً للنسب ، و كرامة للزوجين ، و بقاء للنوع ، و تخليداً للذكر .. فان تعدد الزواج يقض مضاجع المرأة المتزوجة ، و يخيف التى لم يحن زواجها ، ويرضى العانس التى فاتها قطار الزواج ، و يقنع التى تقبل - لسبب من الأسباب - بعض الزواج ، أو خيرت بين أمرين أحلاهما مر .

على كل ، مسألة تعدد الازواج - وبلا حدود - كانت معروفة قبل الاسلام ، لا أن الاسلام وحده شرعها ، و باركتها الشرائع و الأعراف السائدة ، و حين حاولت الكنائس منع التعدد سياسياً .. أبقت عليه فى شكل خليلات و أخدان و صديقات و أصدقاء .. بيد أن الاسلام هذب التعدد ، و جعله فى مقدور طبيعة البشر فى العدد ، و جعله رخصة عند الضرورة ، و شرط له العدل ، و أشار إلى أن العدل يعسر تحقيقه ، و يكلف الجهد و المشقة ، و عند مجرد الخوف من الظلم فواجب المسلم الاكتفاء بواحدة ، لئلا يغلب شر التعدد خير ما أبيح له ، و دره المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

و يرى (دينيه) فى كتابه : (أشعة خاصة بنور الاسلام) : أن تحريم التعدد أدى إلى ظهور عوانس و أبناء غير شرعيين .

و قامت النسوة يوماً بمظاهرة لنصرة حقوق المرأة ، و منها المطالبة بمنع تعدد الزوجات ، و قابلن الأستاذ العقاد رحمه الله وسألنه المشاركة فى التظاهرة .. فنصحهن بالكف عن التظاهر ، لأنها دليل ضدهن ، حيث تتزوج المرأة على المرأة ، فالثانية و الثالثة من الزوجات أحق بالملام و الاحتجاج .. لا الرجال .

وقد طالبت نساء ألمانيا ، بعد الحرب العالمية الثانية بتعدد الزوجات ، بعد فقد الكثير من رجالهن فى الحرب الضروس .

بينما يرى فضيلة الشيخ الشعراوى : أن المسألة يجب أن تتوجه إلى النساء اللائى قبلن زواج المتزوج ، ويؤخذ رأيهن وحدهن فى الموضوع : أيبقى تعدد الزوجات ؟ أم يقيد بقانون ؟ أو يلغى بقرار ؟

وهو واثق من نتائج الاقتراع بأنها ستكون فى صالح التعدد ، لأن من دخلت على الزوجة الأولى ما قبلت الأمر المرير ـ فى نظر البعض ـ إلا لما هو أمر منه ، و فى الأعذار المتعددة التى تبيح الزواج بأكثر من واحدة ما يمدح تشريع الاسلام كحل لزيادة النسبة العددية للنساء ، كما فى بعض البلاد و الأزمان ، أو علة ومرض ترى الزوجة الأولى أن من مصلحتهـــا ـ على ما بها ـ فى عصمة رجل ، أشرف و أكرم و أحفظ لها من ضياع أو حرمان كلى ، أو العيش فى خواء ، و رعب الوحدة ، و تجرع الشقاء .. و يحمى من كل هذا حل الاسلام فى بعض زوج .

ويقول العقاد : خير للمرأة أن تشارك أخرى فى زوجها ، فتجد رياً لعاطفتها ، و تحقيقاً لأنوثتها ، وصوناً لكرامتها من ألا ترى رجلا قط ، أو تطلق من زوجها فتحيى محرومة من شرف الزوجية ، و نعمة الأمومة .

★ و بعـــــــد :

فحين يوصى الاسلام ببنـاء الأسرة ، و يحوطهـا بالسيـاج الواق من الداخل و الخارج ، وحين يوصى بالعفة و غض البصر ، والاحصان .. نجد كل ذلك إعلاء لغرائزنا ، و تسامياً بعواطفنا ، و مراعاة لمشاعرنا و أحاسيسنها من أول الخطوات لنأمن العثار و البوار ، و نأمن التمزق النفسى ، حين يصطرع داخلنا ما نستحى من إعلانه بعد ممارسته ، أو ما نتحايل على إخفائه ليقيننا بأنه شين لا زين .

فقبل أن يلحق المرء إدراك و انفعال و نزوع ، و قبل أن يتبع كل ذلك تدنيس المجتمع و فساد السلالات وضياع الأنساب .. نجد الاسلام يحث على زواج حلال ، و غض بصر و إحصان ، و لباس وقار و جلال حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض ، ويستشرى الشك ، وتضيق مساحة التيقن ، ويعترىء ضعفاء الايمان.

و فى الثياب الاسلامية من الجلال و الجمال ما يضفى على الأنثى حياءها ، لتظل مصونة مكرمة .. ومهمة المجتمع الفاضل أن يحفظ عليها كرامتها حينئذ ، ويبدى سلوكاً رشيداً إذا ما اضطرتها ظروف الحياة للزوج إلى معتركها .

و يرى ظريف أن الزى الاسلامى لها ، بضميمة الحجاب ـ المتوارث من قبل الاسلام ـ تأمين جمالى للمرأة : فان سترت و احتجبت أمنت عند ذبول جمالها لسبب ما .. أن يزيغ بصر زوجها إلى ما تبدى من مفاتن بنات جنسها ممن يرتعن فى ميعة الصبا و الجمال .. و سبحان مقلب القلوب .. و فى التأمين الجمالى ما يأخذ بالحجز و يعصم من الزلل ، و يقنع بالمقدور .

و حين يقل الوازع الدينى ، و تحطم « العلمانية » سياج الخلق و الفضيلة ، لا نرى عاصماً فى مجال الأسرة و صيانتها سوى المبالغة فى الحيطة ، و أخذ الحذر ، وتجنب الاختلاط ، و وأد عوامل الفتنة فى مهدها ، و « ذلك أزكى لهم » و أطهر لقلوبهم من أرجاس الشهوات ، و حسبنا هنا تحذير الرسول - النبى الأمى ـ من الاختلاط ، حتى من أقرباء الزوج .. فى قوله : « إياكم و الدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أ رأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » أى يجب أن يخاف كما يخاف الموت .

و من الناس من يرى أن مملكة المرأة بيتها ، و أن أعداءها ـ المسمون أنصارها - يمكرون بها فى هذه الأيام ، لافساد فطرتها ، وتعطيل وظيفتها ، وتشتيت

أسرتها، وبالتالى انحدار المجتمع الاسلامى كله إلى مكان سحيق من الانحلال والضلال .. ويرون أيضاً أن الاستعمار يتعاون مع الحركات الهدامة، مثل الصهيونية والشيوعية و الاستشراق، على إذكاء هذا الجانب، باثارة الشبهات فى أذهان العامة والخاصة، و فى دور العلم حول المرأة و مشاكلها : زواجاً، و طلاقاً، و حجاباً، و تعدد زوجات .. وكلها قيود تقض مضاجعهم، وتقيد حريات المرأة فى دنيا الواقع اليوم، و من حقها ـ فى رأيهم ـ أن تندفع لتحقيق واقعها و عالمها و طموحاتها بلا حد و لا قيـــد .

ويرون أن هذه الدعاوى من أعدائها خطر عليها، لأن مملكتها فى بيتها راعية لشئونه، تنشر حنانها و أريجها فى أجوائه، مصونة عن الأعين الخائنة، و القلوب الخاوية، وتبقى امرأة كما خلقها الله، لها مجالها المختص والممتاز، ومسارها المختار : فالحجاب دليل عفافها، و صمام صيانتها، وعدم اختلاطها منعاً للفتنة، و صوناً عن العبث، و بخاصة عند كثرة الفساق، وعدم سفرها وحدها سداً لباب الفتنة والقيل و القال، و التبذل و الضياع .

و يستشهدون برأى بعض المفكرين المعاصرين، مثل : (برتراندراسل) فى أن ما يساعد على دعم الحياة الزوجية .. خلو الحياة الاجتماعية من النظم التى تسمح بالمصادقة و المخـالطة بين المتزوجين من الرجال و النساء .. سواء فى العمل أو فى المناسبات والحفلات وما شابهها، لأن ذلك سبب الشقاء و انهيار البيوت والطلاق.

لقد شقى إنسان الغرب والشرق لأنهم تركوا الحبل على الغارب، وجعلوا من الحرية فوضى، و من الانسانية حيوانية، فاختلطت الأمور، و ساء المصير ..

فهلا تمسكنا بحبل الله المتين، وقرآنه الحكيم، وهدى رسوله الكريم، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وترفرف عليهم سعادة غامرة، حين يرضى عنهم الحكيم الخبير.

الدّعوة الإسلاميّة

الأدب النبوي

[هذا المقال كتبه سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي منذ أكثر من نصف قرن في عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م لأول عدد من مجلة « الضياء » الغراء ، التي صدرت من ندوة العلماء في محرم ١٣٥١هـ ، ننشره في مجلة « البعث » نظراً إلى ما يحتوي عليه من أدب رفيع وأسلوب قوي وفكر نير جميل] « التحرير »

ما ظنك ؟ ببشر ذل بالقرآن لسانه ، وامتزج القرآن بلحمه و دمه ، وجرى فيه مجرى الروح ، وأخذ بقلبه و استأثر بلبه ، بل أشرب في قلبه القرآن ، و تمكن منه ما الله أعلم به ، فان لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحي - فكما قال أخونا الشاعر مصطفى صادق الرافعي - قد جاء من سبيله ، و إن لم يكن له منه دليل فقد كان هو من دليله ، قد عبد له الوحي طريق الكلام و ذلله :

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا .

ما ظنك ؟ بمولود من بني هاشم ولدته أم القرى ، نشأ في بني سعد بن بكر و عاش في قريش ، أخواله بنو زهرة ، تزوج في بني أسد ، وهاجر إلى بني عمرو ، ما ظنك ؟ ببشر يقول فيه ناعته « متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة و لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام و يختمه بأشداقه . . . و يتكلم بجوامع الكلم ، فصلا لا فضول فيه ولا تقصير » اقرأ فصلا للجاحظ في بيان أفضل الكلام « و القول ما قالت حذام » قال رحمه الله :

« أفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه ظاهراً في لفظه وكان الله قد ألبسه من ثياب الجلالة و غشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفاً و اللفظ بليغاً ، صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ،

منزها عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع فی القلوب صنیع الغیث فی التربة الكریمة . . . و متی فصلت الكلمة علی هذه الشریطة و نفذت من قائلها علی هذه الصفة ، كساها الله من التوفیق ، و منحها من التأیید ما لا یمتنع من تعظیمها به صدور الجبابرة ، ولا یذهل عن فهمها معه عقول الجهلة ، ثم انظر إلی قوله النبی صلی الله علیه و سلم :

١— « مثل ما بعثنی الله به من الهدی و العلم كمثل الغیث الكثیر أصاب أرضاً فكان منها نقیـــة قبلت الماء فأنبتت الكلاء و العشب الكثیر ، و كانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا و سقوا و زرعوا وأصاب منها طائفة أخری ، إنما هی قیعان لا تمسك ماءاً و لا تنبت كلاء ، فـذلك مثل من فقه فی دین الله و نفعه ما بعثنی به الله فعلم و علم و مثل من لم یرفع بذلك رأساً ، و لم یقبل هدی الله الذی أرسلت به » .

٢— « الحلال بین و الحرام بین و بینهما مشتبهات لا یعلمها كثیر من النـاس ، فمن اتقی الشبهات استبرأ لدینه و عرضه و من وقع فی الشبهات كراع یرعی حول الحمی یوشك أن یواقعه ألا و إن لكل ملك حمی ، ألا و إن حمی الله محارمه ، ألا وإن فی الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا و هی القلب » .

٣— إن أكثر ما أخاف علیكم ما یخرج الله لكم من بركات الأرض : قیل وما بركات الأرض قال زهرة الدنیا ، لا یأتی الخیر إلا بالخیر ، إن هذا المال خضرة حلوة ، و إن كل ما أنبت الربیع یقتل حبطاً أو یلم إلا أكلة الخضرة أكلت ، حتی إذا امتدت خاصرتاها ، استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت ، فأكلت ، و إن هذا المال حلوة من أخذه بحقه و وضعـــه فی

حقه فنعم العون هو ، و من أخذه بغير حقه كان الذی يأكل و لا يشبع ، لو أن لابن آدم مثل واد مالا لأحب أن له إليه مثله ، و لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، و يتوب الله على من تاب .

« سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، الحديث و فيه « و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه و رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه و شماله و بين يديه و وراءه ، و عمل فيه خيراً » .

« سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن ، من يوقظ صواحب الحجرات ، يا رب كاسية فی الدنيا عارية فی الآخرة » « قيل : يارسول الله و ما الجسر ؟ قال دحض مزلة فيها خطاطيف و كلاليب و حسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين و كالبرق و كالريح و كالطير و كأجاويد الخيل و الركاب فناج مسلم و مخدوش مرسل ، و مكدوس فی نار جهنم ، انتهى .

و من جوامع كلمه ﷺ فی معنى الاحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » و قوله « إنما الناس كالابل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة » « بعثت فی نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه « إنما الأعمال بالنيات » « اليد العليا خير من اليد السفلى » « لا تمن يمينك على شمالك » المضعف أمير الركب » « إياكم و خضراء الدمن » « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » « الاثم ما حاك فی صدرك » « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » « الدين النصيحة » .

هل ترى الجاحظ يعنی غير كلام النبی ﷺ : حاش لله وأی كلام أحق بأن يلبسه الله من ثياب الجلالة و يغشيه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى

قائله و يكسوه من التوفيق و يمنحه من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمه به صدور الجبابرة من كلام نبيه ﷺ .

و هو مع إعجازه إذا سمعه الجاهل ربما ظن أنه يحسن مثله و هذا هو الكلام البليغ ، كما قال ابن المقفع ، والسهل الممتنع ، ثم أنشا الجاحظ يصف كلام النبي ﷺ و حسبك به وصافا و ناعتا ونكتفي به «هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة و نزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط و المقصور في موضع القصر و هجرت الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة و لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة و شد بالتأييد و يسر بالتوفيق ، و هذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه و غشاه بالقبول و جمع له بين المهابة و الحلاوة ، و بين حسن الافهام و قلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته و قلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة و لا زلت له قدم و لا بارت له حجة ، و لم يقم له خصم و لا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير و لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم و لا يحتج إلا بالصدق و لا يطلب الفلج إلا بالحق و لا يستعين بالخلابة و لا يستعمل المواربة و لا يهمز و لا يلمز و لا يبطئ و لا يعجل ولا يسهب و لا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً و أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهبا و لا أكرم مطلباً و لا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً و لا أفصح عن معناه و لا أبين عن فحواه من كلام النبي ﷺ» انتهى .

و أصحابه ﷺ اقتبسوا من هذا النور - رضى الله عنهم - و معشر الأنبياء قوم لا يشقى بهم جليسهم وهم حملة هذا العلم وأحق عباد الله بالانتفاع به وأولى به من غيرهم - و الله أعلم حيث يجعل الفضل - فان كان غنيا - و لا جرم - فقد

وجد تربة كريمة ـ و أصاب أرضاً نقيـــة كما قال عليه الصلاة و السلام : قبلت الماء فأنبتت الكلاء و العشب الكثير .

و ما هو إلا أنهم جلسوا إليه و غشوه ، و خالطوه ـ و عاشروه و صحبوه و أحبوه و تضلعوا من كلامه و حفظوا أحكام منطقه ، و اقتفوا آثاره فى كل شئ (١) .

و هل نشأ أمير المؤمنين على بن أبى طالب و أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إلا فى حجره ـ ﷺ ـ و كنا نرجو أن نأتى بأمثلة من كلامهم فيتبين الصبح لذى عينين ، و لكن قد طال بنا الكلام و من شاء فليراجع حديث أبى هريرة قال: كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا فأبطا علينا و خشينا أن يقطع دوننا و فزعنا و قمنا و كنت أول من فزع .. الحديث إلخ .

و حديث الاستسقاء فى الخطبة يوم الجمعة رواه البخارى و غيره عن أنس و ابن مسعود و أبى سعيد ، و حديث أبى قتادة قال خاطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال إنكم تسيرون عشيكم و ليلتكم و تأتون الماء إن شاء الله أخرجه مسلم وغيره .

و حديث الافك و حديث كعب بن مالك فى قصة تبوك .

و حمال هذا العلم من بعدهم منهم من قصـــد به الفقه و أمر الفتوى و علم

---

(١) و والله لكلامهم أحرى و أحق بأن يدرس و يحفظ و يذاكر و يحتج به من غيره و لكن أقواماً أخطأهم كتاب الله و كلام نبيه و أصحابه أن يتعلموا منه كلام العرب و سننهم فيه و مذاهبهم و اشتغلوا بما لا يكون فى شئ من كلام العرب ولا نرى عليه آثاره من أدب و كانوا ظالمين ، و هل الظلم إلا انتقاص الحق و وضع الشئ فى غير موضعه ، و الناس أعداء ما جهلوا ، انتهى .

الرجال وغلبه كامام أهل السنة أحمد بن حنبل والامام أبی عبد الله محمد بن إسماعیل البخاری و صاحبـه الامام مسلم بن حجاج القشیری إلا أن فی الجامع الصحیح للبخاری من أدب ولطف كلام ما قد یستوقف نظر النـاظر ، و فی المحدثین أدباء كعلامة التابعین الامام الشعبی والامام اللیث بن سعد وشیخ الامام أبی عبد الرحمن عبد الله بن مبارك الحنظلی و الامام عثمان سعید الدارمی و الامام المتبوع والشاعر المطبوع محمد بن إدریس الشافعی رحمه الله و غیرهم ـ فهؤلاء أدباء المحدثین .

ثم جاء بعدهم أقوام درسوا الحدیث و درسوا ولـكن ما استطعموا كلام النبی ﷺ و ما ذاقوا حلاوته فلم یوفقوا لفقه كلام النبی العربی الهاشمی الا كما وفقوا لفهم كلام الفقهاء الذین لیس لهم حظ كثیر فی لغة القرآن وأدبها فنراهم لا یدهشهم أدبه الجلیل ، و إن قیل لهم فی ذلك قالوا ما لنا و لهذا أو لیس هذا من شأننـا معشر الفقهاء و إنما لنا إقامة الدلیل ، و الترجیح ، و التحقیق ، فهم كما قال الشیخ أحمد بن فارس ، یسرون بما ساء به اللبیب .

والعجب لقوم یذهبون بأنفسهم و یرونها من الأدب ما یرون ، ترى الواحد منهم یحفظ آلافاً من أبیات رؤبة بن العجاج والراجز و ذی الرمة و أمثالهم ، إن شاعراً من الشعراء المحدثین كان یصلی الصلوات فی آخر عمره بالتیمم و یدل علیه قوله كذا وشعره كذا ، و إن امرء القیس لما ذهب إلى الروم لیستنجد قیصر ذهب بطریق كذا او یبسط القول فی حب ابن أبی ربیعة و شعره لو استملیته جملة من جوامع كلمه ﷺ لسقط فی یدیه و تحیر .

فنعوذ بالله من سوء الاختیار :

و الحق أن حدیث رسول الله ﷺ كدینه ـ كما قال نابغة كتاب الشرق ـ ضاع بین جاحد و جامد .

هذا سطور علقتها على تشتت بال و تزاحم أشغال و عسى الله أن یوفقنا لإفراد كتاب فی هذا الباب ، و على الله قصد السبیل .

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخى و الجغرافى
(الحلقة الثانية)

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير بجلة « العربية » (Arabia) حالياً

هذا هو الأدب المنبث فى الكتابات المشرقة للفقهاء المبرزين ، لا تخطئه حتى وهم يناقشون أدق القضايا الفقهية . . . . نرى ابن حزم يحدد ما يجب عمله « على كل مسلم عاقل بالغ من ذكر أو أنثى حر أو عبد . . . » و بعد أن يعدد أبوابه يقول : « فهذا كله لايسع جهله أحداً من الناس : ذكورهم و إناثهم ، أحرارهم و عبيدهم و إمائهم ، و فرض عليهم أن يأخذوا فى تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم و هم مسلمون ، أومن حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم . و يجبر الامام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم وإما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم ، و فرض عل الامام أن يأخذ الناس بذلك و إن يرتب أقواما لتعليم الجهال » . ثم يعرض بعد ذلك ما يجب عليه بوجه خاص فوق ذلك النصاب الأساسى العام بالنسبة لبعض الفئات مثل أصحاب الأموال و التجار و الأمراء و القواد و القضاة . كما يناقش التكاليف الشرعية المفروضة على المرأة المسلمة التى تشترك فيها مع الرجال و منها العلم فيقول : « فان قالوا : فأوجبوا الجهاد فرضاً على النساء قيل لهم : لولا قول رسول الله لعائشة إذ استأذنته فى الجهاد (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) لكان الجهاد عليهن فرضاً . لكن علمنا بهذا الحديث أن

الجهاد على النساء ندب لا فرض لأنه عليه السلام لم ينهها عن ذلك ، و لكن أخبرها أن الحج لهن أفضل منه . فان قالوا : فأوجبوا عليهن النفار للتفقه فى الدين و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، قلنا : نعم هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال . و فرض على كل امرأة التفقه فى كل ما يخصها كما أن ذلك فرض على الرجال ، ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، و فرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة و الصلاة و الصوم و ما يحل و ما يحرم من المآكل و المشارب و الملابس و غير ذلك — كالرجال ولا فرق . ولو تفقهت امرأة فى علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك — فهؤلاء أزواج النبى وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين و قامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك » (١) . فانظروا - رحمكم الله - كيف يجتمع الفقه و الأدب فى ذخائر تراثنا من الموسوعات الفقهية الضخمة ، مما قد لا يتوقع فيه كثيرون أن يكون محلا للتعبير الأدبى .

و استمع إلى الامام المجاهد تقى الدين ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) يقول فى ختام كتابه الموجز العميق الممتع (السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى و الرعية) : « فالواجب اتخاذ الامارة دينا و قربة يتقرب بها إلى الله ، فان التقرب إليه فيها بطاعته و طاعة رسوله من أفضل القربات ، و إنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . . . . و غاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون و جامع المال أن يكون كقارون ، و قد بين الله تعالى فى كتابه حال فرعون و قارون . . . . وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولا فساداً و العاقبة للمتقين » (القصص / ٨٣) . فان الناس

---

(١) ابن حزم : الأحكام ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ .

أربعة أقسام : الأول يريدون العلو على الناس والفساد فى الأرض و هؤلآء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون و حزبه وهؤلآء هم شرار الخلق . . . الثانى : الذين يريدون الفساد بلاعلو كالسراق المجرمين من سفلة النـــاس . الثالث : يريد العلو بلافساد كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس. وأما القسم الرابع : فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم . . . . فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولا ، و كم ممن جعل من الاعلين و هو لا يريد العلو ولا الفساد . و ذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم لأن الناس من جنس واحد ، فارادة الانسان أن يكون هو الأعلى و نظيره تحته ظلم . . . ثم إنه مع هذا لابد فى العقل و الدين من أن يكون بعضهم فوق بعض ، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس . قال تعالى: « و هو الذى جعلكم خلائف الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (الأنعام / ١٦٥) . . فجاءت الشريعة بصرف السلطان و المال فى سبيل الله . فاذا كان المقصود بالسلطان هو التقرب إلى الله و إنفـــاق ذلك فى سبيله ، كان ذلك صلاح الدين و الدنيا . و إن انفرد السلطان عن الدين، والدين عن السلطان فسدت أحوال الناس و إنما يمتاز أهل طاعة الله عن أهل معصيتـــه بالنية و العمل الصالح . . . . و كما غلب على كثير من ولاة الأمور ارادة المال والشرف صاروا بمعزل عن حقيقة الايمان وكمال الدين ، ثم منهم من غلب الدين و أعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك ، و منهم من رأى حاجته إلى ذلك فأخذه معرضا عن الدين لا عتقاده أنه مناف لذلك ، و صار الدين عنده فى محل الرحمة و الذل لا فى محل العلو و العز . و كذلك كما غلب على كثير من أهل الديانة العجز عن تكميـــل الدين و الجزع لما قد يصيبهم فى اقامتهم من البلاء ،

استضعف طريقتهم و استذلها من رأى أنه لا تقوم مصلحة غيره بها . و هاتان السبيلان الفاســدتان : سبيل من انتسب إلى الدين و لم يكمله بما احتاج إليه من السلطان و الجهاد و المال ، و سبيل من أقبل على السلطان و المال و الحرب ولم يقصد بذلك إقامة الدين ، هما سبيل الضالين النصارى و المغضوب عليهم اليهود . و إنمــا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصــديقين و الشهداء و الصالحين ، هي سبيل نبينا محمد ﷺ وسبيل خلفائه و أصحابه ومن سلك سبيلهم وهم السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . . . . . . »

و جزى الله شيخ الاسلام خيراً عن كل ما انتفع بعلمه و بيانه ، لا ينقص ذلك من أجور هؤلاء المنتفعين شيئاً .

و هذا تلميذ شيخ الاسلام الامام ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) ينقــل مناظرة فى شأن ما يجوز من العمل بالسياسة فيقول « قال ابن عقيل : السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح و أبعد عن الفساد ، و إن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى ، فان أردت بقولك : لا سياسة إلا ما وافق الشرع — أى مالم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، و إن أردت ما نطق به الشرع (أى عيناً ونصاً) فغلط و تغليط للصحابة . . . ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف (لكفى) ، كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة . . . قلت : هذا موضع مزلة أقدام و مضلة أفهام ، و هو مقــام ضنك فى معترك صعب . فرط فيه طائفة : فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرأوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، و سدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من الطرق التى يعرف بها المحق من المبطل . . . و الذى أوجب لهم ذلك نوع

تقصير فى معرفة حقيقة الشريعة ، و التطبيق بين الواقع و بينها . فلما رأى ولاة الأمر ذلك و أن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشئ زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم ، فتولد من تقصير أولئك فى الشريعة و إحداث هؤلاء ما أحدثوا من أوضاع سياستهم شر طويل و فساد عريض ، و تفاقم الأمر و تعذر استدراكه . و أفرط فيه طائفة أخرى : فسوغت منه ما يناقض حكم الله و رسوله . و كلتا الطائفتين أتيتا من قبل تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به رسوله ، فان الله أرسل رسله و أنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط — وهو العدل الذى قامت به السماوات و الأرض ، فاذا ظهرت أمارات الحق و قامت أدلة العدل و أسفر صبحه بأى طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه و أمره . . . . لا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة ، بل هى جزء من أجزائها و باب من أبوابها ، و تسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، و إلا إذا كانت عدلا فهى من الشرع (١) . » ومن له ذوق فى الشريعة و اطلاع كمالاتها ، و إنها لغاية مصلحة العباد فى المعاش و المعاد ، و مجيئها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق و إنه لاعدل فوق عدلها و لا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، عرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها . . . . فان السياسة نوعان : سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر هى عين الشريعة ، علمها من علمها وجهلها من جهلها » (٢) « اعلم أن الشريعة عدل

---

(١) ابن القيم : اعلام الموقعين - مراجعة عبد الرؤف سعد - القاهرة ج ٤ ص ٢٧٣ و انظر للمؤلف تفسير الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية - دار الباز بمكة المكرمة ص ١٢ - ١٤ .

(٢) الطرق الحكمية ص ٥ .

كلها ، و قسط كلها ، و رحمة كلها . . . فكل مسألة خرجت من العدل إلى الظلم و من القسط إلى الجور و من الرحمة إلى ضدها ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . . . » (١) .

هذا البيان العذب الرقراق ، خرج من مشكاة واحدة مع العلم الغزير النافع والحجج القاطعة ، واقتبس من نور الأدب القرآنى والقرآن المثل الأعلى ....ومثل هذا الأداء الذى يقرن العلم بالأدب ، و يؤلف بين النفع و الجمال ، هو أولى بأن يجلى و يبين للناس .

و لقد عرفت الآداب العالمية مفكرين و علماء صاغوا فكرهم و علمهم فى بيان حلو أخاذ ، فكانت كتاباتهم مورداً فكرياً و نموذجا أدبيا فى نفس الوقت ، و كان أثرهم المتطاول لأدبهم نتيجة احتوائه فكراً و علما . . . وهل ينكر أحد هذا المورد الجامع للجمال الأدبى و الثراء الفكرى العلمى الفلسفى فى إنتاج مونتسكيو (المتوفى ١٧٥٥) و ديدرو (المتوفى ١٧٨٤) و روسو (المتوفى ١٧٧٨) و فولتير (المتوفى ١٧٧٨) فى تاريخ الفكر الفرنسى الحديث . . . . وهل ينكره أحد فى مؤلفات جيبون وويلز وتريفليان من المؤرخين البريطانيين المحدثين ؟ ؟

التعبير الأدبى فى تراثنا فى التاريخ و البلدان :

و استهدف فى حديثى إليكم تقديم بعض المقتطفات من تراثنا الزاخر فى مجال التاريخ و ما يتصل به من كتب السير و التراجم و الطبقات و الأنساب ، و فى مجال البلدان و ما يتصل بها من كتب الرحلات ، و لقد اعتبرت سلاسل عربية حديثة مشهورة فى (الفنون الأدبية) : (التراجم و السير) و (الرحلات) من هذه الفنون الأدبية . وكتب فى احدى هذه السلاسل الأديب المصرى المعروف الأستاذ

---

(١) اعلام الموقعين .

محمد عبد الغنى حسن كتاب (التراجم والسير) وكتب الدكتور شوقى ضيف أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة كتاب «الرحلات» فى نفس السلسلة. وكتب المستشرق الروسى كراتشكوفسكى كتابه المعروف (الأدب الجغرافى العربى).

النموذج القرآنى لأدب التاريخ و السير:

إن القرآن الكريم و له المثل الأعلى قد علم المسلمين كيف تصاغ الحقائق التاريخية و الكونية الواقعة فى بيان رائع معجز، دون أن ينال البيان الأدبى من الحقيقية التاريخية أو الكونية ودون أن تجفف الحقيقية التاريخية أو الكونية من نداوة التعبير الأدبى. يقول عز من قائل فى وصف مكان المعركة فى موقعة بدر: «إذ أنتم بالعدوة الدنيا و هم بالعدوة القصوى و الركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد و لكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة و إن الله لسميع عليم» (الانفال / ٤٢). ثم يقول عز من قائل عن عدد جيش المشركين: «وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى اعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله امراً كان مفعولا. و إلى الله ترجع الأمور» (الانفال / ٤٤) و فى الآيتين تحديد دقيق للوقائع مصوغ فى بيان معجز يقدم النموذج الذى يستفاد منه و لكن لا يمكن بلوغ أحكامه، ويخلص القرآن دائما إلى الحكمة و العبرة و النتيجة الاعتقادية الفلسفية للاحداث «ليقضى الله أمراً كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور ويقول تعالى فى وصف تطور الوقائع بالنسبة لجيش المسلمين فى غزوة أحد: «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه، حتى إذا فشلتم و تنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعـــد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و الرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا

على ما فاتكم و لا ما أصابكم ، و الله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شئ ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لوكان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، و ليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، و الله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا و قالوا لاخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا و ما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، الله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » (آل عمران / ١٥٢-١٥٧) .

ومرة أخرى يأتلف فى الآيات دقة العرض للوقائع - بما فى ذلك الوقائع النفسية فى أعماقها وأغوارها ، مع روعة البيان ، و يخلص هـذا التفصيل التاريخى الأدبى المعجز إلى الحقائق الايمانية التى ينبغى تأكيدها : « قل إن الأمر كله لله » . « والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير » « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » .

و يكشف القرآن تحالف الكفار و المنافقين و اليهود فيما ذكره عن إجلاء يهود بنى النضير بعد معركة أحد : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم و لا نطيع فيكم أحداً أبداً و إن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، و لئن قوتلوا لاينصرونهم ، و لئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا

إلا فی قری محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتّى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم و لهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنی بریء منك إنی أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فی النار خالدين فيها و ذلك جزاء الظالمين » (الحشر ١١ -١٧).

و فی غزوة الأحزاب يصور القرآن التحزب و التعصب بين الكفار و أهل الكتاب من اليهود و المنافقين و أثره الموقوت ويخلص من ذلك إلى سوق الحقائق الاعتقادية و تثبيتها : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم و إذ زاغت الابصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون و زلزلوا زلزالا شديدا . إذ يقول المنافقون و الذين فی قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبی ، يقولون إن بيوتنا عورة و ما هی بعورة إن يريدون إلا فرارا . و لو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا » (الأحزاب ١٠ - ١٦) .

و قد اجتمع على المسلمين كيد الكافرين و المنافقين و حلفائهم اليهود مرة أخرى يوم الاحزاب : « قد يعلم الله المعوقين منكم و القائلين لاخوانهم هلم إلينا و لا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذی يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ، اشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم و كان ذلك على الله يسيراً .

يحسبون الاحزاب لم يذهبوا، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أبنائكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » (الأحزاب / ١٨-٢٠).
على أنه كانت إلى جانب الصور السلبية التى يذكرها القرآن عن معسكر المسلمين: « وفيكم سماعون لهم » (التوبة) صور إيجابية مشرقة مضيئة « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، و ما بدلوا تبديلا. ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أويتوب عليهم، إن الله كان غفوراً رحيما » (الاحزاب / ٢٢-٢٤). وهكذا كانت العاقبة للمتقين، و الدائرة على الكفار و المنافقين وحلفائهم اليهود « و رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا. و أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم و قذف فى قلوبهم الرعب، فريقا تقتلون و تأسرون فريقــا. و أورثكم أرضهم و ديارهم وأموالهم و أرضا لم تطأوها و كان الله على كل شئ قديراً » (الأحزاب / ٢٥ - ٢٧).

ويطول بنا العرض لو أردنا أن نستقصى ما ذكره القرآن عن وقائع غزوات الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وما اشتملت عليه من بيان دقيق للوقائع المادية والنفسية فى أسلوب رائع معجز. يسوق إلى تثبيت حقائق الايمان فى النفوس و العقول، و حسبنا أن نشير بالاضافة إلى ما سبق إلى ماورد عن يوم الحديبيــة فى سورة الفتح، و ما ورد عن غزوتى حنين و تبوك فى سورة براءة، فضلا عما ذكره القرآن من وقائع أخرى متعددة منه.

كذلك عرض القرآن لسير الأنبياء و المرسلين، و فصل سيرة خاتمهم محمد عليه أفضل الصلوات و التسليم، ونسوق نموذجا جامعاً معبراً من سيرة يوسف عليه

السلام التي قصتها السورة المعروفة باسمه . وتفتح السورة و السيرة بهذا الاستهلال البليغ المشرق : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ، واسحق ، إن ربك عليم حكيم » (يوسف / ٣ - ٦) . و تفاصيل سيرة نبى الله الكريم بن الكريم يوسف عليه السلام - كما وصفه النبي محمد ﷺ فى آيات القرآن غاية فى الروعة البيانية و العبرة الاعتقادية الاخلاقية . وكما استهلت السيرة بذلك الاستهلال الرائع ، اختتمت بهذا الختام الأخاذ الذى أجمل وقائع السيرة وخلص إلى غايتها التربوية « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا : ياأبانا استغفرلنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه و قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . و رفع أبويه على العرش و خروا له سجداً ، و قال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، و قد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن و جاء بكم من البدو من بعـد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك و علمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات و الأرض أنت ولىي فى الدنيـا و الآخرة توفنى مسلما و ألحقنى بالصالحين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . و ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (يوسف / ٩٦ - ١٠٣) . وتأتى آخر آيات السورة و السيرة

تؤكد الحكمة من سوق وقائع التاريخ الصحيحــة « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى و لكن تصديق الذى بين يديه و تفصيل كل شئ و هدى و رحمة لقوم يؤمنون » (١١١) .

و يعرض القرآن لظواهر الكون عرضه الذى يقترن فيه ذكر الحقائق بروعة البيان و يخلص إلى تأكيد الايمان : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوأنها ، و من الجبال جدد بيض و حمر مختلف ألوانها و غرابيب سود . و من الناس و الدواب و الأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » (فاطر / ٢٨) ، « و سخر لكم اللل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرألكم فى الأرض مختلفاً الوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . و إن تعــدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » (النحل ١٢ - ١٨) « و من آياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . و من آياته منامكم بالليل و النهار و ابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . و من آياته يريكم البرق خوفا وطمعا و ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعــد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الروم / ٢٢ - ٢٤) ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه و إليه النشور » (الملك / ١٥) .

و يسوق القرآن رحلة ذى القرنين، فيتتبع مواقعها و ما تبينه صاحبها فى كل موقع من ظواهر طبيعية و بشرية : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما . (الكهف / ٨٦) « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك و قد أحطنا بما لديه خبراً . ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك حرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما » (الكهف / ٩٠ - ٩٥) .

و أخبار هذه الرحلة تستهل بتقرير ما أنعم الله على الانسان بعامة وعلى ذى القرانين بخاصة من طاقات و إمكانيات ووسائل فى نفسه وفيما تحت يده ، وإنه قد استثمرها بحق و لم يهملها فساقت إلى المزيد من العلم و المعرفة : « إنا مكنا له فى الأرض و آتيناه من كل شئ سبباً . فأتبع سببا » (الكهف / ٨٤ - ٨٥) .

« يتبع »



الفقه الإسلامي

الفوائد المصرفية و ربويتها و حكم الانتفاع بها

— ٢ —

فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى
أستاذ التفسير و الحديث و أمين مجلس الدراسات الشرعية
بدار العلوم لندوة العلماء ـ لكناؤ (الهند)

تعريب : محمد أكرم الندوى

يجدربنا و نحن نريد أن نتعرف على حكم الشرع فى هذه القضية أن ننظر فى أبعادها .

إن هناك أربع جهات لهذه القضية : (١) أن يأخذ الربا من المصرف وينفق على نفسه (٢) أن لا يأخذه بل يتركه إلى المصرف يوجهه حيث شاء (٣) أن يأخذه ثم يتلفه (٤) أن يأخذه ويوزعه على الفقراء ، و ههنا جهة إمكانية أخرى وهى أن ينفقه على الأغنياء ولكن هذه الجهة ليست بمعزل عن الجهة الأولى. لأن الانفاق على الأغنياء مثل الانفاق على نفسه ، فان هذا الانفاق يسمى فى الشرع هدية و الهدية من مصاريف الرجل الذاتية من حيث إن فائدتها قد ترجع إلى صاحبها عاجلا أو آجلا أو أنه يتوقع أن ترجع إليه فائدتها .

فأما الصورة الأولى فلا تباح أصلا لأن معنى إباحتها أكل الربا من غير ضرورة — و من المعلوم أن القرآن و الحديث قد حرما الربا و شددا الوعيد عليه ، و لم يختلف فيه من العلماء أحد بل أجمعت الأمة عليه .

لا حاجة هنا إلى ذكر أن المرء قد يحتاج إلى التعامل مع المصارف الربوية فيباح هذا (إذا مست الحاجة أو الضرورة) و أما أكل الربا فلا حاجة إليها ولا ضرورة بصفة عامة (لا سيما للذين يضطرون إلى إيداع النقود فى المصارف) ولا يغيبن عن البال أننا لم نعن بالضرورة أو الحاجة إلا المصطلح الشرعى (المذكور

و المبين سابقاً) و أما الصورة الثانية التی مفادها أن تترك الفائدة إلى المصارف لتضعها حيث شاءت ، فانها - مهما اعتبرها بعض الناس اقتضاء التقوى و موافقة حكم الشرع ، و مهما ترجح هذا الرأى لديهم . لا يشك فی تحريمها أو كراهيتها كل من له أدنى بصيرة نافذة و عرف نظام المصارف فی توزيع هذه المبالغ ، فانه قد عرف بطرق أمينة - بل هی حقيقة ثابتة - أن مبالغ الربا التی يرفضها صاحبها لا ترد البنك إلى مستحقيها الذين أخذت منهم (١) بل تضعها حيث شاءت من جهات الصرف ، و هذه الجهات — مهما كانت صالحة لدى مديرى المصارف ، و لكنها — من وجهة النظر الاسلامية — ضارة و أداة هدم للدين و المجتمع ، و تشهد التجارب أن هذه المبالغ تنفق على المؤسسات التی تعمل لهدم الاسلام ولهذا نظائر لا تحصى ، فی الهند — فی عهد الاستعمار البريطانی — أنفقت مبالغ المسلمين الربوية على بناء الكنائس و على إرساليات التبشير ، حتى بنيت كنيسة بربا نقود مسجد . لما نظر علماء المسلمين إلى هذه الحالة السيئة أصدروا فتواهم التی سنذكرها مفصلا (إنشاء الله تعالى) .

وأما اليوم — فی الهند — إن لم يبق احتمال إنفاق هذه المبالغ على الكنائس فانها يمكن أن تنفق على معابد الهندوس ، أو أی خطة تهدف إلى هدم الاسلام ، فترك مبالغ الربا إلى المصارف يرادف تقوية و دعم المؤسسات المعادية للاسلام

(١) إن المبالغ التی ينالها المودعون من المصرف باسم « الفائدة » إن هی إلا جزء من ذلك الربا الذی تناله المصارف من المجتمع ، و لا شك أن من وسائل دخل المصرف تجارته التی يقوم بها ، و لكن الحق أن هذه الوسيلة — كما قال الأستاذ المودودی — لا تشكل أكثر من ٥ — ١٠ ٪ من مجموع دخل المصرف .

فلا تباح هذه الصورة أصلا ، و لو فرضنا أنه علم أن المصرف لا ينفقها على بناء كنيسة أو معبد للهندوس و لا على أى عمل هدام ، فانه يعتبر من الخرق أن يترك المسلم إلى الغير مبالغه التى يستحق أن يتصرف فيها شرعاً (قانوناً) فى فيه زمن جربنا مرارا العدوان و إضاعة الحقوق للعصبيات الدينية .

وأما الصورة الثالثة التى مضمونها ، إتلاف مبالغ الربا ، فلا يستبيحها كل من أوتى حظا من العقل و الفهم لأن المال نعمة من الله و ليست بنجس بنفسه ، والخباثة التى التصقت به إنما هى لأجل اكتسابه من غير طريق شرعى يستدرك بوجوه أخرى ، فاتلافه إهدار نعمة الله ، و هذا حرام ، يقول الشيخ مصطفى الزرقاء :

« فالمال النافع لا ذنب له حتى نحكم عليه بالاعدام ، فاتلافه إهدار لنعمة الله ، و هو عمل أخرق و الشريعة الاسلامية حكمة كلها لأن شارعها حكيم » .

الحل الصحيح الناجع لهذه القضية :

إذا بطلت هذه الصور الثلاث بقيت الصورة الأخيرة و « هى التوزيع على الفقراء » هذا هو الجواب الصحيح عن السؤال و الحل الوحيد للشكلة الذى أجمع عليه جل علماء العرب و العجم (تلويحاً ، أو تصريحاً) نذكر أولا فتاوى بعض فقهاء الهند ، ثم نذكر الجزء المهم من تقرير الندوة المنعقدة بجدة .

كتب المفتى الأسبق الأكبر لدارالعلوم بديوبند فضيلة الشيخ عزيزالرحمن - رحمه الله - قبل نصف قرن ، وهو يجيب على سؤال وجه إليه ! « إن الفوائد المعينة التى ينالها المودعون من المصارف هى ربا فى الشرع يحرم أخذها (١) و من أخذها وجب عليه توزيعها على الفقراء » و له فتاوى عديدة من هذا النوع فى « مجموعة فتاوى

(١) يعنى أخذ الربا حرام أصلا ، و لكن إباحة الأخذ و إيتاءه الفقراء (بل استحبابه) للمصالح التى قدمنا ذكرها ، وسيأتى ذكرها فى بعض الفتاوى أيضاً

دار العلوم » (١) .

و أفتى المفتى السابق بدار العلوم بديوبند و مفتى باكستان الأكبر الأسبق فضيلة الشيخ محمد شفيع بما نصه : « ينبغى لمن أودع النقود فى المصارف أن لا يترك رباها إليها لأنها تنفقه على التبشير المسيحى ، بل يأخذه المودع و يتصدق به على الفقراء ، و لا يجوز إنفاقه على نفسه (٢) و هذا الذى يستفاد من فتوى للشيخ العلامة الجليل أشرف على التهانوى رحمه الله ، ما معناها « إذا خاف أنه لو ترك مبالغ الربا فى المصرف يصرفها إلى الجهات التى ورد الشرع بتحريمها لا يجوز له تركها بل يأخذها ويوزعها على الفقراء (٣) وفى الجز الثالث من الفتاوى الرحيمية (الصفحة ٢٦٢-٢٦٤) نجد فتاوى عديدة لعلماء الهند الأفاضل التى تفيد : « أنه يجب على من أودع النقود فى المصارف للضرورة أن يأخذ رباها و يصرفه إلى جهات الخير ، وعلى رأس هؤلاء العلماء شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى رحمه الله تعالى والمفتى كفاية الله رحمه الله تعالى - يقول فقيه العصر مصطفى الزرقاء فى مقاله الذى أعده للندوة .

« إذا كان المودع لدى المصارف الربوية لا يجوز له شرعاً أن يستبيح لنفسه أكل الفوائد التى يحتبسها له المصرف ولا أن يتركها للصرف . . فما التدبير الصحيح ؟ و الجواب على هذا السؤال الوجيه كما أفتيت به و ناقشت الكثيرين . . هو أن التدبير الصحيح الشرعى فى هذه الفوائد أن يأخذها المودع من المصرف ، دون أن ينتفع به فى أى وجه من وجوه الانتفاع . . فعليه أن يأخذ تلك الفوائد

(١) من أراد التفصيل فليراجعها ، الصفحة ٢٩ - ٣٣ ج٧ ، ٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) امداد الفتاوى ص١٣٢ ، نشر هذه المجموعة المفتى محمد شفيع (رحمه الله) من باكستان .

التى يحتبسها له المصرف الربوى عن ودائعه لديه و يوزعها على الفقراء حصراً وقصراً لأنهم مصرفها الشرعى » .

و بعـــد أن نوقش هذا الرأى السديد الذى قدمه الشيخ مصطفى الزرقاء فى الندوة المنعقدة بجدة (امام ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م) أجمع العلماء الذين ينتمون إلى معاهد فكرية و مدارس فقهية مختلفة من شتى بلاد العالم الاسلامى ، من المملكة العربيـة السعودية ومصر والجزائر والأردن والعراق والشام ، (وساهم فيها من شبه القارة ، الهندية سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، و هذا الكاتب) أجمعوا على على رأيه و أيدوه .

نتشرف بذكر أسماء بعض العلماء و الفضلاء المبجلين الذين سـاهموا فى تلك « الندوة العلمية » (وعلى رأسهم صاحب « البحث القيم » و الرأى السديد العلامة مصطفى الزرقاء - السورى ، حفظه الله ورعاه)

★ من السعودية .

صاحب المعالى فضيلة الشيخ صالح الحصين (المستشار بديوان مجلس الوزراء)
و فضيلة الشيخ عبد الله سليمان بن منيع (القاضى بمحكمة التميز بمكة المكرمة)

★ من مصر .

فضيلة الأستاذ الدكتور حسن على أحمد الشاذلى وكيل كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر القاهرة .

★ من الجزائر :

معالى الوزير فضيلة الأستاذ عبد الرحمن شيبان (كان فضيلته حينذاك عضواً للمجلس الاسلامى الأعلى ثم أكرمه الله تعالى بوزارة الأوقاف و الشئون الدينية بالجزائر حفظه الله و رعاه ، و لا يزال موفقاً للخير و نشر العلم و تأييد للدين القويم)

★ من الأردن :

فضيلة الأستاذ الدكتور سامى محمود رئيس البنك الاسلامى الأردنى (عمان)

★ من العراق :

الامام محمود محمد على الهاشمى (من علماء النجف) .

الاجابة على سؤال :

يمكن أن ينشأهنا فى بعض الأذهان أن المال الذى لا يباح للاغنياء كيف يحل للفقراء (إذا الحكم الشرعى لا يميز بينهم) نجيب عن هذا السؤال بشئ من التفصيل .

ينبغى لنا أن نعرف - قبل الاجابة عن هذا السؤال - أن المال الذى يناله المودعون من المصرف باسم « الفائدة » ليس من خالص ماله - فى الأكثر - بل من الفوائد التى ينالها من المجتمع لأن المبالغ التى تنال باسم « الفائدة » لا يجوز أن يأخذها شرعاً بل يجب أن يردها إلى أصحابها الحقيقيين شرعاً (١) ، و لكن المصرف يعطى هذا المبلغ المودعين لديه وهم لا يعرفون أصحابه الحقيقيين (و لو عرفوهم لتعين الرد عليهم شرعاً) و من الأصول المقررة فى الشرع أن المبلغ الذى لا يعرف صاحبه يتصدق على الفقراء ، فكأن الشرع جعله نائباً للتصدق عن صاحبه ، و إذا حل التصدق على الفقراء جاز لهم الانتفاع به ، وهذا هو حكم سائر المبالغ التى تحصل عن طريق محرم أن يبذل وسعه أولا فى ردها على صاحبها ، و إذا تعذر ذلك وجب التصدق بها ، اتفق عليه فقهاء سائر المذاهب .

---

(١) أجمعت الأمة على أن رد الربا على صاحبه لازم ، ولكن اختلفوا فى أنه هل تثبت ملكية أخذ الربا بعد القبض أم لا ؟ الأكثرون على أنه لا تثبت ، ولو سلم ثبوت الملكية للاخذ (كما ذهب إليه البعض) لما أبيح ترك الربا لدى المصارف ، للصالح التى قدمناها ، و كذلك الحكم إذا تحقق أن المصرف يعطى الربا من دخله التجارى » .

يقول العلامة ابن تيمية فى فتاواه:

« سئل عن رجل مراب خلف مالا و ولداً و هو يعلم بحاله ، فهل يكون المال حلالا للولد بالميراث أم لا؟ فأجاب: أما القدر الذى يعلم أنه ربا فيخرجه إما أن يرده إلى صاحبه إن أمكن و إلا تصدق به » (١) .

و يقول القرطبى (المالكى) فى تفسيره « جامع أحكام القرآن » :

« قال علماؤنا أن سبيل التوبة من بيـــده من الأموال الحرام إن كانت عن ربا فليردها على من أربى عليه و يطلبه إن لم يكن حاضراً ، فان يئس من وجوده فليتصدق بذلك عنه ، و إن أخذه بظلم فليفعل كذلك فى أمر من ظلم » (٢) .

و لقد عالج ابن القيم هذا الموضوع حيث قال فى كتابه « زاد المعاد » :

« فان قيل فما تقولون فى كسب الزانية إذا قبضته ثم تابت ، هل يجب عليها رد ما قبضته إلى أربابه أم يطيب له أم يتصدق به؟ قلنا هذا يبتنى على قاعدة عظيمة من قواعد الاسلام ، وهى أن من قبض ما ليس له قبضه شرعاً ، ثم أراد التخلص منه ، فان كان المقبوض قد أخذ بغير رضا صاحبه و لا استوفى عوضه رده عليه ، فان تعذر رده ، قضى به ديناً يعلم عليه ، فان تعذر ذلك رده إلى ورثته ، فان تعذر ذلك تصدق به عنه . . . كما ثبت عن الصحابة رضى الله عنهم ، وإن كان المقبوض برضا الدافع ، و قد استوفى عوضه المحرم ، كمن عاوض على خمر أو خنزير ، فهذا لا يجب رد العوض على الدافع لأنه أخرجه باختياره واستوفى عوضه المحرم فلا يجوز أن يجمع له بين العوض والمعوض ، فان فى ذلك إعانة له على الاثم والعدوان ، وتيسيراً

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج٢٩ ص ٣٠٧ كذلك بصفحة ٣٠٨ ، ص ٣٠٩ فتاوى متعددة له .

(٢) ج ٣ ص ٣٦٦ من تفسير القرآن للقرطبى .

لأصحاب المعاصى عليه . و لكن لا يطيب للقابض أكله بل هو خبيث ، كما حكم عليه رسول الله (ﷺ) . . . . فطريق التخلص منه تمام التوبة بالصدقة به . . فهذا حكم كل كسب خبيث لخبث عوضه عيناً كان أو منفعة » (١) .

و إلى هذا ذهب فقهاء الحنفية فى المال الحرام الذى تعذر رده إلى صاحبه . جاء فى الدر المختار : « من عليه ديون و مظالم جهل أربابها و يئس من عليه ذلك من معرفتهم فعليه التصدق بقدرها . . . كمن فى يده عروض لا يعلم مستحقيها اعتباراً للديون بالأعيان ، و متى فعل ذلك سقط عنه المطالبة فى العقبى » .

ثم علق عليه ابن عابدين الشامى و قال : (قوله كمن فى يده عروض إلى آخره) يشمل ما إذا كانت لقطة أو غصباً أو رشوة ، فان كانت لقطة فقد علم حكمها (أى وجوب التصدق بها) إن كان غيرها فالظاهر وجوب التصدق بأعيانها ، و قوله « سقط عنه المطالبة » . . . لأنه بمنزلة المال الضائع ، و الفقراء مصرفه عند جهل أربابه » (٢) .

يظهر من دراسة كتب الحنفية أنهم يعتبرون هذا المال لقطة ، فان الوصف الجامع بين اللقطة و المال المجهول هو أن صاحبهما غير معلوم ، و من حاز مثل هذا المال يريد البراءة من ذمته فى الدنيا وفى الآخرة فتأمره الشريعة بأن يتصدق به على الفقراء ، وقد جاء فى الأحاديث والآثار ما يدل على هذا الحكم للقطة ، أخرج البزار و الدار قطنى عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى (ﷺ) سئل عن اللقطة فقال ، لا تحل اللقطة فمن التقط شيئاً فليعرفه سنة ، فان جاء صاحبه فليرده إليه و إن لم يأت فليتصدق به ، . . الحديث (٣) .

---

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٢) رد المحتار مع الدر المختار ج٣ ص ٣٢٢ .

(٣) الدراية لتخريج أحاديث الهداية للزيلعى على هامش الهداية ج٢ ص ٥٩٤ .

و إلى هذا ذهب عدد من كبار الصحابة و التابعين ، كما قال الترمذى فى جامعه : « قال بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم : يعرفها سنة فان جاء صاحبها و إلا تصدق به ، و هو قول سفيان الثورى و عبد الله بن المبارك » (۱) .

وقال الفلسفى الفقيه العلامة ابن رشد فى كتابه الشهير « بداية المجتهد » « وروى هذا القول عن على و ابن عباس و جماعة من التابعين » (۲) .

و نقل صاحب الجوهر النقى عن « المصنف » لابن شيبة بسنده المتصل أنه « كان عمر يأمر أن تعرف اللقطة ، فان جاء صاحبها و إلا تصدق بها . . . و قال : « هذا سند جليل متفق عليه إلا إبراهيم فان مسلما انفرد به » (۳) و نسب هذا المذهب إلى على و عائشة و ابن عباس بأسانيد متصلة و كذلك نسبه إلى عبيد الله

(۱) الجامع للترمذى باب ما جاء فى اللقطة ج ۱ ص ١٦٥ .

(۲) ج ۲ ص ۳۰٦ من بداية المجتهد . و كتب فقيه العصر المعروف بدقة نظره العلامة يوسف القرضاوى فى كتابه « فقة الزكاة » ما يدل على أن المال الذى ينال بطريق حرام لا يصح ملكه وإن قبض ، بل يجب التصدق به ، يقول : « المال الذى يحوزه صاحبه بطريق خبيث . . . كالغصب . . . و الرشوة و الربا . . . فالصحيح أن هؤلاء لا يملكون هذه الأموال . . . وإن خلطوها بأموالهم الحلال حتى لم تعد تتميز منها ، قال العلماء « لو كان الخبيث من المال نصاباً لا يلزمه الزكاة لأن الواجب عليه تفريغ ذمته برده إلى أربابه إن علموا ، أو إلى ورثتهم وإلا فالى الفقراء ، و هنا يجب التصدق به كله » البحر الرائق و الحاشية لابن عابدين ج ۱ ص ۲۲ (فقه الزكاة ج ۱ ص ۱۳۳)

(۳) الجوهر النقى ج ۲ ص ٤۳ .

ابن عمر ، وسعيد بن المسيب و الشعبي والحسن البصرى وطاؤس وعكرمة » (١)

إذا أجمع هذا العدد الكبير من الصحابة والتابعين على هذا الرأى انجبر الضعف الذى يوجد فى الحديث الموقوع و يبلغ درجة الاحتجاج كما قال المحقق ابن همام فى فتح القـــدير : .

« فلو سلمنا ضعف حديث أبي هريرة فى الصدقة كفانا جواز التصدق بالاجماع » (٢)

ملخص القول أن فقهاء سائر المـــذاهب أجمعوا على التصدق بالمال الحرام ، أما أبو حنيفة وأتباعه فقاسوه باللقطة ، ويجب عندهم تصدق اللقطة ، بناء على الدلائل السابقة ، و أما الأئمة الآخرون فانهم ـ و إن كانت اللقطة عند بعضهم مختلفة فى حكمها عن المال الحرام - أجمعوا على هذا الحكم فى المال الحرام ، و قد مر عن ابن القيم أنه يثبت هذا المذهب عن « الصحابة » ولقد أحسن صاحب الهداية حين قال : « فان جاء صاحبها دفعها إليه ، و إلا تصدق بها إيصالا للحق و هو واجب بقدر الامكان ، وذلك بايصال عينها عند الظفر بصاحبها وإيصال العوض ـ وهو الثواب ـ على اعتبار إجازته التصدق بها (٣) .

لا ينفق المال الحرام إلا على الفقراء :

يجـــدر بنا أن نذكر هنا أن المال المكتسب عن الطريق الحرام ، و الذى لا يمكن أن يرد على أربابه يتعين التصدق به على الفقراء ، ولا يجوز صرفه إلى جهات أخرى ، كما أثبت فضيلة الشيخ المفتى محمد شفيع بالدلائل : أن التصدق به على الفقراء

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) فتح التقدير ص ٤٣٤ ج ٤ ، من مطبوعات المطبعـــة الكبيرة الأميرية بيولاق ، مصر ١٣١٦هـ .

(٣) الهداية ج ٢ ص ٥٩٥ .

متعین، ولا یجوز انفاقه علی مصارف أخری » (کبناء المساجد و دور العلوم) و ألف فضیلته رسالة علی هذا الموضوع أسماه : « اشباع الکلام فی مصرف الصدقة من الحرام » (١) اثبت فیها صحة هذا الرأی بدلائل کثیرة و رد علی الاعتراضات التی وجهت إلی هذا الرأی رداً مقنعا ، و قد أدی بالکاتب النظر فی دلائل کلا الجانبین إلی أرجحیة هذا القول الذی أثبته فضیلة المفتی .

و قد أباح بعض العلماء صرف هذا المال فی الجهات العامة للخیر ، و حاولوا أن یردوا علی دلائل فضیلة المفتی ولکن کما قلنا إن الدلائل تدعم رأی فضیلته وتقویه .

و نذکر هنا جزءاً مهما من رسالة فضیلة المفتی ، یقول : « إن الکتب الفقهیة الموثوق بها نصت علی ذلك بکلمات « تصدق به » أو « وجب علیه التصدق » و أمثالها ، و کذلك نجد فی الفتاوی البزازیة و الفتاوی الهندیة کلمة التصدق ، و إذا أطلقوا الکلمة « التصدق » یریدون بها الصدقة الموجبة للتملیك و مصرفها الفقراء دون المساجد و المدارس ، قال الجصاص الرازی فی کتابه ، أحکام القرآن فی تفسیر آیة « و فی الرقاب » .

« و عتق الرقبة لا یسمی صدقة ، و ما أعطی فی ثمن الرقبة فلیس بصدقه . . . وأیضاً فان الصدقة تقتضی تملیکا . . . إذ شرط الصدقة وقوع الملك للتصدق علیه (أیضاً) (٢) .

---

(١) هذه الرسالة مطبوعة مع الجزئین السابع و الثامن من فتاوی دار العلوم دیوبند ص ١٠٥ - ١٠٨ ، و یتقوی « حکم التصدق بما حصل بغیر طریق شرعی بأن أبا بکر لما جاء حاز الابل من المشرکین حینما غلبت الروم علی الفرس حسب ما اشترط معهم - قال له النبی ﷺ تصدق به » - (تفسیر ابن کثیر ج ٣ ص ٤٣٢ سورة الروم) .

(٢) أحکام القرآن ج ٣ ص ١٥٤ ، ملخصاً من رسالة « إشباع الکلام » و أحال فضیلة المفتی علی مصادر کثیرة لاثبات رأیه .

و كذلك نجـد لفضيلة الشيخ المفتى عزيز الرحمن فتوى نصها كما يأتى:

« من أخذ المال الحرام وجب عليه رده إلى صاحبه أو إلى ورثته و إذا لم يمكن لك تصدق به على الفقراء و المساكين و على الطلبة و الأئمة و المؤذنين إذا نوا فقراء ، و لكن لا يجوز أن تدفع به مرتبات الأساتذة و المدرسين ، ويكره ستعماله فى المساجد » (١) .

كلمة مهمة :

فثبت أن لا بد من أن يتصدق بهذا المال الحرام على الفقراء و يملكهم ، نعم ! رز لهم بعد ذلك أن يصرفوه حيث شاءوا من مصارف الخير و الأمور المباحة ، ن الأكل و بناء البيوت (٢) .

---

١) الجزءان الخامس و السادس من مجموعة فتاوى دار العلوم ص ٣٤٧ .

٢) لأن البخارى أخرج فى صحيحه عن النبى ﷺ : « أنه أتى بلحم تصدق على بريرة فقال هو عليها صدقة و هو لنا هدية » ج ١ ص ٣٠٢ ، كتاب الزكاة ، باب « إذا تحولت الصدقة ، و فى الباب حديث آخر أصرح من هذا روته أم عطية الأنصارية ، قالت دخل النبى ﷺ على عائشة ، فقال : هل عندكم شئ فقالت لا إلا شئ بعثت به إلينا نسيبة (أم عطية) من الشاة التى بعثت لها من الصدقة ، فقال إنها قد بلغت محلها » معناه أن النبى ﷺ قبل لحم الشاة التى تصدق بها على أم عطية . لأنه ﷺ لما تصدق بها عليها صارت ملكا لها ، فصح لها التصرف بالبيع و الهبة و غيرهما فلما أهدتها له ﷺ صح له القبول و الأكل لأنه الآن ليس بشاة الصدقة التى لا تحل له ﷺ ، بل صارت هبة فى حقه (مأخوذ من شرح البخارى للعسقلانى) و فى الفتح لابن حجر : قوله (بلغت محلها) أى أنها لما تصرفت فيها بالهدية لصحة ملكها لها انتقلت عن حكم الصدقة ، لحلت محل الهدية ، و كانت تحل لرسول الله ﷺ بخلاف الصدقة » ج ٣ ص ٣٥٧ و من هنا قال الفقهاء « إن تبدل الملك يوجب تبدل العين » .

إن العلماء و الذين ذهبوا إلى أن ربا البنوك المأخوذ منها يصرف فى سائر جهات الخير إنما ذهبوا إلى هذا نظراً إلى الهند (على فرض أنهـا دار الحرب) فانهم استدلوا بما جاء فى « الهداية » عن السير الكبير « للامام محمد : من أن مصرف أموال أهل الحرب مصالح المسلمين ، لو اقتصرنا هذا البحث على الهند (و سلمنا أنها دار الحرب) لكان فى الأمر سعة ، مع أن المقترضين من المصارف على الربا من المسلمين كذلك كما هم من الكفار ، ولا أخطئ لو قلت : إن عدد المقترضين من المسلمين أكثر نسبيا من غيرهم فيها ، فكيف يصح التسوية بين مصرف أموال المسلمين و مصرف أموال أهل الحرب ؟ ! لأجل ذلك نقول إن الافتاء بانفاق ربا البنوك العصرية على مصالح المسلمين العامة و لو بقصر النظر على الهند ليس من الاحتيـاط و التحفظ فى شئ (١) .

ثم إن قصر المسألة على الهند لا يصح ، إذا الربا قد غزا العالم كله . والتعامل الربوى فى مصارف بلاد المسلمين سائد ، فيجب علينا - و نحن بصدد البحث عن حكم الربا ـ أن نقدم حلا يتبناه مسلمو العالم كله ، وإذا كان المال المستفاد من البنك يمكن أن يأخذه البنك من المسلمين وأعطاه المودع فلا بد للمودع من أن يجعله محل اللقطة ولذا اعتبر علماء الأحناف الفوائد المصرفية باللقطة ـ و يعرف كل من له أدنى معرفة بنظام المصارف ، أن التعرف على أصحاب هذه الفوائد لا يمكن ، فان من قوانين المصارف أن لا يطلع أحد على دفاتر الحسابات و الأرصدة و غيرها من التفاصيل

(١) على أن عبارة من « السير الكبير » تشير إلى أن أموال المسلمين فى دار الحرب و أنفسهم لا تحل لمسلم هناك (و هذا لاخلاف فيـه بين علماء الهنـد أيضاً) و إليك نص السير الكبير و لو كانت هذه المعاملة بين مسلمين فى دار الحرب مستأمنين أو أسيرين كان باطلا مردوداً لأنهما يلتزمان أحكام الاسلام فى كل مكان : (شرح السير الكبير ج ٣ ص٢٢٦ الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد (الهند) .

ـ أصحابها ـ فلا سبيل إلا إلى التصدق على الفقراء فانهم مصرفها الوحيد عندهم ـ أيضاً ـ .

و الفوائد المصرفية التى تنال من أموال تجارة المصارف ، التى لا يصح ردها
بها - للصالح السابقة المعتبرة فى الشرع - فالتصدق بها كذلك واجب ثم إن العقود
ى تزعم المصارف أنها تجارة هل هى تجارة شرعا ؟

الواقع يخالف ذلك ، لأن كثيراً من عقودها تدخل فى الربا .

فاتضح من هذا أن التصدق بالمال الحرام و الفوائد المصرفية واجب .

و ينبغى لمن تصدق بالمال الحرام أن لا ينويه عن نفسه بل عن صاحبه ،
ه نائب عنه شرعاً ، و صاحبه هو الذى يستحق الأجر و المثوبة (و لو نوى
ن نفسه لكان خادعا آثما) إلا أنه ينال الأجر لتوسطه بين الفقير وصاحب المال .

ويقتضى هذا أن يجوز له التصدق على أبويه إذا كانا فقيرين وعلى نفسه إذا
ن أهلا لذلك ، و لكن - رغم ذلك كله - لا يسمح له بذلك أبدا نظراً إلى
صالح و الحكم الشرعية فانه لو أبيح ذلك لتكاسل الناس فى البحث عن أصحاب
ال و احتالوا لأنفسهم ، فانه سئل (الفقيه الحنفى الكبير) يوسف بن محمد عن
صب ندم على ما فعل و أراد أن يرد المال إلى صاحبه و وقع له اليأس عن
جود صاحبه فتصدق بهذا العين ، هل يجوز للفقير أن ينتفع بهذا العين فقال لايجوز
. . إنما أجاب بهذا الجواب زجراً لهم كيلا يتساهلوا فى أموال الناس (١)
خص القول أن الفوائد التى تنال من المصارف يتعين التصدق بها على الفقراء
ـ يصح توجيهها إلى مصارف أخرى :

أللهم أرنا الحق حقا و ارزقنا اتباعه و أرنا الباطل باطلا و ارزقنا اجتنابه
اهدنا سواء السبيل ، و صلى الله على سيدنا ورسولنا محمد و آله وأصحابه أجمعين .

---

(١) « الفتاوى الهندية » (المعروفة بالعالمكيرية) ج ٥ ص ١٥٧ (المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر ١٣١٠هـ) .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فـــــــــــــــــــى تاريخ التشريع الاسلامى

— ٨ —

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

★ حاجة المحدثين إلى الفقه

إن هؤلاء المحدثين الأجلة وغيرهم من شيوخهم وأصحابهم وتلامذتهم اهتموا بجمع الأحاديث ، و تتبع طرقها و أسانيدها ، و البحث فى رواتها اهتماماً لايوجد له نظير ، و قد استغرقوا فى ذلك الجهد والطاقة ، و لكن جمع الحديث وطرقه ، والبحث فى أسانيده ليس هو الحل الوحيد لمسألة التشريع الاسلامى ، بل لابد من الترجيح و الاختيار . الذى لا يتم إلا تحت أصول و ضوابط للترجيح و التقديم نص على نص آخر ، كما أنه لابد من الاستنباط والقياس فى مسائل كثيرة لم ينص عليها الكتاب ، و لا السنة ، و هذا يحتاج إلى تفقه ، و ضوابط معينة للاستنباط و الاستخراج ، و القياس ، و عند ما وصل المحدثون إلى هذا البحث كان لهم أحد موقفين :

★ موقف المحدثين من الفقه و أصوله :

١ـ إما أن يختاروا أحد أئمة الفقه ، و يرتضوا مسالكه الاجتهادية ، و يرجعوا إلى أصوله و ضوابطه ، يرجحون عليها و يقيسون ،

٢ـ وإما أن يتبنوا قواعد يضعونها من عند أنفسهم ، اهتداء بعمل الصحابة والتابعين فى موقفهم من الكتاب و السنة ، سواء يحددون هذه القواعد فى عبارات مقعدة أو يشيرون إليها بمسلكهم ، و طريقة تناولهم للأحاديث .

و قد برز كلا الموقفين فى صفوف المحدثين ، فكان هناك عدد من المحدثين يميلون إلى بعض الأئمة الفقهاء كيحي بن معين و وكيع بن الجراح ، و ابن المبارك وغيرهم يميلون إلى الامام أبي حنيفة . و كمسلم والبخارى وغيرهما يميلون إلى مذهب الامام الشافعى ، و كأبي دؤد والترمذى وغيرهما يميلون إلى مذهب الامام أحمد ، إلا أنه لم يكن ميلهم إلى هؤلآء الأئمة تقليداً . إنما كان موافقة وارتضاء لمسالكهم ، و ترجيحاً لبعضها على بعض ، كما كان هناك كثير من المحدثين لم يظهر ميلهم إلى أحد الفقهاء . إنما كان مذهبهم اتباع الأثر ، والعمل بالحديث أنى ظهر ، وترجح لديهم . .

يقول الامام الدهلوى :

★ استقلال المحدثين بأصولهم الفقهية :

« فرجع المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ، و معرفة مراتب الأحاديث إلى الفقه ، فلم يكن عندهم من الرأى ، أن يجمع على تقليد رجل ممن مضى ، مع ما يرون من الأحاديث والآثار المناقضة فى كل مذهب من تلك المذاهب ، فأخذوا يتتبعون أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها فى نفوسهم (١) »

لقد كان من أسباب انصراف هؤلآء المحدثين عن تقليد أحد الأئمة الأربعة ما رأوا من بعض الأحاديث الناقضة و الضعيفة فى كل مذهب ، فتقليد مذهب واحد بعينه فيه مخالفة تلك الأحاديث ، و الجمع بين المذاهب فكرة لعلها لم تراودهم و إن كانوا خطوا إلى ذلك خطوات عملية ، و تقررت لديهم من إدامة النظر فى النصوص التشريعية ، و أقوال العلماء الفقهاء من الصحابة و التابعين و أتباعهم رضى الله عنهم قواعد و أصول كانوا يسيرون فى ضوئها ، إذن فما هى هذه القواعد التى يمكن أن تسمى « قواعد فقه المحدثين »

(١) الانصاف : ٤٩ .

لقد استقری الامام الدهلوی هذه القواعد و تحدث عنها فی إیجاز شدید ، سأوردها - فیما - یلی :

★ قواعد فقه المحـــدثین :

لم یبین المحدثون عن قواعدهم الأصولیة بتفصیل ، ولم یضعوا فی هذا الموضوع - حسب ما أعلم - کتاباً یرجع إلیه فی الکشف عن أصولهم وضوابطهم ، ولکن یستطیع المسلم بآثارهم ، و نتائج أقلامهم أن یستخرج من تضاعیف کلامهم أصولا یمشون علیها فی الترجیح و الاختیار ، و الاستنباط و القیاس ، و قد کفانا مؤونة ذلك الامام الدهلوی . فاستقری من نصوصهم أصولهم ، و لا یمکن أن یقال أن جمیعهم متفقون علیها ، فقد یکون بینهم خلاف فی بعض منها إلا أن صنیع معظمهم یدل علیها ، و هذه الأصول کالتالی :

١- « إذا وجد فی المسألة قرآن ناطق ، فلا یجوز التحول منه إلی غیره »

٢- « و إذا کان القرآن محتملا لوجوه ، فالسنة قاضیة علیه »

٣- « فاذا لم یجدوا فی کتاب الله ، أخذوا بسنة رسول الله - ﷺ - سواء کان مستفیضاً دائراً بین الفقهـــاء أو یکون مختصاً بأهل بلد ، أو أهل بیت ، أو بطریق خاصة ، و سواء عمل به الصحابة و الفقهاء أو لم یعملوا به »

٤- « و متی کان فی المسألة حدیث ، فلا یتبع فیها خلافه ، أثراً من الآثار ، و لا اجتهاد أحد من المجتهدین »

٥- « و إذا أفرغوا جهدهم فی تتبع الأحادیث و لم یجدوا فی المسألة حدیثاً ، أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة و التابعین ، و لا یتقیدون بقوم دون قوم و لا بلد دون بلد ، کما کان یفعل من قبلهم »

٦- فان اتفق جمهور الخلفاء و الفقهاء علی شیئ فهو المتبع .

٧- و إن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم علماً ، و أورعم ورعاً ، و أكثرهم ضبطاً أو ما اشتهر عنهم.

٨- فان وجدوا شيئاً يستوى فيه القولان ، فهى مسألة ذات قولين.

٩- فان عجزوا عن ذلك تأملوا فى عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتهما واقتضاءاتهما و حملوا نظير المسألة عليها فى الجواب إذا كانتا متقـاربتين بادىء الرأى ، لا يعتمدون فى ذلك على قواعد من الأصول ، و لكن على ما يخلص إلى الفهم و يثلج به الصدر ، كما أنه ليس ميزان عدد التواتر ، عدد الرواة و لا حالهم ، و لكن اليقين الذى يعقبه فى قلوب الناس (١) »

هذه هى الأصول التى ذكرها الامام الدهلوى لفقه المحدثين ، و صرح بأنهـا « مستخرجة من صنيع الأوائل (أى الصحابة و التابعين) و تصريحـاتهم (٢) » ثم ساق لتأييد مدعاه آثاراً عن أبى بكر ، و عمر ، و ابن مسعود ، و ابن عباس ، و ابن سيرين ، و الأعمش ، والشعبى ، و وكيع ، و أنهم كانوا يخافون من القول بالرأى إلا عند الضرورة القصوى ، حيث لا يوجد هناك نص إطلاقاً ، فاذا وجد النص و ثبت فلا قول لأحد و لا رأى (٣).

و إذا نظرنا فى هذه الأصول نجد بعضها تتفق مع أصول الفقه لدى عامة الفقهاء ، و بعضها تختلف عنها ، فكلهم مجمعون على هذا الترتيب : القرآن ، فالسنة ، فالاجماع ، فالقياس

أما إذا احتمل نص فى القرآن وجهين أو أكثر فهل يرجع رأساً إلى السنة ،

(١ ـ ٢) الانصـاف : ص ٥٠ .

(٣) أنظر هذه الآثار فى مقدمة سنن الدارمى ، فقد نقلها الامام الدهلوى منهـا و انظر الانصاف : ص ٥١ ـ ٥٣ .

أو ينظر فى استعمالات القرآن و تعابيره ثم إلى السنة ، و هل يقيد مطلق القرآن و يخصص عامه بالسنة أولا ؟ و هل ينسخ نص فى القرآن بنص فى السنة أولا ؟ لم يتعرض أولئك المحدثون الأوائل لهذه الأبحاث ، إلا أنهم فى تداولهم لهذه الأمور كانوا أقرب إلى مذهبى الامام الشافعى و الامام أحمد ـ رحمهما الله ـ

كذلك ما رأينا فى عصر الأئمة الفقهاء من أخذ الامام مالك بعمل أهل المدينة و أحاديث رواتها و علمائها و أخذ الامام أبى حنيفة بأحاديث عبد الله بن مسعود و أصحابه فى الكوفة ، لم يعد ذلك الأخذ و الاتباع بهذه المحدودية فى عصر الامام الشافعى ، فقد سنحت له الفرصة فى تتبع آثار المدنيين والعراقيين والحجازيين - بصفة عامة ـ أكثر من غيره ثم اتسعت الدائرة فى عصر الامام أحمد بن حنبل ، واجتمعت لديه مئات الآلاف من الأحاديث وكثرت عنده الآثار ، و رأى الحاجة إلى الجمع و التطبيق ، فتعددت أقواله نظراً إلى تعدد الأحاديث فى المسألة ، و هذا ما أشار إليه الامام الدهلوى بقوله : « فاذا وجدوا شيئاً يستوى فيه القولان فهى مسألة ذات قولين » و قد تكون ذات أقوال كما نرى ذلك فى مذهب الامام أحمد .

« أما أنهم يأخذون بالحديث سواء عمل به الصحابة والفقهاء أولم يعملوا به » فانهم أحياناً يصرحون بحجيته وأنه صالح للعمل به ، ولكنهم يتحرجون من تطبيقه عمليا مثل حديث جمع الصلاتين من غير سفر و لا مطر ، فهو صحيح سنداً ، غير معمول به عند الفقهاء ، وإن كان روى عن بعض التابعين العمل به كالحسن البصرى ، فهم رغم اتفاقهم على صحة سنده لا يعملون به .

وعلى كل حال فانما لا أريد مناقشة هذه الأصول ، وموازنتها بأصول الفقهاء إنما أريد أن أقول إن هناك مفارقات و موافقات بين أصولهم هذه و أصول الفقهاء الأربعة ، وبذلك فانهم ـ رغم ميولهم القوية نحو الامام أحمد بن حنبل ـ أقرب إلى

ظواهر منهم إلى أحد الفقهاء المعروفين ، و يمكن أن نقول إنهم طبقة متوسطة بين
فقهاء الأربعة و بين أهل الظاهر .

ولقد كانت الطريقة التطبيقية لهذه الأصول التى أحكموها فى نفوسهم ، وتناقلوها
ا بينهم ، أسعفتهم فى جميع القضايا التى واجهتهم فأبدوا فيها وجهات أنظارهم المعتمدة
ى صحة الأحاديث وضعفها وعلى الأصول المتقدمة الذكر ، و لم تبق قضية واجهوها
لا إلا كان لهم فيها حديث مرفوع أو موقوف أو أثر من الآثار أو استنباط
قياس على طريقتهم ، يقول الامام الدهلوى :

« و بالجملة فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد ، فلم تكن مسألة من المسائل
ى تكلم فيها من قبلهم والتى وقعت فى زمانهم إلا وجدوا فيها حديثاً مرفوعاً متصلا
ـ مرسلا ، أو موقوفاً ، صحيحاً أو حسناً أو صالحاً للاعتبار ، أو وجدوا أثراً
ن آثار الشيخين أو سائر الخلفاء، وقضاة الأمصار ، وفقهاء البلدان ، أو استنباطاً
ن عموم أو إيماء أو اقتضاء ، فيسر الله لهم العمل بالسنة على هذا الوجه (١) »
ثم يقول الامام الدهلوى :

« و كان أعظمهم شأناً و أوسعهم رواية و أعرفهم للحديث مرتبة و أعمقهم

---

(١) الانصاف: ص ٥٤ ، لا يمكن إنكار تيسير الله - تعالى - لهم العمل بالسنة على هذا الوجه ، ولكن لم تصدر منهم كتب فى الشريعة الاسلامية تتناول جميع المجالات المدنية و السياسية و العسكرية و القضائية ، بحيث يمكن أن يكون ذلك دستوراً و قانوناً للدولة الاسلامية ، إنما قام بهذا العمل الفقهاء من أصحاب المذاهب الاربعة ، يمكن أن يقال إن هؤلاء المحدثين لم يولوا مناصب القضاء و الافتاء فى الحكومات الاسلامية ، فلم يعدوا أنفسهم لهذه المهمة ، ولكن فى عدم اختيارهم قضاة ومفتين دليل ظاهر على عدم كفايتهم وقيامهم بهذا الجانب المهم الذى لايكتمل العمل بالسنة إلا به ، وهذه إشارة تحتاج إلى تفصيل فى مقال مستقل .

فقهاً أحمد بن حنبل ثم إسحاق بن راهویه ، وکان ترتیب الفقه علی هذا الوجه یتوقف علی جمع شیئ کثیر من الأحادیث والآثار حتی سئل أحمد : یکفی الرجل مائة ألف حدیث حتی یفتی ؟ قال : لا ، حتی قیل : خمسمائة ألف حدیث قال أرجو (١) »

یفید هذا التصریح من الامام الدهلوی أن الامام أحمد هو رأس هؤلآء المحدثین الفقهاء الذین تناول أصولهم ، و طرق استخراجهم للسائل ، مع أنه صرح فی مکان آخر أن مذهب الامام أحمد فرع لمذهب الامام الشافعی ، وقد قدمت هذا فی الحلقة السادسة مع مناقشة هذا الرأی ، و ترجیح أن مذهب الامام أحمد مذهب مستقل وإن کان یمیل کثیراً إلی الامام الشافعی وتأثر به وأثنی علیه ، و لذلك فلا یستقیم عد الامام أحمد من هؤلآء المحدثین لأن أصوله تختلف عن أصولهم ، فهو من المحدثین الفقهاء الذین یمیلون فی أصولهم إلی الأئمة الثلاثة الفقهاء و أصول مذهبه مدونة محررة ، و أقواله فی المسائل متعددة ، وعمله فی الترجیح بحذر ، وتحفظه فی إطلاق الحکم ظاهر ، کل هذا یجعل له شخصیة مستقلة متمیزة عن هؤلآء المحدثین ، الذین لا تتعدد أقوالهم و لیس موقفهم کموقف الامام أحمد فی الترجیح و الحکم .

أما المحدثون الآخرون الذین ذکرهم الامام الدهلوی و ما أنجزوا من أعمال فسیکون حدیثی عنهم فی الحلقة القادمة ــ إن شاء الله تعالی .

❋ ❋ ❋

(١) الانصاف : ص ٥٤ ، و ینبغی أن یعلم أن متون الأحادیث لیست بهذه الکثرة التی ذکرها الامام أحمد ، حتی إنها لاتبلغ مائة ألف ، ولکن مراد المحدثین من تعدادهم للأحادیث إنما هو تعداد طرقها و أسانیدها ، و کل سند جدید یسمی عندهم حدیثاً ، و الحاجة إلی هذه الأسانید ماسة أیضاً لمعرفة درجة الأحادیث ، و للاعتبار ، فمن هذه الناحیة یحتاج المفتی أحیاناً إلی هذا العدد الضخم من الأحادیث ، و لیس هذا هو القدر الضروری إنما هو قدر الکمال .

المستشرقون والقرآن الكريم

—: • :—

محمد صدر الحسن الندوى

★ أضواء على خلفية هذا الحادث الطريف :

كانت الامبراطورية الفارسية تقع فى شرق الجزيرة العربية ، على الساحل الآخر للخليج العربى ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربى الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود ، و قد سميت الأولى ـ أيضاً ـ بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية ، وكانت حدود الامبراطورية تصل إلى الفرات ودجلة ، فى شمالى الجزيرة العربية ، وكانت أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية ـ كما يرى المؤرخ « جبن » ـ فى القرن الثانى بعد الميلاد ، و كانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية فى العالم.

و قد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى (١) .

وليس يغنى كتاب من الكتب التى ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى .

ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « ادواردجبن » : « تاريخ سقوط واندحار الامبراطورية الرومانية » (٢) أكثرها تفصيلا وثقة ، و قد ذكر المؤرخ فى الجزء الخامس من كتاب الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

اعتنق الملك قطسنطين، الدين المسيحى عام ٣٢٥ ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم ، وعلى الجانب الآخر رفض الفرس ـ عباد الشمس ـ هذه الدعوة .

و كان الملك الذى تولى زمام الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن السابع

---

(1) WESTERN CIVILINATION P. 210

(2) THE HISTORY OF THE DECLINE AN FALL OF THE ROMAN EMPIRE BY EDWARD GIBBON.

المیلادی هو « موریس » و کان ملکاً غافلا عن شئون البلاد و السیاسة و لذلك قاد جیشه ثورة ضده بقیادة فوکاس (Phocas) و أصبح فوکاس ملك الروم بعد نجاح الثورة للقضاء علی العائلة الملکیة بطریقة وحشیة (۱) و أرسل سفیراً له إلی إمبراطور إیران کسری ابرویز الثانی و هوابن « انوشیروان » العادل .

وکان کسری هذا مخلصاً للملك موریس حینما کان لجأ إلیه عام ۵۹۰ - ۵۹۱ بسبب مؤامرة داخلیة فی الامبراطوریة الفارسیة وقد عاونه موریس بجنوده لاستعادة العرش ، و مما یروی أیضاً أن کسری تزوج بنت موریس أثناء إقامته ببلاد الروم و لذلك کان یدعوه بالأب .

و لما عرف باخبار إنقلاب الروم غضب غضباً شدیداً و أمر بسجن السفیر الرومی و أعلن عدم اعترافه بشرعیة حکومة الروم الجدیدة .

و أغار کسری ابرویز ۵۹۰ - ٦۲۸ علی بلاد الروم و زحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلی الشام ، ولم یتمکن فوکاس من مقاومة جیوش الفرس التی استولت علی مدینتی « أنطاکیة » و « القدس » فاتسعت الامبراطوریة الفارسیة لجأة إلی وادی النیل ، و کانت بعض الفرق المسیحیة - کالنسطوریة والیعقوبیة - حاقدة علی النظام الجدید فی روما ، فناصرت الفاتحین الجدد و تبعها الیهود مما سهل غلبة الفرس .

و أرسل بعض أعیان الروم رسالة سریة إلی الحاکم الرومی فی المستعمرات الأفریقیة ، یناشدونه إنقاذ الامبراطوریة ، فأرسل الحاکم جیشاً کبیراً بقیادة ابنــه الشاب « هرقل » فسار بجیشه فی الطریق البحریة بسریة تامة ، حتی إن فوکاس لم یدر بمجیئهم إلا عندما شاهد الأساطیل ، و هی تقرب من السواحل الرومانیة ،

---

(۲) فوکاس (۵۸۳ - ٦۱۰) کان ظلوماً جباناً ، فاستنجد أهل القسطنطینیة بحاکم إفریقیة ضده فأرسل لهم أسطولا تحت قیادة ابنه هرقل فتمکن من خلع فوکاس و قتله ، (دائرة المعارف القرن العشرین ج ٤ ص ٤٦۳ ، الطبعة الثالثة ۱۹۷۱ دار المعرفة بیروت)

و استطاع هرقل — دون مقاومة تذكر — أن يستولى على الامبراطورية و قتل « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن - برغم استيلائه على الامبراطورية و قتله فوكاس - من إيقاف طوفان الفرس ، فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد فى شرقى العاصمة وجنوبها ، لم يعد العلم الصليبى يرفرف على العراق و الشام وفلسطين ومصر و آسيا الصغرى ، بل علتها راية الفرس « درفش كاويانى »

و تقلصت الامبراطورية الرومانية فى عاصمتها (١) و سدت جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاس ، و عم القحط ، و فشت الأمراض الوبائية ، و لم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق ، و كان الشعب فى العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة ودخولهم بها ، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، و كسدت التجارة ، و تحولت معاهد العلم و الثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة .

و بدأ عباد النار يستبدون برعايا الروم للقضاء على المسيحية ، فبدأوا علانية يسخرون من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠٠,٠٠ من المسيحيين المسالمين ، و أقاموا بيوت عبادة النار فى كل مكان ، و أرغموا الناس على عبادة الشمس و النار و اغتصبوا الصليب المقدس و أرسلوه إلى « المدائن » .

« يتبع »

★★★★

(١) يقول البطرس البستانى فى دائرته : « أما حفيده كسرى برويز أو كسرى الثانى فملك من سنة ٥٩٠ إلى ٦٢٨ ، و اشتهر أيضاً بفتوحاته ، لأنه دوخ سورية و فلسطين و مصر و وصلت عساكره إلى طرابلس الغرب و قرطاجنة ، و استمرت عساكره المنتصرة مدة ١٢ سنة معسكرة قرب القسطنطينية » (دائرة المعارف ج ٤ ص ٧٣٥ مطبعة المعارف بيروت ١٨٨٠م) .

تقدم على آبار الماء ، و آبار البترول ،

واضح رشيد الندوى

فى الحياة المعاصرة ، ما يبعث على البكاء ، و ما يبعث على الضحك ، فقد جمعت الحضارة اليوم بين الجد و الهزل ، و وصلت إلى القمة فى كلا المجالين ، كما جمعت بين المتعة والمعاناة والهدم والبناء ، فى وقت واحد ، يتخصص فيها شخص واحد و اخترعت أشياء تضر و تنفع فى آن واحد .

و قد يبدو ذلك تناقضا لكنه من الظواهر العامة للحياة المعاصرة التى تحرر فيها الانسان عن الحدود التقليدية بحكم التطور و النمو ، و خرق سائر المقاييس القديمة و طغى عليها فى سيره الحثيث إلى التقدم و بذلك يتميز عن إنسان العصر الغابر الذى كان محدود الصلاحيات و الكفاءات ، و كان محصوراً فى تشخصات ، و مقومات خلقية وتصورات وعقائد تمين ما هو صالح له وما هو غير صالح .

يصادف الانسان اليوم فى حياته أضداداً وتناقضات كثيرة تبعث على الضحك أحياناً ، للاستهانة بالانسان و قيم حياته ، و صيانته ، و لو بحثنا عن أمثلة هذه التناقضات لصادفتنا ظواهر كثيرة بدون إمعان النظر ، فى الاعلانات التجارية ، وفى وسائل الاعلام ، وفى التربية ، والتغذية ، والتنمية ، والدفاع ، السلوك والمعاملات و فى جميع مرافق الحياة .

ومن أمثلة المضحكات نقدم مثالا من الاعلانات التجارية ، إعلانات السجائر ، التى تجمع بين النقيضين ، وقد ثبتت طبياً أن السجائر تضر بصحة الانسان وأنها مصدر آلام كثيرة للانسان ، وثبتت مساوىء التدخين فى الطب الحديث الذى لا يستطيع أحد

أن ينكره ، و أجمع على هذه الجوانب السلبية للتدخين أطباء عالميون ، و اضطروا إلى إعلان تحقيقهم، ولكن هذا الاعلان كان يتنافى مع المصلحة المادية لصناعة السجائر وسداً لمصدر كبير للكسب فجمعوا بين المصلحتين ، مصلحة التحقيق الطبى ومصلحة الكسب المادى ، بجمع التعريف والتنويه بخصائص ومميزات السيجارة ، فى الاعلانات و على علب السجائر ، و التنبيه بأن التدخين مضر لصحة الانسان ، فيقول مثلا إعلان بارز فى الشوارع العامة أو فى الصحف والمجلات « توج متعتك بنكهة ...» بحروف جلية ثم فى آخر الاعلان يأتى تصريح « التدخين يضر بصحتك » .

لقد منحوا المدخن الخيار ، يؤثر اللذة و متعة التدخين ، و ما يحدث به من الانتعاش ، أو يؤثر صحته ، و سلامته ، لأن وضع قيد على الانسان فى هذه الحضارة يشكل نوعاً من الرجعيـة و التخلف ، فليكن الانسان حراً ، وليواجـه عواقب حريته ، و ممارسته .

و مثل هذا التناقض ماتناقلته الأخبار الأخيرة من إنذار خطير وجهه فريق من رواد صناعة الأسلحة الذرية إلى الدول المتقدمة .

جاء فى تقرير من واشنطن أن أكبر منظمة لعلماء الطبيعـة ، فى الولايات المتحـدة حذرت زعماء العالم بأن الحرب النووية ، إذا نشبت ، ستدمر الحضارة الانسانية و أن قنبلة واحدة ستبيد آثار الحياة فى منطقـة شاسعة تشتمل على عدة مدن كبيرة كلياً .

و قد وجهت هيئة علماء الطبيعة التى تبلغ عضويتها ٣٣٬٠٠٠ عالم ، رسالة إلى زعماء الولايات المتحدة و الاتحاد السوفيتى ، و الصين ، و فرنسا ، وبريطانية الكبرى (سابقاً) وكل عضو من أعضاء الكونجرس الأمريكى .

و أعلنت الهيئة أنها ترفع هذا الانذار مرتفعة عن المصالح السياسية لخدمة

المصالحة الانسانية ، و تثق أن هذا الانذار سيساعد على التوصل إلى نزع السلاح ، أو تجنب استخدامها .

وجاء هذا الانذار وسط حوار حاد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، على تنصيب القذائف ذات الأبعاد الطويلة والتحركات العسكرية التى ثارت أخيراً ، و تحالف اليابان مع الولايات المتحدة و الذى أثار حفيظة الزعماء السوفيت و أفقد أعصابهم إلى درجة أنهم فضحوا أنفسهم ، ونواياهم العدوانية ، و ما يدخرون من الأسلحة المبيدة للانسان و استهانتهم بقيمة الانسان ، فهدد الزعيم السوفيتى الجديد بأن الاتحاد السوفيتى سيستخدم سلاحاً فتاكا ضد اليابان تتضاءل أمام فظائعه ، فظائع القنبلة الذرية التى استخدمتها أمريكا فى عام ١٩٤٥ على هيروشيما و ناجاساكى .

يأتى هذا التهديد من « رائد السلام العالمى ، ورعاية حقوق الانسان ، وإعادة الحريات الأساسية الانسان » و تستمر استعدادت عشوائية لجعل الانسان وقوداً للاسلحة الفتاكة .

و يصادف الانذار الذى وجهته هيئة علماء الطبيعة ، و هم الذين يقومون بتطوير تكنولوجيا الذرة ، تقرير آخر ورد من العاصمة الأمريكية أن الجيش الأمريكى أجرى تجربة لسلاح جديد مضاد للقذائف المتفجرة لصد الهجوم السوفيتى النووى خارج الفضاء ، و أحيطت نتائج هذه التجربة بسرية تامة لأن التجربة تحمل آثاراً عميقة فى عالم الدفاع الذرى و لأن له حساسية كبيرة .

وفى خضم هذه الاستعدادات الحربية ، و انغماس العلماء فى اختراع وسائل التدمير وردت تقارير مفزعة من نفس الأوساط العلمية الغربية ، تفيد بأن العالم يتجه إلى مستقبل مظلم لأن ينابيع الماء تجف فى كثير من أماكن العالم و فيها دول متقدمة كالولايات المتحدة و كندا و دول نامية لم تذق حلاوة التقدم الحضارى

كالهند و باكستان و الصين و غرب آسيا .

ويفيد هذا التقرير أن ثلث الأراضى الزراعية فى العالم سيفقد صلاحية الانبات خلال خمسة عوام قادمة إذا لم تتخذ تدابير لمكافحة انتشار الجفاف تحت الأرض ، وسيكون ذلك صدمة للدول التى لا تزال قيد التطور و التى كانت تنتظر نتائج استخدام الآلات الحديثة للزراعة و تجرى فيها مشاريع الانماء و الاخصاب الزراعى .

كان الجفاف فوق الأرض مشكلة لم يتغلب عليها العلماء كلياً ، و كلفت تجارب استصلاح الأراضى ، و تحويل المناطق الصحراوية إلى مناطق صالحة للزراعة نفقات باهظة لا تتحملها ميزانيات الدول الكبرى ولايجاد توازن بين الانتاج و الاستهلاك كانت الدول الاوربية ترشد الدول النامية إلى تحديد النسل ، فذهب ضحية هذه المطامع آلاف من الناس ، لأن الدول الغربية كانت قدوة لها فى سائر مناهج الحياة .

و يقول التقرير الذى أعدته منظمة دولية لتطوير الأرض تابعة للامم المتحدة أن مأتى ألف مربع كيلومتر وهو أكبر مساحة من ألمانيا الغربية أو بريطانيا ، يفقد صلاحية الزراعة كل عام نتيجة لهبوط معدل المياه تحت الأرض . وهو خطر عظيم تنعكس به الموازين ، لتضاؤل إنتاجية الأراضى الزراعية .

و يعنى ذلك أن الانسان إذا أمكنه أن يتجنب خسائر الحروب الدامية و الأسلحة الفتاكة يواجه مشكلة أخرى و هى مشكلة النقص الغذائى ، ولا يتوقف على توفر الماء المحصول الزراعى فحسب بل تتوقف عليه حياة الانسان كذلك لأنه أساس الحياة ، و إذا كان الماء آخذاً فى الجفاف فمن يضمن البترول الذى تتحرك به الحياة المعاصرة وتتبرج به الحضارة ؟ فانها قائمة بالماء والبترول اللذين ينبعان من الأرض بقدرة الله و بقدر معلوم مهما صعر الانسان خده ، و تعالى على خالقه ، و صدق الله العظيم « قل أرأيتم إن اصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » .

ندوة علمية و احتفال دينى فى بنغله ديش

فى الأسبوع الأخير من شهر جمادى الأولى لعام ١٤٠٣هـ المصادف الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٨٣م تزمع الجامعة الاسلامية فى مدينة فتية بشيتا غانج (بنغله ديش) عقد احتفال دينى كبير وندوة علمية برئاسة سماحة العلامة مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى رئيس ندوة العلماء فى الهند ، و قد أجاب سماحته دعوة الحضور فى الاحتفال على رأس وفد يمثل ندوة العلماء فيه .

و ستكون هذه هى المناسبة الأولى التى سيزور فيها سماحة الشيخ الندوى هذه البلاد لأول مرة ، و قد تلقى فى المناسبة دعوات كثيرة من مختلف مراكز التعليم والتربية والجامعات الاسلامية فى بنغله ديش ومن بينها دعوة المدرسة العالية الشهيرة فى « دكا » التى وجهها إلى سماحته رئيسها فضيلة الشيخ عبيد الحق وقد قبلها سماحته.

ومن المعلوم أن الجامعة الاسلامية فى شيتاغانج من أشهر الجامعات والمدارس الاسلامية وأنشطها فى هذه البلاد ، وفيها كليات عديدة على غرار الجامعات الكبرى و فيها كلية اللغة العربية و آدابها يرأسها فضيلة الشيخ محمد سلطان ذوق رئيس تحرير مجلة « الصبح الجديد » التى تصدر من الكلية نفسها و تعرف فى الأوساط الأدبية و الدينية و العلمية .

و يرجى أن يحضر سماحة الشيخ الندوى فى مناسبات دينية متعددة تقام فى خلال هذه الفترة فى المدن و المراكز الاسلامية الكبيرة فى بنغله ديش ، ذلك كمدينة « خلنا » « ميمن سنغ » و « جيسور » و « بريسال » و يزور المؤسسات و المدارس الاسلامية ، و يقابل العلماء و الشخصيات الاسلامية البارزة هناك باذن الله تعالى ، نرجو أن تكون هذه الرحلة ذات فوائد علمية و دينية واسعة إن شاء الله تعالى .

سعادة الأستاذ عبد الله العقيل فى منصبه الجديد

علمنا أخيراً من مصادر موثوق بها أن سعادة الأخ الجليل فضيلة الأستاذ عبد الله العقيل مدير الشئون الاسلامية لوزارة الأوقاف و الشئون الاسلامية فى دولة الكويت سابقاً ترقى إلى منصب المستشار لوزير الأوقاف و الشئون الاسلامية معالى الشيخ أحمد سعد الجاسر.

ونحن إذ نهنئ سعادة أخينا الجليل الأستاذ عبد الله العقيل على تسلمه مهام هذا المنصب الجليل بوزارة الأوقاف نرجو أن يوفق فى القيام بمسئوليته خير قيام، وأن تنتفع به الوزارة فى جوانب عديدة مهمة بتجاربه و بصيرته فى الشئون الاسلامية.

و من المعلوم أن سعادة الأستاذ العقيل له صلة عميقة بندوة العلماء فى الهند، و بسماحة مولانا الشيخ أبى الحسن الندوى أمين ندوة العلماء العام، وقد زار منذ فترة من الوقت ندوة العلماء و اطلع على نشاطها برفقة معالى الأستاذ فضيلة الشيخ جاسم يوسف الحجى، وزير الأوقاف سابقاً فى دولة الكويت.

البعث الإسلامى — شهرية، إسلامية، جامعة

رئاسة التحرير: سعيد الأعظمى الندوى ـ واضح رشيد الندوى

الاشتراكات السنوية

فى الهند: ٣٥ روبية ـ ثمن النسخة ثلاث روبيات ونصف.

فى العالم العربى: ٩ دولارات بالبريد السطحى، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى.

فى أوربا وأفريقيا وأمريكا: ٩ دولارت بالبريد السطحى- ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى.

فى باكستان بنغلاديش ودول شرق آسيا: ٨ دولارات بالسطحى، ١٨ دولاراً بالجوى.

★ المراسلات: مكتب رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامى

ندوة العلماء ص. ب ٩٣ لكناؤ (الهند)

Phones . 49747 - 42948 Regd. No. Lw/NP 59

ALBAAS - EL - ISLAMI

Nadwat-ul-Ulama LUCKNOW (INDIA)

صدر حديثاً :

الامام السرهنـــــــدى ، حياته وأعماله

هذا الكتاب يحكى قصة الامبراطورية لمغولية العظيمة فى الهند فى القرن الحادى عشر حينما بدأت وجهتها تتحول من الارتباط بالدين الاسلامى ، و التمسك بأهداب النبوة المحمدية (على صاحبها ألف ألف تحية وسلام) وتمثيل الحضارة الاسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندوسية ، ونظرية « وحدة الديانات » بتأثير الأغراض الشخصية و الميول الفردية و التأثيرات الخارجية ، و المصالح السياسية المزعومة .

كيف قام الامام أحمد بن عبد الاحد السرهندى فى وجه هذا التيار الجارف ، وتغلب على الوضع الشاذ ، وتهيأ لعملية « صناعة الرجال » وصنع العبقريات فى زاوية بعيدة عن صخب الحياة .

لكى تطلع على هذه القصة بتفصيل ، و ترى كيف أن العزم و الايمان والاخلاص والربانية يغير وجهة أمة بأسرها و وجه إمبراطورية بكاملها ، اقرأ هذا الكتاب القيم ، الذى هو سلسلة من رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام .

بقـــــلم

سماحة الشيخ العلامة السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

النـــــاشر

دار القلم ، ص . ب ٢٠١٤٦ - الكويت

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيـــد الاعظمى


البعث الإسلامي

أخي القارىء —

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١— كتابة العنوان بالانجليزية و العربيـــة كلتيهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا .

٢— لرسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم «البعث الاسلامى» مقابل عام واحد أو أكثر :

٣— يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤— الاشتراكات السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيـــا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى ،

فى باكستان بنغلاديش و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I
N A D W A T U L U L A M A
Po. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

العدد القادم

هو العدد الأول للمجلة الثامن و العشرين سيصدر ـ باذن الله ـ فى غرة رمضان ١٤٠٣ هـ (يونيو ١٩٨٣ م) فنرجو القراء الكرام أن لا يترقبوا المجلة فى شهر شعبان ١٤٠٣ هـ

[التحرير]

البعث الإسلامي
شهرية إسلامية جامعة
رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

المجلد السابع والعشرون
العدد العاشر
★ رجب ١٤٠٣هـ ★
★ أبريل و مايو ١٩٨٣م ★

مقياس حضارتنا

إن مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى ، غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره و ألوانه ، و هذه هى نقطة الفصل ، ونقطة الالتباس أيضاً ، الأصل — فى المجتمع الاسلامى — هو العبودية لله ، و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان ، و الجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان ، أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفى لتحقيق مهمته فى هذه الحياة ، و إعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولا يأخذ منها إلا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله .

(الأستاذ المرحوم) محمد الحسنى

(الاسلام الممتحن ص ١١٠)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

★ الافتتاحية :

المجتمعات الانسانية بين هموم الجماهير و اهتمامات الحكام

يتوزع العالم اليوم نوعان من الهموم بين صنفين من الناس ، ونستطيع أن نحددهما فى ضوء الاهتمامات الحديثة التى تعالج قضايا الانسان المعاصر ، كالآتى :

** صنف الحكام بجميع أنواعه و ضروبه ومقاييسه و ألوانه و مواصفات الحكم و السلطة .

** صنف الجماهير من العامة بجميع طبقاته وخصائصه ومميزاته ومرتباته .

وإذا دققنا النظر فى الموضوع يتضح لنا أن هذين الصنفين الكبيرين هما اللذان يغطيان الجنس البشرى كله فى جميع أنحاء العالم الحديث ، أما ما يوجد عداهما من أنواع وأصناف أخرى فى المجتمعات الانسانية فهى تابعة لهما أو متفرعة منهما .

إن الصنف الأول من الناس رغم تمكنه من زمام الحكم وتبوئه مناصب ذات أهمية بالغة من السيطرة والاستيلاء على الأوضاع لاينفك عن هموم تدور حول نقطة واحدة تتلخص فى كلمة « العلو » حسب التعبير القرآنى البليغ ، والكلمة لها مدلولات واسعة و مفاهيم تغطى جميع تلك الهموم و الاهتمامات التى يعيشها الصنف الأول ، فن المجهودات المنوعة المكثفة التى يبذلها للتوصل إلى منصة الحكم و عرش الرئاسة و القيادة ، ثم الرغبة الجامحة فى استمرارية الحكم و بقائه فى حوزته من غير مشاركة ومنازعة ، إلى الاهتمام بشئون الجماهير ، و وضع برامج وخطط تتولى رفاهيتها ورضاها بالحاكم أو الرئيس أو بمن فى يده مقاليد الأمور ، كل ذلك يدخل ضمن معانى « العلو » و مدلولاته .

إن ما نراه اليوم من المحاولات الكثيرة التى يقوم بها الحكام والرؤساء والقادة على المستويات الفردية والجماعية ، وفى مجالات من السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والعلم ، إنما هى نابعة من طبيعة العلو والاستعلاء، وليس مصدرها إلا ذلك الخوف الذى يساورهم ممـا إذا ظهرت فيهم مواضع الضعف من قلة تدبير و ضعف صمود أمام التحديات الشعبية ، ذلك الذى يستطيع أن يودى إلى ثورة عليهم ويطيح بعرش الحكم أو يزيلهم من منصبهم الذى إذا ذهب ان يعود مرة أخرى .

ليس خارجاً من نطاق هذا الهموم التى تلازم الصنف الأول تلك الاهتمامات التى تبدو فى ظاهر الأمر أنها تبذل فى سبيل الشعب و فى طريق التقدم بالبلاد نحو الرفاهية و الوقوف بها فى صف الدول المتقدمة الراقية ، بل إن المشاريع الاقتصادية والانمائية إنما تكون جزءاً أكيداً لتثبيت دعائم العرش الذى يحتلة الحاكم ، و كذلك العلاقات الدولية و الصداقات التى تتوطد بين الدول لا تتم إلا حرصاً على إدامـة هذا المنصب للذين يتمتعون به .

كذلك ظاهرة اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات فى عالمنا الحديث على المستويات الرسمية ، الوزارية منها أو الرئاسية ، ليست إلا تعبيراً لتلك الهموم التى تقلق بال الحكام نحو التأكيد على العلو الذى يتظاهرون به وإحراز ثقة الشعب فيما يتولونه من مسئوليات نحو إدارة دفة البلاد ، و التحقيق للمصالح الشخصية مع إبراز كفاءاتهم الذاتية التى تمنح أصحابها هوية الحكم و الرئاسة و الزعامة الغالية .

ومن هنالك يأتى كل الأنشطة التى يقوم بها هذا الصنف من الناس ضمن الهموم التى يعيشونها فى حياتهم الخاصة ، و التى تقلق بالهم فى كل لحظاتهم ، و يخشون أن لا يحدث ما يشبه سخطاً أو كراهية قد يؤدى إلى أبشع مصير ، و الواقع أن اهتماماتهم بالشئون الجماهيرية لا تعنى إلا تغطية مواضع ضعفهم ، بل مواطن دائهم التى لا تخفى

على الخبير الواعى ، وعلى المطلع على مجريات الأمور ، وعلى خبايا الصدور ، والنوا الى تكمن وراء الستور ، وقد يلجأ بعضهم لاحراز الشعبية و الحصول على الضمانات الخلقية إلى اختلاق قصص المؤامرات الخارجية ضد الحكم والشعب والبلاد ، ونشر على أوسع نطاق ، أو إحداث ظروف مضادة للقضاء على حرية الجمهور ، وتكبلهم فى أغلال وقيود من عبودية معتد ، أو طغيان ظالم ، و سخرة دكتاتور ، و ذلك أسهل طريق لكسب الرأى العام ، و إحراز عطف الجماهير ، و لفت أنظارهم إلى هـذا الموضوع الحديث الذى يشغل كل طبقة ويمهد الطريق نحو متابعة القضية بمقاومة من كل نوع وقد يكلف الموضوع تصفية جسدية على أوسع نطاق ضد العناصر المعارضة .

ثم إن الهيئة الحاكمة تبلغ من الذكاء الخارق فيما يتعلق باتجاهات الجمهور ونزعات كل طبقة منه إلى القمة ، فهى تراعى ذلك فى كل ما تبته من أمور وتسنه من دستور أو تتخذه من قرار ، لأنها تعرف ما يرضى الشعب و يزيل سخطه إذا كان ساخطاً وما يغضبه و يثيره ضد الحكومة ، فتضع هذا الجانب المهم موضع الاعتبار فى كل لحظة ، دون أن تغفله فى أى ظرف عصيب ، ذلك أن إرضاء الشعب بالألاعيب ولهو الأحاديث أمر لم يعد صعباً بفضل تعاليم الحضارات والفلسفات المادية التى تنظر إلى الانسان بعين الميكانيكى الذى ينظر إلى المواد الخامة ، و يصوغها فى أى شكل من الأشكال المطلوبة والمقبولة فى الأسواق .

كذلك الفئات الحاكمة ذات الاتساع و النفوذ و القوة تملى إرادتها و حكمها فى الشئون على الفئات الصغيرة أو الحديثة ، وتتناولها بالتوجيه الكامل فى جميع شئون الحكم وإدارة البلاد فهى تخضع لها فى كل ماله صلة بمراعاة نفسية واتجاهات الشعب ، و تتلقى تعليمات مباشرة و غير مباشرة حول النقاط المهمة التى تتطلب التنفيذ بشئ كثير من البراعة ، وتحتاج إلى تركيز عناية ، مع تحديد قدرتها و دراسة نتائجها بدقة

وعمق، وعلى ذلك يتوقف نجاحها فى الاستمتاع من لذة المنصب واستمرارية الحكم، فتعيش فى « العلو » الذى توخته ، و تعودته .

و لكن صنف الجماهير من الناس فقد لا تعدو همومه التى تسود عليه حدود التيسيرات الاقتصادية، و بتعبير آخر لا يهمه شئ كما تهمه مشكلة المطعم و الملبس ، أو قضية الخبز والثوب ، إنه بحكم خضوعه للعوامل المفروضة عليه وتأثره بالمطالب المادية لايطلب شيئاً آخر، وقد أودعت بعض الفلسفات المادية حب المطالب الاقتصادية فى نفوس الشعب بحيث إنه يغلب على كل غاية بعيدة المدى و على طلبات الروح وغذاء القلب، حتى إن الشعوب المسلمة التى تدين بتعاليم الاسلام وتخضع لأحكامه فى كل صغيرة وكبيرة ، تأثرت بهذه الفلسفات والنظرات المادية ، وركزت جهودها على تحسين الاقتصاد و ترفيه الحياة ، و كسب الأموال و توسعة التجارات، بدون أن يقلقها تدهور الأخلاق ، و ذوبان القيم ، والانصراف عن الفضائل ، ومن غير أن يؤلمها ذهاب الأمانات و شيوع الظلم ، واتساع الهوة بين الغنى و الفقير ، دع عنك الطاعة لله و لرسوله ، و العمل بالشريعة فى حدودها الشاملة .

عادت الحياة لدى هؤلاء الناس حركة اقتصادية ليس غير ، تشغل جل أوقاتهم و طاقاتهم فى الاهتمام بها والعمل لها، و اكتساب أرباح مادية من خلال نشاطاتهم التى يقومون بها ، و ما ذلك إلا نتيجة الجهود المضنيه التى بذلها الماديون لتحويل طاقة الروح إلى كتلة مادية و تغيير وجهات الأنظار للمجتمعات الاسلامية نحو غايته المنشودة من الحياة الدنيا ، واقتناعها عملياً بأنه لابد من الحصول على القوة المادية لأنها هى التى تساعد الانسان على أداء مسئوليته الدينية ، و القيام بالشعائر الاسلامية على خير وجه ، و أحسن طريق .

بمثل هذه الأساليب الخداعة انصرفت هموم الجماهير نحو الحصول على عيش

رغيد و حياة ذات رفاهية و اقتصرت على الاعتناء بالطعام و اللباس فأصبح هتافها « الخبز و الثوب » سواء بالقول أو بالعمل أو بكليهما ، و أصبح الحكام اهتمامهم تدور حول إبقاء الزعامة و إدامة العرش ، و تعميق جذور الحكم بحيث لا يتسنى للعوامل الشعبية أن تطيح به فى أى ثورة ، و لدى أى غضبة.

و لما انحرف بأولياء أمورنا الطرق و تركزت أهواؤهم على دعم الكراسى والمناصب انحرفت الجماهير عن وظيفتها الأصيلة إلى ما يشبع البطون ويستر العوارت فحسب ، لما أصبح هتافهم عملياً « عاش الحاكم ودام العرش » أضحى نداؤهم واقعياً « الخبز والثوب » ولم يعد لأى واحد من هذين الصنفين أى أرب فى أصل الوظيفة التى تناط بهما ، ولا أى تفكير فيما يعود بالبلاد والعباد إلى بنائهما على أسس سليمة من الأخلاق و الايمان ، ولا إلى تحليتهما بالفضائل و المكرمات ، و مهما اتجه بهما الأعاصير نحو الدمار و السقوط و الانهيار و لكنهم يؤثرون العافية و الانزواء إلى ركن الغفلة و الدعة على الوقوع فى المهالك والاعتناء بانقاذ متاعهم الغالى من براثن الخوف و الشقاء و المتاعب .

إن حب الاستعلاء هذا الذى أشرنا إليه فى مستهل الكلام مستعار من العلو الذى تميز به فرعون موسى عليه السلام ، و الذى بلغت به الغباوة إلى أنه ادعى الربوبية و تناول شعبه بالقتل إثباتاً للعلو ، ودعما لجذور الحكم ، دون أن ينصرف همه إلى تعمير البلاد و إخصاب العباد و دون أن يتركز تفكيره على نشر الأمن و الحب و التعاون فى الأرض « إن فرعون علا فى الأرض و جعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم * يذبح أبناءهم و يستحى نساءهم * إنه كان من المفسدين » *

و لكن العالم الحديث الذى تغيرت فيه المقاييس لا يسمح أن يسير الناس مسار الأنانية و يعلنوا ذلك ، و لكنه يؤكد أن يحققوا نواياهم فى ستار من

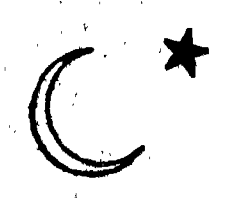
الاهتمامات الاقتصادية و الاجتماعية فى صالح الشعب و البلاد ، كما أنه يعلم الشعب فى الدول المتخلفة بصفة خاصة أن يطالبوا بترخيص الحياة الاقتصادية فى جميع المجالات وإن كانت شعوب الدول الراقية والغنية تطالب ذلك من غير إعلان أو رفع هتاف .

و من سوء حظ المسلمين أن يقلدوا الدول المادية والعلمانية حذو النعل بالنعل و يعتبروا خلافة الله حق الحكام فى العلو والعظمة ، و حق الشعب فى رفع مستوى المعيشة ، وفى مطالبة الخبز والثوب ، سواء تم ذلك بالقول واللسان أو بالعمل والنية ، و يتناسوا قول ربهم العظيم و وعده الكريم « وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى و لا يشركون بى شيئاً »

من ثمة كانت رؤية الاسلام واضحة جلية نحو الصنفين من الناس ، فليس الحكم لكى ترتفع فئة عن طريقه على فئة كبيرة واسعة ، وإنما الحاكم يتحمل مسئولية كبيرة لا تجعله أفضل من غيره ، ولا تمنحه ميزة خاصة بازاء من يتولى أمورهم ، ولكنه فرد من أفراد الرعية مسئول عن أمانة دقيقة حملها على عاتقه ، فاذا وفق فى أدائها بأحسن وجه و أجمل طريق فذاك ما هو مطلوب ومقبول عند الله ، أما إذا خانه التوفيق فالعياذ بالله .

و سوف لاينسى التاريخ ذلك الشعور المرهف بأمانة الحكم و الخلافة الذى تجلى فى حياة خلفاء الاسلام و الحكام المؤمنين ، فقد يقول خليفة « أيها الناس إنما وليت أمركم و لست بأفضل منكم » و منهم من يقول : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وعلى هذا الأساس المتين قام واقع الخلافة فى الاسلام .

سعيد الأعظمي الندوي



التوجيه الإسلامي

العالم الاسلامى فى القرن العاشر الهجرى

★ ★★★★ ★★★★ ★

—: ٢ :— سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الندوى

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال فى مصر والشام والعراق، و بازدهار العلوم العقلية - المنطق والفلسفة - فى إيران، و ازدهار الفقه الحنفى فى الهند، و تركستان، و كانت هذه العلوم المختلفة فى البلدان المشار إليها - آنفاً - مقياس الفضل و النبوغ و الكمال، فكانت مصر تزدان بالعلامة أحمد بن محمد القسطلانى مؤلف «إرشاد السارى» شرح صحيح البخارى (م ٩٢٣هـ) و شيخ الاسلام زكريا الأنصارى (م ٩٢٥هـ) وكان زينة تركيا العلامة أبو السعود صاحب التفسير (م ٩٥٢هـ) و كان فى الحجاز العلامة ابن حجر الملكى الهيثمى (م ٩٧٤هـ) مؤلف «الصواعق المحرقة» و كتب أخرى كثيرة، و العلامة علاء الدين على المتقى للبرهانفورى المكى مؤلف «كنز العمال» (م ٩٧٥هـ) و كان رواد العلم يردون مناهل علمهم فيروونهم، و طبقت علومهم الآفاق و عمت إفادتهم الخلائق، و كان العلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى المعروف بملا على القارى - العالم الحنفى المحقق الذى اتسمت كتبه بالانصاف العلمى - رغم أنه ولد فى «هرات» من أفغانستان إلا أنه بتديره بمكة المكرمه نشر علمه فى منتجعى العلم و المعرفة من أطراف العالم الاسلامى، وهو - و إن كانت وفاته فى أوائل القرن الحادى عشر عام ١٠١٤هـ - إلا أن عهد خدماته العلمية و التأليفية هو القرن العاشر، و توفى

فى أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرخ الكبير الشيخ قطب الدين النهروالى (١) ، صاحب « الاعلام فى أخبار بيت الله الحرام » سنة ٩٩٠هـ ، الذى يرجع فى أصله إلى أرض الهند ، و خضع لعلمه وفضله سلاطين تركيا ، و أمراء الحجاز ، و أكرموه و بجلوه .

وكانت إيران تزهو وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدوانى (م ٩١٨هـ) والعلامة عماد بن محمود الطارى (م ٩٤١هـ) والعلامة غياث الدين منصور (م ٩٤٨هـ) الذين أفاضوا العلوم ، وكانت تتفجر منهم ينابيع العلوم الحكمية وقد وصلت أمواج علومهم الزاخرة إلى الهند ، و أوغلت فيها ، و كان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبى الحسن الصديق الشافعى الأشعرى المصرى ، الذى يذكر فى كتب الرجال « بالأستاذ الأعظم » و « قطب العارفين » كان فريد عصره فى بيان دقائق المعانى ، ولطائف الأسرار ، ونسيج وحده فى بيان نظم القرآن والتفسير ، والحديث و الفقه ، كان يدرس فى الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تهافت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن ، وتقوى السر وشياخة الطريق وذوق الشعر والأدب (٢) ، توفى عام ٩٩٣هـ ، و كذلك المحدث الهندى الشهير الشيخ رحمة الله بن عبد الله السندى الحنفى (م ٩٩٤هـ) الذى بقى فى ربوع الحجاز يوزع تراث الحديث النبوى الشريف ، وأثبت براعته فى فن الحديث وعبقريته

(١) « نهرواله » فى الأصل معرب « انهلواره » و هو اسم مدينة فى ولاية كجرات قديماً ، فتحها السلطان محمود الغزنوى عام ٤١٦هـ و تسمى الآن بـ « بتن » و إليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتنى مؤلف « مجمع بحار الأنوار فى غرائب التنزيل و لطائف الأخبار » (م ٩٨٦هـ) .

(٢) راجع للتفصيل « النور السافر » ص ٤١٤ - ٤٣٩ .

فیه ، و کان ملك العلماء العلامة وجیه الدین بن نصر الله الکجراتی ـ الذی استمر یدرس طوال نصف قرن من الزمن فی العلوم النقلیة والعقلیة وبقی تلامذته یملأون الدنیا علماً و بحثاً ، و یدرسون و یفیدون أکثر من قرن ـ برکة النصف الأخیر من هذا القرن ، وتوفی فی أواخر هذا القرن عام ۹۹۸ھ ، وکانت بلاد الیمن المیمونة ـ إذ ذاك ـ مرکزاً لروایة الحدیث ، و الاعتناء بالأسانید ، و کان محدث الیمن الشیخ طاه بن حسین بن عبد الرحمن الأهدل یزین کرسی التدریس للحدیث ، وتوفی هو أیضاً فی العام نفسه ۹۹۸ھ (۱) .

بدأت فی هذا العصر رحلات العلماء الأفاضل الذین تتلمذوا علی العلامة جلال الدین الدوانی ، والعلامة عماد الدین محمود الطارمی والشیخ میر غیاث الدین منصور من إیران إلی الهند ، و جاء فی عهد الملك همایون بن بابر التیموری ، الشیخ زین الدین محمود کان کربهدانی ـ تلمیذ مولانا عبد الرحمن الجامی ، ومولانا عبد الغفور اللاری ـ إلی الهند ، و استقبله الملك بحفاوة بالغة ، و أکرم مثواه و عظمه ، وتوجه فی عهد الملك أکبر الحکیم أبو الفتح الکیلانی ، والطبیب همایون (المعروف بحکیم همام) و نور الدین قراری ، الاخوة الثلاثة إلی الهند و حازوا ثقة الملك و الحظوة لدیه ، ثم جاء بعد فترة العلامة محمد الیزدی من إیران ، و نزل الأمیر فتح الله الشیرازی - و قد مر فی طریقه ببیجاپور ، و مکث فیها مدة یسیرة ـ ببلاط الملك أکبر ، وکان تلمیذ الشیخ غیاث الدین منصور ، وتولی منصب الرئاسة للعلماء سنة ۹۹۳ھ ، و هو الذی جلب مؤلفات علماء إیران ، و ترك آثاراً بعیدة المدی علی المناهج الدراسیة ، وأسلوب التدریس فی الهند ، حتی کانت نتیجة هذا التأثیر

(۱) راجع للوقوف علی فضائله و سجایاه الطیبة « البدر الطالع » للعلامة محمد ابن علی الشوکانی .

أخيراً المنهج الدراسى النظامى (١) ، الذى لا يزال هو المنهج المقرر ، والسائد على الأوساط العلمية و التدريسية ، و يسيطر عليها (٢) .

و نقف فى هذا العصر على أسماء لعدد وجيه من العلماء و الأدباء المنسوبين إلى « نيسابور » و « استرآباد » و « جرجانى » و « مازندران » و « كيلان » كانوا فى الهند ، ولا سيما فى جنوب الهند ، و كان لهم تأثير على الأمراء ، ومكانة محترمة فى البلاط (٣) .

و لم تكن أفغانستان رغم روح الجندية والعسكرية ، و حمل السيف والسنان ، أقل شأناً فى العلم ، و التدريس ، و التعمق فى المسائل العلمية ، فكان القاضى محمد أسلم الهروى ، (الذى توفى فى الهند سنة ١٠٦١هـ) ولد فى هرات ، و أخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البدخشانى ، فى أفغانستان و كان الشيخ محمد صادق الحلوانى كذلك من جلة علماء عصره ، و كانت « هرات » لوقوعها على تخوم إيران مركزاً للعلوم العقلية ، و قد اشتهر من أبنائها القاضى محمد أسلم الهروى ، و نجله النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد ـ الذى يعرف فى أوساط المدارس الدينية فى الهند

(١) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، و المقياس للتحصيل والكمال فى شبه القارة الهندية ، و أفغانستان و تركستان أخيراً ، و ينسب إلى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوى (م ١١٦١هـ) الذى تناوله بالتهذيب و الاكمال ، و لا يزال مطبقاً تطبيقاً حرفياً فى مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم .

(٢) راجع للتفصيل « الثقافة الاسلامية فى الهند » (طبع المجمع العلمى بدمشق) للعلامة عبد الحى الحسنى ، و مقالا له بعنوان « المنهج الدراسى فى الهند »

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

بـ « مير زاهد » ـ فى العلوم العقلية ، و طبق صيتهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التى تعرف بالزواهد الثلاثة صولة و قبول عند العلماء و أساتذة الفن ، و يعتنون بها اعتناءاً كبيراً ، و يقيسون بمعرفتها العلم و النبوغ .

ولم يقتصر تتلمذ أبناء الهند ، واستفادتهم العلمية على علماء إيران ، وأفغانستان ، و أساتذتها البارعين ، بل استفادوا من علماء مصر و الحجاز ، و اليمن ، و محدثيها النابغين ، فكان الشيخ راجح بن داؤد الكجراتى (م ٩٠٤هـ) من تلامذة العلامة السخاوى ، أخذ عنه الحديث ، و أرشده العلامة السخاوى إلى رأى الشيخ العلاء البخارى الحنفى فى ابن عربى ، و موقفه منه ، ليحمل هذا الرأى إلى علماء الهند ومشايخها ، ويعلمهم بذلك ، حتى يصححوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه (١) ، وقد ذكر العلامة السخاوى ترجمة تلميذه الهندى فى كتابه « الضوء اللامع » واعترف بفضله و نبوغه العلمى ، و كان الشيخ على بن حسام الدين المتقى ـ إمام فن الحديث فى عصره ـ و مؤلف « كنز العمال » ـ الذى قيل عنه : « إن للسيوطى منة على الدنيا ، و إن لعلى المتقى منة على السيوطى » ـ كان من التلامذة النجباء لأبى الحسن الشافعى البكرى ، مدرس الحرم المكى ، والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكى ، مفتى مكة المكرمة ، و محدثها فى عصره .

ظهر لنا مما تقدم أن الهند ـ رغم إحاطة البحر و الجبال الشاهقة بها حيث لم تبق طريق للعلاقة بينها و بين العالم الخارجى ، إلا ممر بولان فى بلوجستان وممر خيبر فى الحدود الغربية الشمالية ـ لم تكن بمعزل فى الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتعطى ، و تستفيد و تفيد و إن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، و دائرة استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، و كان ذلك أمراً

---

(١) راجع « نزهة الخواطر » ج ٤ .

طبيعياً ، لأن الدين و العلم لم يصلا إلى الهند إلا عن طريق إيران و تركستان .

★ الاضطراب فى الأفكار ، و الفوضى فى العقائد :

إن الدراسة العلمية و الدينية ، و السياسية للقرن العاشر تبقى غير مستكملة إذا لم نتعرض لذلك الاضطراب الفكرى ، و الفوضى فى العقائد ، التى نلمس آثارها فى الهند ، و فيما يجـاورها من البلدان فى العصر الذى نؤرخه حتى تتضح ملامح هـذا القرن ، و الأوضاع السائدة فيه ، و حتى لا يقع القارىء فى الخطأ ، و يظن أن بحر الحياة الزاخر - الذى كان يمتد و يفيض على آلاف الأميال - كان فى هدوء تام ، و كان من السهل تجديف سفينة التعليم و التربية ، و التزكية ، و الاصلاح والتجديد فيه ، و أنه لم يكن هناك داع للاشفاق من طغيان هذا البحر ، أو تورط السفينة فى لجته ، إذا كان هذا التصور صحيحاً لكان هذا العصر أحق بأن يختار له عنوان « التعليم و التربية » و « النشر و التوزيع » بدلا من أن يكون له عنوان « الاصلاح و التجديد » و لقد تضافرت عوامل كثيرة من أهمها بعد الهند عن مركز الاسلام الدينى و الثقافى ، - بلاد الحجاز و مصر و الشام و العراق - و وصول الاسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان و إيران ، و قلة شيوع اللغة العربية فيها ، و عدم الاعتناء بنشر علم الحديث - الذى لا يزال يبث روح الدين الصحيح ، و يميز السنة عن البدعـة ، و يقوى الشعور بضرورة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، ويوجد ملكة الاحتساب الدينى الصحيح - ومنها صعوبة السفر للحج ، و الرحلة فى طلب العلم إلى البلدان الأخرى ، و بقاء أقلية المسلمين مغمورة فى أكثرية غير المسلمين - الذين كانوا متشبثين بعقائدهم ، متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم غير الاسلامية ، و غارقين فى الخرافات و الأوهام ، و تضافرت هذه العوامل كلها على تحويل المسلمين مرتعاً خصباً ، للدعوات المضطربة ، والفرق الضالة ، والمحترفين

بالدين الذين خرجوا يمثلون دورهم و يجربون حظهم فى إضلال المسلمين .

و كان فى مقدمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيع المتطرف المهاجم الذى نشأ و ترعرع بتأثير الايرانيين فى بعض مناطق الهند الجنوبية ، وفى كشمير ، فقد اعتنق برهان نظام شاه - أمير ولاية أحمد نكر - فى أواسط القرن العاشر المذهب الشيعى بتأثير الشيخ طاهر بن رضى الاسماعيلى القزوينى - الذى فر من إيران خوفاً من الشاه اسماعيل الصفوى إلى أحمد نكر ، و سكن هنا - و غلا برهان نظام شاه فى مذهبه الجديد ، وتطرف ، حتى أمر الناس بسب الخلفاء الراشدين الثلاثة - علناً و جهراً - فى المساجد و الرباطات ، و على الشوارع ، و فى الأسواق ، و عين رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه « الخدمة » ، و قتل كثيراً من أهل السنة و الجماعة ، و أسر كثيراً منهم (١) و انتشر المذهب الشيعى فى كشمير بجهود مير شمس الدين العراقى ، الذى بذل مساعى كبيرة فى نشر هذا المذهب ، وتحمس للدعوة إليه ، و يقال إنه أدخل ٣٤ ألفاً من الهنادك فى المذهب الشيعى كما يذكر أيضاً أنه اخترع ديناً جديداً سماه « نور بخشى »، و ألف كتاباً فى الفقه ، يخالف فقه أهل السنة و فقه الامامية كذلك ، و يقولون إن فرقة جديدة نشأت فى كشمير كانت تعتقد أن السيد محمد نور بخش « مهدى موعود » (٢) .

و لما توجه الملك همايون عام ٩٥٠هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الايرانية ، كان شاه طهماسب يتولى الحكم فيها فعرض على الملك همايون مذهب الشيعة ، و راوده إلى أن يعتنق هذا المذهب فقال همايون : «أرى

---

(١) راجع للتفصيل « تاريخ فرشته » تأليف محمد قاسم البيجابورى (وكان محمد قاسم هذا من الفرقة الامامية) .

(٢) راجع « تاريخ فرشته » لمحمد قاسم البيجابورى .

أن تكتبوا لى جميع عقائد الشيعة، فلما كتبوا له، قرأها همايون بنية الاسماع (١)»
و لا توجد لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيع، و لكن لا يستبعد ـ بعد إقامته فى إيران، و ضيافة شاه إيران له بسخاء و أريحية، و إكرام وفادته، وإيواء هذا الغريب، والمساعدة العسكرية السخية، وما أنتج كل ذالك من عواطف تقدير و شكر - أن يكون قلبه قد مال إلى المذهب الامامى، الذى لم يكن مذهب سلفه التيموريين، و كانوا متمسكين بالعقيدة السنية و المذهب الحنفى، وكان بعضهم له ارتباط وثيق بالمشايخ النقشبندية، فما كان لأفراد أسرته و رجال بلاطه، أن يقبلوه، أو يفسحوا له صدورهم، و صحب الملك همايون إلى الهند، أمراء قزلباش لمساعدته، وكان الملك همايون فى نفسه طيب القلب، سليم الصدر، متخلقاً بأخلاق كريمة، و ثقافة واسعة، يحافظ على الوضوء، و كان لا يسمى الرسول ﷺ إلا على طهارة تأدباً معه، و تعظيماً لحرمته، و كان نازلا من درج مكتبته يوماً من الأيام إذ سمع الأذان، فجلس تأدباً، فزلت قدمه وسقط، ثم توفى فى ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣هـ.

و كان من خاصة أصحابه وأمراء البلاط، و أركان دولته بيرم خانخانان الذى كان متفنناً فى الفضائل العلمية و العملية، و كان من خيار القادة العسكريين والأمراء النابغين، يمتاز برقة القلب، و المحافظة على الجمعة و الجماعة، يكرم العلماء والمشايخ ويحترمهم، و لكنه يعتقد تفضيل على رضى الله عنه على غيره من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، و له بيت معروف، يقول فيه :

« إن الملك الكبير الذى يبلغ علمه عنان السماء، إذا لم يكن من خدم على فقد تربت يمينه، و رغم أنفه ».

---

(١) انظر « منتخب التواريخ » ج ١ ص ٤٤٥ .

و كان لمير شريف الآملى اليد الطولى فى العلوم العقلية ، نزل الهند فى عهد الملك الأكبر ، فاستقبله أكبر بحفاوة بالغة ، و عظم شأنه ، و ولاه رئاسة كابل عام ٩٩٣هـ ، ثم رئاسة بنكاله عام ٩٩٩هـ ، وأقطعه الاراضى فى « أجمير » و « موهان » يقول خافى خان مؤلف « مآثر الأمراء » :

« إنه كان ملحداً زنديقاً ، خلط التصوف بالفلسفة ، وكان يقول بـ « العينية »

وكانت - إذ ذاك - فى الهند حركتان هدامتان تشكلان الخطر على الاسلام ، و تثيران الفوضى و الاضطراب فى العقائد والأفكار ، إحداهما حركة ذكرى «التى - كانت مؤسسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة ، و بداية نبوة جديدة ، و دعوة جديدة لبداية الألف الثانى ، نشأت هذه الحركة فى بلوجستان ، و نمت وقويت ، و قد ظهر ملا محمد الذى تزعم هذه الفرقة فى قرية « اتك » عام ٩٧٧هـ ، يقول مؤلف كتاب « من هم ذكرى » ؟ الذى هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة و الحركة - عن موسسها ملا محمد :

« ظهر (ملا محمد) ليلة الاثنين عند السحر ، نازلا من بلد « قطب » إلى الأرض بالصورة الانسانية ، وفى كسوة أهل الفقر والزهد ، فى منطقة اتكا الجبلية ، بوضع قدمه المباركتين على جبل عال عام ٩٧٧هـ (١) .

ويعتبر اتباع حركة « ذكرى » أن مؤسسها ملا محمد ، أفضل الرسل ، وخاتم النبيين ، نور الأولين و الآخرين ، جاء فى « موسى نامه » النسخة الخطية :

قال الله تعالى : « يا موسى لم أخلق نبياً بعد المهدى ، وهذا هو نور الأولين و الآخرين ، الذى سأخلقه بعد » (٢) .

---

(١) انظر كتاب « من هم ذكرى ؟ » ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٨ .

و قد وردت فی کتب هذه الفرقة مثل « معراج نامه » و « ثناء مهدی » و « سفر نامه مهدی » و « ذکر إلهی » وغیرهـا من الکتب عبـارات صریحة تدل علی العقائد المتطرفة، فی تنزیه ملا محمد مؤسس هذه الفرقة وتقدیسه ، و ترجیحه علی جمیع الأنبیاء و المرسلین ، و تفضیله علی خاتم النبیین محمد ﷺ ، و تتجلی فیها نمـاذج غریبة للکذب و الافتراء و التدجیل ، و التلبیس الباطل و الجرأة الوقحة علی الله و رسوله ، و کانوا ابتدعو کلمة جدیدة إزاء کلمة التوحید ، وهی « لا إله إلا الله نور باك محمد مهدی رسول الله » وکانوا یضحکون علی المصلین، ویستهزئون بهم ویکفرونهم (١) ، و یکفرون القائمین بالصوم و الزکاة و الحج من المسلمین ، ویرون حج جبل « مراد » واجباً بدل حج بیت الله (٢) ، یقول مؤلف « تاریخ خوانین بلوج » إن هذه الدیانة « الذکریة » المعارضة للاسلام کانت سائدة فی بعض مناطق بلوجستان ، وکان أتباع هذه الدیانة یرون قتل المسلمین بجنایة إقامتهم للصلوات المکتوبة ومحافظتهم علیها ، فقال الأمیر میر نصیر خان حاکم بلوجستان بتنفیذ الشریعة الاسلامیة و قتال « الذکریین » و مکافحة بدعهم و شرکهم و عداوتهم للاسلام ، حتی وقعت معارك دامیة حاسمة استؤصلت علی أثرها شوکة هؤلآء المارقین و قضی

---

(١) انظر « اعتقاد نامه » (النسخة الخطیة) .

(٢) راجع مؤلفات أصحاب الفرقة الذکریة « ذکر توحید » (مطبوع) و « أنا ذکری » و « تفسیر ذکر الله » (مطبوع)، الکتب المذکورة أعلاه ، و راجع (Baluchistan District Gazettier 1) التی جاءت فیه تصریحات أن عقـائد الفرقة الذکریة تختلف عن عقـائد أهل السنة اختلافاً جذریاً (ص ١١٦ من المطبوعة) .

على بدعهم و خرافاتهم » (١) .

و الفرقة الثانية المشبوهة فى الهند كانت « الفرقة الروشنائية » و أن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغانى السياسى و العسكرى الذى آل إلى الانقراض ، و مقاومة السيطرة المغولية التى كانت تمتد شرقاً و غرباً ، وما قامت به فى هذا الصدد من دور كبير (٢) ، يجعل كتابات المؤلفين فى هذا العصر و تصريحاتهم ، فى حاجة إلى التأمل الكثير ، و التحقيق الدقيق ، ليعلم إلى أى حد عملت فيه المصالح السياسية ، و ما هى حقيقتها التاريخية الصحيحة ؟ فانه يوجد هناك تعارض واسع المدى فى تصريحات أتباع هذه الفرقة و حماتها ، و تصريحات مخالفيها و أعدائها ، فيسمى أتباعها مؤسس الفرقة بـ « بير روشن » (أى الشيخ المنور) و يسميه المعارضون بـ « بير تاريك » (أى الشيخ المظلم) ، و كان مؤسس هذه الفرقة « بايزيد الأنصارى » ، و كان يقال له « بير روشان » (أو روشن).

ولد بايزيد بن عبد الله عام ٩٣١هـ فى « جالندهر » قبل تولى الملك بابر بسنة واحدة ، و لقد قضى طفولته ويفاعته فى صراع قائم فى أسرته ، و فى عدم اهتمام بشأنه و قلة مبالاة به ، فشب و لم يكمل دراسته ، و اتفق أنه فى بعض أسفاره التقى - كما تقول بعض الروايات - بسليمان الاسماعيلى ، و يذكر أيضاً أنه صحب

(١) انظر « تاريخ بلوچ » ، استفدت فى موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر فى مجلة « الحق » الصادرة من « أكوره ختك » مجلد ١٩٧٩م ، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربت بلوجستان ، وراجع أيضاً مقالا بعنوان « دراسة تفصيلية للديانة الذكرية » بمجلة « الحق » عدد شهر يناير ١٩٨٠م .

(٢) من الممكن - بالنظر إلى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام فى ذلك العصر - أن يكون بعض الطامحين البعيدى النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل الأفغان ، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية ، لمحاربة الدولة المغولية الفتية ، و استعادة سلطة الأفغان الذاهبة ، و إقامة دولتهم من جديد .

« الیوکیین » (١) ، و یقول المترجمون له : إنه بدأ من ذلك الحین یری رؤی ، ویسمع أصواتاً تنادیه من وراء الغیب ، فاشتغل بالذکر الخفی ، ثم استغرق فی ورد « الاسم الأعظم » فلما بلغ الحادیة و الاربعین من عمره ، هتف به هاتف من السماء أنه لم یعد فی حاجة إلی الطهارة الشرعیة ، وینبغی له أن یصلی صلاة الأنبیاء (٢) ، بدل صلاة المسلمین ، ثم جعل یعتقد أن الناس کلهم منافقون و مشرکون ، و انصرف إلی « الریاضة الأربعینیة » ، ثم أمر بأن یصدع بدعوته ، ویبلغ دینه ، و اهتم بدعوی المهدیة ، والالهامات الربانیة (٣) وظل مریدوه یزدادون کل یوم ، و عین بعضاً منهم خلفاء لیقوموا بالدعوة و التبلیغ ، و یوسعوا نطاق حرکته .

و لکن تعالیمه التی وردت فی کتابه « صراط التوحید » یظهر علیها أثر التعالیم الصوفیة الغالیة ، والاعتداد بالنفس المتطرف الذی ینشأ عند أصحاب الریاضات و المجاهدات الذین لا یرجعون فیها إلی مرشد روحی خبیر ، و لا یحملون العلم الصحیح من کتاب الله تعالی و سنة رسوله ﷺ کما ذکر فیها شیئاً من عقائده و أصوله ، و لعلها عنده أصول الحرب و قواعدها حسب مستوی تلك الفترة التی کان یحارب فیها المغول ، و القبائل الأفغانیة المعارضة .

وبایعته عدة قبائل أفغانیة بمنطقة بشاور ، ودخلت فی دائرة مریدیه وأتباعه ، وبدأت قبیلة « مهمندزئی » بنشر هذه الدعوة ، وتأثر بذلك السندیون والبلوجیون ،

---

(١) أصحاب الریاضات من البراهمة ، و النساك منهم

(٢) و قد صرح الشیخ بایزید نفسه فی کتابه « مقصود المؤمنین » : « إن الشریعة مثل لحاء الشجرة و أنه لا حیاة للشجرة بدون لحاء » ص ٤٤٤ النسخة الخطیة ، مکتبة جامعة بنجاب .

(٣) و قد رد الشیخ بایزید نفسه علی هذا الاتهام بأنه « مهدی » کما جاء فی المناقشة التی جرت بینه و بین قاضی خان الکابلی (انظر النسخة الخطیة بجامعة بنجاب) .

و كتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء و مشايخ الطرق ، و بعث الشيخ بايزيد دعاته إلى حكام البلدان المجاورة ، و أمرائها و علمائها لجاء حاكم من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك أكبر ، و قضى عامين و شطر عام من أيام حياته الأخيرة فى حرب مع المغول ، و أدركه الأجل عام ٩٨٠هـ بمنطقة « كالا بانى » ، و دفن فى « هشت نكر » ، و بقيت من مؤلفاته ثلاثة كتب ، و هى « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » و « صراط التوحيد » ، التى تناول فيها أصول فرقته و عقائدها بالايضاح و التفصيل ، و يعتبر « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » كتابين شبه مقدسين عند أتباع هذه الفرقة ، وكان أكبر معارضيه أخوند درويزه ، الذى كان مريداً للسيد على الترمذى المعروف بـ « پير بابا » (م ٩٩١هـ) ، وألف فى الرد عليه كتاب « مخزن الاسلام » ، و ألف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم « حال نامه پير دستكير » (بالفارسية) ورتبه على محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيباً جديداً .

وتفرق أتباع هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة فى مختلف أنحاء الهند ، ومازال ينقص عدد المعتنقين لها حتى انقرضوا ، و انقرضت هذه الفرقة (١) .

يتحدث مرزا نصر الله خان فدائى مؤلف « داستان تركتازان هند » (قصة غزاة الهند) عن هذه الفرقة ، فيقول :

« إن الفرقة الروشنائية هى تلك الفرقة التى أسسها « بايزيد » أحد أبناء الهند ، إنه دخل فى الأفغان وادعى النبوة ، وتسمى بـ « النبى الروشنائى » وكسب أتباعاً

(١) استفدت هذه المعلومات من مقال للمرحوم البروفيسور محمد شفيع تضمنته دائرة المعارف الاسلامية (باللغة الأردية) ج ٤ .

و أنصاراً ، فرفضوا الصحف السماوية و نبذوا عبادة الله ، و تفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود (١) ، و يعتقد أنه ليس هناك إلا « واجب الوجود » وكان يمجد الرسول العربی ﷺ وكان يبشر الناس بقرب اليوم الذی تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه ، يتصرف فيها كما يشاء » .

« ويستفاد من كتاب بايزيد فی ترجمة حياته أنه كان مخاطباً بالالهامات ، وأن جبريل كان ينزل عليه ، وأن الله شرفه بالنبوة ، وكان هو نفسه يعتقد فيه النبوة ، و كان يصلی إلا أنه لم يكن يری للتوجه إلی القبلة لزوماً ، وكان يستدل علی مسلكه هذا بقوله تعالی « فأينما تولوا فثم وجه الله » ، ولم يكن يری الغسل بالماء واجباً ، وكان يعتقد جواز قتل معارضيه (٢) » .

وذكر مرزا نصر الله شيئاً من أقواله التی يغلب عليها طابع التصوف ، والمعانی الروحية ، إلا أنه يتجاوز إلی آراء غير إسلامية ، و أفكار غير سليمة ، يقول :

« كان أهم ما يعتنی به ويحث عليه ، معرفة الله و معرفة الذات ، فاذا وجد هندوكياً ، يعرف نفسه ، يرجحه علی المسلم الذی لا يعرف نفسه ، و يأخذ الجزية من المسلمين ، و كان يضع الخمس فی بيت المال عنده ، و يوزع منه علی الفقراء و المساكين ، و كان جميع أبنائه يجتنبون الفسق و الفجور ، و الظلم و العدوان ، له مؤلفات عديدة فی العربية و الفارسية ، والهندية والبشتوية ، و له كتاب « خير البيان » ، الذی ألفه فی أربع لغات ، وهو ـ كما يعتقدون ـ كلام الله المباشر إليه ،

---

(١) و لم يكن ذلك بدعاً فی ذلك العصر ، فقد كان أكثر الصوفية و المشايخ (لا سيما فی الهند) يبالغون فی هذه العقيدة (المؤلف) .

(٢) انظر « داستان تركتازان هند » ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

و الصحيفة السماوية ، المنزلة عليه » (١) .

و تدل كتب التاريخ التى ألفت فى عصره ، أن الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الأفغان ، و كون منهم قوة مهابة ، و استولى على ممر خيبر بعد أن جعل مقره فى « كوه سليمان » و كان يقوم بالغارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر جيشاً لمقاومته ، وكسر شوكته ، و لكن لم يستطع هذا الجيش التغلب عليه و استئصال شأفة هذه الحركة ، و استمر أبناء بايزيد و خلفاؤه بعد وفاته ، على معارضة الحكومة المغولية ، خطراً دائماً لهذه الدولة ، و لم يستطع كبار قواد الدولة المغولية ، كراجه مان سنكه ، وبيربل ، وزين خان أن ينتصروا عليهم ، بل إن « بيربل » لقى حتفه فى معركة من المعارك معهم ، و باء مان سنكه كذلك بالفشل والخذلان عام ٩٩٥هـ ، فى كرة على الروشنائيين و لم يقض على هذه الفتنة إلا فى عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨هـ (٢) .

★ المهـدوية :

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها فى ذلك العصر ، حركة المهدوية ، التى هزت المجتمع الاسلامى فى شبه القارة الهندية ، و ما جاورها من البلاد هزاً لم يعرفه تاريخ الحركات و الدعوات منذ زمن بعيد ، منشئها السيد محمد بن يوسف الجونبورى الذى ولد عام ٨٧٤هـ ، وتوفى فى أوائل القرن العاشر عام ٩١٠هـ ، إلا أن حركته القوية خلفت آثاراً تمتد إلى أواخر القرن العاشر ، و نستنتج مما كتبه المؤرخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين و موافقين ما يلى :

---

(١) نقلا عن « حال نامه بايزيد » المندرج فى « دبستان مذاهب » لملا حسن خان ، ص ٣٠٦ - ٣٠٩ .

(٢) ملخص من كتاب « داستان تركتازان هند » .

١ـ كان السيد محمد الجونفورى من نوابغ الرجال خلقاً و ديناً ، و تأثيراً روحياً قوياً ، لا تنجب أمثالهم الدنيا ، إلا بعد قرون و عهود طويلة ، كان شجاعاً جريئاً منذ ريعان شبابه قلقاً على أوضاع عصره ، وظروفه ، صادعاً بالحق ، جاهراً بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، زاجراً عن المناهى ، مشدداً فى الانكار ، واقب لأجل هذه الخصال فى عصره بأسد العلماء ، أخذ علم السلوك و الاحسان من الشيخ دانيال ، و التزم المجاهدات الشاقة ، و الرياضات الشديدة ، و قضى أعواماً فى الأودية و الجبال ، معتزلا عن الناس ، وذلك ما يؤدى فى الغالب - لاسيما إذ لم تكن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد خبير ، وإرشاداته وتعاليمه - إلى وقوع الاشارات الغيبية ، والواردات القلبية التى يخاف منها زلة الأقدام ، و الخطأ فى الفهم و التفسير ، و يحمل مثل هذا الانسان - الذى لم ترسخ قدمه فى العلم ، و لم يبلغ درجة البحث و التحقيق - الكلمات على غير محاملها ، و يفهم الاشارات الغيبية فى غير معانيها ، فكان منه أن ادعى فى رحلة من رحلاته أنه « المهدى » وأعلن بعد ذلك ، عدة مرات فى أمكنة مختلفة أنه المهدى الموعود ودعا الناس إلى الايمان به .

٢ـ و كان - لكثرة مجاهداته و رياضاته ، و قوته الروحية ، و اهتمامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - يملك تأثيراً قوياً ، فكان يسحر الناس بشخصيته و معاشرته ، و يأخذ بألباب الناس بحديثه و خطابه ، حتى كان من يحضره من العامة و الملوك و الأمراء و يجلسون عنده ، كأن على رؤوسهم الطير و يستمعون إليه فى دهشة و تأثر و انبهار ، و يهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والاعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد فى الدنيا وهجر الأوطان ، و مرافقته فى السفر و الحضر ، و التسليم له والانقياد لأمره ، حدث ذلك

مع السلطان غياث الدين شاه الخلجى ، فى عاصمة حكومته « ماندو » ، وكان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكجراتى فى جانبانير بكجرات . و شوهد له هذا التأثير السحرى العجيب فى « أحمد نكر » و « أحمد آباد » و « بيدر » و « كلبركه » حيث تهافت عليه الناس ، و بايعه خلق كثير ، و انضم إلى ركبه آلاف من الناس ، و شهدت منطقة السند اجتماعاً حاشداً ، و جموعاً متدفقة كالسيل ، و كان لخطابه فى « قندهار » دوى عظيم حرك ساكن البلد و هز الأرض ، و مال إليه حاكم قندهار مرزا شاه بيك و أكبره .

٣ـ و كانت حياته حياة زهد و تجرد ، و استغناء ، و انقطاع كامل إلى الله تعالى وكان الناس يشاهدون منه ـ سفراً كان أو حضراً ـ مظاهر الزهد والايثار ، و الذكر و العبادة . يوزع الطعام على الناس بالسوية من غير تميز بين غنى و فقير ، وكان أهله وأفراد أسرته لا يمتازون عن الناس فى شئ ، فكان هذا الجو الايمانى يؤثر على جميع الوافدين ، فلا يرجعون من عنده إلا معجبين به ، مأخوذين بتأثيره .

٤ـ أنجبت هذه الحركة رجالا أقوياء مخلصين يستميتون فى الدعوة ، ويجاهدون فى سبيلها ، و لا يخافون سلطة و سطوة ، و يقومون بواجب « كلمة حق عند سلطان جائر » بشجاعة نادرة و جرأة خارقة ، يتحملون مشاق التعذيب و الايذاء الشديد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقد وهبوا نفوسهم و مهجهم فى هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يقف الانسان على هذه البطولات و المواقف الجريئة إلا باعجاب و إكبار و انفعال ، و يضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجونبورى و صحبته .

و اقرأ ـ على سبيل المثال ـ ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوى (الشيخ

العلائى - م ٩٥٧هـ) الذى قام بمسئولية الدعوة ، و الوعظ و التـذكير فى بلاط السلطان سليم بن شير شاه السورى ، واقتصر على تحية الاسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السلطان من التزام الكلمات المعينة و الانحناء و الخضوع ، و ضرب بالسياط - ذات مرة - فى حال إصابته بمرض الطاعون ، و إعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضرب و مات ، و ربط جسمه برجل الفيل و طيف به فى المعسكر (١) .

٥- كانت دعوته مؤسسة على خمسة أصول :

١- الانصراف عن الدنيا. ٢- العزلة عن الخلق. ٣- الهجرة عن الوطن.
٤- مصـــاحبة الصديقين. ٥- دوام الذكر (على طريقة حفظ الأنفاس) ، وكان يرى مشاهدة الرب عزو جل - سواء كانت بالعين أو بالقلب ، فى اليقظة أو فى المنام - شرطاً لازماً لتحقق الايمان .

٦- و قد صدرت عنه فى حال السكر ، أو بسبب خطئه فى فهم المعنى و المراد كلمات و أقوال صريحة و دعاوى واضحة - مرات عديدة - أدعى فيها لنفسه ما لا نجد له تأويلا أو محملا سائغاً إلا بتكلف شديد ، و التى أدت بأتباعه - مهما كانت نيتهم فى بداية الأمر ، و مهما كانت عواطفهم الدينية الطيبة - إلى استحالتهم فرقة جديدة ، تخالف ما عليه الجمهور ، و تعارض أهل السنة والجماعة ، وتستند إلى هذه الأقوال الشاذة ، وتؤسس عليها عقائدها وأصول ديانتها ، ثم أضاف فيها الغلاة من أتباعهم - كما هو المعروف فى تاريخ الفرق - و بالغوا فى تعظيمه وتقديسه ، حتى ساووه بالانبياء و المرسلين ، بل فضلوه

---

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوى ، « نزهة الخواطر » ج ٤ ، و « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايونى .

عليهم أحياناً ، و بلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مرتبة النبى الخاتم ﷺ و إن السيد محمد فى زعمهم واعتقادهم تابعاً لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ومتقيداً بالشريعة المحمدية - على صاحبها الصلاة و السلام - و بلغ ببعضهم الغلو المفرط ، والتطرف الجامح إلى أن الكتاب و السنة إذا خالفا قولا من أقواله ، أو فعلا من أفعاله ، فكتاب الله وسنة رسوله تبع لأقواله و أفعاله ، وغلوا غلواً عجيبا فى عقيدة مشاهدة الله تعالى فمن لم يشاهد « الأنوار الالهية » بعين الرأس أو عن طريق القلب أو فى حال اليقظة أو المنام ، فليس بمؤمن ، و بدأ الخليج بين عامة المسلمين و بين هذه الفرقة - بعد ظهور هذه العقائد - يتسع و يعمل على مر الزمان حتى شذت هذه الفرقة المدعوة بـ « المهدوية » عن أهل السنة و الجماعة ، و انقطعت صلتها بهم بصورة كاملة ، وضاعت تلك الأهداف التى أنشئت لها هذه الحركة، وكان يستهدفها مؤسسها و يرمى إليها .

و استمرت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر، وقامت لحماتها وأنصارها عدة دول فى ولاية دكن ، و يقدر عدد أتباع هذه الفرقة وقوتها السياسية التى ظهرت فى أواخر القرن العاشر بأن جمال خان المهدوى - الذى كان من كبار أصحاب المناصب فى البلاط - لما تولى زمام الشئون الملكية بولاية «أحمد نكر » ، فى عهد السلطان إسماعيل نظام شاه بن برهان نظام شاه الثانى (٩٩٦ - ٩٩٨هـ) استمال السلطان اسماعيل نظام شاه - و كان صغير السن إذ ذاك - إلى نحلته ، ثم لم يمض على ذلك كثير زمن حتى اجتمعت لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد ، والتف حول جمال خان من المهدويين حوالى عشرة آلاف شخص وخضعت له ولاية أحمد نكر ، واستولى عليها استيلاء كاملا ثم لما عاد برهان شاه - وكان قد خرج فى رحلة من الرحلات - إلى أحمد نكر ٩٩٨هـ ، قضى على

النحلة المهدوية التى كانت انتشرت انتشاراً واسعاً. ونشر المذهب الامامى الذى كان عليه من قبله ، و أحياه من جديد (١) .

و ظهر فى أواخر القرن العاشر إعياء و ضعف شديد فى الحركة المهدوية وقد كانت هذه الدعوة ، و ادعاءات السيد محمد الجونبورى ، و تشدد أتباعه الغلاة المتطرفين ، تحدث رجة فى معتقدات المجتمع المسلم ، و اضطراباً فى الأفكار ، وقلقاً فى الأوضاع ، و هال ذلك ، و أفزع العلماء الراسخين - فى ذلك العصر - الذين كانوا على بصيرة من الكتاب و السنة ، و معرفة تامة بالعلوم الدينية ، و كانوا يتوجسون خيفة من هذه الفتنة العمياء و يرونها تمهيداً لضلال مستطير ، و انحراف كبير ، فنهض العلامة محمد طاهر الفتنى مؤلف « مجمع بحار الأنوار » (٩١٣-٩٨٦هـ) و هو أكبر عالم و محدث فى عصره ، بتفنيد هذه الدعاوى و الرد عليها ، و سد هذه الثلمة فى الدين ، و عاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة - التى سادت فى ولاية كجرات ، وقام لها دعاة و أنصار - والقضاء عليها ، و أنه لا يلوث العمامة حتى يزهق هذا الباطل و ينتصر للحق ، ثم لما فتح الملك أكبر ولاية كجرات عام ٩٨٠هـ ، و قابله العلامة محمد طاهر الفتنى ، لاث العمامة على رأسه بنفسه ، وقال له : « إن ما عاهدت الله عليه من نصر الدين و حمايته ، و استئصال هذه الفرقة الناشئة ، على تنجيزه و القيام به » و ولى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم « كجرات » الذى شد أزر العلامة الفتنى ، و ساعده فى عمله ، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقيل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية ، و ولى مكانة عبدالرحيم خانخانان . قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم و بارزوا فى الميدان ، فحسر العلامة الفتنى رأسه من العمامة ، و قصد العاصمة ،

(١) ملخص من « تاريخ هندوستان » ج ٤ ، تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوى .

و تبعته طائفة من المهدوين ، و لم يصل مدينة أجين حتى قتلوه غيلة (١) .

★ أسباب القلق و الفوضى فى الأفكار :

إن دراسة التاريخ والتعمق فى فلسفته يدل على أن الأسباب الأصيلة والدوافع القوية لمثل هذا القلق والاضطراب ، و الحركات الهدامة الناشئة من ردود الفعل ، و الفوضى فى المعتقدات و الأفكار تتحدد - بصفة عامة - فيما يأتى :

١- تعارض القول والفعل ، و العقيدة والحياة ، و التناقض الموجود فى المجتمع ، كان يحمل القلوب الحساسة ، و المشاعر المرهفة على القلق والتوجع ، وهذا القلق - عند ما يبلغ مرحلة خاصة من مراحل تطوره - يجد متنفساً فى الدعوات الثورية ، و الحركات الهدامة ، و أصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظ فى إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة . فانهم يصابون دائماً بالشك و الارتياب ، وتزعزع العقائد و الأفكار ، و تتحول مثل هذه الحركات - بصفة عامة - إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة وتصبح أكثر فساداً و أعمق ضلالا ، و أوسع خطراً و اضطراباً للبلاد ، و إثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذى تقوم هذه الدعوات لاصلاحه و معالجة فساده .

و يخيل إلينا أن الترف و كثرة الأموال ، و الطمع فى المناصب و الوظائف والتنافس فى الحصول عليها ، جر الناس إلى هذا التناقض والنفاق العملى ، و وجدت طبقة كبيرة من عباد المادة و أبناء الدنيا ، الذين تخطوا حدود التعاليم الدينية والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع و اللذائذ فى حل وغير حل ، غير مبالين بالقيم والآداب والحدود

(١) راجع « نزهة الخواطر » ج ٤ .

الاسلامية ، وتنشأ مثل هذه الطبقة ـ دائماً ـ فى ظل حكومات واسعة قوية ، و فى عهود الأمن و الاستقرار ، و الرخاء ، و يبدو أن المجتمع الهندى فى آخر عهد حكومة الأسرة السورية ، و بعد قيام الدولة المغولية أصيب بهـذا الداء العضال ، و اتجه هذا الاتجاه المتهور ، ونفذت قوانين معارضة للاسلام و طبقت عادات و أعمال تناوىء الدين ولا تمت إليه بأى صلة (١) و قد منيت الدولة الأموية ، و الدولة العباسية أيضاً ، بظهور هذه الطبقة المترفة ، وهى الطبقة التى يسميهم سيدنا حسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ (م ١١٠هـ) بـ « المنافقين » .

٢ـ استبداد الحكام والسلاطين ، وسلطتهم المطلقة ، وظلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الاسلامية ، و عبادتهم للنفس و الأهواء مما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات و حركات قوية تهز الدولة ، و تلحق الأضرار بالمسلمين .

٣ـ غلبة الطقوس و التقاليد ، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ، وانحطاط المجتمع الخلقى والعقلى ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرة التقليد الأعمى عليها (٢) ،

(١) يستفاد من كتب التاريخ أنه فى عهد السلطان سليم شاه (أو إسلام شاه) كان يجتمع فى عاصمة كل ولاية كبار أصحاب المناصب من الأمراء و الوزراء يوم الجمعة ، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسى فى خيمة كبيرة ، فيحنون له رؤوسهم ، و يقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمى الفريد آبادى ، ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) يصور البروفيسور خليق أحمد نظامى رئيس قسم التاريخ فى جامعة عليكراه الاسلامية ، هذا العهد ، و يشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً ، فيقول : ★

وفقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبعدها عن الواقعية ، وفقرها فى إقناع العقول المتطلعة . و الأذهان المتشككة ، كل ذلك يدفع الناس إلى اعتناق دعوات و حركات تروى ظمأهم و يجدون فيها سلواهم ، و تنهج لهم مسالك جديدة ـ خاطئة أو صحيحة ـ وتخرج بهم عن الدائرة الضيقة المحدودة ، كما أن من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكرى ، غفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة وقلة العلم بالحديث الذى يساعد على تكوين تصور سليم وفهم صحيح للدين. ويعرف من خلال دراسته مدى بعد المسلمين و انحرافهم عن الادراك الصحيح لأصول الدين ، و العمل المستقيم و أسوة الرسول ـ عليه الصلاة و السلام ـ و منهاج الصحابة و التابعين ـ رضى الله عنهم أجمعين .

★ « كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير ـ بسرعة ـ نحو التدلى و الانحطاط ، و إن ما جاء من القصص و الروايات الغريبة فى « أفسانه شاهان » و « تاريخ داؤدى » تنم عن التسفل الخلقى المشين و الاضطراب العقائدى العظيم ، إن حياة « الدراوشة » المترفة الناعمة ، و انحراف طلبة العلم ، و العقائد الخرافية ، فى التمائم والحجب و أساطير السعالى والجن ، و روايات « مصباح سليمان » ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلق قويم ، و لقد كانت الحركة المهدوية ـ فى حقيقة الأمر ـ محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلى ، و التزمت الفكرى ، و الجمود المذهبى (انظر « سلاطين دهلى كے مذهبى رجحانات ـ الميول الدينية لدى سلاطين دهلى » (ص ٤٥١) .

٤- عدم وجود شخصية دينية قوية تسمو على المستوى العام فى مقدرته العقلية ، والروحية ، تملك التأثير القوى ، وتهذب النفوس ، وتأخذ بمجامع القلوب ، وتزيل الريب والشكوك ، وتعالج الروح القلقة ، والنفس المضطربة ، و تنفخ فى جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً ، و تعيد الثقة و الاعتماد على خلود الاسلام ، و صدق الرسالة المحمدية ، و الشريعة الاسلامية ، و أن أسباب الرقى و الكمال موصولة بها ، راجعة إليها .

وتدلنا دراسة تاريخ القرن العاشر ـ فى ضوء كتب السير والتراجم ، و سجلات الوقائع و الحوادث ـ على أن هذه الدوافع و الأسباب الطبيعية للفوضى و الاضطراب تضاعفت فى الهند ـ على أقل تقدير ـ بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكرى ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع فى القرن العاشر .



دور السنة النبوية فى رسم معالم المجتمع المعاصر
★★★★ و تكوين المجتمع المسلم ★★★★

بقلم : الدكتور همام عبد الرحيم سعيد
رئيس قسم أصول الدين بكلية الشريعة
بالجـامعـة الأردنيـة

الحمد لله والصلاة و السلام على رسول الله و على آله و صحبه أجمعين .

عملت السنة النبوية على تكوين مجتمع إسلامى كانت قيمه و تصوراته و أنماط حياته و علاقات أفراده وشعوبه قائمة على أساس التوجيه الربانى و الهدى النبوى ، وتفردت هذه السنة التى هى القراءة البشرية للقرآن الكريم فى الهيمنة والتوجيه ، وذلك لأن الايمان لا يتحقق إلا بهذه الهيمنة والتوجيه المتفرد ، قال تعالى: « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليماً » (١) .

و كانت السنة تلقى أضواءها على مجتمع المستقبل ، و تكشف عن معالم ذلك المجتمع ، وهنالك حشد كبير من الأخبار المستقبلية فى القرآن و السنة والتى تحققت تماماً ، وهذا تأكيد لنبوة النبى ﷺ ، و لسنا بصدد إحصاء هذه الأخبار ، ويمكن التماسها فى مظانها من كتب الحديث ككتاب إعلام النبوة عند البخارى والمناقب عند مسلم ، و قد ذكرت كتب التاريخ تفاصيل هذه الأخبار .

و لقد امتدت هذه الأخبـار فى عمق المستقبل ، و رسمت معالم المجتمعـات الاسلامية ، و أبرزت جوانب الضعف و القوة فيها ، و إن أبواب الفتن وأشراط

(١) سورة النساء الآية : ٦٥ .

الساعة هى مما يتناول التاريخ المستقبل ، ولقد آن الأوان للعلماء والباحثين والمفكرين أن يدرسوا هذه الأبواب دراسة متأنية ، وربما أكون غير مبالغ إذا قلت إن أول قراءة للتاريخ المستقبل هى القراءة التى تقدمها سنة النبى ﷺ .

إن التطابق الكبير بين أحوال المجتمع المعاصر و بين أبواب الفتن وأشراط الساعة كبير حتى كأن هذه الأبواب هى الأساس النظرى لكثير من صور الواقع الاسلامى ، ولما كانت صور الواقع وجوانبه كثيرة فأقتصر على بعض هذه الجوانب مع نظرة تحليلية فى الأخبار النبوية التى تبرز هذه الصور .

★ غياب الاسلام كنظام للحياة :

لقد حصل فى الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى غياب الاسلام عن دولة الخلافة العثمانية ، و بذلك لم يعد الاسلام محور الحياة و ناظمها فى المجتمعات الاسلامية بل أعلنت كثير من المجتمعات علمانيتها أو اكتفت باعلان الاسلام ديناً رسمياً على مستوى الأعياد و بعض الشعائر .

و هذا شئ جديد على الأمة الاسلامية ، و قد أخبرت السنة بهذا ، فقد روى أبو أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ قال : « لينقضن عرى الاسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث النـــاس بالتى تليها ، و أولهن نقض الحكم و آخرهن الصلاة » (١) .

و لم يقتصر الحد عند رفض الاسلام كأساس يقوم عليه المجتمع و كنظام يحكم المجتمع بل أصبح الاسلام مستهجناً و مستغرباً فتحقق قول النبى ﷺ :

« بدأ الاسلام غريباً ثم يعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء قيل: يارسول الله ،

---

(١) رواه الامام أحمد فى المسند ٥ - ٢٥١ .

و من الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس » (١) و فى رواية أخرى « قيل : و من الغرباء ؟ قال : النزاع من القبائل (٢) »

و غربة الاسلام بلغت درجة كبيرة من الحدة و أصبح أبناء الاسلام أعداء الاسلام ولقى الاسلام كل كيد من أصحاب الثقافات الوافدة وشنت عليه حملة شملت العقيدة و الفقه و القرآن والحديث و الأنظمة الاسلامية ، و الأخلاق ، بل وصلت هذه الحملة إلى اللغة ، لأنها الوعاء الذى يحمل فيه الاسلام ، و أكثر من هـــذا أقيمت الأجهزة التى تعمق هذه الغربة و تؤكدها و تعمل على منع كل ما يبدد هـــذه الغربة .

لقد تكررت الغربة مرتين اثنتين الأولى : يوم ظهر محمد ﷺ فى بطحاء مكة فاستهجن أهلها دعوته و استغربوها ، والثانية : يوم أن دال كيان الاسلام السياسى و الاجتماعى و الثقافى مع مطلع القرن الرابع عشر الهجرى .

★ اختلال القيم و التصورات :

ولو كان الأمر قاصراً على زوال النظام السياسى أو الاجتماعي لكان من السهل أن تستعيد الأمة وجودها السياسى أو الاجتماعى ولكن المشكلة كامنة فى تغيير جوهر الفرد و استئصال ثقافته الاسلامية و إحداث نقيض عقدى و فكرى ، والذى كان مطلوباً من الفرد المسلم أصبح غير مرغوب و قد يصل الأمر إلى درجة الانكار أو إلى درجة المنع ، وأصبح ما يعتبر جريمة فى نظر الاسلام أمراً عادياً وما يعتبر مكروهاً أمراً مندوباً .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى المسند ج ٤ ص ٧٣ وأخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٠ إلى قوله فطوبى للغرباء و كذلك أحمد ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) أخرجه الدارمى ج ٢ ص ٢٢٠ و ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٢٠

و لقد سجلت السنة هذا التحول الكبير قبل وقوعه ، و كان ذلك فيما رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما و أنا انتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال (١) و نزل القرن فعلمنا من القرآن و علمنا من السنة ، ثم حدثنا عن رفعها فقال : ينام الرجل النومة فتنزع الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر الوكت ثم ينام النومة فتنزع الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً و ليس فيه شئ (٢) ، ثم أخذ حذيفة كفاً من حصاً فدحرجه على ساقه .

قال : فيصبح الناس يتبايعون و لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أميناً ، و حتى يقال للرجل ما أعقله و أجلده و أظرفه وما فى قلبه حبة خردل من إيمان .

★ و دلالات هذا الحديث كثيرة نختار منها :

ألف : السرعة فى تغيير الأفكار و المعتقدات و الاتجاهات ، و لعله لم يأت زمان كزماننا ظهرت فيه هذه السرعة ، فان المجتمع لايعرف وحده الفكر ولايعرف استقرار الفكر ، و لما كانت هذه المتغيرات لابد للأمة الاسلامية فى صناعتها و توجيهها فقد وقع أبناؤها ضحية هذه المتغيرات ، وهذا المعنى جاء فى حديث يرويه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « تكون بين يدى الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً و يمسى كافراً ، ويمسى كافراً

---

(١) يعنى وسط قلوب الرجال ، كذا فسره الطنافسى ، أحد الرواة .
أخرجه البخارى ج ٩ ص ٦٦ ، و الترمذى ج ٤ ص ٤٧٤ ، و ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٤٦ قال البخارى : الوكت : أثر العمل اليسير ، و المجل أثر العمل إذا غلظ .

(٢) الترمذى ج ٤ ص ٤٨٨ .

و يصبح مؤمناً يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا (١) ،

(ب) يطرأ تحول فى سلم الأولويات و المؤهلات و يكون المرء من أهل الكمالات و هو خلو من الدين ، و يقال ما أعقله و ما أجلده و ما أظرفه و ما فى قلبه حبة خردل من إيمان .

و إنه مما يوسف له حقاً أن تكون المجتمعات غير الاسلامية مهتمة بتأسيس فلسفتها و فكرها و عاملة على تلقين أطفالها و جماهير شعوبها تلك الفلسفة ، فى حين أن المسلمين لا يملكون هذا الاهتمام ولا يتفقون على مبادىء التوجيه و التأسيس ، ومن يحاول منهم فغالباً ما تكون المحاولة مبنية على فكر وافد أو ثقافة مستوردة .

(ج) و الأمانة ذات مفهوم يتجاوز موضوع الحفاظ على وديعة مادية إلى الحفاظ على القيم و المبادىء و أساسات التصور ، و هذا أول ما ينبغى أن يستقر فى القلوب ثم يأتى استعداد أنواع السلوك من هذه الأمانة ، أخرج البخارى فى صحيحه أن رجلا سأل النبى ﷺ متى الساعة ؟ و كان النبى ﷺ منشغلا مع بعض أصحابه حتى قال بعض الصحابة : لعله كره ما قيل ، و قال بعضهم لعله نسى ما قيل ، فقال النبى ﷺ : أين أراه السائل عن الساعة ؟ قال : أنا يا رسول الله ؟ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال السائل و كيف إضاعتها ؟

فقال النبى ﷺ : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٢) .

و ترتبط الأمانة بالأهلية ، و تعتبر مصدر الأهلية ، و لا أمانة بلا أهلية ،

---

(١) الترمذى ج ٤ ص ٤٨٨ .

(٢) أخرجه البخارى: فتح البارى ج ١ ص ١٤١ وأخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٦١.

و لا أهلية بلا أمانة ، و الأهلية فى الاسلام تقوم على عنصرين جوهريين :

★ الأول : الدين كمصدر حق و مصدر إلزام و التزام ، و كعقيدة موجهة ، و تصور عن الكون و الحياة و الانسان . ولا يتحقق الدين إلا من خلال النظرة الفكرية و التطبيق السلوكى .

★ الثانى : المعرفة و التخصص و الخبرة و الكفاءة للعمل المحدد .

و إذا كان العنصر الأول هو الموجه و المنشئ فانه لا يغيب عن بالنا أن المجتمعات الاسلامية منذ زمن بعيد قد ألفت هذا العنصر أو قللت من أهميته ، ولذلك فانه لم يعد من المقبول أن يدخل هذا العنصر شرطاً فى تكوين الموظف أو المستودع على أمانة من الأمانات المعنوية أو المادية ، وبهذا يكون ضابط القيم معدوماً أو شبه معدوم من برنامج المجتمع .

و أما العنصر الثانى فانه لا قوام له بدون العنصر الأول و المعرفة بلا قيم تتحول إلى أداة هدامة .

والجدير بالذكر أن هذا النقص لم يحدث فى المجتمع الاسلامى إلا عند ما تخلى عن الاسلام فى هيمنته و توجيهه ، ومن خلال هذا النقص القيمى دخل النقص على جوانب الحياة كلها : فالموظف و التاجر والعامل والادارى و المعلم و سائر قطاعات المجتمع تعانى من أزمة فى القيم تنعكس على أدائها و إنتاجها .

★ اتساع الهوة بين الأجيال و حدوث التمزق الاجتماعى :

عند ما سأل جبريل النبى ﷺ عن الساعة ، قال له النبى ﷺ : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ؟ » ثم قال : « و لكن أخبرك عن أماراتها : أن تلد الأمة ربتهــا » (١) .

---

(١) أخرجه مسلم : ج ٤ ص ٣٨ .

لقد تدخل بعض الرواة فى شرح هذه العبارة عند ما قالوا : أى السرارى :
وقال الشراح معنى هذه الأمارة أن تستولد الجارية فيكون ابنها حراً وتبقى هى جارية ،
و بالتالى يكون ابنها سيداً و هى أمة .

و الذى يظهر لى أن هذا الشرح لغو لا يجعل من هذه الأمارة على الساعة ،
لأن الجوارى كن يستولدن بهذه الطريقة قبل الاسلام بألوف السنين ، وهل اسماعيل
عليه السلام إلا حر ولدته أمة ، وهذا شئ كثير قبل الاسلام وفى صدر الاسلام .

و إننى أميل إلى شرح آخر هو وليد العصر و مستمد من الظروف الثقافية
و الاجتماعية التى تعيشها الأمة ، حيث إننا منذ قرن من الزمان واقعون تحت تأثير
التيارات الثقافية الوافدة ، و فى الوقت الذى ما يزال أبناء جيل القرن الثالث عشر
متواجدين على أطراف القرن الرابع عشر كان أبناء القرن الرابع عشر ، فى أكثر
الأقطار الاسلامية يعيشون فى حضانة الثقافة الغربية فكراً و سلوكاً ، و بهذا وجد
جيلان متباينان و متعاصران جيل تلقى الاسلام عقيدة و نظام حياة و ثقافة على ما
فى هذا التلقى من وهن و تخلف ، و جيل تلقى المبادىء العلمانية و الأخلاق المادية
و أنماط التفكير الغربى ، و كنا نرى الأم القروية أو البدوية بأفكارها و لباسها
وثقافتها وأخلاقها وإلى جانبها ابنتها التى درست فى الجامعة الأمريكة أو فى المدرسة
المنبثقة على المدرسة الانكليزية أو الألمانية أو الفرنسية ، وهكذا اجتمعا معاً فى بيت
واحد ، ولا مجال للقاء الفتاة بأمها على المستوى الثقافى والفكرى والنفسى والاجتماعى
بل و لا على مستوى عادات الطعام و الشراب .

وهذا شئ ، لا أبالغ إذا قلت : إنه لم يحدث فى تواريخ التغيرات الاجتماعية ،
نعم ، إن الأجيال تختلف بعض الشئ فى ظروفها و أخلاقها ، و لكنها لا تتناقض
كلياً و لا يصل الجيل الحاضر إلى درجة عدم فهم لغة الجيل الماضى .

و من مساوىء هذه الهوة بين الأجيال أن نقل التراث يتعرض لانسدادات من جهة ، و من جهة أخرى فان التراث الوافد يتمكن من السيطرة على المثقف .

★ الاختلاف فى مفهوم الوسائل و الغايات :

و من القضايا التى أبرزتها السنة كمعلم من معالم المجتمع المعاصر ، هذا التبادل بين الوسائل و الغايات ، فالمال وسيلة يستخدمها العبد الصالح فى وظيفة اجتماعية وهذا ما أسسه النبى ﷺ عندما شبه العبد الصالح بآكلة الخضراء وهى دابة الأنعام التى تتخير مرعاها مما ينفعها و لا تبالغ فى الامتلاء بل تستريح لتجتر ، و أما غير الصالح فضرب له مثلا بالتى تأكل بلا احتراس و لا احتراز و لا تتوقف عن القضم ، من غير هضم (١) .

و هذا الحديث أصبح واقعاً فى المجتمع المعاصر ، و أصبح الثراء وجمع المال هدفاً من الأهداف التى تدور حولها الحياة ، وأصبح برنامج المسلم ينصب على الهدف ، والوظيفة المثلى هى أكثر الوظائف دخلا ، والعمل الأمثل هو الذى يملأ الجيوب ، و لا يتوقف الفرد عن الاستنكار و لو كان على حساب فكره و سلوكه .

هذا مع العلم أن الأمة الاسلامية هى أغنى الأمم عن هذا المفهوم ، و ذلك لتوجيهات عقيدتها من جهة ، و لكثرة كنوزها من جهة أخرى ، فالأمة الاسلامية ليست مهددة بالفقر وقلة الموارد ، بل هى تشكو من التخمة وإن كان سوء التوزيع هو الغالب عليها .

قال ﷺ : « ما الفقر أخشى عليكم ، و لكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها » (٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فتح البارى : ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجة : ج ٢ ص ١٣٢٥ .

وقال : « لا تقوم الساعة حتى يفيض المال وتظهر الفتن ويكثر الهرج» (١) .

و من آثار التنافس السلبية التطاول فى البنيـان و الترف و الاسراف فيه ، ـ هذا مما أخبره عنه النبى ﷺ و هو يتكلم عن أمارات الساعة فقال : « و أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيـان » (٢) .

و قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، و حتى يتطاول الناس فى البنيـان » (٣) .

وإن المتأمل فى حاضر الأمة يجد أن شعوباً بأكلها قد انتقلت من حالة الفقر المهلك إلى حالة الغنى المهلك ، ومن عهد الخيام إلى عهد القصور وإلى عصر أحدث المبتكرات من وسائل الراحة و الترف .

إن هذا النوع من التغير كفيل باحداث أعظم صدمة ثقافية و نفسية ، لاسيما و أن الأمة ليست معدة من حيث القيم و الثقافة ، لاستقبال هذا التغير .

و الجدير بالذكر أن هذا التغير لا ينصب على تحول فرد معين من حيـاة البادية إلى حيـاة الحضر ، و من التطرف فى الفقر إلى التطرف فى الغنى ، لأن الحالات الفردية موجودة على مر الأيام ، وإنما المقصود ـ والله أعلم ـ أن تنتقل أمة بكاملها و أن تعيش هذه الأمة نمطين مختلفين من الحياة فى الجيل الواحد .

و من الآثار السلبية للتنافس سيطرة الشهوات على نفوس الكثير من أبناء الأمة ، و إقامة العلاقة بين الرجل والمرأة على قاعدة الشهوات لا على قاعدة أعمار الجنس البشرى و تحقيق وجود الأسرة العاملة على نقل تراث الأمة و على الاسهام فى بنـاء المجتمع .

---

(١) أخرجه ابن ماجة : ج ٢ ص ١٣٤٤ و اسناده صحيح .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم انظر مسلم ج ١ ص ٣٦ .

(٣) أخرجه البخارى : ج ٩ ص ٧٤ .

قال ﷺ : « ما أدع بعدی فتنة أضری علی الرجال من النساء » (١) .

و قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سیاط كأذناب البقر یضربون بها الناس، ونساء كاسیات عاریات ممیلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا یدخلن الجنة و لا یجدن ریحها » (٢) .

و لقد احتار شراح الحدیث وهم یتناولون هذا الحدیث بالشرح ، ولم یصلوا إلی مفهوم قوله : (كاسیات عاریات) ، (و علی رؤوسهن كأسنمة البخت) و لیس عجزاً منهم، و لكنه العصر و التحول الاجتماعی و ضرب كل التوقعات واحتمالات الشرح و التفسیر .

★ التقلیـــــد :

و لا أقصد بالتقلید محاكاة الأجیال السابقة والسیر علی منوالها ، وإنما أقصد به محاكاة الأمم الأخری فی جمیع أمورها ، و إنه لما یؤسف له أن نجد الأمم الغربیة حریصة كل الحرص علی تأسیس تقالیدها وتفرد كل أمة بنوع من الأخلاق و الآداب ، بینما نری أمتنا سائرة فی تقلید غیرها بلا حدود ، وهذا أمر لم تشهده الأمة حتی فی مرحلة جاهلیتها وقد جاء الحدیث معبراً عن هذه الظاهرة المعاصرة ، قال ﷺ : « لتتبعن سنة من كان قبلكم باعاً بباع و ذراعاً بذراع و شبراً بشبر حتی لو دخلوا فی جحر ضب لدخلتم فیه ، قالوا : یارسول الله ، الیهود والنصاری؟ قال : فمن أذن » (٣) .

---

(١) ابن ماجة : ج ٢ ص ١٣٢٥ .

(٢) مسلم كتاب الجنة رقم الحدیث ٥٢ .

(٣) ابن ماجة : ص ١٢٦٦ .

★ الهزيمـــــة :

وهذه العوامل الآنفة الذكر تسلمنا إلى حالة الهوان والهزيمة التى تعيشها الأمة منذ قرن من الزمان على الأقل ، و إن أمتنا تعيش حالة ضعف واستضعاف وهذا ما أبرزه حديث النبى ﷺ : يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قال قلنا يارسول الله ، أمن قلة بنا يومئذ قال : « أنتم كثير و لكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينزع المهابة من قلوب عدوكم و يجعل فى قلوبكم الوهن ، قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت(١) .

و قد وصل عجز الأمة إلى درجة أن يجتمع شذاذ الآفاق من اليهود ليسلبوها واسطة عقد بلادها فلسطين فيهددوا بالخطر مكة و المدينة المنورة ، وقد أخبر النبى ﷺ عن هذا عندما قال فيما يرويه ابن عمر رضى الله عنه : « يقاتلكم يهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودى ورائى فاقتله » (٢) .

و رواية ابن عمر رضى الله عنهما تختلف عن رواية أبى هريرة التى يبدؤنها بقوله : « لتقاتلن اليهود (٣) .

و المعروف أن ابن عمر أكثر تحرياً للفظ الحديث ، و روايته تدل على أن اليهود هم الذين يبدؤن القتال و لا يكون هذا إلا مع حالة الهزيمة و الضعف .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى المسند ج ٥ ص ٢٧٥ ، ج ٢ ص ٣٥٩ ، من حديث ثوبان .

(٢) الحديث أخرجه البخارى ، انظر فتح البارى ج ٦ ص ٦٠٥ . والترمذى ج ٤ ص ٥٠٨ ، و مسلم : ج ٤ ص ٢٣٨ ، و أحمد : ج ٢ ص ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤٩ .

(٣) أخرجه البخارى و مسلم و أخرجه أحمد ، انظر المسند ج ٢ ص ٣٩٨ .

★ تكوين المجتمع المسلم :

إن تكوين المجتمع المسلم لا يتم إلا من خلال تحليل عوامل المجتمع المعاصر على ضوء السنة ، و هذا التحليل يحمل مع كل عنصر سلبى عنصراً إيجابا ، ومع كل أداة هدم أداة بناء ، و إن المجتمع المسلم يعيش فى حالة هى الكارثة فى كل معانيها ، و كما قال حذيفة : إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، فانه لابد من ترسيخ لهذا المفهوم فى نفوس أبناء الأمة .

ولا بد من دراسة التغير الاجتماعى والعمل على إلقاء الطالح والاكتفاء بالصالح .

ولما كان التكوين يتناول الكثير من العناصر والعوامل فان أرباب الاختصاص مدعوون إلى دراسة أبواب الفتن وأشراط الساعة ، ومدعوون إلى دراسة الاسلام و ثقافته ، و لا يتحقق الجهد إلا عن طريق تكوين التربية الاسلامية و الاعلام الاسلامى ، لينشأ الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم وبذلك يتكون مجتمع النصر و القوة و المنعة الذى يقف أمام التيارات الوافدة ، و يتغلب على أعدائه و لا سيما اليهود .

و إن المبشرات و المؤشرات كثيرة ، و ما هذه اليقظة و الصحوة إلا من باب دبيب الحياة بعد الموت و الوعى بعد الغفلة .

و فى الختام نسأل الله تعالى أن يبارك فى الجهد الذى يبذل اليوم فى مجال الدعوة إلى الله و أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .




الدّعوة الإسلاميّة



حول « المنهج الاسلامي السليم »

[هذا المقال كتبه سماحة الشيخ مولانا أبي الحسن علي الندوي كتقديم لكتاب آخر للأستاذ المرحوم محمد الحسني (رحمه الله) رئيس تحرير مجلة البعث سابقاً، وكان قد أعده للطباعة قبل وفاته، وهو ماثل للطبع الآن، باذن الله، وقد سبق أن صدر له كتابه القيم « الاسلام الممتحن » و اطلع عليه قراؤنا الكرام] * * * * * * * * [التحرير]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين، محمد و آله و صحبه أجمعين، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

و بعد فقد كان مما قدر الله و قضى - و لا راد لقضائه و ليس لنا إلا أن نرضى بما حكم و قدر - أن أقدم كتابات العزيز محمد الحسني عليه رحمة الله، وهو بمثابة ابني و فلذة كبدي، و قد نشأ تحت سمعي و بصري، و ذلك بعد وفاته، و كانت القرائن و الآثار تدل على أنه سيقدم كتاباتي و يعلق عليها و يعني بنشر آثاري، و يسجل حوادث حياتي و يؤرخها، كما جرت العادة و شهدت المقاييس الظاهرة بدور الأبناء في تخليد آثار آبائهم وعمومتهم و أساتذتهم و مربيهم، وقد كان من أقرب أبناء البيت وأحبهم إلي، وألصقهم بي، وأعرفهم بشئوني وأخباري.

و لكن كانت القضية بالعكس « و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون » فقد مات في ريعان شبابه، وقوسه موترة، و فرسه مسرجة في حلبة الكتابة و مضمار العمل الاسلامي، فاضطررت إلى أن أقدم كتابه « تتناقض تحار فيه العيون و تطابق يسربه المؤمنون » و ذلك على إثر وفاته في ١٧ / من رجب ١٣٩٩هـ، و الكتاب من أقوى ما دبجه يراعه، و أكثره صراحة و وضوحاً،

ثم قدر لى أن أقدم له كتاباً ثانياً و هو مجموع مقالات و أبحاث ، أسماه « العالم الاسلامى بين التبعية والذاتية » و أن أكتب حياته فى سطور، وها أنا ذا أكتب تقديماً لمجموعة مقالات أخرى ، ظهرت فى أعداد مختلفة لمجلة « البعث الاسلامى » التى كان يرأس تحريرها ، تجمع فيها وحدة فكرية مبدئية ، و شعور نفسى عميق ، ودراسة شاملة أمينة لواقع الأمة الاسلامية ، وجماعاتها ومدارسها الفكرية ، و مناهجها العلمية ، و ما أوحى هذا الواقع و أملاه على صاحب هذه المقالات ، من إبداء مشاعر نحو هذا الواقع ، و ملاحظات و آراء لتوجيهها توجيهاً سليماً هادفاً ، يتفق مع طبيعة الاسلام ، البعيدة عن شوائب الانحراف و التحريف ، و الخضوع لعوامل طارئة ، وفلسفات دخيلة و تأثيرات أجنبية ، يمكن أن نسمى هذه المجموعة بـ « بالمنهج الاسلامى السليم » .

لقد قلت فى تقديم كتابه الأول « الاسلام الممتحن » الذى كان له دوى و صدى فى الأوساط الاسلامية الدعوية و الفكرية ، بعد ما ذكرت الظروف و الملابسات الدقيقة و الأحداث المتناقضة ، المثيرة التى عاشها و عاصرها .

« أحدثت هذه الجوانب المتناقضة ـ جانب تربيته ودراسة الاسلامية ،وجانب الواقع المرير المشاهد القاسي ـ صراعاً فى نفسه حول قلمه إلى شلال يتدفق بقوة ، و ينحدر بقوة ، فصدرت هذه المقالات ، فى أسلوب قوى ملتهب ، هو نتيجة كل صراع نفسى ، رافقته قدرة بيانية و قلم سيال رشيق ، و ثروة لغوية ، و هذا الأسلوب له قيمته فى إيقاظ الشعور، و فى تحريك النفوس و العقول ، و محاربة « مركب النقص » و إعادة الثقة بصلاحية الرسالة و الأمة ، و الاعتزاز بالقيم والمفاهيم ، خصوصاً إذا كان مدعما بالدلائل والوثائق ، ومسلحاً بالشواهد والتجارب ، و هى طليعة كل إصلاح و انقلاب ، و رائد كل نهضة و تقدم » (١) .

وقد عاش صاحب هذه المقالات بعد ذلك فترة قصيرة، فترة أربع سنوات لم يفتر فيها عن مطالعة و تأمل ، و كتابة وتحرير ، و قد كان يطوى هذه الفترة

(١) تقديم كتاب « الاسلام الممتحن » ص ١٦

القصيرة - و هى فترة مليئة بالأحداث ، مثيرة للتفكير ، محركة للقريحة - مسافة أعوام فى شهور و مسافة شهور فى أسابيع و أيام ، تزداد دراسته عمقاً ، و عقله نضجاً ، وآراؤه حصافة تجلى هذا التقدم فى النضج ، والاختمار فى الآراء والدراسات، فيما فاض به قلمه فى مقالات تجمعها هذه المجموعة الصغيرة ، و إنما نعرض هنا بعض نماذج ، تدل على سداد رأيه ومتانة استنتاجه ، و إصابته المحز ، و ضربه على الوتر الحساس ، وتصويره البارع للحقيقة و الواقع ، يقول فى مقالة عنوانها « جيلنا الجديد فى حاجة إلى إيمان جديد » .

« أما إذا اعتقدنا أننا نستطيع محاربة الغرب بتعليمه و ثقافته أو نستطيع أن نحاربه - فى تعبير أصح و أفصح - بمخلفات فلسفته و فتات أفكاره فذلك وهم و خيال ، وضرب من المحال ، إننا لا نستطيع أن نهجم على حضارة الغرب ونقاوم غزوه الفكرى و ننتصر عليه باذن الله ، إلا بالايمان الذى أفلس فيه الغرب إفلاساً شائناً ، ذلك هو السلاح الوحيد ، السلاح الأكيد ، السلاح المضمون الذى نستطيع به تصحيح التاريخ ، و تغيير اتجاه الانسانية ، و تحويل قيادة من أيد خائنة أثيمة إلى أيد مؤمنة بريئة أحسنت قيادتها فى أحط الأدوار و أقسى الظروف ، وأرست سفينتها المتلاطمة بين الأمواج الثائرة و الرياح العاتية على بر الأمان .

إننا لم نفرق بين الفلسفات و الآلات ، و لم نميز بين الوسائط و الغايات ، و لم نميز بين العلوم الطبيعية التى ظهر فيها العلم مجرداً عن النزعات و العقيدة ، وبين العلوم العمرانية و الفلسفات الاجتماعية التى سيطرت عليها نزعة الغرب المادية ، بل كان نصيبنا من ثقافته و أفكاره أكثر من نصيبنا من علمه و صناعاته .

فاذا شئنا أن نتحرر من عبودية الغرب الفكرية و تبعيته الثقافية ، فعلينا أن نستعرض مناهجنا التعليمية والتربوية استعراضاً جديداً ، و نصوغها صوغاً جديداً يعيد

إلى جيلنا الجديد ، إيمانه المفقود بالله و ثقته الضائعة بوعده و نصره ، و برسالته و شخصيته ويحمله عونا على الحق ، حرباً على الباطل ، مؤمناً بالله ، كافراً بكل ما عداه ، مستخفاً بمظاهر المال و الثراء ، و الرعب و الجاه ، و حينئذ يدرك نظامنا التعليمى و التربوى غايته و يحقق هدفه ، و ينشئ الجيل الاسلامى الجديد الذى ليس حاجة البلاد الاسلامية فحسب بل حاجة الانسانية كلها »

و يقول فى مقال عنوانه « فقه و إيمان »

« إنه لا بد للدعوة من إيمان راسخ قوى بالله و الصلة به ، صلة دائمة صلة الحب و الخوف ، صلة الدعاء و التضرع ، صلة الشكر و الرجاء ، صلة التوكل و اليقين ، صلة تجعل الانسان يلتذ بأدنى نعمة يجدها . ويخشى من أدنى سخط يشعر به ، و يستحضر مهانته و ضآلته أمام عظمته و كبريائه ، و يرى نفسه عبداً بائساً مسكيناً لله سبحانه ، ويدعوه دعاء من خضعت له رقبته ، وفاضت له عبرته . وذل له جسمه و رغم له أنفه .

الدعوة الاسلامية ليست أفكاراً و نظريات فحسب بل إنها تكييف الحياة على المنهاج النبوى ، تكييفها بحرارة الحب الالهى . والصلة به ، والتفانى فى سبيله والجهاد لاعلاء كلمته بالمهج و الأرواح .

إن هذا الانسان يكيف أخلاق الانسان و سلوكه و تفكيره ، و يؤثر فيه تأثيراً مدهشاً حتى إن كل نظرة من نظراته و كل كلمة من كلماته لا تصدر إلا عن إخلاص عميق ، يشهد به كل من يجالسه ، حتى إن إشراق وجهه ينم عن قلب كبير تجرد عن ماسوى الله ، ومجالسته تذكر الآخرة ، وأحاديثه تقوى الوازع الدينى ، وكلماته العادية تنشئ فى قلب الانسان رغبة عن الدنيا و إقبالا إلى الآخرة .

إن هذا الايمان هو حاجة كل إنسان لأنه المستوى المطلوب عند الله بل هو الشئ الوحيد المقصود عنده ، إن نقصان هذا الايمان لا يعوض و فراغه لا يملأ بأصالة الذوق الأدبى ، و البراعة الفنية ، والأساليب الأدبية ولا بالاطلاع الواسع ، و الخبرة الواسعة ، و لا بالنظم الدقيق ، و الذكاء الخارق ، إنه شئ فوق هذا كله ،

و لا يجبر نقصانه و يملأ فراغه الا بالايمان نفسه و البحث عنه بجد و اجتهاد ، و الحصول عليه مهما كلف ذلك من مشقة و عناء ومخالفة النفس و الهوى » .

و يقول فى مقال عنوانه « دور العاطفة و الحب »

من أجل الوصول إلى هذه الأهداف لابد أن يكون فى كل بلد إسلامى عصبة مؤفقة « كشافة » تنشر الوعى ، و تبعث الايمان ، و تجند القوى ، و تكون مركز اتصال ونقطة انطلاق تستكشف الأفراد الذين يحملون هذه الفكرة ويقدرون أهميتها و قيمتها ، و تجمعهم فى سلك واحد ثم تربيهم على هذه المعانى و ترسخ فيهم هذا الايمان ، و تغذى القلب و العاطفة بجانب الشعور و الوعى ، العاطفة التى تزيد من قوة الشعور و تخفف من عبء « العقل » و آلام الطريق ، و ترفع عن الأفكار الهدامة و الفلسفات السامة ، العاطفة التى تقوم على أساس السنة النبوية ، و الشريعة الاسلامية ، و تعيش فى سياج منيع من حدودها و خطوطها المحددة المعلومة ، هذا الاجتماع بين العاطفة و المبدأ ، و القلب والعقل ، و الشعور و الوجدان ، حاجة جيلنا الجديد ، و فراغ أساسى هائل لا يملأ إلا بهذا الاجتماع المتزن العادل » .

و يقول فى مقال عنوانه « الغرب المتكبر و الشرق المتكر » :

« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

إنه نتيجة الاستغناء عن نور النبوة وهداية السماء ، إنه نتيجة الحقد الذى يغلى به صدور الصليبيين الجدد فى الغرب على سيدنا محمد ﷺ و نبوته الأخيرة الخالدة ، و على كتاب الله المقدس الأخير ، الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

إن المسيحية و الصليبية لا تزالان تشكلان خطراً على الاسلام و المسلمين ، و تضمران الحقد لهما ، و تدبران المكر عليهما ، و هما صورتان لحقيقة واحدة ، حقيقة الكبر و الحقد و التمويه و التضليل ، و الفساد فى الأرض ، و جناحان لمعسكر واحد ، معسكر الكفر والضلال أو بتعبير أدق وأفصح ، معسكر المسيح الدجال .

فما لنا نحن المسلمين فى الشرق نرقص على نغمات هذه الصليبية الحاقدة ،

و تتجاوب مع أصدقائها و نسبح بحمدها ، و نتفانى فى حبها ، و لا تمنعنا الذلة و الاهانة التى لقيناها من معسكر أو كتلة أن نجرب حظنا فى معسكر آخر ، أو كتلة أخرى ، و نستبدل بعد عشر سنوات أو عشرين سنـــة سيداً قديماً بسيد جديد ، و استعماراً قديماً باستعمار جديد ، العبيد هم العبيد ، لا تغيير و لا تبديل » .

و جيلنا الناشئ الجديد فى حاجة إلى مثل هذه الكتابات القوية الأصيلة فى الفكر لاعادة الثقة إلى نفسه بالعودة إلى دينه ، و كتابه الخالد ، و تعاليمه القائدة للأجيال البشرية على اختلاف الأزمنة و الأمكنة ، و إعداد قيادة الركب البشرى والحسبة على العالم وتحمل مسئولية الوصاية على البشرية، والاعتزاز بالدين، و القيم و المثل التى دعا إليها ، و باعتبار نبى الانسانية الأخير الخالد ، خاتم الرسل و منير السبل و إمام الكل ، و هذا الكتاب الجديد يضيف إلى هذه المكتبة الاسلامية التى هى حاجة هذا الجيل المؤمن الواعى ، كتابا جديداً له قيمته و مكانته ، و يضيف إلى مكتبة الدعوة الاسلامية فى الهند التى كان صاحب هذه المقالات محمدالحسنى ركناً من أركانها ، الذى كان له دور كبير فعال فى تكوينها و إثرائها كتاباً رابعاً (١) .

أرجو أن ينال مكانته فى المكتبة الاسلامية الدعوية العربية العالمية .

رحم الله صاحب هذه المجموعة و جزاه خيراً عن الاسلام و المسلمين ، و الدعاة المخلصين ، و الكتاب الاسلاميين ، و صلى الله على خير خلقه محمد وآله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان و دعا بدعوتهم إلى يوم الدين .



(١) المنهج الاسلامى السليم .

التكافل الاجتماعى فى الاسلام ،

★ كيف تحققه الدولة الاسلامية ★

دكتور نور محمد غفارى

كان النبى صلوات الله وسلامه عليه أول رئيس للدولة الاسلامية الذى روج هذا النظام بكماله وشموله ، و دولة المدينة المنورة كانت أولى الدول التى أسست على هذه العدالة الاجتماعية ، قال بلال رضى الله عنـــه : « كنت أنا الذى على ذلك منذ بعثه الله إلى حين توفى و كان عليه السلام إذا أتاه الانسان مسلماً يراه عارياً يأمرنى فأنطلق فاستعرض فاشترى له البردة فأكسوه وأطعمه وكان أوصانى قائلا : أنفق بلالا و لا تخش من ذى العرش إقلالا » (١) .

وإنه قد كان أعلن « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وترك مالا فماله لموالى العصبة ومن ترك كلا أو ضياعاً فأنا وليه فلأدع له (٢) » هكذا فانه ﷺ قد ألزم نفسه أن يتولى الذين لا ولى لهم وقال : « الله ورسوله مولى من لامولى له (٣) »

فلما فتح الله عليه أبواب الفتوحات ووسع له مصادر الرزق قال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى من المؤمنين فترك ديناً فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته (٤) » أى أنه ﷺ قد كان قبل مسئوليته كرئيس الدولة الاسلامية أن

---

(١) الاشراف لابن المنذر بمراجعة الترتيب الادارية ج ١ ص ٤٤٢ .

(٢) صحيح الامام البخارى ، ج ٣ ص ٩٩٩ .

(٣) الترمذى ، أبواب الفرائض ، باب ما جاء فى ميراث المال .

(٤) البخارى ، كتاب النفقات .

يتكفل الميت ويقضى عنه دينه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : من ترك مالا فلأهله و من ترك ضياعاً فإلى ، هذا حديث حسن صحيح .. ومعنى قوله : « ترك ضياعاً يعنى ضائعاً ليس له شئ فإلى، يقول أنا أعوله وأنفق عليه (١).

و عن المقدام بن معديكرب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا فإلى الله ، وربما قال : فإلى الله و رسوله ، قال أبو عبيد قاسم بن سلام رحمه الله : « الكل عندنا كل عيل و الذرية منهم (٢) »

وهكذا فانه ﷺ قد أوجب على أمراء الأمة المسلمة و ولاة أمورها أن ينفذوا هديه فى مجال التكافل الاجتماعى و العدالة الاجتماعية وحذرهم من سوء العاقبة يوم القيامة ، قال عليه السلام : من ولاه الله عزوجل شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم و فقرهم احتجب الله عنه دون حاجته و خلته و فقره (٣) كما أنه قال : ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة (٤) ، وقال : ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل الجنة (٥).

والخلفاء الذين ولوا أمر المسلمين بعده كانوا يشعرون بهذه المسئولية ، والتاريخ

---

(١) الترمذى ، أبواب الفرائض ، باب ما جاء من ترك مالا فلورثته .

(٢) أبو عبيد قاسم بن سلام رحمة الله عليه ، كتاب الأموال ، القاهرة ١٣٥٣هـ ، ص ٢٣٧ .

(٣) أبو داؤد كتاب الخراج ، و الفئ و الامارة ، باب فيما يلزم الامام من أمر الرعية و الاحتجاب عنهم .

(٤) صحيح الامام البخارى ، كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعيته فلم ينصح .

(٥) مسند أبو عوانة رحمة الله عليه ج ١ ، دائرة المعارف حيدر آباد (الهند) ١٣٦٢هـ ، ص ٣٣ .

الاسلامى شاهد عدل على ذلك .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى قال فى خطبته التى ألقاها يوم فتح القادسية : « إنى حريص على أن لا أرى حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فاذا عجز ذلك عنا تأسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف ، و لوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم ، و لست معلمكم إلا بالعمل ، إنى و الله لست بملك فاستعبدكم و لكنى عبد الله عرض على الأمانة فان أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترودوا سعدت بكم و إن حملتها و استتبعتكم إلى بيتى شقيت بكم ففرحت قليلا و حزنت طويلا ، فبقيت لا أقال ولا أرد فاستعتب » (١) .

وقال مرة أخرى : « أيها الناس إن الله قد كلفنى أن أصرف عنه الدعاء (٢) » أعنى أى سأحاول لاقامة العدالة الاجتماعية فيما بينكم و أحقق تكافلكم الاجتماعى كما لا تدعون الله جلت عظمته لانجاز حاجاتكم ، هكذا قال الفقيه الشافعى أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (م ٦٦٠هـ) فى شرح هذا القول .

مجاعة عام ١٨هـ الشهيرة ، التى سميت فى التاريخ الاسلامى « عام الرمادة » كانت محكا للدولة الاسلامية فى تلك الأيام ، كانت مجاعة شديدة جداً . و ظلت سائدة على الحجاز لتسعة شهور كاملة ، ضاق بها الناس ولاقوا منها عناء شديداً فقد جفت السماء و لم تنزل غيثاً ، و أمحلت الأرض فلم تنبت زرعاً فلما اشتد الكرب بالناس ارتحلوا من القرى المجاورة إلى المدينة المنورة ، وعلى رغم كل التسهيلات التى قامت

(١) ابن كثير رحمة الله عليه ، البداية والنهاية الجزء السابع ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص ٤٦ .

(٢) أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن سلام رحمة الله عليه ، قواعد الأحكام فى مصالح الأنام الجزء الأول ، المكتبة الحسينية ١٩٣٤م ، ص ١٤٨ .

بها الحكومة الاسلامية، مات بعض الناس بها جوعاً ، واجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه المصيبة بوجه صادق وعزم عتيد ، ورآه الناس حزيناً كئيباً ومنصرفاً إلى خدمة الرعية و الدفاع عن هذه التعاسة و الشقاء، إنه ترك أكل اللحم والزيت حتى انحرفت صحته و تغير لونه ، كان يشتغل بخدمة أمة محمد ﷺ طيلة النهار وإذا جن الليل كان يسجد أمام الله الذى هو الرزاق ذو القوة المتين ، و كان يبتهل إلى القادر القوى لرفع هذه الصعوبة و لتفريج هذا الضيق ، حتى أخذ الناس يقولون : « لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة حتى لظننا أن عمر رضى الله عنه يموت هما بأمر المسلمين (١) .

وعن عيسى بن معمر رضى الله عنه قال : « نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى بطيخة فى يد بعض ولده فقال: « بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة و أمة محمد ﷺ هزلى ؟ فخرج الصبى هارباً وبكى فأسكت عمر رضى الله عنه بعد ما سأل عن ذلك ، فقالوا : « اشتراها بكف من نوى » (٢) .

وفى واقع التاريخ الاسلامى الصادق أنه كان يجول فى الشوارع وزقاق المدينة المنورة فى ظلمة الليل كى يفتش عن أحوال الأمة (٣) و على الرغم من كل هذا كان عمر رضى الله عنه لم يطمئن بهذا النظام للتكافل الاجتماعى ووضع برنامجاً للجولة فى المملكة الاسلامية بأسرها لمعرفة شئون الرعية بصفة كاملة وقال: « والله لئن عشت

(١) محمد بن سعد رحمة الله عليه ، الطبقات الكبرى ، القاهرة ، ج ٣ ص ٣١٠ إلى ٣٢٤ .

(٢) محمد بن سعد ، المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٣) الطبرى رحمة الله عليه، التاريخ، ص ٢٧٤٣ ، وابن الجوزى رحمة الله عليه، سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ص ٦٤ - ٦٨ .

إلى هذه الليلة من قابل لاستكمل جولتى للمملكة كلها ، وإنى لأعرف بأن على الرغم من كل جهدى لكفالة الناس ، تبقى بعض حاجاتهم بدون تحقيق ، لأنهم لا يمكنهم أن يقدموا بها إلى، لذا سأجول فى مصر لشهرين وفى البحرين لشهرين و هكذا فى الكوفة و البصرة ، و الله ! ما أحسن يكون هذا العام (١) .

و إنه كان أصدر حكماً رسمياً إلى عماله فى مجال التكافل الاجتماعى ، و كتب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أما بعد : فان أسعد الرعاة عبد الله من سعدت به رعيته و إياك أن تزيغ فتزيغ عمالك (٢) ، و كتب إليه مرة أخرى : « ألا و أوسعوا الناس فى بيوتهم و أطعموا عيالهم (٣) ، كما أنه رضى الله عنه أوصى والياً فقال : « عليك بتقوى الله فانها جماع الدنيا و الآخرة و اجعل رعيتك الكبير منهم كالوالد والصغير كالولد ، فبر والدك وصل أخاك و تلطف بولدك »

هكذا كان نظام الكفالة الاجتماعية فى زمن الخلفاء الراشدين الأخيار رضى الله عنهم ، لكن قد حصرنا بيانه على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه نظراً إلى ضيق النطاق ، كما لا نتفق مع المستشرقين و بعض الكتاب الآخرين فى رأيهم بأن نظام التكافل الاجتماعى الاسلامى كان ممارساً فى عهد الخلفاء الراشدين فحسب و لم يطبق بعده ، هذا هو التشكيك الخطير الذى روجه أعداء الاسلام كى يتظاهروا بعدم صلاحية الاسلام لتطبيقه فى كل زمان و مكان ، خاصة فى العصر الحديث الذى نعيش فيه ، ومع الأسف قد قبلنا نحن هذه المغالطة ، و لكن نقول بكل صراحة

(١) ابن الجوزى رحمة الله عليه ، سيرة عمر رضى الله عنه ص ١٧٣ (بتصرف) .

(٢) المرجع السابق :

(٣) طرطوشى رحمة الله عليه : سراج الملوك المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٦هـ ص ١٠٩ .

ضوح : إن نظام التكافل الاجتماعى الذى وضعه الاسلام كان يطبق عملياً فى العهد
ى و الخلفاء الراشدين ، وبنى أمية و بنى العباس والدول الاسلامية بعدها ، قبل
الاستعمار الأوربى و الشيوعى عليها .

ولما جاء عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ذلك العهد البارز الذى يعتبر عهداً
ياً فى مجال العدالة الاجتماعية و الاعالة و الرعاية ، فانه رحمه الله كان قد أعلن
ياً لرعيته : وما أحد منكم تبلغنى حاجته ، إلا حرصت أن أسد حاجته ما قدرت
(١) لجاء رجل فقام بين يديه فقال : « يا أمير المؤمنين ! اشتدت بى الحاجة
هت بى الفاقة ، والله يسألك عن مقامى هذا بين يديك » و كان فى يده قضيب
اتكأ عليه ، فقال : أعد ما قلت فأعاد عليه ، فقال : « يا أمير المؤمنين اشتدت
الحاجة و انتهت بى الفاقة و الله يسألك عن مقامى هذا بين يديك ، فبكى حتى
ت دموعه على القضيب ثم قال له : ما عيالك ؟ قال : خمسة أنا وامرأتى وثلاثة
لادى ، قال : فانا نفرض لك و لعيالك عشرة دنانير و نأمر لك بخمس مائة :
ين من مالى و ثلاث مائة من مال الله تبلغ بها حتى يخرج عطاؤك (٢) .

و إلى القارى الكريم موقف زوجته فاطمة رحمها الله ، أنظر ماذا تقول :
خلت عليه فهو فى مصلاه ودموع تجرى على لحيته فقلت : أحدث شئ ؟ فقال :

) ابن عبد الحكيم : سيرة عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه ، بيروت
١٣٨٧هـ ، ص ٦٩ .

) أبو يوسف رحمة الله عليه ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ص ١٠ ، أبو
الحسن عز الدين بن الأثير رحمة الله عليه ، التاريخ الكامل ، مطبعة الشيخ
أحمد حلبى القاهرة ١٣٠٣هـ ، الجزء الخامس ، ص ٢٤ ، ابن عبد الحكيم ،
المرجع السابق ، ص ١٧١ ، ابن الجوزى رحمة الله عليه ، سيرة عمر بن
عبد العزيز رحمة الله عليه ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

إنى تقلدت أمر أمة محمد ﷺ فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع ، والغازى و المظلوم المقهور ، و الغريب الأسير و الشيخ الكبير و ذى العيال الكثير والمال القليل و أشباههم فى أقطار الأرض فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة و أن خصمى دونهم محمد ﷺ إلى الله فخشيت أن لا تثبت حجتى عند الخصومة ، فرحمت و الله يا فاطمة (رحمها الله) نفسى فبكيت و وجع لها قلبى فانى كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً فاتعظينى إن شئت أو ذرى » (١) .

لقد كان آثر راحة الرعية على كل شئ ، ذات يوم خرج فى ولايته للخلافة إلى الشام فركب هو و مزاحم و كان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى ، فلقيهما راكب من أهل المدينة ، و سألاه عن الناس و ما وراءه فقال لهما : إن شئتما جمعت لكما خبرى ، و إن شئتما بعضته تبعيضاً ، قالا : بل اجمعه فقال : إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغنى موفور ، و العائل مجبور » فسر بذلك عمر رحمه الله تعالى وقال : « والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » (٢) .

وأما نتيجة هذه الكفالة الاجتماعية فلنطلع عليها فيما رواه حسن القصار ، إنه يقول : كنت أحلب الغنم فى خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله فمررت براع وفى غنمه نحو من ثلاثين ذئباً فحسبتها كلاباً ، ولم أكن رأيتها قبل ذلك ، فقلت يا راعى ! ما ترجو بهذه الكلاب كلها ؟ فقال : يا بنى إنها ليست كلاباً إنما هى ذئاب ، فقلت : سبحان الله ذئب فى الغنم لا يضرها ؟ فقال : يا بنى ! إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ، وكان ذلك فى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى (٣) .

★ ★ « يتبع »

---

(١) ابن عبد الحكيم رحمة الله عليه ، المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣) أبو يوسف رحمة الله عليه ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخى و الجغرافى
(الحلقة الثالثة)

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة « العربية » (Arabia)

بواكير الأدب التاريخى الاسلامى فى السيرة النبوية :

و جاءت بواكير فى الأدب التاريخى الاسلامى فى رواية مغازى الرسول ﷺ ووقائع سيرته بوجه عام . و قد تجلى فى روايتها الأسلوب الأدبى فى عرض الوقائع ، و لنقتطف فقرات من روايات محمد بن إسحاق (المتوفى نحو ١٥٢هـ) شيخ المؤلفين فى السيرة النبوية كما نقلها ابن هشام الذى انتهت إليه سيرة ابن إسحاق فشاع ذكره بها (ت ٢١٨هـ) : لنستمع إلى ابن إسحاق يقول عن عرض الرسول دعوته على رجالات العرب و محاولة قريش صدهم عن تلك الدعوة و تنفيرهم من رسول الله و إيذاء من آمن بها من المستضعفين : « و كان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة و يدعوهم إلى النجاة مماهم فيه . و جعلت قريش حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس وقد قدم عليهم من العرب ، و كان الطفيل عمرو الدوسى أنه قدم مكة و رسول الله بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، و كان الطفيل رجلا شريفاً شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا و هـذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا و قـد فرق جماعتنا و شتت شملنا و إنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل و أبيه و بين الرجل و أخيه و بين الرجل و زوجته وإنا نخشى

علیك و علی قومك ما قد حل علینا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شیئاً . و قال : فو الله ما زالوا بی حتی أجمعت أن لا أسمع منه شیئاً و لا أكلمه ، حتی حشوت فی أذنی حین عزمت إلی المسجد كرسفا (أی قطنا) فرقاً من أن یبلغنی شیء من قوله ، و أنا لا أرید أن أسمعه . قال : فغدوت إلی المسجد فاذا رسول الله قائم یصلی عند الكعبة، فقمت منه قریباً فأبی الله إلا أن یسمعنی بعض قوله . فسمعت كلاماً حسناً ، قال : فقلت فی نفسی : و اثكل أمی ، و الله إنی لرجل لبیب شاعر ما یخفی علی الحسن من القبیح ، فما یمنعنی أن أسمع من هذا الرجل ما یقول ، فان كان الذی یأتی به حسنا قبلته و إن كان قبیحاً تركته . قال : فمكثت حتی انصرف رسول الله إلی بیته فاتبعته ، حتی إذا دخل بیته دخلت علیه ، فقلت : یا محمد ! إن قومك قد قالوا لی كذا و كذا ، فو الله ما برحوا یخوفوننی أمرك حتی سددت أذنی بكرسف لئلا اسمع قولك ، ثم أبی الله إلا أن یسمعنی قولك ، فسمعته قولا حسنا ، فاعرض علی أمرك . قال : فعرض علی رسول الله الاسلام و تلا علی « القرآن ، فلا و الله ما سمعت قولا قط أحسن منه و لا أمراً أعدل منه ، فأسلمت و شهدت شهادة الحق » (١) .

و یروی ابن اسحاق أیضاً : قال : قدم رجل من اراش بإبل له مكة فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها فاقبل الأراشی حتی وقف علی ناد من قریش و رسول ﷺ فی ناحیة المسجد جالس ، فقال : یا معشر قریش من رجل یؤدینی علی أبی الحكم بن هشام فانی رجل غریب ابن سبیل و قد غلبنی علی حقی . فقال له أهل ذلك

(١) ابن هشام : السیرة النبویة ـ تحقیق مصطفی السقا و إبراهیم الابیاری و عبد الحفیظ شلبی - ط ٢ القاهرة ١٣٧٥ﻫ / ١٩٥٥م . القسم الأول ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: ياعبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لى قبله وأنا رجل غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لى حق منه ، فأشاروا إليك ، فخذ لى حق منـــه يرحمك الله . قال : انطلق إليه ، و قام معه رسول الله . فلما رأوه قام معه ، قالوا لرجل ممن معهم : اتبعــه فانظر ماذا يصنع . قال : و خرج رسول الله حتى جاءه فضرب على بابه فقال من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إلى . فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة ، قد انتقع لونه فقال (له رسول الله) : أعط هذا الرجل حقه ، قال نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له . قال : فـدخل فخرج إليه بحقـه فدفعه اليه . ثم انصرف رسول الله و قال للاراشي : الحق بشأنك . فأقبل الاراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد و الله أخذ لى حقى » (١) .

إن ابن اسحاق يروى الواقعة بعبارة سليمة جميلة ، و قــد كان بوسعه أن يعرض الهيكل العظمى للاحداث متتابعة دون أن يكسوه ، لـكنه عمـــد إلى عرضه فى صورة بيانية معبرة رائعة على انه لم يسرف فى الوقت نفسـه فى تجميل العبـارة حتى تفقد طابعها التاريخى و تضيع أحداثها بين الزينة و الزخرف . أنظر إليه يورد فى ثنايا واقعة الطفيل هذا الايضاح لمكانته « وكان الطفيل رجلا شريفاً شاعراً لبيباً » و هى أوصاف اختيرت بدقـة لا يغنى أحدها عن الآخر ، و لها أهميتها فى إيضـاح شخصية الرجل ، و لها دلالتها على أهمية رأى الشاعر اللبيب و هو أبرز رجال الثقافة و الفكر فى المجتمع و قتذاك ، و كان من أشراف القوم الذين ينحازون ابتداء إلى كبار قريش فى محاولاتهم لمناوأة محمد ﷺ ودينه الاسلام حتى ، إن الرجل قد تأثر بدعايتهم « فأجمع أن لا يسمع منه ولايكلمه ، وحشى فى أذنه حين غدا إلى المسجد

(١) المرجع السابق ص ٣٨٩-٣٩٠ .

كرسفاً فرقاً من أن يبلغه شئ من قول محمد ، و إنما حماه و حصنه و أرجعه عن هذه الطفولة عقله و فكره . كذلك نرى ابن اسحاق يورد فى تضاعيف قول مجلس قريش للاراشى الذى طلب العون على أخذ حقه : أ رأيت ذلك الرجل الجالس - ؟ فيوضح ابن إسحاق بايجاز مآرب القوم بما لا يقطع سياق الوقائع فيعقب على إيمائهم لرسول الله ﷺ و هم يهزأون به لما يعلمون بينه و بين أبى جهل من العداوة ، و لا يفوت ابن اسحاق أن ينقل جزئيـــة صغيرة هى إيفاد أهل المجلس لرجل منهم ليتبع الاراشى بعد أن قبل رسول الله ﷺ مصاحبتـــه إلى أبى جهل ليعزز لديه مطالبته بحقه الذى مطله أبو جهل ، و قد أوفدوا الرجل حتى ينظر ما يكون عليه الأمر بين محمد وأبى جهل . وهى جزئية كان ابن إسحاق بارعاً فى التنبيه لها وإبرازها اذ لها دلالتهـا على حرص القوم على المضى فى سخريتهم وعلى مشيئة الله أن يشهد شاهد القوم بنفسه عكس ما توقعوا .

ثم لنستمع إلى ابن إسحاق يعبر عن أثر وفاة خديجة زوج رسول الله ﷺ و أبى طالب فى إيجاز و روعة : « فتتابعت على رسول الله ﷺ المصـائب بهلك خديجة ، و كانت له وزير صدق على الاسلام يشكو إليها ، و بهلك عمه أبى طالب و كان له عضداً و حرزاً فى أمره ومنعة و ناصراً على قومه ، و ذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طـالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً (١) . » و قـــد وصف ابن اسحاق معاونة الزوجة المؤمنة بحق و الأهمية النفسية لتلك المعاونة حتى و إن لم تتجاوز (شكوى) الزوج إليها ، كما وصف معاونة أبى طالب الذى « كان عضداً و حرزاً و منعة و ناصراً » لرسول الله ﷺ و إن لم يؤمن بدعوته إذ كانت لتلك المناصرة و التعضيد أهميتها

(١) المرجع السابق ص ٤١٦ .

فى المجتمع القبلى، واختار من أحداث إيذاء الرسول بعد فقده ذلك العضد والحرز و المنعة حدثاً معبراً عن تطاول القوم و اجترائهم و توقحهم «حتى اعترض سفيه رسول الله ﷺ فنثر على رأسه تراباً».

ثم يعرض ابن إسحاق لمرحلة حاسمة من تاريخ دعوة الرسول صلوات الله و سلامه عليه و سيرته، حين شرع يعرض نفسه على القبائل الذين يقدمون إلى مكة للحج، وكيف انتهى ذلك إلى إسلام بعض أهل يثرب الذى كان فتحاً مبينا. يقول: «ثم قدم رسول ﷺ مكة (من الطائف حيث حاول دون جدوى دعوة ثقيف) و قومه أشد ما كانوا عليه من خلاف و فراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به ....» و هكذا يصور ابن إسحاق كيف بلغ الاضطهاد ذروته، وهى سنة الله فى اشتداد الظلمة قبل انبلاج الفجر. و لقد روى ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ كلمات من أروع صور البلاغة النبوية حين أغرت ثقيف به سفهاءها ومواليها يسبونه و يصيحون به حتى التجأ إلى بستان ليبتعد عن مطارديه الذين يتعقبونه بالأذى «فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال فيما ذكر لى: أللهم إليك اشكو ضعف قوتى و قلة حيلتى وهوانى على النـــاس، يا ارحم الراحمين أنت رب المستضعفين و أنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، و لكن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا و الآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى و لا حول و لا قوة إلا بك (١).

فى تلك الظروف، و فى تلك الحالة التى كان عليها رسول الله ﷺ «وقومه أشد ما كانوا عليه من خلاف و فراق دينه» كما يعبر ابن إسحاق، لم يهن رسول

(١) المرجع السابق ص ٤٢٠.

الله لما أصابه فی سبيل الله و لم يضعف و لم يستكن ، بل أصر على أن يجد فى البحث عن عقلاء يعرض عليهم دعوته وهداية ربه فلا تصم الأهواء آذانهم وتعمى أبصارهم كما كانت حال قريش . يقول ابن إسحاق بعد ذكر بعد ما كان من بلوغ قريش الغاية فى شدة خلافها مع رسول الله ﷺ و فراق دينه : « فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على المواسم إذا كانت على قبائل العرب يدعوهم إلى الله و يخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه و يمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به . . . » و لم يترك له كفار قريش هذا المجال ، فقد روى ابن إسحاق على إثر ذلك أن أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب على الرغم من قرابته الحميمة للرسول إذ كان عمه ، كان يتعقب رسول الله حين يعرض دعوته على القبائل و يصفها بأنها بدعة وضلالة وينهى القوم عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ (١) لكن مشيئة الله غلبت كل كيد وصد « قال ابن إسحاق : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه و إعزاز نبيه و إنجاز موعده له ، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً » . وكان هذا اللقاء نقطة تحول فى تاريخ دعوة الاسلام وسيرة رسوله عليه الصلاة و السلام . يروى ابن إسحاق بعد ما ساقه من كلامه هو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه « قالوا : لما لقيهم رسول ﷺ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال أمن موالى يهود؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز و جل ، و عرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن . و كان مما صنع الله لهم فى الاسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم و كانوا أهل كتاب و علم و كانوا أهل

(١) المرجع السابق ص ٤٢٣ - ٤٢٢ .

رك و أصحاب أوثان . . . فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم : إن نبيا مبعوث
آن قد أظل زمانه نتبعــه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ
لئك النفر و دعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون و الله إنه للنبى
ذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه و قبلوا
ه ما عرض عليهم من الاسلام و قالوا : إنا قد تركنا قومنا و لا قوم بينهم من
عداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك
تعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فلأن يجمعهم الله عليه فلا رجل
عز منك » (١) . . . و لقد شاء الله أن يعز يثرب و أهلهـا بالاسلام و بأن
ن مدينة رسول الله ﷺ .

تلك قبسات من رواية ابن إسحاق للسيرة العطرة . . . . وهى رواية مستوعبة
دقائق معبرة عن الواقع حتى ما كان من خلجات النفس ، و ما يذكره ابن إسحاق
باشرة من كلامه متتـابعاً ، و ما يدخله فى تضاعيف مروياته إيضاحاً و تعليقاً ،
كد قدرة بيانية تضفى بهذه اللمسات المحكمة الجو الأدبى الذى يمتع القارىء ويشده
ى متابعة الأحداث و الوقائع .

تتابع المصنفات التاريخية :

كان الاهتمام بمغازى رسول الله ﷺ و سيرته هى بادرة الاتجاه إلى الأدب
اريخى عند المسلمين ، وقد برز إلى جانب ابن إسحاق فى هذا المجال الواقدى صاحب
المغازى) (المتوفى ١٥٧هـ) و قد روى عنه محمد بن سعد (المتوفى ٢٣٠هـ)
صاحب الطبقات الكبرى) . وحين حدثت الفتوح الاسلاميــة فى أيام الخلفاء
اشدين ، أقبل على رواية أخبارها وأخبار الأحداث الداخلية فى الدولة الاسلامية

) المرجع السابق ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

من عرفوا (بالأخباريين) و منهم أبو مخنف لبط بن يحى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى (المتوفى ١٥٧هـ) وله فى التشيع هوى ، و سيف بن عمر الكوفى الأسدى التميمى المعاصر لأبى مخنف (والمتوفى بعد١٧٠هـ) و يبدو منه تعصب لقبيلته تميم و جاء بعدهما هشام بن محمد بن السائب الكلبى (المتوفى ٢٠٤هـ) و على بن محمد المدائنى مولى عبد الرحمن بن سمرة القرشى (المتوفى ٢٢٥هـ) . و قد تحفظ المحدثون إزاء روايات الأخباريين إذ لم يلتزموا فى رواياتهم بما التزمه المحدثون من ضوابط فى التمحيص و الاسناد و الجرح و التعديل .

و قد حفظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى الفقيه المفسر المؤرخ (المتوفى ٣١٠هـ) الروايات المتقدمة المنسوبة للاخباريين إذا افتقدنا مصنفاتهم المتكاملة ، ونسب كل رواية إلى مصدرها و بين أسنادها و رواتها حتى يحكم لهم أو عليهم ، و كان يعدد الروايات الواردة عن واقعة واحدة إذا تعددت طرقها . و يقرر الطبرى فى مقدمة كتابه (تاريخ الرسل و الملوك) أو (تاريخ الأمم و الملوك) : « فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها صحيحاً ولامعنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، و إنما أتى من بعض ناقليه إلينا ، و إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا . » يقول أستاذنا محب الدين الخطيب رحمه الله » و من فوائد ايراد الحادث الواحد بأخبار من طرق شتى و إن كانت ضعيفة قول شيخ الاسلام ابن تيمية فى مقدمة تفسير القرآن : إن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق فى العادة يوجب العلم بمضمون المنقول (أى بالقدر المشترك فى أصل الخبر) و ينتفع به كثيراً فى أحوال الناقلين (أى نزعاتهم و الجهة التى يمكن أن يتحصب لها بعضهم) و فى مثل هذا ينتفع برواية المجهول و السئ الحفظ بالحديث المرسل ونحو ذلك ،

و لهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث و يقولون عنه : إنه يصلح للشواهد و الاعتبار بما لا يصلح لغيره . قال أحمد : قد أكتب حديث الرجل لأعتبره) » و هو ينقل عن الحافظ بن حجر العسقلانى (المتوفى ٨٥٢ه) فى ترجمة (الطبرانى) من كتابه (لسان الميزان) : « إن الحفاظ الأقدمين يعتمدون فى روايتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الانسانية ، لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث باسناده فقد برئوا من عهدته و أسندوا أمره إلى النظر فى إسناده » ثم يعقب محى الدين الخطيب بعد ذلك بالقول : » و من الانصاف أن نشير إلى اتساع صدور أئمة السنة من أمثال أبى جعفر الطبرى لايراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم ، وهذا دليل على حريتهم وأمانتهم ورغبتهم فى تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما فى الباب واثقين من أن القارىء الحصيف لا يفوته أن يعلم أن مثل أبى مخنف موضع تهمة هو و رواته . . . » (١) .

و قد سار الطبرى على طريقة إيراد الوقائع موزعة على سنوات وقوعها سنة سنة وهى الطريقة المعروفة (بالحوليات) وكتابه من كتب التاريخ الاسلامى العام التى عرضت ما وقع للسلمين على اختلاف البلدان و الدول القائمة فيها بعد تجزؤ الخلافة ، بل عرض الطبرى أيضاً لما وصله من وقائع الدول السابقة على الاسلام ، و وقائع دولة الروم المعاصرة للسلمين . و لم يتبع اليعقوبى (ت٢٨٢ه) فى تاريخه و المسعودى (المتوفى ٣٤٦ه) فى كتابه (مروج الذهب) و قد تناولا التاريخ الاسلامى العام طريقة (الحوليات) ، بل ساقا الوقائع التى حدثت

(١) محب الدين الخطيب : مقال « المراجع الأولى فى تاريخنا : تاريخ الأمم و الملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى مجلة الأزهر - القاهرة - م ٢٤ ـ ط ٢ عدد صفر ١٣٧٢ه ص ٢١٠ .

فى عهد كل خليفة مترابطة و وزعا الأخبار على عهود الخلفاء واحداً واحداً لا على السنوات وكلاهما ينسلان إلى هوى شيعى ، أما بن الأثير (المتوفى ٦٣٠هـ) صاحب كتاب الكامل فى التاريخ ، وقد تابع الطبرى على طريقة (الحوليات) فى جمع أخبار الأحداث الكبرى عند أول ذكرها وعدم تفريقها على السنين المتابعة التى استغرقتها . ولم يتابع الطبرى فى إيراد سند الروايات . و كذلك فعل ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨هـ) الذى لم يورد الاسناد فى كتابه (العبر و ديوان المبتدأ و الخبر) وقد تميز بمقدمته الفذة الرائعة و بالقسم الخاص عن تاريخ المغرب .

و عنى بعض المصنفين بأخبار الفتوح بوجه خاص ، فنسبت إلى الواقدى نسبة عليلة مصنفات فى (فتوح الشام) و (فتوح أفريقية) ، و من أفضل ما وصلنا من كتب الفتوح كتاب (فتوح مصر و المغرب) لعبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم (المتوفى ٢٥٧هـ) و كتاب (فتوح البلدان) للبلاذرى (المتوفى ٢٧٩هـ) و قد ذكر ابن عبد الحكم و البلاذرى سند الروايات التى أوردها .

و تتابعت المصنفات التاريخيه . و مع استمرار تجزؤ دولة الخلافة العباسية و قيام دويلات مستقلة فى كثير من ولاياتها السابقة ، ظهرت مصنفات تعنى بتاريخ قطر معين مثل كتاب (النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر و القاهرة) لابن تغرى بردى (المتوفى ٨٧٤هـ) ، بل ربما عنى المصنف بعهد أو بدولة من الدول الحاكمة لقطر معين مثل كتاب (الروضتين فى أخبار الدولتين) لابى شامة و قد تناول أخبار مصر و الشام فى عهدى نور الدين محمود و صلاح الدين الأيوبى ، وكتاب (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) لابن واصل (المتوفى ٦٩٧هـ) وكتاب (اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة المصريين الخلفاء) للمقريزى (المتوفى ٨٤٥هـ) ولنفس المؤلف كتاب فى سلاطين دولة المماليك يسمى (السلوك لمعرفة دول الملوك) .

و من المصنفات التاريخية ما تخصص فى تاريخ مدينة بعينها مثل كتاب الأزرقى (تاريخ مكة) (ت نحو ٢٥٠ ﻫ) ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (المتوفى ٤٦٣ ﻫ) و تاريخ دمشق للحافظ بن عساكر (المتوفى ٥٧١ ﻫ) و هناك تواريخ للموصل و حلب و نيسابور و غزنة و غيرها .

أما بالنسبة للسير و التراجم ، فقد ظهرت على رأسها و فى مقدمتها كتب السيرة النبوية و قد تقدمت الاشارة إليها ، و اعقبتها كتب التراجم الخاصة برواة الحديث و من أقدمها تاريخ البخارى (المتوفى ٢٥٦ ﻫ) كما ظهرت تراجم الصحابة و التابعين فى (الطبقات الكبرى) لابن سعد (المتوفى ٢٧٠ ﻫ) ، و تراجم الصحابة فى كتاب (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) لابن عبد البر (المتوفى ٤٦٣ ﻫ) ، و كتاب (أسد الغابة فى تراجم الصحابة لابن الأثير (المتوفى ٦٣٠ ﻫ) ، و كتاب الاصابة فى تميز الصحابة) لابن حجر العسقلانى (المتوفى ٨٥٢ ﻫ) .

وقد توزعت التراجم حسب الأجيال على فترات محددة من السنين مما يعرف بكتب (الطبقات) و على رأسها كان كتاب ابن سعد فى طبقات الصحابة والتابعين وغالباً ما يختص مصنفو كتب الطبقات فئة معينة بايراد طبقاتها و تراجمها مثل الفقهاء أو القراء أو المفسرون أو الحفاظ أو النحاة أو الشعراء أو الأطباء أو القضاة أو الصوفية ، و مثل الحنفية و المالكية و الشافعية و الحنابلة . و من كتب التراجم ما تخصص لقرن من الزمان مثل كتاب ابن حجر (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) و كتاب السخاوى (المتوفى ٩٠٢) : (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع) .

و من معاجم التراجم الجامعــة (معجم الأدباء) لياقوت الحموى (المتوفى ٦٢٦هـ) و هو يعنى بالأدباء على أوسع معانى الكلمة فهو يذكر فى مقدمة الكتاب أنه جمع فيــه : ما وقع له من أخبار النحويين و اللغويين و النسابين و القراء و الأخباريين و المؤرخين و الوراقين و الكتــاب المشهورين و أصحاب الرسائل المدققة وأرباب الخطوط المنسوبة و المغيبة و كل من صنف فى الأدب تصنيفاً أو جمع فيه تأليفاً . و أجمع من هذا المعجم كتاب (وفيـات الأعيان من أبناء الزمان) لابن خلكان (المتوفى ٦٨١هـ) و كان معاصراً ليـاقوت و إن لم يلتقيا .

و ثمة مصنفات جمعت بين التاريخ و التراجم ، فابن كثير (المتوفى ٧٧٤هـ) يذكر اسماء المتوفين فى نهاية كل سنة من حولياته التى أسماها (البداية و النهاية) و يترجم لهؤلاء بشئ من التفصيل خلافاً لطريقة مصنفى الحوليات فى إيجاز الكلام عن المتوفين فى كلمات أو بمجرد ذكر أسمائهم و كذلك فعل ابن الجوزى (ت ٥٩٦هـ) فى (المنتظم) . و عنى الخطيب البغدادى فى (تاريخ بغداد) و ابن عســاكر فى (تاريخ دمشق) بايراد مشاهير البغداديين و الدمشقيين . وعنى الذهبى (المتوفى ٧٤٨هـ) بالتراجم فى كتابه (تاريخ الاسلام) الذى يمكن اعتباره جامعاً و رابطا بين التاريخ والطبقات و التراجم وأفرد للتراجم والسير كتابه (سير أعلام النبلاء) و لابن العماد الحنبلى كتاب (شذرات الذهب فى أخبـار من ذهب) و تتضمن كتب (الأنساب) تراجم موجزة غالباً لمن تذكر أنسابهم ، ومنهـا كتاب السمعانى (المتوفى ٥٦٢هـ) و كتاب ابن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ) المسمى (جمهرة أنساب العرب) .

و تخصصت مصنفات فى أفراد سيرة لشخصية واحدة ، و قد كتب عبد الله

ابن عبد الحكم (المتوفى ٢١٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ، و كتب ابن الجوزى (المتوفى ٥٩٦ھ) سيراً مفردة لكل من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وأحمد ابن حنبل . كما كتب العتبي (ت ٤٢٨ھ) تاريخ اليمنيين فى سيرة محمود الغزنوى و كتب ابن شداد (المتوفى ٦٣٢ھ) : (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) فى سيرة صلاح الدين الأيوبى .

و قد يكتب مؤلف سيرة نفسه وهو ما يعرف بالسيرة الذاتية ، ومن هؤلاء أسامة بن منقـــذ من فرسان العهد الأيوبى (المتوفى ٥٨٤ھ) صاحب كتاب (الاعتبار) والأمير عبد الله بن يلقين آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة ، وكتب كل من لسان الدين بن الخطيب (المتوفى ٧٧٦ھ) و السخاوى (المتوفى ٩٠٢) والسيوطى (المتوفى ٩١١) و المقرى (المتوفى ١٠٤١) سيرهم فى ثنايا مؤلفاتهم . و كتب ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨ھ) : (التعريف بابن خلدون و رحلتـــه شرقاً وغرباً)

يتبع




دراسات وأبحاث

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فـــــــــى
تاريخ التشريع الاسلامى — ٩ —

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

ذكر الامام الدهلوى بعد هذه الطبقة الأولى من المحدثين الذين أصلوا فقـــه الحديث، و دونوا ذخائر الحديث و بذلوا وسعهم فى جمع الطرق و تقصى الأسانيد، طبقة أخرى، بل طبقات اتجهت إلى أعمال أخرى كانت تنتظر رجالا عباقرة من فحول المحدثين الجامعين بين الفقـــه و الحديث فكان منهم من تفرغ لتمييز الحديث الصحيح المجمع عليه بين كبراء أهل الحديث كيزيد بن هـارون، و يحيى بن سعيد القطان، و أحمد و إسحاق بن راهويه و أضرابهم مع ترتيب هذه الأحاديث ترتيباً فقهيا أو أقرب إلى كتب الفقه، و اتجه أخرون لجمع أحاديث الفقه التى بنى عليها فقهاء الأمصار و علماء البلدان مذاهبهم مع إصدار الأحكام على هذه الأحاديث رداً و قبولا، و الكلام فى الرجال جرحاً وتعديلا و رواية الغرائب و الشواذ وبيان غرابتها و شذوذها، و ذكر الطرق التى لم يخرج من جهتها الأوائل، وهى تحتوى على فوائد يرغب فى الحصول عليها من اتصال أو علو سند، أو رواية فقيــه عن فقيه أو حافظ عن حافظ، و نحو ذلك من المطالب العلية (١).

و هؤلاء المحدثون الذين اشتغلوا بالحديث النبوى الشريف هـــذا النوع من الاشتغال هم ـ مع اختلاف طبقاتهم و مراتبهم - البخـارى (م٢٥٦) و مسلم

(١) أنظر الانصاف ص ٥٤ـ٥٥ .

(م۲٦۱) و أبو داؤد (م۲۷٥) و عبد بن حميد (م۲٤۹) و الدارمی (م۲٥٥) و ابن ماجه (م۲۸۳) و أبو يعلى (م۳۰۷) والترمذی (م ۲۷۹) والنسائی (م۳۰۳) و الدارقطنی (م۳۸٥) و الحاكم (م٤۰٥) و البيهق (م٤٥۸) والخطيب (م٤٦۳) والديلمی (م٥۰۹ د) و ابن عبد البر (م٤٦۳) وأمثالهم.

إلا أنه مما يجب التنبه له هو أن هؤلآء جميعاً الذين عد أسماءهم الامام الدهلوی ليسوا من المحدثين بالمعنى السابق ، بل فيهم من يقلد الامام الشافعی تقليـــد المحدثين كالدارقطنی والحاكم و البيهق و من يقلده تقليد الفقهاء كالخطيب البغدادی و من يقلد الامام مالكا مع اجتهاد و إنصاف كابن عبد البر ، فليس عدهم مع الامام البخاری و الترمذی و غيرهما إلا لنوعية الاشتغال بالحديث ، و تبويبه على الفقه ، وإبراز الأحاديث الصحيحة و الكلام على الطرق .

و قد خص الامام الدهلوی أربعة من هؤلآء بالحديث عن منهجهم و عملهم باختصار و هم البخاری و مسلم و أبو داؤد و الترمذی ، فقال :

« وكان أوسعهم علما عنـــدی ، و أنفعهم تصنيفاً و أشهرهم ذكراً ، رجال أربعة متقاربون فی العصر » (۱) ثم عدهم كما قدمنا، وذكر شيئاً من ميزات منهج كل واحد منهم فی عمله و إنتاجه : و هم :

۱- أبو عبد الله البخاری : كان غرضه من كتابه « الصحيح » تجريد الأحاديث الصحاح المستفيضة المتصلة من غيرها ، و استنباط الفقه و السيرة و التفسير منها.

۲- مسلم النيسابوری ۱- توخى تجريد الصحاح المجمع عليها بين المحـــدثين المتصلة المرفوعة مما يستنبط منه السنة/ ۲- و أراد تقريبها إلى الأذهان/ ۳- وتسهيل الاستنباط منها/ ٤- فرتب ترتيباً جيداً/ ٥- وجمع طرق كل حديث فی موضع

(۱) الانصاف ص ٥٥ .

واحد ، ليتضح اختلاف المتون وتشعب الأسانيد أصرح ما يكون/ ٦- وجمع بين المختلفات فلم يدع لمن له معرفة بلسان العرب عذراً فى الاعراض عن السنة إلى غيرها .

١- أبو داؤد السجستانى : ١- كان همه جمع الأحاديث التى استدل بها الفقهاء و دارت فيهم و بنى عليها الأحكام علماء الأمصار .

٢- فصنف « سننه » و جمع فيها الصحيح ، و الحسن ، و اللين ، و الصالح للعمل .

٣- و ترجم على كل حديث بما قد استنبط منه عالم و ذهب إليه ذاهب .

و لذلك صرح الغزالى و غيره بأن كتابه كاف للمجتهد .

- أبو عيسى الترمذى : ١- جمع كلتا الطريقتين : طريقة الشيخين البخارى و مسلم ، و طريقة أبى داود فى جمع كل ما ذهب إليه ذاهب .

٢- وزاد عليهما بيان مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار لجمع كتاباً جامعاً .

٣- و اختصر طرق الحديث اختصاراً لطيفا فذكر واحداً و أومأ إلى ما عداه .

٤- و بين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر .

٥- و بين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة من أمره فيعرف ما يصلح الاعتبار عما لا يصلح .

٦- و ذكر أنه مستفيض أو غريب .

٧- و سمى من يحتاج إلى التسمية و كنى من يحتاج إلى التكنية ، فلم يدع خفاءاً لمن هو من رجال العلم .

و لذلك يقال : إنه كاف للمجتهد ، مغن للمقلد » (١) .

---

(١) الانصاف ص ٥٥-٥٧ .

نری هنا أن الامام الدهلوی أوجز فی وصف منهج البخاری و ذکر میزاته إیجازاً شدیداً و أطنب فی غیره بعض الشئ ، و ذلك لأن له حدیثاً مستفیضاً عن الامام البخاری فی کتاب له مستقل باسم « رسالة فی شرح تراجم أبواب صحیح البخاری » و قد طبعت عدة طبعات منها صحیح البخاری التی قام علیها الشیخ أحمد علی السهارنفوری ، کما أن له رسالة شخصیة وجهها إلی أحد أصحابه یشرح فیها مکانة الامام البخاری (١) . و جاء فیها أنه فی بعض مذاکراته العلمیة مع أصحابه قال : إن حدیث « لو کان الایمان عند الثریا لناله رجال أو رجل من هؤلاء یعنی أهل فارس ، یصدق علی الامام أبی حنیفة فقد کان ناشر الفقه ومهذبه ، و حصل لمذهبه قبول عظیم ، و یصدق علی الامام البخاری أیضاً إذا کان ناشر حدیث رسول الله ﷺ فلم یعجب هذا الکلام بعض متفقهة عصره ، فشرع الامام الدهلوی یبین مکانة الامام البخاری و دقة فقهه و اجتهاده ، و مما ذکره فی مجلسه ذاك أن الامام البخاری هو أول من تصدی لتمییز الحدیث الصحیح من الأحادیث الضعیفة والحسنة التی لم تبلغ مبلغ القوة عند الامام البخاری ، ولو لم یکن له غیر هذا الفضل لکفی له شرفاً . ثم ذکر أن من تقدم البخاری من أئمة الحدیث والفقه والتفسیر وغریب الحدیث ، کان کل واحد منهم تکلم فی موضوعه ، لا یعدوه إلا قلیلا ، أما البخاری فانه جمع فنونهم . وتقصی جهودهم ، ثم أودع ما صح منها و أیدته الآثار القویة فی کتابه لیکون موسوعة جامعة صحیحة لا یتطرق إلیها شك ویرجع إلیها المسلمون

(١) طبعت هذه الرسالة مضمومة إلی رسالته عن ابن تیمیة التی تناولها بالتعلیقات و نشرت فی العددین ٦-٧ من المجلد ٢٧ لمجلة « البعث الاسلامی » هذه ، و طبعت فی مجموعة رسائل بعض کبار المشایخ بعنوان « کلمات طیبات » عام ١٣٠٨هـ ، أنظر منه ص ١٧٧- ١٧٩ .

فى أمهات العلوم ، و معلوم أن مهمة الانتقاء و الاختيار لا تتأتى إلا لمن رسخت قدمه فى العلم الذى ينتق فيه ، فلو قيل إن فلانا انتق من « القانون لابن سينا » قواعد طبية مهمة ، ألا يكون ذلك دليلا على إحاطته بالكتاب و دقة نظره فيه ، و لو قيل إن فلانا انتق من ديوان المتنبي أقوى و أحسن ما قال ، أ ليس هذا شاهداً على أنه يعرف العروض و العربية ، و يتذوق الشعر ، كذلك لو أنصفنا لعلمنا أن الامام البخارى بذ الأقدمين فى إحاطته بالعلوم و الفنون التى قلما تتوفر فى شخص واحد ، و لم يسبقه أحد فى تصنيفها فى كتاب ، كما أننا لا نجد فى المتقدمين من يستدل باشارات الحديث على مختلف العلوم و الفنون ، و الأصول العلمية كما يفعل البخارى ، كما أن عملية الفرز و التصحيح و الانتقاء الدقيق مأثرة علمية عظيمة فى خدمة الشريعة الاسلامية تدل على سرعة البديهة ، و قوة العارضة ، و حفظ الطرق و الأسانيد واستحضار العلوم، و يمتاز الامام البخارى من بين جميع المحدثين بتراجمه التى بث فيها أقوال الصحابة و التابعين و لفت الأنظار إلى طريق استحضار الأحاديث للاستدلال على المسائل مع ذكر الآيات القرآنية المناسبة لكل موضوع ،

لا شك فى أن بعض استدلالات البخارى كالاستدلال على كل معنى من المعنيين من الألفاظ المحتملة ، بعض ما يؤاخذه به العلماء الأصوليون ، و لكن من من الناس سلم من الاعتراض ، حتى يسلم البخارى !

و للناس فيما يعشقون مذاهب :

كذلك ينتقدون عليه سوء ترتيبه للابواب ، و طريقة تمهيده و تحريره ، و قد كان سبب ذلك أن فن التبويب و الترتيب لم يكن قد مهد و هذب من قبل ، ولم يكن يهم أهل العلم إلا البحث فى المطالب العلمية لا التفكير فى التمهيد و الترتيب (١) .

---

(١) انظر كلمات طيبات ص ١٧٧ - ١٧٩ .

و لكن رغم بعض الخلل فى الترتيب و التراجم (العناوين) فانها تشتمل على علم جم وفقه دقيق ، يمكن أن يستخرج منه فقه الامام البخارى ، و قليل من شراح البخارى تناولوا تراجمه بالشرح و البيان ، حتى قيل كان شرح صحيح البخارى ديناً على الأمة فقضاه الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ وبقى شرح تراجم « الصحيح » ديناً ، فكان كتاب الامام الدهلوى - رغم إيجازه - فتحا جديداً ، و نظرات دقيقة (١) ، ثم كان كتاب العلامة المرحوم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى

(١) تعرض الحافظ ابن حجر فى مقدمة « فتح البارى » لتراجم الامام البخارى تعرضاً سريعاً و أشار إلى بعض الوجوه الخفية من فوائد هذه التراجم و دقائقها ، و لكنها ليست بهذا الوضوح و التفصيل اللذين نجدهما عند الامام الدهلوى ، وذكرلنا الحافظ بعض الكتب المؤلفة فى تراجم البخارى ليرجع إليها من شاء التفصيل فقال :

« و قد جمع العلامة ناصر الدين أحمد بن المنير خطيب الاسكندرية من ذلك (أى الأبواب التى عنونها الامام البخارى ولم يذكر فيها الأحاديث على شرطه) أربعمائة ترجمة ، و تكلم عليها ، و لخصها القاضى بدر الدين ابن جماعة ، و زاد عليها أشياء و تكلم على ذلك بعض المغاربة و هو محمد ابن منصور بن حمامة السجلماسى (م٧٧٠) ولم يكثر من ذلك ، بل جملة ما فى كتابه نحو مائة ترجمة ، و سماه « فك الأغراض المبهمة فى الجمع بين الحديث و الترجمة » و تكلم أيضاً على ذلك زين الدين على بن المنير أخو العلامة ناصر الدين فى شرحه على البخارى وأمعن فى ذلك . و وقفت على مجلد من كتابه اسمه « ترجمان التراجم » لأبى عبد الله بن رشيد السبتى ، (٧٢١) يشتمل على هذا المقصد ، وصل فيه إلى كتاب الصيام ،

« الأبواب و التراجم للبخارى » (١) تكميلا لهذا العمل الدقيق العسير .

« يتبع »

★ و لو تم لكان فى غاية الافادة ، و إنه لكثير الفائدة مع نقصه ، و الله تعالى الموفق .

(انظر مقدمة فتح البارى ص ١٣ - ١٤) طبع مكتبة الرياض الحديثة باشراف قاضى محب الدين الخطيب ولبدر الدين المعروف بالدماميني (م ٨٢٨) كتاب آخر فى الموضوع باسم « تعليق المصابيح على أبواب الجامع الصحيح » ذكره الشاه عبد العزيز الدهلوى فى بستان المحدثين » .

(١) طبع هذا الكتاب الحافل الذى هو خاتمة الكتب فى هذا الفن فى مطبعة ندوة العلماء فى ٥ ـ أجزاء عام ١٣٩١ و قد استقصى فيه المؤلف العلامة ـ شيخنا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ـ قدس الله سره ـ جهود العلماء الأقدمين ، و ذكر ما ألف قبله فى هذا الموضوع ، ومن أهم تلك المؤلفات رسالة الامام الاهلوى ، ثم رسالة للعلامة محمود الحسن الديوبندى بالأردية ، و كانت طبعت فى مطبعة الأمان بكينه ـ الهند .

و قد ذكر الشيخ فى كتابه سبعين أصلا من الأصول أو الوجوه التى تستنبط من تراجم الأبواب للامام البخارى ثم قال : « و هذا آخر ما اكتفيت به من الأصول المفصلة رعاية لعدد السبعين المرعية فى كثير من الأحاديث و إلا فدقائق استنباطه و أصول تراجمه (انظر الجزء الأول من الأبواب و التراجم ص ١٢٦) .

المستشرقون والقرآن الكريم

—: ٦ :—

محمد صدر الحسن الندوى

ويمكن قياس الهوة الكبرى التى حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى » إلى هرقل من بيت المقدس قائلا :

« من لدن الاله « كسرى » الذى هو أكبر الآلهة و ملك الأرض كلها إلى عبده اللئيم الغافل هرقل ، إنك تقول : إنك تثق فى إلهك ! فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يدى ؟!

و استبد اليأس و القنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة و قرر العودة إلى قصره الواقع فى قرطاجنة على الساحل الافريقى ، فلم يعد يهمه أن يدافع عن الامبراطورية بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه وأرسلت السفن الملكية إلى البحر ، وخرج هرقل فى طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختيارى (١) وفى

---

(١) يقول البستانى : هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) أغار الأفاريون فى زمنه على المملكة و انتزع الفرس منها آسيا الصغرى و فلسطين و مصر ، و لما رأى نفسه فى حرج شديد عزم على ترك القسطنطنية التى لم يبق له سواها ، و اتخاذ « قرطاجنة » عاصمة له ، فصرفه البطريق عن هذا الرأى ، ثم اتفق أن حاز هرقل انتصاراً باهراً على كيخسرو الثانى ملك الفرس (دائرة المعارف ج ٤ ص ٧٣٥) .

هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين و المسيح و نجح فى إقناع هرقل بالبقاء، و ذهب هرقل مع الأسقف إلى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذى اختاره الله له .

وباشارة من الجنرال الايرانى (سين Sain) أرسل هرقل سفيراً إلى « كسرى » طالباً منه الصلح ، لكن لم يكد القاصد الرومى يصل إلى القصر حتى صاح كسرى فى غضب شديد: لا أريد هذا القاصد! إنما أريد هرقل مكبلا بالأغلال تحت عرشى ، ولن أصالح « الرومى » حتى يهجر إلاهه الصليبى و يعبد الشمس إلاهنا.

و بعد مضى ستة أعوام على الحرب ، رضى الامبراطور الايرانى أن يصالح هرقل على شروط معينة ، هى أن يدفع ملك الروم .

ألف تالنت (۱) (Talent) من الذهب و ألف تالنت من الفضة و ألف ثوب (۲) من الحرير و ألف جواد و ألف فتاة عذراء .

و بينما سيطرت على العاصمتين الفارسية و الرومية هذه الأحداث فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية فى شبه الجزيرة العربية ـ و هى مكة المكرمة ـ مشكلة مماثلة ، كان الفرس مجوساً من عباد الشمس والنار وكان الروم من المؤمنين بالمسيح و بالوحى و بالرسالة و بالله تعالى ، و كان المسلمون مع الروم ـ نفسياً ـ يرجون غلبهم على الكفار والمشركين ، كما كان كفار مكة مع الفرس لكونهم عباد المظاهر المادية ، وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزاً خارجياً للصراع الذى كان يدور بين أهل الاسلام و أهل الشرك فى « مكة » وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هى نفس مآل صراعهما الداخلى ، فلما انتصر

---

(۱) (Talent) ميزان يونانى قديم حوالى ستة وعشرين كيلوجراماً لدى الأثينيين.
(۲) الثوب : ثلاثون متراً من القماش تقريباً .

الفرس على الروم عام ٦١٦م و استولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين قائلين ، لقد غلب إخواننا على إخوانكم وكذلك سوف نقضى عليكم إذ لم تصلحوا معناً تاركين دينكم الجديد! وكان المسلمون بمكة فى أضعف و أسوأ أحوالهم المادية ، وفى تلك الحالة البائسة صدرت كلمات من لسان الرسول ﷺ :

الم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد * ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله * ينصر من يشاء * و هو العزيز الرحيم * (١) .

و تعليقاً على هذه النبوءة يكتب جبن .

« فى ذلك الوقت حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة هرقل ، كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية » .

ولكنه من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على الوسائل و الأحوال ، و من بيده قلوب الناس وأقدارهم ، و لم يكن جبريل يبشر النبى ﷺ بهذه البشرى حتى أخذ الانقلاب يظهر على شاشة الامبراطورية الرومانية .

و يرويه جبون على النحو التالى :

« إنها من أبرز البطولات التاريخية ، تلك التى نراها فى « هرقل » فقد ظهر هذا الامبراطور غاية فى الكسل والتمتع بالملذات و عبادة الأوهام فى السنين الأولى و الأخيرة من حكومته ، كان يبدو كما لو كان متفرجاً أبله ، استسلم لمصائب شعبه و لكن الضباب الذى يسود السماء ساعتى الصباح و المساء ، يغيب حيناً من الوقت

---

(١) سورة الروم : ١ - ٧ .

لشدة شمس الظهيرة، وهذا هو ما أحدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول «أرقاديوس» (١) إلى قيصر ميدان الحرب (٢) فجأة و استطاع أن يستعيد مجد الروم و يزيح الستار عن الحقيقة تبياناً لأسرار هذه اليقظة و النوم، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية، فقد انقطع عن كافة الملذات حتى إنه هجر ابنة أخته، مارتينا التى تزوجها بشدة هيامها بها رغم أنها كانت محرمة عليه.

كان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد بحريته للاغارة على الفرس من الخلف، و سار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى «أرمينيا» و شن على الفرس هجوماً مفاجئاً فى نفس الميدان الذى هزم فيه الاسكندر جيوش الفرس لما زحف على أراضى مصر والشام، ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة فلاذوا بالفرار.

و كان الفرس يملكون جيشاً كبيراً «فى آسيا الصغرى» ولكن هرقل فاجأهم بأساطيله مرة أخرى، و أنزل بهم هزيمة فادحة، و بعد إحراز هذا النصر الكبير عاد هرقل إلى عاصمته «القسطنطينية» عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) و استطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم.

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاث حروب أخرى ضد الفرس فى سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥م، و استطاع أن ينفذ إلى أراضى العراق القديم عن طريق البحر الأسود، و اضطر الفرس إلى الانسحاب عن جميع الأراضى

---

(١) «أرقاديوس» (٣٧٧-٤٠٨م) أحد أباطرة الرومان، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول تولى العرش سنة ٣٩٥م و اشتهر بالجبن.

(٢) قيصر (١٠١ - ١٤٤) قائد سياسى رومى عظيم.

الرومية نتيجة هذه الحروب ، و أصبح هرقل فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الامبراطورية الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية تلك الحرب التى خاضها الفريقان فى نينوا على ضفاف « دجلة » فى ديسمبر عام ٦٢٧م .

و لما لم يستطع « كسرى ابرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستكرد » و لكن ثورة داخلية نشبت فى الامبراطورية و اعتقله ابنه شيرويه و زج به فى سجن داخل القصر الملكى ، حيث لقى حتفه لسوء الأحوال فى اليوم الخامس من اعتقاله . وقد قتل ابنه « شيرويه » ثمانى عشرة من أبناء أبيه .

و لكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله أحد أشقائه ، و هكذا بدأ القتال داخل البيت الملكى وتولى تسعة ملوك زمام الحكم فى غضون أربعة أعوام ، و لم يكن من الممكن أو المعقول فى هذه الأحوال السيئة أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم ، فأرسل قباد الثانى ابن كسرى ابرويز الثانى يرجو الصلح ، و أعلن تنازله عن الأراضى الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع هرقل إلى عاصمته « القسطنطنية » فى مارس عام ٦٢٨م فى احتفال رائع ، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال ، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير خارج العاصمة و فى أيديهم المشاعل و أغصان الزيتون .

و هكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم فى مدته المقررة أى فى أقل من عشر سنين كما هو المراد فى لغة العرب من كلمة « بضع » (١) .

و لذلك اضطر الدكتور « روبرت هورتون كاميرون » إلى أن يقول بكل صراحـــة :

« هذه الكتب فريدة فى نوعها فى كثير من الوجوه ، و هى تسمح للانسان

---

(١) الاسلام يتحدى : ص ١٣٧ ـ ١٣١ .

بتدوينها و تمحيصها حتى يثق بصحة ما جاءت به فى كثير من المواطن ، وقد تحقق كثير من نبوءاتها بكل دقة بعد قرون عديدة ، ولم يثبت خطؤها فى أى أمر تاريخى أو جغرافى » (١) .

ويحلو لى أن أنقل هنا قصة طريفة للفلكى الشهير السير جيمس الأستاذ بجامعة كمبردج ، يرويها الدكتور عناية الله ، هو يقول :

« كان ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩م و كانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فاذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهباً إلى الكنيسة ، و الانجيل والشمسية تحت إبطه ، فدنوت منه ، و سلمت عليه ، فلم يرد على ، فسلمت عليه مرة أخرى فسألنى : ماذا تريد منى؟ فقلت له أمرين يا سيدى! الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر ! فابتسم « السير جيمس » و فتح شمسيته على الفور ، فقلت له : و أما الأمر الآخر فهو : ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم ـ مثلك ـ أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ أمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى ، وعند ما وصلت إلى داره فى المساء ، خرجت ليدى جيمس فى تمام الساعة الرابعة بالضبط ، وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى ، وعند ما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى ، و كان البروفيسور منهمكاً فى أفكاره ، و عند ما شعر بوجودى ، سألنى ، ماذا كان سؤالك ؟ و دون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية و نظامها المدهش و أبعادها و فواصلها اللامتناهية و طرقها و مداراتها و جاذبيتها ، و طوفان أنوارها المذهلة حتى إنى شعرت بنفسى يهتز بهيبة الله و جلاله ، و أما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً و الدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله و توقف فجأة ، ثم بدأ يقول : يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على

---

(١) The Evidence of God in an Expanding universe P. 131 .

روائع خلق الله يبدأ وجودی يرتعش من الجلال الالهی ، و عند ما أركع أمام الله وأقول له: « إنك لعظيم »! أجد أن كل جزء من كيانی يؤيدنی فی هذا الدعاء ، و أشعر بسكينة و سعادة عظيمتين ، و أحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت يا عناية الله ، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟ »

و يضيف العلامة عناية الله قائلا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً فی عقلی ، وقلت له ، يا سيدی! لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التی رويتموها لی ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آی كتابی المقدس ، فلو سمحتم لی ، لقرأتها عليكم فهز رأسه قائلا : بكل سرور فقرأت عليه الآية التالية :

« و من الجبال جدد بيض و حمر * مختلف ألوانها و غرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك * إنما يخشى الله من عباده العلماء * (١).

فصرخ السير جيمس قائلا : ماذا قلت؟ « إنما يخشى الله من عباده العلماء ؟ » مدهش ! و غريب و عجيب جداً !! إن الأمر الذی كشفت عنه دراسة و مشاهدة استمرت خمسين سنة ، من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة فی القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة منی أن القرآن كتاب موحی من الله.

و يستطرد السير جيمس قائلا : « لقد كان محمد أمياً ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، و لكن « الله » هو الذی أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! و غريب و عجيب جداً (٢) »

★ حوار طريف بين الدكتور محمد إقبال و الدكتور لوكس :

المشككون يتعجبون أن ألفاظ القرآن كيف يمكن أن تنزل علی بشر بل كانت المعانی تنزل علی رسول الله ﷺ ، وكان الرسول ﷺ يبينها أمام الناس فی ألفاظه ، و يريدون بذلك أن ألفاظ القرآن قد مسته يد التحريف ، و فيه عبارات منحولة

(١) سورة الفاطر : ٥٣ .

(٢) الاسلام يتحدی : ص ١٥٢ - ١٥٣ .

ليست لها أى علاقة بالوحي المنزل من الله ، ويجدربنا أن ننقل حادثة طريفة حدثت بين الدكتور محمد إقبال و الدكتور لوكس فى هذه القضية :

سأل الدكتور لوكس عميد « كلية فارمن المسيحية » الدكتور محمد إقبال حول القرآن الكريم و قال : ماذا ترون فى نزول القرآن على نبيكم ؟ هل كانت تنزل معانى القرآن التى كان يبينها فى ألفاظه ، أم كانت الألفاظ تنزل أيضاً ؟ فأجاب قائلا : إنى اعتقد اعتقاداً جازماً أن ألفاظ القرآن كانت تنزل على النبى ﷺ ، ليست معانى القرآن ملهمة فحسب بل الألفاظ أيضاً منزلة من الله ، فرد عليه الدكتور لوكس قائلا : لا أرى أى داع إلى الاعتراف بهذه الحقيقة لمثلك الفيلسوف العبقرى ، و أتعجب على اعتقادك أن ألفاظ القرآن هى منزلة من الله ، فقال الدكتور محمد إقبال لا أحتاج فى هذه القضية إلى أى دليل و برهان بل قد جربت هذا مراراً ، لست نبياً بل شاعراً محضاً ، إذ يراودنى الجو الشعرى فتنزل على الأبيات فى ألفاظها و تعبيراتها و أنقلها على القرطاس بنصها بدون أى تغيير ، فاذا كان من الممكن أن تنزل الأبيات على شاعر فى ألفاظها وتعبيراتها ، فكيف بنزول القرآن كاملا فى ألفاظه على الرسول ﷺ (١) .

و الحقيقة أن الذى يفكر فى آيات القرآن يصل إلى هذه النتيجة الحتمية أن القرآن منزل من الله فى ألفاظها و تعبيراتها و ليس فيه أى شئ يتعارض مع هذه الحقيقة ، جاء فى القرآن « و تخفى فى نفسك ما الله مبديه و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه »

« أي ضرورة هذه التى تدعوه ـ محمداً ﷺ ـ إلى أن يدرج هذه الآية فى القرآن ، فيقرأها الناس كلهم ، و هى من أول حرف فيها إلى آخر حرف عتاب للرسول شديد ، و كشف عما يخفيه فى نفسه من معرفة أنه سيتزوج زينب بعد تطليق زيد لها ، ثم هى بيان لما يخشاه من كلام قومه إذا أقدم فتزوج مطلقة متبناه ،

(١) فيضان إقبال للأستاذ سورش الكاشميرى ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

و إيضاح لحكم الله الذى لابد أن ينفذ فيه ، نقول: أى ضرورة تدعو سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام إلى أن يدرج هذه الآية فى القرآن ، ويسجلها على مر الدهر كله لو لم يكن هذا القرآن كلام خالقه الذى لا يسعه أن يستخفى على حرف واحد منه ؟ من أجل هذا تقول عائشة (رضى الله عنها) فيما يرويه مسلم وغيره ، لوكان النبى ﷺ كاتماً شيئاً من الوحى كتم هذه الآية .

و أنا فلعمرى ما وجدت فى حوادث السيرة النبوية أدل على نبوته ﷺ من هذه الحادثة ، وما وجدت آية فى القرآن أدل على أن القرآن كلام الله الذى لا دخل لمحمد ﷺ فى حرف واحد منه (١) .

و لكن هل يمكن أحداً إن يقول أن محمداً ﷺ أدخل فى القرآن أشياء لا يمكن العثور عليها ، لكن هذه الشبهة لا تستقيم مع الواقع إذا نظرنا إلى حياة النبى ﷺ و عفافه و زهده و صدقه وعدم كذبه على الناس فضلا عن أن يكذب على الله ، و سيرة النبى ﷺ تبين هذا فى غاية من الوضوح ،

يقول البروفيسور « جون ديون » فى مقدمة كتابه القيم و هو يلقى الضوء على حياة الفاتحين و المشرعين :

« لا ريب أنه لا يوجد فى الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته و أحواله أكثر تفصيلا و أشمل بياناً مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ و أحواله » (٢) .

ويقول « باسورث سميت Bosworth Smith » فى غاية من الوضوح والقوة.

« ترى الشمس هنا بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شئ و تصل إلى كل شئ لا شك أن فى الوجود شخصيات لانعلم عنها شيئا ولا تتبين حقيقيتها أبداً أو تبقى منها أمور مجهولة ، بيد أن التاريخ الخارجى لمحمد ﷺ يعلم جميع تفاصيل من نشأته إلى شبابه وعلاقته

(١) كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ص ٢٢٧ الطبعة الثالثة .

(٢) Appology for Mohammad, and Quran, 1870.

بالناس ، و روابطه و عاداته و یعلم أول تفکیره و تطوره و إرتقاء التدریجی ثم نزول الوحی العظیم علیه نوبة بعد نوبة و یعلم التاریخ الداخلی بعد ظهور دعوته و إعلان رسالته ، و إن عندنا کتابه « القرآن » لا مثیل له فی حقیقته وفی کونه محفوظاً ومصوناً و فی عدم التزام الترتیب فی معانیه و أنه لم یستطع أحد أن یشك فی قیامه علی أساس الصدق شکاً یعتد به (١) .

لکننا نطرق الرأس حیاءاً و خجلا إذ نری أن السیر سید أحمد مؤسس جامعة علیجراه الاسلامیة لا یعتقد القرآن الوحی المنزل فی ألفاظه بل فی معناه و تعبیره . -

« کان یری أن القرآن لیس بمعجزة فی الفصاحة و البلاغة لأنه لیس مما ألقی فی قلب النبی ﷺ بلفظه (٢) بل بمضمونه و معناه (٣) .



(١) الرسالة المحمدیة ، للعلامة السید سلیمان الندوی ص١٢١ ، ١٢٢ الطبعة الثالثة .

(٢) قال الامام ابن تیمیة فی الرسالة الملقبة بالتسعینیة ویجب أن یعلم أصلان عظیمان أحدهما أن القرآن له بهذا اللفظ والنظم العربی اختصاص لا یمکن أن یماثله فی ذلك شئ أصلا ، أعنی خاصة فی اللفظ وخاصة فیما دل علیه من المعنی و بهذا لو فسر القرآن أو ترجم فالتفسیر و الترجمة قد یأتی بأصل المعنی أو بما یقرب منه ، و أما الاتیان بلفظ یبین المعنی کبیان لفظ القرآن فهذا غیر ممکن أصلا (توجیه النظر إلی أصول الأثر ، للعلامة طاهر الجزائری ص ٦ المکتبة العلمیة المدینة المنورة)

(٣) نزهة الخواطر للعلامة عبد الحی الحسنی ج ٨ ص ٣٦ .



مجلة « المجمع العلمى الهندى »

سعيد الأعظمى

لا غرابة فيما إذا تم فى الآونة الأخيرة إنشاء « المجمع العلمى الهندى » فى أكبر جامعة إسلامية عصرية فى الهند، وهى جامعة عليكراه الاسلامية، مستهدفاً بذلك بذل عناية فائقة بتعميم اللغة العربية و نشر آدابها و إحياء تراثها و نقل الآثار العلمية والأدبية من لغات أعجمية إلى اللغة العربية الخالصة، و تنشيط حركة التحقيق و التأليف والنشر باللغة العربية على أحدث الطرق العلمية ، فذاك عمل تجدر به هذه الجامعة الاسلامية الكبرى ، التى ركزت على هذا الهدف الغالى منذ وجودها ، وكان للقسم العربى فى هذه الجامعة أهمية كبيرة حيث إنه نجح فى كل عهد من تاريخه الزاهر ، بكسب أساتذة بارعين فى هذه اللغة الكريمة، ومقتدرين على ناصيتها العلمية و الأدبية و اللغوية و الاستفادة منهم ، و حسبنا كمثال العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، رئيساً لهذا القسم العربى، فى عهده المسبق، والدكتور مختار الدين أحمد فى العهد الحاضر الذى ازدهر فيه القسم العربى حتى اتسع نطاقه لتأسيس مجمع علمى يعنى بالعمل الاكاديمى فى مجالات علمية و أدبية و تحقيقية و يشجع على الدراسات العلمية الموضوعية باللغة العربية .

و لقد أصدر مؤسس هذا المجمع العلمى الهندى الدكتور مختار الدين أحمد مجلته العلمية الأدبية كخطوة أولى لتحقيق الأهداف التى تبناها المجمع، و صدر الجزء الأول من مجلة المجمع العلمى الهندى مع قيام المجمع توأ ، فى شهر جمادى الأخرى

١٣٩٦هـ - المصادف يونيو ١٩٧٦م ، والمجلة لسان حال المجمع العلمى الهندى ، تصدر مرتين فى السنة وتحمل مواد علمية غزيرة وموضوعات ذات أهمية فى العلم و الأدب والتاريخ و الحضارة والاجتماع ، مع تعريف بالتراث العربى و آثار العلماء والأدباء الذين خلفوا فى المكتبة العلمية و الأدبية من كتب و مؤلفات خطية أو مطبوعة تعتبر ثروة علمية كبيرة ، ذلك أن الجزء الأول من المجلة الذى صدر فى عام ١٩٧٦م احتوى على مواد و أبحاث علمية و أدبية قيمة بأقلام كبار الأدباء و الأساتذة و ذلك مثلا :

[١] أبو عمر الزاهد ـ بقلم الأستاذ الكبير عبد العزيز الميمنى [٢] حياة على محمد طه ـ بقلم الأستاذ الدكتور السيد أحمد [٣] هند و مهند - بقلم الأستاذ الدكتور عبد العليم [٤] مخطوطة مهمة « إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام » بقلم الدكتور الحافظ غلام مصطفى [٥] القاضى أبو الفرج المعافى بن زكريا وكتابه « الجليس و الأنيس » بقلم الدكتور رياض الرحمن الشيروانى [٦] معن بن أوس المزنى ـ بقلم الدكتور محمد راشد الندوى [٧] الطابع المحلى فى القصة المصرية الحديثة ـ بقلم الدكتور محمد مهدى الأنصارى [٨] قرابة أم مسطح من أبى بكر الصديق - بقلم السيد أبو محفوظ الكريم معصومى ، وكذلك فى باب النقد والتعريف « نسخة كتاب نهج البلاغة » بقلم الأستاذ خليق أحمد النظامى ـ و « نسخة تاريخية لمجمل اللغة لابن فارس » بقلم الدكتور نفسه ، وفى باب الوفيات ، ★ الدكتور « سمويل اسنرن » بقلم الأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد ★ الدكتور طه حسين - بقلم الدكتور مقتدى حسن الأزهرى .

وهكذا كل جزء من الأجزاء الخمسة التى صدرت إلى الآن تحمل نفس الأسلوب و الأساس الموضوعى فى الأبحاث و الموضوعات و المواد القيمة التى تعتبر زيادة غالية و تحقيقات علمية وأدبية فى مجال الدراسات العربية الهادفة ، وهى تقوم بإبراز

النواحی العلمية و الأدبية و الثقافية من التراث العربی الاسلامی التی طالما ظلت مغمورة فی صفحات التاريخ و العلم و لم يطلع عليها كثير من الباحثين و الدارسين و خاصة عما يتعلق بالآثار العلمية و المجهودات الأدبية و الثقافية التی قام من خلالها علماء الهند وأبناؤها الكبار بتكوين مكتبة عربية غزيرة المواد فی كل فن من العلوم و الآداب، وهی التی تولت تعريف بلاد الهند إلى العالم العربی بصفة خاصة كمركز علمی دينی وثقافی و أدبی ، يتجمل باسهام وجيه فی نشر الثقافة العربية والبحث عن كنوز اللغة العربية دراسة و تحليلا .

وقد أشار إلى هذا الجانب المهم سماحة العلامة مولانا الشيخ أبی الحسن علی الحسنی الندوی فی رسالته التی بعث بها إلى مجلة المجمع العلمی الهندی بمناسبة صدور الجزء الأول لها ، يقول : وهو يشيد بالمجهودات العلمية والأدبية والتاريخية واللغوية الكبيرة الشأن ، التی قام بها علماء و أدباء بلاد الهند فی مجال اللغة العربية و آدابها و علومها قديماً و حديثاً :

« كل ذلك يضفی على الهند شخصية مستقلة فی تاريخ العلوم الاسلامية والآداب العربية .. .. و يراودها أن تفكر فی إنشاء مجمع علمی عربی يعزز المجامع اللغوية العلمية العربية الموجودة فی العواصم العربية الثلاث دمشق ، والقاهرة ، وبغداد ، و أن يصدر هذا المجمع مجلة أدبية تكون لسان حاله ، تعنى بنشر مقالات فضلاء الهند و راود البحث فی شبه القارة الهندية بصورة خاصة ، و جامعة عليكراه الاسلامية من أحق المراكز العلمية الثقافية ، وأجدرها بانشاء هذا المجمع لتوفر الوسائل عندها ، ولوجود مكتبة من أغنى مكتبات الهند ، ولوجود قسم اللغة العربية وآدابها ، وقسم الدراسات الاسلامية ، وقسم ثقافة آسيا الغربية ، و لعناية الأساتذة المشتغلين فی هذه الأقسام بالبحث و التحقيق ، و لأن عدداً من الأساتذة المحققين فی اللغة العربية وآدابها ، فی العهد الأخير ، كانت لهم صلة وثيقة بهذه الجامعة كالعلامة عبد العزيز الميمنی ، و الأستاذ بدر الدين العلوی ، والأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد الذی لا يزال رئيساً لقسم اللغة العربية و آدابها »

كما يقول الأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد أستاذ و رئيس قسم اللغة العربية وعميد كلية الآداب بجامعة عليكراه الاسلامية ، ورئيس تحرير هذه المجلة فى افتتاحية الجزء الأول منها ، و هو يتحدث عن أهمية هذا المشروع العلمى الجليل :

« و فى عصر هذا التقدم العلمى و توطد علاقات الهند بالعالم العربى فى مجال السياسة و الثقافة كنا نشعر بضرورة إبراز التراث العربى بالهند و التعريف بآثار الذين عنوا بخدمة اللغة العربية وآدابها وبخدمة العلوم الاسلامية فى القديم والحديث و كذلك بضرورة ترجمة الأبحاث والمقالات التى تتناول الثقافة العربية والاسلامية حتى تسنح لقراء العالم العربى فرصة الاطلاع على إنتاج الفكر الهندى وعلى الاتجاهات العلمية المعاصرة ، و كان هذا هو الدافع الأساسى لما اعتزمناه من إنشاء إقامة المجمع العلمى الهندى بالجامعة الاسلامية حتى نتمكن من تنشيط الدراسات العربية بالهند و من المساهمة فى الحركة العلمية التى نشطت بعد حصول الهند على الاستقلال و اتصالها بالعالم العربى »

أظن أن ما أملاه قلمى المتواضع فى هذه السطور من تعريف بهذا المجمع العلمى ومجلته القيمة ومن عرض موجز لمنجزاته و إشادة بالبرامج والأهداف التى يتوخاها من خلال نشاطه العلمى والأدبى يفى بالغرض ، وينوب عن وضع النقاط على الحروف ، كما يمنح صورة مصغرة لقرائنا الكرام حول هذا العمل الاكاديمى ، و المجهود الثقافى الذى يختص بمجال اللغة العربية وآدابها وعلومها وتاريخها وثقافتها ، فى جامعة عريقة فى العلوم و الدراسات من كل نوع تعتبر تراث المسلمين فى الهند .

واعتقد أن هذا العمل كان ينبغى أن يتم قبل اليوم بمدة سابقة ، ولكن تأخر موعده كثيراً ، و لم توفق إليه هذه الجامعة الاسلامية إلا فى عهد متأخر جداً ، و لعل فى هذا التأخير حكمة لا يعلمها الانسان ، و لله فى شئونه كلها حكمة بالغة ، و لله الأمر من قبل و من بعد .



الانحياز و عدم الانحياز

واضح رشيد الندوى

عند ما انعقد مؤتمر القمة الأول لدول عدم الانحياز فى عام ١٩٦١ فى بلغراد، اعتبر تأسيس هذه المنظمة خطوة تاريخية لأنها هيأت للدول المستضعفة منبراً، فقد كانت الدول الكبرى تسيطر على الأمم المتحدة، و كان مجلس الأمن، مجلساً خاصاً للدول الكبرى تحكم فيه حسب مصالحها السياسية و الاقتصادية، فلم يكن للضعفاء، و المضطهدين منبر ليرفعوا منه أصواتهم ضد قوى الطغيان و البغى، و الاحتلال، و وزعت الدول الكبرى العالم كله بينها، و انقسم العالم إلى معسكرين متحاربين، تجرى بينهما حرب باردة إذا لم تجر حرب ساخنة، و بازدياد عدد الدول المتحررة عن السيطرة العسكرية للدول الأوربية، الاستعمارية، دعت الحاجة إلى تشكيل كتلة متوسطة غير مرتبطة بأحد المعسكرين، تبنى قوتها على أساس التكافل بينها، و توسع نطاق حريتها، و اعتمادها على الذات، و الاستقلال بمواردها و كفاءاتها، فانها تزخر بالطاقة البشرية و المواهب الطبيعية.

كانت الفكرة فى ذاتها طيبة، فان المرحلة الأولى للاستقلال تكون عدم الانحياز، أو الانفصال عن فرد أو جماعة لا تربط معها مصلحة أولا يوجد معها انسجام فكرى، و وحدة هدف، ثم بازدياد القوة و النفوذ، و اشتداد الساعد يتطور هذا الانفصال إلى موقف قوة و صمود، و مقاومة للفريق المعارض.

كان العالم ينقسم إلى معسكرين، إشتراكى، و رأسمالى، و كان تشكيل هذه الجبهة الثالثة لأجل دعم قضايا الدول الصغيرة والمستضعفة و إنقاذها من مخالب

دول الكبرى ، سواء كانت اشتراكية أم رأسمالية ، و لذلك كان من حتميات ظروف و من اقتضاء طبيعة هذه الجبهة أن تنفصل عن كلا المعسكرين ، سياسياً فكرياً ، و اقتصادياً ، لبناء قوة ثالثة تتوسط بين المعسكرين ، وتقف صفاً احداً فى وجه الظالم و المستبد مهما كان مصدره ، و نظريته ، و توجه سائر اقاتها لاغاثة المكوبين .

إن عدم الانحياز الحقيق يحتم عدم الموالاة لفريق واحد بصورة دائمة و لا يعنى ي عدم الانحياز الأعمى ، فتكون هذه الجبهة بمثابة متفرج يشاهد لعبة فى ملعب استاد ، يصرع فيها فريق فريقاً آخر ، فان هذه الجبهة مكونة من دول ذات ارد ، و مواهب و طاقات ، و مكونة من حكومات تمثل شعوباً لها مشاعر ، مبادىء ، و نظريات خاصة ، فلا يمكن أن تكون جامدة ، ولا فاقدة الوزن حركها الرياح ، أو تجرفها السيول .

و لكن مع الأسف الشديد ، لم تحقق هذه الحركة التى كانت تعتبر فى بدايتها اة قوة ثالثة ، هدفها ، لأن مؤسسيها لم يكونوا غير منحازين أنفسهم ، ولعل الهدف حيد فى خاطرهم كان دعم المعسكر الاشتراكى الذى كان هزيلا ، و منعزلا ، ستفاد المعسكر الاشتراكى من هذه الحركة بهذا الاعتبار بقدر كبير .

كان فى مقدمة بناة هذه الكتلة نهرو ، ناصر ، و تيتو ، وسوكارنو ، شوان لاى ، و جميعهم أصحاب ميول اشتراكية و من ثم كان انعقاد مؤتمرات قمة لهذه الكتلة كذلك فى عواصم دول موالية للاتحاد السوفيتى .

و قد ظهر ذلك الاتجاه جلياً بمسودة مشروع قرار كانت موضوع المناقشات لحادة خلال انعقاد مؤتمر القمة السابع فى دلهى الجديدة فى مارس ١٩٨٣م للاعلان ن الاتحاد السوفيتى ، حليف لهذه الحركة ، فى كفاحها ضد الاستعمار ، ولا يستبعد ك فان هذه الجبهة تخضع عملياً لقادة لا يستطيعون أن يخفوا ولاءهم للاتحاد السوفيتى هم مرتبطون به عن طريق اتفاقيات التعاون الاقتصادى والعسكرى ، و تقوم فى

بلادهم نظم اشتراكية أو شيوعية تعتبر الاتحاد السوفيتى رائد السلام العالمى ، وتعتبر وجود الخبراء العسكريين للاتحاد السوفيتى فى بلادها رسل سلام وأمن ، و أحجمت هذه الدول عن انتقاد الاتحاد السوفيتى أثناء غزوه فى أوربا الشرقية ، وجنوب شرقى آسيا ، وأفغانستان حيث يوجد أكثر من مائة ألف جندى محارب للاتحاد السوفيتى ، كما توجد فى هذه الجبهة دول موالية كلياً للولايات المتحدة الأمريكية ، و مرتبطة باتفاقيات الأمن ، و السلامة الاقليمية .

فما هو عدم الانحياز و ما هو هدف هذه المؤتمرات ، و النفقات الباهضة ؟

كانت من شعارات هذه الحركة ، الحرية ، والأمن ، ورفع قادتها هتاف التعايش السلمى ، فى اجتماعهم الأول فى باندونج فى عام ١٩٥٥م و صرح جواهرلال نهرو فى مؤتمر القمة الأول المنعقد فى بلغراد ، فى ١٩٦١م « إن الحرية أمر مهم للغاية بدون شك ويجب أن نكافح الاستعمار ، و لكن الأمن أكثر أهمية لأن الحرية لا تبقى بدون الأمن و لا يتوج نضالنا ضد الاستعمار بالنجاح ، إلا إذا تحقق اقرار الأمن والسلام » و كان نهرو يخشى الخطر النووى ، الذى تملك الدول الكبرى كمية كبيرة من الذخائر المبيدة منه و كان فى ذاكرته ما حدث فى هيروشيما و ناجاساكى ، و ما يجرى من سباق بين الدول الكبرى للتسلح ، فعارض زعماء هذه الحركة الأحلاف العسكرية ، و دعوا إلى نزع السلاح ، و تسوية المسائل بالمفاوضات السلمية .

إن أقصى ما يستطيع أى بلد من دول الانحياز أن يفعله فى حالة حدوث أى صراع فى أى جزء من العالم ، هو التأكيد على ضرورة إقرار الأمن ، وتسوية النزاع سلمياً ، و صيانة كرامة الانسان و حقن دمه و تحقيق حقوقه الأساسية ، و منحه حرية الرأى ، فى العقيدة و التعبير ، و تقرير المصير ، و أن يرفع صوته فى العطف على المستضعفين ، و المنكوبين و تتضمن ذلك فعلا بيانات يصدرها زعماء عدم الانحياز بعد اللقاءات والمؤتمرات ، وإن كانت هذه البيانات لا تخلو من التعريض وأحيانا من التحيز ، و لكن إذا حدث صراع بين مختلف الطوائف و المجموعات

فی داخل بلد من هــذه البلاد و شکت طبقة سوء المعاملة ، و الشعور بالحرمان أو النکران للحقوق ، و التعرض لمضایقــات و تهدید لبعض الممیزات الشرعیة أو الأساسیة فان واجب حکومة ذلك البلد الذی یتزعم هذه الحرکة أن یتخذ خطوات إیجابیة مرکزة لازالة ذلك الشعور بعدم السلامة ، ولا تقصر فی ضمان تلك الحقوق التی تدعو غیرها إلی منحها ، و تکون أسوة فی حل المسائل و الصراعات بوسائل سلمیة و بوسائل إقناع ، وتضمن أقصی الحریة والأمن و السلامة فی داخل البلاد ، لکن الأمر الذی یبعث علی الاستغراب أن سجل دول عدم الانحیـاز ، و الدول الموقعة علی میثاق التعایش السلمی ، بصفة خاصة لیس بمشجع فی هذا المجال و إنما یبدو ملوثاً بمخالفات سافرة لهذه المبـادیء التی تدعو إلیها غیرها من الدول ، فقد حدثت حرب ضاریة بین الصین و الهند فی عام ١٩٦٢م ، و احتلت الصین منطقة شاسعة تعتبرها الهند تابعة لها ، و حدث ذلك فی العهد الذی کانت حرکة عــدم الانحیاز و فلسفــة التعایش السلمی قد سحرت القلوب ، فی عهد تشو إین لای و جواهرلال نهرو ، وقامت مصر بحملات قمع الحریات و التعذیب و الاعدامات والتدخل السافر فی الدول المجاورة فی عهد أحد مؤسسی هذه الحرکة جمال عبد الناصر ، و تمیز عهده و عهد أمثاله کنیتو وکاسترو بالتهدید للجیران ، والتدخل فی شئونهم ، و شن حرب و عملیات تصفیة ، تعرض لها آلاف من الناس فی الثورات الحمراء و الخضراء ، و الصفراء و ازداد هذا الاتجاه أخیراً فانتشرت القوات الکوبیــة و الیمنیة الجنوبیة و اللیبیة و قوات بلدان حیادیة أخری فی الدول الأخری للتدخل المباشر ، وإذا استعرضنا سجل بعض زعماء عدم الانحیاز وجدنا أمثلة لانحیاز تام إلی معسکر من المعسکر، وانتهاج سیاسات تتعارض فی کثیر من الأحیان مع رغبات شعوب تلك البلدان ، ولا یتردد بعضهم عن عملیات قصف عشوائیة و تدمیر مدن ، وقری بکاملها علی اختلاف سیاسی أو عقائدی لقمع المعارضة ولا یبالون بسقوط آلاف من القتلی ، و تشرید مآت ألوف من أفراد الشعب ، ولا تخون ذاکرة کثیر من

القراء فى استعادة حوادث مروعة حدثت أخيراً فى عدد من البلدان الداعيــة إلى الأمن و الحرية و التعايش السلمى فى آسيا و إفريقيا .

كان انعقاد هذا المؤتمر فى ظروف قلقة للغاية تعيش فيها شعوب البلدان التى تتزعم الحرية و الأمن ، و تتظاهر بمكافحة الاستعمار ، فى أوضاع أضر من أوضاع الحروب ، و أوضاع عهد الاستعمار الأجنبى ، فقد خلعت هذه الدول عن رقبتها نير العبودية الأجنبية اصطلاحياً ، ولم تتحرر فعلياً ، فان معظم هذه الدول مرتبطة ثقافياً و فكرياً و ايديولوجياً ، واقتصادياً ، و عسكرياً بالدول الكبرى ، وفرضت عليها نظم تنظر إلى الدول الكبرى أكثر مما تنظر إلى شعوبها ، و تحقق رغبات أحد المعسكرين ، أكثر مما تحقق رغبات وطموح شعوبها .

كانت الهنـد بتبنى رئيس وزرائها الأول جواهر لال نهرو لقضيــة السلام و النضال لحقوق الانسان ، و ريادته لحركة عدم الانحياز ، و قيادته لحركة تحرير البلدان المستعمرة فى آسيا وأفريقيا ، أحق بلد لتجسيد فكرة عدم الانحياز ، وتطبيق شعار الحرية والأمن ولكنها هى الأخرى فريسة لطبيعة العنف ، وقد انعقد المؤتمر فى أحرج فترات التاريخ للهند الحديثة حيث تسيل الدماء فى آسام وأماكن أخرى .

وقد ظهرت تبعيــة هذه الكتلة مهما ادعى هؤلاء الزعماء بالحياد خلال الغزو السوفيتى لأفغانستان و الاحتلال السافر ، و القصف الهمجى للمناطق الآهلة بالسكان من قبل القوات السوفيتية ، فلم يتقدم زعماء حركة عدم الانحياز لإدانة الاتحـاد السوفيتى ، وبلغت هذه التبعية ذروتها عند ما سمح بالاشتراك فى المؤتمر للنظام القائم فى أفغانستان و هو نظام عميل ، لا يستند إلى الجيش الأفغانى ، و لا إلى الشعب الأفغانى ، وإنما يستند إلى الجيش السوفيتى ، ولولم تكن المعارضة الشديدة لاشتراك كمبوجيا من قبل عدد من الدول التى كان لها وزن خاص فى المؤتمر ، لكانت هذه الدولة الخاضعة للاستعمار السوفيتى ، وجدت مقعدها فى مؤتمر عـدم الانحياز ، و كذلك دول أخرى لا تتجاوز عن كونها أقماراً صناعية تدور فى الفلك السوفيتى

تشترك فى المؤتمر ، و فى مقدمتها كيوبا ، و سوريا ، و جنوب اليمن ، و دول فى جنوب شرق آسيا ، و هى لا تستطيع أن تفكر ساعة فى الانفصال عن الاتحاد السوفيتى ، فما يعنى عدم انحيازها . . . ؟؟

إن الحياد الايجابى ، و التعايش السلمى و الحرية و الأمن تعبيرات لامعة ، تسحر القلوب ، وتجذب النفوس ، و لكنها فى المصطلح الحديث مثل الأضداد فى اللغة ، فلا تستعمل هذه التعبيرات إلا لتنميق البيانات المشتركة التى تصدر عند لقاءات الزعماء والاعلانات و المواثيق الدولية و لاتجد طريقاً إلى التجسيد و التنفيذ .

إن آفة هذا العصر أنه يفتقر إلى زعماء يقولون الحق و لا يخافون فيه لومة لائم ، و لا يراعون فيه مصلحة قومية و لا سياسية فينحازون إلى المظلوم بقوة و صراحة ، و يخاطرون فى سبيل إنقاذ المظلوم و إسعافه ، أما زعماء العصر فانهم يضحون ببلادهم وعقائدهم وشعوبهم لأطماعهم فيبنون كيانهم على الاشلاء والانقاض .

ازداد عدد أعضاء هذه المنظمة من ٢٥ إلى مائة عضو لكنها موزعة أكثر مما كانت لدى تأسيسها ، لأن قيادة العالم الثالث انتقلت إلى أيدى زعماء لا يعرفون معنى كرامة الانسان و كل اجتماع لزعماء لا يحملون الضمير الانسانى والشعور الانسانى ، و الاحساس الدقيق بالمسئولية و العاطفة النبيلة لخدمة الانسان لا يستطيع أن يؤدى إلى نتائج إيجابيـــة أو يغير مجرى التاريخ ، و لا يتحقق حلم العالم الثالث ، الذى يتوسط بين المعسكرين المتحاربين ، و لا يجـدى تكوينه و إن بلغ عدد الأعضـاء أكثر من اعضاء الأمم المتحدة بل يزيد الفرقة و الصراع و القلق .

فالمسألة ليست مسألة كتلة لمكافحة كتلة أو مسألة عدد ، وإنما هى مسألة الضمائر والنفوس الطيبة ، فانها و إن كانت قليلة ، تنمو و تزداد ، و إن كانت مستضعفـــة تتقوى وتزدهر ، ولكن من مات ضميره لا يستطيع أن يحيى ضمير غيره ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، « و من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

الشيخ عبد الحميد النعمانى ، فى ذمة الله

فى الشهر المنصرم تلقت ندوة العلماء نبأ وفاة فضيلة الشيخ عبد الحميد النعمانى مؤسس معهد الملة فى مدينة ماليغاؤن بمديرية ناسك ، فى ولاية مهاراشتر ، عقب انحراف ألم بصحته ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

كان المرحوم من العلماء الغيارى على الدين ، وكان شديد الاهتمام بشئون التعليم و التربية بين المسلمين ، فأسس لهذا الغرض معهد الملة فى الخمسينات ، و أنشأله فروعا كثيرة فى ولاية مهاراشتر .

كان الفقيد ذا نشاط كبير فى هذا المجال ، و كان ذا ثقافة واسعة و اطلاع على الأوضاع ، رأس تحرير مجلة « ثقافة الهند » التى تصدرها وزارة الاعلام الهندية ، فى أول عهدها ، و ظل عضو المجلس التنفيذى لندوة العلماء إلى آخر حياته ، جزاه الله خيراً على ما قام به من أعمال خيرية و نشاط دعوى : و رحمه الله رحمة واسعة ، و أسكنه فسيح جناته .

إعلان الملكيـــة

١ـ مركز النشر : دار العلوم ندوة العلماء بادشاه باغ لكهنؤ .

٢ـ شهرية .

٣ـ الطابع : جميل أحمد ـ هندى ـ ٤٩/ ٢٦٥ ساكن وكتوريه كنج لكهنؤ .

٤ـ الناشر : جميل أحمد ـ هندى ـ ٤٩/ ٢٦٥ ساكن وكتوريه كنج لكهنؤ .

٥ـ رئيس التحرير : سعيد الأعظمى الندوى و واضح رشيد الندوى هنديا الجنسية .

٦ـ ملك : ندوة العلماء لكهنؤ .

أنا الموقع أدناه جميل أحمد أصدق أن التفاصيل المذكورة أعلاه صحيحة على حد علمى .

الناشر : جميل أحمد

أول مارس سنة ١٩٨٣ م

Phones . 49747 - 42948 Regd. No. Lw/NP 59
ALBAAS - EL - ISLAMI
Nadwat ul - Ulama LUCKNOW (INDIA)

صدر حديثاً :

الامام السرهنـــــــــدى ، حياته وأعماله

هذا الكتاب يحكى قصة الامبراطورية لمغولية العظيمة فى الهند فى القرن الحادى عشر حينما بدأت وجهتها تتحول من الارتباط بالدين الاسلامى ، و التمسك بأهداب النبوة المحمدية (على صاحبها ألف ألف تحية وسلام) وتمثيل الحضارة الاسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندوسية ، ونظرية « وحدة الديانات » بتأثير الأغراض الشخصية و الميول الفردية و التأثيرات الخارجية ، و المصالح السياسية المزعومة .

كيف قام الامام أحمد بن عبد الاحد السرهندى فى وجه هذا التيار الجارف ، وتغلب على الوضع الشاذ ، وتهيأ لعملية « صناعة الرجال » وصنع العبقريات فى زاوية بعيدة عن صخب الحياة .

لكى تطلع على هذه القصة بتفصيل ، و ترى كيف أن العزم و الايمان والاخلاص والربانية يغير وجهة أمة بأسرها و وجه إمبراطورية بكاملها ، اقرأ هذا الكتاب القيم ، الذى هو سلسلة من رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام .

بقـــــــلم

سماحة الشيخ العلامة السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

النـــــــاشر

دار القلم ، ص . ب ٢٠١٤٦ - الكويت

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)
رئيس التحرير : سعيـــد الأعظمى